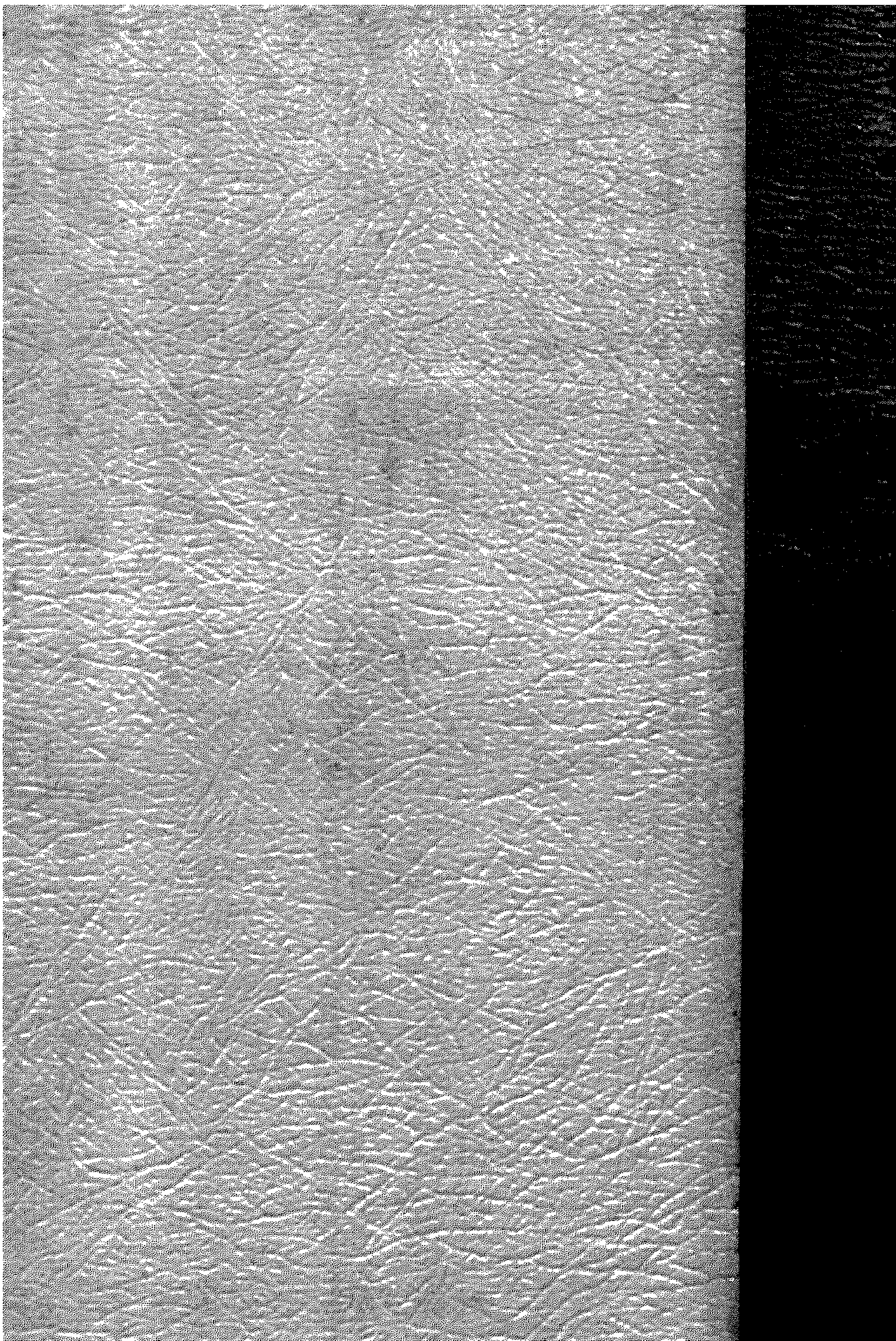


١٢٢

ابن سينا

القرن العشرين

تأليف : نسيم مجلي

أعلام العرب

(١٣٣)

ابن سينا

القرن العشرين

تأليف : نسيم مجلي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

الاخراج الفني : جرجس ممتاز

كلمـــة لابد منهـــا

ابن سينا القرن العشرين

« ابن سـينا القرن العشرين » هو عنوان مقـال ممتاز للدكتورة نعمـات أحمد فؤاد بصحيفة الأهرام بتاريخ ٢ سبتمبر سـنة ١٩٧٧ عن محمد كامل حسين .

وقد اخترته عنوانا لهذه الدراسة ، لأنه أكثر الاسـماء دلالة على فكر صاحبه ولأن محمد كامل حسين هو الذى اختار « ابن سينا » ليكون اسما مستعارا يوقع به مقالاته الأولى فى الثلاثينات . وكذلك لوجود كثير من الشبه بين كامل حسين وبين الفيلسوف المسـلم الكبير الذى عاش فى القرن الحـادى عشر الميلادى (١٩٨٠ ــ ١٠٣٧) .

كان ابن سينا فيلسوفا وعالمـا وطبيبا ، لعب دورا كبيرا فى نشر تراث الفلسفة والعلوم الاغريقية بين العرب ومن خلالهم فى أوربا وقد ترك أثرا كبيرا بين الأوربيين فنشروا أكثر مؤلفاتـه باللغة العربية ، وترجموا أكثرها الى لغاتهم .

وقد جاهد ابن سـينا فى سبيل تعزيز التفكير العقـلانى وتطوير العلوم التطبيقية والرياضية وحارب الخرافات فى ميدان الفكر والعقيدة .

وقد جمع ابن سينا فى فلسفته بين تيارى المــادية والمثالية الأرسطية . فقد أقر بخلود المــادة باعتبارها أصل التنوع الكبير بين الأشياء الفردية ، كما أثبت بالبرهــان العقلى أن للكون الها كاملا هو علة كل ما عداه من موجودات علوية وسفلية .

وهو ما أثبته كامل حسين على أساس نظرية التطور ولعل فى هذا كله تكمن دلالة العنوان .

نســيم مجـلى

تقـــديم

بقـلم الدكتور حســين فوزى

هذا كتاب يكشف لى عن سر من أسرار البلاغة فى معنى الاستشعار بعبقرية شخص ما من أول أمره ، أو بعد قليل من لقائه ، وقيام صـداقة بينه وبين كاتب هـذه السطور كتـاب الأستاذ نسيم مجلى تحليل بليغ نير لعبقرية محمد كامل حسين ؛ يتناول أهم مؤلفاته بالفحص والشرح والابانة عما فيها من فكر عميـق ، مصـبوغ فى أسـلوب هو الجزالة بعينهـا . فلا هو استعراض لغوى ، ولا تأنق نحوى . وانما ذلكم البناء الشامخ يقوم على منطق علمى .

استعدت فى هذا الكتاب مر الأعوام الستين التى انقضت على أول لقائى بكامل حسين . وما صـدر له فيها من مقالات وكتب حتى حملت نعشه فى ٧ مارس ١٩٧٧ .

وموضوع عجبى اليوم أن اللقـاء البكر الأول البكالوريا سنة ١٩١٧ كان منطلق صـداقة ستين عاما . وان ما يستعرضه نسيم مجلى فى كتابه الصـادق الأمين ؛ عرفتـه فى وقته وكان تحقيقا لمـا توسمته فى محمد كامل حسين وحتى قبل أن ينشر أى كتـاب فقد كان حديثه وكانت رسائله فى خـلال العطـلة

الدراسية ، وكان سلوكه فى ثورة ١٩١٩ ، وما بعدها حيال أى حدث اجتماعى أو سياسى أو علمى ، كل ذلك أنـار لى مستقبل هذا الصديق الأعظم ، وكأنى أرى المستقبل رؤى العين •

ومع هذا ، أشهد يوم وجدت كتاب « قرية ظالمـة » ينتظر عودتى من الخـارج ، عند المرحـومة والدتى ، وانصرفت الى مطالعته دون توقف ، انه بهرنى وهز كيانى • وأمر هـذا عجيب، فكل ما خبرته فى كامل حسين وقرأت له كان مثار اعجـابى ، على أساس أن نجـاح المفكر والكاتب والخطيب هو واحـد من مسلماتى • فكامل حسين عندى يمثل الكمال انسانا فى ايمانه العميق ، وسلوكه السامى ، ومثله العليا ، ولم يكن هـذا كلاما ولا تخرصا بل كانت مصابيح هـدى لكل من عرف صـديقى وعرك حياتـه •

لقد فاق انبهارى بكتاب قرية ظالمـة كل ما سبق ولحق بهذا الكتاب • وتفسيرى له يقوم على أكثر من قاعدة وسبب • وجماعها فى أن يبلغ ما بلغ فى تصويره ، وفى لغته ، وفى بيانه وبنائه وأسـلوبه • وفى فلسفته الفردية والاجتماعيـة ، وفى اتصـاله بأسمى قضايا البشرية عندما يتعلق الأمر بحيـاة أنبياء الهـدى ورسل الحب والسلام وفى أن يكون صورة تنبض حياة لصديقى محمد كامل حسين وخلاصة مصفاه لكل ما شهدته فيه وتوقعته من عبقريته •

واذ أقدم للقراء كتاب الأخ نسيم مجلى فلأنى واثق من أن القارىء واجد فيه تحليلا صادقا أمينا لشخصية محمد كامل حسين كاتبا ومفكرا ، تبرز للقارىء بمجرد الاطلاع على رؤس موضوعاته .

وحدة التطور التاريخى ــ منهج جديد لوحدة المعرفة ــ الوادى المقدس... وحديث الى النفس وتختم هذه الفصول بأزمة الضمير الانسانى ، حيال ما وقع من أحداث ، وجرى من أحاديث فى يوم جمعة حزينة بآورشليم ، القرية الظالمة .

فليطمئن القارىء وهو يتابع هذه الفصول انه يقرأ لكاتب نقاده ، شفاف النفس ، متفتح الفكر ، يجيد الغوص على ما فى بحر العلم والفكر والفن من درر .

لقد كسبت بمطالعة هذا الكتاب صديقا يحيى ذكرى صديقى الأعز بأسلوب جدير بمادته وموضوعه .

وليصدق القارىء وعدى له لأنه سوف يكسب مثلى صديقا هو نسيم مجلى ، الذى عرض بأبرع الوسائل وأبلغها فكر محمد كامل حسين والاشعاع الذى ينبعث من أدبه وفنه .

القاهرة فى ٢٦ يولية ١٩٧٨ .

د. حسين فوزى

مقدمـــة

حياتـه واعمـاله :

يعد الدكتور محمد كامل حسين نموذجا فريدا فى حياتنـا الثقافية المعـاصرة اذ جمع بين النبوغ العلمى والنبوغ الأدبى وحاز التقدير فى الميدانين فحصـل على جائزة الدولة التقديرية مرتين ، مرة فى العلوم ومرة فى الآداب • وبرحيله فى السابع من مارس ١٩٧٧ تفقد الحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى عالمـا وأديبا كبيرا تخطت شهرته حدود مصر والعالم العربى ، اذ ترجمت قصـته « قرية ظالمـة » الى الانجليزية والفرنسية وغيرهـا من اللغات الأوربية وأثارت اهتماما كبيرا بين بعض رجـال الفكر الغربى المسيحى حتى أن بعضهم يعتبرها محـاولة لاكتشـاف أرض مشتركة للحوار بين المسيحيين والمسلمين •

وكامل حسين يذكرنا بمفكرى عصر التنوير فى أوربا الذين يجمعون بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية ، فهو أستاذ فى علم جراحة العظام وصل فى تخصصه الى أعلى الدرجات ومعلم تدرج فى مجال التدريس بالجامعة حتى وصل الى منصب رئيس قسم جراحة العظام ومدير لجامعة عين شمس ١٩٥٠ •

ولم تمنعه دراسـة الطب أو ممارسة مهنته كطبيب وأستاذ

جامعى من مواصلة الدراسة والبحث فى الأدب والتاريخ والفلسفة والدين ، وظل يساهم فى هــذه المجالات بكتبه وأبحاثه حتى انتخب عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٢ .

ومن أعمــاله :

١ ــ قريــة ظالمــة التى فــازت بجـــائزة الدولــة سنة ١٩٥٧ .

٢ ــ التفسير البيولوجى للتاريخ .

٣ ــ وحــدة المعرفــة .

٤ ــ الشعر العربى والذوق المعاصر .

٥ ــ الوادى المقدس .

٦ ــ الذكر الحكيم .

بالاضافة الى عدد من الأبحاث الأدبية والعلمية التى ساهم بها فى دورات المجمع اللغوى مثل الفصول الآتية وهى منشورة فى كتاب متنوعات جزء أول وثانى :

* أدب النقائض وحقيقة أمر الفرزدق .
* القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية .
* اللغــة والعــلوم .

* معنى الظلم فى القرآن ٠
* تاريخ الكيمياء القديمة ٠
* الحرمان : أثره فى الأفراد والجماعات ٠
* القــرآن ٠
* التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء ٠
* الترجمة العربيةلبردية أودين سميث ٠
* قصــة آدم ٠
* محنتــان متشابهتان ٠
* أصــول علوم اللغــة ٠
* أسلوب أبى العلاء المعرى ودلالته ٠

بالاضافة الى بعض اقتراحاته الهامة بتيسير اللغــة العربية وحل مشــاكلها ٠

وهو كطبيب وأستاذ جامعى نجده مهتما فى كل ما يكتب ، بالعلاج ووضع الحلول ٠ ويبدو أن انشغاله كطبيب بعلاج كسور الجســم وجروحــه قد كشفت له عن بعض المناطق المظلمــة فى النفس البشرية ، ورأى فى لحظات الآلام الرهيب مواطن الداء الحقيقية ، فاهتم بأزمة الانسان ككل وراح يبحث لها عن العلاج

فى مجالات المعرفة المختلفة ، فدرس الفلسفة والتاريخ وحاول الوصول الى نظرية لتفسير التاريخ الانسانى . واهتم بدراسة الأديان السماوية الثلاثة وبالأخلاق اليهودية والمسيحية . كذلك اهتم بالتفسيرات العلمية والأخلاقية للقرآن ، ومن أهم بحوثه فى هذا الشأن « معنى الظلم فى القرآن » . ولفظ الظلم ومشتقاته يتردد فى القرآن أكثر من مائتين مرة . ولعله وجد فى معنى الظلم وأثاره الاجتماعية مصدر الداء بالنسبة للأفراد والجماعات .. وهذا ما يبدو واضحا فى قصة « قرية ظالمة » وفى قصتيه القصيرتين « الاسخريوطى » و « الراهبة والعجوز » .

رسم له أصدقاؤه ومعاصروه ، صورة قوية متعددة الجوانب . ولكنهم أجمعوا جميعا على تميز شخصيته وتفرده . وهذا ما سنجده فى أقوال الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، والدكتور حسين فوزى والأستاذ فتحى رضوان . وهم جميعا من كبار المفكرين والأدباء فى مصر وفى العالم العربى كله .

عالم يؤمن بالعقل والتجربة العلمية :

فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية وصفه الدكتور مدكور بأنه عالم يؤمن بالعقل وبالتجربة العلمية . وفى موضع آخر قال عنه : « وكامل حسين يريد العقل العلمى الذى يحلل

ويعلل لا العقل الاقطاعى كما يسميه أحيانا ، أو عقل القرون الوسطى الذى يسلم ويستسلم فلا ينقد ولا يناقش ولا يخترع ولا يبتكر . وهو فى ربطه للعلم بالعقل يدرك فى وضوح مدى الصلة بين الطب والفلسفة ، فهو فى نفسه فيلسوف بقدر ما هو عالم » .

هذه اللمحة السريعة الذكية تلخص دون شك موطن الأصالة فى فكر كامل حسين كما سنرى فيما بعد . ولعل تفرد كامل حسين فى الناحية المنهجية يؤكدها الأستاذ محمود العالم بقوله :

« والدكتور كامل حسين فى الحقيقة مفكر أكثر منه أديب ، يغلب الطابع الفكرى الخلاق على كل ما يكتب ، لا تشذ عن هذا روايته (١) فله منهج محدد فى التفكير يستلهمه من ثقافته العلمية ، وله مذهب واضح القسمات يستوعب جانبا كبيرا من أشكال التعبير والنشاط الانسانى ويعد كتابه الأخير « التحليل البيولوجى للتاريخ » تعبيرا متكاملا عنه .

وفى ثقافتنا العربية تيارات فكرية بعضها يبرز خلال المذاهب النقدية للأدب ، وبعضها الآخر يبرز فى الدراسات التاريخية

---

(١) قرية ظالمة .

والاجتماعية والاقتصادية ، الا أنها جميعا لم تتكامل فى مذاهب واضحة القسمات ، محددة القيم » .

والواقع أن كثيرين ممن نادوا بمذاهب أو مناهج فى ثقافتنا المعاصرة كان معظمهم ان لم يكونوا جميعا مترجمين لفكر أجنبى يحملون مناهج منقولة أو منحولة . وهذا ما نجا منه كامل حسين بما حققه فى بحوثه العديدة المختلفة والتى تبرز جدة منهجه ومذهبه .

ويرسم له الدكتور حسين فوزى صورة أدبية متعددة الجوانب والألوان (٢) :

« كان ألمع الشخصيات فى المجمع ، فشخصيته الجذابة شبت ونمت على المعرفة . وبدافع عقله اليقظ ، تابع الدراسة من باب الى آخر ، من الشعر والأدب الى الفلسفة والعلم ، وحقق فيها كلها امتيازا ملحوظا ، وصفه شاعر من معارفه بأنه نموذج مثالى ، وهبته الطبيعة كل عطائها .. انكب على الدرس بلا معاناة ، صاحب ذاكرة عجيبة ، وثقافة بارحة الجنبات ، متمكن من لغته ، وهو علم فيها ، متضلع فى غيرها . دماثة الخلق فى طبعه ، متفتح العقل لكل فلسفة ، وكل ديانة ، لا يرفض نظاما عقلانيا ، وهو المتصوف بقلبه وكيانه ، دون قبول للغيبيات

---

(٢) فى كلمة التأبين التى القاها بمقر المجمع العلمى المصرى فى ١٩٧٧/١٢/٧ .

الشعبية . عطوف على الفلسفة الاسكولائية ، وذلك غير معتاد فى أنداده ، متبحر فى الفكر العربى ، ومتنظر على الفكر العبرانى، وكان يشهد لبعض أساتذته من اليهود أطيب شهادة . لا أثر لتعصب فى تفكيره ، ولا فى علاقاته . طالع الأناجيل ، وكتب العهد القديم ، وتدارس الديانات المقارنة ، جمع فى وحدة معارفه المسيحية والموسوية ، وضم اليها الأفلاطونية القديمة ، والجديدة، مع أرسطو . وعلى الرغم من الاحترام الذى يقابله ، والتبجيل الذى يلقاه ، فقد احتفظ بتواضعه ، الا فيما يمس دقة تفكيره ، وصحة علمه ، أو ايمانه بقدرة العقل » .

هذه الصورة التى رسمها الدكتور حسين فوزى واستعار بعض خطوطها مما قاله الشاعر لوتسيانو يصف به صديقه جوفانى بيكوديللا ميراندولا وكان الخلاصة المصفاة لعصر النهضة ١٤٦٢ ـ ١٤٩٣ م . لأنه يؤمن ان محمد كامل حسين هو رجل نهضة أو « هيومانى » .

والواقع ان هذه أبرز خاصية فى كامل حسين ينفرد بها فى تاريخ الفكر المصرى الحديث .

وسوف نقف عندها طويلا عند الحديث عن هذا الجانب .

وقد أشار الأستاذ فتحى رضوان الى هذا المعنى حين قال : انه « بين الكتاب والمفكرين ، والأدباء رجل فريد ، ليس فيمن حمل القلم فى الخمسين سنة الماضية رجل يشبهه » .

هذه الشخصية الفذة التى بهرت هؤلاء المفكرين الكبار ، لابد ان تبهر أمثالى . وقد بهرت بها فعلا ، وأحببت فى صاحبها خصالا فكرية كثيرة ، فرحت أجمع كتبه وأقرأها وأفكر فيها مليا . واكتشفت غزارة علم ، وعمق بصيرة ، وصدق التعبير ، ووضوحه ؛ مما جعلنى أظن فى بعض الأحيان انه قد وصل الى حد اليقين الراسخ ، لكننى اكتشفت بعد حين أن هذا السطح الساكن الهادىء يكشف عن أعماق ثائرة متلاطمة . وكان دليلى فى فهمه بضع مقالات قليلة لم تشمل كل أعماله . بل ان أهم كتاب له وهو « وحدة المعرفة » لم يكتب عنه شيئا ذا بال سوى مقالين فى باب للهجوم أحدهما للأستاذ العقاد والثانى للدكتور زكى نجيب محمود . وهما لم يناقشا الكتاب أصلا وانما انصب كلامهما على وجه التشابه بين بعض ما قاله الدكتور كامل حسين وما قاله الفيلسوف الانجليزى المعاصر صمويل الكسندر . وقد أنكر الدكتور كامل حسين وجود هذا التشابه . وقد كرست فصلا مستقلا لمناقشة هذه المعركة الفكرية .

ولهذا الأمر مزاياه وعيوبه . فهو يقدم للباحث فرصة طيبة لتناول موضوع جديد غير مطروق . ومن عيوبه أنه يضع الباحث أمام مسئولية كبيرة ومشقة آكيدة خصوصا اذا كان الموضوع الذى يتصدى له يتعلق بقضايا فكرية بمثل هذه الخطورة .

ولكى يسهل علينا تفهم مثل هذه الشخصية ، لابد لنا من أن نبحث عن نشأة صاحبها وتتعرف على العوامل الاجتماعيـة والثقافية التى ساهمت فى تكوينه العقلى والروحى •

حياتـه وعصـره :

وهذا ما يحدثنا عنه الأستاذ فتحى رضوان فى مقال عنوانه « وادى محمد كامل حسين المقـدس » مجلة الثقافـة عدد ٤٣ (أبريل سنة ١٩٧٧) •

ولد سنة ١٩٠١[٣] ، فكأنه ولد مع القرن العشرين ونما بنموه ، فلما بلغ أشده ، كان القرن يواجه مشـكلاته التى لم يواجهها قرن سواه ، اذ لم ينقض على مولده الا عقد واحد ، أى عشر سنوات حتى كانت نذر الحرب العالمية الأولى تتوالى ثم اكفهر الجو الدولى ، ثم وقعت المجزرة البشرية التى لم يسبق لها مثيل ، فقد عرفت بها الشعوب ويلات الحروب ، فى البيت والشـارع والمصنع والمدرسـة • فلمـا وضعت تلك المجزرة أوزارها ، خلفت وراءها مشكلات بقى الانسان يعانى منها حتى اليوم ، وهى على الأيام تتعقد وتتفاقم ، ولا يجد لها الناس حلا : مشكلات الاسكان والاطعام وحرب الطبقات ، وتفشى أسـباب

---

(٣) ولد فى العشرين من مارس ١٩٠١ بقرية سـبك الضحك بمحافظـة المنوفية • وتوفى فى ٧ مارس ١٩٧٧ •

النقمة والسخط ، والاستسلام للشك والقلق ، والهزء بكل القيم ، وانحسار السلطة بصورها سلطة العائلة ، وسلطة الكنيسة، أو الدين ، وسلطة الدولة ، وسلطة المدرسة . مما جعل النـاس يموجون بعضهم فى بعض ، ولا يجدون حرجا فى التفكير فى كل شىء ، ومراجعة كل قديم ، ومناقشة كل موروث والاجتراء على كل محترم ومقدس ، والرغبـة فى اقتحـام كل ميدان مغلق ، والتطلع الى كل غريب وبعيد وخصب .

وكان (محمد كامل حسين) ، وحدة انسانية فذة بظروفها، فهو من عائلة علماء مسلمين يؤمنون بأكثر عقائد الانسان استقرارا واستمرارا وقدما وهو الدين ، ثم هو تلقى تعليمـه فى المدارس المدنية البحتة التى لا تعلم من الدين الا قشورا ، وفى ظل نظام أجنبى وافد ، قهر البلد ، وأخذ على عاتقه ، أن يخرج أهلها من كل ما ورثوه وعاشـوا عليه قرونا ، وأن يحسن لهم طرازا من الحياة ، لم يألفوه ، ويطمئنوا اليه .

ولكنه كان من النخبة بين أهل وطنه ، اذ لحق بمعهد يعلم فرعـا من المعرفـة يقوم من ألفه الى يائه على الدليل المـادى ، المستمد من الواقع المحسوس ، والذى لا يدع مجـالا للتأثر أو التطوح ، مع ما وراء الظاهر الملموس ، ثم عانت حياته من مضاعفـة أخرى ، تلك سفره الى ليفربول ليتلقى هـذا العلم المـادى فى جامعة من جامعات الغرب ، ليعيش فى مجتمع يختلف

عن مجتمع المصريين والعرب والمسلمين والشرقيين ، بل انه مجتمع يضمر لهؤلاء جميعا شعورا من الاحتقار ، لأنه قهرهم فى ميادين الحرب والسياسة معا ، ثم استعبدهم واسترقهم فى مجالات العلم والثقافة ثانيا ، ثم جرهم وراءه من حطامهم فى دروب الحكم والادارة •

ولكن محمد كامل حسين لم يكن قادرا على أن يندمج فى المجتمع الجديد ، وأن يسقط كل خصائص قومه ويطهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده ، فيصبح غربيا ، يؤمن بأساليب الغرب فى البحث العلمى والدراسات التطبيقية ، كما يؤمن بمناهجه الروحية ، نظرته الى الناس ، وما يساور قلوبهم ، ويخالج نفوسهم • فقد كان أديبا ، قارئا وكان ما يقرأه من كتب مؤلفى الغرب ومفكريهم وما يشاهده من حياة أهل أوربا ، لا يؤدى الى الطمأنينة والثقة ، بل يدعو الى الشك المعذب ، والقلق المضنى •

وعاد فى العقد الثالث من القرن العشرين أستاذا لفرع من الجراحة كان مستحدثا ، وهو جراحة العظام • وهذه الجدة تمنح الأستاذ الذى يبدأ تطبيقه فى بلاده ، شعورا بالتميز ، كما يلقى عليه احساسا بمسئولية الرائد • وأستطيع أن أؤكد أن هذا كله امتلأت به نفس الجراح الشاب ، وهو يثوب الى بلده وقد اصطدم الشاب ذاته بالقديم فى مجال التعليم

الجـامعى ، فور عودتـه الى وطنـه • فقـد كانت كسـور العظـام تعالج فى مصر تحت اشراف طبيب ينتمى الى الجيـل القديم كان يضـع فوق الكسور أثقالا من الجبس ، ينوء تحتها المريض ، وتحبسه عن الحـركة فترة طويلة ، ولكن جراحة العظام تطورت خلال الحرب العالمية الأولى ، فقد كان استبقاء الجندى الجريح طويلا مما لا يتفق مع ظروف الحرب ، اذ أن المستشفيات كانت تميل الى اخلاء أسرتها ، وفى أقصر وقت لتستقبل أفواجا جديدة من الجرحى والمصـابين ، وكانت الجيوش فى أشـد الحاجة الى المقاتلين الجرحى الذين التأمت جروحهم ، وجبرت كسورهم ، ليعودوا الى ميادين القتال ، وأدى ذلك الى تطوير جراحة العظـام ، فأصبحت الفترة التى يقضيها المصاب بكسور العظـام فى المستشفى أقصر بكثير مما كانت ، وقلت طبقـات الجبس وزنا وأصبحت لا تعوق المريض من الحركة داخل حجرته فى المستشفى ، ثم بعد ذلك فى بيته أو محل عمله •

فلما رفض الطبيب القديم فى الجامعـة هـذا الأسـلوب الجديد ، نقل الدكتور محمد كامل حسنين نشاطه الى مستشفى الهلال الأحمر ، حيث أنشأ قسما لجراحة العظام ، وهنـاك أقام جامعة صغيرة ، كان هو واضع أسسها ، وعميدها ، وأستاذها • وكانت تقاليده فيهـا ، روحيـة وخلقيـة ، كما كانت علميـة وأكاديمية • فمن تقاليدها ، أن يجتمع هو ومعاونوه وتلاميذه كل يوم لمناقشة الحـالات التى وفدت الى المستشفى ، وابداء

الرأى فيها ، وتتبع تطورها تقدما وتأخرا ، وكان يوزع على هذه الجماعة الصغيرة ما يرد الى مصر من المجـلات الطبية والمراجع العلمية، ليقرأ كل فرد منها ما خصص له ، ثم يقدم ملخصـا لمـا قرأ فى اجتماعات الجماعة ـ وكان من هذه التقاليد ، أن الطبيب لا يعالج المريض بالدواء والعملية فقط ، بل يكسب ثقة المريض ، وتحويله الى صـديق ، ومما يذكره تلاميذه له أن طفـلا كان يشكو سلا فى عظام حوضه ، استقبلته المستشفى ، فكشف عليه أحد الأطباء الشبان ، فاجتمع حوله الأطبـاء كالعادة ، فسـأل الأستاذ ، محمد كامل حسين هـذا الطبيب عن حالة الطفل فقال له سل فى عظـام الحوض ، فقال الأستاذ وكيف عرفت ؟ فثنى الطبيب ساق الطفل الى الخلف ، فأن الطفل وتأوه ، وصـدرت عنه شكوى فى صورة (آه) فغضب الأستاذ وقال لتلميذه « ان أعظم خطـأ يرتكبه الطبيب ، هو أنه يؤلم مريضه ويحمله على التأوه . ان لفظ (آه) هى عنوان فشل الطبيب . ثم أخذ يكلم الطفل ، وهو يتحسس عظـامه ، برفق ، ولطف ، وقد انشغل الطفل بكلام الأستاذ ، حتى استطاع جميع الأطباء الشبان ان يشخصوا الحالة جيدا والطفل لا يشكو ولا يتألم .

وأخيرا وضع الطبيب الشاب ، العائد الى بلاده ، من بلاد الغرب لجامعتـه الصغيرة فى مستشفى الهلال الأحمر لجراحـة العظام ، تقليدا خلاصته عندما يسمع جرس عربة الاسعاف عند

منعطف الطريق حاملة جريحـا الى المستشفى ، يجب أن يكون طبيب النوبة قد فرغ من ارتداء معطفه الأبيض وأسرع عدوا الى حجرة العمليات ، ومعه معاونوه ، كيلا يضيع على المصاب أقل قدر من الزمن •

وليس هذا اجراء طبيعيا بقدر كونه تنبيها روحيا لا للأطباء المعاونين لمحمد كامل حسين وحدهم ، بل للأطباء المصريين كلهم، ثم لمصر بأسرها من ورائهم فهذا التنبيه والاستعداد والسرعة والأريحية والنجدة فضائل تعدى ، كما تعدى الرذائل •

لم يكن ممكنا لانسان هـذه خصائصـه العقلية وتجاربه الوجدانية ، أن يمضى فى الحياة جراحا عظيما بين الأطباء الذين يمارسون الجراحة ، ولا أسـتاذا كبيرا بين أساتذة الجامعـة ، ولا كاتبا متميزا بين الكتاب والأدباء ، ولا كل هؤلاء المجتمعين ، انما لابد أن يكون صاحب دور فى مرحلة التجديد الروحى لبلاده، وأصحاب هـذا الدور ، لا يكونون عـادة ممن يجذبون اليهم أضواء الشهرة ، ولا تذيع مؤلفاتهم ، يتنبه القراء الى خصائصهم، وأن تروج بين النـاس كتبهم ، فالشـهرة والذيوع فى الأغلب والأعم ، وقف على السطحيين ذوى البريق من أهل القلم وسدنة الفن • وان كان لكل قاعدة شواذ تدل عليها ، ولا تنقضها •

مصـادر ثقافتـه :

والمتتبع لكتابات كامل حسين ، يلاحظ عمق معرفته بالأديان وبالكتب السماوية عموما وعلى الأخص القرآن . كذلك تمكنه من اللغـة العربية وامتلائه بها . ولاشك أن نمو هـذه الثقافة وتعمقها على هـذا النحو يرجع الى نشأته فى « عائلة علمـاء مسلمين » كما أشار فتحى رضوان .

أما نموه العلمى وتعلقه بدراسة اللغات الحديثة ، فيرجع الفضل فيه الى المدارس المدنية . والدكتور حسين فوزى يذكر أنه تلقى دراسـته فى المرحـلة الثانويـة بالمدرسـة الالهاميـة بالقاهرة (٤) ، وهى من أكمل المدارس الأهلية فى زمانها . وأن هذه المدرسة قد هيأت له فرصة التفوق والنبوغ لأن « ذكاءه النافذ ، وتفوقه الجلى ، دفعا بأساتذته الى تركيز جهدهم عليه فى السنة النهائية ، ليرفع من شأن مدرسته فوق المدارس الأميرية . وقد جاء ترتيبه الأول على دفعته سنة ١٩١٧ وكافأته المدرسـة بساعة جيب قيمة .

كما يذكر الدكتور حسين فوزى أيضا انه ظل الأول طيلة سنى دراسته بمدرسـة الطب ، ويؤكد على الدور الذى لعبته المدرسة فى حياة كامل حسين بأن واحدا أو اثنين من مدرسـيه

---

(٤) كانت تدرس كل المواد باللغة الانجليزية (ومكانها الآن بنياقادن) .

قد فتحا له « طاقة صغيرة يطل منها على المعـارف الخارجة عن مقررات وزارة المعارف العمومية .. وعلماء التربية صادقون فى اعطاء أكبر وزن لشخصية المعلم . فهو ليس الساقى للعلم بكأس مهراق ، وانمـا هو الموقد فى النفوس ذبـالة تتحول ضـوءا كاشـفا » .

« لقد أشعل فيه مدرسوه جذوة النبوغ والتفوق ، مما دفعه فى مرحلة الدراسـة العليا ، الى الاعتماد على نفسه لتوسـيع آفاقه ومداركه ، بالاطلاع على شتى أبواب المعرفة ، وأذكر له فى هذا الصدد التحاقه بمدرسة « برليتز » ونحن طلبة ، لندرس اللغة الفرنسية . وكان يسر الى فى شيخوختنا قائلا : اننى مدين لهذه اللغة بأسعد ما حققت وعرفت من تجاريب الحيـاة . ولهذا تفسير فقد حاز درجاته العلميـة فى انجلترا بجهده الدراسى . وحاز ما حاز فى فرنسا بنبوغه ! » .

« وفى لقاء لنا بفرنسا ، من تلك الزيارات التى كنا نتبادلها عبر المـانش ، ونحن نراجع أنفسـنا وما حققه لنا الانفتـاح الكامل على حضـارة أوربا ، لا أنسى قول كامل حسين : أهم ما نصنعه بحياتنا فى هذه الحضارة ، أن نسد الفجوات التى تركها لنا تعليمنا فى المرحلتين الابتدائية والثانوية » .

موقفه من الحضـــارة الغربية :

ويتضح لنا من كلام الدكتور حسين فوزى انه كان معجبا بهذه الحضارة ، منفتحا عليها ، لا تصده عقد نقص ، أو مشـــاعر دينية متعصبة حتى رأى فيه أكمل صورة لرجل النهضة كما ينبغى أن يكون . ولعل هذا يختلف مع ما يقوله الأستاذ فتحى رضوان من انه لم يكن قادرا على أن يندمج فى المجتمع الجديد ، وان يسقط كل خصـــائص قومه ويطهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده، فيصبح غربيا يؤمن بأساليب الغرب فى البحث العلمى ، والدراسات التطبيقية ، كما يؤمن بمناهجه الروحيـــة ، نظرته الى النـــاس وما يساور قلوبهم ويخالج نفوسهم .

ولا أعتقد ان الاندمـــاج فى مجتمع الغرب كان يعنى ان يتحول كامل حســـين الى رجل غربى كما يظن الأســـتاذ فتحى رضوان . لكن الشىء الأكيد انه أخذ بأساليب الغرب ومناهجه العلمية والفكرية دون أن « يسقط كل خصائص قومه ويطهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده » ولا أدل على ذلك من ايمانه بمناهج العلوم البيولوجية والطبيعيـــة واعتناقـــه لنظرية التطور الطبيعى التى أكد صحتها فى كتاب « وحدة المعرفة » . أما تأثره بمناهج الحضـــارة الغربية الروحية فواضح من تمسكه الشديد بحرية الفكر وبالديمقراطية ، وفى رفضـــه المطلق للنظم الشمولية المذهبية أو الدينية . بل ان نظرية « الوادى المقدس » تدور حول

حرية الضمير الفردى وحدود الولاء للجماعة ينتهى فيها الى تقديس حريـة الفكر كأساس لحريـة الضمير الفردى ، كمطلب ضرورى لصحة الجماعة وأن غياب الحرية من أمراض الحرمان يعتبر غيابها فى مجتمع ما مرضا قاتلا وهذا الداء هو السبب فى انهيار الدولة العثمانية .

وكذلك فان مسألة الاندماج فى المجتمعات الغربيـة الحديثة مسألة نسبية ولا تتطلب أبدا سلخ الانسـان من تراث آبائـه أو تجريده منه ، فقد اندمج طه حسين فى مجتمع فرنسا وأحب باريس حبا عميقا ، وكذلك فعل قبله رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين، ولم يكن تقبلهم لمناهج هذه الحضـارة وتمثلهم لقيمها دليلا على تخليهم عن سمات الأصالة الوطنية أو القومية .

كذلك لا أعتقد أن محمد كامل حسين كان يمكن أن يحقق هذه الدرجة من النبوغ والتفوق فى تخصصه لولا اندماجه مع هـذا المجتمع واحترامه له . يذكر الدكتور حسـين فوزى فى معرض الحديث عن احترام كامل حسين للأديان والمقدسات أنهما كانا فى زيارة احدى الكنائس الكاثوليكية فى البريتانى ، ولاحظ أنه عند اقترابه من الهيكل قد أتى حركة فيها تبجيل وتقـدير لهـذا المكان . ولـما نظر اليه الدكتور حسين فوزى مستغربا ما يفعله ، قال له « لا تنسى اننى أعيش مع أسرة كاثوليكية فى لندن لعدة سنوات . واعتدت احترام هذه المقدسات » .

هـذه الحادثة البسيطة تفسر لنا جانبـا هاما من فـكر كامل حسين . هذا الجانب يتضح فى احترامه الكامل للمعتقدات الدينية وطقوس العبادة عند جميع الملل والمذاهب الدينيـة ، وحرصه الأكبر على علاقات المودة والصداقة مع الناس جميعـا من أى جنس وأى دين ولون . ويرى فيها جميعا وسائل صالحة لتحقيق التطهر النفسى أو الهداية . ورغم أن منهجه فى « وحدة المعرفه » يشير الى ان الخـلافات فى الاديان ترجع الى اختلاف فى تصور الناس ومواقفهم من الله . ورغم ان عقله يرى فى الأديان أشياء لا تتفق وهـذا المنهج العلمى ، فهو يتحرج من الاشـارة الى هذه النقاط تفصـيلا حتى لا يشـكك ولا يمس مشـاعر المؤمنين بهـا مع ثقـة كاملة بأن مستقبل العلم سـوف يهيىء للأجيال القادمة فرصة الفهم الكامل لقوانين المعرفـة والكون فيسقط كل ما لا يتفق معها تلقائيا ويجد الجميع أساسا طبيعيا مؤكدا لقيام الألفة والتفاهم والأخوة الانسانية .

مقومـات شخصـيته :

ومن المهم أن نشير هنا الى أن مواهبه الشخصية الفذة من ذكاء متقد ، وذاكرة قوية ، وقدرة فائقة على فهم لغته واللغـات الأجنبية ، بل وطباعه الهادئة الرقيقة كل ذلك قد هيأ له فرصـة اللقاء الخصب مع مجتمع الغرب . كما هيأت له فيما بعد حين عاد الى وطنه أن يكون صـديقا لأستاذ الجيل لطفى السـيد ،

ولطه حسين عميد الأدب العربى وللأستاذه الدكتور على باشا ابراهيم وكثيرين من رجال الفكر والأدب • ولاشك أن طبعه الهادىء ، وعقله الرزين كانا من أكبر مقومات شخصيته التى لفتت اليه الانظار من أيام الشباب • فشدت اليه اهتمام المدرسين الذين اختصوه بالرعاية وفتحوا له باب التزود من العلم •

وفى هذا الصدد يذكر الدكتور حسين فوزى انه لم يره غاضبا فى حياته الا مرة واحدة أثناء زمالتهم فى مدرسة الطب كان الطالب محمد كامل حسين يظهر أكبر من سنه ، ربما لشاربه الصغير ، وقطعا لهدوء حركاته ، وقلة كلامه بصوته المنغم الخفيض • لم أعرفه غاضبا الا فى ليلة من ليالينا بصحن الجامع الأزهر الشريف فى ابان ثورة ١٩١٩ • وقد ذهبت جماعتنا لمقاومة خطيب مدره ، يزمع اثارة الشعب ضد الوفد المصرى ، دفاعا عن الحزب الوطنى • وحين ظهر خبيىء هذا الخطيب ، نهض كامل من جلسة القرفصاء غاضبا ، يحرك خيزرانه ، قطعا ليست له ، ويعلن بصوت زاعق أن الخطيب لا يفقه شيئا مما يتخرص به • وهاج الحشد الكبير ، وأزاحوا الخطيب من المنصة •

ويمضى الدكتور حسين فوزى يؤكد على هذه الناحية « أكرر بأننى لم أر كامل غاضبا الا فى تلك المرة • فالرجل مثال فى الرزانة ، يحركه عقل فاحص ، وتسانده فلسفة فى الحياة

تعى كل أمر يدور حوله وتضع كل رأى فى موضعه ، حسب ميزان ، وتبعا لمكانه فى دوران المنطق » .

وهذه الاشارة تدل على انه كان يملك من الشجاعة ما يكفى للدفاع عما يؤمن به ويرى انه الحق . وفى نفس الوقت يفسر لنا هدوءه ورزانته سبب عزوفه عن الدخول فى المعارك الفكرية العلنية ، رغم ان ما جاء به من جديد فى العلم وفى المنهج كان كفيلا بأن يشعل العديد من هذه المعارك الا ان ميله الى الهدوء جعله يتخير من الأساليب ما يكفى لنقل ما يقول ودون أن يستفز أحدا من المحافظين والمتزمتين . بالاضافة الى أن ما قاله فى هذه الناحية وصعوبة فهمه لعمقه وتشعبه فى العلم والفكر والفلسفة ما كان يتيح لهواة الشغب الفكرى فرصة الامساك به . لكن هذا الموقف له جانبه السلبى ، فقد أدى الى شبه اهمال لمنهجه العلمى الجديد ولكثير من أفكاره الخصبة فى هذا المجال .

والتزام الصمت حول فكره وأدبه يعتبر تقصيرا ليس فى حق هذا الرجل العظيم فقط وانما فى حق أنفسنا ولعل من نتيجته هذا التدهور الفكرى والثقافى الذى نلمسه فى حياتنا . وما أتعس البلد الذى يكون نصيب كبار الرواد فيه هذا القدر من الاهمال .

وقد حرصت فى دراستى لأعماله أن أبرز نقاط الخلاف بينه وبين الفكر التقليدى أولا من باب الصدق مع ما يؤدى اليه

منهجه من نتائج ، وثانيا رغبة فى أن يكون لجهدى المتواضع هـذا صـدى يدفع الى زيادة اهتمـام عامة المثقفين بأعماله • ولا أعتقد أننى قلت كل ما كان يجب أن يقال فى هـذه الناحية •

وليس فى مقدور باحث واحد ، مهما علا شأنه ، أن يقول كل شىء أو يعطى الكلمة الأخيرة فى تقييمه لفكر وأدب وعبقرية متعددة الجوانب من هـذا الطراز • وأنـا أعتبر بحثى هـذا دعوة لبدء النقاش الخصب حول أعماله وأفكاره حتى يصـل أثرها الى عامة المثقفين ، وحتى يثير مكامن الفكر الخصـب عند شبابنـا من المتخصصين فى مجـالات العلوم ليتابعوا ما بدأه كامل حسين لعله يخرج من بينهم نابغة يستكمل ما أشار اليه من فجوات فى نظام المعرفة • وظهور مثل هؤلاء النوابغ هو الذى يعطى قيمة حقيقية لتاريخ الفكر المصرى • وهو الذى يصـل حياة مصر الحديثة بماضيها العظيم ويؤكد دورها الحضـارى فى كل العصور •

اشـتغاله بالكتـابة :

يرجع اهتمامه بالكتابة الى فترة مبكرة من شبابه • وكان من الطبيعى لانسان هـذه مواهبه أن ينزع للتعبير عن آرائه العلميـة والأدبية • فابتدأ منذ تخرجه فى كليـة الطب يكتب فى

« السياسة الأسبوعية » • باسم مستعار هو « ابن سينا » ويشير الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، رئيس المجمع اللغوى ، فى مقاله بمجلة (الهلال عدد مارس ١٩٧٣) الى ذلك قائلا :

« لم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة بل امتدت الى (اللغة العربية) و « البحوث العلمية » ولو سمى نفسه (ابن المقفع) أو (عبد الحميد) ما عز عليه ذلك » •

وقد ظل يراسل المجلة أثناء بعثته فى انجلترا من ١٩٢٥ — ١٩٢٩ •

الاصلاح والتجديد :

ويواصل الدكتور مدكور قائلا « عرفته فى مجالس لطفى السيد •• وكان حديثه يدور غالبا حول الأدب واللغة والاصلاح والتجديد » • وكلمتا الاصلاح والتجديد تعطيان مفتاحا لفهم شخصيته • فقد تمثلت معانيهما فى كل عمل قام به وكل كتاب ألفه » •

يتضح ذلك فيما يقوله صديقه الأستاذ فتحى رضوان عن تجديده فى أساليب علاج كسور العظام واقامته مركز طب العظام بمستشفى الهلال ، واشارته الى دوره فى التجديد الروحى بارساء « تقليد خلاصته عندما يسمع جرس عربة الاسعاف عند منعطف الطريق حاملة جريحا الى المستشفى يجب أن يكون طبيب النوبة

قد فرغ من ارتداء معطفه الأبيض وأسرع عـدوا الى حجرة العمليات ومعه معاونوه ــ لكيلا يضيع على المصاب أقل قدر من الزمن » .• وهـذا ما أكده الدكتور عبده سلام الذى قال انه تتلمذ على يديه وتعـلم منه معنى المسـئولية وحسن العنايـة بالمريض •

وقد كللت جهوده فى هـذا السبيل بانشاء أول قسم لطب العظام بجامعة عين شمس وقد قدرت له الدولة هـذا الصنيع العظيم ومنحته جائزة الدولة التقديرية للعلوم ١٩٦٥ •

بل ان هذه الصفات هى التى كانت موضـع اهتمامه فيمن كتب عنهم •

... كتب عن لطفى السيد يقول أنه أرسطى من الطراز الأول ، ويعتبر تشابهه مع أرسطو سببا فى نجاح دعوته الفكرية • « لم يكن عفوا أن يكون الداعية الأكبر الى أرسطو فى مصر الحديثة هو أحمد لطفى السـيد ، بل لم يكن بدا من أن يكون الأمر كذلك » •• لأن نجاح الدعوة فى رأيه لابد له من شروط « انما تعد الدعوة ناجحة حين يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعـة وتفكيرا الى من يدعو اليه » •

أما فى مقاله عن الدكتور على ابراهيم فنجده يقول « انه

كان بناء ، فقد شيد كثيرا ، وكأنما عاهد على أن لا يترك شيئا مما تفخر به البلاد الحديثة الا أنشأ له شبيها فى مصر » •

وفى وصفه لهذين الرائدين ، يؤكد امتلاكه لموهبة الكتابة الأدبية ، وعلى الأخص للقدرة على رسم الشخصـيات وابراز الصفات المؤثرة فى سلوكها • وقد تجلت هـذه القدرة فى بنائه لشخصيات قصصه وبالذات فى « قرية ظالمـة » • حيث نلاحظ براعة المؤلف فى استحضار الشخصيات التاريخية بسماتها النفسية والفكرية المعروفة فى الكتب الدينية والتاريخية •

بل أن كتابته لهذه الرواية يدل دلالة قاطعة على صـدق البصيرة وأصالة التجديد بالاضافة الى نبل المقصد والغاية • فقد رأى الكتاب الغربيون الذين ترجموا هـذه القصة الى الفرنسية والانجليزية أنه أول مسلم يتصدى لبحث حادث الصلب ويبين مغزاه الانسانى فى نطاق حدود ما رسمه القرآن • وكانت اضافته عظيمة فى توضيح الآية القرآنية على نحو صحيح وجديد •

وكذلك الأمر بالنسـبة لدراسته للغة العربيـة واقتراحه لتيسير كتابة اسم العدد بابقائه دائما على حاله مع الفصـل بينه وبين المعدود بحرف « من » فيقال دون تفرقة خمسة من الرجال وخمسة من السيدات • وذلك لأنه يريد لهذه اللغة أن تكون أداة علم وتحضر تيسر للأجيال الفهم والتفكير والتعبير • وان الصراع

بين العامية والفصحى يجعل عملية التيسير ضرورية وعاجلة حتى تواكب التطور الحديث فى الفكر والأدب فهو يقول عن « دعاء الكروان » (١٩٤٢) .

« آمل أن أرى يوما هذه اللغة الشعرية تتمدد دون ابتذال ، ودون أن تفقد من رونقها شيئا الى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف » . أى أن تصبح لغة دقيقة قادرة على تصوير المواقف الروائية دون ابتذال أو مبالغة زائدة .

لهذا دعا الى اعادة كتب النحو وتبسيطه وتعديل مناهجه حتى تتمشى مع روح العصر ، كما دعا الى وضع معجم حديث « مصفى فى اختيار الالفاظ ، وحديث فى تحديد معانيه ، لا يذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد للفظ الواحد . ولا يقبل فيه الا صيغة واحدة للكلمة ، والا مصدر واحد للفعل ، والا جمع واحد للاسم وتشرح الالفاظ شرحا دقيقا واضحا واضحا يتمشى مع ما انتهى اليه العلم الحديث » . (من مقال الدكتور مدكور) .

لكن حماسه للغة العربية لم يبعد به عن موقف الصدق أبدا . وهذا ما يؤكده فى بحثه عن « اللغة والعلوم » حيث يفرق بين لغة التفاهم والأدب والفكر وبين لغة العلوم الخاصة بالمصطلحات العلمية . وهو يجد أن الفاظ اللغة اللاتينية هى

الأصلح للمصطلحات العلمية باعتبارها لغة ميتة لن تتطور ولن يدركها التغير وهذا يؤدى الى استقرار المعانى وسهولة المعرفة . ولهذا لا يرى مسوغا لترجمة الالفاظ أو المصطلحات العلمية من اللاتينية أو الاغريقية الى العربية .

محمد كامل حسين المفكر والأديب :

من الملاحظ فى أعماله ان صفة المفكر تسبق صفة الأديب عنده ، بل وتطغى عليها . فانشغاله بالمنهج وبالمضمون الفكرى فى كل ما يكتب يشكل سمة بارزة فى كتاباته حتى الأدبية الخالصة منها ، كقصة « قرية ظالمة » مثلا .

وهذا الجانب لمسه كل من تحدثوا عن كامل حسين ، وفى مقدمتهم الدكتور مدكور ، حيث يصفه بنعمة الفكر المستقيم ويقول عنه (مجلة الهلال مرس سنة ١٩٧٣) :

« وكامل حسين أديب موضوعى يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها ويتخير أوثقها يهذبها وينسقها بحيث تبدو جلية واضحة . وقد مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألوانا شتى : فى الأدب والتاريخ ، وفى العلم والفلسفة . وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها بعضها ببعض . فى علم النفس ما يوضح بعض المشاكل الأدبية ، والتاريخ وثيق الصلة بعلم الاجتماع

والسياسة ، وكثيرا ما تقود الدراسات الطبيعية الى ضرب من الميتافزيقا » .

وهذا الطابع الفكرى الخلاق الذى يغلب على كل ما يكتبه كامل حسين ، يهيب بنا أن ندرس خصائصه ومعالمـه قبل أن نبحث تطبيقاته فى أعماله . ولعله يجدر بنا أن نبحث فى بعض دراساته الأولى لنرى أهمية اهتمامه بهذا المنهج . وأول ما يلفت النظر فى هـذا الصدد دراسـته للطب المصرى القديم والطب اليونانى فى تعليقه على أقدم رسالة علميـة فى التاريخ والمعروفه ببردية أدوين اسميث فى الجراحة وقد ترجمها الدكتور كامل حسين عن برستيد الى العربية .

هنا نلاحظ فهمه لمـا يريد . فهو يرى أن العيب الأكبر فى الطب اليونانى يقوم على الاستنتاج بينما الطب المصرى القديم يقوم على المشاهدة .. يقول (متنوعات ـ ١ صفحة ٨٩) :

« والذى أؤكده ان هذه الطريقة هى خير الطرق لدراسـة الطب فالعناية بالمريض والفحص الدقيق المتتابع والمشاهدة الدقيقة والمقارنة بين الحـالات المتشابهة وقوة الذاكرة والتفكير السليم هى صفات العلم الحق وهى بالضبط الطريقة العلمية الحديثـة وهى تختلف اختلافا تاما عن الطب اليونانى « الذى يقوم كله على الاستنتاج » .

هذه هى معالم الطريقة العلمية عند كامل حسين يضاف لها ملمح التجريب فيما بعد . فهو يشير الى توقف علم الكيمياء القديم فى مقال (علمان ضالان) ويؤكد أن أسباب ضلال هذا العلم هو ان الكيميائيين القدماء استعملوا « طريقة الاستنتاج والمنطق فى فهم طبائع الأشياء وسنن الكون ، وهى لا تصلح لهذا النوع من البحث ، انما يصلح لذلك طريقة العلم التجريبى ولم تكن قد استكشفت حينذاك » وفحصه للعلوم القديمة على هذا النحو يؤصل فى عقله وفكره قيمة المنهج بحيث يصبح ضرورة للوصول الى نتائج سليمة ، وضرورة لتطور المعرفة الانسانية . بل انه يهتم باستخدام الطريقة الصحيحة فى المجال الملائم لها . وكلامه هذا يبرز المغزى الذى يشير اليه حين يقول انه يريد « العقل العلمى الذى يحلل ويعلل لا العقل الاقطاعى أو عقل القرون الوسطى الذى يسلم ويستسلم » .

وادراك كامل حسين لأزمة العقل الاقطاعى فى العصور الوسطى هى التى حمته من الوقوع فى شباك الثنائية الفكرية أو الازدواجية التى صبغت الفكر العربى منذ تلك العصور .

فقد اصطبغ الفكر الأوربى فى تلك العصور بصبغة التوفيق أو التلفيق بين الفكر الفلسفى الاغريقى والفكر الدينى ، فحاول الأوربيون التوفيق بين مثالية أفلاطون والمثالية المسيحية

وكذلك حاولوا التوفيق بين فلسفة أرسطو وبين الدين المسيحى . وهى محاولة لا تخلو دائما من قسر وتأويل حتى يتحقق الاتفاق بين السماء والأرض أو بين الأرض والسماء . وأدى ذلك الى وقوف العلم وتخلفه قرونا حتى جاء عصر النهضة وبرزت المفاهيم الانسانية الجديدة . وظهرت نظريات كوبرنيكوس وجاليليو وبدأ عصر الكشوف الجغرافية ، فاذا الفكر القديم يتهاوى أمام ضربات النهضة الجديدة التى تدعو بحسم الى فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية وتحرير العقل من سلطة الكنيسة ورجالها .

هذه الصفات التى كبلت الفكر الأوربى فى العصور الوسطى انتقلت الى فكرنا العربى منذ ذلك الحين ومازالت تعمل فيه عملها . ورغم ظهور حركات فكرية أو حركات تنويرية فى الوطن العربى وفى مصر الا أن هذه الحركات باءت جميعا بالفشل لأنها قامت على أساس هذا الازدواج وهذا التلفيق . حتى رواد النهضة عندنا من رفاعة الطهطاوى الى طه حسين وقعوا فى هذا الخطأ القاتل . بل ان مفكرا ممتازا مثل الشيخ على عبد الرازق حسين نادى فى كتابه « الاسلام وأصول الحكم » بفصل الدين عن السلطة السياسية برر ذلك على أساس دينى لا على أساس انسانى . وهذا يوصلنى لما أريد أن أقوله بشأن محمد كامل حسين الآن .

لقد انفرد وحده فى تاريخ الفكر العربى الحديث كله باقامة فلسفته ومنهجه على أساس تطور العلوم البيولوجية والطبيعية . وحتى نظريته فى التطهر التى شرحها فى الوادى المقدس تشير الى دين انسانى يبدأ بالانسان وينتهى اليه فى علاقته بالله .

ورغم ايمانه الأكيد بالله الا أنه لم يحاول فى كتبه التلفيق أو التوفيق بين الفكر العلمى والفكر الدينى . فهو يقول أن المنهج العلمى يبدأ بأوائل الأمور أما الفكر الدينى فيبدأ بأواخرها . ولكن ذلك لا يمنع أن يلتقى العلم والدين عند نتيجة واحدة مثل اثباته للقدرة الالهية على أساس منهجه فى المعرفة . لكن الفرق بينه وبين الآخرين أنه لم يطوع منهجه أو يلوى رقبته لاثبات هذه الحقيقة . وانما جاءت هذه الحقيقة نتيجة لتدرج القوانين الكونية بأن هناك قوة أعلى من الانسان وهذه القوة تتحكم فى تاريخ حياته وهى طبعا التى تجعل الموت قدرا محتوما على الانسان ، وهى التى يصفها رجال الدين بالقوة الالهية أو الله .

ولو كان من طبعه التوفيق أو التلفيق لفعل فيما توصل اليه من نتائج تتصادم مع المفاهيم الدينية السائدة . الا انه تمسك بالصدق مع المنهج ومع النفس ، فلم يسخر أحدهما لخدمة الآخر . بل ان هذه الثنائية الفكرية كانت من ضمن الفلسفات

التى عمل على هدمها فى « وحـدة المعرفـة » ووصفها بالعقم والتشـويش •

ولعل هذا ما يجعلنـا ، نحس انه يهتدى بمنهج راسخ لا يشط به هنا ولا هنـاك • والتزامه الصـادق بهـذا المنهج يؤدى الى تطوره الفكرى تطورا يتفق وما يحققه هـذا المنهج من حقائق • وفى ضوء هذا المنهج نجد انه يبدأ كتاباته الدينيـة بدفاع عن « القرآن » ثم ينتهى فى كتاب « الذكر الحكيم » وهو آخر ما كتب تقريبا سنة ١٩٧١ ، الى تقديم دراسـة قيمـة تتصف بالوعى والمنطق والحكمة •

وهذه الدراسة تتوخى روح العصر فهو يقول فى مقدمـة الكتاب : « ولكل عصر موضوعات تعنى مفكريه وقد لا تعنى من يأتون بعدهم » فالمسلمون كما يقول فى « أشد الحاجة الى من يفسر لهم القرآن تفسيرا دينيا خلقيـا خالصا » •ثم يقول بعد ذلك :

« هذا هو غرضى الأول من هـذه الدراسـات : أن أقدم للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث ما يقرب القرآن من افهامهم • والغرض الثانى هو أن أقدم للمسلمين من غير العرب ، ولغير المسلمين ، شرحا يفهمون به القرآن من حيث هو كتـاب منزل غرضـه الهداية والوعظ • ومن حيث هو أصـل العقيدة الاسلامية وآكمل تعبير عن خصائص النفس المسلمة » •

فهو يختار موضوعات بعينها تتمشى ومشاكل الانسان المعاصر ، ويفسرها على أساس التأويل والتأمل والتدبر بطريقة تدخل الى عقول وقلوب الملايين الذين يجهلون القرآن اليوم . وهو يشير الى التفاسير القائمة ويقول :

« ومن العبث أن نرغمهم علي ما لا يجدون له صدى فى نفوسهم ، ولو قدمنا اليهم دراسات قرآنية تعينهم على تفهم مشاكل نفوسهم التى لها مساس بحياتهم لكانت استجابتهم اليها أقرب وهدايتهم بها أكثر قوة وثقة » .

وهذا لا يتعارض مع نظريته فى « الوادى المقدس » ولا يناقضها . فهو يرى تبعا لهذه النظرية ان الدين أكمل وأشمل صور الايمان ، وان هذا الايمان لازم لصحة النفس . وان الاستهداء بالله هو خير طريق للهداية .

بل أن مقاله « القرآن » الذى كتبه بالفرنسية ١٩٣٣ ثم نشره فى كتاب « متنوعات » وأعاد نشره فى كتاب (الذكر الحكيم) بعنوان « اعجاز القرآن » وهو دفاع عاطفى قوى عن القرآن . هذا المقال مع ذلك ينطبق مع نظريته ومنهجه . وقبل أن نناقش هذه النقطة لابد أن نعرف ماذا يقول المقال :

ان هذا البحث كتب سنة ١٩٣٣ بالفرنسية لما أبداه أستاذ

الفلسفة فى الجامعة المصرية وكان فرنسيا — من رغبته فى تفهم الأثر الذى للقرآن عند المسلمين فهو لم يتبينه عند قراءته مترجما . لهذا قصر كامل حسين بحثه على الناحية الأدبية الموضوعية التى يستطيع أن يسلم بها غير المسلم .

ولاشك انه أوضح هذه النقطة بجلاء وبين ان « للقرآن روعة أدبية ليست لكتاب غيره ، والمسلمون حين يستمعون الى آياته تأخذهم نشوة روحية خالصة ولا يبلغونها الا به » .

ان الأثر الأدبى والروعة البلاغية للقرآن كانت سببا فى تعلق العرب به وايمانهم « فلم يكن الايمان سببا فى الاعجاب بالقرآن وانما كان الاعجاب به سببا فى ايمان من آمن وحيرة من كفر » . وحين يقول (صفحة ٥) « وعندى ان سر العبقرية الاسلامية يتمثل فى معنى التقوى وهى المطابقة بين مبادىء الاخلاق والحياة الدنيوية » . انما يذكرنا بفكرته عن الضمير الانسانى ، فى جملته الأخيرة . أما عن الاعجاب بالقرآن وأثره فى تحقيق الايمان انما ينطبق مع نظريته فى التطهر من انه حالة نشوة نفسية أو حالة رضاء نفسى » تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق العقل » .

أما الذى أعنيه بالدفاع العاطفى انه لم يتعرض للنواحى الفكرية خصوصا فى رده على الغربيين . اذ يقول (صفحة ٨)

« عاب الغربيون على القرآن ما فيه من نقص في التنظيم المنطقى ومن نقص فى الذكاء وان الحجج التى يسوقها حجج عادية يعرفها كل انسان » . فرد عليهم قائلا :

« ان الكتب المنزلة كلها لم تعن بالذكاء ولم تخاطب العقول وانما خاطبت الضمير الانسانى ودعته الى الخير قبل أن يستطيع ذكاؤنا أن يميز الخبيث من الطيب فمن السخف أن نلتمس فيها المنطق والذكاء فما أكثر كتب المنطق والجدل الذكى التى لم يكن لها فى الناس أثر ما » .

ولاشك فى قوة هذه الاجابة وحكمتها رغم أننى وصفتها بالعاطفية وذلك لأن الدين يتعلق بالعاطفة والضمير ولو أدخلنا فيه المنطق والذكاء فتكون مثل علماء الكيمياء القديمة الذين طبقوا منهج الاستنتاج حيث يصح منهج التحليل والتجربة . وهذا ما أسميه بالتزام الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين . هو استخدام كل طريقة فى موضعها الصحيح .

ولو حاول أن يرد على هذه الملاحظات بالعقل وبالمنطق لدفعه هذا الى العسف فى التأويل والتفسير مثل ما يفعل الكثيرون بدعوى تحويل الدين الى سياسة أو اثبات ان القرآن يتمشى مع العلم الحديث وهو الأمر الذى يهاجمه كامل حسين ويسميه بدعة حمقاء ويرى انه لا يدعو للاطمئنان لأنه يقرن الثابت فى

القرآن بالمتغير مع العلوم وقد ينتهى هـذا الأمر باثارة الشك أكثر من تثبيته للايمان .

فهو حريص على أبعاد الدين والكتب المقدسة عن مجالات الطعن والشك عموما سـواء كانت فى السياسة أو فى العلم ليبقى لهذه الكتب دورها الأثير فى تهذيب ضمـير الفرد وتقويتـه ، وتثبيت الايمان .

ومن أجل هذا يرى فصـل الدين عن النظم الاجتماعيـة لأن الدين ثابت والنظم متغيرة . ولأن هـذا الارتباط قد أدى الى محنة كبيرة عند المسيحيين وعند المسلمين .

وفى مقال « محنتان متشابهتان » يقرر أن الصراعات الدينية التى قامت حول التجسد عند المسيحيين ، والتى ثارت حول خلق القرآن عند المسـلمين كانت متشابهة فى تطورها وفى أسـبابها ونتائجها . وينتهى من تحليله للحادثتين الى النتائج الآتية :

« فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل فى الايمـان الطـاهر النقى البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الايمان ، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا فى هـذا الايمان وحكموا المنطق والعقل وتفلسفوا » . وحتى لا يؤدى بهم هذا الحال الى الكفر ،

التمسوا الهداية عن طريق التأويل • وهنا نشأت الطوائف الدينية •

وكان هذا بداية الاختلاف الفكرى • لكن الأمر لم يستمر فى حدود الفكر • فقد حاول بعض رجال الدين الاستعانة بالحكام ، فى بعض الأحيان ، واستغل الحكام بعض هذه الطوائف لخدمة أغراضهم • ومن هنا تحول الأمر الى صراعات دموية لا علاقة لها بالدين ولا بصحة الاعتقاد •

هذا التحليل الدقيق النزيه لمحنتى المسيحيين والمسلمين يؤكد نتيجة واحدة ان ربط الدين بالسياسة فيه ظلم للدين وظلم للسياسة وظلم للناس فى كلتا الحالتين • كما أن المؤلف أشار الى نتائج هذا الارتباط السيىء سواء فى محاكم التفتيش أو فى ظل الخلافة الاسلامية فهو يعتبر هذا انحراف عن الصراط المستقيم • يقول (فى صفحة ٨٨ الوادى المقدس) :

« وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش • وليس للهدى والضلال معيار الا المعيار النفسى البحت » •

كذلك يشير الى غياب حرية الفكر فى ظل الخلافة العثمانية

ويعتبر أن ذلك الداء هو الذى قضى على هذه الدولة وسيقضى على أى نظام تنعدم فى ظله حرية الفكر •

لقد سألت نفسى وسألت غيرى عن موقفه السياسى • وأخبرنى الدكتور حسين فوزى انه لم ينضم الى الأحزاب القديمة ولم يكن له موقف ظاهر فى هذا المجـال • لكننى مؤمن أشد الايمان أن أى كاتب له منهج فكرى لابد أن يكون سياسيا بالضرورة • وقد اكتشفت صـدق ذلك بعد أن فرغت من دراسـة كتابيـه « التحليل البيولوجى للتاريخ » و « الوادى المقدس » اذ تأكد لى أنه ليبرالى النزعة يميل الى الديمقراطيـة السياسـية والى الاشتراكية الاقتصادية وهـذا واضح فى تحليله للديمقراطيـة والشـيوعية :

فهو يعتبر اقرار الديمقراطية للطبقية الاجتماعية رجعيـة فكرية بينما يعتبر الديكتاتورية السياسية عند الشيوعيين نظاما رجعيا • وأنه يرى المساواة السياسـية فى الديمقراطية عمـلا تقدميا والمساواة الاقتصادية فى الشيوعية أيضا عملا تقدميا لذلك يكون تحقيق الديمقراطية السياسية والمساواة الاقتصـادية فى أى نظام اجتماعى عملا تقدميا يتفق مع منهجه فى التاريخ ونظرته لمستقبل البشرية ، اذ يتنبأ كامل حسين بسقوط كل امتيـازات

التفوق بين الأفراد ، نتيجة التقدم العلمى الهائل فى مجال انتاج الأعضاء التعويضية والوسائل البصرية والسمعية والأوتوماتيكية.

وقيام مثل هذا النظام لن يتحقق الا بالحرية السياسية أولا وزيادة قوة الأفراد حتى تحول قوة الفرد دون طغيان الجماعة وحتى تحد هذه القوة من شرور الجماعة . وهذه النقطة هى محور قصة « قرية ظالمة » وقصصه الأخرى القصيرة .

وحدة التطور التاريخى

ولعل أهم الأفــكار المسيطرة على فلسفة الدكتور محمد كامل حسين هى فكرة التطور البيولوجى أو التطور الطبيعى كما سماها فى كتاب « وحدة المعرفة » وهى ذات الفكرة التى يقيم عليها ايمانه بوحدة التطور التاريخى • وقد يكون من المفيد لنا ونحن بصدد مناقشة كتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » أن نرجع الى كتابه « متنوعات ــ جزء أول » لنرى محاولتــه الأولى لتفسير بعض الأحداث التاريخية فى ضوء هذه النظرية •

ففى مقال « محنتان متشابهتان » يتناول المؤلف محنة خلق القرآن عند المسلمين ومحنة التجســد عند المسيحيين كحادثتين تثبتان وحدة التطور التاريخى •

وفى تحليله للأحداث المؤلمــة التى قامت حول الخلافات المذهبية عند الفريقين يرى أن من أسبابها الأساسية رغبة رجال الدين فى السيطرة والنفوذ مما دفع بعضهم للاستعانة بالحكام مما أدخل العوامل السياسية وجعلها المحرك الرئيسى للصدامات الدامية بين المسيحيين بعضهم بعضا حول فكرة تجسد المسيح •• وبين المسلمين بعضهم بعضــا حول فكرة خلق القرآن ، أى ان العوامل المحركة للصراع كانت عوامل الاختلاف الفكرى متمثلة فى ظهور الطوائف الدينية ثم الرغبة فى استغلال هــذا الخلاف الفكرى لتحقيق مصالح سياسية وشخصية •

وربما كان منهجه هنا يتشابه كثيرا مع ما أخذ به شبنجلر فى كتابه « اضمحلال الغرب الذى أثبت فيه وحدة التطور التاريخى . والدكتور كامل حسين يعلن اعجابه بهذه الفكرة فى السطور الأولى من مقال « محنتان متشابهتان » بل يؤكد ثقته فى منهج شبنجلو قائلا « ولا يستطيع الانسان ان يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى ان الدين الجديد الذى يقوم فى العصور الحديثة يقوم فى الروسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلها موسكو ونيويورك » .

وعند اعادة نشر المقال فى كتاب « الذكر الحكيم » نجد أن المؤلف يضيف تعليقا على نظرية شبنجلر حيث يقول « ومع ان هذه النظرية بنيت على استقراء تاريخى بحت الا ان لها سندا من قوانين التطور البيولوجى » .

وهذه الفكرة الأخيرة هى التى استولت على فكر كامل حسين فى تحليله للتاريخ الانسانى كله . وجعلته يتجاهل منهج شبنجلر رغم اعترافه بصحة نتائجه . بل أنه يرفض كل المناهج الأخرى التى ترى ان العوامل الروحية والاقتصادية والاجتماعية هى القوى المحركة للأحداث التاريخية . وعلى هذا يرفض جدلية هيجل المثالية ، والمادية التاريخية لكارل ماركس وكذلك

منهج « التحدى والاستجابة » لتوينبى ، وذلك بحجة ان هذه المذاهب كلها تقوم على الايمان بوجود قوى لها الأثر الأكبر فى تحديد مسار التاريخ وكلها تؤدى الى نوع من الجبرية •

والواقع أن كامل حسين باعتمـاده على عامـل « مطلق الزمن » وحده فى تفسير الظواهر التاريخية ، يكون قد فرض على التاريخ الانسانى نوعا آخر من الجبرية ، مما أدى به الى بعض النتائج الخاطئة ، على عكس ما حدث بالنسبة لوحدة المعرفـة اذ أدى منهج التحليل البيولوجى الى نتائج رائعة حقا •

لكن هذا كله لا يقلل من قيمة كتاب « التحليل البيولوجى » للتاريخ فهو محـاولة فكرية جادة وجديدة لوضع تخطيط لفلسفة شاملة للتاريخ الانسانى فى ضـوء منهج التطور البيولوجى • وكى تتبين لنا القيمـة الحقيقية لهذا الجهـد القيم ، لابد من تحليله أولا بما يليق به من دقة وشـمول •

فالكاتب يؤمن بامكانية الدراسة العلمية للتاريخ والكشف عن القوانين التى تحكم حركته فهو يقول « والحقائق وحدها •• لا تصبح علما حتى تكشف عن القوانين التى تنظم علاقة هـذه الحقائق بعضها ببعض » • ووسيلته الى ذلك هو المنهج العـلمى الذى يعتمد على « المشـاهدة الدقيقـة والمقارنـة الصـادقة والاستنتاج الحق » والتاريخ فى رأيه هو ميدان هذه المشاهدات• ولا يعنى هـذا أن تكون القوانين التاريخية فى طبيعتها مطابقة

لقوانين العلوم الطبيعية حيث النتائج حتميـة والاستثناء غير مقبول . « فليس على التاريخ أن يصدق فى تفصيلاته . وهو صادق من غير شك فى عمومياته وقضاياه الكبرى هى أصدق ما فيه . وعليها وحدها المعول فى اثبات القوانين التاريخية » .

لكن ما هو التاريخ ؟

والتاريخ هو أثر الزمن فى كائن حى بعينه هو الانسان . هذا التحديد يجعل الزمن محور بحوثه كلها . فليس من شأن التاريخ أن يبحث فى طبيعة الانسان وغرائزه وفنونه واجتماعياته مجردة عن الزمن . هذا شأن الفلسفة والعلوم . أما التاريخ فانه يبحث فى هذا كله فى نطاق تتابع هذه الأمور تتابعا زمنيا .

مطـلق الزمـن :

وحين يبدأ المؤلف فى تحقيق هذه الغاية ، نجد أنه يرجع التطور التاريخى كله تقريبا الى عامل واحد هو مطلق الزمن . وهو يؤكد أن « البحث فى القوانين التى تحدد نظـام الأحداث التاريخيـة يدعو حتما الى البحث فى الزمن من حيث أثـره فى الكائنات الحيـة عامة والانسان خاصـة ويدعو الى البحث فى الانسان من حيث تأثره بالزمن .. ذلك ان مطلق الزمن عامل قوى فى تكييف الأحـداث التاريخية وتحديد أسلوبها ونظامها » .

وفى معرض النقد نجد ان عـامل « مطلق الزمن » قـد استوقف ناقدا كبيرا هو الأستاذ محمود العالم فى مقاله « دفاع

عن التاريخ » (الرسالة الجديدة ١٩٥٧) الذى حلل فيه منهج الكتاب تحليلا وافيا بدأه وأنهاه بتقديره واشادته بغزارة علم الدكتور كامل حسين وجدية نظرته وأهمية وأصالة محاولاته لوضع تخطيط شامل لتفسير التاريخ على أساس بيولوجى • ولعل الأمانة تدعونى هنا الى الاعتراف بأن هذا المقال هو الذى لفت نظرى عام ١٩٥٧ لمكانة الدكتور كامل حسين كمفكر وأديب • لكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن الأستاذ محمود العالم يأخذ بمنهج المادية التاريخية الذى يرى أن شكل الانتاج وعلاقات القوى المنتجة هى التى تقرر حركة التاريخ على اساس الصراع الطبقى •• وهذا المنهج يقلل دور العوامل الروحية والفكرية فى تطور الحركة التاريخية ، اذ لا يعترف لها بدور أساسى كبير •

ومع ذلك فان نقده لكتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » يتسم بكثير من الموضوعية ويقدم لنا وجهة النظر المختلفة « منهجا ومذهبا » • وبهذا تتضح لنا بعض جوانب الصورة ويسهل علينا التفكير فى المنهج الملائم لتفسير أحداث التاريخ • وأرى أنه لا يكفى لتحقيق هذا الغرض الاعتماد على منهج واحد بذاته • لكن علينا قبل أن نخوض فى الحديث عن هذه النقطة أن ننظر فيما قدمه هذا الناقد الماركسى •

وهو يرى أن « الدراسة العلمية للأحداث التاريخية لا تدعو حتما — كما يقول كامل حسين — الى البحث عن الزمن،

بل تهيب أولا بتحليل الأحداث ودراسة ما بينها من علاقات ، وتحديد قوانين حركتها » • ودراسة ظاهرة تاريخية كالاقطاع مثلا ، تستلزم فى نظره الكشف أولا عن عناصر هذه الظاهرة من قوى انتاجية وعلاقات انتاجية ونظم سياسية ومؤسسات فكرية وملابسات تاريخيـة عامة ، ثم أن نكشف ثانية عما بين هـذه العناصر جميعا من تفاعل وتداخل وصراع ، وليس هناك منهج علمى يحتم ـ كما يرى كامل حسين ـ ان تنحرف عن هذا المنهج لندرس أثر الزمن فى الاقطاع • مثلا وهو يرى أن مفهوم الزمن « مفهوم خال من الدقة العلميـة • والزمن بغير شـك حقيقة موضوعية ، ليست من صنع عقولنا كما يزعم المفكرون المثاليون ، ولكنها فى الوقت نفسه ليست حقيقة منفصلة عن حركة الأشياء والأحداث ، بل الزمن شكل موضوعى لهذه الحركة • وعندما نفصل الزمن عن حركة الأشياء ، فاننا نفقده مضمونه ودلالته ونجعل منه قوة سحرية غامضة » • ثم يقرر محمود العالم ان المؤلف يقوم بهذا الفصل بين الزمن وحركة الأشياء •• ويتحدث « عن مطلق الزمن » وبهـذا يخرج عن النهج العلمى الى النهج المثالى الميتافزيقى » •

فاذا تجاهلنا دراسة العوامل الاجتماعية التى أوجدت ظاهرة الرق مثلا والتى جعلت لهذه الظاهرة أشكالها وقوانينها المختلفة، ثم العوامل التى جعلت الظاهرة تتلاشى تاريخيـا واكتفينا بأثر مطلق الزمن فى هـذه الظاهرة لا تهينا الى موقف يفسر قيام

ظاهرة الرق وتلاشيها تفسيرا تلقائيا خالصا . وهـذا لا يساعد أبدا فى الكشف عن القوانين الداخلية لحركة الأشياء .

هـذا مجمل رأى الأستاذ محمود العـالم فى فكرة مطلق الزمن ، ولاشك عندى ان الفصل بينها وبين حركة الظواهر يجعل منها قوة غامضـة تعادل الفكرة المطلقة أو الكلية فى فلسفة هيجل المثالية . بل أن هيجل لا ينسى التفاعل بين العوامل الذاتيـة والموضوعية فى تفسير التاريخ .

والواقع أن الدكتور كامل حسين قد أدرك غموض فكرة الزمن المطلق وتحدث عنها فى « وحدة المعرفة » قائلا ان عجز الانسان عن ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكا مباشرا جعل للمعرفة حدا لن تستطيع أن تتعداه . والزمن حقيقة لا ريب فيها ولكنها أكثر الأمور غموضا على العقل ، وذلك لأن الانسـان ليس له احساس خاص يدرك به الزمن ادراكا مباشرا ، وانمـا تدركه بأثره فى الأشياء » .

وهو لا يعنى « الزمن الكونى الرياضى الذى يعده الطبيعيون البعد الرابع ، ولا الزمن الفيزيائى الذى يقيس به الرياضيون سرعة جسم ساقط فى أى نقطـة من سقوطه . وانما يعنى على التحديد الزمن التاريخى الذى نعرفـة بتتابع الحوادث فيه » . « بل انه يؤكد فى « وحدة المعرفة » (صفحة ٤٧) « ان من الخطأ العقلى ان تتصـور الزمن على انه من عوامـل التطور ، ولعل

التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب فى الكائنات الحية من صفات ، وليس لنا ان نجعل للزمن شأنا فيه » .

فاذا كان مطلق الزمن لا يصلح عاملا لتفسير التطور فى الكائنات الحية الأخرى ، فكيف يكون عاملا حاسما فى تفسير حركة التاريخ الانسانى رغم تميز الانسان بقوة العقل والضمير والارادة ، وهو ما يقرره المؤلف فى « وحدة المعرفة » .

الزمن التاريخى واثره فى الانسان :

يرى المؤلف أن الزمن يعمل عمله فى الانسان على أوجه ثلاث :

١ ــ الحياة الداخلية ممثلة فى طبائعه وغرائزه .

٢ ــ الحياة الخارجية ممثلة فى مظاهر النشاط الاجتماعى والانسانى .

٣ ــ الحياة العقلية ممثلة فى التفكير والعلوم .

وبالنسبة للحياة الداخلية ، فالمؤلف يؤكد انه لا أثر للزمن فيها وتاريخها خط أفقى ثابت فقد ظلت طبائع الانسان وغرائزه على ما هى عليه من آلاف السنين وستظل دون تغير لآلاف أخرى لأنها نتيجة للتركيب الخاص بالنفس الانسانية . (وسيظل الناس يحبون ويكرهون ويؤمنون ويكفرون ويغضبون ويرضون كما كانوا يفعلون من قبل .. وعلى هذا لا يكون لطبائع الانسان وغرائزه تاريخ) .

وهو يرى أيضا أن الجماعات والمدنيات لها صفات غالبة ثابتة فيها ثبوت الغرائز فى الأفراد • لكنها ليست مجموعة غرائز الأفراد التى تتكون منهم الجماعة • فغرائز الأفراد تتمثل فى الخير والشر ، والايمان والكفر ، وغرائز الجماعة تتمثل فى الشعور بالظلم والعدل والحرية والولاء والتمرد •

والواقع ان هذا الكلام ينطبق الى حد كبير مع ما توصل اليه المؤلف فى « وحدة المعرفة » عند شرحه للجهاز العصبى للمخ وظهور قوى الذكاء والتفكير فى العقل • فهو يعتبر الايمان غريزة لانه متعلق بنظام التطور البيولوجى حين يقول « واكبر المعنويات الانسانيه واشملها واعمقها هو الايمان وهو جماع النظام العقلى كله • وهو مظهر هذا النظام • والذين يحرمون صفه الايمان يدلون بذلك على ان فى نظام عقلهم اضطرابا خلقيا يصعب علاجه •• لان الايمان مهما يختلف موضوعه يدل على نظام فى التكوين العقلى المخى » •

ولاشك فى رأى ان فقدان الانسان للايمان عموما يؤدى الى حالة ضياع واضطراب نفسى يقود للانتحار أحيانا • اننا اذا سلمنا بهذا الرأى عن الايمان ، فقد نفهم ما يعنيه المؤلف حين يرى أيضا أن الخير والشر من الغرائز • لكننى اختلف معه فى القول بأن هذه الطباع والغرائز غير قابلة للتغيير • فعواطف الانسان المعاصر ليست بقوة عواطف الرجل البدائى مثلا سواء

كان ذلك بالنسبة للحب أو الكره أو الغيرة • يؤكد هذا عندى ما أوضحه المؤلف أيضا فى « وحدة المعرفة » من ان العقل « يتأثر بالحياة الداخلية التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخل عليه الذكاء من تغيير » •

ومعنى هذا ان الذكاء الذى هو نتيجة تجارب مختزنة فى المخ يؤثر فى العقل وبالتـالى يؤثر فى هـذه المفاهيم التى يرى المؤلف انها غرائز ويرى الأستاذ محمود العالم انها قيم اجتماعية قابلة للتطور والتغيير •

ثم القول بأن الجماعات والمدنيـات لها غرائز ، فالعـدالة والحريه والشرف أمثله على الغرائز الاجتماعية • وان المدنيـة الصينيه غريزتها خلقية وغريزة المدنية الهندية ميتافزيقية وغريزة المدنيـة بالشرق الأوسـط دينية والاغريقية منطقيـة جمالية ، والرومانية سياسيه اجتماعيـة وغريزة المدنيـة الغربية طبيعيـة تجريبية • « وهذه الصفات لا تفارق المدنيات من أول أمرهـا الى آخره وليس للزمن عليها تأثير كبير » •

ولا أعتقد ان هذه الأشياء تدخل تحت باب الغرائز أبدا ، فهى فى رأى مجرد مظاهر لمراحل تاريخية معينة ، وطول هـذه المراحل وبطء التطور التاريخى هو الذى يجعل لها الغلبة على المظهر العام • لكن ثبوتها أمر مستحيل • ولا أعتقد أن التطور

العلمى والصناعى فى الصين واليابان يتم الآن على أساس خلقى بل على أساس طبيعى تجريبى • وهذا يبين أن الطبيعة التجريبية انما جاءت تطويرا للطريقة العلمية التى بدأت منطقية جمالية فى اليونان وتجريبية عملية فى بعض بحوث الكيمياء فى الشرق الأوسط فى العصر الوسيط ، ومنها انتقلت الى أوربا لتزدهر فى ظل النهضة الأوربية وقيام الدول الحديثة مدعمة بالامكانيات المادية التى حققتها الدول الغربية نتيجة استعمارها لدول آسيا وافريقيا • ولو تماثلت ظروف التطور التاريخى فى جميع الدول وهذا فرض مستحيل ، لتبنى العالم كله هذه الطريقة التجريبية •

أما الأستاذ محمود العالم فيقول « فالطبيعة التجريبية مثلا ليست غريزة المدنيه الغربيه وانما هى ظاهرة فكريه تقوم على أسس اجتماعية وتاريخيه • انها ثمرة للثورة الصناعيه وللنظم الراسماليه وهى لا تقف عند حدود الغرب وانما تصاحب النظام الاجتماعى سواء تحقق فى الهند أو فى الشرق الأوسط ، وهى تتطور وتنمو كذلك فى ظل النظم الاشتراكية سواء تحققت هذه النظم فى الشرق أو الغرب » •

ولعله يبدو الآن واضحا انه لا ثبات ولا جمود فيما يسميه المؤلف بغرائز الأفراد ، والجماعات والمدنيات • فكل شىء يدركه التعديل والتبديل اذا تهيأت الظروف الاقتصادية والسياسية

والاجتماعية . وأعتقد أن بلدنا وهى من بلاد المدنيـة الدينية لا ترفض الطبيعية التجريبية الآن بل أن حربنا مع اسرائيل أدت فى مرحـلة ما قبل أكتوبر الى التجريب فى الأسلحـة والمعدات والكبارى وهدم جسور التراب التى اقامتها اسرائيل على الضفة الشرقية لقناة السـويس مما يعطى الدليل على ان العقل المصرى قابل لهذه الطريقة وقادر عليها لو تهيأت له الامكانيات ، كذلك الفصل بين ما يسميه الدكتور كامل حسين بالحياة الداخليـة والحياة الخارجية انما يشـكل نوعا من الثنائية الفكريـة التى هدمها الدكتور بنفسه فى « وحدة المعرفة » وخاصة فى حديثه عن مشكلة النفس حيث يقول (ص ١٧٣) :

« فعلينـا ألا نبقى على النفس على أنها شيء مستقل عن الجسم يؤثر فيه دون أن يكون منه . وعلينا أن ننظر الى النفس والشخصية على أنهما صورة النظام الداخلى للمخ » .

فالحياة الانسانية تفاعل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى. بين ما هو داخلى وما هو خارجى ، وهـذا التفاعل عملية دائمة النمو والتغيير تتأثر بظروف البيئة والمجتمع والحيـاة العقلية وتؤثر فيها ولعل هذا يتلاءم أكثر مع قوانين التطور الطبيعى التى أثبت الدكتور صحتها فى « وحدة المعرفة » وأعطتنا الأمل والثقة فى مزيد من التطور ومزيد من العلم .

ومهمة العلم هو أن يكشف القوانين الداخليــة للتفــاعل الحادث بين الحياة الداخلية والحياة الخارجية لكن المؤلف على حد تعبير محمود العــالم « بفصــله الزمن عن حــركة الظواهر النفسية عجز عن ان يتبين حركتها المتناسجة مع حركة الظواهر الاجتماعية ، وأصبح عامل الزمن عامل اخفــاء وطمس لقوانين هذه الظواهر لا عامل تحديد وتنظيم وكشف » •

وحين ننتقل لموضوع الفنون نجد أن منهج المؤلف يتضح كثيرا فى عملية الفصــل بين الشكل والموضوع فى الفن بطريقــة حادة ترفضها كل مدارس النقد الحديث تقريبا •

الفنـــون :

فالدكتور كامل حسين يرى أن الفنون هى الصورة التى يعبر بها الانسان عن طبائعه وغرائزه وعواطفه • وهى تتعلق بالحياة الداخلية للانسان وتاريخها من هــذا الوجــه قليل التغير ، ولا يتقدم تقدما مطردا على الزمن • ولهذا فان تاريخ الفنون يكاد كله يسير على نهج واحد •

ان موضوعات الفنون واحدة لا تتغير لأنها ترتبط بالطباع والغرائز والعواطف التى لا تتأثر بالزمن • « والتغيير الذى تراه فى فنون الأفراد يرجع الى زيادة خبرتهم بوسائل الأداء وتحسن أسلوبهم وليس هذا تغييرا حقيقيا » • فالتغيير يطرأ على الأسلوب

فقط لأنها « أعمال انسانية خاضعة للاختيار والذوق ويؤثر فيها الملل فتاريخها من هـذا الوجه دورى على نحو ما » •

فالمذاهب الفنية تظهر بطريقة دورية بدافع الملل الذى لولاه « لرضى الناس بالكمال دائما » وهنا تتبين عدة مراحل فنيـة أو مدارس يتوالى ظهورها على النحو التالى :

* بعد مرحـلة الطفولة تأتى المرحـلة الكلاسيكية حين تكتمل أساليب التعبير نتيجة ظهور عملاق يبلغ بالفن حد الكمال طفرة •
* ثم مرحـلة الصنعـة والتقليد بعد أن تعرف قواعـد الجمـال •
* يليها مرحلة الثورة على الكلاسيكية أو الرومانتيكية التى تقوم على الدعوة للعودة للطبيعة •
* بعد هذه المرحلة تبدأ مرحلة التقلبات فى الفن « فنراه يرتفع قليلا فلا يبلغ أسمى مراتب الرقى ، ثم نراه يهبط دون أن يبلغ غاية الانحطاط » •

ومن العناصر الأساسية فى تاريخ الفن ، ان الفنون عمل فردى فى جوهره فهى تزدهر فى عصور التفوق الفردى والملكيـة المطلقة تساعد على ازدهار الفنون لاتفاق العصرين فى التفوق

الفردى • وتفوق الجماعات لا يساعد على ازدهار الفنون • وتقدم العلوم يؤدى الى اضعافها •

وفيما يختص بتقسيم هذه المراحل وتتابعها أو ما يقوله المؤلف عن سماتها فهو أمر لا خلاف عليه وتاريخ الفنون يؤكده• كذلك الأمر بالنسبة لظهور العبقريات الفنية فى عصر التفوق الفردى • لكن ارجاع هذه الدورية لعامل الملل وحده فهو أمر ليس من السهل الاقتناع به خصوصا وان الملل حالة نفسية فردية لا جماعية • ولا تكفى لتفسير ظهور مدارس الفن المختلفة كالرومانتيكية أو الواقعية مثلا • لأن هذه المدارس كانت تعبيرا عن متغيرات عديدة فى النواحى الاقتصادية • والاجتماعية والسياسية •

وليس الاختلاف بين الواقعية أو الرومانتيكية وبين الكلاسيكية مثلا مجرد اختلاف فى الأسلوب أو الأشكال الفنية• بل كان اختلافا فى هدف الفن ومضمونه أيضا •

وعلى هذا لا يمكن الفصل ــ بطريقة حادة ــ بين أسلوب الفن ومضمونه كما فعل المؤلف ، وقد حدث ذلك لأنه جمد مضمون الفن وفرق بين مذاهبه أو مراحله على أساس الأسلوب فقط •• وتبعا لهذا أصبح تاريخ الفن عنده هو تاريخ الأساليب الفنية •

الأديـــــان :

يقول المـؤلف « الايمـان غريـزة من أقـوى الغرائـز الانسانية » ••• ومن حيث هو غريزة لا تاريخ له • بل هو مثل الحب سيظل قائما فى النفس الانسانية ما دام الانسان انسانا •• والدين هو هـذه الوسيلة للتعبير عن الايمان تعبيرا منظمـا ومن هذه الناحية لا يختلف تاريخ الأديان عن تاريخ الفنون • وتظهر مراحل تطورها على النحو التالى فى مراحل تشبه الفنون تقريبـا •

* تبلغ الأديان غايتها من الرقى بظهور الأنبياء ونزول المقدسات السماوية •

* يعقب ذلك عهد أقل منه عظمة حيث « يصبح الناس أكثر عناية بالعبادات منهم بالايمان • والعبـادات هى المظهر الخارجى للدين • والعناية بها كثيرا ما تكون دليلا على ضعف الايمان النفسى العميق • وهو بالضبط ما عابه سيدنا عيسى على المتدينين الفريسيين من بنى اسرائيـل » •

* ثم يقوم الأولياء والقديسون فى عصور مختلفة يردون الناس الى الايمان الحق وينادون بنبذ التدين الكاذب• ولايزال الدين يقوى على التوالى ، لكنـه لا يبـلغ

القمة ، ولا يبلغ الحضيض حين يضعف . لكنه لن يندثر ولن يقضى عليه .

فالدين يظهر فى أول المدنيات ويبلغ أوجه بعد قليل ثم يعلو ويهبط . وهذه الدورية فى تاريخ الفنون . الا أنها أطول وأبعد مدى وأقل تغييرا من دورية الفنون لأن النفس لا تمل العبادات — وهى وسيلة التعبير عن الايمان — كما تمل وسائل التعبير فى الفنون .. والدين كالفنون يبلغ القمة فى عهود الحكم الفردى . وتعلق رجاله بالسلطان أمر طبيعى .

الحياة الخارجية :

وهى عند المؤلف تشمل مظاهر النشاط الانسانى كلهـا بما فيها الفنون ، وأعمال النشاط الانتاجى الاقتصادى وأوجه النشاط الاجتماعى المختلفة . وأثر الزمن فى هذه الحياة الخارجية دورى . وتاريخها سلسلة متعاقبة من العلو والهبوط على اختلاف فى درجات كل منها .

« والدورية ليست غريبة عن القوانين البيولوجية ، فحياة النبات دورية صريحة . وكثير من حياة الحيوان وخاصة الاناث دورية . وأصل هذه الدورية صفة كائنة فى المادة الحية نفسها » .

« هذه المادة لها صفتان هما قابليتها للتأثر بالعوامل

الخارجية ، وقابليتها لمقاومة هذه العوامل . والتوازن الذى نراه فى المادة الحية ليس توازنا ثابتا وانما هو توازن قلق ينشأ من تعادل هاتين القوتين » .

« وهذه الدورية الثابتة فى أصل الحياة موجودة فى التاريخ . ومن آثارها ما يصح أن نسميه النبض التاريخى .. وتختلف هذه الدوريات فى مداها وقوتها . وهى كالذبذبات أو الأمواج تختلف سرعة وبطأ وعلوا وانخفاضا ، وهى مركبة بعضها فوق بعض ، فهناك دورة عامة قد تشمل الجزء الأكبر من العهد التاريخى كله ، وفى أثنائها دورات أصغر منها ، وفى أثناء هذه دورات أقل » .

وكما يرى المؤلف ان هذه الدورية هى أثر الزمن فى النشاط الانسانى ، فان العامل المحرك لها هو الملل . وهذا العامل يرجع أيضا الى أصول بيولوجية . لا نزاع فى أن المادة الحية تتأثر بالعوامل الخارجية وتستجيب لها الى حد ما . فاذا استمر عامل منها مدة طويلة أصاب المادة الحية منه التعب أو الملل فيصبح العامل أقل أثرا » .

وهكذا يجد المؤلف فى الملل قانونا عاما يفسر به حركة التاريخ الانسانى وظواهره الاقتصادية والاجتماعية . . . .

ويعلق الأستاذ محمود العالم على هذا التخطيط العام بأن

المؤلف انتهى اليه نتيجة فصله الزمن عن حركة الأشياء التاريخية مما أدى الى قصر حركة التاريخ البشرى على هـذا الشـكل المحدود الذى يسميه المؤلف بالدورية .

* أدرك المؤلف عجز مطلق الزمن وحده فى تفسير حركة التاريخ فلجأ الى عامل نفسى خالص هو الملل « ليجعل منه القوة المحركة للتاريخ ، الموجهة لمساراته » .

* وفى رأيه أيضا ان استفادة المؤلف بالبيولوجى لاتستقيم مع المفاهيم الجديدة لهذا العلم ، ولا تستفيد من حقائقه فى تحديد نظرة علمية سديدة .

(فلاشك ان الدورية صفة لكثير من الظواهر البيولوجية فهى صفة لكثير من الظواهر الحية فى النبات والحيوان والانسان ولبعض الظواهر الاجتماعية ، ولاشك كذلك ان الدورية ثمرة توازن قلق ـ على حد تعبير المؤلف « صفحة ١٦ » ـ بين عوامل داخلية وعوامل خارجية ، على ان المسألة ليست كما يرى المؤلف مجرد تعادل بين هذه العوامل ، وهنا نلمح أثر لنظريـة توفيق الحكيم ، انها هى فعل وتفاعل وامتصاص وبذل وهدم وبناء وتعويض واكتساب وصراع ونمو .. وهى عمليات متشابكة فى الكائن الحى .. ولكن المـؤلف يتجنب الاسـتفادة من هـذه العمليات الداخلية جميعا ، مكتفيا بظاهرة عامة هي الدورية التي

لا تبرز بوضوح قوانين الحركة الداخلية للظواهر الحيــة بقدر ما تقدم صفة عامة لهذه الظواهر) .

ورأى الخاص هو أن الدكتور كامل حسين قد قدم بنفسه الأساس العلمى الذى يدفعنا للاحتجاج على منهج تفسيره للتاريخ على أساس عاملى مطلق الزمن والملل وذلك فى كتاب (وحدة المعرفة) الذى نشر بعد ذلك بسنوات .

ففى حديثه عن التفكير والارادة وهما صفتان يتميز بهما الانسان على سائر الكائنات الحية يقول المؤلف عن المخ « وليست وظيفته الوحيدة أن يستقبل ويختزن . بل أن له حيــاة داخلية . وهناك فرق كبير بين أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم والمخ الانســانى ذلك ان تفاعلات الحياة فى الخــلايا تخــلق تيارات تسلك المسالك التى مهدتها لها الطبيعة أولا والتى مهدتها لها العوامل الخارجية ثانياً ثم هى تغير من هذه المسالك على قدر قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها . وعلى قدر توافقها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة فى خلايا المخ . هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة . وهى من عمل حياة الخلايا نفسها وهى تتأثر بالمسالك القديمة وتؤثر بدورها فى هذه المسالك » .

وهذا يعنى أن قوة التفكير والارادة لهما أثر على المسالك

الموروثة أو القديمة فى المخ أى أن الفكر والارادة هما عمليـة تفاعل بين الداخل والخارج وبنشوء الضمير قد أصبح لهما أخطر الأثر فى حياة الانسان وعلى هذا يصبح تفسير التاريخ الانسانى على أساس عوامل بيولوجية بحتة مرحلة سابقة تجاوزتها أفكار المؤلف نفسه فى كتاب « وحدة المعرفة » •

ولكن هذا كله لا يمنع من المضى فى تحليل هذا الكتاب حتى تتبين جيدا كل نتائج هذا المنهج وهى تتضح أكثر فى تطبيقه على التاريخ السياسى القومى الذى يقسمه المؤلف الى أربعـة عهود هى (صفحة ٥١ ــ ٥٢) :

١ ــ عهد تفوق الفرد على الجمـاعة ــ وفيه تخضـع الجماعة للفرد خضوعا تاما يقرب من العبـادة وفيه أيضا تنمو الأمة وتبلغ الحياة القومية أوجها ويسمى هذا بالعصر الذهبى •

وهو عصر لويس الرابع فى فرنسـا واليزابيث الأولى فى انجلترا وفردريك الأكبر فى ألمـانيا والقيصر بطرس الأول فى روسيا •

٢ ــ والعهد الثانى هو عهد تغلب الجماعة على الفرد ويتم هذا غالبا عن طريق الثورة كما حدث بالنسبة للثورة

الفرنسيـة وثورة الانجليز على تشـارلس الأول ، وكذلك الثورة الروسية ١٩١٧ .

٣ ـ وفى العهد الثالث يستعيد الفرد تفوقه على الجماعة ، ويكون ذلك عـادة لفترة قصيرة وهو عهد نابليون وكروموىل وهتلر وستالين .

٤ ـ أما العهد الرابع فيتم فيه النصر الثانى للجماعة . وهـذا أيضا من آثار الدورية التاريخيـة وهو عهد الجمهورية الثانية فى فرنسا وعهد الحياة البرلمـانية فى انجلترا وهذا هو العهد الحاضر فى كل من ألمـانيا والروسـيا .

« على أنه يلاحظ أن التاريخ لا يعود القهقرى . وان غايته تغلب الجماعة على الفرد . وانه حين يبلغ تاريخ أمة هذا العهد يصبح من المستحيل على الفرد أن يتغلب على الجماعة مرة ثانية . لهذا يستطيع التاريخ أن يؤكد أن ظهور عظمـاء الرجال الذين يتحكمون فى مستقبل أمتهم أصبح مستحيلا فى فرنسـا وانجلترا وأمريكا » .

ولا يملك الانسـان الا الاعجاب والتسليم بصحة هـذا الاستنتاج الأخير . فالتاريخ المعاصر يؤكد فعلا استحالة تحكم

الفرد في مصير أي دولة من الدول الثلاثة التي ذكرها المؤلف سواء كانت فرنسا أو أمريكا أو انجلترا .

لكن هذا التطور الذي طرأ على حياة هذه الأمم لايمكن رده الى عامل مطلق الزمن وحده أو عامل الملل الذي يحرك هذه الدورية كما يقول المؤلف . كذلك لا يكفي هذين العاملين في تفسير قيام وسقوط هذه النظم الاجتماعية أو العهود التاريخية كما يسميها المؤلف .

فالعهد الأول الخاص بتفوق الفرد المطلق على الجماعة هو عصر الاقطاع حين كان الملوك يحكمون فيه الشعوب بالحق الالهي المطلق . وتكون ظاهرة الاقطاع أو تلاشيها لا يمكن رده الى عامل واحد بعينه أو عاملين معا فقط كعاملي مطلق الزمن والملل . فهذا يعني أن الظواهر الاجتماعية تتكون وتتلاشى تلقائيا أو قضاءا وقدرا . دون تدخل الارادة الانسانية كلية . وهذا أمر يصعب تصديقه ، ولا تؤكده وقائع التاريخ .

فالتاريخ يثبت أن سقوط النظام الاقطاعي في كل من انجلترا وفرنسا قد سبقه تحولات فكرية واجتماعية كبيرة وأهمها ظهور الحركة الانسانية ابان عصر النهضة التي قامت على أساس ان الانسان سيد مصيره وسيد الكون وطالبت بالفصل التام بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية أي بين الكنيسة والدولة .

وعلى هـذا حطمت الأساس الأول لحق الحكم المطلق الذى كان يستند عليه الملوك ٠

كذلك كانت محاولات النبلاء فى الحصول على مزيد من السـلطة والنفوذ فى ادارة حـكم البـلاد وأعتقـد أن المـاجنا كارتا ١٢١٥ والثورة الانجليزية ١٦٤٨ بقيادة كرومويل لخير الأدلة على ذلك ٠ وفى فرنسـا كانت هنـاك محـاولات متشابهة بالاضافة الى الحركة الفكرية التى بدأها روسو وانتظم فيها الكثيرون مثل مونتسكيو وفولتير وغيرهم ، والتى مهدت السبيل لانتشار الأفكار ، الثورية واندلاع الثورة الفرنسية فى نهاية الأمر التى قضت على هـذا النظام وأقامت حكم البرجوازية النامية على أنقاضه ٠

كل هذا يثبت ان هناك عوامل كثيرة موضوعية تتحكم فى حركة هذه الظواهر وان هذه العوامل الداخلية المتشابكة هى التى تجسـد القوانين الداخليـة للظواهر وهى المسئولة عن سيادتها أو تلاشيها فى زمن معين أو مكان معين ٠

كذلك تفسير هذه الظواهر على أساس العامل الاقتصادى فقط المتمثل فى طبيعة العلاقات الانتاجية أو فى « سيادة شكل من أشكال الانتاج » كما يفعل الأستاذ محمود العالم أمر لا يمكن التسليم به على اعتبار أنه العامل الوحيد والحاسم ٠ لأن تعقد

الظواهر التاريخية على مدى التاريخ كله لا يتيح ذلك ، وهو ما أدى الى تعدد مناهج تفسير التاريخ دون أن يتمكن منهج واحد أو مدرسة واحدة من اكتشاف كل الأسرار أو القوانين التى تحكم حركته وتوجه مساره •

وبناء على هذا ، لا يمكن تجاهل الاختلاف الوظيفى بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية ووضعهما فى مستوى واحد وفى دورة تاريخية واحدة كما فعل الدكتور كامل حسين •

فوظيفة الثورة أو أهدافها تكون دائما من العوامل الداخلية التى تحدد وسائل هذه الثورة وشكلها • وهو أمر يرفضه الدكتور كامل حسين ضمن رفضه لمذهب الغائية الفكرية الذى يرفض القول بوجود غاية لكل نظام تؤدى الى تحديد الوسائل اللازمه لقيامه ، ويصر على أن النظام هو الذى يؤدى بتطوره الطبيعى الى وجود الغاية • وليست الغاية هى التى توجده •

ولعله فى نطاق المبدأ يعترف للثورات بغايات حين يقول فى (صفحة ٥٧) •• « ونجاح الثورات يتعلق بزمن وقوعها ، وموقع أغراضها من تاريخ الأمة التى تقع فيها ، وتاريخ العصر الذى تقوم فيه • فاذا وافق غرضها تاريخ الأمة كان نجاحها محققا • واذا حدث وكان ذلك موافقا لروح العصر كان نجاحها أتم وأثرها

أبقى » . فهو لا يرفض الغاية نهائيا وانما يرفض أسبقية هـذه الغاية أو فرضها مسبقا للثورة قبل أن تتحقق .

والواقع ان الغايات تكون استجابة لمطـالب شعبية ملحة أو تحديات تاريخية وهذا ما يجعل آمر نجاحها ميسورا .

الا ان الدكتور كامل حسين لا يفرق بين طبيعة الثورات وطبيعه الحروب قائلا « الثورات تشبه الحروب فى طبيعتها وفى أسبابها ، وظروف نجاحها او اخفاقها . ولا يفرق بينها الا ان الثورات حروب أهليه ، والحروب ثورات دوليه » . وان كان يحمد له رفضه اعتبار « الحروب أمر طبيعى فى الانسان » والذين يقولون بهذا « يلتمسون الحجج فى ما يدعونه من أن تنـازع البقاء وبقاء الأصلح قانون طبيعى فى حياة الحيوان .. وهـذا خطأ .. فان كان التفوق أمرا طبيعيا فان بقاء امتيازات التفوق أمر غير طبيعى . والقانون البيولوجى الذى يقول بتنازع البقاء ليس فى الواقع صوابا » .

وقديما قامت الحروب الاستعمارية للحصول على امتيازات مستباحة ليست من حق أو نصيب أحد من الناس .. ولم يعد هذا سببا من أسـباب الحروب الحديثة . انما تقوم الحروب الحديثة حين يكون هنـاك تناقض فى الحياة الدولية يجعل بعض الدول متمتعة من غير حق ، وغيرها محرومة من غير حق ، ومن أسبابها

اختلاف تاريخ أمتين اختلافا جوهريا . فتكون احداهما فتية قوية تاريخها فى صعود ، وأخرى صاحبة امتيازات قديمة وتاريخها فى دور الجزر . هذه الحال هى التى أدت الى حرب السبعين والحربين العالميتين .

ومن هذا ينتهى المؤلف الى أن التاريخ الحديث سينتهى الى زوال الامتيازات من أى نوع . والنتيجه المحتومه للحروب الحديثة هى القضاء على كل لون من الوان الامتيازات ، وأثر انتصار بريطانيا فى الحربين دليل هذه الحقيقة الواضحة .

الحرب الثالثة :

ويرجح المؤلف وقوع الحرب الثالثة على أساس تاريخى هو « أن الحروب تتسع دائرتها المرة بعد المرة ، وتاريخها ينفصه أن تقع حرب بين نصفى العالم » . وذلك لأن الدول الكبرى لاتزال تتمتع بامتيازات لا تريد ان تتنازل عنها طواعية على الرغم من زوال التفوق الذى تقوم عليه . ولا يمنع قيام هذه الحرب الا شىء واحد هو ازدياد قوة الجماهير ، وقدرتهم على التفكير واحتمال عدم خضوعهم لقادتهم حين يؤمرون ان يقتلوا ويقتلوا . « على انه اذ لم تقع هذه الحرب فى عشر سنوات فسيكون من شان عوامل منعها ان تتغلب فلا تقع حرب عالمية أبدا » .

وهى نبوءة صادقة حتى الآن . فقد مضى ربع قرن أو يزيد

على صدورها عام ١٩٥٥ وهو تاريخ نشر الكتـاب ، ولم تقع الحرب العالمية وأعتقد ان أسباب منعها بدأت تتغلب فعلا فى ظل الوفاق الدولى السائد الآن بين القوتين الكبيرتين .

ثالثا ــ تاريخ الحيـاة العقلية :

وهى عند المؤلف تتمثل فى الفكر والعلوم وتتعلق بما يمكن البرهـان عليه عقلا . ولا يعترى المـادة الحيـة منهـا التعب أو الملل . وهى لهذا أكثر الأشياء تأثرا بالزمن . وأثر الزمن فيها انه يزيدها نموا على الدوام . وهى ليست خاضعـة للمل وهو أصل الدورية .

والحياة العقلية أهم ظواهر الحيـاة فى المدنيات . وهى دائمة النمو ، فكان على المدنيات أن يكون نموها مطردا لا نهاية له . ولكن هـذا يخالف الواقع . فلكل مدنية نهاية . والواقع ان المدنيات ــ وقوامها طريقة تفكيرها ، وأسـلوب بحثهـا ، وموضوع درسها ــ لا تنقرض ولا تموت ولا تضعف بعد قوة وانما تقف . والسبب ان لكل طريقـة تفكير حدا لا تستطيع بعده أن تزيد من علم الناس . فنراهم عند ذلك ينصرفون عنها يبحثون عن طريقة تفكير أخرى تفتح لهم آفاقا جديدة . كذلك كانت نهاية المدنية اليونانية . فقد وقفت عندما أصبحت طريقتها فى العلم ، وهى الطريقة الاستنتاجية ، عاجزة عن ان تزيد فى علوم الناس .

ولا ينطبق هذا على المدنية الغربية الذى يظن البعض انها دخلت دور الانحطاط فالمدنية الغربية ــ وهى تحليلية تجريبية ــ ستستمر مادامت قادرة على زيادة علمنا •• ولن تقف الا حين تصبح فى حاجة الى وسيلة أخرى غير التحليل والتجريب لزيادة علمنا بأسرار الكون (ص ٦٤) •

ولاشــك ان الحيــاة العقلية هى أهم ظواهر الحيــاة فى المدنيات ، ولكن هذا لا ينفى تأثرها بعوامــل أخرى غير مطلق الزمن •

فالأوضاع الاقتصــادية والاجتماعية والسياســية تؤثر فى توجيه الحياة العقلية أيضا • وتوقف مدنية هو نتيجة لكل هــذه المؤثرات التى تؤدى الى انصراف النــاس عن طريقــة التفكير الخاصة بهذه المدنية •

العــلم ومستقبل الانســان :

والذى يقرأ هــذا الكتاب تملأ نفسه روح الثقة والتفاؤل بمستقبل العلم ومستقبل الانسان • فالمؤلف يؤكد أن تقدم العلم يؤدى الى زيادة كل قوة فى الانســان زيادة تمحو الفروق بين الأفراد والأمم ، حتى الذكاء أوشك العلم أن يقضى على امتيازاته بين الأفراد • فالتكنولوجيا جعلت ضعاف الذكاء قادرين على مجاراة الأذكياء فى دقة المشاهدات وقياسها • وبهذا يؤدى العلم

الى المساواة بين الناس • ويتأكد ايمانه بهذا المستقبل فى تحليله للنظم السياسية المختلفة •

الديمقراطيــة والشــيوعية :

وهو يقرر انه ليس فى عالم السياسة أخطر وأجدر بالبحث من هذين المبدأين والنظم القائمة عليهما • وهما يقفان وجهــا لوجه وقد يقع بينهما صراع لا ينجو منه غالب ولا مغلوب •

وهو يرى أن مبادىء الشيوعية خير من تاريخها وآراؤها خير من أعمالها • أما الديمقراطيــة فتاريخها خير من مبادئهــا التى لاتزال تعترف بامتيــازات الفروق بين النــاس • بعكس الشيوعية التى تدعو الى القضاء على الامتيازات الطبقيــة على أسس علمية ثابتة يحتمها التاريخ • لكن التطور التاريخى فى رأيه يثبت ان النظريات الاجتماعية والاقتصادية فى الشيوعية تقدمية بينما النظــام السياسى للشيوعية رجعى وينتهى من المقارنة بينها الى الرأى التالى :

« فاذا كانت كفة الشيوعية راجحة فى الاجتماع والاقتصاد من ناحيــة صــواب المذهب ، فان الديمقراطية راجحة فيهما من الناحية العملية • أما من ناحية النظام السياسى فكفة الديمقراطية راجحة تاريخيا من غير شك رجحانا يحقق لها النجاح » •

ومن هذا تتبين انه ليبرالى يؤيد النظام الديمقراطى الذى يحقق العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية فى آن واحد .

كلمة أخيرة :

يخيل الى بعد أن فرغت من هذا التحليل أن الدكتور محمد كامل حسين ــ رحمه الله ــ قد أدرك قصور منهج التحليل البيولوجى القائم على مطلق الزمن والملل فى توجيه دورات التاريخ ، وان بعض المآخذ التى ذكرت قد صححها هو فى كتاب « وحدة المعرفة » الذى صدر على ما أعتقد بعد ذلك بسنوات . كما يؤيد ذلك الرأى عندى ما أخبرنى به الدكتور محمد جلال موسى ابن أخته من أنه جمع نسخ كتاب « التحليل البيولوجى » من المكتبات قبل توزيعه (١) . لكن هذا لا يقلل من أهمية الكتاب كمحاولة فريدة فى اللغة العربية لاكتشاف منهج لتفسير التاريخ الانسانى ، كما أن اختلافنا مع المؤلف لايعنى انكار هذا المنهج كلية أو انكار فضل المؤلف فى لفت اهتمام المفكرين الى العامل البيولوجى ودوره فى حركة التاريخ .

كذلك فان قراءة هذا الكتاب والتمعن فيه كفيلة بأن

(١) وربما ترجع عملية جمع الكتاب من التداول الى خشية المؤلف من اساءة تفسير بعض افكاره خصوصا ما يتعلق بهجومه الشديد على دعوات الوطنية والقومية المتطرفة ، وكانت القيادة الثورية قد أخذت حينذاك ترفع شعار القومية العربية وتشدد عليه .

تحرك كل قوى الفكر والخيال فى القارىء • فهو فى رأى — رغم صغر حجمه — بعد موسوعة معارف علمية وفلسفية وسياسية فى آن واحد تجعل من الاطلاع عليه متعة ، ومن الالمام به ثروة فكرية وعلمية لا تجتمع فى مئات من الكتب المنشورة فى ساحتنا الآن •

أضف الى ذلك قدرة هذا العالم الفيلسوف فى ترتيب أفكاره وعقد المقارنات وابراز الفروق الدقيقة بين المذاهب والأفكار مما يجعل مراجعته من وقت الى آخر رياضة عقلية تزيد من نشاط الفكر وتدفعه الى أرحب الآفاق •

منهج جديد لوحدة المعرفة

وكتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين ، يمثل محاولة طموحة وجريئة لاستنباط منهج علمى جديد لتفسير تطور المعرفة الانسانية وحل معضـلاتها .. وذلك بكشف الترتيب الطبيعى للقوانين الكونية التى تحتم هذه الوحدة واستقرارها .

وهو كتاب فريد وخطير فى آن واحد . ودليل فرديته انه أول كتاب عربى تقريبا يتصدى لوضع نظرية للمعرفة فى العصر الحديث ، مستندا فى ذلك الى أحدث ما أنجزته العلوم الطبيعية من اكتشافات وما توصلت اليه من حقائق تأكد ثبوتها بشكل قاطع . وهو خطير لأنه يدخل الى ميدان الفكر الانسانى مسلحا بهذا المنهج العلمى الجديد ، بل انه يتصدى لهدم كثير من الأبنية والمفاهيم الفكرية والفلسفية والدينية التى لا تطابق ما اكتشفه العلم من حقائق الكون .

وطموح هذا المنهج لا يقف عند حد ، فهو يسعى لاكتشاف الأصـل الطبيعى للأخـلاق والضمير والفنون والحب ، وكذلك التفسير الطبيعى لاختلاف الأديان .

وربما كانت هذه المسألة من الأسباب التى أدت الى اغفـال هذا الكتاب وتجاهل أمره . فرغم أهميته الشديدة بالنسبة لمسار الفكر العربى المعاصر فلم يكتب عنه أحد من المفكرين أو النقاد . وقد يعلل هـذا الموقف بصعوبة هذا الكتاب نتيجة تعمقه فى

مسائل وتفاصيل علمية بحتة لا تستهوى الكثيرين من كتـاب الصحف والمجـلات خصوصا وأن البحث يتطرق الى مسائل فلسفية متشابكة لا يصبر عليهـا الا ذو الاهتمامـات العامـة المتعمقة أيضا .

أما بالنسبة لى ، فغاية جهدى أن أوفق فى تحليل وعرض هذه النظرية الفكرية الجديدة بصورة تجعلها أيسر فهما وأكثر قبولا لدى أمثالى من عامة المثقفين .

ولذلك على أسـاس من التسليم المطلق بصحة ما أورده المؤلف من حقائق علمية دقيقة لا أملك ـ بحكم تخصصى الأدبى واهتماماتى العلمية العامة ـ ما يؤهلنى لمناقشتها أو التشكيك فيها . لكن هذا لا يمنع من مناقشة النتائج الفكرية المترتبـة على هذه الحقائق كلما لزم الأمر . وحسبى هذا ، فالأهم عندى هو أن ألم بمنهج هذا المفكر العظيم وفلسفته كما تتبلور وتتضح فى هـذا الكتـاب . وهو أمر ضرورى فى سبيل تفهم أعمـاله الأخرى . فلنبدأ به ، وعلينا بالصبر مع بعض التفاصيل اللازمة لتحقيق هذه الغاية .

هرم مقلوب الوضـع :

فالكاتب يرى ان صـورة المعرفة الانسانية الآن مضطربة مفككة ، بها كثير من الشوائب . لأن العقل حين أخذ نفسـه

بالبحث فى أسرار هذا العالم لم يبدأ حيث يجب البدء ، ولم يقدر لعلمه أن ينمو نموا طبيعيا ، ولم يقدر له أن يلم بأشتات هـذا العلم فيراه جملة واحدة .

« ومدار البحث فى هذه الرسالة غايته الجمع بين فروع المعرفة جميعا بما يبين لنا الصورة الكاملة للمعرفة كلها . عند ذلك تتبين وحدة التفكير ووحدة النظم الكونيـة ويكون علينا اذا اتسقت لنا الصورة الكاملة ، ان نسقط من المعرفة كل ما لا يتفق وهذه الصور » .

فالمعرفة قائمة على هرم مقلوب الوضع يتناقض مع الترتيب الطبيعى للقوانين الكونية الذى يبدأ بقوانين المـادة ، ثم تتلو ذلك قوانين الحياة وهى أكثر تعقيدا ورقيا .ثم تأتى بعدها قوانين الانسان وهى أخص وأرقى وأكثر تعقيدا من قوانين الحياة . ولو أن المعرفة بدأت على هـذا النحو ، وتقدمت على هـذا الترتيب ، ما أصابها من الاضطراب ما نراه اليوم . ولكنها بدأت بالانسانيات ثم أتبعتها بعلوم الحياة ثم بالمـاديات . النظـام الكونى يبدأ من أسفل الى أعلى ، ونظام المعرفة بدأ من أعلى الى أسفل ومن هنا كان الاختلاف » .

وسبب هـذا الاختـلاف ان الكشف عن قوانين المـادة يحتاج الى أجهزة دقيقة معقدة لم تكن فى متناول الانسان عند

أول عهده بالتفكير .. ولذلك خفيت قوانين المـادة حتى عصرنا هذا . أما جهاز الكشف عن الانسانيات فهو التفكير الخالص . وكان البرهان القاطع على صواب أى أمر من الأمور هو مطابقته لنظام العقل . ومن ثم أصبح المنطق معيار الحقيقـة . وحسب المفكرون ان كل ما هو منطقى يكون بهذا الوصف وحده حقيقة مطابقة للواقع . وهـذا خطـأ ، لأن « التفكير الحديث يرى أن المذهب الحق هو الذى يتفق والقوانين الطبيعيـة الأخرى المـادية والحيوية والانسانية » .

والمؤلف يثق ثقة كاملة بالعلم الحديث وما حققه من نتائج ، بل أن ثقته تمـلأنا بالأمل فى قدرة هـذا العـلم على تخليص الانسان من بعض أزماته الفكرية وما يترتب عليها من تعصب أو غرور ومن شـك أو اهتزاز لأنه سيقدم لنا اليقين .

ولاشك أن اتفاق البشر على حقائق الفكر والعلم سـوف يقرب بينهم ويزيد من فرص التفاهم والصداقة . وتتضح ثقـة المؤلف بالعلم وبنتائجه حين يقول :

« والاصلاح المنهجى الذى ندعو اليه يقوم على انه حان الوقت الذى نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات وهى أساس ثابت ، قائم على البرهـان والتجربة ، فيه تكون القضـايا عامة غير قابلة

للاستثناء ، وفيه يكون الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع للآراء المتضاربة ، وفيه يكون الواقع والمعقول شيئا واحدا لا يقبل الخلاف ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه وأسلوبه ، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية ثم نقيم على هذا كله علوم الانسانيات متسقة فى نظامها العام مع علوم الحياة فيتبين لنا المذهب الحق من بين المذاهب الانسانية المتعددة » .

والآن وقد اتضح لنا منهج الكتاب وغايته ، علينا أن نتتبع فكر المؤلف فى تسلسله حتى يتسنى لنا فهم هذا المنهج وما يترتب عليه . وكامل حسين يبدأ بالحديث عن المعرفة فيقول « فى الكون نظام ، وفى العقل نظام ، والمعرفة هى مطابقة هذين النظامين . والنظامان من معدن واحد ، والمطابقة بينهما ممكنة لما فيهما من تشابه . ولو لم يكونا متشابهين لاستحالت المعرفة .. وتشابه النظامين الكونى والعقلى هو جوهر امكان المعرفة » .

والعقل هو جهاز التفكير فى الانسان . وهو يتميز بثلاث خصائص غالية فيه هى ، انه لا يطيق الفوضى ، ولا يحتمل الفراغ ، ولا غنى له عن تجسيم المعنويات . وخوفه من الفوضى دفعه الى تناول كل ما يعرض له من أمور بالتنظيم والترتيب .

بل أن المؤلف يذهب الى أن هـذه القوة التنظيمية « غريزية » فى العقل . يدل على ذلك ما نراه من النظام فى اللغة . واللغة عمل عقلى محض وهى تنشأ منظمة ، وقواعدها منطقية .

والعقل لا يحتمل الفراغ ، وليس معنى هـذا انه لا يعترف بجهله أشياء بعينها، وانما يعنى ذلك أن العقل يحـاول أبدا أن يكون علمه كافيا لتفسير كل ما غمض عليه . والاتزان العقلى لا يتم للانسان الا اذا كان علمه مهما قل يملأ فراغ عقله كله . لهذا كان حتما أن تكون المذاهب الدينية والفلسفية كاملة تحاول كلها التفسير التام لكل ما يعرض للانسان .

وتجسيم المعنويات يدفعه الى تمثيل المعنويات تمثيلا يجعلها فى متناول حواسنا العادية ، ومن هنا كانت رغبة الناس فى تمثيل الايمان بالعبادات ومن هنا نشأت رغبته فى تصـوير الجمال ، والتغنى بالحب ، واختراع الموسيقى كل ذلك لابراز معنويات كامنة فى النفس فى صور حسية .

« هـذه الصفات الثلاث ثابتة فى العقل ، وهى مصـدر قوته ، الا انه حفل بها كثيرا .. فحين تكون الحقائق التى لدى العقل قليلة نراه يضطر الى تنظيم علمـه وملء فراغه وتجسيم معنوياته قسرا مسرفا فى ذلك على نفسه وعلى الحق.وهو فى ذلك مسبوق بقوة قاهرة تجعله لا يستقر حتى يجد نظاما يرتاح اليه ،

فان وجد النظام الحق كان خيرا ، وان لم يوجد فلا مانع من اختراع نظم مصطنعة لا تقوم على أساس من الواقع ، ذلك أصل الخرافـات » •

مـذاهب التفكير :

ومذاهب التفكير الكبرى نوعان ، الأول خرافى علمى ، والثانى فلسفى دينى • الأول موضـوعه ربط الأشـياء بعضها ببعض ، وكشف العلاقات بين الأسـباب والمسببات ، حتى اذا بلغت العلاقات حد يجعلها ذات نتائج مطردة أصبحت الخرافات علما ، والثانى هو « المذهب الفلسفى الدينى ، وهو مذهب غائى شامل ، يبدأ بأواخر الأمور ، ويفسرها تفسيرا كاملا ، وهو مذهب يضيق بالتفاصيل ، ويزعجه البحث الدقيق فى ما هو واقع فعلا ، وهو يعد قضاياه حقا مطلقا • فاذا وافقها الواقع فالواقع صواب وان خالفها فالواقع خطـأ الى أن يصوبه التأويل ومن أثار هذا المذهب الدين والاخلاق والفلسفة والاجتماع » •

ولابد فى كل مذهب من هذه المذاهب من اثبات الحقيقة بنوع من أنواع البراهين • والحقيقة هى وضع كل ظاهرة مادية كانت أو معنوية موضعها من النظام الكونى • واذا كان العقل هو الوسيلة التى توضع بها الظواهر موضعها فلابد له من طريقة أو برهان لاثبات الحقيقة •

أما البرهــان فى المذهب الخرافى العــلمى فهو يقوم على الاطراد وعلى أن العلاقــة بين موضــوعات البحث فيه يمــكن اخضاعها لنظام رياضى ثابت حتى اذا أصبحت العلاقات منظمة ثابتــة خاضعة للتجربــة والحساب كان ذلك آخر الخرافــات وأول العلم •

أما التفكير الدينى فلم يهتد الانسان بعد الى برهان فيه مقطوع بصحته ، ومقياس الحق فيه الالهام والشعور النفسى بأن ما يعتقده المرء هو الصــواب • أما الفلاسفة فالبرهان عندهم هو مطابقة أمر ما للمنطق • والمذاهب الفلسفية الكاملة كثيرة ، كل منها منطقى لا تناقض فيه ، ومع ذلك فانها لايمكن أن تكون كلها حقيقة •

من هذا يصل المؤلف الى انه أصبح لزاما علينا أن نجد المعايير التى تمحص بهــا الحقيقة فى أمور العقيــدة والضــمير والاخلاق والجمال والحب ، وخاصة بعد أن ثبت ان البراهين النفسية والمنطقية لا تكفى لتحديد ما هو واقع فعلا •

النظــام المقترح :

المعيار الذى يقاس به الحق فى المعنويات هو اتساق النظام المقترح مع النظم الكونية التى ثبت صوابها ثبوتا علميا والتى عرف نظامها رياضيا • والأصل فى ذلك أن الكون له نظام واحد

أوله المـاديات وآخره ـ فيما يتعلق بالانسان ـ المعنويات •
فاذا استقام لنا ان نجد هـذا النظام الشامل الذى تتبين فيه أوجه التقارب بين المـاديات والمعنويات فان اتساق هذا النظام يصبح معيار الحقيقة فى المعنويات •

وعقدة العقد فى المعرفة هى ايجاد الأساس المـادى للأخلاق والضمير ، فان بينهما فجوة لم يهتد أحد بعد الى عبورها ، ولابد من الكشف عن هـذا الأساس قبل الحديث عن وحدة المعرفة •

« وانى أعتقد ان علمنا بالمـاديات والحياة بلغ الحد الذى نستطيع معه أن نقيم هذا النظام الجديد للمعرفة •• ثم نختار من بين المذاهب الفلسفية والدينية ما يتفق وهـذا النظام • بهذا وحده يتبين لنا وجـه الحق فى ما ليس من طبيعتـه ان يثبت بالبرهان العلمى » •

هـدم الآراء القديمـة :

بعد هذا ينطلق المؤلف فى جرأة وثبات لهدم بعض الأراء القديمة التى يرى أنها تقف فى طريق مذهبه الجديد ، مثل العلة الغائيـة والتفكير الثنائى وفهمنـا للزمن ، وتصـورنا للحقيقة والسببية ، تمهيدا لاقامة النظام الجديد •

والعلة الغائية مذهب يقوم على تحديد غايات بعينها تراد لذاتها ، على ان هذه الغايات تؤدى الى تهيئة الأسباب التى تنتهى اليها . وذان الغاية تخلق الوسائل التى تؤدى اليها . « فرجال الدين يرون أن الله بقدرته يعمل على أن يكون العالم كله وسيلة لغايات بعينها هى عندهم تمجيده تعالى وعمل الخير . أما علماء الانسانية فقد افترضوا ان قوة النظم هى التى تعمل على تهيئة الأسباب لبلوغ غاية هى عندهم خير المجتمع من أخلاق وفضائل. وحسب العلماء ان قوة الحياة هى التى تعمل على بلوغ غايات هى عندهم بقاء الجنس ومواءمة التركيب الجسمى للبيئة . وحسب بعضهم ان الوظيفة غرض يعمل على أن يكون العضو مؤديا الى هذه الغاية كأنهم يرون أن الانسان وقف منتصبا على قدميه فتغير تركيب القدم ولا يرون أن القدم تغير أولا فوقف الانسان عليه ... وأكبر الملحدين من العلماء الذى يتحدث عن الطبيعة على أنها القوة المنظمة للكون والمؤمن الذى يرى ان الله هو المنظم له ، كلاهما يدين بمذهب العلة الغائية .

ومنشأ هذا المذهب هو تصور الانسان انه مركز الكون وان كل شيء خلق من أجله .

ولابد من هدم هذا المذهب لأنه من ناحية المنطق خلط ومن ناحية الفلسفة عقيم ومن الناحية العلمية خطأ .وبالنسبة للمستقبل الفكرى عقبة تحول دون فهم الكون فهما عقليا كاملا .

ليس للعالم غايات خلقت القوانين من أجل تحقيقها .. انما يقوم نظـام الكون على سلسلة من القوانين أولها بسيط ثم تزداد تعقيدا حتى تبلغ التعقيد الذى نراه فى الانسان وسر النظام الذى نراه فيه وسر التوافق بين الأسباب والغايات يرجع الى ان هذه القوانين تؤدى بطبيعتها الى هذه الغايات .

وبعد أن يفرغ الدكتور كامل حسين من هدم هذا المذهب الخطير يتجه الى مذهب آخر لا يقل خطورة بالنسـبة للتفكير الانسانى والتفكير الدينى بالذات هو مذهب التفكير الثنائى الذى يؤدى الى المقابلة بين الخير والشر والروح والجسد وبين الصواب والخطـأ . فالفلاسفة يتحدثون عن الخطـأ والصواب على انهما نقيضان ، ورجال الدين يتحدثون الحديث نفسه عن الخير والشر . والعقل يرتـاح لهـذا التقسيم ظنا منه انه يلم بكل شىء .

وأصل هذا التفكير ان الانسان جعل نفسه مركز الكون ثم « وضع الأشياء عن يمينه أو يساره وأصبح يقيس الأمور بنفسه ويرتبها ترتيبا هو محوره . فالخير هو ما يعود عليه بالخير والشر هو ما يعود عليه بالشر . مثل ذلك مثل علم الفـلك حين كان علماؤه يعتقدون ان الأرض مركز العالم » .

ولم يصبح الفلك علما الا حين تخلص من اعتبار الأرض

مركز العالم • ولن يستقيم التفكير حتى نخلص من « اعتبار الانسان مقياسا تقاس به الأمور وحتى نقلع عن تنظيم الأشـــياء تنظيما يقوم على علاقتها بالانسان » •

والتفكير الثنائى كما يقول المؤلف لا حقيقة له فى العلوم الطبيعية • « فالحرارة والبرودة ـــ ومقياسهما الانسان ـــ أصبحا درجات مختلفة من سرعة حركة الجزيئات فى الجسم وأصبحت تقاس دون الرجوع الى ما يحسه الانسان ، تبدأ من ٢٧٣° تحت الصفر وترتفع حتى تبلغ آلاف الدرجات • وليس لدرجة حرارة الانســـان أى مغزى علمى خاص يجعل التقسيم القائم عليهـــا ذا قيمة علمية » •

كذلك الأمر بالنسبة للألوان • ما هى حقيقة اللون • هـــل الأحمر أحمر لأننا نراه كذلك ؟ وهل الحمرة توجد اذا لم توجد العين التى تراها • « وقد ثبت أن اللون موجة ذات طول خاص يمكن قياسه بغير العين » ، كذلك فى الكيمياء « قسمت الأشياء الى حمضية وقلوية ثم ثبت أن هذه الصفات ترجع الى تركيز أيونات الأيدروجين وهو أمر متصل لا داعى لتقسيمه •

فى الفلســفة والدين :

من هذا يتبين انه عندما نعرف حقيقة الأشياء وقوانينها تزول بعد ذلك أكثر مظاهر التفكير الثنائى ، هذا واضح فى العلوم ،

ولكن الأمر فى الفلسفة والدين أكثر تعقيدا • وان تكن هنـاك دلائل على أن التفكير الثنائى فيهما لن يلبث أن يقضى عليه متى عرفت طبيعة الخطـأ والصواب وطبيعة الخير والشر • « فالخير والشر متناقضان ما دام البحث متعلق بالانسان ، ولكنهما من حيث انهما حقيقة كونية فلا يكونان الا درجـات لشىء واحـد سنعرفه عندما يتم علمنا بالنفس وقد نبلغ من ذلك حد مقياس الخير والشر على انهما درجات مختلفة لتأثير واحد على النفس البشريـة » •

وبصرف النظر عما قد يحدثه الأمر من زلزلة فى كثير من العقائد الفلسفية والدينية التى تقوم على هذه الثنائية ، فان القول بزوال التناقض بين الخير والشر أمر يصعب تصوره • ذلك فى رأى لأن الانسان حتى لو اسقطنا من حسابنا اعتبـاره مركز الكون أو مركز العالم كما يريد المؤلف فان نظريته هـذه التى تقوم على التطور الطبيعى تضـع الانسان فى قمة الكائنات الموجودة فى الكون اذ يتميز عليها بالعقل والضمير •

وبالتالى فلا مفر من بقائه موضع الاهتمام الأول والأهم بالنسبة لباقى الكائنات الحية • يترتب على هـذا بقاء أساس التفرقة بين الخير والشر ، اللذين يعتبرهما المؤلف من « الغرائز البشرية » فى كتابه « التحليل البيولوجى للتاريخ » •

وصعوبة التعريف المطلق لكلمتى الخير والشر على اعتبار انهما حقائق كونية يأتى من الايمـان بحقيقة أخرى وهى انه مهما تقدمت العلوم وزادت معرفتنا بالنفس الانسانية ، فسوف نظل أمام مشكلة أزلية وهى أن النفس البشرية ليست شيئا واحدا أو فردا بعينـه بل هى نفوس متعددة وشعوب متفرقة متناحرة ، ومن ثم سيظل للخير معنى وللشر معنى آخر بالنسبة لكل فرد أو لكل جماعة .

فاذا أمكن للعلوم الطبيعية أن تقضى على ثنائية التفكير فيما يختص بحقيقة الأشياء المتعلقة بالحواس كالحرارة والبرودة ودرجات اللون لأنه اكتشفت أجهزة لقياس هـذه الأشياء بمعزل عن الانسان ، فانه يستحيل اكتشاف أجهزة لقياس الخير والشر خارج الانسان فردا أو جماعة . ولايمكن ذلك الا فى حالة واحدة مستبعدة وهى حين يتحد البشر جميعا فى وحدة واحدة بعد أن تزول من بينهم أسباب الخصـومة والحرب وتسقط أمامهم كل الحواجز الطبقية وتنمحى الاختلافات الدينية والقومية . حينئذ تتشابه مشاعرهم الى حد التطـابق ويصبح بمقدور الجميع أن ينظروا للأمور بمنظـار واحد . فيسهل عليهم قياس الخير والشر من وجهـة نظر علميـة محايدة فيبدوان درجات لشىء واحد أو يبدو كل منهما محـددا تحديدا قاطعـا كميكروب السـل

أو التيفود مثلا • وحينئذ تنهار نظرية المؤلف أو تدفع بالفكر الى نظرية جديدة •

وكما حاول الدكتور كامل حسين تجريد الخير والشر فهو يفعل الشيء نفسه مع الزمن • وهو يقر بأن الانسان عجز عن « ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكا مباشرا جعل للمعرفة حدا لن تستطيع أن تتعداه •• والزمن حقيقة لا ريب فيها ولكنهـا أكثر الأمور غموضا على العقل • وهو يدرك بأثره فى الأشياء • وهـذا هو الزمن التاريخى • وهو يختلف عن الزمن الرياضى والزمن الكونى » •

والمؤلف يرى انه « من الخطأ أن تتصور الزمن على أنه من عوامل التطور ، ولعل التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب فى الكائنات الحية من صفات » • ومن الاخطاء المترتبة على ذلك تحديد عمر الكون تحديدا زمنيا » •• « ويكاد يكون من المؤكد ان الكون كله لا يخضع لقانون ما ، وليس للزمن أثر عليـه • والحديث عن عمره خطأ عقلى واضح » •

وفكرة تجريد الزمن أو رؤيتـه كشىء مطلق مستقل عن الانسان والأحداث تسيطر على فكر المؤلف فى كتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » وقـد أدت الى نتائج لايمـكن قبولها أو التسليم بصحتها وقد تبين ذلك عند الكلام عن هذا الكتاب •

أما الآن فحسبنا أن نركز على موضـوعنا . ولعله آن الأوان لنسـأل :

ما هى الحقيقـة ؟

لم يقدر الانسان عظم ما أقدم عليه حين بدأ بحثه عن الحقيقة، ولم يدرك أن اختلاف الحقيقة فى مذاهب التفكير المختلفة يثير الشك فيها كلها .. مهما يكن من صوابها فى بعض وجوهها .

فالحقيقة فى التفكير الدينى هى ما أنزل الله على عباده ، وما هداهم اليه ، وهو فرض عظيم له من شموله وقوته وكماله ما ينزع سلاح معارضيه .. ولذلك قبله الناس كافة فى عهود من التفكير كان فيها وحده موضع الثقة . ولكن هذا الكمال نفسه خلق فيه هنات لم تلبث أن ظهرت لدى المفكرين . وقد حملت هذه الهنات الكثيرين على الشـك فى الحقيقة كما يصـورها الدين فأنكروها كلها على ما يكون فيها من صـواب . وأكبر هذه الهنات ان التفكير الدينى لم يستطع تعيين صفات الذات العلية العليمة القديرة الا بما هو انسانى ، وانه لا يعبأ بتفاصيل النظام الكونى ولم يفسرها . وانه لم يبين لم احتاج تمجيد الله الى هـذا التعقيد البالغ فى الكون وكان يصح أن يتحقق بما هو أبسط وأوضح . والحقيقة عند المؤمنين تنحصر فى ارادة الله ثم

حددوا ارادته بما أراده سبحانه فعلا . هذا كله دفع الناس الى التماس الحقيقة فى نظام آخر هو الفلسفة .

وحسب الفلاسفة أن الحقيقة شيء محدد يحجبه عنا نقص علمنا ، وضعف جهاز العقل الذى نبحث به عنها ، وخيل اليهم اننا اذا زاد علمنا وتحسن جهاز التفكير عندنا فاننا نبلغ الحقيقة العليا التى اذا بلغناها تكشفت لنا أسرار الكون فنقرأها عند ذلك كأنها كتاب مفتوح . وفى رأى كامل حسين ان هـذا أثر من آثار التفكير الذى يبدأ بأواخر الأمور والمعقد منها ، ولم يخلص التفكير الفلسفى من هـذا العيب حتى بعد أن بدأت نظريـة التحليل الديكارتى . فهى أيضا تبدأ بالمعقدات وتخرج منها الى ما هو أبسط وهو خطـأ أصلى فى هذه المذاهب أدى الى زيادة فى غموض الحقيقة وبعدنا عنها .

والواقع انه ليست هنـاك حقيقة بهذا المعنى . فالتفكير الفلسفى جعل الانسانيات مفتاح الحقيقة وهى لا تصلح لذلك ، وجعل الانسانيات أصـلا يبنى عليه نظام الكون . وهو خطـأ ولابد لنا أن نضـع الانسـان موضعه الطبيعى من المخلوقات اذا أردنا أن يستقيم لنا فهم الحقيقـة على النحو الحـديث . الحقيقة ليست غاية محددة وانما هى معرفة علاقة شيء بآخر ، وعلاقتهما بغيرهما من الأشياء . على أن تكون هـذه العلاقات صالحة لتفسير كل ما هو مشابه لمـا هى بصدده . وقد يكون

هــذا الفهم للحقيقة متواضعا ولكنه وحده يؤدى الى الالمــام بالصورة الكاملة للقوانين الكونية .

النظــام الجــديد :

وعلى هذا المعنى المحدد للحقيقة يتقدم الدكتور كامل حسين لاقامة بناء المعرفــة من جديد . وهو يقدم لهذه النظرية قائــلا « يقوم البناء الذى اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضـــل القوانين (هيرارشية القوانين) وهى نظريــة لم تفرض فرضــا لتفسير ما نعلم من حقــائق . وانما هى نظريــة مستمدة من القوانين الطبيعية التى ثبت صدقها . والتى دليل صوابها مطابقتها للواقع، وبرهان ثبوتها امكان حساب نتائجها رياضيا والتى لا استثناء فيهــا » .

تفاضـــل القوانـــين :

هذه النظرية تقوم على عدة قواعد :

القاعدة الأولى : الأشياء وقوانينها شىء واحــد ، لا وجود لأحدهما بدون الآخر . الأشياء هى تجسيم للقوانـــين . والقوانـــين هى التى توجــد الأشياء .

القاعدة الثانيــة : اذا كان قانونان لا يعمل أحدهما الا فيما سبق أن عمل فيه لآخر كان أولهما أعلى من

الثـــانى • القوانين الأعلى أكثر تعقيدا من
الأدنى •

القاعدة الثالثـــة : القانون الأعلى لا يتعدى عمله الأشياء التى
هو مهيـــأ لها • ولا أثر له فى تغيير عمـــل
القانون الأدنى •

القاعدة الرابعـــة : يعمل القانون الأعلى فى « تاريخ حيـــاة »
ما هو أدنى منه دون أن يغير من قوانين هذا
الذى هو أدنى • وهـــذا الأثر الذى يحدثه
القـــانون الأعلى فى حيـــاة ما هو أدنى هو
القضاء والقدر •

القاعدة الخامسة : يستطيع الشيء الأدنى أن يعرف وجود ما هو
أعلى ، ولكنه لا يعرف من صفاته وخواصـــه
الا ما يتعلق بقانونه الأدنى ، ومن المستحيل
عليـــه أن يعرف كنـــه ما هو أعلى منه من
القوانين والأشياء •

القاعدة السادسة : فى كل طبقة من القوانين وبين الطبقـــات
المختلفة تدرج يجعلها منظمة تنظيمـــا تكون
فيه الأشياء والقوانين الدنيـــا أعم وأبسط

وآثبت من العليـــا التى تزداد فى رقيهـا
تخصيصا وتعقيدا وقلقا .

القاعدة السابعة : كل شيء وقانونه ينظر الى ما هو أعلى منه
على انه اله قـاهر لا يسأل عمـا يفعل ،
ولا تفهم حكمته التى لايمكن استنتاجهـا
طبيعيا من قوانين هـذا الذى هو أدنى .

بعد ذلك يلخص لنا المؤلف النظام العام القائم على نظرية « هيرارشية » القوانين على النحو التالى :

١ ـ فى الأصل (وهو تعبير تركيبى يختلف تماما عن قولنا « فى الأول ، فهذا تعبير زمنى ») كان هناك شيء واحد متناه فى الصغر له خاصية واحدة هى القدرة على الاتحاد مع اشباهه على نسب مختلفة فكان البروتون والالكترون. ولم يثبت هـذا بعد . ولكن ما أثبته نظام الذرة يجعل هذا الفرض مقبولا . اذ هو امتداد ذلك النظام الى ما هو أدنى من عناصر الذرة المعروفة اليوم . وسيثبت ذلك حين نستطيع تفجير البروتون والالكترون الى عناصرهما. ولعل الفوتون هو هـذا الشيء الوحيـد الذى كان فى الأصل . ولعل أول قانون خضع له هو قانون المغناطيسية الكهربيـة .

٢ ـ استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشــباه بين الالكترونــات والبروتونات فكانت الذرة التى هى نتيجــة القوانين الذريــة وهى سبب وجــود القوانين الكيميائيــة .

٣ ـ استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشباه بين الذرات فكان الجزىء الذى هو نتيجة القوانين الكيميائية وسبب وجود القوانين الفزيائية .

كل اتحاد تم فى طبقة من هــذه الطبقات كان نتيجة لقوانين هو دليلها ومجسمها ويخرج من هذا الاتحاد شىء جديد يخلق طبقة جديدة من القوانين التى لم يكن لها وجود من قبل .

٤ ـ من هذا يتبين ان القوانين المغناطيسية الكهربية أدنى من قوانين الذرة ، وهــذه أدنى من قوانين الكيمياء وهذه ادنى من قوانين الفزيقا . والسبب فى اعتبارها أدنى ان الأعلى من بينها لا يعمل الا فيما سبق ان عمل فيه الأدنى . الفزيقا لا تعمل الا ما سبق ان عملت فيه الكيمياء .

٥ ـ ثم كانت فجوة فى الطبيعة . وهــذه الفجوات طبيعيــة اذ لم يكن على الطبيعة أن توجد كل المحتملات الرياضية

للاتحادات المختلفة فى كل طبقة • وهـذه الفجوات نظامها هو نظـام الفجوات المعروفة معرفة ثابتـة فى الموجات الأثيريـة •

٦ ـ فى كل طبقة من القوانين والأشـياء المـادية كان ازدياد التعقيد سببا فى قلق تركيبى • لهذا كان الاشـعاع فى الذرات المعقدة القلقة •

٧ ـ اختصت ذرة الكربون ـ لسبب خاص فى تركيبها ـ بقدرتها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسـع المدى الى أقصى حد فكانت الجزيئات الضخمـة المعقدة وهـذه الجزيئات تصبح لتعقيدها قلقة التركيب مثلهـا الذرات القلقة ذات الاشعاع •

ولكن هذا القلق منظم وله صفات خاصـة • فاذا اتحدت هذه الجزيئات الضخمة القلقة مع غيرها « خرج » من هذا الاتحاد مركب له صفات جديدة وبهذا يصبح حياء

٨ ـ المركبات التى تتكون منها المـادة الحية نتيجة طبيعية للتعقيد البالغ فى تكوين جزيئاتها • ثم اتحدت هـذه المركبات القلقة قلقا حيويا فكانت الخلية التى اكتسبت بذلك صفات الحياة نتيجة لتعقيدها وقلقها وهذه الصفات

هى المقاومة والمرونـة والتكيف وهى سر تأثر الخليـة بما يحيط بها دون أن تعقد بذلك شخصيتها .

٩ ــ اتحدت الخلايا فكانت الكائنـات وظلت هـذه محتفظة بصفاتها الحيوية .

١٠ ــ اتحاد الخلايا نوعان تكاثرى واستكمالى . فالتكاثرى أغلب فى حياة النبات وهو الذى أدى الى وجودها . أما فى الحيوان فالتكاثر محدد بالاستكمال . وهذا الاستكمال معناه وقوف التكاثر عند حد تكون الأعضاء .

١١ ــ ثم كانت الفجوة الثانية بين الحيوان والانسان كما كانت الفجوة الأولى بين المـادة والحياة .

١٢ ــ التعقيد البالغ حد القـلق فى الجزىء خلق فيه صـفات جعلته يقبل قانونـا أعلى هو التكيف والمرونـة فكانت الحياة ، كذلك التعقيد فى الحيوان (أو فى عضو خاص من أعضائه هو المخ) خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا أعلى هو المعنويات فكان الانسان . فالمعنويات هى النتيجة الطبيعية لتعقد العضـو العصبى فى الانسان وهو المخ فكانت الذاكرة والعقل .

١٣ ــ المعنويات على ثلاثة أنواع :

(أ) العلم : وهذا يتكفل به المخ من حيث هو جهــاز
الكترونى ضخم قادر على التذكر والتمييز •

(ب) الجمال : وهو نظام فى الأشياء يجعل أثرها موافقا
لنظام حواس الانسان فتتجاوب معه تجاوبا يجلب
لنا السرور •

(جـ) الفضائل : وهى نظام فى الأشياء يجعلها تتجــاوب
ونظام العقل • فالصدق نظام والكذب فوضى •
والفضائل جمال معنوى كما كان الجمال حسيا •

١٤ ــ من صفات الحيــاة الملازمة لها « الكبح » وهو قدرة
الكائن على الامتناع عن عمل ما وان كان عليه قادرا •
والكبح لا يعمل الا فيما سبقه ارادة العمل والقدرة عليه
ثم يكون الكبح • هــذا القانون هو الضمير وهو أعلى
قوانين الانسان لأنه لا يعمل الا فيما عملت فيه الارادة
من قبل •

١٥ ــ الله بالنسبة للانسان كالانسان بالنسبة للنحلة مثلا حين
يهيىء لها الانسان الراحة والغذاء ويعفيها من جهد صنع
الشمع • كل ذلك عن علم وقدرة وفهم وارادة • فهى تعلم
بوجود شىء عال قادرا مريدا دون أن تستطيع تصــور
الانسان • كذلك الانسان يدرك وجود ذات علية عالمــة

قادرة مريدة تعمــل فى حياته • ولكنــه لا يستطيع أن يتصورها على حقيقتها •

شرح القوانـين :

هذا هو الهيكل العام لنظرية تفاضل القوانين كما طرحها المؤلف • وحتى يتسنى فهم العلاقة الصحيحة بين هذه القوانين وكيف يمكنها أن تؤدى الى وحدة المعرفة الانسانية ؛ فانى سأتابع المؤلف فى رحلته العظيمة المضنية فى الشرح والتأكيد • وكل أملى أن أوفق فى التركيز والايجاز دون اخلال أو تشويه لأفكار هذا العالم الجليل •

القوانين والأشياء أمر واحد :

اعتقد المفكرون من قديم الزمن أن القوانين والأشياء أمران منفصلان • الأشياء توجد أولا ، ثم تلحق بها صفات وخواص تحددها القوانين التى تعمل فيها • وأدى هذا النوع من التفكير بالطبيعيين والكيمائيين الى الأخذ بنظرية الجوهر الواحد التى تلحق به الصفات المختلفة فتتكون منها المواد العديدة • وقــال نيوتن أن المــادة تتغير ولا تنعدم •

وانتقل هذا المذهب بشــكل أوضح الى علوم الحيــاة ، واتفق الكل على أن الحياة قانون مستقل يلحق بالمــادة فتصبح كائنا حيا • ومن ثم جعلوا الكائن الحى جسما وروحا • فــاذا

خرجت الروح من الجسم فقد الحياة وأصبح ميتا • وبهـذا أخذ النـاس يدرسـون قوانين الحيـاة منفصـلة عن قوانين الطبيعيات •

وفى الانسانيات كانت التفرقة بين الجزء النفسى والجزء الحيوانى فى الانسان • وقسـم الناس الصفات الانسانيـة الى معنوية ومادية وحسبوهما منفصلين • ولعل هـذا هو أسـاس الثنائية فى التفكير • وهذا فكر لابد من العدول عنه •

فالمـاء يحمل السفينة • فاذا فرضنا أن قوانين الكيمياء التى تربط الذرات الثلاث التى يتكون منها المـاء توقفت فان المـاء ينعدم بوصف كونه ماء ولا تطفو السفينة •

والقول بأن المـادة لا تنعـدم قول فيزيائى • والتحليـل الكيميائى والانفجار الذرى يحولان المـادة كما نعرفهـا الى أشـياء لا علاقـة لها بالمـادة • فهو فى الواقـع انعدام لها • ولو وقفت جميع القوانين الكونية لأصبح الكون كله مجموعة هائلة من عنصره الأول لا تمت لمـا نعرفه من الكون بصلة • وهذا يثبت أن الأشياء وقوانينها أمر واحد لا وجود لأحدهما بدون الآخـر •

القوانين العليـا والقوانين الدنيـا :

القوانين المختلفة تختلف فى قوتها وميدان عملها • فاذا تصورنا

القوانين والأشياء الكونيــة على هيئــة هرم لا تقوم طبقة فيه الا على أساس من طبقة أخرى كان لنا أن ننظر الى كل قانون لا يقوم الا على عمل قانون آخر على أن الأول أعلى والثــانى أدنى •

فالقوانين المــادية ثلاث طبقات • الذرية والكيميائية ثم الفزيائية • فالجاذبية مثلا لا تستطيع أن تعمل أو توجد الا بعد أن يتم تكون الجزيئات كيميائيا من ذرات تكونت ذريا • على هذا تكون الجاذبية ــ وهى مثل على القوانين الفزيائية ــ أعلى من القوانين الكيميائية كما تكون هذه أعلى من القانون الذرى • هــذه القاعدة تحدد بالضبط تحديدا علميا معنى القول بالأعلى والأدنى عند الحديث عن القوانين والأشياء •

فاذا انتقلنا الى الكائنات الحية وقوانين الحياة وجدنا هذا التحديد مفيدا فى تحــديد ما هو أعلى وما هو ادنى فى أمور البيولوجيا • فالمــادة الحية نفسها أعلى من القوانين المــادية لانهــا لا توجد ولا تعمل الا بعد تمــام عمل هــذه القوانين • والكائن المركب من خــلايا عدة أرقى من الكائن ذى الخليــة الواحدة لأن قوانين التخصص العضوى لا توجد الا بعد ازدياد التعقيد الناشىء عن تعدد الخلايا • فاذا وجدت الكائنات ذات الخلايا الكثيرة بدأ تكون النبات والحيوان • والحيوان يعتبر أعلى من النبات لأن كل قوانين النبات من نمو وتوالد وتكييف

موجودة فى الحيوان الذى يزيد عليهـا فى الحـركة وتخصص الأعضاء مثلا .

حتى اذا درسنا الانسان وجدنا قوابينه لم تكن لتعمـل او توجد الا بعد ان يتم عمـل القـانون الحيوانى ويبلغ غاية التعقيد . فلم يكن لمثل النمله ان يكون لها من العقل والضمير ما يجعلها انسانا لانها لم تبلغ من تمام الحيوانيه ما يتيح لها ان تتمثل فيها الانسانيات . وهذا هو التفسير العلمى لقولنا ان الانسان أعلى الحيوانات .

واختص الانسان بقدرته على تقبل المعنويات . والعقل هو جهاز هذا التقبل كما انه جهاز التفكير والمعرفه . لكنه ايضـا عضو نشـا عن الرقى الطبيعى للتركيب الجسـمى . وهو يقوم بالوظائف الانسانيه الخالصه . فيجسم المعنويات فى صور حسيه وهى القدرة الفنيــة ، ويتاثر بما حوله من ماديات فيحيلها الى معنويات فى نفسه وهذه هى العاطفة . والصفة الغالبه على هذه هى النظام . فالنظام هو اصل تقديرنا للجمال والفضـائل . فالجمال يوجد حين يتجاوب نظام شىء ما مع نظام العضو الذى يدركه فتكون بينها (هارمونية) أو انسجام يحدث اللذة .

وقانون الضمير تجسيم أعلى لقانون شائع فى الكائنـات الحية كلها هو قانون الكبح . والسبب فى اعتبارنا هـذا القانون

أعلى القوانين انه لا يعمل الا بعد ان تعمل الارادة والقوة والعلم •

سقف المعرفة :

يستطيع الحيوان أن يدرك كل ما هو أدنى منه • ولكن فهمه للانسان ينحصر فى علمه بوجوده وفى علمه بما فى الانسان من قوانين حيوانية • فهو لا يفهم دوافع الانسان التى تدفعه الى تدليله أو تعذيبه ، والى تقديسه أو ذبحه • فهذه المعنويات الانسانية لا يفهمها الحيوان •

وموقف الانسان من القوانين التى هى أعلى منه لا يختلف عن ذلك فى شىء • فهو يعلم بوجود هذه القوى العليا • ولكنه لن يفهم منها الا كل ما هو انسانى وهذا هو بالضبط ما فعله الانسان فى معرفته بالله • فهو على يقين من وجوده ، ولكن فهمه لصفاته تعالى لايمكن أن يكون الا محدودا بما هو انسانى • وما فوق الانسان يعد بالنسبة له ميتافزيقا • أى ما وراء الانسان •

لكل معرفة اذن سقف لا تستطيع أن تعلو عليه • وهذا السقف تحدده القوانين التى يخضع لها صاحب المعرفة •

والمعرفة نوعان : معرفة بوجود الأشياء العليا وهو مستطاع

لكل ما هو أدنى ومعرفة حقيقة الأشياء العليا وهو مستحيل على ما هو أدنى .

وسر ذلك ان كل ما هو أعلى يخضع للقوانين الدنيا كلها وبذلك يمكنه معرفتها . أما الشيء الأدنى فلا يدرك من الشيء الأعلى الا ما تؤهله له قوانينه هو . وبذلك يدرك وجود الأعلى ويدرك صفاته الى حد محدود وهـذا بالنسبة له يعد سـقف المعرفـة .

القضـاء والقـدر :

هناك أثر هام تحدثه القوانين العليا فى القوانين الدنيـا دون أن تغيرها . ذلك ان الأعلى يمكنه أن يؤثر فى تاريخ حياة الأدنى . فالحيوان الذى يذبح قربانا لله لا يدرى شيئا عن القانون الانسانى الذى دفع الانسان الى هـذا الفعل . وهو أمر لايمكن تفسيره عند الحيوان بأى قانون طبيعى . فهو بالنسبة للحيوان قضاء وقدر .

وتطبيق ذلك على الانسـان يكون بفرض وجود قوانين وأشياء أعلى منه تحدد تاريخ حياته دون أن تغير من قوانينه . وهذه هى الربوبية . وهى تتفق مع رأى أهل الدين والتنزيل . « أليس هذا التقاء غير متوقع للعلم والدين فى فهم الربوبيـة وفى هذا التلاقى برهان على صدق الدين وصدق العلم » .

النظام العام للكون والمعرفة

« اذا كان للمعرفـة حق فى الوجود فذلك الحق لا يقوم الا على مطابقـة نظامها للنظـام الكونى • واذا كان النظامان متطابقين فان ما نعلمه عن الكون يقينـا يمهد لنا الطريق الى الفهم الحق للمعرفة » •

وهو يقرر أيضا ان لهذا النظام غاية « ان النظام الهرمى العالى والنظم الصغيرة التى تمثل قطعا منه داخل النظام الكونى لها غاية يحددها النظـام وليست هى التى تحدده » • وهـذا يختلف مع العلة الغائية فى الفكر التى تجعل الغاية هى التى تحدد النظـام •

على ان صعوبة هذا النظام تكمن فى الفجوات التى نراها فيه • والفجوات تكون فى علمنا بما هو موجود • وهذا يمكن تلافيه عاجلا أو آجلا • وتكون فى الكون نفسه • فليس على المخلوقات أن تشمل جميع الاحتمالات التى يستطيعها هـذا النظـام •

« وقد ظهرت هذه الفجوات بشكل واضح جدا فى الموجات الأثيرية • هـذه الموجات لها سرعة ثابتة ونسبة ثابتة بين طولها وذبذبتها • واختلفت فيما عدا ذلك • ولم نجد أطوالها كلها فى

الطبيعة • وكثير منها لم يظهر الا على يد الانسان مثل أشعة روتنجن والموجات اللاسلكية • لكن ما لم يخلق فى الطبيعة لا يختلف فى نظامه عما خلق » •

كذلك الفجوات الموجودة فى النظام الحيوى والانسانى بعضها طبيعى ، اذ لم تخلق كل الكائنات التى يحتملها النظام الحيوى • ومع ذلك فان هذه الفجوات لا تحجب النظام العام للحياة •

والفجوات الكبرى التى تقوم بين الأجزاء الثلاثة للمعرفة وهى المادة والحياة والانسان من أصعب الأمور فهما ولكنها ضاقت الى الحد الذى نستطيع معه ان ننتقل من نظام الى نظام دون مشقة كبيرة على العقل •

ومما يزيد ثقة الباحث فى بلوغ هذه الغاية ان النظام التصاعدى للمعرفة والكون يقوم حسب قوله على فرضين :

الفرض الأول أن أصول الكون بسيطة جدا وأنها ازدادت تعقيدا حتى بلغت الانسان •

والفرض الثانى أن الطبقة الأولى من التكوين العالمى وهى قوانين المادة تثبت هذين الفرضين ثبوتا يكاد يكون يقينا •

ومن ثم يبدأ فى بحث أمر الفجوات باعتباره أصل من أصول البحث فى وحدة المعرفة • وبالنسبة لنا يعتبر فهمه أمرا ضروريا

لقبول هـذه النظرية والثقة فى نتائجها • وهذا ما يزيد من حرصى على ايراد التفاصيل أحيانا حتى لا أبتسر الأفكار أو أترك فى هذا التحليل فجوات •

من الحيوان الى الانسـان :

كانت الفجوة الأولى بين المـادة والحياة • والفجوة الثانية بين الحيوان والانسان • وكانت ذرة الكربون هى جسر العبور فوق الفجوة الأولى ، اذ تميزت بصفة خاصة جعلتها تقبل التعقيد الكيميائى البالغ الذى أوجد الجزيئات الضخمة القابلة للحياة • أما الفجوة الثانية فسيتم عبورها عن طريق القوة الخاصة التى تتمتع بها خلايا الجهاز العصبى • فهى أكثر الخلايا قابلية للتعقيد والتضخم •

وهذا التضخم هو الذى جعل نشأة المخ الانسانى ممكنة • وهو الفرق الأكبر بين الانسان والحيوان • وعلى هـذا يكون الانسان هو الحيوان الذى نما جهازه العصبى نموا خارقا • والمخ هو عضو العقل كما تكون العين عضو البصر • على فرق بينهما ان العلاقة بين فسيولوجيا العين والبصر واضحة على حين ان المطابقة بين فسيولوجيا المخ ووظيفة العقل ليست واضحة تماما •

وقد ظل العلم الى عهد قريب على جهل تام بكنه فسيولوجيا المخ وخاصة المـادة السنجابية فيه • وقد أجريت عمليات قطعت

فيها الصلات التشريحية بين المادة والجسم فلم يفقد الانسان ذاكرته أو علمه • وان كانت شخصيته تتغير على نحو ما ، وهذه التجارب تثبت ان فسيولوجيا المخ لم تكن فيزيائية ولا كيميائية ولا تشريحية • ولم يستطع أحد أن يتبين طبيعة هذه الفسيولوجيا حتى وقت قريب جدا عندما كشفت الخواص الالكترونية • وهذه الخواص الالكترونية تمهد السبيل الآن لفهم فسيولوجيا المخ وعلاقتها بسيكولوجية العقل •

ويتحفظ الدكتور كامل حسين على هذا الرأى قائلا « لم يثبت ثبوتا قاطعا ان عمل المخ الكترونى صريح • لكن فسيولوجيا المخ من غير شك ان لم تكن الكترونية فعلا فهى قريبة جدا منها » •

الالهام والذكاء :

والجهاز العصبى عند الحيوان هو أصل الغريزة فيه • فالفرخ حين يخرج من البيضة يبحث عن غذائه فيحفر الأرض بقدمه ويختار ما يصلح له غذاء • وتفسير هذا هو ان تركيب الاتصالات العصبية يسمح لهذه العملية ان تتم بهذه الطريقة • فعلم الفرخ هنا هو علم عن طريق تشريحى لايزيد شيئا عن علم خلية المعدة بالهضم •

« وهذا العلم الناشىء عن التركيب الخلقى للجهاز العصبى

البسيط هو الالهام . أما الجهاز العصبى الذى يكون أكثر تعقيدا فان قدرته تكون أكبر . فالجهاز العصبى البسيط عند الحيوان يؤدى الى الالهام ، كما يؤدى الجهاز العصبى المعقد عند الانسان الى الذكاء . الالهام يقوم على أساس تشريحى خلقى . وهو من نوع الانعكاس العصبى . وهو وان يكن انعكاسا معقدا الا انه أبسط من أن يجعل للحيوان مرونة أو استعداد لكسب الخبرة والمعرفة .

ولابد لاختزان التجربة من مسالك الكترونية عديدة كالتى نراها فى المخ الانسانى . وهو بهذه المسالك والتعقيد والتضخم يكتسب قدرة تختلف تماما عن الالهام وعما يستطيعه الجهاز العصبى البدائى فى الحيوان .

هذا هو المعنى العلمى للالهام والذكاء . والالهام يكون فى الانسان كما يكون فى الحيوان وهو ما يستطيعه نتيجة التركيب الخلقى لجهازه العصبى والذكاء هو ما يستطيعه من جراء المسالك الالكترونية التى تتكون فضلا عن ذلك من جراء اختزانه الخبرة والعلم .

الانسان والكون :

وهنا يقرر الدكتور كامل حسين ان « الانسان ليس بدعا فى الكائنات الحية . وليس بمعزل عن النظام الكونى بل هو مخلوق

يمكن « استنتاجه » من النظام الكونى دون كبير عناء . فاذا كان تعقد تركيب جزيئات الجمـاد جعله قابلا لاستقبال قوانين الحياة ، وكان الكائن الحى هو تجسيم هذه القوانين فان زيادة التعقيد فى تركيب الحيوان جعلته قابلا للقوانين الانسانية وأصبح الانسان هو تجسيم هـذه القوانين . وقد كادت زيادة التعقيد هذه تكون مقصورة على نمو الجهاز العصبى ـ المخ وملحقاته من غدد وأعصاب ـ نموا بالغا وعلى ذلك يكون الفهم الحق للانسان متوقفا على فهمنا للمخ الانسانى فهما كاملا .

وهذه الدراسة يجب أن تشمل النقاط الآتية :

* المخ من حيث هو عضو له فسيولوجيا خاصـة به ، وعلاقة هذه الفسيولوجيا بسيكولوجية العقل .
* المخ من حيث هو جهاز تتصل به الصفات الانسانيـة الخالصة التى تقوم على الاحساس بالمعنويات كتقديرنا للجمال وخضوعنا للقوانين الخلقية أوامرها ونواهيها .
* وهل يمكن أن تكون شخصية الانسان من عمل هـذا العضـو ؟
* وأخيرا المخ من حيث هو جهار المعرفة .

وفى محاولة الاجابة على هذه المسائل نراه يرسى أولا هذه

القاعدة « ان كان تركيب المخ وخواصه تسمح له بذلك كله فلا داعى لفرض وجود قوى أخرى غامضة غريبة عن الخواص الانسانية العليا . فلابد من فرض وجود قوى لا ندرى لها مكانا فى الجسم تجعل الانسان انسانا » .

لقد كشف العلم أخيرا عن القوة الالكترونية . وتبين لنا اننا نستطيع أن نؤثر فى المواد تأثيرا لا يغير من كيميائها ولا من فزيائها ولكنه مع ذلك يرتب الكتروناتها ترتيبا ثابتا يختزن به هذا التأثير ويستعاد عندما يراد ذلك . وأبسط مظاهر هذه القوة هو ما نراه فى شريط التسجيل . وهذه هى الذاكرة بعينها . ولكن الكاتب لا يجزم بأن عمل المخ الكترونى خالص من نوع شريط التسجيل لكنه يرى أن الذاكرة يمكن تفسيرها على أساس شبيه بالالكترونيات .

التفسير المادى للعواطف :

واذا كان هذا التفسير يصلح لشرح الذاكرة وما يتعلق بها مثل العادات والخبرة والعلم بالماضى ، فهل يصلح لشرح عواطفنا التى تتمثل فى الحب والكره واعجابنا بالجمال ؟

ويجيب الدكتور كامل حسين على النحو التالى :

« يحدث حولنا أمر تدركه حواسنا سمعا أو بصرا أو شما أو لمسا أو ذوقا ، فاذا كان هذا الأمر منظما ، وصادف نظامه

توافقا ونظام الأعضاء الخاصة به كالعين أو الأذن الداخلية فان ذلك يحدث فيها حركة منظمة . وتنتقل هذه الحركة المنظمة الى المخ فتجد فيه مسالك الكترونية سابقة خلقية أو مكتسبة . فاذا تصادف ان توافق نظام هذه المؤثرات مع نظام هذه المسالك التى فى المخ تم تسجيل هذا المؤثر على نحو منظم دون ان يصطدم بعقبات أو مسالك مغلقة تضطرب عندها هذه الموجات. عند ذلك يحدث لنا السرور . وتنشأ الرغبة فى تكرار هذا الاحساس وتنشأ عندنا عاطفة الحب لهذا الذى كان السبب فى الاهتزاز المنظم الذى يسير فى مسالك مهيأة له . وهذا تفسير محتمل للأصل المادى للحب والجمال . وليس أدل على أن هذا النظام هو أصل سرورنا بالجمال من الموسيقى . فلو لم يكن النغم منظما ولو انه وقع على أذن داخلية لم تنتظم أوتارها انتظاما يوافق النغم ، ولو أن الموجات الصاعدة الى المخ لم تصادف طريقا الكترونيا معبدا اما خلقيا أو بالمرانة والتلقين لما كان لنا من ذلك السرور » . والى هذا يرجع الاختلاف بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية التى يتذوقها الغرب .

التفكير والارادة :

هذا النظام الموجود فى المخ ليست وظيفته الوحيدة أن يستقبل ويختزن . بل ان له حياة داخلية . وهو فرق كبير بين أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم والمخ الانسانى ذلك ان

الحياة فى الخلايا تخلق تيارات تسلك المسالك التى مهدتها لها الطبيعة أولا والتى مهدتها لها العوامل الخارجية ثانيا • ثم هى تغير من هذه المسالك أيضا على قدر قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها وعلى قدر توافقها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة فى خلايا المخ •

هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة ، وهى من عمل حيـاة الخلايا نفسها وهى تتأثر بالمسالك القديمـة وتؤثر بدورها فى هذه المسالك•

الأصل الطبيعى للفضـائل :

« بين التفاعلات الناشئة عن روافد المخ ، وبين التفاعلات الناشئة عن المخ نفسه تنشأ تفاعلات فى اتجاه مضـاد يخرج من المخ الى أعضاء الحركة والعمل » وينشأ نتيجة لهذا « تيـار جديد يحدد أعمال الانسان » وهذه الأعمال التى تكون منظمـة فى أصلها وتسلك مسالك موائمة دون اصطدام أو توقف أو قسر ويستريح اليها الانسان هى الفضائل •

فأكثر الفضـائل تدل عليها أعمـال مصدرها الفكرى منظم • فالصدق نظام والكذب فوضى ، والأمانة نظام والخيانة فوضى والشجاعة نظام والرعب فوضى • فاذا تعلقت ارادة الشخص بعمل يبدأ فى خلايا مخه منظما ويسير فى مسالك منظمة ويؤدى الى عمل منظم • فهذا هو الخلق الجميل •

ابتكار الأعمال الفنية :

« هناك أعمال تصدر عن المخ تكون فى أصلها منظمة ثم تسير فى مسالك الكترونية منظمة سبق ان هيأها فى الأصل قبولنا للجمال . هذه الأعمال تكون بالطبع جميلة . وهذا طريق ابتكار الأعمال الفنية . فى كلا الأمرين الصادرين عن المخ ، العمل الفنى والأخلاق الكريمة ، صفة غالبة هى النظام وذلك ما وجدناه فى الجمال وما سنجده فى المعرفة » .

قانون الكبح والضمير :

من الأخلاق الفاضلة نوع غير ايجابى ، وهو الامتناع عن عمل أشياء محببة الى الانسان تثير فيه السرور ، وأخرى قد يصيبه منها خير . ويكون هذا الامتناع عما نسميه جملة المحرمات دون ارغام أو ضغط أو جزاء واضح أو خوف مرتقب . بل يكون هذا الامتناع بدافع داخلى نفسى .. وهذا الامتناع أمر طبيعى .. يتفق « وقانون الكبح » فى الكائنات الحية . وهى قوة ثبت وجودها ولها تأثير فى فسيولوجيا الجسم وهى أوضح ما تكون فى أعمال الجهاز العصبى » .

فالطريقة التى يتبعها الجسم فى تنظيم وظائف أعضائه حين يتعلق هذا التنظيم بالجهاز العصبى ، هو أن يهيىء للعضو نوعين من الأعصاب أحدهما يزيد فى تنبيهه والآخر يهدىء من نشاطه .

فحركة القلب مثلا يسرعها نوع من الأعصاب فاذا أريد أن يهدأ فلا يكتفى فى ذلك بالاقلال من عمل هذا العصب المنبه بل هناك عصب آخر عمله الأول التهدئة » •

« هذا يسمح للقلب ان يتأثر بسهولة حسب الظروف ، وهو فى الوقت نفسه يمنع أن يصل هذا التأثر الى حد الخطر •• وهذا يدل على ان القوتين الأصليتين فى مادة الحيـاة وهما المرونـة والمقاومة تتخذان مظاهر عديدة • وهذا مظهرهما فى هذه الطبقة العليا من الحياة » •

ليست أعمال الانسان كلها من عمل الارادة وحدها ، اذا قويت قام الانسان بعمل ما توحى به واذا ضعفت امتنع ، بل أعمال الانسان كحركة القلب توازن بين الارادة الفاعلة والكبح وهذا ضمان واضح لحسن مواجهة الظروف دون تعرض للخطر •

فقانون الكبح حين يتعلق بالمعنويات هو قانون الضمير • وهو قانون طبيعى متسق مع القوانين الطبيعية والحيوانية • وهو أرقى من جميع القوانين الانسانية الأخرى وهـذا بالطبع على عكس ما تظن بعض المذاهب الفلسفية التى تعتبر الضمير عرفـاً اصطلح عليه الناس • والوجوديون يقولون « ان الناس أحرار ولو عملوا ما يحبون لاستقامت حياتهم على نحو خير مما هم فيه الآن من ارهاق بالخوف من المحرمات والخطيئة » • وهو مذهب علمى ليس له مسوغ عقلى •

الانســان والضمـير :

و « نصيب الفرد من هذا القانون يختلف ، فحيث يكون نصيب الانسان فيه كبيرا يكون القديسون والأولياء والمتصوفون والمتزمتون والفضــلاء • وحيث يكون نصيب الانســان منه قليــلا يــكون المتمتعون بالحيــــاة والنفعيون وعبــاد اللذة والاباحيون » •

ثم ينتهى الدكتور كامل حسين من ذلك لاثبات أن التطور أدى الى تكوين عضو خاص بالانسان له صفات وقوى وقوانين خاصة به وان هــذا العضو وهو المخ يؤدى الوظائف الآتية :

١ ــ الذكاء : وهو القدرة على استيعاب أكبر عدد من المؤثرات الخارجيــة واختزانها وايجــاد مسالك الكترونية تربطها بعضها ببعض •

٢ ــ العقــل : وهو تأثر الحياة التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخــل عليه الذكاء من تغيير • وفيه تتمثــل الارادة والاخــلاق الايجابية الكريمة والحــكم الصادق والانتاج الفنى •

٣ ــ الضمير : وهو قوة الكبح وهو عمل طبيعى للمخ

تنشأ عنه قوة الامتناع عن المحرمات وعما يعتبر خطيئـــة • وهو محور الاخـــلاق الفاضـــلة •

ولعل هذا يكون أول الطريق لايجاد « الأصل الطبيعى » للأخلاق وهو ما بحث عنه الفلاسفة عشرات القرون (١) •

وهـــذه الوظائف الثلاث التى يقوم بها المخ الانسانى ــ الذكاء والعقل والضمير • جعلت « الانسان أرقى الكائنات وهذا الرقى ثابت علميا وليس مجرد زهو انسانى دفعـــه اليه غروره بنفسه • ويلتقى هـــذا الوضع العلمى مع ما قامت به الأديان من انه خلق على هيئة الله • وبه نفسر ما أحس به الفلاسفة من قديم حين قالوا ان القانون الخلقى يرفع الانسان فوق المخلوقات كلهـــا •

المعرفـــة ترف انســـانى !

بقيت للمخ وظيفة ليست من صميم عمله هى وظيفة المعرفة• وهى من الترف الذى صادف العقل فأوغل فيه واستعذب نتائجه • « فالمخ وهو جماع القوانين الكونية كلها فى صـــورة مصغرة

---

(١) علق الدكتور حسين فوزى على هـــذا بقوله « هذه فروض ونظريات الصحة فيها تعادل الخطأ • فلا دليل لدينا سوى منطق صاحب النظريات والفروض » •

لا يعدو أن يكون عضـوا نظامه أقرب الى نظام الكون • وكل حدث فى الكون وكل قانون من قوانينه يجد فى المخ تجاوبا معه•• وان التوافق والتجارب يجلبـان لنا سرورا ولذة فان المعرفـة ظلت فى جميع العصور مصدر لذة وسرور قبل أن تكون مصدر فائـدة » •

اللـه والانسـان :

وهنا نأتى للفجوة الثالثة وهى « التى بين الانسان ومن فوقه فهى بعيدة الغور واسعة المدى الى حد يجعل عبورها علينا عسيرا جدا » •

والذين انكروها انكروا وجـود ما وراءها ، أى انكروا وجود الله •

فهل الانسان هو القانون الأعلى للكون ؟

ويرد الدكتور كامل حسين « بأن هذا ليس من الحقيقـة فى شيء • ذلك أن أعلى قانون فى الكون (أو أعلى شيء فيه) هو الذى لا يؤثر فيه قانون آخر أعلى منه • وهو الذى تاريخ حياته بيده لا يغيره شيء يعلو ارادته • فهل الانسان يمثل هذا القانون الأعلى ؟ وهل ارادته وحدها هى المتحكمة فى حياته ؟

ان الأمر يخالف ذلك تماما • وان الذى يؤيد الجزم بأن

هناك شيئا أعلى من الانســان هو انه ليس المتحكم الوحيد فى حياته . وان حياته تتأثر بما لا يفهمه ولا يعرف له كنها وبما هو أعلى منه مما سبق « سميناه القضـــار والقــدر » وهــذا هو البرهان الوحيد على ان وراء الانسان فجوة ، وان وراء الفجوة قانونا أعلى .

وقد يكون « هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظــام الكونى والتفسير المنطقى للقضار والقدر » .

ولننظر فى رأى الانسان فى الله لنتبين هل يتفق هذا ورأى كل شىء فى ربه . « فكل ما يعرفه الانسان عن الله هو وجوده وان بيده القضــاء والقدر . وكل محــاولة يبذلها لمعرفة كنهه سبحانه وتعالى محكوم عليها بالاخفاق حتما . أما وجود الله فثابت من ان حياة الانسان والناس مملوءة بآثار قوى لا نعلمها.. ووجود الله والقضــاء والقدر أمران متلازمان ، فالقضاء والقدر هو « أثر وجود الله فى أعمال الانســان » .. وهو دليل على « وجود قوة عليا وقانون أرقى منا فهما بذلك » .

الاختيــار والجبريــة :

وفى ضوء هذا الشرح يمكن لنا أن نفهم موضــوع الاختيار والجبرية . « فكل شىء فى دائرة حدود القوانين الخاصة به . ولا تعارض بين هــذا وبين السببية . فلكل شىء سبب . ولكن

الحياة المعقدة للكائنات الحية ، والتركيب المعقد جدا للانسان يجعلان الأسباب الواحدة تؤدى الى عدة نتائج . ومادامت النتائج تتفق وقوانين الكائن الحى فهو حر فى اختيار أى من هذه النتائج . وهو مجبر فى كل ما عدا ذلك » .

الايمان بالله :

لم يعد وجود الله فى حاجة الى دليل الا أن يقوم الدليل على ان الانسان أعلى الكائنات وانه المتحكم وحده بارادته فى تكييف حياته وهو ما لم يثبت بعد ، وتبعا لهذا فلا مناص من الايمان بهذه الحقيقة الثابتة لأن الايمان كما يقول المؤلف هو أكبر المعنويات الانسانية وأشملها وأعمقها .. وهو جماع النظام العقلى كله . وهو مظهر هذا النظام . والذين يحرمون صفة الايمان يدلون بذلك على أن فى نظام عقلهم اضطرابا خلقيا يصعب علاجه .

حدود المعرفة الانسانية :

وفى ظل هذا النظام الطبيعى لتفاضل القوانين تصبح معرفة الانسان بالله محدودة بنطاق علاقة القانون الأدنى بالقانون الأعلى . « فنحن حين نؤمن بالله انما نقتنع بوجوده ، أما ما نقول عن صفاته فهو من غير شك وصف بلغة الناس وهذه الصفات محدودة بما هو فى متناول العقل الانسانى وأكثرها أشبه بالصفات

الانسانية منه بالصفات الالهيـة التى ستظل بالنسبة الينا أمرا مجهولا تماما • ونحن نصفه سبحانه وتعالى بتمام العلم والقدرة وهذا طبيعى ولو لم يكن كذلك لكان أقل من الانسان •

فاذا كانت الأديان الثلاثة تختلف نتيجة لاختلاف العقول ، مع أن جوهرها واحد وهو الايمان بقانون أعلى لا نعرف كنهـه ولا صفاته ، واذا كان بعض هـذا الخـلاف يرجع الى الكتب المقدسة ، فهل يعنى هذا عند المؤلف ان هذه الكتب أو بعضها قد تأثر بفكر من كتبوه أو حملوه الينا ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير • لكن يحمد لهذا المنهج انه قد أوصـلنا الى يقين فيما يختص بوجود الله ، وهو مصدر الايمان وجوهره• أما الخلاف على ما فى الأديان من تفاصيل فهذا أمر قائم منذ نزلت الأديان • وسوف يظل هناك دائما من يفكرون بعقلهم ويتحفظون ضد بعض الفروض الدينية وطقوسها •

ولكن هذا المنهج سوف يخدم بغير شك فى توضيح بعض المفاهيم الفلسفية والدينيـة الصحيحة ، ويساعد على تطهـير المعتقدات مما علق بها من الخرافات التى لا يقبلها العقل •

وقد أعطى المؤلف أكثر من مثل على حسن تطبيق هـذا المنهج فى كتابـه الأخير « الذكر الحـكيم » حيث اختـار من الموضوعات ما يلائم مشاكل الانسان المعاصر وراح يفسرها بطريقة

مقنعة تقرب العقيدة من الانسان وتزيد من ايمانه وتحقق له التطهر والسعادة النفسية .

كما ان ايمانه بنظرية التطور يتضح فعلا فى تفسيره لقصة خلق آدم على أساس أن آدم لم يكن « أول حيوان مشى على رجلين، ولم يكن أول حيوان ناطق ولا أول كائن ذكى » ودون أن يحدد نوع الكائنات التى سبقته فى هذه الناحية هل هى الملائكة أم القرود الانسانية يقول : « ولكنه أول انسان من حيث أنه أصبح عالما بالحرام وبالحلال ذا ارادة وذا قدرة على المعرفة والآيات صريحة فى ذلك » . (قصة آدم/الذكر الحكيم)

من هذا يتبين لنا أن تطبيق هذا المنهج على المفاهيم الفلسفية والدينية والفنية قد يؤدى الى تصحيح كثير من التصورات الخاطئة التى علقت بالفكر على مدى قرون عديدة والتى لازالت تكبل العقل العربى وتحد من انطلاقه فى آفاق العلوم والفنون ، وهو أمر ضرورى لفتح الطريق أمام الوضوح الفكرى والعقائدى ، حتى يكون الفكر أكثر صدقا ولصوقا بالواقع يأخذ منه ويعطيه ويدفع بالحلول الصحيحة لمشاكله .

لقد حاول كامل حسين أن يملأ الفجوة بين السماء والأرض على أساس طبيعى ، بدءا من أسفل الى أعلى ، كى يهدم بهذا أساس الثنائية والغائية فى الفكر .. ولم يعد هناك طبقا لهذا المذهب الجديد ضرورة للازدواجية والتلفيق الفكرى . ولم يعد

هناك مجـال لأن يقول أحد بأن هذا مادى أو هذا معنوى . فكل منهما يؤدى الى الأخر اذ أصبحا شـيئا واحدا فى منهج تدرج القوانين ، ولم تعد التفرقة بينهما جائزة .

وقد نبه المؤلف لهذه المشكلة حين قال :

« لا أود أن يوصف هذا التفسير الذى اتناوله بالمـادية . والذين يتتبعون هـذا البحث الى آخره سيرون اعترافا صريحا بوجود ما فوق الانسان . الا ان هـذا الاعتراف لا يخـالف القول بأن حيـاة الانسـان كلها مادية كانت أو معنوية ليست الا نتيجة طبيعية لوظائف أعضائه ومنها المخ الذى يتعلق بوظيفته كل ما هو انسانى خالص » .

وفى رأيى ان هذا المنهج الطبيعى هو تجديد وتطوير لنظرية التطور التى عرضها داروين فى كتابه « أصل الأنواع » . منذ أقل من قرن ونصف . وهذه المساهمـة المصرية التى قدمهـا كامل حسين تستند الى ما حققه العلم من كشوف فى البيولوجيا والطبيعة والكيمياء . وتطوير النظرية لتشمل مجـال المعرفـة الانسانية وتنظيمها هو مكمن التجديد والأصالة .

وظنى ان اثارة الاهتمام بهذه النظرية ،قد يترك أثرا فى تجديد الفكر العربى لن يقل عما تركته كتابات ابن رشـد فى ميدان الفلسفة ، أو لمـا كان لمقدمة ابن خلدون بالنسبة لعلم الاجتمـاع .

معركة بين العقاد ومحمد كامل حسين
حول كتاب ((وحدة المعرفة))

بدأت هذه المعركة بخطاب أرسله قارئ للأستاذ العقاد يقول فيه ان هناك تشابها واضحا بين ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين (فى وحدة المعرفة) ، وبين ما نادى به الكسندر صموئيل من قبل فى كتبه التى تضمنت أراءه ومباحثه فى الميدان الفلسفى ثم طلب من الأستاذ العقاد التفضل بتناول هذه القضية فى يوميات الأخبار وهل هناك اقتباس أم أنه توارد خواطر ؟

نشر هذا الخطاب الذى أرسله عبد العزيز البدرى من ميت غمر بيوميات العقاد بصحيفة الأخبار (١٤/١١/١٩٦٢) ورد عليه الأستاذ العقاد قائلا :

« ان التشابه تام بين كتاب « وحدة المعرفة » وبين قواعد مذهب الاسكندر فى التطور وأصول الأخلاق وصفات المادة والربوبية وقد بسط الفيلسوف مذهبه هذا فى كتابه الذى ألقاه محاضرات ثم نشره سنة ١٩٣٤ فى مجلدين باسم « المكان والزمان والربوبية » .

وبعض آراء الفيلسوف فيما يدور حول مبحث الجمال

والفن مفصل فى كتابه الآخر « الجمال وصور من القيم الأخرى » وقد لخصنا مذهب الفيلسوف عن الربوبية فى كتابنا عن « الله » الذى ألفناه قبل ستة عشرة سنة (صفحة ٢٥٢ ــ ٢٥٤) وهو الجانب الذى يتناول الربوبية وصفات المـادة وعدنا فى كتـاب عقائد المفكرين الى بيان مذهبه وعقيدته ببعض الايجاز .

أما السؤال عن توارد الخواطر فالأستاذ المؤلف أولى منا بالاجابة عنه قبل تفصيل القول » .

وواضح من عبارة « قبل تفصيل القول » أن العقاد كان يتحين الفرصـة للاجهاز على هذا الكتاب وذبح مؤلفه على طريقة العقاد المعروفة فى مواجهة خصـومه . وكان هـذا كافيا طبعا لاستفزاز الدكتور محمد كامل حسين فكتب مقالا (بالأخبـار ٦٢/١١/٢١) يرد فيه على العقاد ويهاجمه بقسوة ويتهمه بعدم القدرة على التمييز فى البحوث العلمية وما يقوم عليها .

بدأ الدكتور كامل حسين رده قائلا :

« لا أظن الأستاذ العقاد جادا فى دعواه أن كتابى « وحدة المعرفة » منقول عن كتاب آخر . فهو لم يقم على هـذه الدعوى دليلا أو شبه دليل . بل ترك الأمر لى مع علمـه أن البينة على من ادعى . وأصالة كتابى مسألة لا يتطرق اليها الشك . ولم يحدث فى حياتي الفكرية كلها أن نقلت كلمة صغيرة أو كبيرة

لأحد من النـاس دون أن أنسبها الى قائلها • ثم أنى لا أعرف هـذا الصمويل الكسـندر الذى يصفه الأسـتاذ العقاد أنه أبو فلسفة يعينها فى انجلترا والذى زاده مجدا على مجده وزاد كتابه عظمة فوق عظمته أن الأستاذ العقاد لخص كتابه • والمعنيون بالعلوم فى شغل عن أن يتلقوا معلوماتهم من ملخصـات ولو كان الملخص الأستاذ العقاد » •

ومما قاله أيضا :

« وأصالة كتابى يدركها من له حس صادق فى البحوث العلمية والمذاهب الفكرية التى تقوم عليها فهو بناء يقوم كل جزء منه على ما سبقه فى تسلسل منطقى علمى ليس فى منطقـة ثغرة • وقد يتبين أن المذهب الفكرى الذى يقوم عليه الكتاب خطـأ كله • ولكنه لا يمكن الطعن فيه بأنه منقول • وأسلوب الكتاب وترتيبه لا يدعان مجالا للشك فى أنه أصيل » •

« والأستاذ العقاد صادق الحس فى الشعر والأدب • ولكنه ليس صادق الحس فى البحوث العلمية وما يقوم عليها • لأن صدق الحس فى العلوم ينشأ من ممارستها ممارسـة طويلة • وقد خانه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابى وكتاب من يلحد اليه • لأن الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها • وسأسوق الى الأستاذ العقاد بعض أمثلة

قد يتدبرها ليتبين أن ما يدعيه من تشابه قد يكون أصله عدم تبصره بحقيقة مذاهب التفكير العلمية » .

ثم قدم أمثلة بمن يقول أن التشابه تام بين قصيدة شوقي « يا أخت يوشع خبرينا » ومعلقة عمرو بن كلثوم « ألا هبي بصحنك فأصبحينا » وأن شوقي سرق قصيدته من المعلقة لأن القصيدتين متفقتين في الوزن والقافية ثم تساءل « ألا يرى العقاد أن ذلك دليلا على أن محدثه لا بصر له بالشعر . واذا جاءه رجل يقول له أن روفائيل سرق صورته من لينو نارد لأن الصورتين تصوران العذراء وطفلها . ألا يكون رد الأستاذ عليه اذهب وتعلم فن التصوير . « وكذلك من يقول بأن كل الأوبرات متشابهة فهو عديم الحس بالموسيقى » . ثم ينتهي الى أن ما يقوله العقاد عن التشابه التام بين كتابه والكتاب الذي لخصه ليس بعيداً عن هذه الأمثلة .

ثم يفرق بين مناهج نقد الشعر والأدب وبين مناهج نقد العلوم قائلا : « وأصالة الأستاذ العقاد في الشعر والأدب حملته على أن ينقل الى ميدان العلوم والفلسفة أسلوبا في النقد لا يصلح للعلوم . ذلك أن بضاعة النقد القائم على دعوى السرقات الأدبية لا تنفق في سوق البحوث العلمية وما تقوم عليها . والمشتغلون بالعلوم لا يعرفون هذا الأسلوب ويفضلون أن يتركوه للأدباء وللأدباء القدامى بالذات وخاصة من ينقدون

الشعر العربى . وللشعر العربى صفات خاصة قد تجعل النقد بدعوى السرقة مقبولا . على أن أكثر النقاد والمحدثين لا يعبأون بهذا اللون من النقد أما فى العلوم فلا يمكن أن يكون هذا سبيل النقد الحق لأن كل نظرية علمية تقوم على حقائق سابقة ولم يقل أحد أن هكسلى سرق من داروين لأن كليهما أثبت التطور . ولم يقل أحد أن توينبى سرق من شبنجلر على ما فى بعض آرائهما من تشابه » .

« والعلوم تبحث عن الحقيقة وهى ثابتة . والتفاضل بين البحوث يقوم على نجاحها فى اثبات الحقيقة وعلى الطريقة المؤدية الى هذا الاثبات . وعلى ايجاد مذهب مستقيم متكامل يضم أشتات القوانين الطبيعية والانسانية والسماوية ويحدد علاقاتها (وليرجع الأستاذ الى كتاب « وحدة المعرفة » وفيه شرح واف لهذه المسألة) ألا يعلم الأستاذ العقاد أن كل كتب التوحيد تؤدى آخر الأمر الى اثبات وجود الله . فهل كل كتاب منها مسروق من الآخر . وكل الكتب التى تبحث فى التطور والنسبية تؤدى الى نتائج واحدة فهل يرى أنها مسروق بعضها من بعض لأنها تعالج موضوعا واحدا وتصل الى نتائج متقاربة » .

وهذا الكلام صحيح ولاشك الا أن نقطة الضعف فى رده كانت فى السخرية من صمويل الكسندر ثم قوله بأن دائرة

المعارف الانجليزية لا تعرفه ثم أتهامه للعقاد بعدم التبصر لهـذه الأمور وبالغرور ثم دعاه لأن يتعلم التواضع •

وقد وجد العقاد فى هـذه النقاط ضالته وأمسك بتلابيب المؤلف محاولا القضاء عليـه وعلى كتابه فى مقالين متتاليين فى الأخبـار •

وجاء المقـال الأول على طريقـة التهديدات التى يطلقهـا الملاكمون عـادة قبل بداية المباراة اذ يحاول كل ملاكم أن يبث الرعب فى قلب خصمه أو منافسه كما أنها وسيلة يحـاولون بها لفت نظر الجمهور وشده لحضور المباراة •

وتحت عنوان « مثل فى التواضع والخبرة بالدراسـة » رد العقاد على كلام الدكتور محمد كامل حسين (٦٢/١١/٢٢) وراح يكيل له الصـاع صاعين حيث يقول « سئلنا رأينـا فى التشابه بين مذهب الكسندر وكتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين فقلنا أن التشابه تام •••• وأحلنا الرد فى أمر الاقتباس وتوارد الخواطر الى الدكتور محمد كامل حسين مجاملة له وابقاء على كرامته ، اذا شاء أن يبقى عليها •

وبعد أسبوع من ظهور اليوميات نشر الدكتور رده فاذا هو يقابل منا هـذه الرعاية بما يدل على حقيقة حظه من البحث

والعلم والخبرة بالدراسات الفكرية كما يدل على حقيقة حظـه من أصول المناقشة والمناظرة •

ثم أخـذ يعدد النقاط التى استوقفته فى كـلام الدكتور محمد كامل حسين استعدادا لتفنيدها والرد عليها •

ومما قاله الدكتور عن صمويل الكسندر : « أنـا لا أعرف هذا الصمويل الكسندر والذى يصفه العقاد أنه أبو فلسفة بعينها فى انجلترا « وفى موضع آخر » ولم أعثر على معلومات عن هذا العلم من اعلام الفلسفه الانجليزية ودائرة المعـارف البريطانيـة لا تعرفه ولا أدرى هـل هو فيلسوف لجـأ الى العلوم ليثبت نظرياته أم هو أصلا عالم طبيعى امتد به التفكير العلمى الى أن شمل المباحث الفلسفية » وقال عن فلسفته أيضا :

« ولو قرأ الأستاذ العقاد الكتاب كله (وحدة المعرفة) وعكف على تفهمه ودرسه درسا دقيقا وهو كتاب ـ عسير ـ لرأى فيه أشـياء كثيرة لا يمكن أن تكون فى كتـاب صمويل هـذا » •

ثم يستطرد العقاد قائلا :

« أما نصيبنا نحن من تحقيق اليحاثه وأسلوب مناقشاته فمنه ـ أن العقـاد ليس صـادق الحس فى البحوث العلميـة وما يقوم عليها ••• » •

ومنه « وانى أرجو الأستاذ العقاد رجاء حارا أن يقرأ كتابى (وحدة المعرفة) قراءة درس واستيعاب . وهو قد لخص كتاب صمويل وقد يرى أن يلخص كتابى أيضا وهو قد شرح فلسفة صمويل فى كتابه عن الله ولعله يشرح فلسفتى فى كتابه عن نفسه وهو الكتـــاب الذى سيظهر قريبـــا وســـيكون عنوانه من غير شك ــ التواضع » .

ولم يكن من طبيعة العقاد وهو مفكر شديد الاعتداد بالنفس أن يسكت على من يتهمه بنقص الحس أو البصيرة فى أى شأن من شئون الفكر والعلم . لهذا أخذ بعد أن استعرض الاتهامات فى الرد عليها بنفس اللهجة الشديدة :

« ونحن اذن نفتقر الى التواضع الذى يتحلى به الدكتور ، والى تمحيص الدعاوى العلميـــة على طريقته التى يجيدهـــا . ومنها ادعاؤه على كتاب يزعم أنه لم يقرأه أن يستحيل أن تكون فيه تلك الآراء التى لا يجوز أن تخطر على بال أحد سواه ... !

« وبغير دليـــل على الاطـــلاق يقول الدكتور ما قـــاله : لكننا ــ بدليل من كلامه وشاهد من قلمه على نفسه ــ نقول أن الدكتور لا يحسن البحث والدعوى ولا يحتاج الى شىء كمـــا يحتاج الى التواضع ، ولا يحق له أن يخوض فى مسائل الفلسفة لأنها شىء غريب عن تجبير العظام .

فالدكتور المجبر لم يمارس البحث مراسا طويلا ولا قصيرا ، والا لما فاته أن يعرف صمويل الكسندر الذى عرفناه وشرحنا مذهبه منذ أكثر من ستة عشرة سنة ، ولو كان ممن يمارسون البحث لما قال عن صمويل الكسندر « هذا الصمويل أو صمويل هذا » أو أنه لم يعرفه ولم يسمع به وليس بين الفلاسفة المعاصرين من هو أشهر منه فى عالم الثقافة الأوربية » •

« ومن طريقته التى نجانا الله منها فى حسن البحث أنه يزعم أن دائرة المعارف البريطانية لا تعرف « صمويل هذا » وهى قد عرفته وقالت عنه أنه أحد الفلاسفة القلائل الذين تمموا للفلسفة فيما وراء الطبيعة مذهبا كاملا ينسب اليه » •

« ففى أول الصفحة (٥٧٦) من أول جزء فى الدائرة يقول محررها الفلسفى : أنه واحد من الفلاسفة البريطان القلائل فى النصف الأول من القرن العشرين أنشأ مذهبا كاملا محيطا فيما وراء الطبيعة •

ثم يقول أنه نال جائزة جرين فى الفلسفة الأخلاقية ، وتطور اشتغاله بالفلسفة فوجد الحاجة ماسة الى الربط بينها وبين علم السيكولوجى ••• وفى خلال سنتى ١٨٩٠ — ١٨٩١ درس السيكولوجية التجريبية فى ألمانيا على الدكتور هوجو منستربرج وفى سنة ١٨٩٣ بعد عودة قصيرة الى أكسفورد عين أستاذا

للفلسفة بجامعة مانشستر وكان واحدا من نخبة أساتذتها النابهين ••• ثم لخصت الدائرة فلسفته فقالت ما ترجمته حرفيا : « ان التقاء الزمان والمكان عنده كان رحم كونى تتولد فيه طبقات من الكائنات تشتمل على خصائص المادة والحياة والعقل كل منها تحيط بما قبلها وتدل على اتجاه الى ما هو فوقها والربوبية دائما هى الطبقة الثانية بعد الطبقة التى اتجه اليها التطور الكونى » •

« وقبل أن ننتقل الى التعقيب على ما تقدم نقول : ان الأفكار التى سمح الدكتور محمد كامل حسين تحقيقه العلمى أن يقول باستحالة ورودها فى كتاب الفيلسوف الكبير قد احتواها كلها تلخيص دائرة المعارف البريطانية التى يقول الدكتور انها لا تعرفه فلم يكن مستحيلا أن يشرح الكسندر تفاضل القوانين من المادة الى العقل قبل أن يبتكر الدكتور ــ على دعواه ــ هذا الترتيب فى دراسة المعرفة والتطور كما قال على الصفحة الثالثة •• « وهى قوانين المادة ثم تتلو ذلك قوانين الحياة • ثم تأتى بعدها قوانين الانسان وهى أخص وأرقى •• » •

« وفى صفحة ١٦١ ــ أى فى أواخر الكتاب يقول الدكتور « ان لكل شىء ربا وأن رب أى شىء هو القوة أو القانون الذى يعلوه • وقد يكون فى هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظام والكون » •

« فمن صفحة (٣) الى صفحة (١٦١) فى كتاب وحدة المعرفة يحكى الدكتور مذهب الفيلسوف ولو اكتفينا فيه بهذه الخلاصة فى دائرة المعارف البريطانية التى تعرفه ، ولكن العجب العجاب انما يدرك القارىء من المراجعة بالكلمة والعبارة لما قد شرحه ذلك « الصمويل » على حد قول الأستاذ المتواضع محمد كامل حسين ! وبالدليل القاطع يثبت الى الآن نقيض كل ما ادعاه الأستاذ لنفسه وادعاه علينا .

« فليس هو طويل الدراسة للمباحث الفكرية لأن من كان طويل الدراسة لها لن يبلغ من جهله بفلسفة القرن العشرين أن يخفى عليه مذهب المثالية التجريبية وهو بهذه المكانة من عالم الثقافة » .

« وليس الدكتور بالرجل الذى يعلمنا أدب التواضع لأن المتواضع يذكر الحياء والواجب حين تحثه نفسه باحتقار هذا « الصمويل » لغير ذنب جناه غير فلسفته التى يتعالم بها السيد الهمام » .

وليس الدكتور محققا فى بحثه وتمحيصه لأن الباحث المحقق لا يدعى على دائرة معارف تملأ الأرض أنها خالية من ذكر الفيلسوف ، وهى تنوه بشأنه هذا التنويه .

ثم ختم العقاد مقاله قائلا :

« ولا نريد بعد هذا كله أن نتعلم على يد الدكتور درسا فى التواضع لأننا نحس بعد مقالاته ودعاويه أننا بحاجة شديدة الى درس آخر يعوزنا الآن •

« ذلك الدرس هو الكبرياء التى كان ينبغى أن نتعلمها ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم أخبر منه بما يدرسون، ولعله يراجع برنامج الدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هذا البحث فى اليوميات » •

وجاءت اليوميات أشد قسوة فى الرد على ما قاله كامل حسين • بدأها العقاد قائلا :

« ليس فى وسع كامل حسين أن يجزم باستحالة نسبة « وحدة المعرفة » الى هذا الصمويل « لأنه قد أصبح من الاشاعات الذائعة التى نقلت عنه الى لغتنا فى كتاب «نحو فلسفة» علمية للدكتور زكى نجيب حيث يقول فى مقدمته عن صمويل :

« وهو فيلسوف تجريبى تركيبى معا وهو يعتقد بأن الفلسفة لا تختلف عن العلم الا فى كونها تبحث فى مشكلات أهم من مشكلات العلم لكنهما معا يدوران حول موضوعات بعينها » :

« والدكتور محمد كامل حسين مولع باعادة ابتكار الآراء التى يجهلها من آراء هذا الفيلسوف خاصة ، ولكنه يطبقها

كذلك على طريقة مبتكرة بحق ، لا يستطيع أن ينازعه فيهـا أحد غيره ، لأنه يؤلف كتابا عن وحدة المعرفة ثم يقيم السدود بين أبواب المعرفة ويفرض الاختصـاص فى كل باب منها . ويحرم علينا ــ بصفة خاصة ــ أن نميز بين مذاهب المفكرين لأننـا لا نحسنها كما يحسنها هو بمعرفته الشاملة الكاملة ولا يجوز لنا أن نكتسب هـذا التمييز بعد خمسين سنة فى قراءة الفلسفة وعشرين سنة فى تأليف الكتب المستقلة عن الفلاسفة » .

وعن بحث الدكتور عن دائرة المعارف يقول العقاد .

« فدائرة المعارف أولا ليس مرجع المختصين فى الفلسفة لأنها مرجع عام للمعارف البشرية تلم كل معرفة منها بما تتطلبه الحاجة الى المراجعة العامة . وانما يعتمد المختصون على دائرة المعارف الفلسفية وعلى أمهـات كتب الفلسفة وعلى مؤلفـات الفلاسفة أنفسـهم أو شروح المعلقين على مؤلفـاتهم ولو كان الدكتور يحسن البحث عن مراجعه لمـا احتاج الى دائرة المعارف البريطانية فى هذا الموضوع » .

« ودائرة المعارف ثانيا : لم تهمل ذلك الصمويل كما يقول الدكتور لأنها ذكرته ولخصت مذهبه فى أول جزء من أجزائهـا وأحدث طبعة من طبعاتها فاذا كان الدكتور لا يحسن أن يستخرج موضوعا فى الدائرة التى يراجعها « العموم » فليس فى نقص القدرة على البحث غاية بعد هـذه الغاية ، واذا كان الدكتور

يجزم باهمال الدائرة لأنه يملك طبعة منها غير الطبعة الحديثة فليس للتعجل بالاثبات والانكار غاية بعد هذه الغاية » •

« على أن الدكتور يقع فى محظور أشد من هذا المحظور اذا قال أنه اعتمد على الطبعة الرابعة عشرة ولم يعتمد على أحدث الطبعات » •

فهذه الطبعة لم تكتب للفيلسوف صمويل الكسندر ترجمة حياة لأنها صدرت وهو بقيد الحياة • ولكنها ذكرته فى عدة مواضع وخصته بقسم مستقل من تقسيماتها لتاريخ الفلسفة لخصت فيه مذهب الفيلسوف عن تفاضل القوانين باسمه التى يقول الدكتور أنه « ابتكره » بعد ذلك بثلاثين سنة يقول بكل شجاعة أنه يقترحه •• نعم يقترحه لأول مرة ويسميه لأول مرة ولايمكن ــ طبعا ــ أن يكون أحد قد ابتكره قبله وقبل هذه المرة • ونعنى به اسم الهيرارشية باللغة الانجليزية وباللفظ الذى نقله الدكتور الى اللغة العربية كما هو حيث قال ص ٥٧ :

« يقوم البناء الذى اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل القوانين ــ هيرارشية القوانين ــ » •

أما الذى قالته دائرة المعارف فهو كما جاء فى صفحة (٧٥٨) من الجزء السابع عشر بترجمته الحرفية :

« ان الموجودات تنبثق فى أحوال معينة وتتكون منها

هيرارشية .. » الى أن قالت : « وبهـذه الهيرارشـية تكون الموجودات العليا لها صفات ما دونها ولكنها تتصرف فيها بخلاف تصرفها ، فهى تستمتع بصفاتها العليا باطنيا ومباشرة . ولكنها تدرك صفاتها الدنيا خارجيا على درجات ، ولنا بالقياس العقلى أن نقدر وجود صفات أعلى من ذلك الربوبية ، فكما أن الوعى المدرك هو أعلى صفة فى الانســان كذلك الربوبية أعلى صفات الاله وكيانه هو الوجود كله يترقى الى الوجود الالهى ،ولمـا كان الزمن لا يبلغ تمامه ــ أو نهايته ــ أبدا فالصفات الأعلى فالأعلى لاتزال منبثقـة على الدوام . ولايزال العـالم فى تطلعـه الى الربوبية يحفز فينا الشوق الدائم الى الله .

ثم يتساءل عما كتبه الدكتور ويستطرد :

« ونعود الى كتاب وحدة المعرفة التى هى من مبتكرات الدكتور لحساب هذا الصمويل أيضا ، فلا نجد فى فصـل منه فكرة واحدة لم ترد فى « مذهب الفيلســوف المجهول » لدى الدكتور : ليس هناك عبارة واحدة عن التطور الزمنى وعن ماهية الزمن وعن التفكير الثنائى ، وعن أصالة الصفات أو الأخلاق البيولوجية ، وعن القوانين والحوادث ، وعن الحياة والوعى ، وعن الربوبية والاله ، لم يشرحها الفيلسوف المجهول ويتبرع له الدكتور بابتكارها مرة أخرى بعد سنين » .

ثم يضرب العقاد شواهد على ذلك مما لخصه فى كتابه عن « الله » حيث يقول :

« فى صفحة ٢٥٣ لخصنا مذهب الفيلسوف فى درجات الكائنات وتفاضلها بالصفات ، وخلاصته كما ترجمناه يومئذ قبل أن نعلم أن الدكتور سيتكره واننا سنقيم الحجة عليه :

« اذا حدثت الحركة فذلك هو اتصال الزمان والمكان . واذا وجدت الحركة وجد الاشعاع وتسلسلت الأشياء المادية من هذا الاشعاع . وهى تبدو على درجات ، فأدنى طبقات المادة بعد صدورها من الفضاء والزمان هى المادة ذات الخصائص الأولية : وهى الحجم والشكل والعدد والحركة ، ثم تعلوها طبقة الخصائص التى ترتقى الى اللون والصوت والرائحة ودرجة الحرارة ، أو بعبارة أخرى أن الخصائص الأولية تدرك بجميع الحواس ، وأن الخصائص التالية لها تحتاج الى التخصيص فتدرك كل منها باحدى الحواس ، ولا تتم الخاصة للشىء الا مع اتصاله بشىء آخر ، كما يتم اللون مع اتصال الشىء بالنور ، ويتم الصوت مع اتصال الشىء بالهواء فلابد له فى هذه الحالة من بعض التركيب .

وخلاصة الفيلسوف عن النظام والمنظم كما يقول العقاد هى :

« اننا اذا استبدلنا كلمة النظام بكلمة المنظم فلا نعدو بذلك أن نسمى هــذه الحقيقة الواقعة : وهى أن العالم يجرى على نسق يخرج منه النظام . وفى وسعنا أن نسمى العالم الذى تدركه على هذا النحو ــ الها » .

ثم يقول العقــاد « وفى صفحة (٢٥٤) نلخص كلامه عن العقل والربوبية وهو : ان الكون لايزال يعرض لنا انبثاقا بعد انبثاق بسلسلة من الكائنات الموجودة يتسم كل منها بخصائصه وصفاته ، وأرفع الصفات المعروفة لدينا هو العقل أو الواعية . والاله هو الكائن الذى يعلو أعلى ما عرفناه » .

« وتتمة هذا الرأى قوله أنه « لمــا كان الزمان أبديا بغير انتهاء وكان هو مصــدر النماء والارتقاء فليس فى استطاعتنا أن نتخيله واقفا عند اخراج تلك الكائنات المحدودة التى تتسم بسمة خاصة أو الواعية ، ولابد لنا من أن نرسل الفكر على الاتجــاه الذى ترسمناه من تجــارب الانبثاق السابقة التى تمخضت عن الصفات الرفيعة ، فان فى الزمان والفضــاء باعثا يدفع مخلوقاتهما الى طبقة أرفع فأرفع كما دفع بها الى طبقة العاقلة أو الواعيــة وليس فى العقل ما يدعونا الى الوقوف عند حد من الحدود لنقول انه هو الحــد الأقصى لمــا يبثقه الزمــان من الآن الى آبــد الآباد ــ بل يكرهنا الزمان نفسه على انتظــار مولود آخر من مواليد ، ومن ثم يسوغ لنا أن نتتبع سلسلة الصفات وتتخيل تلك

الكائنات المحدودة التى سميناها ملائكة ، وهى كائنات نستمتع بوجودها الملائكى ولكنها تتأمل العقل على نحو يعجز العقل عنه كما نرى العقل يتأمل ما دونه من مراتب الحياة والموجودات السفلى . وعلينا أن نسأل كيف تكون العلاقة بين هذه الآلهة المحدودة المسماة بالملائكة وبين الاله الذى ليست له حدود ؟ فالاله اذن هو الطبقة المثالية التى تعلو طبقة العقل والواعية والألوهية صفة تتولى الصفات التى دونها من طبقة العقل الذى يقوم هو أيضا على ما دونه من صفات وينبثق عندما تبلغ الكائنات مبلغا مقدورا من التركيب والتنسيق .

ويمضى الفيلسوف فى التقدير والتخمين فيقدر أن الاله الأعلى الذى ينبثق عنه العالم هو من معدن الروح والعقل لأنهما الطريق التى تأدينا منها اليه ولكنه يشارك الموجودات فى خصائصها الكونية كما يشترك الانسان العاقل فى خصائص المادة وخصائص سائر الأحياء على نحو من الأنحاء . (ص ٢٥٥) .

وفى الفترة بين ظهور مقالى العقاد نشر الدكتور زكى نجيب محمود مقالا يؤيد فيه العقاد ويتهم الدكتور كامل حسين بتلخيص كتاب صمويل .

وقد روى أنه تحدث فى ندرة اذاعية من ثلاث سنوات عقب ظهور « وحدة المعرفة » وقال فيها :

« ان الدكتور كامل حسين مشكور بغير شك على تقديمه هذه المادة لقراء العربية ، لكنني كنت أتوقع أن يشير الى كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر لعل قارئا مستقصيا يحب أن يتوسع في الموضوع بعد أن قرأ خلاصة له ، وأرجح جدا أن يكون الدكتور قد سمع تلك الاذاعة عندئذ — وعندي شاهد على ذلك — لكنه سكت عن الموضوع حينئذ ولعل مرجع سكوته اذ ذاك هو « ان صاحب القول لم يكن في رأيه بذي خطر » .

ثم يقول انه دهش حين رد الدكتور كامل حسين على العقاد الذي يؤكد فيه انه لم ينقل حرفا وانه المبتكر الأصيل « وبعد أن يفند التشبيهات التي ساقها الدكتور كامل حسين يستبعد ان يكون هذا التشابه كله مصادفة عابرة والعينان هما العينان والشفتان هما الشفتان » .

هذه كلمة المتخصص :

وتحت هذا العنوان قال الدكتور زكي نجيب : « ان الدكتور كامل حسين ليهمه أن تكون الكلمة للمختص ، فما هي مادة الكتاب التي تريد اختصاصا ؟ انه ليس علما خالصا ، ولا هو أدب خالص ، انما هو كتاب في « فلسفة العلم » وكاتب هذه السطور قد نال درجاته العلمية في فلسفة العلم هذه بالذات ويأكل خبزه منها كما يأكل الدكتور كامل خبزه من طب العظام ، فلي من

الحق فى ابداء الرأى فى مسألة تتعلق بفلسفة العلم مثل ما له من الحق فى ابداء الرأى فى مسألة تتعلق بطب العظـام ولو طالب بأكثر من هذا كان خارجا على المبدأ الذى فرضه ، وهو أن يكون الرأى للمختص أولا ولغيره ثانيا .

والرأى الذى لا أشك فيه لحظـة واحدة هو أن كتاب (وحدة المعرفة) ـ فى أوصوله وفروعه ـ هو تلخيص مفكر مجتهد ، قد يقف عند الأصل كما هو حينا وقد يحـاول التعديل أحيانا ، فاما الاطار الذى يقوم عليه البناء كله فالدكتور متأثر فيه بصمويل الكسندر ، وانه ليتساءل فى رده على الأسـتاذ العقاد هل جاء فى كتاب صمويل هـذا شىء عن « نظرية القوانين والأشياء ، وتفاضل القوانين ، وعلاقة القوانين العليا بالقوانين الدنيا وان العليا تعرف تصرف القوانين الدنيا ولكن القوانين الدنيا لا تعرف من العليا الا وجودها ... الخ » وينفى الدكتور بشدة أن يكون شىء من هذا كله قد ورد فى هـذا الأصـل المزعـوم .

« ثم يشير الدكتور زكى نجيب محمود الى الفصل الثانى من الجزء الثانى من كتاب صمويل عن ترتيب المستويات ويقول أن كامل حسين لخصـه فى ثلاث صفحـات (٦٧ ـ ٧٠) فيرد فيها قوله » .

« ان كل نمط جديد من أنماط الوجود حين ينشأ يكون

من الممكن التعبير عنه تعبيرا كاملا ، تعبيرا يستنفده ولا يترك فيه بقية ، بلغة المرحلة الأولى ، وبالتالى فهو يعبر عنه ، بلغة المرحلة الأولى ، وبالتالى فهو يعبر عنه عن طريق غير مباشر — بلغة المراحل الدنيا جميعا — فنعبر عن العقل بلغه العملية الحيوية ثم نعبر عن الحياة بلغة العملية الفيزيا كيميائيــة ، ونعبر عن صفة الحس — كاللون بلغة المــادة وما بها من حركات ثم نعبر عن المــادة ذاتها بلغة الحركة . فمما هو أدنى قد يتصف جزء منه بتركيبة معقدة من الصفات تجعله كأنما هو كائن ذو كيفيــة جديدة . يعلو بها على بقية مستواه ، فيصبح ذلك الجزء بالنسبة الى تلك البقية بمثابة العقل أو بمثابة الصــورة من المــادة ، أى أن الأعلى يكون بمثابة القانون الأعم الذى يشمل القــانون الأدنى الذى هو مجسد فى الشىء قبل أن ينشأ عنه ذلك الجزء الذى امتاز بكيف جديد . فلو بدأت من بسائط الكون الأولية (وهى عنده — المكان زمان المجرد) . تجد طريقا متصــلا فى صعوده من نمط أدنى الى نمط أعلى ، بحيث يكون لكل نمط أعلى قوانينه التى تشمل قوانين الأدنى ، لكن قوانين الأدنى لا تستوعب قوانين الأعلى .

« وخذ الفصل الرابع وعنوانه (العقل والمعرفة) لترى كيف يفصل فيه القول تفصيلا فى علاقة الأعلى بالأدنى حتى اذا ما جئنا للكتاب الرابع الذى يقصر البحث فيه على (الربوبية) والذى يشرح الفكرة القائلة « بأن الأعلى هو رب الأدنى يقرر له مساره

وطريقه ، وصلنا الى المرجع الحاسم الذى يقرر العلاقه بين الأصل وصداه فاقرأ فى نهاية كتاب الدكتور كامل حسين (صفحه ١٦١) قــوله :

« سبق أن بينا أن لكل شىء ربــا وان رب أى شىء هو القوة أو القانون الذى يعلوه فيؤثر فى حياته... (لنعلم أن ما قد سبق له أن بينه فى الكتاب هو نفسه الذى بينه كتــاب المكان والزمان والربوبية » .

ويمضى الدكتور زكى نجيب فى تأكيده هذه التهمة قائلا :

« أما بعد فلو قال الدكتور كامل حسين انه (استوحى) ذلك الكتاب لقلنا : قد يكون ذلك ، أما أن ينكر كل علاقــة له بالكتاب وصاحبه فأمر يستحيل تصديقه ، ولا عبرة بعد ذلك ، أيكون صمويل الكسندر ذا مكانة عالية أو خفيضة فى تاريخ الفكر المعاصر ، لأن قيمة الرجــل لا شأن لها بما نحن بصــدد الحديث فيه . فقد يكون أتفه التافهين ومع ذلك ربما عن لاحد أن يأخذ عنه ، بل ربما كانت العلة فى السكوت عن ذكر المصدر الأصــيل هى انه فى رأى الناقل مصــدر مظلم مجهول لا تراه الابصــار » .

لقد حرصت على تقديم هــذا الملخص الوافى للمقــالات المذكورة لا نقل للقارىء جو الحدة والعصبية الذى سيطر على هؤلاء المتحاورين لتحول الخلاف العلمى الى معركة شخصــية

يؤججها الكبرياء ، الذاتى والاعتداد بالنفس خصوصا من جانب العقاد : ولا نستطيع أن نلومه على هـذه اللهجـة فقد ابتدأه الدكتور محمد كامل حسين بالهجوم حين تباهى عليه بتخصصه فى دراسة العلوم ثم اتهمه بعدم القدرة على التمييز فى المسـائل العلميـة .

كذلك كان اعترافه بعدم معرفة صمويل الكسندر وقوله بأن دائرة المعارف البريطانية لا تعرفه نقصا فى المعرفة ليس له ما يبرره بالنسبة لعالم يتصدى للبحث فى هـذه الأمور .. فقد كان يجب عليه مراجعـة تاريخ الفلسـفة والتعرف على ما قاله الفلاسفة فى هـذا الجانب الذى يتعرض له . ولو صحت رواية الدكتور زكى نجيب محفوظ بأن الدكتور محمد كامل حسـين قد سمع رأيه فى الاذاعة عن علاقة كتابه بفلسفة صمويل لكان الأمر أدهى وأمر . فلماذا لم يبحث عن كتاب صمويل الكسندر ويقرأه ويعرف مواطن التشابه والخلاف على حقيقتها . واذا تعذر عليه الحصول على الكتاب فلماذا لم يستوثق من الدكتور زكى نجيب ويتبين كل جوانب الأمر .

فالتشابه بين كتابه وأفكار صمويل موجود على النحو الذى ذكره الأستاذ العقاد والدكتور زكى نجيب محمود . وهو تشابه فى الأفكار الأساسية يلمسه كل من يقرأ مقدمة الطبعة الثانيـة من كتاب صمويل الكسندر (المكان والزمان الربوبية) التى صدرت سنة ١٩٢٧ أثناء وجود الدكتور كامل حسين فى انجلترا

يدوس للحصـول على الدكتوراه ، وبالذات كلام صمويل عن المعرفـة •

وأنـا استبعد أن يكون الدكتور كامل حسين قد نقل من كتاب صمويل لأنه لو عرف صمويل لمـا قال أن دائرة المعارف البريطانية لا تعرفه وأوقع نفسه فى هـذا الحرج الشـديد •• وأغلب ظنى أن المسألة مجرد توارد خواطر لأن هذه الأفكار كانت مشاعة تثير اهتمام العلماء والفلاسفة فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى •

وبعد أن هدأت المعركة قرأ الدكتور محمد كامل حسين كتاب صمويل الكسندر وقارن بينه وبين كتابه فى مقال عنوانه « حول وحدة المعرفة » نشر بمجلة « المجلة » (يناير ١٩٦٣) واعتذر فيه عن جهله بصمويل الكسندر •• وقال انه رجل فلسفة يعنى بالمغزى والقيم أما البيولوجيـا فتعنى بوسـيلة التطور (والميكانزم) التى يتم بها ، والكسندر جعل للجمال فلسفة عالية أما هو فقد جعل الجمـال والحب عملية فسيولوجيـة مخيـة الكترونية ، كما أنه رد جميع الفضائل والمعنويات الى أسـاس طبيعى محتمل فى فسيولوجيا المخ •

كما اعترف بأن أكبر وجوه التشابـه بين الكتـابين هو استعمال عبارة (هيرارشية القوانين) وقال انها كلمـة معروفة

منذ القدم يتعلمها البيولوجيون فى بداية دراستهم • وليست من ابتكار الكسندر • ولم تكن الالكترونات فى كتاب الكسندر سنة ١٩٢٧ قد بلغت ما بلغته اليوم من تقدم (كما وضح فى « وحدة المعرفة ») ١٩٥٨ ثم قال « وعلاقة هيرارشيتى القائمة على الذرة والالكترونات بهيرارشية الكسندر صمويل القائمة على النسبية كالعلاقة بين النسبية والجاذبية ، والنسبية تشمل الجاذبية وهى أثبت أصولا وأخصب » •

ثم حدد نقاط الأصالة فى « وحدة المعرفة » على النحو التالى :

١ ــ البحث فى أسباب تفرق أجزاء المعرفة •

٢ ــ نظرية الهرم المقلوب وصفا للمعرفة •

٣ ــ تناول العقل من حيث هو جهاز التفكير أو ترمومتره، وبحث صفاته التى تتعلق بالمعرفة لا فى كنهها •

٤ ــ تصنيف مذاهب التفكير الى خرافى علمى ودينى فلسفى •

٥ ــ حملته على العلة الغائبة •

٦ ــ رفض أن يكون مبدأ تنازع البقاء والبقاء للاصلح والاختيار الطبيعى هو السبب فى التطور • لأن هذا

لا يفسر لنا بحال من الأحوال التشابه بين دم الانسان ودم القرد فى تجربة لا علاقة لها بهذه المسائل يتبين منها أن العلاقة بين دم الانسان ودم القرد خاصية عميقة جدا •

ثم انهى مقاله قائلا : أليس خيرا من ذلك كله أن ندع كتاب « وحدة المعرفة » ومؤلفه فليس هو آخر كلمة فى الموضوع وأن يتفضل أحد مفكرينا فيبدى رأيا أصيلا فى المعرفة وهل يمكن توحيدها ، وهل يكون هذا التوحيد عن طريق النسبية كما فعل الكسندر أم عن طريق الذرة والالكترونات (كما فعلت) أم عن طريق ثالثة يكشفها لنا ويكون له من الأمة خير الثناء •

على أن أهم ما جاء فى هذا المقال الأخير هو اعتراف الدكتور كامل حسين بتاثره بكتاب أوسبنسكى وهو يعرب عن دهشته من ناقديه لتركيزهم على كتاب الكسندر فقط قائلا : « على انى لا أدرى لم حدد الناقدون كتاب الكسندر بالذات ، وهناك كتب أخرى تتناول الموضوعات نفسها بطريقة مماثلة تماما لكتابه • ومنها كتاب أعرفه وتأثرت به ، وهو كتاب أوسبنسكى Tertium Organon فليست دعواى انى لم أعرف الكسندر ناشئه عن الرغبة فى دعوى الابتكار ، ولكنها الواقع • وبهذه المناسبة أقول أن موضوعات أوسبنسكى وموضوعات الكسندر متشابهة الى أقصى حد ، ولم يقل أحد أن أوسبنسكى نقل عن

الكسندر ، لأن هـذا النوع من النقد فى مثل هذا المجـال لا يقام له وزن .. والخبراء لاشك يقدرون ما بين الكتابين من فروق دقيقة » .

ثم يضيف الى ذلك قوله :

« وما شأن هذا كله وأنـا أعترف فى كل موضع من الكتاب انه ليس فيه معلومات جديدة ، ولا حقيقة واحدة جديدة ، وأن الغرض منه بسيط جدا هو (تفنيطة) جديدة للمعلومات المعروفة يجعل نظامها أوضح . وهل يسأل الانسان فى هذا العصر من أين أتى بمعلوماته عن الذرة والالكتورنيات والتطور » .

ولاشك أن هـذه هى كلمة الفصل فى الموضـوع كله . فالتشابه موجود بين الكتابين بل وبين كتاب أوسبنسكى أيضا وبدرجات تنفى وجود النقل أو الاقتباس التى ركز عليها العقاد وزكى نجيب محمود .

ومع ذلك فالاختلاف موجود أيضـا فى بعض النواحى ، فصمويل الكسندر فيلسوف امتد اهتمامه الى العلوم الطبيعيـة وكامل حسين جراح عظـام امتد اهتمامه الى ميـدان الفلسفة وكتاب صمويل يقع فى مجلدين وتزيد صفحاته على السبعمائه ، بينما كتاب (وحدة المعرفة) لا يزيد على مائتى صفحة ويتميز بالتركيز وحسن التنسيق .

كذلك لا يخلو هـذا الكتاب من اضافـة ، فهو يتحدث عما أكده العـلم بالنسبة لنظريـة التطور وعن طبيعـة المـادة

السنجابية المكونة لخلايا المخ وشرحه لطبيعة الذاكرة ووظيفتها وأهمية ذلك بالنسبة للعقل ووظيفته الفكرية وعلاقة ذلك كله بالأصل الطبيعى للفضائل والأخلاق •

ولاشك ان تقديم مثل هذا الكتاب يعد اضافة عظيمة للمكتبة العربية والفكر العربى ولا يقل من أهميته ما قيل عن التشابه بل يزيد من قيمة ما فيه من أفكار •• ومن هدفه العظيم لبناء المعرفة على أساس يتطابق فيه نظام المعرفة الانسانية مع القوانين الطبيعية المنظمة للكون •

لقد أقام ابن رشد فلسفته على أساس الفلسفة اليونانية وفلسفة أرسطو بالذات فهل قلل هذا من دوره فى مسار الفكر العربى والاسلامى !!!

ومن المؤسف حقا أن يدور هذا النقاش حول مسأله وجود الشبه بين (وحدة المعرفة) وفلسفة صمويل الكسندر دون أن يتطرق الى جوهر الكتاب ذاته •• كذلك ضاع جهد المتحاورين فى هذه المسائل الشكلية دون أى اهتمام بمضمون ما قاله الدكتور محمد كامل حسين وما أضافه •• وقد أضاف حقا ، اذ نظر الى نظرية التطور نظرة جديدة فى ضوء ما حققه العلم من اكتشافات فى علوم الطبيعة والبيولوجيا •• مما يؤكد صحة هذه النظرية •

أما أصالته الحقيقية فتكمن فى ايمانه بهذه النظرية ايمانا قويا وتطبيقها كمنهج فكرى فى كل أبحاثه تقريبا •

الوادى المقدس ..
وحديث الى النفس

يتميز هـذا الكتـاب على غيره من مؤلفـات الدكتور محمد كامل حسين ، ببساطة اللغة وعذوبتها . فلا تكاد تمضى فى قراءته حتى تحس برشاقة الكلمـة وعذوبة العبارة وصفائهـا فتحسب أنه كتاب خواطر سجلها المؤلف فى لحظـات التأمل ، دون أن يسبقها تخطيط أو تدبير . ولكنك تفاجأ بعد الفصـل الأول أنك قد انزلقت الى الأعماق لتسمع وتناقش أخطر مشاكل النفس الانسانية فى علاقتها بالآخرين وبالكون عموما . واذا بك تفاجأ بأن المؤلف يعرض أمامك نظرية جديدة هى خلاصـة كل أبحاثه ونظرياته العلمية السابقة .

لكن هذه النظرية الجديدة هى فى الواقع أهم النظريات وأخطرها . كما أنها أكثرها عمقا وغموضا . ولعل هذا ما دفع المؤلف الى تغليفها بهذا الثوب البراق ليحملك على أجنحـة العبارات الرشيقة حتى لا يصـدك الملل أو ترهقك المعاناة وراء الأفكار حتى اذا بلغت النهاية دون أن تبلغ اليقين استوقفك فى لباقة عظيمة وفى شبه اعتذار رقيق ليقول لك :

« تحدثت اليك طويلا ، وعرضت عليك أمورا كثيرة تتعلق

بنفسك ، ولم أقف لأسأل من أنت ؟ أما وقد انتهيت من هـذا الحديث فأحسب انى فى الواقع كنت أتحدث الى نفسى » •

وبفضل هذه اللباقة النادرة ، قال المؤلف كل ما عنده دون حرج • وناقش أخطر قضايا الانسان وأكثرها اثارة للحساسيات دون أن يحتج عليه أحد • وبذلك نجا من تهمة الكفر والمروق ، وكيف يتهم انسان يتحدث الى نفسه • أو ربما كان هنـاك سبب آخر وهـذا ما يوضحه الأستاذ فتحى رضـوان (مجلة الثقافة ــ العدد ٤٣) •

« فان كتاب (الوادى المقدس) يجب أن تقرأه لا لتستمتع بعمل أدبى جيد ، وانما تقرأه بوصفه سيرة ذاتية تعرض هموم وهواجس ووساوس وشكوك ومخـاوف وحيرة محمد كامل حسين • وحين تتناوله بهذا الوصف ، يرتفع قدره ، لأنك ستجد فى كثير مما قاله وسجله ، أشياء خطيرة ومصارحات جريئـة ، مرت غير مفهومة فلم تثر عليه ثائرة المحافظين ، ونجا من تهمة التجديف فلم توجه اليه » •

والواقع ان الكتاب فى هـذه الناحية لا يشـذ عن كتبه الأخرى الهامة • ففى « التحليل البيولوجى للتاريخ » كان يبحث فى القوانين العامة المحركة لحركة الأحداث التاريخيـة ، وفى « وحدة المعرفة » شرح قوانين التطور الطبيعى التى تؤدى الى

وحدة المعرفة وتكشف عن الأساس الطبيعى للضمير والفضائل • وهكذا الأمر بالنسبة للوادى المقدس • انه بحث فى كشف الأسس الطبيعية لتحقيق التوافق بين الانسان وبين نفسه ثم بينه وبين الآخرين بل بينه وبين الكون حتى « تكون الطبيعة وجسمك وعقلك ونفسك متوافقة توافقـا موسيقيا تكمل به السـعادة الانسانية » •

ولكن كيف تتحقق هذه الحالة النفسية ، فهذا ما تبحثه نظرية الوادى المقدس • وهى تستند أيضا على ما اكتشفه المؤلف من قوانين التطور البيولوجى وكما فعل فى شرح نظرياته الأخرى، فهو يفعل نفس الشيء هنا وبنفس الأسلوب بادئا بالبسيط ثم المركب فالمعقد وهكذا حتى تبلغ الأمور غايتها • فما هو الوادى المقدس هذا ؟

يقول المؤلف : « هو البقعة من الأرض ، وهو القطعة من الزمن وهو الحالة النفسية التى تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق حدود العقل » •

وتحملك هـذه العبارات السهلة المطاطة الى ما بعدهـا وما بعدها دون أن تمسك بمعانى محددة • ويظل هو يسترسل « هو حيث يكون ايمانك قويا لا يشوبه شك • وحيث يحتوى قلبك حب عميق خالٍ من كل غل أو حقد •• وهو حيث تهتدى

للحكمة والتفكير المستقيم » . وهكذا الى أن يقول « الوادى المقدس ، مملكة السماء ، الجنة : أمور ثابتة فى النفس الانسانية أصولها الايمان والخير والحكمة ، وميادينها الدين والحب والعلم » . وهنا تلمح لأول مرة أركان هذه النظرية السيكولوجية الجديدة .

وأول هذه الأركان أن أصول الجنة أو مملكة السماء ليست خارج النفس بل من داخلها ، وثانيها أن هذه الأصول ثابتة وهى الايمان والخير والحكمة ، وثالثها أن الطريق المفضى اليها هو الايمان والحب والعلم .

وحين تصبح الجنة داخلنا فما عسى أن يكون الايمان ، وما غايته وما هو مفهوم الدين الذى يشير اليه المؤلف ؟

وهذه أسئلة لابد أن تدور بخاطر كل من يقرأ هذا الكتاب . وحتى تفهم جيدا ما يعنيه المؤلف ، لابد أن تعرف موقعك من الوادى المقدس . وحياتك بالطبع أعظم ما يعنيك ، ولكنها فوق ذلك جماع القوى التى عملت فى الانسانية منذ الأزل . وليست الانسانية ما عمل الناس وما يعملون مجتمعين . وانما الانسانية تتبلور فى حياة كل فرد ، وفى حياتك أنت خاصة ، والعوامل التى تطهر بها الناس قديما تصلح أن تتطهر بها لو هيأت لنفسك سبيل الطهر ، وهذا ممكن ميسور : فالتطهر كما يقول

المؤلف نزعة فطرية فى الانسان . لأن الانسان ليس من طبعه الشر . وهو يستطيع بمجاهدة النفس أن يصل الى حالة الطهر . والطهر « ليس معنى خالصاً . ولا هو عمل خالص . وانما هو معنى في النفس يتمثل أعمالا » لكن الأعمال الطيبة لا يتم بها وحدها طيب الحياة ، الا أن تكون الحياة صادقة .

« والصدق هو أن تتسق الحياة وقوانين النفس البشرية . وقانون النفس البشرية الذى يفسد كل حياة لا تقوم عليه هو قانون التطهر . واذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوم عوجها ما تكون قد حققت من أعمال طيبة » .

ومعنى هذا ان تنبع عواطف الخير والحب والايمان من داخل النفس ، فتكون مشاعر الانسان صادقة ، ومواقفه متسقة مع طبيعته فلا ينافق ولا يخدع ولا يساير الشر أو ينهار أمامه . ولعلنا نجد توضيحا أكثر لهذا المعنى فيما قاله الأنبا شنودة فى احدى المناسبات « أستطيع أن أقول ان عمل الخير ليس هو الخير .. وانما الخير الحقيقى هو محبة الخير داخل القلب . فالانسان قد يعمل الخير مضطراً . وقد يعمل الخير خوفا . وقد يعمل الخير تقليدا . ولكنه لا يكون خيراً فى الحقيقة انما الانسان الخير هو الذى يحب الخير فى عمق أعماقه حتى ان لم يعمله تصير نيته له عملا والأعمال بالنيات . الاجبار للخير يكون عبيدا يخضعون للسلطة . أما الخير الاختيارى

فيكون قديسين . ان يوسف الصـــديق كانت الخطيئة أمامه سهلة وتلح عليه .. وكان ربما يعاقب ان لم يرتكبها ، ولكنه فضل ألا يخطىء لأن محبة الخير فى قلبه كانت أقوى من اغراءات خفية . هذا هو الانسان الصالح الذى نريده » (١) .

وهذا النوع من الصدق هو الذى يعبر عن الفطرة السليمة التى جبل عليها البشر كما أشار الدكتور محمد كامل حسين ، وهى مناط تماسك الانسان النفسى والعقلى وشرط سعادته لكن مطلب الصـــدق دائما يحتاج الى ظروف مواتية حتى يعتاد الناس على الصدق وهـــذا يأخذنا الى مشكلة الحرية وشرط توافرها بالقدر الكافى لنمو الانسان نموا طبيعيا فى أى مجتمع .

وهذه النقطة قد تعرض لها المؤلف فى مكان آخر واعتبرها أساس حرية الضمير لكن المؤلف هنا تبعا لمنهجه الطبيعى يبدأ من الانسان الفرد ، ويرى أن الحياة الصادقة تقوم على السلم . بين الانسان وبين نفسه ويحققه الايمان . والسلم بين الانسان وبين الأقربين ويحققه الحب ، وبينه وبين العالمين ويحققه الخير .

وكى ينجح فى جهاده هذا لابد له من أن يبدأ باقامة السلم بينه وبين نفسه أولا قبل أن يستقيم الأمر بينه وبين الناس .

---

(١) من كلمة البابا شنودة الثالث فى مؤتمر القيادات الدينية سنة ١٩٧٧ .
(٢) فى « قرية ظالمة » .

وهنا نجد انه يلقى على الفرد كل المسئولية رافضا كل التعلات فيقول : « ولا تخدعن نفسك اذا أصابك ما تكره فتقول هذا من ظلم الحياة وقسوة الزمن وتحكم القدر وتخبط الحظ . عبارات فيها من الغموض ما يدعو الى الحيرة والقلق . ولو عدل النـاس عن المجهول الى المعلوم لاستقام تفكيرهم فى هـذا الأمـر » .

فكل مشاكل الانسـان ، مشاكله النفسية والاجتماعيـة والسياسية لا تستعصى على الفهم ، وردها الى المجهول هو خطأ كبير . وهروب من مواجهة النفس مواجهـة شجاعة تستوحى صدق الفطرة الانسانية . ولو ابتدأ كل انسان بمواجهة نفسـه على هذا الأساس ، فقد عرف طريق الهداية أو طريق التطهر .

والتطهر هو قانون النفس الانسانيـة ، ويحققه الايمـان والحب والخير . « لكن خير ما فى الايمان هو الايمان نفسه مهما يكن ما تؤمن به . وخير ما فى الحب الحب نفسه مهما يكن ما تحب ومن تحب ، وخير ما فى المعرفة المعرفة ذاتها مهما يكن موضوع المعرفة » . وهـذا الكلام يؤكد ان الوادى المقدس هو حـالة نفسية تتناغم فيها النفس مع الحياة وقوانين الكون . وهـذه الحالة النفسية تأتى كتعبير عن نزعة فطرية هى نزعة الايمـان وحب الجمال وحب الحكمة . هى ممارسـة لنوازع أو نزعـة

طبيعية فى أعماق الانسان ، وليست استجابة لدعوة دينية أو انسانية آتية من خارجه ، بل استجابة لعامل داخلى بحت .

ومن أجل هذا لم يشترط المؤلف طريقا بعينها لتحقيق التطهر أو الهداية . بل أشار الى عدد من السبل المختلفة لعل أمثلها سبيل الدين . لكنه ليس السبيل الوحيد . فمن الناس من لا يطمئن الى الايمان بالغيب ، وقد يحصل على الهداية عن طريق الحب والجمال . ومن الناس من « لا يتطهر الا بما يتفق والعقل فيكون طريقه الى الخير الحكمة وسداد الرأى والتفكير المستقيم . وهذا طريق أفاضل الوثنيين وبعض المفكرين المعاصرين » .

ومن العبث أن يحاول البعض فرض سبل محددة للهداية أو الخير ، لأن هذا الفرض يتعارض مع شرط تحقيق التطهر النفسى وهو يتم طواعية واختيارا . فالخير كما يقول المؤلف ليس شيئا محددا بل هو ما ترضى عنه نفسك رضاء تماما حين لا يؤثر فيها عامل خارجى من أى نوع . والشر ما تعمله ثم تلتمس العذر عنه . هذا عمل شرير مهما حاولت أن تستره بالمبادىء السامية أو تبرره بالدين نفسه . « فترتكب فى سبيله ما لا ترضاه نفسك » .

« ومن الخطأ أن تحدد للناس طريق التطهر ترغمهم عليه وان خالف طباعهم ، ومن الخطأ أن تحدد للناس صورا بعينها

للتطهر • فالناس يتطهرون كل على شاكلته بالايمان أو بالحب أو بالحكمة » •

ولاشك ان هذا المفهوم الجديد لنزعة التطهر الانسانى يقطع السبيل على جماعات التطرف والارهابيين من كل لون الذين يتسترون بستار الدين أو المذهب الاجتماعى لقهر الآخرين واضطهادهم • والمؤلف هنا يهدم كل أساس لمزاعمهم فى هذا السبيل • ولعل فى تقسيمه الجديد لأهل الأديان الثلاثة ما يؤكد هذه النتيجة •

اختلاف الأديان واسبابه :

يقرر المؤلف أن « الأديان تنبع من أصل فطرى واحد » وهذا ما تؤكده نظريته ولهذا يتساءل فى حذر دقيق « واذا كانت غايتها واحدة ووسيلتها واحدة ، واذا كان الحق فيها كلها قائما ففيم اختلافها وتطاحن أهلها وتقاتل المؤمنين بها » •

وهذه هى المشكلة التى يتصدى لها المؤلف بالدراسة والبحث الآن : يقول الدكتور كامل حسين « الخلاف بين أهل الأديان اختلاف فى التركيب السيكولوجى للناس » • وبناء على هذا ، فان مظاهر التدين تختلف باختلاف موقفنا من الله •

وموقفنا من الله تحدده عوامل ثلاثة هى الخوف أو الحب

أو الأمل . وقد تغلب احدى هذه العواطف على غيرها فى النفس الواحدة ، تبعا لمزاجها الخاص بها .

فـاذا كنت ممن يدفعهم الى الخـير أو يمنعهم عن الشر الخوف من الله وعقابه فأنت موسـوى مهما يكن الدين الذى تدين به .

واذا كنت ممن يدعوهم الى الخير حب الله ويدفعك الى تجنب الشر حب الناس الذين يحبهم الله فأنت مسيحى مهما يكن الدين الذى تدين به .

واذا كان الذى يدفعك الى الخير أملك فى الله والرغبـة فى الجزاء الأوفى والنعيم المقيم فأنت اسلامى مهما يكن الدين الذى تدين به .

ثم يقرر المؤلف أيضا ان « هـذا التقسيم أقرب الى فهم الواقع من تقسيم النـاس الى يهود ومسيحيين ومسلمين » . ثم يحاول أن يزيد الأمر وضوحا فيضيف :

« من المسيحيين من هم موسويين يؤكدون الخوف من الله ويتبعون أوامره ويتدسونها حرفيا . بل منهم من يرون ان عليهم أن يطهروا الناس بالقوة وأن يحملوا الناس على العقيدة الصحيحة ولو بالقتل والتعذيب (محاكم التفتيش) . هؤلاء موسويون

نفسا . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا انهم يوشعيون وهم يحسبون أنهم مسيحيون » .

« ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم كالخوارج الذين كانوا يؤمنون بالعدل مهما يكن فى تحقيقه من قسوة ، يطيعون أوامر الله كما يفهمونها ، ولو خالفت روح الدين مخالفة واضحة »

« ومن المسلمين من هم عيسويون (مسيحيون) فى طبيعة مزاجهم ، فالشيعة يشعرون انهم فى حاجة الى شهيد يقدسونه ، يعتقدون انه مات فى سبيلهم فهم يحبونه حبا يدفعهم الى حب من يحبون الشهيد » .

ثم ينتهى المؤلف الى نتيجة هى ان هذا التقسيم يساعد على دراسة « تاريخ التطهر الانسانى على أنه وحدة متكاملة ظاهرها فيه خلاف كبير وباطنها متسق اتساقا عميقا » .

ومن المؤكد ان هذا التقسيم الجديد لفئات المؤمنين لن يرضى القوى المحافظة أو الموسويين من أهل الأديان أبدا . كذلك فان موقفه المتسامح مع الفكر الوثنى الباحث عن التطهر عن طريق الحب والجمال ، أو مع الالحاد الذى يرى فيه بذرة الايمان وان بدا عدوا للايمان وللايمان بالله ذاته . كل هذا لابد أن يثير ثائرة البعض وقد يذهب بهم الى حد القاء التهم وتحديد نصيب هذا المؤلف الشجاع من عذاب السعير .

ولعل المفهوم الجديد للنزعة الدينية هو الذى جعل الأستاذ فتحى رضوان يظن انه يدعو الى دين جديد . ولاشك ان دراسته لهذه النقطة بالذات تستحق ان نقف عندها بعض الوقت. فى (مجلة الثقافة عدد ٤٣) كتب يقول :

« ولعله قد وضح لك أن الحديث فى (الوادى المقدس) وان كانت له سمات الحديث عن الدين ، حتى يبدو لك دعوة الى دين جديد .. الا انه لا يقتصر على الدين ، وان لم يستبعده قط ، فهو يرى الدين وسيلة من وسائل الانسان للوصول الى الوادى المقدس ، بل انه يرى ان الدين ، هو الوسيلة المثلى لهذا الاهتداء ، لأنه يقول صراحة « وان كانت القوى التى تؤثر فى النفس كثيرة ، فان اهداها وأقواها وأكثرها شمولا وأقربها الى الطهر هو القدرة الالهية ، والايمان بغير الله لا يرضى النفس المستهدية حقا ، لأنه لا يعينها ولا يحميها من الضلال الا فى قليل من الأمور والى أمد قصير وعلى ضعف واضح . والرضى النفسى وحده هو الدليل ان الاهتداء بالله حق » .

ويمضى الأستاذ فتحى رضوان قائلا : « وقد تسأل نفسك، اذا كان هذا هو اعتقاد صاحب كتاب (الوادى المقدس) فلماذا لم يدر حديثه مباشرة عن الدين بعامة ، ثم عن الدين الاسلامى بخاصة » .

« والرد على ذلك تراه واضحا ، ولكنك لا تقرأه فى لفظ ،

ولا فى جملة ، اذ هو شائع فى فصول الكتاب كلها ، تراه من خلال الأفكار التى تنتشر فيه » .

« فهو أولا ، يرى ان الدين وسيلة الانسان المثلى للاهتداء ولكنه لا يصم ولا يدفع وسائل الناس الأخرى ، لهذا الاهتداء ، الذى يرمز اليه بالوادى المقدس ، حتى ولو كانت وثنية » . وثانيا ، يعبر عن تحفظات فريق كبير من النـــاس ، على بعض ما يدعو اليه الدين ، وما يحرج صـــدر المتدينين الذين لا يحبون ان يعطلوا عقولهم وهو يورد التحنظات ، فى صورة تساؤل منك أنت أيها القارىء لا منه هو الكاتب . وهو يوردها لا ليتركها معلقة ، بل ليفندها ويوهن منها ، لأن شكوكه ليست نهائية ، بل هى شكوك مقرونة برفض الشك أو بالشك فى الشك ، وبالعجز عن الوصول الى اليقين » .

« وهو ثالثا ، يفر وينجو من القلق المعذب ، والشك المقلق الى دين ، مجرد خال من الطقوس برىء من الجزئيات والعناصر التى لا يقبلها عقله ولا يسلم بها » .

« وأخيرا ، هو شديد التسامح ، مع الأفكار والمعتقدات التى لا يرضاها ولا يسلم بها ، وفى مقدمتها بطبيعة الحـــال الالحاد . فهو لا يرى الالحاد ، كما يراه ، أكثر المؤمنين المتدينين كفرا يستحق صاحبه اللعنة والطرد فى الدنيا ، والجحيم والسعير

فى الآخرة بل يراه أسـلوبا من أساليب محاولات الانسان الى الاهتداء ، ففى الالحاد ـ بذرة الايمان ـ وان بدا عدوا للايمان بالله ذاته » .

ولاشك ان الذى يقوله الأستاذ فتحى رضـوان صحيح بالنسبة للكتاب ، فهو بحكم قربه للمؤلف وصداقته له يعرف ان محمد كامل حسين يناقش مشاكله وشـكوكه الخاصـة بالدين ويجتزىء من كتابه الفقرة التالية :

« ولا يغرنك ما تظن فى نفسك من الحاد أو تفكير حر . فأغلب الظن انك لست ملحدا ، ولا كافرا ، وانك تؤمن بشىء ترتاح اليه نفسك ، وسيتبين لك أن نفسك لا ترتاح حقا الى ايمان شامل قوى الى حين تؤمن بالله . وان الخلاف بينك وبين المؤمنين اختلاف فى التعبير عن الايمان وهو اختلاف فى المظهر لا يدل على خلاف فى جوهر الايمـان ، وانك فى حقيقة أمرك لا تكفر بالله وانما تكفر بما يقال لك عن الله » .

ويعلق الأستاذ فتحى رضوان على ذلك بقوله : « هـذا الكلام يصاغ فى صيغة المخاطب ، والحقيقة انه كلام كامل حسين لنفسه ، فانه اذ يقول : انك فى حقيقة أمرك لا تكفر بالله ، وانما تكفر بما يقال لك عن الله . هو يعنى نفسه .

ثم يمضى تعليقه « وهذه واحدة من المسائل التى تحرج

تفكير كامل حسين ، فتجعله لا يقبل الدين التقليدى بقضه وقضيضه ، ويرى ان من حقه ، أن يرفض بعض هذا الدين ، ثم يحس بشيء من هذا الرفض ، فيلوذ بالوادى المقدس ، ليعبر عما يرتاح اليه من الدين . وما لا يرتاح اليه ، ولو استطاع ان يصرح بذلك لفعل ، ولدعا الناس الى الدين الخالص أو الدين كما يراه خالصا ، وان بقي مؤمنا بالله المسلمين ، وبجوهر دينهم، وبرسول الاسلام ، وبسنته ، وهذه محنة عبر عنها فى الوادى المقدس ولايمكن الانتفاع به ، الا فى هذا الضوء » .

وهذا الكلام الأخير للأستاذ فتحي رضوان ، لاشك يزيدنا معرفة بمعاناة المؤلف ، لكن حصره لكتاب « الوادى المقدس » فى حدود التعبير عن محنة هذا العالم الجليل يحوله الى مجرد ترجمة ذاتية أو محاولة لتبرير المواقف والأفكار ليس الا . وهذا الفهم للأسف يهبط بقيمة هذا الكتاب الخطير كما يقول هو نفسه ، ويدل على أن الأستاذ فتحي رضوان قد اختلط عليه الأمر ، ولم يتنبه الى القانون الطبيعى الذى يفسر به كامل حسين ظاهرة التدين كنزعة طبيعية فىالانسان تتوافق مع قوانين الكون.

كما اكتشف كامل حسين فى « وحدة المعرفة » ان قانون الكبح فى الكائنات الحية يعطى الأساس الطبيعى للضمير ويفسر وجوده ، فهو هنا يرى أن قانون الاستقطاب وهو أحد القوانين الكونية هو نفسه أساس الاهتداء أو التطهر فى النفس البشرية .

فان كان قانون الكبح البيولوجى هو قانون الضمير فان قانون الاستقطاب الطبيعى هو قانون التطهر والتطهر هو قانون النفس البشرية الذى يقودها الى السلم والى الوادى المقدس • وهذه هى القاعدة التى يقيم عليها نظرية « الوادى المقدس » ، وهدفها حل مشكلة التوفيق بين حياة الانسان وضميره وعقيدته • فما هو هذا القانون وكيف يعمل ؟

التطهـــر :

يقول المؤلف « ان التطهر قانون النفس البشرية الأكبر • لا تطمئن اذا أغفلته ، ولا تستقر ان حادت عنه • فهو أصل من أصول كيانها السليم •• بل هو قانون نفسى له أصوله وغاياته ووسائل تحقيقها • والتطهر مظهر من مظــاهر قانون كونى عام هو الاستقطاب •

قــانون الاستقطاب :

يقوم الاستقطاب على أمرين كما يقول المؤلف :

الأول : وجود قوة كونية قادرة فعالة « كافية » للتأثير فى الأشياء المهيـــأة لقبول أثرها هــذه القوة تتجه بالمستقطب الى القطب • وهى خارجة عن الشىء المستقطب •

والأمر الثانى : هو وجود صفة فى هــذا الشىء المستقطب تجعله قابلا للتأثر بالقوة الموجهة الى القطب •

والاتجاه المباشر بين القطب والمستقطب هو محور الاستقطاب ، وقوانين الاستقطاب متشابهة وان اختلفت مظاهرها. ودراسة هذه القوانين فى غير الانسان تبين لنا القواعد الكبرى التى تتحكم فى التطهر الانسانى من حيث هو استقطاب نفسى .

والاستقطاب أوضح ما يكون فى الابرة الممغنطة . فهى تتجه الى القطب الأرضى اذا علقت من خيط أو وضعت على شىء يطفو فوق الماء .

وهى بذلك تدل على وجود القطب وتتأثر به . وفى هذه الحال يكون القطب ثابتا أبدا وقوته لا تتغير ، ولكن تأثر الابرة به يتغير قوة وضعفا وان ظل الاتجاه ثابتا ، على قدر ما فى الابرة من قوة استقطابيه وتزيد قوتها كثيرا ويقوى استقطابها اذا عولجت بما يقوى القوة الكامنة فيها .

ويعوقها عن الاستقطاب ألا تكون لها حرية التعبير عن هذه القوة . كذلك تتأثر الابرة بوجود قوة ممغنطة . عند ذلك تنحرف من محورها .

والاستقطاب فى الكائنات الحية أكثر تعقيدا وأصعب تحليلا ، تتم به فسيولوجيا النبات على أحسن وجه ، وتتم به بيولوجيا الحيوان على أحسن وجه . وليس ما يمنع أن يكون الاستقطاب صفة تتم بها سيكولوجيا الانسان .

ومظهر الاستقطاب فى النبات هو نموه رأســيا الى السماء مهما يكن سطح البقعة التى ينمو فيها • ووسيلته جهاز معقد يجعله قابلا للتأثر بالجاذبية ويمنعه أن يحيد عن الاتجاه الرأى • وفى هذا عامل كونى خارجى وصفة فى النبات تجعله قابلا للتأثر بهذا العامل ، واستقطاب النبات يدل على وجود الجاذبية •

ومظهر الاستقطاب فى حياة الحيوان هجرة الطيور فى وقت معلوم حيث تتجه فى هيئــة معينة الى حيث الدفء لتتم دورة حياتها ، وبدفعها الى ذلك فطرة كامنة فى تكوينها ، يقابلها قوة كونية خارجة عنها قادرة على أن تؤثر فى جهاز فيها مهيأ لهــذا التأثير •

وهكذا يتبين لنا أن هناك عاملين يعملان فى حياة الكائن الحى : قوة خارجة عنه تستطيع أن تؤثر فيه ، وصفة كامنة تجعله قابلا لهذا التأثر •

وأغلب حالات الاستقطاب التى نعرفها يقينا يكون فيهــا القطب أمرا كونيا عاما لا يتغير • وهو دائما خارج عن الشىء المستقطب ، وكذلك محور الاستقطاب يظل ثابتا • وانما التغير يكون فى صفــات الشىء المستقطب ، وفيما يحيط به من قوى يشتد بها استقطابه أو يضعف ؛ ويستقيم بها اتجاهه أو ينحرف عن محوره الطبيعى •

قوة الهداية وقابلية الانسان للاهتداء :

ثم ينتقل المؤلف الى الانسان فيقول : « كذلك لا تتم حياة الانسان من حيث ان الانسانية هى ما يرتفع به الانسان عن الحيوان الا بعاملين » :

* قوة عليا خارجة عن الانسان تهديه الى ماتتم به انسانيته .

* وصفة فطرية فيه تهيئه لهذا التأثر .

هذه القوة الهادية التى تتأثر بها النفس الانسانية ، حين لا يعوقها عائق ، والقطب الذى تتجه اليه كل نفس ارتفعت عن مستوى الحيوانية البحتة ، وهو مصدر الخير ، وهو سر كل تطهر ، هو الله .

هذا هو القطب وبينه وبين النفس البشرية محور استقطاب هو الصراط المستقيم ، وهو ما يصل بين الله وبين النفس البشرية حين تتجه الى الخير المطلق . حين يتهيأ لها حرية التعبير عن فطرتها .

أما المستقطب فى حالة التطهر الانسانى فهو النفس البشرية، والناس يختلفون فى تقديرهم طبيعة هذه النفس . فمنهم من يرى الشر أصلا فى طبع الانسان ، وآخرون يرون ان الانسان حيوان ارتفع الى الانسانية حين عرف الحلال والحرام . وهذان

المذهبان متناقضان فى الظاهر كما يقول المؤلف واختلافهما يرجع الى اختلاف الغايات التى يرجوها أصحاب كل رأى . هؤلاء يبدءون من الله ويصلون الى الانسان ، وأولئك يبدءون من الانسان وليس ما يمنع ان يصلوا الى الله .

ويتضح الخلاف بينهما حين نبحث الأساليب التى يتبعها أصحاب كل رأى فى الدعوة الى الخير .

فالذين يرون أن العصيان أصل فى الطبيعة البشرية يدعون الى الخير عن طريق الطاعة . والذين يظنون ان الانسان طيب بطبعه الا أنه يحيد به عن الحق عامل من عوامل الشر يرون أن أهدى سبيل هى أن نقوى فى الناس دوافع الخير وموانع الشر .

التطهر بالدين :

وهذا يتحقق عن طريق التطهر . والتطهر ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة . والدين هو أقوى سبيل لتطهير النفوس والتدين هو استقطاب النفس لقطب الخير المطلق وهو الله .

وأركانه ثلاثة : نفس مستهدية ، وقطب يستهدى ، وصفة فى النفس تهيئها للتأثر بقوة القطب ، هذه الصفة هى الايمان .

والدين هو جماع هذه الأمور الثلاثة فهو ظاهرة كونية نفسية .

والبحث فى التطهر بالدين يشمل مباحث ثلاثة :

١ ـ مبحث فى طبيعة النفس الانسانية •

٢ ـ مبحث فى القدرة الالهية •

٣ ـ ومبحث فى الايمـان من حيث هو الصـلة بين الله والانسـان •

وهذا ما سأحاول ايجازه فيما يلى :

ويبدأ المؤلف فيقرر ان الطبيعة البشرية فى أول أمرها تكون غفلا غير ذات لون خاص • ثم تدب فيها روح الاستهداء وبذلك تصبح نفسا • حتى اذا اهتدت فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا •

واهتداء النفوس فطرى خلقى ، أما ضلالها فمكتسب يأتيها من عوامل خارجة عنها طارئة عليها • وليس من طبيعتها ان تتجه نحو الشر كما ان الابرة الممغنطة لايمكن ان تتجه الى غير القطب الأرضى ما لم تعمل فيها قوى خارجة عنها •

والعيب الخلقى فى النفوس لايكون الا ضعفا فى قدرتهـا على الاهتـداء ومظهر ذلك النفس الهامدة • ويظن أصحـاب النفوس الهامدة أنهم فى غنى عن ان يتعهدوا نفوسهم بما يقوى استهداءها أو يروضها على خير • يحسبون أنهم يستطيعون أن يهتدوا بالعقل وحده •

وهذا خطأ لأن الطبع هو الذى يحدد أسلوب الناس فى الحياة وأغراضهم منها ، وليست الغايات هى التى تحدد طبـاع الناس ، ذلك أن التكوين السيكولوجى لكل انسان ثابت أبدا . والعقل لا يغير من هـذا التكوين شيئا ، ولا عمل له فى الواقع الا أن يعين على تنفيذ ما تتجه اليه النفس بما ركب فيهـا من طبـاع .

والتنزيه يجعل القدرة الالهية من أمور الغيب بعد أن كانت حاضرة محسوسة عند البدائيين .

والناس يختلفون فى موقفهم من أمور الغيب .

* المؤمنون الذين وضعوا لله صفات الكمال كلها كمـا يرونها فى الانسان ، يطمئنون الى هذا الكمال المطلق . وبه تتطهر نفوسهم .
* والمتشـككون الذين يؤمنون بوجـود الله ولكنهم لا يؤمنون بالصفات التى يصفه بها المؤمنون ، ويرون انها صفات انسانية بحتة ، يشكون فى ما انتهى إليه بعض المؤمنين من ان الله خلق الانسان على هيئته .
* والملحـدون الذين لا ترضى نفوسهم الا بما يفهمون كنهه . لكن البراهين العقلية لم تقنعهم بوجود الله .

ويؤكد المؤلف أهمية الايمان قائلا :

« الايمان قوة كامنة فى النفس السوية ترجع الى طبيعة تكوينها ، وهو أصل الصلة بين الله والانسان ، بين القطب والنفس المستقطبة . والايمان هو أن توقن أن أمور الغيب تجرى على نحو يمكن الاطمئنان اليه وان تثق ان ما لا تعرف يسير على نظام يشبه ما نعرف » .

وليس المؤمن فى حاجة الى من يحدثه عن ضرورة الايمان . أما المتشككون والملحدون فقد يجدون فى كلام المؤلف على حد قوله ، حافزا عليه . فالايمان لازم لصحة الانسان النفسية . وعدم الايمان بشىء هو مصدر أكثر الامراض النفسية ، وضعف الايمان أكبر أسباب القلق النفسى .

ورغم حديثه عن الله واثباته لوجوده فى « وحدة المعرفة » كحقيقة كونية تعلو على الانسان وتحدد تاريخ حياته . ورغم قوله بأن التشكك والالحاد يؤديان الى القلق النفسى الا أنه ينتهى بنا الى نتيجة غريبة هى أن وجود الاستقرار النفسى هو دليل الايمان ، وقاعدة القياس عنده . فالايمان بالله هو السبيل الأمثل لكنه ليس شرطا . فالمهم هو الايمان القوى بأى شىء ترتاح اليه النفس وتطمئن . وهذا ينطبق مع نظرية الوادى المقدس التى يقول عنها أنها أمور ثابتة فى النفس . فهى جنة أرضية قائمة فى داخل ذواتنا . لا تتعلق برضاء الله أو جزائه ، أو بتنفيذ وصايا أو أداء فروض معينة . فهذا الاستقرار النفسى

الى شيء ما يكفى عنده لتحقيق التطهر . وهذا معناه ان الخلاص يبدأ من الانسان وينتهى اليه . وهذا ما يؤكده هنا اذ يقول : (صفحة ٥٥) .

« اذا كنت غير مؤمن فستقول انك لا تشعر بهذا الاضطراب ، وان حياتك مطمئنة مستقرة الى ما تعلم ، وانه ليس بك شيء من التشوه النفسى الذى نتحدث اليك عنه » .

اذا كانت هذه حالك فاعلم انك فى الواقع تؤمن بشيء ايمانا قويا الى حد يرضيك وقد تسمى ما تؤمن به عقلا أو علما ، وقد تظن انك تؤمن بالطبيعة . كل هذه تعابير مختلفة عن شيء معنوى غيبى على نحو ما ، تؤمن به فلا تضطرب نفسك . والعبرة ليست بما تؤمن به ، وهو ما يتعارض الى حد كبير مع المفاهيم الدينية السائدة . فايمان اليهود يقوم على أساس انهم شعب الله المختار ، والمسيحيون يعتقدون ان الانسان بجهاده الخالص لا يمكن أن يحقق لنفسه الخلاص ، ولابد لذلك من معونة الروح القدس . والمسلمون يعتقدون ان الدين عند الله الاسلام . وهكذا يبدو واضحا أن لكل ديانة من الديانات السماوية الثلاثة شرطا مانعا جامعا لابد من توافره لسلامة الاعتقاد بها . بالاضافة الى الايمان بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله وهو ما يشتركون فيه مسلمون ومسيحيون ويهود .

وقد تجنب المؤلف أن يشير بأى شيء الى تعارضه مع هذه الديانات حتى ينأى بنفسه عن اثارة المشاكل • وهذا هو الحرج الذى عاناه المؤلف وأوضحه الأستاذ فتحى رضوان بقوله : ان المؤلف « يفر وينجو من القلق المعذب والشك القلق الى دين ، مجرد خال من الطقوس ، برىء من الجزئيات والعناصر التى لا يقبلها عقله ، ولا يسلم له بها » • وربما كان ذلك أيضا هو السبب الذى جعل الأستاذ فتحى رضوان يقرر أن « كتاب الوادى المقدس » يعتبر « من أكثر أعمال الأدباء والمفكرين فى العالم العربى خطرا ! » •

وظنى أن نظرية المؤلف التى طرحها فى « وحدة المعرفة » وفى « الوادى المقدس » تمثل قنبلة زمنية لم يحن وقت تفجرها لأن هذه الكتب لم يتنبه لها أحد أو لأنها مرت غير مفهومة كما يقول فتحى رضوان •

ومشكلة البحث عن دين جديد أو عقيدة جديدة تستوعب معاناة الناس فى عالمنا المعاصر وتفسر تطور نظرة الانسان المعاصر الى الله والى الكون تفسيرا يربحه ويزيد من ارتباطه بالآخرين مسألة مطروقة فى أوربا وأمريكا ناقشها الوجوديون والطبيعيون بحرية كاملة دون حرج • ومن أشهر الذين تعرضوا لهذه المسائل برتراند رسل وسارتر وبريخت وهم يمثلون أيديولوجيات مختلفة • لكن الأخير جسدها بطريقة ذكية فى مسرحية « المرأة

الطيبة من ستزوان » حيث ناقش الافكار الدينية التقليدية فى ضوء المشاكل العصرية ، فاتضح عجز الدين عن مواجهة تعقيدات الحياة العصرية وانتهت المسرحية بنداء وجهه الى الجمهور يطلب اليه أن يفكر فيما نحتاج اليه الآن « هل نحتاج الى انسان جديد ، أو عالم جديد أو الى آلهة جديدة أو أننا لا نحتاج الى شيء على الاطلاق » .

وفسر أحد كبار النقاد الالمان هذه المسرحية على أساس انها تعبير عن المشاكل الدينية فى أوربا المعاصرة حيث توجد اجابات للأسئلة فى عقيدة جديدة أو فى الالحاد .

ولا أعتقد أننا بعيدون عن هذه المشاكل المقلقة ، بل أن مشاكلنا أخطر لأنها تتمثل فى ظهور التيارات الدينية المتطرفة التى تحاول فرض مفهومها الخاص للدين على جميع الناس وهى محنة حياتنا المعاصرة فى مصر وفى العالم العربى .

لذلك كان من الطبيعى أن يخرج من بيننا من يهتم بهذه الأمور الخطيرة . وتقدم عالم مفكر فى مكانة كامل حسين لمناقشة هذه القضية بأسلوب علمى بعيدا عن التزييف والتبرير والتلفيق، أمر يدعو الى الرضاء والتقدير ، ويدل على أصالة هذا المفكر وصدق موقفه ازاء مشاكل الانسان فى وطنه خاصة وفى العالم عموما .

أما ما يحسه من بعض الحرج فهو لا يقلل من هذه الأصالة كما لا يقلل أيضا من شجاعته الشخصية فى طرح ما يؤمن به ، بل ان هذا الحرج يزكى من أصالته وشجاعته معا لأن حرجه وشكه نابعان من موقف صدق ، هو أن منهجه القائم على تدرج القوانين الكونية لايزال به فجوات قليلة لم يملأها العلم بعد ، ولم تصل به الى اليقين الثابت حتى الآن . وهذا ما يجعله يطرح أفكاره فى هدوء وفى روية وتساؤل وتجرد حتى لا يدفع بالشك الى قلب أحد أو عقله فى أمر يعتقد به أو يقدسه .

ويحمد له أيضا ان مذهبه الانسانى أو الطبيعى هذا ، ان جاز لى أن أسميه كذلك يحبذ الايمان بالله ويحض عليه . و « الايمان بغير الله لا يرضى النفس المستهدية حقا لأنه لا يعينها على الهدى ولا يحميها من الضلال الا فى قليل من الأمور والى أمد قصير » لكنه لا يسد السبل الأخرى للاهتداء . فالايمان أيا كان ما تؤمن به وسيلة للتطهر وضرورة لازمة لصحة النفس لأنه كما يقول المؤلف مادة حرمانية .

الايمان مادة حرمانية :

أى أنه « شيء اذا حرمته تماما أصابك مرض نفسى خطير من أثر هذا الحرمان ، ولكن قدرا منه وان قل قد يكفى فى صلاح النفس واستقامة أمورها ، وكثير من الملحدين بهم هذا

القدر من الايمان بشيء غيبي وبذلك لا تصيبهم أمراض القلق » •

ونصل الى مجمل نظرية الوادى المقدس حين يقول « ونظرية الوادى المقدس تدعو الى السلم النفسى عن طريق تقديسك أمر عاليا ، وهي وحدها التى يمكن أن يجمع عليها المتطهرون دينا ، على اختلاف عقائدهم ، بل قد يجمع عليها المتدينون وغير المتدينين » • (صفحة ٦١) •

وهو يتصدى بهذا المفهوم الرحب للايمان وللتعصب والتطرف واستغلال الدين فيما لا يليق به •

يقول المؤلف (صفحة ٦٣) « وأكثر المتدينين يظنون ان الاخلاص لدينهم يحتم عليهم أن ينكروا كل ما يؤمن به غيرهم ، ويظنون أن التعصب يدل على قوة ايمانهم ، ويحسبون أن حملهم الناس على الايمان بدينهم قسرا يقربهم الى الله • وهم يخلطون بين جوهر الايمان ومظاهره » • ثم يمضي قائلا « وأكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى وقوة فاعلة ، ولكن هذا عيب الاجتماع وليس عيبا فى الدين الذى يجمعون عليه • ولا ينكر أحد أثر المسيحية فى تاريخ أوربا ، ولكن الخطأ أن ينسب ما فى هذا التاريخ من ظلم وضلال الى المسيحية نفسها » •

وهنا يتضح لنا الأسباب التى تجعله يدعو الى الفصل التام

بين الدين والدولة أو بين الدين والنظم الاجتماعية ، أشار الى ذلك فى « التحليل البيولوجى للتاريخ » وفى قصه « قرية ظالمة » حيث أعطى هذا الموضوع حقه من الدراسة . فهو يدين الذين « يدافعون عن النظم الاجتماعية التى يعتقدون خيرها على انها من الدين ، ولكن النظم تتغير دائما ولا يصح عقلا أن تربط بالدين وهو ثابت أبدا » (قريه ظالمة صفحة ٢٢١) .

وهو هنا يرى ان « أكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى وقوة فاعلة » لأن ذلك سيدفعهم الى فرض مفهومهم للدين على غيرهم من الناس . وهذا اكراه « ولا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » كما تقول الآية الكريمة . وكامل حسين يرى أن الاكراه على الايمان بدين أو بعقيدة يؤدى الى عكس المطلوب من الوادى المقدس ويؤدى الى التعاسة الانسانية . يقول (صفحة ٨٨) :

« وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين . وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش . وليس للهدى والضلال معيار الا المعيار النفسى البحت » .

وهذه الهداية لا تتم على خير وجه الا فى مناخ الحرية الكامل حيث تتأكد حرية العقل وحرية الضمير . وهذا يتيح

للفرد أن يعطى ولاءه للجماعة فى حدود لا تتعارض مع ضميره ولا تدفعه لعبادة الأوثان المعاصرة التى يراها المؤلف ممثلة فى الكرامة القومية ، والوطنية ، والولاء ، والطاعة لأولى الأمر ، وهى أشياء لا ضرر فيها فى حد ذاتها الا حين تتعارض مع الضمير أى بأمر الله فى الانسان » • وكذلك العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية كلها يمكن أن تتحول الى أوثان تطغى على ضمير الفرد وتطفىء نوره ، وتؤدى فى ذات الوقت الى تعاسة المجموع •

ولهذا يرى المؤلف ضرورة الحفاظ على حرية الفرد وهذا لا يتحقق فى ظل النظم الشمولية والنظم الدينية لأنها شمولية تماما ، وقيام هذه النظم يؤدى الى نوع آخر من الامراض الحرمانية هو غياب حرية الفكر • وهو يرى ان هذا المرض الخطير هو الذى قضى على الدولة العثمانية ، وسوف يقضى على كل دولة تسير سيرتها •

ونخلص من هذا التحليل بأن المؤلف يرى ضرورة توفر الحرية الفردية وحرية الفكر والاعتقاد حتى يتوفر للأفراد جو التعبير الصحيح عن الايمان ، وهو يؤدى الى صحة نفوسهم ويقوى من دور الفرد فى كبح جموح الجماعة وقدرتها على ارتكاب الشر • وتجسيد ذلك هو الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية •

أزمة الضمير الانسانى

وقصة « قرية ظالمـة » تمثل محاولة جادة لدراسة أزمة الضمير المعاصر واكتشاف أسبابها وهذه الأزمة تتبدى فى قدرة المجتمعات على ارتكاب جرائم القتل والعـدوان ضـد الأفراد والجماعات الأخرى باسم الوطنيـة أو القومية أو باسـم الدين والصالح العام اذ تتحول هـذه الشـعارات الى أوثان يعبدها الناس ويقدمون فى محرابها الذبائح البشرية ٠ وقد لا يكون فيها ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله عند ذلك يكون الخضوع لها وعبادتها من دون الضمير كفرا أو شركا وضلالا ٠

ومن هنـا ينبع تمرد بعض الأفـراد على مجتمعاتهم حين يصطدم الايمان الفردى بالشعارات العامة التى يرفعها المجتمع وكثيرا ما يكون التمرد مأساويا فيدفع هؤلاء الأفراد حيـاتهم ثمنـا له ٠

وفى سبيل الكشف عن جذور هذه الأزمة وتوضيح أبعادها الحقيقية يعود بنا المؤلف قرابة ألفين عام الى الوراء ٠٠٠ ليحلل لنا أحداث ذلك اليوم المشهود حين أجمع بنو اسرائيل أمرهم أن يطلبوا الى الرومـان صلب المسيح ليقضـوا على دعوته ، وما كانت دعوته الا أن يحتـكم النـاس الى ضميرهم فى كل ما يفعلون وما يفكرون فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم الا أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره ، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو أوامر الضمير ٠ وفى هذا الذى

أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى » (قرية ظالمـة ص ٢) .

لقد كان اليهود أهل دين وكان الرومان أهل مدنية وقانون ولم يحل ذلك كله دون ارتكابهم للجريمة لأنهم تصـوروا ان الدين والنظـام يعلوان على أوامر الضمير ومن هنـا كانت خطيئتهم ومأساتهم ومأساة الانسانية عموما حتى الآن . وكما يقول المؤلف « فالناس أبدا معاصرون لذلك اليوم المشهود وهم أبدا معرضون لمـا وقع فيه أهل أورشليم حينذاك من اثم وضلال وسـيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهـم أن لا يتخطوا حدود الضمـير » .

ومن هنا يتبين لنا أن المؤلف قد اختار واقعة صلب المسيح ليستكشف من خلالها أزمة الضمير الانسانى المعاصر ثم يقدم لنا رؤيته للخلاص . فنحن فى مدينة أورشليم وفى تلك الساعات الحاسـمة من يوم الجمعـة الحزينـة حيث يشيع جو القـلق والاضطراب والكآبة والترقب .

ولا تكاد تمضى فى قراءة القصـة حتى نلتقى بعديد من الشخصيات التى شاركت فى تلك الأحداث أو التى شهدتها .. والجميع فى أزمة تأخذ بخناقهم فرجل الاتهام الذى جمع بالأمس كل قدراته البلاغية ليقنع شيوخ اسرائيل وكهنتها أن المسيح خطر يهدد المجتمع ولابد من القضاء عليه .. هـذا الرجل أصبح اليوم يساوره الشك فى صدق ما قال .

وفى طريقه الى دار الندوة يلتقى بذلك التـاجر اليهودى الذى يحاول بالمـال وبالذكاء أن يقنع الحداد بصنع المسامير التى تدق فى يدى المسيح ورجليه • ان الحداد يخشى الاشتراك فى هذه الجريمة ولكن التاجر يقول « ان أكبر الجرائم اذا وزعت على عدد من الناس أصبح من المستحيل أن يعاقب الله أحدا من مرتكبيها » ، ولا يكاد رجل الاتهام يسمع قول هـذا الشيطان حتى يرتعد أيكون هو أيضا ممن يشاركون فى الخطيئة الكبرى مجزأة حتى لا يدرى أحد ولو كان اله بنى اسرائيل نفسه على من يكون العقاب ، « ويرهقه التفكير فيعرج الى دار صـديق له يسأله : انحن على صواب فى اتهام هـذا الرجل وصلبه أم على خطأ ؟ » • ويرد صديقه : « احتكم الى ضميرك وحده فهو الذى يهديك » •

ان عقله هو الذى أوحى له بأن المسيح خطر عليهم ، ودفعته أنانيته لكى ينتهز الفرصـة ليظهر بمظهر الرجل الحريص على المجتمع وسـلامته حتى يحقق بغيته فى الارتقـاء فى منصـبه أما ضميره فلا يرى على المسيح مأخذا •

وما جرى لمثل الاتهام يحدث مثله للمفتى ، فلا يكاد يجتمع بهم فى دار الندوة حتى يتراجع عن فتواه « انى لن أفتى بعد اليوم انهم اساءوا فهم فتواى ، ويريدون أن يقتلوا بها رجـلا لا أرى ضميرى يرضى عن قتله » •

ويحاول أحدهم أن يحذره . لقد آمن الناس بأن صلبه واجب ، ولن يعدلوا عن رأيهم وليس من السياسة أو مصلحة المجتمع أن يتراجع أحد عن هذا الموقف . ويرد المفتى بأنه لا يهتم بأمر العامة أو بأمور السياسة قائلا « اذا كان من رجال الدين من يرى رأى أهل السياسة فذلك انهم يضعون السياسة فوق الدين أو يضعون سياسة الدين فوق الدين نفسه ، وهذا هو الضلال المبين » .

أما حيرة قيافا فتنبع من عدم ايمانه بالقوة واعجابه بالحلول الأخلاقية التى يقدمها المسيح وفى ذات الوقت حرصه على سلامة المجتمع وحمايته من الانقسام وهذا يتطلب صلبه . وبات ليلته مهموما وسار فى الصباح الى دار الندوة محزونا لا يدرى ماذا يفعل كيف يبرىء المسيح من الباطل الذى اتهموه به ارضاء لضميره أو كيف يوافق على صلبه حماية للمجتمع الذى يجلس هو على قمته كرئيس لشيوخ وكهنة اسرائيل . لقد فقد ثقته بنفسه وبالشورى التى كان يؤمن بها ويرى الآن أنها قد أصبحت وسيلة (لخنق) الضمير عند الجماعة .

كذلك يتراجع معظم الشيوخ عن قرار صلب المسيح الا رجال المال والتجارة الذين يصرون على صلبه ويرون فى دعوته للاخاء والمساواة وسيلة لتجميع العبيد والفقراء استعدادا لثورة ضد المجتمع وحين يعجز منطقهم يهددون الشيوخ والكهنة

بالجماهير قائلين « ان الشعب هائج ولن تهدأ ثائرته حتى يصلب هذا الرجل » ، ويتسللون الى خارج دار الندوة ليجمعوا الرعاع ويحرضونهم ضد رؤساء الشعب وضد المسيح •

وأحداث القصة لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات وهو زمن المـأساة اليونانيـة • ومن حديث الأشخاص يتكشف لنا ما تم بالأمس ••• ونتائجه التى تظهر اليوم • هكذا يتضح لنا جو المـأساة وظروفها • فالجميع فى أزمة حادة وسبب الأزمة ان خطأ فادحا قد وقع بالأمس حين أصدروا قرارا اجماعيا بصلب المسيح ، واليوم قد وجدوا أنفسهم فى قبضة هـذا القرار الذى لا يستطيعون عنه رجوعا أمام حشود الرعـاع والغوغاء التى اقنعوها بالأمس بخطر النبى الجديد •

لقد عادوا الى بيوتهم بعد اصـدار القرار •• ولم يكد كل فرد منهم ينفرد بنفسه حتى بدأ يشعر بصحوة ضميره ، وبدأ يرى الأمر على نحو جديد وكيف يتراجع أو كيف يبرره لنفسه أو للآخرين ؟ لقد وضعهم بيلاطس البنطى فى مأزق حقيقى •

لقد سلموه المسيح بالأمس ليصلبه ولكنه اليوم يرى أن يطلق سراحه حسب عادته فى عيد الفصح • وهو يقول انه لا يجد علة لقتله • وأمام هـذا الأمر عليهم أن يتشاوروا من جديد ، ويقرروا هل يطلق لهم المسيح أو باراباس •

لقد قدم لهم بيلاطس فرصة عظيمة للرجوع عن خطأ ، وكان على رؤساء الكهنة وقادة الشعب أن يغتنموا هذه الفرصة حتى يتخلصوا من تبكيت الضمير الذى يعتصرهم فردا فردا .. وهنا تلاحظ براعة المؤلف .. فالأحداث تتطور بالحتمية بما يكشف لنا مأساة العجز عند ذوى الرأى ورجال الدين .. فلا يكاد يستقر رأيهم على التراجع عن قرار الأمس حتى تحاصر الجماهير دار الندرة وتتدفق الى مجلسهم وتتهمهم بالخيانة وتطالب بصلبهم مع المسيح ، وأمام هذا القهر يذعن الجميع . لقد اقنعوهم بالأمس أن المسيح فتنة تهدد استقرار المجتمع وسلامه فكيف يقنعونهم اليوم بغير ذلك ؟ !

وهكذا تتكشف لنا مأساة الفرد ومأساة الجماعة فالحقيقة تثقل كاهل العقلاء فردا فردا . ولكن من يقوى على مواجهة الجماهير .. من ؟ يقال ان الجماهير لا عقل لها والمؤلف هنا يرى ان الجماهير لا ضمير لها أيضا . فلو تحدى أحدهم هذه الجماهير ووقف مع المسيح لكان جزاءه الحتمى هو القتل فمواجهة الفرد للجماعة يؤدى الى مأساته ومع ذلك فالمؤلف يشجع على هذه المواجهة ويحرض الفرد على التمرد انصياعا لأوامر الضمير طالما كانت مصلحة المجتمع تتصادم مع ضميره. مهما كانت الشعارات المرفوعة عن مصلحة الوطن وحماية الدين والصالح العام .

وهو موقف يتضمن دعوة للاستشهاد فى سبيل المبادىء .

فخوف الانسان على حياته ومصلحته يدفعه الى الخضوع أحيانا للمجموع مخالفا ضميره الذى يعتبره المؤلف قبسا من نور الله وبهذا يكون خسرانه . وماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، كما يقول السيد المسيح .

لاشك أن المؤلف قد اختار أسلوبا ملائما لموضوعه فسرد الأحداث عن طريق الأشخاص من زوايا مختلفة يعد أكثر تأثيرا وأقدر على ابراز وجهات النظر المختلفة فنحن لا نرى واقعة الصلب رغم انها الحدث الرئيسى للقصة . وانما نسمع عنها فى حديث الفيلسوف اليونانى الملحد مع الحكيم الماجى الذى رأى نجم المسيح يوم مولده وآمن به منذ ذلك الحين وهو هنا كثيرا ما يبرز وجهة نظر المؤلف (ص ٢٣٤ — ٢٣٥) .

يقول الفيلسوف المادى الذى يرفض التسليم الا بما يقبله العقل : « انى مازلت أبعدما أكون عن فهم حقيقة ما حدث أمامنا اليوم » .

ويفسر الحكيم الماجى أحداث اليوم قائلا « انى أعلم من أحداث هذا اليوم ما لا تعلمون . أن الله رافع السيد المسيح اليه فهو نور الله فى الأرض فلما أبى أهل أورشليم الا أن يطفئوه أظلمت عليهم الدنيا وهذا الظلام آية من عند الله تدل على أنه حرمهم من نور الايمان وهدى الضمير » .

وهكذا تنتهى وقائع الصلب الى هذه النتيجة المحيرة . ذلك لأن « رافع » جال يحتمل التنبؤ بما سوف يحدث ، ويكون حديث الماجى والفيلسوف اما قبيل الصلب أو بعده أو فى ابانه ... وفى هذه الحالة يحقق كامل حسين المواءمة بين آية « ما قتلوه وما صلبوه » وبين « واقعة صلب » لا ينبس عنها بكلمة ، ويكون « رفع » السيد المسيح قد حدث ، بعد الدفن وقيامه من القبر ... وهذا أقرب الى معنى الآية الكريمة « يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى » ثم يشير المؤلف بعد ذلك الى عودة المسيح شخصيا بعد ثلاثة أيام ليأمر تلاميذه أو حوارييه بنشر الانجيل فى ربوع العالم .

ان واقعة الصلب تمثل حادثا شديد التعقيد يحفل بالمعانى الدينية والاخلاقية والفلسفية .

ولعل صعوبة فهم هذه الجوانب حال دون عرض مشهد الصلب أمامنا فى القصة مع انه المحور الرئيسى واكتفى المؤلف بتقديمه عن طريق رواة هم شهود عيان لما وقع فى تلك الساعات العصيبة ولاشك انه أسلوب موفق أتاح لنا رؤية هذه الحقيقة من عدة جوانب مختلفة .

فقد اختار المؤلف حيلة ذكية ترمز اليه هى واقعة اعدام الجندى الرومانى وكان هذا الجندى قد التقى بمريم المجدلية بعد توبتها على يد المسيح فعرف عن طريقها معنى الحب المسيحى

فرفض ان يشـترك مع زمـلائه فى محـاصرة أحـدى القرى ومهاجمتها بل نبه أهل القرية للغزو المتوقع ، فحاكمـه الرومان بتهمة الخيانة ونفذوا الحكم فيه بأن ربطوه فى أربعة خيول تعدو فى اتجاهات مختلفة حتى تمزق جسده •

وهذه القصـة الفرعية التى ابتكرها خيال المؤلف تخدم هدفين بالنسبة للحادث الرئيسى فهى تجسيد لمعنى الفداء على مستوى الانسان الذى ضحى بنفسه كما أنها تأكيد لمسـئولية الرومان • فان كانت واقعة صلب المسيح تجسد جريمـة اليهود وهم أهل دين فجريمة تمزيق هذا الجندى تجسد وحشية الرومان وهم أهل مدنية وقانون ، وهنا يتضح لنا عجز الدين والقـانون عن انقاذ الانسان من ثورته المـأساوية ضد حقيقة الضمير ما لم يكن الدين والقانون مرتبطين بالحقيقة ارتباط العبد بالسـيد كما يقول كينيث كراج (١) • كذلك نجـد أن المؤلف يصـور التلاميذ فى أزمة تبكيت ضمير لأنهم عجزوا عن انقاذ معلمهم وهذا أمر غير مفهوم فالتلاميذ كانوا ينفذون تعاليمه التى ترفض العنف ليتقدم هو نحو الصليب ليكمل جهاده ورسالته من أجل الخـلاص •

وفى مقدمة الترجمة الانجليزية لهذه القصـة يعلق مستر

---

(١) مستر كينيث كراج قام بترجمة قصـة « قرية ظالمـة » الى اللغـة الانجليزية وكتب لها مقدمة وافية •

كينيث كراج على أزمة أورشليم فيشير الى أن صيحة الجماهير لبيلاطس التى وردت فى الانجيل « خذ هـذا الرجل » تحولت من الفرد الى المجموع فأصبحت تعنى « خذ هؤلاء الرجال » . « أصبح الرجل أزمة المجموع وأصبح المغزى الاخلاقى للمشهد حكما بواسطة الانسانية وللانسانية » .

وسحر هـذا الكتاب انه يتخذ هذا الموضوع محورا له يستكشفه بحساسية مرهفـة ويقدمه وربما لأول مرة عن طريق مفكر ينتمى للعقيدة الاسلامية .

فالفكر الاسـلامى يميل الى رفض فـكرة صلب المسيح والمسيحيون يحاولون منذ قرون اثبات الصلب عن طريق الأسانيد التاريخية وكتدعيم للعقيدة الدينية التى تؤمن بالصلب كطريق للفداء وكان من نتيجة هـذا الجدل ان غمض على الجميـع تقريبا المغزى الانسانى لهذا الحـادث . وهذا ما يبرزه الدكتور محمد كامل حسين من خلال هذه القصة فهو يقدم تحليـلا نافذا لارادة اليهود على صلب المسيح .

وهو يفعل هـذا دون أن يتعدى الحدود التى رسـمها القرآن ... ولكنه يستكشف الأحداث من جديد فى ضوء النص القرآنى ويكتشف ان واقعة الصلب قد حدثت على المسـتوى الانسـانى أما من هو الذى صلب ؟ فهو لا يصرح ان كان هو المسيح أو شبيه له .

ولعله يجدر بنا ونحن نعرض لهذه القصة الهامة أن نستعرض معا الآراء التى ترفض موضــوع الصلب ونحلل أبعادها لنعرف الى أى حد وصل المؤلف فى مناقشة هــذه القضية ولعل أهم هذه الاقوال هو ما جاء بالقرآن الكريم فى الآية « وقولهم انـا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شــك منه ما لهم به علم الا اتبــاع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما » .

وهذه الآية الكريمة تتفق فى معناها مع ما قال به بعض الفلاسفة فى القرن الثانى الميلادى اذ قالوا ان المسيح لم يصلب وان الذى صــلب هو شخص غيره خيــل لليهود انــه المسيح وأما المسيح نفسه فقد رفعه الله الى السماء سالمــا وقد أطلق المؤرخون على هذه الجماعة اسم « المشبهة » .

وفى القرن الرابع الميلادى قدم الراهب أريوس رأيا مختلفا يعد نوعا من الاجتهاد الفلسفى فى تفسير آيات الانجيل فيقول أريوس ان الله لم يتعــذب فى المسيح وان المسيح الذى صــلب وتعذب كان بشرا من لحم ودم والجسد مجرد ظل ، مجرد مظهر ، أما جوهر المسيح فهو روح الله وكلمتــه والجوهر لا يصــلب ولا يتعذب انهم ما صلبوه الا فى الظاهر فقط أما المسيح الكلمة فقد رفع الى الســماء والمسيح البشر قد صلب على الأرض .

ولكن العامة تتوهم أن روح الله تعذبت فى جسد المسيح وان المسيح صعد الى السماء روحا وجسدا •

وقد رفضت الكنيسة الأرثوذكسية كلام أريوس واعتبرته بدعة مدمومة لأنه يفصل بين اللاهوت والناسوت أى بين الطبيعة الالهية والطبيعة الجسدية للمسيح بينما تقول تعاليم هذه الكنيسة المستمدة من الانجيل أن المسيح قد صلب وقبر وفى اليوم الثالث قام من الأموات وصعد الى السماء وأن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين •

وهذه الأقوال على ما بينها من خلاف تتفق جميعا فى حدوث واقعة الصلب فاليهود يعترفون بها فى الآية الكريمة « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فهم يعترفون هنا انهم قتلوه وهم يعلمون انه رسول الله • فان كان الله قد رفعه ووضع على الصليب شخصا يشبهه لحكمة الهية فان الجريمة تبقى تبعتها على اليهود والرومان لأن تدبيرهم للصلب وتنفيذه على هذا النحو يعطى الدليل الكافى على انهم رفضوا المسيح وتعاليمه الداعية الى الحب والسلام •

وفى حدود هذا التفسير القرآنى تصرف المؤلف فهو يقدم الوقائع السابقة على الصلب كما هى بالضبط فى المفهوم المسيحى • فاذا تركنا جانبا السؤال عما اذا كان الصلب قد وقع للمسيح فعلا ، وركزنا على الحدث كشىء كان مقصودا به

المسيح فان المغزى الانسانى كله للقرار الذى اتخذه معاصروه ضده ومن أجل صلبه يبقى كما هو لا تشوبه شائبة وهذا ما يذهب اليه مستر كينيث كراج ثم يضيف « ان الشيء المهم هو ان قلة قليلة قبل (كامل حسين) هى التى قامت بمبادرات اسلامية لدراسة التاريخ المسيحى من جانبه الانسانى » .

وعلى الجانب الانسانى يرى الدكتور كامل حسين ان وقائع الصلب تمت . فاليهود وبيلاطس البنطى كانوا يعلمون انهم يصلبون المسيح لا شبيها له ولو عرفوا بالشبيه لتراجعوا عن فعلتهم فحقيقه الصلب بوقائعها على هدا النحو (تشكل مواجهة أخلاقية تنعكس عليها مشاكل الموقف الانسانى بحيث تتيح لنا دراسة الأزمة الانسانية الشاملة) .

فمدينة أورشليم التى يطلق عليها المؤلف اسم « قرية ظالمة » هى نموذج للعالم كله وقيافا وبيلاطس ليسا ممثلين لليهود والرومان فقط بل ممثلين للانسانية كلها حين تخاذلا أمام الرعاع وسلما المسيح للصلب .

ورغم أن القصة تكشف لنا أيضا عن أسلوب اليهود فى توزيع تبعة الجرائم الكبرى الا انها لا تدين اليهود كشعب أو جنس فهى لا تدين مجتمع بذاته كمجتمع بل بفعله وهى ادانة لكل من ينحرف عن جادة الصواب أو يتنكب لأوامر الضمير الذى هو قبس من نور الله . فالمؤلف يرى أن الجرائم الكبرى

تقع تحت دعاوى الوطنية والقومية وحماية الدين أو الصـالح العام . وهذه الشعارات تمثل أوثان العصر الحديث لهذا نراه يحرض الأفراد على التمرد عليها اذا تصادمت مع نواهى الضمير.

فالانصياع لهذه الدعاوى وقبولها من جانب الفرد رغبة فى منصب أو مجد شخصى يعتبر فى نظر المؤلف نوعا من الشرك بالله . فهذه الدعاوى فى نظره جميعا لا تبرر وقوع الحرب أو العدوان أو حتى قتل شخص بمفرده والقصة مليئة بالتحليلات الفلسفية والذهنية للاغراءات التى تضلل الأفراد والجماعات وتسبب نكبة البشر وهو يلخص رأيه فى المسيحية على النحو التالى :

ان الموسوية ركزت على العدل حين قالت سن بسن وعين بعين أما المسيحية فقد ركزت على الحب والتسامح « فقد لا ينفع الناس ان تهديهم تفصيلا الى الخير بل قد يكون انجح لو علمناهم الايمان والحب وكبح الشهوة وتركنا عقولهم ان تنظم أمورهم فى حدود ما لا يحرمه الضمير » .

ومن هنا تأتى دعوته الملحة لفصل الدين عن النظم الاجتماعية لأن الدين ثابت والنظم الإجتماعية متغيرة بالضرورة وهما أمران لا يجب أن يتعلق أحدهما بالآخر .

وواضح ان رؤية المؤلف للخلاص تقوم أساسا على الحرية الفردية المطلقـة حتى يتسنى للضـمير الفردى أن يمارس دوره

المؤثر .. لهـذا يدعو الى وقوف الأفراد فى وجه الجمـاعة اذا تعارضت دعوى الجماعة مع ضمير الفرد وهى دعوة تغرق فى المثالية وتحسن الثقة بالضمير الفردى وحده حين يتحول الفرد الى ديكتاتور يسخر الجماعة لأغراضه .

ومع ذلك تبقى دعوة حرية الضمير على هـذا النحو هدفا عظيما يستحق أن يتمرد الفرد من أجله لكن كيف يمكن هـذا الآن فى ظل النظم غير الديمقراطية حيث أصبحت الدولة تمثل جهازا بوليسيا رهيبا قادرا على كبت الأفراد والفتك فى أى لحظة بمن يتمرد . لكن هـذا التمرد فى رأى الكاتب هو الوسـيلة الوحيدة لخلاص الفرد وخلاص الجماعة من تأنيب الضمير .

انها رؤية أديب مفـكر وعالم ممن يشغلهم أمر اصـلاح العالم .. ومن أجل هذه الغاية تجول فى دروب المعرفة المختلفة بحثا عن منهج شامل لتفسير حركة الفكر وقيام الحضارات .. وكانت له اجتهاداته الخاصة فى تفسير التاريخ .

خاتمـــة

ينفرد محمد كامل حسين بصفة هامة هى أنه مفكر له منهج علمى واضح القسمات .. ومن أجل هـذا حصرت دراستى فى كتاباته التى تبلور هـذا المنهج وتبرزه فقط ، حتى أننى حذفت فصلا عن نقده للشعر واكتفيت بنشره فى مجلة « الهلال » (عدد سبتمبر ١٩٧٨) بعنوان « دراسة جديدة لشعرنا القديم » .

أما منهجه الفكرى فهو يعبر عن فلسفة أو رؤية متفائلة تشيع الأمل فى النفس وتملأ الانسـان ثقة بقدراته ومواهبـه وبامكانياته على الابداع وبناء التقدم وتحقيق العدل والمساواة والحرية . وهو يشرح هـذا المنهج فى « وحدة المعرفة » قائلا :

« والاصـلاح المنهجى الذى ندعو اليه يقوم على أنه حان الوقت الذى نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات وهى أساس ثابت ، قائم على البرهـان والتجربة ، فيه تكون القضـايا عامة غير قابلة للاستثناء ، وفيه يكون الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع للآراء المتضاربة ، وفيه يكون الواقع والمعقول شـيئا واحـدا لا يقبل الخلاف ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه

وأسلوبه ، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية ثم نقيم على هـذا كله علوم الانسانيات متسقة فى نظامها مع علوم الحياة فيتبين لنا المذهب الحق من بين المذاهب الانسانية المتعددة » .

وهو يؤمن بتقدم العلم وسيادة العقل عليه بغرض توجيهه لخدمة مستقبل الانسان فهو يرى أن تاريخ الحياة العقلية خطـا صاعدا أو رقيا مستمرا ويقول فى (التحليل البيولوجى للتاريخ) أن « أثر الحياة العقلية فى التاريخ يزيد كلما امتد الزمن » .. ثم يضيف « ولمـا كانت الغرائز باقية على ما هى عليه ، وكانت الحياة الاجتماعية تعلو وتنخفض فلن يمضى وقت طويل حتى تطغى الحياة العقلية عليهما ، وسيصبح لها النصيب الأكبر فى تكييف تاريخ المستقبل ، وسيسود ذلك المستقبل أقوى آثار الحيـاة العقلية وهو المساواة » .

ذلك أنه يرى أن انتاج الأعضـاء التعويضية الآن يساعد الأفراد المعوقين على تكملة ما أصابهم من نقص كما أن الأجهزة الالكترونية الحديثة تمكن المعوقين من التعلم والتقدم فى كل مناحى الحياة .. وتحقق لهم المساواة مع الأصحاء ، وسـوف يكون من نتيجة ذلك كله سقوط امتيازات التفوق بين الأفراد اذ يقول :

« تقدم العلوم يؤدى الى محو فروق التفوق . وهو بذلك

يؤدى الى المساواة بين الناس • وفى هذه المساواة مفتاح تاريخ المستقبل • ومن آثارها ضياع الامتيازات القائمة على التفوق • وسيظل الأفراد قادرين على التفوق على غيرهم من الأفراد فى دائرة تخصصهم ، ودون أن يؤدى هذا التفوق الى امتيازات عامة قد لا تمت الى هـذا التفوق بأى سبب » •

ومع ذلك فهو يرفض كل النظم الشمولية والديكتاتورية التى تقضى على حرية الفرد وكيانه •• بدعوى سعادة المجتمع لأنه يرى أن من حق كل فرد أن يتمتع بالعـدل والحريـة •• والنظام السليم هو الذى يوائم بين مصلحـة الفرد ومصلحـة الجماعة « فالفردية الحقة هى التى تقوم على أن كل فرد يجب أن يكون سعيدا ، والاشتراكية الحقة هى التى تقوم على أن سعادة الجماعة هى سعادة كل فرد فيها » •

ومن ثم كان انحيـاز محمد كامل حسـين للديمقراطيـة الاشتراكية على أساس أنها أقدر النظم على ضمان حرية الفرد وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية أيضا •

مراجــع البحث

اولا : مؤلفات الدكتور محمد كامل حسين :

١ ــ متنوعات الجزء الأول ١٩٥١ القاهرة ــ مطبعة مصر .

٢ ــ التحليل البيولوجى للتاريخ ١٩٥٧ القاهرة ــ المطبعة العالميــة .

٣ ــ وحدة المعرفة ١٩٥٨ القاهرة ــ مكتبة النهضة .

٤ ــ متنوعات ــ الجزء الثانى ١٩٦١ القاهرة ــ مكتبــة نهضة مصر .

٥ ــ الوادى المقدس ، ١٩٦٨ ــ القاهرة ــ دار المعارف .

٦ ــ الذكر الحكيم ، ١٩٧١ ــ القاهرة ــ مكتبة النهضــة المصريــة .

٧ ــ الشعر العربى والذوق المعاصر ، ١٩٧١ ــ مطبوعات الاذاعة والتليفزيون .

٨ ــ قرية ظالمــة ، ١٩٥٤ ــ مكتبة النهضة المصرية .

٩ ــ قصص قصــيرة :

ــ فــــراق ــ مجلة الهلال ــ فبراير ١٩٦٢ .

ــ قصة جريمة شنعاء ــ مجلة الهلال ــ مارس ١٩٦٢ .

ـ اى الطريقتين اهدى ـ مجلة الهلال ـ أبريل ١٩٦٢ .

ـ قوم لا يتطهرون ـ مجلة الهلال ـ مايو ١٩٦٢ .

ـ الطريــد ـ مجلة القصة ـ يونيو ١٩٦٤ .

ـ مــاء مــدين ـ مجلة القصة ـ أغسطس ١٩٦٤ .

ـ الراهبة والعجوز ـ مجلة الاذاعة ـ ٣ يناير ١٩٧٦ .

ـ الاسخربوطى ـ مجلة الاذاعة ـ ٣١ يناير ١٩٧٦ .

ثانيــا ـ كتابات حول محمد كامل حسين :

ـ الدكتور محمد كامل حســين ـ دكتور ابراهيم بيومى مدكور مجلة مجمع اللغة العربية وهى الكلمة التى القاها الدكتور مدكور فى استقباله له عضوا بالمجمع .

ـ دفاع عن التاريخ ـ محمود أمين العالم ـ مجلة الرســالة الجديدة ١٩٥٧ . اعيد نشره فى كتاب (معارك فكرية) كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦٥ .

ـ اقتبــاس أم توارد خواطر ـ عبــاس محمود العقــاد ـ الأخبار ١٩٦٢/١١/١٤ .

ـ مثل فى التواضع والخبرة والدراســة ـ عبــاس محمود العقاد ـ الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٢ .

ـ اقســم أننى ضربت كفــا بكف ـ دكتــور زكى نجيب محمود الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٦ . (يدخل المعركة الي جانب العقــاد) .

ـ تعليق العقاد على رد كامل حسين ـ عباس محمود العقاد الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٧ .

ـ الطبيب محمد كامل حسين ـ دكتور ابراهيم بيومى مدكور ـ الهلال مارس ١٩٧٣ .

ـ وادى محمد كامل حسين المقدس ـ فتحى رضوان ـ الثقافة أبريل ١٩٧٧ .

ـ نموذج لرجل النهضة ـ دكتور حسين فوزى فى حفل الاتحاد العلمى المصرى لتخليد ذكرى كامل حسين فى ١٩٧٧/١٢/٧ .

فهرس الكتاب

رقم الايداع ٣٨٦٨ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى ٥ ـ ١٧٩٣ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب يكشف لي عن سر من أسرار البلاغة في فن الاختصار بعبقرية شخص ما من أول لحظة، أو بعد قليل من إلقائه، ويقيم مشاكلة بينه وبين كاتب عبقري المنظور كتاب الأستاذ [illegible] عن [illegible] عبقرية محمد كامل حسين، ويتناول أهم مؤلفاته بالفحص والشرح والإبانة عما فيها من فكر عميق، ويمضي في أسلوب هو [illegible] بينهما. فلا عجب [illegible] ولا [illegible] لكم [illegible] النابغ الذي ظل [illegible]

(د. شوقي ضيف)

١٣٤

الدكتور هيكل

وتاريخ جيل

١٨٨٨ - ١٩٥٦

د. حسين فوزى النجار

اعلام العرب
١٣٤

الدكتور هيكل
وتاريخ جيل
١٨٨٨ - ١٩٥٦

تأليف
د. حسين فوزي النجار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

مقدمة

ما من سيرة تبرز على صفحة التاريخ الا وكانت نتاجا للعمل الكبير الذى قام به صاحبها ، والأثر الفعال الذى تركه بعمله فى الحياة الانسانية ، وبقدر ما يعظم هذا العمل ويعظم تاثيره ، بقدر مايحفل به التاريخ فيقص خبره ويروى سيرة صاحبه اذ أن التاريخ لا يعنى بغير المتميزين الذين تركوا طابعهم على صفحاته · وكلما امتد هذا العمل أو عظم التأثير كلما احتلت السيرة صفحات أوسع من مدونة التاريخ ··

والعمل العظيم هو ثمرة الحافز أو الموهبة أو هما معا ، وقد يكون وليد المصادفة أو التصميم ، ولكنه فى كليهما لا يعوزه الحافز ولا يخلو من الموهبة ، فالمصادفة حين تدق أبواب الحظ للرجل العظيم لابد وأن تتخيره من ذوى المواهب الفذة ممن يحملهم الحـــافز الى غوارب المجد ، فا ذدقت المصادقة ابواب الحظ من الهمل لا تلبث على بابه طويلا ، ولكن لتعبره الى غيره من ذوى الهمم والمواهب ·

وحين نحدد الحافز أو الموهبة فى حياة صاحب السيرة ، نبحث عن العوامل التى كونت هذا الحافز فنعود بالسيرة الى الاطار الذى نشأت فيه ، ويتحدد هذا الاطار بالزمان والمكان ، فالزمان هو مدى الوقت الذى تمتد فيه حياة أو عمل من حدود الزمان الكلى ، والمكان هو البيئة أو المجتمع الذى امتدت فيه تلك الحياة وهذا العمـل من حدود البيئة العالمية ، فحياة الانسان كغيره من مخلوقات الله تتحدد بزمن معين أيضا ، وفى هذا الزمن المحدد ، وفى تلك البيئة المعينة ، يثمر الحافز فى حياة الفرد عملا تاريخيا يلج به رحاب التاريخ ، وقد لا يثمر ذلك الحافز مثل ذلك العمل فى زمن آخـــر أو فى بيئة أخـــــرى ..

هذا ما ذكرته فى كتابى « التاريخ والسير منذ عشرين عاما(١) ولا أجد أصدق منها سمة أو تفسيرا لحياة كحياة الدكتور محمدحسين هيكل وسيرته ، فقد شاء له القدر أن تمضى حياته فى الزمان والمكان المناسبين لمواهبه بل ولحوافزه، وكان أبرز ما يميزه استقلاله الفكرى فى النظر الى الأشياء وفى الحكم عليها وما كان لهذا الاستقلالالفكرى من أثر على مسلكه ومسيرة حياته واتصاله بالحياة العامة .. اتصالا قد يحمله أحيانا على الاعتزاز بكبريائه ــ والكبرياء غير التكبر،فالكبرياء صنو التعالى فلا يتدنى المرء الى ما هوأدنى،والتكبر قرين الاستعلاء ، الذى يبتعد بالمرء عن التواضع ، وان كان لا يحول بينه وبين الاتضاع لمن هو أعلا ليستعلى على من هو أدنى ، وكان الدكتور هيكل من الكبرياء مايســـمو به عن الدنايا وينأى به عن المداهنة أو الملق . وقد يحمله على اتقاء موقف يهز من كبريائه ، يشير اليه فى مذكراته بما كان من هوايته للكتابة وكلفه بها ، وهى موهبته الكبرى ، وكانت ثمرتها آخر مابقى له من حياته حين اعتزل السياسة بعد استيلاء الجيش على السلطة فى يوليه ١٩٥٢ ، فعكف

---

(١) التاريخ والسير ، المكتبة الثقافية ع ١٢١ فى ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ .

على الكتابة كما بدأها فى مستهل شبابه · ويروى من خبر ذلك ، فيقول « وكانت نفسى قد هوت الكتابة فى الصحف ، اعتزازا من شبابى بالقدرة على ذلك ، وكنت متأثرا بطريقة الشيخ محمد عبده وبأسلوبه ، فبدأت اكتب مقالات ثم أراجعها ، لكن نفسى لم تطاوعنى على أن أرسلها الى الصحف مخافة ألا تقدرها قدرها الحق ولا تنشرها ، فلما اطمأننت الى احدى هذه المقالات ، وخلتها تضاهى مقالات الشيخ عبده ، نضوت عنى ترددى وأرسلت بالمقال الى جريدة المؤيد ، ولم افكر فى الذهاب بنفسى الى الجريدة ، أو مقابلة الشيخ على يوسف صاحبها ورئيس تحريرها ، ولشد ما كان عجبى حين رأيت هذا المقال لا ينشر فى حين كان ينشر غيره مما أراه دونها بمراحل ، عند ذلك عولت على الاكتفاء بالكتابة لنفسى ، وعلى الا أبعث الى الصحف شيئا ··

وانه ليخيل الى انى لو كنت ذهبت بنفسى ودفعت المقال الى صاحب المؤيد أو أحد محرريه ، لوجدت منهم تشجيعا أو توجيها ، لكننى كبر على نفسى أن اقف هذا الموقف ، أو أن أجعل لأحد حكما على ما اكتب ، قد لا يعجبنى ، وهذا أثرمن آثار ما جبلت عليه منذ نشأتى من أنفة وحياة ، أنفة عن أن يكون لغيرى حكم على ، وحياء من أن أطلب الى غيرى شيئا كائنا ماكان »(٢) ·

الا أن الموهبة تفرض وجودها ، وحين تسفر عن ذاتها تجد من يستجيب لها ويفسح لها الطريق ، وان حال الحياء بين صاحبها وبين الاعلان عنها ، فحين يسرت « صلة النسب التى تربط بين أسرتنا واسرة لطفى باشا السيد أن ازوره فى الجريدة ، وكان مديرها اذ ذاك أحمد بك عبد القادر الذى اتصل بى عند لطفى باشا ودعانى الى مكتبه وشجعنى على الكتابة فى الجريدة ، وما كان أعظم سرورى

---

(٢) مذكرات الجزء الأول الفصـل الأول ·

يوم ظهر لى أول مقال فيها ! لم يكن مقالا سياسيا ولكنه كان عن حرية المرأة وقد أبدى لطفى باشا تقديره لأسلوبى ولطريقة تفكيرى . فزاد ذلك فى تشجيعى وجعلنى أنشر فى الجريدة ما أكتبه » ..

وبقى الدكتور موضع رعاية لطفى السيد وتوجيهه ، وقيل انه هو الذى أختار له دراسة الحقوق وكان يميل الى دراسة الهندسة وأنه هو الذى أشار على أبيه بايفاده الى باريس « لأتم فى كلية الحقوق هناك دراسة الدكتوراه » ولعله أول مصرى يتم دراسته فى الخارج على نفقته ، كما كان أول مصرى ينال درجة الدكتوراه ، ولعل للقدر دوراً فى مسيرة حياته لا ينكره ، وان لم يقف به دون السعى الى غايته وتحقيق طموحه ، فنراه يســتمع الى الشيخ على الهوارى رئيس المصــححين بالجريدة حين دار الحوار بينهما حول موقف لطفى السيد ، حين انقطع عن الكتابة فى الجريدة لخلاف فى الرأى بينه وبين أعضاء حزب الأمة ، وانسحب من الميدان الى بلدته برقين، تاركا الجريدة يتولى أمرها غيره من محرريها ، ورأى المحررون أن يتولى الدكتور هيكل كتابة المقال السياسى ، ولمس الدكتور هيكل من الشيخ الهوارى « نقدا » للطفى بك ، وأثارتنى هذه الاشارة فقلت: أو تحسب لطفى بك فى حاجة الى راتبه الذى يتقاضاه من الجريدة ليعيش ، فيضطر لذلك الى القول يغير رأيه ؟! فأجابنى الشيخ المسن اجابة أعجبتنى مع مخالفتها رأيى « قال : ان الرزق بيد الله ، ان النمل ودود الأرض يجد طعامه ، ولطفى بك غنى عن الجريدة ، لكن مجابهة الجماعة ليست من الحكمة ! أعجبنى قوله : ان النمل ودو الأرض يجد رزقه »(٣) .

ونراه يستسلم للقدر مرة أخرى حين يعدل عن اجراء عملية جراحية بالكلى ، فيقول فى مذكراته بعد حوالى ربع قرن من ذلك

---

(٣) المصــدر الســابق .

التاريخ « وليتنى لم أعدل ! أو لعل الخيرة فيما اختاره الله » وكانت وفاته ، حين وافاه الأجل بسبب تلك العلة فى الكلى ، التى أغضى عن علاجها فى حينها ..

وقد كان من المحتمل أن يسلك الدكتور هيكل طريقا آخر غير الذى هيأه لطفى السيد له وشجعه عليه حتى كان « يقدمنى لأصـــدقائه قائلا : محمد ابن أخى ، وأشهد لقد أفدت من أحاديثه الكثيرة معى ومن متابعة منطقة فائدة لم أنسها قط » وأن يكون الطريق الذى يختاره مما يتفق مع موهبته وقدراته العقلية والفكرية ، وان كان من المحتمل أن يقف حيائه وأنفته دون ماهيأه لطفى السيد له .

وقد شاء القدر ، أو الموهبة ، وان كانت الموهبة هبة مقدورة ، أن تتصل حياته صحفيا وكاتبا وسياسيا بتاريخ جيله أشد اتصال وأن تكون حياته طوال نصف قرن منذ نشرت له الجريدة أول مقال له عام ١٩٠٧ حتى وفاته عام ١٩٥٦ بعض تاريخ مصر أو صورة متكاملة لتاريخ مصر ، لم تكن لغيره من أقطاب جيله ، وشاء له القدر أن يرود الطريق لكل طريق لحقبة جديدة من تاريخ مصر ، كان نبض التاريخ فيها خفاقا سريع الوجيب ..

لندن يناير ١٩٨٤ دكتور حسين فوزى النجار

١ اللقــاء العســير

كان اللقاء عسيرا ، فهذا الجيل الذى ولد فى أعقاب الثورة العرابية ، كان غير جيل الآباء الذى شهد فى شبابه ملحمة الثورة وغير جيل الأجداد الذى خاض ملحمة الثورة ، فكان لها أو عليها حين افترق المصريون بين مشايع لها فلفحته نيرانها وبين مشايع للخديو والاحتلال فنال من بر الخديو ومن رضى الاحتلال مالاذ به الى الصــمت والخضوع ورعاية المصــالح واقتناء العقار والسعى وراء الثراء ٠

وخيم شــبح من الســكينة والهدوء خاله البعض خنوعا واستسلاما طوال حكم توفيق ، ولم يكن له من الأمر شيء ، فقد آل كل الأمر الى المعتمد البريطانى يسوس البلاد على هواه ولمصلحة بريطانيا قبل أى شيء آخر ، وان ترك توفيق يحيى مراسم الحكم التركى ويتشيع للطبقة التركية ، فقد كان عونا للطبقة المصــرية الناشئة من الأعيان المصريين لتأخذ مكانها الى جانب طبقة الذوات

التركية ، ولم يشأ الانجليز أن يقضوا على ما كان للطبقة التركية من كيان اجتماعى وان اقتصوا كثيراً من نفوذها فى دوائر الحكومة فبقيت لها (ابهتها) وبقى لها جاهها تستعلى به على المصريين ، وتستنكف أن يكونوا معها على قدم المساواة ، وأخذت طبقة الأعيان المصريين تنازع طبقة الذوات التركية الجاه وتقلدها فى (الأبهة) وتدل عليها بانتمائها الى قصر الدوبارة مقر المعتمد البريطانى ، كما تدل الأخرى بانتمائها الى سراى عابدين مقر الخديو موئلها وراعيها، والانجليز بين الاثنين يقربون ويبعدون كما تشاء مصالحهم ، وكما تستهويهم الرغبة فى السيطرة والنفوذ على مصر والمصريين(١) ..

وبين الاثنين كان سواد الفلاحين والتجار وكانوا عونا للثورة العرابية ، فلما انتكس أمرها ، انطووا على أنفسهم فى غصة ومرارة، وبالرغم مما من به الانجليز على الفلاحين بالغاء السخرة والكرباج فقد بقى احســاس الفلاحين كأحســـاس السواد الأعظم من عامة المصريين مليئا بالتوجس والحذر بل والكراهية لهذا الحكم الأجنبى الدخيل ، حتى انفجر على يد مصطفى كامل فى ضرام ملتهب ، ثم كان حادث دنشواى فأورى فيهم سعار الكراهية للانجليز والاحتلال وكانت الحرب العالمية الأولى واعــلان الأحكام العــرفية والغاء السيادة العثمانية على مصر ووضعها تحت الحماية البريطانية ، وتجنيد الفلاحين للعمل فى خطوط القتال ونهب محاصيلهم ودوابهم ما كان وقودا لثورة مصر عام ١٩١٩ .

وبين هؤلاء وأولئك كان رجال الفكر وناشئة المتعلمين ، فأما رجال الفكر وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ، فقد اجتمعوا على رأى فى الاصلاح وبناء التقدم وكان منهم قاسم أمين وسعد زغلول وفتحى زغلول ولطفى السيد ، وكان لهم فى السياسة مذهب اختلفوا

---

(١) انظر كتابنا « على مبارك » الفصل الأخير .

فيه وان اجتمعوا على كراهية الاستبداد او ان يكون الخديو او الاحتلال صاحب النهى والأمر ، وكان فيهم كمحمد عبده وسعد زغلول من كانوا من أنصار الثورة العرابية،فلفحتهم نيران الغضب الخديوى، فنفى محمد عبده وسجن سعد زغلول ، ومكث محمد عبده فى المنفى ست سنوات حتى نال العفو وما كان توفيق ليعفو الا برضا كرومر او ضغطه ، ولو ترك الأمر لتوفيق لكان مصير عرابى وصحبه وكل من ناصره الاعدام ولكن الانجليز رأوا غير ذلك فكان النفى ثم العفو حكمة منهم ، علها تقرب ما بينهم وبين المصريين ، او علها تدنيهم من قلوب المصريين اكثر مما تدنى المصريين الى الخديو ، فقد كان هم الانجليز أن يكون المصريون أدنى اليهم مما هم الى الخديو ٠٠

وأما ناشئة المتعلمين فانهم قد ولدوا فى ظل الاحتلال ، وحين شبوا عن الطوق ، لم يروا غير الاحتلال جاثما فوق صدورهم وله الأمر والنهى فى بلدهم ، فهم لا يذكرون من مساوىء الترك واستبداد الخديويين الا مايسمعونه من آبائهم ولكنهم يرون سلطان الانجليز وتسلطهم مما لا يدع لهم سبيلا الى رؤية الماضى أمام رؤية الحاضر، ولا يرون الا أن الاحتلال غاصب متسلط لاحق له فى البقاء أو التسلط فكانوا هم الجذوة التى أضرمت نار الوطنية ، وكانوا هم الشيعة التى التفت حول مصطفى كامل وتبعته ٠

وشهدت هذه الناشئة على أريكة الخديوية شـــابا لم يجاوز الثامنة عشر من عمره يناوىء الاحتلال ، فقد توفى توفيق عام ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم من هؤلاء الناشئة ، وان نقم عليه الآباء الذين شهدوا مسيرة الثورة العرابية ، وخيانته لها ، وهو ماعبر عنه الشيخ محمد عبده لمراسل صحيفة انجليزية حين سئل عن رأيه فى توفيق فقال : « ان توفيق باشا أساء الينا اكبر اساءة لأنه مهد لدخولكم

بلادنا ، ورجل مثله ، انضم الى اعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام»(٢) .

خلف عباس اباه توفيق تحدوه حمية الشباب الى ممارسة سلطاته ورأت فيه الشبيبة الناشئة أملا جديدا فلم يكن لهؤلاء الناشئة عهد بمساوىء الخديويين ومظالمهم ، ولم يروا أمامهم غير الاحتلال يمسك برقاب المصريين ويستبد بهم ، وشهدوا من الخديو الشاب حماسة وغيرة وتصميما على مناهضة الاحتلال وبدأ يمارس سلطاته من غير أن يرجع الى المعتمد البريطانى فأثار غضبه بينما أثار فرحة المصريين فأقبلوا عليه يعلنون فرحتهم به ، ولعلها كانت فرحة بذهاب أبيه قبل أن تكون فرحة بتوليته ، ولعل الشعب بإحساسه المرهف قد أدرك أن الخديو الشاب لا يمالىء الاحتلال ولا ينوى التنازل عن سلطاته له ، فأقبل عليه يعلن فرحته بأفول ماض مذموم وشروق أمل وليد ، فلم تمض بضعة أيام على توليته ، وقد توجه لصلاة الجمعة فى المسجد الحسينى ، وقد احتشد الناس على الصفين يحيون موكب الأمير ويهتفون له ، وبلأ الحماس بالشباب من الطلاب وغيرهم ممن امتلأت بهم السكة الجديدة أن تقدموا نحو العربة الخديوية وأقصوا جيادها وجروها بأنفسهم « وأبدى الشعب المحتشد داخل المسجد وخارجه ــ كما يقول احمد شفيق باشا فى مذكراته ــ حماسة لا توصف وقد ظهر على سموه عميق تأثره وارتياحه لهذا الروح »(٣) .

ثم كانت أزمة الوزارة الفهمية حين رأى عباس أن يمارس حقه فى اختيار وزرائه فأقال وزارة مصطفى فهمى الضالعة مع الانجليز وكلف حسين فخرى بتأليف الوزارة الجديدة ، وأحس الشعب أن الخديو يتصدى للاحتلال ولا يلين معه فتحمس له وأيده وأقبلت عليه

---

(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث « الشيخ محمد عبده ».
(٣) انظر أيضا كتابنا لطفى السيد استاذ الجيل ط ٢ ص ١١٣ .

بسراى عابدين « وفود الأمة من الأمراء والعلماء والأشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة محكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية وكبار الموظفين والأعيان والتجار من العاصمة والأقاليم · جاءوا مدفوعين بشعورهم لتأييد الخديو فى موقفه »(٤) ·

وبعد ذلك بثلاثة أيام فى ٢١ يناير ١٨٩٣ ، حضر الخديو عرض رواية « عايدة » فى الأوبرا فقوبل من الحضور بهتافات التأييد ، وعزفت الموسيقى السلام الخديوى وهم يستعيدونه ، والهتاف يدوى فى القاعة ، حتى أشار اليهم بالجلوس والهدوء · وفى العام التالى كان ماعرف بأزمة الحدود ، حين عرض الخديو فى ١٨ يناير ١٨٩٤ فرقة من الجيش المصرى يقودها ضابط بريطانى فى وادى حلفا وأبدى ملاحظات حول نظام الجند وتدريبهم لم يرض عنها سردار الجيش المصرى لورد كتشنر فأثارت من ثائرة الانجليز ما أثارت من اعجاب المصريين بالخديو الشاب · وان لم ينجح أمام تهديد الانجليز فيما قصد اليه ولكنه حرك عواطف المصريين واحيا فى نفوسهم الأمل فى مقاومة الاحتلال ، وكانت البداية حين اتجه عباس الى الشباب ؛ فأخذ يستقطب النابهين منهم الى جانبه فما كان يأمل خيرا فيمن شهدوا مظالم جده واستخذاء أبيه ولا فيمن رأوا الثورة العرابية وتشيعوا لها وكانوا فى جانبها أو لم يتشيعوا لها ونأوا عنها ··

ولم يكن مصطفى كامل هو الذى اصطفاه الخديو وجده ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشباب ممن توسم فيهم الذكاء والاقدام فعاونهم فى دراستهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدهم الى أوربا ، دعاة لحقه كحاكم مصر الشرعى ، ومناوئين للاحتلال فى بقائه غير المشروع ، وكان ممن اصطفاهم أيضا أحمد لطفى السيد وبعث به

---

(٤) الرافعى ، عبد الرحمن : مصطفى كامل ص ١٦

الى سويسرا لينال الجنسية السويسرية ثم يعود الى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ٠٠

ولا ننكر فضل الخديو عباس فى بعث الحركة الوطنية ، فان موقفه من الاحتلال قد حرك عواطف المصريين الوطنية بعد سكون ونم عن فطنة وذكاء فى اختياره للشباب دون الشيوخ فهم أقرانه فى العمر ومن اليسير أن يحرك فيهم الطموح والنشاط وأن يستهويهم اليه خالين من عقد الماضى الخديوى ، فقد شبوا لا يرون أمامهم غير الاحتلال ومساوئه ، ولعله كان ملما بأهوائهم ونشاطهم خلال دراســـتهم العالية فقد عرف أن مصـــطفى كامل قد أسس جمعية « الصلييه الأدبية » وأصدر مجلة المدرسة ، وتزعم مدرسة الحقوق ، وحين زارها الخديو أول ولايته عام ١٨٩٢ كان أول المرجبين به وألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

بشرى الحقوق بســـيد الأمراء	كنز العلا عباس ذو النعمـــاء
بشـراك يادار العدالة والهدى	بمليك مصــــر وأوحد العظماء

كما عرف أن لطفى السيد قد أصدر مع زملائه فى مدرســـة الحقوق « مجلة الشرائع » كما كون جمعية سرية غرضها « تحرير مصر »(٥) ٠

الا أن لطفى السيد سار فى طريق غير الذى سلكه مصطفى كامل ، ولم يكن كل منهما فى مســـلكه الا نبع ذاته وفكره وتكوينه العقلى والبيئى ، فمصطفى كامل ابن المدينة ، مدينة القاهرة حاضرة مصر لأسرة نشأت فى رحاب الأسرة العلوية وخدمتها ، وان لم تكن من سلالة الترك الا أن ما ناله أبوه من تعليم قد انتقل بالأسرة من

---

(٥) انظر لطفى السـيد للمؤلف ص ١١٦ ط ١ ٠

مصاف التجار الى مصاف الموظفين ، فقد كان « على أفندى محمد » والد مصطفى كامل من الضباط المهندسين فى جيش محمد على ، وبقى فى خدمة الجيش حتى أحيل الى الاستيداع فى عصر اسماعيل وعين مهندسا بوزارة الأشـــغال حتى تقاعد عام ١٨٧٧ بعد مولد مصطفى كامل بثلاث سنوات ٠ وكان أبناؤه جميعا ممن نالوا تعليما عاليا وشغلوا مناصب حكومية ، وأصبح أحدهم وهو حسين باشا واصف وزيرا للاشغال فى وزارة ثروت عام ١٩٢٢ ٠

ومثل هذه الأسرة لا تضـــنى بحكم الترك ولا تحس مظالم الخديويين ، ولم يكن أفرادها من الأفندية أو البكوات ممن يدرجون فى سلك الفلاحين ، فلم ينلهم من ازدراء الترك للفلاحين نصيب ، وكان احساس المدينة بمظالم الأتراك ومساوئهم دون احســاس الريف بمراحل ، فلما وقع الاحتلال البريطانى كان احساس الريف به دون احساس المدينة ، فالاحتلال يعسكر بجنوده فى القاهرة وبعض المدن الهامة وضباط الشرطة من الانجليز يعملون فى المدن ولا يعملون فى الريف ٠ ولطفى السيد ابن الريف شارك أبوه الشيخ سيد أبو على من عمد الدقهلية فى الجمعية العمومية التى دعا اليها عرابى لاتخاذ مايلزم من القرارات نيابة عن الأمة بعد أن لاذ الخديو بحمى الانجليز فى الاسكندرية ، ومثله يضنى بحكم الترك كما يضنى بحكم الانجليز ويعنيه تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم أكثر مما تعنيه شخصية الحاكم مادام مصريا ٠

فاذا كان مصطفى قد اتخذ جانب الخديو وسار معه الى نهاية الشوط مادام ردفا للوطنية والوطنيين وجلاء المحتلين مقدم عنده على تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وهو ناقم على الاحتلال أكثر من نقمته على الحكم التركى ٠ ثم أن نقمته على الحكم التركى ، ولم يكن ناقما عليه ، تخل بنهجه فى مقاومة الاحتلال ، وقد كان فى نهجه هذا ملتزما بخطين ثابتين هداه اليهما تفكيره ومنطقه ، أولهما

يلتزم بمنطق قانونى فحواه أن الاحتلال الانجليزى تعوزه الشرعية الدولية فقد جاء باعترافه سندا للخديو صاحب الحق الشرعى فى الحكم وليقر النظام فى البلاد ثم يجلو بعد ذلك ، والمجتمع الدولى وعلى رأسه فرنسا غير راض عن الاحتلال البريطانى لمصر ، والتنافس الاستعمارى مازال محتدم الأوار ، وهو على أشـــده بين انجلترا وفرنسا ، بينما المانيا وقد فاتها سباق الاستعمار تتطلع الى مثل ماسبقتها الدول الاستعمارية اليه ، وسياسة الباب العالى تقوم على استغلال هذه المنافسات الاستعمارية لصـــالحها ، وعلى هذا وجد مصطفى كامل فى الساحة الأوروبية وفى فرنسا بالذات ميدانا لحملته على الاحتلال البريطانى ، وحقق فى هذا الميدان أعظم نجاح فأسمع صوت مصر للعالم وان لم يثمر ثمرته المرجوة ٠

وفى الجانب الآخر أخذ مصطفى كامل يثير الحمية الوطنية ، وكان خطيبا ملهما وداعيا لا يشق له غبار ، يعرف كيف يثير الناس ويستهوى اليه الأسماع ويحرك العواطف الى ذكاء واقدام نادرين ، وكان لكلماته فعل السحر تنفذ الى الوجدان وتحرك المشاعر فأحيت فى المصريين موات الأمل وتبعه شباب الأمة جميعا فى أمل غامر « فلا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » وفى حب كله الوله بمصر ، نفدت كلماته نشيدا يردده المصريون ، يغنون جميعا « بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يامصر » ٠٠

وكانت نغمة جديدة لم تسمعها مصر منذ خبت نيران الثورة العرابية ، هى التى هزت مصر فى ثورة ١٩١٩ فهو الذى أوقد شعلتها فظلت ثورى حتى عم أوارها كل مصر ٠

وعلى غير ماكان مصطفى كامل فى نشـــأته وتفكيره وتكوينه

العقلى والبينى كان احمد لطفى السيد ، وليد الريف من الفلاحين الذين يزدريهم الأتراك ويحقرونهم أشد التحقير ، وكان أبوه الشيخ سيد أبو على عمدة « برقين » من عمد الدقلهية الذين شاركوا فى الجمعية العمومية التى دعا اليها عرابى فى ١٧ يوليه ١٨٨٢ لينوبوا عن الأمة فى ادارة شئون البلاد ، بعد أن لاذ الخديو بالانجليز فى الاسكندرية وانفصم مابينه وبين الثوار ·

وقد قامت الثورة العرابية ـ كما نعرف ـ للتحرر من الاستبداد الخديوى الذى ساق البلاد الى الخراب وأدى الى التدخل الأجنبى ، وان بدأت بحركة الضباط المصريين للمساواة بأندادهم من الترك والجركس ، الا أن جذورها تمتد الى أبعد من ذلك بكثير ، اذ ترجع الى ظهور طبقة جديدة من الأعيان المصريين أتيح لها أن تشـارك مشاركة محدودة فى شئون البلاد عن طريق مجلس شورى النواب الذى كونه اسماعيل ليبدو فى نظر الغرب حاكما دستوريا مستنيرا ، وكانت هذه الطبقة المصرية الجديدة قد بدأت تشارك فى الحكم منذ سمح لها سعيد باشا بولاية بعض مناصب السلطة ومنذ سـمح للمصريين بامتلاك الأرض باصدار اللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ ، كما سمح بترقية المصريين الى رتب الضباط وفرض التجنيد الاجبارى على الجميع بما فيهم أبناء العمد والمشايخ ، وخفض فترة التجنيد فجعلها عاما واحدا · كما ترجع الى حركة فكرية جديدة كان رائدها جمال الدين الافغانى ، وغذتها صحافة ناشئة نشيطة وشباب مستنير أخذ يلتف حول داعية الشرق العظيم ، كما كان لامتداد الموجة الغربية الى مصر واتصال مصر بأوربا ، وظهور طائفة من الشباب تعلم فى الأزهر وفى المدارس الحديثة أثرها البعيد فى ذلك · فقد أخذ هذا الشباب يعنى بشئون بلاده ويبرم بالسياسة العشوائية التى يسير عليها اسماعيل ولا يجد متنفسا لاعلان سخطه على استبداده وجوره

الا فى مجالسه وندواته الخاصة التى وجد الافغانى فيها أعظم منتدى لأفكاره وتعاليمه » (٦) ٠

وحين صدر عرابى بدعوته « مصر للمصريين » كان يعنى أن تكون أمورها لبنيها ، وأن يكون ابناؤها سادة أنفسهم ، ذلك ان مصر لم تكن ملكا لبنيها بل كانت ملكا لأسرة تحكمها وتستأثر بخيرها منذ حكمها محمد على وجعل منها ضيعة له ولأسرته وحاشيته ومن اصطفاهم من غير المصريين ، ولم يكن يرى المصريين « يصلحون ـ كما يقول دودول على لسانه ـ الا لحمل الأثقال وسوق الحمر »(٧) ٠

ويصور الدكتور هيكل ما كان عليه وضع المصريين تصويرا بليغا ، فيقول :

« لم يكن للسيادة التركية على مصر أثر ظاهر أو مباشر الا فى تعيينها الخديو صاحب السلطة الشـــرعية فى البلاد بمقتضى الاتفاقــات الدولية ، ولم تكن لهذا التعيين الشرعى صورة عملية أمامى ، فقد عين خديو مصــــر عباس حلمى الثانى وأنا أخطو بين الثالثة والرابعة من عمرى ، فلما بلغت السن التى تتبين فيها الأشياء للانسان واضحة ، كان الخديو عباس هو خديو مصــر بالفعل ، والممثل لسلطان تركيا منذ سنوات عدة » ٠

---

(٦) المؤلف : احمد لطفى السيد ص ٣٠ ـ ٣١ ط ٢ ٠

(٧) Dodwell, Henry : The Founder of Modern Egypt.

أنظر أيضا رفاعة الطهطاوى للمؤلف ٠

« وقد بقيت د اذهاننا ، نحن ابناء الريف المصرى ، صورة قاتمة من حكم الترك ، ومن حكم الخديويين أنفسهم ، حين كان لهم وللترك السلطان المطلق الذى أدى الى ثورة عرابى ، فكثيرا ما حدثنا اباؤنا واجدادنا ، وحدثتنا امهاتنا وجداتنا ، عن حكم أولئك النفر الذين كانوا يزدرون المصريين اشد الازدراء ويحقرونهم أشد التحقير ويضربونهم بالسياط لسبب ولغير سبب ، وهذا هو مايعبر عنه المثل العامى : « آخر خدمة الغـز علقة » والغز هم الغــزاة الأتراك والجراكسة ومن اليهم ·· أما والخديو هو ممثل هذا الماضى الذى زال بتولى الانجليز السلطان والغائهم السخرة والكرباج ، فقد كان الناس من أهل الريف ، وكان ابناؤهم من أمثالنا ، يفزعون اذا قيل لهم ان السلطان سيعود كما كان لصاحب السلطة الشرعية ، وأن الغز سيتولون الأمر من جديد »

« على أن صورة هذا الماضى المظلم لم تكن بالنسبة لجيلنا أكثر من صورة يرسمها الحديث حكاية من الماضى بعد أن لم يبق فى الواقع منها شىء ، أما الواقع فكان السلطان المطلق فيه للانجليز ·· وكان الانجليز من جانبهم كذلك يزدرون المصـريين أشـد الازدراء ، ويحقرونهم أشد التحقير ، وان لم يكونوا يضربونهم بالسياط ، كان مفتش الداخلية الانجليزى ، وان صغر مركزه ، يعد نفسه أكبر من كل موظف مصرى ، بل أكبر من الوزير المصرى ، لأنه لم يكن يتلقى تعليماته الا من رئيسه الانجليزى ، وكان مفتش الرى الانجليزى هو كل شىء فى وزارة الاشغال ، فاذا جاء مفتش الداخلية أو مفتش الرى الى مديرية من المديريات او مركز من مراكز ، ارتجت المديرية وارتج المركز ، واضطرب الموظفون المصريون كبارهم وصغارهم فزعا من ملاحظة يبديها هذا المفتش الانجليزى يسوء أثرها فى مستقبل حياتهم كله ، فاذا آن لهذا المفتش أن يغادر المركز أو المديرية ، بعد

أن يمسك مأمور المركز بركاب الجواد الذى يمتطيه حتى يعلو جناب المفتش ظهره ، تنفس الكل الصعداء وحمدوا الله على السلامة »(٨) .

وكان لطفى السيد ابن عشر سنوات حين شبت الثورة العرابية وهى السن التى لاتزاول الذاكرة فيها صور الواقع ، وشهد صباه حكم توفيق واستخداءه وايثاره للترك على المصريين وان لم يكن له من السلطان شىء ، فلما اقتعد عباس أريكة الخديوية بعد أبيه وبعث فى الشباب تلك النزعة الجديدة لمقاومة الاحتلال ، وقد شهد لطفى السيد من أوضاره ومساوئه ماوعته ذاكرته من أوضار الخديويين ومساوئهم ، فغلبته النزعة الى التصدى لما هو قائم دون التفكير فيما كان من قبل ، فكون جمعية « تحرير مصر » وهو طالب بمدرسة الحقوق ، فلما عرف الخديو عباس أمرها ، بعث اليه بمصطفى كامل يقول : « ان الخديو يعلم كل شىء عن جمعيتكم السرية وأغراضها وأظن أنه لا تنافى بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رئاسة الخديو . فأجبته : لامانع عندى من ذلك ـ وأبلغ مصطفى الخديو هذا القبول واستأذن لى فى مقابلة سموه ، وذهبت اليه فتحدث معى سموه عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه، وطلب منى أن أسافر الى سويسرا لكى اكتسب الجنسية السويسرية ثم أعود الى مصر لأحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ، والسبب فى اختيار سويسرا دون أية دولة ، أن التجنس بجنسيتها قريب المنال لا يكلف الراغب فيه الا اقامة سنة واحدة بها »(٩) .

ويروى لطفى السيد أن العمل المشترك بدأ بعد مقابلته للخديو فاجتمع نخبة من الشباب النابه فى منزل محمد فريد وألفوا الحزب

---

(٨) دكتور هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ط ٢ ص ٢١ ــ ٢٢ .

(٩) لطفى السيد : قصة حياتى ص ٣٥ .

الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو وأعضـــاؤها مصطفى كامل ومحمد فريد وسعيد الشيمى يارو الخديو ومحمد عثمان ولبيب محرم وأنا ، ومن طرائف ما يذكر عن هذا الحزب أن الخديو كان اسمه بيننا (الشيخ) ومصطفى كامل (أبو الفداء) وأنا (أبو مسلم) ٠

وفى سويسرا أدرك لطفى السيد ألا جدوى فى اعتماد المصريين على فرنسا وأوربا فى حمل انجلترا على الجلاء عن مصـــر ، وفى سويسرا التقى بالقادمين اليها من المصريين ومنهم الشيخ محمد عبده وصحبه الى دروس فى الفلسفة والآداب بجامعة جنيف ، وغضب منه الخديو لذلك ومامن شك أنه قد تأثر بالشيخ محمد عبده ، فحين عاد الى مصر قدم تقريرا الى الخديو يقول فيه : « ان مصر لايمكن أن تستقل الا بجهود أبنائها وان المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس سمو الخديو حركة شاملة للتعليم العام ٠٠ وكان هذا هو رأى الشيخ محمد عبده بعد عودته من المنفى ٠

ولم يكن أمام لطفى السيد مايقوم به بعد عودته من سويسرا وانهيار أمله فى الاعتماد على فرنسا وأوربا ، وما كان لديه بديل لذلك ، لاسيما وأن حجة مصر فى الجلاء تقوم على افتقار الاحتلال للشرعية التى تبرر وجوده مع الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر وتبعية مصـــر للدولة العثمانية ، ومازال للخديو فى قلوب المصريين مكان أثير ومازالت الخلافة العثمانية هوى المصريين وغير المصريين فى الشرق الاسلامى والدعوة الى « الجامعة الاسلامية » تأخذ بلب المسلمين فى عالم الاسلام ٠

وتوالت الأحداث فقلبت موازين الفكر وأفضت الى موقف لم يخف على أقطاب الحركة الوطنية ولا على النابهين من الشباب وأن غام أمامهم الطريق وبدا طريق الـــكفاح أمامهم طويلا ، ففى عام ١٩٠٤ عقد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، وفيه تعترف فرنسا

لانجلترا بوجودها فى مصر كما تعترف انجلترا لفرنسا بوجودها فى مراكش ، وظهر اثر هذا الاتفاق فى نهج مصطفى وفى ميدانه للدعوة فلم يعد يعتمد على فرنسا وان بقى له فيها اصدقاء يساندونه ويشدون ازره ، واتجه الى المصريين ينفخ فيهم روح الوطنية ويبعث فيهم الأمل ، ويبصرهم بالاتحاد ويضرب لهم الأمثال بأمم سبقتهم وكانت دونهم فيكتب لهم كتابه « الشمس المشرقة » عن نهضة اليابان الجديدة ويؤلف كتاب « المصريون والانجليز » بالفرنسية ويوزعه فى العالم ليعرف حق مصر وكفاحها للاستقلال ..

ثم كان حادث دنشواى صيف ١٩٠٦ وما صدر فيه من أحكام جائرة وما كان فى تنفيذها من همجية جاوزت حدود الظلم والاستبداد الى حقارة الظلم والاستبداد خسة ودناءة ، وارتفع صوت مصطفى كامل عاليا يندد بما انحدر اليه حكم الاحتلال من همجية ، وأطاحت حملته بكرومر وحملت انجلترا على تغيير سياستها فى مصر بسياسة اشد مكرا ودهاء . فكانت سياسة الوفاق بين الاحتلال والخديو على يد المعتمد الجديد « سير الدون جورست » ولكن حادث دنشواى كان قد أورى لهيب الكراهية والمقت للاحتلال والانجليز . وما كان للضرام أن يخبو ابدا ..

ولكن الخديو عباس الذى ايقظ مصر من غفوتها وبعث فى الشباب أملا جديدا بتصديه للاحتلال ومقارعته كرومر واصطفائه للناهبين ، قد أدركته شيخوخة مبكرة فوهن عزمه وأخذ يستسلم لكرومر ، ووهنت علاقته بالحركة الوطنية وزعيمها . واخذ مصطفى كامل يبتعد عنه ، فما كان الخديو عباس بالنسبة له الا معينا له فى كفاحه الوطنى ، وكان عباس يدرك ذلك تماما ويعيه ويعرف انه لا ينتمى الا لذاته ، كما كتب بعد ذلك فى مذكراته .

وقد أخذ مصطفى كامل بعد سياسة الوفاق يغير من نهجه ومن

خطته ، فبدأ يولى المسائل الداخلية اهتمامه واخذ يتحدث عن الدستور والنهوض بالتعليم وتقدم المصريين والف الحزب الوطنى ليجمع فبه المصريين على خطة وغاية ، ونظام مقرر ··

وقبل حادث دنشــواى كان حادث طابا وفيه احتلت القوات التركية « طابا » داخل حدود سيناء ، وقيل انها ترمى بذلك الى فتح باب المسالة المصرية من جديد لتحمل انجلترا على الوفاء بعهودها فى الجلاء ، وثارت بريطانيا واحتجت على تركيا ، فتراجعت تركيا ، ووقف المصريون ينتصرون لتركيا ويؤيدون موقفها من حدود مصر الشرقية ، كما كان موقفهم عند احتلال الفرنسيين فاشــودة عام ١٨٩٨ ، اذ وقفوا يتشيعون لفرنســا بينما احتجت انجلترا عليها باعتبارها فاشودة من املاك مصر وسيرت قوات من الجيش المصرى بقيادة ضباط من الانجليز لاجلاء الفرنسيين عن فاشودة « مما لايمكن تفسيره ـ كما يقول لطفى السيد ـ الا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال فاصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به ولو كان فيه الخير لمصر » ··

وكان للمصريين الحق فيما ذهبوا اليه بحسن نية ، فقد ظنوا أن فرنسا كما ظنوا أن تركيا لا ترميان من هذا الا فتح باب المسالة المصرية وحمل انجلترا على الجلاء ، ولكن فرنســا تخاذلت كما تخاذلت تركيا مما صدم المصريين فى أملهم فى كل من فرنسا وتركيا ·

وادرك لطفى السيد أن الوقت قد حان للجهر برأيه الذى آمن به من قبل ، وقد قعد عنه لا يصدر به الى الرأى العام قرابة عشــر سنوات ، أما والأمل فى فرنسا وفى تركيا قد ذهب أدراج الرياح ، والخديو هو الآخر قد أخذ جانب الاحتلال ولم يبق من سند للحركة الوطنية غير كفاح المصريين أنفسهم فقد آن له ان يجهر برأيه ويخوض المعركةبما يراه لمستقبل مصر وخطتها فى الفوز بالاستقلال والحكم

الدستورى معا ، فالاستقلال بغير الدستور يضع السلطة كلها فى يد الخديو فيستبد استبداد آبائه من قبل ·

ولم يكن لطفى السيد وحده هو صاحب هذا الرأى ، فقد كان الشيخ محمد عبده على هذا الرأى بدوره فالأمة لا تظفر باستقلالها ما لم تتهيأ له بالعلم والتقدم ، وقد رأى الشيخ ما كان من مظالم اسماعيل وتخاذل توفيق ونزعتهما الى الاستبداد والحكم المطلق ، ورأى مطالب الثورة العرابية تتمثل فى الدستور ومساواة المصريين بالترك وخيانة توفيق للعرابيين مما أورثه النقمة على أسرة محمد على فوصمها بالاستبداد والقسوة وأن محمد على « لم يترك رأسا مصريا فيه كلمة أنا الا قضى عليه » وود الخديو عباس لو استطاع أن ينزعه من منصب الافتاء ولكنه لم يستطع ··

وبقدر ماعرف وعانى الشيخ من مظالم الخديويين ، فان لطفى السيد ابن الريف يعرف ماعاناه أبناء الريف من ظلم الاتراك ومظالمهم واستبدادهم ، ما يعرفه أيضا من اســتبداد كرومر واهماله لكل جوانب الاصلاح والتقدم فى مصر ··

وفى تلك الفترة من تاريخ مصر كان جيل الابناء جيل الدكتور هيكل ومحمود عزمى ومصطفى عبد الرازق وطه حسين والمازنى هؤلاء الأقطاب الذين درجنا على اثارهم ، وكانوا اباءنا ، يستهدى طريقه فى هذا الخضم من الأحداث والأفكار التى ناشــت صباهم واختلف عليها آباؤهم ·

وكان اللقاء عسيرا فالموجة الغربية تصفع عقولهم ، وحيرة الفكر السياسى تضعهم هم الآخرين فى حيرة لا تسفر عن رؤية واضحة وحركة التجديد الاسلامى التى يرودها الشــيخ محمد عبده تثير مكامن الهلع عند الأزهريين ، والمجتمع المصرى ينصــهر ويتفاعل

وتتقارب عناصره فيقبل أعيان المصريين على مصاهرة الاتراك ، وقد أخذوا ينشدون التفوق والبروز فى ميدان الوجاهة والسيادة ، واقبلوا على التعليم حتى يكون لهم نصيب فى وظائف الحكومة ، فقد ارتبطت وظيفة الحكومة لدى المصريين بسيادة الدولة فكانت سبيلا للسلطان ومظهرا للجاه حتى قيل : « ان فاتك الميرى تمرغ فى ترابه » وكانت الأسر المصرية تفضل زواج بناتها من موظف بالحكومة مهما قل دخله على غيره من المشـــتغلين بالتجارة والزراعة ، وكان لكل وظيفة مكانتها وجاهها ، بما لصاحبها من نفوذ وسلطان • ودعوة قاسم امين لتحرير المرأة يســـتنكرها الناس ويثور بها الجامدون ولكنها تهز اعماقهم كما تصـــدع عقولهم فهم فى حيرة من أمرهم يقبلون بعقولهم ما ينكره وجدانهم وكأنهم فى حرصهم على القديم يخادعون انفسهمفى الجديد وكأنما الحنين الى القديم يمسك بعقولهم ، والخوف من الجديد يصدهم عنه ، وان كان للجديد بهجته ورواؤه ، فالحياة لا تعود الى الوراء ، والتغير يفرض وجوده فهو وليد التطور الذى يحكم سنة الحياة ويدفعها قدما الى الامام •

الا أن الحيرة التى كانت تغشى الأذهان ، قد بدأت تزول ، وأخذ الجديد سبيله الى العقل ليصدر عن نظرة واعية ، ولاينى المجددون ودعاة الاصلاح عن التحدى وتسفيه الجمود والحملة على أوضار الماضى التى تعوق حـــركة التقدم ، فلم يعد من دعاة الاصــــلاح والتجديد من يخشى التحدى بعد أن لقى من يصيخ السمع اليه ، وعادة ما تكون الحيرة من قبيل التردد بين قديم يغرب فى أعماق اللاشعور وجديد يراه الناس صالحا ولكن الخوف يقعد بهم عن المبادرة خشية الجماعة أو عن التحدى خشية المواجهة حتى يبدو خطأ القديم فتزول الخشية ، او يظهر البطل القادر على التحدى « والبطل فى التاريخ هو الفرد الذى يصوغ ارادة عصره ويعبر عنها ويبلغها ويجعلها حقيقة واقعة أو هو القادر على خلق وعى انسانى ـ

كما يقول ليقيس عندما يصف عظماء الكتاب ، فهو « يمثل ـ كما يقول المؤرخ الانجليزى ادوارد كار ـ شيئا على الدوام ، اما يمثل القوى القائمة فعلا او القوى التى يساعد على خلقها » ..

وكان البطل ـ كما رأيناه ـ فى تلك الفترة ، مثالا لقوى جديدة تسفر عن نفسها فى ميادين عديدة ، فالشيخ محمد عبده أو الامام ـ كما عرف ـ قد وهب نفسه ـ كما يقول ـ « لاصلاح العقيدة الاسلامية وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والأوهام »(١٠) .

وقد ذكر مايمكن أن يكون مجمل رسالته فى « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف .. واصلاح اساليب اللغة العربية .. والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشـعب وما للشـعب من حق العـدالة على الحكومة(١١) .. ولما توفى الشيخ عام ١٩٠٥ كانت افكاره تصنع عقول الناس بمالا سبيل الى انكاره ..

وفى ميدان آخر جاء قاسم امين داعيا ومبشرا بحرية المرأة ، فكان مثالا لقوى قائمة فعلا وقوى عمل على خلقها ، فهى ـ كما يقول فى مقدمة كتابه « تحرير المرأة » ـ حقيقة قد شغلت فكره مدة طويلة « كنت فى خلالها اقلبها وامتحنها واحللها ، حتى اذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتنبهنى بالحاجة اليها فرايت أن لامناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر . »

وانه ليعلم مـا تثير دعـوته الى تحـرير المـرأة من حملات شـعواء فلا ينكص ، وكان فى ثبـاته مثـالا لقـوى جديدة يعمل على خلقها ، وكان كتابه « المرأة الجديدة » تفنيدا لحجة

---

(١٠) التاريخ والسير ، للمؤلف ، ص ٨٤ المكتبة الثقافية .

(١١) احمد امين : زعماء الاصلاح : محمد عبده ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

خصومه وأراء معارضيه ، تحدى فيه البطل الاجماع مؤمنا بما يدعو اليه فى نظرته الى الى المستقبل ، وفى رؤيته لواقع لا يصمد أمام القوى الجديدة للتقدم المنشود ·

ثم كان البطل فى هذا الواقع المرير ثائرا يلهب عواطف الناس ويحيى موات النفوس ، ويبعث الأمل الداوى بعد اليأس المرير ، وكان الواقع من حوله يغذيه بالرجاء القريب ، فالحاكم صاحب السلطان الشرعى يرعى دعوته ويشجعه ويمده بالعون ، وفرنسا ترحب به وتؤيده وتفرد صـــحفها العمد الطوال لمقالاته وأحاديثه ، والدولة العلية تراه مؤيدا لسلطانها وســـيادتها على مصر ، فتخلع عليه الألقاب وتحفه بالتشريف ، وما كان لكل هذه القوى التى تؤيده أن تتقاعس يوما عنه ، أو تتخلى عن تاييده ، أو تغدر بدعوته ، وجاء حادثدنشواى وانتصاره على كرومر فجمع القلوب من حوله ، وحين أدرك البطل أن الدولة العلية أعجز من أن تقاوم الغاصـــب ، وأن صاحب السلطان الشرعى قد تخلى عنه حبا فى الوفاق ، وان فرنسا قد هادنت الغاصب ولانت الى الود ، لم تهن لمصطفى كامل قناة ، فقد كانت مصر أغنيته ولمصر نشيده ، فأخذ يغير من نهجه ، وأعلن قيام الحزب الوطنى ليكون ركيزة الكفاح فى الداخل ، وأخذ يتحدث عن الدستور ويدعوا الى نشر التعليم ويشجع انشاء المدارس الأهلية وقيام الجامعة ، وقبل أن يسفر عن نهجه الجديد اخترمه الموت فى قمة الرجولة وروعة الشباب ·

أما المعلم فقد جاء لينادى بفكر جـــديد لا يجد له روادا ولا مستمعين حين تحكم العاطفة العقل أو يحجب الأمل مرارة الواقع أو حقيقته ، وقد رأى الساعة قد حانت ليعلن عن رأيه ، فلا الدولة العلية ولا فرنسا ولا أوربا مما يظن أنها تساعد مصر على انجلترا ولن يحرر مصر الا المصريون ، والتعليم مرقاة الأمة الى التقدم والنهوض ، والمعلم « أحمد لطفى السيد سليل تلك الطبقة التى وقفت

الى جانب عرابى ومازالت تذكر مظالم الخديويين والاتراك الحاكمين فاذا رجع له ولها السلطان فلا أمان للمصريين فى بلادهم ما لم يكن لهم شأن فى حكم بلادهم ، والدستور وحده هو الذى يضع لهم هذا الشأن ، وقد « عقلوا تماما ـ كما يقول فى رد له على كرومر ـ مضار الحكـــم الشــــخصى ، وازدادت كراهيتهم له يوما بعــد يــوم لاستبداد الحكومة وتفردها بالأعمال العامة » ٠

فالدستور قرين الاستقلال كما يرى المعلم ويسفر برأيه هذا على صفحات الجريدة وقد أصبحت لسان حال حزب الأمة أول حزب سياسى ، يقوم فى مصر بعد الاحتلال ، وتكون تلك هى البداية فى نشأة الأحزاب السياسية فى مصر فقد قام حزب الأمة فى ســـبتمبر ١٩٠٧ بعد صدور الجريدة بنيف وخمسة شهور ٠ وفى اكتوبر من نفس العام اعلن مصـــطفى كامل قيام الحزب الوطنى ، كما الف الشيخ على يوسف صاحب المؤيد « حزب الاصـــلاح على المبادىء الدستورية » سندا للخديو ٠

ولا تقوم الأحزاب عادة الا فى أمة حققت استقلالها واستكملت كيانها السياسى ، اما ما قبل ذلك فانها تتبين طريقها الى الاستقلال وتجمع عليه وتسعى لتحقيقه صفا واحدا ، فاذا اختلف بينها الرأى ، اختل فيها الاجماع ، وتضاربت المناهج وازدادت الحيرة ، ولم يعد لمثل تلك الأحزاب سند من اجماع الرأى العام الا أن تعرض للاحتلال ومساوىء الاحتلال ٠

وقد عجزت هذه الاحزاب عن الوفاء بما قامت من اجله ، فالحزب الوطنى بعد وفاة زعيمه ، وما عاناه خليفته محمد فريد من مطاردة السلطة واضطهادها فى ظل سياسة الوفاق حتى هاجر راغما الى أوربا عله يجد لدعوته ميدانا اكثر حرية وانطلاقا ، وما كان من خلاف بين ورثة مصطفى كامل والحزب الوطنى على ملكية اللواء ،

واصدار جريدة « العلم » لتقوم مقام اللواء ، ثم هجرة عبد العزيز جاويش هو الآخر ، وقد قام على تحرير صحف الحزب الوطنى بعد مصطفى كامل ، كل هذا كان له أثره فيما أصاب الحزب الوطنى من بلبلة واضطراب ٠

أما حزب الأمة فقد اختلف أصحابه عليه وصدوا عن تمويل الجريدة ، وان بقى لطفى السيد يحمـــل لواء الدعوة الى مبادئه وآرائه ، حتى يئس من بقى منهم فى الحزب من تحقيق خطتهم فذهب كل منهم الى حاله وانتهى حزب الأمة فى هدوء لم يحس به أحد ، كما يئس لطفى السيد بدوره من السياسة فهجرها وقدم استقالته من الجريدة ، وبقيت بعده فترة ولكنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ٠

وكانت الحرب العالمية الأولى ، فقضى على كل نشاط حزبى ، وفرضت الحماية البريطانية على مصر ، وعطلت الجمعية التشريعية فلم يسمع لها رأى فى الحماية ، ولم يعد للمعتدلين ما يطمئنون معه الى نوايا الاحتلال ٠

وفى تلك السنوات منذ بداية العقد الأول من القرن العشرين حتى نهايته كان الدكتور هيكل يدرج من سنوات الصبا الى الشباب فقد أتم دراسته بمدرسة الجمالية الابتدائية وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠١ وله من العمر ثلاثة عشر عاما وانتقل الى المدرسة الخديوية ليتم بها دراسته الثانوية أو التجهيزية كما كانت تعرف حينذاك وحصل منها على البكالوريا عام ١٩٠٥ ، وأزمع السفر الى انجلترا لدراسة الهندسة ، وفى ذلك العام توفى جده،وجاء أحمد بك لطفى السيد للعزاء ، وجرى الحديث فيما جرى حول الاتجاه الذى يختاره محمد لدراسته ، واختار له لطفى السيد دراسة الحقوق على غير ما كان يرى الشاب الطموح الى السفر ، ونزل الشاب على رأى استاذه بعد أن وعده أبوه بأن يبعث به الى الخارج للحصول على الدكتوراة بعد اتمام دراسة الحقوق فى مصر ٠٠

ترى اكان الدكتور هيكل يهوى دراسة الهندسة عن رغبة وميل أم كان مايتمتع به مهندس الرى فى الريف من وجاهة السلطة ، وسلطان الأمر والنهى ، هو الذى يجذبه اليها ، ولكنه كما يقول كان « شديد الميل لدراسة الأدب العربى والاطلاع على قديمه وحديثه» بقدر ما يسمح ادراكه ، وهذا الميل المبكر يجعله أقرب الى دراسة الحقوق منه الى دراسة الهندسة ، ولعله كان يرى فى دراسة الهندسة وسيلة للسفر الى الخارج ، فلما وعده استاذه بأن يتم دراسته للدكتوراه فى الخارج نزل على رأيه واستجاب له ٠

وانتقل هيكل الى مدرسة الحقوق ،«وليس له ـ كما يقول ـ فى أمور السياسة ولا فى أمور الاجتماع رأى مكون » ولكنه كان لا يرى الرأى مالم يمحصه ويتبين حقيقته ، وكانت الأمور مازالت غائمة تعجم على فكر ذكى لا يرى الرأى حتى يضعه على موازين العقل والمنطق والفكر ، وكان يرى الصورة ولكنه لا يصل فيها الى رأى قاطع ، ولعل ذلك كان بعض صور الحيرة التى تعصف بشاب ذكى نشأ نشأته وكانت له مثل تربيته وبيئته ، فقد ولد لأبوين من صميم الريف المصرى في ٢٠ أغسطس ١٨٨٨ والقرن الماضى يضىء بآخر ذبالاته وكان أبوه حسين أفندى سالم هيكل سيد قومه وعشيرته ، أحد أفراد هذه الطبقة المصرية التى أخذت تسود الريف المصرى وترث ما كان للطبقة التركية الغالبة من ثراء ونفوذ يعززهما جاه العشيرة وعصبية الأسر الريفية الكبيرة ٠

والطفل حين ينشأ فى مثل تلك الأسر الريفية التى تعيش حياة أقرب الى حياة القبيلة ، يحس بعصبية الأسرة احساسا تاما ، وحين يكون الأبن الأكبر لسيد العشيرة ورب الأسرة يرى من رعاية الأب واكبار الأسرة ما يؤهله لزعامتها بعد أبيه ، فنراه يدعى الى مجالس الكبار يستمع اليهم ، وقد يشاركهم الحديث فتتكون شخصيته وتنمو منذ الصغر وتتفتح رجولته واعتباره لذاته قبل الأوان ، ويتمى

شعوره بالمسئولية احساسه بكيانه وسط الأسرة ، ويغذيه احساسه بكيانه هذا بنوع من الأنفة والحياء ، أنفة يراها هيكل بعض ما جبل عليه منذ نشأته : « أنفة عن أن يكون لغيرى حكم على ، وحياء من أن أطلب الى غيرى شيئا كائنا ما كان » ٠٠

وقد بقيت تلك الأنفة وذلك الحياء يلازمانه طوال حياته تنم عنهما ــ كما نرى من سيرته ــ مواقف كثيرة ، كما بقيت طبيعته الريفية كامنة فيه بكل ما فيها من نقاء ، وما للاصالة فيها من طبائع المروءة وسمات الترفع ، وانه ليصف تلك البيئة فيقول :

« كان أبناء الريف المصـــرى يعيشون الى أوائل هذا القرن العشرين عيش قبائل البادية ، أو عيشا يشبهه ، كان لكل أسرة فى الريف زعيم أو شيخ يرجع الأمر اليه فيما جل ودق من أمور هذه الأسرة ، وكانت كل قرية تدين لزعيم أكبر أسرة فيها بالطاعة ، فهو للجميع أب يرجع الكل اليه ، ويذعن الكل لرأيه ، وكان عليه بحكم هذه الأبوة واجبات الأب عطفا على الجميع ومعونة للجميع ، وكان لأبناء هذا الريف من الصفات ما ألف المؤرخون نسبته الى البدو : المروءة والشهامة والكرم والحرص على الثأر ، ثم كانت كراهية الحاكم البعيد عنهم أصيلة فى نفوسهم ، لأن هذا الحاكم كان أجنبيا عن البلاد »(١٢) ٠

والى جانب ما أورثته هذه النشأة من أنفة وحياء فقد أورثته استقلالا فى الرأى ، فلم يكن يســتهويه أن يتشـــيع لرأى مهما بلغ الاجمـــاع عليه مالم يتبين الحقيقة من أمره ، والأمور من حـــوله تضاعف من حيرته ، فقد رأى من موقف تركيا فى طابا وحديث اللواء والمؤيد « عن قوة الباب العالى الحربية وقدرته على أن يكبح جماح

(١٢) مذكرات فى السياسة المصرية حـ ١ ص ١٤ ٠

انجلترا فى هذه الناحية من الأرض » فلما انتهى الأمر بتراجع تركيا صدرت اللواء والمؤيد وغيرهما من الصحف تصف « تراجع تركيا بالحكمة والكياسة وبأنه دليل القوة لا دليل الضعف ، حينذاك أيقنت أن المنطق كما أفهمه ليس منطق هذه الصحف وأصحابها ، ولم أر فى هذا المنطق ما يدفعنى الى متابعتها فى الحديث عن سياسة مصر ، واعتقدت أن ما تقوله ليس الا من سبيل المظاهرة ، شأنه شأن ما كانت تقوله عن موقف تركيا فى مسألة طابا ، ووقفت لذلك موقف الباحث عن الاتجاه الصحيح الذى يجب الأخذ به عن اقتناع وبينة »(١٣) ٠

ومثل هذا الاستقلال فى الرأى أدعى الى الحيرة فى أمر يتشيع له المجموع ، وقد واجه حيرة اجتماعية حين دعا قاسم أمين الى تحرير المرأة ورآه على الحق ، بل ان ما يقوله من البديهيات ، فيعجب لموقف الذين ناوءوه ووقفوا فى وجهه ، كمثل ما كان من حيرته السياسية فى مسألة طابا « ولم تكن هذه الحيرة الاجتماعية أقل تأثيرا فى نفسى من الحيرة السياسية ، فقد بدأت أشعر أن متابعة الجماهير هى الطريق السهل ، ولكنها تؤدى أكثر الأمر الى الخطأ »(١٤) ٠

ولكنه يستقيم فى حيرته الاجتماعية على رأى قبل أن يستقيم على رأى فى السياسة ، فيكون أول مقال ينشر له عن « حرية المرأة »٠

ونراه لا يسفر عن رأى فى السياسة وان استقام له رأى فيها ،

فلم يتابع ماذهب اليه زملاؤه فى مدرسة الحقوق من اتهام الجريدة وحزب الأمة بممالأة الانجليز ، « فقد كانت الجريدة تنادى

---

(١٣) المصدر السابق ص ٢٦-٠

(١٤) المصدر السابق ٢٧ ٠

بسلطة الأمة وتطالب بالدستور وبالحرية الفردية • وكانت لذلك ذات نزعة لا شيء فيها من تأييد سلطة الخديو ، ولا من تأييد سلطة الانجليز ، زد على ذلك أنها لم تكن تؤيد تبعية مصر لتركيا » وكان مشربها هذا غريبا عند الجمهور ، لكنه لم يكن فيه شيء من الغرابة عند الصفوة المتعلمة تعليما عاليا ، والتى تريد لمصر استقلالا وحرية نيابية.» ••

الا ان دعوة الجريدة للدستور تثمر ثمرتها وتتابعها عليها الصحف الأخرى « وكم من مرة كنا ، طلاب الحقوق ، نعلو سطح مدرستنا المجاورة لقصر عابدين نهتف : « الدستور يا أفندينا » او نقف على افريز الشارع عند قدومه من قصر القبة الى قصر عابدين لتحيته وللهتاف للدستور فى مواجهته »(١٥) •

ونرى من تاثير لطفى على اتجاهاته الفكرية والثقافية مايفوق تاثيره على اتجاهاته السياسية وان كان على مذهبه السياسى ، فلم يكن فى استقلاله برأيه يسلم الا بما يرى أنه الحق عن تفكير وروية واقتناع • فكم خالف أستاذه فى كثير من المواقف « ولقد ظللت كذلك معه من بعد ، لا أومن الا بما اقتنع به ، ولا يتكيف مسلكى فى الحياة الا بما أومن به » ••

وقد أخذ هيكل على استاذه ما أبداه من حزن ولوعة لوفاة مصطفى كامل ، فقد ذهب غداه مشهد الزعيم الشاب الى سراى البارودى مقر الجريدة ليجد استاذه « وقد ارتدى السواد واشتمل عنقه برباط أسود كبير ، ووقف وكأنه مفجوع فى أعز الناس عليه وأقربهم اليه ، ووقفت مبهوتا أمام منظر لم أكن أتوقعه ، ثم انسحبت ولم ارد أن أطيل السماع لحديث لم أكن آلف من قبل مثله ، لأنه لم يكن حديث المنطق الذى تعودته من لطفى ، بل كان حديث مأتم تجرى

(١٥) المصدر ابلسابق ص ٣٠ •

فيه العواطف أدمعاً أو مايشبه الأدمع ، فلما ظهرت الجريدة بعد ظهر ذلك اليوم ، رأيت لطفى أول داع لاقامة تمثال لمصطفى كامل ، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض الوطنى ، ولم يسعفنى منطقى الشاب بما يرضاه عقلى تفسيرا لما رأيت وما سمعت ، ولم أستطع أن أقنع نفسى بأن السياسة يمكن أن تبلغ من مخالفة المنطق هذا المبلغ ، فكتمت مافى نفسى حتى أفضيت به الى لطفى بعد أيام ، فابتسم قائلا اننى لا أزال شابا لا أقدر مثل هذه المواقف ، ولم يقنعنى قوله ، لأننى لا أستطيع أن أغير شبابى أو أقنع نفسى بمنطق غير منطقها » ..

ولا نرى للحيرة مكانا فى هذا الموقف ، ولا نرى فيه مخالفة للمنطق كما ذهب هيكل فى تفكيره ، ولا أرى فيه ما يبهت شابا نشأ فى ريفنا على ما نعرف من أهل الريف فى مثل تلك المواقف التى تعلو فيها المجاملة على الاحن ويغلب فيها الواجب خلاف الرأى . ولقد كان مصطفى كامل ملء السمع ملء البصر ، وحرك من عواطف المصريين وآمالهم مالم يكن لغيره أن يحركه ..

وما كان للحيرة اذا ما استقامت على رأى أن تجمد على نهج تضيع فيه النظرة الحقيقية لواقع الأشياء ، فليس فيما نرى خلاف فى الغاية والمرمى بين ماذهب اليه مصطفى كامل ولطفى السيد وان اختلف بينهما الطريق الى الغاية فكل ينشد الخير لمصر وكل ينشد لها الاستقلال والحياة الحرة الكريمة ، وقد استطاع مصطفى كامل مالم يستطعه غيره فى بعث روح مصر ويقظة شعبها ، وما كان لطفى السيد فى موقفه الحزين لوفاة مصطفى كامل الا مصريا خفق قلبه بما خفقت به قلوب المصريين جميعا ، وما خفق به قلب صنوه قاسم أمين وكان على خلاف مع مصطفى لعله كان أشد مما كان بين لطفى السيد ومصطفى كامل ، وقد كتب قاسم أمين يقول أن يوم الاحتفال

---

(١٦) المصدر السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

بجنازة مصطفى كامل كان هو اليوم الذى رأى فيه قلب مصر يخفق للمرة الثانية ، أما المرة الأولى فكانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ، ففى هذا اليوم « يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء ، فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر ، هذا الأحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هل الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » ..

ولا نرى هيكل الا مدركا لهذا الواقع فنراه فى ترجمته لمصطفى كامل يقول : « لم يكن عجيبا أن يحرك مصر من أقصاها الى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب ، فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى .. فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الانسانية ، بعث القدر مصطفى بشيرا بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت عالى الكلمة طلق اللسان قوى الجنان حلو الأسلوب يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها ، فكان طبيعيا أن يلتف الظماى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لهم نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ، ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذا ومتنفسا .. »

« لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل، وكان حقا أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشباب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته ، وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر »(١٧) .

---

(١٧) هيكل : تراجم : مصطفى كامل باشا .

وكان بين ما رآه هيكل من موقف لطفى السيد عام ١٩٠٨، وما كتبه بعد ذلك فى ترجمته لمصطفى كامل عام ١٩٢٩ من السنوات ما خفف من حدة الشباب ، وقد التمس لطفى السيد له العذر ٠٠

ولا نرى فى ذلك الا نوعا من الحيرة التى ألمت بهذا الجيل من الأبناء الذين درجوا الى الحياة فى زحام من الرؤى والأفكار التى تتناقض وتتصارع ، ففى حمى هذا الصـــراع الفكرى يسود من التعصب لرأى ما يقابل التعصب لرأى مخالف ٠

وقد رأى هيكل من معالم تلك الحيرة ما بقى قائما حين بدأ يكتب مذكراته فى السياسة المصرية عام ١٩٤٨ فنراه يقول :

« فمصر تتأرجح حتى اليوم بين العقليتين العربية والغربية ، تتغلب احداهما حينا ، وتتغلب الثانية حينا آخر : تتغلب العقلية الغربية فينهض الفكر الحر ، وتنتشر النظريات العلمية ، وتتأثر الثقافة بهما فى المعاهد المختلفة ، وفى المعاهد الدينية نفسها ، وتتغلب العقلية العربية حينا ، فتتحكم العاطفة ، ويسترد الماضى سلطانه ، وتتأثر الثقافة بهما فى المعاهد المختلفة ، وفى المعاهد الجامعية المدنية نفسها ، وهذا التأرجح يحدث حينا بعد حين ، ويثير مناقشـــات حادة ، لها حتى اليوم أثرها الواضح فى اتجاهاتنا العامة ، ويرجو كثيرون أن يوفقوا الى صيغة تؤدى الى اندماج العقليتين ، ولكنهم لم يصلوا بعد الى ما يريدون »(١٨) ٠

ومهما تبلغ الحيرة بالانسان فان حوافزه تنزع به الى شىء ما يبقى قابعا فى حنايا اللاشعور حتى يقذف به الى السطح مايثير ويكشف عن ملامحه وخفاياه ٠

---

(١٨) مـذكرات : حـ ١ ص ١٥ ٠

وكان ما يثور به وجدان الآباء وما يكمن فى حنايا اللاشعور من ضمائرهم غير ما يثور به وجدان الأبناء ، فاذا كان من الآباء أولئك الذين شهدوا الثورة العـــرابية وعانوا مظالم الخديويين من أبناء الفلاحين من يرى حكم الاحتلال خيرا من حكم الخديويين ، فان جيل الأبناء من الفلاحين لا يرى غير الاحتلال ومساوئه وان سمع عن مظالم الخديويين ، فانه لا يرى الاحتلال أقل سوءا من الخديويين ، ولتكن جفوته للاثنين جفوة من لا يرى منهما غير السوء ، وما كان لعبد أن يختار سيده ، فان الأمة المستعبدة يحكمها القوى ، فان هى تابعته وأظهرت الرضا به ، كان شأنها شأن العبد أو شأن البغى وأنا أربأ بمصر أن تكون عبدا أو بغيا » ٠ وهى عبارة قالها هيكل لاستاذه لطفى السيد ، على ما كان من اكباره له ، عندما أخذ لطفى السيد يكتب فى الجريدة مؤيدا الحلفاء ، « وانه يعيب على الألمان بقوة غزوهم بلجيكا واعتدائهم على حيادها ، مع توقيعهم المعاهدة التى تضمن هذا الحياد » وكان الرأى العام فى مصر يتشيع للالمان بينما ذهب لطفى السيد يدعو « لمؤازرة انجلترا وهو الذى دعا من ثلاث سنوات فقط لحياد مصر فى الحرب التركية الايطالية فى طرابلس ٠٠ واذا وجب ، احتراما لاستقلال مصر التزام الحياد فى الحرب التركية الايطالية ، فأوجب منه التزام الحياد فى هذه الحرب البعيدة عن حدودنا والقائمة بين الدول الكبرى »(١٩) ٠

كان ذلك هو وجه الخلاف بين التلميذ واستاذه ، على ما كان للاســـتاذ من مكانة فى نفس تلميذه ، وما كان للتلميذ من الاعزاز والايثار عند استاذه ٠ وكان الاستاذ يأمل أن يظفر رشدى باشا رئيس الوزارة والقائم مقام الخديو من الانجليز أن « يصرحوا بأنهم متى انتصروا فى الحرب جلت انجلترا عن مصر واعترفت باستقلالها التام » ٠٠

---

(١٩) مـذكرات ص ٥٧ ٠

وكانت المقطم قد أخذت تروج لـفكرة رآها هيكل « غـاية فى الخطورة ، تلك أنه اذا خيرت مصر بين من يحكمها من الدول فانها تختار انجلترا ، ورأيت الجريدة تكتب ، وان كانت مخففة فى هذا المعنى ، فقد كانت تذكر أن مصر تريد الاستقلال ، فاذا لم يكن السبيل اليه ميسورا ، وكان لابد لها من أن تحكمها أمة أخرى ، فانجلترا خير أمة ترضاها مصر ، صحيح أن هذا الكلام لم يكن يكتبه لطفى ، ولكنه كان ينشر فى الجريدة ، وهو مسئول عنه »(٢٠) ٠

والفرق بين التلميذ والاستاذ ان كلا منهما يصدر عما يثور فى جوانحه ، ولكل منهما من كوامن اللاشعور ما يسفر عن حقيقته فيما يثور به شعوره ، فقد عاشا كلاهما حقبتين ان اقترب الزمن بينهما الا أن لكل حقبة منهما مؤثراتها ومعالمها المتباينة ، وان لم يكن لهذا التباين أثر فى تقدير كل منهما للآخر ، ولا فى مكانة كل منهما من الآخر ٠٠

ولم يكن لجيل الأبناء من الصوت مايعلو على جيل الآباء فلما كانت ثورة ١٩١٩ انفرد بزعامتها الآباء ووقف الأبناء يتطلعون الى مكان بينهم ٠

---

(٢٠) مـذكرات ص ٥٦ ٠

٢ اليقظـة والاسـتواء

نشأ هيكل فى رحاب القرية وفى أسرة لها مكانتها وزعامتها فى قريتها وفى القرى المجاورة لها فقد اتصلت العلاقات بين أعيان الريف فى الأقليم الواحد ، وقد اتيح لهذا الريف الذى نشأ فيه هيكل فى منطقة تقع على تخوم الشرقية والدقهلية كانت تتبع مركز السمبلاوين أن ينجو من أوضار الاقطاع الملكى ، فكان زمام القرى من الأراضى فى كفر غنام وبرقين واكراش والعصايد ومناحريت وديرب نجم ملكا لأصحابها ، وان أحاطت بتلك المنطقة التى اطلق عليها أصحابها اسم بلاد الجزيرة لخصب تربتها وجودة زراعتها ، تفاتيش الأمراء فى كفور نجم وهربيط وشاوة ، وهى تفاتيش تتعدى مسـاحتها آلاف الأفدنة وتضم قرى عديدة لا يملك أهلها قيراطا واحداً من زمامها .

وقد نشأت فى هذا الريف فى قريتى أكراش ، وكنت أرد نجاتها من طمع الملاك الى بعدها عن الطرق الرئيسية للمواصلات ، وقد ظلت قريتى اكراش الى عهد قريب بعيدة عن أى محط للمواصلات العامة بضع كيلومترات فكنا نمتطى الدواب اذا أردنا سفرا الى أقرب

محطة للمواصلات وكانت لقطار الدلتا من الزقازيق الى السنبلاوين مارا بديرب نجم ومن ديرب نجم الى ههيا مارا بقرية الشوبك البعيدة عن قريتى بثلاثة كيلومترات · وكانت تلك القرى دائرة انتخـــابية واحدة تعاورها نواب حزب الوفد ونواب الأحرار الدستوريين ، وكان الدكتور هيكل كما كان لطفى السيد من قبل ممن خاضوا معاركها الانتخابية ، لطفى السيد للجمعية التشريعية وهيكل لانتخابات مجلس النواب · وكانت قرية هيكل (كفر غنام) كقريتى اكراش تبعد عن أقرب محط للمواصلات بمسافة تقطعها الدواب فى نصف ساعة أو تزيد وفى هذه القرى التى نجت من أوضار الجفالك والتفاتيش الملكية تبرز مكانة الأسرة الكبيرة وزعامة كبير الأسرة والبيت الكبير يرده أهل القرية جميعا ، فصاحبه أب للجميع « يرجع الكل اليه ويذعن الكل لرأيه ، وكان عليه بحكم هذه الأبوة واجبات الأب عطفا على الجميع ومعونة للجميع ·· كما يقول الدكتور هيكل فى وصف نشأته وفيما جاء فى وصفه للريف فى قصته « زينب » ··

ولم يكن التعليم قد امتد الى القرى امتداده فى الوقت الحاضر ولم يحظ بالتعليم فيها غير قلة من أبناء الأعيان ، فاذا بعثوا بأبنائهم الى المدارس فليس أمامهم غير القاهرة ·

وما كان الاحتلال بدوره حريصا على التعليم فحد منه وألغى المجانية وضرب عليه المصروفات ، فلم يرده الا من كان قادرا على نفقاته من الاقامة فى القاهرة لأبناء الريف وأداء المصروفات المدرسية المقررة ، ثم أوقف البعوث الى الخارج ، وأصبح التعليم قاصرا على اعداد موظفى الدولة ··

وكان أبناء الريف ممن يلتحقون بمدارس القاهرة يعودون الى قراهم لقضاء العطلات المدرسية فيقيمون بها طوال (المسامحة) الصيفية لا يعملون شيئا غير تزجية أوقات الفراغ فيما يحبون من

لهو ومتاع ، فلا يطوفون بمزارعهم الا لاهين أو متفرجين ولا يشاركون فى الفلاحة الا متفرجين أو مشرفين على بعض مايحلو لهم من سير العمل ..

وقد نشأ هيكل فى بيئته تلك يقضى عطلته الدراسية بقريته كفر غنام صيف كل عام ، وكان له مزاجه الخاص ، كما يقص على الأستاذ سالم محمود نجم الدين هيكل زوج شقيقته ، وكما عرفته من أبى وكان قد التحق مع أخوته بعده بقليل بمدرسـة الجمالية الابتدائية ثم الخديوية زملاء لأخوة هيكل الصغار محمود وجمال ونعمان هيكل ومنهم من أتم دراسته العالية ومنهم من وقف عند نهاية المرحلة الثانوية مفضـلا الحياة كأعيان الريف ، وكانت لها من جاذبيتها حينذاك مايفوق جاذبية الوظائف الحكومية ..

لم يكن هيكل يقبل على الحقل كما كان يحلو لبعض التلاميذ من ابناء الريف حين يمضون أوقات فراغهم فى الحقل يشـاركون الفلاحين فيما يجدون فيه متعة وتسلية لهم ، فقد كانت ملكاته الذهنية تفوق ملكاته اليدوية ، فكان يقضى وقته فى القراءة أو الكتابة أو فى النظر الى طبيعة الريف أكثر مما يقضيه فى أى مسلاة أخرى ، فيصدر مجلة للقرية دعاها ، الفضيلة » يطبعها على (البالوظة) ثم يوزعها على القراء فى كفر غنام وما جاورها من القرى الأخرى ..

وكان شغفه بالريف كشغفه بالقراءة والكتابة يطوف به مغرقا فى تأملاته ، يستجلى مفاتنه هيمانا بكل مواطن الجمال فيه ، يحسه فى غناء العذارى حين يقبلن على جنى القطن ، ويراه فى (الموردة) حين ترد الصبايا لملء جرارهن ، ويستصبحه فى وجوه الجميلات من بنات الريف وقدودهن المياسة تحت جلابيبهن السوداء الطويلة .

وتظل هذه الصورة ـ صورة القرية والحقل وكيان الأسرة ـ محفورة فى ذهنه وتكون قصة (زينب) رجع هذه الصورة فى نفسه

جميعا ، حين يشتد به الحنين الى الوطن - » والحنين وحده - كما يقول - هو الذى دفع به لكتابة هذه القصة ، ولولا هذا الحنين ماخط قلمه فيها حرفا ولا رأت هى نور الوجود » وزينب هى قصة شبابه « أراها تمثل شبابى تمثيلا صحيحا وان فيها لذلك كثيرا مما أحب ، سواء لأنه دخل عالم الذكرى حتى لأعجز ان حاولت استعادته ، أو لأنه يمثل احلام الشباب وخيالاته مما ابسم اليوم له ، كما ابسم لما أسمع من خيالات وأحلام لشبان هم اليوم فى مثل سنى يومئذ ، ولأنه بعض عزم الشباب ومضائه ، هذا العزم الذى لا يعرف المستحيل بل يعرف كيف يتغلب على كل مشقة ويذلل كل عقبة ويستسهل كل صعب ويحقق كل خيال ، أو لأنه يشدو بموسيقى الصـــبا الحلوة العذبة المنبعثة من كل موجود فى الأرض أو فى السماء ، والتى تتغنى بأهازيج الحب والوجد كما يعرفها الصبا خالية من كل ما يفجع ، طائرة على اجنحة من الأمل الى جنات فيحاء كل مافيها ورد وريحان وحور بل ان الفجائع الشـــباب لشعرا له روعته وموسيقات ، هذا وغيره من صور الصبا المرسومة فى زينب يمثل شبابى ، ولذلك أحن اليوم اليه حنين القلب الى مثوى محبوب ذهب ولن يعود » ..

وحين يؤوب أبناء الريف الى مدارسهم فى القاهرة بعد العطلة المدرسية ، فليس لهم ثمة اهتمام بغير دروسهم . تهم عاكفون عليها عكوفا تاما ، ولم يأخذوا بحظ عملى فى التوجيه السياسى - كما يروى هيكل فى مذكراته : « فلم يكن يدور بخـــلد أحد فى المدارس الثانوية ، تلاميذ وأساتذة ، أن يدعو الى اضراب لغرض سياسى ، ومن ذا يدعو وكثرة الأساتذة فى هذه المدارس الثانوية كانت من الانجليز ، فقد كانت العلوم كلها ، خلا اللغة العربية طبعا - تدرس بالانجليزية ، كانت الرياضة حسابا وهندسة وجبرا ، وكانت الطبيعة والكيمياء ، بل كانت الجغرافيا وكان التاريخ ، ومنه تاريخ مصر وجغرافيا مصر ، تدرس كلها فى المدارس الثانوية باللغة الانجليزية ،

بل كان بعض هذه العلوم يدرس باللغة الانجليزية فى المدارس الابتدائية ، لم يكن طبيعيا ، وهذه هى الحال ، أن يدعو أستاذ الى اضراب ، ولم يكن طبيعيا تبعا لذلك أن تتكون من التلاميذ هيئات علنية أو سرية تدعو الى نشاط سياسى يكون الاضراب مظهره » ٠

وكانت مصر حينذاك وفى أعقاب الاحتلال ، تمر بفترة من المخاض السياسى العسير ، ولم تكن تيارات السياسة ـ كما يقول هيكل ـ « لتلتقى عند أمر يجمع الكل عليه ، فيكون صيحة للشباب والجماهير ، اللهم الا البرم بسلطان الانجليز المطلق فى حكم البلاد ، لكن الوسيلة للتخلص من هذا السلطان كانت موضع خلاف شديد » ٠٠

ولعل السياسة لم تكن مما تعنى هيكل أو تهمه فى تلك الفترة ، حين حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠١ ، وحين انتقل الى المدرسة الخديوية الثانوية ، « ولم يكن يومئذ ـ كما يقول ـ قديرا على تتبع اتجاهاتها ، أو ادراك مراميها » وما كان يشغله وقتها غير دروسه ومدرسته ٠

وبينما نراه لا يحفل بالسياسة وأمورها ، لفت نظره وانظار الناس جميعا ، وأثار ضجة لم تفتنا نحن الصغار يومئذ ، ذلك أن قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف نشر كتابا عنوانه «تحرير المرأة » طلب فيه تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها ، وكان تعليم المرأة يومئذ أمرا ادا ، لا يقدم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصرى له ، أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة الى المجتمعات ، فكان القول به أدنى الأشياء الى تحليل ماحرم الله ، ان لم يكن الى الشرك بالله ، فقد كانت المرأة يومئذ محكوما عليها الا تتعلم ، والا تخرج من بيتها ، الا لضرورة ملحة ، والا محجوبة الوجه ، والمرأة المصرية التي كان يجري عليها هذا الحكم لم تكن

المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة الى مشاركة زوجها فى عمله ، بل المرأة التى يستطيع زوجها أو اهلها أن يعفوها من مشقة الخروج من البيت » ..

وقد ظهر كتاب « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ ولم يكن هيكل قد فارق المدرسة الابتدائية وأثار من الضجة ما أهم الناس جميعا ، ولم يفت هؤلاء الصغار من جيل هيكل ، حتى اذا بلغ الحلم وطرق أبواب الشباب واتم دراسته الثانوية والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٥ وله من العمر سبعة عشر عاما ، لم يكن له « فى أمور السياسة ـ كما يقول ـ ولا فى أمور الاجتماع رأى مكون » وكان همه فى دراسته وفى شغفه بقراءة الأدب العربى قديمه وحديثه .

ولكن المحيط من حوله كان يموج بفكر وطنى جيـــاش كانت مدرسة الحقوق موئله ومنتداه ، منذ التحق بها مصطفى كامل عام ١٨٩١ فأخذ يحرك مشاعر الطلبة ويلهبها بالغضب على الاحتلال ، وحين ينال اجازة الحقوق من تولوز بفرنسا يكون اسمه قد لمع على صفحة الوطنية المصرية وحين يلتحق هيكل بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٥ كانت مصر جميعا تجيش بانفعال وطنى له ضرام ، وكان من الغريب ألا تلفح نيرانه قلب هيكل ..

أكان ذلك لأن « الناشئة فى شبابنا الأول ـ كما يقول ـ لم تكن تأخذ بحظ عملى فى التوجيه السياسى ، بل كانت عاكفة عكوفا تاما على الدرس » ؟

أم كان ذلك لأن أبناء الريف « من أمثالنا يفزعون اذا قيل لهم ان السلطان سيعود كما كان لصاحب السلطة الشرعية ، وأن الغز سيتولون الأمر من جديد ؟ وكانت حركة مصطفى كامل تؤيد السلطة الشرعية وتساندها ، وتتول بعودة السيادة العثمانية على البلاد مما لا يروق لاعيان الريف ولأبنائهم ..

أم كان ذلك لأن الآباء فى هذا الريف المصرى ينشدون لأبنائهم ألا يلهيهم شىء ما عن دراستهم ، فنرى والد هيكل ، حين يضرب طلاب مدرسة الحقوق لأسباب تتعلق بنظام الدراسة ، وكان بالسنة الأولى ، يطلب اليه أن يعود الى الدراسة ، فيأبى قائلاً : « ان ذلك يعرض كرامتى بين اخوانى لمهانة لا أرضاها ، فاما أن تفصل من المدرسة جميعا، أو نعود اليها جميعًا !! ..

ولعله صغر السن هو الذى نأى به عن هذا التيار السياسى وكل تيار آخر ، فلما التحق بمدرسة الحقوق فى السابعة عشرة من عمره ، وألفى نفسه مضطرا الى الاحاطة بتيارات السياسة أكثر من قبل ، لكانت الأحداث السياسية تمور بما يبعث الحيرة ، ولا تطاوعه نفسه أن يمضى فى غمار الجماعة قبل أن يتبين الحقيقة ، وحتى يتبين الحقيقة يعكف ـ كما يقول ـ « على مطالعة اللواء والمؤيد ، لأتابع عن كثب هذه التيارات السـياسية التى انضم اليها كثيرون من اخوانى » ..

ثم تصدر الجريدة ، ويتألف حزب الأمة عام ١٩٠٧ ، ويسرت له صلته الأسرية بلطفى السيد أن يزوره بالجريدة ، ومقرها سراى البارودى بشارع غيط العدة ، فى طريقه حين ذهابه الى مدرسـة الحقوق وحين عودته منها ، ويبدأ يكتب فيها ، « وأبدى لطفى السيد باشا تقديره لأسلوبى ولطريقة تفكيرى فزاد ذلك فى تشجيعى ، وجعلنى أنشر فى الجريدة ما اكتبه » ..

وينتقل به اتصاله بلطفى السيد الى ميادين من الفكر أرحب والى آفاق من المعرفة لم تعد قاصرة على أمالى القالى ، وأغانى الأصـفهانى وأمثال الميدانى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وقراءة المؤلفات العصرية جميعا ، فعدتها الى قراءة « الحرية » لجون ستيوارت مل ، و « العدل » لهربرت سبنسر ، و « الأبطال » لكارليل ،

و « الثورة الفرنسية » لكارليل كذلك ، « هذا الى كتب فى الأدب الانجليزى افسحت امامى آفاقا لم يكن لى من قبل بها عهد » ··

ولا اعتقد أن هذا كان أول عهده بالفكر الأوربى ، فقد اتصل الفكر المصرى بالفكرى الأوربى منذ سنوات بعيدة ، وترجمت بعض آثاره الى العربية منذ رفاعة الطهطاوى ، ولكن لطفى السيد بدأ يوجه قراءاته الى ما يكون تفكيره وعقله التكوين الثقافى الذى يراه جديرا بشاب نابه يطرق أبواب المعرفة الرفيعة التى تتصل بروح العصر ، والتى يراها الزم ما تكون للعقل المصرى فى تطلعه للحرية والاستقلال والعدل الاجتماعى ، وهى الى غير ذلك من روائع التراث الانسانى منذ صدرت وحتى وقتنا هذا ·

ويسافر هيكل الى فرنسا لدراسة الدكتوراه كما وعده لطفى السيد منذ اختار له دراسة الحقوق · ويكون يوم وصوله باريس عشية عيد الحرية فيرى كيف يحتفل الفرنسيون بيوم الحرية وسقوط الاستبداد ، ويطالع فى مدينة النور « حرية الأفراد وحرية الوطن مجسمتين أمام عينى على نحو لم آلفه فى وطنى قط ·· » ·· وألوانا من الحياة تفسح أمام النظر آفاق التفكير ، وتزيد الانسان ايمانا بحرية العقيدة والرأى ، وبأن التعصب ذميم ، وان أول واجب على الانسان أن يديم البحث عن الحقيقة ، ولا يكتفى بما يظن أنه وصل اليه منها ، بل يجعل دأبه تقليب هذا الذى وصل اليه ، فينفى عنه ما يعلق به من زيف ، ويرى من خلاله آفاقا جديدة لهذه الحقيقة العظمى تتراى لنا من وراء الحجب ، فاذا هتكنا بعض هذه الحجب اليها بهرنا ضياؤها ، وجعلنا نقف أمام جلالها خاشعة أبصارنا من

فرط هذا النور الذى تواجهنا به ، واذا رجعنا الى انفسنا وحاولنا تصوير ما رأينا ، عجزنا عن هذا التصوير كاملا ، واكتفينا منه بما كان أشـــد لفتا لنظـــرنا من هذه الحقيقة العظيمة ذات البهـــاء والجلال » ٠

وفى فرنسا تنكشـــف له معان جـــديدة ، وقيما أخرى للحياة وللعلاقات الانسانية ، ولعل ابرز ما دعاه منها ، أن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، كما نقول ، وان كنا لا نعمل به ، وقد أدرك تلك القيمة من قيم التربية الأخلاقية والاستواء العقلى منذ شبابه الأول ، فقد كان يرى « أن الخلاف فى الرأى ليس معناه الخصومة ، ورأى من ذلك فى فرنسا وانجلترا مازاده ايمانا بها ، فالناس يختلفون فى الرأى وفى العقيدة » ثم لا يجنى الخلاف على ما بينهم من موده ، ولا يجعل أحدهم يسفه رأى الآخر فى الشئون القومية العامة أمام الأجانب عن بلادهم ٠٠ واذا كنا نعيب التعصـــب الدينى ألا يكون التعصب الأعمى للرأى السياسى أجدر باللوم بل بالتجريح ؟ »

وعاش هيكل طوال حياته مؤمنا بهذه الحقيقة ، فما أكثر ما خاض من معارك السياسة لا ينبو له لفظ ولا يترخص فى كلمة ، فتنزه قلمه عن الشطط « وعن الخوض فيما لا يليق بكرام الرجال أن يخوضوا فيه ـ كما يقول الدكتور طه حسين فى رثائه ـ فلايستطيع خصم من خصوم هيكل ان يقول انه آذاه بلفظ جارح ، وانما يستطيع خصوم هيكل ان يقولوا انه آذاهم بمناقشـــته ومجادلته فى الرأى والتفوق عليهم فى الخصام والجدال غالبا ٠٠ » ٠ ٠

ولا أرى فى وصف خلاله ـ كما أعرفها ـ أصدق مما وصفها به « محمود تيمور » فى محفل رثائه ، فقد « اتيحت للدكتور هيكل ـ كما يقول ـ فى مطلعه نشأة طيبة ، واتفقت له فى شبيبته صحبة كريمة، فاكتسب من الخصال الاجتماعية صفوة مهذبة أعانته على أن يكون مثلا لرجل السياسة الرفيع ·· لقد صاحب عبد العزيز فهمى ، ولطفى السيد ، وعدلى ، وثروت ، ومحمد محمود · وأضرابهم من رجالات تفرد كل منهم بعبقرية خاصة ، وامتازوا جميعا بعظمة النفس ومتانة الخلق » ··

« أظهر ماتجلى من أخلاق الدكتور هيكل أنه رحب الصدر ، مرن فيما يواجه به الأحداث ، متواضع صادق فى تواضعه ، وديع أصيل فى وداعته ، وربما كانت هذه الخصلة مثار مانشب من نزاع بينه وبين مطالب الزعامة فى سلطانها الغلاب » ·

« عاش الدكتور هيكل زكى النفس ، وصاحب النفس الزكية يظفر بجوهر الصداقة فى نفوس الناس ، ولقد ظل الرجل صديق جيله ، سواء من خاصم ومن ناصر ·· وما أعرف بين معاصريه نظيرا له ، خاض معمعة الخلاف فى الفكر والأدب والسياسة ، وظفر بالوفاق على تقديره واكباره من الساسة والأدباء والمفكرين » ·

« عركته خصومة الفكر والأدب بين المجددين والمحافظين ، وخصومة السياسة بين معسكرات الأحزاب ·· وعلى الرغم مما كان يتخلل هذه الخصومة أو تلك من حدة وعنف ، فان الدكتور هيكل لبث فيها بارئا من الحقد والضغينة ، وخرج منها لا يحقد عليه

سياسى ، ولا يضغن عليه مفكر أو اديب ·· ذلك لأن معاصريه عرفوا فيه عفة المقال ، ولمسوا منه شرف الهدف ، فما عهدوه متهافتا على ممالأة الأنصار ، ولا مسفا فى مناهضة الخصوم ، وانما كان صاحب حجة ، ورائد فكرة ، وداعيا الى رأى ، ومتطلبا لا قناع » ··

ولا نرد تلك الخـــلال الى ماردها اليه محمود تيمور من الصحبة الكريمة ، فقد فاقهم جميعا فيها على ما بلغوا منها أكرم مايتصف به انسان ، ولكنه رأى فيما جبلوا عليه ما جبلت عليه نفسه ، فقد كانت القرية ، وكانت النشأة ، وكانت عصبية الأســرة وسيادتها والبيت الكبير ، والرجولة الباكرة لمن وهب من الذكاء ما وهب من اكبار ، فكان فى علوه فى غير حاجة الى التعالى ، وكان فى كبريائه فى غير حاجة الى التكبر ، ولئن وصفهما فيما قاله عن نفسه بالأنفة والحياء ، فما كانت الأنفة الا علوا فى النفس وفى مدارج السلوك ، وما كان الحياء الا سموا بالنفس والسلوك عن كل أسفاف أو حقد أو تهافت ، ومن خلال الكبير ألا يسف ، ومن سمات القوى ألا يحقد ، ومن أخلاق العزيز ألا يتهافت طلبا لكسب أو منفعة ، أو حبا فى جاه أو سلطان ·

واننى لأعرف عنه انه كان حفيا بالقيم حريصا على قواعد الأخلاق ، مترفعا فى غير تكبر ، عظيما فى تواضع ، حانيا فى حزم ، صريحا دون شماتة أو اذلال ، عفا فى غير مين أو اجتراء « شفوقا دون تدليل ، صلبا فى الحق ، شجاعا فى غير صلف ، يعلو لديه الواجب ويراه حقا لكل صاحب حق ، مرنا فى غير عناد ، فما أن

يتبين الحقيقة حتى ينشدها ويسعى لها وان خالفت ما كان منه أول الأمـــر ، وكان لــه من الحجــة والقــدرة على التدليــل وبراعة المنطق أعظم عون له فيما ينافح عنه من قضايا · وبقدر ما كان يؤمن بحرية الكلمة لنفسه يراها حقا لغيره وان ذهب غير مذهبه، وكان يرى حرية الصحفى فى حرية رأيه · ففى سفره الى أوربا قام الدكتور محمود عزمى مقامه على تحرير السياسة وكتب مقالا عد عيبا فى الذات الملكية ، فقدم للمحاكمة ، ورأى الملك فؤاد أن يكتفى باعتذار الكاتب حتى لا يقال أن هناك خارجا على ارادة الملك ، فما أن آب الدكتور هيكل من رحلته حتى عرض عليه الأبراشى باشا ممثل القصر أن تنشر السياسة اعتذارا تنتهى به الدعوى ، وقدم له صيغة الاعتذار وقرأ فيها الدكتور هيكل اعترافا بخطأ الكاتب ، وأبى أن يكون الاعتذار اعترافا بجريمة قد يكون الكاتب بريئا منها · وقال الابراشى باشا : « تذكر يادكتور هيكل أن هذه المسألة تتصل بمقام جلالة الملك » ورد الدكتور هيكل قائلا : « وأرجو الا تنسى ياباشا أننى فى موقف دفاع عن كرامة الصحافة » ·

ويقص الاستاذ محمد زكى عبد القادر من ذكرياته معه هذه القصة :

«دخلت عليه ذات مرة وكان قد عهدالى أن أعمل سكرتيرا لتحرير السياسة والسياسة الأسبوعية ، فسألنى عن مقال معين لأحد كبار الكتاب حينئذ ، لماذا لم ينشر ، فأبديت له وجهة نظرى ، وأصررت على أنه ليس صالحا للنشر ·

قال رحمه الله : ولكننى أرى أنه يجب أن ينشر ·

أجبت فى حدة : لن ينشر ··

قال : لاباس سانضم اليك فى التصميم الأول حتى لا اصدمك فى صلابة رأيك ، ولكن انظر ·· أنت تشتغل معنا منذ سنتين وهو يشتغل معنا منذ سبع سنوات ، أنت تخرجت فى الحقوق منذ سنتين وهو تخرج فى الحقوق منذ خمس عشرة سنة ، انه يصلح أن يكون أستاذا لك · ثم أرجو ألا تجعل نفسك عبدا لرأيك ·

واحسســـست أن حدتى تذهب وقلبى ينبض بحب عجيب لهذا الرجل ، وأدركت أى طراز من الناس هو ؟

قلت : سننشر المقال ··

ضحك وقال : على أن يكون برأيك أنت وليس برأيى أنا

قلت : وانه لكذلك ··

ويمضى الاستاذ محمد زكى عبد القادر فى ذكرياته ، وقد درج أول خطاه فى السياسة صحفيا ، وكان من القلائل الذين تتلمذوا على يد الدكتور هيكل ، فيقول أنه كتب المقال الافتتاحى للسياسة فى يوم تغيب فيه الدكتور عزمى الذى يقوم بكتابته ، فلما لقى الدكتور هيكل اثنى على ماكتبه مشجعا ، وقال : أرجو أن يأتى اليوم الذى تكتب فيه « حديث اليوم » بدلا منى ، وكان الدكتور هيكل هو الذى يكتب « حديث اليوم » أما الدكتور عزمى فكان يكتب المقال الافتتاحى ·

ويقول الأستاذ محمد زكى عبد القادر : « أى تشجيع ؟ أى قلب كبير يسع ناشئا لايزال يتعثر ، فيرفعه الى ما تكاد عيناه لاترتفعان اليه » ··

« وضقت ذات يوم بالصحافة وشعرت أننى أسأت الاختيار فى توجيه حياتى ، وأفضيت للدكتور بما يجول فى خاطرى ، وقلت له : ليتك تساعدنى على الالتحاق بالنيابة ، ان ترتيبى فى الليســـانس متقدم ، كل ما أرجوه أن أحصل على حقى » ··

« قال الرجل فى بساطة كانت هى جوهر شخصيته · أنت ندمت بعد ثلاث سنوات ، وأنا نادم الآن بعد ثلاث وعشرين سنة ، لقد كنت محاميا فى المنصورة ، اكسب الكثير ، وأقضى الصيف فى أوربا كل عام ، ولما عرضوا على رياسة تحرير هذه الجريدة قبلت ، وهاانت ترى الى متى نسهر ، ولكن الذى لا تعرفه وان كنت لابد تحسه ، المتاعب التى لا حد لها التى القاها من العمل الحزبى ، ثم هاهى ذى مضايقات الحكومة ، تحقيق وتعطيل للجريدة ، اجبارا لنا على أن نتخذ موقفا معينا ، ولكننا لن نفعل ، ان الندم لا جدوى منه ، وثق أن اختيارك الصحافة جاء بتوجيه خفى ، فلا تهرب من حظك ، كما لا أحاول أنا الهروب من حظى » ··

اذن فهو قدر على الانسان أن يسلك طريقا معينا ، أذلك هو ايمان الدكتور هيكل ؟ انه كثيرا ما يرد الأمور الى ارادة عليا ، وكثيرا ماكانت تتردد على لسانه وفى كتاباته عبارة « الخيرة فيما اختار الله » ·

بعد نيف وأربعين عاما يكتب زكى عبد القادر قصته « ارادة أم قدر » يثبت فيها أو يريد أنه يقول أن الانسان لا يملك لنفسه شيئا ، وانما هو لعبة فى يد القدر يصرفه كيف شاء ·

وكان أول ما يكتب هيكل من بحوث الفلسفة عن « القدرية والجبرية » وينشرها تباعا فى مجلة المقتطف عام ١٩١٧ ، يرى فيها : « أن الاختيار معدوم من الوجود جملة وانما تصرفنا قوانين مرتبة نعرفها ومصادفات واتفاقات ربما كانت تسير على قوانين لا نعرفها » ·

وليست باريس هى التى زودته بتلك السجايا والخلال ، وانما زودته بها نشأته وحياته فى ريف مصر وفى أسرة لها عصبيتها ولها

جاهها ، وفى طبقة أخذت تحتل مكانتها الى جانب طبقة الذوات التركية وبين تيارات فكرية وسياسية لم تستو بعد على وفاق يختلف عليها القوم فيؤيدها فريق وينبذها فريق آخر ، والموجة الغـــربية تصفع عقول الناس فتتركهم حيارى بين مامن يشدهم اليه وحاضر يبهر عقولهم كما يغشى أبصارهم فحيث تتجلى الحقيقة تغيم الرؤية ، وبقدر مايضىء العقل بنور الحقيقة بقدر ما تزول غشاوة البصر ، ولا يرى نور الحقيقة الا من أوتى من الذكاء والقدرة على التحليل والاستقراء مايهتدى به الى المنطق الذى يستقيم عليه الفكر ، ويهتدى واقع الأشياء وطبائع الأمور ··

وحين قصد باريس كان الواقع قد أيقظ عقله على حقائق لم يعد من سبيل الى نكراتها أو التصدى لها أو الحملة عليها ، هى التى حملت لطفى السيد على الخروج من عزلته الســياسية التى ضربها على نفسه منذ اختلف مع الخديو ، فقد جاء حادث طابا بعد حادث فاشودة والاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ليقضى على كل أمل للمصريين أو النابهين منهم فى تركيا أو فرنسا ، ولم يعد غير الاعتماد على أنفسهم ، كما رأى لطفى السيد منذ سنوات ، واستبان لهيكل فاستقام عليه وجدانه وفكره السياسى حتى أصـــبح تلميذ الجريدة الأول فى دعوتها وفى ايثاره لها دون الصـــحف الأخــرى بالكتابة فى وقت كان أقرانه وأدباء جيله كالعقاد وطه حسين يتلمسون طريقهم بينها وبين غيرها من الصحف الأخرى ، وكان قد أقبل من قبل على قاسم أمين ورآه على الحق فى دعوته ، كما رأى فى نهج الأفغانى ومحمد عبده دعوة للتجديد وللرأى الحر ولنبذ التقليد ، واستوى له من فكر الغرب زاد غير قليل ·

وفى فرنسا لم يكن له منها الا مايزيده ايمانا بما استقام عليه فكره ووجدانه ، ولم يكن لها من أثر عليه الا أن تصقل فكره وتزيده لمعانا ، فنراه يقبل على الفكر الفرنسى يعب منه ماشاء له وقت

الفراغ ونشوة المعرفة ، ولم تكن ساعات الدرس لتشغل كل وقته ، وفى غيرها يقرأ كل مايستهويه من كتب الأدب وألوان المعرفة فتفتح عينيه على آفاق جديدة أخذ يرود بها من بعد ثورة الأدب والفكر فى مصر ليجتاز بها حيرة غالته زمنا وامتدت معه طويلا أكثر مما امتدت حيرته السياسية والاجتماعية حتى أستقام فيها على رأى وقصد بعد أن انتصف به العمر وبعد أن ترك فرنسا بنيف وعقدين من الزمان ٠

وتحمله دراسته للدكتوراه بعد أن اختار لها موضوع « دين مصر العام » الى قراءة « كل ما كتب عن مصر الحديثة من عهد محمد على راس الأسرة العلوية ، وأعيد النظر فيما سبقت لى قراءته قرأت ما كتب بالانجليزية وبالفرنسية ، وقرأت الوثائق الرسمية فى الكتاب الأصفر الفرنسى ، والكتاب الأزرق الانجليزى ، وراجعت بعض الكتب العربية كتاريخ الجبرتى وتاريخ ابى اياس ، وراجعت الوثائق الرسمية التركية والمصرية فى قاموس الادارة وبعض سجلاته ولم أترك كتابا استطعت الاستفادة منه لموضوع رسالتى الا قرأته ، وكنت أقرأ هذه الكتب والوثائق جميعا بشوق وشغف ، واقتطف منها مايفيدنى بدقة وعناية ، وكنت لذلك اشتغل منذ السـابعة صباحا بغرفتى فاذا كانت التاسعة ذهبت الى مكتبة كلية الحقوق أو المكتبة الأهلية فى باريس ، وكنت أتناول وجبة الغداء على مقربة من أى هاتين المكتبتين ، ثم أعود لأتم ما أطالع وما اقتطف حتى المساء ، وبعد أن أتناول طعام العشاء وأقضى سويعة فى مقهى ، أتناول قهوة وأسمع الى الموسيقى ، أعود الى مسكنى فأراجع ما اقتطفته وأنقده، وأؤلف بين المؤتلف منه ، وأظهر اختـلاف المختلف ٠ فقد كانت الحوادث والوثائق تؤول عند كل مؤلف حسب هواه السياسى فى الموقف الذى كتب فيه ، وكان تاريخ مصر لذلك مضطربا أشـد الاضطراب ، يكتبه الفرنسى على نحو ، والانجليزى على نحو ،

والمصرى على نحو ، أما وقد درسنا نحن هذا التاريخ على الصورة التى أرادت السياسة البريطانية أن تضعها ، فكان لزاما على أن أتقصى الحقيقة ما استطعت ، وأن أرسم أمامى صورة لهذا الوطن فى القرن الذى ولدت فيه استطيع من خلالها أن أتبين الحق من أمره ، وأن أترسم الطريق الذى سار فيه حكامه الأجانب عنه ، وابناؤه الخاضعون لاستبداد هؤلاء الحكام ، وما اقترفه هؤلاء وأولئك من خير وشر ، وقد أعانني على ذلك حب عميق لهذا الوطن ، وحرص على الحقيقة العلمية المجردة من الأهواء والشهوات ، يضاف الى ذلك زهو شاب يريد أن يجيد كل الاجادة وان يتقن غاية الاتقان » ٠

وكان لهذه المطالعات ــ كما يقول ــ اثرها الكبير فى اتجاه تفكيره فى سياسة بلده ، وتقديره ، « لما يجب على أبنائها عمله لخيرها»(١) ٠

أما وقد أم فرنسا على فكر استقام عليه عقله ووجدانه ، فقد كان عليه أن يقارن بين مايرى فى فرنسا وما خلفه وراءه فى مصر ، فنراه يتملى كل جديد ويتأمله ، ينظر الى الناس فى أفراحهم وأتراحهم وما يشغلهم من أمور الدنيا ، وكيف تستوى علاقاتهم الخاصة والعامة وكيف يثور الجدل بينهم فيما يعينهم من أمور عامة فلا ينتهى الجدل الى شقاق أو خصومة أو هجر فى القول أو لمز بالاتهام ، ولا يجنى الخلاف على ما بينهم من مودة ، ولا يسفه أحدهم رأى الآخر ، وانما يقرعه بالحجة والدليل والبرهان ليثوب الى رأيه ، أو يقيم عليه الآخر الدليل فيسلم له ، ايمانا من كليهما بحرية الفكر وحرية الرأى والعقيدة ٠ « وبأن التعصب ذميم » ٠ كما يؤم المتاحف والمنازه ليرى بناء الحضارة وكيف يستمتع الناس بوقت الفراغ ٠ ويختلف الى المسارح والندوات فيرى من اقبال الناس مايزيده ايمانا بجلال الفن

(١) يرجع فيما بين الأقواس لمذكرات فى السياسة المصرية ٠

ونبل المعرفة • ويأسى حين يرى فى مدرســـة العلوم الاجتماعية ، الفتيات والسيدات « أمامى ومن خلفى وعن يمينى وعن يســـارى يستمعن منصتات ، وليس ذلك بالغريب •• وانما أكتب ما كتبت لما جال بخاطرى فى تلك الساعة حين ذكرت نساءنا وحجابهن ، حين ذكرت سجنهن المؤبد ، أو مدارتهن وجوههن لا أدرى خجلات مم ؟ ذكرتهن وذكرت أنصار الحجاب الذين يخشون أن يخدش أحساسهن أو يمس شرفهن وهن قاعدات عقر دورهن ، أو دائرات فى الشوارع يقطعن وقتهن فى لاشىء ، ويبعدهن عن كل حركة فيها •

أما انقضى بعد عصر الظلمة فى بلدنا ، أم نحن لانزال نرزح تحت أثقاله وأعبائه ، فرجالنا عبيد الحكومة ، ونســاؤنا رقيقات الرجال ورقيقات الوهم • أما كفى مافات من تلك الأيام المحزنة لنخرج الى حياة جديدة نتمتع فيها بشىء من الحرية والحياة »(٢) •

وكانت حرية المرأة وسفورها مما يؤرقه قبل ذهابه الى باريس، وقد رأى فيها ما زاده ايمانا بحريتها وحقها فى التعليم ، وكان حالها مثار نقاش بينه وبين رفيقه فى الدراسة « بهى الدين بركات » وكان قريبا من مشربه « وظللت وبهى الدين نتحدث فى حال المرأة عندنا مدة ليست بالوجيزة من الزمن ، تلك الحال التى لا يفرغ القول منها والتى تثير فى القلب من دواعى الشفقة على الأمة بأسرها ما يذيبه ، حال الانفصال الدائم بين الجنسين مع وجوب اتفاقهما وتعارفهما ، حال انحطاط المرأة الى حضيضها المشين ، حال جهلها ، وفوق كل هذا طريق الزواج السيئة والتى لا تدع لرجل مجالا فى أن يكون قديرا على معرفة المرأة التى سيكون لها زوجا ، الا أن يعرف اسمها ساعة العقد وينظر وجهها بعد اجتماعهما فى منزل واحد » •

(١٢ ، (٣) ، (٤) مذكرات باريس مخطوطة لم تنشر •

« والواقع الذى لا يمكن انكاره أن كل شيء عندنا دخلت فيه مصلحة من مصالح المرأة ، أو تعلق به أمر من أمورها هو ناقص نقصا جوهريا ، فكأن المرأة عندنا عنوان النقص فى كل ما يختص بها ، أو يكون لها يد مهما تكن ضئيلة فيه »(٣) ٠

وكثيرا ما كانت تدور مثل ذلك الأحـــاديث بينه وبين رفاق الدراسة فى باريس ، فيطرق الحديث الطلاق ومساوئه كأن « يحلف أحدهم بالطلاق ثلاثا من امرأته فاذا ثاب له رشده ورجع اليه عقله اعتوره الندم وحاق به خبال شديد ، ولكن ماذا يفعل وقد خرجت زوجته من عصمته وحرمت عليه حرمة لا ينفيها الا ما هو أشد منها حيث يلجأ الى مثل فرية المستحل القبيحة ، مثل آخر من نتائج طريقة الطلاق عندنا ما يجره على الأولاد من الشـــقاء الدائم ويبعثه فى نفوسهم من الشعور بالوحشة الشديدة ما يسدل على ثوب حياتهم الجميل شعارا من سواد الحزن المقيم ٠٠ ولو شئنا أن نعد شيئا من عيب التشريع فى ذاته لعددنا كثيرا ، لعددنا كيف يقع طلاق السكران أو المكره ، لعددنا كيف يقع الطلاق ثلاث مرات لمجرد أن يقول الرجل ثلاثا »(٤) ٠٠

ولكن ليس كل مايراه فى باريس خيرا ، فكل مايراه « فى حركة البلد الكبيرة وفى أعمال الأمة الضخمة الواسعة ما يحوى شيئا كثيرا مما أشـــهد للقوم فيه بالنبوغ والتفوق ، كما أن لهم من الأغلاط والخطأ ، وعندهم من مواضــــع النقد مالا يغيب عن النظر ويرى الانسان عيانا بيانا أنهم أبعد عن مصرنا تقدما فيه » ٠ ٠

الا أن صورة مصـــر تبقى ماثلة لديه فى كل مايرى ، فحين يجول مع صديق بمنطقة اللوار بفرنسا ، وينتقلان من بلد الى بلد ومن قرية الى قرية على الدراجات ، « فاذا وقعت أعيننا على مايؤذى العين لمنافاته مقتضيات النظافة أو الذوق عددنا هذا اســــتثناء ،

ووجهنا اللوم من أجله الى القائمين بأمر هذا البلد أو هذه القرية أما والاستثناء فى فرنسا هو القاعدة فى مصر ، فما كان أشد حزنى وألمى ! وزادنى حزنا أن طبيعة فرنسا ليست أجمل من طبيعة مصر وان أرض فرنسا ليست أكثر من أرض مصر خصبا ، وأن من اليسير أن تصبح الحياة فى مصر جميلة عزيزة اذا رعاها العلم السليم والخلق الكريم بعين ساهرة ، ولكن من لمصر بهذه العين وهذا الخلق وأمرها ليس لأبنائها » .

واتيح له بعد أشهر أن يقضى الاجازة الدراسية بمصر « وأن أشهد من حياة ريفنا المصرى أكثر مما شهدت من قبل ، كان لطفى بك السيد عضوا بمجلس مديرية الدقهلية وقد فكر فى زيارة مدن المديرية وقراها ليرى حالة التعليم الأولى بهـا ، ويقترح مايراه لأصلاحه ، وللقيام بهذه المهمة ترك القاهرة وأقام ببرقين ، وكنت مقيما اذ ذاك بكفر غنام ، فطلب الىّ أن أصحبه فى جولاته بهذه القرى فكنا نلتقى كل صباح بأقرب القرى على الطريق الذى نسير منه الى ما يريد لطفى بك أن يراه من كتاتيب القرى الأخرى ، وكان كل واحد منا يمتطى جواده فنسير من بكرة الصباح ولا نعود الا فى المساء ، بل فى منتصف الليل فى بعض الأحيان ، ولبثنا كذلك قرابة أسبوعين ، وأشهد لقد حز فى نفسى ما رأيت من حال ريفنا ، فكم من بيت عمدة دخلناه ، ونحن نعلم أن صاحبه على جانب من اليسار ، فاذا البيت ادنى الى منازل أشد الطبقات فقرا ، لولا مظهر بسيط يحرص العمدة عليه فى غرفة من الغرف يستقبل فيها الحكام على تعبيرهم ، أما الأولاد فى الكتاتيب فكان ملبسهم وكانت هيأتهم يؤذيان العين ، والطرق فيما بين القرى لا تتسع لأضيق العربات تسير فيها ، وكلها التراب يثير غبارا كلما سار فيه حيوان ، وليس هذا كله نتيجة الفقر ، بل هو نتيجة الجهل ، ونتيجة الخوف من الظلم خوفا يجسمه الجهل فيجعل الانسان ينكر نفسه ويأبى أن يظهرها فى خير مظاهرها » ..

وقد يبدو هذا القول غريبا فكيف يغيب على هيكل ما رأى من بؤس هذه القرى وهو ابن القرية وربيبها ، الا أن تكون قريته غير القرى التى أمها فى تجواله ورآها مع استاذه ، وتلك حقيقة قد غابت عن الكثيرين كما ولعلها قد غابت عنه هو الآخر ، فقد كانت قريته حقا غير العديد من القرى الأخرى التى يمتلىء بها ريف مصر ، فهى من القرى القليلة التى نجت من الاقطـــاع العلوى حين أوقف محمد على أجود الأراضى وأخصبها فى مصر على آله وأبناء أسرته فكانت تلك الجفالك والوسايا الواسعة التى عرفت فيما بعد بدوائر الأمراء قسمت الى تفاتيش كل تفتيش على رأسه المفتش وتحت يده عدد كبير من الموظفين يديرون هذا الاقطاع الواسع لا تقل مساحته عن عدد من الآف الأفدنة ، فاذا قلت عن الألف فهى مأمورية على رأســـها مأمور بدل المفتش ، وكثير ما كان موظفوا هذه الدوائر والتفاتيش يتوارثون هذه الوظائف أبا عن جد وكل فى الوظيفة التى كان عليها أبوه حتى يثبتون على حال واحد ولا يخضعون لأسباب الحراك الاجتماعى الا اذا كان الى الأدنى مالم يكن للموظف من المواهب ما يسر له الأمير صدفة أو عابر ســـبيل • وكانت قراها أكواخا وبيوتا قميئة من الطين ولم يكن العمدة فيها من ملاك الأرض وان آثره الاقطاع بقطعة من الأرض يستغلها ولا يملكها مقابل ايجار بسيط • وقد ثارت بعض هذه القرى على هذا الوضع قبيل ثورة ٢٣ يوليو ، وخاضت بعض الصحف فى ثورتها وأبرزتها ، وقد عرف أمير من الأمراء بسوء معاملته لفلاحيه هو الأمير يوسف كمال حتى كان يلقى بما يتبقى من مآدبه للحيوان ويحرم منه الانسان وكان يملك تفتيشا واسعا فى الصعيد ••

وكانت تلك السنوات التى نمت خلالها طبقة أعيان الريف أزهر سنوات القرية المصرية التى سادها أربابها وكان زمامها لأهلها ، فقد أخذ هؤلاء الأعيان يقيمون المساكن المريحة الأنيقة ، وبدت تلك

القرى أحسن حالا من المدن وأطيب حياة ، وكان سـكان المدينة ينشدون دائما خيرات الفلاحين ويتطلعون اليها ، وكثيرا ما كان الموظفون من أبناء القرى يبنون لأنفسهم (الفيلات) تحيط بها المنازة يهرعون اليها فى اجازاتهم وأوقات فراغهم ، فلما عمت الكهرباء المدن وامتدت الى البيوت شبكا تالمياه تميزت المدينة على القرية وأصبحت أطيب حياة فهجرها أعيانها اليها ، ولما عرف المصريون مصايف الشواطىء على سواحل البحر فى رأس البر والاسكندرية وكانت قد بدأت تجذب المصيفين اليها بعد امتداد الكورنيش ، بما فيهم أبناء الريف من الأعيان والموظفين ، فأهملوا مساكنهم فى الريف وأصبحوا أقرب الى ذوات الترك لا يعرفون عن القرى الا انها مورد للدخل يحمله اليهم فى المدينة من يزرعون لهم أراضيهم أو من يؤجرونها لهم ٠٠

ولم تفارق مصر خيال هيكل طوال سنوات الدراسة فى باريس فهو يطالع اخبارها ويتابع أمورها مع زملائه من المصريين من أعضاء بعثة الجامعة المصرية الوليدة كمحمود عزمى ، ومنصور فهمى ، وسيد كامل ، ومحمد توفيق الساوى ، وحسن فؤاد الديوانى ، ومحمد ولى الدين ومحمد كمال وكانوا أول من بعثت بهم الى فرنسا لدراسة الآداب والحقوق والطب ، أو ممن ذهبوا للدراسة على نفقتهم الخاصة كبهى الدين بركات وكان أقرب الزملاء الى قلب هيكل ومصطفى عبد الرازق وعبد الحميد سعيد ، وكان لكل منهم دوره البارز فى تاريخ مصر فيما بعد ٠٠

وكلفته الجريدة أن يمثلها فى مؤتمر بروكسل الذى دعا اليه زعيم الحزب الوطنى محمد فريد لينير الرأى العام الأوربى عن الحالة فى مصر ، وأن يوافيها بأخباره ، وكانت بلجيكا تحتفل بعيد استقلالها فوقف مع عثمان بك غالب يشهدان العرض العسكرى ، وكان عثمان بك « استاذا بمدرسة الطب سنوات عدة ، ثم استقال وأقام بباريس

شيخا أحالت السنون سواد شعره بياضا مهيبا ، وتركت على محياه غضونا تحدث عد ماضيه الجليل ·· فلما بلغ الشبان والفتيات من نشيد الاستقلال عباراته الحماسية ، رأيت الرجل المصرى الشيخ تنهل من عينيه عبرات تنحدر بين غضون وجهه ، فلما فرغ أبناء البلجيك من نشيدهم سألته : ما باله ؟ فكان جوابه : اننى أبكى لأننى لا أرجو أن أعيش حتى أرى مصر تحتفل مثل هذا الاحتفال بحريتها واستقلالها · وقد ترك هذا المنظر كله ، وهذه العبارة من فم ذلك الشيخ الجليل أثرا فى نفس لا تمحوه الأيام » ··

وأخذ يوافى الجريدة بما رأى ، فى موضوعية ـ كدأبه طوال حياته ـ لا تشوبها نعرة حزبية ، وشكره زملاؤه ممن يتشـــيعون للحزب الوطنى على ما نشره بقلمه فى الجريدة « فقد كانوا يظنون أن ما أخالفهم فيه من رأى سيظهر أثره فيما أكتب ، فلما قرأوه ورأونى أسمو بالشئون الوطنية العامة عن المنازعات الحزبية ، وأرى المصريين خارج بلادهم لا أحزاب بينهم ، قدروا هذا الموقف الذى رأيته أنا طبيعيا ، ورآه كثيرون سموا بالخصـــومة عن مواقف لا تحتمل الخصومة » ·

ويفصح هيكل عن طبيعته التى درج عليها منذ بواكير شبابه ، فى تقديسه لحرية الرأى ، ومايراه حقا للآخرين كما يراه لنفسه ، فيقول : « كنت أرى أن الخلاف فى الرأى ليس معناه الخصومة ، وأن خدمة الوطن ينفسح فيها المجال لكل رأى ولكل عمل ، وأننا اذا استطعنا أن ينهض كل منا بما يعتقد أنه الخير لوطنه ، كان فى ذلك أجل الخدمة لهذا الوطن ، وان اتقان الانسان عمله الخاص الذى لا يتصل بالتفكير السياسى فى قليل ولا فى كثير يخدم الوطن كذلك ، لأن الوطن ليس أرضا وماء وسماء وكفى ، بل هو أولا وقبل كل شىء مؤلف من أبنائه على تعاقب أجيالهم ، ومن أعمال كل واحد من هؤلاء الأبناء طيلة حياته » ··

وكان للمصريين فى باريس جمعية هى « الجمعية المصرية » كما كان للمسلمين على اختلاف شعوبهم جمعية أخرى هى « الجمعية الاسلامية » ، وكان هيكل عضوا بالجمعتين وسكرتيرا للجمعية المصرية بل كان من الداعين الى تكوينهما ومن خلال هاتين الجمعيتين كانوا يناقشون شئون بلادهم ويعلنون رأيهم فيها ، لم تغب مصر عنهم ، وكانوا سفراء لها يوم لم يكن لمصر سفراء فى باريس ولا فى غيرها .

ولعل مصر كانت أقرب الى قلبه منهم ، فلم يكن أثر باريس عليه يعدو على ما فطر عليه وما استوى عليه فكره وعقله وان زادته نضجا وقوة ، فهيكل فى خلقه وفى مسلكه هو ابن القرية ، وفى فكره ربيب عقله وذكائه الفطرى ، وكثيرا ما يختلف الناس فكرا ومسلكا ، وان نشأوا فى فى بيئة واحدة بل وفى أسرة بعينها ، وما اختلافهم الا اختلاف ما بينهم من ذكاء وأستعداد فطرى ، فاذا كان لهم مرشد ومعلم فانهم لا يقبلون منه الا مايقبله العقل ويستوى مع المنطق ، فكان ما يختلف عليه هيكل مع استاذه لطفى السيد مع اكباره له ، مرده الى استقلال الرأى وتحكيم العقل فى كل ما يرى ويسمع . ثم كان له من تعاليه وكبريائه أو ماعده هو أنفة وحياء ، ماصان عليه تعاليه وترفعه . وحفظ له صدقه مع نفسه وصدقه مع الآخرين وكرامته على نفسه وكرامته على الآخرين ، وأن كان حريصا على كرامة غيره وحريته وصدقه حرصه على كرامته وحريته وصدقه مع نفسه ومع الآخرين ..

وقد بقيت تلك خلاله لا تتغير ولا تجور عليها المناصب ولا السنون ، فكم خاض من معارك وكم قدم الى المحاكمة . وما كان عليه الا أن يعتذر فيطوى التحقيق وتنتهى المحاكمة ولكنه يأبى الا أن

يأخذ العدل مجراه ، واثقا من حقيقة ما يقول ، وتكون البراءة وأشد ما تكون الغرامة ٠٠

وعندما ينشد الانســان الحقيقة لا يؤخذ بباطل أبدا ، وكان ايمانه بما يقول وبما يكتب مالايدع له مجال للنكوص أو الاعتذار ٠

وقد اتصل بينه وبين شيخ المحامين ابراهيم بك الهلباوى من الحــب والمـــودة والتعاطف ما كان قمينــا به ألا يمســـه والا قطع ما بينهما من ود ، ولكن أن تجور الحقيقة على المجاملة فهذا مالا يرضاه هيكل لنفسه ولا لصـــاحبه ، فحين رغب الهلباوى أن يرشح نفسه لعضوية الجمعية التشريعية « وأنه يرى هذه أنسب فرصة ليدافع عن موقفه فى قضية دنشواى » وصرح برغبته تلك الى حضور مجلسه بالمنصورة فى زيارة لها وكانوا ثلاثة من المحامين هم عبد الرحمن بك الرافعى والاستاذ حسين حسنى والدكتور هيكل ، ووافقه على رأيه الرافعى وحسين حسنى وبقى هيكل صامتا لا يبدى رأيا بالموافقة أو بعدم الموافقة ، حتى سأله الهلباوى : « ومارأيك أنت ياهيكل ؟ قلت : أرجو أن أعفى من ابداء الرأى ! قال : ولماذا ؟ قلت : لأننى لا أريد أن أقول شيئا لا أعتقده ، ولا أن أقول شـــيئا يغضبك ٠ قال : بل ما تعتقد ، ولن أغضب ٠ قلت : ان قضية دنشواى لم تكن قضية عادية يدافع هلباوى بك عن موقفه بأنه أدى واجب المحامى ، بل كانت قضية بين مصر وانجلترا ، وقد وقفت سعادتك فيها فى صف انجلترا ، فمن الخير أن تترك الزمن يسدل على موقفك هذا ستار النسيان ، وما قمت به فى خدمة وطنك قبل هذه القضية وبعدها خير مايعاون على تكثيف هذا الستار » ٠٠

ولم يغضب الهلباوى ولم يرشح نفسه للجمعية التشريعية اذ رأى أن الحق ما يقول هيكل ٠ وبقيت الصلة بينهما « صلة أبوة من جانبه فيها محبة ووفاء ، وصلة بنوة من جانبى فيها اجـــلال

وتقدير ، وكذلك بقينا الى أن اختاره الله الى جواره بعد ثلاثين سنة من هذا الحـــديث » وكان الهلباوى رحمه الله مليح الدعابة ، فاذا التقى بالدكتور هيكل وأبى فى دار الحزب بادرهما بقوله : « النجار ينجر الهيكل » ٠ رحمة الله عليهم جميعا ٠٠

ولم تمض بضعة أشهر حتى كانت انتخابات أول مجلس لنقابة المحامين عام ١٩١٢ ، وأجمع المحامون على اختيار عبد العزيز فهمى أول نقيب لنقابتهم ، وله من علمه ، وفضله وبروزه فى عالم المحاماه وعضويته فى الجمعية التشـــريعية مايؤهله لهذا الاختيار ، وكان الهلباوى راغبا فى هذا المنصـــب ، لأنه أقدم المحامين ولانه خدم المحاماة منذ نشأتها وعرف هيكل من الهلباوى رغبته تلك ، فأفضى بها الى عبد العزيز فهمى ، « ولشد ما أدهشنى عبد العزيز بك حين قال : نعم ، ان هذا حق لهلباوى بك ، انه استاذنا جميعا وان له على المحاماة من يوم نشأتها بمصر لفضلا أى فضل ، وانقلب هو داعيا لهلباوى بك وانتخب النقيب الأول للمحامين ٠٠

وتمضى السنون ولا يتغير هيكل ، ويبقى حفيا بما استوى عليه فكره واستقام عليه عقله لا يغير فيه ولا يتغير عنه ، ولعله الصحفى الوحيد فى جيله بل وفى الجيل الذى تلى جيله الذى اتخذ من الصحافة منبرا لما يرى ويعتقد لا ينشد ثراء ولا سعة فى الرزق ، فقد مرت على « السياسة » لسان حال حزب الأحرار الدستوريين أوقات عصـــيبة لا يجد فيها المحررون رواتبهم ، فتغلق أبوابها ، وتتوقف عن الصدور ويبقى هيكل وحده يصدر السياسة الأسبوعية مع بعض رواده وتلاميذه ، وكنت منهم ، نكتب فيها تطوعا ، ونسعد أن تنشر لنا ما نكتب ، فلم تكن الصحافة فى حياته مهنة عيش أو عمل تكسب ، بل كانت معه وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن رأى يرأه ومبدأ يدين به ، فلم يعمل فى صحف أخرى غير صحف الأحرار

الدستوريين ، وظل طوال حياته لسان صدق للأحرار الدستوريين حتى غدا زعيما لهم ورئيسا لحزبهم ..

وقد خيل الى اسماعيل باشا صدقى يوم تولى الوزارة ، ورأى أن ينشىء حزبا ، ويصدر جريدة تدافع عن سياسته ، انه اذا استطاع أن يضم الدكتور هيكل الى حزبه ، فان ذلك يضعف من قوة الأحرار الدستوريين ، ويكسب لحزبه ولجريدته سندا قويا ، وبعقلية رجل الاقتصاد قدر الثمن وبعث بصديقه عبد الرحمن باشا رضا صهر الدكتور هيكل برسالة يقول فيها انه مستعد لما يطلب الدكتور هيكل اذا ما ترك الأحرار الدستوريين وانضم اليه ، وكانت السـياسة تجتاز أزمة مالية حادة خفضت بسببها أجور المحررين وتوقف مرتب رئيس التحرير .

واعتقد اسماعيل صدقى أن الدكتور هيكل لابد وأن يقبل هذا العرض السخى من مرتب يجاوز ضعف مرتبه بالسياسة عن تحرير جريدة الشعب ومبلغ اجمالى آخر قدر بشعرين ألف جنيه وكانت فى وقتها ثروة لا يستهان بها ..

ولم يقبل الدكتور هيكل هذا العرض السخى ورفض وساطة صهره « فى موقف لا يرضاه لنفسه ولا يتفق ــ كما يقول ــ مع موجب الكرامة والرجولة » ..

وما كان هذا السخاء فى العرض وفى تقدير الثمن ليعدل عند الدكتور هيكل ايمانه بمبدأ وعقيدة استوى عليهما تفكيره ومنطقة وايمانه منذ بواكير شبابه ، وما كان اسماعيل صدقى وما كان عبد الرحمن رضا ، أو غيرهما ، ليصدق أن هناك من يستطيع أن يرفض هذا العرض فى وقت شدة وضيق ، فاذا كانت الصحافة لدى

الدكتور هيكل مهنة وغاية ففى رياسته لتحرير جريدة الشعب مايعدل رياسته لتحرير جريدة السياسة ، وفى هذا المال الذى يمنحه اياه اسماعيل صدقى ما يحقق الغاية من هذه المهنة اذا كانت الغاية منها هى الكسب والمرتب الكبير ، « أما وقد آتاه الله موهبة القلم ومهد له سبيل الدفاع عن الحق الذى يؤمن به « بتوليه رياسة تحرير السياسة فعليه أن يؤدى هذا الواجب كاملا ، دفاعا عن عقيدته ودفاعا عن الحرية ودفاعا عن الوطن » ..

ولولا أنه كان يرى فيما تولى من مناصب بعض مايمكنه من خدمة بلاده ، لما آثر على حرفة القلم أى حرفة أخرى ، وهو ما أعلنه للملك فاروق يوم أراد أن ينال منه ، ماكان ينال من رجال دولته ، فلم يكن يحفل برجال دولته ، فى أخريات حكمه ، يوم رأى منهم هوان أنفسهم فهانوا عليه ، فكان « يزدريهم ويقول انه يكفيه أن يشير الى أى منهم بأصبعه ليلبى الاشارة طائعا شاكرا » .

ولعل الملك فاروق قد أراد أن يجرب معه ما جربه مع الآخرين، حين قابله اثر عودته عام ١٩٤٨ من روما بعد حضور مؤتمر الاتحاد البرلمانى الدولى ، ليقص عليه ماحدث جريا على العرف ، ولكن الملك ينتقل بالحديث الى حوار يدور على الوجه التالى ، كما يذكره الدكتور هيكل :

« الملك : أنت ياهيكل جعلت الناس يقولون انك طامع فى رياسة الوزارة ..

أنا : من هم هؤلاء الناس ؟ أنا لا أعرف أحدا قال ذلك غير (أخبار اليوم) ..

أنا : واذا كنت اطمع فى رياسة الوزارة ، فجلالة الملك هو الذى أتوجه اليه بهذا المطمع ، فهل سمعتم منى جلالتكم شيئا من هذا ؟

وهل ذكر أحد لجلالتكم يوما أن للبلاد مصلحة فى ذلك · لكننى أؤكد لكم أننى لا يعنينى أن أكون يوما رئيسا للوزارة ، ولا يعنينى أن أكون كما أنا اليوم رئيسا للشيوخ ، وأسعد ساعة عندى أن أجلس الى مكتبى أؤلف كتابا تطمئن الى تأليفه نفسى ··

وبعد هنيهة صمت أردفت : وهل تحسبون جلالتكم أن رياسة الوزارة فى مصر مركز محسود ؟ ·· حسب رئيس الوزارة فى مصر متاعب زملائه ، ومطالب أعضاء البرلمان ، ومطاعن الصحف ، والمشاكل التى تواجهه من كل جانب ، فاذا لم تكن خدمة للبلاد ترونها جلالتكم فى اسناد الوزارة لشخص بذاته ، فما أغنى العاقل عن أن يواجه كل هذه المتاعب ·

بعد هذا الكلام افترت أسارير الملك ثم قال : على كل حال يستطيع رئيس الوزارة اذا عز عليه مواجهة الموقف أن يستقيل ، ولكن ، ماذا يستطيع الملك أن يفعل ؟

قلت مبتسما : وهل كان لى شأن فى أن تولد جلالتكم ملكا ·

وابتسم الملك ، وانتقلنا الى حديث آخر ، لكن مفاجأته اياى بهذا الحديث كانت نذيرا بكلام لم يقله بعد الذى سمعه منى ، فطالما سمعت من وزراء عبارات وجهها الملك اليهم لا يساوى البقاء فى الوزارة سماعها » ·

وكانت الحياة السياسية فى مصر قد بدأت فى الانحدار ، وأصبح للملك السلطان الأعلى فى الحكم ، وسلم له الوزراء والمستوزرون ورجال البرلمان وأنصار الأحزاب فى طول البلاد وعرضها بهذا السلطان ، وتقاعس الشعب عن الوقوف الى جانبهم « ولو أن هذا الشعب ــ كما يقول الدكتور تعليقا على ذلك ــ آمن يوما بأن حكومة ما تنكر ذاتها لمصلحته هو ، فتكفل لأبنائه جميعا حريتهم ، لا فرق بين مؤيد ومعارض ، وترعى العدل المجرد عن الهوى بينهم جميعا ،

لا تؤثر طائفة على طائفة ، ولا تقدم نصيرا لنصرته أياها وان كان لا يستحق التقديم ، ولا تخذل عاملا متفرغا لعمله جزل الكفاية فيه لأنه لا ينصرها ، ولا تكتفي بالوعود البراقة تنثرها على الشعب ثم لا تنفذ منها شيئا ، اذن لثار لها فى وجه خصومها ، ولما استطاع ملك ولا استطاعت قوات مسلحة أن تقف فى سبيل ثورته » ٠

« لم يطمئن شعب مصر الى يؤمنذ ــ مع الشيء الكثير من الأسف ــ الى قيام مثل هذه الحكومة ٠ لم يطمئن الى قيام الحكومة العادلة النزيهة الممتازة فى كفايتها ، والمتجردة لخير الشعب دون خيرها ولمجد الشعب قبل مجدها ، ولا يزال لدينا من ميراث الماضى حين تسلط الأجانب على حكم البلاد آثار يمقتها الشعب ، وان ملق الحاكمين المتأثرين بها ، وان قال فى هؤلاء الحاكمين : انا لنبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم ، وان أجمع على نقدهم ثم سكت عنهم مخافة صولة الحكم ، وهو يتمثل بقول الشاعر ٠

على الذم بتنا مجمعين وحالنا

من الخوف حال المجمعين على الزم ٠

كان الدكتور هيكل صادقا مع نفسه ومع غيره ، صادقا مع نفسه فيما استقام عليه ضميره منذ البداية ، وصادقا مع غيره فيما يشير به من باب النصيحة لصديق يصدقه القول ، أو فيما يراه لجماعة ينتمى اليها أو يعمل معها ، كما لكان مع حزبه ، يصدق الشهادة لخصمه ، وان كان قد أساء اليه ، لا يعرف الموجدة ولا يحمل احنا ، يعلو بالحق على كل ضير ويسمو بالكبرياء عن كل ضعف ، فحين قال الكبار فى بعضهم ما قالوا يوم علت ببعضهم سلطة العهد الجديد وهوت بآخرين ، لم يقل غير كلمة الحق ، اذ طلب للشهادة أمام محكمة الثورة ضد أحد خصومه السياسيين وكان هذا الخصم قد أساء اليه بالذات ، ولعل قضاة الثورة فى رغبتهم لادانة هذا الخصم

قد ظنوا أن شهادة الدكتور هيكل ستكون سندالادانته،ولكنهفي شهادته قد انصف خصمه ، بل كانت تبريرا لما أخذ به ونسب اليه ، وغدت شهادته حديث الناس يومئذ اعجابا بصاحبها واكبارا لقائلها ٠

كان هذا في شيخوخته ، وقد خلا الميدان من سلطانه وسلطان انداده ، ممن حفل بهم الميدان قرابة عقود ثلاثة ، ليصخب بسلطان جديد ، ولم يكن في شيخوخته تلك غير ما كان في شبابه أنفة وكبرياء وحفاوة بالحق ، فحين تعرضت حكومة الائتلاف التى كان يراسها عبد الخالق ثروت بعد وفاة سعد زغلول لدسائس بعض الوفديين ممن كانوا يرون في ائتلاف الأحرار الدستوريين والوفد خسارة لهم ، واراد بعض اعضاء حزب الأحرار الدستوريين أن يكشف للناس تلك الدسائس ورأى بعض أعضاء الحزب الآخرين رأب الصدع بمدارة الموقف ، ولم يكن هيكل من هذا الرأى الأخـــير ، فكتب افتتاحية السياسة بعنوان : ــ نريد ائتلافا خالصا ، وأساس الائتلاف الخالص الصراحة ــ حمل فيه على الدسائس التى تحاك للائتلاف ، ولم يلق المقال رضى محمد محمود وكيل الحزب ورئيس شركة السياسة ، فأراد أن ينشر مايفيد أن المقال لا يعبر عن رأى الحزب ، ولم يقبل الدكتور هيكل في ذلك وساطة ، ثم كان أن جاءه محمد محمود بنفسه يطلب اليه نشر مايريد ، وقال له : ألا تنشر كلمتى ، وأنا رئيس شركة السياسة ، ولم يقبل هيكل منه ذلك وفي احساسه بأن ممثل رأس المال يخاطب من يتقاضى مرتبا ، قال : اذا كان رئيس شركة السياسة هو الذى يطلب النشر فأنا مستعد له على شرط ، وهو أن انشر مع كلمة معاليكم استقالتى من رياسة تحرير السياسة ، وأننى قطعت كل صلة لى بها ، فما كان من محمد محمود الا أن أجاب : كلا ياسيدى ! لا تنشر كلمتى ولا تستقيل ٠

لم يتغير الدكتور في شيخوخته عما كان عليه في شبابه ، ولا في عمله في الصحافة عما أصبح عليه وزيرا ورئيسا للشيوخ وزعيما

لحزب سياسى كبير ، ولا حين طلب العلم فى باريس عما كان عليه طالبا فى مدرسة الحقوق ، الا أن تحركه التجارب ، وتتعدد أمامه الرؤى والمشاهد ويعب من الوان المعرفة ويطالع من صور الفكر ، ويتمرس بخبرات جديدة ، ولكنه يبقى على ما فطر عليه أنفة وكبرياء واتباعا للحق وصـــفاء فى كل خصـــومة او خلاف ايمانا بعظم المسئولية وجلال الواجب تضفى عليها المعرفة والخبرة وثقافة الشرق والغرب وتجربة الزمن اصالة وقوة واعتزازا ٠

كان بعيد النظر متقدما على عصـــره ، فلو انه كان فى بلد كانجلترا لكان ضريب تشرشل أو فرنسا لكان قرين كليمنصو أو فى الولايات المتحدة لنافس روزفلت ٠

وكان له من اصالة فكره شابا يتلقى العلم ، لم يخض معركة الحياة بعد ماتراه فى روايته « زينب » من صور وآراء لم يجر بها قلم كاتب من قبل ، فيصف من شقاء الفلاح الأجير مالا يصدر من مالك الأرض أو ابن مالكها ، ويقول ان الفلاحين « يعملون دائما ومن غير ملال ، ويرقبون بعيونهم نتائج عملهم زاهرة ناضرة ثم يقطف ثمرتها سيد مالك كم فكر فى أن يبيع قطنه بأغلى ثمن ، ويؤجر أرضه بأرفع قيمة ، وفى الوقت عينه يستغل الفلاح نظير قوته الضئيل ، ولم يدر بخاطر السيد يوما أن يمد له يد المعونة أو أن يرفعه من درك الرق الذى يعيش فيه ، وكأنه ما علم ان هذا المجموع العامل يكون اكثر نفعا كلما زادت امامه اسباب المعيشة وتوافرت عنده دواعى الطمع فى أن يحيا حياة انسانية » ٠

و « زينب » هى قصة الثورة على القديم ، الثورة على رق الأرض ، والثورة على الحجاب ، واستباحة حرية المرأة فى اختيار الزوج ، والثورة على التقـــاليد الجامدة التى تؤدى الى الخلل والبوار ٠ والثورة على الفقر الذى يسلب الانسان حريته ، فعزيزة

تتحجب ولما تبلغ الثانية عشرة « وما كادت تختبىء فى الدار حتى ابتدأ لونها يزداد ذبولا وجسمها نحولا » وحامد الذى يستريح اليها لايراها طوال اربع سنوات منذ احتجبت « أى من يوم لكانت تؤتمن على حياتها ووجـــودها · ثم نزل أهلها عن الثقة بها وظنوا فى صعودها للكمال والجمال سعيا نحو الشيطان وغوايته » وزينب بطلة الرواية لا يفرض عليها الحجاب كلداتها من أبناء طبقتها ، ولكنها لا تملك مصيرها ويفرض عليها الزواج ممن لا تحب ، فاذا « جاء القوم يطلبون توكيلها اباها فى عقد زواجها بقيت صـــامتة لا تنطق بكلمة ولا تنبس بحرف ·· ثم كان أن أخذتها نفسها فلم تقدر أن تمنع دموعها التى سالت على خدها ·· ولما علموا أنها تبكى قال المأذون وهو يهز رأسه وعمامته الكبيرة :

ــ حيث انها دموع باردة فهى دموع الفرح » ·

ولا يجد ابراهيم من المال ما يشترى به حريته من التجنيد « وهناك فى مجاهل السودان وخط الأستواء ، سيزور ابراهيم جهنم ، لا غازيا ولا فاتحا ولكن خادما مطيعا ، هناك سيقضى أياما حلوة من عمره ثم يرجع ولا فخر له » ·· وحنق ألا يجد بدلا نقديا يدفعه عن هاته العبودية من غير معنى ولا ضرورة ، لا يجد ما يشترى به حريته كما يشتريها غيره ممن يملكون النقد ·· هكذا يفهم الناس معنى العدالة ، من أجل أنى غنى أعفى من الخدمة العسكرية عندنا ، ولأن آخر فقير يساق رغم أنفه ليقاسى عذابها ويصلى نارها ويرجع منها موسوما بطابعها ·· لو أنه ذاهب لغزو وفتح لذهب مسرورا منتظرا أن يرجع أوبة الفاتح المنتصر ، ويحدث بأعماله وأعمال من معه ويفتخر بقواد جيشه وضباطه ، لكن الحال أنه ذاهب ليقوم بصغائر الخدم تحت امرة المتحكمين فى بلاده ·· فما اشد ذلك ايلاما له وما أقوى وقعه على نفسه » · ·

« انه فقير لذلك هو لا يستطيع أن يمسك بيده حريته ، لا يمكنه أن يكون مع غيره على بساط من المساواة أو قليل من العدالة ٠٠ مسوق شاء أو أبى الى موقف هو فى أكثر الأمم عز وشرف ، ولكنه فى بعضها صغار وذل ، هو فى الأكثر دفاع عن الأمة وحريتها ورفع لمقامها أن تمسه يد ، وفى البعض خضوع لمتحكم أجنبى وخروج على أهله وتسلط فوقهم من غير أن يريدوا عليهم سلطانا » ٠٠

وتراه يسخر من خرافات القرية وأقاصيصها « قال ديك السنة لما الحاجة مسعدة نزلت فى الليل لقت فى صحن الدار خروف قرونه كبار وفضل يكبر يكبر ، يعلى لما سد قدامها السكة ٠٠ ولما صبحنا الصبح اتبيه خروف أولاد حسنين » ٠٠

وكان مثل هذا الحديث بعض ما يدور فى أسمار الليالى :

ـ « وما فضلوا يقولوا لما الواحد يفوت قدام زريبة أم السعد تطلع له العفاريت ، وهم لا عادو بيطلعوا ولا ينزلوا » ٠

والحديث بين حامد وقريباته وكان قد ذهب لرؤية عزيزة بعد احتجابها ، وقد جاءت لزيارة القرية يوما ، « وهكذا جعلن يقصصن تواريخ شتى ، وحين ظهر العفريت لعمى جاد حارس النخل فى هيئة حمار حصاوى ملجم مبردع فركبه العجوز وغرز مسلة فى كتفه ثم زار عليه الأسياد فى مصر وطنطا والمنصورة ، وانتقلن الى أشكال أخرى من الجن كالنداهة تنادى الناس بأسمائهم فاذا ذهبوا اليها أخذتهم ونزلت بهم فى بئر ساقية مهجورة أو نحوها الا اذا قرأوا عليها ـ قل هو الله أحد ـ واحتل من بعد ذلك موضوع الحديث عفريت الزار ـ ذلك العفريت النظك تقدم له أبدع الهدايا من أرق السيدات ـ شاركت هنا صاحبة حامد الأخريات فى الكلام وهو ساكت كل المدة الا أنه كان يبدى علامات الاستغرات مابين حين وآخر » ٠

ولم تكن أمثال تلك الخرافات والأساطير غريبة على أبناء القرى ولعلها كانت مما ساد المدن أيضا ، بل أن الزار كان شائعا فى المدن أكثر منه فى القرى وبين سيدات الطبقة الميسورة من المحجبات منه بين الريفيات السافرات الفقيرات ٠

وقد بقيت أمثال تلك الخرافات ســــائدة بكل ما تتناول من حكايات وأساطير حتى جيلنا ، وكم فكرت فى الزار وتحليله علميا ونفسيا ، وكانت لى قريبة من الحضريات تقيم حفلا للزار كل عام تنفق عليه كثيرا ، مما حملنى على اطالة التفكير فيه وتعليله ، ونشرت فى السياسة الاسبوعية عام ١٩٣٦ بحثا ، أرد أسبابه الى حرمان المرأة من الاختلاط والحياة العامة وممارسة الرياضة البدنية وهو وسيلة للانطلاق من كبت اللاشعور والارهاق النفسى ٠٠

وقد مضت اليوم تلك العادات فلم يعد لها وجود بعد سفور المرأة وتعليمها ومشاركتها الرجل حياته العامة وممارستها الرياضة وارتيادها الأندية ، ولكن ألا نعجب من تلك الرقصات العنيفة التى تسود اليوم كالروك أند رول والديسكو وتلك الموسيقى الصــــاخبة أشبه بموسيقى الغابة أليست بديلة للزار ؟

وكما يسخر من أقاصيص القرية وخرافاتها نراه يعرض لما يشيع فى القرى من عادات ، لا أظن الا أنها مازالت ممسكة ببعضها حتى اليوم ، فهذا الشيخ مسعود « ذلك الرجل الذى صرف بين جدران الأزهر عشر سنين لم يعرف فيها شيئا ، فلما يئس من النجاح ووجد أباه قد قد قصر عن أن يمده بمعونة ترك العلم لمن يفقه العلم وخرج هائما على وجهه فلبس المسوح وأرخى شعره واستوحش ، ولكن هذه الحرفة لم تجده شيئا فنظف نفسه بعض الشىء ولبس

فوق رأسه عقالا وراح بعد ذلك مدعيا العمومة يعطى عهودا للمساكين الذين يعتقدون أن « من لا عم له عمه الشيطان » ٠

وقد أصبح الشيخ مسعود أحد اشراف المديرية ومن مشايخ الطرق المعدودين فيها ، وجاء الى القرية « جاء وفى انتظاره أبناؤه الكثيرون وكلهم فرح بمجيء عمه منتظرا أن يقبل يده الطاهرة ٠٠ وقد عزمه الشيخ عامر أحد أعيان البلد الموسرين ومن الآخذين عليه الحافظين عهده المتعصبين له ضد كل شيخ آخر وأعد له وليمة فاخرة جاء فيها بذبح عظيم ٠٠ مدت الموائد ووضعت امام الشيخ ومن حوله من الناس الطيبين صينيه قدم عليها اشهى الأصناف وصاحب الدار قد اخذ مكانه الى جانب ضيفه المقدس يقدم له من كل طبق ويسأله ما بين حين وآخر ان يبارك من حوله بدعواته الصالحة ويظهر له عظيم امتنانه وكبير سروره بمقدم الشيخ الطاهر ، والشيخ يجيب على ذلك كله بتواضع يليق بمكانته وعظمته ، ويرفع عينه فيرى قريبا منهم مائدة أخر معتادة ، لا شيء يجذب النظر مما عليها وقد التف حولها جماعة من أبنائه الفقراء والفلاحين ، ولو أن له نفسا بين جنبيه ، أو ضميرا يحس ، لكلله الخجل أن يرى نفسه وهو الداعى الى الله ونعيم الآخرة والى الزهد فى هذه الدنيا الفانية جالسا فى مقعد وثير وعلى طعام شهى فى حين يجلس هؤلاء العمال الطيبو القلوب على حصير ناشف يأكلون الردىء مما يقدم له ، وليزداد خجلا أن يعلم انه عاطل لا عمل له الا هذا الطواف فى البلاد لا لغرض الا أن يأكل ويشرب وينطق بكلمات لا قيمة لها ، وهم عمال يجدون ليل نهار ليطعموا الناس بفضل عملهم ، ولكن أى ضمير يسكن قلب

مدع لا تربية له ولا أصل عنده ، وانما اتخذ هذه طريقة احتيال يعيش من ورائها » ..

ويقصده حامد بيته وجده بابنة عمه ، ويطلب منه العون ، « وأن اخذ عليك عهدا . فمد له الشيخ يده واستتلاه من بعده الكلمات التى يصبح معها عمه » ..

ولكن ما أن يعود حامد الى نفسه حتى يعروه « الم جديد انه اعترف بها لمن لا يفهمها ومن لا يجيبه عنها الا بكلمة (نعم) ولا يقدر له على شيء . ثم أليس عارا أن يتعهد لانسان مثل هذا الأبله بأن يعمل خيرا ، أو لم يدس فى ذلك شرف نفسه وضميره ؟ أف لهذا الرجل الأبكم الكذاب .. وبلغ به الحنق ضد الشيخ مسعود ، فلو أنه كان واقفا أمامه لهان عليه أن يقتله ولكنه رجع فهدأ من حدته وعاد باللائمة على نفسه » ..

وانا لنرى فى حامد (ابن) سيد القرية ورب هذه الضياع صورة هيكل فى صباه وفى حياته فى القرية ، ومن يلم بنشأة هيكل لا يرى الا انه حامد ، وليرى كما نعرف وكما سمعنا من أندادە ورفاق جيله انه كان غير اخوته ، فهم « يقضون أيام مسامحاتهم السنوية فى الغيطان ، وكثيرا ما يبيتون هناك ليالى الحصاد مسرورين بهواء الليل وغناء العاملات ، أو الى جانب (تابوت) يزن من غير انقطاع ، لكن حامد اكبرهم لم يكن بهذه الطباع ، بل كان شديد الميل الى البقاء بالبلد وفى دار الضيافة مع الناس » .

ولقد بقيت نشاته الريفية بكل ما حفلت به من قيم عميقة الأثر فى نفسه وفى تكوينه الفكرى والأخــــلاقى فلم يكن للمدينة ولم يكن لباريس من الأثر فى استواء خلقه ماكان للقرية ، ثم كان لقراءاته

الواعية ونظرته العميقة للأشـــياء وقدرته على التأمل والاستيعاب واستقلاله الفكرى ما كان له أبعد الأثر فيما استقام عليه من قيم الأخلاق وما استوى عليه فكره السياسى والاجتماعى ، حتى زودته باريس ، ولم يكن فكر الغرب جديدا عليه ، بما أضفى على أفكاره أصالة وعمقا ، فقد ذهب اليها مؤمنا بجوهر الحضارة الغربية وما كان لها من أثر فى تقدم الحياة والمجتمع وارتقاء الفكر وجلاله وقدرة العلم وجبروته ، فالتقى فى عقله وفى وجدانه كل من الشرق والغرب على وفاق ٠

٣ معـــالم الطـــريق

لم تغير باريس من فطرة الدكتور هيكل ولكنها صقلته ، وفتحت عقله على آفاق أوسع من المعرفة ، وكان فى نهمه اليها لا يتأنى حتى يجيد الفرنسية ، بل أقبل على الفكر الانجليزى يعب منه ، وقد ذهب الى فرنسا وهو يجيد الانجليزية التى تلقى دراسته بها فى المدارس المصرية ، حتى لقد فكر أن يتم دراسته بانجلترا ذلك البلد الذى قضى العمر الطويل فى تعلم لغته ، كما يقول ، فى يوميات باريس ، « وكتب يسأل عن حال اكسفورد ومايلزم لها ·· ولما عرفت أن علوم الاجتماع تلقى فى فرنسا كما تلقى فى انجلترا صممت على البقاء بها » ·· فلما جاءه الرد عما يحتاجه امتحان الالتحاق باكســفورد ، وعاوده التفكير فى اتمام دراسته بها ، عاد الى نفسه « وقد جئت من بلدى قاصدا فرنسا فوجب أن أبقى فى فرنسا ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء » ··

ويقبل على قراءاته الانجليزية فيقرأ « لجون ستيوارت مل » كما يقرأ « لتوماس هوبز » و « وجون لوك » ويبقى على مايراه من

« أن بلاد الانجليز فيها من الأخلاق الراقية حقيقة مالا يوجد مطلقا فى فرنسا ، وفيها مما يسهل مقابلة كبار الرجال وعظماء العائلات مالا يتيسر للانسان مطلقا فى باريس » ويفضى برأيه هذا الى صديق يختار بين الاثنين « ولعله يذهب الى هناك فيجد ما وصفت ما يكون عند ظنى بها وبأهلها »(١) ·

ويكب على قراءاته الانجليزية فيقرأ « حياة محمد » للكاتب الأمريكى « واشنطون ارفنج » كما يقرأ تولستوى ، حتى اذا تمكن من الفرنسية أقبل على الأدب الفرنسى يتنقل بين أفنانه فلا يرتوى حتى يزداد ظمأ اليه ، وأم مسارح باريس ومتاحفها ومعالمها التاريخية وما يتناثر فى جنباتها وحواليها من منازه كما يطوف بريف فرنسا وتمتلىء عينه بكل ما فيها من معالم أبدعتها يد الانسان أو صاغتها الطبيعة ، وان لم تحجب عنه صورة مصر ولا الحنين اليها ·

وتتناغم فى عقله هذه المنابع من المعرفة عربية أو فرنسية او انجليزية فتصوغ فكره ، ويبقى حفيا بها جميعا ، وان غلبت طباعه وحياته الثقافه الفرنسية فيؤثرها على غيرها فى تعليم أبنائه وبناته وان ترك لهم حرية اختيار دراساتهم الجامعية الا من قبيل المشورة والاستئناس بالرأى · وان كنت أرى أن الثقافة الانجليزية غلبت على فكره الاجتماعى والسياسى بقدر ماغلبت الثقافة الفرنسية على فكره الفنى والأدبى · وان ظل فى أعماقه شرقيا مسلما ، وكان الشرق كما يراه حينذاك مصر بتاريخها ومأثوراتها وحضارتها الضاربة فى أغوار القدم ·

وبقى الشرق والغرب فى فكرة يتجاوران ولا يلتحمان ،يتوافقان ولا يمتزجان ، فلكل منهما بهاءه ورونقة ، ولكل منهما أثره ومعالمه

---

(١) ما بين الأقواس نصـوص من يومياته بباريس ، مخطوطة لم تنشر

على امتداد الحضارة الانسانية منذ بزغ فجرها فى وادى النيل ، فهذا الالتقاء بين الشرق والغرب « هو الذى آثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قبسا بعد قبس من ضـــياء النور والهدى والعلم ، وفى هدى هذا الضياء سار العالم نحو الكمال خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف »(٢) ٠

هذا بينما كانت الموجة الغربية قد تصفع عقول المفكرين والكتاب وان لم يلموا بلغة أجنبية كالسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وان كان المد الغربى قد سبق الى مصر ، قبل المنفلوطى ، الا أن المنفلوطى هو وحده الذى ظفر بجاذبية القارىء المصرى فى تلك السنوات التى سبقت ظهور هيكل وجيله ، لا لطلاة أسلوبه فحسب ، ولا لتميزه بتعبير أدبى متفرد ، ولكن بقدرته على تصـــوير خلجات النفس الانسانية تصويرا رومانسيا يعبر عن الوجدان المصرى حينذاك لا فى ميدان الفكر والأدب وحده ولكن فى ميدان الوطنية حين أخذ مصطفى كامل يهز وجدان المصريين بكلماته وخطبه الشاعرية الملهمة ٠

ولقد همنا بالمنفلوطى صدر شبابنا أكثر مما كنا نهيم بهيكل وطه حسين والعقاد ، ومامن قارىء الا وقرأ النظرات والعبرات والفضيلة والشاعر وفى سبيل التاج قبل أن يقرأ لهؤلاء الأعلام الذين درجنا على آثارهم ، وكنا نرى فيه روح الغرب كما نرى روح الشرق ولعلنا كنا أكثر غراما بأسلوبه منا بأفكاره ، وان عبر فى كثير من الأحيان عن نزعة رومانسية يثور بها وجداننا ثورة الوجدان الأوربى فى القرن الثامن عشـــر حين اجتاحه ما كان يحتاجنا فى القرن العشرين ٠

---

(٢) د٠ هيكل : الشرق والغرب فى العصور الوسطى : السياســة الأسبوعية ملحق العدد ٢٢٣٢ سبتمبر ١٩٢٣ ٠

الا أن الموجة الغربية قد أخذت تهدر على يد الجيل الجديد ، هذا الجيل الذى نشأ فى أحضان الجريدة وذهب يطلب العلم فى فرنسا، كهيكل ومصطفى عبد الرازق وطه حسين وغيرهم أو نشأ بعيدا عنها ولم يطلب العلم فى أوربا ولكنه أخذ من الثقافة الانجليزية والفكر الأوربى بأوفى نصيب بحكم دراسته الأولى فى المدارس المصرية التى سادتها اللغة الانجليز ، كالعقاد والمازنى ، وقد اختلفوا نهجا ومزاجا وان اجتمعوا على غاية من التجديد واحدة · فمنهم من توافقت لديه النزعاتن الشرقية والغربية على سواء كهيكل والعقاد والمازنى ومصطفى عبد الرازق ، ومنهم من غلبته النزعة الغربية كطه حسين ومنصور فهمى ومحمود عزمى ، وان اختلفوا جميعا منحى وغاية ·

وانفرد هيكل وحده بالدعوة الى احياء أدب مصرى قومى يحفل بصور جديدة من القصة والاقصوصة ومن الشعر الوجدانى والشعر التمثيلى يتصل فيه الماضى بالحاضر « فمحال أن نتصور حديثا لا يتصل بالقديم الذى أثمره أو نتصور قديما لا يتطور مع الحديث وينضم اليه ، فاذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هى التى تقوم أساسا لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ، ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم والعيش فى كنفها »(٣) ·

ويبدأ هيكل محاولة لقصـــص فرعونى لا يعدو الحديث عن ايزيس وهاتور وأفروديت فى محفل حديث يستعيد فيه القوم صور هؤلاء الأقدمين تمثيلا ورقصا وكأنه بذلك يصل ما بين الحاضـــر والماضى ، ولم يكن ذلك من قبيل العود الى الفرعونية ـ كما ذهب البعض ـ فتاريخ مصر كما يراه ، وكما يراه كل واحد منا ، سلسلة

---

(٣) ثورة الأدب : محاولات فى الأدب القومى ·

تتصل حلقاتها منذ الفراعنة حتى وقتنا هذا . و « بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصال نفسى وثيق ينساه كثيرون فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات فى نظم الحكم وفى العقائد الدينية وفى اللغة وفى غير ذلك من مقومات حياة الأمم قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلا حاسما »(٤) .

فاذا كان قد اختار الفرعونية ميدانا لبعث أدب قومى ، فلأنه « بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى الثمرة خصب غاية الخصب .. وقد بدا لى فى وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الاسلامية موضع هذه الدراســـة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهوانى من هذه العصور ، لكنى وقفت يومئذ مترددا ، أفاقدم فابحث فأوالى البحث ، فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة من صور الأدب القومى فاذا حركة عنيفة تفاجئنى من غير أن تزن بالقسط ما اليه قصدت »(٥) .

لم يقف هيكل مع ذلك عند هذا اللون من الأدب القومى ماثلا فى تلك الصور الفرعونية التى حاول أن يضفى عليها هيكلا قصصيا، فبين حين وآخــر يكتب أقصـــوصة يقــوم مبناهــا على الواقع الاجتماعى المعاصر بشخوصه وأحداثه ونوازعه النفسية ومؤثراته الاجتماعية ، كما كان فى « حكم الهوى » و « الشيخ حسن » وقد كتبهما فى الوقت الذى كتب فيه صوره الفرعونية ، ولم يكن ما حاوله لخلق أدب قومى يبعد به عن « تقليد الغرب فى أدبه القومى كتقليدنا اياه فى لباسه وطعامه »(٦) .

---

(٤) المصدر السابق : التاريخ والأدب القومى .
(٥) ، (٦) ثورة الأدب : محاولات فى الأدب القومى .

كانت تلك هى فترة البحث عن الذات لدى هذا الجيل الجديد من الكتاب والمفكرين المصريين وقد بدا أنهم يسيطرون على ساحة الفكر فى مصر ويخوضون معاركه فى أعقاب ثورة ١٩١٩ وانقسام الوفد المصرى الى حزبين سياسيين ، كان الحزب الآخر الذى خرج عليه وقد اتخذ أسم الأحرار الدستوريين وأصبحت له جريدة تنطق باسمه هى جريدة « السياسة » تولى رئاسة تحريرها الدكتور هيكل واجتمع اليها تلك الصفوة من مفكرى الجيل الجديد « طه حسين » و « محمود عزمى » و « توفيق دياب » و « ابراهيم عبد القــــادر المازنى » و « عبد العزيز البشرى » وناشئة من الكتاب الذين لمعوا فيما بعد « محمد عبد الله عنان » و « محمد زكى عبد القادر » وفى الجانب الآخر كان « عباس محمود العقاد » كاتب الوفد الأثير ، و « أحمد حافظ عوض » و « عبد القادر حمزة » وقد برز العقاد من بينهم أديبا ومفكرا يخوض معارك الأدب كما يخوض معارك السياسة، وبقدر ما اختلف مع الجانب الآخر فى معارك السياسة بقدر ما اتفق معهم فى نزعة التجديد وخاض كما خاضوا معركة الجديد والقديم ٠

وبقدر ما حفل الميدان بالمعارك الأدبية بين المجددين والمحافظين بقدر ما حفل بالبحوث الضافية فى مناهج الأدب الحديث ، والمقالات المسهبة فى النقد الذى يوغل أحيانا فى التجريح وان توقى الأسفاف ، وان بلغ الغاية من العنف ٠ وكانوا فى تلك البحوث والمقالات يبحثون عن ذاتهم فى التماس ميدان من ميادين الفكر والأدب يختصون به ويوغلون فيه ، فان أجمعوا على التجديد وحملوا على القديم منصفين أو متحاملين ، فقد ظلوا يدورون حول انفسهم يتلمسون الميدان الذى تبرز فيه مواهبهم وتتجلى ملكاتهم فخاضــــوا فى كل شىء ولجوا بأقلامهم فى كل ميدان حتى تبين كل منهم طريقه وعرف ميدانه ، وان بقيت لديهم سمة الموسوعية والشمول ٠

لقد ولجوا مناهج العلم الحديث فى البحث والدراسة ، وقال الشعراء منهم كالعقاد والمازنى وشكرى أنهم جاءوا بجديد ، فهل جاءوا بجديد حقيقة ؟ وقرضوا الشعر وكتبوا القصة والاقصوصة فهل أوفوا على الغاية ؟ ٠

آمن المازنى أنه لم يأت بجديد فطلق الشعر ، ووقف شكرى عن نشر شعره عندما صدمه أول نقد لشعره ومن صنوه المازنى ، وكان شكرى قد أشار الى سرقة المازنى لثلاث قصائد فى ديوانه من الشعر الانجليزى ، وبقى العقاد يصول فى ميدان الشعر ويجول وعرفه الناس أديبا ومفكرا وكاتبا قبل أن يعترفوا به شاعرا ، وان ولج بشعره بعضا من المعانى الجديدة لم يطرقها من قبله ٠

وعندما طرق طه حســـين مناهج البحث الجديد وابتدع من الشك طريقا لليقين لم يأت بخلق جديد ، وانما اســـتهواه المنهج الديكارتى فاتخذ من الشك مرقاة الى اليقين ، ولم يكن الشك غريبا على العقل العربى ، فقد سلكه الجاحظ سبيلا « للتوقف قبل التثبت » ووقف عنده أبو حامد الغزالى قبل أن يستهدى يقينه ٠٠

وحين أخذ طه حسين بهذا المنهج فى دراسته للشعر الجاهلى فوصمه بالانتحال خانته المعرفة العلمية ، وأول ما يقتضى الباحث فى مثل هذا الموضوع وصولا الى الحقيقة أن يكون ملما بما كشفت عنه الدراسات الانثروبولوجية والأثنولوجية والاثنوجرافية فضلا عن التاريخ القديم وعلم الاجتمـــاع وفقه اللغة وعلم طبقات الأرض والحفريات وهى مالا أعتقد أن طه حسين قد ألم بها أو عرفها ، كما أن منهج الشك الديكارتى ان صلح فى بحوث ما وراء الطبيعة فانه لا يصلح فى ميدان العلم التجريبى أو ما يسفر عنه الواقع المشاهد من حقائق ، وهو ما تناولته بحوث « تيودور نويلدكه » و « وأوجست لودفيج شلوتسر » و « كيتانى » فى دراساتهم للجزيرة العربية وأهلها

ولغاتها ، وأسهم فيه من العرب المؤرخ العراقى « جواد على » و « فيليب حتى » ٠

وقد لا نجد فى هذا المنهج الذى اختاره طه حسين لبحثه فى الشعر الجاهلى الا أنه قد أثار من الشك ما لم يصل به الى الحقيقة التى يؤكدها دون برهان أو دليل ، ولعلنا اذ نسوق تلك المقتطفات من كتابه هذا لا نرى فيها غير الظنون والاحتمالات ، فنراه يقول :

« للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الأسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثت بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ، ونشأة العرب المستعربين فيها ، ونحن مضطرون أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة »(٧) ٠

كما يقول : « ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه من قريش ، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى ، وأن يكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية »(٨) ٠

ويقول أيضا :

« وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده ، فكرة أن

---

(٧) الشعر الجاهلى ص ٥٦ ٠
(٨) المصدر السابق ص ٧٢ ٠

الاسلام يجدد دين ابراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور ، ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون ، وانصرفت الى عبادة الأوثان »(٩) ..

ولا نرى فيها غير دعاوى لا تقوم على دليل من البحث العلمى والأسانيد التى تقوم عليها الحقيقة العلمية ، كما ينقصها الكثير من شواهد المعرفة العلمية التى اثبتها الباحثون والعلماء .

ولا نقول أن ذلك كان من تأثير الثقافة الفرنسية أو من تأثير النظرة العلمية التى لفحت الغرب الأوربى بعد عصر النهضة ، ولكنها شهوة الابتداع والاثارة التى تلفت الأنظار وتجذب الشهرة لشاب ناشىء ينشد البروز ويتطلع الى مكان بين المفكرين أو فى مقدمتهم .

ولم تكن حملة العقاد والمازنى وشكرى على شعر شـــوقى ونقدهم له الا لجذب الشهرة ولفت الانظار ، وقد سألت يوما الدكتور هيكل فيما أثار العقاد وصحبه على شوقى ، بينما كتب له مقدمة ديوانه « الشوقيات » فقال رحمه الله : انه سأل شوقى فيما يحمل هؤلاء عليه ، فقال : انهم ينشدون الشهرة بنقده وأن يعرفهم الناس ، فلو انهم مدحوه لما خرجوا بذلك عما ألف الناس من مدحه ، أما أن ينقدوه فكل الناس يتســـاءلون : من هؤلاء الذين يتطاولون على الجبل .

وكان النقد أكثر ما خاض فيه هذا الجيل الناشىء من الكتاب ، فلما استوت لهم الشهرة أخذوا يطوفون بآفاق الأدب والفكر بما تحملهم عليه الضرورة أو يهديهم اليه الفكر ، وكانوا فى الحق قد أقاموا هذا الصرح العظيم من البناء الفكرى الذى غنمنا ثمراته

---

(٩) المصـــدر الســـابق ص ٨١ .

وامتعنا فيضه ، وكم لقوا كثيرا من العناء والوصب حتى استوى كل منهم على نهج وسبيل ، وسووا الأرض لمن جاء بعدهم ، وهو ما عبر عنه المازنى أصدق تعبير فى « حصاد الهشيم » بقوله :

«قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد،وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ، وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم، ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ ومن الذى يعنى بالبحث عن أسماء المجاهيد الذين ادموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟ » .

وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق ، يأتى نفر من بعدنا ويسيرون الى آخره ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة ، ويذكرون بقصورهم وننسى نحن أتاحوا لهم أن يرفعوها سـامقة رائعة والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد ؟ » ..

فلندع الخلود اذن ولنسأل : كم شبرا مهدنا من الطريق ؟ »(١٠)

لقد مهدوا الأرض حقا بما خاضوا فيه من شتات الأدب والفكر بل وبحوث التاريخ ، حتى استوى الجيل الذى جاء بعدهم على غاية وقصد وعرف كل فرد فيه موهبته وفنه ، فكان الشـاعر شـاعرا والقصاص قصاصا والناقد ناقدا والمؤرخ مؤرخا والكاتب السياسى كاتبا سياسيا ، هذا الجيل الذى أسميه جيل توفيق الحكيم فهو أول من عرف ملكاته الفنية والأدبية فكتب القصة والمسرحية وأوفى بهما على الغاية ولم يطرق أى ميدان غيرهما الا فى خاطره أو المامه فكر وتلاه نجيب محفوظ والسحار وثروت أباظه ويوسف السباعى ومن قبلهم محمود تيمور وفريد أبو حديد وظهر التخصص الفكرى والأدبى ورأينا « محمد مندور » يقف عند النقد الأدبى ويخوض فى مذاهبه و« شوقى ضيف » يؤرخ للأدب العربى الحديث لا يعدوه الى القديم ، ويتسنم « زكى نجيب محمود » ذروة الفكر الفلسفى ، وينتقل محمد

---

(١٠) المـازنى : حصاد الهيشم : ص ٢٦٤ .

عبد الغنى حسن بين الشعر وتاريخ الأدب ، وتستهوى الموسيقى الغربية والفكر الغربى عالم الأحياء حسين فوزى فيطلع على الناس بما يخلص اليه فيهما من جلال ومتاع عقلى ونفسى ، ويعكف أحمد حسين صاحب مصر الفتاة ورفيقاه فتحى رضوان ومحمد صبيح على تاريخ مصر يكشفون عما يثور به وجدان مصر من مشاعر الوطنية ومكامن البطولة • ويلمع عزيز أباظة فى الشعر المسرحى وفى ميادينه الأخرى ، وغيرهم ممن عرفوا ملكاتهم فابروزها فيما يند عنها من معالم الفكر والوان الأدب والفن ، وكان زكى مبارك العقدة التى ربطت بين الجيلين •

اما المدرسيون من أساتذة الجامعات فان لم نر فيهم أمثال أمين الخولى وأحمد أمين وطه حسين وعبد الرازق السنهورى وعبد الحميد العبادى ومحمد فؤاد شكرى وحسن ابراهيم اثرا وانتاجا فقد رأينا من بينهم قلة برزت فى ميدانها كعثمان أمين وزكى نجيب محمود فى الفلسفة وعبد اللطيف حمزة خير من أرخ للمقال الصحفى والخطابه وأحمد بدوى وقد اتخذ من تاريخ الفراعنة أغنية فى « موكب الشمس » وعبد المنعم أبو بكر وأحمد فخرى ليسيرا على الدرب فى احياء تاريخ الفراعنة ثم رأينا الفكر يحول عن الجامعة الى خارجها • فنرى محمد عبد الله عنان مؤرخ الأندلس وعبد العزيز الشناوى خير من أرخ للدولة العثمانية وأحمد نجيب هاشم أحد كبار المترجمين وقد سبقه على الدرب محمد بدران شيخ المترجمين وأمين مرسى قنديل وبقيت اشعاعة النور فى مصر تضىء العالم من حولها •

كان الجيل السابق جيل الأساتذة والرواد يحفر الأرض بأظافره و « يقطع الجبال التى تسد الطريق » ــ كما يقول المازنى ــ فظل يخوض فى كل شىء ولا يقف عند أى شىء الا رغبة التجديد والكشف عما يثور به الوجدان المصرى فى عالمه الجديد وعما يهتديه فى ظل حضارة انسانية تفور بالعلم والمعرفة وقيم اجتماعية وفكرية وانسانية لم يكن لها وجود من قبل وانما هى نتاج عالم صناعى

يقلب كل موازين الحياة السابقة فيديل من الحضارة الزراعية الى حضارة صناعية غالبة ، ومن الحضارات المحلية التى ازدهى بها العالم القديم الى حضارة عالمية عامة تصـــفع عقول الناس فى كل صقع ومنتجع فلا تتركهم الا اسارى حبالها ٠

ولم يستو اى من هؤلاء الرواد على نهج او سبيل الا بعد زمن طويل ، ولعل اولهم استواء على ملكاته كان الدكتور هيكل ويأتى بعده المازنى ثم العقاد وان اختلف بينهم الميدان فيما استووا عليه ، فقد هجر المازنى الشعر بعد أن رأى القمة عسيرة المرتقى ، أو أن الشعر لا يسعف صاحبه بلقمة العيش،«فالذى لايمهله العيش حتى يعطى المقال المرسل حقه من الاجادة ــ وهى عليه يسيرة ــ لا يحبس نفسه على القوافى والأوزان وهى لا تسعف منشدها فى كل حين » ٠٠ ولج فى خواطره وصور حياته يستوحيها كتاباته ، وهو مانراه بعض صور تجديـــد الأدب المصـــرى الحديث ، فكتب « ابراهيم الكـــاتب » و « ابراهيم الثانى » و « ثلاثة رجال وأمرأة » و « عود على بدء » و « ميدو وشركاه » وهى مادعاها الدكتور يوسف نجم « قصـــة الشخصيات » وهى جميعا من القصـــص الذى يســـتوحى الاتجاه الغربى فى كتابة القصة مما نراه جديدا على الأدب العربى ٠

أما العقاد فقد استقام مفكرا فى صورة أديب فغلب عقله وجدانه فكتب فى مذاهب الفكر المعاصر كما كتب فى بعض ما واجه حياته من أحداث وبعض ما عرف من شخوص كانوا أعلام جيله وما قبل جيله من معاصريه وكتب عن نفسه وصروف حياته وسوارح قلمه ، ولولا قصة « سارة » وبعض ما خاض فيه من نقد ادبى لسلكناه بين المفكرين اكثر مما نسلكه بين الأدباء ، وقد استقام له فى النصف الثانى من حياته منهج فى السير الاسلامى كان الرائد فيه وكان صاحبه ٠

وبقى طه حسين ينتقل من فنن الى فنن ومن ميدان الى آخر ،

فتشيع للفكر اليونانى كما تشيع للثقافة اللاتينية ثقافة البحر المتوسط، ثم أغفلهما حين اشتدت الموجة العربية والمد الاسلامى ، وكان حريصا الا يشير اليهما حين يتحدث عن ماضى مصر وثقافتها التاريخية فينسبها الى الغرب دون الشرق ولا يشير « الا تلميحا الى فارس وجزيرة العرب » ـ كما يقول « سيد قطب » ٠٠ فى نقده له ـ ويفرض على طلاب كلية الآداب دراسة اللاتينية منذ السنوات الأولى فيضجون منها ويتنكرون لها وتكون نسبة الرسوب فيها أعلى من غيرها فى المواد ولا تفلح التجربة فتلغى دراستها من بعد فى اكثر اقسام الكلية. فالعقل المصرى كما يراه فى مستقبل الثقافة ، « يتصـــل بمكوناته باقطار الشرق القريب اتصالا قريبا منظما مؤثرا فى حياته ومتأثرا بها ، ويتصل بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى اتصـــال تعاون وتوافق ، وتبادل مستمر منظم للمنافع فى الفن والسياسة والاقتصاد » والثقافة الفرنسية التى يدين بها ويراها قمة ما وصل اليه الفكر من استنارة ليست غير امتداد للثقافة اليونانية « لأن الأمة الفرنسية متأثرة بالطبيعة اللاتينية ومتأثرة بطبيعة هذه الحضارة ، حضارة البحر المتوسط قريبة فى عقلها وشعورها من اليونانية واللاتينية » ٠ وقد بدأ عمله فى الجـامعة اســـتاذا للتاريخ اليونانى والرومانى ، واصدر كتابه « صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان » ثم « قادة الفكر اليونانى » وحين يقوم على كرسى الأدب العربى يصدر كتابه « الشعر الجاهلى » ثم « فى الأدب الجاهلى » صورة معدلة للشعر الجاهلى ٠

ويكتب القصة حين يصبح للقصة ميدان فى الأدب المصرى ، وكان من قبل قد طرق القصة فيما يشبه القصة فى « الأيام » ويمضى مع الأيام مصورا احاسيسه ومشاعره حتى ينتهى منها بعد سنوات من صدور الجزء الأول عام ١٩٣٦ ، ويبقى مع الأدب العربى وتاريخه ونقده يصول ويجول حتى يقبل على التاريخ الاسلامى ، كما اقبل

عليه هيكل والعقاد ، ولكنه لا ينسى الأدب اليونانى ولاينسى سحر باريس ·

فاذا كانت الموسوعية والشمول قد غلبتا على هذا الجيل من الرواد ، فأين كان مكان هيكل فى هذا الجيل ؟

لقد منعه حياؤه كما حالت أنفته ـ كما يقول ـ بينه وبين أن يقصد الى صحيفة من صحف ذلك العهد لينشر فيها ما يكتب ، حتى قصد الجريدة زائرا لمديرها ومحررها أحمد لطفى السيد ، لصلة « النسب التى تربط بين أسرتنا وأسرة لطفى باشا السيد » ويشجعه مديرها « أحمد بك عبد القادر الذى اتصل بى عند لطفى باشا ودعانى الى مكتبه وشجعنى على الكتابة فى الجريدة » ·

وظل هيكل يكتب للجريدة ولا يكتب لغيرها ، بينما ذهب رفاق جيله طه حسين والعقاد والمازنى يطرقون أبواب الصحف الأخرى لنشر ما يكتبون ، لا يهمهم الا أن تنشر ما يكتبون ، ويتنقل العقاد والمازنى بين صحيفة وأخرى تطوعا أو لقاء ما يقيم الحياة ، فاذا لم يكن أجر كتبوا متطوعين لا يعينهم الا أن ينشر لهم ما يكتبون ، ولا يرى طه حسين حرجا فى أن يكتب للجريدة صحيفة حزب الأمة ويكتب فى صحف الحزب الوطنى وكان يقوم على تحريرها حينذاك الشيخ عبد العزيز جاويش ، ويطلب اليه أن يشارك فى تحرير مجلة « الهداية » حين أنشأها ، ويقبل على الكتابة معه غير قاصد أجرا ، الا أن ينشر له ما يكتب فلم يكسب خلال تلك الأعوام ـ كما يقول فى مذكراته ـ « درهما ولا مليما » · وأن يقرأ الناس ما يكتب ، وأن يشيع اسمه بين الناس كاتبا ، حتى وان خرج عن القصد وأوغل فى الحماس ، مما ضاق به وخجل « من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التى كتبها الفتى فشغل الأدباء والمثقفين حينا ، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت » ، فكل مايهم الفتى طه حسين وما يهم غيره من ناشئة هذا الجيل أن يسمع الناس

بهم وأن يكون لهم مكان بين رجال القلم والأدباء ، ولعلهم اذ يتطاولون على كبار الكتاب كالمنفلوطى والشعراء كحافظ وشوقى لم يكن يبغون من تطاولهم الا أن يكون لهم ذكر بين الناس • وهو ما أسفوا له واعتذروا عنه تلميحا أو تصريحا حين ظفروا بالشهرة وأصبح لهم فى عالم الأدب صولة وجاه ، فنرى طه حسـين بعد نقده لنظرات المنفلوطى سخفا يطاطىء من رأسه ، ويسأل « الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذلك العظيم » ولا يأسف لكتاب ألفه كما أسف لكتابه « حافظ وشوقى » ••

أما العقاد فيشهد للمنفلوطى بعد نقده بأنه « هو الذى قارب بين الجمال والصحة على نسقه الفصيح فى سهولة لفظ ووضـوح معنى وسلاسة نغم ، وهو لا يبلغ مبلغ التبرج بالصـقل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك المتقشف فى مسوح النسـاك ، وليس الانشاء نموذج أصلح من هذا النموذج من وجهته الفنية « وكان العقاد قد نقد تأثر التلاميذ بأسـلوب المنفلوطى فى « كراسـات الانشاء » •

ولا يملك العقاد فى ختام كلمته تلك عن المنفلوطى فى « رجال عرفتهم •• الا أن يقول : « وتعيد الينا قدرة المنفلوطى على تبسبط الأسـلوب الجميل كلمة – اناتول فرانس – التى يقول فيها : أن البساطة الجميلة هى القدرة على اخفاء الجهد والكلفة ، وان النور الأبيض بسيط فى النظر ولكنه أوفر الألوان تركيبا لأنه ، توليفة من جميع الألوان » ••

ويحمل العقاد على مصطفى صادق الرافعى ، ويشويه الرافعى على «السفود» ، وتتصل الملاحاة بينهما فلا يهدأ لها أوار •• ولم يكن العقاد ممن ينكصون عن رأى قالوه ، وقد حمل على شعر شوقى أشـد ما حمل ، ولا يرجـع عما قال فى نقـده بعد ربـع

قرن من وفاته فيبرر ماذهب اليه باختلاف المقاييس بينهما ، « فكل ما قلناه في أدب شوقي فهو رأينا الذي اعتقدناه ، ولا نحب أن يشير أحد الى اللهجة التي قلناه بها »(١١) وفي مقال آخر نشر بعد ذلك بسبعة عشر عاما بعنوان « شوقي في الميزان » يقول العقاد :

« .. وبهذا القياس للتجديد والتقليد ، نحسب أن ربع القرن الذي مضى بعد وفاة الشاعر شوقي ، قد عرفنا بمكانه ، وقدر وضعه في ذلك المكان .. »

« فهو امام المدرسة الوسطى بين المقلدين والمجددين .. أو هو امام مدرسة نستطيع أن نسميها مدرسة التقليد المبتكر أو التقليد المستقل .. ونقول بذلك شيئا يفهمه الناقد الذي يفهم درجات التطور من الجمود على القديم ، الى ابتداع الخلق والانشاء مستقلا عن كل محاكاة .. لم يكن شوقي من المقلدين الآليين الذين يلتزمون حدود المحاكاة الشكلية ولا يزيدون . ولم يكن من المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير .. ولكنه كان يقلد ويتصرف ، وكان تصرفه يخرجه من زمرة الناقلين الناسخين . ولكنه لايسلكه في عداد المبدعين الخالقين ، الذين تنطبع لهم ــ ملامح نفس مميزة ــ على كل ما صاغوه من منظوم ومنثور »(١٢) .

فما من أحد من هؤلاء الرواد ، دعاة القديم ودعاة الجديد على السواء الا وتلاحوا واستبكوا في معارك حامية من النقد الذي بلغ حد التجريح وثلم الأفكار والعقول ولم يخل من عنف القول فينزلق

---

(١١) من مقال للعقاد بمجلة الرسالة ع ٣٦١ في ٣ يونية ١٩٤٠ بعنوان « الخصومة الأدبية في الشرق » وقد رجع الشاعر عامر بحيري في بحثه عن « المعركة بين العقاد وشوقي » في كتاب « العقاد وقضية الشعر » .

(١٢) أنظر ما كتبه الشاعر عامر بحيري في بحثه السابق .

أحيانا الى هجره، الا أنهم اخصبوا الفكر المصرى ، وغزوا به الى النظر فى طبيعة الأشياء ودلولاتها ، وخاضوا به تيارات شتى . فاثروه على نكال ، وان أثار النكال خامد الفكر ، ومسح ماران على العقل من جمود .

ولعلهم كانوا يبتغون الشهرة ، أو أن تكون لهم مكانة من سبقوهم اليها ، فكانوا يلتمسون النشر فى أى صحيفة ، وان كان بين الصحيفة والأخرى من الملاحاة واختلاف القصد ما يحول دون اللقاء والمسالمة ، وكان الاختلاف حول السياسة التى أخذت كل صحيفة بها ، لذلك نأى هذا الجيل الجديد من الرواد عن السياسة وأوضارها والكتابة فيها ، وان بقى لكل مذهبه وفكره السياسى ، بعيدا عن مقاله الأدبى .

ولم يكن هيكل من هذا القبيل ، فلم ينشر فى غير الجريدة ، وحين دعت الدواعى أن يكتب المقال السياسى كتبه دون حرج ، فحين طلبت اليه الجريدة أن يمثلها فى مؤتمر الحزب الوطنى الذى عقده « محمد فريد » فى بروكسل ، كتب اليها بما رأى « ولشد ما شكرنى اخوانى من المنتسبين للحزب الوطنى على مانشرته الجريدة بقلمى عن المؤتمر ، فقد كانوا يظنون أن ما أخالفهم فيه من رأى سيظهر أثره فيما أكتب » ..

وحين اختلف لطفى السيد مع أصدقائه السياسيين من أعضاء حزب الأمة على ما يكتب فى الجريدة عن العدوان الايطالى على برقة وطرابلس عام ١٩١١ ، واضطر الى الانسحاب من الميدان ، وترك الجريدة يتولى أمرها غيره من المحررين ، ورأى بعض أعضاء الحزب أن يتولى هيكل « كتابة المقالات السياسية فى الجريدة فى أثناء انقطاع لطفى بك عنها ، مع مراعاة ميول الرأى العام وموقف الحزب » وكان هيكل حينذاك فى مصر ، يجمع أسانيده ومراجعه

لرسالة الدكتوراه ، التى اختار لها « دين مصر العام » ، « لذلك جعلت أتردد على الجريدة أكتب مقالاتها الافتتاحية ، تاركا الكلام عن وقوف مصر موقف الحياد ، ساخرا من ايطاليا التى اعتبرت غزو برقة وطرابلس نزهة بحرية ، فلما نزلت الى الأرض لقيت من المقاومة ومن الهزائم ما جعل هذه النزهة وبالا عليها ، وما كان أشد اغتباط رجال الجريدة ورجال حزب الأمة بهذا الموقف الذى وقفته ، والذى أنجاهم وأنجى الجريدة من سخط الرأى العام من غير أن نخالف ما دعا اليه لطفى بك فى كثير ولا فى قليل » ..

لقد عرف هيكل مكانه واسـتقام عليه ، ولم يكن له فى غير الجريدة أرب ، وليس له فى غير حزب الأمة مكان ، فلم ير فى سياسة الحزب الوطنى ما يحقق لمصر بغيتها فى الاستقلال ، ولم يكن من أنصار الخديو فيميل الى سياسة المؤيد وصاحبه ، وما كان المقطم الا ضالعا مع الاحتلال حفيا بسياسته فى مصر مما ينكره كل مصرى ، وما به خشية من لائحة البعثات التى تحرم على أعضائها الاشتغال بالسياسة ، وما كان يرجو أن يكون من المبعوثين .

ولم يكن يهمه التقرب من الخديو ولا من صاحب السلطان ، « ولم يكن أحد من حاشيته ينظر الى على أنى موضع رجاء فى التقرب منهم أو التزلف اليهم ، وقد جاء الخديو الى باريس حيث كنت طالبا بها ، وجاء معه حافظ بك عوض ، وأحمد شوقى بك وغيرهما وحاولا تقريب بعض الطلبة من الخديو وتقديمهم اليه ، لكنهم رأوا أن أية محاولة من هذا القبيل بالنسبة لى ضرب من العبث ، فقد كان فيما أكتبه فى الجريدة من فورة الشباب بل من ثورته ما يجعل التفكير فى اقناعى بالعدول عن رأى أراه اضاعة للوقت فى غير جدوى » ، ولما جاء الخديو الى المنصورة فى تجواله الأخير بمصر ، وحشد أعيان المديرية للقائه ، ورغب لطفى السيد أن يقدمه الى الخديو ، وانه لواثق انه يسر لمرآه ، أجابه : ..

ـ لقد علمتنا منذ ظهرت الجريدة مالا يسمح لى بإجابة هذه الدعوة ٠

وأجاب لطفى :

ـ ان الخديو هو الذى تغير أما نحن فلم نتغير ٠

ولم يلح لطفى السيد فى دعوته ، وتركه يذهب فى طريقه الى حيث يريد ٠

أكان هيكل يأبى لقاء الخديو لو أنه فى حاجة اليه ، كما لا يأباه طه حسين حين تلتمس له الجامعة لقاء الخديو بعد أن فاز بالدكتوراه وأزمعت الجامعة ايفاده الى فرنسا ، ويرضى الخديو عنه وعن سفره ، وحين تعصف بالجامعة أزمة مالية ، فتعيد مبعوثيها بعد أن عجزت عن الانفاق عليهم ويعود طه حسين بعد عام قضاه فى مونبلييه « كاسف البال كأنه لا يسعى الى العودة الى الوطن وانما يساق الى الموت » ٠ وينقذ السلطان حسين كامل الجامعة من أزمتها المالية ، ويعود المبعوثون الى فرنسا ويقابلهم السلطان قبيل سفرهم ويرفد كلا منهم بخمسين جنيها يفكرون فى اهدائها الى الجامعة ، فيأبى الدكتور محمد علوى باشا منهم ذلك ويقول لهم ما يرويه طه حسين : «خذوا أموالكم واذهبو ، فاعبثو بها فى باريس أيها الحمقى»

فلو أن طه حسين أبى لقاء الخديو ، وأنف أنفة هيكل « عن أن يكون لغيرى حكم على وحياء من أن أطلب الى غيرى شيئا كائنا ما كان » ما كان له نصيب فى البعثة ولا فى غيرها ٠

أكان هذا التعالى مما يعوق هيكل عن تحقيق ما يبغيه من مكانة فى عالم الفكر والأدب ما لم تصـــدر الجريدة ويجد له مكانا بين كتابها ، ومالم يجد من رعاية لطفى السيد ما وجد ؟

لا أعتقد ذلك ، فان الموهبة لابد وان تجد ما يسفر عنها ويبرز مكنونها · وقد برز هيكل بين المبعوثين فى باريس دون أن يسعى الى التميز والبروز ، فكان عضوا وسكرتير للجمعية المصرية كما كان عضوا بالجمعية الاسلامية ، وحين يعجم على المصريين الرأى كانوا ينشـــدون الحل عنده ، وقد راى المبعوثون أن يكون لهم رأى فى مد امتياز قناة السويس وأن يبلغوا هذا « الرأى الى الرأى العام المصرى » ولا سبيل لذلك مالم يصدر « بقرار من الجمعية المصرية ، لكن قانون الجمعية المصرية يحرم عليها الاشـــتغال بالسياسة . وأخواننا مبعوثو الجامعة ·· قد تعهدوا لمجلس الجامعة قبل ايفادهم الا يشتغلوا بالسياسة ، فهم يدفعون بعدم جواز بحثها لهذا الموضوع لأنه سياسى ، ولأن نظامها يحرم عليها الاشتغال بالسياسة » ·

ويرى هيكل أن « الاشتغال بالسياسة المحرم على الجمعية هو الاشتغال بالسياسة الحزبية حتى لا يجر الخلاف الى خصـــومات تجنى على غرض الجمعية الرئيس ·· اما مجرد ابداء الرأى فى أمر انعقد عليه الاجماع كمد أجل امتياز قناة السويس ، فلا يعد اشتغالا بالسياسة ، وهل ترى اذا جاءت فرصة اقتضت المصريين أن يقولوا انهم حريصون على حرية بلادهم ، أفيكون مجرد هذا القول اشتغالا بالسياسة ؟ »

وأطمأن الذين تحدثوا اليه فى هذا الأمر لما قال ، « وطلبوا الى أن أدافع عنه متى انعقدت الجمعية » كما نراه يظفر بشكر اخوانه فى باريس من المنتسبين للحزب الوطنى لما كتبه بالجريدة عن مؤتمر بروكسل ، وقد كان يرى أن الخلاف فى الرأى ليس معناه الخصومة ، فعاش طوال حياته موضع تقدير خصومه وأصدقائه على السواء ٠

فيقول العقاد فى رثائه ، وكان الى جانب فى السياسة غير جانبه :

« يومئذ قال فينا هيكل وقلنا فيه أشد ما يقال ، ونسى رحمه الله ونسينا مالم يكن منسيا قط عندنا من مجاملات الزمالة ، ولست اذكر ذلك الآن الا لأتخذ منه تزكية حسنة لخلق الفقيد الكبير وسجاياه الرضية فيما كان بينه وبين زملاء الكتابة والنيابة من رابطة أو معاملة اذ أينما تلاقينا بعد ذلك بسنوات على غير مصالحة ولا معاتبة فكأنما عرف كلانا صاحبه لأول مرة غير ذاكر شيئا مما سبقت به نزوات الأقلام » ٠

ولم يكن العقاد سهلا فى خصامه ، ولم يكن من اليسير أن يرضى أو يغتفر مالم يلق من خصمه الصفاء وطيب الخاطر ٠

ويكتب عنه سامى الكيالى فى مجلة الحديث بحلب :

« ومع أن الخصـــومة الحزبية بلغت أوجها بين الأحـــرار الدستوريين وسائر الأحزاب ، الا أن هيكل ظل هذا الأديب المتزن والصحفى الشريف حتى فى هجومه العنيف على خصوم حزبه ، فلم يعمد الى المهاترة ، والتبذل والانحدار الى الحمق ، فكان أسلوبه الحكيم آية فى أدب الخصومة ، كان يدافع عن نظرية حزبه بما يلائم

الأدب السياسى الرفيع ، أى كان انغماسه فى تيار الحزبية الجارف هذا الصحفى الأديب الذى لا تمس سخائم الخصومة طوايا نفسه » ·

لم يكن سند هيكل فى تألقه وبروزه انتماء الى سلطان أو قربى من عظيم ، وانما كانت موهبته هى سنده الأول . وكان تألق هذه الموهبة هو ما حمل الكبار اليه قبل أن يحمل نفسه اليهم ، فنراه حفيا بموهبته ينميها ويزكيها ويرعاها بالعلم والمعرفة ويصونها بكبريائه عن التدنى لمنفعة ، والتعالى عما لا يوجب الحمد ·

وسعى الكبار الى هيكل دون أن يسعى اليهم ، فكان عضوا فى لجنة وضع الدستور ، ولما رآه حسين باشا رشدى لأول مرة فى أول جلسة للجنة ، وكان قد سمع عنه ، جاء اليه وصافحه قائلا : « هو أنت الدكتور هيكل » « وأجبته أن نعم · ولعل السبب فى سؤاله أنه رآنى شابا لم أبلغ الرابعة والثلاثين ، وأنه ، كالكثيرين غيره ، كان يحسب هذا الدكتور هيكل الذى يكتب فى الصحف ويدرس القانون فى الجامعة والذى ظهر مؤلفه من قبل عن ـ جان جاك روسو : حياته وكتبه ـ كهلا جاوز الخامسة والأربعين أو قارب الخمسين ، فلما رآنى شابا نحيفا لايبدو عليه أنه جاوز الثلاثين الا قليلا تولته الدهشة » ··

وطلب اليه جبرائيل بك تقلا صاحب الأهرام أن يرأس تحريره « بمثل الشروط التى يعرضها على رجال الحزب الجديد أو بخير منها » فيعتذر فى لباقة ويقول : « كنت أود لو استعطت أن أجيبك الى ما تطلب · لكنى قد ارتبطت مع هؤلاء القوم وأعطيتهم كلمتى · ولا أحسبك تخالفنى فى أن التحلل من هذا الارتباط غير لائق بى · قال :

فلتكن الأهرام لسان الحزب الجديد ، وأنت تعلم أن الأهرام أيدت عدلى باشا من بدء الحركة . قلت : ذلك أمر آخر لك أن تخاطب فيه عدلى باشا » ..

ولم تكن الأنفة ولا الحياء اذ مما يعوق هيكل عن تحقيق ما يأمل لنفسه ولا عن الوصول الى المكانة التى وصل اليها فى عالم الفكر والسياسة دون سند من الجريدة أو من لطفى السيد ، فلم يكن لطفى بالنسبة له ولمن التفوا حوله وانتموا اليه كطه حسين غير راع لمواهب كامنة تتفتح فيمدها بخبرته ويوجهها الى ما يزكيها لتثمر خير الثمر ..

وقد عرف هيكل لنفسه حقها ، وعرف من خلاله ومن سجاياه ما يعوقه عن السعى الى الغير أو أن « أطلب الى غيرى شيئا كائنا ماكان » : وأتاح له ثراء أسرته أن يطلب العلم فى فرنسا على نفقته كما أتاحت له مكانتها أن يبدأ حياته فى رفق ولين ، وفوق هذا وذاك كانت موهبته ورجاحة تفكيره هما اللتان تمهدان له الأرض وتسويان الطريق .

وتميز على أقرانه بورد من الثقافات العديدة لم يتسن لهم وردها ، فالى جانب ثقافته العربية التى عبوا منها جميعا كان له من الثقافة القانونية وعمله فى المحاماة ما لم يكن لأحدهم ،كما أتاحت له مناهج تعليمه المصرى أن يجيد اللغة الانجليزية ويقبل على قراءة أعلامها قبل أن يرد الى فرنسا ويتهل من ثقافتها ، ولم يكن من أقرانه وأبناء جيله من ألم بالثقافتين الانجليزية والفرنسية معا ، ولم يكن له قرين فى هذا غير الدكتور محمود عزمى ، فطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومنصـــور فهمى ممن ينتمون الى الثقافة الفرنسية الى جانب ثقافتهم العربية والاسلامية وان اختلف المدى بينهم فى هذا الأثر الذى تركته الثقافة الفرنسية فيهم ، أما الثقافة الانجليزية فكان أبرز روادها العقاد والمازنى وقد تدرج معهما على

عبد الرازق الذى تلقى دراسته فى انجلترا بعد أن أتم دراسته الأزهرية وسلامة موسى الذى عاد من انجلترا ليبشر بالاشـــتراكية الفابية ونظرية التطور ولم تلق دعوته صدى كبيرا وكان ممن ينتمون الى الفكر أكثر منه الى الأدب ولم يصل الى المكانة التى وصل اليها أقرانه ، وكان ناقلا صاحب رأى فيما ينقل دون خلق أو ابداع أو اضافة ٠

وعاد هيكل الى مصر عام ١٩١٢ وكان اول من نال الدكتوراه من المصريين ، فكان اعتزازه بها كبيرا ، كما كان اعتزازه بلقب البكوية وقد ناله قبل أن يناله قرن من اقرانه ، فكانت كتبه فى صدر شبابه تاليف « الدكتور محمد حسين هيكل بك » فلما نال الباشوية وأصبح وزيرا صدرت كتبه وهى تحمل اسمه « محمد حسين هيكل » مجردا من الدكتور ومن لقب الباشوية ٠

والفرق بين طه حسين وهيكل ان طه حسين فرض موهبته على الكبار ، كما فرضها العقاد على المجتمع الذى الم به والناس الذين عاشوا على فكره ، أما هيكل فقد عرف الكبار موهبته وسعوا اليه من اجلها ، فكان ممن شاركوا فى وضع الدستور وكان من اعضاء لجنة الصياغة او التحرير كما عرفت ، واختير عضـــوا فى الهيئة التأسيسية لحزب الأحرار الدستوريين ، ثم أصبح لسان حاله ومعبرا عن رأيه فى صحيفة الحزب التى راس تحريرها ٠

وبينما كان اقرانه يبحثون عن عمل ، وكان طه حسين يلهث وراء البعثة ، ويعرض نفســـه على الجامعة للتدريس بها متطوعا فتقبله الجامعة وتفرض له مرتبا شهريا خمسة جنيها ، كان هيكل قد عاد من فرنسا ليشتغل بالمحاماة فى المنصورة حاضرة مديريته « أكسب الكثير ، وأقضى الصيف فى أوربا كل عام » ويستطيع أن يتزوج من ابنة باشا يشغل منصبا كبيرا مرموقا ، ويعيش حياة لينة رخية ٠

ويندب للتدريس بمدرسة الحقوق ، ولا يثنيه « عمل المحاماة عن ادامة المطالعة فى الفلسفة والتاريخ والسياسة ، بل لعلى كنت اكثر اطلاعا على ما كتب فى هذه الفنون منى على مالا يتصل بالقضايا التى أترافع فيها من بحوث قانونية » • ويعرفه الناس كاتبا، ويقرأون قصته « زينب » فيعرفون أنه لكاتبها فقد أصدرها فى طبعتها الأولى بقلم « مصرى فلاح » ••

وحين قامت الحرب العالمية الأولى وكان يقضى الصيف فى لبنان ، وقد فكر مع صديقه « عبد الرحمن بك الرافعى أن نسافر الى ربوع لبنان نقضى بها اربعة أسابيع ، ثم نعود حين يكون موسم العمل فى المحاماة قد بدأ » •• جرى الحديث بينه وبين الرافعى حول الحرب وموقف مصر منها ، وكان الرافعى يتشيع للألمان ، ورأى هو أن « يكون موقفنا فى هذه الحرب موقف الحياد » •

وعلم من داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، وقد عرفه على ظهر باخرة العودة لأول مرة ، « أن لطفى بك يكتب فى الجريدة مؤيدا الحلفاء •• ولم أرد أن اناقش ما قيل لى عن ذلك حتى أطلع بنفسى •• فاذا وقفت على ماكتب كونت رأيى ، واتخذت الموقف الذى يمليه المنطق ويقضى به وجدانى » ••

وكان لطفى السيد يرجو أن ينال حسين رشدى رئيس الوزراء وقائمقام الخديو من الانجليز وعدا بالجلاء عن مصر واعترافا باستقلالها « متى انتصروا فى الحرب » • فوقف يؤازر انجلترا ، ولم ير هيكل رأى لطفى السيد ، ورأى أن تلتزم مصر بالحياد ، فان انجلترا « لن تصدر هذا التصريح مالم تدخل الحكومة التركية الحرب فى صف الألمان •• فان بقاء حكومة الآستانة على الحياد يجعل لانجلترا دائما الحجة القائمة بأنها لا تستطيع أن تنقض تعهداتها للدولة العلية •• » ثم رأى المقطم تروج لفكرة بدت له « غاية فى

الخطورة تلك أنه اذا خيرت مصريين من يحكمها من الدول فانها تختار انجلترا » ورأى الجريدة تكتب فى هذا المعنى وان كان بصورة مخففة ، و « صحيح أن هذا الكلام لم يكتب لطفى ، ولكنه كان ينشر فى الجريدة وهو مسئول عنها » .

ويثور هيكل ، ويقابل لطفى السيد ويذكر له « هذا الذى يروج له المقطم ولا تدفعه الجريدة ، بل لعلها تجاريه فيه » ونبلغ به الثورة أن يقول له : « ومتى كان لعبد أن يختار سيده ؟ ان الأمة المستعبدة يحكمها القوى ، فاذا هى تابعته وأظهرت الرضا به ، كان شأنها شأن العبد أو شأن البغى ، وأنا أربأ بمصر أن تكون عبدا أو بغيا » ..

ويكتب هيكل رأيه فى عبارة موجزه يسفه هذه الفكرةثوكانتالعبارة قاسية لم ترض لطفى السيد ولم يرض بنشرها ، فيخرج غاضبا ، ولكنه لا يحب أن يكتب فى غير الجريدة ، فصلته بها « وبلطفى بك ومحبة الرجل ، جعلتانى أدير الأمر فى نفسى طويلا ، وانتهى بى التفكير فبدأت أكتب سلسلة مقالات عنوانها : الحرب الحاضرة وآثارها » نشرتها الجريدة ، تدور حول الأسباب التى أدت الى وقوع الحرب ، حتى كانت الرقابة على الصحف ، فهجر لطفى السيد الجريدة وهجر القاهرة الى قريته برقين ، وكتب هيكل مقاله الأخير للجريدة « أهل مصر والتغيير المنتظر » ردا على مقالات للمقطم بهذا العنوان ، يمهد للسياسة التى قررتها انجلترا بعد دخول تركيا الحرب الى جانب الألمان ، وحالت الرقابة دون نشر المقال ، وكانت نهاية الجريدة بعد أن ظلت منارا للفكر الرفيع نيفا وسبع سنوات ، وأيقن هيكل أن « الكتابة السياسية فى جو الرقابة أمر غير ممكن » ..

ترى أتقعد هذه الأقلام الشابة عن الكتابة ، وقد بلغ من صولة الرقابة « أن عطل الكتاب السياسيون صحفهم ، وأن عطل لطفى بك السيد وحزب الأمة الجريدة منذ سنة ١٩١٥ .

ادهم لا يطيقون أن يحطموا أقلامهم فلا يكتبون ، للذك تراهم يتفقون : « الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والاستاذ طه حسين والدكتور منصور فهمى وعبد الحميد وأنا » على أن يصدر عبد الحميد حمدى جريدته السفور ، وكان من محررى الجريدة ، وأشرف على تحريرها حين هجرها لطفى السيد ، وقبل أن تقلق أبوابها بقليل ، ويقول هيكل انهم وضعوا « عقدا لهذه الشركة كان أهم مافيه أن عبد الحميد هو المسئول عن ادارة السفور ، وله أرباحه وعليه خسارته ، وأن أربعتنا الباقين يجب أن يكتب كل منهم مقالا فى كل عدد ، فان لم يكتب دفع مبلغا معينا لقاء عدم كتابته ، وصدرت السفور أسبوعية أدبية اجتماعية لا شأن لها بالسياسة ، ولم تلبث السفور بعد قليل أن أصبحت مدرسة للناشئين من الكتاب والكاتبات وأن صارت موضع تقدير الكثيرين من القراء » ..

والكتابة داء الكاتب وهى مرضه وهى راحته ، والقلم لديه أعز ما يملك ، والمعرفة عالمه الذى يهيم به فى صفحات الكتاب ، عاكفا متعبدا ، وكأنه فى محراب من محاريب الله ، فاذا عز عليه المحراب كان له فى سجادة داره مصلى وعبادة ، وقد وجد هؤلاء الناشئة محرابهم فى « السفور » ووجد العقاد مصلاه فى داره بأسوان بعد أن هجر « المؤيد » فكتب « ساعات بين الكتب » غير الساعات التى نشرها من بعد خاض فيها فى « مذهب داروين ومذهب نيتشه فى السوبرمان » .. ضاعت جميعا لم يبق منها « غير خمس وستين صفحة » من خمسمائة . وكتب عن المرأة « سميته ـ الانسان الثانى ـ ولم يبق منه كذلك غير صفحات »(١٣) .

ويعكف شكرى خلال تلك الفترة من سنوات الحرب ، وكان قد عاد من بعثته بانجلترا عام ١٩١٢ على قرض الشعر فيصدر «أناشيد الصبا » عام ١٩١٥ ، و « زهر الربيع » و « الخطرات » عام ١٩١٦

(١٣) العقاد : حياة عالم ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

و « الأفنان » عام ١٩١٨ ، و « أزهار الخريف » عام ١٩١٩ كما يكتب « الاعترافات » و « الثمرات » و «حديث ابليس» و «الصحائف» و « الحلاق المجنون » مابين عام ١٩١٦ وعام ١٩١٩ ، وتلك أخصب سنوات انتاجه ٠

ولا نرى للمازنى عملا أو انتاجا خلال تلك الفترة وقد أصدر ديوانيه عامى ١٩١٣ و ١٩١٦ على التوالى كما يكتب « الشعر غاياته ووسائطه عام ١٩١٥ ، ونقدا لشعر حافظ سنة ١٩١٥ ، وبقى يقرض الشعر حتى طلقه عام ١٩٢٠ ، وكانت الدنيا قد تغيرت من حوله فقد انتهت الحرب العالمية وبدأت مصر دورا عاصفا من حياتها السياسية ٠

وتتعثر به الحياة وبرفيقه العقاد ويتعثران بها حتى يقول عنها العقاد « أنا والمازنى ٠٠ بين الموت والحياة » فيعملان بالتدريس يقيما الأود ، فقد ذهبت الحرب « بالصحف الوطنية التى كانت تنطق بالسنة الهيئات السياسية ، ثم هبطت أزمة الورق بالصحيفتين الباقيتين ــ وهما المقطم والأهرام ــ الى ورقة واحدة من صفحتين لا متسع فيهما لغير البرقيات وأبناء الدواوين ٠٠ فاكتفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين »(١٤) ٠

وقد وجد المازنى عملا فى مدرسة وبقى العقاد ينتظر العمل « فى صناعتى حيثما اتفق فلا حيلة لنا فى استعجاله ولا فى البحث عنه، لأنه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه »(١٥) ٠ واتفقا على سكنى « الأمام الشافعى حيث تقيم أسرة المازنى من زمن بعيد ، وقدرنا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عن التعجل فى طلب العمل بضعة اشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء »(١٦) ٠

---

(١٤) ، (١٥) ، (١٦) حياة قلم ٠

وكان هيكل اسعد حظا من صاحبيه المازنى والعقاد ، فقد كفته السلطة عن حرفة القلم وبقيت له منها الهواية ليجد فى « السفور » متنفسا لقلمه ، ولا يقصر نشاطه على السفور وحدها فيكتب «للمقتطف» سلسلة من المقالات عن « القدرية والجبرية أو الاختيار والاضطرار » ينشرها على خمسة اعداد متتالية من يناير ١٩١٧ · ثم ينصرف بعدها « الى ترجمة البحث الذى لخص فيه الفيلسوف الفرنسى ـ هيبوليت تين ـ كتاب عالم ألمانى عن البوذية ، واستغرق نحو مائة صفحة من كتب تين فى النقد والتاريخ » واندفعت الكتب الجزء الأول من كتابى ـ جان جاك روسو : حياته وكتبه ـ عدا موضـــوعات أخرى كتبتها ولم أنشرها ، واننى اذ أرجع اليوم الى ذلك العهد . عهد الحرب الأولى ، وعهد الشباب الباكر حين لم أكن بلغت الثامنة والعشرين ، ترتسم على ثغرى ابتســـامة الرضا عن ذلك الزمن ، والأسف ان لم يكن لى مثل ما كان لى فيه من نشاط متصل وانتاج وفير » ·

كانت تلك هى فترة التكوين لديهم جميعا ، فلما استقام عودهم وآنسوا من أنفسهم قدرة على امتشاق القلم أخذوا يخوضون به فى كل ميدان يقدرون عليه وتفتح لهم أبوابه ، لا يأبون أحيـــانا أن يخوضوا فيما لا يستقيمون عليه ، وان قالوا انهم ينطقون عن صدق، وان خيل اليهم انه نبع يقينهم ، فنرى المازنى ينعت نفسه فى « حصاد الهشيم » ما قاله فى نقد حافظ بأنه « الهراء القديم » ويتمنى على الله أن ينسى الناس ما كتبه عنه ، ونرى طه حسين لا يذكر بالخير ما كتبه فى صحف الحزب الوطنى حين أفسح له الشيخ عبد العزيز جاويش ميدان الكتابة فيها فيرميها بالسخف حينا وبالسماجة حينا آخر »(١٧) ·

---

(١٧) طه حسين : مذكرات ـ شرف ، عبد العزيز : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ـ سامح كريم : ماذا يبقى من طه حسين ·

ولم ينج من هذه الآفة غير هيكل ، ولعل اعتدال (مزاجه) ، وصدق رؤياه ، ونظرته الموضوعية ، واستغنائه عن الصحابة فى غير الجريدة ، كانت جميعا من وراء ذلك ، وان كنا نرى انه كان قد استقام على رأى وفكر قبل أن يخوض ميدان الكتابة ، وقبل أن يذهب الى فرنسا فغلب وجدانه وفكره على أى مؤثر آخر وبقى له استقلاله الفكرى سليما من اى تأثير وان عصف بالناس جميعا وبقى بين الكتاب وله فكره الذى لا يميل ولا يذهب مع الهوى ولا يقصد من ورائه صيتا أو جاها أو قربى من أحد .

ولقد اقترب به اعتدال المزاج من الفلسفة الوضعية التى يفضل أن يطلق عليها اسم الفلسفة الواقعية ، ولعل ذلك من أثر دراسته القانونية ، فالقانون لا يقوم الا على ماهو واقع من حياة الناس وعلاقاتهم ومعـــاملاتهم ، فكل ما يجفوه المنطق لا يقبله القانون ، فيقبل على دراستها والتعرف على أصحابها ، ويشـــرك معه قراء العربية فى التعرف عليها ، فينقل اليها المقدمة التى وضعها « الاستاذ الكبير ليفى برول Levy Bruhl من أساتذة السوربون بفرنسا » لكتابه « عن أوجست كومت وفلسفته .. وصف فيها حالة العصر الذى ظهرت فيه الفلسفة الواقعية كما جاء بتاريخ صاحبها ، ولعظيم فائدة هذه المقدمة ننشر ترجمتها العربية لقراء السياسة الأسبوعية» فتنشر على عددين « أسس فلسفة كومت »(١٨) وتبقى بقيتها مخطوطة فى مقالين أحدهما عن « المسألة الفلسفية » والثانى عن « قانون الحـــالات الثلاث » حتى يجمعها الأستاذ احمد هيكل مع غيرها وينشرها فى كتاب بعنوان « الايمان والمعرفة والفلسفة » صدر عام ١٩٦٤ ، ولا ندرى ما الذى صرفه عن النشر مع الأعداد الا أن يكون قد رأى الموضوع ثقيلا على القراء وان كانوا من المثقفين ، وكانت الفلسفة مازالت علما ثقيلا على الكثيرين لا يستهويهم ، ولم يطرق

(١٨) السياسة الأسبوعية : ع ٧٨ ، ٧٩ فى ٢ ، ١٠ سبتمبر ١٩٢٧ .

ميدانها قبل هذا الجيل طارق على ما اذكر ، وان كان لطفى السيد قد هام بها فصاغت أسلوبه وعقله وفكره وان لم يكن له فى مذاهبها اضافة وان ذكر ارسطو وجدد لقاءه بالفكر العربى ودعاه المعلم الأول ، وناداه « سيدنا أرسطو » . ونقل آثاره الى العربية .

والواقع أن فكر هيكل ـ كما نرى ـ أقرب الى عقل الفيلسوف منه الى خيال الأديب ، وان لم يخل من نفحة الأدب ، وليست الفلسفة فى واقعها الا بعض ضـــروب الأدب العقلى الرفيع ، وما العـلوم الانسانية جميعا الا فكر عالم يزدان بنفحة الأدب وروح الأديب ، فاذا خلت من نفحة الألهام الأدبى غدت مادة جامدة لا حس فيها ولا حياة » ..

وانا لنرى تلك النزعة فيه ماثلة فيما أقبـــل عليه من ألوان المعرفة الجديدة فى فرنسا ، فيقرأ جون ستيورات مل وواشنطون ارفنج وكارليل بالانجليزية فلم تكن فرنسيته حينذاك تسعفه بذلك ، ويقرأ التيمس قبل أن يقرأ الصحف الفرنسية وليس زادة من الفرنسية الا ما يقرئه مدرسه فيها وكان زميله فى هذه الدروس بهى الدين بركات ، وان كان دائم الطواف بباريس ومعالمها الا انه كان لا يلم بها الا مع زملائه من المصريين ، وبهى الدين بركات بالذات .

ولمـا ظهـــرت رواية « هول كين » الـــروائى الانجـــليزى « المبنى الأبيض » عن أحـــوال مصـــر أقبـــل على قراءتها حتى شـــغلته عن كتابة مذكراته ، « فالرجل يمثل فى كتابه حكم الانكليزى أيام قنصلية كرومروقدحكى التاريخ كما هوفى الواقع والحقيقة فى الصحائف الأولى من الرواية . ثم خرج من قراءتها بأن « هول كين رام فى روايته هذه أن يرمى طيرين بحجر فيرضى المصـــريين والانجليز معا وأحسبه الى حد معين قد وصل الى ما أراد من غايته ولا شىء أدل على ذلك من سرور طائفة من المصريين بهذا الكاتب وكتابه مع أنه يمثلهم فيه تمثيلا فظيعا ، أمة متأخرة اذا نعق بينها

ناعق باسم الدين تبعته بين الصحارى ، تحتمل أشعة الشمس المحرقة وشظف العيش الأيام الطوال ، وتصدق أن كل ما يجيء به ذلك الناعق الدينى معجزة من الله ‧‧ ليت هذا كان كل الأمر بل انه رمى الخديو أيضا فى روايته بأن فى نفسه تأليف خلافة عربية اسلامية يكون مقرها القاهرة ، ويساعده فى هذا جماعة العلماء الذين وصف الكثيرون منهم بالضعف والنفاق ‧ لم يسلم طائفة من الطوائف التى تقوم فى بنيان الأمة من النقص ‧ كبراء منافقون وخديو متعصب وأمة عمياء سكرى بخمرة الدين »(١٩) ‧

وفى عرضه للرواية يتهم هول كين بسوء الطوية « فمع مارمى به كثيرين من المصريين من النفاق والضعف والتعصب الى آخـــر ما رماهم به لم يقل عن انكليزى فى مصر الا كل الخير »(٢٠) ‧

ولكنه بعد شهرين من قدومه الى فرنسا يستطيع وبهى الدين بركات أن يشهدا معا مسرحية « اندروماك » تمثل على خشـــبة « الكوميدى فرانسيز ‧‧ ولكنهما يقراءنها ويذاكرانها قبل أن يذهبا لمشاهدتها ‧

وما أن يتمكن من الفرنسية حتى يقبل على ذخائرها يستهويه منها ما يتصل بالفلسفة وعلم الاجتماع ، فقد أخذت عقائد الدين تلح عليه ، مثلما تلح على الشـــباب فى تلك السن الباكرة ، ما الحياة وما الموت ، وما لأولئك الثاوين فى البانثيون مقبرة العظماء ، «حيث القبور تضم رفات الأموات ، مكان مظلم يقابلك لأول ماتدخله ريح رطبة وهداة المكان وضيق مساربه فتشعر كأنك انتقلت الى العالم الآخر حقيقة ، وأول قبر يقابلك من القبور قبر جان جاك روسو ، قبر ذلك الكاتب الذى جاهد ليرجع للانسان حقه ، وقد احتضنه الاستبداد

---

(١٩) ، (٢٠) من يوميـــات باريس بتـاريخ ٢٧ ـ ٣١ اغسطس ١٩٠٩ مخطوطة ، وكان هيكل قد وصل باريس فى ١٣ يولية ١٩٠٩ ‧

الطويل الذى نزل بالأرض اثقل ضيف على أهلها ، والى جانبه عن اليمين فولتير شيخ كتاب القرن الثامن عشر وبعد ذلك تأتى قبور فيكتور هيجو والآخرين ثم نصعد بعد ذلك من هذا العالم الآخر على درج ضيق حيث يخرجك الى حيث حركه الوجود الدائمة »(٢١) ٠

وبعد ذلك بأيام يزور « سان دنيس » ضاحية باريس ، ويزور مقبرتها ، ويرى الشيب والشبان والرجال والنساء « حملتهم الذكرى وجاء بهم الشوق الى هذا المكان الخالى الهادىء » حاملين الزهور وعلى وجوههم امارات « الآلم قد سامو ما لعزريل من ذلك السلطان الجائر فى التفريق بينهم وبين من يحبون ، لا عجائز لا يدرون متى يلحقـــون بأهل ذلك المكان وهم يهرولون اليه ، أو يكادون وكانهم ضجروا ذلك الانتظار الطويل بين ضجة العالم وضوضائه فهم يطلبون المقابر ويستعجلون اليها السبيل » ٠٠

« كم بين أولئك العظماء سكان البانثيون وهؤلاء المقبورين فى مقبرة سان دنيس من الفرق ٠ كلهم يرقدون فى هدأتهم على بساط مساواة وعدالة ، وانما خلف الأولون من الذكر ما يظل رنينه فى اذن الدهر ما كانت له اذن واعية ، ومن الاثر ما يحيط بالعالم كله ، فالعـــالم كله يزورهم ، وخلف الآخرون وراءهم قلوبا من أهلهم وأصدقائهم ما بقيت حتى تشاركهم »(٢٢) ٠

« وما العقيـدة وما الوحى ، وما الخير وما الشـــر ، وما الانسانية ، أليس « الناس جميعا يستحقون الاشفاق والرحمات » وهذا الجمال والنضارة وكل ما يحيط بك من حركة « دائمة تذهل النفس عن كثير مما يقع حولها ٠٠ ولكن هناك شيئا يصل صداه

---

(٢١) يوميات باريس ٢٠ سبتمبر ١٩٠٩ ٠
(٢٢) اليومية السابقة ٠

للنفس بلا واسطة ويقع عليها فيترك فيها اثرا شديدا ، وذلك هو بؤس الانسانية الشديد ، ومهما يكن من سبب ذلك البؤس فانه مؤلم جدا للنفس » ٠٠

تدور مثل هذه الخواطر فى نفسه ولكنها لا تلح عليه كثيرا ، ولعلها خطرات لا تبرق حتى تخفت ، ولكنه حين يختار لنفسه ، يرى بدلا من ان يكتب كتابا « اضـــع فيه ما بنفسى وما يجول فى الفكر والضمير » أن يفرغ لدراسة علم الاجتماع ، وان كان يعود اليها بين الحين والآخر فى يوميات باريس ٠ ويلتحق « بمدرسة العلوم الاجتماعية العالية » ويرى هذا اليوم الاثنين الثامن من نوفمبر ١٩٠٩ « أول أيام التلمذة » فى أوربا ، وقصدها أصيل هذا اليوم « لسماع الدرس ومع أنى لم يفتنى منه غير القليــــل ، فانه لم يعلق بذهنى كثيرا » ويرد ذلك الى قلة حصيلته من اللغة ، « وانتظر من الأيام أن تصل بى الى نقطة حسنة قريبا ان شاء الله » ٠

وما ان يمر عليه العام حتى يجيد الفرنسية ويؤم المســارح وتمتعه الموسيقى الغربية ، ويقبل على قراءاته الفرنسية ، ويحفى منها بما كان يحفى به من قراءاته الانجليزية من الفكر الاجتماعى والفلسفى ، ويبدأ فى قراءة اعترافات جان جاك روسو فى الرابع من نوفمبر ١٩١٠ ، فيؤخذ بها « ويشعر أمام جمال هذا الأسلوب وترتيبه وتوازنه بهزة سرور غريبة فكأن نفسه تسرى مع موجات موسيقى الكاتب ، ويحس من لحظة لأخرى بحاجة تدفعه لان يقرأ بصوت عال حتى تتلذذ أذنه بالنغمات المرتلة التى تسمع ٠٠ وكأن الكاتب ممسك بزمامك يصرفك على هواه ، وانت مسرور ان تجد نفسك مطيعا سائرا من غير انقطاع » ٠٠

ويقبل على الحياة الفرنسية ويسوح فى أرجاء فرنسا ويطوف بغرب أوربا متاعا لعقله وبصره ولا يزور ألمانيا « ولم يكن عجبا أن

أرغب من قبل عن زيارة برلين وزيارة المانيا كلها ، وقد القى فى ورعى، بعد الذى قرأته من الأدب الفرنسى أيام كنت طالبا بباريس ، أن الألمان شعب متغطرس ، يمقت حرية الرأى ، ويسير فى حياته الخاصة والعامة سيرة عسكرية يعابها الطبع الحر » وقد تغيرت نظرته الى المانيا بعد أن زارها بعد ذلك بسبعة عشر عاما لحضور المؤتمر الدولى للصحافة فى كولونيا ممثلا لمصر ، ورأى أن يطوف ببلدانها وأن يزور العاصمة الألمانية »(٢٣) ٠

ويعب من الأدب الفرنسى ، ولكن عقله يبقى عالقا بالفكر الاجتماعى والفلسفى ، ويغدو أقرب الى المفكر منه الى الأديب ٠٠ ويمجد فولتير كما مجد روسو ويراه كاتبا موسوعيا « كتب فى كل المواضيع بنفس دقيقة لطيفة وذكاء نادر وسعة اطلاع مدهشة ٠٠ لا يدعو القارىء لمذهب ولا لعقيدة ، ليس كروسو الذى يحسب ما يقوله الحق من عند الله ، بل هو كرابليه ولافونتين يأخذ الحياة ضاحكا منها لاعبا بها عاملا ليكسب من وجوده فيها قدر ما تستطيع هى أن تعطيه ٠ ثالث كتاب هذا العصر هو مونتسكيو وأشهر ماكتب الخطابات الفارسية ، وكتاب روح الشرائع »(٢٤) ٠

وحين يلج ميدان المعرفة كاتبا ودارسا بعيدا عن الكتابة للصحافة فيما يرد على الخاطر من موضوعات عامه يعرض لحرية الارادة الانسانية فيكتب عن القدرية والجبرية وهو من موضوعات الفلسفة العويصة التى شغلت الفلاسفة فى الشرق والغرب منذ بداية التفكير الفلسفى عند الانسان وينشرها تباعا فى المقتطف عام ١٩١٧ وان خيل الينا انه كتبها قبل هذا التاريخ بزمن ، ويترجم الفصل الذى لخص فيه الفيلسوف الفرنسى « هيبوليت تين » كتاب «البوذية»

---

(٢٣) مذكرات حـ ١ ص ٢٤٤ ٠

(٢٤) اليوميات : بعنوان أدب اللغة الفرنسية ٠

للعالم الألمانى كوبين ، ويبقى لديه حتى ينشره تباعا فى « السياسة » على أربعة أعداد فى اكتوبر ونوفمبر ١٩٢٣ ، ويبدأ فى كتابه « جان جاك روسو : حياته وكتبه » وينشر الجزء الأول منه عام ١٩٢١ والجزء الثانى عام ١٩٢٣ ، وفى تلك الفترة من بواكير حياته الفكرية يترجم كما قلنا مقدمة ليفى برول لكتابه عن « أوجست كومت » وفلسفته ..

ويستهويه من « هيبوليت تين » آثاره « التاريخية والأدبية والفلسفية التى .. تجعله حقيقا منذ اليوم بأن يسجل فى ثبت الخالدين .. ويكفى ليقدر القارىء مدى هذا الأثر العميق الذى تركه تين فى تفكير العالم أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد أنه كان أكبر أثرا فى نشر الفلسفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها أوجست كومت نفسه ، وانه الى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الأدب وفى الشعر وفى كل صور نشاط العقل الانسانى بما جعل للعلم الوضعى وللفلسفة الوضعية من متانة الأركان ما لايزال حتى اليوم وطيدا قويا غاية القوة» (٢٥) .

ويكون حفيا بكتابة سيرته حينما احتفلت فرنسا عام ١٩٢٨ بمرور مائة عام على مولده ، ولا يستهويه منه « هذا الفضل العلمى العظيم » فحسب ، فان له « فضلا آخر لا يقل عنه ، بل يريد بعضهم أن يذهب الى أنه يفوقه ، ذلك هوفضله ككاتب ، فهذا الرجل الذى حاول ونجح فى محاولته هدم الفلسفة الكلامية التى كان الاستاذ فكتور كوزن عميدها فى عصره ، والذى حاول ونجح فى أن يقر الى

جانب التفكير الواقعى ـ positive المذهب الجبرى Determinisme ـ وأن يطلق هذا المذهب على الانسان ويخضعه له بمقدار ما تخضع له الأفلاك والموجودات كلها ٠٠ »(٢٦) ٠

ولعلنا نرى سر هذه الحفاوة بفلسفة تين وتفكيره ، ذلك انها صدى لايمان هيكل بالواقع المجرد مما يقوم عليه العلم ويثبته القانون العلمى أو يثبته واقع الأشياء ذاتها ، والفلسفة الوضعية هى سند هذا الواقع ، فاذا دعاها الفلسفة الواقعية فلعله يرى هذا المسمى أقرب الى حقيقتها ،ولأن العلم وحده هو القادر على اصلاح أى خطأ يقع فيه « من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب ، ومايترتب على هذا من تبويب ينتهى الى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساسا لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة »(٢٧) ٠

فلم يكن هيكل ممن يميلون مع الهوى ، أو تحدوهم نأمة فى النفس أو وقر من أى انسان أو يتحدى ما أجمع عليه الناس من رأى مالم يراهم على خطأ والعقل دليله فى هذا والمنطق حجته ، فليس التحدى أو مخالفة المجموع طلبا للشهرة أو رجاء لمنفعة أو خيالا جامحا يعوزه البرهان العقلى والدليل العلمى ، أو تبعية عمياء لايمان باطل أو رأى عظيم ، وكم خالف أستاذه لطفى السيد فى الكثير مع ما يحمله له من توقير واعجاب وحب ووفاء ٠

ولقد رأى فى الفلسفة الوضعية أو « الواقعية » كما يحلو له أن يسميها ، كما رأى فى فلسفة الجبر والاختيار سـندا لتفكيره وسلوكه ، وطبيعة تكوينه منذ مولده ونشـأته ، حتى ليعزف عن الوزارة على ما فيها من جاه بعدما رأى « من مناورات لا تلائم طبعى

(٢٥) ، (٢٦) تراجم : هيبوليت أدولف تين ٠

(٢٧) المصدر السابق ٠

ولا تتفق مع الحياة الحرة التى عشتها طول عمرى ، فانا لا اطيق بطبيعة مولدى وتكوينى الا الطريق المستقيم ، على ذلك نشأت منذ طفولتى وصباى ، ثم كانت حياتى العملية حياة استقلالية بكل معنى الكلمة ، هذا الى ما وجهتنى اليه دراســـاتى العليا وقراءاتى فى الفلسفة والأدب والقانون ، وايمانى بحياة الكاتب المجيد وانها خير حياة واكفلها ببقاء ذكر صاحبها ، لأن الكاتب المجيد فلذة من ضمير الانسانية ، وضمير الانسانية باق على الدهر بقاء الدهر »(٢٨) .

ولم يسع هيكل الى شهرة أو منصب وانما سعت اليه الشهرة وسعى اليه المنصب ، ولم يتلون ولم يتقرب ولم يسع من باب الى باب ، ويقى طوال حياته مرفوع الهامة محمود الذكر طيب الأثر .

---

(٢٨) مذكرات : جـ ٢ ص ١٦١ .

٤ البدايـــة

عاد هيكل الى مصر عام ١٩١٢ بعد أن حصل « على اجازة الدكتوراه فى الحقوق من جامعة باريس » وكان أول مصرى يحصل على هذه الاجازة العلمية وينال هذا اللقب الذى يلحق باسم صاحبه طوال حياته ، وقد استقام فكره على رأى فى السياسة وفى الأدب وفى النظر الى الحياة بوجه عام ٠

وقد أدت به نشأته أن يكون صاحب رأى فى السياسة ، لا لصلته بالجريدة ولطفى السيد ، ولكن لأن نشأته فى الريف المصرى وفى طبقة الأعيان الناشئة ، وقد عانت من مظالم الأتراك واستبدادهم واستعلائهم على المصريين أكثر مما عانى غيرها ، وعلى رأس هؤلاء الذوات الترك خديو يأخذ بيدها ويؤثرها على غيرها من المصريين علت أقدارهم أو هبطت ، مما كان سببا فى قيام الثورة العرابية ، وكان أعيان الريف أكثر من غيرهم سخطا وبرما بهذا الاستبداد التركى فقد كانوا وحدهم هم الذين يلقون من استبداد الحكم كل

عناء ، فهم الذين يحصلون لها (المال) أو الضرائب بلغة العصر ، وهم الذين يجمعون لها عمال السخرة وأنفار التجنيد ، ومن توانى أو نسب اليه التقصير كان الجلد جزاءه ، فلما أصبح الحكم للانجليز بعد احتلالهم البلاد ، وغدا لهم السلطان المطلق ، كانوا هم الآخرون « يزدرون المصريين أشد الأزدراء ويحقرونهم أشد التحقير ، وان لم يكونوا يضربونهم بالسياط » ·

والغضب من الحكم التركى ، كالغضب من الحكم الانجليزى يسود مشاعر هذه الطبقة من أعيان الريف · وحين ظن كرومر أنه قد كسب الفلاحين ـ أو ذوى الجلاليب الزرقاء كما دعاهم ـ الى جانبه جاء حادث دنشواى فأخلف ظنه ، فأن يبوء الحكم التركى بسخط الفلاحين ، لا يعنى الرضـــا بحكم الانجليز ، أو الترحيب بالاحتلال البريطانى ، ويكفى الاحتلال البريطانى مذمة أنه هو الذى أجهض ثورة عرابى ، وعصف بالحركة الدســـتورية التى قادها الأعيان ومجلس شـــورى النواب حتى آتت أكلها بدستور ١٨٧٩ ودستور ١٨٨١ ·

ولم يكن هذا جديدا على المصريين ، فحين عجز المماليك عن التصدى للفرنسيين فى حملتهم على مصر تصدى لهم المصريون وكانت ثورة القاهرة الأولى والثانية هى التى طوحت بآمال نابليون فى اقامة امبراطورية فرنسية فى المشرق · فرحل عن مصر سرا واتجه بفتوحه الى أوروبا ينشـــد احياء الامبراطورية الرومانية يحكمها وتحكمها معه أسرته ·

وكان الأعيان المصريون برمين بالحكم التركى برمهم بالحكم الانجليزى ، فاذا كانوا ينشدون استقلال مصر فانهم ينشـــدون الى جواره تقييد سلطة الخديو واقامة حكم نيابى يتيح للمصريين حكم أنفسهم بأنفسهم ، وتقييد سلطة الحاكم تركيا كان أو انجليزيا ، بما يحول بينه وبين الحكم المطلق وما يجره من مساوىء على البلاد والعباد ··

ولما كان هيكل أو الدكتور هيكل كما أصبح من بعد ، على ظهر الباخرة فى طريقه الى مصر ، وكان على الباخرة « انجليزيان اتصل بينه وبينهما الحديث عن « أحوال مصر السياسية » وقال أحدهما :

ـ « لا أرى الا أن مصر ستضم الى الامبراطورية جزءا منها . فهذه هى سياسة كتشنر ، ورأيه سيتبع آخر الأمر لا محالة » ..

وكان لهذه الكلمات ـ كما يقول ـ فى نفسه وقع أليم « وأنا أومن بوطنى وبحقه فى الاستقلال . وأنا أعلم أن انجلترا صاحبة الأيد والقوة هى المصرفة لسياسة العالم فى ذلك العهد ، وأن تركيا صاحبة السيادة الأسمية على مصر يومئذ لم تستطع منع انجلترا من دخول مصر واحتلالها لقمع الثورة العرابية ، وانها لن تقوى على مقاومة انجلترا يوم تهيىء لنفسها فرصة تضم فيها مصر الى ممتلكاتها ، فاذا حدث ذلك فقد صـــرنا كالهند وغير الهند من المســـتعمرات البريطانية ، وقد آن لنا معشـــر الشباب أن نتوقع حياة مقصوصة الأطراف ، وبخاصة نحن الذين تعلمنا فى أوربا وعرفنا مبلغ مايتمتع به أهلها من حرية » .

لم تكن تلك هى البداية فى تفكير هيكل السياسى ، فقد استقام فيها على رأى وفكر قبل أن يرحل الى فرنسا فى طلب العلم ، ولكنه حينذاك وقد عاد الى مصر أوائل أغســـطس ١٩١٢ وبدأ عمله فى المجاماة بالمنصـــورة أو ديســـمبر ، كانت مصـــر تمر بما يشبه الركود السياسى ، فحزب الأمة قد بدأ ينفرط عقده ، وان بقيت الجريدة وبقى لطفى السيد يدعوان الى مبادئه ، والحزب الوطنى قد انتابه الوهن بعد هجرة زعيمه محمد فريد الى أوربا حيث يتسع الميدان لدعوته ، ولحق به عبد العزيز جاويش وبعض أقطاب الحزب ، ولم يبق لحزب الاصلاح شأن بعد وفاة صاحبه الشيخ على يوسف عام ١٩١٣ .

ولم يلق قيام الجمعية التشريعية وحلولها محل مجلس الشورى والجمعية العمومية اهتماما كبيرا من المصريين الا ماثار من جدل حول الوكيلين المعين والمنتخب ومن هو أولى منهمـا بالأنابة عن الرئيس عند غيابه ، وكان الوكيل المعين عدلى يكن والمنتخب سعد زغلول ، وكان قد رشح نفسه فى دائرتين من دوائر القاهرة ، ونجح فيهما نجاحا فاق كل تقدير ، وكانت له فى الجمعية زعامة أولئك الذين انتخبوا لعضويتها من المنتمين للحزب الوطنى وحزب الأمة وحزب الاصـلاح ، وكانوا قلة بين أعضـائها الا أن صـوتهم كان أعلى الأصوات ، ولكن الجمعية التشريعية لم تعش غير خمسة شهور من عام ١٩١٤ ، حيث قامت الحرب العالمية الأولى وانقلبت الأمور رأسا على عقب ..

وحين اندلعت نيران الحرب كان الدكتور هيكل يصطاف فى لبنان برفقة صديقه وخدن صباه وزميله فى دراسة الحقوق وفى مهنة المحاماة بالمنصورة عبد الرحمن الرافعى وكان من شباب الحزب الوطنى المؤمنين ايمانا يقرب من التقديس لمصطفى كامل ومبادئه ، وكان قد مر على الدكتور هيكل عامان فى مهنته لايجد وقتا للراحة أو الاستجمام تشغله قضاياه فاذا فرغ منها عكف على القراءة والكتابة يقبل على مطالعاته فى « الفلسفة والتاريخ والسياسة » أكثر مما كانت مطالعاته فى القانون الا ما اتصل منها بقضاياه . وقد استقام له منها جميعا رأى ومذهب فلم يقف بفكره السياسى على ما يدور فى ساحة الوطن من اتجاهات تتناقض كثيرا وتلتقى قليلا وان أدت أحداث الحرب الى اتجاهات جديدة ما كان لها وجود من قبل الا من قلة تصدر عنها ولا تجد لها صدى فى أذهان الشعب ، وكان الدكتور هيكل من أولئك القلائل الذين اتخذوا من الجريدة منبرا لدعوتهم . يسير معهم على خطتهم فى تحقيق استقلال مصر بعيدا عن السيادة العثمانية وسلطان الانجليز والخديو ، ولعله ذهب فى هذا الى أبعد مما ذهب اليه أستاذه لطفى السيد ، فنراه ينكر عليه تأييده للحلفاء تحدوه اليه نظرة واقعية الى

حقائق الأمور ، فلم تكن تركيا قد دخلت الحرب بعد فى صف الألمان، وما كان لانجلترا أن « تنقض تعهداتها للدولة العلية ، مالزمت هذه الدولة الحياد ولم تنضم صراحة لجانب الألمان » على غير ما يأمل لطفى السيد وحسين رشدى أن تصدر انجلترا تصريحا تعترف فيه « باستقلال مصر التام » متى انتهت الحرب بانتصارها ·

ولم يجد الدكتور هيكل فيما ذهب اليه لطفى السيد وحسين رشدى وقد أخذ يحدث الانجليز فى ذلك أملا يمكن أن يتحقق ، فلم يقر أستاذه فيما ذهب اليه ، وكان يرى أن تقف مصر من الحرب الدائرة موقف الحياد ، كما كان موقفها من الحــرب الايطـالية التركية ·

وكتب الدكتور هيكل كتابة محنق يسفه هذا الرأى ويحمل على ما تروج له المقطم من أنه « اذا خيرت مصر بين من يحكمها من الدول ، فانها تختار انجلترا » وتسايرها فيه الجريدة على حياء » ولا يرضى لطفى السيد عما كتبَ ، فرفض نشره ، « وكان طبيعيا أن يرفض نشره » فقد كانت « ألفاظ عبارتى قاسية لأنها كانت صورة لما خاطبت به لطفى بك » · ·

كان الدكتور هيكل واضحا فى رأيه ، واضحا فى التعبير عنه ، وان كان لطفى السيد « يرى أن السياسى يجب الا يبرم بالوقت . وأنا معشر الشباب يجب أن نروض أنفسنا على شىء من الصبر فى المسائل الخطيرة ، فكثيرا ما حل الوقت مشاكل كان الانسان يحسب انها لا تحل » ··

ولم يكن وضوح الرؤيا عند الدكتور هيكل وليد الحماس ، أو عاطفة شباب جياشة ، ولكنه كان اســتقراء عقليا لواقع محتوم ، قمين بمن ينكره أن يتنكب الصواب ·

وقد حمله هذا الاستقراء العقلى لواقع السياسة منذ البداية على الرطيق الذى سلكه فلم يحد عنه طوال حياته ، وبين الحماس العاطفي والنظر العقلى بون بعيد ، وكثيرا ما تجنى ثورة العاطفة على جلاء العقل والنظرة الصـائبة ، ففى طريقه الى مصـــر مع عبد الرحمن الرافعى على ظهر الباخرة التى اقلتهما معا مع غيرهما من المصريين الى ارض الوطن ، أبدى عبد الرحمن الرافعى « تشيعه فى الحرب لألمانيا وعظيم رجائه فى انتصارها ، بل عظيم تفته بهذا الانتصار ، وسألنى رأيى فى هذا الأمر والى أى الدولتين : فرنسا أو المانيا ، يتجه ميلى ؟ » ..

« فقلت :

« ـ أنا لا أستطيع أن أتشيع ضد فرنسا وقد درست بها ثلاثة أعوام أفدت فى أثنائها أجل الفائدة ، وأشعر لهذا بأن لفرنســا على دينا لا أستطيع نســيانه ، الا أن أنكر الجميل وليس فى طبعى انكار الجميل » ..

أما اذا دخلت انجلترا الحرب الى جانب فرنسا ، فان الرأى « أن يكون موقفنا فى هذه الحرب موقف الحياد ، سواء اشتركت فيها انجلترا أم لم تشترك ، وسواء اشتركت فيها تركيا أم لم تشترك » ..

كان هذا هو الرأى الذى استقام عليه الدكتور هيكل فى ميدان العمل السياسى ، منذ زمن بعيد ، وهو مازال فى مراحل الدراسة والتكوين ، أما وقد خرج الي الحياة العامة ، فانه على ما استقام عليه ، على يقين منه وأمين عليه .

الا أن الفكر السياسى لدى هيكل كان ابعد من ذلك مدى وأرحب ميدانا ، بدت ملامحه فى « زينب » حين يحمل على رق الأرض ويأسى لشقاء الفلاحين والفقر الذى يسـلبهم حريتهم ، وحين يحمل على نظام التجنيد الذى يقع فى ربقته من لا يستطيع أداء البدل النقدى » .

وحين يكتب « جان جاك روسو » يهديه الى مصر والى كل مصرى « صورة لأب من أباء الحرية والمساواة وقديس من قديسى العدالة الاجتماعية الصحيحة ، ونصير متقدم من نصراء الايمان بالعمل » .

ونراه يدين بما يدين به روسو فى كتاباته،فيقتبس منه مؤيدا :
« ان الملكية الخاصة والترف والأمعان فى الشهوات هى سبب كل التعاسات التى تقع على رءوس ملايين الفقراء »(١) .

ولا يرى فيما كتب عن روسو الا « أن أعرف الى أى مقدار أخذت الانسانية بهذى آراء المرشد ولا الى أى حد زاغت عن نور أفكاره ، ولكنى كمصرى أولا وكشرقى ثانيا أريد أن أن أعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب لغل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس من التفاهم الحر المخلص لا على مجرد القوة الغاشمة المتحكمة »(٢) .

وقد استهواه من روسو « نزعته » الى الفضيلة القائمة على أساس العدالة الاجتماعية ، فقد كان بطل المساواة والداعى لازالة الفوارق الظالمة بين الناس ، ولعمرك هل رأيت ظلما أفدح من الظلم القائم عليه نظام ذلك العصر ، والذى لايزال نظام عصرنا الحاضر قائماً عليه الى حد كبير ، يقولون ان القاعدة الأساسية القائمة عليها جمعيتنا الحاضرة هى الحرية المطلقة ، ولسنا ندرى أى شىء يراد بالحرية المطلقة ولا أين هى فى العالم الذى نعرفه .. ومع ذلك نرى من ينادى لنا بأسماء الأخاء والمحبة والتضامن ، بين أهل هذا الميدان المتنافسين المتطاحنين يفتك قويهم بضعيفهم وغنيهم بفقيرهم وحاكمهم

---

(١) جان جاك روسو : ص ١٠ ط ٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

بمحكومهم مادامت حريته مطلقة فى هذا الفتك ، أى مادام القانون لم يرتب عليه قصاصا » ..

« هذا لعمر الحق هو الظلم وهو الاستعباد الصارخ فى أبشع أشكاله ومظاهره « ولا شىء يضمن زواله الا أن تطبق قواعد العدالة الاجتماعية » (٣) .

وموازين العدالة الاجتماعية كما يراها أن يسلح الأطفال منذ نشأتهم « بمعدات الحياة من صحة طيبة وتعليم صـــحيح واعداد للسعادة والنعمة » فلا يواجهون الحياة عزلا من الســـلاح الذى يواجهون به حياتهم قادرين عليها اكفاء لها ، مما يقرب بينهم ويقيم علاقاتهم على المحبة والتضامن والتعاون بغير اذلال أو اشفاق أو استعلاء أو مرحمة ، « وعندى أن هذه الفضائل التى نسمع أسماءها اليوم : الرحمة ، والجود ، والاحسان وأمثالها ليست الا من خلق مدنيتنا الظالمة التعيسة التى تريد أن تستدر رحمات الظالمين بدلا من تقوية روح التضامن عندهم ، والتى تريد الى جانب ذلك أن تهدئ المظلومين المنكوبين ليظلوا فيما هم فيه من بؤس ثم لا يثورون » .

أى فكر هذا الذى يسبق فيه الدكتور هيكل جيله والجيل الذى تلى جيله فمازال العالم قسمة بين من يضحون بالحرية الفردية فى سبيل المساواة الاجتماعية وبين من يضحون بالمساواة الاجتماعية فى سبيل الحرية الفردية ، ولم يهتد العالم الى طريق سوى بينهما . « فالتنافس على المال أساس كل تعاسة ومصدر كل جريمة وداعية كل ظلم » ولا يرى الدكتور هيكل خلاصا من هذه الآفة الا بالعمل حقا لكل انسان ، العمل الذى يسلك بالانسان سبيل الارتقاء والتقدم عدلا لغيره وعلى قدم المساواة مع غيره .

---

(٣) المصدر السابق ص ١٧ .

ونراه حين يؤلف مع بعض رفاقه فى أعقاب الحرب « الحزب الديمقراطى » فلا يختلفون على المبدأ السياسى ، فاذا كان الجانب الاقتصادى من برنامج الحزب ، كان عزيز ميرهم سكرتير الحزب « أدنى الى التطرف فى الاشتراكية وكنت أنا على العكس أدنى الى التطرف فى مبدأ الحرية الفردية ، وكنا يومئذ نكافح عن هذه الآراء بحدة الشـــباب وقوة ايمانه بما يعتقد ، أيا كان ما يعتقد ، ورأى زملاؤنا أن عليهم واجبا أن يوفقوا بيننا وكان مصطفى عبد الرازق هو الذى نجح فى هذه المهمة ، فقد سألنى : أفأنت تضن على الفقراء بحقهم فى التعليم والتداوى والعيش عيشا انسانيا ؟ وأجبت بطبيعة الحال : أن لا · وسأل عزيز : وهل أنت تريد الغاء الملكية الخاصة فى مصر حالا ؟ فأجاب عزيز : أن لا · قال مصطفى : أمامكما اذن ميدان فسيح مشترك تستطيعان العمل فيه متفقين ، فاذا جاء اليوم الذى لا مقر فيه من اختلافكما ، ولا أحسبه يجىء قبل ســـنوات طويلة ، نظرنا جميعا فى الأمر وفصلنا فيه بما يقضى به الحال يومئذ وعلى ذلك وجدنا الصيغة التى تبقى معها الملكية الفردية ، ويتمتع معها الفرد الانسانى بحقوقه الاقتصادية الأساسية بوصـــف كونه انسانا » ·

وكان له من حسه بالسياسة الدولية ومراميها ما لا يقل عن ادراكه لحقائق الفكر السياسى العام ، ولواقع الاتجاه السياسى فى مصر ، فنراه يتنبأ فيما كتب بعنوان « الحرب الحاضرة وآثارها» فى ست مقالات كانت آخر ماكتب للجريدة بأنه « سيكون من نتيجة هذه الحرب أن نزعزع أركان المدنية الأوروبية المتحكمة فى العالم ، وأن تنقل الحضارة من حوض البحر الأبيض المتوسط الى حوض الاطلنطى أو الباسفيكى ، وبذلك تتيح لأمم الشرق فرصة التحرر من العبودية التى فرضتها عليها » ··

وصدقت الأيام نظرة هيكل فلم تصرح انجلترا باستقلال مصر

كما كان يأمل لطفى السيد ، وخاب كل رجاء فيما كان يسعى اليه حسين رشدى ، واشتدت الرقابة على الصحف وأعلنت انجلترا حمايتها على مصر ، وأعلن ممثلها فى نفس اليوم عزل الخديو عباس لانحيازه الى الأعداء وتنصيب الأمير حسين كامل سلطانا مكانه ، ولم تمض طويل وقت حتى وصلت قوة تركية الى قناة السويس مالبثت أن ارتدت على أعقابها عند أول صدام بينها وبين القوات البريطانية المصرية المشتركة ، وكانت الأحكام العرفية قد أعلنت وخضعت موارد مصر لمطالب الجيش البريطانى ، وأخذت سلطات الاحتلال فى تجنيد فرق العمال المصريين ، وكلفت المديرين ومأمورى المراكز والعمد بجمعهم وأسمتهم فرق المتطوعين ، فأورثت الاحتلال فى قلوب المصريين بغضا فوق ما كانوا يحملونه من بغض ومقت له من قبل ٠

وآثر لطفى السيد الانسحاب الى قريته برقين وترك الجريدة يتولاها عبد الحميد حمدى ، فلم تبق طويلا كغيرها من صحف الرأى، ولم يرض الدكتور هيكل وبعض رفاقه أنه تتحطم أقلامهم فأعادوا اصدار السفور ــ كما قلنا ــ وظلت منفذ أقلامهم الى نهاية الحرب ، وأقبل الدكتور هيكل على الكتابة فكانت البواكير الأولى لقلمه ما أشرنا اليها من قبل

وتؤذن الحرب بالنهاية ، ويصدر الدكتور ودرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة مبادئه الأربعة عشر ومن بينها حق الشعوب فى تقرير مصيرها ٠ ووقف الدكتور هيكل من اعلان مبدأ تقرير المصير موقف الحذر ، ورأى أنها كبعض وعود انجلترا الرسمية بالجلاء ، وقد جاءه يوم اعلان ويلسون مبادئه ، صديقه عبد الرحمن الرافعى « مغتبطا متهللا » وهو يقول : « انتهينا ياسيدى ! لنا حق تقرير المصير ، وعلى ذلك سيخرج الانجليز من مصر ويتم الجلاء » وعبثا

يحاول الدكتور هيكل أن يقنعه «بأن يخفف من غلوائه ومن حماسته» وأن لا يصدق « أن الولايات المتحدة تحارب انجلترا على الجلاء عن مصر » .

وتصدق الأيام بعد نظر الدكتور هيكل ودقة فراسته ، فما أن تعلن الهدنة وتخفت أصوات القنابل ، حتى يبرق الأمل فى نفوس الزعماء بقرب استقلال مصر ويفوضوا سعد زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وعلى شعراوى ممثلا للأعيان وعبد العزيز فهمى ممثلا لطائفة المتعلمين ، وهما من أعضاء الجمعية التشريعية مع سعد زغلول ، بمقابلة السير ريجنالد ونجت ممثل انجلترا فى مصر ، ليبلغوه « انهم بوصفهم نواب الأمة يطلبون الى انجلترا أن تعترف باستقلال مصر ، وأن مصر مستعدة متى اعترفت انجلترا بهذا الاستقلال أن ترتبط مع انجلترا بمعاهدة صداقة تكونان فيها ندين متساويين وتتعاونان بحكمها فى مواجهة الظروف الدولية اذا اقتضت الظروف الدولية هذا التعاون » ..

ولا يجد الرجال الثلاثة صدى لتلك الأحلام التى ساورت الكثيرين عن الحق فى تقرير المصير لدى ممثل بريطانيا ، وحين يتألف الوفد المصرى ويطرق أبواب مؤتمر الصلح فى باريس لا يرى من يعير هذا المبدأ اهتماما ، وتنتهى دعوة ولسون بعودة الولايات المتحدة الى عزلتها التقليدية ، ولو أن مصر لم تثر ولم تقف سندا للوفد المصرى فى مطالبه لما أصاخت انجلترا اليه سمعا ، ولما فكرت فى ارضاء المصريين بأقل ما يرضون به .

ولم يكن من بين من تكون منهم الوفد المصرى من عرف من قبل بالتطرف فى الوطنية ، وكان أكثرهم ممن ينتمون الى حزب الأمة أو يرضون عنه ، ثم كان هذا الاتجاه الذى سلكه الوفد المصرى بتنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا تنظيما يحقق ما تنشده مصر من

استقلال وحياة دستورية ويرعى مصالح بريطانيا فيها ندين متساويين هو الاتجاه الذى قام عليه حزب الأمة وعبر عنه لطفى السيد على صفحات الجريدة ، وان ضم الوفد المصرى اليه محمد على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتى ، وكانا من المنتمين للحزب الوطنى ، لكنهما اخذا جانب هؤلاء المعتدلين الذين تكون منهم الوفد المصرى ، فقد بدا صوت الحزب الوطنى حينذاك خافتا لا يسمع ، بل انا لنرى أنه انتهى يوم هاجر زعيمه محمد فريد الى أوربا · ولم يكن له دور فى الحركة الوطنية التى التف ثوارها حول سعد زغلول وحول الوفد المصرى ، وان بقى قائما على مبادئه دون شيعة ولا أنصار ، يستمد بقاءه مما خلف مصطفى كامل من ذكر عطر لم يعد عليه اختلاف الحال ·

ويرى الكتور هيكل وصحبه من الشـــباب المثقف الذى تلقى العلم فى أوربا:مصطفى عبدالرازق ومنصور فهمى ومحمود عزمى وهم زملاؤه فى باريس وعزيز ميرهم وكان زميلا لبعضهم فى جامعة ليون وقد جمع تحرير مجلة السفور بينهم من قبل أن عليهم واجبا يتحتم اداؤه للوطن ، فألفوا الحزب الديمقراطى وألح عليهم الحماس ولعله الطموح ، طموح الشباب لأثبات الذات وتقدم الصفوف وهم صفوة المثقفين الذين تشربوا معانى الديمقراطية والحرية والتقدم المنشود ، أن يكون لهم « ممثل فى الوفد المصرى الذى تالف برياسة سعد باشا زغلول ، وقد علمت ، حين عدت يوما من المنصورة الى القاهرة ، انهم سعوا لتنفيذ هذه الفكرة ، فقابلوا بعض أعضـــاء الوفد ، فلم يوفقوا فيما سعوا اليه ، ولم يقبل الوفد أن يشرك أحدا منهم فى عضويته » ··

ولم يعرف الناس ما كان يدور بين الزعماء وان ترامى اليهم خبره مجملا غير مفصل ، حتى أولئك الصفوة من الشـــباب الذين الفوا الحزب الديمقراطى لم يكن لديهم علم بما يدور وان عرفوا أن

الزعماء يسعون لتحقيق استقلال مصر ، وأن حق الشعوب فى تقرير مصيرها كما أعلنه ويلسون حجتهم لذلك ، ولم يكن الدكتور هيكل كما قلنا ممن يؤمنون بصدق الحلفاء فى تحقيق ما أعلنه ويلسون ، ولعل ويلسون نفسه ما كان يفكر فى أمر هذه البلدان الخاضعة للاستعمار الأوربى وما كان يعنيها بتصريحه ، ولعلها لم تدر له على خاطر ، وكان ما يعنيه هو حق تقرير المصير لشعوب أوربا التى تخضع لحكم غريب عنها كبولندا والبلقان وما كان تابعا لامبراطورية الهابسبرج ، بدليل اعترافه بالحماية البريطانية على مصر ، فى الوقت الذى أذنت فيه انجلترا للوفد المصرى بالسفر الى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام ·

ولم يعرف الناس من خير هؤلاء الزعماء الا أنهم يسعون لاستقلال مصر التام ، فأصبح نداء المصريين من بعد « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فاذا لم يكن هناك ما يبشر بنجاح هذا المسعى، أو أن انجلترا تنكر على الوفد المصرى الذى تكون برياسة سعد زغلول هذا السعى ولا ترى لمصر فيه حقا ، فليس أمام المصريين غير الثورة ·

وكانت عبارة « الاستقلال التام » أبعد مدى مما ينشده الزعماء وكل ما كانوا يأملونه تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا تنظيما يكفل لمصر نوعا من الحكم الذاتى فى ظل الدستور يرفع عن مصر ما تنوء به من سلطة مطلقة شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية ·

الا أن هذه العبارة « الاستقلال التام » كانت هى الشرارة التى أورت لهيب الثورة ، فما كان المصريون ينشدون أقل من ذلك بعد هذا العناء الثقيل من وقر الاحتلال البريطانى ومظالمه خلال سنوات الحرب بل منذ كانت أحكامهم الغاشمة فى دنشواى ، فانزاح من نفوسهم ما كان يوصف به العدل الانجليزى قبل الحرب من أنه أسمى

صور العدل الانسانى ، ولم يبق فى أذهانهم غير صور المشنوقين والمجلودين فى دنشواى وغير انتهاب أقواتهم ودوابهم وتسخير أكثر من « مليون ومائتى ألف من الفتيان الأشداء فرقتهم فى ميادين القتال وأهملتهم أسوأ أهمال ، فكانوا يتساقطون كالذباب وتنقطع أخبارهم عن أهليهم فلا يسمع عنهم خبر بمرض أو وفاه ٠٠ ومن كان من أهل البلاد موسرا أو مشهورا بالثراء فرضوا عليه اعانة قسرية للصليب الأحمر ، أو يظل عرضة للكيد وتعطيل المرافق ٠٠ واستعان الانجليز بالجيش المصرى فى جزيرة العرب ، كما استباحوا أموال الخزانة العامة ، فأخذوا من الوزارة ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه باسم الهدية »(٤) ٠٠

ولكن ٠ علام يعتمد الزعماء فى نجاح مسعاهم اذا خذلتهم أوربا كما خذلت مصطفى كامل من قبل ، واذا ما أوصد مؤتمر السلام أبوابه فى وجوههم ؟

كان هذا مما شغل الدكتور هيكل ــ كما يقول فى مذكراته ــ ولعله قد شغل غيره من الشباب الواعى ، ان لم يشغل الجماهير الفقيرة التى أولت الوفد ثقتها وفوضته فى حمل مطالبها والسعى لتحقيقها أينما وجد للسعى سبيلا ، فصارح به لطفى السيد ؛ وكان الرجل ــ كما يقول ــ صريحا فى اجابته فقال : « ان خطتنا أن نسافر الى باريس وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وأن نطلب تطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان ، فان أجبنا الى مطلبنا كان ذلك ما نبغى ، والا ذهب رشدى وعدلى الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الحماية ، تنظيما أساسه قيام الحكم الدستورى الصحيح فى البلاد ، فقيام هذا الحكم يرفع عنا ماننوء به من سلطة مطلقة شرعية كانت السلطة أو

(٤) العقاد ، عباس محمود : سعد زغلول ص ١٨١ ــ ١٨٢ ٠

فعلية ، ويدنينا من هدفنا فى الاستقلال ، اذ يتيح لنا فرصة النهوض بالشـــعب فى مدارج الرقى فاذا بلغ أشـــــده لم يكن لغيره عليه سلطان » ..

ترى أكان هذا رأى لطفى الســـيد ، أم كان ما أجمع عليه الزعماء ؟

يقول الدكتور هيكل انه لم يطالع أحدا بما سمع « فلو أنه عرف لهوجم الوفد وأعضاؤه على أساسه .. وبعد عشرين سنة أو نحوها من تأليف الوفد ، ذكر محمد على علوبة باشا ما كان مقررا من هذه الخطة ، فلما اطلع الجمهور عليه رآه عجبا ، ولم يكن من العجب فيه شىء » .

الا أن نص الحديث الذى جرى بين الزعماء الثلاثة وسير وينجت والذى دونه كل من عبد العزيز باشـــا فهمى فى مذكرات وأورده عبد الرحمن بك فهمى سكرتير لجنة الوفد المركزية ، يدل على طلب « الاستقلال التام » وأن يكونوا « أصدقاء الانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر .. » وكانت النية فى البداية أن يسافر الوفد الى انجلترا « للمفاوضة مع أولى الحل والعقد البريطانيين بشأن مستقبل مصر » كما جاء فى خطاب سعد زغلول الى قيادة الجيش الانجليزى بطلب « جواز له ولأعضاء الوفد بالسفر » .

وفى البيان الذى بعث به ســــعد زغلول الى معتمدى الدول الأجنبية نصت المادة الأولى منه على « طلب الاستقلال التام » كما نصت المادة الثانية على « طلب اقامة حكومة دستورية مع استعداد مصر للاستعانة فى تحقيق برامج الاصلاح فيها بذوى العلم من أهل البلاد الغربية » ..

وفى أول خطاب سياسى ألقاه سعد زغلول فى الحفل الذى أقامه حمد باشا الباسل لذلك فى ١٣ يناير ١٩١٩ قال :

« فنحن أمام القانون الانســانى أحرار من كل حكم أجنبى فلا ينقصنا الا أن يعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال » ·

اذن فقد كانت الخطة التى أجمع عليها الزعماء أن يسافروا الى أوربا لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام فى باريس وأمام الرأى العام الانجليزى والاتصال بالمسئولين الانجليز فى انجلترا ، وكان هو نفس الاتجاه الذى ينشده رئيس الوزراء حسين رشدى بالأذن له ولعدلى يكن وزير المعارف بالسفر الى انجلترا لعرض مطالب مصر ، واستقال لرفض وزارة الخارجية البريطانية السماح لهما بالسفر ·

ويبدو أن الزعماء حتى ذلك الوقت لم يكونوا على ثقة من موقف ايجابى يقفه الشعب سندا لهم ، وان اقبل الملايين فى حماس بالغ على توقيع التوكيلات التى اذاعها الوفد فى الناس ، فليس العنف من طبيعة المصريين الا أن يبلغ بهم الضيق المدى الذى يفوق حد الصبر ·

وكان الدكتور هيكل قلقا « بعض الشىء » من هذا المصــير « لأن نشاط الوفد ونشاط بعض الهيئات السياسية لم يكن له فى الجو المصرى أثر ظاهر ، ولعل رجال الوفد أنفسهم كان يساورهم مثل هذا القلق » فلا غرو أن كان الرأى الذى أفضى به لطفى السيد اليه على هذا القدر من التواضع · فمالا يدرك كله لا يترك كله ·

الا أن الروح الكامن فى أعماق مصر منذ الأزل ، روح الصبر والترقب حتى تكون القارعة التى لا يبقى لها مع الصبر صبر آخر ، فما أن اعتقل الزعماء الأربعة : سعد زغلول وحمد الباسل واسماعيل صدقى ومحمد محمود ، ونفوا الى مالطة ليلة الثامن من شهر مارس ١٩١٩ حتى كانت مصر من أدناها الى أقصاها فى اليوم التالــى

٩ مارس شعلة تتأجج بالثورة وتموج بالغضب وتنذر بعنف ما بعده عنف ، لقد انطلق المارد من قمقمه ، فلم يصغ لنداء الوفد يدعوه الى الهدوء .

وتنزل انجلترا على ارادة مصر ، ويعلن ممثلها الجديد « لورد اللنبى » ـ كما جاء على لسان الدكتور هيكل ـ « أن انجلترا لا تريد لمصر الا الخير ، وانها حريصة على احترام الشعور القومى المصرى، حريصة على استدامة العلاقات الحسنة بين مصر وانجلترا ، وانه لذلك أمر باطلاق سراح الباشوات الأربعة المعتقلين بمالطة ، وأجاز لهم وللوفد السفر الى باريس حيث ينعقد مؤتمر الصلح » .

ويبلغ فــــرح الدكتور هيكل بروعة هذا « الانتصـــــار على الامبراطورية البريطانية » أن يذهب من فوره « الى مكتب التلغراف وبعثت لزوجى بالتهنئة الخالصة لانتصارنا الحاسم ، وأيقنا يومئذ أن لم يبق على قرار حقنا فى تقرير مصيرنا الا أن يذهب الباشوات الأربعة الى باريس ، وأن يطلبوا الى مؤتمر الصلح المنعقد هنــاك ما يريدون ليقر المؤتمر مطلبهم فتجلوا انجلترا عن مصر ويرد الينا حقنا كاملا فى الاستقلال وفى السيادة » .

وأغلق مؤتمر الصلح أبوابه فى وجه الوفد ، وبقى أعضاؤه يتلمسون موقفا الى جانبهم من الدول الأعضاء ومن الرأى العام الدولى فلا يجدون لدعوتهم صدى ، وهاهو ويلسون صاحب حق تقرير المصير يعلن اعترافه بالحماية البريطانية على مصر ، قبل أن تطأ أرجلهم أرض فرنسا ، ويرى الدكتور هيكل أن الأمر « دبر من قبل أن يعين لورد اللنبى ممثلا لانجلترا فى مصر ، وأن الخطة وضعت للفت فى عزيمة الشعب المصرى الثائر بأن تتظاهر السياسة البريطانية باحترام عواطفه ، فى حين ندخل بعد ذلك فى روعه أن ثورته لن تجديه نفعا ، لأن مصيره تقرر من جانب من يقررون مصير العالم ، فاذا

يئس الشعب المصرى ازاء ذلك بلغت السياسة البريطانية غرضها ، وعرضت على هذا الشعب عروضا تجعله يتوهم أن ثورته لن تذهب سدى ، وانه قد آن له أن يطمئن وأن يقبل الأمر الواقع ، أما اذا لم ييأس الشعب ، وهذا مالم تكن انجلترا تتصـــوره ، فلديها من الأحابيل ، وألوان الدهاء ما تتعب به هذا الشعب حتى يسكن راضيا أوكارها الى المصير الذى تريده له ٠

وابرمت معاهدة فرساى وفيها اعتراف بالحماية البريطانية على مصر وكان على مصر أن تقبل هذه الحماية لتكون لها شرعيتها، ورأت انجلترا ايفاد لجنة بريـاســـة لورد ملنر وزير المستعمرات البريطانية الى مصر ، لترى على الواقع ما تكون عليه العلاقة بين مصر وانجلترا ٠

الا أن المارد الذى ظل حبيســـا فى قمقمه ، قد انطلق محطما أغلاله ، فلم تصل لجنة ملنر الى مصر حتى وجدت الأبواب مغلقة أمامها ، ولا يرضى أحد من المصريين كبارهم وصغارهم أن يتصل بها ، ولم تكن تتصل بمن يرضى الاتصال بها الا بليل ، وقيل لها ان الوفد وحده هو الذى يتحدث باسم مصر ولا جدوى من الاتصال بغيره ٠

٥ حصاد الثورة

حملت الثورة سعدا الى القمة من عواطف المصريين ، فهو الذى توجه على رأس الثلاثة الكبار لمطالبة ممثل بريطانيا العظمى باستقلال مصر ، وكان على رأس الباشـــوات الأربعة الذين نفاهم الانجليز الى مالطة ، وفى اليوم التالى لنفيهم انفجرت مصر من أدناها الى أقصاها فى ثورة عارمة هزت أركان السياسة التى رســـمتها انجلترا لمصر ولنفوذها فى تلك المنطقة الحســـاسة فى استراتيجيتها الأمبراطورية ، وركبت انجلترا رأسها ، وظنت أنها لو استطاعت اخماد الثورة لخلصت لها مصر يصنعون بها « ما يشاؤون — كما يقول الدكتور هيكل — لذلك واجهوا الحركة بالعنف أشد العنف ، لم تكن مظاهرة تقوم الا اســـرعوا بمواجهتها واطلاق النار على المتظاهرين فيها ، كان ذلك شأنهم فى العاصمة وفى غير العاصمة ، ثم أنهم هددوا أعضاء الوفد ممن لم ينفوا الى مالطة بأنهم يحملونهم

تبعة هذا الأضراب ، واصدر الوفد بيانا فيه دعوة الى الهدوء ، لكن الأمر كان قد خرج من يد الوفد وأعضائه ، وأصبح كل يتحرك بدافع وجدانه ٠٠ حتى كنت تسمع الفلاحات فى الحقل ، وتسمع نســاء المدينة العاملات ينادين النداءات الوطنية الســائدة يومئذ : تحيا مصر ، ويحيا الوطن ، وتحيا مصر والسودان ، وما الى ذلك من نداءات كانت تصدر عن القلب والشعور ، فى حماسة وقوة أخاذتين بالألباب » ٠٠

وكانت الثورة تزداد على الأيام قوة وعنفا ، يؤيدها ، حتى من كان يظنهم الانجليز أكثر الناس اعتدالا ، أيدها القضاة وأعضاء البيت المالك ، وأيدها قوم « اشتهر عنهم من قبل أنهم أصــدقاء الانجليز وأولياؤهم فى مصر ، بل « كان هؤلاء – كما يقول الدكتور هيكل – أشد اندفاعا من غيرهم » ٠

ورأت انجلترا أن تبدل من سياستها ، فنقلت ممثلها فى مصر « سير ريجنالد ونجت » وعينت مكانه لورد اللنبى ، ليعلن محاسنة انجلترا لمصر ، وحرصها على احترام شعور مصر القومى ، وبقاء العلاقات طيبة بينها وبين مصر ، ويبشر المصريين باطلاق ســراح الباشوات الأربعة والأذن لهم ولأعضاء الوفد بالسفر الى باريس كما يريدون ، حيث ينعقد مؤتمر الصلح ٠ وكأنها أرادت لهم أن يواجهوا الواقع باعلان ولســون اعتراف حكومة الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر ، وكأن انجلترا قد دبرت ذلك من قبل أن يعين لورد اللنبى ممثلا لها فى مصر ، وهو ظن يبلغ حد اليقين لدى الدكتور هيكل « للفت فى عزيمة الشعب المصرى الثائر » ٠٠

الا أن الحماية حتى تكون شرعية يجب أن يقبلها ويرضى بها الشعب المحمى ، لذلك بعثت بلجنة ملنر الى مصر ، لتحقيق ماحدث، ولتقترح ما تراه من حلول لتنظيم العلاقة بين انجلترا ومصر ٠

وانتقلت المسألة المصـــرية من اطارها الدولى الى اطارها الثنائى ليختلف المصريون فى طبيعة هذا الدور وليقع الخلافـقومايقع بين أعضاء الوفد المصرى فى باريس ، ليسيطر على أجواء السياسة المصرية من بعد ويتغير اللاعبون على المسرح ، ولكن سعد زغلول قد أصبح معبود الجماهير ، فعقدت له لواء الزعامة ، وبقيت هذه الهالة من الأكبار والاجـــلال للزعامة وحدها ، فتوارت الى جانبها كل القيادات والزعامات الأخرى ، ولم يعد على لسان المصريين غير سعد ، وكل خارج عليه اثم فى حق مصر وفى حق الوطنية ، وبقى الناس مسحورين به وكأنهم قد نوموا تنويما مغناطيسيا ، وراحوا يتناقلون القصص والأساطير التى علت به الى ذروة القداســـة كالجنين ينادى فى بطن أمه « يحيا سعد » وأوراق الفول أو قرونه قد كتب عليها « يحيا سعد » وتوارى الهتاف لمصر فى الهتاف لسعد ، وكأنما مصر قد أصبحت هى سعد وسعد هو مصر ، وكان لكل هذا أثره فى سير الأحداث ، وفى علاقة مصر بانجلترا ٠

وقد استبدت هذه الهالة بعواطف الناس فدانوا لســـحرها ، وأصبحت من موروثات الزعامة لمن ورثه فيها ، فاستطاع أن يفصل من الوفد تباعا من يختلف معه على رأى أو لايدين له بطاعة من غير أن يؤثر ذلك فى كيان الوفد أو فى شعبيته لدى السواد الأعظم من الناس ، كما كان لسعد يوم فصل كل أعضاء الوفد الأول ولم يبق معه غير مصطفى النحاس ، وسينوت حنا ، وواصف بطرف غالى وويصا واصف ٠٠

ولا نستطيع أن نرد ذلك الى وضع اجتماعى أو سمة من سمات الصراع الطبقى ، كما كان بين المصريين والأتراك فى الثورة العرابية فقد تألف المصريون والأتراك فى ثورة ١٩١٩ ولا الى تباين ثقافى بين الوفد والخارجين عليه ، فقد كانوا جميعا من نبع واحد ، ولم يكن الخلاف حول المبادىء والافكار ، وان بدا على تلك الصورة ، وانما كان خلافا فى حقيقته بين الزعامات فهو خلاف شخصى أكثر منه فكرى ، وان تعلل بالطريقة والأسلوب ٠

وقد تنوشنا الحيرة فى تفسير تلك الظاهرة ، أكان سعد من الجاذبية الشخصية ، أو « الكاريزما » كما يعبر عنها الأمريكيون الى هذا الحد من السحر الذى غلف المصريين فانقدوا اليه مسحورين بل مبهورين ، أم كانت تلك النائمة فى آذان المصـــريين فنفذت الى وجدانهم فوارت صوت العقل بما كان لسعد من سحر القول ومهابة الصورة ، أم كان مابدا من تشدد سعد فى موقفه من لجنة ملنر فى وقت بدا فيه عدلى اكثر ميلا الى التيسير ٠ والشعوب لا نقبل من زعمائها لينا فى مطالبها ، ولعل الشعب قد أحس بأيثار الحكومة الانجليزية لعدلى على سعد ، بعدما بذله عدلى من جهد للتوفيق بين الوفد المصرى ولجنة ملنر ، فرأت فيه الرجل المرتقب الذى يستطيع أن يصل معها الى تسوية ترضى بها ، والشعب فى جفوته للانجليز وشكله فى نواياهم يشك فيمن يؤثرونه أو يثقون به ٠ وقد أشـــارت الحكومة الانجليزية على السـلطان فؤاد بأن يؤلف عدلى وزارة المفاوضات ونبهت — كما تشير الوثائق البريطانية بأن « تلقى آراء عدلى فى تشـكيل وفد المفاوضـات كل اعتبار » على غير هوى من السلطان ، وعلى غير مايرى لورد اللنبى ، من أن حكومته تسرف فى ثقتها بقدرة عدلى على مواجهة الموقف ٠ ولعلها كانت تدرك أن ذلك مما يوقع الفرقة بين القيادات المصرية ٠

كان سعد حقا هو الشخصية اللامعة التي بهرت المصريين منذ

ثورة ١٩١٩ ، وكانت له مكانته قبل أن تقوم ، فقد عرفه الشعب وزيرا للمعارف من قبل ، ورحب اللواء باختياره لها ، ولم يكن سعد من أنصار مصطفى كامل ولا من شيعة الحزب الوطنى ، فكتب يقول : « ان مايعرفه من أخلاق وصفات سعد بك زغلول ، وهو فى المحاماة أولا ، وفى القضاء ثانيا يحملهم جميعا على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريا مشهورا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل » ويأمل « أن يكون كما كان على باشا مبارك ، والفلكى باشا ، وأمثالهما ممن خدموا العلم فى هذا القطر ، خدمات خالدة ، وكانت لهم فى مناصبهم الكلمة النافذة والرأى المتبع » ٠

وعرف الناس سعدا ، كما أملت اللواء ، وزيرا « استقامت ـ كما يقول العقاد مؤرخ سيرته ـ له السلطة التى تليق بوزير فى ديوانه » واستطاع أن يرد دنلوب مستشار المعارف العتيد الى حجمه كموظف تابع للوزير ، وكان لدنلوب صولة وصولجان وأمر نافذ لم يكن لأى من اقرانه على ما كان لهؤلاء الأقران من سلطان مطلق ، « فقد كان المستشار الانجليزى ـ كما يقول الدكتور هيكل فى مذكراته ـ فى كل وزارة ، هو كل شىء ، ولم يكن لوزير سلطان ، وقد كانوا يروون حكاية تصور مكانة الوزير خير تصوير ٠ كان ابراهيم باشا فؤاد ، فيما أذكر ، وزيرا للحقانية (العدل) وكان يوما فى مكتبه بالوزارة جالسا على (كنبة) وثيرة ، ومن حوله جماعة من أصدقائه يتحدثون اليه ، ودخل عليه سكرتيره يريد أن يوقع منه أوراقا فيها قرارات وزارية ٠ فسأل الوزير : هل وقعها المستشار ؟ وأجاب الشاب السكرتير : نعم ! ، فكان تعقيب ابراهيم باشا فؤاد أن أشار الى ختمه الموضوع على المكتب ، وقال : الوزير عندك على المكتب ، وقع به الأوراق ! » ٠٠

ويعلق الدكتور هيكل ، بقوله : « وسواء أصحت هذه الحكاية أم لم تصح ، فهى تصور سلطة الوزير فى ذلك الحين ، وانه لم يكن يستطيع أن يوقع الا ما اقره المستشار الانجليزى » ٠

وكان لسعد فى وزارة المعارف مآثر أخرى ، « فقد وجه عنايته الى نقل التعليم الابتدائى والثانوى الى اللغة العربية جهد الطاقة ، كما بعث البعوث الى أوربا ليتموا دراستهم العليا بمعاهدها فى مقدرة الميزانية ، وهو فى هذين الأمرين ــ كما يرى الدكتور هيكل ــ قد بدأ بدءا آتى ثمراته بعد ذلك على نحو صالح » .

وان كان سعد قد وقف من الدعوة الى تعريب التعليم موقفا ، نقده فيه كثيرون ، ذلك أنه دافع عن التعليم باللغة الأجنبية ، ولا ترى الا أنه كان على الحق فى هذا ، فما كان من اليسير تعريب العلم ، لتزود بها المدارس ، قبل أن يكون من المصريين من هو قادر على ذلك من أبناء البعوث الذين يبعث بهم الى أوربا ، مما يدل على رجاحة الفكر وبعد النظر ، وكانت أول بعثة حكومية بعثة الحقوق عام ١٩٠٨ بعد انقطاع عشرات السنين وسبقتها بعثة الجامعة الأهلية بعام ..

كما عرفه الناس صهرا لرئيس الوزراء التركى « مصطفى باشا فهمى » فى وقت « كانت الأسر التركية جميعا ــ كما يقول العقاد ــ فضلا عن الأسر الرفيعة من تلك الطبقة ، تترفع عن مصاهرة الفلاحين ، وسعد فلاح ، وكانت تترفع عن مصاهرة المحامين وسعد كان محاميا فى العهد الذى لم تسم فيه صناعة المحاماة الى ذلك المقام » ..

وحين تألفت أول هيئة لانشاء الجامعة المصرية الأهلية ، اختير سعد رئيسا لها ، فلما عين وزيرا للمعارف ، قيل ان تعيينه لصرفه عن رياسة مجلس الجامعة اضعافا لشأنه وكأنما المشروع لا يسير بغير سعد . فلما كانت انتخابات الجمعية التشريعية وهى الانتخابات الأولى والأخيرة فى تاريخها فاز سعد فى دائرتين من دوائر القاهرة الأربع فوزا فاق كل تقدير ، كما فاز بمنصب الوكيل المنتخب للجمعية،

وكان الوكيل المعين عدلى يكن ، فلما ثار الجدل فى الجمعية فيمن يحل محل الرئيس حين غيابه كان ذلك أول لقاء بين القرنين فى حلبة الزعامة ، ولعله كان البذرة التى أنبتت الخلاف والتنابذ بين سعد وعدلى مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ الحركة الوطنية من بعد وفيما شاب الفكر السياسى فى مصر من ابهام وغموض .

ومالبث القرنان أن التقيا فى حلبة الكفاح الوطنى ، وكما كان سعد صاحب الصوت العالى والصورة البارزة أمام الناس فى أحداث الجمعية التشريعية ، كان عدلى صاحب الصوت المتوارى والصورة التى فرضها الواقع السياسى ، ولم يكن أمام الناس غير الوزير فى وزارة حسين رشدى التى قبلت الحماية ورضيت عزل الخديو وفشلت فى أن تنال لمصر من الانجليز اعترافا بحق لها أو تصريحا بما يكون عليه وضع مصر فى أعقاب الحرب ، وان لم يعرف الناس مسعى للوزارة فى هذا السبيل ، وكان عدلى أبرز وزرائها لا لقرابته للأسرة الحاكمة ولا لأنه كان وزيرا للخارجية فى وزارة حسين رشدى الأولى ووزيرا للمعارف فى وزارته الثانية التى تلت اعلان الحماية البريطانية على البلاد وعزل الخديو والغاء وزارة الخارجية ثم فى وزارته الثالثة التى تلت اعتلاء السلطان فؤاد العرش خلفا للسلطان حسين كامل ، ولكن لأن عدلى كان أبرز وزرائها جميعا وأقربهم الى حسين رشدى رئيس الوزراء .

ولعل الناس لم يعرفوا أيضا أن حسين رشدى قد رفع تقريرا الى السلطان أحمد فؤاد برأيه فى السفر هو وعدلى الى لندن « لبسط آراء عظمتكم وآراء حكومتكم فى مصير مصر السياسى لحكومة صاحب الجلالة البريطانية مباشرة » - كما يذكر شفيق باشا فى حولياته السياسية - ولم يعرفوا شيئا عن رفض الحكومة البريطانية لهذا الطلب ، وان كانوا قد عرفوا بمقابلة الأقطاب الثلاثة « سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمي ، وعلي شعراوى » فى نفس الوقت لمندوب

انجلترا السامى مطالبين باستقلال مصر ، وان لم يعرفوا ما كان يدور وراء الكواليس من تأييد رشدى وعدلى لهذه الخطوة ، ولم يعرفوا ـ كما يقص عبد العزيز فهمى فى مذكراته ـ أن هذا التأييد كان له أثره البعيد فى اقتحام سعد زغلول الميدان والدعوة الى تأليف وفد مصرى يسعى الى تحقيق استقلال مصر . ولم يكن هناك من يذكر أن « محمد محمود » هو صاحب الفكرة الأولى فيما انتهى الرأى من بعد ـ كما يروى عبد العزيز فهمى فى مذكراته ، التى صدرت عن دار الهلال بعنوان « هذه حياتى » ـ فيقول :

« وذات يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩١٨ كنت مع صديقى أحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول ومحمد محمود ، خارجين من مجلس ادارة الجامعة المصرية القديمة .. فلما جاوزنا بابها ، واتجهنا الى الجهة القبلية نحو ميدان الفلكى ، اعترض محمد محمود باشا سبيلنا واضعا عصاه أمامنا فى عرض الرصيف ، وقال : الى أين تذهبون ؟ اننى أريد أن نتحدث فى مصير مصر .. لقد انتهت الحرب وستحصل الهدنة ، ولابد من النظر فى تأليف وفد كى يسافر للمطالبة بحقوق البلاد .. »

« وقد سرنا نحن مع محمد محمود باشا الى منزل والده(٥) ، وأرسلنا الى على شعراوى باشا ، فحضر الينا .. وفى أثناء وجودنا معا بسلاملك المنزل استعاد سعد زغلول من محمود محمود باشا بيان مايريد ، فكرر ما سبق له قوله من ضرورة السعى للحصول على حقوق البلاد ، وتأليف وفد للعمل لهذه الغاية ، فأبى سعد زغلول موافقته على ذلك قائلا :

« ـ أن الوقت غير مناسب لأن الانجليز منتصرون ، وعددهم

---

(٥) حيث أقيم نزل الجامعة الأمريكية الآن على ناصيتى الفلكى .

ومعداتهم كثيرة تملأ البلاد وهذا وضع لا أمل معه فى الحصول على شيء مهم » ..

« ثم استطرد سعد قائلا :

« ـ أرى الأولى من ذلك أن تؤلف جمعية يساعد أعضاؤها بعضهم بعضا .. »

« فنزل علينا هذا الكلام كدش بارد ، فأمسكنا عن الحديث .. وانصرف سعد باشا الى بيته »..

« وبعد ذلك انصرف كل منا الى حاله ، وقطعنا النظر عن مسألة تأليف الوفد .. »

ويروى عبد العزيز فهمي كيف التقى سعد باشا بحسين رشدى باشا وعدلي يكن باشا في نادى محمد على « وروى لهمـــا ما كان من أمر اجتماعنا وحديثنا فى منزل محمد محمود .. وما كان من رده علينا ورفضه موافقتنا على تأليف الوفد ، فعتب عليه رشدي باشا وعدلى باشا ، وخطآه في رأيه ، وقالا له :

ـ انك أخطأت ، لأننا نحن والسلطان فؤاد متفقون على السفر لأوربا للمطالبة بحقوق مصر .. ومن المصلحة أن يكون الى جانبنا فريق من الأمة يدافع عن حقـــوقها ، نعتمد عليه لأخذ شيء من الانجليز » ..

ويمضي عبد العزيز فهمي فيقول :

« سمع سعد باشا هذا الحديث من رشدى باشا وعدلى باشا ، فخشى ألا يكون له فى الأمر شيء .. فأسرع الى دعوتنا الى منزله ، وفتحه لنا وسيعا مملوءا بالكرم ! » ..

---

(٦) نادى التحرير الآن .

وطبيعى ألا يعرف الناس شيئاً من ذلك ، ولكن الذى عرفوه ، وذكره العقاد ، أنه : « فى سبتمبر دعا سعد أصحابه محمد محمود باشا ، وأحمد لطفى السيد بك ، وعبد العزيز فهمى بك ، الى مسجد وصيف للتحدث فيما ينبغى عمله عندما تسنح الفرصة للبحث فى المسألة المصرية بعد اعلان الهدنة ، فأجاب الدعوة محمد محمود باشا ، وأحمد لطفى السيد بك ، واعتذر عبد العزيز بك لمرضه » ..

ولا نعتقد أن العقاد قد عرف حينذاك شيئا مما حدث بين هؤلاء الكبار ، ولا نعتقد أن أحدا قد عرفه غير أصحابه ، ولكن الناس جميعا قد عرفوا أن سعد زغلول يدعو الى تأليف وفد يطالب باستقلال مصر ، وأن المبادرة بالفكرة كانت على يديه ، وكان بين الأقطاب الثلاثة الذين قابلوا « سير ريجنلد ونجت » ممثل بريطانيا ومندوبها السامى فى مصر ، أولاهم بالزعامة والقيادة ، ان لم يكن لسـنه وشخصيته ومقامه بينهم ، فلأنه كان وكيل الجمعية التشريعية المنتخب والوزير السابق ، وكان من المكانة بينهم ، انهم انصرفوا عن فكرة تأليف الوفد حين عابها ، ثم تبعوه بعد أن دعاهم اليها من بعد .

كانت تلك مكانة سعد وذاك مقامه ، حين دعا الى تأليف الوفد وحين قابل مع زميليه المندوب السـامى البريطـانى ، فلما رأت السلطات العسـكرية اعتقاله ونفيه الى مالطة اعتقلت معه ثلاثة آخرين رأت أنهم القوة الكبرى فى الوفد ، أولهم اسماعيل صدقى باشا أقدم الوزراء بين أعضاء الوفد بعد سعد زغلول ، وثانيهم محمد محمود باشا بن محمود باشا سليما شيخ الصعيد ورئيس حزب الأمة من قبل ، وحمد الباسل شيخ البادية وقطبها الكبير،وكان سعد كبيرهم كما رآه الانجليز رأس الفتنة . بينما رآه الشعب نبى الوطنية المبعوث وأمله المرجى ، فثار لنفيه وانفلت المارد من قمقمه واصبحت مصر نداء واحدا رتيب النغم هادر القسمات من اقصاها الى أدناها . ولم يكن أمام انجلترا الا أن تطلق سراح الباشوات

الأربعة وتسمح لهم وللوفد بالسفر الى باريس حيث ينعقد مؤتمر الصلح ٠

وكانت مصر حينذاك قد أصبحت يدا واحدة وقلبا واحدا ولم يعد للنعرة الطائفية أو الطبقية سبيل الى فصم الوحدة الوطنية أو الحد منها ، فالأحن التى أثارها الاحتلال بين الاقبـاط والمسلمين قد تلاشت واختفت تماما ، والطبقة التركية الحاكمة قد أخذت تهتز منذ زمن ، فالأعيان المصريون يصهرون الى الأسر التركية ويتمثلون القيم والمثل التركية العريقة ، وحاق بالعناصر التركية المتمصرة ما حاق بالمصريين من ويلات الحرب ومساوىء الاحتلال ، وضاقت تلك الفجوة التى فصلت بين الذوات الترك والأعيان المصريين من قبل ، وحين جدت محاولة لتأليف حزب للأعيان باسم « الحزب المستقل الحر » قيل ان سلطات الاحتلال من ورائها باءت بالفشل ٠ كما كان للمستوزرين وعلى رأســهم رشدى وعدلى يد طولى على الحركة الوطنية وتأييدها ومساندتها ، ووقف أمراء الأســرة المالكة الى جانبها ، فأصدر كما الدين حسين ، وعمر طوسون ، ومحمد على ابراهيم ، ويوسف كمال ، واسماعيل داود ، ومنصور داود من الأمراء بيانا فى ٢ يناير ١٩٢٠ يطالبون فيه باستقلال مصر استقلالا كاملا دون قيد أو شرط ، وأنهم من الأمة المصــرية « جسم واحد للمطالبة بحقوق وطننا والتمسك بالاستقلال التام لمصر » ٠

وقد ارتضى الوفد منذ البداية أن يكون لرشدى وعدلى دورهما السياسى فى سند الحركة الوطنية وهو دور بقى خفيا على الرأى العام بعيدا عن جمهرة المصريين ٠ وقد أشارا على « ملنر بألا سبيل أمامه غير مفاوضة الوفد ، وأدلى رشدى بحديث الى جريدة وادى النيل بالاسكندرية يقول فيه ان أى محاولة لعقد اتفاق لا يوافق الوفد عليها « باطلة ومعرضة للفشل » ٠٠

ولم يكن ثمة خلاف بين المصريين على مايراه الوفد ـ وقد تجسد حينذاك فى سعد زغلول ـ حلا لقضية مصر ، ولكن ثمة تباين اختلف شدة وقصدا بين الزعماء والقادة على الهدف والطريقة ، وان كان الخلاف على الطريقة هو الذى أدى الى الانقسام بينهم ، وكان لنزعات النفس أثرها فى ذلك وهو ما تبينه ملنر وأشار فيه برأى أصبح قاعدة للعلاقات التالية بين مصر وانجلترا · يقوم على ابرام معاهدة تحقق لمصر ذاتيتها المنشودة وتضمن لانجلترا مصـــالحها الخاصة فى مصر ، تبرم بين الحكومتين ، على أن تكون الحكومة المصرية ممثلة للشعب المصرى تمثيلا لا يكون مطعنا لأحد ، فتوافق عليها ـ كما جاء فى تقرير اللجنة ـ « جمعية مصرية تنوب عن الأمة المصرية نيابة حقيقية » ··

وكان من هذا التباين أن أصدرت لجنة الوفد المركزية بالقاهرة بيانا تشترط فيه « الاعتراف باستقلال مصر التام » قبل أى مفاوضة، بينما رأى سعد زغلول والوفد فى باريس غير ذلك ، فلم يأخذوا برأى اللجنة ، ولم يأخذوا برأى الوزراء الثلاثة رشدى وعدلى وثروت بعودة الوفد الى القاهرة لمفاوضة لجنة ملنر ، واعلن سعد ـ كما جاء فى كتابه الى لجنة الوفد المركزية ـ « أننا نقبل العودة للمفاوضة على شرط أن تكون بين متعادلين فى حقوق المناقشة ، وطرفين كل منهما يمثل أمته ، وأن يكون الغرض منها الوصول الى عقد معاهدة تضمن لمصر استقلالها التام ، ولانجلترا مصالحها التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال التام ، وأن تعترف الدول بهذه المعاهدة وتسجل فى عصبة الأمم ، فاذا صرح الانجليز بذلك رسميا ، هنالك لا نتأخر عن العودة لمباشرة المفاوضة متى ألغيت الأحكام العرفية ، وضمنت لنا العودة لمباشرة أعمالنا عندما نريد ، أما المفاوضة فى أوربا فنحن مستعدون لها مع لجنة ملنر أو غيرها ، مادامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها التزام بشىء ما ، ومادام أن العبرة هى بما يتم الاتفاق عليه فى حدود التفويض لنا » ·

ولم يعد هناك من التباين فى رأى الزعماء والقادة ما يقف دون مفاوضات مباشرة بين الجانبين المصرى والانجليزى ، وكان لعدلى دوره البارز فى ازالة ما كان من لبس ، الا أن سعدا رأى أن تقوم وزارة يؤيدها بوضع النظام الدستورى لحكم يمثل الشعب ويكون أهلا للاتفاق مع انجلترا ، مادامت تشترط ذلك ، فاذا « تم تشكيل الوزارة على هذا النحو ، وأعلنت بروجرامها على هذه الصيغة أو بما فى معناها ، لا نتردد نحن وزملاؤنا فى العودة الى مصر لمساعدتكم على القيام بمهمتكم لدى الأمة ، والسعى فى أن تنتخب أعضاء فى تلك الهيئة ٠٠

ولكن انجلترا لا ترضى بالتسليم لمصر بنظام دستورى دون مقابل ، وأبدى ملنر استعداده لمفاوضة الوفد ، وكان قد قفل راجعا الى بلاده فى انتظار ما يتفق عليه المصريون ٠ بعد أن اقترح أن تكون هيئة المفاوضة من عدلى وبعض أصدقائه وأعضاء من الوفد ٠

ورأى كل من سعد وعدلى أن يلتقيا فى باريس ، وكان عدلى قد أزمع السفر الى أوربا للترويح لأول مرة بعد الحرب ، وجاء عدلى الى باريس ، والتقى القرنان ، وكان لعدلى دوره فى التمهيد لمحادثات بين الوفد ولجنة ملنر علها تصل الى تنظيم للعلاقة بين مصر وانجلترا ، وانتقل سعد على رأس الوفد الى لندن فى ٥ يونية ١٩٢٠ ، وبدأت المحادثات فى ٩ يونيه ، وبقى عدلى مع الوفد ولم « يتول بنفسه ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ شيئا من المحادثات بين ملنـــر وســـعد زغلـــول الا حين كانت هذه المحادثات تتعثــر وتحتاج الى من يجد مخرجا من موقف دقيق » وكان سعد مرنا الى أبعد الحدود ولكن البون كان شاسعا بين أمانى المصريين والمصالح البريطانية وانتهى مشروع الاتفاق الى رفض المصريين له بعد أن كلف الوفد أربعة من رجاله أمام رأى الأغلبية على غير مايرى سعد زغلول هم:محمد محمود باشا ولطفى السيد بك والمكباتى بك وعلى ماهر بك بعرض المشروع على الأمة مع التزام الحياد ٠٠ وكانت تلك

هى البداية فى انقسام الوفد الى قلة من المتطرفين وكثرة من المعتدلين وكان سعد على رأس هذه القلة من المتطرفين ، وهم الذين ظفروا بتأييد الأمة ، وان كنا نرى أن التأييد كان لسعد أكثر منه لرأى على رأى ، فقد كان سعد قد تسنم الذروة حينذاك من حب المصريين وثقتهم واعجابهم ، حتى رأى ملنر ــ كما جاء فى تقريره ــ انهم وهم الذين وضعوا صيغة التوكيل الذى قبله المصريون منهم ، فليس هناك ما يحول بينهم وبين تعديل سياسة هم واضعوها ، وان جانب ملنر الحق فيما راه ، فلولا ان نص التوكيل كان تعبيرا دقيقا لما يبغيه المصريون ، لما تبعهم مصرى واحد · فالشعوب تنشد الكمال وان جذبها الساسة الى الواقع ، ولكن الرضا بالواقع لا يتأتى الا مع الثقة ، وقد بلغت الثقة بسعد مداها وماكان يجب أن يثلم بنفسه هذه الثقة كما كان لا يحب أن يشاركه فى هذه الثقة شريك ، ففى الوقت الذى رضى فيه بعرض المشروع على الأمة ، بعث ببيان الى الأمة يرفض فيه المشروع رفضا صــــريحا « لخروجه عن حدود توكيلنا » ··

وكانت البوادر جميعا تدل على حرص الحكومة الانجليزية على تسوية المسألة المصرية تسوية يرضى بها المصريون ولا تغير مصالح بريطانيا ومراميها ·

ورأى أكثر أعضاء الوفد وأبرز رجاله ، بل النخبة الأولى التى قام الوفد على أكتافها ألا يفوتهم حرص الحكومة الانجليزية على تسوية المسألة المصرية ، وأن تستمر المفاوضات « على قاعدة تحقيق التحفظات » التى وضعها المصريون على مشروع ملنر ، وأن تقوم بها هيئة رسمية يرأسها عدلى ويكون الوفد بمنأى منها رقيبا عليها، وكان لهم فى ذلك حجة أن يبقى الطريق مفتوحا أمام الوفد اذا لم يوفق عدلى فى مفاوضة الانجليز ·

ولم يرض سعد بذلك ورأى أكثر رجال الوفد أنه يستبد بالرأى

دونهم ، وكان أن قرر محمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك وعبد العزيز بك فهمى وعبد اللطيف بك المكباتى العودة الى مصر ، « وانهم لفى طريقهم يعبرون البحر ـ كما يروى الدكتور هيكل فى مذكراته ـ اذ وردت برقية من سعد باشا ، عرفت من بعد ذلك بالكلمتين الأوليين منها ـ نبتت فكرة ـ ومن خلالها يتبين أن بين رئيس الوفد وعدد غير قليل من أعضائه ، لعلهم كثرته ، خلافا فى الرأى على مشروع ملنر » فأعادت الى الأذهان « البرقية الأولى التى ذكر فيها أن وجود عدلى باشا الى جانب الوفد يعد كارثة على القضية الوطنية ، وأدخل فى روع ذوى الرأى أن وحدة الرأى بين أعضاء الوفد لم تكن سليمة ، وأن الأمر يحتاج الى علاج سـريع حاسم لتبقى صفوف الأمة كما كانت متراصة لا يعرف الوهن اليها مدخلا ولا سبيلا » ..

وكان سعد هو الذى طلب حضور عدلى الى باريس ، ولعله كان يظن ألا يستطيع عدلى أن يتألف اليه قلوب أعضـاء الوفد وأفكارهم « فقد كان بعض أعضاء الوفد المصرى بباريس ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ ينظرون الى عدلى باشا يكن ، يوم جاء اليهم من القاهرة ليسعى الى خلق صلة بينهم وبين لجنة ملنر ، نظرتهم الى أجنبى عنهم يقتضى أمره اليقظة والحذر ، وكان ذلك كما قدمت لأنهم لم يكونوا يعرفونه ، ولأنهم أو أكثرهم كانوا أصدقاء قدماء لسعد زغلول باشا ، هذا الى أنهم كانوا يمدون فى عدلى باشـا الصورة التامة لابن الذوات المختلف عن الفلاحين أمثالهم ، والذى أثار معركة مع سعد زغلول باشا ، وهما وكيلا الجمعية التشريعية ، وقد انحازوا الى جانب سعد باشا فى هذه المعركة ، فلا عجب وذلك شأنهم من الرجلين ، أن ينظروا الى عدلى باشا منذ حضر الى باريس بعين الحذر ، ولاعجب أن ينظر بعضهم الى وجوده بينهم نظـرة يشوبها ماهو أكثر من الحذر ، لكنهم مالبثوا حين اتصـلوا به وتحدثوا اليه وتناقشوا معه ، أن رأوه رجلا يختلف تمام الاختلاف

هو الرجل الذى ارتسمت صورته فى أنفسهم ، فهو على شدة احتفاظه بكرامته يحترم غيره احتراما تاما ، ويقيم لكل رأى يقال ما يجب من وزن ، ويرى فى أعضاء الوفد ، هؤلاء الذين وقفوا أنفسهم لخدمة وطنهم والعمل لاستقلاله ، رجالا جديرين بكل اجلال واكبار ، لأنه هو أيضا يحرص على أن يخدم هذا الوطن العزيز عليه ، ويرجو أن يتعاون مع رجال الوفد على تحقيق استقلاله ، لذلك اتصلت بين عدلى ورجال من الوفد مودة وثقة ، وزاد فى تقدير بعض رجال الوفد لعدلى أنهم كانوا يرونه حريصا على مناقشة كل مسألة فى هدوء من غير أن يحاول فرض رأيه ، بل كان على استعداد لقبول الرأى المخالف له اذا اقتنع بصحته ، ولم تكن هذه الحلة الأخيرة بنوع خاص من خلال سعد باشا البارزة ، فقد قضى حياته محاميا كبيرا ، وكان رجلا قوى العارضة قوى الحجة عنيفا فى المناقشة ، وكان لذلك ميالا بطبعه لفرض رأيه على غيره والزامه به ، فاذا رأى غيره أهدى منه رأيا لم يبد اقتناعا ، بل انتظر الى جلسة أخرى ليجعل رأى الغير الذى اقتنع هو به رأيا له يسجل باسمه وينقل عنه » ..

كان الخلاف فى واقعه خلافا بين الصفوة ذوى الرأى الواحد والمنبت الواحد ، ولكن أن يلوذ أكثرهم بمن كانوا يظنونه مختلفا عنهم بعيدا عن منبتهم فتلك ظاهرة لا تفسير لها الا أن الفروق قد ضاقت بين الصفوة التركية العريقة والصفوة المصرية التى أخذت تسفر عن نفســـها وتؤكد ذاتها منذ الثورة العرابية حتى اكتملت شخصيتها فى ثورة ١٩١٩ .

وكان التقارب شديدا من الناحيتين الاجتماعية والثقافية بين الحزبين الكبيرين : حزب الوفد ، وحزب الأحرار الدستوريين ، وكان من اليسير أن يكون الأحرار الدستوريون جناحا من أجنحة الوفد يتسم بطابع معين يخالف فيه الكثرة تطرفا أو اعتدالا ، كما يحدث فى كثير من الديمقراطيات المتقدمة ، لاسـيما وقد ارتضى الفريقان

اسلوبا واحدا لحل المسألة المصرية هو اسلوب المفاوضات مع الدولة المعنية ، الا أن الخلاف لم يكن خــلافا فكريا كما كان بين الحزب الوطنى واحزاب ما بعد الثورة ولم يكن خلافا على الغاية والطريقة، وانما كان خلافا على من تكون له الزعامة ومن هو صاحب القرار ٠ وكان الفوز فيه لمن يحظى بثقة الجماهير ويلعب بعواطفها ٠

وقد حظى سعد بتلك الثقة ، واستطاع بذكائه وقدرته على التأثير فى الجماهير قدرة بلغت حد السحر ، أن يجذبها اليه وأن يسيرها كيفما شاء ، ولم يكن له من قرين بين اضرابه ممن كانوا نواة الوفد الأولى ، أو ممن ضمهم اليه من بعد ، وهو الذى دعا علنا الى تكوين هيئة تطالب بحقوق مصر ، وان كان مخمود محمود هو صاحب الفكــرة ــ كما يروى عبد العزيز باشا فهمى « هذه حياتى » الا أن سعدا هو الذى بدأ بتنفيذها حين دعا الأقطاب اليه فى مسجد وصيف ، وفتح بيته لهم « وسيعا مملوءا بالكرم » كما يقول عبد العزيز فهمى ، وكان على رأس المنفيين الى مالطة ، ثم الى سيشل من بعد ٠ فلم يعد هناك من يزحمه فى ثقة الجماهير به أو ينافسه فيها ٠٠

ولئن استطاع عدلى ان يستقطب اليه أكثر اقطاب الوفد الأول ، حين اقترب منهم واقتربوا منه ، فان ما كان يسيرا عليه معهم ، كان عسيرا عليه مع الجمهرة الكبرى من الناس الذين لا يعلمون عنه الا انه كان وزيرا فى الوزارة التي قبلت الحماية ، وانه يتسنم القمة بين ابناء الذوات لقرابته الوثيقة بالأسرة المالكة منذ عهد عاهلها الأول محمد على ٠

وقد « رأى سعد باشا ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ هذا التغير فى نظر بعض اعضاء الوفد الي عدلي باشا ، فرابه الأمر ، ولعله

خشى أن يختلف مع عدلى باشا على الرياسة السياسية كما اختلفا من قبل فى مسألة الوكيلين على رياسة الجمعية التشريعية ، وأن يؤيد هؤلاء الأعضاء عدلى باشا فى الخلاف الجديد ، ولكنه لم يكن ليصنع شيئا وعدلى باشا زميله وصديقه ، وهو يعرف فيه النبل والكرامة وحب الوطن ، على أن ما تولى سعدا ازاء بعض أعضاء الوفد من ريبة انتقل الى أعضاء آخرين فى الوفد كانوا أقل معرفة بعدلى » .

فاذ كان عدلى قد ظفر بالجولة الأولى مع أعضاء الوفد ، حتى لم يعد منهم غير قلة الى جانب سعد فان سعدا قد ظفر ببقية الجولات حين قاد المعركة بحنكة الشيخ ودربة المحامى القدير ، يعيب خصومه دون أن يجدوا مردا له ، فبينما راح العائدون ينكرون أى خلاف بينهم وبين الزعامة ، بعد أن أشارت بعض الصحف الى انفصالهم عن الوفد ، ويعلنون فى بيان عام فى ٢٨ يناير ١٩٢١ ، بعد يومين من وصولهم : « أن الوفد بأجمعه وعلى رأسه رئيسنا الجليل سعد زغلول على أتم وفاق وأكمل اتحاد » كان سـعد قد بعث ببرقيته المشهورة « نبتت الفكرة » الى لجنة الوفد المركزية ، قبل وصولهم بثلاثة أيام ، وقفاها بخطاب مفصل الى صديقه طاهر بك اللوزى فى ٣١ يناير ، جاء فيه : « اعتز المخالفون بعددهم ، واعجبتهم كثرتهم فشمخت أنوفهم ، واستطالوا على وحدتنا فقسموها ، وعلى حقنا فهضموه ، فنقضوا فى اجتماع خاص بهم ما كان قرره الوفد فى اجتماع عام باشتراكهم ، ورفضوا مبلغا اذنا بصرفه ، وصـرفوا مبالغ لم نأذن بها وأبوا أن يسـلموا أمانة الصندوق لمن عيناه من غيرهم ، وقدروا للصرف مبلغا لم يأخذوا فى تقديره رأينا ، مكتفين بتقديرهم ، كأنهم من أمرائنا ، وكأننا من أتباعهم ، قرروا عودتهم بدون علمنا ، وأخـبروا اللجنة من عندهم ، وأعلنوا بذلك للمـلا انقسامنا وخلافهم ، ظنوا أن الأمة قد هوى الضعف بروحها ، ولوى اليأس بعزمها ، واستعدت للاستسلام ، فسارعوا اليها ، لا لكى

يقوموا ضعفها ، بل ليستميلوها الى الثقة بمن شكت فى اخلاصه(٧)، ليحسن تسليمها ، والى الشك فيمن وثقت بهم ليمتنعوا عن عونها ، ومن عجب أن هؤلاء الذين يريدون أن يسلموا لمثل هذا الرجل امور البلاد يديرها برأيه ، وبمساعدة من تعرفون ، لا يسمحون لى أن أرسل تلغرافا أو كتابا يحمل شـــكرا على عمل من الأعمال بدون اطلاعهم ، ويعدون انفرادى بمثل هذا العمل جارحا لهم وماســـا بكرامتهم ، حتى كان منهم أن أرسلوا الى خطابا يحتجون به على هذا الانفراد فى عبارات جافة لا يوجهها متبوع لتابع » ..

ولم تكن الأمة لتغفر عن من يثلم وحدة الوفد،فلم يجرؤ العائدون على التصريح باختلافهم مع سعد ، الا أن الأحداث كانت أقوى من أن تخفى ، ومالبثت أن تواكبت حتى غدت سافرة ، وأصبح على كل أن يختار طريقه ..

ويبدو أن انجلترا هى التى كانت تحكم الأحداث وتتحكم فيها ، وما كان يغيب عنها ما ألم بصفوف الوفد من تمزق ، ولعلها ترمى الى زيادة الهوة بين الفريقين ، حين أعلنت « أن الحماية أصبحت علاقة غير مرضية بين مصر وانجلترا ، وان الحكومة البريطانية مستعدة لمفاوضة حكومة مصرية يؤلفها عظمة السلطان لهذا الغرض ابتغاء اقامة العلاقات بين مصر وانجلترا على أساس أوجب للرضا » فبينما تطلب الى السلطان تاليف وفد المفاوضة ترى أن يكون الاتفاق موضع رضاء الشعب ، وتسعى فى الخفاء الى اختيار عدلى لهذا الأمر ، ويرى لورد اللنبى غير ما ترى حكومته ، والسلطان فؤاد لا يميل الى عدلى ويحذر المندوب السامى من تشيع انجلترا له ، ويرشح بديلا له « أحمد مظلوم باشا » رئيس الجمعية التشريعية وموضع ثقة السلطان .

---

(٧) يريد عـدلى .

ولكن انجلترا كانت ترى عدلى اقدر المرشحين على مواجهة سعد وحصاره بما كسب من أعوان فى صفوف الوفد المصرى ، وألف عدلى الوزارة ، وأعلن أنه « سيدعو الوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول باشا الى الاشتراك فى العمل لتحقيق هذا الغرض » بتحديد العلاقة الجديدة بين بريطانيا العظمى وبين مصر والوصول الى اتفاق لا يجعل محلا للشك فى استقلال مصر ٠

وبدت بوادر الانقسام السافر ، فبينما لا يسفر أعضاء الوفد الذين عادوا الى مصر عن اتجاهاتهم ، نراهم يميلون « الى أن يؤلف عدلى يكن باشا الوزارة ، وان تتولى هذه الوزارة المفاوضات ، وأن تتم بذلك الخطوة الأولى التى رسمت أول ما تألف الوفد – كما يقـــول الدكتور هيكل – لكنهم لم يريدوا أن يظهروا حتى لا يزيد ظهورهم الخلاف بينهم وبين سعد وعدلى حدة وشدة » ٠ ويقول انه دعى مع جماعة الشبان اتفقوا على لقاء عدلى ، « فذهبنا الى منزل عدلى باشا وقابلناه وتحدث أحدنا معه فى ضرورة توليه الوزارة ، ولم أكن متحمسا لأى من الحلول المعروضة ، ولا لتولى عدلى باشا الوزارة ، فوقفت فى المقابلة موقف الشاهد » ٠٠

« وألف عدلى الوزارة وسميت وزارة الثقة ، وقابلت الأمة تأليفها – كما يقول الدكتور هيكل – بترحيب أى ترحيب ٠ وظن الناس زمنا أن أعضاء الوفد سيعودون الى باريس ، يلتقون مع ســـعد ويقيمون معه كما كانوا ، وأن عدلى باشا والوفد الرسمى الذى سيتألف سيذهب لمفاوضة وزير الخارجية البريطانية بأشـراف من من الوفد وكيل الأمة ، ولم يدر بخلد أحد يومئذ أن الخـــلاف بين أعضاء الوفد أو بين سعد وعدلى قد تأصل وكانت له جذور ذاهبة بعيدا فى غور العلاقات التى بينهم ، وأن هذا الخلاف قد يســـتفحل ويؤدى الى نتائج لا يحمد أحد عقباها » ٠

ويذكر احمد شفيق باشا فى حولياته أن البلاد ظلت « فى هرج ومرج مظهرة شعورها بهذا الحادث الجديد ، ردحا من الزمان لا يقل عن الأسبوع والناس فى حبور وسرور » ٠

الا أن ما ظنه الناس كان بعيدا عن الواقع ، ولعل هذه الصفوة من الشباب المثقف لم تكن تعلم هى الأخرى حقيقة ما يعتمل فى نفوس الأقطاب ، ولعل الدكتور هيكل كان اكثرهم حيرة ، وان كانت حيرة مشوبة بالروية ، فلم يكن متحمسا ـ كما يقول ـ لأى من الحلول المعروضة ولا لتولى عدلى باشا الوزارة ٠ ووقف من الحديث بين جماعة الشباب وبين عدلى موقف المشاهد حتى انتهى الحزب الديمقراطى الى قرار « بأن يتولى رئيس الوزراء ومن يختارهم مفاوضة الانجليز ، على الا يكون أعضاء الوفد من بين المفاوضين ، وأن يعود أعضاء الوفد الى باريس ينضمون الى سعد باشا فيتولون معه الأشراف على المفاوضات ، ليكون لهم الرأى الأخير فى نتيجتها يدلون به الى الأمة فهم وكلاؤها » وبعثوا برأيهم هذا الى كل من عدلى وسعد مع نشره فى الصحف ٠

وفجأة قرر سعد العودة الى مصر ، ولعلله رأى الموقف يفلت من يديه ويؤول الى منافسه القديم عدلى ، وكان عدلى قد وافاه بخطة الوزارة ودعوة الوفد للاشتراك فى المفاوضات الرسمية ٠ ولعل سعدا كان على ثقة ان لم يكن على يقين تام بأن سحره قد غلب على عقول المصريين فأينما يسير بهم فهم تابعوه ، وهو ما كان أقطاب الوفد العائدون الى مصر على يقين منه ، فلم يصرح أى واحد منهم بخلافه مع سعد ، وظلوا يدارونه حتى واجههم سعيد به ٠ ونعتهم كما نعت عدلى فى خطاب القاه بشبرا فى ٢٨ ابريل ، بعد عودته بأربعة وعشرين يوما بأنهم « برادع الانجليز » ٠

ولم يكن ثمة خلاف حول ما رآه سعد أساسا للمفاوضات وبين عدلى ، فقد وافقه عدلى على كل ما شرطه سعد وأعلنه فى حفل تكريمه بحى السيدة زينب فى ٢٢ ابريل ، الا شرطا واحدا « أن تكون للوفد أغلبية المفاوضين ، وأن تكون له الرياسة ، وأن يصدر بتحديد مأمورية المفاوضين على هذا الوجه ، وهذه الكيفية مرسوم سلطانى يبين ويحدد هذه المأمورية » • وأخذ يدافع عن شرطه هذا ، بمنطق المحامى الضليع ، فى كل خطاب ألقاه بعد ذلك •

ولم يدرك الناس ما فى شرط سعد من مجافاة للمنطق وتقاليد الحكم ، والا فبأى وضع يكون رئيس الحكومة عضوا فى وفد الرئاسة فيه لمن لا صفة له ، الا ما يدعيه من حق الوكالة عن الشعب ، وان كان ما حدث من انفصال أعضاء الوفد الأول عن رياسته وهم الأغلبية يسقط هذه الوكالة وينفيها ، وان وجدت سندا فى الاستقبال الشعبى الرائع والذى فاق حد الخيال وشارك فيه « رجال الحكم من وزراء ووكلاء وزارات — كما يقول الدكتور هيكل — ومن طبقات الشعب المثقفة وغير المثقفة » توكيلا جديدا ، ولكن شتان بين توكيل موثق ، واستقبال شعبى ، لا يحسب الدكتور هيكل أن « فاتحا من الفاتحين ولا ملكا من الملوك حظى بأعظم منه فى أوج مجده » •

وكان الميدان خاليا أمام سعد يخطب ويدلى بالأحاديث ويطعن خصومه ، ويصفهم بأنهم « برادع الانجليز » ويقول عن مفاوضات عدلى « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » ولا يتصدى له قرن ، فلم يكن له قرين ، ولا يسفر بخصومته أو معارضته من يضمرون له الخصومة والمعارضة مخافة الشعب الذى دان له بالولاء والطاعة » ••

ولم يجد سعد حرجا فى فصل من خرجوا على رأيه فى اعلان عدم الثقة بوزارة عدلى • حين تقدم فى ذلك ببيان الى تسعة أعضاء

من اقطاب الوفد ، اجتمعوا لديه هم : محمد محمود باشا ، ولطفى السيد بك ، ومحمد على علوية بك ، وحمد الباسل باشا ، ومصطفى النحاس بك ، وسينوت حنا بك ، وواصف بطرس غالى بك ، وجورج خياط بك ، وعبد الخالق مدكور باشا ، واخبرهم أنه سينشر البيان باسمه وتحت مسئوليته ، ولأى منهم أن ينشر مايراه غير ذلك ، وقدم اربعة منهم استقالتهم هم محمد محمود باشا ، وحمد الباسـل ، ولطفى السيد بك ، ومحمد على علوبة بك وانضم اليهم عبد اللطيف المكباتى بك وعلى شعراوى باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، والدكتور حافظ عفيفى بك ، وجورج خياط بك ، وعبد الخالق مدكور باشا ، واعتبرهم سعد منفصـلين عن الوفد فى بيان اذاعه على الناس ، فايدوه فى مظاهرات صاخبة تنادى بسقوط عدلى ٠

٦
شبان وشيوخ

كان الشـــباب من ذوى الفكر ومن يطالعون الناس بأفكارهم ويتصدون للمســـائل العامة بالبحث والتقدير ويتقدون ويوجهون ويكتبون فى السياسة كما يكتبون فى الأدب ، ومهاجمون القديم تطلعا الى جديد صالح يرون فيه التقدم والخير لبلدهم ، يرون أنفسهم أكفاء كالشيوخ للقيادة السياسية ، وقد تلقى أكثرهم علومه فى الغرب ، او تلقى تعليما غربيا او اتصل بالفكر الغربى بصورة او اخرى ، وحمل أكثرهم على شيوخ الأدب كما حملوا على التقاليد البالية التى تعوق التطور ، ولج بعضهم فى الكتابة السياسية متشيعا أو ناقدا أو محللا كما كان الدكتور هيكل والعقاد فلابأس ان يكون لهم كيان سياسى وان يكون لهم دور فى السياسة ، فيؤلفون حزبا ، ويختارون له اسما ينم عن اتجاهاتهم السياسية التى يؤمنون بها منذ رأوا ثمارها فى الغرب هو « الحزب الديمقراطى » وأملوا أن يكون لهم ممثل فى الوفد ، وسعوا لذلك فلم يوفقوا فيما سعوا اليه ، ولعلهم قوبلوا بابتسامة عطوف لا تنم عن تشجيع قدر ماتنم عن سماع طرفة

أو ملحة أن يكون لهم مكان فى الصدارة الى جانب هؤلاء الأقطاب الذين تكون منهم الوفد الأول ، اذ لا يذكر الدكتور هيكل لما كان الرفض وكيف كان اللقاء ولم يكن بين الساعين ولا من أصحاب اللقاء ٠

ولا يحول ذلك بينهم وبين مسيرتهم ومارسموه لأنفسهم ، فكانوا يتابعون نشاط الوفد ويؤمون اجتماعاته العامة التى يدعو اليها ، ولما جاءت لجنة ملنر الى مصر « نظموا أنفسهم لتنفيذ المقاطعة فكانوا يقابلون الساسة والرجال المشتغلين بالشئون العامة ، وجميع الذين يتوسمون أن اللجنة الانجليزية قد تتصل بهم ، يسألونهم رأيهم فى المقاطعة ، ويحملونهم على التصريح بالموافقة عليها ٠

وحين أصدرت لجنة ملنر بياناً قالت فيه : « أنها مستعدة للحديث مع من يشاء من المصريين حديثا حرا لا يرتبط به أحد ، وأن هذا الحديث لن يكون معناه قبول الحماية البريطانية على مصر ، وانها لا ترى مانعا مطلقا من أن يكون أساس الحديث استقلال مصر » رأى الحزب الديمقراطى أن البيان خدعة للقضاء على المقاطعة ، وضاعف الأعضاء من جهدهم كى لا يتصل أحد باللجنة ٠ حتى أن الدكتور هيكل ـ متحدثا بلسان الحزب ، حمل فى مقال نشره الأهرام فى ١٨ يناير ١٩٢٠ على عدلى يكن ، وحسين رشدى ، وعبد الخالق ثروت حين تحدثوا الى لجنة ملنر بما أجمع عليه المصريين فى هذا الصدد ، وعد حيدثهم اليهم خروجا على الاجماع ، واتهمهم بتفتيت الوحدة الوطنية ، وكان المقال بعنوان « آثار أحاديث الوزراء» ولم تترك الأهرام المقال دون تعليق ٠ فذيلته بما ينفى ذلك ، وقالت ان اتصال الوزراء بلجنة ملنر لم يكن الا بقصد اخطارها بأن الوفد وحده هو صاحب الحق فى الحديث اليها ، وأن مصر لن ترضى بغير الاستقلال كاملا غير منقوص ٠

وكان من رأى الدكتور هيكل حينذاك ـ كما عبر فى مقال نشر بالأهرام فى ٢ سبتمبر ١٩٢٠ بعنوان « بأى روح نبحث المعاهدة » ان اعلان انجلترا استقلال مصـــر ، لا يحمل المصريين مع الود والصداقة التى تسود علاقات البلدين على انكار ما لانجلترا من مصالح فى مصر وهى ما يجب أن تتناولها مفاوضـــات بين ندين متساويين ، ولا يخرج فى رأيه هذا عما قرره الحزب الديمقراطى وبعث به الى سعد زغلول ، فليس فى اعلان الاستقلال ما يعوق تسوية المســـائل المعلقة بين البلدين وعلى رأســـها حماية المواصـــلات الامبراطورية والامتيازات الأجنبية وتسوية الدين العام بما يحفظ للدائنين حقوقهم ، وكان الحـزب الديمقراطى يرى أنها مســـائل منفصلة لا يؤثر أحدها على الآخر • وكانت حجته فى ذلك أن كلا من هذه المسائل قد نشأ فى وقت غير الوقت الذى نشأ فيه الآخر وأنها يجب أن تعالج على هذا الأساس •

الا أن الأفكار والحلول والمواقف جميعا بدت غائمة لا فى أذهان الشـباب وحدهم ولكن فى أذهان الشـــيوخ أيضـــا ، فلجنة ملنر ومفاوضات ملنر مع الوفد فى لندن والمشروع الذى انتهت اليه ، لم يؤد الى حيرة كالحـــيرة التى ألمت بالوفد غداة الاعتراف الدولى بالحماية البريطانية على مصر بقدر ما أدى الى البلبلة بين صفوف الوفد ففريق يراه صالحا ، فان لم يؤد تماما الى تحقيق ما تنشده الأمة فان فيه من المزايا مالا ينكر ، وفريق على رأسه سعد يراه بعيدا عن المأمول فى الواقع وان كان قريبا منه فى الظاهر •

والشباب يخوض فيما يجب أن تقوم عليه المفاوضات ويكتب هيكل ويكتب العقاد ويتقدم الحزب الديمقراطى بتقرير عما يراه لها ، والحوار يشتد ويعصف بين الشبيبة المتفقة من الموظفين والمهنيين يناقشون المشروع بعد أن رأى الوفد فى رواية أو أشار ملنر فى رواية أخرى بعرضه على الشعب يبدى رأيه فيه فهو صاحب الحق الأول

فى قبوله أو رفضه بعد أن اختلف عليه أعضاء الوفد ، ويبدى الشعب رأيه فى تحفظات يحملها الى الوفد فى باريس من كلفهم بعرضها على الشعب ، وكانت ايذانا برفضـــه ، بعد أن حملها الوفد الى ملنر بلندن ٠

وغادر الوفد لندن الى باريس ، والحيرة تنوشه فيما تكون عليه الخطوة التالية ففريق من الوفد أخذ يلوذ بعدلى ويرى فى اعتداله منفذاً لمواجهة الموقف بشىء من المرونة يقرب بين الطرفين ، وفريق قليل الى جانب سعد يرى معه ، أن المفاوضة قبل التسليم بالتحفظات « يعد قبولا لأحكام المشروع » واحتج على ذلك بوكالة الأمة ، لا بأغلبية الوفد التى رأت المفاوضة مع التحفظات ، وكان ذلك بداية الانقسام التى بدت بوادره ــ كما قلنا ــ من قبل ٠

وكان الحزب الديمقراطى قد أبدى رأيه فى المشروع حين قامت لجنة الوفد بعرضه على الأمة ، فلما قطعت المفاوضات ، كان الحزب الديمقراطى الى جانب المعتدلين ، ولعل الصلات القديمة التى تربط بين الخمسة الكبار فى الحزب الديمقراطى والمعتدلين كانت هى العامل الأول فى هذا الموقف ، فلما أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ ، أن الحماية البريطانية قد أصبحت علاقة غير مرضية بين مصر وانجلترا ، وانها تقبل المفاوضة مع حكومة يؤلفها عظمة السلطان ، كان هذا الاعلان خلاصا من الحيرة والبلبلة التى ألمت بالمصريين ورجال الوفد غداة رفض ملنر للتحفظات المصرية ٠

ويبدو أن المخرج كان يأتى دائما من ناحية انجلترا ، فهى التى أوفدت لجنة ملنر الى مصـــر لتحقيق أســباب الحوادث التى وقعت فيها ، ولتقترح ماتراه من حلول لتنظيم العلاقة بين البلدين ، فكانت البداية فى انتقال المسألة المصرية من اطارها الدولى الذى ذهب الوفد من أجله الى باريس حيث يعقد مؤتمر الصلح فلم يلق غير الخذلان ،

وهى التى أعلنت من جانبها أن الحماية علاقةغير مرضية وانها تقبل مفاوضة حكومة مصرية لابرام اتفاق بين البلدين • فلما فشلت مفاوضات « عدلى ــ كيرزون ــ كان المخرج أيضا من جانب الانجليز وان قيل ان أساسه « فكرة ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ ألقاها عدلى باشا يكن على لورد كيرزون فى الجلسات الأخيرة للمفاوضات ، حين تبين أن هذه المفاوضات لن تؤدى الى نتيجة ايجابية ، ولن تنتهى الى عقد معاهدة بين مصر وانجلترا ، وخلاصة الفكرة أن انجلترا أعلنت رسميا ان الحماية علاقة غير مرضية بين مصــــر وانجلترا ، وان انجلترا مستعدة للتسليم بجانب من مطالب مصر ، وأن هذا الجانب مع ذلك لا يرضى المصريين ولا يصلح أساسا لمعاهدة ، فلماذا لاتقوم انجلترا من جانبها بالتســــليم لمصر بهذه الحقوق التى أبدى لورد كيرزون استعداد دولته للتسليم بها ، ثم تعلق مابقى الخلاف بين الدولتين قائما عليه الى مفاوضات مقبلة ؟ فلعل عملا كهذا تقوم به انجلترا وتدلل به على حسن نيتها نحو مصر ، يصفى الجو ولو بعض الشىء بين الدولتين وبين الشعبين ، ويمهد الطريق لتفاهم أوسع نطاقا ؟ » •

وكانت تلك هى الخطوة الأولى لتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، فتألفت وزارة عبد الخالق ثروت ، وتولى الى جانب الرياسة وزارة الخارجية التى أعيدت وكانت قد ألغيت حين اعلان الحماية على مصر غداة دخول تركيا الحرب الى جانب ألمانيا •

وكان للحزب الديمقراطى موقف خلال تلك الأحداث ، منذ دعا الى مقاطعة لجنة ملنر منذ جاءت الى مصر فى ديسمبر ١٩١٩ ، وان لم يثر عند اعلانه فى ١٠ يناير ١٩١٩ انتباه أحد ، حتى بدأ أعضاؤه ينشرون على الناس أفكاره ، ويدلون بآرائهم فى كل حدث ، وفيما يصدر عن الكبار من فعل أو قول • وقد لا نسميه حزبا بالمعنى الدارج للحزب ، وانما كانوا جماعة من الأصدقاء جمعت بينهم الدراسة فى

باريس ، كما جمعت بينهم الثقافة والمنبت الاجتماعى المشترك ، وكان لهؤلاء الأصدقاء : الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور هيكل والدكتور محمود عزمى ، والدكتور منصور فهمى ، والاستاذ عزيز ميرهم نشاطهم الفكرى على صفحات « السفور » خلال سنى الحرب، كما كانوا الأغلبية بين أعضاء مجلس ادارة الحزب الذى يضم أربعة غيرهم هم حسن نافع ، وراغب اسكندر ، وحسين يوسف عمرو ، ومحمد احمد عابدين وان تمت هذه الجماعة فى تكوينها عن اتجاه حزبى مقنن لم يقف على الجانب السياسى بل عداه الى الاصلاح الداخلى فى كافة دروبه الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية ، وان لم يعرض لوسائل تحقيقها بل جاءت فى صورة مبادىء عامة أجملتها عشرة بنود فى صفحة واحدة ٠

ولما بدأت هذه الجماعة تعلن عن آرائها وتدعو اليها لم يكن لها صدى بين الناس الذين اتجهت أفكارهم جميعا الى الحركة الوطنية وقيادتها ، ولم يكن ما يصدر عنهم يعدو بياناتهم الرسمية التى يعلنها الاستاذ عزيز ميرهم سكرتير الحزب ، فاذا كان رأى أو حوار ففى مقالات الدكتور هيكل فى الاهرام ما يفصح عنها ٠

ولعل نشاط الحزب لا يجاوز أسماع قلة من الشباب المثقف الذى وهب نفسه للمسائل العامة ، ففى ١٤ سبتمبر ١٩١٩ ، ولم يكن قد مضى على قيام الحزب تسعة شهور يكتب « فكرى أباظة » من أبناء جيلهم ومن شباب الحزب الوطنى مقالا فى الأهرام بعنوان « الحزب الديمقراطى » يتهم وجوده بأنه اضعاف للأحزاب القائمة وانه تفتيت للحركة الوطنية ، ويسخر من أن تراودهم فكرة أنهم أقدر من غيرهم على ادراك مرامى الوحدة أو أنهم قادرون على القضاء على الأحزاب الأخرى أو أن ما نالوه من تعليم يعزف بهم عن الجماعات الأخرى ٠ ويأتيه الرد فى اليوم التالى بتوقيع « ديمقراطى » يقول فيه أن الميدان مازال فسيحا لقيام أحزاب اخرى وأن الحزب

الديمقراطى قد خدم الأمة ، وفى ١٩ سبتمبر يعاود فكرى أباظة هجومه بصورة أكثر حدة فى مقال عنوانه : « الحزب الديمقراطى : كفاءته كحزب سياسى » فيتهم أعضاءه بنقص خبراتهم الاقتصادية والاجتماعية ، « وان أمتعونا بمقالاتهم فى الصحف » ومهما تكن أوهامهم فانهم أعجز من أن يقوموا بمسئوليات السياسة وأعبائها . قد اقتحموا ميدان السياسة دون اعداد وليست لديهم الدراية الكافية بالشئون المصرية ..

ولا يبدأ الدكتور هيكل الكتابة عن سياسة الحزب الديمقراطى إلا فى وقت متأخر نسبيا عندما عرض لموقف الوزراء الثلاثة من لجنة ملنر فى ١٨ يناير ١٩٢٠ - كما اشرنا من قبل . ويوالى مقالاته من بعد فى الأهرام معبرا عن اتجاه الحزب . وكان قد استقر به الرأى على « أن يتولى رئيس الوزراء ومن يختارهم مفاوضة الانجليز ، على الا يكون أعضاء الوفد من بين المفاوضين ، وأن يعود أعضاء الوفد الى باريس ينضمون الى سعد باشا فيتولون معه الاشراف على المفاوضات ، ليكون لهم الرأى الأخير فى نتيجتها يدلون به الى الأمة فهم وكلاؤها ، وقد طلبنا من الأستاذ عزيز ميرهم سكرتير الحزب أن يبلغ هذا القرار الى عدلى باشا ، وأن يرسله بالتلغراف الى سعد باشا بباريس ، وأن ينشر فى الصحف . وكذلك فعل » .

الا أن سعدا لا يبقى فى باريس - كما قلنا - ويقرر العودة الى مصر ، ويستقبله الشعب استقبالا « منقطع النظير » - كما يقول الدكتور هيكل-فما أحسب فاتحا من الفاتحين ولاملكا من الملوك حظى بأعظم منه فى أوج مجده ، خفت القاهرة كلها ، شبابها وشيباتها وشباتها ، ورجالها ونساؤها، حتى المحجبات منهن الى الطرقات التى سيمر بها يحيونه « ويهتفون باسمه هتافات تشق عنان السماء ، وجاء الى القاهرة من أقصى الأقاليم وأريافها ألوف وعشرات الألوف ، يشتركون فى هذا الاستقبال الذى جمع بين رجال

الحكم من وزراء ووكلاء وزارات ومن دونهم ، ومن طبقات الشعب المثقفة وغير المثقفة ، ورأى سعد ذلك بعينى رأسه ، فوقف فى سيارته التى سارت الهوينى من محطة القاهرة الى داره يحيى بكلتا يديه هذه الجموع الزاخـــرة الهاتفة ، المولية وجهها الى الرجل الذى اجتمعت فيه آمال الأمة كلها ، والى جوار دار سعد أقيم سرادق فسيح ، نزل فيه سعد يحف به الرسميون وغير الرسميين من عظماء الأمة وذوى المكانة فيها ، وهو منهم جميعا محل الاعظام والاجلال ، ترى أقدر للاسكندر الأكبر ، أو لتيمور لنك أو لخالد بن الوليد ، أو لنابليون بونابرت أن يرى مشهدا أجل وأروع من هذا المشهد ؟ وماذا كان يجول بنفس سعد ، وهو يرى هذا المنظر الرائع يمر أمامه وعيون الناس كلهم مشدودة اليه ، وأفئدتهم متعلقة به ، وقلوبهم ممتلئة باكباره واعظامه ؟! وعم يتمخض هذا اليوم العظيم فى حياة سعد ، بل فى حياة مصر ؟ وماذا خبأ القدر لهذا اليوم فى لوحه من نتائج ؟! »

ومع هذا الوصف الذى يكتبه الدكتور هيكل ويسجله فى مذكراته السياسية لاستقبال سعد بعد ثلاثين عاما من وقوعه ، فانه آثر يومها ألا يكون بين المستقبلين ، وأن يترك القاهرة « فذهبت الى حلوان وتناولت طعام الغداء مع صديقى على بك المنزلاوى فى منزله » .

أكان الدكتور عازفا عن مشاهدة هذا الاستقبال للبطل يوم وصوله ، وقد « قرر عدلى بشا وزملاؤه الوزراء ، وقرر أعضاء الوفد المقيمون بمصر أن يذهبوا الى محطة القاهرة لاستقبال سعد » .

لا أحسب أن كدالتور هيكل قد تعمد ذلك ، ولكنها كانت خلة من خلاله – كما أعرف – جفوة الصخب وتلك المحافل التى يتكاكأ فيها الناس متظاهرين أو متطلعين أو مستقبلين ، وكانت له سابقة فى هذا من قبل حين دعاه استاذه لطفى السيد أن يقدمه الى الخديو حين كان فى استقباله بالمنصورة . وقد « حشد أعيان المديرية فى بناء

المديرية حيث تشرفوا بالمثول بين يدى الخديو فى المساء » وكان لطفى السيد ارضاء لوالده حريصا أن يشرف الخديو أباه بزيارته ٠

« واننى لأمر أمام المديرية ذاهبا الى منزل صديق لى ، اذ لقيت لطفى بك السيد واقفا مع زمرة من الأعيان هناك ، وكان أخوه سعيد قد حاول اقناعى بأن من الخير مقابلة الخديو ، فلم أجد الى هذا الاقتناع سبيلا ، وسلمت على لطفى بك فقال لى :

ـ ألا تود أن أقدمك الى الخديو ؟ أنا واثق أنه يسر لمرآك !
واجبته :

ـ لقد علمتنا منذ ظهرت الجريدة مالا يسمح لى بأجابة هذه الدعوة ٠

وأجاب لطفى :

ـ ان الخديو هو الذى تغير ، أما نحن فلم نتغير !

ولم يلح فى دعوتى ، بل تركنى أذهب فى طريقى الى حيث كنت أريد ٠

وكانت جفوته لتلك المظاهر كجفوته لكل ما ينكره العقل أو يختل فيه المنطق ، أو ينتفى معه الحق فان اعوزته المواجهة أو لقاء الحجة بالحجة ، كفاه أن ينأى بنفسه عما لا ترضى به نفسه ، فحين اتجه الرأى الى أن يؤلف عدلى الوزارة وأن تتولى وزارته المفاوضات « اتفق جماعة من الشبان دعيت معهم ، فذهبنا الى منزل عدلى باشا وقابلناه ، وتحدث أحدنا فى ضرورة توليه الوزارة ، ولم أكن أنا متحمسا لأى من الحلول المعروضة ، ولا لتولى عدلى باشا الوزارة ، فوقفت فى المقابلة موقف المشاهد » كان ذلك شأنه فى كل أدوار حياته ، لا يقبل رأيا قبل أن يقتنع به ٠

وبعد قدوم سعد قرر الحزب الديمقراطى أن ينوب عنه خمسة من أعضائه للقيام بواجب تحية الزعيم هم الدكتور هيكل والشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور منصور فهمى ، والاستاذ دسوقى أباظة والاستاذ عزيز ميرهم ، فذهبوا الى السرادق فى اليوم الثالث من عودة سعد فألفينا الناس لايزالون مكتظين من حوله حتى ليتعذر الدخول اليه ، لكننا لمنجد مشقة فى بلوغ غايتنا ، فقد لكان دسوقى اباظة عضوا بلجنة استقبال سعد ·· لهذا تيسر لنا الدخول وأن يصـل بنـا الى حيث يقف سعد فسـلمنا عليه ثم تكلـم الشـيخ مصـطفى عبد الرزاق ، قائـلا : لقد جئنا باسم الحزب الديمقراطى نحيى معاليكم ، ونشكر لكم سعيكم لتحقيق آمال البلاد ، ونرجو أن يكون لكم من الفضل فى النهاية ما كان لكم من الفضل فى البداية ·

ويقول الدكتور هيكل : « سـمع سعد هذه الألفاظ مغتبطا ، فقال : نعم · الحزب الديمقراطى · أنا أعرف رأيكم · انكم تريدون أن أتولى المفاوضة » ·

ويرتج عليهم القول ، فيعروهم من هيبة هذا الرجل العظيم الذى تحييه الأمة وتلتف حوله بأسرها ، ولكن الدكتور هيكل ـ كما يقول ـ رأى من واجبه أن يضع الأمر فى نصابه ، فيقول : « كلا يامعالى الرئيس · اننا نريد أن تتفاوض الوزارة ، وأن يشـرف الوفد عليها ، ايمانا منا بأن ذلك أدنى الى ضمان النجاح » ·

ويغضب سعد ، ويقول : « أتعنى أنكم تريدون أن أجلس أنا فى غرفة الانتظار ، فى حين يجلس عدلى واخوانه على المائدة الخضراء يتحدثون الى وزير الخارجية البريطانية ؟ لم افهم هذا منكم ، لقد جاءنى تلغراف بتوقيع عزيز ميرهم عن الحزب الديمقراطى يقول بأن اتولى أنا المفاوضة أين عزيز ميرهم ؟

واختفى عزيز ميرهم « وكأنه فص ملح وداب » كما أخذوا يتهكمون به ويضحكون منه عند ذكرها ٠

ولايرى الدكتور هيكل وفاقا يمكن أن يعود الى صفوف الوفد ، ويتسع الخرق من بعد ، وانا لنعجب الآن مما جرى ، فهكذا حال الشرق العربى بالذات فى تاريخه الطويل ، منذ ناشتهم الفرقة سعيا الى السلطة وايثار السلطان ، وانى لتحضرنى كلمة ابن خلدون فى تعليل تلك الظاهرة التى أودت بمجدهم وسلطانهم ، يوم كان لهم مجد وسلطان كان الايثار قوامه ، وكان الحق هداه ، فلما ألمت بهم الأثرة وحادوا عن الحق طلبا للجاه والسلطان عصفت بهم الأثرة فانزلتهم منازل الهوان والبوار ، فاستحقوا أن يصمهم ابن خلدون بقوله : « انهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم » ٠٠

ويستشرى الخلاف ، ويعلن ســعد الحرب عوانا على عدلى وأخوانه ويصفهم بأنهم « برادع الانجليز » وتنقســم البلاد الى سعديين هم السواد الأكبر من الشعب وعدليين يراهم الدكتور هيكل كثرة المثقفين والأعيان ، فأفلت ظاهرة وأهلت ظاهرة جديدة ، أفلت ظاهرة الطبقة العليا من الذوات الأتراك وأهلت ظاهرة الطبقة العليا من الأعيان والمثقفين ، ولم يعد ذكر للذاوة التركى وأصبح الذكر للمصرى الفلاح أو المصرى الصــميم ، وكانت تلك هى الحقيقة فى ظاهرها أما الحقيقة فى واقعها فكانت غير ذلك فمن تشيع لسعد من الأعيان والمثقفين كانوا أكثر عددا ممن تشــيع لعدلى من هاتين الطائفتين وكان للوفد لجانه المركزية والفرعية المنثورة والمتغلغلة فى كل مكان بمصر ما لم يكن لعدلى ولمن أخذوا جانبه ، بل أن حزب الأحرار الدستوريين حين قام لم يكن له مثل ما لتنظيم الوفد من نفوذ وانتشار ، الا حيث العصبيات التى ينتمى اليها أنصــاره ، والواقع بين الحقيقتين أن قيادة الحركة الوطنية كانت للصفوة ولم يكن الانقسام الا انقساما بين الصفوة ، أما المصريون على اختلاف

طوائفهم ومهنهم وثقافاتهم ووظائفهم وريفهم وحضرهم فقد وقفوا جميعا وراء الحركة الوطنية يساندونها ويؤيدونها ويثورون من أجلها ولم تكن تلك الأفكار المذهبية الطارئة قد نزلت اليهم أو عرفوها الا بين قلة لا تذكر ولم يكن لها أثر ٠

ويسوق الطموح شباب الحزب الديمقراطى ، وقد تألف الحزب منهم ، الى محاولة رأب الصدع فلما قلبوا وجوه الرأى فيما بينهم رأوا أن استقالة عدلى وتكليف سعد بتأليف وزارة جديدة،قد يرأب الصدع ويلم الشمل من جديد ٠ واتجه الدكتور محمود عزمى بهذا الرأى الى عدلى وكان على صلة به ، وعاد الدكتور عزمى الى صحبه ليخبرهم بأنه « طالع به عدلى باشا بحضرة ثروت باشا وصدقى باشا فرأى من الرجلين معارضة أساسها أن قبوله معناه ترك حكم البلاد فى أيدى الغوغاء ، وانه اذا لم تتمكن الحكومة من القضاء على الفوضى وأفلت الزمام من يدها كانت الطامة الكبرى ، وليس فى مقدور أحد أن يعرف ما يترتب على ذلك من نتائج » ٠

ولا يسلم الدكتور هيكل بهذه الحجة ، فان‌الخلاف يجر الى الفوضى،والفوضى تقف بانجلترا موقف المتأبى فلا تسلم لمصربماتريد « فاذا كان فى تولى سعد باشا الحكومة وقيامه بالمفاوضةمايعيد الى البلاد كلمتها موحدة،فذلك خير من أن تبقى الفوضى تسودوالاضطراب يسرى ثم لا يعرف أحد مايكون من أثر ذلك كله فى مطالب البلاد » ٠

ولكنه يضع أمامها حجة أخرى ، فاستقالة عدلى لن تحسب الا نزولا « على حكم كثرة غير معروفة اذ لم تكن فى البلاد هيئة نيابية نظامية » وتسليما للعنف والثورة « فلا مفر أولا من قمع عناصر الفوضى ، ثم النظر بعد ذلك فيما يكون » ٠

وانطلقت المظاهرات فى كل مكان تأييدا لسعد ، وتضاءل الهتاف « للاستقلال التام أو الموت الزؤام » الى جانب الهتاف بحياة سعد وسقوط عدلى ٠

ولم يكن الدكتور هيكل متحمسا لتأييد الوزارة ، ولا لتأييد الاضطرابات التى يدبرها الوفد وتنظمها لجنته المركزية وينساق اليها الناس فى حماس بالغ لنبى الوطنية الجديد · وكان يرى أن البلاد فى حاجة الى جهد عدلى حاجتها الى جهد سعد ·

وامتد الخلاف الى أعضاء الحزب الديمقراطى فمنهم من يميل الى الوفد ومنهم من أخذ جانب عدلى ، وكانت تلك نهايته ·

ونأى الانجليز عن التصدى للمظاهرات ، وكأنها لا تعنيهم فى كثيرا أو قليل ، حتى أن « رسل باشا » الانجليزى وحكمدار البوليس المصرى ـ كما يروى الدكتور هيكل ـ « كان يرى المظاهرات التى تمر هاتفة ضد الحكومة ، دون أن يحرك ساكنا ، وكان موقفه أنها « مسألة بين المصريين بعضهم وبعض ولا دخل لحكمدارية العاصمة بها » ·

وألف عدلى وفد المفاوضة وسافر لها ، ثم قطعها بعد أشهر، ولم ينل من الانجليز شيئا « وأسرع بعد عودته ، فقدم استقالته الى عظمة السلطان فؤاد ، ذاكر أنه نهض بالمهمة التى كلف بها فلم يحالفه التوفيق » ··

وبقيت الاستقالة معلقة ، وأقدم الانجليز على عمل أخرق ، فقد رأوا الأمة تقترب من التماسك بعد فشل مفاوضات « عدلى ـ كيرزون » فقبضوا على سعد زغلول وفتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وسينوت حنا ، ونفوهم الى سيشل ، ولعلهم ظنوا أن اعتقال سعد ورجاله سينسب الى عدلى فتزداد هوة الخلاف اتساعا بين السعديين والعدليين ، الا أن عدلى كان من الحصافة بأن استعجل قبول استقالته حتى لا ينسب اليه دخل فيما قام به الانجليز ·

وانقلبت الآية على الانجليز ، فقد أخذ المصريون ينســون خلافاتهم ، ويقاطعون التجارة الانجليزية وأضرب طلبة المدارس ، وأخذت المظاهرات تعم البلاد من جديد هاتفة ضد الانجليز،وجرت محاولات لعودة الوحدة الى صفوف الوفد ، فعاد اليه بعض من خرجوا عليه ، وان لم يبقوا فيه طويلا وأخذت بوادر ثورة كثورة مارس تنذر من جديد ٠

وتعجل عدلى قبول استقالته ، حتى لا يرمى بأن له رأيا او يدا فيما اقدم عليه الانجليز باعتقال سعد وصحبه ونفيهم الى سيشل ٠٠ وتقبل استقالته وتبقى البلاد بدون وزارة لشهرين حتى كان البديل الجديد ٠

ويبدو أن الحكومة الانجليزية قد اخطأت فى تقدير قوة سعد وظنت أن عدلى يستطيع أن يواجه الموقف ، وأن يحصر سعد فى نطاق ضيق خاصة وقد خرج عليه غالبية أعضاء الوفد الأول ، الا أن الواقع أخلف ظنهم ، وكان من المقدر أن تفشل مفاوضات عدلى ـ كيرزون مادامت لن تلقى تأييدا من الشعب كما يريد الانجليز لأى اتفاق يعقد مع المصريين ٠

وعادت الحلقة المفرغة الى دورتها من جديد ٠

٧ من عهد الى عهد

بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، واعلان انجلترا من جانبها ان مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، مع احتفاظها ، وبصورة مطلقة بمسائل أربع لمفاوضات مقبلة هى : الدفاع عن مصر وحماية المواصلات الامبراطورية ، وحماية الأجانب ، وحماية الأقليات ، والسودان ، انتقلت مصر من عهد الى عهد ·

من عهد كانت مصر فيه تحت وقر الحماية البريطانية التى فرضتها انجلترا غداة دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا ، وسقطت فيه السيادة العثمانية عن البلاد ، وكانت حجة الحزب الوطنى فى المطالبة بالجلاء عن أرض لا يستند الاحتلال فيها على الشرعية الدولية ، ولا حق من حقوق الفتح الذى ينكره بادعائه انه جاء لاقرار النظام وحماية عرش الخديو · بينما اتجهت قلة تبينت الحقيقة من خلال الواقع ، هى جماعة حزب الأمة رأت أن حل المسألة المصرية هو فى يد انجلترا وحدها ، فطالبت بالاستقلال ، كما طالبت بدستور ينظم علاقة الشعب بالحاكم حتى لا يعود استبداد الخديويين

واستئثار طبقة الذوات التركية بالحكم من جديد ، وكان شعارها « مصر للمصريين » ٠

فلما فرضت الحماية وماتبعها من اعلان الأحكام العرفية ، والغاء السيادة العثمانية ، اتخذت المسألة المصرية وضعا جديدا ، هو التحرر من كل الأوضاع التى فرضتها حالة الحرب ، وكان لقاء الثلاثة الكبار سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى بالمعتمد البريطانى ، ورأى الوفد الذى تكون اثر ذلك ، أن يسافر الى باريس حيث يعقد مؤتمر الصلح لعرض المسألة المصرية عليه بعد أن أعلن ويلسون حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها،وهو مايعنى بقاء المسألة المصرية فى اطارها الدولى الذى قامت خطة الحزب الوطنى عليه من قبل وان اختلف الوضع فى الحالين ، فبينما راح مصطفى كامل يثير الرأى العام الأوربى ضد الاحتلال وافتقاره الى الشرعية ، ذهب الوفد ليعرض مطالبه على هيئة دولية تقرر مصير العالم ٠ ولم يكن الدكتور هيكل مؤمنا بهذه الخطة من قبل أن يقوم الوفد وقبل أن يراها بعد أن قام ، ففى حديث بينه وبين عبد الرحمن الرافعى وكان من شباب الحزب الوطنى المتحمس ، وكان ذلك مساء اليوم الذى نشرت فيه صحف مصر شروط الدكتور ويلسون،أورده فى مذكراته ، يقول :

« قابلنى صديقى عبد الرحمن الرافعى مغتبطا متهللا ، وقال : انتهينا ياسيدى ! لنا حق تقرير المصير ، وعلى ذلك سيخرج الانجليز من مصر ويتم الجلاء ، وأجبته : وهل تصدق ياصديقى أقوال الساسة ؟! ألست تتحدث ، أنت وزملاؤك رجال الحزب الوطنى ، عن وعود انجلترا الرسمية بالجلاء وعودا لم يتحقق منها الى اليوم قليل ولا كثير ؟ فمابلك ترى اليوم أن شروط الدكتور ويلسون يجب أن تتحقق ؟ أولا يقتضينا الحذر أن ننظر اليها كأنها بعض وعود انجلترا بالجلاء ؟ وكان رد عبد الرحمن أن قال فى حماسة : كلا !!

فالولايات المتحدة هى التى انتصرت فى الحرب ، وهى ليست دولة استعمارية ، وهى تريد صادقة الا تقوم حرب ثانية ، وهى لذلك ستفرض حق تقرير المصير وتفرض الجلاء » ٠

ويستطرد الدكتور هيكل ، فيقول : « وعبثا حاولت أن أقنعه أن يخفف من غلوائه ومن حماسته ، وعبثا حاولت أن أؤكد له أن الساسة البريطانيين بما عرف عنهم من دهاء سيجدون لهذه الشروط الأربعة عشر شتى التأويلات والتفسيرات ، وقد كانت آخر كلمة له : لقد أصبحت لنا قضية يمكن أن نترافع فيها ، ونجد الحجة القاطعة ، وكان آخر رد لى على كلمته هذه أن قلت : انك حين تترافع فى قضية امام قاض تجد الصيغة التنفيذية التى تلزم البوليس والجند ورجال الضبطية القضائية أن ينفذوا الحكم ، ولست أصدق أن الولايات المتحدة تحارب انجلترا على الجلاء عن مصر » ٠

كانت تلك فكرة الدكتور هيكل عن دولية المسألة المصرية ، وسوء ظنه بدول الحلفاء مما حمله على التفكير « فيما يعتزمه الوفد. وهل رسم خطة العمل اذا لم يحالفه التوفيق فى تحقيق ما أراد لمصر من استقلال وسيادة » ٠

ويهمه هذا التفكير « وعزمت أن أسأل استاذى لطفى بك السيد فيه ، فانتهزت الفرصة وذهبت يوما الى منزل سعد باشا وطلبت مقابلة لطفى بك ، وصارحته بما يدور فى خلدى ، وسألته عن مبلغ اقتناع الوفد بما لسعيه من حظ فى النجاح ، وكان الرجل صريحا فى اجابتى ٠ قال لى : ان خطتنا أن نسافر الى باريس ، وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وأن نطلب حق تقرير المصير على مصر والسودان ، فأن أجبنا الى مطلبنا كان ذلك ما نبغى ، والا ذهب رشدى وعدلى الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الحماية ، تنظيما أساسه قيام الحكم

الدستورى الصحيح فى البلاد ، فقيام هذا الحكم يرفع عنا ما ننوء به من سلطة مطلقة شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية ، ويدنينا من هدفنا فى الاستقلال ، اذ يتيح لنا فرصة النهوض بالشعب فى مدارج الرقى ، فاذا بلغ أشده لم يكن لغيره عليه سلطان » ٠

فاذا صح ما أفضى به لطفى السيد الى الدكتور هيكل ، فان معناه أن رجال الوفد لم يدركوا مايمكن أن تتمخض عنه الأحداث من ثورة جائحة قلبت موازين الأمور رأسا على عقب ، فقد رفعت هذه الثورة سـعد زغلول الى قمة الزعامة، فحجبت زعامته كل شخصية أخرى عداه ، وكان لأحساسه بما أصبح له من مكانة فى قلوب الجماهير أثره فى مسيرة الحركة الوطنية ، فقد تطورت الأحداث بما يخالف خطة الوفد ، واضطرارهم « الى اتخاذ مواقف لا تتصل فى كثير أو قليل بها » ٠

وكان للعنف الذى سلكته السياسة البريطانية حيال سـعد ما زاده مكانة فى قلوب الشعب ، وزاد من اثرته فى أن تكون له الكلمة العليا فى الوفد ، والى التطرف الذى بداعليه من بعد ٠

وكأنما أرادت السياسة البريطانية أن تغذى فيه روح التطرف والذاتية لتكون بداية الفرقة والانقسام فى صفوف الوفد ٠

ويتساءل الدكتور هيكل « عن الحكمة السـياسية التى أدت بانجلترا الى انتهاج خطة الخصومة والعنف » ويراه تصرفا بعيدا عن الحكمة السياسية « أملاه كبرياء الامبراطورية البريطانية الظافرة فى الحرب » ويقول : « ترى ، لو أن السياسة البريطانية سلكت غير مسلك المنع والخصومة ، وأباحت لهذا الوفد المؤلف برياسة سعد زغلول أن يسافر منذ اللحظة الأولى الى باريس ، وأن يحاول عرض مطلب مصر فى الاستقلال والسيادة على مؤتمر الصـلح ـ أكانت الأمور تجرى من بعد ذلك فى بلادنا الطـريق الذى جرت فيه ؟ من العسير أن يتكهن انسان بشىء » ٠

. أما ونشاط الوفد ونشاط بعض الهيئات السياسية « لم يكن له ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ فى الجو المصرى العما أثر ظاهر » حتى ذلك الحين ، وأن « المذكرات التى كتبوها عن الاستقلال وعن السودان وعن بعض أعمـــال الانجليز ، برغم ماكان من ذيوعها فى مختلف الأوساط ، لم تنتج من الأثر أكثر من تنبيه الأذهان الى أن المبادىء الجديدة تجعل حق مصر فى الاستقلال ثابتا لا شبهة فيه ٠٠لابد اذن من قارعة تنبه الانجليز الى أن الموقف أخطر مما يظنون » ٠

وكانت القارعة من جانب الانجليز حين اقدموا على نفى سعد رئيس الوفد وقد أجمع كل أعضاء الوفد على رئاسته ، ونفوا معه محمد محمود وحمـــد الباسل واسماعيل صدقى ، واحتج الوفد لاعتقال الباشوات الأربعة ، ورفعوا الى السلطان فؤاد ـ كما يقول عبد العزيز فهمى ـ « كتابا نشكو فيه من تصرف السلطة العسكرية مع رجال الوفد » ٠٠

وكانت القارعة ففى اليوم التالى لفحت الثورة كل أنحاء مصر، وغدا سعد زغلول ملء القلب والعين عند المصريين جميعا ، وتجمعت فى شخصه كل آمال المصريين ولم يعد هناك من ينافسه الزعامة أو يزحزحه عنها فى قلوب المصريين،وكان لذلك أبعد الأثر فى مسيرة الحركة الوطنية فاما دان له أعضاء الوفد بالطاعة واما ذهبوا غير مأسوف عليهم ، وكان على سعد حتى يؤكد زعامته ، أن يظهرهم بمظهـــر الخونة الخارجين على ارادة الأمة ٠٠

وكانت تلك البداية الجديدة فى حياة مصـــر السياسية لفترة اتسمت بعنف الصراع الحزبى ، بين قوتين كان لهما من الأثر فى مسيرة الأحداث اكثر مما كان للأحزاب السياسية : هما السراى ، ودار المندوب السامى البريطانى ٠

ومع هذه البداية أصبحت المسألة المصرية مسألة ثنائية بين مصر وانجلترا بعد أن فشــــل الوفد فى عرض مطالبه على مؤتمر السلام فى فرساى ، ورأى سعد أن ينتقل الى ميدان المعركة ، فغادر باريس الى القاهرة ليصلها فى ٥ أبريل ١٩٢١ ، ويستقبله الشعب استقبال الفاتحين ، ويشن حملته الضـــارية على عدلى ومن أخذ جانبه من قدامى رجال الوفد ، وتعود الســـلطات البريطانية الى اعتقاله مع أتباعه من رجال الوفد الجدد ونفيه الى سيشل ٠

٨ معـركة الدسـتور

صدر تصريح ٢٨ فبراير وسعد فى طريقه الى المنفى · وغداه صدوره الف عبد الخالق ثروت باشا وزارته ، وقد ظلت البلاد بلا وزارة أكثر من شهرين ، وقد ألفها بعد أن قبلت شروطه التى أعلنها ٣٠ يناير ١٩٢٢ ، وأوردها أحمد شفيق باشا فى حولياتـــه سياسية ونصها :

أولا : عدم قبول مشروع كيرزون والمذكرة التفسيرية الملحقة ··

ثانيا : تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية والاعتراف ستقلال مصر بداءة ذى بدء ·

ثالثا : اعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سـفراء وقناصل ··

رابعا : انشاء برلمان من هيئتين ـ مجلس نواب ومجلس شيوخ

ـ تكون له السلطة العامة على أعمال الحكومة وتكون الحكومة مسئولة أمامه ·

خامسا : اطلاق يد الحكومة بلا مشارك فى جميع أعمال الحكومة ··

سادسا : لا يكون للمستشارين فى الوزارات الا رأى استشارى وأن يبطل ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء

سابعا : حذف وظائف المستشارين ماعدا مستشار المالية ومستشار الحقانية فانهما يظلان الى مابعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة ·

ثامنا : استبدال الموظفين الأجانب بموظفين مصريين ، وأخذ العدة من الآن وتعيين وكلاء مصريين للوزارات (المالية والصحة والزراعة والاشغال والمواصلات والخارجية) ·

تاسعا : رفع الأحكام العسكرية والسعى من جانب الوزارة ، اعتمادا على حسن موقف الأمة ، بسحب كل ما اتخذ من الاجراءات بمقتضى الأحكام العرفية بما فى ذلك الافراج عن المعتقلين واعادة المبعدين ·

عاشرا : الدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان ، مع الحكومة الانجليزية بواسطة هيئة يعتمدها البرلمان للنظر فيما لا يتنافى مع استقلال البلاد من الضمانات لانجلترا والأجانب ، ولحل مسألة السودان بشرط ألا تكون هذه المفاوضات مقيدة بقيد أو شرط مما جاء فى مشروع كيرزون ، ويكون القول الفصل فى ذلك للأمة الممثلة ببرلمانها ·

حادى عشر : يكون قبول هذه الشروط ثابتا بمقتضى وثائق مكتوبة من الحكومة الانجليزية ·

وتولى ثروت الى جانب الرئاسة وزارتى الداخلية والخارجية، وأصبح لوزارة الخارجية بعد عودتها وضعها الجديد بعد أن أصبح لمصر تمثيلها الدبلوماسى والقنصلى فى الخارج ، وكانت قبل أن تلغى بفرض الحماية قاصرة على الاتصـــال بالممثلين الأجانب فى القاهرة بحكم التبعية العثمانية ، كما ألغيت وظائف المستشارين الانجليز فى الوزارات ، ولم يبق غير مســـتشارى المالية والحقانية واقتصرت مهمتهما على ابداء الرأى والمشورة ، وأصبح الموظفون الانجليز تابعين لسلطة الوزير المصرى وحل الوكلاء المصريون محل الوكلاء الانجليز فى الوزارات وفى الوظائف الكبرى كما اشـــترط ثروت ٠

وأصدر عظمة السلطان أمرا ملكيا ومن جانبه وباسم مصر ، أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وأعلن نفسه ملكا عليها بلقب « صاحب الجلالة » ٠٠

ومالبثت الوزارة أن أصدرت قرارا بتأليف لجنة تضع دستورا للبلاد على أحدث المبادىء العصرية ، والى جانبها هيئة من الفقهاء والمشرعين تقوم بأعمال أمانتها العامة وكان من أعضائها الدكتور هيكل ٠

ووقفت الوفد منذ البداية ــ واذا قلنا الوفد فانما نعنى سعد زغلول ــ موقف المعارضة العنيفة لكل ما تم ، فوصم تصريح ٢٨ فبراير بأنه نكبة وطنية ، وأن الاستقلال الذى أعلن استقلال زائف ووصف لجنة الدستور بأنهم لجنة الاشقياء ، واذا لم تكف وكالة الوفد عن الأمة ليضطلع بوضع الدستور ، فلابد وأن تقوم بوضعه جمعية تأسيسية منتخبة ، فلا يكون منحة عابثة ٠

وكان من خطل السياسة البريطانية أن تقدم على اعتقال سعد وصحبه ونفيهم الى سيشل فى الوقت الذى كانت تعتزم فيه اصدار تصريحها المذكور ، فلما صدر وسعد فى منفاه لم يجد من ترحيب

القلة ما وجد من اعراض الكثرة ونفورها ، وكأنما كان نفى سعد تمهيدا للتآمر على حقوق البلاد ٠

ولكن سعدا وان وصم التصريح بأنه نكبة وطنية وان الاستقلال الذى أعلنه استقلال زائف ، فقد كان اصراره على أن تقوم جمعية تاسيسية منتخبة بوضـــع الدستور تسليما لاشك فيه بمضـــمون التصريح ، وقد قبل من بعد أن يخوض معركة الانتخابات ويسهم فى الحياة السياسية على الأساس الذى قام عليه التصريح ٠

ولم يلق ثروت بالا الى كل ما أثير حول لجنة الدســـتور ، ومضى فى طريقه وكل همه أن أن تفرغ لجنة الدستور من مهمتها وتنتهى منها بأسرع ما يمكن ، وكان فى ذلك أبعد نظرا من كل ناقديه، ولعله قد رأى مايمكن أن يجره انتخاب جمعية تأسيسية لوضـــع الدستور من صراع بين القوى السائدة : السراى وفيها ملك عركته الأيام حريص على سلطاته كما بدا منه فى حرصه عليها مع لجنة الدستور ، ومندوب بريطانيا السامى ويهمه أن تهدأ الأمور ، والا تعرض لجنة الدستور لأى من التحفظات التى نص عليها التصريح ، وقد بدأ يغضب مما يقع من اعتداء على الانجليز العاملين فى مصر ، ولكنه لا يحرج الوزارة الى درجة الاستقالة قبل أن تتم مهمتها ، ويكتفى بالاحتجاج ولفت النظر ٠ وأخيرا الوفد وموقفه العسير من الوزارة ومن تصريح ٢٨ فبراير ومن لجنة الدستور ٠

وتقع وزارة ثروت بين هذه التيارات ، ولكنها لا تلقى اليها بالا وتمضى لجنة الدستور فى مهمتها ، حتى راح المتصلون بالوزارة من أقطاب اللجنة ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ « يتعجلون الفراغ من مشروع الدستور لرفعه الى الحكومة » ٠٠ وفعلا أســـرعت لجنة الثلاثين فاختارت لجنتين : احداهما لجنة التحرير التى عهد اليها بتحرير الصيغة النهائية لمشروع الدستور تمهيدا لعرضها على لجنة الثلاثين ، والأخرى لوضـــع قانون الانتخاب ، ولم تكن أحكامه

ومبادئه قد بحثت فى لجنة الثلاثين بحثا ذا قيمة وعاونت أنا لجنة التحرير ، وتولى على بك ماهر (باشا) رياسة لجنة قانون الانتخاب ٠٠٠ وفرغنا فى نحو أســـبوعين من عملنا ، وفرغت لجنة قانون الانتخاب كذلك من عملها ، واجتمعت لجنة الثلاثين وراجعت ما تم ، واقرت الصيغة التى تتقدم بها اللجنة الى الحكومة ، وفى موعد ضربه ثروت باشا ، ذهبنا اليه بمكتبه ببولكلى وقدمنا له مشروع الدستور وقانون الانتخاب ، فشكر للجنة مجهودها ، وصرح بأنه سيصدر الدستور بالنص الذى وضعته اللجنة » ٠

ورأت السراى أن الأمر يخرج من يديها ، وكان الملك فؤاد يعلم أن ثروت ليس بالرجل السهل والدستور بصــورته التى وضعتها اللجنة لا يرضيه ، فعمل على التخلص منه قبل أن يقدمه ، ولم يكن ثروت أداة طيعة فى يد السراى منذ البداية ، فقد منع اجتماعا دعا اليه يوسف كمال دعاية للملك والاخلاص للعرش وصاحبه ، ولم تكن وزارته قد اكملت شهرها الأول فى الحكم ، وبدا أكثر تشيعا لحقوق الشــعب منه لحقوق الملك ، بل كان من رأى الملك فؤاد أن لجنة الدستور بتأييد ثروت ورعايته قد لجت اكثر مما ينبغى فى تقييدها لسلطاته ، فنقم عليه ، ولم يجد حرجا فى التقرب من الوفد ليطيح به ، ووجد فى شيعته ومن يلوذون به من أمثال توفيق نسيم ، وأحمد مظلوم ، ومحمد سعيد ، ويوسف وهبة ، واسماعيل سرى من يخطبون ود الوفد ، ويعدلون مواد الدستور على هوى السراى ، ويشيعون بأن الأمر لو كان للملك لأطلق سراح سعد ورفاقه من زمن ، ولأفرج عن المعتقلين السياسيين ، وكان ثروت هو الذى يعوق ذلك ٠ وتقرب سعد بدوره من الملك حين أدلى بتصريح الى وكــالة رويتر فأنكر علاقته بالخديو السابق وأكد ولاءه للملك ، وأن خدمته للأمة قرين خدمته للملك ، وأخذت صحف الوفد تردد هذه النغمة واستقبل الملك بسرايه فؤاد بك المصرى السعدى القائم بعمل رئيس الوفد ، حينذاك وخرج ليصدر منشورا يحمل فيه على ثروت ووزارته حملة قاسية ٠

ولم يكن موقف الملك ليثير ثروت فى قليل او كثير مادام كل همه أن يفرغ من الدستور ويصدره • وبلغ من تجاهله للملك أن رفض أن يذعن لتصميمه على اغلاق جريدة الأهرام بعد أن نشرت مقالا تغمز فيه الملك بأنه يعرقل عمل لجنة الدستور ، وكان المقال بعنوان « اوصلونا الى الدستور لنرتاح » وكأن معركة الدستور قد أتعبت الجميع ، فى الوقت الذى عطل فيه « الليبرتية » التى تتشيع للوفد وتدعو للملك ، ولجأ الملك الى المندوب السامى ليخلصه من الوزارة وكان قد أخذ يعوق انعقاد جلسات مجلس الوزراء ، ولكن المندوب السامى يحول بينه وبين اقالة الوزارة ، وينصحه بأن ذلك يسىء اليه حين يربط الناس بين اقالته وبين انجاز الدستور ، ووقوف الملك دونه •

ولم يجد الملك سبيلا للخلاص من ثروت الا أن يرغمه على الاســـتقالة فيدبر رجال السراى بالاتفاق مع الوفد على أن يقوم أنصاره بضرب رئيس الوزراء والوزراء وهم بصحبة الملك فى صلاة الجمعة بالأزهر يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ ، على ما يرويه حسن الشريف فى كتابه « الرجال أسرار » ، الا أن الدكتور هيكل يعرضها بصورة أخرى ، فيقول : « تناقل الناس أن رجال الأزهر سينتهزون فرصة اداء جلالة الملك صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وفى صحبته ثروت وبعض الوزراء ، ليناودا بسقوط ثروت وبسقوط الوزارة • أفيواجه ثروت باشا هذا الموقف ؟ قيل : ان بدر الدين باشا مدير الأمن العام أكد لثروت باشا أنه قدير على أن يتغلب على هذه المظاهرة ان وقعت •• لكن ثروت باشا شعر بأن الأمر أفلت من يده ، وان ما بينه وبين القصر صار غير ممكن اصلاحه ، وانه فضلا عن ذلك قد اختلف مع الانجليز على الصيغة التى وردت فى مشــــروع الدستور عن السودان ، ولذلك صمم على الاستقالة » وكانت استقالة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أسطر ، وصفها أحمد شفيق باشا بأنها « قصيرة وجافة » وقبلها الملك حالا • وكلف نســـيم باشا بتأليف الوزارة

الجديدة على الفور ، حتى لا يدع للمندوب السامى فرصة للتدخل ولا يفوتها له المندوب السامى ، فلم تمض اربعة أيام حتى أبلغه « استياء حكومة جلالة الملك العميق » من هذا التصرف ، وان كتب فى رسالته الى كيرزون يقول ، ان ذلك يتيح له الضغط على وزارة لا راى له فى تاليفها منه على وزارة تحظى بتأييده » .

والواقع ان هذا التغيير الوزارى قد حرر المندوب السامى من مجاملة وزارة ثروت أو احراجه فيما يختلفان فيه واصبح مطلق اليد فى التعامل مع الوزارة الجديدة .

وحظيت وزارة نسيم بتأييد الوفد فضلا عن الملك ، ولكنها لم تقو على مواجهة الأعاصير التى واجهتها من المندوب السامى حين رفض أن ينص فى الدستور على لقب « ملك مصر والسودان » وأنذر بأن ذلك لايتفق مع اتفاقية ١٩ يناير ١٩٨٨، ولامانص عليه تصريح٢٨ فبراير ، وشفع الانذار بمظاهرة عسكرية فى بورسعيد والاسكندرية ، ولم يسمح لها بالاستقالة قبل الرد على الانذار البريطانى ، وكان قد وجهه للملك دون الوزارة ، ولم تبق وزارته غير أربعين يوما (٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ ــ ٩ فبراير ١٩٢٣) ، سلم فيها للملك بتعديل مشروع الدستور على هواه ، وقبل الانذار البريطانى ، « مادام الانجليز سيفوزون بمآربهم سواء كان ذلك عن طريقنا او غير طريقنا، فواجبنا أن نغطى العرش بانفسنا وأن نفديه بأشخاصنا » كما جاء على لسان توفيق رفعت باشا وزير المواصلات فى مذكراته .

وفشلت وزارة نسيم فيما وعدت به ، فلم يطلق سراح سعد ولم يفرج عن المعتقلين السياسيين وقبلت الانذار البريطانى بحذف النص الخاص بلقب « ملك مصر والسودان » ليكون « ملك مصر » والغريب أن يرسل اليه سعد زغلول ببرقية من جبل طارق ، يقول فيها : « انكم بعملكم الشريف المفعم بالوطنية والحكمة قد استحققتم

تقدير الوطن » وان علل العقاد ذلك بانه « كان بعيدا عن مجرى الحوادث ووســـائل الاستقصاء الوافية » وان عاد يقول فى نفس الصفحة من كتابه عن « سعد زغلول » أن سعدا « نظر الى الموقف فى جملته بين أن ينصر حزب ثروت أو ينصر حزب نسيم ، فاختار ما اختاره بعد هذه الموازنة المجملة ، وحدا به الى حســن الظن بالرجل ، وعدم استغراب سياسته الجديدة انه كان صهرا له ، اذ كانت شقيقة نسيم زوجا لشقيق سعد المرحوم أحمد فتحى زغلول » ولسنا نقول هذا لتسويغ ذلك التقدير فاننا لا نسوغه الآن على الوزارة النسيمية وما تستحقه هذه الوزارة بما عملته وبما تنوءيه » ٠

وقامت وزارة يحيى باشا ابراهيم ، واختار الملك وزراءها ولم يكن للمندوب السامى من اعتراض مادامت الوزارة الجديدة توافق على الفقرة المعدلة فى الدستور عن الســودان ولا تعترض على قانون التعويضـــات ، ومع رغبة الانجليز فى تجاوز الأزمة التى أثارتها الوزارة النسيمية باستقالتها وبقاء البلاد شهرا كاملا بدون وزارة ، اخذوا يمهدون الأرض ويذللون الصعاب أمامها بعد أن رفض عــدلى تاليفهــا وكان الوفد قد اعترض على دعوته لتاليف الوزارة واتهم الانجليز بالتدخـــل ، فقرروا الافراج عن المعتقلين والمنفيين والغاء الأحكام العرفية ، ولم يكن لرئيس الوزارة الجديدة لون سياسى يثير عليه الوفد ، ولم يكن له ولا لوزرائه صلة بجماعة عدلى أو حزبه الجديد ، فاستطاع رغم ما أخذ عليه من مسخ لبعض مواد الدستور أن يصدره وأن يصدر ما يقتضــيه من تشـــريعات أخرى كقانون الانتخاب وقانون التضمينات وقانون تعويض الموظفين الأجانب ، فقد « اسرع ــ كما يروى عبد العزيز فهمى فى « هذه حياتى » الى قصر عابدين فى ليلة ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ ، ورجا الملك فؤاد أن يقضى من وقته فى تلك الليلة ساعتين لمراجعة الدستور ، ثم يتفضل بامضائه ، ولو أن فى ذلك مشقة على صحته ، لأن المصلحة تقضى

بالاسراع فى امضاء الدستور واصداره فراجعه وامضاه فى تلك الليلة التاريخية » • لتبدا صفحة جديدة فى تاريخ مصر السياسى •

الدكتور هيكل
والاحرار الدستوريون :

انفصم رباط الحزب الديمقراطى وتفرق اعضاؤه بين متشيع لعدلى ومتشيع لسعد ، وكان الدكتور هيكل يرى منذ البداية ، وقبل أن يدور البحث فى اصدار تصـــريح ٢٨ فبراير ، ان تعلن انجلترا استقلال مصر أولا ، لتكون المفاوضات من بعد بين ندين متساويين ومن موقع السيادة لكل منهما ، وكل ما كان يعنيه أن يبقى الوئام بين الأقطـــاب ، وان تبقى الأمة صفا واحدا ، وهو ما أجمع عليه أعضاء الحزب الديمقراطى حين فوتح عدلى فى تاليف وزارة تتولى المفاوضات ويشرف الوفد عليها وتكون له الكلمة الأخيرة بوصفه ممثلا للأمة •

وبدأ الدكتور هيكل فى وقت من الأوقات ، اكثر تطرفا من سعد ، ويلتمس لسعد العذر فى اعتداله ، فيكتب فى الأهرام فى ٤ فبراير ١٩٢٠ ، بعنوان « أما بعد فماذا يريد الانكليز » يشير الى رسالة رئيس الوفد ، وطابعها من الاعتدال ، فيقول : انها « جاءت اكثر اعتدالا من كل الآراء التى أبداها الوطنيون المصريون الى الآن ، واشد حرارة فى قصد التوفيق بين استقلال مصـــر التام ومصالح انكلترا التى لا تتعارض مع الاستقلال التام •• لم يرد سعد باشا زغلول أن يظهر أمام العالم بمظهر المتعنت فى طلبه فرسم اقرب الخطط العملية واكثرها ملاءمةلكرامة الدولةالانكليزية، حتى لا يقال انه يكره الانكليز على الاعتراف بالهزيمة والعجز » وفى مقال تال فى ١٩ فبراير يحمـــل على الانجليز ويتهمهم بالخـداع ، وانهم يقولون شـــيئا وصحافتهم تقول شيئا آخر « ثم هم لا يكرهون شيئا اكثر من كراهتهم الصراحة فى السياسة ، ولا ادل عن ذلك من فشل الرئيس ولسون

فى جعله مفاوضات الصلح علنية ، كما كان قد ذكر فى مبادئه » وهم فى **نظمهم السياسية والاقتصادية والتعليمية عباد مصلحة** « ودينهم السياسى أن الغاية تبرر الواسطة » بل أن كبار كتابهم وفلاسفتهم « يخضعون كل شىء فى الوجود لفكرة المصلحة ، فالعاطفة والخلق والحق كلها فى نظرهم ألفاظ لا مدلول لها فى ذاتها الا بمقدار ماتخدم المصلحة » • ولولا الحذر من تشابك المصـــالح الدولية فى مصر ، **لضمت مصر اليها « لقمة سائغة »** ورضيت بالحماية دون الضم حتى لا تثير الدول عليها « معتمدة على وداعة الشعب المصـــرى وسكينته » •

وفى مقال آخر فى ٢٢ يونيه ، بعنوان « نظرة للمستقبل » يطالب **بانتخاب هيئة نيابية ــ كما جاء فى تصريح رئيس الوفد ــ** توافق على ما يتم الاتفاق عليه بين الوفد والانجليز ، على أن يكون انتخابها حقا **لكل المصريين على قدم المساواة** ، فقد مضى زمن تتميز فيه طائفة على أخرى « ومادمنا على أبواب العصر الجديد نريد تحقيق أكبر قسط من العدالة واشتراك الشعب فى الحكم اشتراكا صحيحا حتى تكون المجهودات المشتركة أكثر ما تكون فائدة وجدوى » •• وخليق **بالأمة التى قامت بالمجهودات العظيمة وهى متضامنة تمام التضامن** ، للوصول الى استقلالها أن تحتفظ بهذا التضامن الذى سيصل بها حتما الى غايتها » •

وكان كل ما يرنو اليه الدكتور هيكل ويلح فيه ، أن تبقى الوحدة الوطنية سليمة ، فان « قوة مصـــر فى وحدتها ، وفى قوة تمثيل الوفد لهذه الوحدة ، فاذا أصاب أصرة الوفد وهن تســـرب هذا الوهن من الوفد الى الأمة ، وكان له أثر يغتبط له خصوم مصر ، ويضر مصر ضررا بالغا » ، وكانت بوادر الخلاف قد بدأت تسفر عن نفسها فى صفوف الوفد •

ويوالى الكتابة فى هذا الأمر كلما جد جديد ، فلما أعلنت انجلترا أن الحماية لم تعد علاقة مرضية بين انجلترا ومصـــر ،

وتطلب « الى صاحب العرش فى مصر أن يعين من يتولى المفاوضة » لوضع الأساسى الجديد للعلاقة بين البلدين « ولن يتولى ذلك الا وزارة تكون موضع ثقة الأمة التى أظهرت فى غير لبس ولا ابهام ، انها لن ترضى عن استقلالها بديلا ويقول داعيا الى الجهاد : « لن يكون منا من يتصل بالانكليز الا نازلا عن مصريته لابسا لوطنه ثوب الغدر ، لن يعرض أحد منا للانكليز بخير ولا بشر · بل ولنلبس حقنا رداءنا ، لنخلع هذه المدنية الغربية الشرهة للدم شرهها للمال، ولنرجع الى شـــرقيتنا المتقشفة الزاهدة · انما هى المادة الثقيلة الكثيفة أغرق بها الغرب أرواحنا الشرقية الطاهرة فأذلها واستعبدها ·· بل ان كسرة من قديد فى ملكوت الحرية خير من هذه الطنافس وتلك الطعوم فى حكم المذلة » ·

أكان الدكتور هيكل فى هذا المقال الذى نشره الأهرام فى ٦ يناير ١٩٢٢ ، داعيا الى لون جديد من الجهاد لعله أشبه بالمقاومة السلبية التى دعا اليها المهاتما غاندى فى الهند ، أم تراه يشير الى تجـــرد المصريين من أى طمع أو اغراء فى كفاحهم للانجليز · وكان عدلى قد استقال بعد فشل مفاوضاته مع كيرزون وبقيت البلاد بغير وزارة ، لذلك نراه يعاود الحملة على سياسة انجلترا ، ويكتب فى الأهرام بتاريخ ٣١ يناير ١٩٢٢ ، أن سياسة « الاغتصاب والعسف التى أعلنتها انجلترا كان أهم مظاهرها ما أعلنه المصريون من جانبهم من ضرورة عدم تعاون أحد أبناء مصر مع غاصبى حقوق بلاده المقدسة ، وهذه السياسة السلمية السلبية هى التى دفعت بالمصريين جميعا ليعلنوا عدم الرضا عن تأليف وزارة فى جو تلك السياسة الظالمة » وكان ثروت باشا قد اشترط لقبوله تأليف الوزارة شروطا رأى الدكتور هيكل أنها تعبر عن ارادة الأمة ، فيؤكد فى مقاله هذا أن « ارادة الأمة حينما عرض عليها مشروع ملنر ظاهرة فى الشروط التى اشـــترطها عبد الخالق ثروت الى حد كبير ، فهى ترمى الى

تحقيق كل تحفظات الأمة على المشروع قبل الدخول فى اية مفاوضات مع الانكليز • ويكفى أن يكون أهم التحفظات ويقصد به الغاء الحماية الغاء صريحا قبل الدخول فى أى مفاوضات فى مقدمة الشروط ، المذكور » ••

كان الدكتور هيكل يعرف أن غاية الأمة هى الاستقلال ، وتلك هى غايته التى يؤمن بها ويسعى اليها ويبدو أكثر تطرفا من غيره فيها • ولكنه على يقين من أن الأمة لن تبلغ غايتها الا بوحدتها ، فيكرر الدعوة اليها ويحذر من الفرقة فى كل ما يكتب ، ويميل بهواه الى ما يقبله عقله دون تعصب أو رفض للرأى الآخر ، وقد ظل طوال الفترة التى سبقت اعلان تصـــريح ٢٨ فبراير يدعو الى الوحدة القومية ويصف استقبال الأمة لمندوبى الوفد حين جاءوا الى مصر يعرضون مشروع الاتفاق مع ملنر على الشعب فى مقاله بالأهرام حينذاك بأنه « مظهر بديع وسيكون أسنى جلالا وأبدع وأبهى حين يصل الشعب الى تحقيق أمله بالفعل » « واجتمعنا نحن أعضاء الحزب الديمقراطى – كما يدون فى مذكراته بعد وقوع تلك الأحداث بست وثلاثين سنة أو يزيد – وفحصنا المشروع وأبدينا رأينا فيه ، وبدا من هذه الحركة التى تناولت طوائف الأمة جميعها أن كثرة الشعب المصرى لا تطمئن للمشروع كل الطمأنينة ، لكنها لا ترفضه وتبدى عليه تحفظات حرص أعضاء الوفد على أن يسموها رغبات تريد الأمة تحقيقها ، وقد كشفت هذه الحركة الواسعة النطاق ، والتى تناولت عناصر الشعب المصرى كله ، حقيقتين جديرتين بالتسجيل أولاهما : أن الوعى السياسى للشعب المصرى يسير ســـراعا الى النضج ودقة الأدراك للحياة السياسية العامة ، والثانية أن مصر تريد الاتفاق مع انجلترا على معاهدة ومحالفة ، وتؤثر هذا الاتفاق على ما سواه ، وان أدى ذلك بها الى أن لا تتخذ فى ســـياستها الخارجية خطة غير خطة السياسة البريطانية » •

ومنذ نشأ الدكتور هيكل فى رحاب الجريدة وفى كنف لطفى ، لم يكن له من الرأى الا ما يقبله عقله ويهديه اليه تفكيره ، وكان بحكم دراسته وتكوينه الفكرى ـ كما قلنا ـ واقعيا ، ومع تقديره وحبه لاستاذه لطفى السيد ، وللصلات الأسرية التى تربطه به ، كان يخالفه ـ كما رأينا ـ فى كثير من المسائل ، وظل ذلك منهاجه فى الفكر وفى السياسة ، ولم يبد قط طوال حياته الفكرية والسياسية أنه يميل مع الهوى أو الكفة الراجحة ، وكان الواقع لديه جزءا من تكوينه العقلى ، فهو مع مايهديه اليه عقله وقد استقام على الواقع من حقيقة الأمور · فلما وقع الخلاف بين سعد وعدلى ، ظل على اقتناعه « بأن النجاح لا يتأتى الا ببقاء الأمة صفا واحدا ، حتى رأى علاجا للموقف أن يستقيل عدلى ويؤلف سعد وزارة جديدة ، على غير ما يرى وما قرره الحزب الديمقراطى من قبل ، ووافقه الحزب الديمقراطى على ذلك ، وحمل الدكتور محمود عزمى هذا الرأى الى عدلى ، وكان على صلة خاصة به ، « وعاد الى عزمى فى اليوم التالى لحديثنا يخبرنى بأنه طالع به عدلى باشا ، بحضرة ثروت باشا وصدقى باشا ، فرأى من الرجلين معارضة أساسها أن قبوله معناه ترك حكم البلاد فى أيدى الغوغاء ، وأنه اذا لم تتمكن الحكومة من القضاء على الفوضى وأفلت الزمام من يدها كانت الطامة الكبرى ، وليس فى مقدور أحد أن يعرف ما يترتب على ذلك من نتائج » كما سبق القول ·

ولم يلق الدكتور هيكل بالا الى ذلك ، وظل على رأيه فى وحدة الصف لنجاح المسعى ، وقد تشيع للوفد أيام كان الوفد يمثل وحدة الأمة دون أن يؤثر فيه بريق الزعامة أو ما أصبح لسعد من « كاريزما » شعبية ، وكثيرا ما أنكر على سعد اتجاهاته ومواقفه دون أن ينال ذلك من تقديره لسعد واكباره ، فما كان انكاره لبعض مواقفه يطغى على تقديره للرجل العظيم فما كان سعد ـ كما يقول ـ « الا رجل الثورة قادها بقوة وحكمه ، كما كان عدلى فى أثناء

محادثات ملنر ، وبشهادة أعضاء الوفد انفسهم مثال الحكمة والأناة والدقة فى المفاوضة ، فاذا كانت القيادة الشعبية فسعد الزعيم ، واذا كانت المفاوضات فعدلي المفاوض البارع ، الا أن الدكتور هيكل كان يرى ، وقبل أن يعلن تصريح ٢٨ فبراير ، أن تعلن انجلترا من جانبها استقلال مصر أولا ثم تكون المفاوضات لحل المســائل المعلقة بين البلدين ، ونشر رأيه هذا فى أهرام ٢ سبتمبر ١٩٢٠ ٠

وقد انتهت المسألة المصرية الى هذا الرأى الذى أعلنه الدكتور هيكل من قبل،ولعله ــ على قدر مانعرف ــ أول من نبذبهيوملميكنيخطر على بال أحد ٠ وكان عليه أن يختار الجانب الذى يقف الى صفه بعد ذلك ٠ ولكنه بقى على رأيه من مغبة الخلاف وما يجنيه على الوحدة القومية ومستقبل الحركة الوطنية ، يحذر من التعصب وأن تعلو المبادىء على الأشخاص ، ففى سلسلة من المقالات ينشرها فى الأهرام بعنوان « حقيقة موقفنا » بعد صدور التصريح ، يحمل على التعصب ، ويدعو الى الحوار الحر ، فيقول انه لا يعرف التعصب وان كل فكرة يتلقاها تخضع للجدل فقد يكون فيه ما يقتنع به ، فان التعصب « ليؤذى الوضـــع الحســاس من ذهنى ، لأن معناه فناء شخصية المتعصب فيمن يتعصب له ، وأنا أشد اجلالا للشخصية الانسانية أن ينالها الفناء » ٠٠

ولكنه يفرق بين الغاية والوسيلة ، ولعله فى هذا يضع حدا فاصلا بين الاعتدال والتطرف ، فقد يصل التطرف فى الوسيلة الى طريق مسدود ، وأما الغاية فلا نقاش فيها ولا يختلف عليها أحد . « وأنا أفرق بين الغاية والوسيلة ، الغاية هى أقصى ما تريد ، هى النصر النهائى على ما كان يسميه الحلفاء ، وأما الوسيلة لهذه الغاية فكل عمل يؤدى اليها » ٠٠٠ غايتنا نحن جميعا الاســتقلال التام ووسيلتنا اليه حقنا فيه وعدم معاونة الانكليز على سلب هذا الحق ، هذا ما فعلناه سنة ١٩١٩ حينما استقالت وزارة رشدى باشا الأولى وأضرب المحامون والموظفون وعمال المواصــلات الى زمن اقنع

الانكليز اقتناعا صريحا بأنهم لا يستطيعون حكم البلاد بسلام الا بمعاونة المصريين اياهم ، وذلك ما فعلناه حينما حضرت لجنة ملنر لتنظيم الحماية على مصر فقاطعناها ولم نتقدم اليها » .

أما تصريح ٢٨ فبراير ، فانه وسيلة الى غاية ، وليس لنا أن نبحث « قيمة تحقيق التصريح الانكليزى ـ بعد اقرار البرلمان اياه ـ لأمانينا ، فلم يقل الانكليز ولم يقل أحد أن هذا التصريح حققها ، وانما الذى يجب البحث فيه بدقة وروية وامعان وفوق ذلك بتمام الذمة والاخلاص هو الموقف الذى يوقفنا فيه هذا التصريح بازاء الانكليز » ..

ولم تكن لجنة الدستور قد بدأت عملها بعد فلما بدأت عملها فى ١١ أبريل ١٩٢٣،واختير الدكتور هيكل عضوا بأمانتها العامة بدت الوسيلة أكثر وضوحا،فما أن يصدر الدستور وتقومحكومةنيابية حتى تبدأ مفاوضاتها مع الانجليز حول التحفظات التى وردت فى التصريح .. لذلك بقى الدكتور هيكل مؤمنا بالوحدة القومية داعيا اليها على صفحات السياسة بعد قيام حزب الأحرار الدستوريين وصـــدور السياسة لتكون لسان حاله .

ولم يكن اختيار الدكتور للجنة الدستور بسبب انتمائه ـ كما نعتقد ـ الى جهة من الجهات ، ولكن لمكانته العلمية كرجل يحمل أرفع مؤهل فى القانون حينذاك ويدرس القانون فى الجامعة ، ومن صفوة الشباب النابه « أمثال عبد الحميد بك مصطفى ، وعبد الحميد بك بدوى ، وتوفيق بك دوس ، والياس بك عوض » ممن رأى ثروت أن يستعين بهم فى لجنة الدستور ..

ولم يكن الدكتور هيكل غريبا على هذه الجماعة التى اختيرت لوضع الدستور وان لم يكن لأكثرهم صلة به من قبل ، ولكنه لم يكن

مجهولا لدى الرأى العام خاصته وعامته ، وقد سمع به رشدى باشا رئيس لجنة الدستور قبل ان يراه ، « فلما رآنى فى أول جلسة عقدت بقاعة الجمعية التشريعية ـ وقد أصبحت من بعد قاعة مجلس الشيوخ ـ سأل عنى أحمد بك أمين رئيس الأمانة العامة ، فلما عرف من أنا ، جاء الى وصافحنى ، قائلا : هو أنت الدكتور هيكل ! وأجبته أن نعم ، ولعل السبب فى سؤاله أنه رآنى شابا لم أبلغ الرابعة والثلاثين ، وأنه كالكثيرين غيره ، كان يحسب هذا الدكتور هيكل الذى يكتب فى الصحف ويدرس القانون فى الجامعة ، والذى ظهر مؤلفه من قبل عن ـ جان جاك روسو : حياته وكتبه ـ كهلا جاوز الخامسة والأربعين أو قارب الخمسين ، فلما رآنى شابا نحيفا لايبدو عليه أنه جاوز الثلاثين الا قليلا تولته الدهشة ، ثم اتصلت بينى وبين الرجل بعد ذلك مودة فيها توقير من جانبى ، وعطف من جانبه ، جعلتنى أقدره حق قدره » ٠٠ كما ذكرنا من قبل ٠

« ولعل سؤاله يرجع كذلك الى أننى ، على اعتدال ما كنت أكتب فى شئوننا السياسية فى ذلك الوقت وبعده عن كل مظهر من مظاهر العنف ، قد كنت أؤيد الفكرة التى سبق أن أشرت اليها ، وهى أن يتفاوض عدلى باشا ومن معه من رجال الوزارة ، وأن يشرف الوفد على هذه المفاوضة ، وكنت فى هذه المقالات أؤدى لكل رجل حقه من التقدير ، وكان رشدى باشا ممن قدرتهم ، لما عرفت من تأييده للوفد أول تأليفه حين كان رئيسا للوزارة ، ومن توجيهه لورد ملنر ولجنته الى محادثة الوفد ، وقوله للورد ملنر عبارة اشتهرت عنه فى ذلك الحين ، ان لم تفاوضوا الوفد فى باريس ، فلن يتابعكم فى هذا البلد ثلاث قطط . فلما سافر وفد عدلى باشا الى لندن لمفاوضة لورد كيرزون ، كان لرشدى باشا مع أنه كان مريضا مرضا هدد حياته ، مواقف بارعة جريئة جديرة بعلمه وفضله ، قدرت أنا هذا كله على غير معرفة منى بالرجل ، فلما رآنى شابا فى الثالثة والثلاثين ، ذكر ما قرأه لى وسر بوجودى معه » ٠

وكان على الدكتور هيكل أن يختار مكانه ، وقد اختار فعلا بعد أن شارك فى لجنة الدستور ، ولو لم يشارك فيها لمكان مكانه الطبيعى مع الذين أتيح لهم أن يحققوا ما نادى به منذ البداية وهو أن تعلن انجلترا استقلال مصر أولا قبل اية مفاوضات بشأن التحفظات ، كما كان فى أسلوبه بعيدا عن الانسياق العاطفى وفى مسلكه بعيدا عن العنف ، ومع تقديره لسعد فقد اختلف معه على اشياء كثيرة منذ كان الحزب الديمقراطى ، ومنذ « دب دبيب الخلاف - كما يقول - بين الوزارة والوفد فلا فائدة ترجى من تلمس الحجج القانونية أو النظامية أو العقلية ، ما قصرت هذه الحجج عن اعادة الوحدة الى البلاد » .

وبينما كانت لجنة الدستور ماضية فى عملها ، كان الرأى قد استقر بالخارجين على الوفد ، وقد عرفوا بجماعة عدلى ، أو جماعة المعتدلين على تأليف حزب سياسى يجمع بينهم ويصدر برأيهم ، وقد عرف به الدكتور هيكل ، أول ماعرف من لطفى السيد ، وقد جمع بينهما القطار المسافر من بلدتيهما الى القاهرة « وكان لطفى بك يترجم اذ ذاك فلسفة أرسطو ، فلما حدثته عنها قال لى ان جزء منها أوشك على التمام ، وأضاف : وسأطبعه عندك . ودهشت فقلت : عندك أنا ! قال : نعم ، فستتولى رياسة التحرير لجريدة الحزب الجديد الذى يؤلفه عدلى باشا واخوانه ، فلما ذكرت له ما أعرفه من أن عدلى باشا لا يريد أن يؤلف حزبا ، قال : لقد أقنعناه لمصلحة مصر ، وانتقل الحديث بنا بعد ذلك الى شئون اخرى عكف لطفى بعدها على قراءة كتاب كان فى يده ، وأخرجت أنا كذلك كتابا من حقيبتى أقرؤه » .

وقبل أن يصدر الدستور كان « التفكير فى تأليف حزب يرأسه عدلى باشا قد انتقل الى حيز التنفيذ ، وأن أعضاء لجنة الدستور جميعا سيكونون أعضاء فى هذا الحزب ، وأن الدفاع عن الدستور

«والعمل لسرعة صدوره فى مقدمة اغراض الحزب ومبادئه ، وان خطاب الافتتاح الذى يعلن فيه عدلى باشا تأليف الحزب يعد ، ودعيت لحضور اجتماعات المؤسسين ومناقشاتهم ، وكانوا يجتمعون بمنزل عدلى باشا برمل الاسكندرية ، وقد اجتمعنا عدة مرات تحدثنا فيها عن اسم الحزب ، وانتهينا الى تسميته : حزب الأحرار الدستوريين ، وعن اسم الجريدة التى تنطق بلسان الحزب ، وانتهينا الى أن يكون اسمها « السياسة » وعن الأشخاص الذين ينضمون الى لجنة الدستور أعضاء فى الحزب ، واتفق على أن يكون من بينهم مدحت باشا يكن ، ومحمد باشا محمود ، وحسن باشا عبد الرازق ، وجماعة من الشبان أمثال الدكتور حافظ عفيفى رئيس جمعية مصر المستقلة ، ودسوقى بك أباظة ، وأحمد بك عبد الغفار وأمثالهم من مديريات مختلفة عرفوا بنشاطهم فى مديرياتهم ، وتاييدهم عدلى باشا ، وكان كثيرون منهم أعضاء فى الحزب الديمقراطى أو فى جمعية مصر المستقلة التى أنشئت فى أثناء مفاوضات عدلى باشا مع لورد كيرزون ، وكانت تؤيده فى موقفه من هذه المفاوضات » ..

وكان الدكتور حافظ عفيفى ومصطفى بك النحاس عضوين فى الحزب الوطنى ، ورأى الوفد ضمهما اليه ممثلين له ، فلما اختلف الدكتور حافظ عفيفى مع الوفد ، لم يعد الى الحزب الوطنى واختار اتجاها مستقلا فالف جمعية مصر المستقلة ، حتى اتخذ جانب عدلى .. وأصبح عضوا فى الأحرار الدستوريين ، وكان لتكوين هذين الحزبين الصغيرين ابان الحركة الوطنية الثائرة ومبايعة الشعب جميعا للوفد مايدل على احساس هذا الشباب المثقف بذاتيته واستقلاله الفكرى ، وأن يكون له رأيه المسموع فى خضم هذه الأحداث الجارية حتى تفرقوا شيعا بين الوفد والأحرار الدستوريين وبقى الذين لاذوا بالحزب الوطنى كفكرى أباظة والرافعيين أمين ، وعبد الرحمن يلوذون به حتى النهاية .

وكان من رأى لطفى السيد أن يضم الأحرار الدستوريون اليهم ثروت رئيس الوزراء واسماعيل صدقى وزير المالية ، ليكون لوزارة ثروت لونها الحزبى ، فاذا استقالت كان للحزب من كفايتهما أعظم الفائدة .

ولم يلق الدكتور هيكل بالا الى « الأشخاص الذين ينضمون للحزب ، فقد كانت معرفتى بكثير من هؤلاء الأشخاص محدودة » وانما اتجه باهتمامه وعنايته الى خطاب الافتتاح « فهذا الخطاب هو الذى تبنى عليه سياسة الحزب ، وهى السياسة التى سأدافع عنها يوم يؤلف الحزب وتظهر جريدته » فما أن أعد لطفى السيد خطاب الافتتاح الذى يلقيه عدلى حتى دفع به عدلى الى الدكتور هيكل ليقرأه ، ويتحدث اليه فيما قد يعن لى من ملاحظات عليه ، « وتحدثنا بعد أيام ، واتفقنا على بعض نقط حررتها ودفعت بها الى لطفى بك، فأعاد تحريرها ليظل الخطاب منسجما . بهذا تحددت سياسة الحزب وتحددت مبادئه » .

ويقول الدكتور هيكل انه اغتبط بهذا الخطاب « ورأيت فيه سياسة تتفق فى جملتها وفى تفصيلها مع آرائى ، فهو يقدس الحرية الفردية وأنا أقدسها ، وهو يكبر حرية الرأى ، وهذه الحرية تحل من نفسى محل الايمان الذى لا يتزعزع ، وهو على نزعته الفردية يدعوا الى العدالة الاجتماعية كما صورتها فى مقدمة كتابى عن — جان جاك روسو — الذى صدر قبل ذلك بعام وأشهر ، وهو يحبذ الوحدة القومية ، وقد كنت من دعاتها يوم كان الخلاف بين سعد وعدلى على أشده ،وهو يؤيد حرية التجارة مالم تحتج صناعة ناشئة الى الحماية حتى تقف على قدميها ، وأنا من هذا الرأى ، لى اذن أكبر الرجاء ، يوم تظهر « السياسة » أن أبشر بهذه المبادىء فى ايمان وقوة يحملان كل متردد على اعتناقها والاقتناع بها » .

وقد رأى الحزب حين اختار الدكتور هيكل لرياســـة تحرير « السياسة » التى تنطق بلسانه أن يترك عمله « فى المحاماة نهائيا وأن انقطع لرياسة تحرير السياسة » ولم يكن يجهل ما يواجهه الحزب الجديد وما كان يواجهه رجاله قبل أن يقوم من هجوم قاس يشنه الوفد وصحفه ، واتهامه بالتفريط فى حقوق الوطن ، وأن رجاله قد « غصبوا حق الأمة فى اقامة دستورها عن طريق جمعية تأسيسية بدل هذه اللجنة التى اختارها ثروت لوضعه ، وما ثروت الا خليفة عدلى الذى قال سعد زغلول عن مفاوضاته مع كيرزون : « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ، وما لجنة الدستور الا لجنة من الاشقياء » . وكان اتهام انصار عدلى بخيانة الوطن ايسر ماتجرى به اقلام المؤيدين لسعد » .

اترى ذلك مما يوهن من عزم الدكتور هيكل وهو يستقبل حياته الجديدة ، وهو يعيش على ما يكسبه من المحاماة ؟ أترى هذه التهم التى كيلت للحـــزب حين تأليفه يثنيه ، أو يثنى « أحدا منا عما اعتزم ؟ » لا ، بل : « على العكس حافز لنا على المعنى فيما نؤمن بأن خير الوطن رهن به : من الدعوة للوحدة ومن اشـــاعة المبادىء السليمة التى وضعناها للحزب الجديد » .

لم يكن تحوله عن المحاماة الى الصحافة كمهنة ، اذن احترافا أو سعيا الى كسب مادى ، وكان له من المحاماة دخل كبير ، وانما هو السبيل « وقد آتاه الله موهبة القلم ومهد له سبيل الدفاع بهذا القلم عن الحق الذى يؤمن به بتوليه رياسة تحرير السياسة ، فعليه أن يؤدى هذا الواجب كاملا دفاعا عن عقيدته ودفاعا عن الحرية ودفاعا عن وطنه » وماكان « ليرضى ـ كما قال الاســـتاذ على عبد الرازق فى رثائه ـ بأن يجعل قلمه لسانا للأحرار الدستوريين الا وقد علم أن مذهبه السياسى هو مذهبهم ، وانه اذ ينطق بلسانهم

انما ينطق بلسانه هو أيضا ، وانه انما يدعو الى مذهبه ومذهبهم ويناضل عن سياسته وسياستهم » ٠

ولهذا يعتذر الدكتور هيكل عن قبول ماعرضه عليه جبرائيل بك تقلا صاحب جريدة الأهرام « أن أكون رئيسا لتحرير الأهرام بمثل الشروط التى يعرضها رجال الحزب الجديد أو بخير منها » كما يرفض من بعد سعى اسماعيل صدقى لضمه اليه يوم أنشأ حزبا وجريدة يسند بهما وزارته،وقد خيل اليه «انه اذا استطاع أن يضمنى الى حزبه أضعف من قومة الأحرار الدستوريين ، كما سبق القول ٠

ورؤى أن تصدر السياسة يوم يعلن عدلى قيام الحزب الجديد واختيار مجلس ادارته ، وأختار لذلك يوم ٣٠ اكتوبر ١٩٢٢ موعدا لذلك ولصدور أول عدد من السياسة ٠

وفى صباح ذلك اليوم اجتمع رجال الحزب وأنصاره بفندق شبرد(١) ، قال عنهم الدكتور هيكل أنهم « عدد عظيم من المثقفين والأعيان » ليسمعوا خطاب عدلى ، فلما فرغ من القائه « وفرغ محمد على علوبة بك من تلاوة مبادىء الحزب ، انتخب أعضاء مجلس ادارته » ٠

ويخرج الدكتور بعد الاجتماع ليجد باعة الصحف ينادون على السياسة « ورأيت الخارجين من فندق شبرد بعد سماع الخطاب يقبلون على شرائه ، ولشـــد ما ابتهجت بانتهاء حفلة الافتتاح بسلام » ٠

---

(١) كان فندق شبرد يقوم على ناصيتى شارع الألفى وشارع عرابى — وكان يسمى شارع ابراهيم قريبا من حديقة الأزبكية ، واحترق من آخره فى حريق القاهرة يناير ١٩٥٢ ، حتى اعيد بناؤه فى موقعه الحـالى على النيل ٠

٩ بين حقبتين

وقد يقال ان السياسة امتداد للجريدة ، ولكن الزمن كان غير الزمن والمجال غير المجال ، وان كان من اليسير أن يقال ان طابع التجديد الفكرى قد ساد السياسة كما كان يسود الجريدة ، ولكن الصورة كانت قد تغيرت كثيرا ، فالقضايا الاجتماعية والسياسية ، وان كانت امتدادا لما قبلها ، الا أن حتمية التطور قد ناشتها بعنف لا يقل عما كانت عليه ثورة ١٩١٩ من عنف ، فقد خفت حدة التوتر بين الذوات الترك والفلاحين المصريين ، وبدأ سراة المصريين ينشدون سمات الوجاهة ومزايا الطبقة التركية الأثيرة ، فأوغلوا فى احتذاء المثل التركية وتقليد الذوات فى حياتهم وسلوكهم ومظهرهم وأصهر الكثير منهم الى الأسر التركية ، واحتل أبناؤهم من الوظائف الحكومية مالم يكن يسيرا لأمثالهم ، ولم ينته العقد الأول من القرن الحالى ، حتى بدأت الفجوة تضيق كثيرا بين الطبقتين التركية والمصرية ، وما بدأت ثورة ١٩١٩ حتى اختفت تماما ، فكان من العناصر التركية من كانوا من الأحرار الدستوريين ، وكان منهم

أربعة فى هيئة الوفد العليا وكان اثنا عشر عضوا من أعضائها أما أزواج لتركيات أو من أمهات تركيات • وكان سعد زغلول نفسه مثالا لهذا التقارب أو الانصـــهار بين الذوات الترك والفلاحين المصريين •

ولم يعد لتلك النعرة الدينية التى أورى شعلتها الانجليز بنوع من الخبث والدهاء بين الأقباط والمسلمين والتى بلغت حدتها باغتيال بطرس باشا غالى ، واختفت تماما فى ثورة ١٩١٩ ، حين أصبحت الأمة فى ثورتها الوطنية صفا واحدا ، وحين جرى التفكير فى اغتيال يوسف باشا وهبه لخروجه على الاجماع الوطنى تصدى له عريان يوسف سعد الطالب القبطى بمدرسة الطب • كما كان واصف بطرس غالى من عمد الحركة الوطنية ومن صفوة اقطاب الوفد ، وقد ضمت الهيئة العليا للوفد ثمانية من اثنين وأربعين هم أعضاؤها ، مما يفوق نسبتهم العددية للسكان بثلاثة أضعاف ، كمـــا يـرى مؤرخ أمريكى معاصر •

أما العمل السياسى فقد بقى قاصرا فى الحقبتين على تلك الصفوة من الأعيان والمثقفين ، ولكن الخلاف بينهما كان حول الغاية والوسيلة معا ، فبينما ذهب الحزب الوطنى ينشد الجلاء ويؤكد السيادة العثمانية على البلاد ، راح حزب الأمة ينشد الاســـتقلال وينكر السيادة العثمانية وحيثما اتجه الحزب الوطنى الى أوروبا ينشد معونتها ، اتجه حزب الأمة الى المصريين أنفسهم فى تحقيق استقلالهم ، أما الوفد والأحرار الدستوريون فقد اتفقوا على الغاية والوسيلة معا ، وان اختلت الوسيلة فى أيديهم حين راحوا يصطرعون فيما بينهم اكثر مما كان صراعهم للمحتل ، يصفها الدكتور طه حسين فى رثائه للدكتور هيكل ، بأنها كانت « فترة خطيرة فى تاريخ الحياة المصرية ، كانت فترة الصراع بين المصريين والانجليز ، وكانت فى الوقت نفسه فترة الاختلاف بين المصــريين حول وســـائل هذا

الصراع ، وحول وسائل التخلص من الانجليز ، وكنا نخاصم الانجليز أحيانا ، ولكنا كنا نخاصم المصريين فى تلك الأيام اكثر مما كنا نخاصم الانجليز » ٠

ولم يكن الاختلاف على الوسيلة ، هو الذى ينوش الفرقة بين المصريين فى الواقع ، ولكن الاختلاف كان حول الحكم ، فما يتم على أيدى العدليين لا يرضى به السعديون ، وبدا الاتهام بالخيانة من الفاظ السياسة المصرية ٠

ولم تعد القضايا الاجتماعية التى خاضتها الجريدة على حالها يوم عرضت لها السياسة ، فيوم أنكر الناس دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة ، وذهبت الجريدة مذهب قاسم أمين تؤيده وتدعو الى تحرير المرأة ، ويكون أول مقال يكتبه هيكل الطالب بمدرسة الحقوق بالجريدة عن « تحرير المرأة » وأنكر عليه زملاؤه « الذين كانوا يتعصبون للقديم » ميله « لحرية المرأة ولتعليمها ولرفع حجابها » ٠

ولكن المرأة المصرية أثبتت وجودها ، فما أن اندلع أوار الثورة بعد نفى الباشوات الأربعة حتى تقدمتها ٠ وكان لها بين الشهداء شهيدات خضبت أرض مصر دماؤهن كالرجال وما لبثت أن رفعت حجابها ، ومضت على الطريق تظفر بحقوقها كاملة واحدا بعد الآخر لا يتصدى لها معارض ، فقد ارتفع صوتها ليعلو على أى صوت آخر ولم يعد من اليسير اسكاته ، وساوت الرجل فى حق التعليم ، ولم يمض وقت طويل حتى شقت طريقها الى الجامعة دون ارهاق أو اعنات ٠٠

أما التطور الفكرى فكان الفرق فيه كالفرق بين تلك الجماعة من الشباب الناشىء الذى يجد له مكانا على صفحات الجريدة ، لا يجده — كما يقول العقاد فى حديثه عن لطفى السيد — فى اللواء ولا فى المؤيد ، فهما « لا يرحبان بالكتابة الأدبية الا اذا كانت بأقلام

الشعراء والكتاب النابهين من طراز شوقى وحافظ ومطران والمويلحى والمنفلوطى وأمثالهم من أدباء الجيل المتقدم « وهذا الشباب الذى استوى عوده بما اغترف من فكر الغرب وفلسفته وفنه وأدبه فى الجامعات الأوروبية ، فبينما كان هذا الشباب يتعثر بحثا عن منهج وأسلوب على صفحات الجريدة ، عاد الى صفحات السياسة وقد استوى له منهج وأسلوب ، واستطاع قادرا أن تكون له شخصيته المتميزة وأن يفرضها على عصره ·

كان المجال اذن مختلفا بين الجريدة والسياسة اختلاف الزمن وأحداثه بينهما ، وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد أن السياسة قد حولت دعوة الجريدة الى واقع فعلى · وبقيت الروح التى سادت الجريدة تطبع السياسة بطابعها،وان واجهت السياسة مالم تواجهه الجريدة من عنت الحزبية وعنف التوتر والملاحاة الصحفية وصولة السلطة وهجر القول والصراع الحزبى الجائر ، كما واجهت من صــــراع القوى السياسية المتناحرة وأحابيلها الخفية مالم تواجه الجريدة مثيله ·

ومن عسر القول أن تقول أن حزب الأحرار الدستوريين امتداد لحزب الأمة ، مالم تقل أيضا أن الوفد امتدا لحزب الأمة فالخطة التى سار عليها كلا الحزبين هى خطة حزب الأمة لحل المســـألة المصرية بالاتفاق مع الانجليز دون الاستعانة بالمجتمع الدولى فلن يحقق استقلال مصر « غير المصريين » وهى العبارة التى القاهـــا الاستاذ نافيل الى لطفى السيد فى سويسرا ، ورجع بعدها لطفى السيد ليلقى بها الى الخديو ، وهو ما أسر به لطفى السيد الى الدكتور هيكل حين سأله فى هذا ، مما سبق الاشارة اليه · وهو ما سعى اليه الوفد حين خذله مؤتمر الصلح ولم يجد منه سميعا · بل أن نواة الوفد الأولى خرجت من حزب الأمة ، فلما انشق الوفد على نفسه وانفصلت عنه تلك الجماعة التى تكون منها حزب الأحرار

الدستوريين ، لم يكن الخلاف بينهما على الغاية أو الوسيلة بقدر ما كان خلافا على من هو القمين بتحقيق تلك الغاية ، ولم يكن هناك ثمة تباين بين رجال الحزبين لا فى الكيان الاجتماعى ولا فى المستوى الثقافى ، ولكن التباين الوحيد بينهما أن الوفد كان على رأسه زعيم استولى على كل مشاعر المصريين وعواطفهم وعقولهم حتى رفعوه الى درجة من الداسة لم تكن لزعيم مصرى من قبل ، وكان رد الفعل التلقائى أن عد المصريون كل الخارجين عليه مارقين ، ثم كان هذا التنظيم الحزبى للوفد أول تنظيم سياسى من نوعه تشـــهده مصـــــر .

وكما كان المجال مختلفا للسياسة عنه للجريدة ، فقد اختلف المجال للوفد والأحرار الدستوريين عنه الحزب الأمة ، وان بقى اللاعبون على المسرح لا يتغيرون الا أن أدوارهم قد تغيرت الى حد بعيد .فالأحزاب قد أخذت تشارك فى الحكم بل غدت وهى محور الحكم حتى أن الوزارات التى تولت الحكم كوزارة اسماعيل صدقى قد صنعت لها حزبا تستند اليه ، كما صنعت السراى حزبا آخر ، ولم يعد المندوب السامى هو المعتمد البريطانى القديم ، فهو لا يسفر عن تدخله فى الحكم كما كان المعتمد البريطانى من قبل ، واختلف الحال بين ما كان يعرف بالسلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، فالملك المقيد بالدستور غير الخديو المقيد بسلطة المعتمد البريطانى ، وكان الصراع بين هذه السلطات الثلاث يدور حول طبيعة الحكم ، ولم يعد يدور كما كان من قبل بين السلطتين الفعلية والشرعية ، وأصبح أكثر ما يدور بين الملك والوزارات الدستورية ، وأصبحت الوزارة هى اللعبة المفضلة عند الملك ، حتى أن الوفد لم يحكم طوال عهد الملك فؤاد الا لفترة تقل عن عامين لثلاث وزارات ، ولم تزد فترة حكمه طوال ثمان وعشرين سنة (١٩٢٤ ــ ١٩٥٢) عن ست سنوات ، وقد حاول الملك فؤاد أن يقصى سعدا عن تولى الوزارة بعد فوز الوفد الساحق فى أول انتخابات ويبقى على وزارة يحيى ابراهيم

واستعان على ذلك بالمندوب السامى لولا انه خذله ، وحاول ان يتدخل فى اختيار الوزراء ، ونزل سعد على رأيه فى بعض ما أراد ، أما المندوب السامى فما كان يعنيه ما يدور من صراع بين الملك بنزعته الأوتقراطية الا أن يعرض لمصالح انجلترا التقليدية فى مصر سواء كان من جانب الملك أم من جانب الأحـــزاب ، حينذاك يثور ثائر انجلترا ، فتتوعد وتهدد ، وغالبا ما يصل بها الوعيد الى الأنذار الرسمى تقفوه بالأسطول تجثم بعض مدمراته فى مينائى الاسكندريه وبورسعيد ، ولا تنفك تمارس لعبتها بين الملك والأحزاب بما يتفق وهواها ٠

والأحزاب نفسها تتصارع : تأتلف قليلا وتختلف كثيرا ، وقد يمتد الخلاف الى داخلها فيتوشها بالفرقة وينال من بنائها التنظيمى والسياسى ، وكان ذلك ظاهرة امتدت على الزمن بين أعضاء الوفد دون غيره ، فتفسخ بناؤه أكثر من مرة ، وان بقيت زعامته وحدها هى مناط الاتباع وموضع ثقتهم لا يلوذون بغيرها ولا يهتدون بسواها حتى أن مصطفى النحاس رئيس الوفد وخليفة سعد زغلول فصل ثمانية من كبار رجال الوفد دون أن يؤثر ذلك على زعامته أو مكانته لدى الناس ، بل أن الذين فصلهم قد طواهم النسيان ، ولم يعد لهم دور فى السياسة الحزبية ، ثم فصل بعد ذلك كاتب الوفد (الجبار) عباس محمود العقاد كما كان يدعى ، فبارت الجريدة التى أصدرها ليحارب بها زعامة الوفد ولم تعش طويلا حين أعلنها الوفد أو زعامته بالخصومة ، وانطوى العقاد بقلمه يهز به الفكر بعيدا عن الأحزاب والحزبية ، ثم فصل النقراشى وماهر ، ومن بعدهما مكرم عبيد ، ولكنه ظل صاحب الأغلبية فى كل انتخابات تجرى حتى كانت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ التى أطاحت بالجميع ٠

وكذا كان المجال مختلفا أمام حزب الأمة وحـــزب الأحرار

المجال ٠

وبقى الدكتور هيكل فى هذه الملحمة الســـياسية على رأيه وعقيدته واتجاهه مؤمنا بالوحدة القومية وبحرية الرأى والاصلاح الداخلى النافع يمضى على القصد فيما يرى وفيما يدين به حتى وان اختلف الرأى بينه وبين حزبه وان نزل على رأى الجماعة الا فيما يمس كيانه وذاته ، فقد بقى له رأيه المستقل ، حتى أصبح رئيسا للأحرار الدستوريين ٠

١٠ الحزبية والتحزب

وشتان مابين الحزبية والتحزب ، فالحزبية نظام للديمقراطية يأتلف فيه الاتباع على قصد ومرمى ان جمع بين الأحزاب فلكل حزب خطته وسياسته فى بلوغ القصد والوصول الى المرمى ، وعلى هذا يقوم الصراع الحزبى ، كل يرى الغاية رهنا بخطته وسياسته ، ويكون الاتجاه الى الناس بالحجة والبرهان لجذبهم الى خطته وسياسته لينال من ثقة الناس به ما يحملهم على اختياره لصالح المجموع ولخير الجماعة ، فاذا كانت ملاحاة أو جدل فلاقناع الناخبين دون اسفاف أو اتهام أن ثبت ، أخذه القانون بما اتهم به ، أما التحزب فهو فى الغالب تشيع ينبع من الذات دون العقل ، تحدده عاطفة غير واعية أو غاية من نفع ، وقد يكون التشيع لفكرة ثبتت فى الأذهان فليس لها مع العاطفة الهوجاء عقل أو منطق ، والحزبية تقوم على المبادىء أما التحزب فهو استسلام لتبعية مصدرها عبادة الفرد ـ أو عبادة البسالة ـ كما يقول أستاذنا لطفى السيد ٠

وكان الدكتور هيكل حزبيا ولم يكن متحزبا ، يهتدى بالصالح

العام على هدى وبصـــيرة وكان ذلك ديدنه فيما خاض من معارك الحزبية ·

وقد واجه منذ قام حزب الأحرار الدستوريين وصدرت السياسة لتكون لسان حاله ، رئيسا لتحريرها حملة ضارية من صحف الوفد تمتد جذورها الى يوم انشق الوفد على نفسه ، فريق الى جانب عدلى وفريق الى جانب سعد ، وكان عدلى رجل دولة أما سعد فكان زعيما شعبيا ، وغالبا ما يستهدى رجل الدولة غايته خير الدولة وصالح المجموع ، فاذا خذله المجموع آثر البعد ، أما الزعيم الشعبى فانه يستهدى اتجاه المجموع ويتملقه ، وغالبا ما ينفخ فيه لتعلو مكانته عنده ، والمجموع غالبا لا يرضى باقل مما ينشد أو يصبو اليه وجدانه ، وقد عانى سعد من هذا حين أصبح رئيسا للوزارة بعد أول انتخابات اكتسح فيها خصومه ، وآلت اليه سياسة الدولة . وفشل فى أن يوفق بين مقتضيات الزعامة الشعبية وما تقتضيه سياسة رجل الدولة ، وقد آثر فى البداية أن يرضى السراى ورجلها الماكر الملك فؤاد ، وقد أراد أن يبقى على وزارة « يحيى ابراهيم » حتى يتاح للملك أن يملأ الوظائف الحساسة بالموالين من أنصاره وأن يعين الخمسين الباقيين من أعضاء مجلس الشيوخ على هواه · وكان ذلك فوق ما يبغى وما يطيقه رئيس وزرائه الأليف بعد أن منى بفشل ذريع بسقوطه فى انتخابات مجلس النواب ، ولم ينصفه الانجليز فى ذلك حين لجأ اليهم ، الا أن سعدا يترضى الملك باختيار ثلاثة من أشد الموالين له فى وزارته هم : محمد سعيد باشا — وكان رئيسا لوزارتين من قبل ، خلف فى الأولى بطرس باشا غالى وكان سعد زغلول (ناظرا للحقانية) فيها ، وتوفيق نسيم باشا وكان هو الآخر رئيسا لوزارتين من قبل ، وأحمد مظلوم باشا وكان رئيسا للجمعية التشريعية وسعد وكيلها المنتخب · وقد أثار ذلك غاية العجب ، « وفتح كثيرون عيونهم واسعة من شدة الدهشة · كما يقول الدكتور

هيكل ـ وقد ألف الناس أن يقولوا أن سعداً نبى الوطنية ، وقد أخذ سعد فى وزارته توفيق نسيم باشا الذى كان يقول انه يحمد الله على انه لم يصب بداء الوطنية ، ومحمد سعيد باشا الذى ألف وزارة من الوزارات الادارية التى لم تشترك فى الحركة الوطنية » ٠

ومهما قيل فى اختيار سعد لهؤلاء الثلاثة أعضاء فى وزارته ، اكان أرضاء للملك ، أم جزاء ما كان لهم من دور فى تسوية العلاقات بين سعد والسراى ـ كما يرى العقاد ـ أم استجابة لنزعة التعالى فى الزعامة الشعبية فى رئاسته لثلاثة من الرؤساء السابقين ، فان ذلك كان دون رضاء الملك فظل يتحين لها الفرص ٠

ولم يكن سعد ليرضى من الملك ما ينال من زعامته ، فحين تضمن المرسوم الملكى لسعد بتاليف الوزارة ما يشير الى اختياره لصدقه وولائه وعظيم خبرته وحكمته وسداد رأيه ، تضمن رد سعد ما يفيد أنه يتولى الوزارة بأرادة الأمة ٠

ولكن الخصومة بين الوفد والأحرار الدستوريين ظلت محتدمة الأوار ٠ وقد بدأت قبل أن يقوم حزب الأحرار الدستوريين وقبل أن تكون لهم جريدة تنطق بلسانهم ، فكان عدلى ومن التفوا حوله من المنشقين على الوفد ٠ وثروت ومن اختارهم للجنة الدستور هدف هجوم عنيف من سعد والوفد ، فعد تصريح ٢٨ فبراير ـ كما أشرنا نكبة وطنية ووصم لجنة الدستور بأنهم « جماعة الأشقياء » وكان الاتهام بالخيانة أبسط ما وجه اليهم ٠

فلما صدرت « السياسة » اخذت تكتب « فى لهجة معتدلة كلها دعوة الى الوحدة حول مبادىء الحـــزب ، ودعوة الى زمــلائنا الصحفيين الذين ما انفكوا يهاجمون هذا الحزب وجريدته بالتزام الحكمة ، وتقدير ما يجب للوطن من اعتصام بهذه الوحدة ليبلغ

الغاية من أغراضه الوطنية » فلما اشتدت الحملة ، وغدت « داعية تشجيع لخصومنا فى الطعن علينا وفى النيل منا ، وفى الطعن على عدلى باشا بالذات والنيل منه » لم يعد هناك بد من أن تدفع السياسة عن الحزب ورئيسه بما ترى ·

ويقول الدكتور هيكل انه ما اغتبط « يوما بأمر كاغتباطى بهذا القرار من جانب الحزب ، وذهبت الى منزلى وجلست فيه الى مكتبى وحررت مقالا عنوانه : اذن فاسمعوا — من ذا أضر مصر ، ومن استبقى سعدا وأصحابه فى المنفى ؟ ·· ولقد حملت فى هذا المقال على صحف الوفد ، وعلى القائمين بتوجيه سياسته حملة عنيفة غاية العنف ، من غير بنو فى اللفظ أو مقابلة للاتهام باتهام من نوعه ··· ولشد ما سرنى أن وجدت من زملائى فى التحرير جميعا ،وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين والأستاذ محمد توفيق دياب ، اخوان صدق فى متابعة هذه المعركة عن ايمان بأن الحق معنا ، وان منتصرون لامحالة آخر الأمر » ·

ولم تقف الملاحاة على الكتابة ، والملاحاه الصحفية — بل أخذ وكيل الديوان الملكى « حسن نشأت » — وقد اختاره الملك لهذا المنصب أخيرا — يلوم مديرى الأقاليم ورجال الادارة ، حين نسب اليهم أنهم « أعانوا على اكتتاب الأعيان للحزب ولجريدة السياسة » ولج أنصار الوفد فى العنف ، فاغتالوا — ولما يمض على تأليف الحزب تسعة عشر يوما — قطبين من أقطابه هما حسن باشا عبد الرازق ، واسماعيل بك زهدى ، وفر الجناة ولم يعثر لهم على اثر ، فلم يهن عزم محررى السياسة وكتب توفيق دياب مقاله « أنتم قتلة الوطن » « وحمل فيه حملة أعنف الحملة على هؤلاء الكتاب وهؤلاء الساسة الذين يصفون بنى وطنهم كذبا بالخيانة ويحرضون الشباب الأغرار بذلك على ارتكاب الجرائم ، ويحرمون الوطن رجالا هم عماد الوطن ومصدر قوته » ·

ثم كانت معركة الانتخابات اثر صدور الدستور ، فشغلت المثقفين وأصحاب الرأى عما فيه من مثالب أقحمت على المشروع الأول ، فقد حمل عليها عبد العزيز فهمى من قبل أن يصدر ، وحذرت السياسة منها حين كان يبلغها ما يراد « بالدستور من تحوير وتشويه ٠٠ فلم يكن يوم من الأيام يخلو من مقال تحرره السياسة عن الدستور مدافعة فيه عن مشروع اللجنة » ٠ وأغضت صحف الوفد عن ذكر الدستور وما يراد به وهى لا تعترف به ولا بلجنته أصلا ولكنها تهلل وتكبر للوزارة « لا حبا فى نسيم ولكن كراهية لثروت » وأن حمل عليه أمين الرافعى اثر صدوره ، وتناوله الدكتور هيكل هونا « ايمانا منا بأنا نستطيع ، اذا تهيأت لنا الفرصة فى البرلمان ، أن نتلافى خطر هذه التعديلات بالتشريع » ٠

ولكن النذر كانت على غير ما أمل الأحرار الدستوريون ، فقد « عاد سعد من جبل طارق وعاد المنفيون من سيشل ، واستقبلت الجماهير سعدا استقبالا حافلا ، جعلنا نحن الأحرار الدستوريين نفكر طويلا فى أثر ذلك على مجرى الانتخابات » ٠٠ وكنا نعلم أن مهمتنا ليست هينة فقد كان خصومنا يتهموننا بالخيانة وبالمروق من الوطنية ٠٠ كنا نكيل لهم الصاع صاعين من غير أن ندفع تهمة بتهمة أو باطلا بباطل ٠٠ كنا نصيح بهم : أن من اتهم مصريا بالخيانة فهو الخائن ، لأنه يزعزع عقيدة الأمة فى أكرم بنيها ، فيفشى فيها أسباب الضعف والهزيمة ، وكنا نرى الشبان الذين نلقاهم بالمقاهى والأماكن العامة يحدجوننا بنظرات قاسية فلا يغير ذلك من ايماننا بأننا نخدم وطننا ، لأنا نقاوم طغيان الفرد ، أيا كان الستار الذى يتشح به هذا الطغيان ، وزاد يقيننا قوة ما كان خصومنا يروجونه من عبارات لا يستسيغها عقل ، كانوا يقولون ويرددون : الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى » ٠

وبدأت المعركة الانتخابية وقد شابها كثير من العنف ومزيد

من الشدة والوان من التجزيح تنأى بها عن الحزبية التى تقتضيها حياة ديمقراطية حرة أصيلة الى التحزب حيث يغلب التشيع الأعمى والتعصب الذميم على كل هدى للعقل أو المنطق السليم ، وحيث تغلب المنفعة والتماس السبيل لمن بيده القوة على كل حق وكل نزعة للصالح العام ·

« أفكان بين انصار سعد وبين الاحرار الدستوريين — كما يقول الدكتور هيكل — يؤمئذ من الخـــلاف فى المبادىء ما يقتضى هذه الحملات العنيفة من جانب ومن آخر ؟ لقد كانوا جميعا ، الى سنتين قبل هذا التاريخ ، يؤلفون هيئة واحدة تسعى لغرض واحد ، وقد كانت وسائلهم فى السعى واحدة : الدعاية لاستقلال مصر ، والسعى لاتفاق يعقدونه بين انجلترا ومصر المستقلة » لكن التطورات التى حدثت ، وســبقت الى وصفها ، قد ادت الى هذه الحدة ، وهذا العنف مع بقاء الجوهر غير مختلف عليه ، انما وقع الخلاف أول ما وقع على من يتولى المفاوضة ، أيتولاها ســعد على راس وفد يختاره ، أم يتولاها عدلى على رأس وفد يختاره ؟ وتجسم الخلاف فأدى الى مزايدات أمام الجمهور المصرى ، وكان هذا الجمهور هو الحكومة البريطانية · والواقع ان هذه المزايدات كانت بالغة الضرر بكل ناحية من نواحى الحياة فى مصــر ، بالناحية الســياسية ، وبالناحية الخلقية ، وبالناحية الاجتماعية ، فقد صرفت المصريين الى التناحر بعد أن كانوا كلمة واحدة ، فاضــعفت موقفهم ازاء انجلترا ·· »

وانزلقت البلاد الى تحزب مدمر ، عاق حل المسألة المصرية ، وأشاع فى الناس قيما سياسية باطلة غام فيها العقل وضــل فيها المنطق ، واختلطت فيها العلاقات الشخصية بالعلاقات العامة وغلبت فيها الذاتية على الموضوعية ، وشهوة السلطة على كل ما تهتديه الديمقراطية من حرية وعدالة ورغبة فى الصالح العام ·

ومن سمات التحزب غلبة النزعة الذاتية على النزعة السياسية فيشـــوب الخلاف على المبادىء توتر العلاقات والخصومة التى تعصف بالود والأخوة والصداقة ، وكأن المبادىء من سمات الفرد الخاصة وليست عقيدة عامة ان اختلف عليها القوم فليست مما يؤدى الى احن أو عداوة ٠٠

وهو ما أشـــار اليـــه « مراســـل جـــريدة التـــايمس الانجليزية » بعد أن استمع الى خطاب محمد محمود وقد افتتح به الحملة الانتخابية للأحرار الدستوريين ، بقوله للدكتور هيكل : « لو أن زعيم المعارضة فى انجلترا ألقى مثل هذا الخطاب ، لكان أغلب الظن أن يتناول طعام العشاء مع خصومه الذين قال فيهم ما قاله محمد محمود فى الوفد وفى سعد ، حتى لا يظن الناس أن الاختلاف فى الرأى معناه الخصومة أو العداوة الشخصية ٠ وكان جوابى : لعلنا نصل فى زمن غير طويل الى ما وصلتم اليه بعد تجاريكم عشرات السنين ٠٠ فلو عرف فى انجلترا وفى غيرها من البلاد الديمقراطية أن الخلاف على المبادىء يجور على العلاقات الشخصية ، لكان هذا كفيلا بالقضاء على المستقبل السياسى لمن يجترحه أو يقع فيه ، فليس للتحزب أن يجور على الحزبية أو يحمل على عداوة ، الا أن الحزبية فى مصر لجت فى هذا التحزب فأفسد الحياة السياسية وعاق حل المسألة المصرية ٠

١١ معـارك صحفيـة

اكتسح الوفد الانتخابات اكتســاحا لايبدو أنه راود أذهان الأحرار الدستوريين ولا جال بخاطرهم ، فانا « اذا لم نفز بأغلبية فستكون لنا أقلية محترمة نستطيع بها أن نعيد الأمور الى نصابها الحق » وفاز الوفد بمائة وخمسة وتسعين مقعدا فى مجلس النوابمن مائتين وأربعة عشر مقعدا . وماكان لأحد أن يمارى أو يجادل فى أن يتولى سعد زغلول الوزارة مالم يتنح هو لأحد من رجاله أو لمن يختاره ويرضى عنه .

وقد هزت الهزيمة جماعة من أساطين الأحرار الدستوريين هزا عنيفا ، حتى « لقد سمعت همسا أن عدلى باشا يفكر فى الاستقالة من رياسة الحزب ، وأن مدحتيكن باشا رئيس شــركة جـريدة الســياسة سيستقيل هو كذلك من الشــركة » ويدور حديث حول الاقتصاد فى الاتفاق ، والانتقال الى « مكان أكثر تواضعا فلا تبهظنا الخسائر التى ناء بها عدلى باشا وزملاؤه فى الحزب » .

ولا يرى الدكتور هيكل الاستسلام للهزيمة ، ولا ينصح بأى تغيير قد « يضعضع من معنويات » محررى السياسة ، وقد يصيب رجال الحزب أنفسهم ، وأفضل من ذلك تعطيلها « وقد كنت يؤمئذ مؤمنا أشد الايمان بأن الاستسلام للهزيمة معناه القضاء ، لا على الحزب وحده ، بل على كل انصارنا ومؤيدينا فى المدن والأقاليم أشد القضاء » ·

ومع ما صحب فوز الوفد الساحق من شماته بمنافسيهم فى مقالات صحفية خلت من كل مضمون سياسى ، نرى الدكتور هيكل كالعادة ، لا يأنس لما فيها من لغو ، ولا يلتقى بها فى رد، الا أن يناقش قضية أو يرد على باطل بما يكشفه من زيفه ، أو يحق حقا تنكبه الخصم أو كابر فيه ، فحين أخذت صحف الوفد تعير الأحرار الدستوريين بالهزيمة ، وما بعد الهزيمة من نهاية محتومة ، فلم يكن منهم من يشك « فى أن حزب الأحرار الدستوريين قريب الزوال ، وأن جريدة السياسة لم يبق من أجلها الا أيام » وتكتب « كان هنا حزب وكانت هنا جريدة » لا يرد عليها الدكتور بأكثر من أن « حزب الأحرار باق وأن جريدته باقية » ·· وأن الجريدة والحزب سينهضان برسالتهما ، وسيقنعان الأمة بصواب المبادئ التى يدعوان اليها ويوقنان بها » ·

أما هذه الفرحة التى تهز كتاب الوفد بالانتصار ، وأن الميدان قد خلا لهم ، فانهم لا يدركون حقيقة التمثيل البرلمانى ، ولا معنى المعارضة ، فاذا « جمعنا عدد الأصوات التى فاز بها المعارضون من نجح منهم ومن لم ينجح ، وقارناها بالأصوات التى فاز بها الوفديون زادت أصوات المعارضين على ربع مجموع الأصوات التى أعطيت ، وشهدت بذلك على أنه كان يحق لهم أن يمثلهم خمسون نائبا لا تسعة عشر » والأمة لا شك « متنبهة لذلك مقدرة له ، وان المعارضة خارج البرلمان سيكون لها أثرها الفعال ، كما أن قلة عدد المعارضين لا تدل

الشيوخ ، كتب يقول : « ان الوزارة الدستورية ، وزارة الأغلبية وزارة سعد زغلول هى التى يجب أن تتولى هذا التعيين ·· وقررنا أنه اذا كانت نصوص الدستور لا تقتضى ذلك ، فان الروح الدستورية تقتضيه ، وان قيام الوزارة الدستورية بعد ظهور الأغلبية أمر طبيعى ، واذا كانت وزارة يحيى باشا قد بقيت الى ما بعد الفراغ من انتخاب الشيوخ ، فان مهمتها قد انتهت ، ويجب أن تتخلى عن مناصبها ولا تباشر عملا دستوريا جديدا » ·

وحين ألف سعد زغلول وزارته ، وأثارت دهشة ألمت بأوساط كثيرة ، وكان من اليسير أن تثير معارضة الأحرار الدستوريين ، لو كان المتحدث برأيهم غير الدكتور هيكل ، كتبت السياسة ما رآه أنصارهم اعتدالا أثار ثائرهم ، فبررت مسلك سعد فى اختيار وزرائه « وان رئيس الوزارة حر فى اختيار زمـــلائه » وتمنت « للوزارة الدستورية الأولى التوفيق فى المهام الجسيمة التى تنتظرها » · ولكنها تتساءل بعد ذلك ، فى مقال اختار له الدكتور هيكل عنوان « يتساءلون » عرضت فيه لما كان من سعد قبل الانتخابات ، وماذا هو صانع بعدها : أتراه يقبل المفاوضة على أساس تصريح ٢٨ فبراير الذى عده نكبة وطنية ، أم تراه يتخلص منه قبل أن يفاوض ، وهل يبقى على دستور رآه من عمل الاشقياء على حاله أو يعد له ، « وهل يعيده الى مثل ما كان عليه يوم وصفته لجنة الأشقياء ، أو يزيد فى تعديله ليجعله أكثر ديمقراطية وتحقيقا لمبدأ : جميع السلطات مصدرها الأمة ؟ »

فما كان الدكتور هيكل يعارض لمعارضـــة فى ذاتها ولكن لما تهتديه المعارضة من صالح عام لا يجور على القصد ولا يمين عن الغاية ، فهى ليست ملاحاة لفظية أو تحزبا عاطفيا ·

وغلبت الملاحاة فى الرأى كل عقابيل السياسة ، وسادت النزعة الذاتية فغفلت عن كل ما يحاك للحركة الوطنية من ازمات وللدستور من دسائس · وأورت نيران الخصومة بين الأقطاب ، وان كانوا قلة الى كثرة من حيث السند الشعبى · الا أنهم كانوا من فصيل واحد جاها وثقافة ومكانة ، وللكل منهما من النفوذ ما يجعل له دورا غير منكور فى الحياة السياسية فى محيط لا تحكمه سلامة الأوضاع الدستورية وحدها مع اوتقراطية ملكية عسيرة المراس ، ولا تتمتع فيه الدولة بحرية خالصة او استقلال فى العمل بعيدا عن سلطة الاحتلال التى وجدت فى التحفظات الأربعة اداة لتدخلها عندما ما يهيض مصالحها اجراء من جانب الدولة ·

وكان على الزعامة الشعبية وقد ظفرت بمقاليد الحكم أن ترأب الصدع وتلم الشمل ، حتى تقف الأمة جميعا صفا واحدا أمام نكال الأوتقراطية المستبدة والسياسة الامبراطورية المحفزة للافادة من هذه الفرقة بين الأقطاب ، تقرب وتبعد وتجمع وتفرق بمـــا تمليه عليها مصالحها ·

ولعل الأمل قد راود الدكتور هيكل أن يكتفى سعد ، وقد ألف الوزارة الدستورية الأولى ، « بفوزه الحاسم فى الانتخابات فيعلن ، باسم الأمة التى أولته ثقتها ، أنه مستعد للتعاون مع خصــومه السياسيين حرصا على مصلحة البلاد ، وانه لذلك ينسى كل خصومة ماضية » ·

وما كان كل هذا ليخفى على سعد ، وقد وهب الذكاء النادر والشخصية الفذة ، ولكن اترى الثقة بالنفس ، وهى بعض معالم الشخصية الفذة ، قد عاقته عن رؤية الحقيقة ، أم تراه قد وثق

بقدرته والشعب من ورائه على قهر كل ما يقف دون غايته من عقابيل، أم لم يعتد بخصومة وقد جردهم الشعب من ثقته بهم ، ولم يعد يأبه لهم ، أم ترى طغت الخصومة عليه فغامت الرؤية أمام ناظريه .

وليس للمؤرخ أن يقطع برأى فى هذا ، فالحقيقة مقدسة والرأى حر ، وقد بدت الحقيقة فى اتجاه سعد الى « أن يديم الخصومة ، ويرى فى توليه الحكم وسيلة للقضاء الحاسم على هؤلاء الخصوم السياسيين » بل أنه ــ كما يرى الدكتور هيكل ــ لم يقصد بعبارته « المسئوليات والمسئولين » التى وردت فى كتابه الى الملك بتأليف الوزراة « الانجليز الذين كانوا قائمين على تنفيذ الأحكام العرفية ، بل قصد هؤلاء الخصوم من المصريين الذين كال لهم التهم أشكالا وألوانا منذ اختلف معهم فى سنة ١٩٢١ ، لقد طلب اليه عبد الخالق ثروت باشا ، فى خطاب نشره فى الصحف ابان الانتخابات ، أن يحتكم واياه فى الخلاف السياسى الى الأمراء ، فكان جواب سعد أن رفض هذا الاحتكام « لأن الاحتكام شأن الأكفاء « وأين منه ثروت وغير ثروت فى تمتعه بثقة الأمة ، ليحاول أن يقف الى جـــانبه فى مقام خصومة ؟ » .

بل أن سعدا قد أورى من الخصومة وزادها لهيبا حين أعلن أنه يريد حكومة « زغلولية لحما ودما » وفصل عددا من مديرى المديريات لأنه لا يطمئن اليهم ، وعبثا تذكر السياسة أن « هذه الخطة ليست فى شىء من الديمقراطية .. فقد أصر سعد على رأيه » ولم يكن على السياسة الا أن تعنف فى حملتها ، ويلج سعد فى الحملة عليها ، ويمنع الوفديين من قراءتها ويقول « علنا انه يقرأ السياسة بالنيابة عن جميع المصريين ، وانه يجب الا يقرأها منهم أحد » ولكن توزيع السياسة يزداد « لأن كثيرين ممن حرموها من قبل على أنفسهم كانوا ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ يتناولونها ويقرءونها خلسة كأنها بعض المحـــرمات » ويقول الأســـتاذ محمد الســـوادى فى كتابه

« أقطاب بين الثورتين » وكان من أبرز الصحفيين فى تلك الفترة :
« كانت السياسة لسان حال الخوارج ·· بفيضة الى نفوس المواطنين ··· وكان الشعب يلعن بائعها وشــاريها وكاتبها وقارئها وحتى العمال الذين جمعوا حروفها ·· ولكن المثقفين من القراء راوا فيها ـ بقطع النظر عن المشاعر ـ جديدا لا عهد لهم به فكانوا يشترونها خلسة ·· حتى يعود الى بيته ويغلق على نفسه غرفة مكتبه او غرفة نومه ويخفيها عن عين زوجته وعن عين الخدم وان كان قليل منهم من يفت الحظ » · ولم يكن من الصحف من خرج على الوفد حينذاك او بعد ذلك يلقى رواجا ، فكانت تغلق ابوابها بعد قليل ، لم تنج من ذلك صحيفة « الاخبار » التى يحررها أمين الرافعى ، ولا صحيفة « روزاليوسف » اليومية التى اصدرتها السيدة فاطمة اليوسف بعد ان نبذها الوفد ، او صحيفة « الضياء » التى أصدرها العقاد فلم نمض بها الحياة الا اياما ·

فلئن كانت السياسة قد قدمت جديدا جذب القراء ، فقد قلدتها الصحف الاخرى فى هذا المضمار ، فخاضت فى ميادين عديدة كالتى تخوض فيها السياسة ، وان تميزت السياسة بتلك النخبة من الكتاب والمحررين الذين ضمنهم اليها مولجوا بالفكر وبالتحرير الصحفى افاقا جديدة من شانها ان تجذب المتعفين اليها ، ولكن كثيرا منهم قد عمل فى صحف اخرى بعد ان ترك السياسه فلم يكن لعمله فيها من اثر فى الاقبال عليها او زيادة توزيعها ، فقد انتقل المازنى الى البلاغ وهجر الدكتور محمود عزمى السياسة وجرب قلمه فى صحف عديدة ، وتولى الدكتور طه حسين رياسة تحرير جريدة « الاتحاد » لسان حال حزب الاتحاد بعد انشائه ، فلم تلق رواجا ومضت وكان لم يسمع بها أحد ، وغفل تاريخ طه حسين عن اى ذكر لها ·

وقد لا نرى فى صمود السياسة فى مواجهة الوفد على الرغم من مقت سعد لها وغضبه عليها ، الا لأنها فى معارضتها كانت تلجأ

الى الحجة والمنطق والدليل وتتناول الوقائع التى تعارضها بالشرح والبرهان مما يعوز صحف الوفد وغير الوفد من الصحف الأخرى المعارضة كالاتحاد والشعب ، فالقارىء وان تشيع لجانب ما لا أن أول ما يعتيه أن يلم بمدلول الوقائع قبل أن يعنى بأوصافها ٠

ولعلنا حين تقرأ ما كتبه العقاد فى البلاغ حينذاك بعنوان : « ماذا تخسر مصر لو فقدت الأحرار الدستوريين ؟ » ونقارن بينه وبين ما كتبه الدكتور هيكل فى مقال « احتقار » السابق الاشـــارة اليه ، لأدركنا الفرق بين الاثنين وأيهما أهدى سبيلا وأقوم حجة ، يقول العقاد :

« سؤال غريب ، وكأنك تسأل ماذا تخســـر مصر لو فقدت الوصوليين المنافقين عشاق المناصب وعباد المآرب وأنصار كل غالب وغاصب ؟ أو كأنك تسأل ماذا تخســـر مصـــر لو فقدت الكذابين الدساسين الذين يميتهم الصدق والنور ، ويحجبهم الكذب والظلام ؟ أ وكأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت المتزلفين المتسلقين الذين يدورون مع الدنيا حيث دارت بدولاتها وأسبابها ويبصبصون حول القوة برءوسهم كما تبصبص الكلاب بأذنابها ؟ أو كأنك تسأل ماذا تخسر مصر لو فقدت تجار السياسة الذين يبيعون الوطن فى سوق المطامع ويسعون بين الأمة وغاصبيها سعى السوء ويبدون لها غير ما يضمرون ، ويريدون بها غير ما تريد » ٠

لقد تربع الدكتور هيكل على القمة بين كتاب المقال الصحفى ، لا نجد منه لوما ولا تجريحا ولا اتهاما بخيانة أو مروقا من تلك الاتهامات ، ان نسبت الى انسان دون دليل أو برهان لاقتص له القانون من قائلها ، فاذا ثبتت حل على صاحبها العقاب الذى يوجبه القانون ، ولا نستغرب بعد ذلك أن سيق العقاد الى السجن فى عبارة قالها ولم تثبت على الدكتور هيكل كلمة قالها لا يجيزها النقد المباح، وخرج مبرءا من كل دعوى أقيمت عليه ٠

فاذا اقبل الناس على قراءة السياسة واكثرهم من خصومها ، فلأن فى الناس ميلا الى قراءة الرأى الآخر مادام قائما على حجة ومنطق وعلى حقيقة تقوم على واقعة ملموسة ٠ ولم تكن السياسة فى مقالاتها وفى كل مالجت فيه من ملاحاة تجور على القصد أو تجفو الحقيقة وقد رأينا موقفها من اختيار خمس أعضاء مجلس الشيوخ المعينين ، وفى حق سعد فى تأليف وزارته على ما يرضى ، مما كان يروق للوفديين ويرضون عنه ، فاذا نددت بالوفد وبسياسة وزارته ، فأنها تلتمس من أخطائها ما يوجب النقد ، كأن تأخذ على سعد فصله لكبار الموظفين ، أو تحسب عليه أنه أغفل دعوتها الى حفل افتتاح البرلمان ، وأغرى بالطعن فى انتخابات محمد محمود عن دائـــرة « البريا » باسيوط ، وكان من القلة التى فازت فى الانتخابات ، ولابأس من أن تجد فى رفع المكافأة البرلمانية الى ستمائة جنيه فى العام ، سبيلا الى السخرية ان لم يكن النقد ، فقد كتبت لأول ما صدر القانون بذلك مقالا عنوانه « حزب الســـتمائة » فلما وقع حادث السردار أقلعت السياسة عن معارضتها ، بل بدا وكأنها تقف الى جانب الحكومة ، فقد كان من رأيها بعد أن قبل الملك استقالة سعد « أن تتألف وزارة وفدية تعتمد على ثقة البرلمان القائم لتعالج الحالة الناشئة عن الجريمة وعن الأنذار ، ولشد ما خشى الدكتور هيكل ومحررو السياسة « أن يتعجل أحد من أصدقائنا السياسيين اذ يدعى للحكم فيقبله ، فنواجه موقفا بالغا غاية الدقة ، ونتهم كذلك بأننا انما عارضنا وزارة سعد لنصل نحن الى الحكم ولو على حســاب الحياة البرلمانية » ٠

وبينما كانت هذه الملاحاة قائمة مستمرة بين كتاب السياسة وكتاب الصحف الوفدية ، وبينما كانت الخصومة بين الوفد والأحرار الدستوريين تتجاوز حدود الخلاف الحزبى والمعارضة الحزبية الى العداوة والأحن الشخصية ، كانت الكواليس ودهاليز السياسة تدارى

الاعيبها المكيافيلية لتدفع بالواحدة منها اثر الأخرى على خشبة المسرح السياسى . فمنذ أن سلم الملك لسعد بتأليف الوزارة وتعيين الشيوخ ، وحقه فى اختيار وزرائه ، ومنذ فشل فى اجتذاب المندوب السامى الى جانبه للابقاء على وزارة يحيى ، كما يبدو فى رسالة مستر كار ممثل المندوب السامى الى رمزى مكدونالد فى ٠فبراير ١٩٢٤ ، أخذ يماحك سعد زغلول فى اختيار وزرائه ويغالط فى الأساس الدستورى الذى قامت عليه الوزارة ، ولبث الملك ذو الناب الأزرق يكيد للوزارة الدستورية ويقيم أمامها العقابيل فأثار عليها الأزهر ، ولجأ الى تحدى السلطة الدستورية بأصدار مراسيم من ورائها وبلغ التحدى قمته بتعيين حسن نشأت وكيلا للديوان الملكى دون الرجوع الى الوزارة ، وأنعم عليه بالوشاح الأكبر من نيشان النيل ، وجاء يتشح به الى شرفة مجلس النواب ، وكانت الوزارة قد طلبت ابعاده عن منصبه فى وزارة الأوقاف ، كما أنعم بأوسمة على بعض الموظفين الانجليز فى حكومة السودان والضباط الذين شاركوا فى قمع المظاهرات السودانية ، فى الوقت الذى رفض فيه أصدار مراسيم بتعيينات فى وظائف لبعض الوزارات ، وساق الملك رجاله فى الوزارة لأحراج سعد زغلول فاستقال توفيق نسيم وهم محمد سعيد بالاستقالة ، وواجه سعد الموقف بالاستقالة وخرجت المظاهرات تهتف « سعد أو الثورة » وتراجع الملك وكسب سعد الجولة .

أما الانجليز فقد كان لهم شأن آخر ، وكل ما يعنيهم أن تكتسب مصالحهم شرعية دستورية تسلم بها الأمة باجماع وكان البون شاسعا بين ما تريده مصر وما تريده انجلترا ، وقد رأى كل من الطرفين فى تبادل الود والمجاملات ما يمهد لتفاهم مأمول ، فخرج القائم بأعمال المندوب السامى على التقليد السائد من قبل فيبدأ بزيارة سعد بعد توليه الوزارة ، وتستجيب الحكومة الانجليزية لطلب الافراج عن المسجونين السياسيين ، ويبرق رمزى مكدونالد

الى سعد مهنئا بافتتاح أول برلمان مصرى ويبدى استعداد حكومته للتفاوض مع الحكومة المصرية ، ويسعى سعد من جانبه الى التخفيف من غلواء أعوانه فى البرلمان ، الا أن هذا كله لم يجد وفشلت « مفاوضات سعد ـ مكدونالد » وتهاوت الجسور بين الطرفين ، وجاء اغتيال السردار ليضع حدا لأشياء كثيرة ، أبرز معالمها أن الملك وحده كان هو الفائز الوحيد فأخذ يمارس لعبة الحكم بين الأحزاب بينما وقفت المسألة المصرية عند الحدود التى سلمت بها انجلترا فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ٠

وكانت البداية الحزينة فى مأتم الحركة الوطنية ، فقد ألف الوزارة أحمد زيور باشا رئيس مجلس الشيوخ وقد رشحه سعد لهذا المنصب ، وعده الناس وفديا ، كما عدوا نسيم ومظلوم ومحمد سعيد حين اختارهم سعد فى وزارته ، وقد مثل الوفد فى الوزارة وزيران هما « أحمد محمد خشبة بك وكيل مجلس النواب ، وعثمان محرم بك وكيل وزارة الأشغال » ٠

ويرضى سعد عن الوزارة الجديدة فرئيسها وفدى،وهوالذى اختاره ليكون رئيسا للشيوخ وقد ضم اليه من رشحهم له من الوفديين ، أما محررو السياسة فقد تنفسوا الصعداء ، وتمنوا للوزارة الجديدة النجاح « فى معالجة الانذار البريطانى ، ومعالجة الموقف الذى نشأ عن مقتل السردار ، وأن تكون أحسن حظا من وزارة سعد فىتوطيد علاقاتمصر وانجلترا على أساس مناستكمال مصر استقلالها وسيادتها » ٠

ووقف سعد فى مجلس الشيوخ يقول : « اننى وزملائى مستعدون بكل اخلاص لأن نؤيد فى مجلس النواب الذى نحن أعضاء فيه كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد « وأغضى زيور عن اشارة سعد وأصدر فى نفس اليوم مرسوما بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ،

واستقال الوزيران الوفديان بعدما رأيا » فى سياسة زيور تسليما بما لم يقبل سعد باشا أن يسلم به ، وأيقن الناس ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ أنهما لم يستقيلا بغير مشورة من سعد باشا » ·· وعلم الناس بذلك أنها فقدت تأييد الوفد وتأييد سعد باشا ·· واشترك صدقى باشا فى الحكم وتولى وزارة الداخلية ·· وأيقن الجميع انها ستقف من سعد باشا ومن الوفد موقف الخصومة » ··

وحدث ما كان يخشاه الدكتور هيكل ، ورأى « اشتراك صدقى باشا فى الوزارة مقدمة لا تبشر بخير » فصدقى باشا محسوب على الأحرار الدستوريين وان لم يكن عضوا فى الحزب ، وكان شريكا لثروت فى تأييد النظام البرلمانى ، فأما أن يقبل الحكم على أنقاضه فهذا مالم يتصوره الدكتور هيكل « واشهد لقد كانت هذه أول مرة منذ توليت رياسة تحرير السياسة اضطرب فيها أمام بصيرتى ميزان المنطق ، وهوت فيها أمام عينى أقدار الرجال فأنا أحترم دائما رأى غيرى مادام قائما على الحجة العقلية السليمة ، وان خالف هذا الرأى ما أراه أنا » ·

١٢ حصاد الخطأ

كانت اللجاجة والتلاحى آفة الحركة الوطنية ، فمنذ وقعت الفرقة فى صفوف الوفد ، وحمل سعد حملته الشعواء على الخارجين عليه والدكتور هيكل ينشد الوفاق بين المتلاحين ويدعو الى وحدة الأمة « والوقوف صفا واحدا لاستكمال استقلال البلاد » الا أنه كان يرى أن يبدأ سعد بهذا ، ولعله كان على حق فى هذا ، فالجميع يسلمون بزعامة سعد ، وما كان أحراه أن يكون هو البادىء ، وأن يدعو الى تناسى الخصومات السابقة بعد أن فشلت مفاوضاته مع مكدونالد ، يرى الدكتور هيكل أنهم أضاعوا هذه الفرصة كما أضاعها سعد ، فيقول : « لقد دعونا الى هذه الوحدة القومية من قبل مرات . فما بالنا لم ندع اليها فى هذا الموقف الدقيق ؟ أو كنا مخطئين فى ذلك ، وكان سعد مخطئا فيه ؟ أم أنا خشينا كما خشى سعد أن يحسب ذلك ضعفا منا ، ولم يكن أينا يرضى أن يتهم

بالضعف ؟ أم كنا نحن على يقين من أن مثل هذه الدعوة لن تقبل اذا وجهناها ، فلم نرض أن نتعرض لرفضها ؟ أم ان الخصومة العنيفة بيننا وبين الحكومة كانت قد بلغت مبلغا جعل كلانا يعتبر هذه الخصومة أساسا فى حياتنا العامة ، فاذا فشل عدلى فى مفاوضاته مع كيرزون فرح سعد وعد ذلك نصرا له ، واذا فشل سعد فى محادثاته مع مكدونالد فرحنا وعددنا ذلك نصرا لنا ؟ أياما كان الأمر لم يفكر أحد فى هذه الدعوة الى الوحدة ، ولم تفكر فيها الأحزاب الأخرى ، وبقينا جميعا مندفعين فى تيار الخصومة الجارف ، تتحدانا الحكومة ما استطاعت التحدى ، ونعارضها نحن ما استطعنا المعارضة ، ويحرص كل منا على الفوز بتأييد الرأى العام جهد طاقته ، وندع كلنا أمر المستقبل كله لتصاريف القدر » ٠

فلما وقع حادث السودان واستقال سعد وخلفه زيور ، فحظى بتأييد سعد فى البداية حتى اذا رآه يدور فى فلك الملك ويخلع رداء الدستور خلع عنه التأييد ٠ وقد رآه يشرك اسماعيل صدقى معه وزيرا للداخلية ، فأيقن وهو الأريب الذكى أن اللعبة الملكية تبدأ من جديد ، وأن الانجليز كعادتهم يمسكون بخيوطها حتى لا تخرج من أيديهم ، فان أسعفتهم الحزبية بما يريدون ، فستكفيهم شر ما يخشون من وحدة الأمة وتكتلها ضدهم ، وقد أدت وخاصة فى الريف الى تنافس العصبيات حول مقاعد البرلمان ، كان أشبه ، ان لم يكن أشد وأقوى على المستوى العام ، بتنافس العصبيات فى القرية حول منصب العمدة ، ففقدت الحزبية تحزبا ولم تعد اداة للديمقراطية والحكم الدستورى ، لذلك حرص سعد فى وزارته على تغيير قانون الانتخاب من درجتين الى درجة واحدة ليكون مباشرا بعيدا عن تحكم

العصـــبيات ٠ وبدت الظاهرة الجديدة فيما تصوره الدكتور هيكل لاشتراك صدقى فى الوزارة الزيورية وتوليه وزارة الداخلية ، فقد رأى على النقيض مما تصـــوره « ابتهاجا فى صـــفوف الأحـرار الدستوريين ، يكاد يكون ابتهاج النصر على خصـــومهم ، وكانت حجتهم اننا قاسينا من حكومة الوفد ظلما وعنتا اشد الظلم والعنت ، وأن طغيان البرلمان فى عهد ســـعد جعل الحياة البرلمانية عبثا من العبث ، بل زاد على ذلك أن أسبغ على الطغيان ثوبا من رضى الأمة عنه وقبولها له ، ولم تقم الحياة البرلمانية فى مصر ولا فى غير مصر لتؤيد الطغيان فان فعلت لم تكن جديرة بالبقاء ، والحكومة التى تتولى أمور الناس يجب أن تعدل بينهم سواء كانوا من أنصارها أو من خصومها ، فان هى آثرت الظلم على العدل أسقطت بعملها سبب وجودها » ٠

« كان لهذه الحجج أثرها البالغ فى نفس أخوانى وأصدقائى من الأحرار الدستوريين الذين كانوا يزورونني بجريدة السياسة ، وكانوا يكررونها أمامى » ٠

ولا يذهب الدكتور هيكل مذهبهم فيما يرون ، ولا يزيد على أن يقول لهم : « لقد كان لمعارضتنا حكومة سعد باشا أثرها الواضح فى الرأى العام ، ولو أن هذه المعارضة استمرت دورة برلمانية أخرى لكان لها من الأثر ما يريدون ، فهى اما أن تعدل بسعد وحزبه عن هذا الطغيان الذى يشكو اخواننا منه ، وتستقيم الحياة البرلمانية على النحو الذى نريده ، وفى ذلك كسب للبلاد كبير ، واما أن يظل الطغيان فاشيا فتكون الأمة ويكون الرأى العام المصرى هو الذى يتجه غير وجهته ، وهو الذى ينزل سعدا وأصحابه عن مقاعد الحكم، وفى هذا أيضا كسب للبلاد ما أعظمه ٠ أما أن ينزع الحكم من سعد عن طريق الانجليز ، وأما أن يرضى خصـوم ســـعد بذلك ، وأن

ينتهزوها فرصة للوثوب الى الحكم ، فذلك ما يجعلنى فى ريب من أننا سنحقق للبلاد ما تطمع فى تحقيقه » ٠

وهاقد تبين الدكتور هيكل هذا المجرى الخاطىء ، فما عساه يفعل وما عسى يكون موقفه ؟ ان الأحداث تمضى سراعا ، « وكثيرا ما كانت الحوادث اقوى من الرجال ، وكثيرا ما خضع منطقنا لواقع الحياة على الرغم منا ٠

وكان الحصاد مرا ، لم تجن منه مصر غير الصاب والعلقم . ومضى الزمن وكان حصاد الهشيم ، الحصاد المر ، حســـمت فيه انجلترا مسألة السودان على هواها ، ولم يعد لمصر فيه غير صفة اسمية يقررها اتفاقية الحكم الثنائى ، وزلزلت أركان الدستور على مافيه من مثالب فاصـــدرت الوزارة أمرا بحل البرلمان واجـــراء انتخابات جديدة ، وكســـب الوفد من وراء ذلك زادا جديدا من العطف الشعبى ٠

وأجريت الانتخابات على القانون القديم ، فقد رأى صـــدقى أن قانون الانتخاب المباشر الذى سنته وزارة سعد لا يضمن النتيجة المرجوة « وقد احتج فى هذا الاجراء بأن الدفاتر والتذاكر الانتخابية للانتخاب المباشر لم تتم » كما أعاد انتخاب المندوبين الثلاثينيين ، وأجرى تعديلا فى تقسيم الدوائر الانتخابية ، واتخذ كل عدة للفوز بالانتخابات واقصاء الوفد عنها ، وقد اقتحمتها السراى بحزب جديد تزعم الدعوة اليه حسن نشأت رجلها العتيد حينذاك ودعاه « حزب الاتحاد » وأصدر جريدة تنطق بلسانه وتحمل اسمه رأس تحريرها الدكتور طه حسين ولكن النتيجة كانت على غير ما تهوى السراى وما زعم صدقى ، وكانت فى صف الوفد ٠

لم ينكص حزب الوفد عن الاشتراك فى الانتخابات ، كما جرت سنته من بعد فى مقاطعة كل انتخابات لا تجريها وزارة محايدة ،

واشترك فيها الأحرار الدستوريين ، كما اشتركوا فى وزارة زيور الثانية وكانت رياسة الحزب قد انتهت الى عبد العزيز فهمى بعد أن استقال من رياسته عدلى « لأن عنف الخصومة ـ كما يرى الدكتور هيكل ـ لا يتفق مع هدوء طبعه وسكينة نفسه » وان كنا نرى أن عدلى كان رجل دولة أكثر منه زعيما سياسيا فلا طاقة له على الملاحاة الحزبية وصراعاتها الماكرة ٠ ومثل الأحرار الدستوريون فى وزارة زيور الثانية بثلاثة من أقطابه هم عبد العزيز فهمى رئيسه الجديد ومحمد على علوبة سكرتيره العام ، وتوفيق دوس أبرز خطبائه ، ومثل الاتحاديون هم الآخرون بثلاثة يحيى ابراهيم رئيس الوزراء الأسبق ورئيس الحزب الجديد ، وعلى ماهر ، وحلمى عيسى ، وخاضت الوزارة الانتخابات ، واختير توفيق نسيم رئيسا للشيوخ ، وتوجت السراى الوزراء بالباشوية تكريما لمن لم ينعم عليهم بها من قبل ، وجاء يوم افتتاح البرلمان الجديد ، وقد عين توفيق نسيم رئيسا للشيوخ والقى زيور خطاب العرش ، ودعى مجلس النواب لاختيار رئيس له ، وتنافس عليها سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، وفاز سعد بالأغلبية ، وخاب فال السراى « ووجم انصار الحكومة ــ كما يقول الدكتور هيكل أيما وجوم وجعلوا يضــربون أخماســـهم فى أسداسهم » ٠

ولم يكن للدكتور هيكل راى فيما جرى ، وما كان عليه الا أن يدعو لتأييد الحزب فى المعركة الانتخابية على صفحات السياسة ، وقد خاضها الوفد بدوره ، ولكنه بقى عند رأيه لا يقر أى عدوان على الدستور ، وخشى صدقى ــ وقد قر الراى على حل البرلمان ــ ألا يقر الدكتور هيكل هذا الاجراء « واننى لفى مكتبى برياسة تحرير السياسة ، اذ دق التليفون وطلب صدقى باشا الى أن أقابله برياسة مجلس الوزراء ، وكانت اذ ذاك قبالة دار البرلمان ، وعلمت قبل ذهابى اليه أن الوزارة قررت حل مجلس النواب الجديد ، وعجبت

لذلك ، فالدستور صريح فى أن مجلس النواب لا يمكن أن يحل مرتين فى دورة واحدة للسبب عينه ، فكيف سوغت الوزارة لنفسها اذن أن تحل المجلس الجديد يوم انعقاده ، وللسبب الذى حل من أجله المجلس الذى سبقه ؟ »

وتمسك الدكتور هيكل مع صدقى بحكم الدستور « وحرص هو على اقناعى باسم مصلحة الدولة وسلامتها ، وخرجت من عنده وأنا فى حيرة من الأمر » ٠

ويعود الى السـياسة ليرى الناس وقد اكتظت بهم دارها فلا موضع لقدم « وهم جميعا جذلون أشد الجذل ، مغتبطون أشد الاغتباط ، تفيض وجوههم بالمسرة لحل مجلس النواب وكلهم يشيدون بجرأة الوزارة فى هذا الاجراء » ٠

وتضطرب نفسه بين عوامل متباينة ، فليس مما حدث مايرضى عنه « فهذا الدستور الذى وضعناه ودافعنا عنه حتى صدر ٠٠٠٠ يتعرض لما تعرض له ٠٠٠٠ وحزبنا نحن ، هاهو ذا قد اشترك فى حل مجلس النواب الجديد » ٠

اتراه يفكر فى اعتزال « السياسة » ورياسة تحريرها ؟ لقد طاف بخاطره مثل ذلك من قبل ٠ ولكن لأمر غير هذا الأمر ، وفى موقف غير هذا الموقف ، فقد رشحه الحزب للانتخابات « بدائرة (تمى الأمديد) من دوائر مركز السنبلاوين حيث (كفر غنام) مسـقط راسى ، وقد بدأت بالفعل أمهد لزيارة الدائرة وللاتصال بالمندوبين الناخبين فيها » الا أن لطفى السيد أخبره « أن أخاه سالم بك السيد يريد أن يرشح نفسه فى هذه الدائرة » وترك لعبد العزيز فهمى « أن يتولى اقناعى ٠٠٠ وباسم مودتنا القديمة ، لا باسم رياستهللحزب يطلب منى أن أتنازل عن ترشيح نفسى » وانسحب من الترشيح على غضاضة حملته على أن يفكر ــ كما يقول ــ فى موقفه من الأحرار

الدستوريين « وأن أدع تحرير السياسة يتولاها غيرى وأن أوثر أنا كذلك مصلحتى » الا أن ثروت لا يرى رأيه ، ويرى واجبا أن ينتظر حتى تنتهى الانتخابات « كى لا يكون تخليك عن رياســـة تحرير السياسة بعض ما يستغله الوفد فى حملته الانتخابية ··· ورأيت حجته قائمة فليس يجوز للرجل ذى المرءوة أن يتخلى عن صديقه فى موقف يضر التخلى فيه بهذا الصديق » ·

وقد رأى فى هذا الموقف الأخير أن يبقى ، فالجو مبهم غامض ، وصحف الوفد « لاتزال تطعن علينا مر الطعن ، وتتهمنا بمختلف التهم » « والخصومة العنيفة بيننا وبين الوفد لاتزال قائمة ، وكنت أنا الى يومئذ حامل لوائها · الا يقتضى هذا الجو المبهم أن نتابع الخطة التى سرنا عليها ، خطة معارضة الوفد ، حتى تســـتبين الأمور » وهو ما انتهى اليه رأيه ومااوافق الحزب عليه ·

وكان الجو حقا يمور باحتمالات كثيرة وتمخض عن مواقف أخرى لم تكن مما تلوح فيه ، وان كان لهذه المواقف التى تمخض عنها ما يفوق شدة وأثرا تلك الاحتمالات القائمة · فمقتل السردار الذى أطاح بوزارة سعد قد انتهى بتلبية كل المطالب البريطانية ، وكان شعار وزارة زيور « انقاذ ما يمكن انقاذه » وان بقيت اتهامات بعض رجال الوفد بالاشتراك فى الجريمة قائمة لم يفصل فيها القضاء بعد ، والوفد يخاصم وزارة زيور ويستقيل منها الوزراء الوفديون ليحل محلهم وزراء من الدستوريين بل من أقطابهم ، وضمت اليها اسماعيل صدقى وآخرين كما ضمت ممثلين لحزب الاتحاد الناشىء ، وجمعت بذلك كل خصوم الوفد فى سلة واحدة ، وبدا وكأن الملك قد جمع كل الخيوط فى يديه ليقضى على الوفد وسعد بضربة واحدة وهو يترنح من الضربة التى كالها له الانجليز · ولكن وزارة زيور كانت حافلة بالنقائض منها بالتجانس حتى وصفتها المقطم بأنها ليست وزارة ائتلاف ولكنها وزارة فئة من الاحزاب ، ثم كانت الانتخابات

التى اخلفت ظن الملك وظن الوزارة · بفوز الأغلبية الوفدية · ولعل احدهما لم يلق بالا الى حقيقة السياسة البريطانية ، وكأنهما ظنا أن ما تبغيه هو ما تبغيانه من القضاء على الوفد وعلى سعد ، وكل ماكانت تعمل له السياسة البريطانية الا تثير القوى الشعبية الى الحد الذى يدفعها الى عمل عنيف يضر بالوجود البريطانى ، وقد رأى لورد جورج لويد المندوب السامى الجديد فى سياسة السراى وضيعتها حسن نشأت بأساليبه « المكيافيلية » كما وصفه هندرسون القائم بأعمال المندوب السامى قبل قدوم لورد لويد فى تقريره الى تشمبرلن ، مايؤدى الى هذه النتيجة بعد أن تآلفت الأحزاب ضد الوزارة وخروج الأحرار الدستوريين واسماعيل صدقى منها ، فطلب الى الملك ابعاد نشأت عن السراى لتدخله فى المسائل السياسية ·

ولم يكن الحال الذى انتهى اليه الموقف مما يروق السياسة البريطانية ، فقيام وزارة دستورية متطرفة ــ كما يقول لورد لويد فى كتابه « مصر بعد كرومر » لم يحقق الآمال التى عقدتها انجلترا من قيامها فى الوصول الى تسوية معقولة لعلاقة مصر بانجلترا ، وأكثر شرا منها أن يقوم حكم استبدادى ملكى يؤلف كل القوى الحزبية المتصارعة ضده ، وفى هذا يكمن الخطر بخلاف ما اذا قام نوع من التكافؤ بين الحكم والمعارضة بتفرق فيما بينهما الأمة ، لذلك جهد هندرسون أن يبقى على التآلف بين الأحرار الدستوريين والوزارة التى أصبحت ملكية اتحادية بخروج الأحرار الدستوريين منها ، ولم يكن لورد لويد يرجو من وراء ابعاد نشأت الا أن يعود الوئام بين الوزارة والأحرار الدستوريين ·

أما الاحتمال الذى لم يخطر على بال أحد ، ولم يكن ثمةماينم عنه فى الجو السياسى ، وان عصف بالوفاق بين الأحرار الدستوريين والوزارة ، فكان ظهور كتاب فى صفحات قليلة لا تتجاوز الستين بعنوان « الاسلام واصول الحكم » للقاضى الشرعى الشيخ على

عبد الرازق بن حسن باشا عبد الرازق الكبير قطب حزب الأمة ووكيله وشقيق حسن باشا عبد الرازق الذى سال دمه على أعتاب دار الأحرار الدستوريين ومحمود باشا عبد الرازق قطب الأحرار الدستوريين والشيخ مصطفى عبد الرازق استاذ الفلسفة وعضو الحزب الديمقراطى ، واحد أفراد تلك الصفوة من رواد الفكر الحديث الذين أتموا تعليمهم بباريس واجتمع شملهم مرة أخرى فى السياسة بعد الجريدة والسفور ، ولآل عبد الرازق تاريخ طويل فى مقاومة الأوتقراطية الحاكمة منذ الخديو عباس الثانى الى الملك فؤاد الأول،

وقد عرض الكتاب لفكرة الخلافة الاسلامية وانتهى بالبحث الى انها ليست أصلا من أصول الحكم فى الاسلام ، ولم يكن للكتاب ان يثير ما اثاره من ضجة فقد حفل الفكر الاسلامى على امتداده بحرية البحث ، واختلفت آراء الفرق الاسلامية منذ البداية حول الخلافة وشخص الخليفة ، ومنذ اختلف المسلمون على خلافة على ، الا ان ما قيل من هوى الملك فؤاد للخلافة بعد سقوطها فى تركيا ، وان الانجليز لاينكرون عليه هاذ الهوى وان خلا من الحماس ، قد اضفى على الكتاب لونا آخر اثاره رجال الأزهر وكان للملك فؤاد بمقتضى الدستور السلطان عليه وعلى رجاله : فاجتمعت هيئة كبار العلماء وقضت بتجريده من العالمية وبالتالى تسقط عنه ولايته للقضاء وكان على عبد العزيز فهمى وزير الحقانية ان يقوم بالاجراء التنفيذى لفصل الشيخ على عبد الرازق من منصبه فى القضاء، وهو ما لا يطيقه لا المزاج الخاص الذى يأنف أن يتردى فيما لا يقبله ضمير القاضى ، ولا لرياسته للأحرار الدستوريين وآل عبد الرازق من أقطابهم ولا لصلته بآل عبد الرازق ، وصلته بهم تعود الى ما قبل قيام الأحرار الدستوريين « فانا أعرف ـ كما يقول فى (هذه حياتى) ـ المرحوم حسن عبد الرازق باشا الكبير ، وأعرف أولاده الكبار الذين كنت اقابلهم بمنزل والدهم الذى كان مفتوحا لأصدقائه وعارفيه ، فعرفت (حسن) و (حسين) و (محمود) و (مصطفى) ، واما ولداه الأحزان وهما (على)

و (اسماعيل) فلم أعرفهما لصغر سـنهما واشتغالهما اذ ذاك بالدراسة » ٠

وقد يكون هذا كله ما حمل الرجل على موقفه من القضية ، فاقل ما يجب على « رئيس حزب الأحرار الدستوريين — كما يقول الدكتور هيكل — وهو وزير الحقانية ، وهو لذلك الوزير المسئول عن على عبد الرازق ٠٠ » أن يحميه فى حدود القانون « وهذا ما اتجه اليه الرجل بكل نزاهة وأمانة واحترام للقانون » وان كنا نرى فضلا عن ذلك أن عبد العزيز فهمى ، كان منذ البداية كما يقول ، زاهدا فى الوزارة « لا كراهة فى الوزارة ، ولكن مراعاة لحالتى الشخصية ، واستعدادى النفسى الذى ينفر من مثل هذا العمل السياسى العام »٠

وأحال عبد العزيز فهمى القضية الى لجنة قانونية ، فكان الصدام بينه وبين يحيى ابراهيم القائم بأعمال رئيس الوزراء حينذاك وهو فى الوقت نفسه رئيس حزب الاتحاد — حزب السراى — وفاض به الكيل لاصرار عبد العزيز فهمى على موقفه ، مما حمله « بعد نقاش حاد — كما يقول هندرسون القائم بأعمال المندوب السامى فى تقريره حينذاك الى لندن — ودون أناة أو روية لأن يعلن : اما أن يستقيل هو أو يستقيل عبد العزيز فهمى ، وأضاف انه ذاهب الى المندوب السامى ثم الى الملك » ورفض الملك قبول استقالة يحيى ابراهيم وعاد ليطلب الى عبد العزيز فهمى تقديم استقالته ، فأبى، وقال : « أنت تعلم انى كاره للوزارة متضايق من وجودى بها ، وانى طالما أبديت رغبتى فى الاستعفاء ، ولكنى الآن لن استعفى مطلقا ٠٠ » وأقدم يحيى ابراهيم على خطوة — يصفها عبد العزيز فهمى — بأنها « من أبسط ما يكون ، ومن أطرف مايكون ٠٠ ذلك أنه لم يستصدر مرسوما بعزلى من وزارة الحقانية ، بل استصدر مرسوما يقضى باحالة أعمال وزير الحقانية الى معالى وزير المعارف الى أن يعين للحقانية وزير ٠٠ وبهذه الطريقة التى ليست فيها كلمة العزل ، أو

الأقالة الفجة ، أصبح لا عمل لى طبعا فى وزارة الحقانية ·· فلزمت بيتى » : وكانت ســـابقة طريفة حقا ، انتهت بخـــروج الأحـرار الدستوريين من الوزارة وانهيار التآلف بين الأضداد ، ولحق بهم اسماعيل صدقى ، وكان بينه وبين يحيى ابراهيم كراهية متبادلة بسبب حادث قديم ، فكره أن يعمل تحت رئاسته فى غياب زيور ، وسافر الى أوربا وواتته الفرصة للاستقالة فأبرق بها اليه ·

ولم يعد وضع الوزارة مما يروق الانجليز بعد أن ائتلف الوفد والأحرار الدستوريون ضدها ، واجتمع الحزبان على دعوة البرلمان الذى حله زيور ، فاجتمع بفندق الكونتنتال برياسة سعد زغلول وأعلن « عدم الثقة بالوزارة الحاضرة طبقا للمادة ٦٥ من الدستور »

ورأى المندوب السامى الجديد لورد لويد ، بعد أن وصل الى القاهرة أخيرا ، أن خيوط اللعبة تفلت من أيدى الانجليز بما يهدد مصالحهم بالخطر ، فلم يأذن للسراى ولا للوزارة أن تمضى اللعبة بما يبغيان ، فطالب بأبعاد نشأت عل ذلك يعيد الوفاق بين الاتحاديين والدستوريين ولكن القضية قد أصبحت قضية الدستور والطغيان الملكى فلم يجد بدا منأن يحمل زيور على اجراء الانتخابات وفقا لقانون الانتخاب المباشر الذى أصدرته الوزارة الدستورية الأولى وزارة سعد زغلول ، وكانت نهاية التجربة الأولى للسراى للاستئثار بالسلطة·ولم يكن الدكتور هيكل وما كانت السياسة فى كل هذابمنأى عن الأحداث ، الا أننا يجب أن نفرق بين الدكتور هيكل فى ذاته وفيما يراه ، وبين الدكتور هيكل فى التزامه الحزبى وفى تحريره لصحيفة الحزب التى تنطق بلسانه وتدافع عن سياسته · وقد رأينا كيف تنازل

عن ترشيح الحزب له للانتخابات اكراما للود دون الحق ، وان شعر بغضاضة حملته على التفكير فى « ترك رياسة السياسة » لولا أن اقنعه ثروت بالانتظار حتى تنتهى الانتخابات « كى لا يكون تخليك عن رياسة تحرير السياسة بعضما يستغله الوفد فى حملته الانتخابية» فينزل على دواعى الالتزام الحزبى كما أشرنا من قبل ويبقى يؤيد الحزب فى حملته الانتخابية بالقوة التى كان يؤيده بها من قبل · ثم رايناه ينكر على صدقى حل مجلس النواب الجديد بعد أن فاز سعد فيه بالتأييد المطلق ، ولكنه يرى الناس فى حزبه ، حتى أولئك الذين فازوا فى الانتخابات ، يطالبونه ، بما طلب منه صدقى « من الدفاع عن حل المجلس يوم انعقاده ، ويقتضيه هذا الجو المبهم أن يبقى ليتابع « الخطة التى سرنا عليها ، خطة معارضة الوفد حتى تستبين الأمور » ·

كما نراه ينكر على السراى تأليف حزب جديد ، ولا يجد فى سؤاله « كبار الأحرار الدستوريين وكبار أصدقائهم جوابا شافيا فى هذا الأمر ، فيقصد حسن نشأت الذى يشرف على تأليف الحزب الجديد ، عله يجد عنده جلاء للأمر ، ويخالفه فيما ذهب اليه فى تأليفه ليكون حزب موازنة فى البرلمان بين الحزبين القائمين ، ولا يقنع أيهما الآخر فيما ذهبا اليه ، ويبقى ليرى الخاتمة فى فوز سعد وحل البرلمان ليلة انعقاده ·

وتمضى الأحداث فلا يرى منها فكاكا الا البقاء ، وكان الأحرار الدستوريون فى حيرة من أمرهم ، وقد رأى البعض منهم أن مصالحهم أصبحت فى خطر ، وفى الاقتراب من السراى مايجنبهم هذا الخطر أو بعضه . فأخذوا جانب حزب الاتحاد مؤيدين أو متحازين ، حتى اذا رأوا « أن غير الأحرار الذين ينضمون اليه ليست لهم فى مناطقهم قوة أو عصبية ، هنالك بدءوا يوجسون خيفة ، وبدأ كثيرون منهم ممن

كانوا يعاونون على تقوية هذا الحزب يقفون فى سبيل هذه التقوية ما استطاعوا ، دون تظاهر بهذا الوقوف أو اعلان له » .

وحين وصف عبد العزيز فهمى الدستور فى خطابه بغرفة المحامين بمحكمة الاستئناف فى ١٨ مارس ١٩٢٥ ، وقبيل افتتاح البرلمان (الزيورى) بخمسة أيام انه « ثوب فضفاض » لم يكن يقصد ـ كما ذهب البعض ـ طعنا فى الدستور ، ولكنه كان يعنى أن الدستور قد أصبح لعبة بين الأحزاب والسراى يغيرونه حسبما يشاءون وتشاء مصالحهم ، فيقول فى نفس الخطاب : « وبالرغم من هذا الذى أظهره العمل سنحافظ عليه ونرعاه » .

الا أن الملاحاة بين السياسة وخصومها من الصحف الوفدية وكتابها لم تعد على حدتها القديمة ، ولعل ذلك كان بسبب ماق نفس الدكتور هيكل من ريبة مما يحدث ، ولعله بعض ما كان يطوف بخاطر عبد العزيز فهمى فى موقفه من الوزارة وعزوفه « عن البقاء فيها » حتى كانت محاكمة « الشيخ على عبد الرازق » فحرر قلم هيكل وانطلق على سجيته وحرر عبد العزيز فهمى من التزامه الحزبى والوزارى ، وكان له من قبل موقف رفض فيه ما ذهب اليه الملك وحزب الاتحاد من « تعديل قانون العقوبات تعديلا مقصودا به حماية بعض كبار الموظفين » ـ كما يقول فى « هذه حياتى » .

وقد رأينا ما كان من موقف عبد العزيز فهمى فى محاكمة مؤلف كتاب « الاسلام وأصول الحكم » وكيف انتهى الموقف الى خروج الأحرار الدستوريين من الوزارة وتهاوى الائتلاف بين الأضداد .
أما الدكتور هيكل فانه يذكر ما كان من حرص السراى» يوم عدل الدستور وأدخلت فيه المادة الخاصة بالمعاهد الدينية ، اذ نص فى هذه المادة على استمرار العمل بالقوانين والقواعد المرعية فى المعاهد المذكورة الي أن يصدر البرلمان فى شأنها قوانين أخرى » لقد أريد

اذن بادخال هذه المادة استبقاء السلطان المطلق للقصد على رجال الدين . وان لم يخالفوا القوانين » ٠

الا أن الدكتور هيكل لا يرى فى كتاب على عبد الرازق مخالفة ندعو الى محاكمته ، فان لم يكن للصلة التى تربطه بآل عبد الرازق من اثر عليه ، فان ايمانه بحرية الرأى « وحرصنا على احترام الدستور ، ومخافتنا ان يجر التهاون فى هذا الاحترام الى نتائج محزنة تعوق تقدم البلاد ، هو الحافز الأقوى » فكانت حملته الشديدة على صفحات السياسة دفاعا عن حرية الرأى وانتصـــارا لها ٠ وانتقد ماذهبت اليه هيئه كبار العلماء بفصل على عبد الرازق من وظيفته ، وعده مخالفة دستورية ، فاذا كان الدستور قد كفل حرية الرأى فليس لرجال الدين أن يقفوا دون هذه الحرية أو يصدروا حكما بعقوبة هى من شأن السلطات المدنية ٠ وكان ناقدا للحكم أكثر منه مهاجما له ، واذا كان بعض الأحرار الدستوريين يخالفون المؤلف فيما ذهب اليه ، الا أن ذلك لا يجور على حريته فى ابداء رأيه ، كما جاء فى مقاله « حرية الدستور وحرية الرأى : حول كتاب الاسلام وأصول الحكم » فى ٢٠ يوليه ١٩٢٥ ٠ وفى مقال تلاه بعنوان : « لشد ما نخشى رأى كبار العلماء » يسخر فيه من لين ما ذهبوا اليه وكان أولى بهم أن يقذفوا به الى أسفل سافلين من سقر ، ويقارن بين ماحدث لروسو بعد أن كتب « اميل » من رجال الدين وما يحدث لعلى عبد الرازق على يد هيئة كبار العلماء ٠

كان عبد العزيز فهمى بطل معركة كتاب « الاسلام وأصـــول الحكم » غضبا للدستور وللعدالة ووفاء لعلاقة ود قديمة تربطه بآل عبدالرازق ، ودفاعا عن رجل اله وعشيرته عمد حزب يرأسه وراح كبيرهم ضحية انتمائه لهذا الحزب والعمل على قيامه ، والى جوارد كاتبان من كتابه : الدكتور هيكل والدكتور طه حسين ، فأما الدكتور هيكل عضو الحزب والناطق بلسانه، فلم يكن منذ البداية راضيا عن

انتهاك الدستور ولا عن هذا التحالف بين حزبه وحزب السراى الناشىء ، فواتته الفرصة للتحرر من هذا الالتزام الحزبى بالدفاع عن حرية الرأى ، وان بقى كثرة من رجال الحزب حذرين من هذا الموقف الذى يجر عليهم غضب الرأى العام خشية ما ينسب اليهم من مروق على الدين ، فقد أخذوا يضـــنون بســـياسة حزب الاتحاد واجترائه على الدستور · منذ شرعت وزارة زيور فى تقييد حق الانتخاب ، واصدار قانون للصحافة يحد من حريتها اعترضت عليه السياسة وأنكرته ، وان لم يؤد ذلك الى اثارة وزراء الأحـــرار الدستوريين أو انكارهم ذلك على الوزارة فقد كانت حملة الصحف الوفدية على هذا التحالف بين الاتحاديين والدستوريين عنيفا غاية العنف حينذاك · ولم يؤد بالتالى الى تغيير فى موقف الحزب ، حتى كان موقف عبد العزيز فهمى من فصل على عبد الرازق من وظيفته فى القضاء فحررت قلم الدكتور هيكل من قيوده الحزبية وكان أنشط الأحرار الدستوريين فى رفع لواء المعارضة والانتصار لموقف رئيس الحزب · وتضامن وزيريه مع رئيسهم ، وان قيل انهما كانا مترددين فى الاستقالة بالرغم من حملة السياسة قبل عزل عبد العزيز فهمى بأيام على قانون الانتخاب ، حين طالبت فى حـــديث اليوم بعنوان « قانون الانتخاب : ضرر التأجيل فى اصداره » أول سبتمبر ١٩٢٥ ، وكانت قد حملت فى اليوم السابق على بعض مواد القانون التى لا تتفق فيها مع الاتحاديين ، فى مقال بعنوان : « مشـــروع قانون الانتخابات الجديد فيه خروج على الدســـتور » ولم يثر ذلك بال الدستوريين ·

ورأت صحف الوفد فى موقف السياسة من كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فرصة سانحة للحملة على الأحرار الدستوريين ، لا نعتقد أنها كانت دفاعا عن الاسلام كما ذهبت هيئة كبار العلماء بقدر ما كانت حملة سياسية على الأحرار الدستوريين توافقت فيها مع صحيفة الاتحاد ، فحين أعلن الشيخ يوسف الدجوى أنه بصدد

تكوين لجنة للدفاع عن الاسلام ضد ما تثيره السـياسة ، وقف البلاغ الى جانب الاتحاد ضد السياسة ٠

الا أن كوكب الشرق كان أكثر اعتدالا من البلاغ فى هذا الصدد فبينما تكتب البلاغ فى ٢٦ يونية ١٩٢٥ تلح فى عقاب المجترئين على الدين ، وتحمل على هؤلاء المارقين الجهلة من كتاب السياسة الذين يدافعون عن على عبد الرازق متسترين بالدستور ، نرى أحمد حافظ عوض رئيس تحرير كوكب الشرق فى مقال بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٢٥ ، يقول :

« كنا نستطيع أن نستغل ذلك الحادث كسعديين مخالفين لهم ، هذا عدا مافى ذلك الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس ، وتتغير الأزهر وعلماء الأزهر من الاحرار الدستوريين ، كنا نستطيع أن نستغل ذلك حزبيا ، ولكن ضمائرنا أبت هذا الاستغلال ، ونفوسنا استنكرته ، ووطنيتنا تسامت عن مثل هذه الاعتبارات الحزبية ، ومن أجل هذا رجونا فى العـدد الماضى من (الكوكب) الأدباء والمفكرين أن يتخذوا من هذا الحادث موعظة يتعلمون منها أن الأحرار من كل الأحزاب فى حاجة الى التآزر أمام الأفكار الرجعية مما يمس الدستور وما كفل الحريات العامة » ٠

فاذا كان القوم قد اختلفوا حول كتاب « الاسلام وأصـول الحكم » وعزف سعد زغلول عن الأدلاء برأيه فى الخلافة حين طلب اليه الدكتور هيكل فى أعقاب الوفاق بين الوفد والدسـتوريين أن « يحدث قراء (السياسة الاسبوعية) عن رأيه فى الخلافة » فيأبى بعد أن فكر فى الأمر ولم ير مصلحة فى الأدلاء برأى فى الموضوع » وان قال : « ان رأيى فى الخلافة من رأيكم » حتى لا يتخذ « خصومنا هذا الحديث حجة علينا يحاربوننا بها فى المعركة الانتخابية » ٠ فان هذا الاختلاف لم يقهر الرأى الحر أو يغلبه ، وبقيت نغمته عالية

بعد ان لم تعد أداه للاثارة بين الحزبين الكبيرين ، وبقى الملك وحزبه يثيرون نعيرها ، ولم يكن للملك وحزبه هوى لدى الناس ، وكان هذا المقال الساخر الذى كتبه الدكتور طه حسين بعنوان « بعد قرار العلماء » نشر فى السياسة فى ١٤ أغسطس ١٩٢٥ ، قبل أن يصدر مقال رئيس تحرير كوكب الشرق بيومين اثنين ، تعبيرا عن شدة التلاحى بين المجددين والمحافظين أكثر مما كان من تلاح فى السياسة يقول : مخاطبا على عبد الرازق :

« ·· تعال نضـــحك ·· فقد كان كتابك مصـــدرا لتغير الأرثوذكسية فى الاسلام ولست أنت الذى غيرها أيها الطريد المسكين، وانما غيرها الذين طردوك وأخرجوك من الأزهر · نعم · كان أهل السنة ، ومازالوا يرون أن الخلافة ليست ركنا من أركان الدين ، وأن الشيعة فسقوا حين عدوها كذلك ، فلما قلت للناس فى كتابك ما أجمع عليه أهل السنة ، غضب عليك أهل الأزهر ورموك بالابتداع والالحاد ، وأخذوا يقولون : ان الخلافة أصل من أصول الدين ، وقد كنا نعلم أن القاهرة مركز أهل السنة وموطن الأشاعرة ومســتقر الأرثوذكسية الاسلامية ، فسبحان من يغير ولا يتغير ! أصـــبحت (القاهرة) (كطهران) مركز الشيعة ·· ولم لا ؟ الشيعة هم الذين بنوا القاهرة وهم الذين بنوا الأزهر وشيدوه ، أليس الفاطميون هم الذين انشأوا المدينة ومسجدها الجامع ؟ فأى عجب أن تعود مدينة القاهرة شيعية كما كانت يوم أسسها الفاطميون وأى عجب فى أن يعود الأزهر شيعيا كما كان يوم بناه الفاطميون » ·

الا أن أكثر ما يبرز من نشاط الدكتور هيكل فى العمل على تلاقى الحزبين الكبيرين والاقتراب بينهما انقاذا للدستور وانقاذا للبلاد من طغيان السراى وهو أشد وأنكى من طغيان الوفد ، ولعله كان أكثر رجال الأحرار الدستوريين نشاطا فى هذا الميدان ، فكان رسول الوفاق بين حزبه وبين الوفد كما كان صاحب القوة الدافعة

فى تضامن وزيرى الأحرار مع رئيسهما فى الاستقالة من الوزارة ، فلشد ما كان يخشى عبد العزيز فهمى ان يخذله وزيراه ، وقد خف الدكتور هيكل للقائه « بمحطة السكة » حين قدومه من الاسكندرية « وأن اطمئنه الى ما اتفقنا عليه ٠٠ وألفيت الرجل أشد ما يكون وجلا ، خشية أن تؤثر الحكومة فى أعضاء مجلس الادارة ، وخيفة ألا يستقيل علوبة باشا ودوس باشا لو أن قرارا صدر من الحزب باستقالتهما » ٠

وكان الدكتور هيكل قد غضب لسماع الخبر باقالة عبد العزيز فهمى ، ولم يصدقه لساعته « فلم تجر العادة فى بلد دستورى باقالة وزير من الوزارة ، بل جرت بأن تعدل الوزارة كلها » ولم يطق صبرا على ماسمع « فماذا فعل الوزيران الدستوريان محمد على علوبة باشا وتوفيق دوس باشا ، وقد أخرج رئيس الحزب من الوزارة على هذا النحو المزرى » ويتصل بدوس باشا ويسأله على سـبيل القطع « أنت وعلوبة باشا » ويرجوه دوس باشا أن يهدىء من ثائرته « فالأمر يحتاج الى روية » ولكنه يقول : « اذن سأدعو الحزب الى الاجتماع غدا (الأحد) قال : كلا ، بل ليكون يوم الثلاثاء ٠ قلت فى حدة : يوم الثلاثاء ! انا لن نستطيع أن نصبر على ماحدث الى يوم الثلاثاء » ويتفقان على ذلك ويعلن الدكتور نبأ اجتماع الحزب يوم الثلاثاء ٠ ويعد له وتتعدد اتصالاته بالأعضاء وأهمها ما كان بينه وبين محمود باشا عبد الرازق ، وكان من أبرز رجالات الحزب لا يبدو الا فى الملمات وعنده المشورة ، ويتفقان على ان يرأس «صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى نقيب الاشراف بمصر ، لتقضى هذه الرياسة على ما كان يقال من خروج الشيخ على عبد الرازق ، أو خروج جريدة السياسة فى مقالاتها تأييدا لحرية الرأى ، عن موجب حكم الاسلام ، واتفقنا كذلك على أن يكون مدار المناقشة فى الجلسة حول كرامة الحزب التى أهينت ، وألا نتعرض لأى شىء آخر ، ثم

اتفقنا على القرار الذى يعـرض على الهيئة باسـتقالة الوزيرين الدستوريين من الوزارة غضبا لهذه الكرامة » ٠

ولا تجدى اى محاولة مع الدكتور هيكل تحمله على التريث ، فحين لقيه سيد باشا خشبة وابتدره بعد التحية « محتجا على مقالات السياسة تأييدا لكتاب على على عبد الرازق ، ضارعا الى أن أدع شئون الدين لرجال الدين ٠ قلت : ولكننا نؤيد حرية الرأى التى قررها الدستور ، فان شئتم الا يحترم الدستور ، فانا مستعد ان اترك السياسة وتحريرها ٠ قلت ذلك فى حدة دعت الرجل ليدعنى وشأنى » ٠٠

وعقد الاجتماع ، وجاء عبد العزيز فهمى من داره بمصـر الجديدة الى فندق الكونتننتال قلقا الا ينتصف الحزب لكرامته ٠ وقد عاش طوال حياته مضنيا بها ، حتى اذا سمع بتضامن الحزب معه « اطمأن وعاد الى منزله مستريحا الى أن الحزب قد انتصـف لكرامته » ٠

ولا يقف جهد الدكتور هيكل عند هذا الحد ، وهو يدعو الى احترام الدستور ومحاربة الطغيان « ايا كان لونه ، وايا كان مصدره ٠٠٠٠ وطغيان سعد باسم الشعب أيسر من طغيان نشأت باسـم القصر ، وطغيان ممثلى الشعب يسير محاربته ، لكن طغيان ممثل القصر ليس أمره بهذا اليسر » ٠ وهو منذ البداية يدعو الى الوحدة القومية والتآلف لمصلحة البلاد واشتدت حملته على الوزارة وعلى حزب الاتحاد ، حتى كان يوم الاحتفال السـنوى بتأليف الحزب وصدور السياسة ، فأعد خطابه « لهذه المناسبة وأعد عبد العزيز فهمى باشا خطابا سياسيا يلقيه فى هذا الحقل » وفى الخطابين كانت الحملة على الوزارة وحزب الاتحاد ونشأت عنيفة ساخرة ، وذهبت عبارة عبد العزيز فهمى (حنانيك يانشأت) مثلا يدور على ألسنة المواطنين ٠

١٣ الدكتور هيكل والائتلاف

« واطلقت السياسة » لنفسها العنان فى التهوين من امر حزب الاتحاد والقائمين عليه وفى التهوين من امر وزارة زيور وسياستها » · وكان طبيعيا ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ أن تتحد وجهة الأحزاب كلها لمقاومة هذه السياسة · وقد بدأت الملاحاة بين الحزبين الكبيرين تخف ، وأخذت الاتجاهات تتقارب ، حتى كان اللقاء الكبير يوم اتفق الرأى بينهما على عودة المجلس الذى حل ليلته الى الاجتماع فليس مما يجيزه الدستور أن يحل المجلس مرتين فى دورة واحدة ، ولعل الدكتور هيكل كان صاحب هذا الرأى وملقيه، وقد ساءه من قبل أن تقدم الوزارة على ذلك وأن يشترك حزبه فى حل مجلس النواب الجديد ، حتى فكر فى أن يعتزل « السياسة » ورياسة تحريرها · اما وقد عادت الأمور الى ماكان يراه فقد أضحى فارس الحلبة داعيا الى الائتلاف بل أصبح رسول الأحرار الدستوريين الى سعد يتحدث اليه فيما يكلفونه به · وقد أصبح سعد مؤمنا « بالائتلاف وضرورته ايمانا صادقا ـ كما يقول الدكتور

هيكل ـ لقد دلته التجارب فى السنوات الأخيرة من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٦ ، على أن قوى الشعب المصرى تواجه من العواصف والأعاصير مالا سبيل لها الى التغلب عليه الا اذا كانت مجتمعة متآزرة فى صدق قصد واخلاص طوية أما أن تفرقت هذه القوى فقد ظفر بها خصومها وظفروا لذلك بما يبتغونه من تعطيل لحقوق الوطن ولحـــرية بنيه · ألم يذهب عدلى باشا فى سنة ١٩٢١ لمفاوضـــة الانجليز والخلاف قائم بينه وبين سعد باشا ، فاذا هذا الخلاف يتخذ حجة من جانب وزير الخـــارجية البريطانية ، لورد كيرزون ليتشدد فى مطالبه ، وليضطر عدلى باشا الى قطع المفاوضـــات والعودة الى مصر ليرفع استقالة وزارته الى صاحب العرش ؟ الم يجد الانجليز فى هذا الخلاف ما يسر لم القبض على سعد وطائفة من أصاحبه وتنفيهم الى سيشل ، ثم نقل سعد الى جبل طارق ؟ ألم يتولى سعد باشا الوزارة الدســـتورية الأولى والخلاف بينه وبين الأحرار الدستوريين على أشده ، وهو مع ذلك معبود الشـــعب . فلا يصد مقامه من الشعب صديقه المستر ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية عن أن يرده ، حين ذهب يفاوضه ، صفر اليدين ؟ ألم يكن هذا الخلاف هو السبب فى تعطيل الحياة الدستورية بعد ثمانية أشهر من انعقاد البرلمان الأول ؟ طبيعى اذن أن يجد سعد باشا فى هذا كله ما يحمله على تأييد الائتلاف الذى يجمع كلمة الأمة عن ايمان وصدق » ·

وكان الدكتور هيكل منذ البداية مؤمنا بالوحدة القومية داعيا الى الائتلاف ، ولعل أكثر ما كان يأخذه على سعد أنه لم يكن عونا للائتلاف وأنكر على رفاقه فى الوفد الأول أن يكون لهم رأى الى جانبه ، كما أنكر على عدلى أن يقوم بالمفاوضات ولا يقوم هو بها ، ولم يكن من ممثلى السلطة أو رجال الدولة الذين لهم الحق وحدهم فى القيام بمفاوضات رسمية وأن أجمعت مصر على زعامته واجتمعت

من حوله تؤيده فى كل ما يقول او يشير · وكان ان بدأ الحملة على الخارجين عليه ووصمهم بالمروق وانطلقت صحفه ترميهم بالخيانة ولم يسلم بما حققوه وعدة نكبة وطنية ودعا لجنة الدستور بلجنة الأشقياء ، فلما وصل به الى الحكم سلم به وكان كفاح الوفد من بعد حفاظا على الدستور اكثر مما كان كفاحا لاستكمال استقلال البلاد ، فلما صدمه الانذار البريطانى بعد مقتل السردار اذعن له ، وترك داره واعتكف فى ميناهاوس ويصف الدكتور هيكل تلك الفترة من حياته ، فيقول انه اعتكف « هناك وقل زائروه ، بل لقد تحدث الناس انه كان لا يريد أن يرى احدا ، ولئن صح هذا ان له لأبلغ العـــــذر ، لقـــد تنكـــر لـــه كل شـــىء فى الحياة ، وتنكر له وجه الحياة نفسها ، وصـــار يتلفت يمنة ويســـرة فلا يزداد الا حيرة لما يرى ، وما احســـبه الا كان يكرر : ان الرصاصة التى قتلت الســـردار كانت مصـــوبة الى صـــدره هو ! ثم ما احســـبه الا ســـأل نفســـه غير مرة : ترى من هذا الذى قتل الســـردار ؟ ولماذا قتله ؟ ومن يكون صـــاحب المصـــلحة فى هذه الفعلة النكراء ؟ ولعله ذكر فى ملجئه ذاك اياما مضـــت وهو فى الحكم ، وهذا الشـــعب المصـــرى يتطلع اليه ، ويرى فيه نبى الوطنية ، وينادى : ســـعد أو الثورة ! ثم لعله سأل نفســـه : اين هذا الشعب اليوم ، وما مبلغ اســـتعداده لهذه الثورة التى كان ينادى بها ؟ أتراه تولاه الذهول لمقتل الســـردار فانكمش ؟ والى متى يطول انكماشـــه ؟ أحســـب هذا ومثله مر بخاطر ســـعد بعد ان لجأ الى مينا هاوس ، وبعد أن تولاه من اليأس ما جعله ينكر وجوها كان يعـــرفها من قبل ، ثم ما جعله يذكر هؤلاء الانجليز الذين نفوه الى مالطة ، والى ســـيشل والى جبل طارق ، والذين وجهوا اليه أخيرا هذا الانذار ، ولا يدرى أحد ما يبيتون له من بعده » · ·

ويسعى الدكتور هيكل للقاء بين عبد العزيز فهمى وســـعد

زغلول ، فان هذا الائتلاف الذى تسعى الأحزاب اليه ضرورة سياسية لا مفر منها لعلاج الموقف الحاضر ، ·· وأن التقاء عبد العزيز فهمى وسعد زغلول يعاون على هذا » ويأبى عبد العزيز فهمى لقاء سعد زغلول ، وان بقى يؤيد الائتلاف ويسعى مع الساعين اليه ·

ولعل الصورة كانت قد تغيرت كثيرا أمام سعد ، فهذا الشعب الذى ثار لنفيه ، لم يحرك ساكنا لسقوط وزارته ، وما تسرب السأم والتعب الى بنيته والى نفسه ــ كما يقول العقاد ــ كما كان يتسرب أحيانا خلال الفترة من مقتل السردار الى عودة الحياة النيابية ·· كانت هذه الفترة أقل أوقاته حركة ، ولهذا كانت أكثرها سأما وتعبا » وهذا الشعب الذى خرج منذ أيام يهتف سعد أو الثورة ، أين هو الآن ؟

ولم يكن سعد بقدرته على اثارة عواطف الجماهير ، واستغلال مشاعرها لما يريد ، خاليا من النظرة العملية لواقع الأمور ، يفصح عن ذلك حديث يرويه العقاد ، حين يسأل سعد بعد فشل مفاوضاته مع الانجليز :

ــ ماذا تروننا صانعين فى مواجهة الانجليز ؟

قال أحد الحاضرين : الاضراب العام يشترك فيه الموظفون حتى تجاب مطالب البلاد ·

فسأل الباشا : وهل يقع هذا الأضراب ؟

قال بعض الحاضرين يقع عاما ، وقال غيرهم يقع فى بعض الجهات ، وخالفهم آخرون فقالوا انه لا ينتظر ولا يطول ·

قال سعد : الدليل على أنه لا يقع ولا يصمد طويلا ان وقع أنكم مختلفون فيه ·· ان هذه الحركات لا تأتى الا عفوا ، وعندما يكون الجو مهيئا لن تختلفوا فيها بل تجيبوا بلسان واحد : انها أمر واقع لا ريب فيه ·

ولعل سعدا لم يكن يتوقع أن يثور الشـــعب بعد أن رضى بالاستقالة وبارك وزارة زيور واشترك فيها بعض الوفديين ، وان لم يطل به الرضى عنها ، ولم يعد يرى فى غير الائتلاف ما يعينه على دسائس الســـراى ومكر الانجليز فرحب به وخرج من عزلته ليقود خطاه ، وكان الدكتور هيكل رسول الأحرار الدستوريين اليه كما كان حفنى محمود رسول الوفد الى الأحرار الدستوريين ، وبلغ من ايمان سعد بالائتلاف « أن وقف ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ يشـــيد بوطنية عدلى باشـــا وزملائه الســياسيين ، وأن دعـا ليكون الائتلاف اندماجا تنسى معه الأحزاب وجودها وتصبح كلها كتلة واحدة ، صحيح أن بعضـــهم فسر الغرض من هذه الدعوة بالحرص من جانب سعد على أن يكون هو على رأس الأمة مجتمعة فى هذا الاندماج ، لكن سعدا لم يكن يومئذ بحاجة الى هذه الرياسة ولم يكن وقد نيف على السابعة والستين ليطمع فى أن يبلغ أكثر مما بلغه من محبة الشعب اياه وتقدير خصومه المصريين وغير المصريين له » .

والواقع أن سعدا ، كان قد بلغ من المجد ما يرنو اليه أى بطل من أبطال التاريخ فى أمته ، لقد دان الجميع من خصومه قبل مؤيديه بزعامته ، وغدا معبود الأمة لو رشح حجرا لانتخب ، ولو قال باطلا لغدا حقا ، واجتمعت له الرياستان : رياسة الدولة فى أول وزارة دستورية ، وزعامة الشعب ، وقد رأس فى وزارته ثلاثة من رؤساء الوزراء السابقين أولهم : محمد سعيد باشا ، وكان سعد وزيرا للحقانية فى وزارته الأولى ١٩١٠ حتى (استعفى) منها عام ١٩١٢ ، ثم كان رئيسا للوزارة الادارية الأولى فى ثورة ١٩١٩ ، ولم يكن فى يوم من الأيام على وفاق مع سعد منذ وزارته الأولى ، وثانيهم محمد توفيق نسيم باشا • وقد رأس الوزارة قبل ذلك مرتين كان فى المرة الثانية موضع رضاء سعد ، وثالثهم أحمد مظلوم باشا ، وان لم يرأس وزارة ، فقد رشح لها أكثر من مرة ، ولكنه كان رئيسا

للجمعية التشريعية ، وكان سعد وكيلها المنتخب ، فأن يضمهم سعد الى وزارته ، وان كان للمصـــلحة العامة ، فان فيه من الرضى النفسى مالا مالا يمكن لأى نفس بشرية أن تتجرد منه ولاسيما نفس طموح عظيم ٠

ولم يكن الدكتور هيكل بدوره ، مع موضوعيته الصارمة فى الحكم على الأشياء ، الا شاهدا له ، فيقول عنه ، وقد كثرت لقاءته به بصدد الائتلاف : « ولم تكن لى بالرجل قبل ذلك صلة شخصية فلما التقينا فى المرات الأولى أعجبت بما عليه الرجل من مقدرة وذكاء، لقد تحدث الناس عنه خطيبا لا نظير له فى مصر ، ولم يكن ذلك بذى بال عندى ، فقد طالما ناقشت فى (السياسة) خطبه ونقدتها مر النقد ، لكننى ألفيته محدثا بارعا غاية البراعة ، كنت أذهب اليه فى أمور لا يستغرق الحديث فيها بضع دقائق ، فاذا خرجت من عنده أجدنى قضيت ساعة أو نحوها استمتع بأحاديث لا علاقة لها بشئوننا الحزبية ، وهى أكثر الأمر أحاديث عن الماضى يسبغ عليها الرحل من طلاوة العبارة ما يجعلها فنا جميلا يســـلك سبيله الى النفس فيملأها مسرة به واستزادة منه ، وكنت أشعر فى حديثه بعطف لا أدرى مصدره من نفسى » بل ان الدكتور هيكل ليسعد بما يكنه سعد له من تقدير فيقول : « كنت أسمع الذين يلقونه ينقلون عنه تقديرا لى اغتبط به » ٠

كان ايمان سعد بالائتلاف فى تلك الآونة دليـــلا على المرونة السياسية ، كما هو دليل على النظرة الواقعية التى يعلو فيها العقل على العاطفة ، ولعل سعدا قد أدرك الا ســـبيل لمواجهة النزعـة الديكتاتورية للملك والحرص الانجليزى على المصالح البريطانية فى البلاد ، الا بتآلف الأحزاب ، بل واندماجها بعضها فى بعض ، فنراه يفوت على الانجليز اصرارهم على استبعاده من تأليف الوزارة بعد فوز الوفد الساحق فى الانتخابات ، كما يفوت على القصر دسائسه ،

ويعلن انه يتنحى عن تأليف الوزارة استجابة لرجاء المشفقين على « صحة زعيمهم الشيخ » وأن يقوم عدلى بتأليفها ، وحين استقال عدلى ، وأخفقت المحاولات ليعدل عنها ، كان رأى سعد لعلاج الموقف أن يخلفه ثروت فى رئاسة الوزارة ابقاء على الائتلاف ، على غير ما كان يراه كثرة من رجال الوفد ترى التصدى للانجليز ، فقد كان سعد يدرك ما يمكن أن يتمخض عنه مثل هذا الموقف من العودة الى ديكتاتورية السراى وتعطيل الحياة النيابية · ويقدر تماما « ان لا حياة لهذا البرلمان ولا للحياة النيابية كلها الا ببقاء الائتلاف » ·

ولم يكن الدكتور هيكل فى كل هذا الا ناطقا بلسان حزبه ، وان خالف مايدين به من ايمان بالدستور والحياة الديمقراطية وحرية الرأى والحــــدة القومية الكفيلة وحدها بالتصــــدى لنزعة الملك الديكتاتورية وخبث السياسة البريطانية التى تلعب بأطماع رجال الأحزاب المصريين ، فقد كان الأحرار الدستوريون أقرب الى مشربه ، فالأحرار الدستوريون ينشدون الائتلاف الحزبى القائم على الحق والمصلحة العامة ، وكانوا يؤمنون بالتعقل دون الأهواء الصاخبة للسواد الاعظم من الشعب ، فاذا كان الشعب قد التف حول الوفد ، فقد كان على الوفد أن ينزع رداء الحزبية فيما يتصل بالمسائل القومية العليا فى بلد لم يستكمل استقلاله بعد ، وتنوشه نزعة ديكتاتورية طاغية من جانب الملك ، الا أن الوفد قدم الحزبية على المسائل القومية العليا ، وآثر أن تكون له وحده الكلمة العليا ، فان سلمت له الأحزاب الأخرى بذلك ، فقد كان عليها أن تسلم بديكتاتورية الأغلبية وتخلى لها الطريق وتنأى عن ميدان السياسة فى بلد لم تستوفيه المعارضة البرلمانية على قاعدة برلمانية محددة ، تعرف للمعارضة حقوقها كما تعرف للأغلبية حقها وتمثيلها للرأى العام وان غلب عليه الهوى ، فالساسة فى مثل تلك البلاد التى تبدأ حياتها الديمقراطية هم الذين يضعون لها القواعد والقيم التى تلتزم بها وتسلكها من بعد · الا أن

ماحدث كان غير ذلك ، فقد علت المصالح الخاصة على المصالح القومية العليا ، لا يختلف فى ذلك حزب عن الآخر ، فالأحرار الدستوريون فى الأقاليم والمدن والقرى يشكون من بطش الحكم القائم ، حين قامت الوزارة الدستورية الأولى بفصل المديرين وكبار الموظفين الذين لا يدينون بالولاء لها ، وقال سعد زغلول انه يريد حكومة زغلولية لحما ودما ، ورأى الغاء انتخاب محمد محمود وكيل الأحرار الدستوريين ، وحرم جريدة السياسة من حضور حفل افتتاح البرلمان « وعبثا حاول ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ أنصاره الصحفيون اقناعه بأن هذا المنع لن يقدم ولن يؤخر ·· ورأيت أنا فى ذلك اعتداء على حق ليس يجوز لأحد أن يعتدى عليه الا أن يكون ظالما » ·

ولم يكن لحكومات الأقلية أن تقيم وزنا لهذا الحق فى وزارة زيور وما كان لاسماعيل صدقى وزير الداخلية فى وزارته من اجراءات قصد الفوز فى الانتخابات التى تعد لها الوزارة أملا فى الفوز بأغلبية تطيح بالوفد ، وما كان منه حين تولى الوزارة وأنشأ حزبا وألغى الدستور وجاء بدستور آخر ، وما كان أيضا من محمد محمود حين ولى الوزارة فأوقف الحياة النيابية علة يقوم باصلاح يحس به الناس فيحكمون له كما يحكمون عليه ولهم الأمر من بعد حين يستقيم بهم الرأى على رؤيا بينة للصالح العام لا تحكمها عاطفة هوجاء ، ولم يدع له الملك وهو يكره الأحرار الدستوريين كما يكره الوفد ، ولم يدع له الانجليز وهم لا يبغون الا أن يبقى الصراع الحزبى ، وهو حجتهم فى نبذ أى اتفاق لا تقره الأحزاب مجتمعة ، وهو ما أجبروا الأحزاب عليه حين ارادوا أن يبرموا مع مصر معاهدة تؤمن لهم موقف مصر وولاءها فى حرب قادمة كانت بوادرها تلوح فى الأفق ·

كان سعد قد أدرك هذه الحقيقة فأيد الائتلاف وسعى اليه وسلم للانجليز بأن يؤلف عدلى الوزارة ، وحين استقال عدلى سارع الى

علاج الموقف ، ودعا ثروت وأقنعه بتأليف الوزارة الجديدة ووقف يسنده ويؤيده ، فلما اتجه ثروت الى حل « المسائل المعلقة بين مصر وانجلترا ثقة منه بأن حل هذه المسائل يجنب مصر أسباب الاحتكاك التى تثير الأزمات بين الدولتين بين حين وحين ، ويترتب عليها من الضرر بمصر مالا تخشى انجلترا منه شيئا يذكر ، وأيد سعد وجهة نظره هذه وشجعه عليها غاية التشجيع » وكان ثروت كما برهنت الأحداث ابن بجدتها فى هذا المضمار ·

ولكن سعدا اخترمه الأجل قبل أن يرى ثمار اتجاهه الجديد ، ولو امتد الأجل بسعد ـ كما نعتقد ـ لكان للسياسة المصرية وجه آخر ، فقد خلفه فى رياسة الوفد « مصطفى النحاس » فنبذ كل ائتلاف مع أحزاب الأقلية ، الا فى جبهة المفاوضات التى مثلت كافة الأحزاب الا الحزب الوطنى كما أراد لها الانجليز أن تكون ، وظهر هذا الاتجاه الى مناوأة الائتلاف القائم ، ولما ينته ثروت من محادثاته مع وزير الخارجية البريطانية ، وكان رجاء « الناس جميعا ، أنتنتهى هذه المحادثات الى اتفاق يقر علاقة الدولتين على أساس سليم ثابت ، ·· ، منذ علموا أن سعد باشا يؤيد ثروت باشا تأييد صدق وصداقة » فلما عاد ثروت الى مصر « ليحضر افتتاح الدورة البرلمانية ويلقى خطاب العرش » ولم يكن استقباله بالاسكندرية « حماسيا ، على النحو الذى كان متوقعا لو أن سعدا لم يكن قد مات » ثم عرف من بعد « بأن الأستاذ مكرم عبيد كان يحرض الناس يوم عودة ثروت باشا لافتتاح الدورة البرلمانية ، ليسيئوا استقباله » ولم يكن مكرم عبيد قد ولى منصبا وزاريا ، حتى ذلك الوقت وكان له « ولطائفة من أعضاء الوفد ·· أكبر الأثر فى اختيار النحاس باشا رئيســا للوفد » ولعل مكرم عبيد كان يتعجل اختياره للوزارة اذا ما تولاها مصطفى النحاس ، فكان أكثر ما يعنيه أن يخلى ثروت الطـــريق للنحاس · وطغت تلك الذاتية من بعد على كل مصلحة قومية للبلاد حتى عصف الوهن بكل الأحزاب وعصف بالوفد اكثر مما عصف

بغيره ، وغام الفكر السياسى الأصيل فى أذهان القادة قبل الناس ، وضلت قيم الاخلاق سبيلها الى ضمائر الناس حين غامت الحقيقة أمامهم ، مما كان له أثره فى ظهور تيارات جديدة للعمل السياسى بين طوائف المثقفين والشباب ، وان لم يكن أثرها عميقا فى سواد الشعب فقد تركت بصماتها القوية على مسير الأحداث فى حركة « مصر الفتاة » و « الأخوان المسلمين » و على كيان الأحزاب جميعا وفى مقدمتها حزب الوفد فقد عصــفت به هذه التيارات أكثر مما عصفت بغيره ٠

وبقى دكتور هيكل يؤيد الائتلاف ويزود عنه حتى رأى السوس ينخر فيه على حد تعبيره « وظلت الحال على ذلك زمنا ، وظللت أخاطب فيها صديقى الدكتور حافظ عفيفى ، أطلب اليه اقناع اخواننا فى الحزب بأن نكشف القناع عما يدور وراء الستار ، فأراه يشعر بما نشعر به ، ثم هو مع ذلك يستمهلنى راجيا أن تجىء الثغرة الأولى من غير ناحيتنا ٠٠ وانى لفى مكتبى (بالســياسة) ظهر يوم من أيام الثلث الأخير من شهر ديسمبر ، اذ حضر الدكتور حافظ عفيفى وأخبرنى أنه اتفق مع اسماعيل صدقى باشا ومحمود باشا عبد الرازق على أن الوقت قد آن لنكاشف الناس بحقيقة الموقف فى أمر الائتلاف ٠٠ واسترحت أنا لهذا الاتفاق بين الأساطين من رجال الحزب ، وكتبت مقالا عنوانه : « نريد ائتلافا خالصا وأساس الائتلاف الخالص الصراحة » ٠

ولم يلق هذا المقال الذى اتفق عليه « أســــاطين من رجال الحزب » ارتياحا من جانب ممثلى الحزب فى وزارة الائتلاف وأراد محمد محمود أن تنشر السياسة أنه لا يعبر عن رأى الحزب وأبى الدكتور هيكل أن ينشرها ، اذ أنه يعبر عن رأى الحزب فى كل مايكتب « فاذا كان مقالى هذا لا يعبر فى نظر محمد باشا عن رأى الحزب،

فليجتمع مجلس الادارة وليصدر قرارا بما يراه ، ومتى صدر هذا القرار تصرفت بما أرى ! » ·

ولم تمض أسابيع على نشـــر المقال ، بالرغم مما كان من اختلاف الرأى حوله بين أعضاء الحزب « حتى صـدقت الحوادث رأينا ، فقد انتهى ثروت باشا من اتصالاته بسير أوستن تشمبرلين وأن له أن يعرض مشروعه على هيئة الوزارة مجتمعة » ·· ولكان يود أن تبدى الوزارة عليه من الملاحظات ما يفتح أمامه بابا جديدا لاعادة الاتصال بوزارة الخارجيةالبريطانية واستكمالمافىالمشروع من نقص ، فقد كان يشعر أن وفاة سعد باشا تركت من الأثر فى وزارة الخارجية البريطانية ما جعلها تقف دون الغاية من الاتفاق مع مصر » وكان وزراء الأحرار يرون أن يمضى ثروت فى محادثاته مستندا الى الائتلاف ، ليرى الانجليز أن وفاة سعد ليس لها من تأثير على الوحدة القومية ولا على مطالب البلد القومية ، ولكن وزراء الوفد رفضوا المشروع جملة « ولم ير محمد محمود باشا وزملاؤه المشتركون فى الوزارة أن يخالفوا هذا القرار ، مخافة أن يتهموا بالتهاون فى حقوق البلاد ، لهذا لم يجد ثروت باشا بدا من تقديم استقالة الوزارة » ·

وألف مصـطفى النحاس الوزارة الجـــديدة ، ورأى محمد محمود الاشتراك فى الوزارة محافظة على الائتلاف على غير ما رأى الدكتور هيكل ومن كانوا على رأيه من أساطين الحزب ، « وكانت حجتنا أن اشتراكنا بثلاثة وزراء فى وزارة عددها اثنا عشر يجعلنا فى حاجة للدفـــاع عن رأينا ، والى أن يكون رئيس الوزارة من غير الأغلبية ، حتى اذا شاركنا الرأى وأصرت الأغلبية الحزبية على رأيها اســـتقالت الوزارة ، أما أن يكون رئيس الأغلبية هو رئيس الوزارة فمعناه أن يتغلب رأى حزب الأغلبية البرلمانية دائما ، أو يضطر الأحرار الدستوريون وحدهم الا الاستقالة من الوزارة ،

فيتهموا أمام الأمة بأنهم هم الذين ناوءوا الائتلاف» ، ولما كان الائتلاف مزعزعا فلن يكون اشتراكنا فى الوزارة برئاسة رئيس الأغلبية عملا نافعا ، ومن الخير أن نترك الأغلبية تتحمل مسئولية الحكم ، فان وافقتنا أيدناها ، وان خالفتنا الرأى عارضناها ، ولها من أغلبيتها الكبيرة فى البرلمان ما يجعل معارضتنا معارضـــة تقويم وتوجيه لا معارضة مناوأة للمناوأة » ·

وكان من رأى محمد محمود أن الحرص على الائتلاف يدعوهم الى الاشتراك فى الوزارة فاذا اضطر للاستقالة ، كان « لنا من حجة الاضطرار ما ندفع به كل تهمة » ·

وغلب اتجاه محمد محمود اتجاه الآخرين بفارق صوت واحد الى جانب المؤيدين لاشتراك الحزب فى الوزارة ، ويقضى الالتزام الحزبى أن يسلم ، الآخرون بالرأى الأرجح « ووجب على جريدة (السياسة) لسان الحزب تأييده ، ووجب على أنا رئيس التحرير أن أقف بجانبه ولا أحيد عنه » ·

وجاء قانون الاجتماعات ليعصـــف بالوفاق الوزارى ويودى بتآلف الحزبين الكبيرين ، وتمتد جذور هذا القانون الى يوم أصدرت وزارة يحيى باشا ابراهيم قانونا ينظم الاجتماعات ويجعل أمرها بيد السلطة التنفيذية ، وقد حمل عليه سعد زغلول فى حينه ، فلما تولى الوزارة ، ناقشه مجلس النواب واتخذ فيه قرارا ، وانفض قبل أن يصدر مرسوم باقراره ، فلما تولى النحاس باشا الوزارة أعاد النظر فيه بالرغم من احتجاج المندوب السامى عليه فى مذكرات توالت من قبل متذرعا بحماية الأجانب ، حتى كان الانذار الأخير فى ٢٩ مارس ١٩٢٨ ، بالا يواصل البرلمان نظر قانون الاجتماعات ، فاذا « لم تتلق دار المندوب السامى هذا التأكيد قبل السابعة من مساء ٢ مايو فانها ستكون حرة فى اتخاذ ما تراه من تدابير » وقد رأى محمد

محمود اتقاء الأزمة أن يبقى المشروع ساكنا فى مجلس الشـــيوخ لا يحركه ، واختلف الرأى بينه وبين النحاس فاستقال واستقال معه وزراء الأحرار الدستوريين وانضم اليهم أحمد محمد خشبة باشا الوزير الوفدى ثم كانت اقالة الوزارة وتكليف محمد محمود بتأليف الوزارة الجديدة ، وكانت بداية مرحلة جديدة ، كسب فيها الوفد اكثر مما خسر ، وخسر فيها الأحرار الدستوريون اكثر مما كسبوا ٠

وكان الدكتور هيكل فى الواقع أبعد نظرا حين رأى منذ البداية الا يشترك الأحرار الدستوريون فى الوزارة ، فقد جاءت استقالة وزرائهم واحدا بعد الآخر وكأنها مبيتة لأسقاط الوزارة ، فقد رأت وزارة الخارجية البريطانية أن رد النحاس على الانذار البريطانى مرض ، ويترك ما بعد ذلك لظروفه ٠

وقد أثارت استقالة الأحرار الدستوريين واحدا بعد الآخر وما أعقب ذلك من اقالة النحاس وتكليف محمد محمود بتأليف الوزارة الجديدة الكثير من الحيرة حول الكوامن التى أدت اليها ، فالحكومة البريطانية قد رأت فى رد النحاس على الانذار البريطانى ما يكفى لابتلاع الأزمة ، ولا نجد فيما كتبه لورد لويد فى كتابه « مصر بعد كرومر » ما يشير الى اتجاه له فى ذلك ، ولا تشير الوثائق البريطانية الى اتجاه معين او رغبة أبدتها وزارة الخارجية البريطانية فى هذا الموضوع،حتى أن لورد لويد كان يجهل ما تتجه اليه نية الملك فيمن يخلف النحاس ، وقد سأل الملك فى لقائه به يوم اقالة الوزارة عمن تتجه اليه نيته ليؤلف الوزارة الجديدة ، وأجاب الملك بأنه يفكر فى رجلين صدقى ومحمود ، ولا نجد تعليقا للمندوب السامى على ذلك ٠

فاذا كان الاختيـــار الملكى قد وقع على محمد محمود دون اسماعيل صدقى مع ما نعرفه من جفوة ملكية لهؤلاء الدستوريين

الذين يحاربون أوتوقراطيته ونزعته الاستبدادية ، فاذا كان الملك قد اختاره دون اسماعيل صدقى ، فلا ريب أن التقدير الملكى كان قائما على اعتبارات تجعل من محمد محمود فرس الرهان ولو لفترة معينة يخسر فيها الأحرار الدستوريون أكثر مما يكسبون ، وكانت اللعبة الملكية بارعة غاية البراعة ، فزعيم الدستوريين لن يحكم فى ظل البرلمان القائم ، فاما قام بحله وكرر لعبة صدقى فى وزارة زيور وهى اللعبة التى انتهت بفشل ماحق ، واما اختط طريقا آخر ، لن يكون خير مما سبقه ، وفى كلا الحالين ، لن يكون الرابح غير الملك .

ولكن أيفوت كل هذا على محمد محمود وحزبه ؟ أبلغت ثقته بنفسه وبرجاله أن ينتزع من الشعب ثقته بالوفد أم أن ايمانه بالديمقراطية وبالحكم الدستورى قد تهاوى الى الحد الذى أقدم فيه على تعليق الحياة النيابية وتعطيل الدستور ؟

لقد كان الأحرار الدستوريون يؤمنون حقا بأن الشعب مخدوع فى زعامته ، وان طغيان الاغلبية ينتهى بها الى ديكتاتورية بغيضة ، ولكن كيف يتسنى لهم أن يحكموا والملك لا يرضى عنهم ، والوفد بشعبيته الحاكمة يحمل عليهم والملاحاة بينهما قد اصبحت خصومة عنيفة ، تصول فيها صحافة الحزبين ، السياسة من ناحية والبلاغ وكوكب الشرق من ناحية أخرى بقوارع الكلم وسوء الاتهام .

ويرى الرافعى ، أن الملك والانجليز والأحرار الدستوريين هم أبطال اللعبة فى الانقلاب الدستورى الذى قام به محمد محمود ، وهو رأى يقوم على التخمين أكثر مما يقوم على واقع ملموس ، وليس محمد محمود بالرجل الذى يستجيب للقصر أو يخضع له ، ولايسمح له كبرياؤه المعروف بأن يكون أداة مسخرة فى أيدى الانجليز ، ولكنه حين أقدم على ذلك فلأيمانه بخطل واقع يراه وتراه معه تلك الصفوة

التى اشتركت فى الوزارة ، كما يراه رئيس تحرير السياسة ، فالشعب فى رايهم مضلل لا يحكم على الأشياء حكما سليما · ولكن أيكون ذلك بتعديل الدستور وهو ثمرة أيديهم للقضاء على الطغيان البرلمانى؟ لقد طاف هذا الخاطر بذهن محمد محمود وأفضى به الى الدكتور هيكل وهما معا فى لندن ، حين سأله«على غير انتظار منى:مارأيك فى تعديل الدستور ؟ ودهشت لهذا السؤال المفاجىء ، ولم أتردد مع ذلك فى الاجابة عنه بقولى : أناشدك الله يادولة الباشا ألا تفكر فى هذا الأمر ! ان كل تعديل للدستور فى هذا الظرف لا يمكن أن يفسر الا بانه انتقاص من حقوق الشعب المقررة فى الدستور ، وأنت تذكر جهادنا ضد كل انتقاص من هذه الحقوق فى سنة ١٩٢٣ ، قبل أن يصدر الدستور ، بعد أن وضعت لجنة الدستور مشروعه ، ومن غير المعقول أن نجاهد هنا فى لندن لنكسب لمصر حقوقا من الانجليز جديدة ، ثم ندع الناس فى مصر يقولون انك تريد أن تضيع على شعب مصر حقوقا كسبها بالدستور فعلا ، واذا كنا ندافع عن تعليق الحياة النيابية ، وأقوى حجة لنا أن الدستور سيعود كاملا بعد أن تطمئن البلاد وبعد أن تستطيع الحكم على نواياها وعلى أحزابها حكما سليما ، فان التفكير فى تعديل الدستور سيحمل الناس على الظن بأن وقف الحياة النيابية قد كان تمهيدا لهذا التعديل ··· » ·

اذن كان الدستور وكانت الحياة النيابية هما غاية الأحرار الدستوريين وهما أعظم ما يحرصان عليه ، ولم يكن تعليق الحياة النيابية الا لفترة يثبت فيها الأحرار الدستوريون أنهم بمواهبهم وبالصفوة المستنيرة من رجالهم اقدر الناس جميعا على خدمة مصر والعمل على تقدمها وتحقيق ما تنشده من حرية واستقلال ·

ولكن أهذا هو الطريق للوصول بالبلد الى ديمقراطية سليمة تعلو على الهوى والنزعات الحزبية الجائحة ؟

لقد كان الأحرار الدستوريون أول حزب يضع لنفسه برنامجا مفصلا وأهدافا محددة لعمله السياسي ، وهم يؤمنون ايمانا تاما بصحة هذا البرنامج وأهدافه المحددة ، ولا يتسنى لهم أن يحققوا منه شيئا مالم يتولوا الحكم خالصا ، وقد كانوا أقلية فى وزارات الائتلاف التى تعاقبت على البلاد سواء مع الاتحاديين أو مع الوفد ، فلعلهم اذا واتتهم فرصة الحكم أن يحققوا هذا الاصلاح العام الذى يتطلعون اليه وينشدونه حتى يلمس الرأى العام قدرتهم على الاصلاح ويتحرر مما يسمونه الدجل السياسى ، ويعرف لهم قدرهم وقدرتهم على العمل النافع ـ لذلك عمل محمد محمود على تشكيل حكومته من شخصيات جمعت بين المقدرة السياسية والقدرة الفنية ، وتذكر الوثائق البريطانية أن الوزارة ضمت اثنين من نواب حزب الأحرار الدستوريين هما محمد محمودباشاوالدكتورحافظعفيفىباشاكماضمت اليها اثنين آخـــرين لقدراتهمـا الفنية همـــا ابراهيم بك فهمى وعبد الحميد سليمان باشا من المستقلين واشترك فيها على ماهر باشا من حزب الاتحاد ، كما كان محمد محمود يرمى الى اجتذاب الوفديين الى وزارته فضم اليها خشبة باشا الوزير الوفدى الذى استقال من الوزارة النحاسية وفصله الوفد من عضويته ، كما كان فيها أحمد لطفى السيد وزيرا للمعارف ٠

ولاشك فى أن محمد محمود كان ينشد الكثير فحكم بيد قوية ، ولكن اللاعبين الآخرين كانوا أقوى منه يدا ، فلم يكرر ذلك من بعد وعاد الأحرار الدستوريين يدعون الى الائتلاف لمقـــاومة الطغيان الملكى ٠

١٤ صراع الاضـــداد

تميزت تلك الفترة مابين وفاة ســـعد زغلول وابرام معاهدة ١٩٣٦ بصراع القوى الثلاث التى سيطرت على مقادير الســـياسة المصرية : الأحزاب ، والملك ، ودار المندوب السامى البريطانى ، أما الأحزاب فقد حركها الواقع السياسى بين الفعل ورد الفعل ، أكثر مما كان يحركها خطة وهدف مرسوم · وأما الملك فقد قدر له أن يكون اللاعب البارز على المسرح السياسى ، ولكنه فى ولعه بالسلطة الشخصية ــ كما يصفه سير برسى لورين الذى خلف لورد لويد فى منصب المندوب السامى البريطانى ــ لا يطيق حكومة مستقلة « تحترم نفسها » وهو فى عدائه للوفد لا يطيق الأحرار الدستوريين بدورهم ، ووقف الانجليز كعادتهم يمارســـون لعبتهم التقليدية باســـتغلال الصراع بين الملك والأحزاب لمصلحتهم على الا يؤدى ذلك الى انفجار شعبى يهدد المصالح البريطانية وتقف فيه انجلترا فى مواجهة القوى الشعبية المتكاتفة فى مصر ، ولتكن سياستهم ضرب القوتين الآخريين بعضهما ببعض ·

وقد بدا حينذاك أن الرغبة الملكية تتجه الى اسماعيل صدقى لتأليف الوزارة الجديدة وهو ما يؤيده اسماعيل صدقى فى مذكراته الا أن الملك كان أذكى من أن يكلف رجلا فشل من قبل فى ضرب الوفد ، وان كان يحب أن يكون الى جانبه ، ويفضله محمد محمود فى انه يرتكز على قاعدة حزبية وانه كان الوزير القوى فى وزارة النحاس المقالة ، وتؤكد الوثائق البريطانية على غير مازعم اسماعيل صدقى فى مذكراته من تأييد المندوب السامى لترشيح رجل تشرب الثقافة الانجليزية « وتربى فى انجلترا » أن اختيار محمد محمود لتأليف الوزارة كان اختيارا ملكيا لم يلق اعتراضا من الانجليز . كما لم تلق اقالة النحاس اعتراضا هى الأخرى من جانبهم وبدا أن السراى هى التى توجه الأمور وتمسك بزمامها ، بينما التزمت دار المندوب السامى الحياد الدقيق واعتبار ماحدث « مسألة داخلية تماما لاشأن لهم بها ، بل بل ان التعليمات البريطانية قضت « بالامتناع تماما عن التدخل فى تلك الأزمة » .

ولم يكن محمد محمود يستند فى تأليفه الوزارة الى أغلبية برلمانية فقام « بتأجيل البرلمان شهرا وفق نص الدستور » ثم قام بتعليق الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، أملا فى أن ينجز لمصر ماعجزت الوزارات الأخرى عن انجازه ، وأن يقر فى البلاد حكما نزيها « يقوم عليه من بعد نظام برلمانى فى مثل نزاهته وأن يعمل فى سبيل الاصلاح الداخلى كل ما يستطيع » ويقول الدكتور هيكل انه رأى « فى هذه الخطة صراحة محمودة ، فالوزارة لا تدعى أنها صاحبة الكثرة فى الانتخابات ، وهى لا تريد استفتاء الشعب، والشعب فى رأيها مضلل لا يمكنه أن يحكم على الأشياء حكما سليما ، بل هى تريد أن تضطلع بالمسئولية ، وأن تحفظ النظام والأمن ، وأن تسير فى شئون الحكم سيرة عدل واصلاح » .

ولكن ، أكان الدكتور هيكل خالصا تماما فى تأييده لهذا الاتجاه وهو الذى ينادى باحترام الدستور والتمسك به ؟

لا نستطيع أن نحكم على ذلك ، ولكن لنترك الأحداث تفصح عنه • كان الدكتور هيكل حينذاك ملتزما داره لصدع أصاب ساقه من حادث سيارة صدمته وزاره صدقى وتحدثا فيما « عسى أن يكون متى ألف الوزارة » حتى لا يواجه أزمة كأزمة وزارة النحاس مع الانجليز ، حتى اذا استطاع الخروج متوكئا على عصا قصد محمود باشا عبد الرازق « وكان محمد باشا يلح عليه ليكون وزيرا للداخلية معه ورجوته ألا يشترك فى الوزارة ايمانا منى بأن مناصب الحكم تزعزع الثقة بمن يلونها ، وحرصا على أن يبقى من زعماء الأحرار الدستوريين من لا تجنى عليه أطوار الحكم •

أكان ذلك ، لأنه فى قرارة نفسه يرضى لمحمد محمود أن يلى الحكم فى مثل تلك الظروف ؟

هذا مالا يكشف عنه الدكتور هيكل ، ولكنه وقد أعد أهبته للسفر كما أشار عليه الطبيب للاستشفاء من الصدمة التى أصابته اعتذر عن البقاء كما طلب اليه محمود باشا عبد الرازق «لأنه لايعرف أحد ما نحن مقبلون عليه من سياسة قد تنتهى الى تعليق الحياة النيابية » وترك لزميله الدكتور محمود عزمى الدفاع عن سياسة الوزارة عن « عقيدة واقتناع » بعد أن أفضى اليه بمالديه من معلومات ، وخيره بين أن ينوب عنه فى الدفاع عن سياسة الوزارة أو يبقى هو ليدفع عنها • وأكد له الدكتور عزمى ايمانه بسياسة الوزارة « وانه سيكون قويا فى الدفاع عن تعليق الحياة النيابية غاية القوة » • وان أخلف الدكتور عزمى وعده بذلك وعرف الدكتور هيكل وهو فى أوربا أنه قد أخذ جانب المعارضة •

ويشاء القدر الا يشترك الدكتور هيكل فى الدفاع عن تعليق الحياة النيابية وحين عاد الى مصر أبى أن يدافع عن اجراء اتخذته الوزارة باحالة مستشارين بالاستئناف الى المعاش ، اذ « أن المساس بقدس القضاء خطير النتائج » ·· وقد اعتزمت ألا أدافع عن هذا الأجراء ، وألا انشر دفاعا عنه أيا كان مصدره ، الا أن يكون بلاغا رســـميا لا حيلة لى فى منعه ، وبقيت عند عزمى ، فلم اكتب فى الموضوع كلمة ، ولم أنشر شيئا كتبه غيرى ، ولم أستجب لرجاء فى نشر شىء » ·

ولكنه ينوه باصلاحات الوزارة ، وانها « برت بما وعدت بــه الشعب من اصلاح « فلما كان الصيف التالى ، كانت جامعة اكسفورد قد « قررت منح رئيس الوزارة المصرية درجة الدكتوراه الفخرية » · وقرر محمد محمود باشا أن يسافر الى انجلترا لتلقى هذا اللقب الشرفى فى حفل يقام خلال شهر يونية ١٩٢٩ » ويسره أن يســـافر الدكتور هيكل فى الوقت الذى يسافر فيه ، وكان على نية السفر مع زوجه للراحة والاستجمام · وأسر اليه محمد محمود يوما،وكان الحكم قد انتقل فى انجلترا من يد المحافظين الى يد العمال فى الشهر الأول من عام ١٩٢٩ ، أن وزارة الخارجية البريطانية « تريد محادثته فى المسائل المعلقة بين مصر وانجلترا ، علها تستطيع أن تنتهى الى اتفاق معه ، وأضاف أنه يخشى أن تنتهى هذه المحادثات الى استقالة وزارته ، والى رجوع البلاد الى عهد الفوضى الذى أنقذها منه » ·

وعاد محمد محمود الى مصر وفى يده مشروع لمعاهدة عدتها حكومة العمال الجديدة مقترحات اكثر منها مشروعا لمعاهدة ، كما جاء فى ديباجتها الأولى ، وألقى خطابا بفناء كلية ســـان مارك بالاسكندرية « ذكر فيه محادثاته ومشروع المعاهدة الذى انتهى اليه، وشرح مزايا هذا المشروع خير شرح ، وصرح بأنه سيجرى انتخابات يعرض فيها هذا المشروع على الأمة » ·

فماذا كان موقف الوفد ؟ لقد شن حملة ضارية على مشروع المعاهدة « ولم تكن حملتهم على المشروع طعنا عليه أو انتقاصا منه ، بل كان فيه تحفظ مداه أن المشروع لا يفى بمطالب البلاد كاملة » واتجهت الحملة الى الوزارة ذاتها ، وكتبت البلاغ تقول : « استقالة, فالا تكن فاقالة » ٠

وبدأت اللعبة الثلاثية تأخذ دورها من جديد ، فقد كان الملك برما بالوزارة منذ البداية ، ومنذ أكد محمد محمود أن وزارتهليست وزارة القصر ، ولم يغب ذلك عن الملك ، ولعله اذ قبل أن يكل تأليف الوزارة الى محمد محمود دون صدقى ، فلأن صـــدقى قد جانبه التوفيق فى القضاء على الوفد ، وباء بغضب الشعب ، ولم يعد له دور سياسى الا أن يستند الى السراى أو الى دار المندوب السامى ، فهل فكر الملك الماكر أن يمر محمد محمود بتجربة صدقى لتنفصم جذوره بالشعب ، فليتحمله عاما أو أكثر حتى تنفصم جذورالاحرار الدستوريين بالشعب هم الآخرين !! ولعل محمد محمود هو الآخر كان واثقا من نجاح تجربته مع الشعب ، كما كان على ثقة من أن تشيعه للملك أو أن يكن صنيعة له كفيل بالقضاء على مســـتقبل الاحرار الدستوريينالسياسى ، فكان تأكيده علىالدوام أن وزارته ليست وزارة للسراى ، فاستمسك بمبدأ المسئولية الوزارية لا يدع للملك فرصة لأملاء ارادته ٠ وان أدى ذلك الى استقالته ودعوة البرلمان الوفدى المعطل لممارسة صلاحياته ٠ كما افصح بذلك الى لورد لويد ، فى أزمة ترشيح صدقى رئيسا لديوان المحاسبة ، حين رفض الملك هذا الترشيح ، وأبى توقيع مرسوم التعيين ، ولعل الملك كان يدخر صدقى لمهمة أخطر ، خاصة وأن رئيس ديوان المحاسبة غير قابل للعزل لمدة خمس سنوات ، ولا يستطيع الملك أن يصبر خمس سنوات على وزارة محمد محمود ، وان كان محمد محمود يؤمن ببقائه في الحكم حتي يتم مهمته وقد قدر لها في البداية ثلاث سنوات

قابلة للتجديد لتعليق الحياة النيابية فى البلاد ، فليصبر الملك على محمد محمود حتى تواتيه الفرصة للتخلص منه ، وليعتمد محمد محمود على الانجليز ، وهم ينشـــدون أن يســود البلاد نوع من الاستقرار السياسى يؤمن مصالحهم فى مصر ، وقد ظل محمد محمود يردد فى كل مناسبة انه حريص على الدستور فهو الكفيل وحده بتأمين الشعب ، ويقول : انه ديمقراطى بطبيعته ، وهو ما أكده فى حديثه الى « المورننج بوست » فى يناير ١٩٢٩ ·

وقد أنجزت وزارة محمد محمود ــ كما يقول الرافعى ــ الكثير مما وعدت به ، ولقيت فى الكثير من مواقفها تأييد لورد لويد وحكومة المحافظين ، فلما خلفت حكومة العمال حكومة المحافظين وعزلت لورد لويد ، وبعثت بمندوب سام جديد الى مصر ، كان ذلك ايذانا بتغير اتجاه الســـياسة البريطانية ، فالاتجاه الثابت للســـياسة البريطانية أن تضرب المصريين بعضهم ببعض ، وأن تفتعل الأزمات التى تعوق بها مسيرة الحركة الوطنية ، ثم انها لا تبرم اتفاقا مع مصر · لا تجمع فيه الساسة المصريين على اختلاف أحزابهم فى سلة واحدة ، فلتفاوض من يشاء ، مادام المصريون لا يقرون لمن يشاء بهذا الحق ، حتى وان كان من جانب الأغلبية ، فهناك الأقلية التى تنكره ولا تسلم به ، وهناك التعنت مع حكومة الأغلبية فى أى محادثات تجريها معها ·

وأما وقد أزدادت معارضة الوفد لحكومة محمد محمود عنفا وأنكرت عليه حقه فى المفاوضة ، فلتكن وزارة الأغلبية هى التى تجرى الانتخابات وستجد من عنت الانجليز ما يودى بها الى الفشل ، لتبدأ الدورة من جديد تتصارع فيها الأحزاب ، وتعود اللعبة الملكية من جديد ، وليس الانجليز بغارمين ، فالغرم كله على هؤلاء المتنابذين فى صراع السلطة · ولا يجد المستر هندرسون وزير الخارجية فى حكومة العمال الجديدة عوارا من أن يصرح فى البرلمان الانجليزى فى

٢٦ يولية ـ كما يذكر أحمد شفيق فى حوليته ـ بأنه « مهما كانت سياسة حكومة العمال حيال مصر فانها لن تدخل دائرة التنفيذ الا اذا وافقت عليها الأمة المصرية » وتعنى عبارة « الأمة المصرية » أنها غير حكومة الأغلبية أو الأقلية ، وانما هما معا · وكانت صحيفة « الدايلى هيرالد » لسان حال حزب العمـــال قد أعربت فى مقال افتتاحى قبل ذلك بأسبوع عن ثقتها بأن « وزير الخارجية البريطانية سيمنح تقديره الجدى للتصـــريحات التى أدلى بها حديثا زعماء الوفد » ·

ويلتقى الملك بالمندوب السامى سير برسى لورين ليتبادلا الرأى فيمن يخلف الوزارة القائمة ، فاما وزارة وفدية خالصة ، واما وزارة ائتلاف يمثل فيها الوفد تمثيلا قويا · ولكن المندوب السامى يتبين أن الوفد يرفض الاشتراك فى وزارة ائتلافية وهى السياسة التى سار عليها من بعد ·

ولا يجد الأحرار الدستوريون بدا من استقالة محمد محمود ، ويكتب الدكتور هيكل مقاله فى (السياسة) جعل عنوان « أما لهذا الليل من آخر » « طلبت فيه الى الوزارة أن تتخذ خطوة حاسمة تحدد موقفها من كل الظروف المحيطة بها » ويتفق فى الرأى مع محمود باشا عبد الرازق « من أن كرامتنا جميعا قد أصبحت فى كفة الميزان ، مالم تستقل الوزارة » ·

واستقالت وزارة (اليد القوية) لتبدأ مرحلة جديدة لصراع اللاعبين على المسرح السياسى ·

١٥ الأوتوقراطية تحكم

كانت النزعة الملكية الى الاستبداد والتسـلط ، أما الانجليز فتحكمهم مصالحهم ، فلا يتدخلون فى أمور مصر الدخلية مالم يكن هناك ما يهدد تلك المصالح سواء من ناحية الاجراءات الحكومية أو من جانب الشعب حين تبدو النذر بغضبه وثورته ، وقد علمتهم ثورة ١٩١٩ درسا لم يغب عن أذهانهم قط ، ولشد ما كانوا يستريحون الى الصراع الحزبى ، أو التسلط الملكى الذى يلهى المصريين عنهم ، ولعل زعامة الوفد والوفديين كانوا يدركون هذه الحقيقة ، بل انهم كانوا يعونها تماما ، فحين بعث بمكرم عبيد الى لندن داعيا ضد ديكتاتورية محمد محمود وتشهيرا بوزارته ، وكأنه يستجدى الرأى العام البريطانى الضغط على حكومته فلا تكون سندا لوزارة محمد محمود ، حتى قيل انه يستعدى الانجليز على شئون مصر الداخلية ، ويرد مكرم عبيد على هذا الاتهام فى مؤتمر للمصريين بلندن ، بأنه لا يستعدى الانجليز على شئون مصر الداخلية بل يطلب الا تتدخل بريطانيا لتسند نظام الحكم القائم ، ولم يشر مكرم عبيد فى كل ما قام به من دعاوة الى مطالب مصر الأسـاسية ، وحين أجرى محمد

محمود محادثاته مع الجانب البريطانى ووصل الى مشروع لمعاهدة بين مصر وانجلترا ، ثم حولته حكومة العمال الى مقترحات ، لم يشر الوفد فى حملته على الوزارة الى طبيعة مشروع المعاهد ، ولم يبد رأيا فيها ، وأصدرت هيئة الوفد البرلمانية فى ٢٣ يونية قرارا تلفت فيه نظر الحكومة الى « تجرد محمد محمود بشاا من أى صفة تخوله حق المفاوضة عن مصر » . وامتنع النحاس فى خطبه وأحاديثه عن أبداء أى رأى فى الاتفاق طالما بقيت حكومة اليد القوية فى الحكم ، فى الوقت الوقت الذى خاضت فيه كل الطوائف فى مشروع الاتفاق وأبدت استحسانها له ، فأعلن حزب الاتحاد تأييده له كما أيده أكثر المستقلين ، بل دعا اليه فريق من الشباب . وكان عدلى يكن على رأس مؤيديه . وأشار الى ما تجنيه التغييرات الوزارية والقلاقل السياسية على تقدم البلاد فى كافة مرافقها ، بل أن الخديو عباس فى حديث له الى « المانشستر جارديان » نشرته الأهرام أول سبتمبر ١٩٢٩ دعا الى انتهاز تلك الفرصة السانحة للاتفاق مع بريطانيا ، وأشار الى أن النظام الدستورى لا يستقر ولا يحقق الديمقراطية المنشودة مادامت العلاقات المصرية الانجليزية لا تستند الى تسوية عادلة ، فاذا كان مشروع الاتفاق لا يحقق ما تنشدة مصر الا أنه يدعم استقلالها ويوطده . وحتى الحزب الوطنى أيد الاتفاق وأعلن أنه يفضل ماسبقه ، ووصف الأمير عمر طوسون المشروع بأنه أفضل ما قدمته انجلترا لمصر حتى الآن ويشكر من أجله محمد محمود باشا ويهنئه لحسن حظه .

وأضاع النحاس تلك الفرصة على مصر بعناده ، ولم يدرك أحابيل المكر البريطانى حين يقود الزعماء الى الفخ ، ويحررهم من عناء المواجهة المباشرة ، فقد رفض النحاس قيام وزارة ائتلافية تقدم أحسن ضمان لتوقيع وتنفيذ المعاهدة المقترحة ، فلم تكن الحكومة البريطانية من المحافظين أو العمال لتسلم بانفراد الوفد رغم أغلبيته

بتوقيع اتفاق مع مصر لا تقره أو لا تشترك فيه الأحزاب الأخرى ويسلم به المصريون جميعا ٠

ومع اخفاق المندوب السامى الجديد سير برسى لورين فى الوصول مع زعماء الوفد الى رأى باقرار ما تم الاتفاق عليه مع محمد محمود ، الا أن يعربوا عن نياتهم الطيبة ، ويمر به النحاس ومكرم عبيد مهنئين بمنصبه الجديد ، ويقبلان دعوته لغداء عمل يخرج منه سير برسى لورين بألا جدوى للتوفيق بين الوفد وخصومه، ورأى أن يمهد لعودة الوفد بتأليف وزارة انتقالية ترضى عنها الأطرف المتباينة ، وتألفت وزارة عدلى يكن الثانية ، وأفصح عن مهمته فى خطابه بتأليف الوزارة ، بقوله : « ستكون الغاية التى تترسمها الوزارة اعادة الحياة الدستورية واجراء الانتخابات لمجلس النواب خالصة من كل ضغط أو تأثير غير مشروع ، بحيث تنقل صورة صادقة عن ارادة البلاد لكى يتمكن البرلمان بعد ذلك من البت فى مصيرها » ٠

واجريت الانتخابات وقاطعها الأحرار الدستوريون ، حتى لا يقيموا ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ « أى عقبة فى سبيل حصول الوفد على اكثر مما حصل عليه رئيس الأحرار الدستوريين » ٠ وكان الرأى الذى أشار به الدكتور هيكل على الأحرار الدستوريين بمقاطعة الانتخابات الا يكونوا عقبة أمام مايدعيه الوفد من الحصول على مزايا اكثر ، وقد « قلنا ان مشروع محمد محمود ــ هندرسون هو الكلمة الأخيرة لانجلترا فى الظرف الحاضر » ٠٠ لأننا اذا خضنا الانتخابات فستخوضها على أساس أن هذا المشروع خير ما يمكن الحصول عليه فى الوقت الحاضر ٠

وغادر المندوب السامى مصر الى السودان حتى لا ينسب اليه أى تدخل فى الانتخابات وقت اجرائها ، وفاز الوفد بأغلبية ساحقة ،

وألف النحاس الوزارة الجديدة ، ورأس وفد المفاوضات الى لندن وفشل فى الاتفاق مع الانجليز وعاد ليعلن أن « خسرنا المفاوضات وكسبنا صداقة الانجليز » وكانت تلك نهاية وزارته ونهاية الحكم البرلمانى ، فقد اهتبل الملك الفرصة التى يتوقعها للاطاحة بحكومة الوفد ، وأراد النحاس أن يكرر ما قام به سعد زغلول من اجبار الملك على رفض استقالته • فقدم استقالة وزراته واستنفر النواب الوفديين لتدبير مظاهرة شعبية تحمل الملك على الأذعان لرغبة الشعب الا أن الملك كان أسرع منه فى اتخاذ القرار فقبل استقالة الوزارة وكلف اسماعيل صدقى بتأليف الوزارة الجديدة ، قبل أن يتحرك الوفد فى مظاهرته الشعبية ، وقبل أن يدع للانجليز فرصة للتدخل • ولم يكن يعنيهم أن يتدخلوا ، فكل خـلاف بين المصـــريين يلهيهم ويبعدهم على التصدى لهم والسعى لتحقيق أمانيهم القومية ، وأن كان الحياد البريطانى قد أخلى الميدان لصراع ثنائى لا يدعى أى طرف من طرفيه القدرة على الفوز ، فكانت وزارة صـــدقى أطول الوزارات المصرية عمرا ، بالرغم من مقاومة الحزبين الكبيرين لها ، مقاومة اتسمت بالتحدى والاصرار ، كما اتسمت بالتنظيم والقدرة على المناورة •

ويبدو أن الجانب البريطانى فى مقاوضات النحاس ــ هندرسون كان حريصا على ابرام الاتفاق ، فلما جاء الرفض من جانب النحاس، تركوه لمصيره وليواجه نزعة الملك الطاغية للاستبداد ، ولعل النحاس كان يتوقع ماحدث ، ويعلم أن لو رأى سندا من الانجليز لتردد الملك كثيرا قبل أن يقدم على خطوته باسناد الوزارة الى صدقى « وهو من هو جرأة ومجازفة » كما يصفه الدكتور هيكل ، وقد سخره الملك لتنفيذ سياسته ضد الدستور وضد الوفد،وكان النحاس حريصا على أن يجد سندا من الانجليز ، فنوه بما كسبه من صداقتهم ، وكان يأمل الا يلزموا الحياد بينه وبين الملك ، وقد أفصح عن رأيه هذا فى لقائه

بالمندوب السامى عقب استقالته ، حين ذكر له أن الحياد البريطانى لا يعنى الا ترجيح كفة الملك ، كما أفصح مستر هندرسون فى حديث له مع الدكتور حامد محمود ، أحد رجال الوفد ، حين لقيه فى مجلس العموم ، بأن الوفد لو كان قد وقع المعاهدة لما حدث ذلك ولما انتهك الدستور · ولم يكن حرص الجانب البريطانى على توقيع المعاهدة ، الا للتخلص من موقف قائم قد يثير المصريين عليهم فى أى وقت ، فاذا تخلصـــوا من هذا الموقف المعلق وانتهوا فيه الى اتفاق مع المصريين أمنوا جانبهم ، أما وقد شغل المصريون عن هذا الموقف بحماية البلاد من الطغيان الملكى ، فان فيه راحة للانجليز من عناء المواجهة اذا تفرغ لهم المصريون ، فكان ما التزموه من حياد فى صالحهم ، وحذرا من المستقبل تكتب الحكومة البريطانية الى ممثلها فى القاهرة ، عن عودة الوفد اذا ما التزم بسلوك طيب ، ولم ير المندوب السامى الا أن سقطات الوفد التى صبغت حكومته بصبغة فاشية ، تحول دون ذلك · وان الحيـــاد أجدى وأنفع للمصـــالح البريطانية ، وأن أى انتصار للوفد على الملك قد يؤدى الى « آثار قاتلة على سياستنا التى أعلناها » ·

ولم يقف الوفد ساكنا فنشط فى مقاومة الوزارة ، أما الأحرار الدستوريون فقد لزموا جانب الحذر ، فما كان « لنا أن نعارض الوزارة غداة تأليفها ، فلم تكن هذه خطتنـــا حتى مع الوزارات الوفدية ، هذا ونحن لو عارضناها ، أو لم نعلن تأييدها فيما يتفق وسياستنا ، لشعر الأحرار الدستوريون بأن مصالحهم عرضـــــة للضياع ، ولرتبوا على هذا الشعور نتائج قد تضر الحزب ضررا بالغا » وكان الوفد نزاعا الى التطرف ، حين يلى الحكم ، وكان حريصا على رعاية أنصاره ، وخاصة فى الأقاليم حيث يطغى نفوذ العصبيات على كل ماعداه ، وتعلو مصالحهم على كل مصـــلحة سواها ، وكانت خطته التى « يقول بها قائلهم : من لم يكن معنا فهو علينا ، وكان مؤدى هذه الخطة أن تكون الأداة الحكومية وفدية

لحما ودما ، والا تقف الأداة الحكومية فى ذلك عند الوظائف ذات الطابع السياسى ، بل تتناول الوظائف كلها ، صغيرها وكبيرها ، وتنحدر من وكيل الوزارة الى الكاتب الصغير ، ومن العمدة الى الى الخفير لذلك كانت الوزارات الـــوفدية وغـــير الـــوفدية تتداول هؤلاء بالتعيين والعـــــزل ، وأصـــبح الصـــراع الســـياسى مغلفا بصراع العصبيات فى الريف · وهو مايدعـــو كل حزب الى حماية أنصاره والأخذ بيدهم ، وقد نال العصـــبيات الدستورية من طغيان الوفد ، فترة حكمه القصيرة الكثير من العناء فاذا لم يقف الحزب مع أنصاره هؤلاء فى الريف ، لتركوه ، وأخذوا جانب صدقى فى سعيه الحثيث لاستقطابهم ·

فاذا كان الأحرار الدستوريون قد سكتوا عن صدقى فى بداية حكمه ، وان رفضوا الاشتراك معه فى تأليف الوزارة وعدوا كل من يشترك فيها منهم خارجا عليهم ، الا أنه رأى فى سكوتهم عنه بديلا لتأييدهم له ، وفيه ما يرضيه · وان لم تبخل عليه السياسة « فى الشـــهور الأولى من حكمه بالتأييد الكامل » وكان هو من ناحيته سريعا « الى اجابة الأحرار الدستوريين الى ما يطلبون » ·

الا أن الدكتور هيكل ينقد فى « حديث اليوم » ما لجأت اليه الوزارة من احالة قاضيين « الى المعاش لأنهما أصدرا أحكاما فى قضايا سياسية اعتبرتها الوزارة مخالفة لسياستها » ·· والقضاء بحكم الدستور مستقل ، والقاضى لا يحكم الا بما يمليه عليه ضميره، وما ينص عليه القانون ، فاذا أخطأ فثمت محكمة الاستئناف ومحكمة النقض وكل ما أنشأه المشرع من وجوه اعادة النظر » · وكان موقف الدكتور هيكل فى هذا شبيها بموقفه حين لجأت وزارة محمد محمود الى مثل ذلك ، فان لم ينقده على صفحات السياسة حينذاك فلأنه تم فى غيبته حين وجوده بأوربا ، ولكنه قرر الا يدافع عنه والا ينشر دفاعا عنه أيا كان مصدره ، « وأحدث هذا المقال ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ رجة فى الأوساط المختلفة ، فسره بعضهم بأنه نزعة ظاهرة

من الأحرار الدستوريين لمعارضة الوزارة ، وفسره آخرون بانه مجرد ارهاص بهذه المعارضة » .

ولم يطل الحال بالأحرار الدستوريين على هذا الوضع مع وزارة صدقى ، فسرعان ما بدأ ابدال الدستور بدستور آخر من صنعه ، لم يطالع الأحرار الدستوريين بشيء من أمره ، فكانت بداية حملتهم عليه ، حملة قادها الدكتور هيكل على صفحات السياسة عنيفة غاية العنف ، فقد كان أحرص رجال حزبه على الدستور ، فعارض محمد محمود يوم فاتحه فى تعديله يوم كانا معا فى لندن ، واستراح محمد محمود الى حجته واتفقا على أن تعديل نصوص الدستور لا محل له ، كما كانت معارضة الوفد وصحفه لا تقل عنفا عن السياسة ، وبدا أن الحزبين الكبيرين يجتمعان على معارضة هذا العبث بالدستور فكانت بداية التقارب بينهما ولقى صدقى من عنف المعارضة ما واجهه بعنف أشد وبطش أقسى ، لم يرع الدكتور هيكل ، واستعاض عن تعطيل صحف الحزب بإصدار كتاب « السياسة المصرية والانقلاب الدستورى » شاركه فيه « الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى والاستاذ محمد عبد الله عنان » وان بقى الحزب يصدر صحفا أخرى غير السياسة التى عطلها صدقى ، ليعطلها صدقى من جديد ويصادر أعدادها قبل أن تصل الجمهور فاذا كانت الوزارة ــ كما يقول الدكتور هيكل فى مقدمته لهذا الكتاب ــ « تريد الا يكون القانون وحده هو الذى يحدد حرية الصحافة ويكون الحكم بينها وبين خصومها ، وهى تريد كذلك أن تعطل الصحف كلما رأت فى تعطيل صحيفة مظهرا تتبدى به للجمهور فى ظاهر من القوة لعل الجمهور يخافها ويرهبها » .

وآثر الأحرار الدستوريون الا يكون لهم جريدة تعبر عن رأيهم، فقد رأى « زميلاى الفاضلان الاستاذان ابراهيم عبد القادر المازنى ومحمد عبد الله عنان أن نجعل من فسحة الوقت وسيلة للتاريخ لهذه الفترة الأخيرة من حياة مصر منذ حدث الانقلاب الدستورى فيها فى

٢٢ اكتوبر سنة ١٩٣٠ ، على أن لا يكون تاريخا صحفيا أو مشوبا بشائبة هوى الوقت ، بل على أن يكون تاريخا يقصد فيه الى سرد الوقائع بالرجوع الى مساندها والتعليق عليها تعليقا أساسه الفكرة القومية السامية وتوخى الحق الذى نعتقد » ٠

وقد جاء الكتاب فى الواقع وثيقة تاريخية لا يستغنى عنها دارس هذه الفترة من تاريخ مصر القلق ٠

وتم الاتفاق بين الحـــزبين الكبيرين على مقـــاومة الوزارة الصدقية ، والتصدى لها ، وكان الوفد عنيفا منذ البداية فى اثارة الجماهير عليها ، ونجح فى أن يكون مصدر قلق لها ، وعلى ما بين مبادىء الأحرار الدســتوريين واتجاه الوفديين من بون شاسع « يجعل ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ من المتعذر اتفاق الحزبين معا اتفاقا طويل الأجل » فقد اتفقا على مقاومة « صدقى باشا وبطشه ، ولتنظيم هذه المقاومة الف الحزبان لجنة اتصال كان يمثل الوفد فيها فتح الله باشا بركات ومكرم عبيد باشا ، وكان يمثل الأحرار الدستوريين فيها محمد على علوبة باشا وأنا » ورأت لجنة الاتصال أن « يتقدم الزعماء صفوف الشعب فى هذه المقاومة » وبقدر ما كان اصرار الزعماء على لقاء الشعب والتحدث اليه ، بقدر ما كان مكر صدقى وذكائه فى الحيلولة بينهم وبين غايتهم ، فبينما هم يقصدون طنطا ، اذ يرون عربة القطار التى اتخذوا مقاعدهم للسفر ، قد سارت بهم الى صحراء العباسية ثم يممت بهم ناحية الصف بمركز الجيزة ووقفت بهم خارج القاهرة ، وتكررت المحاولة وفى كل مرة تتصدى الحكومة لهم ، ولكنها تترك آثارها فى الناس فيخرجون فى مظاهرات صاخبة لا يأمن أن تنقلب ثورة عاتية ٠ وزادت حوادث العنف زيادة أخـــذت تهدد الوزارة تهديدها للأمن الداخـلى فى البلاد وأبلغت الحكومة البريطانية صدقى بالتزامه بحماية الأجانب ، كما ألزمت بها النحاس أيضا ، وتركت لمندوبها الســامى فى مصـــر أن يسوس

الأمور بما يراه خيرا للسياسة البريطانية فى مصر ، وقد رأى أن موقف الحياد كفيل بضرب المصريين بعضهم ببعض بمالا يؤثر على المصالح البريطانية ، وأن مظاهرة جانب على آخر ـ كما جاء فى برقيته الى هندرسون بتاريخ ٢٨ يونية ١٩٣٠ ـ وهو ما يجب على الحكومة البريطانية أن تتحاشاه · لاسيما وأن صدقى قد أعلن للحكومة البريطانية « أنه يملك من الأسباب والوسائل مايمكنه كل التمكين من القيام بالواجبات التى أخذتها وزارته على عاتقها » على حد رواية الرافعى · حتى كان سبتمبر ١٩٣١ ، وظهرت فكرة تأليف وزارة قومية « برئاسة رجل كعدلى تعقد مع انجلترا « المعاهدة التى انتهت اليها مفاوضات سنة ١٩٣٠ » وتجمع الأسانيد على أن الفكرة كانت من وحى المندوب السامى البريطانى ، وليس فيها ما يشير الى اتجاه سياسى للحكومة البريطانية ألقت به الى مندوبها السامى فى مصر ، ويرى الدكتور هيكل : « أن الخلاف بين حكومة مصر وشعب مصر يوشك أن ينقلب الى ثورة تلقى على السياسة البريطانية تبعاتها ، وهذا وضع لا يرضاه مندوب سام له من حصافة السياسى ما يمكنه من أن يلقى الماء البارد على النار المتأججة ، فكيف يصنع سير برسى ليصل الى هذه الغاية ، فاما أطفأ النار ، واما سكن من حدتها تمهيدا لأطفائها ؟! »

« قيل لنا فى لجنة الاتصال أن سير برسى ذكر لعدلى باشا يكن أن الحكومة البريطانية مستعدة اذا تألفت وزارة قومية فى مصر برئاسة رجل كعدلى باشا ، أن تعقد مع مصر المعاهدة التى انتهت اليها مفاوضات سنة ١٩٣٠ ، وأن تشير باعادة الدستور » ·

وكان الطعم الذى ألقى به سير برسى لورين شدسه الى الماء مغريا ، ولم يكن هناك من لا يسعى اليه ، أو لا يرضى به ، فالأحرار الدستوريون ينشدون الائتلاف وينادون بالوحدة القومية ، والوفديون

يبغون التخلص من وزارة صدقى ، ولا ريب انهم يطمئنون الى عدلى « وهو الذى اجرى الانتخابات التى هيأت للنحاس باشا وللوفد أن يتولى وزارة سنة ١٩٣٠ وأن يفاوض الحكومة البريطانية ، فله بذلك عند الوفد وعند النحاس باشا مكانة واحترام » ٠

وقد ألقى سير برسى لورين بالطعم وتركهم يتقاتلون عليه ، وقد ظن الأحرار الدستوريون « أن عرضها قد لا يعدو أن يكون مناورة ، أريد بها احباط نشاطنا فى مقاومة صدقى باشا ودستوره ، فاذا هى كانت مداورة ولعبة سياسية وأعلن الدستوريون والوفديون جميعا قبولها على أساس اعادة دستور الأمة وعقد المعاهدة ، أسرع انكشاف المداورة ، وان هى كانت حقيقة كسبت مصر من ورائها أكبر الغنم » ٠

وانقسم الوفد على نفسه فى قبول فكرة الوزارة القومية ، ولعل سير برسى لورين كان يدرك مسبقا أن الوفد يرفض فكرة الوزارة القومية فالقى بالطعم مطمئنا أن صيده سيكون لمصلحة بلاده ، وان موقف الحياد المشوب بالعطف على وزارة صدقى ، سيحقق مرماه من ضرب المصريين بعضهم ببعض ، وأن عرضه هذا الأخير سيقضى على التقارب بين الوفديين والدستوريين ، وقد حقق أكثر مما كان يبغى فكان انقسام الوفد على قبول الفكرة ، ولم يجد النحاس بدا من فصل أعضاء الوفد من الخارجين على فكرته فى رفض فكرة الوزارة القومية وكان على رأس المفصولين حمد باشا الباسل وكيل الوفد وقطب ثورة ١٩١٩ : « وكذلك انقسمت الكتلة المعارضة لصـــدقى باشا شطرين ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ من غير أن يكون لعنف صدقى باشا فضل فى هذا الانقســام ، انما كان الفضـــل للبراعة السياسية التى أبداها سير برسى لورين والتى أدت الى هذه النتيجة التى أسفنا لها جميعا » ٠

ومضى صدقى فى طريقه فأعلن دستوره وأعد عدته لانتخابات قاطعها الوفد والدستوريون وكون حزبا جديدا دعاه «حزب الشعب» وبقى يقابل العنف بعنف أشد والى تجاوز القانون فى عنفه وبطشه الى « أقبح صور التعذيب » وأدانها « شيخ القضاة يومئذ ، عبدالعزيز باشا فهمى » وأصدر فيها « حكما قدم له بحيثيات وصمت العهد كله أقبح وصمة » ·

ويبد أن السراى قد أدركت أن صدقى قد استهلك ولا يستطيع أن يقوم بأكثر مما قام به ، لاسيما وأن صدقى كان له من مقومات شخصيته القوية ما يحول الى حد ما دون الأوتوقراطية الملكية التى يتوق لها االملك فؤاد ، وأنه ليس كزيور أو يحيى ابراهيم ، ثم كان انهيار الوفاق الوزارى باستقالة على ماهر وزير الحقانية بعد أن أدان عبد العزيز فهمى رجال الادارة فى قضية التعذيب ، وسقوط صدقى صريع المرض وسفره الى أوربا للعلاج فخلى الجو للسراى ، وبرز نفوذ رجلها « زكى الأبراشى باشا » ناظر الخاصة الملكية الذى « أخذ يبث نفوذه – كما يقول صدقى فى مذكراته – ويتدخل فى شئون الحكم ، ولما عدت من أوربا وجدت الحال لا يطاق » وكان قد أبدى ضيقه لبعض المسئولين الانجليز وهو فى أوربا « من اتساع تدخل السراى فى الحكم » · وكان تعيين سير مايلز لامبسون مندوبا ساميا فى مصر بدلا من سير برسى لورين ، نذيرا بتغير السياسة البريطانية حيال الأوضاع فى مصر ، فقدم استقالته ليخلفه عبد الفتاح باشا يحيى فى رئاسة الوزارة الجديدة فى سبتمبر ١٩٣٣ ولم يلبث أن خلفه فى رياسة حزب الشعب ، بعد أن انفض أعضاؤه عن صدقى ليلتفوا حول الحاكم الجديد ، ويصف الدكتور هيكل هذا الموقف ، فيقول : « لقد اختار الحزب عبد الفتاح يحيى باشا لرياسته ، وان شئت فقل ان عبد الفتاح باشا اختير لرياســـة الحزب كما اختير لرياسة الوزارة ، فهرع اليه الأعضـــاء الذين تولتهم الحيرة يوم استقالة صدقي باشا ، وجعلوا يتساءلون : الى أين يولون وجوههم ؟!

ولم يكن عبد الفتاح يحيى باشا ليخدع نفسه بشيء من هذا ، فقد ذكر غير مرة ، بعد سنين من هذه الحوادث » أن جماعة من أعضاء الحزب ذهبوا اليه يتحدثون فى أمر من الأمور على نحو لم يعجبه ، فصاح بهم كى يدعوه وشانه ، فهو يعلم كيف انضموا الى الحزب ، وكيف ناصـــروه فى انتخابه لرياسته ، ولم يجد هؤلاء الأعضـاء ما يجادلون به الرجل ، ولم يفكر أحد منهم فى ترك الحزب مخافة ما قد يترتب على ذلك فى جاهه ومصالحه » ·

ولم يتغير موقف الأحرار الدستوريين من الوزارة الجديدة عما كان عليه مع الوزارة التى سبقتها بالرغم من سعى عبد الفتاح يحيى الى مودتهم ، ولم يتغير موقف الوفد هو الآخر حيالها ، ولم يتغير موقف عبد الفتاح يحيى عما جاء من أجله ، أما الملك فؤاد فقد وقع صريع المرض الأخير مرض الوفاة ، مما جعل لرجال السراى اليد العليا فى تصريف الأمور ، وقد آن للاعب الأول على المسرح أن يتقدم يتقدم ليعزف ايقاعه الرفيق على المسرح السياسى ·

١٦ سيمفونية المعاهدة

كانت الصورة قد تغيرت كثيرا ، واصبح على اللاعب الأول أن يمسك بزمام المبادرة، فالسماء الصافية التى أظلت أوربا بعدمعاهدة فرساى وقيام عصبة الأمم قد زادت بهرا بعقد ميثاق كيلوج عام ١٩٢٨ ، مالبثت أن تراوحت فيها غيوم كثيفة ، فالنازى قد قبض على مقاليد الحكم فى المانيا ، وأعلن هتلر سياسته فى كتابه «كفاحى» فأثار قلق بريطانيا « وفتح عيون الساسة فى انجلترا ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ على منظر كانوا يحاولون اغماض العين عنه ، وكانت انجــلترا مطمئنة بنوع خاص الى عـــلاقتها بايطـــاليا ، والى أن موسولينى زعيم الفاشيست والقابض على نواصى الأمر فى ايطاليا منذ ١٩٢٢ سيكفل سلامة مياه البحر الأبيض المتوسط ، وسيكفل من ثم سلامة الامبراطورية البريطانية ، لكن موسولينى لم يلبث ، حين رأى قوة الفوهرر الألمانى وقوة اتجاهه ، أن ولى وجهه نحوه ،

وأن خطب وده ، بعد أن حاول الوقوف منه موقف الخصومة محافظة على سلامة النمسا ، عند ذلك ازدادت السياسة البريطانية تحديقا فى القارة ، واشفاقا على المصير الذى تتعرض هى له اذا لم تسلك فى سياستها الدبلوماسية وفى سياستها العسكرية مسلكا يخرج بها من موقف السعيد باحلام السلام الى موقف اليقظ المرتقب مايتنفس عنه الغد من مزالق الخطر » ·

« وفى الفترة التى نعمت انجلترا فيها باحلام السلام . قامت سياستها فى مصر على التسويف والمطل ، كلما طلب المصريون اليها حل المسائل المعلقة بين الدولتين ، لقد كفاها أن اعترفت فى سنة ١٩٢٢ بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، مع احتفاظها بالمسائل الأربع التى أوردتها على هذا الاعتراف بالاستقلال ، وحسبها أن شغل المصريون بمنازعاتهم الحزبية بعد صدور الدستور وقيام البرلمان ، وتسابقت هيئاتهم المختلفة الى الحكم ، ما يسمح لها أن تشتط فى كل مرة يطلب فيها المصريون المفاوضة لحل المسائل المحتفظ بها ، وألا تصل من المفاوضة الى ما يرضى المصريين ، وأن تشغلهم بعد ذلك بمشكلة داخلية جديدة حول الانتخاب أو حول الدستور ! أما اليوم فالأمر مختلف ، ان هذا التطور الأوربى ينذر بنتائج يجب على الساسة مواجهتها وتلافيها من غير حرب أن أمكن ، ويجب عليهم فى نفس الوقت أن يعدوا العدة لليوم العبوس القمطرير الذى يدوى فيه المدفع وتئز الطائرة ، وتهب من جوف جهنم ألسن اللهب ، واذا كان مثل هذا اليوم لايزال فى نظر الحكومة البريطانية بعيد الاحتمال ، فالاستعداد له أول الواجبات » ·

« أما ومصر تتوسط العالم ، وقناة السويس تربط الامبراطورية فلابد من كسب صداقة الشعب المصرى ، مع الاحتياط كى لا يكون

ثمن هذه الصداقة باهظا ، ومع التمهيد لتغيير السياسة التى أدت الى ضياع هذه الصداقة » ٠

كانت تلك هى المقدمة فى سيمفونية المعاهدة كما يصفها الدكتور هيكل ، وقد بدأت بنقل سير برسى لورين المندوب السامى البريطانى بالقاهرة ، وتعيين سير ويلز لامبسون مكانه فى أغسطس ١٩٣٣ ، وقد بدأت انجلترا تنزع ثوب الحياد تجاه أمور مصر الداخلية حين وقع الملك مريضا وتقدم القائم بأعمال المندوب السامى بطلب شغل منصب رئيس الديوان الذى كان شاغرا حينذاك ، حتى يتاح لهم الاتصال بشخصية مسئولة فى السراى ، وحتى يسفر عن تدخله طالب باقالة وزيرين لتبعيتهما الخالصة للسراى ، كما بدأ اتصالات بالقيادات الحزبية ، كان من بينهم الدكتور هيكل عن الأحرار الدستوريين ، وقد قابله أكثر من مرة ، ويقول الدكتور هيكل : « وكنت فى أكثر الأحايين أجد بعض أصدقائى أو معارفى خارجين من عنده ساعة قدومى » كما كان من بينهم مكرم عبيد عن الوفد ، فاقترح عليه فرض وزارة على الملك يرأسها توفيق نسيم ، وفى لقاء مع النحاس ٠ صرح النحاس مؤكدا أنه الوفد لن يعترض على تدخل انجلترا لفرض وزارة يرأسها توفيق نسيم ٠

وتألفت وزارة توفيق نسيم الثالثة ، وبعد اسبوعين من توليه الوزارة « صدر أمر ملكى بالغاء دستور صدقى باشا ، لكن هذا الأمر الملكى لم يعد دستور سنة ١٩٢٣ » ٠

ورأى الدكتور هيكل وشاركه فى الرأى محمود عبد الرازق أن يقف الأحرار الدستوريين من وزارة نسيم موقف الانتظار على غير ما كان يرى محمد محمود ، فقد عارض الأحرار الدستوريون « سياسته فى سنة ١٩٢٢ معارضة عنيفة غاية العنف ، لم ينسها هو ، ولم ننسها نحن » ٠٠ لكننا أردنا أن يشعر الشعب المصرى بأن تغيير

الوزارة معناه انتصار سياستنا فى مقاومة العهد الذى انقضى ٠٠٠ واقتنع محمد باشا واقتنع أخواننا بحجتنا فذهبنا ثلاثتنا غداة تأليف الوزارة الى رياسة مجلس الوزراء ، يتقدمنا محمد باشـــا وهنأنا نسيم باشا بمنصبه ، ورجونا أن يحقق آمال الشعب فيه فوعد خيرا من غير أن يتقيد بشىء معين » ٠

ويبدو أن الجو كان غائما فى أذهان اللاعبين على المسرح ، فالوفد راض عن نسيم ، ونسيم أكثر هوى للوفد منه لغيره ، وفى الوقت نفسه لم يكن راضيا عن دستور ١٩٢٣ ، ولم يكن راضيا عن دستور ١٩٣٠ ، وكان قد علق قبوله للوزارة بتعطيله وحل البرلمان القائم واجراء انتخابات جديدة ، ومضت خمسة شهور ولم يخط نسيم أى خطوة لاعادة دستور ١٩٢٣ وصرح للمندوب السامى سير مايلزم لامبسون أنه يعتزم التقدم بمشـــروع دســـتور وســط بين الدستوريين ، ثم تقدم بمذكرة الى الملك فى ١٧ ابريل ١٩٣٥ يقترح فيها اعادة دستور ١٩٢٣ بعد تنقيحه ، أو وضع دستور جديد ، ورد الملك بأنه يؤثر دستور ١٩٢٣ ، فأسرع نسيم الى المندوب الســامى وأطلعه سرا على مذكرته للملك ورد الملك عليهـــا ، وأمر المندوب السامى بعدم نشرهما ، وأبدت وزارة الخارجية البريطانية رغبتها فى بقاء نسيم ليحول بين الملك وبين تصرفاته الضارة ٠ ولم تكن الحكومة البريطانية قد استقرت على رأى تجاه المسألة المصرية ، وكان الوفد يتعجل العودة الى دستور ١٩٢٣ ، والاحرار الدستوريون يحملون على وزارة نسيم التى تحكم « بغير دستور ولا برلمان » والملك غير راض عن نسيم ، ونسيم يتجاهل السراى ويراوغ فى عودة الدستور ، والانجليز يساندون وزارة نسيم ، ويقترح المندوب السامى على حكومته اصدار تصريح من جانبها يهدىء خواطر المصريين ويكون سندا للوزارة النسيمية ٠

ويشتد ايقاع السيمفونية حين يصدر وزير الخارجية البريطانية تصريحا فى ٩ نوفمبر لم يرض المصريين فانفجروا ثائرين ، وكانت ثورة يراها الرافعى صورة مصغرة من ثورة ١٩١٩ ٠

وقبل التصريح البريطانى بيومين ألقى محمد محمود خطابا سياسيا فى « كازينو لطف الله على النيل ٠٠ هاجم فيه وزارة نسيم باشا صراحة فى قوله : انها ردت السلطة المصرية البحتة الى أيدى الانجليز ، اذ جعلت اعادة الدستور والحكم النيابى فى مصر رهنا بمشيئة الانجليز » وفى ١٣ نوفمبر ألقى النحاس خطابا طالب فيه باقالة وزارة نسيم ومقاطعة الانجليز وكانت تلك بداية حملة الوفد على وزارة نسيم ٠

وبدأ محمد محمود دعوته الى الوحـــدة القوميـــة ، فأعلن للشباب : « اننى لا أبتغى من الدعوة الى الوحدة أى شىء لنفسى ، اننى خادم لكل من يخدم وطنه بصدق واخلاص » ٠

ولم يرض النحاس بدعوة محمد محمود « الى الائتلاف ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ ولكنه أعلن رضاه بالاتحاد فى الأهداف ، وقد ندد محمد باشا فى اليوم التالى بمسلك رئيس الوفد ، كما ندد به اسماعيل صدقى باشا ، وحمد باشا الباسل » ويرى الدكتور هيكل أن النحاس قد حسب دعوة محمد محمود تومىء من جديد لأحياء فكرة الوزارة القومية وكان قد رفضها عام ١٩٣١ ، فقد كان « متشبثا كل التشبث بأنه صاحب الحق فى الانفراد بالحكم ٠٠ كما قال فى خطابه الذى ألقاه فى ١٣ نوفمبر ، أن الحكومة الدستورية المستندة الى برلمان الأمة هى وحدها التى تستطيع أن تعقد مع انجلترا اتفاقا شرعيا ثابتا يرضاه الشعب المصرى » ٠

الا أن التغير الفكرى فى أوساط المثقفين وبين طلاب الجامعة ، قد حملهم على الأنصات لرأى الأحرار الدستوريين ، فبينما كان الوفد

يرى هدف الأمة ينحصر فى استعادة الدستور ، فاذا عاد الدستور وأجريت الانتخابات على أساسه ، وظهرت الأغلبية البرلمانية ، كان للحكومة المستندة الى هذه الأغلبية أن تجرى المفاوضات فان نجحت فيها ، وان أخفقت بقى الدستور وبقيت الأغلبية متمتعة بما تعتقده حقها فى الحكم » كان الأحرار الدستوريون « يرون غير هذا الرأى ، كانوا يجعلون عقد المعاهدة مع انجلترا هدف الوحدة والائتلاف ، فاذا عقدت المعاهدة وعاد الدستور وأجريت الانتخابات تولت الأغلبية الحكم ، ومصر مطمئنة الى أن الحياة الدستورية باقية لا تتعرض لما تعرضت له من قبل من تعطيل والغاء » ٠

ويصف الدكتور هيكل موقف الشباب فى تلك الآونة من الأحرار الدستوريين ، فيقول : « كنا فى دار الحزب والسياسة نصارح الشباب بموقفنا بكل جلاء ووضوح ، وكنا نؤيد نظريتنا فى السياسة بكل قوة ، لأننا كنا نؤمن بها أصدق ايمان، وكثيرا ماكان الطلبة يحضرون يناقشوننا ثم يخرجون وكثرتهم مقتنعة بنظريتنا ، أذكر يوما مر الطلاب فى مسائه بجريدة روزاليوسف ، وكانت تصدر يوميا فى ذلك الحين ، وكانت تعارض النحاس باشا ونظرياته ، فحطموا زجاج نوافذها وأبوابها ، ثم جاءوا الينا فى بهو السياسة ، ولقد طلب محمد باشا يومئذ الى أن أخطبهم ، واعليت منضدة اتخذت منها منبرا ، وبدأت أتكلم ، فلم أكد أبدأ حديثى حتى وجه أحدهم الى سؤالا ، حسبه أنصارنا من الطلبة مقدمة لعمل عنيف كالذى حدث فى (روزاليوسف) فأحاطوا بالسائل وأرادوا الاعتداء عليه ، عند ذلك صحت بهم ، كلا ، كلا ، ان له الحق فى أن يسأل ، وواجب على أن أجيب على شرط واحد ، أن يعدنى بشرفه أنه اذا اقتنع برأيى صرح باقتناعه ، وأعده انا من جانبى وعدا صريحا أننى اذا اقتنعت برأيه صرحت باقتناعى ، وصفق الحاضرون وسكت السائل ، وخطبت الجمع الذى ملأ

البهو من غير أن يعترضنى معترض ، فلما اتممت كلامى صـــفق الحاضرون طويلا ، فلما انتهى تصفيقهم قلت : هاأنذا تكلمت ، وأنا مستعد كل الاستعداد لمناقشة من شاء المناقشة ، وصفق الشبان ثانية ولم يتقدم أحد بسـؤال ولا باعتراض ، وانصـــرف الجميع وأحسبهم يقولون فيما بينهم : ليس لنا أن نناقش الساسة حججهم ، ولكن علينا أن نلزمهم بكل وسيلة أن يتحدوا » •

ومضت الأحداث سراعا ، وظهر أن الطلاب قد أصبحوا عنصرا مؤثرا فى مجريات الأمور ، ولعل الانجليز لم يكن ليلقوا بالا الى الملك أو الوزارة ، أو الأحزاب ، أما هؤلاء الطلاب الذين يتظاهرون، ويصدرون القرارات بمقاطعة التجارة الانجليزية ، ويتخذون موقفا حاسما بدعوة الأحزاب الى التآلف والاتحاد ، فأنهم يقضون مضاجع السياسة البريطانية ، فى وقت تخشى فيه بريطانيا أن تشتبك فى حرب مع ايطاليا لعدوانها على الحبشة • وقد وقفت مصر الى جانب انجلترا ، فأعلنت قبولها لقرار عصـــبة الأمم بتوقيع العقـــوبات الاقتصادية على ايطاليا •

ولم يكن هناك ما تخشـــاه انجلترا من ايطاليا ، الا أن يثير موقفها حربا عالمية ، فالأسطول البريطانى يفوق الأسطول الايطالى فى البحر المتوسط بمراحل ، واذا أغلقت قناة السويس أمام الأمدادات الايطالية لحملتها على الحبشة ، لا يبقى أمامها من طريق آخر غير الدوران حول افريقيا ، وهو طريق تقف دونه قاعدتا مالطة وجبل طارق البحريتين ، والطريق البرى من ليبيا الى الحبشة يمر بمناطق النفوذ البريطانى فضلا عن صحرائه المهلكة وفيافى السودان التى تبتلع أى جيش يجرؤ على اجتيازها ، فاذا كان ما تخشاه انجلترا أن يفاجئها موقف دولى عسير فان عليها أن تسوى أمورها مع بلد تكاد تفلت أموره من أيدى زعمائه الى أيدى هذا الشباب الجامعى الذى يلهب مشاعر الشعب ويقوده الى ثورة تواجهها فى أحرج أوقاتها ،

وهاهم الزعماء يجتمعون ويتآلفون ويكونون جبهة وطنية من مصطفى النحاس ومحمد محمود واسماعيل صدقى ويحيى ابراهيم وحافظ رمضان وعبد الفتاح يحيى وحمد الباسل وحافظ عفيفى ، تتوجه بكتابين أحدهما الى الملك « لاعادة الدستور ويبلغ الثانى الى الحكومة البريطانية لتوقيع معاهدة بالنصوص التى انتهت اليها مفاوضات سنة ١٩٣٠ بعد الاتفاق على نص للسودان ، وكان الدكتور هيكل من أعضاء اللجنة التى قامت بتحرير الكتابين ٠

وصدر الأمر الملكى فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ باعادة دستور ١٩٢٣ ، وردت الحكومة البريطانية فى ٢٠ يناير ١٩٣٦ بموافقتها على الدخول فى مفاوضات مع الجانب المصرى لعقد معاهدة ٠

وكان السير مايلز لامبسون المندوب السامى الجديد ، يميل الى بقاء الوزارة النسيمية ، وفى لقاء له مع الملك فى ١٠ ديسمبر ، صرح الملك له بأنه « ما كان يبغى أبدا اختيار نسيم باشا لرياسة الحكومة وان الانجليز هم الذين اختاروه ٠٠ وأن نسيم باشا قد أخطأ فى تستره أولا وراء الملك ثم وراء المندوب السامى فيما يتصل بالوضع الدستورى ولابد من اعتزاله » وأبلغ مايلزم لامبسون الحديث الى حكومته فى نفس اليوم ٠ فلما ورد كتاب الحكومة البريطانية بالموافقة على المفاوضات ، وكان مستر ايدن قد خلف صمويل هور فى وزارة الخارجية البريطانية ، قام المندوب السامى بابلاغه الى الملك والى رئيس الوزراء والى الجبهة الوطنية ، فطلب الملك الى نسيم تقديم استقالته ، واقترح المندوب السامى على وزير خارجيته برسالة تقدير شخصى الى نسيم باشا ، ولم تأخذ الحكومة البريطانية بالاقتراح لأن ذلك « قد يضاف الى ما ينسب لنسيم باشا من ولاء خالص للانجليز » ٠

ولما كان النحاس يرفض تأليف وزارة قومية ، وان سلم للجبهة الوطنية بالمفاوضة ، فقد استقر الرأى على تأليف وزارة محايدة

يراسها على ماهر فالفها فى ٣٠ يناير ، « وعقب تاليفها استصدر من جلالة الملك مرســـوما بتأليف هيئة المفاوضات ، من مصطفى النحاس باشا ، ومحمد محمود باشا ، واسماعيل صدقى باشا ، وحلمى عيسى باشا ، وهؤلاء هم رؤساء أحزاب الوفد والأحرار الدستوريين والشعب والاتحاد ، ومن على الشمس باشا ، وواصف غالى باشا ، وحافظ عفيفى باشا من المستقلين عن أى حزب ، ومن عثمان محرم باشا ، والأستاذ مكرم عبيد ، والدكتور أحمد ماهر ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى من الوفديين » ٠

« بهذا تهيأت الفرصـــة ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ لبدء المفاوضات فى القاهرة واستمرارها فى الاسكندرية ، وتهيأت الفرصة لاجراء انتخابات تتولى الحكم على اثرها وزارة الأغلبية ، وحدد يوم ٢ مايو لاجراء هذه الانتخابات ويوم ١٠ مايو لانعقاد البرلمان »٠

« وبهذا كله ـ كما يقول ـ بدأ التمهيد لصفحة جديدة فى تاريخ مصر الحديث » ٠

١٧ الدكتور هيكل والمعاهدة

كان الدكتور هيكل موضوعيا فى تفكيره منذ البداية ، وكان يرى فى الوحدة القومية قاعدة للوصـــول بمصر الى تحقيق أمانيها فى الاستقلال والحرية ، ويرى فى تصريح ٢٨ فبراير خطوة الى الأمام فقد أتاح لمصر حكما دستوريا عليها أن تحرص عليه وأن تجعل منه أساسا لقيام حكم نزيه يسوى بين المصريين جميعا فى الحقوق وفى الواجبات ، وان كنا لا نجد له رأيا محددا فى مناقشات لجنة الدستور وكان عضوا فى اللجنة التى اختارتها الوزارة لتقوم بأعمال الأمانة العامة للجنة الدستور ، ولكنه يتابع مناقشات لجنة الدستور ويشير الى ما اختلف الأعضاء حوله من آراء فى مذكراته دون أن يبدى رأيا فيها ، وكان فى مقدمة ما تعرضـــت له اللجنة ــ كما يقول ــ حق الانتخاب ولمن يكون . فقد انقسمت « اللجنة فى هذا الموضوع ، نأيد المكباتى بك وعبد العزيز فهمى بك حق الانتخاب العام يتمتع به كل

مصرى يبلغ الحادية والعشرين ، وعارض فى ذلك اسماعيل اباظة باشا قائلا انه لا يستطيع أن يتصور أن يتساوى هو أو أن يتساوى عبد العزيز فهمى بك أو المكباتى بك مع الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب والذى لا يعرف من الحياة الا أن يفلح الأرض » ويقول الدكتور هيكل أن المناقشة فى هذا الأمر طالت بين الفريقين ، وكان لكل منهما حجته التى يسوقها « فذكرت وأنا اتتبعها ما كتبه الفيلسوف الفرنسى ، هبوليت تين ، عن ــ الاقتراع العام وطريقة الانتخاب ، وكيف أنه وهو الفيلسوف الفرنسى المشبع بمبادىء الحرية ، يؤيد نظرية كالتى يؤيدها اسماعيل باشا أباظة ، وقلت عند ذلك فى نفسى : يظهر أن المنطق التجريدى وحده يصطدم فى الحياة العملية بمنطق آخر يجب أن يقام له كذلك وزن وحساب ، وعلى ذلك لا يجوز أن يكون العدد وحده مقياس الكفاية للحكم ، بل يجب أن تكون المقدرة على الحكم ذات أثر كذلك فى هذا المقياس ، لكننى عدت فذكرت أن مقيـــاس المقدرة أمر تحكمى ، فاذا نحن أغفلنا المنطق التجريدى انفسح أمامنا باب المقاييس ، ولم أقطع برأى فيما تدور المناقشة حوله ، بل اكتفيت بالأنصات لها ، والتمتع بمقدرة القائمين بها » ٠

ثم كان اختلاف لجنة المبادىء العامة حول حقوق صـــاحب العرش « وكان رشدى باشا مع اقراره الحريات العامة ودفاعه عنها دفاعا حارا ، يبدو فى جانب التسليم بحقوق معينة لصاحب العرش » ٠٠ ويخيل الى أن الرجل لم يكن يدافع فى هذا الموقف عن رأى يؤمن به ، بل عن سياسة يؤمن بأنها وحدها التى تؤدى الى تحقيق الحظ الأوفر من الغرض الذى تسعى اليه اللجنة وهذه السياسة هى أن ما تضعه اللجنة لا يزيد على أنه مشروع للدستور يجب أن يدفعه صاحب العرش لامكان تنفيذه ، فاذا سلب هذا المشروع من صاحب

العرش كل سلطان خيف على المشروع نفسه أن يعدل من أساسه ٠٠ ومن الخير أن يتم التوقيع فى اسرع وقت ، لتقوم فى مصر حكومة برلمانية تستطيع مفاوضـــة انجلترا فى حل المسائل التى احتفظ بها تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ » ٠

ورأى الدكتور هيكل فى مشروع الدستور كسبا عظيما لمصر فلما جاءت وزارة نسيم ، وبدأت تنظر فى مشروع الدستور « وتحدث الناس فى بعض الأندية عما تقصد الوزارة اليه من تضييق ســلطة الأمة ، عند ذلك وقفنا نحن فى (السياسة) موقفا كنا نؤمن به عن اقتناع ويقين ، وقفنا موقف المدافع عن الدستور المصــرى ، وعن النظام البرلمانى كما تعرفه الأمم المتمدنة » ٠

ولما استقالت وزارة نسيم فى ٩ فبراير ١٩٢٣ وخوطب عدلى فى تأليب الوزارة التى تخلفه « رأى ، قبل أن يقبل تأليف الوزارة أن يوجه الأحرار الدستوريون دعوة الى الاتحاد يقصد بها أن تعود الأمة فتتراص صفوفها وتتفق كلمتها على الدستور وعلى الحياة النيابية التى تقوم على أساسه ونشرت السياسة دعوة الحزب الى هذا الاتحاد بحروف بارزة ، وكررت نشــر هذه الدعوة أسبوعين متواليين ٠٠ دعوة خالصة لوجه الله والوطن ، غايتها أن تعود الأمة الى مثل ما كانت عليه وحدة مقصد ووحدة خطة ، لتبلغ غاياتها الوطنية السامية » ٠

وكان ذلك بعض ما يؤمن به الدكتور هيكل وسعى اليه مع جماعة الحزب الديمقراطى حين اختلف الرأى بين سعد وعدلى على من يتولى مفاوضة الانجليز عام ١٩٢١٠ ، وكان من رأيهم أن يقوم عدلى بالمفاوضات « وأن يشرف عليها الوفد ــ كما قال الدكتور هيكل فى حديثه الى سعد زغلول ــ ايمانا منا بأن ذلك أدنى الى ضمان النجاح » الا أن دعوة السياسة الى الاتحاد لقيت مالقيته دعوة

الحـــزب الديمقـــراطى اليه من قبل ، واعتذر عـدلى عن تاليف الوزارة ٠

وفى خطاب الافتتاح الذى ألقاه عدلى يوم اعلان قيام حزب الأحرار الدستوريين ، سادته « نغمة الدعوة الى الوحدة القومية ، وتحذير أبناء مصر من مغبة الخلاف بينهم » ويرى « أن ما حصل عليه الوطن من اعتراف باستقلاله انما يرجع الفضل فيه الى ما بدا من وحدة الأمة وتماسكها منذ قومتها الوطنية فى سنة ١٩١٩ ، وأن هذه الوحـــدة جديرة أن تؤتى كل ثمارها ، اذا ظلت منزهة عن الشـــوائب ، وأن أبناء الوطن الذين عرفوا بالحكمة وانكار الذات والتجرد للوطن ، قادرون بوحدتهم على أن يحققوا لوطنهم كمال استقلاله » ٠٠

وتوالت الأحداث من بعد ، حتى كان مقتل السردار وتخلى سعد عن الحكم وبداية الطغيان الملكى ، ووقوف الانجليز من وراء الستار يمسكون بخيوط السياسة المصرية ويسعدهم أن يقع الخلاف بين المصريين لينأى بهم عن مطالبهم الوطنية ، وأدرك سعد ما يجره هذا الخلاف من مضـــرة ظهرت معالمها بادية فيما كان ، فرحب بالائتلاف مع الأحزاب « لانقاذ الدستور والحياة النيابية » ورضى بمالم يرض به من قبل ، بأن يؤلف عدلى الوزارة ويبقى هو رئيسا لمجلس النواب ، وبقى يؤيد الائتلاف ، واقنع ثروت ــ كما قلنا من قبل ــ بأن يؤلف الوزارة بعد استقالة عدلى ، كما أقنع عدلى بأن يؤلف ثروت الوزارة التى تخلفه ، ولو بقى سعد زغلول حيا ــ كما قلنا ــ لكان لهذا الاتجاه الجديد أعظم الأثر فى حياة مصر السياسية من بعد ، فقد اتخذ الوفد طريقا غير الذى انتهى اليه سعد فى أخريات حياته ، وكان من آثاره انشقاق الوفد وخروج عدد من خيرة أقطابه على النحاس فى سياسته ، وانفصالهم عنه ٠ وتأخر حل القضـــية المصرية الى حين حتى حمل الشباب الأحزاب على الائتلاف ــ كما

قلنا ـ وتكونت الجبهة الوطنية ورأى الانجليز من صالحهم أن يبرموا اتفاقا مع المصـــريين يطمئنون فيه الى موقفهم ، فى وقت بدأت نذر السياسة الدولية توحى بخطر حرب قادمة ، ولكنهم اشترطوا أن يكون الاتفاق مع المصريين على اختلاف أحزابهم وهيئاتهم ، وصـــدر المرسوم الملكى بتأليف هيئة المفاوضات وانتهت بابرام معاهدة ١٩٣٦ .. لم ير الدكتور هيكل فيها جديدا فهى فى « مجموعها لم تخرج فى نظر كثيرين عن المبادىء التى وضعتها لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ ، فهى محالفة ـ كما يقول ـ أساسها دفاع انجلترا عن مصر فى الحرب، واقتصار معاونة مصر على تقدم المساعدة لحليفتها داخل حدود بلادها ، ولا يكون ذلك بالاشـــتراك الفعلى فى الحرب ، بـل بتقديم الموانىء والمطارات وطرق المواصلات لتكون تحت تصرف الجيش البريطانى » .

« على أن المفاوضين المصريين أرادوا أن يحافظوا على الشكل ما استطاعوا ، فجعلوا تعهدات الدولتين متساوية فى النص ، وان علموا علم اليقين انها لن تكون متساوية فى الواقع ، من ذلك تعهد كل من الدولتين المتحالفتين ألا تتخذ فى سياستها خطة تخالف سياسة الدولة الأخرى ، وطبيعى أن ذلك معناه ألا تتخذ مصر خطة تخالف سياسة انجلترا ، وقد دلت الحوادث من بعد على أن هذا هو الواقع وانه حيثما ارادت مصر أن تنهج نهجا خاصا فى سياستها لم يغير ذلك من سياسة انجلترا فى كثير ولا فى قليل ، ومن ذلك كذلك تعهد الدولتين بالتشاور اذا اضطرب الجو الدولى بالنذر لتتخذا خطة مشتركة ، وقد دلت الحوادث من بعد على أن انجلترا لا تغير خطتها تبعا لرأى مصر ، وهذا منطق الواقع » .

« وقضت المعاهدة على أن يجرى الجيش المصرى فى تسليحه ونظمه على نظام الجيش البريطانى ، ولهذا معناه الواضح ، كما أن تبادل الخطابات بشأن بعثة عســـكرية بريطانية تتولى تدريب

الجيش المصرى ، له كذلك معناه الواضح الذى لا يحتاج الى كد الذهن لتبينه ، والطريف كذلك فى المعاهدة أنها نصت على ارتباط مصر بتنفيذ ماسمته سياستها هى فى انشاء الطرق التى نسميها حتى اليوم طرق المعاهدة ، وقد أريد بانشائها تسهيل المواصلات للجيش البريطانى بين القاهرة والاسكندرية وبورسعيد » ..

ومع ذلك هلل الوفد للمعاهدة ، وأطلق عليه النحاس معاهدة الشرف والاستقلال ، ولما كان رئيسا للحكومة فقد أعدت هيئة الوفد مظاهرات ضخمة لاستقبال المفاوضين المصريين « وأقامت الحكومة اقواس النصر تمر من خلالها مواكب المفاوضين والدعاة للمعاهدة والقى مكرم عبيد باشا خطابا حماسيا فى قاعة الاحتفالات بجامعة فؤاد الأول(١) يحبذ به المعاهدة ويعتبرها نصرا مبينا » ..

ولم يكن كل ذلك مما يتفق وحقيقة المعاهدة ، فاذا كان الوفد قد عدها معاهدة الشرف والاستقلال ، وكأنها الاستقلال كله ، فقد كان محمد محمود وكان الدكتور أحمد ماهر يعدانها خطوة فى سبيل الاستقلال ،. ومازال الشوط بعيدا لتحقيق الاستقلال الكامل حتى لا يخدع الشعب عن حقيقتها ، وقد نصح الدكتور ماهر النحاس « بأن يعتبر توقيع المعاهدة خاتمة عهد وفاتحة عهد آخر ، وذلك بأن تندمج الأحزاب كلها فى حزب واحد على نحو ما حدث فى سنة ١٩١٩ ، ثم يترك للزمن أن يفعل بعد ذلك فعله فى تكييف الأمور ومجراها ، وتنظيم الأحزاب تنظيما جديدا فى مصر ، ولم يقبل النحاس باشا هذه المشورة فقد يترتب على قبولها أن تعدل الوزارة تبعا لتعديل

---

(١) كانت عندما انشئت تسمى الجامعة المصرية ثم أصبحت فؤاد الاول احياء لذكرى الملك فؤاد وبعد ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ أصبحت تعرف باسمها الحالى « جامعة القاهرة » كما اصبحت جامعة فاروق الأول جامعة الاسكندرية وجامعة ابراهيم جامعة عين شمس وجامعة محمد على بأسيوط جامعة اسيوط .

النظام الحزبى ، وأن تؤلف وزارة قومية كالتى وقف هو فى سبيل تأليفها منذ سنة ١٩٣٠ » ٠

فلما نوقشت المعاهدة فى مجلس البرلمان ، ولم يعارضها غير محدد من الأعضاء فى كلا المجلسين ، أما الدكتور هيكل فقد حللها تحليلا انتهى منه « الى أنها صورة محورة من مشروع ملنر والى أنها لا تحقق الاستقلال ، بل لا تصل بمصر الى مركز الدومنيون ، فيجب أن يصوت كل عضو فى الشيوخ عليها عن علم بحقيقة مداها ، فمن أراد الاستقلال أو نظاما كنظام الدومنيون فليرفضها ، ومن أراد خطوة فى سبيل الاستقلال فليقبلها » ٠

وقد أعلن الدكتور هيكل رأيه هذا فى الجلسة الصباحية بمجلس الشيوخ وكن من أعضائه المعينين ، وحال المرض بينه وبين جلسة المساء لأبداء الرأى عليها بالموافقة أو الرفض ٠

وكان على الأحزاب أن تسلك طريقا جديدا فى سياستها الداخلية وفى علاقاتها بعضها ببعض بعد أن استقرت العلاقات المصرية البريطانية على وضع يطول ولو الى أمد ، وكان على كل منها أن يضع برنامجه للمستقبل أمام الشعب ، وأن تتكاتف جميعا لبناء ديمقراطية سليمة تعمل للخير العام ، وقد كان للأحرار الدستوريين مبادئهم التى رسمها الوفد الأول لتحقيق الاستقلال يوم سافر الى باريس ليعرض قضية مصر على المؤتمر ، ولم يحاول أن يضع برنامجا حزبيا منذ قامت الحياة النيابية ولا بعد ابرام المعاهدة ، وبدا حرص الوفد على استقطاب الجماهير والتميز لانصاره منه للصالح العام ، وظل النضال الحزبى بعد المعاهدة كما كان قبلها « ولم يكن النضال الحزبى — كما يصفه ويأسى له الدكتور هيكل — منذ بدأ الخلاف بين سعد وعدلى قائما على أساس مبادىء متباينة تختلف فيها الأحزاب تأييدا ومعارضة ، بل كان قائما على فهم مخطىء لمعنى الحكم ،

فمنذ اليوم الذى قال فيه سـعد باشا انه يريد أن تكون الحكومة زغلولية لحما ودما ، فهم الناس ولايزالون ، مع الشىء الكثير من الأسف ، أن الهيئة القائمة فى الحكم تتولاه على أساس من محاباة انصارها ومحاربة معارضيها ، ولا تتولاه لحسـاب الجميع على سواء ، تقوم فيه بالقسط ، وترعى الذمة والعدل » .

« وجلى أن هذا ليس من الحزبية بمعناها السليم فى شىء ، بل هو تعصب ذميم من الحاكم لانصاره ومريديه الذين يدينون له ولو لـم يؤمنوا به ، وقوام هذا التعصـب المنافع أو الانتقام من المنافسين ، واذا قام حكم على هذا الأساس اضطرب فيه معنى العدل وتوارى سلطان القانون ، وأصبحت الأهواء والشـهوات صاحبة القول الفصل ، واضطر خصوم الحاكم أن يقاوموه دفاعا عن أنفسهم. فاذا نجحوا فى مقاومته وأنزلوه عن مناصب الحكم وقاموا فيه مقامه صنعوا ماصنع ، فاستمرت الحلقة المفرغة ، وظلت الحال فى شئون الدولة تسير من سىء الى أسوأ ، حتى تدرك الأمة نفسها أن المضرة الناشئة عن هذا التعصب الذميم لاحقة بها فى حاضرها ومستقبلها ، عند ذلك يقاوم الشعب هذه االنزعة ويحرص على أن يكون الحكم لمصـلحة الجميع لا لمنافع من يلونه ومن يناصـرون هؤلاء الذين يلونه » .

« وهذا الحكم القائم على التعصب لا يعرف فى الواقع شيئا اسمه المبادىء ، وانما هو نضال على منافع عاجلة ، يريد الأفراد أو تريد الهيئات تصيدها لمصلحتها ولو على حساب المصلحة القومية، ولهذا تنشأ عنه خصومات ذاتية عنيفة ، بل لهذا ترتكب فى سبيله جرائم شر الجرائم ، فالناس لا يختصمون الى حد ارتكاب الجريمة على المبدأ ، فالخصومة على المبدأ خصومة رأى لرأى ، وسـلاح هذه الخصومة مقارعة الحجة بالحجة ، ومحاولة اقناع الكثرة من أهل الأمة بهذا الرأى أو بذاك ، والحكم اذا قام باسم الجميع لحساب

الجميع ، فلا يجد أحد منه مغنما لنفسه ولانصاره ، بل يسعى القائم فيه لتحقيق ما يعتقده الخير لأبناء الأمة كلها من أنصاره وخصومه على السواء ، فلن تقوم من جراء الخصومة على الرأى معركة ولن ترتكب جريمة » ٠

ولم يتغير هذا الوضع الذى يصـــفه الدكتور هيكل ، وبقيت الحزبية قائمة على تلك الصورة ، الهوجاء ، وكأنما السلطة وحدها هى « المنصب الشريف الملذوذ » ـ كما يقول ابن خلدون ـ يهون فى سبيلها كل شىء ٠

وبقى الصراع الحزبى بعد المعاهدة كما كان قبلها يعوق التقدم وكان التحزب بديلا للحزبية فتهاوت الديمقراطية حتى هوت ولم تجد من يدفع عنها أو يدافع عن حسناتها ٠

كان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ بتحفظاته الاربعة وقيام حياة دستورية الثمرة التى خرجت بها مصر من ثورتها سنة ١٩١٩ ، وقد اعلنت انجلترا أنها لاتمارى فى بحث هذه التحفظات الأربعة والدخول مع مصر فى مفاوضات للوصول بها الى وضع ترضاه مصر ويحقق ما تصبو اليه من استقلال ، ففتحت أمام مصر باب المفاوضات ووضعت أمامها العراقيل فى كل مرة فكل ما تحرص عليه قائم محقق ولم يكن يعنيها من الأمور الا أن تعود مصر الى وحدتها القومية فى وقفة تحرج انجلترا وتهدد مصالحها ، وهو ما أدركه سعد زغلول فى آخريات حياته ، فراح يؤيد الائتلاف ليصونه حتى لايدع ثغرة للتدخل من جانب الملك أو من جانب المندوب السامى البريطانى ٠ ولعل النحاس لم يدرك هذه الحقيقة فبقى يرفض اى ائتلاف أو قيام وزارة ائتلافية حتى وان كانت برياسته ، وحين أرادت انجلترا أمام توتر الموقف الدولى أن تبرم اتفاقا يضـــمن لها مصـالحها ، كما

يضمن سكوت المصـــريين عنها أبرمته مع من يمثلون مصـــر من الحزبيين والمستقلين جميعا ، برغم فوز الوفد الكاسح فى الانتخابات وتأليف النحاس وزارته وفدية خالصـــة ، بعد أن رفض الوزارة الائتلافية ، فصدر المرسوم الملكى بتشكيل وفد المفاوضـــات ممثلا لكافة الاتجاهات ، كما رأينا ، وكان قمينا به وقد رضى بالمعاهدة اكثر مما رضى بها الآخرون ودعاها معاهدة الشرف والاستقلال ، ان يسمو بزعامته عن الحزبية ليكون زعيما لمصر جميعا ، وأن يضع برنامجا للوفد يصوغ فيه اطار العمل الداخلى لتقدم البلاد وقيام ديمقراطية سليمة ، يكون حفيظا عليها بالوقوف صفا واحد أمام نزعة السراى الأوتوقراطية واستغلالها أطماع الخلافات الحزبية ، وهو ما كان يرجوه الدكتور هيكل لقيام حكم ديمقراطى سليم «لحساب الجميع على سواء» يقوم فيه بينهم بالقسط ويرعى الذمة والعدل ·

اما وقد « قام الحكم على أساس المنـــافع يجتلبها الأفـــراد والهيئـــات لفائدتهم بالذات فقد ترعرعت الخصـــــومة ، وأفرخت الجريمة ، وذلك هو ما أدى بمصر الى ما تعانيه منذ سنة ١٩٢١ الى وقتنا الحاضر من شر ومضرة » ·

وبالرغم من ان النحاس قد أصبح أكثر تشددا مع الأحزاب ، فانه قد أصبح أكثر لينا مع انجلترا ، فسار فى غير الاتجاه الذى رحب به سعد زغلول وأيده بدعوته الى الائتلاف منذ عام ١٩٢٦ حين أجبره المندوب السامى على الاستقالة بعد حادث السردار ، وترك للملك الحرية فى قمع الاتجاه الشعبى ، ولم يكن من سبيل أمام سعد زغلول لتحدى السراى والانجليز معا غير الدعوة الى الائتلاف وتأييده ، وأعلن الشيوخ والنواب الوفديون حينذاك فى كتاب دورى الى كل أعضاء الهيئة البرلمانية أن كل اتفاق يبرم مع حكومة زيور أو أى حكومة غيرها لا تقوم على أساس دستورى ، لن يلزم المصريين أبدا · وكان ذلك انذارا لانجلترا منه للوزارة القائمة ·

الا أن الوفد فى سياسته الجديدة وبعد أن تولى رياسته النحاس، قد أدرك أن الحماس الوطنى « لن يستطيع بمفرده ـ كما يقول مارسيل كولب ـ أن يقهر ارادة لندن » فاتجه اليها فى مقاومته لحكومة محمد محمود ، وقد سلم بتصريح فبراير الذى ظل ينكره أساسا لمفاوضاته مع انجلترا ، وأعلن مكرم عبيد فى لندن أن المصـــريين لا يعادون الانجليز أو الأجانب ، وقد ذهب اليها ليثير الانجليز على حكومة محمد محمود ٠

والواقع أن المظاهرات الشعبية لم تعد تثير انجلترا كما كانت تثيرها من قبل بعد أن اضطلعت الحكومات القائمة بالتصدى لها ولم يعد التصدى لها يقع على عاتق الاحتلال ، وهكذا أصـــبحت دار المندوب السامى هى اللاعب الخفى على مسرح السياسة المصـرية سواء بالتدخل المباشر لجانب فريق على فريق أو التدخل غير المباشر بالتزام موقف الحياد فى موقف تجد الأمور تسير فيه على هواها ، ويرى مارسيل كولومب أن الرأى العام المصرى لم يتنبه لهذا الاتجاه الذى ينزلق اليه الوفد ، فهناك بون شاسع بين الاستقلال الحقيقى الذى كان ينشده الوفد وينادى به فى حماس خلال فى معاركه الأولى وبين ما قبله النحاس باشا فى مفاوضات سنة ١٩٣٠ ، ذلك أنها لا تختلف فى أصولها عما وصل اليه ثروت فى مفاوضاته مع تشمبرلين وقد رفضها الوفد حينذاك بالاجماع ، وقد قبل الوفد أخيرا فكرة الاســـتقلال على مراحـل وهى الفكرة التى نادى بها الأحـــرار الدستوريون منذ البداية ٠ وقد هلل لمعاهدة ١٩٣٦ أكثر مما كان من غيره ٠ ولعله قد رسم سياسته وقد فرغ من الانجليز أن يستأثر بالحكم ، وأن يحمل الملك الشاب على الأذعان له ، ولكن الظروف كانت مواتية له أكثر مما واتت أباه من قبل ٠

وبينما استقرت العلاقات الى حد ما بين مصر وانجلترا على حدود معينة ، فقد بقى « الخلاف على تعيين الحدود بالدقة بين حقوق

الملك بوصفه رئيسا للدولة ، وبين حقوق الأمة بوصفها مصدر السلطات كلها ، قائما » بعد ابرام المعاهدة ، واعتلاء الملك فاروق عرش مصر ٠

وقد ظن الوفد أن استقرار العلاقات بين مصر وانجلترا ، قد افسح له المجال للاستئثار دون الملك بالسلطة التى يخولها له الدستور مستندا الى ارادة الأمة التى تكفلها له الأغلبية البرلمانية ، ولعله لم يدرك أن القوى المؤثرة فى السياسة المصرية قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه من قبل ، ولعل أول هذه القوى انشقاق الوفد من داخله بخروج الصحف المناصرة له عليه ، وانقلاب أكبر كتابه ، عباس العقاد وعبد القادر حمزه على سياسته ، وان عوض ذلك بكتاب آخرين كتوفيق دياب ، وقفوا الى جانبه واخذوا يناصرونه ، ثم بخروج النقراشى وماهر وتكوينهما حزبا جديدا باسم « الهيئة السعدية » كان لها دورها المؤثر فيما بعد ٠

والى جانب انشقاق الوفد على نفسه ، كانت هناك شخصية الملك فاروق ، فقد استقبل عهده وسط هالة من الاعجاب والحب « فقد سحر الشعب ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ بهذا الشاب أول ما تولى الحكم لبهاء طلعته ، ولما تنم عليه هذه الطلعة من براءة ، ولأنه بدا فى صورة الملك الصالح الذى يؤمن بالشعب كل الايمان ، ويحب الشعب أشد الحب ، وقد تفاعل الشعب بهذا الشاب وعلق كبار الآمال على عهده ، ووهبه كل قلبه وكل حبه وخيل اليه أن الأمور ستسير من بعد فى أصلح طريق وأقومه » ٠

وبدا أن الوفد لم يلق بالا الى هذه المؤثرات الجديدة التى بدت وكأنها تقلب كل الموازين القديمة التى اقام عليها سياسته ، بل لعله لم يلق بالا الى قدرة الرجال الذين احاطوا بالملك أول ولايته كعلى ماهر وأحمد حسنين ، ولم يكن أولهما على وفاق مع الوفد ، وكان

الثانى ربيب السراى وبقى على الولاء للملك حتى مصرعه فى حادث سيارة سنة ١٩٤٦ ٠

وقد ظن الوفد أن خروج الانجليز من حلبة الصراع المباشر فى السياسة المصرية سيتيح له مغالبة السراى والتغلب عليها ، بل لعله ظن أكثر من ذلك أن الانجليز سيقفون الى جانبه فى أى خلاف يقع بينه وبين السراى بالرغم من أن دورهم قد تقلص كثيرا عما كان مادامت المعاهدة قد حددت لكل جانب دوره ، وان أثبتت الأحداث فيما بعد أن لهم السلطان الأعلى فيما لو مس المصالح البريطانية أى ضير ، لذلك بقى تدخل السفير البريطانى محدودا ، حتى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ حين أملى الانجليز شروطهم على الملك والأحزاب جميعا ٠ وتوالت الأحداث والأتوقراطية الملكية تكشف يوما بعد الآخر عن زيفها وتتهاوى معها شعبية الملك،وبدت الأحزاب وكأنها قد شاخت فضلت السبيل وكان نصيبها الخسران ٠

١٨ مصر بين عهدين

بدأت مصر بمعاهدة ١٩٣٦ فترة جديدة من حياتها اختلف فيها صـراع القوى عما كانت عليه من قبل ، فقد اختفى دور المندوب السامي السافر فى السياسة المصرية ، وقد أصبح بمقتضى المعاهدة سفيرا لانجلترا لدى مصـــر ، فلا تراه يتدخل فى تأليف الوزارات واسقاطها الا ما كان من تدخله فى ٤ فبراير ١٩٤٢ عندما لاح أن مصالح بريطانيا يتهددها الخطر ورأى أن يكون على رأس الحكومة المصرية رجل له تأثيره على الشارع المصرى ، وان لم يعد فى مثل قوته الأولى ، ولكنه مازال يتمتع بشعبية تفوق ما لغيره من الزعماء الآخـــرين ..

كما كانت الفاة الملك فؤاد الذى لم يظفر فى يوم من أيام حكمه بحب المصريين أو تقديرهم واعتلاء ولده وولى عهده فاروق عرش مصر وسط هالة من البشر والتفاؤل بملك شاب يوحى مظهره بالرجاء والأمل فى مستقبل من الخير والحرية للمصريين جميعا « وزادهم تطلعا وشوقا ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ الى تولى الملك الشاب

سلطاته الدستورية ما كان يتضوع به شبابه من نضارة وجاذبية ، استهوت أفئدة المصريين جميعا ، رجال ونساء وأحاطته بعاطفة من الحب الصادق لما ينم عنه هذا الشباب من براءة وطهر ، ومن الرجاء الخالص فى الله أن يجعل عهده حرية وسعادة للمصريين جميعا » ٠

وقد احتل فاروق فى قلوب المصريين بعض ما كان يمتلىء من ولاء لحزب الأغلبية ، وقدمه رجاله الى الشعب فى صورة الملك الصالح الذى يؤم المساجد ويقيم الصلاة ثم كان يوجه الأذاعات الى الشعب فى المناسبات الدينية ما زاده قربا من الشعب ، وما أدى بصورة خفية الى نوع من التنافس بين الزعامة الشعبية والزعامة الملكية ٠ وكانت الزعامة الشعبية قد تعرضت لنوع من الوهن بخروج قطبين كبيرين من أقطاب الوفد عليها ، النقراشى فى البداية وأحمد ماهر من بعده ليكونا حزبا جديداً باسم « الهيئة السعدية » بدت أقرب الى الملك من كل من الحزبين القديمين : الوفد والأحرار الدستوريون ٠

هذا الى ظهور عناصر جديدة كان لها أثرها فى تيار السياسة المصرية ، حين غدا لحزب « مصر الفتاة » الذى ألفه المحامى الشاب أحمد حسين ، صوت مسموع فى أوساط الشباب المثقف ، وصوت داو فى مسامع الحكام ورجال السياسة وان لم يبد له تأثير يذكر على القوى الشعبية ألف الشيخ حسن البنا جماعة الأخوان المسلمين،فاستحوزت على الاهتمام الدينى بين القوى الشعبية دون اهتماماتها السياسية ، الا أنهما ظلا بعيدين عن التأثير فى مجرى الحكم وان أصبحا مع الأيام مصدر قلق للحكام ٠

وفى تلك الآونة من تولى الملك فاروق عرش البلاد ، بدا محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين وصاحب « القبضة الحديدية » أقرب الى الشعب ، وأحرص على مصالحه من القوى الأخرى ، وقد شارك فى وفد المفاوضات لأبرام معاهدة ١٩٣٦ ، ورأى فيها . على

عكس الزعامة الوفدية ، خطوة نحو الاستقلال ، وليست معاهدة « الشرق والاستقلال » ، كما أمضه أن يتم الاتفاق « على أن يكون لقوات صاحب الجلالة البريطانية أن تستعمل موانى مصر ومطاراتها وطرق مواصلاتها لا فى حالة الحرب وكفى ، بل فى حالة خطر الحرب الداهم كذلك ، وفى حالة أية مفاجأة دولية يخشى خطرها • وان كان هذا الذى انتهى الاتفاق اليه مثار خلاف بين المتفاوضين المصريين ،حتى لقد ذهب بعضهم ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ الى ضـــرورة قطع المفاوضة •• وخطر الحرب الداهم •• أمر تقديرى بحث ، فاذا أمكن التسليم بنظرية معاونة مصر فى حالة الحرب الفعلية ، فالتســليم بحالة خطر الحرب الداهم فيه تجوز غير قليل ، أما التسليم بنظرية المفاجأة الدولية التى تخشى خطرها ففيه التجوز كل التجوز » •

ولم ير محمد محمود الانسحاب من وفد المفاوضات « بعد أن قبلت انجلترا اقتراحه بالنص على بذل انجلترا معــاونتها لألغاء الامتيازات الأجنبية ، وهو ما تم فى مؤتمر مونتريه على يد الوزارة الوفدية وحدها ، حين رأى غيرهم من أعضاء وفد المفاوضة مع انجلترا ، الا يتعاونوا فى ذلك مع الوزارة الوفدية ، بحجة « أن مسلك الوزارة فى الحكم ، وقيام الخصومة العنيفة بينها وبين المعارضة ، يجعل المناقشة ، حتى فى مسالة قوميةكالامتيازات ، غير ميسورة » بينما كان الدكتور هيكل « أميل بادىء الرأى للمشــورة بضــرورة التعاون ، ودعانى الى هذا الميل أن كان محمد محمود باشا صاحب النص الخاص بالامتيازات فى المعاهدة المصرية الانجليزين » • كما أخذ على عاتقة عندما تولى الوزارة أن يخفف عن كاهل مصر ما نصت عليه المعاهدة من نصيبها فى مد طرق المعاهدة وانشاء الثكنات العسكرية للقوات البريطانية فى منطقة القناة ، كما أخذ يفتح داره لاســتقبال شباب الجامعة الغاضب من وزارة النحاس ومن فصل ماهر والنقراشى من صفوف الوفد ، وكان الغاضبون من وزارة النحاس بين صفوف الشباب الجامعى أكثر عددا من الغاضــبين

لخروج ماهر والنقراشى من الوفد وتشيع بعض الشـــباب الوفدى لهما ، فاصبحت قيادة الشباب الجامعى لهم دون المتشيعين لخروج ماهر والنقراشى ، ووجدوا فى رحاب محمد محمود تاييدا وعونا .

وكنت حينذاك من هذا الشباب الثائر على حكومة النحاس ، وان لـــم أكن فى مثـل عنف زميلـــى عبد العزيز الشـــوربجى ، وعبد الوهاب حسنى الطالبين بكلية الحقوق حينذاك ، وكنت وزميلى المرحوم مصطفى السعدنى نتزعم هذا الاتجاه فى كلية الآداب ، وقد اعتصب طلاب الجامعة داخل الحرم الجامعى ، حين رأينا الدكتور هيكل قادما الى الجامعة . فتقدمت اليه وبعض الزملاء وحملناه على أكتافنا وهتفنا له ولم نتركه الا أن يلقى كلمة علينا ، فلم يزد على أن قال : « لقد ادت المعارضة واجبها ، فعلى كل مصـــرى أن يؤدى واجبه » وكانت تربطنى بالدكتور هيكل علاقات تمتد فضلاً عن الجانب السياسى ، الى الجانب الأسرى الذى ربط بين أســـرتينا فى مركز الســـنبلاوين وفى دائرة انتخابية كثيرا ما كانت واحدة منذ عهد الآباء ، وقبض على مع المرحوم الاستاذ محمود أبو رحاب الذى أصبح عضوا دستوريا بمجلس النواب ومازال طالبا بالجامعة ، واستطعت القفز من السيارة التى حملتنا الى قسم البوليس وتركت زميلى محمود أبو رحاب لمصيره ، وأحلنا مع زملائنا أذكر من بينهم الزميل حسن النشار من كلية الحقوق ، الى المحاكمة ، وصدر حكم القاضى بالغرامة مع ايقاف التنفيذ فى قضيتين ، واتهمتنا الصحف الوفدية بالشغب والعمالة .

وأذكر فى تلك الآونة أن الدكتور طه حسين كان قد اتخذ جانب الوفد وتصدر مجالس تاديب الطلاب ، فاجتمع طلاب كلية الحقوق للاحتجاج عليه فى مكتبه ، ووقفت دونهم لا أقبل أن يعتدى على كليتى من طلاب كلية أخرى،ولكنهم ظلوا يترقبون انصرافى ، فلما أطمأنوا اليه ، قاموا الى مكتب الدكتور طه حسين ، ووجهوا اليه كلمات عنيفة

وقلبوا بعض مقاعد المكتب ، وقد ادعى الدكتور طه حسين انهم قد اعتدوا عليه وهو ما لم يحدث ، وان نال بعض المحيطين به بعض الجذب والشد ، والاهانات المباشرة ٠

و « فى مساء اليوم نفسه ـ كما يروى حافظ محمود فى كتابه أسرار الماضى ـ جاء بضعة ألوف من صحاب القمصان الزرقاء الى الجريدة (السياسية الاسبوعية وكانت فى مقر الحزب) بشارع الشيخ بركات لتحطيمها ، ولم يكن بها سوى نحن الاثنين (هو والدكتور هيكل) فتسللنا الى الخارج ٠٠٠ وفى صباح اليوم التالى لم نجد فى هذه الدار كرسيا ولا مكتبا نجلس اليه ، لقد كانت هذه المظاهرة الزرقاء قد حطمت كل شىء » ٠

وأصبح محمد محمود هو اللاعب الأول على المسرح فى تلك الآونة على الرغم من السراى التى كانت تميل الى الدكتور أحمد ماهر وأن يكون له القياد ، ويروى الدكتور هيكل فى هذا الصدد ما يسفر عن هذا الاتجاه ، فيقول :

« وبدأ الناس يتحدثون فى مراكز الوزارة وفى حظها من البقاء، وكان الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الجامع الأزهر ، من مستشارى القصر فكان وثيق الاتصال بعلى ماهر باشا، قابلته يوما بمنزل لطفى باشا السيدبمصر الجديدة ، ودار الحديث حول من يخلف مصطفى النحاس باشا ووزارته وكان رأى الشيخ أن يخلفه الدكتور أحمد ماهر عضو الوفد ورئيس مجلس النواب ، لأن الدكتور ماهر يؤيد النقراشى باشا ، وغالب باشا فى موقفهما من النحاس باشا ومكرم باشا ، ولأن توليه الوزارة يؤدى الى انقسام الوفد وضعفه ، وكنا معشر الأحرار الدستوريين نطمع فى أن يتولى رئيس حزبنا ، محمد محمود باشا ، رياسة الوزارة المقبلة لأننا نحن الذين جاهدنا الوفد ، وقاومنا حكمه ، وأصابنا ارهابه بالأذى ، ولأن الدكتور أحمد ماهر لم يكن له حزب يناصره ، فاذا هو اختلف مع

النحاس باشا خيف أن يكون مصيره ومصير النقراشى باشا ، وغالب باشا ، كمصير الذين خالفوا النحاس حين الحديث عن الوزارة القومية فى سنة ١٩٣١ » ٠

وكانت السراى تأمل أن يتحطم الوفد بخروج ماهر والنقراشى عليه ، فان الاحتكاك بين الوفد والسراى فى عهدها الجديد كان قد بدأ غداة وفاة الملك فؤاد والتفكير فى مجلس الوصاية ، وفتح الوصية التى تركها الملك الراحل أمام مجلس البرلمان ، وكان للنحاس كلمته العليا فى اختيار أوصـــياء جدد غير أولئك الذين عينهم الملك فؤاد لأربع عشرة سنة خلت ، وحال دون تعيين زيور وأن لم ينجح فى اختيار نسيم بين الأوصياء ، فلما انقضى عهد الوصاية ، وفشـــل فى اقامة وزارة للقصر ، بعد أن وقف المندوب السامى البريطانى دون تحقيق ذلك ، وكان مجلس الأوصياء على وشك التســـليم للنحاس برغبته ٠

فلما تولى فاروق سلطاته الدستورية ، ووقف وراءه على ماهر واحمد حسنين يسندانه ٠ ويقدمانه للشعب فى صورة الملك الصالح المصلح ، بينما المعارضة تشهر بفساد الوفد ، وان استطاع الوفد أن يحول دون تتويج الملك فى حفل دينى ، كما رأت دوائر السراى . وترد السراى برفض تعيين يوسف الجندى وزيرا ، وتشجع الخارجين على الوفد وتمدهم بالتأييد ، وتصدر مرسوما ملكيا بتعيين على ماهر رئيسا للديوان الملكى من غير أن ترجع للوزارة أو تشاورها فى اختياره ، وتتهم المعارضة النحاس بالتجائه الى السفارة البريطانية يستنصرها على السراى ، ويحتج محمد محمود على ما أســـماه التدخل البريطانى ، وتنصح الأهرام للانجليز فى مقال نشـــرته فى ١١ اكتوبر ١٩٣٧ بعدم التدخل أو محاولة كسب امتيازات جديدة على حساب المعاهدة مما يثير سخط المصريين ٠

وفى لقاء بين الملك والنحاس يطلب الملك اليه حل القمصان الزرقاء لمجافاتها للأوضاع الدستورية ، وتبلغ الأزمة بين السراى والوفد مداها من الشدة حول تعيين شيخين خلت مقاعدهما فى مجلس الشيوخ ، فترفض السراى تعيين أحدهما ، وترشح بدله عبد العزيز باشا فهمى ، ولم يقبل النحاس ونشب حوار دستورى حول الحكمة فى تعيين الشيوخ ، وتشبث كل من الجانبين بموقفه ، واقترح على ماهر « حين استحكمت حلقة الخلاف ـ كما يقص الدكتور هيكل ـ أن يخرج الديوان والوزارة جميعا من هذا الموقف بالاحتكام الى هيئة محايدة من رجال الدستور والقانون تتألف ، وقد يسبغ عليها معنى البقاء ، وتكون أشبه بالمحكمة الدستورية العليا بالولايات المتحدة ، أو ما يشبه هذه المحكمة من هيئات دائمة أو مؤقتة فى بعض البلاد الدستورية تتولى الفتوى فيما يختلف عليه من مبادىء الدستور » ويرى الدكتور هيكل ، « أن مصر كانت يؤمئذ ، ولاتزال الى يومنا هذا ، بحاجة الى مثل هذه الهيئة ، والى أن تنشر قراراتها بأسبابها ، وأن يكون لها من الاختصاص ما للمجلس الخاص (Privy Council) فى انجلترا ، أو المحكمة الدستورية العليا فى الويالات المتحدة وأن يحترم الجميع قراراتها بصدق واخلاص ، وأن يكون للمعارضة وللحكومة وللقصر حق الاحتكام اليها فى كل خلاف دستورى » كما يرى أن « الاحتكام للشعب نفسه بالوسيلة الدستورية عن طريق الانتخابات ، أو بالوسيلة العرفية عن طريق الاجتماعات العامة والمظاهرات وغيرهما من أسباب التمهيد للمقومات الشعبية فأمر محفوف بالأخطار فى مثل مصر وغيرها من البلاد الواقعة فى دوائر النفوذ الأجنبية ، أو المهددة بأن تقع فى هذه الدوائر ، محفوف بالأخطار كذلك ، لأنه كثيرا ما ينتهى الى الديكتاتورية البرلمانية أو غير البرلمانية مما تتمخض عنه الثورات أو أشباه الثورات ، ومايؤدى فى كثير من الأحيان الى فتور الشعب برد الفعل ، حين يرى أن

مايبذله من التضحيات فى الأرواح والأموال لم ينتقل به فى ســـبيل الحرية خطوة الى الأمام » ٠

وقد كتب الدكتور هيكل هذا الرأى « فى النصف الثانى من سنة ١٩٥١ وفى الشهر الأول من سنة ١٩٥٢ ، أى فى عهد الملك السابق فاروق » اتراه كان يستقرىء الغيب فيما يمكن ن يلم بمصر من حدث كهذا ؟

ويرفض الوفد اقتراح رئيس الديوان « وقد يكون من الانصاف أن يلام الوفد على هذا التفكير » فلايزال ساسة الشرق ـ كما يقول الدكتور هيكل ، قبل أن يكون ســـياسيا أو حزبيـــا ـ أو كثرتهم ، يفكرون فى المسائل العامة وكانها بعض شئونهم الخاصة ، فلا تمتد ابصارهم الى ماوراء الحاضر ولا يعنون بالمبادىء لذاتها ، بل بما تجلبه لهم من عطف الجمهور اذ كان للجمهور اثر فى الحكم ، أو من رضا من يملكون بيدهم تولية الأمر لرجل أو لآخر ، ولهيئة أو لأخرى ٠٠٠ فهذا الذى ينادى بالاشتراكية لا يؤمن بشىء منها ، ولكنه يراها وسيلة صالحة للتظاهر ولكسب رضا من يعنيه أن يكسب رضاهم ، والذى يبدى من التشبث بالدستور ما تحســـبه صادرا عن عقيدة وايمان قد يكون فى دخيلة نفسه ديكتاتورى النزعة الى غير حد ، المبادىء عندهم اذن سلعة وليست عقيدة ، وهم يرفعون عقيرتهم بها ما آمنوا بأنها تحقق لهم مغنما ، فاذا خافوا من ورائها أى مغرم تناسوها ثم نسوها ثم انكروها اذا كان نقيضها يجر الغنم » ٠

أليس ما قاله الدكتور هيكل منذ ثلاثين عاما هو ما يحدث اليوم فى كثير من البلاد العربية وبلاد العالم الثالث ؟

وانتهى الخلاف بين الوزارة والسراى باقالة الوزارة ، وكانت نهاية عهد وبداية عهد جديد فى تاريخ مصر سادته أوتقراطية ملكية انفردت بالميدان ، بعد أن اتخذ الجـــانب البريطانى موقف الرقيب

فيما يتصل بشئون مصر الداخلية ، وقد انتهت الامتيازات الأجنبية وأصبحت مصر عضوا فى عصبة الأمم لتستقيل بعد عامين من اقالة وزارة النحاس مغارم الحرب العالمية الثانية ، و ، كان يسيرا أن يرى ساسة مصر أن وطنهم يصهر فى بوتقة الحرب صهرا عنيفا ... وأن رحمة الله هى التى انقذتنا .. وانا اذا أردنا أن نقى جيلنا وأن نقى الأجيال التى تعقبنا من التعرض لمثل هذه الكوارث فقد وجب علينا أن ننسى وننكر ذواتنا وأن نعتبر بما حدث فنعقد الخناصر لنتعاون جميعا حتى نجعل من مصرنا أمة عزيزة الجانب يخطب ودها الجميع ، لكنا بدلا من ذلك قصــرنا تفكيرنا على ذواتنا ، وقدمنا خصوماتنا على أسباب التفاهم بيننا ، ونسينا أن استعلاء بعضنا على بعض يضعفنا جميعا ويضــعف وطننا معنا ، واندفعنا كذلك تحركنا انانيتنا متوهمين أن هذه الأنانية هى مظهر ثقتنا بأنفسنا ، متناسين أن الثقة بالنفس تختلف عن الأنانية كل الاختلاف ، لأن الثقة بالنفس لا تتنافى مع الثقة بالغير والتعاون معه ، حين لا تعرف الأنانية الغير ولا تثق به وان كان من أكرم أبناء الوطن وأنزههم وأشدهم له حبا واخلاصا ، والأنانية تأبى لذلك أن تتعاون مع الغير ، اللهم الا لتخدعه وتستثمر جهده لحسابها ، ولهذا لا سبيل مع الأنانية الى عمل مشترك منتج يشعر كل فرد من المشتركين فيه بأن حاجته الى اخوانه لا تقل عن حاجتهم اليه ، وبأن صدق الاخلاص فى هذه الشركة هو الوسيلة لا وســيلة غيرها ليؤتى العمل ثمراته لخير الجميع ، ولخير الوطن الذى يظل الجميع » .

وقد حفل هذا العهد الجديد بشتى التيارات الفكرية والسياسية وبكثير من النشاط المتباين « وبعض هذا النشاط هدام مدمر وبعضــه بناء معمر » .

وفى تلك الفترة انتقل الدكتور هيكل « من مرصد الصحافة ـ

كما يقول ـ لأكون وزيرا ثم رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ثم رئيسا لمجلس الشيوخ ·

وفي اكثر سنوات تلك الفترة التي امتدت خمسة عشر عاما سادت الأحكام العرفية احد عشر عاما طوالا « عطل خلالها ماكفله الدستور من صور الحرية ، وتعرض الناس في اثنائها في اشخاصهم واموالهـــم لصــــور من العدوان ضــــاقت بهــــا نفوســــهم » حيــث اختيـــر وزيـــرا للدولــــة في وزارة محمد محمود التي خلفت وزارة النحاس المقـالة ، ثــم وزيرا للمعارف في تشـكيلها الثاني واجراء الانتخابات التي اسفرت عن اغلبية نسبية للأحرار الدستوريين ، وبقي وزيرا للمعارف في الوزارات التالية التي اعاد تاليفها محمد محمود ، حتى ١٨ اغسطس ١٩٤٠ ، حيث حل محله محمود فهمي النقراشي في وزارة علي ماهر التي خلفت وزارات محمد محمود ، وعاد اليها في وزارة حسن صبري في ٢٧ يونية من نفس السنة وفي وزارتي حسين سري الأولى والثانية حتى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، حين فرض الانجليز على الملك ان يؤلف النحاس الوزارة ويبقى بعيدا عن الوزارة ، حتى يعود اليها وزيرا لوزارتي المعارف والشئون الاجتماعية في وزارة احمد ماهر حتى ١٥ يناير ١٩٤٥ ، وكان هذا آخر عهده بمنصب الوزير ، حيث اختير رئيسا لمجلس الشيوخ في ١٩ يناير ، وكان قد عين عضوا به ٨ مايو ١٩٣٦ ، وبقي رئيسا للشيوخ حتى صدرت مراســـيم ١٧ يونية ١٩٥٠ في وزارة النحاس الأخيرة بتعيين رئيس آخر للشيوخ واسقاط عضوية آخرين، وكان ذلك آخر عهده بالمناصب الرسمية ، ويذكر انه شغل منصب وزير المعارف « ثلاث فترات امتدت الى ثلاثة واربعين شهرا ، وكنت وزيرا للشئون الاجتماعية ثلاثة اشهر واياما » ·

وبانتقال الدكتور هيكل من الصحافة الى الوزارة ، يتغير مجرى حياته تغيرا جوهريا ، ـ كما يقول ـ لثالث مرة « منذ بدأت حياتى العملية ، اشتغلت بالمحاماة من شهر ديسمبر سنة ١٩١٢ ، واشتغلت بالصحافة من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وكنت أكتب فى الصحف وأؤلف الكتب منذ كنت طالبا بالحقوق . وها أنذا أبدأ حياة جديدة هى حياة الوزير ، وأبدأها وزير دولة فى وزارة الداخلية ، على أننى لم أتهيب هذه الحياة الجديدة ما تهيبت المحاماة ، ثم ما تهيبت الصحافة ، ويرجع ذلك الى سببين ، أولهما : مامر بى الى هذه السن من تجارب الحياة مما جعلنى أنظر الى كل ما يواجهنى فى الحياة مطمئنا ، مقتنعا بالقدرة على اجتيازه فى سلام وطمأنينة ما توافرت لى سلامة الجسم وراحة الضمير ، والثانى : أننى لم أكن اضطلع بعبء الوزارة منفردا بتبعاتها انفرادى بتبعات المحاماة، أو بتبعات رياسة التحرير ، بل كنت زميلا لخمسة عشر وزيرا يحملون معى عبء اسئولية ، وكنت وزير دولة لا تحدد مسئوليتى وزارة بعينها ، وكنت وزير دولة مع زملاء ثلاثة أعلى منى سنا وأكثر تجربة فى الحياة » . وكان هؤلاء الثلاثة الذين اختيروا وزراء دولة دون أن تسند اليهم وزارة بعينها ، هم : عبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ، ومحمد حافظ رمضان ، وكانت بحق وزارة كبرى ـ Un Grand Ministere ـ كما أرادها محمد محمود أن تكون ، وكأنما أراد له القدر أن يكون ندا لهؤلاء الكبار الذين سبقوه الى الحكم ، وقد عرف « من بعد أن هذا المنصب الذى ألقيت الى أعباؤه كان مقصودا اسناده الى حلمى عيسى باشا بوصفه رئيسا لحزب الاتحاد ، أسوة بحافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، وأننى كنت سأتولى وزارة الأوقاف ، وأراد حلمى باشا أن يتولى وزارة بذاتها فأسندت اليه الأوقاف ، وقد دلت الحوادث من بعد على أن ما حدث من ذلك كان توفيقا أراد الله به الخير الوفير لى ، فله الحمد جل ثناؤه وتعالت أسماؤه » .

وشغل الدكتور هيكل وزيراً للدلة ، بوزارة الداخلية ، الى جانب محمد محمود « ليتفرغ ما استطاع لشئون الرياسة » · وفى تلك الفترة القصيرة ، كان أهم ما شغل به تنظيم الحملة الانتخابية ، وقد ألقى على عاتقه النصيب الأوفى منها ، وقد رآه يتفق مع ميوله ومع حياته الماضية ، فلما انتهت الانتخابات وأعيد تأليف الوزارة ، اختار أن يكون وزيرا للمعارف وكان له فيها دور وأثر ·

١٩ في وزارة المعــارف

وكان أول ما فكر فيه أن يحـــرر الوزارة من نظام المركزية الجائر ، هذا النظام الذى « يتنافى من ناحية مع مبدأ تقسيم العمل ، وهو مبدأ ثبت صلاحه فى كل الأعمال ، ويتنافى من ناحية أخرى مع كرامة الموظف اذ يسلبه كل مســئولية ويجعله مجـرد أداة طيعة لا تعرف المسئولية ولا تحملها » ..

ورأى من كبار موظفى الوزارة نوعا من المعارضة الخفية ، اذ أن نظام اللامركزية يحد من سلطانهم ، وان كانت حجتهم ـ كما قالوا ـ « أن موظفى الوزارة الذين يمكن أن يعهد اليهم بتنفيذ هذا المشروع لم يألفوا حمل المسئولية ، فاذا حملوها اضطربوا ، وكان أغلب الظن أن يسيئوا اســتعمالها وهم لذلك يرون أن فكرة اللامركزية سابقة لأوانها » .

ولم يكن هذا مما يفوت على الدكتور هيكل ، وهو العليم بطبائع النفوس ، وبما ينطوى عليه المصريون من ذاتية ، كانت سببا فيما

أصاب الحياة السياسية من أوضار ، منذ شارك فيها فى مطلع الحياة النيابية فى مصر ، وكثيرا ما أشار اليها فى السياسة · فنراه ـ كما يقول ـ يبتسم لما سمع فيما بينه وبين نفسه ، ويذكر حديثا « أفضى الى به لطفى السيد باشا حين كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٢٨ ، ذلك أن وزير المعارف الذى سبقه جمع كبار رجال التعليم فى الوزارة ، وطلب اليهم ابداء الرأى فيما اذا كان الامتحان الملحق مفيدا للتعليم أو ضارا به وكان هؤلاء الكبراء من رجال التعليم يعلمون أن الوزير يرى ضرورة الامتحان الملحق لاعتبارات حزبية ، ولذا وضعوا مذكرة اضافية وقعوها جميعهم ، تؤيد بحجج وأسانيد مختلفة أن الامتحان الملحق ضرورة لا يستقيم التعليم الا بها ، وبعد أسابيع من ذلك تغيرت الوزارة وتولى لطفى باشا وزارة المعارف ، وكان رأيه على خلاف رأى سلفه ، فجمع هؤلاء الكبار من رجال التعليم أنفسهم وعرض عليهم الموضوع من جديد فوضعوا مذكرة وقعوها جميعا تؤيد بحجج وأسانيد مختلفة أن الامتحان الملحق ضار بالتعليم أبلغ الضرر ، وأنه يهبط بمستوى التحصيل العلمى هبوطا فاحشا » ·

ولم يفض الدكتور هيكل بهذا الذى حدثه به لطفى السيد الى رجال الوزارة الذين بدت منهم بوادر المقاومة لمشروع المناطق التعليمية ، ولم أقل لهم أن الذين وضعوا القرارين المتناقضين عن الامتحان الملحق ، انما وضعوها لأنهم لم يتعودوا حمل المسئولية ، بل تعودوا مجاراة الوزير القائم فى رأيه ، والمسارعة الى اجابة رغباته ، لأنه كان الحاكم المطلق فى الوزارة ، والحكم المطلق يسلب ويقتل الرأى الحر ، بل قلت لهم : ان أول واجب على رجال التعليم أن يعلموا الناشئة حمل المسئولية ، فاذا لم يتعودوا هم حمل المسئولية عجزوا عن تعليم غيرهم حملها ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، ونظام المناطق وما يترتب عليه يؤدى الى أن يتعود رجال التعليم جميعا حمل المسئولية ، واذ كان رجال التعليم هؤلاء قد ألفوا مجاراة

الوزير ، فقد اقروا ما قلت ، وان بقى فى نفوسهم المضـــض لأنهم سيحرمون سلطانا ألفوا التمتع به » ٠

وما كانت تلك النزعة الى السلطة قاصرة على رجال التعليم وحدهم ، بل رآها الدكتور هيكل بعض ما أصاب الحكم من خلل ، وما أصاب النفوس من بوار يدعو الى سوء الظن بكل عمل حسـن ونافع أن تكون وراءه منفعة شخصية لصاحبه ، فقد رأى أن « وزارة المعارف تنفق فى تلك السنة ، سنة ١٩٣٨ مائة الف وسبعة آلاف من الجنيهات ايجارا للأماكن التى تأوى الكثير من مدارسها الابتدائية والثانوية والفنية ، وكان الكثير من هذه الأماكن غير صالح صحيا او فنيا للغرض الذى استؤجر من أجله ، ولو اعتبر مبلغ مائة الف وسبعة آلاف فائدة لرأس مال قدره أربعة ملايين من الجنيهات ، وتكلفت الدولة بتقديم الأراضى اللازمة للبناء ، لاستطاعت الوزارة أن تقيم مبانى أكثر عددا من المبانى المستأجرة ، وان تقيمها صالحة من الناحيتين الصحية والفنية للأغراض التى تنشأ من أجلها ، لاحظت ذلك وأفضيت بملاحظتى الى بعض الأصدقاء ، فأقرونى على رأيى على شريطة ألا تتولى مصلحة المبانى الأميرية الأمر ، وأن يتولاه مقاولون تشرف وزارة المعارف نفسها على عملهم ، حتى يتم فى الوقت المناسب وعلى الوجه الصالح ٠٠٠ ولم أكن أستطيع تنفيذ هذا العمل بقرارات وزارية ، كما نفذت مشروع المناطق ، بل كان لابد لى قبل البدء فيه أن ألجأ الى مجلس الوزراء والى البرلمان ، وأردت أن أبدأ الخطوة الأولى فاكسب تأييد رئيس الوزراء ، فأفضيت بالأمر الى محمد محمود باشا ، فاستحسن الفكرة وأقر مبدأها ، لكنه لم يوافق مع ذلك على المضى فيها بسبب وقفت أمامه عاجزا عن كل مناقشة ٠ قال : ان ما تريد أن تقوم به حسن ونافع لا ريب ، ولكن أسمع رأيى وتجربتى ان خصومنا لن ينظروا الى الموضوع من ناحية فائدته ، بل سيقولون أنك اندفعت الى التفكير فيه بتأثير جماعة من المقاولين ذوى المصلحة فى دفعك اليه،وقد تتهم باطلا بأن لك فى تنفيذه مصلحة

مادية ، فانصحك نصيحة صديق يحبك أن تترك هذا الموضـــوع ولا تفكر فيه » .

ويقول الدكتور هيكل ، انه وقف « عاجزا عن كل مناقشة ازاء هذا الاعتراض ، فلا شيء يزعجني ما تزعجني الشبهة وان كانت ظاهرة البطلان » .

وتواجهه مشكلة نشر التعليم الالزامي على أوسع نطاق ، فقد بقي حتى ذلك الوقت ، وبعد ثلاثة عشـــر عاما ، من بدئه « نفاذا للدستور من سنة ١٩٢٥ ، لا يستوعب الى سنة ١٩٣٨ غير « ربع الأولاد والبنات الذين يقضي قانون الإلزام بتعليمهم ، بل لقد بقيت مناطق كثيرة من بلاد الدولة معفاة من الخضوع لقانون الالزام لعدم توافر الأماكن ، أو لعدم توافر المعلمين ، أو لأن البيئة لم تكن تسيغ هذا الالزام الذى نص عليه الدستور وصدر بتنظيمه القانون ، ولو اننا جرينا على هذه السنن لما استطعنا أن نمحو الأمية من البلاد في اجيال متعاقبة » :

فلما رأى الميزانية لا تسمح بالتوســـع في هذا التعليم طلب تعزيزها ، فما كان يرى « أن ننفق في الكماليات مئات الألوف ، بل الملايين ، ونترك ملايين من ابناء الأمة رازحين تحت عبء الجهـــل المطبق » وأسفر البحث « عن أن الميزانية لا تطيق اعتمادا يزيد على سبعين الفا » .

وقام رجال التعليم الألزامى ، حين ســـمعوا بهذا التعزيز ، يطلبون تحسين حالهم بزيادة مرتباتهم ، ولو وزع عليهم هذا التعزيز لما أصاب الواحد منهم « في العام ثلاثة جنيهات » في حين أنه قد يكفي لانشاء « عشرين أو ثلاثين مدرسة يتعلم فيها الف طفل » وقد حصل على هذا الاعتماد من وزارة المالية للتوسع في التعليم الألزامى ولا يحب أن يعدوه الى غيره ، ويعدهم بأن يطلب « اعتمادا جديدا لتحسين حال هؤلاء الذين يطلبون الإنصاف ، وهم وحظهم من بعد »

وتجيئه « كبيرة الطبيبات بوزارة المعارف ، وكانت انجليزية ، وقالت : بلغنى أن الوزارة تريد أن تنشىء مدارس الزامية جديدة ، ولست اعترض على ذلك بطبيعة الحال ، لكننى أضع تحت نظرك تقارير التفتيش الصحى بالوزارة لتدخلها فى حسابك ، فهذه التقارير كلها تشير الى أن التعليم الألزامى لا يكاد ينتج أية نتيجة تعليمية ؛ لأن الأولاد يذهبون الى المدارس فى أسمالهم البالية ، ولم يتناول أحد منهم لقمة يسد بها رمقه لفقر ذويهم ، ولا يستطيع طفل جائع ويكاد يكون عاريا أن يفهم شيئا مما يدرسه ، فاذا جاءت ساعة الظهر لم لم يجد طعاما لغذائه غير كسرة من الخبز ان اقامت الحياة ، وأبقت على صاحبها ، فليس فيها ما يدعو الذهن للاستفادة من التعليم ، لهذا انصح بأن تنفق المبـــالغ التي تعتمد للتعليم الألزامي لتغذية الأطفال ، فذلك أكفل بأن يكونوا يوما رجالا تســـتفيد الدولة من سواعدهم » .

وتتواكب هذه المشاكل امامه ، فيمضى فى انشاء المدارس على الاعتماد الذى خصص لها ويحيل انصاف معلمى الألزامى الى وزارة المالية ، أما تغذية التلاميذ فيتولاها بنفسه مع لجنة لبحثها « وكانت العقبة التى واجهتها هى بعينها العقبة التى أشار اليها الألزاميون : المال ، فالذين يذهبون الى المدارس الألزامية يزيدون على المليونين ، فاذا كانت تغذية الطفل تتكلف قرشـــا واحدا فى اليوم ، أى ثلاثة جنيهات ونصف فى العام ، وجب تدبير سبعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات سنويا لهذا الغرض ، فاذا زاد عدد التلاميذ على توالى السنين زاد هذا الاعتماد بما يكاد يعجز الميزانية . ماذا نصنع ؟ لم نستطع يومئذ التغلب على المشكلة ، وهى لاتزال قائمة الى اليوم » .

وحين أخذت الوزارة بتغذية تلاميذ المدارس الألزامية أواخر الخمسينات ، وقد تحولت الى مدارس ابتدائية بعد توحيد المرحلة الأولى للتعليم ، كانت تغذية قاصرة ، جافة وغير مطهية ، وأتيح لى

حين كنت مسـؤولا عن التعليم بمحافظة بنى سويف وبعض مناطق القاهرة أواخر الستينات أن أكتشف بعض ماكان يحدث من تلاعب فى اعدادها وصرفها ، منها مثلا أن عدد المنتظمين من التلاميذ والمقيدين بكشوف الحضور كانت تزيد عن العدد الحقيقى للحاضـرين فعلا وجبة هؤلاء المقيدين الغـائبين تذهب الى غير أصحابها فقد كانت الوجبـة جـافة ومن اليسـير الانتفـاح بما يفيض منهـا للعاملين بالمدرسة ، أو اقتسام ثمنها بين المدرسة والمخبز الذى يقوم باعدادها ، وقد أثار ذلك على ثائرة المنتفعين بما يلجاون اليه من شكايات كيدية لم أبه بها وكان عقابهم صارما ٠ وان سببت لى بعض المتاعب كان غيرى يتوقاها بالسكوت عنها ٠

ومن قبيل ذلك ايضا ، ما كشفته من تحايل والاعيب فى الأبنية المدرسية ، فقد جرى العمل فيها على أن تعهد بها وزارة الاسكان الى المقاولين ، وأن تقوم المديرية التعليمية بالانفاق وكانت هى جهة الصرف ، فكان المقاولون يتنفعون بهذا المال فى تنفيذ مشـروعاتهم الخاصة ويترب على ذلك الأبطاء فى تسليم المبانى المدرسـية فى موعدها ، فما أن اكتشفت ذلك حتى أوقفت صرف المتأخرات الى المقاولين حتى يتم تسليم الأبنية فى الوقت المحدد لتسليمها ، وكثيرا ما كان المقاولون يقومون بوضع الأساس ويطلبون المزيد لاستكماله ولا يكملونه ، وقد جاءنى يومها مدير عام الاسكان بالمحافظة يرجو خجلا أن أذن لهم بالصرف ، فحاسبته على ما أتموه وما أخذوا ، وكان يعلم أنهم لم يفوا بما كان عليهم أن يفوا به مقابل ما صرف لهم من مال ، وانصرف الرجل خجلا من موقفه وكان أن تسلمت الأبنية فى الموعد المحدد ، ولولا هذا الاجراء لبقيت دون تسليم حتى يفرغ المقاول من أعماله الخاصـة لها ٠ وكان أعضـاء الاتحاد الاشتراكى ممن يساندون مثل هذا المقاول وغيره مما يعوق الصالح

العام ويخضـــع له كبار الموظفين تحت ســـطوة المنتفعين أو من يشاركونهم ٠

ومن ذلك أيضا أن أئمة الاتحاد الاشتراكى فى المحافظة وأذنابهم قد فرضوا سلطانهم على كبار الموظفين فى شتى المصالح ، وجاء الى نظار المدارس ورؤساء الادارات يشكون من تدخلهم فى أعمالهم فمنهم من كان يطلب نقل مدرس من مكان الى آخر انتقاما منه أو ايثارا له ، وبلغ ببعضهم الأمر أن كانوا يقتحمون المدارس دون اذن من نظارها للتفتيش على المدرسين حين القاء دروسهم ، وكان بعضهم ممن لا يحمل مؤهلا على الاطلاق ، ووجدت من حسن الرأى أن أجمع الفريقين للاتفاق على صورة من صور التعاون بينهم وبين نظار المدارس ، فلم يزدهم ذلك الا كبرا واستعلاء ومكابرة فيما لهم مما ظنوه حق الولاية على مصالح الشعب ، وما كانوا ينشدون غير مصالحهم الخاصة والاعلان عن السلطة والتميز لأنفسهم ، ولم أجد بدا من أن أطلب الى النظار أن يمنعوهم من اقتحام مدارسهم دون اذن ، وليعتبروا ذلك أمرا منى به ٠

وكان مديرو التعليم فى المحافظات يخشونهم ويتملقونهم بعد أن أخذت الوزارة جانبهم على رجالها وأذكر أن رجلا فاضلا من مديرى التعليم قد نقل مرتين لشكوى الاتحاد الاشتراكى وانتهى أمره بالنقل الى ديوان الوزارة بلا عمل ، هذا المدير الفاضل كان من الرعيل الأول من المبعوثين الى أوربا وكان زميلا للوزير الفاضل ذى الخلق الرفيع أحمد نجيب هاشم ، هو المرحوم متولى بدوى الذى توفى ودفن فى أمريكا مهاجرا هو وأولاده بعد احالته الى التقاعد ٠

ما كنت أحب أن أعرض لمثل ذلك فى كتاب عن أستاذى الدكتور هيكل ، أما وقد أشار فى الكثير مما كتب عن أوضار الذاتية وشهوة الحكم والاستبداد اذا ما صار الينا الأمر ، وما بقى فى نفوسنا من ميراث الماضى ، « حين نرى الحكم – كما يقول – خير فرصة لشفاء

ما فى نفوسنا من حب للتحكم والاستبداد ·· لم يتأصـــل الايمان بالديمقراطية فى نفوسنا ·· ولهذا نضج بالشكوى من ظلم الحاكم . فاذا آل الحكم الينا ظلمنــــا كما ظلم » ·· وطبيعى ألا تتفق هذه الصورة من صور الحكم مع أى معنى من معانى الديمقراطية ··· ولايزال بعض ساسة الشرق أو كثرتهم يفكرون فى المســـائل العامة وكأنها بعض شئونهم الخاصة ·· »

فاذا عرضت لمثل ذلك فلأننى أجد أننا لم نتغير كثيرا عما كنا عليه ·· ومازلنا حكاما ومحكومين تعوزنا الغيرية والصـــالح العام بعيدا عن شهواتنا ونزوات نفوسنا ·

ومازلنا حتى اليوم نواجه من مشـــكلات التعليم والثقـــافة ما واجهه الدكتور هيكل من قبل ، ولعل بعضها قد ازداد حدة عما كان عليه من قبل ، فمازالت مشكلة الأمية تقض مضاجعنا ، ومازالت أكثر ابنية التعليم على ماهى عليه من سوء ، بل أن الصالح منها قد اعتراه الأهمال وسوء التخطيط ، فحرمت المدارس القديمة ملاعبها الرياضية ومرافق النشاط التى تحتاجها ، بعد أن زحفت عليها ابنية الفصول التى يحتاجها التلاميذ فى دروسهم ، وغدت المدارس اشبه بالمحابس بما اكتظ فيها من تلاميذ ، وتهاوت الثقافة وتهاوت معها اللغة العربية ، لغة البلاد القومية « فاللغة من مقومات حياة الأمة ، واتقان اللغة القومية أساس من أجل أسس التقدم ، فاذا استطعت أن أضع حجرا متينا فى هذا الأســـاس أديت لقومى واجبا يجعلنى مستريح الضمير أن وليت وزارة التعليم » ·

ولعل من قبيل المصادفة أن يكتب شيخ الصـــحافة المصرية ومؤسسها الحق الأستاذ مصطفى أمين فى « فكرة » فى اليوم التالى لكتابتى ذلك بجريدة الأخبار ــ ٢٣ يناير ١٩٨١ ــ يقول :

« كانت أيام تلمذتى أياما جميلة ، أفتح الصحف فأجد قصيدة لأحمد شوقى أو حافظ ابراهيم ، وأجد مقالا للعقاد ، وتوفيق دياب

وعبد القادرة حمزه ، ودكتور هيكل ، واجد نقدا ادبيا بقلم طه حسين ، وأقرأ نقدا مسرحيا شائقا لمحمد التابعى ، واستمتع بمقال يصف حفلة أم كلثوم بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى أصبح فيما بعد شيخا للأزهر .. وأسمع باعة الصحف ينادون (فكرى اباظة ، الأهرام) فقد كان مقال فكرى أباظة يبيع الجريدة أكثر مما يبيعها نبأ سقوط الوزارة وكان فى المدرسة الثانوية ملعب لكرة القدم ، وملعب للتنس ، وملعب لكرة السلة ، وفريق للشتيش ، وفريق للسباحة . وكان فى فرق المدرسة فريق كشافة وفريق جوالة ، وكنت عضوا فى فرقة التمثيل ، وكان يدربنا الممثل المشهور أحمد علام ، وكنت عضوا فى فرقة الموسيقى وكان يدربنا الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وكان لدينا جمعية رجلات ، وجمعية تصوير ، وجمعية خطابة ، وجمعية لتعليم التلاميذ صناعات بسيطة كالحدادة والتجارة ، والسباكة ، وجمعية للزراعة ، وكان الشباب يفرغ طاقاته فى هذه الجمعيات . والآن يوجـــد مدارس كثيرة ليس فيها حوش واحد ولا جمعيـــة واحدة ... » ..

أجار بنا القصد أم ضللنا السبيل ، وقد صارت أمورنا لايدينا ؟ هذا ما يجب أن نتبصره ، حتى نهتدى الطريق على نور وبصيرة ، فالعيب فينا وفى نفوسنا ، من يوم حولنا الحزبية الى تحزب ، ومن يوم أن جرى الحكم دائما لمنافع الحاكمين دون مصلحة المحكومين وهو ما ضمنه آخر خطاب سياسى القاه الدكتور هيكل فى ٧ نوفمبر ١٩٥٠ ، بقوله :

« ويجب أن يقوم الحكم دائما لمصلحة المحكومين ، لا لمنافع الحاكمين ، ويجب لذلك أن يكون هدفه تحقيق الطمأنينة الى العيش عند العدد الأكبر من أبناء الأمة من الفقراء والمتوسطين من الفلاحين والعمال والموظفين الحكوميين وغير الحكوميين ، فهؤلاء هم عماد الأمة ومظهر قوتها فى السلم والحرب على أذرعهم وعلى عقولهم

وعلى قوتهم المادية والمعنوية يعتمد الانتاج القومى فى مختلف صوره، فاذا لم يطمئنوا الى العيش ضعف هذا الانتاج ، ولهذا يجب أن تكفل الحكومة للموظفين ولغير الموظفين حداً أدنى لمستوى المعيشة ، أقله ما كان قبل سبتمبر سنة ١٩٣٩ حين أعلنت الحرب العالمية الأخيرة ، فليس هذا بالمستوى الرفيع ، ولكنه بعض ما تطمئن له النفوس ، وتنشط معه للقيام بالعمل والانتاج على وجه صالح ·· ويجب أن نصحح أوضاعنا الدستورية ·· أريد بتصحيح الأوضاع الدستورية أن يجرى الحكم فى مصر على النحو الذى يجرى عليه فى انجلترا وغير انجلترا من البلاد البرلمانية ، وأن تسود فيه الروح الدستورية بالمعنى الصحيح ، أليس يحرم الدستور على الوزراء أن يشتروا أو يستأجروا شيئا من أملاك الحكومة ولو كان بالمزاد العام حماية لهم من تهمة استغلال النفوذ ؟ فلابد كذلك من تشريع يحرم على الوزراء وعلى مجلس الوزراء ترقيـــة أقـــرباء الوزراء وذويهم بالاستثناء ، متابعة لفكرة الدستور فى حماية الوزراء من أن ترقى اليهم الشبهة وأن تهموا حين تصرفهم فى الأموال العامة ·· »

لم تكن ولاية الدكتور هيكل لوزارة المعارف هينة أو سهلة ، وقد ساقنا الاستطراد الى ذكر الحاضر وما كان من قبل حتى يتبين شباب هذا الجيل ، وقد غاب عنه الماضى فى غياهب السوء والاساءة، وكأنما هذا الماضى كان مليئا بالرزايا فحسب ، فضل بنا الطريق ولم نهتد الغاية وبقيت الأثرة والأنانية وحب الذات وشهوة الحكم والتسلط تستبد بنا وحالت بيننا وبين التقدم المنشود ·

ولنعد الى ما كان من مآثر الدكتور هيكل على التعليم ، فقد لمس ضعف الشبان من خريجى الجامعة فى اللغة العربية « وراعنى أن وجدت أكثرهم لا يستطيعون أن يصوغوا خبرا فى بضعة أسطر صياغة مقبولة ، أليس من واجبى وقد توليت وزارة المعارف وأصبحت

المسئول عن تربية النشء وتعليمه ، أن أسد مالاحظت من نقص في هذا الشأن ؟! » .

وقد كان ما سمعه من خطب الألزاميين ، ما أثار أمامه مسألة اللغة العربية ، « فهؤلاء الالزاميون أكثرهم شبان حفظوا القرآن عن ظهر قلب فاستقام لسانهم فأجادوا التعبير باللغة الفصحى حديثا وخطابة » ثم عرف أن السبب في الضعف مرجعه الى اساتذة اللغة العربية أنفسهم ، صحيح أنهم كأساتذتنا يتخرجون في دار العلوم ، ولكن شهادة المعاهد الدينية التى يدخلون بها دار العلوم اليوم أقل في القيمة العلمية من الشهادة التى كان يدخل بها أسلافهم ، ولذلك يفيد أبناء اليوم من دار العلوم أقل مما كان يفيد هؤلاء الأسلاف ، فاذا أريد اصلاح هذه الحال وجب أن ترجع وزارة المعارف الى تجربة قامت بها من قبل وصادفت نجاحا ، ذلك أن تنشىء مدرسة ثانوية لدار العلوم يؤخذ طلابها من المعاهد الدينية ، ثم يتعلمون فيها أربع سنوات أو خمسا قبل أن يلتحقوا بدار العلوم ، عند ذلك تطمئن وزارة المعارف الى مدرسى اللغة العربية ، ونستطيع أن تنهض بهذه اللغة الكريمة النهضة اللائقة بها » .

ولم يتيسر له أن يمضى بمشروعه هذا الى النفاذ ، فقد أثار الأزهر حق خريجيه في تدريس اللغة العربية بمدارس وزارة المعارف، فحال دون تنفيذه ، وان تردت الأمور فيما بعد الى أسوأ مما كانت عليه فقد ألغيت مدارس المعلمين الأولية التى تغذى التعليم الألزامى بمعلميه وحل محلها معاهد اعداد المعلمين من الحاصلين على الشهادة الاعدادية ، ولم يكونوا في قدرة أبناء الأزهر ، وكان الالتحاق بمدارس المعلمين الأولية وقفا عليهم وحدهم ، ثم كان من أمر دار العلوم أن الحقت بجامعة القاهرة وأصبح القبول فيها للحاصلين على الثانوية العامة وفقا لقواعد التنسيق ، وما كان يلتحق بها غير الحاصلين على أضعف مجموع ، وكانت حصيلتهم اللغوية دون

غيرهم بكثير ، ولم يعد حفظ القرآن شرطا للالتحاق بالمعاهد الأزهرية كما كان من قبل ، ولم تعد دار العلوم وقفا على طلاب الأزهر أو تجهيزية دار العلوم التى بقيت زمنا تعد للالتحاق بدار العلوم ٠

« ولقد كنت شديد البرم بما فى مصر من تباين فى ألوان الثقافة، وبما يؤدى اليه هذا التباين من اختلاف فى نظرة الطوائف الى الحياة اختلافا يحول بين هذه الطوائف وما يجب من تفاهمها وتضامنها القومى للمصلحة العامة ٠٠ ثم كان لهذا الاختلاف أثره الظاهر بين المتعلمين فى مدارس الدولة والمتعلمين فى المدارس الأجنبية الكثيرة ؛ فكان أن فرض اشراف وزارة المعارف على المدارس الأجنبية ؛ كما فرض عليها « أن تعلم اللغة العربية وتاريخ مصـــر وجغرافيتها والتربية الوطنية المصرية للذين يدرسون فيها جميعا ، لا فرق بين المصريين والأجانب » ٠

ولم يكن حرصه على اتقان اللغة العربية ، لأنها « هى اللغة القومية وكفى » بل لأنها « لغة البلاد الممتدة من العراق شرقا الى مراكش غربا » فاذا كانت عصور الظلمة قد هوت بلغة العرب الى لهجات يعجم على العرب فهمها « حتى لايستطيع المغربى أن يفهم لهجة المصرى أو لهجة العراقى » ٠

فاللغة العربية الفصحى هو قوام الألفة والعقيدة بين الشعوب العربية ، فاذا كان هناك من يدعو الى الكتابة باللهجة العامية ، فقد غاب عنهم أنهم « اذ يكتبون باللهجة المصرية فانما يفهمهم أربعة عشر مليونا هم سكان مصر ــ كما جاء على لسان السيد عبد الرحمن شهبندر ، أحد اقطاب الوطنية السورية فى حديثه للدكتور هيكل » يوم كان يزور لبنان عام ١٩١٤ ــ على حين أنهم اذ يكتبون العربية الفصحى يفهمهم سبعون مليونا تتجاور بلادهم فى شـــمال أفريقيا

وشرق آسيا ، ثم يفهمهم ملايين مبعثرون فى أرجاء الأرض فى العالمين القديم والجديد ممن يتكلمون اللغة العربية » •

ورأى الدكتور هيكل أن يتخذ « من الاذاعة ومن السينما وسيلة لنشر التعليم ولنشر اللغة العربية بين جماهير الشعب ، ولم يكن ذلك عسيرا ، ولم تكن نفقته طائلة ، لكنه كان يحتاج الى اعتمادات جديدة تقتضى الرجوع الى مجلس الوزراء والى وزير المالية ، ولم أكن ميالا للرجوع الى مجلس الوزراء ما استطعت الاستغناء عن الرجوع اليه ، لذلك اكتفيت بتقوية الاذاعة المدرسية مع أقتناعى بعدم كفايتها لأداء الغرض الذى أقصد اليه » •

وليتيسر القراءة على التلاميذ « أمرت بانشاء مكتبات فى جميع المدارس الثـــانوية وفى بعض المدارس الابتدائية وتزويدها بالكتب العربية الحديثة ، ومطالبة مفتشى اللغة العربية بالوقوف على مبلغ عناية التلاميذ باستعارة الكتب وقراءتها ، وعناية المدرسية بارشادهم لخيرها كيما يطلعوا عليه ويمرنوا بعضنة ويؤودا فيه اختبارا » وكانت تلك هى البداية فيما تقوم به المكتبات المدرسية اليوم من توجيه قراءات التلاميذ وتيسيرها لهم تحت اشراف أمناء على ثقافة تربوية وفنية متخصصة •

ثم كانت خطوته لتوحيد مرحلة التعليم الأولى « بالغاء اللغة الانجليزية فى السنة الأولى الابتدائية وشجعنى على اتخاذ هذا القرار أن المرحلة الأولى للتعليم كانت موزعة فى وزارة المعارف بين ثلاث شعب ، التعليم الابتدائى ، والتعليم الأولى ، والتعليم الالزامى ، واللغة الأجنبية لا وجود لها فى التعليم الأولى ولا فى الالزامى ، ومصر تسير بخطى سريعة نحو مجانية التعليم الابتدائى ، وكنت أرى من يومئذ أن يلتحق الممتازون فى التعليم الأولى والتعليم الالزامى بالمدارس الابتدائية بالمجان ••• فاذا اتفقت برامج التعليم فى هذه

الشعب الثلاث تيسر نقل هؤلاء الممتازين الى السنة الثانية الابتدائية، ولم يقف عدم تعلمهم اللغة الانجليزية فى سبيلهم » ٠

وقد ولى الدكتور هيكل أمور التعليم لفترة طويلة وان توالت على فترات فى أعقاب معـــاهدة ١٩٣٦ والغاء الامتيازات الأجنبية فوضع القواعد التى سارت عليها الوزارة فيما بعد لنهضة تعليمية شاملة فقد بدأ الاتجاه الى توحيد المرحلة الأولى للتعليم والتوســع فى مجانية التعليم وتمصير الوظائف الرئيسية فى المصالح التابعة للوزارة ، وانشاء جامعة الاســكندرية باسم جامعة فاروق الأول وأصبحت جامعة القاهرة ، وكان اسمها الجامعة المصرية تعرف باسم « جامعة فؤاد » ، ووضع نظام ترقية أساتذة الجامعة على أساس ما يقومون به من « بحث علمى خلال السنوات الأربع المنقضية بين الدرجة التى كان فيها والدرجة التى يطلب ترقيته اليها » ويذكر « مع الشيء الكثير من الأسف » أنها لم تكن تحتوى على بحث ذى بال « بل كان بعضها لا يذكر شيئا قام به صاحبها فى السنوات الأربع، وكان بعضها يكتفى بذكر الرسالة التى قدمها صاحبها لنيل اجازة الدكتوراه » ثم تحمس للتدريب العسكرى ، حين عرض له « فأنا من أنصار التجنيد الاجبارى العام لأنه تنفيذ لنص الدستور بالمساواة بين المصريين فى الحقوق والتكاليف العامة » وأصدر القرار الوزارى بتعميمه فى الجامعات وفى المدارس ، وبدأ مشروع انشاء « جامعة محمد على » التى أصبحت جامعة أسيوط ومشروع انشـــاء معهد التحرير والترجمة والصحافة بكلية الآداب ، وقد تولاه وأشرف عليه الدكتور محمود عزمى حتى اختير رئيسا لوفد مصر الدائم بالأمم المتحدة ، وكان نواة لقسم الصحافة ثم لكلية الأعلام عام ١٩٧١ ٠ كما أنشأ معهد-اللغات الشرقية وآدابها ، وعمل على ربط التعليم بالبيئة ، فأنشأ مدرسة « قرية المنايل » على نظام اليوم الكامل حيث يقضى التلاميذ والتلميذات نصف اليوم فى تلقى الدروس النظرية والنصف الآخر فى دراسات عملية من الزراعة فى حقل المدرســـة

والصناعات الريفية العديدة فأدخلت فيها صناعة النسيج والسجاد الكليم والجلود ، وعلى غرارها انشأ خمسا وثلاثين مدرسة ريفية بدأت الدراسة فيها فى العام التالى حين خلفه على وزارة المعارف محمود فهمى النقراشى •

وأصدر قرارا بإباحة الزواج للمدرسات ومنحهن اجازة وضع شهرين ونصف ، وعمم الخدمات الطبية فى المدارس وعلاج الأمراض المتوطنة وغيرها ، فأقيمت العيادات المدرسية للوفاء بتلك الخدمات الصحية •

ومما يؤثر عنه انه لم يحاول أن يقرر أى كتاب من كتبه على طلاب المدارس أو يفرضها على المكتبات المدرسية •

ولا نبالغ اذا قلنا انه كان صاحب المشروعات الانسانية التى قامت عليها سياسة التعليم فيما بعد ، وان طغت شهرة الكاتب والسياسى ، وجفوته للاعلان على ما كان له على التعليم والثقافة من مآثر لا تقل عن مآثره على حياة مصر الفكرية والأدبية والسياسية •

ولم يكن الدكتور هيكل راغبا فى أى منصب وزارى حين ابتعد عن وزارة المعارف فى وزارة على ماهر التى خلفت وزارة محمد محمود ، وقرر الأحرار الدستوريون عدم الاشتراك فى الوزارة « لما رأيته حين كنت وزيرا للمعارف من مناورات لا تلائم طبعى ، ولا تتفق مع الحياة الحرة التى عشتها طول عمرى ، فأنا لا أطيق بطبيعة مولدى وتكوينى الا الطريق المستقيم ، على ذلك نشأت منذ طفولتى وصباى ، ثم كانت حياتى العملية حياة استغلالية بكل معنى الكلمة ، هذا الى ماوجهتنى اليه دراساتى العليا وقراءاتى فى الفلسفة والأدب والقانون ، وايمانى بحياة الكاتب المجيد ، وانها خير حياة وأكفلها ببقاء ذكر صاحبها ، لأن الكاتب المجيد فلذة من ضمير الانسانية وضمير الانسانية باق على الدهر بقاء الدهر » •

وأخذ يتابع « سلسلة الدراسات الاسلامية التى بدأتها بالكتابين : حياة محمد ، وفى منزل الوحى ... شغلت بهذه القراءة وبتدوين ماثبت عندى من تاريخ الخليفة الأول وعهده عن القيام بنشاط سياسى فى تلك الفترة التى تولت فيها وزارة على ماهر باشا الحكم ، ولكنه يخرج من تلك العزلة التي ضربها على نفسه « لأدافع عن عمل بدأته وأنا وزير للمعارف حين شعرت بأن ثمة محاولات لهدمه ، ذلك العمل الذى كنت أعتز به هو انشاء جامعة فاروق بالاسكندرية . لقد انشات فيها كليتى الآداب والحقوق ، وكنت أريد أن اتم كلياتها السبع ، لولا أن استقالت الوزارة ، وكنت عظيم الرجاء أن يتابع خلفى مابدأت ، لكننى قرأت فى الصحف حملات ترمى الى الغاء الكليتين اللتين تم انشاؤهما ، والى القضاء على المشروع كله، عند ذلك انبريت للدفاع عن قيام هذه الجامعة فنشرت فى الأهرام مقالا كان له إثره من بعد ، فبقيت الكليتان ثم انشئت الكليات الأخرى من بعد ، وقامت جامعة الإسكندرية لتبقى على الأجيال والقرون » .

ولما « عهد الملك الى حسن باشا صبرى بتاليف الوزارة التي تخلف وزارة على ماهر باشا » ورأى الأحرار الدستوريون الاشتراك فيها ، عزف عن الاشتراك فيها ، الا أن حسن صبرى يلح عليه قائلا : « أنه يعتبرنى أخاه الأصغر ، لأن معرفتنا ترجع الى أيام كنت طالبا بالحقوق ، وانه مصر كل الأصرار على اشتراكى فى الوزارة معه » وكان حسن صبرى ممن كان يدعوهم لطفى السيد للقاء الشباب في ندوة الجريدة .

ويلقي حسن صبري منيته وهو يلقي خطاب العرش فى البرلمان، ويخلفه حسين سرى ، ويبقى الدكتور هيكل وزيرا للمعارف حتى ٤ فبراير ، حين أطاح بها التدخل البريطانى ، وعودة الوفد الى الحكم ، وقيام وزارة وفدية خالصة برياسة مصطفى النحاس ، فى الفترة من ٤ فبراير ١٩٤٢ الى ٨ اكتوبر ١٩٤٤ ، وهى أطول فترة

حكمتها وزارة وفدية فى الحكم · وتخلفها وزارة أحمد ماهر لتجرى انتخابات جديدة لمجلس النواب ، فرغب مرة أخرى عن الاشتراك فى الوزارة « ميـــال مع ذلك لاشتراك الحزب فيها » وكان قد تولى رياسته خلفا لعبد العزيز فهمى « حتى يكون له على الانتخابات من الاشراف المباشر بعض ما يطمئن مرشحى الحزب جميعا اليها · وقلت فى نفسى : لعلى اذا طلبت أن اكون وزير وزارتين ·· أدى ذلك الى عدم اشتراكي فى الوزارة » الا أن احمد ماهر قد فوت عليه عرضه ، وقبل أن يكون معه وزيرا لوزارتى المعارف والشئون الاجتماعية ، حرصا منه « على ارضائى لأعاونه فى الوزارة » ·

وما أن تجرى الانتخابات ، ويعاد تشكيل الوزارة ، حتى يختار رئاسة مجلس الشيوخ ، ويكون ذلك آخر عهده بالمناصب الوزارية ·

٢٠ أيــام عصـــيبة

كان يوم ٤ فبراير ، الذى عاد فيه النحاس الى الحكم على أسنة الحراب الانجليزية ـ كما قيل ـ يوما كئيبا فى تاريخ مصر ، وما كان أغنى مصر عن هذا اليوم ، لو سارت الحياة النيابية سيرها الطبيعى ، وهو يوم اختلفت فيه الآراء وتاهت فيه الحقيقة ، يصفه الدكتور هيكل بأنه « من الأيام الحالكة السواد فى تاريخ مصـــر ، وفى تاريخ انجلترا فى مصر » ٠

لقد غاب عن الناس كل شىء ، الا أن استقلال مصر قد اهتز ، وأن ما كان من ارغام السفير البريطانى الملك « على أن يعهد للنحاس بتأليف الوزارة ، لم ينل من المصريين غضبا للملك بقدر ما نالهم غضبا لمصر وللعدوان على استقلالها ٠ لقد كنت يومها ضابطا صغيرا باحتياط القوات المسلحة ، وقد عهد الينا نحن ضباط الاحتياط مع قوات الرديف ، بحماية المرافق العامة خلال الحرب ، حتى تتفرغ

القوات العاملة لمواجهة أى طارىء يؤدى الى دخول مصر الحرب ، وقد هزنا هذا الحادث هزا عنيفا ، وكنت يومها فى رياسة الكتيبة حيث اتخذت مقرا لقيادتها حديقة الأزبكية ، وتوزع قواتها لحراسة المنشآت العامة بالقاهرة ، وكنت على اتصال دائم بمن هم فى سنى من ضباط القوات المسلحة العاملة ، ولمست الغضب مما جرى يجتاحهم كما اجتاحنى ، وعلمت أن بعض كبار الضباط قد غضب من هذا أشد الغضب ولكنهم ما كانوا يستطيعون شيئا ، وكان من زملائنا ضباط الاحتياط الطبيب البيطرى محمود نجيب ، شقيق البكباشى (المقدم) محمد نجيب ، الذى قاد ثورة ١٩٥٢ فيما بعد . وعلمت منه أن شقيقه قدم استقالته من القوات المسلحة احتجاجا ، فلما أهدانى مذكراته « كلمتى للتاريخ » حين صدورها ، وكنت قد عرفته وتوثقت علاقتى به منذ حرب فلسطين ١٩٤٨ ، قرأت ماكتبه : « كنت الضابط الوحيد الذى بادر بتقديم استقالته احتجاجا على هذا الموقف ، قائلا فيها : حيث أنى لم استطع أن أحمى مليكى وقت الخطر ، فانى لأخجل من ارتداء بذلتى العسكرية والسير بها بين المواطنين ، ولذا أقدم استقالتى .. ولكن الملك أعاد الاستقالة الى مع ياوره عبد الله باشا النجومى ، واضطررت لسحبها نزولا على رأى زملائى وأخوانى .. وقد ذكرت هذه الواقعة للملك فاروق وأنا أودعه فى الساعة السادسة وعشر دقائق مساء يوم السبت ٢٦ يوليه ١٩٥٢ على اليخت المحروسة قائلا له : انى فعلت ذلك باسم الجيش كله ، وعبرت به عن شعور هؤلاء الضباط الذين قاموا بالحركة اليوم .. وفى هذا مايدل على ما كان من ولائنا نحن رجال الحركة لك .. أما الآن فقد تطورت الأحوال وانقلبنا نحن حماتك الى ثوار عليك ، نتيجة أعمالك وتصرفات من حولك » ..

وكان الذين غضبوا للملك هم الذين ثاروا عليه ، حين تردى فى أخطائه ، وفى استهتاره وفى تسلطه وأدى الى ما أدى اليه .

ولعل ما اتصـــل بينى وبين اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصـــر كان تقديرا منى لما عرفته عنه ، ولما عرفته من شجاعته فى معارك فلسطين ·

كان الغضب عنيفا عند المصريين من التدخل البريطانى على هذه الصورة ، الا أن هذه الصورة ظلت مبهمة لا تسفر عن حقيقتها لدى المصريين ، حتى ليعترف الدكتور هيكل ، وكان من أقرب الزعماء الى ماحدث : « بأننى لم أستطع ، برغم انقضاء عشر سنوات على ذلك اليوم المشئوم ، أن أجلو كل أسراره ، برغم مابذلت من محاولات لهذا الغرض ، ولعل ذلك يرجع الى أننى قدرت ، ولا أزال أقدر ، أن أبطال ٤ فبراير كانوا يفكرون بعقولهم ، والواقع أنهم كانوا يفكرون بأعصابهم المتوترة المضطربة ، ومن ثم بدت تصرفاتهم وكأنها تنطوى على أسرار غير معروفة ، على حين أنها لا تنطوى على سر غير ذلك الاضطراب العصبى الذى أغفل كل معنى من معانى الكياسة وحسن السياسة » وكان الدكتور هيكل هو المتحدث وقتذاك باسم الأحرار الدستوريين « لأن رئيس الأحرار الدستوريين ، عبد العزيز باشا فهمى ، كان قد لزم داره لمرض ألم به وطال عليه ، وكان قد أنابنى عنه فى رياسة الحزب ·· فى هذه الساعات التاريخية العصيبة » ·

وقد بدأت الأزمة منذ قطعت وزارة حسين سرى العلاقات مع حكومة فيشى ، من غير أن يستشير الملك أو يرجع اليه فى ذلك ، « فقد اعتبر الملك ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ هذا التصرف تجاوزا من الوزارة لحقها الدستورى فيه مساس بحقوقه » ·

ويستشير أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى ، الدكتور هيكل فى الموقف ، « وأشرت عليه بأنه اذا لم يكن بد من تنحى وزارة سرى باشا عن الحكم ، فخير ما يعالج به الموقف الدقيق الذى تتخطاه البلاد ، أن تتألف فيها وزارة قومية تضم الأحزاب جميعا ، يرأسها

النحاس باشا أو يرأسها غير ه ، فهذه الوزارة هى وحدها التى تستطيع مواجهة الأحوال العالمية الدقيقة من غير أن تتعرض سيادة مصر وحرية أبنائها الى الخطر ٠٠ ووافقنى حسنين باشا على هذا الرأى ، وفهمت فى بعض مقابلاتى اللاحقة لرئيس الديوان أن النحاس باشا فوتح فى الفكرة وقبلها بل رحب بها ، وأن تنحى وزارة سرى باشا عن الحكم ، برغم اطمئنان انجلترا الى المجهود الحربى فى عهدها ، لن يحدث فراغا ولن تكون له أية نتيجة تخشى عواقبها » ٠

الا ن التحـــزب ــ كما أرى ــ كان قد حل محل الحـــزبية الديمقراطية الناضجة ، فكانت بداية النهاية لنظام نيابى لم يتأت له أى نوع من الاستقرار منذ قيامه ، ولحكم أسرة مالكة كانت لهـا السيطرة الكاملة أو المنقوصة على مقدرات البلاد طوال قرن ونصف ثم كان حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، الخطوة الاولى فى هذه النهاية ٠

فقد عصف هذا الحادث بكل ما قررته معاهدة ١٩٣٦ من استقلال مصر ، كما نال نيلا شديد من الشعبية التى يتمتع بها الوفد وزعامته بين الجماهير العريضة وبين المثقفين بنوع خاص ، ولم يكن حسين سرى بالشخصية الأثيرة لدى الأحزاب وما كان هو بالرجل الذى يستطيع قياد السفينة وسط أنواء الحرب العاصفة ، « وكان شديد الحرص على مركز وزارته ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ وكان يتلمس فى تصرفاته الا يصدر عنه ما قد يضر بهذا المركز ، فهو لم يكن السياسى المغامر الذى كانه حسن صبرى باشا ، ولم يكن رئيس حزب يعتمد على قوة برلمانية يطمئن اليها ، ولم يكن له من التجـــارب السياسية على السنين ما يجنبه هذا التلمس ، فقد قضـــى حياته موظفا بوزارة الاشغال ، وكان والده اسماعيل سرى باشا وزيرا للاشغال ، وكانت له عند رجالها مكانة الأب من أبنائه ، وكان الذين تولوا وزارة الاشغال بعده من المهندسين المصريين يقدرون مكانته هذه منهم ، وكانوا يسبغون على حسين باشا من التقدير ما يوجبه

نشاطه الشاب وحسن ادركه لواجب المهندس فى وزارة الأشغال ، ولهذا بلغ حسين باشا أن أصبح وكيل وزارة الاشغال فى سنوات قليلة ، فلما الف محمد باشا محمود وزارته فى سنة ١٩٣٨ وكان لسرى باشا عند الملك فاروق مكانة خاصة ، عاونت كفايته فاختاره محمد باشا محمود وزيرا للأشغال معه ، وقد حدثنى حسين باشا بانه سيخلف محمد باشا محمود فى رياسة الوزارة ، فلما الف على ماهر باشا وزارته فى سنة ١٩٣٩ خلفا لمحمد محمود باشا ، شعر سرى باشا بشىء من المرارة ولكنه لم يفقد الأمل ، وكان ذلك شأنه حين الف هو الوزارة بعد أن اشترك مع هؤلاء الرؤساء الثلاثة الذين سبقوه واجهته الصعاب التى ذكرناها » .

وقد أسلم رجال الأحزاب فى مجلسى الشيوخ والنواب ، كما أسلم الوزراء أمرهم لهذا الواقع الذى فرض عليهم حرصا على بقائهم فى الحكم . حتى كان برم الملك بحسين سرى لظنه انه اخلص للمصالح البريطانية منه له . ففقد بذلك السند الوحيد فى رياسته للوزارة .

ورأى الوفد ـ كما يذكر تقرير الســير مايلزم لامبسون عن أحداث عام ١٩٤٢ ـ أن يوجه هجومه الى رئيس الوزراء الذى فقد تأييد الملك وليس له فى البرلمان من يقف الى جانبه .

ورأى النحـــاس ، وقد خاطبه الانجليز « أن يتولى الوزارة ويتركون له الحرية المطلقة فى تأليفها » ويقول الدكتور هيكل : « أما وقد خوطب النحاس باشا قبل ذلك من قبل القصر فى تأليف وزارة قومية تضم الأحزاب المصرية كلها ، فقد أصبح له الخيار بين قبول هذا العرض المصرى ، وبين هذه الحـرية التى تركها له الانجليز واظهروا معها انه يستطيع ان شاء أن يؤلف وزارته وفدية صرفا » .

ولا نجد للدكتور هيكل رأيا بيدية فيما دار من مناقشات الزعماء حين جمعهم الملك اليه ليشاورهم فيما كان وفيما يكون الا ان يقول :

« لقد عرض الملك أمس على النحاس باشا أن يؤلف وزارة قومية على نحو ما جاء فى الرسالة الملكية التى تليت علينا ، فاذا أجاب النحاس باشا هذا الطلب اليوم ، بعد أن كان قد رفضه أمس ، كان ذلك حلا كريما للموقف ، وكان رفض الانذار على اساسه مأمون العاقبة ، ثم كانت فيه المحافظة كل المحافظة على سـيادة مصـر واستقلالها وكرامتها » ويقول فيما يرويه عن هذا الحادث : « شعرت بأن بعض الحاضرين رأى فيما عرضته مبالغة فى مجاملة النحاس باشا ٠ وانه كان يود أن يترك النحاس باشا يواجه الموقف وحده ، فشخصه هو الذى يدور عليه الأنذار وتدور حوله الأزمة التى اجتمعنا لكن النحاس باشا لم يدع لأحد فرصة مناقشة الرأى الذى ابديته ، فقد أسرع الى رفض هذا الرأى ، وقال فى صراحة : انه لا يقبل تأليف وزارة قومية ، أو وزارة مؤتلفة ، أو وزارة غير حزبية أيا كان لونها » ٠

وما كان الدكتور هيكل حين أبدى هذا الرأى طامعا فى أن يكون له مكان فى الوزارة القومية فقد عاف الوزارة منذ طلب الى حسين صبرى أن يعفيه من الاشتراك معه فى وزارته ، وكان قد انصرف الى بحوثه فى التاريخ الاسلامى والى انشاء وكالة أنباء مصرية ، وكان من رأيه دائما أن تقوم وزارة قومية تتمثل وحدة البلاد حتى تحقق استقلالها وسنرى من بعد أنه يعزف عن الاشتراك فى الوزارات التالية ويفضل عليها رئاسة مجلس الشيوخ ، حيث يطيب له العمل فى مقعد المشرع الأعظم ٠

ويتنكب الدكتور أحمد ماهر التوفيق حين يوجه الحديث الى النحاس ، ويقول : « انك يانحاس باشا تؤلف الوزارة على أسنة الحراب البريطانية بعد أن رأيت الدبابات بعينى رأسك » ويتدارك الملك فيقول ــ وكأنه لا يرضى أن يسلب من حقوقه حق ، : بل أنا

الذى اكلفه بتاليف الوزارة ويصدق النحاس على قوله ، فيقول : « وانا اؤلف الوزارة بامر جلالة الملك » .

وتبقى الحقيقة فيما كان من حادث ٤ فبراير محوطة بالأبهام والغموض ، « لقد شهد بعضنا منها جانبا ، وشهد البعض جانبا آخر ، فأما مجموعها فلم ترتسم صورته امامنا فى هذا الوقت ،

لأن الجزء الأهم منها ، وهو ماحدث داخل القصر ، وماحدث بين الملك وبين السفير وقائد القوات البريطانية كان مغيبا علينا ، ولم يكن فى مقدورنا فى تلك الساعة ان نعرفه أو ان نحكم عليه ... ولست استطيع اليوم أن ارسم صورة ماحدث كما يرسمها شاهد عيان ، فما سمعته من بعد لا يعدو تصوير اجزاء من المأساة يجب على من يريد أن يجمعها أن يقف على مقدماتها ، وان يعرف الخطة المرسومة وكيف نفذت ، واعترف باننى لا اعرف ذلك الى اليوم ، ولم اعن نفسى بالوقوف عليه وقوفا دقيقا فى يوم من الأيام » .

ولم تشر الصحف الى ما حدث ، وصدرت فى اليوم التالى وليس فيها الا أن الملك قد عهد الى النحاس بتاليف الوزارة الجديدة ، وحالت الرقابة دون نشر أى تفاصيل اخرى . الا أن ما حدث من استقبال العاصمة للوزارة « بمظاهرات الغبطة والابتهاج » وكان عجبا أن الجماهير التى كانت تقوم بالمظاهرات قبيل استقالة سرى باشا منادية : تقدم ياروميل مالبثت حين تالفت وزارة النحاس أن نسيت روميل ، وأن انقلبت تحيى الوزارة الجديدة ، وتظهر من الابتهاج بولايتها الحكم ما اثار عجب الأجانب واعجاب السفير البريطانى والجالية البريطانية باسرها ، فقد دلت مظاهرات الابتهاج هذه على أن للوفد من القدرة على توجيه المظاهرات ما مكنه أن يقلب المظاهرات عيدا ، ومن أن يحول التيار المتدفق المعادى لانجلترا فيجعله بين عشية وضحاها تيارا متدفقا يظاهر انجلترا ، ولقد بلغ

الأمر من ذلك أن ذهب سير مايلز لامبسون الى رياسة مجلس الوزراء فى زيارته التقليدية لرئيس كل وزارة جديدة ، فاستقبل الجمهور هذا السفير البريطانى ، بطل مأساة ٤ فبراير ، بترحيب وتهليل واكبار ، حتى لقد رفعوه على أكتافهم مبالغة فى الحفاوة به » ٠

ويبقى ما أحيط بحادث ٤ فبراير غامضـــا ، وبدت المذكرات والوثائق وأقوال المعاصرين متناقضة مع بعضـــها البعض ، فبينما يذكر سير مايلز لامبسون الذى أصبح لورد كيلرن فى يومياته التى نشرت عام ١٩٧٢ ، أنه كان يود لو تم له خلع الملك فاروق ، وكان قد قرر أن يقوم بذلك ليلة توجيه الأنذار ، فلم يعد يفكر فى غير ذلك وطرح تكليف النحاس بتأليف الوزارة جانبا ٠ نرى المراسلات بينه وبين وزير الخارجية البريطانية « مستر ايدن » تشير الى قيام وزارة تستند الى تأييد شعبى ، والى اطلاق يد الوفد فى كبح جماح الملك « الذى ثبت عدم تعاونه مع الحليفة فى أوقاتها الحرجة » وان كان السفير البريطانى قد عبر فى يومياته عن مقته للملك فاروق ، فانه لا يستطيع الخروج على تعليمات حكومته ، ومن الطبيعى أن تتجنب الحكومة البريطانية ما يثير عواطف المصريين ، حتى وان كرهوا الملك ولم يكن الملك وقتذاك مكروها من المصريين ٠ وقد نزل الملك على الانذار البريطانى وسلم بما فيه ولعل السفير البريطانى كان يتمنى أن يرفض الملك فيقوم بخلعه ، وهو ما استقر عليه رأى الحكومة البريطانية ، وان أدى الأمر الى اعادة النظر فى نظام الحكم الملكى ذاته ٠

وأيا ما كان ، فقد ألف النحاس الوزارة ، واستصدر مرسوما بحل مجلس النواب واجراء انتخابات جـــديدة قاطعها الأحــــرار الدســـتوريون ، بعد أن خاب ســــعيهم فى الاتفاق مع الوزارة على الانتخابات ، وقد رفض الدكتور هيكل أن يشارك فى هذا المسعى ، وتوقع « ألا يصيب مسعاهم أى حظ من النجاح » ثم رأت الوزارة

الغاء التعيينات التى أجرتها وزارة حسين سرى لمجلس الشيوخ ، وكانت قد اكتفت باجراء التجديد النصفى للمعينين دون المنتخبين ، ورأى النحاس أن التعيين مكمل للانتخابات ، وانه لذلك يجب أن يتم بعد الانتخاب لا قبله ، فاذا لم يجر انتخاب وجب الا يجرى تعيين ، ووجب لذلك أن تمد مدة الشيوخ المعينيين ، كما تمد مدة الشيوخ المنتخبين ٠

وكان الدكتور هيكل من بين الشيوخ الذين اخرجتهم القرعة وأعيد تعيينهم بمرسوم ٧ مايو ١٩٤١ « فلما ألفت وزارة النحاس باشا مرسوم هذه التعيينات خاطبنى حسنين باشا رئيس الديوان الملكى يعرض على اعادة تعيينى فقبلت ، ولم يمنعنى من القبول أن الحزب قاطع الانتخابات ، لأن الأسـباب التى ادت الى مقاطعة الانتخابات لا تدعو الى مقاطعة التعيين ، ولأننى رأيت فى هذا التعيين استمرارا لعضويتى التى قررها مرسوم سرى باشا ، كما قدرت أن منبر البرلمان هو وحده الذى يستطيع الانسان أن يدلى من فوقه برأيه فى ظل الأحكام العرفية القاسية القائمة فى ذلك الظرف العصـيب الرهيب » وأصبحت له زعامة المعارضة فى مجلس الشيوخ ٠

وكانت أياما عصيبة حقا ، عصيبة لمصر ، ولانجلترا الدولة الحليفة فى مصر ، وشاء القدر أن تكون عصيبة للوفد ووزارته كما هى للأحزاب المعارضة ٠ ففى ذلك الوقت كان الفيلق الألمانى بقيادة رومل يجتاح القوات البريطانية فى الصحراء الغربية ، ويخترق حدود مصر ، ويكاد يدق أبواب الاسكندرية ، حتى ظن الانجليز أنه على وشك أن يجتاح مصر ، فأخذت قواتهم تتراجع وتقيم الاستحكامات والعوائق أمام القوات الزاحفة ، وشاع من خطتهم أنهم سـيغرقون الدلتا ، وينسفون الطرق والكبارى ويشعلون النار فى آبار البترول ،

ورأى الدكتور احمد ماهر أن يدعو الدكتور هيكل واسماعيل صدقى وحسين سرى للتداول فى هذا الأمر ٠ « وتداولنا الرأى فيما

يجب أن نصنع لاتقاء هذه الكارثة . قال صدقى باشا لن يستطيع أحد اتقاءها الا بتفاهم صريح بين الحكومة المصـــرية والقوات البريطانية على العدول عنها .. واننا لابد أن نبلغ هذا الرأى الى رئيس الوزراء .. » ولا يجدون أقدر على الاتصال برئيس الوزراء غير الدكتور هيكل ، ليبلغه ما دار بينهم من حديث « وأنا لا أجد غضاضة فى مقابلة النحاس باشا ، ولا فى مقابلة غيره من الناس ، صديقا كان من أقابله أم خصما ، ولعل ذلك يرجع الى اشتغالى الطويل بالصحافة ، وما كان يقضى به هذا الاشتغال من مقابلة المصريين والأجانب على اختلاف ألوانهم وآرائهم وميولهم » .

وما لم يذكره الدكتور هيكل ، أن خصومته السياسية لم تصل به الى أبعد من معارضـــة الرأى بالرأى والحجة وبالحجة دون التجريح أو التهجم الذاتى فظلت الصلة بينه خصومة يحكمها المنطق فلا تثير موجدة أو حقدا ولا تدع بينه وبين الناس ثأرا مبيتا ، فكان رسول الأحرار الدستوريين الى خصومهم ، كما هو رسول هؤلاء الذين تداولوا هذا الأمر الى النحاس ، حين قالوا جميعا أن بينهم وبين النحاس ما يحول دون لقائهم به ، فقد كان « من مواد الدستور الصـــحفى الهيكلى - على حد تعبير فكرى أباظة فى تأبينه - أن الخصومة السياسية أو الخصومة القلمية ليست عداء ولا استعداء انما هى اصطدام بين المبادىء واصطدام بين الخطط ولجاج حول الأصلح ، وبهذا لم يفقد طول حياته الصحفية والقلمية صديقا من خصومه السياسيين ، ولئن ناله ما ناله من بعضهم من غضب وجفاء ، فقد ظلوا دائما أبدا يكنون له كل تقدير واجلال ووفاء » .

ويلتقى بالنحاس فى داره كما أراد ، ويفضى اليه بما دار بينه وبين زملائه ، ويطلب اليه « أن يتخذ من الاجراءات والاحتياطات ما يجنب مصـــر ويلات الحرب ، وذكرت له جسامة الخطر الذى

تتعرض له البلاد اذا أغرق الانجليز مديرية البحيرة أو أحرقوا آبار البترول فى منطقة سيناء » ٠

ويطمئنه النحاس ، ويشهد له دون أقرانه ، فليس « فيهم رجل تعنيه مصالح بلاده الا انت ، فابتسمت وقلت فيما بينى وبين نفسى : ترى لو أن أحدهم هو الذى حضر لمقابلة الرجل ، أفكان يقول له مثل هذا القول ؟ فأكون أنا ممن لا يعنيهم الا الحكم ، ويكون هذا المتحدث هو الرجل الذى تعنيه مصلحة بلاده ؟ » ٠

الا أن النحاس بما عرف عنه من صراحة ما كان يقولها لغيره، وكان يعنيها حين قالها له ٠ وقد شاء الله لمصر أن تنجو من هذا الخطر ، فقد توقف زحف الألمان عند العلمين ، وهدأ بال الانجليز ، لجولة قادمة ، ارتدت فيها الموجه لصالحهم ٠

أما الملك فقد حز فى نفسه أن يفرض عليه الانجليز وزارة يؤلفها النحاس ، وأن يتركوا له حرية تأليفها كيفما يشاء ، ولم يرض حتى أن يعترف بذلك صراحة ، فحين قال أحمد ماهر للنحاس : « انك يانحاس باشا تؤلف الوزارة على أسنة الحراب البريطانية » سارع الملك بالاعتراض ، قائلا :« بل أنا الذى أكلفه بتأليف الوزارة » الا أن ما وقع ترك فى نفسه مرارة لم ينسها قط ، فبقى يرقب كل بادرة تمكنه من الاطاحة بها ، ووجد فى الخلاف الذى نشب واستشرى بين النحاس ومكرم فرصة لضرب الوفد من داخله ، فزاد فى سعيره ، وقد رأى النحاس أن الملك لن يوافق على اقالة مكرم ، فقدم استقالة وزارته ليعيد تشكيلها بدون مكرم ٠ وقد واتت الملك الفرصة للاطاحة بالنحاس اكثر من مرة ، لولا موقف السفارة البريطانية الصلب من ذلك ٠ فقد ظل السفير البريطانى يحذر الملك ودوائر السراى من الأقدام على هذه المحاولة ، وأن أى اجراء من هذا القبيل « ستكون له عواقب لبست فى الحسبان » ٠

وأما الوفد فقد بدت صورته وكأنها تهتز بخروج مكرم عليه ، واصداره سماه « الكتاب الأسود » يعدد فيه مثالب الوزارة وفسادها وان ترك كتابا لكتاب الأسود نوعا من المرارة فى نفوس من يعرفون ماكان بين النحاس ومكرم من علاقات أثيرة امتدت على الزمن منذ جمعهما المنفى معا فى سيشل مع سعد زغلول « وقد كان النحاس باشا — كما يقول الدكتور هيكل — يزيد اعتقاد الناس فى سلطان مكرم عبيد قوة بما يسبغه عليه من أوصاف وما يظهره من ثقة به لاحد لها ، وكان مكرم عبيد باشا هو همزة الوصل بين النحاس باشا والسفارة البريطانية فى امسية ٤ فبراير، وهو الذى أشرف على صيغة الخطابين اللذين تبودلا بين النحاس باشا والسفير البريطانى لتاليف الوزارة ، فلما تألفت وحلت الوزارة مجلس النواب ، كان مكرم باشا هو الذى تولى محادثة أفراد من أحزاب المعارضة بغية التوفيق بينهم وبين الوزارة ... ولم تكن هذه المكانة التى امتاز بها مكرم باشا حديثة العهد ، بل كانت ترجع الى عهد سعد باشا زغلول ورياسته للوفد ، وكان بين الرجلين من المودة والثقة المتبادلة ما زاده نفيهما الى جزيرة سيشل توكيدا وجعلهما لايكادان يفترقان . كان النحاس باشا يذهب ظهر كل يوم الى العمارة التى بها مكتب مكرم باشا للمحاماة فينتظره حتى ينزل ليصطحبه الى مصر الجديدة ، فلما عزم النحاس باشا سنة ١٩٣٤ أن يتزوج كان لمكرم باشا يد فى اختيار حرم النحاس باشا ورفيقة حياته ، ووصلت المودة بين حرم مكرم باشا وحرم النحاس باشا فتوثقت علاقة السيدتين كتوثق علاقة زوجيهما ، وبقى الأمر على ذلك الى سنة ١٩٤٢ » .

ولعل الكتاب الأسود قد أساء الى مكرم أكثر مما أساء الى النحاس ، ففى نفوس المصريين اجلال للوفاء وللعشرة القديمة « والعيش والملح » يغطى على كل ما يمكن أن يقع من خلاف بين صديقين على مثل ما كان بين النحاس ومكرم ، ولعل ذلك ما يفسر

فشل مكرم فى أن يضم اليه بعض أعضاء البرلمان ٠ وكان من انضموا اليه من الشبان يبتغون لأنفسهم وضعا جديدا قد يكون انفع لهم « وأما أعيان الصعيد فى مديرية قنا فناصروه عصبية ليس غير . على أن هؤلاء الشبان والأعيان كانوا قلة ضئيلة لم تؤثر فى الأغلبية الوفدية الضخمة من حيث العدد تأثيرا ينزعج له النحاس باشا أو يخشى نتائجه » ٠

ولا ينسى الدكتور هيكل أن يذكر « أن عنصرا جديدا دخل الوزارة قبيل خروج مكرم باشا منها ، كان له من بعد اثر واضح فى الوفد وسياسته ، ذلكم هو الشاب محمد فؤاد سراج الدين بك الذى عين وزيرا للزراعة ولم يكن قد بلغ الخامسة والثلاثين من سنه ، فلما اخرج مكرم باشا من الوزارة عين فؤاد بك وزيرا للداخلية ثم وزيرا للداخلية والشئون الاجتماعية » وقد أثبت هذا الشاب الذى اصبح سكرتيرا للوفد قدرة وذكاء فى ملء الفراغ الذى تركه خروج مكرم من الوفد ٠ بل وأكثر منه ٠

وقد جنى موقف مكرم من النحاس على مكرم أكثر مما جنى على النحاس ، فالناس فى مصر ، يجلون الوفاء ، وينبذون ان تعلو عليه بادرة من حقد أو موجدة تهدد علاقة « العيش والملح » وكانت النهاية فيما صوره الصحفى « محمد السوادى » فى كتابه الرائع « لكيلا ننسى : أقطاب مصر بين الثورتين »(١) حين جرت محاكمات الثورة لبعض الزعماء ، فيقول :

« ٠٠٠ وكان الرأى العام يتابع هذه المحاكمات ويزنها ٠٠٠٠ بميزان خاص وحساس غير ميزان السلطات التى توجه الاتهام ٠٠ وغير ميزان المتهمين الذين يحاكمون ٠٠ كان الشعب يعرف بحاسة سادسة فيه كونتها الحضـــارات على طول تاريخه ٠٠ أن الموقف

---

(١) صدر هذا الكتاب عن سلسلة « كتاب اليوم » التى صدرها مؤسسة اخبار اليوم عام ١٩٧٦ ٠

يستأهل « الفرجة » . وان هذه المحاكمات هى اصدق محك للاخلاق .... وصدق شعور الشـــعب .. وتهاوت أمام المحاكم كرامات الكثيرين من الساسة الذين دعوا الى الأدلاء بشهاداتهم .. ووقف على راس الشجعان رجل لم يخطر ببال الشارع انه رجل شجاع .. وهو الدكتور محمد حسين هيكل .. ووقف على الرأى المضاد ـ راس الأحقاد ـ مكرم عبيد مع الأسف ، وقال فى خصومه وهم فى الأغـــلال ما قاله مالك فى الخمر .. وانتهى تاريخه عند المحـاكم العسكرية شاهد ملك أو ما فى حكمه ... »

وكان الدكتور هيكل من الزعماء القـــلائل الذين لم تنلهم محاكمات الثورة ، فلما دعى للشهادة فيما نسب الى فؤاد باشا سراج الدين ، شهد له بما عرف عنه من تميز ونزاهة وانه البرلمانى القدير .

ولم يكن للمعارضة عمل يذكر خلال تلك الايام الأيام العصيبة ، الا ما كان من اصدار مكرم لكتابه الأسود ، « وكان مكرم عبيد باشا ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ أشد منا جميعا حقدا على النحاس باشا وسعيا لمقاومة سلطانه » فلما صدر الكتاب الأسود وحمله مكرم له ، فتوفر على قرءاته ، وكان له فيه رأى يخالف رأى صاحبه ، فقد تناول « هذا الكتاب عددا كبيرا جدا من وقائع استغلال النفوذ ، وبعضها تافه كارسال شحنة من الفول من جهة الى أخرى بالسكة الحديد من غير أجر لأنها مرسلة باسم أحد الوزراء ، وأن ضخامة هذا العدد من الوقائع جنت علىالكتاب الأسود أكثر مما أفادته ، ذلك أن بعض الوقائع أصابه بعض التحريف ، وبعضها لم يكن دقيقا كل الدقة ، وليست مهاجمة وزارة لمجافاتها نزاهة الحكم بحاجة الى مثل هذا العدد الكبير من الوقائع ، بل يكفى فيها ذكر عدد محدود من وقائع تخالف النزاهة ، على أن تكون هذه الوقائع ثابتة ثبوتا قطعيا لا تتطرق اليه ريبة » .

وقد كان للدكتور هيكل تجـــربة كهذه التجربة من قبل وان اختلفت عنها فى الشكل وفى الاطار الاخلاقى ، وذلك حين عطلت وزارة صدقى صحف الأحرار الدستوريين عام ١٩٣٠ ، وآثروا أن لا تكون لهم جريدة تعبر عن رأيهم « وبذلك أتيح لمحررى السياسة ٠٠٠٠ فرجة من الوقت يفكرون فيها فى عمل يتصل بالصحافة ٠٠٠٠ رأى زميلاى الفاضلان الاستذان ابراهيم عبد القادر المازنى ومحمد عبد الله عنان أن نجعل من فسحة الوقت التى لنا وسيلة للتاريخ لهذه الفترة الأخيرة من تاريخ مصر منذ حدث الانقلاب الدستورى فيها فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٣٠ ، على أن لا يكون تاريخا صحفيا او مشوبا بشائبة هوى الوقت ، بل على أن يكون تاريخا يقصد فيه الى سرد الوقائع بالرجوع الى مساندها والتعليق عليها تعليقا أساسه الفكرة القومية العامة وتوخى الحق الذى نعتقد » وكان ان الفوا معا كتاب « السياسة المصرية والانقلاب الدستورى » تناولوا فيه تناولا تاريخيا دقيقا ، الظروف التى أدت الى تاليف وزارة اسماعيل صـــدقى ، والمسألة الدستورية والحريات العامة ، وغير ذلك من أحداث تلك الفترة الاقتصادية والسياسية فكان وثيقة تاريخية صادقة لمن يؤرخ لها ٠

وشتان ما بين هذا الســـفر التاريخى الموضوعى الذى قام باعداده ثلاثة من كبار كتاب مصـــر ، والكتاب الأسود حين قصد التجريح والتشهير وحدهما بدافع من الحقد والموجدة ٠

وواتت الملك الفرصة لاقالة وزارة النحاس ، فى غياب لورد كيلرن السفير البريطانى عن القاهرة ولعل غيابه كان مقصودا ، حتى لا يحرجه ما تزمع الحكومة البريطانية اتخاذه من ســـياسة أبلغها القائم بأعمال السفير الى كل من أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى، وأمين عثمان وزير المالية فى وزارة النحاس من أن « حكومة صاحب الجـــلالة » لا تحب أن تتورط فى شئون مصـــر الداخلية ، فكانت الأقالة ، وكانت بداية النهاية ٠

٢١ رئيس الشيوخ

اختار الأحرار الدستوريون الدكتور هيكل لرياسة الحزب بعد أن آثر عبد العزيز فهمى اعتزال السياسة ، عام ١٩٤٢ ، وكان قد رضى أن يكون رئيسا له لفترة قصيرة بعد وفاة محمد محمود عام ١٩٤١ ، بعد « أن استعنا على تردده هذا بجلة اصدقائه فانتهى الى الاقتناع وتولى رياسة الحزب للمرة الثانية ، بعد أن كان قد تولاها فى المرة الأولى فى سنة ١٩٢٥ ، ثم استقال منها فى سنة ١٩٢٦ » .

ولما أقيلت وزارة النحاس ودعي أحمد ماهر لتأليف الوزارة كان حريصا على أن يتعاون معه الأحرار الدستوريون فى تأليفها وأن يشترك الدكتور هيكل « شخصيا فى الوزارة » الا أن هيكل يرى فى حديث مكرم عبيد مالا « يشجعنى على الاشتراك فى الوزارة بـــل لا يشجع على أن يشترك الأحرار الدستوريون فيها ، وذلك بأن مكرم باشا بدأ كلامه بأن الأحزاب يجب أن تمثل فى الوزارة بعدد متساو من الوزراء ، ودهشنا جميعا وسألناه عمن يقترحهم من أعضاء

كتلته ، اقتناعا منا بأنه لن يجد العدد الذى يتعادل به مع الأحزاب الأخرى وبخاصة مع الدستوريين والسعديين ، لكنه أصر على أن نقبل المبدأ أولا ثم يكون الكلام فى الأشاخص بعد ذلك » ..

ويتولى الدكتور هيكل وزارتى المعارف والشئون الاجتماعية . ويتقدم مكرم لمجلس الوزراء بمشروع كادر للعمال » من غير أن يكون واردا فى جدول أعمـــال المجلس ، واعتذر عن ذلك بأن له صـفة الاستعجال ، وكانت الصحف تنشر قبل ذلك بأيام أن العمال يذهبون الى وزارة المالية يهتفون لوزيرها ، وأن مكرم باشـــا كان يخطبهم ويعدهم بأنه سيحقق مطالبهم » .

ولا يستريح الدكتور هيكل الى ذلك « بصفتى وزير الشـــئون الاجتماعية ، وهى الوزارة التى تتحدث عن شئون العمال جميعا فى المصانع والمنشآت الأهلية » وان كان يؤمن بعدالة مطالبهم ، ومع ما عرفه من تدخل وزارة الداخلية لصالح مرشحى الهيئة السعدية يعلن « الى الدكتور أحمـــد ماهر باشا أننى لن أبقى وزيرا بعـد الانتخابات .. وكنت أعلم وأنا أعلن اليه هذا العزم أن الحزب حريص على بقاء الأحرار الدستوريين مشتركين فى الوزارة واذا لم يكن بد من معاونتى فلا مانع عندى من أن أكون رئيســـا لمجلس الشيوخ » .

وينأى الدكتور هيكل فى منصبه الجديد رئيسا للشيوخ عن كل ملاحاة حزبية وعن أى صراع حول الحكم الا ماكان يمس حزبه وكان رجاله كغيرهم لا يحبون التخلى عن مناصبهم الوزارية أو اشتراكهم فى الحكم بعد أن أصبح الحكم طلبة الوزراء والمستوزرين ، وأصبح للسراى الرأى الأعلى فى توجيه الحكم واتخاذ القـــرار ، وفقدت الأحزاب ما كان لها من كيان شعبى ، وغدت الانتخابات النيابية لعبة تتقاسمها الأحزاب الحاكمة .

ولصديقنا الأستاذ حافظ محمود رأى طريف فى الانتخابات التى كانت تجرى حينذاك ، سـاقه فى كتابه « أسـرار الماضـى يصـحح فيـه » كـلاما قيـل وما يـزال يقـال عن تزييف الانتخابات فى الماضى : ان الذين يقولون هذا الكلام يصدرون عن تفكير نظرى ، وليس تفكيرا على الطبيعة كما لمسـتها بنفسى حين خضت انتخابات سنة ١٩٤٥ ، ان المسألة فى أية انتخابات سابقة لم تكن بحاجة الى تزييف أوراق أو صناديق انتخابية ، وان كان من الجائز أن يحدث شىء من هذا فى مواقف فردية خاصة ٠٠ أما على المستوى العام فقد كانت المسألة بمنتهى البساطة هى : من الذى تريده الحكومة ؟ سـؤال كان يردده الناخبون غير المثقفين ، وهم الكثرة ، وكانوا يتلقون عليه الجواب الايجابى الواجب التنفيذ من رجال الادارة ٠٠ »

ولعل ما فات صديقنا الأستاذ حافظ محمود ، تلميذ الدكتور هيكل فى الصحافة ـ أن الانتخابات حين تفقد حقيقتها لدى الرأى العام ، لاتعدو فيها المشـورة رأى رجال الادارة ، حين يسـوقون الناس من غير المثقفين اليها ، أما المثقفون فكثيرا ما يعزفون عن الادلاء بأصواتهم ، الا ان تكون لهم صلة مباشرة بالمرشح أو الحزب الذى يمثله ، وقد فشلت الأحزاب التى انفصلت عن الوفد أن تقدم جديدا للناخبين ، وقد أدرك الشعب بحسه الغريزى أنهم يستندون الى الملك أكثر مما يستندون اليه ، وبقى لزعامة الوفد رغم ما أصابها من وهن على القمة من ايثار الشعب الى آخر انتخابات جرت فى مصر وخاضها الوفد عام ١٩٥٠ ، حتى كانت النهاية ٠

وفى مجلس الشيوخ استطاع الدكتور هيكل أن يتحرر من حزبيته ليكون للجميع ومع الجميع على سواء ، ولعله وقد رأى الحكم طلبة الساسة جميعا أراد أن ينأى بنفسه عن هذا المعترك ، فقد أمضه

مسلك مكرم عبيد وان لم يفصح عن ذلك عندما اشتركا معا فى وزارة أحمد ماهر ، وتقدم مكرم بكادر للعمـــال دون الرجوع الى وزير الشئون الاجتماعية فى ذلك ، بل لقد عرضه على مجلس الوزراء « من غير أن يكون واردا فى جدول اعمال المجلس » • ولم يرض منذ البداية أن تتجاوز السلطات العليا حق الحاكم العسكرى بالافراج عن مكرم من المعتقل ، فيقول : « بأمر من افرج عنه ؟ وكيف استطاع ان يحضر بهذه السرعة ؟ لقد كان من الطبيعى ان يفرج عنه بعد تعيين حاكم عسكرى يحل محل النحاس باشا ويصدر امر الافراج » كان هذا التجاوز عدوانا على القواعد التى يقرها الدستور ، وهو ما يخشاه الدكتور هيكل ولا يرضى سواء كان المفرج عنه مكرم أو غيره •

ولقد رأى من جو الحديث الدائر « مالا يشجعنى على الاشتراك فى الوزارة ، بل لا يشجع على ان يشترك فيها الأحرار الدستوريون ، فلما آلف النقراشى الوزارة خلفا لأحمد ماهر بعد اغتياله ، كان مكرم برما « بوجوده فى وزارة يرأسها النقراشى باشا ، ولم يكن يخفى هذا الشـــعور ، بل كان يبدى فى كثير من المواقف انه يريد الاستقالة ، واستقالته معناها استقالة زملائه فى الوزارة » مما يخيف النقراشى ويخيف رئيس الديوان •

ويعلق الدكتور هيكل على هذا الموقف ، فيتساءل : « ترى لو أن أحمد ماهر باشا كان حيا ، أكان مكرم باشا يسلك معه مسلكه مع النقراشى باشا ؟ ولو أنه فعل ، أكان ماهر باشا يسلك معه مسلك النقراشى باشا ؟ لا أظن • فقد كان مكرم باشا يعلم أن الدكتور ماهر ، كان الى ذكائه حازما ، والى لطفه وظرفه ، شديد الاعتداد بنفسه ، فلا يقبل مثل هذه المعاملة من أحد • ولو أن مكرم باشا سلك معه مسلكه مع النقراشى باشا لما تردد فى تقديم استقالة الوزارة ، لأن التعاون بينه وبين مكرم باشا أصبح مستحيلا ، ولما رجع من

استقالته هذه لأى اعتبار ، ولما بلغ حرصه على الوزارة أن يقبل وساطة او تسوية ، فاما لكلفه الملك بعد بعد ذلك باعادة تاليفها فالفها ولم يشترك فيها مكرم باشا وحزبه ، واما الفها غيره فكان له رايه فى اشتراك حزبه او عدم اشتراكه فى الوزارة الجديدة » ٠

فلما الف اسماعيل صـدقى الوزارة خلفا للنقراشى ، ابدت كثرة الأحرار الدستوريين « الميل للتعاون مع صدقى باشا ، ولم اشاركهم فى هذا الميل ، فلم أنس مواقف صدقى باشا منا فى سنة ١٩٣٠ ٠٠٠ وبعد مناقشات طويلة بينى وبين الوزراء الدستوريين السابقين ، تالفت الوزارة وبين أعضـائها اربعة منهم ، ولم أر الاعتراض على ما حدث حرصا على وحدة الحزب » ٠٠

ولما عزم صدقى على الاستقالة « اراد الملك ان تتالف وزارة مؤتلفة برياسة شريف صبرى باشا » ودعا هيكل للاشتراك فيها مع دستورى آخر ، « وكان جوابى أننى عاهدت الله ونفسى الا أكون وزيرا ابدا ، وأننى لا أنقض عهدا قطعته » ٠

وكان الدكتور هيكل صادقا مع نفسه فى عزوفه عن المناصب الوزارية ، فقد رأى الأمور تمضى من سىء الى أسوأ ، وقد رأى فى رياسته لمجلس الشيوخ ما يجنبه موقفا لا يرضاه لنفسه ولا لبلده، وتبقى له حريته فى اتخاذ الموقف الذى يراه عدلا لما يؤمن به ، ويراه أوفق لبعده عن التحزب ٠

وفى هذا المكان كان المشير والوسيط عندما يحزب الأمر ، وكان البعيد عن الخطل حين يتمكن الخطل فلا يرد ٠ وقد نأى عن الوزارة ليتنكب الخطل ، ولا يكون للخطل قدرة عليه ٠ وكان من بعد النظر وسداد البصيرة أن رأى الأمور تتردى وتسوء غير قادر على ردها ، وأن أتاح مكانه فى مجلس الشيوخ أن يسوق الرأى حرا فاما اتبع فقد

أدى ماعليه واما اهمل فما عليه من سبيل ، وقد جاءه حسين سرى مساء اغتيل رئيس الوزراء احمد ماهر فى طريقه الى مجلس الشيوخ لألقاء بيانه ، يقول : « انك انت الرجل الأول فى الدولة ، وليست فى البلد وزارة وقد قتل رئيس الوزارة ، فعليك أن تفكر فيما يلقيه عليك هذا المقام من تبعة لتنهض بها على الوجه الذى يكفل مصـــلحة البلاد » ٠

ورأى من واجبه أن يقابل الملك « ولأشير عليه بالرأى فى هذا الموقف الدقيق ٠٠٠ وأخذت افكر وأنا فى الطريق الى هناك فى المشورة التى اتقدم بها ، وسرعان ما استقر رأيى على أن الوزارة يجب أن تبقى كما هى وكأن لم يحدث شىء ، ويجب أن يتولى رياستها نائب رئيس الهيئة السعدية ، محمود فهمى النقراشى باشا حتى لا يشعر احد بأن مقتل رئيس هذه الهيئة قد أزاحها عن رياسة الوزارة » ٠

ويقول للملك : « ان البلاد لا يصح أن تبيت بغير وزارة ، حتى لا تنشط عناصر الفوضى فتثير فى البلاد اضطرابا » ٠

ورأى الملك أن تبقى الوزارة كما هى وأن يعين النقراشى رئيسا لها ، ورأى الدكتور هيكل فى هذا الاجراء خروجا على الدستور ، فيقول للملك : « لقد سقطت الوزارة بوفاة ماهر باشا ، فلم يبق لها وجود وتقاليدنا الدستورية كلها تقضى بأن يعهد الملك الى من يؤلف الوزارة من جديد ، وذلك حكم الدستور أيضا » ٠

وانتهى الرأى الى ما أشار به الدكتور هيكل ، وذهب النقراشى « الى القصر وناقش القانونيين فيه واقنعهم بالعدول عنه الى ما الفته مصر فى تقليدها الدستورى حين تأليف الوزارات ، بذلك قضى فى المهد ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ على بدعة لم يعرفها دستور برلمانى فى العالم ، ولم تعرفها مصر منذ سنة ١٨٧٩ حين أصدر الخديو اسماعيل ارادته بأن يحكم مصر مع وزرائه وبواسطتهم » ٠

ولما صدر المرسوم بتاليف وفد مصر الى مؤتمر سان فرنسسكو برياسة رئيس الوزراء رأى الدكتور هيكل : « أن غياب كبار الساسة عن مصر فى هذه الفترة الدقيقة من حياة العالم لا ضرورة له وقد تخشى مغبته لدقة الموقف الذى نشأ عن تطور الأحوال فى مصر تطورا كان مقتل الدكتور أحمد ماهر باشا بعض نتائجه » ويشير على النقراشى بأن يرأس وزير الخارجية وفد مصر ، ويأخذ النقراشى برأيه ويعاد « تاليف الوفد برياسة وزير الخارجية » ٠

ولكنه يفشل فى الوساطة بين النقراشى ومكرم ، ولم يوفق فى أن يسوى ما بينهما من خلاف ، كما يفشل فى مسعاه لجمع كلمة الأحزاب ، ومصر تحتكم فى قضيتها الى مجلس الأمن ، وقد قدر « أن وحدة الأمة فى وزارة قومية أكفل بنجاح مسعاها » كما رأى أن الخلاف بين الأحزاب المصرية « قد شجع الملك فى اتجاهه المطلق » ولم يبد صدقى اعتراضا على تعيين كريم ثابت مستشارا صحفيا للملك، وسكت على دعوة الملك « بغير رأى الوزارة ولا علمها ملوك الدول العربية ورؤساء جمهورياتها الى اجتماع فى مزارعه الخاصة بأنشاص » ٠

لم يكن ذلك مما يتصل بارادته ، ولم تلجأ الوزارة فيها الى السلطة التشريعية ليكون لها موقف منها ، فلما اشتد صدقى فى معاملة « الصحف بحجة مقاومة الشيوعية وما يتصل بها من نزعات يسارية والى اعتقال من ينسب اليهم نشاط شيوعى اعتقالا شبه عرفى » ٠٠ واستند فى ذلك « الى فقرة وردت فى مادة الدستور الخاصة بحرية الصحافة تبيح انذار الصحف أو تعطيلها بالطريق الادارى اذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى » وينتقل الأمر الى مجلس الشيوخ ، فيدين الدكتور هذا الاجراء ، ويتلو « يومئذ من منصة رياسة الشيوخ بيانا أدفع به هذا التفسير وأدافع عن حرية الصحافة ، وأعيد الى الأذهان أن الفقرة التى تستند اليها

الحكومة انما اقحمت على المشروع الذى وضعته لجنة الدستور فى سنة ١٩٢٢ لمقاومة الشيوعية ، فهى استثناء من نص المادة الذى يحظر مراقبة الصـــحف وانذارها أو تعطيلها بالطريق الادارى ، ولا يصح أن يتجاوز الاستثناء حدوده بحال ، بل يجب أن يبقى محصورا فى أضيق هذه الحدود » ·

ويكتب الأستاذ أحمد أبو الفتح فى أخبار اليوم بتاريخ ٢ يناير ١٩٨٢ بعد ذلك بست وثلاثين سنة يقول :

« تاريخ مصر حافل بصفحات ناصعة تشرف مصر · حدث أثناء تولى اسماعيل صدقى باشا رئاسة حكومة ائتلافية تضم وزراء من حزب الأحرار الدستوريين الذى كان يراسه وقتئذ الدكتور محمد حسين هيكل باشا أن أصدر صدقى باشا سنة ١٩٤٦ قرارا اداريا بتعطيل ست صحف من صحف المعارضة ·· أثار هذا الاجراء المنافى للحرية ثائرة المعارضة فقدم صبرى أبو علم باشا عضو مجلس الشيوخ استجوابا يطالب فيه رئيس الوزراء شـــرح الاجـــراء الذى اتخذه ضـــد الصـــحف الست ·· ألقى صبرى باشا بيانا مســـهبا وعنيفا اتهم فيه صـــدقى باشا بالاعتداء على حـــرية الصـــحافة · ·ألقى فؤاد ســـراج الدين باشا بيانا أشـــد عنفا ونقدا لاجراء رئيس الوزراء ·· كانت الأحـــكام العرفية التى تم فرضها أثناء الحرب العالمية لاتزال قائمة رغم انتهاء الحرب ·· رغم قيام الأحكام العرفية ورغم ما كان معروفا عن صـــدقى باشا من الشدة كانت المناقشـــات التى تدور فى البرلمان أى فى مجلسى النواب والشـــيوخ تتمتع بحصـــانة كاملة فلا يســـتطيع رقيب أو حتى رئيس الوزراى أن يمنع الصـــحف من نشـــر لكل تفاصـــيلها مهما كانت حدة الاتهامات التى يوجهها النواب أو الشـــيوخ تحت قبـــة البرلمان للحكومة ·· كان رئيس مجلس الشـــيوخ فى ذلك الوقت الدكتور هيكل باشـــا الذى يتولى أعضـــاء من حزبه مناصـــب

وزارية فى حكومة صدقى باشا ٠٠ توقع المصريون ان يحاول الدكتور هيكل عرقلة مهمة الشيوخ الوفديين وعدم تمكينهم من اتهام الحكومة التى بها وزراء من حزبه ٠٠ كانت مفاجاة المصريين كبيرة اذ رأوا رئيس حزب الاحرار الدستوريين لا يستعمل سلطاته كرئيس لمجلس الشيوخ ليحول دون حرية المعارضة فى اتهام رئيس الوزراء بل على العكس اتاح للمعارضة كل الحريات لتؤدى واجبها كاملا ٠٠ لم يكتف الدكتور هيكل بذلك بل ذهب فى نزاهته الى درجة اذهلت كل خصومه ذ قدم لمجلس الشيوخ بحثا دستوريا أعده اتهم فيه اجراء رئيس الحكومة بمخالفة الدستور وحرية الصحافة ٠٠ لم يعبأ الدكتور هيكل بالتحالف القائم بين الحزب الذى يرأسه وصدقى باشا ولم يدفعه الحرص على بقاء اشتراك وزراء من حزبه فى الحكومة الى التخلى عن ضميره ٠٠ كان من الممكن ان يلتزم الدكتور هيكل الصمت ويكفيه من الفخر اتاحة حرية المناقشة للمعارضة ولكنه ابى ذلك وقدم بحثه للمجلس مما اضطر صدقى باشا الى التصريح فى المجلس بقوله : بعد ان قدم الدكتور هيكل باشا بيانه بادانة القرار الذى اتخذته قبل الصحف الست وجب اعادة النظر فى هذا القرار ٠٠ هكذا سجل رئيس مجلس الشيوخ فى تاريخ الحياة البرلمانية والنيابية صفحة فخار لبرلمان مصر وللحياة النيابية ولحرية الصحافة » ٠

ترى اكان الدكتور يعرف ميل اسماعيل صدقى » الى مجاراة القصر فى رغائبة ، معتبرا القصر سنده الأصيل ، حين ابى مشاركة رجال حزبه فى مبلهم « للتعاون مع صدقى باشا » فكان ان صدقت الأيام رأيه ٠

وكان للدكتور موقفه أمام تدخل السراى فى شئون مجلس الشيوخ ، فقد انتهت « مدة محمود شكرى باشا ولم يعين من جديد ، وكان محمود شكرى رئيسا للجنة المالية بالمجلس مشهودا له بالكفاية

والمثابرة والدقة ، أما ولم يبق عضوا بالمجلس فقد وجب أن تنتخب اللجنة رئيسا لها مكانه ، وتداولت مع أعضاء اللجنة فى الأمر واستقر رأينا على اختيار حسن صادق باشا وزير المالية الأسبق رئيســـا للجنة ، وفى اليوم الذى تحدد لانتخاب الرئيس دق جرس التليفون وحدثنى حسن بك يوسف رئيس الديوان بالنيابة ، وقال فى تلطف زائد : أيسمح معالى الرئيس أن نقترح عليه رئيسا للجنة المالية مكان شكرى باشا ؟ وأجبته على الفور : لقد تم اختيار حسن باشا صادق عند ذلك قال : حسن باشا رجل عظيم ، وانتهت المحادثة ولم يخاطبنى احد شخصيا من بعد فى أمر مما يجرى بمجلس الشيوخ » ٠

كان الدكتور هيكل بعيد النظر حين ابتعد عن المناصب الوزارية حيث لا يملك وحده الأمر فيما يمليه الملك على الوزارة من رغبات وكانت رغباته متصلة لا تنتهى ٠

وقد رأى كريم ثابت أن يتودد اليه ، وفى لقاء عابر « عند باب كازينو سان استفانو أخبرنى أنه يريد أن يتحدث الى ، وكانت الأحزاب تعد نفسها لانتخابات مجلس النواب بعد انتهاء فصـــله التشريعى فى يناير ١٩٥٠ ـ وهو المجلس الوحيد الذى أكمل دورته التشريعية فى تاريخ الحياة النيابية فى مصر منذ قامت حتى وقتنا هذا ـ ورأى الأحرار الدستوريون أن يكون وزير الداخلية مستقلا ، ضمانا للحيدة ٠

وقال كريم ثابت : « أصحيح أن الأحرار الدستوريين يريدون وزيرا مستقلا للداخلية ليطمئنوا الى نزاهة الانتخابات ؟قلت : لم يتخذ الحزب قرار فى الأمر ، وان أفضى الى بعض النواب بمثل هذا الرأى ، قال : سأبلغ الملك هذا الحديث : قلت : أنت ومابدالك ٠٠ وكان هذا أول حديث وآخر حديث جرى بينى وبين كريم ثابت فى مسألة عامة » ٠

ولم يكن الدكتور هيكل يطيق مثل ذلك ؛ وقد رأى « أن سلطان القصر تجاوز رسم السياسة العامة الى التدخل فى شــئون الحكم جليلها ودقيقها ، وكان أشد تدخله فيما يتصل برغبات الملك ومطالبه، وكان سلاح اقالة الوزارة أو دفعها كارهة للاستقالة هو ما تخشاه بعض الوزارات وما ترتعد منه فرائص بعضها ·· وكان الوزير الذى لا يرضى الملك عن بقائه فى الوزارة مضطرا للاستقالة ·· وقد حدث غير مرة أن وقف بعض الوزراء فلم ينفذوا ما ابلغوا أن رغبة الملك أو أن أمره متجهان الى تنفيذه ، وكانت مثل هذه المواقف تحسب على الوزراء الذين يقفونها ، وحسابها عليهم كان يميل بوزراء آخرين الى المسارعة لاجابة ما يطلب اليهم ، بل الى اقتراح ما يحسبونه يرضى الملك وان لم يطلبه وهذا الطراز الأخير من الوزراء كان يلتمس الزلفى لدى القصر بالتقرب الى هذا أو ذاك من رجال الحاشــية يظنونهم مقربين من الملك قريبين الى قلبه ، وكان الأستاذ كريم ثابت فى مقدمة هؤلاء المقربين القريبين ، ثم كان محمد حسن السليمانى خادم الملك الخاص (الشماشرجى) من هؤلاء المقربين الذين يلتمس بعض الكبراء الزلفى اليهم ·· وقد سرت عدوى الزلفى من الوزراء الى الموظفين كبارا وصغارا ، فكان وكيل الوزارة أو سكرتيرها العام أو مدير المديرية ، بل كان بعض رجال القضاء يرون من أسباب ولائهم للقصر أن يتجاوزوا رؤساءهم وأن يتجاوزوا وزيرهم وأن يذهبوا الى القصر يعرضون عليه ما يحسبونه ينال الرضا السامى وما يترتب عليه من رقى وطمأنينة الى نعمة الحياة » ·

وبقى الدكتور هيكل رئيسا لمجلس الشيوخ بعيدا على رأس السلطة التشــريعية عن كل ما يسى الى الحكم وكرامة الحكام ، حفيظا على استقلال مجلس الشيوخ من كل ما يسىء الى استقلاله ويرى كما كان يرى من قبل الا سبيل لأى « حــزب ينفرد بالحكم مواجهة الموقف فى مصر ، فلا يستطيع حل المشكلة السياسية مع

انجلترا ، ولا يستطيع اقناع الملك بانه يملك ولا يحكم ، ولايستطيع توطيد الأحوال الاقتصادية أو المبادىء الدستورية أو أن ينقذ البلاد من المشاكل الجسيمة التى تواجهها ··· كان فؤاد باشا سراج الدين كثير التردد على مكتبى فى رياسة الشيوخ باعتباره المتحدث باسم المعارضة فى المجلس ، وكنا كثيرا ما نتناول هذا الموضوع بالبحث ، وكنا متفقين تمام الاتفاق على أن أى حزب ينفرد بالحكم لا يستطيع مواجهة الموقف فى مصر » وكان فؤاد سراج الدين ، يقول له : « لو أن الأمر لى وحدى لاتفقت معك » ولكنه « رأى الوفد وانه لايستطيع الخروج عليه » ·

ولم يكن ذلك رأى الوفد وحده ، ولكنه رأى الأحزاب جميعا ، وأولها الأحزاب التى انشقت عليه ، فقد أصبح الحكم طلبة الجميع وغاية كل مشتغل بالسياسة · وكان فؤاد سراج الدين يشق طريقه فى عالم السياسة بذكاء نادر وشباب فتى فقد كان أصغر أقرانه سنا ، والمستقبل أمامه جياش بالأمل ، وقد شق طريقه اليه بذكائه وقدرته أكثر مما شقه بجاهه أو ثروته ، وقد عرفت الرجل أول ما عرفته ونحن نكون « الوفد الجديد » ولمست فيه هذا الذكاء وتلك القدرة الى مرونة وشعبية وحسم هى من صفات الزعامة ·

وكان ختام المطاف حين تقدم مصطفى مرعى باستجوابه المشهور حول استقالة محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة لمخالفات مست رجال الحاشية الملكية وتتناول ماسمى بصفقات الأسلحة الفاسدة ، ولم يرض الملك عن مسلك الدكتور هيكل فى نظر الاستجواب أمام الشيوخ حتى انه لم يدع رئيس الشيوخ الى المأدبة الملكية التى أقامها للوزراء ودعا اليها رئيس النواب غداة « انتقاله الى الاسكندرية لمصطاف ·· اعلانا لعدم رضاه عما حدث فى الاستجواب · وأشار على جماعة من معارفى ومن خاصة أصدقائى ألا أعير هذا الأمر بالا ، وحذرونى من التفكير فى الاستقالة حتى

لا تكون ثمت سابقة تفسر بنزول رئيس الهيئة التشريعية على رغبة الملك أو هواه ‥ » الا أنه يرى « أن الأمر يجب أن يوضع له حد ، فكلفت الأستاذ حافظ محمود رئيس تحرير السـياسة ووكيل نقابة الصحفيين أن يتصل بادجار باشا جلاد صـاحب جريدة الزمان والمتصـل بالقصر ، وأن يسأله اذ كان ما حدث من عدم دعوتى مقصودا ويراد أن يستمر ، أو يراد أن تحل المسألة بالحسنى ‥ وعلمت منه » ـ انه « سافر الى الاسكندرية وتكلم مع رجال القصر ثم عاد وأخبرنى أنه لم يجد حلا سريعا للمسألة ‥ عند ذلك رأيت أن أضع الأمور فى نصابها وأن أصرح فى جلسة الاثنين حين يبدأ نظر الاستجواب بأن اللائحة الداخلية احترمت ، وبأن كرسى الرياسة لم يتأثر ولا يمكن أن يتأثر الا بأحكام الدستور واللائحة على نحو ما حدث خلال رياستى التى استمرت الى يومئذ خمس سنوات ونصف السنة ، واتصل مقصدى هذا ببعض الوفديين فجاءوا الى يحاولون أن تكون الصيغة مخففة حتى لا تثير ثائرة جديدة » ثم كانت صيغة « رضيت عنها ، وفيما نحن كذلك جاء فؤاد باشا سراج الدين وأطلع على هذه الصـيغة وقال انه يرى الخير فى ألا يعترض عليها ، وهذه الصيغة هى :

« أرى بوصفى رئيسا لهذا المجلس الموقر ـ أكبر هيئة تشريعية فى البلاد ـ أن أضع الأمور فى نصابها ، لمناسبة اللغط الذى أثير حول استجواب حضـرة الشيخ المحترم مصطفى مرعى بك أننى لحفيظ على الدستور ، واللائحة الداخلية ، وحرية الرأى ، فى هذا المجلس الذى يضم نخبة رجال الأمة وصفوة أبنائها ، وهم يعرفون حقوقهم وواجباتهم الدستورية ومالهم من حق ابداء الرأى فى حرية تامة » ‥

« حضرات الشيوخ المحترمين

« ليس من شأن الجالس على هذا الكرسى أن يتولى الرد

على ما ينشر فى الصحف من مهاترات ، وأؤكد لحضراتكم ان هذا الكرسى ، الذى تشرفت بالجلوس عليه للسنة السادسة ، ثابت ثبات الطود ، فالجالس عليه يؤدى واجبه فى كل الظروف فى حدود الدستور واللائحة الداخلية ، والتقاليد الكريمة التى جرى عليها مجلسكم الموقر » ٠

وتسوء الأمور بين رئيس الشيوخ والملك ، وتخوض الصحف فيما يدور « حول رياسة الشيوخ ، وشعرت بأن موقف الحكومة وموقف القصر ازائى ليس فيه من معنى المودة والتعاون ماكنت أشعر به من قبل ، عند ذلك عاودتنى الحيرة ، أأستقيل أم ماذا ؟ » ويشير عليه أصدقاؤه : بهى الدين بركات ، والدكتور حافظ عفيفى ، وأستاذه لطفى السيد ألا يستقيل ٠

« وجاء الى رياسة المجلس فؤاد باشا سراج الدين ومربى فسألته رأيه ، رأى صديق قديم ، فأشار على بعدم الاستقالة قائلا : انك ان استقلت وأردت أن تقابل جلالة الملك فقد لا يقابلك ، بينما هو يقابلك اذا طلبت هذه المقابلة وأنت رئيس الشيوخ ٠ عند ذلك رأيت أن أدع المقادير تجـــرى فى أعنتها ، وان أيقنت أن الأمور لابد أن تتمخض عن شيء لا أتبينه » ٠

ولم تمض غير أيام قلائل حتى صدرت « مراسم ١٧ يونية ١٩٥٠ » باسقاط عضوية عدد من الشيوخ أو تعيين غيرهم وصدور مرسوم « آخر بتعيين على زكى العرابى باشا رئيسا للشيوخ » ٠

وكان ذلك آخر عهده بالمناصـــب وان لم يكن آخر عهـــده بالسياسة ، ولكن الأمور كانت تسوء يوما بعد الآخر وتجرى الى نهاية لم تغب على كثيرين وان غابت عنهم معالمها ٠

٢٢ بدايـــة النهايـــة

كانت نذر النهاية تلوح بينة فى افق السياسة المصرية فى بداية الخمسينيات وكانت خطى الانهيار اسرع من أن يتوقعها انسان ، وأقوى من أن يتقيها حاكم بعد أن انتهى الحكم الى صغار لم يعد للايثار معه مكان ، والى مهانة لم يعد للكبرياء معها وسيلة ، فصغر كل شىء وهان معه كل شىء ·

وكانت البداية حين تنكب الحكام الموضـــوعية الى الذاتية وأصبح الحكم غاية لذاته ولم يعد وسيلة لحكم بناء ، فطغى التحزب على الحزبية ، وانشق القادة والزعماء فرقا كل منها يسعى الى الحكم مغلفا بالارادة الملكية ، فعلت سلطة الملك وهوت سلطة الشعب، وكان الدستور لعبة المتنافسين على الحكم ، وكل منهم يرى نفسه الأذكى والأحق والأقدر والأقوم على القيادة والحكم ، واصـــبحت

السلطة بغية اللاعبين على المسرح والمهرجين من اتباعهم ، وانفرط عقد الوحدة القومية ونفذ الملك من خلالها الى التسلطة والاستبداد .

« وآمن من يومئذ بأن الأحزاب التى تأبى أن تجتمع لمصلحة وطنية عليا لا سبيل الى اجتماع كلمتها ضد ما يكسبه لنفسه من سلطان مطلق .. وكان طبيعيا أن يتجه فاروق للسلطان المطلق وقد وجد ما يدفعه اليه ويشجعه عليه ، فتاريخ مصر الحديث يميل به الى هذا السلطان والى مقاومة كل قوة تقف في سبيله .. ألم يكن جده الأعلى محمد على قد فرض نفسه حاكما مطلقا بعد أن وصل الى باشوية مصر بارادة الشعب المصرى ؟ ... أو لم يكن جده اسماعيل مثال الحاكم الفرد الذى لا يعرف لسـلطانه حدا ولا قيدا ؟ .. وكان لوالده الملك فؤاد مثل هذه النزعة ، وان بقيت حبيسة فى السنوات الأولى من عهده .. فلما استخلصت مصر من انجلترا الاعتراف باستقلالها وسيادتها ، حاول أن يفوز بالنصيب الأوفى من ثمرات هذا الاعتراف ، وأن يوسع حقوق الملك فى الدستور ، وأن يمدها من بعد الى ما وراء نص الدستـور ، ولهذا ظلت صـلاته بالساسة المصـريين قائمة على الحيطة والحذر فلما تولى فاروق بعد أبيه « ولما تسعده دراسته بحظ من الحكمة ... كان طموحه الى الانفراد بالسلطان عظيما » يغذيه المحيطون به ، ويذكرون له : « أن الساسة فى مصر قد نشأوا فى عهد الاحتلال البريطانى والحماية البريطانية وظلوا متأثرين بتفكير ذلك العهد وعقليته » وانه هو وحده « وارث هذا التراث المجيد » الذى شاده أجداده ، « وصاحب الرسالة ببعث الشرق كله واتمام المعجزة التى حاولها جده محمد على ثم حالت الأقدار دونه .. فكان يصدق ذلك وأشباهه .. كان يفسح صدره للملقين الذين لا يفتأون فى ملقهم يكررون له انه الحكمة مجسمة .. »

الا أن الأمور كانت أبعد مدى من أن تحكمها نزعة الملك وحدها الى الاستبداد ، فان الساسة بدورهم لم يدركوا حاجتهم الى الوحدة

والتآلف ، ولما يكتمل استقلال البلاد ، وأن السلطة الحقيقية يتنازعها الملك وسلطان الانجليز ، ولم يع هؤلاء الساسة دعوة الدكتور هيكل منذ بدأ حياته السياسية الى « الوحدة القومية » فذهبوا شيعا كل يرى نفسه أجدر بالحكم وأقوى عليه ، ولم يتبينوا ما ذهب اليه سعد زغلول فى أخـــريات أيامه من حرص على الوحدة القومية وتآلف الأحزاب ، حتى دعا الى اندماجها معا كما كانت فى ثورة ١٩١٩ ·

ولم يدرك الساسة ولا الملك تلك النزعات الجديدة التى تصدر عن الشباب وبدت ملامحها فى الثلاثينيات حين قاموا بمشروع القرش ثم مالبث أصحابه أحمد حسين وفتحى رضوان أن أصدرا مجلة « الصرخة » ذات نزعة قومية حادة و يشترك معهما حافظ محمود رئيسا للتحرير ، حتى أنشأ أحمد حسين وفتحى رضوان « جمعية مصر الفتاة » وينفصل عنهما حافظ محمود ، وأنشأ سلامة موسى مع بعض الشباب « جمعية المصرى للمصـــرى » واختاروا حافظ محمود سكرتيرا لها ، ثم أصبحت « جمعية الاستقلال الاقتصادى » ودعا محمد زكى عبد القادر الى انشاء « جمعية الفلاح » ·

ثم كانت هذه الحركة التى بدأت بعيدة عن القاهرة حين أنشأ حسن البنا فى الاسماعيلية حيث كان يعمل مدرسا فى احدى مدارس وزارة المعارف « جمعية الاخوان المسلمين » ·

كان لتلك الحركات دلالاتها التى لم يعن بها رجال السياسة حين أخذت تســـفر عن اتجاهات جديدة ، وان بدت غـــائمة فى أذهان أصحابها فقد كان سلامة موسى حائرا بين النزعة القومية الحادة فى دعوته « المصرى للمصرى » وبين النزعة الى الاشتراكية الفابية ، وكان أحمد حسين بمزاج الفنان وعاطفته الوطنية الجياشة يعبر عن ارهاصات تدور فى أذهان الشباب المثقف ، الا أن العاطفة الوطنية فيها غلبت الفكر السياسى ، فاذا كانت الوطنية تقوم على العاطفة

فان الفكر السياسى يقوم على واقع عملى وفكر سياسى محدد يقوم فى عالم الفكر على نظريات محددة ، وفى العمل السـياسى على المنفعة الخالصة للمجموع فى الداخل والانتفاع من العلاقات الدولية فى الخارج وكان للفكر الشيوعى ارهاصات مبهمة لدى دعاتها وهم قلة غريبة لم يكن لها صدى بعد فى الفكر المصرى ، ولم يكن لها دلالة فى اتجاهات الحركة النقابية للعمال ، فقد ظل العمال وهم يدينون للوفد بكل ولاء ٠

وقد ظلت هذه الارهاصات خافتة وليس لها صدى فى الرأى العام الا ما كان يثيره أحمد حسين بحيويته ونشاطه الجم من حركات بين كل أونة وأخرى وفى كل مناسبة وطنية تثير ولا تؤثر ، ولعل حركة الأخوان المسلمين كانت أكثر فاعلية لدى سواد الشعب ، وكانت اقرب الى عواطف الجماهير الدينية فاستقطبتهم دينيا ولم تستقطبهم سياسيا ، ولعل الشيخ حسن البنا ، وقد نأى بدعوته فى البداية عن الناحية السياسية وقصرها على الجانب الدينى ، لم يلق من النجاح السـياسى مالقيه من نجاح دينى حين بدأ يخوض بدعوته غمار السياسة ، وحين خاضها كان الفكر السياسى لديه ولدى الجماعة غائما بمثل ما كان عملها فى ميدان السياسة ٠

ولعل حركة شباب الجامعة ، وما عم البلاد من مظاهرات عام ١٩٣٥ كانت اكثر تعبيرا عن اتجاهات الرأى العام حين صرح صمويل هور وزير الخارجية البريطانية بما يمس استقلال مصر ووضعها الداخلى وهو ماعده الدكتور هيكل ، « رجوعا بنا القهقرى عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى ترك لمصر الحرية فى وضع دستورها ، فقد اتجه الشباب الى الزعماء يطالبونهم بالوحدة القومية لمجابهة التدخل البريطانى ، وقد أخذ « الشباب يتنقلون بين أندية الأحزاب زرافات كل مساء ، يطلبون الى زعماء الأحزاب أن يتحدوا ٠٠ وكان

لموقف الشباب أثره الفعال فى تكوين « الجبهة الوطنية » التى انتهت بعقد معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وانجلترا ٠

كان الشباب فى ذلك أكثر وعيا من الزعماء بضرورة الوحدة القومية والتآلف الحزبى ، وقد سرهم أن يقول لهم محمد محمود « ذات مســاء : اننى لا أبتغى من الدعوة الى الوحدة أى شىء لنفسى : اننى خادم لكل من يخدم وطنه بصدق واخلاص ! »

ثم كانت الحرب العالمية الثانية ، بعد ابرام المعاهدة وولاية فاروق عرش أبائه بنيف وثلاث سنوات ، واعلان الأحكام العرفية ، وما كان من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وقد بدا أن الحرب قد عصفت بكثير من الموازين القديمة ، وان عالما جديدا تبدو تباشيره ، لم يلق اليها الساسة فى مصر بالا ، وان جرتهم اليها جرا عنيفا ، وقد بدا الخطأ حين ابلغت الحكومة الأمريكية الدكتور أحمد ماهر رئيس وزراء مصر : « أن دول الحلفاء : امريكا ، وانجلترا ، وروسيا ، وفرنسا ، والصين ، وكان يعبر عن رؤسائها يومئذ ــ بالخمســة الكبار ــ ستعقد مؤتمرا بسان فرنسسكو فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٤٥ لانشاء منظمة دولية جديدة تحل محل عصبة الأمم ، وأن هذه الدول قد وضع حبراؤها فى بلدة ــ دمبارتن أوكس ــ مشروعا بالأسس التى تقوم عليها المنظمة الجديدة ، وأن الدول التى تشترك فى هذه المنظمة يجب أن تعلن الحرب على خصوم الحلفاء قبل يوم أول مارس سنة ١٩٤٥ » وقد رأى الدكتور ماهر « بدعوتى ودعوة بدوى باشا ــ كما يروى الدكتور هيكل ــ أن نبحث فيما اذا كنا نعلن الحرب لنشترك فى هذا المؤتمر أو لا نعلنها ونظل بعيدين عنه » ٠

أما وقد انتهت الحرب فى أوربا ، فاذا أعلنت مصر « الحرب على اليابان ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ لم يكن من اعلانها أى خطر عليها أو تهديد لها » ٠

كان على الدكتور احمد ماهر أن يواجه الرأى العام بكافة وسائل الأعلام لبيان مصلحة مصر فى اشتراكها « فى الحلبة الدولية ما وجدت الى هذا الاشتراك سبيلا » وكان عليه أن يشرح للرأى العام ما كان من سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب ، حين كانت الحرب فى عنفوانها وكانت قوات المحور تطرق أبواب مصر ، وما اصبح عليه الوضع بعد أن كسب الحلفاء الحرب فى أوربا وابتعد الخطر عن مصر ، ولكنه بدلا من ذلك قام بتأليف لجنة سياسية من أهل الرأى فى البلاد على اختلاف ميولهم ومشاربهم رفض الوفد أن يشارك فيها ، وكان قمينا به أن يحتكم الى الرأى العام فى الخلاف بينه وبين الوفد فقد أصدر الوفد بيانا « بتوقيع مصطفى النحاس يتهم فيه الوزارة بانها تضر بمصالح البلاد ضررا يكاد يبلغ الخيانة بما تريد من اعلان الحرب · ويلصق بالوزارة لذلك أبشع التهم » ·

وكان أمرا عجبا أن تدعى مصـــــر الى الاشتراك فى المنظمة الدولية الجديدة التى تحل محل عصبة الأمم بلا مقابل الا أن تعلن الحرب على بلد تفصلها عنه آلاف الأميال ، من غير أى التزام مادى حيالها وقد حفيت أقدام الوفد المصـــــرى عامين على أبواب مؤتمر فرساى فى باريس ليسمعه صوت مصر دون جدوى ، أما الآن ومصر تدعى الى الاشتراك فى المنظمة الدولية الجديدة فان الوفد يرى فيها ابلغ الضرر ويصم الوزارة بالخيانة ، ويبلغ ابهام الفكر السياسى مداه حين تعقد اللجنة السياسية « اجتماعات كثيرة درست فيها مقترحات دمبارتن أوكس دراســـــة فقهية ، وناقشت هذه المقترحات مناقشة كانت تقف فى بعض الأحيان عند نقطة بذاتها جلسة كاملة » حمل الدكتور هيكل على الضيق بها ، فيقول : « وأعترف لقد كنت أضيق فى بعض الأحيان بهذه المناقشات ثم لا أستطيع الا أن اسكت وأن أكظم ما فى نفسى فى صمت وصبر ، ذلك باننى كنت مقتنعا بأن الخبراء الفنيين الذين وضعوا هذه المقترحات ـ وهم من الفقهاء

السياسيين فى الدول الكبرى الخمس قد قتلوا كل لفظ من ألفاظها بحثا وتمحيصا ٠٠٠ وان الدول التى دعيت للاشتراك فى مؤتمر سان فرنسسكو قد بلغ عددها العشرات » ٠

ويبلغ الخطأ مداه حين يعرض رئيس الوزراء ما اتفق عليه الرأى على مجلسى البرلمان فى جلسة سرية ، وهو ما يمكن أن يشيع فى الرأى العام نوعا من البلبلة والحذر ٠ وقد دفع الدكتور ماهر حياته ثمن هذا الخطأ حين أطلق عليه شاب الرصاص فأرداه قتيلا وهو يتخطى البهو الفرعونى فى طريقه من مجلس النواب الى مجلس الشيوخ ٠

كان اغتيال الدكتور احمد ماهر بعض ما نجم عن الابهـــام السياسى الذى غلف عقول المصريين من أثر الأحكام العرفية التى قيدت الحريات وحجبت الحقائق عن سواد الشعب ، فغلبت الشائعة الحقيقة وأصبح الناس فى عماء مما يحيط بهم ، والأحزاب تتناحر وتغيم الحقيقة فى دعاويها ٠

وقد أفاد الملك وحاشيته من اختلاف الأحزاب وتناحرها على السلطة ، وقد وجدا فى خروج ماهر والنقراشى على الزعامة الوفدية وسيلة لضربها ، فخيل لدوائر الســـراى أن قيام الرجلين بتأليف وزارة وفدية جديدة يطيح بزعامة النحاس ويستقطب رجال الوفد اليهما ، لولا أن على ماهر المشير الأول للسراى حينذاك حذر من هذه المحاولة ، كما حذر الانجليز الملك منها ٠

الا أن خروج ماهر والنقراشى على الزعامة لم يؤثر فى كيان الوفد ، فلم يتبعهما غير ثلاثة من أعضاء الهيئة الوفدية ، وقد أعلنت ثقتها بالنحاس ، وفصل كل من يقبل أو يشـــترك أو يؤلف وزارة لا يرأسها النحاس ٠

وخابت محاولة السراى ، فنبذت فكرة تكليف الدكتور ماهر بتاليف الوزارة الجديدة التى تخلف وزارة النحاس بعد اقالته ، والف محمد محمود الوزارة الجديدة ، حتى اذا أجرت انتخابات نيابية جديدة فاز الأحرار الدستوريون بالأغلبية النسبية ، وكان على رئيسهم أن يقوم بتاليف الوزارة الجديدة ، فقدم استقالته ليعهد اليه الملك بتاليفها من جديد وفقا لقواعد الدستور ، الا أن الملك يستبقى الاستقالة عنده ، وطلب الى محمد محمود « الانتظار حتى يرى رأيه فيها ويبت فى أمرها » ويطول الانتظار الى ما بعد افتتاح البرلمان،وان كلف الملك محمد محمود بالقاء خطاب العرش ، فلما عهد اليه اخيرا بتاليف الوزارة « استبقى الملك الكشف عنده كما استبقى استقالة الوزارة من قبل . ثم طلب الى محمد باشا أن يقدم كشفا جديدا فقدمه فاستبقى كذلك كما استبقى كشف ثالث وكشف رابع وكشف خامس ، ومحمد باشا يقدم هذه الكشوف واحدا بعد الآخر على مضض ، محاولا ما استطاع ضبط نفسه والتحكم فى اعصابه » .

واختلف القوم فى تبرير ذلك ، ويقف المؤرخ حائرا فى تبرير صبر محمد محمود بما عرف عنه من أنفة وكبرياء ، على ذلك . ويتساءل الدكتور هيكل عن « السبب الحقيقى للأزمة » فيتساءل : « هل أريد احراج محمد باشا محمود حتى لا يؤلف الوزارة ؟ أو أريد اقناعه واقناع غيره من الطامعين فى رياسة الوزارة بأنهم لا أمل لهم فى تحقيق مطمعهم الا أن ينزلوا على ارادة القصر ، فاذا حرص أحدهم على أن تكون له ارادة الى جانبه أو سياسة غير سياسته خاب أمله فى تحقيق مطمعه ووجب عليه أن ينزل على الارادة ، أو ينزل عن هذا المطمع ؟ »

وليس هناك من تبرير الا أن الملك يوطد سلطانه ، ويسفر عن نزعته الى التسلط مما دفع البلاد دفعا شديدا الى النهاية المحتومة .

ويسفر الملك عن نزعته الأوتوقراطية ، حين أذاع لمناسبة رأس السنة الهجرية بيانا الى الشعب « على نحو ما كان يحدث فى الأعوام السابقة ، وجاء فيه أن جلالته ورث عن والده التمسك برأيه ، فلا يستطيع أحد أن يزعزعه عنه » .

ويرى الدكتور هيكل « أن هذه العبارة التى تضمنتها الاذاعة الملكية لا تنهض حجة بذاتها على أن للبندارى باشا يدا فيها ، فمن الطبيعى أن تصدر عن ملك شاب لم يبلغ العشرين من سنه ، له ما لفاروق من اعتداد بنفسه لم تصقله التجارب » .

ولعل على ماهر رئيس الديوان كأنه يستبعد أن تصدر هذه العبارة عن الملك بذاته ويعتقد أن كامل البندارى - وكان على ماهر هو الذى اختاره وكيلا للديوان - هو الذى أوحى بها الى الملك فتغيرت نفسه على وكيله ، وحين استدعاه لمقابلته فان « جلالته واجهه بأنه المقصود بالعبارة التى جاءت فى الاذاعة الملكية » ولكن على ماهر « علم من مصادر يثق بها أن البندارى باشا هو الذى كتب الاذاعة أو أوحى بها على الأقل » .

ولعل على ماهر لم يدرك ، وهو صاحب الفضل على الملك ، وسنده فيما اغتصب من حقوق لنفسه تخالف الأوضاع الدستورية ، أن الملك يمكن أن يتغير عليه ، ولعله لم يدرك أيضا أن من رجال الحاشية من يفوقه نابا وظفرا ، وان ما « وجده - الملك - من حب الشعب وتهليله ما وجد - كما يروى محمد التابعى فى كتابه « عن أسرار الساسة والسياسة » وكان التابعى من شهود العيان - ومن خضـــوع كبار البلد وزعمائه ولثمهم يده وتراجعهم بظهورهم الى الوراء أمامه » مما يحمله على أن ينكر أن يكون لعلى ماهر أو حتى ينسب اليه انه صاحب الرأى المسموع لدى الملك ، ولعل من رجال الحاشية من غزاه بتلك الفكرة ، وهو ما ذهب اليه الدكتور هيكل فى

تفسير ما ذهب اليه الملك بعبارته التى اعلن فيها انه يتمسك برايه ولا يستطيع أحد أن يزعزعه عنه ، فيقول :

« لست اجهل أن هذا الاعتداد بالذات كانت تغذيه من يومئذ بطانة احاطت بالملك منذ اعتلى العرش ، وكانت الى جواره قبل ذلك حين بعث به والده الى انجلترا يتلقى العلم فى معاهدها · ولعل هذه البطانة لم تطب نفسا بسلطان على باشا فى القصر ، ولعل الملك كان يود لو استطاع التخلص منه ، لكن الظرف لم يكن مهيأ يومئذ لهذا الغرض ، لذلك آثر الصبر حتى تحين الفرصة لاقصاء رجل يحسب ان له يدا على الملك تجعله فى القصر الأمر المطلق » ·

ويستشرى نفوذ الملك وسلطانه فلا يصده عنهما غير التدخل البريطانى عندما وقع لأول مرة راغما بعد معاهدة ١٩٣٦ باستبعاد على ماهر من الوزارة ومن الديوان الملكى عام ١٩٤٠ ، وعندما وقع لثانى مرة فى ٤ فبراير ١٩٤٢ تحت التهـــديد بتكليف النحاس بتأليف الوزارة ، وفى غير ذلك كان للسراى السلطان الأعلى فى استقالة الوزارات وتاليفها ، وفى اغتصاب الكثير من حقوق الشعب الدستورية ·

وزاد على نفوذه وسلطانه استهتار عصف بكل ما احاط به فى بداية ولايته من حب وأعجاب حتى شغل الناس بمباذله اكثر مما شغلوا باتجاهاته السياسية ، ولعلهم وقد رأوا اســتسلام وزرائه لسيطرته وسلطانه قد كفروا بالجميع ، واغضوا عن الجميع الا أن تكون مصلحة لأحد منهم ·

وقد أدى غرور الملك به « وتمليق المتملقين ومكانة العرش ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ الى نوع من عدم المبالاة ظهر أول ماظهر فى حياته العائلية ·· فلما انتهت الحرب ازدات الملك اندفاعا مع

اهوائه ، فكان كثيرا ما يرتاد (الكباريهات) ويجالس فيها مختلف الطبقات ، ومن حوله حاشيته بوللى وكريم ثابت وحلمى حسين ، وكان يقضى يقضى معظم لياليه يقامر بنادى السيارات بالقاهرة شتاء وبالاسكندرية صيفا ، وقد غامر بعضهم بتنبيهه الى ما قد يجره ذلك من نتائج ، فكان يسخر من هذا التنبيه ويقول : انا اعلم انه لن يبقى فى العالم بعد سنوات الا خمسة ملوك ، ملك انجلترا واربعة الملوك المصورة فى ورق اللعب ·· وأدت به هذه الحال الى انه لم يكن يحفل برجال دولته ، بل كان يزدريهم ويقول انه يكفيه ان يشير الى اى منهم باصبعه ليلبى الاشارة طائعا شاكرا ·

واخذت الأمور تتردى من سيء الى أســـوأ والملك يســتاثر بالسلطة فلا يرده احد ، وقد انتهز فرصة تولى اسماعيل صـــدقى الوزارة ، فابتدع منصبا لم تعرفه السراى من قبل « ذلك منصب المستشار الصحفى لديوان الملك ، وصدر الأمر الملكى بتعيين الأستاذ كريم ثابت فى هذا المنصب ، فلم يبد صدقى باشا اعتراضا جديا على هذا الوضع المبتكر ، وقيل يومئذ انه أراد أن يلمح بالاعتراض فابلغ الملك أن الاستاذ كريم ثابت كان يتقاضى من المصروفات السرية مبلغا معينا ، وان كرامة المنصب تقتضى اعفاءه من الاستيلاء على هذا المبلغ ، فصدرت الارادة الملكية بمضاعفة المبلغ الذى يستولى عليه المستشار الصحفى من المصروفات السرية ونفذ صدقى باشا ارادة الملك » ·

ويقص على السفير السابق عبد العزيز بدر ، وكان من حاشية الملك القريبين منه وقد تولى مناصب عديدة قبل حركة الجيش التى أطاحت بالنظام الملكى كان آخرها سفير مصر فى روما ، « أن مامن صحفى فى مصر حينذاك الا ومد يده الى المصروفات السرية ماعدا اثنين : هما الدكتور هيكل والأستاذ العقاد ·

وفى وزارة صدقى « دعا الملك فاروق بغير رأى الوزارة ولا علمها ، ملوك الدول العربية ورؤساء جمهورياتها » الى اجتماع « فى مزارعه الخاصة بانشاص وتحدث وإياهم فى سياسة الدول العربية والجامعة العربية ٠٠ ولم يحضر هذا الاجتماع لطفى السيد باشا وزير الخارجية ٠٠ ولم تعترض الوزارة على ما حدث ، ولم ترد أن تثير اى ثائرة بشأنه » ٠

وحين انشئت دولة اسرائيل واقرت الأمم المتحدة انشاءها ، لم يكن من رأى النقراشى رئيس الوزراء حينذاك أن يغامر بدخول القوات المسلحة فلسطين ، « وكان يقول انه لن يدفع الجيش المصرى الى حيث تكون القوات البريطانية المرابطة على قناة السويس وراء ظهره ٠٠

وعلم الناس بعد قليل أن وزير الدفاع الفـــريق محمد حيدر باشا ، رجل الملك وياوره الخاص تلقى أمرا من الملك مباشـــرة فأمر فرق الجيش المصرى باجتياز الحدود الى أرض فلسطين دون أن يعلم رئيس الوزراء ومن غير أن ينتظر قرار البرلمان أو قرار مجلس الوزراء » مما يخالف الدســتور » أما وقد تجاوز الملك ســـلطاته الدستورية ، وكأن لم يكن فى البلد وزارة ولا برلمان « فقد كان واجبا أن تستقيل الوزارة وأن تعلن الى الشعب من فوق البرلمان انها قدمت استقالتها حتى لا تحمل وزر هذا الاعتداء على الدســـتور لكن النقراشى باشا نظر الى الأمر غير هذه النظرة ، فتجاهل ما حدث وتقدم الى البرلمان وكأن الأمور تسير فى مجراها الدستورى ، وعرض عليه معلومات غير دقيقة أدت الى موافقة كل من المجلسين على اعلان الحرب على اسرائيل » ٠

وان دل دخول قوات الجيش المصرى وغيره من قوات الجيوش العربية فلسطين للقضاء على العصابات الصهيونية وللحيلولة دون

وجود دولة اسرائيل على ارض فلسطين على شيء ، فقد دل على قصر نظر بعيد بمجريات السياسة الدولية وبقواعد القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة ، كما دل على تفسخ القوى العربية تفسخا عاد على اسرائيل بكل ما تأمله من مكاسب ، كنت يومها أعمل أستاذا للتاريخ القومى بالكلية الحربية (الملكية) وكنت ما أزال ضابطا باحتياط القوات المسلحة، وأقوم بالقاء محاضراتى على فرق تأهيل الضباط لكلية أركان الحرب عن الشرق الأوسط ، وهى المحاضرات التى غدت نواة لاهتمامى بشئون الشرق الأوسط ولتاليف اول كتبى « السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط » وقد قدم له الدكتور هيكل تقديما جميـــلا مازلت أعتز به أعظم الاعتزاز ، ولم أشأ أن أتطوع للحرب ، وكان مكانى بالكلية الحربية يعفينى من أمر التكليف الذى صدر لبعض زملائى للالتحاق بالقوات المسلحة فى فلسطين ، فلم أكن فى قرارة نفسى راضيا بحكم دراستى للتيارات السياسية الجديدة فى منطقتنا عن دخول القوات المسلحة العربية فلســطين لمحاربة العصــابات الصـــهيونية ، وكنت أعد ذلك اعترافا ضـــمنيا بدولة اسرائيل ، وكنت أميل الى قيام المتطوعين بهذا الأمر بعيدا عن الحكومات العربية ، ولتكن حرب عصابات ضد عصابات كما شئنا أن نسمى القوات الاسرائيلية ، وكان الشهيد القائمقام أركان الحرب أحمد عبد العزيز قد استقال من الجيش واستقال معه عدد من ضباط الجيش المصرى كان منهم اليوزباشى كمال الدين حسين واليوزباشى معروف أحمد الحضرى ، ولحق به عدد من ضباط الاحتياط وعدد من متطوعى مصر الفتاة والأخوان المســـلمين المدنيين وقد تلقوا تدريبا عسكريا قبيل التحاقهم بقوات الشهيد أحمد عبد العزيز . فقد كان من اليسير أن تبقى هذه القوات من المتطوعين تحـــارب الى مالا نهاية حرب عصابات بعيدا عن أى سلطة غير ارادتها ، فلما تطوعت للالتحاق بالقوات المسلحة قياما بواجبى كضابط كانت الحرب قاربت نهايتها وكانت هدنة رودس بين كل من مصر واسرائيل ،

والأردن واسرائيل ، وسوريا واسرائيل ولبنان واسرائيل ، كل على حدة بعض ما انتهى اليه اعلان الدول العربية الحرب على العصابات الصــــهيونية لتكون الهدنة الدائمة بين هذه الدول العربية ودولة اسرائيل (كدولة لها وجودها الحقيقى) ٠

ولعل الملك عبد العزيز آل سعود عاهل السعودية كان أبعد الحكام العرب نظرا ، حين عقدت جامعة الدول العربية مؤتمر بلودان فى يونية ١٩٤٦ لبحث القضية الفلســـطينية ، فابرق الى ممثله فى المؤتمر الشيخ يوسف يسن ، يوصى بأن تلزم الدول العربية سياسة الحذر والا تغامر بأمر لا تثق بنتائجه « ويتساءل الدكتور هيكل عما اذا العاهل السعودى قد علم من قرارات اللجنة السرية للمؤتمر انها « تبحث وسائل المقاومة الحربية ليهود فلسطين » ويقول ان « ذلك ما يبدو من برقية العاهل النجدى » ولم يكن الدكتور هيكل من أعضاء هذه اللجنة السرية رغم رياسته لوفد مصر الى المؤتمر وقد مثل مصر فيها حافظ رمضان ، وبقيت قراراتها سرا على أعضــــاء المؤتمر لايطلع عليه،الا اعضاء اللجنة وأمين الجامعة العربيةعبدالرحمنعزام باشا ، ولم افكر فى الوقوف على شىء من هذا السر اقتناعا منى بأن التفكير فى أمور عسكرية سيلقى مقاومة من انجلترا ، الدولة المنتدبة على فلسطين » ٠

ولعل الدكتور هيكل وقد أمن الا تعرض اللجنة السرية « لأمور عسكرية » لم يعن بما كان من قراراتها السرية التى حجبتها عن أعضاء المؤتمر ٠

وكان لا شتراك متطوعى مصر الفتاة والاخوان المسلمين فى حرب المتطوعين التى قادها أحمد عبد العزيز فى فلسطين دلالته على ما أصبح لمصر الفتاة وللاخوان المســـلمين من تأثير على مجرى الأحداث ، تأثيرا انتهى بالنقراشى الى اصـــدار قرار بحل جماعة

الاخوان المسلمين فى ديسمبر ١٩٤٨ ، ليدفع حياته بعد ايام ثمنا لقراره هذا ، حين اغتاله شاب من شبابها فى صحن وزارة الداخلية بين حراسه ومعاونيه ، ولم يمض شهران حتى اغتيل زعيم الجماعة حسن البنا ثأرا لمقتل النقراشى وفر قتلته ، وقيل ان اغتياله كان بتدبير من الحكومة التى يرأسها ابراهيم عبد الهادى خلفا للنقراشى

وكان الشـــارع المصـــرى قد بدأ يعلن عن سخطه قبل ذلك بسنوات ، وعلا صوته رغم الأحكام العرفية على كل صوت آخر ، تصحبه بين الحين والآخر أعمال عنف أو اجراء صارخ ، فشهدت مصر موجة من الاغتيالات السياسية لم تشهدها من قبل ، كما شهدت من مظاهرات الطلبة والعمال ما اتجه مباشرة الى اعلان سخطها على الملك وسياسته ، وأخذت القاهرة تسمع دوى القنابل والمتفجرات تعلن عن سخط مكتوم واتجاهات لا تدور فى فلك الأحزاب القائمة ، فقتل أمين عثمان والشمس لم تغرب بعد مساء ٦ يناير ١٩٤٦ ، ونجا النحاس من محاولتين لاغتياله · كما نجا حامد جوده وكيل الهيئة السعدية من محاولة أخرى ، وانفجرت قنابل فى سينما مترو فى ٦ مايو ١٩٤٧ يوم الاحتفال بعيد الجلوس الملكى ، وقتل أحمد الخازندار رئيس محكمة الجنايات فى مارس ١٩٤٨ انتقاما لاحكام صدرت من دائرته على الاخوان المسلمين ، والقيت قنبلة على اللواء سليم زكى حكمدار العاصمة فى حصـــاره للمتظاهرين بكلية الطب بالقصـــر العينى فى ٤ ديســـمبر أودت بحياته وبدت هذه الأحداث ولا رابط بينها الا أن الغضب قد عصف بالناس جميعا على اختلاف مشاربهم وميولهم ، فقد تعددت الأفكار ، وتباينت الميول ، وان كان اكثرها غائما ولا يدين بتبعية فكرية أو يتحمس لمذهب معين ، ولكنها جميعـــا « لم تكن ـ كما يقول محمد زكى عبد القادر فى « محنة

الدستور » ـ مركزة ولا متجمعة ، كانت أشبه بالموجات الصاخبة ، كل منها تسير فى اتجاه ، وكل ماهى فى حاجة اليه هو الصيحة التى تربط بينها فاذا هى دوامة هائلة تقتلع الأوتاد ٠٠ » ٠

وشهدت البلاد موجة من اضرابات العمال ومظاهرات طلاب الجامعة والمدارس كانت جميعا توحى بمصـــير قاتم اذ نمت عن اتجاهات جديدة غير الاتجاهات التى كانت تسيرها فى الماضى ، واتسمت بالكثير من العنف والتحدى لم يكن لها من قبل بهما عهد ، فقد أضرب عمال النسيج فى شبرا الخيمة فى بواكير عام ١٩٤٧ ، كما اضرب عمال شركة باتا للأحذية وعمال شركة النسيج بالمحلة الكبرى وعمت الاضرابات عددا من الشركات الأخرى ، وامتد الاضراب الى طوائف الموظفين فأضرب معلمو التعليم الحر فى ابريل ، ونظـــار ومعاونو السكة الحديد فى يوليه ، كما أضرب المعلمون عن تصحيح أوراق الامتحانات فى سبتمبر ، واعتصم موظفو التلغراف بمكاتبهم فى اكتوبر ، وفى يناير ١٩٤٨ أضرب خريجو المدارس الصناعية فى الجهات العديدة التى يعملون بها ، وفى أبريل أضرب ممرضو القصر العينى ومستشفى فؤاد ٠ وكان قوى غريبة تدفعها وتسيرها لا تدرى ماهى ولا ما وراءها ٠

وكان الفزع الأكبر فى اضراب رجال الشرطة فى اكتوبر ١٩٤٧ طلبا لتحسين حالهم ومساواة ضباطهم بضـــباط الجيش ومعاونى الادارة برجال القضـــاء وعادوا الى مطـــالبهم فى مارس ١٩٤٨ ، واجتمعوا فى ناديهم بالقاهرة وأيدهم زمـــلاؤهم فى الأقاليم وأعلن العمال والطلبة تأييدهم لرجال الشرطة وساروا فى مظاهرة يحمل بعض افرادها أرغفة الخبز فوق عصيهم ٠

وعلى الجانب الآخر أخذ شـــباب الجامعة وطلاب المدارس ينظمون صفوفهم منذ عام ١٩٤٥ ، ويدعون لوحدة وطنية وكان من شعاراتهم « المفاوضات مع المســـتعمر على حقوق الوطن خيانة »

وكانت مظاهرتهم الكبرى يناير ١٩٤٨ ، أذ خرجت جموعهم من الجامعة فى الجيزة حيث عقد الطـــلاب مؤتمرهم الجامع لمقــاطعة المفاوضات والغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى الحكم الثنائى للسودان وجلاء القوات البريطانية عن البلاد فورا · وحصرهم البوليس عند كوبرى عباس وحال دون عبورهم ، وفتح الكوبرى توسطوه ووقعت معركة تمخضت عن خسائر بين الجانبين ، وامتدت المظاهرات الى أنحاء شتى من البلاد ·

وبلغ سخط الطلاب مداه فى الحفل الذى اقامته الجامعة ليرسى فيه الملك حجر الأساس للمدينة الجامعية فى عيد ميلاده فى ١١ فبراير ١٩٤٦ ، فحطم الطلبة الزينات وداسوا صورة الملك بأقدامهم وأشعلوا فيها النيران وتعالت هتافاتهم ضد السراى ، ويروى الدكتور هيكل « عن شـــائعات تردد أن طلاب الجامعة سـيقاطعون الحفلة التى يحضرها الملك لوضع حجر الأساس ، فلما تقدم النهار ، بلغنى أن الأمر لن يقف عند المقاطعة ، وأن الملك قد لا يحضر الاجتماع ·· وسمعت ظهرا أن محاولات اجرامية تدبر فاتصلت برئيس الديوان وسألته عن الموقف وتطوراته ، وعما اذا كانت الحفلة تجرى وفق برنامجها الأول ، وهل يرى واجبا أن اذهب بوصفى رئيس مجلس الشيوخ فذكر لى أنى يجب أن اعد عدتى للذهاب ما لم يتصل بى قبيل موعدها ، ولم يتصل بى ، وذهبت الى مكان الاجتماع فاذا الطرق كلها محروسة أشد الحراسة · وجاء الملك متأخرا عن الموعد المعين ، ثم علمت أن البوليس ضبط فى احدى العمارات أشخاصا بتهمة أنهم كانوا يعتزمون القاء متفجرات على الموكب الملكى ، ولم يحضـــر الحفل من الطلبة الا من وثق رجال الأمن بهم ، وتم الحفل سراعا فى أضيق حدوده ثم انصرف الملك ، وانصرف الحاضرون كل الى منزله اغلب الأمر · والجو يؤذن بالنذر ولم يصعب على رجـــال الحاشية أن يجدوا من الطلاب من يقدم عريضة ولاء لكتبت بدمائهم وأن يصحب الملك زعيمهم فى سيارته ·

ولكن الرأى العام وان اجتمع على السخط والغضب الا أنه خضع لتيارات عديدة تفرقها أهواء متباينة يحوطها الأبهام والغموض وان جمع بينها السخط على النظام القائم فقد اختلفت مراميها وأهدافها ، ولم تعد الأحزاب القديمة تصول وتجول وحدها فى الميدان فعلا صوت مصر الفتاة ، وقد أصبح فيما بعد،حزب مصر الاشتراكى، واستبدل شعاره القديم « الله ، الوطن ، الملك » بشعار جديد : « الله الشعب » ، وغدا أشد الجماعات القائمة ثورية وأكثرها شجاعة فى ابداء الرأى والحملة على النظام القائم ، واشتد عود الاخوان المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها وانتشرت انتشارا واسعا وان بقى اتجاهها السياسى غامضا مبهما فقد غدت قوة تستطيع أن تحرك الجماهير فى أى اتجاه تنشده بعد أن ضمت اليها الهيئات الاسلامية الأخرى منذ عام ١٩٤٧ فى اتحاد واحد ضم اليه معها : جمعية الشبان المسلمين ، والجمعية الشرعية وجماعة أنصار السنة المحمدية وشباب سيدنا محمد وجمعية مكارم الأخلاق ، وجماعة أنصار الحج وجماعة الاخوان الصادقين ، وجماعة التربية الاسلامية وجبهة علماء الأزهر ٠

وقد حمل الأخوان مغبة العنف الذى ساد البلاد مما أدى الى حلها وترتب على الحل اغتيال النقراشى ثم الثأر له باغتيال حسن البنـــا ٠

وعلى قدر ما نسب اليها من قوة ونفوذ وعنف أدت جميعا الى التنكيل برجالها فى السجون والمعتقلات فقد ظلت اتجاهاتها السياسية غامضة مبهمة كانت سمة على اختلاف قادتها فيما بينهم بعد اغتيال مرشدهم العام والتنافس فيما بينهم على قيادة الجماعة، وكان اتجاهها الى العنف فى السنوات الأخيرة التى سبقت دليلا على غموض الرؤيا وغيبة المنهج السياسى عن تفكير أصحابها ٠ وان كنا نعتقد أن مانسب اليها باطل وأن المؤامرة حاقت بها كما حاقت بغيرها وأنها مؤامرة من قوى خارجية ٠

وولج الشيوعيون الميدان وقد نمت دعوتهم خلال الحرب الثانية وانتقلت من أيدى الأجانب الى أيدى المصريين ، وظهرت مجلة «الفجر الجديد » فى مايو ١٩٤٥ يحررها جماعة من الشباب المثقف بمفاهيم لم تكن جديدة على الناس ولكنها أخذت تضفى عليها تجريدات خالية من الحقيقة أو الواقع القائم ، فتتهم الكتاب بانعزالهم عن المجتمع وتفسر الكفاح السياسى تفسيرا طبقيا ، وتدين كل اصلاح أو تطور بالفشل ، وتتجه الى العمال بدعوتها وتراهم سدنة السياسة ، وأن تحريرهم هو دعامة « التحرير القومى » وتروج للثورة بالحض على كراهية الحكومة والنظام القائم والطبقة الحاكمة ٠

* * *

الا ان الحركة الشيوعية مالبثت ان بدات حتى تشرذمت واختلفت جماعاتها العديدة بعضها على بعض وتناقضت فى سياستها ومناهجها، ولكنها « استطاعت أن تتسلل الى التنظيمات الطلابية والى صفوف الشباب الوفدى وان فشلت فى التسلل الى جماعات الأخوان المسلمين ولكنها بقيت هى الأخرى وليس لها منهج واضح أو مسلك سياسى مقنن الا من عوامل الاثارة والتهيج الجماهيرى يحكمه الفعل ورد الفعل ، فكان الخلاف فيما بينها أكثر مما هو بينها وبين غيرها ٠ مما يدل على ان قوى غريبة قد أخذت تسيطر عليها ٠

كان التشرذم الفكرى هو السائد دليلا على الابهام والغموض ، فظهرت جماعات هشة اتخذت صـــفة الأحزاب وليس لها من كيان سياسى او فكرى غير خواطر نشأت فى أذهان أصـــحابها وقلة من الأصدقاء التفت حولهم ، وشهوة للزعامة لا سند لها ولا عماد ، ولم تشـــهد مصر فى تاريخها مثل هذه الكثرة من الأحزاب والجماعات السياسية التى شهدتها حينذاك ٠

ولم يكن هذا التشرذم الفكرى الا دليلا على ضلال الواقع القائم، ولكن كيف الخلاص وما هو السبيل ؟

ورغم هذا التشرذم الفكرى الذى يراه محمد زكى عبد القادر « أشبه بالموجات الصاخبة » فانه كان يجمع على ان مصر لم تمر بفترة أقسى مما تمر به ، فلم يعد الأمر قاصرا على التدهور السياسى ، والانهيار الاقتصادى ، وكبت الحريات والعدوان على الدســتور . والترف تعيش فيه قلة . والفقر يعصف بالكثرة العظمى بل عداه الى استهتار بكل القيم والمأثورات التى فاخرت مصر ، فالصحف تعلن « ان الملك سيسافر الى اوربا متنكرا بسم فؤاد باشا المصرى » فى وقت مازالت هزيمة جيشه فى فلسطين تثير المرارة فى النفوس . وتشهر بها الدعاية الصهيونية فى اوربا ، فلا يتوارى فى بلده ، ويختار مصيف دوفيل بفرنسا مقره الرئيسى « وجعل نادى هذه المدينة ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ مكان سمره وسهره ولعبه القمار كما كان الحال فى نادى السيارات بالقاهرة ومالبثت غانيات باريس والفاتنات الدوليات حين عرفن ذلك ان هرع عدد كبير منهن الى دوفيل مؤمنات بان ملك مصر يريد أن يقضى صيفه فى مرح ومسرة . وزادهن ايمانا بذلك ان دعيت الراقصة المصرية سامية جمال الى دوفيل لتبعث برقصاتها الى هذا المجتمع المصرى الفرنسى الدولى الناعمة والنعيم . واوفدت صحف فرنسا وصحف أوربا وصحف أمريكا مراسليها الى المدينة الرافلة فى حلل هذه البهجة الغناء لموافاتها بانبا الملك الشرقى ومغامراته » .

« واخذت الصحف فى ارجاء العالم تنشر من انباء الملايين التى يكسبها فاروق أو يخسرها على مائدة القمار . ومن انباء الحفلات التى تقام لمســرته . ومن انباء مغامراته ما فتح العيون فى العالمين القديم والجديد واسعة على هذا الملك الشاب الذى أعاد فى القــرن العشرين وفى قلب اوربا ، صورا أعجب مئات المرات من صور ألف ليلة وليلة » .

وانتهزت الدعاية الصهيونية هذه الفرصة للتشهير بملك مصر ،

ولم تكنف بأنباء دوفيل وتجسـيمها بل لجأت الى حياته الزوجية فحاكت حولها قصصا زادت بها استهتار الملك بروزا ووضوحا »٠

وكانت تلك هى قمة الاستهتار أو الجنون وتحدى المشـاعر العامة . فلم يعد هناك من يحمل ذرة من حب لهذا الملك السفيه الذى اصبح عنوانا سـيئا لبلد يزرى بكل من ينتمى اليها « حتى كان المصريون المصـطافون ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ يخجلون فلا يذكرون جنسيتهم لمن يسألهم عنها ، وقد لمست ذلك بنفسى اذ كنت بباريس عائدا من مؤتمرا الاتحاد البرلمانى الدولى الذى عقد ذلك العام بدبلن عاصمة ايرلندا ، فقد اطلعت فى مجموعة الصحف الفرنسية عند احد أصدقائى المصريين على طائفة من المقالات والصور التى نشرت عن فاروق فطأطأت راسى ، واطلعت كذلك على بعض المجلات الأمريكية فاذا هى تنشر عن حوادث فاروق وتصفه بأقبح الصفات ، ورأيت فى بعض مسارح باريس تعريضا بالملك الشاب ومغامراته يندى له الجبين، وسمعت من بعض معارفى ، رجالا وسيدات ، ما ووجهوا به حين عرف محدثوهم انهم مصريون . فآثرت الا أتعرض لمثل ما تعرضوا له » ٠

وعاد الدكتور هيكل الى مصر فرأى الأمور تزداد سـوءا ، وفشلت مفاوضات النحاس مع الحكومة البريطانية كما فشـلت مفاوضات صدقى والنقراشى من قبل ، وقامت وزارة النحاس من جانبها بالغاء معاهدة ١٩٣٦ واخذت تواجه ما ترتب على الغائها من تبعات حتى كان حريق القاهرة فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ فأقيلت وزارة النحاس ، وألف على ماهر الوزارة الجديدة فلم تمكث فى الحكم أكثر من خمسة أسابيع وخلفه نجيب الهلالى فألف وزارة مسـتقلة عن الأحزاب لم تمكث هى الأخرى طويلا ، وعهد الى حسين سرى بتأليف الوزارة الجديدة واشترك فيها كريم ثابت وزيرا للدولة ، وكانت أزمة نادى الضباط وبدا فيها خروج الضباط على الملك ، مع ما كان من رعايته لهم وتقربه منهم ، حتى كان يزور ناديهم « بين حين

وآخر ويتحدث الى الضباط والى من يحضر من زوجاتهم فيه حديثا تشوبه المودة ، بل كان لا يأبى أن يمزح مع الضباط ويسألهم عن آخر نكتة وان أباها مألوف الأدب والذوق فاذا ذكرت أمامه قهقه ضاحكا منها ، وأظهر اغتباطه بها وبقائلها » ··

وكان الدكتور هيكل ــ كما عرفنا ــ قد آثر الابتعاد عن المناصب الوزارية منذ وزارة احمد ماهر الثانية واختار أن يكون رئيســا للشيوخ حتى صدرت مراسيم ١٧ يونية ١٩٥٠ بتنحيته وباخراج شيوخ وتعيين شيوخ ، جدد ، ولكنه بقى عضوا بالمجلس فلم تتناول المراسيم اسقاط عضويته ·

أتراه يستقيل من عضوية المجلس ؟ هذا ما شغل تفكيره وأثار حيرته بين أن يقدم فيستقيل « احتجاجا على هذا الاعتداء الصارخ على الدستور ·· ولو أننى فعلت لأبرأت ذمتى وأرضيت ضميرى » أم يبقى ، وقد رأى البقاء ، ولم يفكر فى الاستقالة حينذاك ، وقد فكر فيها من قبل وهم بها يوم أعد الملك « وليمة كبيرة فى قصر عابدين دعى اليها المصريون والأجانب احتفاء بمولد ولى العهد ، وأمر فلم يدع اليها من وقعوا الكتاب الذى اشتركت أنا ودســـوقى باشا فى توقيعه ··· وبدأت الصحف تنشر بعد ذلك أن الحديث يجرى حول رياسة مجلس الشيوخ . وشعرت بأن موقف الحكومة وموقف القصر ازائى ليس فيه من معنى المودة والتعاون ما كنت أشعر به من قبل عند ذلك عاودتنى الحيرة : أستقيل أم ماذا ؟ ومر بى صديقى بهى الدين بركات باشا وحدثنى فى الموضوع وأشار على بألا أستقيل وأن أدع غيرى يتصرف بما يشاء ·· ومن بعد ذلك مر بى الدكتور حافظ عفيفى باشا وأشار على بمثل هذا الرأى ، ثم مر بى غد ذلك اليوم استاذى لطفى السيد باشا ، وأشار على بمثل ما أشارا به ، وجاءنى دسوقى أباظة باشا يوم ١٢ يونيه وأخبرنى أنه قابل حسن باشا يوسف أمس ذلك اليوم وتحدث اليه فى موضوع الاستجواب

وما حدث من عدم دعوتى ، فقال له رئيس الديوان الملكى بالنيابة أن الأمر قد أصبح بيد الحكومة ، وأنها هى التى تقترح فيه ما تراه . وجاء الى رياسة المجلس فؤاد باشا سراج الدين وجر بى فسالته رأيه ، رأى صديق قديم ، فأشار على بعدم الاستقالة قائلا : انك ان استقلت وأردت أن تقابل جلالة الملك فقد لا يقابلك ، بينما هو يقابلك اذا طلبت هذه المقابلة وأنت رئيس الشيوخ · عند ذلك رأيت أن أدع المقادير تجـــرى فى أعنتها ، وان أيقنت أن الأمور لابد أن تتمخض عن شىء لا أتبينه » ·

أما فى هذه المرة ، فلم يفكر فى الاستقالة ، وان رأى أنها هى الوسيلة التى يدفع بها هذا الاعتداء على الدستور « لكن أحدا من اخوانى لم ير هذا الرأى ولم يدعنى لسلوك هذا الطريق ، والذين أشاروا على بألا أستقيل من رياسة المجلس حين أغفلت دعوتى الى مأدبة ملكية دعى اليها رئيس النواب » ويعترف بأنه يحمل « جانبا من التبعة عن هذا الموقف السلبى الذى وقفته المعارضة » ·

ولا يرى لنفسه عذرا عنها ، لاعتبار رأيت فيه مصلحة مصر ، ذلك هو عضويته باللجنة التنفيذية للاتحاد البرلمانى الدولى تمتد الى صيف سنة ١٩٥١ « أى الى سنة وثلاثة أشهر بعد هذه المأســـاة الدستورية » وكان من تقدير زملائه فى اللجنة له « ما أفادت مصر منه فائدة جليلة » ورأى فى اكبار « مسيو بواسييه » لجهوده فى أعمال اللجنة ما يحول بينه وبين التفكير فى الاستقالة ، وكان « مســـيو بواسييه » قد بعث اليه بخطاب يشيد بجهوده ويعبر له فيه عن عرفان المكتب وعرفانى الشخصى لما أبديتموه من اخلاص نحو قضـــية الاتحاد خلال سنى رياستكم ، فبفضلكم ساهمت الشعبة المصرية بنصيب ممتاز فى أعمال الاتحاد ، كما أنكم تركتم طابعكم الشخصى فى عملنا اذ أرسيتم حجر الأساس فى اعلان مبادىء الأخلاق الدولية

.... على انكم بوصفكم عضوا فى اللجنة التنفيذية ، ستوالون الاشتراك فى أعمال الاتحاد اشتراكا وثيقا ، اذ أنكم ستدعون الاجتماع مع زملائكم حتى نهاية مدة عضويتكم » ..

كان الدكتور هيكل حريصا على هذه العضوية . فلو انه استقال من المجلس لسقطت عضويته وتولاها غيره ، فان تولاها مكانه رئيس المجلس أو من تختاره اللجنة التنفيذية للشعبة البرلمانية المصرية ، وما يترتب عليه من اعتراف شبه دولى بمشروعية ما حدث » يستغله فى مصر من اعتدوا على الدستور هذا الاعتداء المنكر . ويزعمون ان الهيئة البرلمانية الدولية أقرت تصرفهم . أما اذا انتخب غير مصرى مكانى كان ذلك تجريحا لمصر لا ارضاه . وكان الى ذلك تضييعا لحق كسبته مصر لا تطمئن نفسى الى ضياعه » .

. وبقى الدكتور هيكل يمثل مصر فى الاتحاد البرلمانى الدولى يشارك فى مؤتمراته السنوية التى يعقدها فى الدول المختلفة وكان له فيها من الأثر ما أشار اليه « مسيو بوسييه » فى كتابه اليه . بينما كانت الأحداث فى مصر تسرع بالنظام القديم الى الهاوية ، وكان حريق القاهرة واقالة النحاس نذيرا بنهايته . كانت العلاقة بين الملك والأحزاب قد انفصمت تماما ، وغدا الأمر كله للملك ولحاشيته من الرسميين ومن خدم القصر ورجاله المقربين من أمثال « أدون جهلان » و « الياس اندراوس » وكان هؤلاء أعلى صوتا وأكثر نفوذا على الملك من الرسميين وعلى رأسهم رئيس الديوان .

وقد فشل الملك أكثر من مرة فى أن يؤلف وزارة قومية يجمع فيها بين الأحزاب برئاسة خاله شريف باشا صبرى عله يضعهم جميعا فى سلة واحدة يضعها تحت جناحه ، مما يفسره اشارة الملك على بتأليف وزارة قومية وعلى « اسماعيل صدقى » و « ابراهيم عبد الهادى » بتأليف الوزارة قومية .

وكان يعنى بتاليف وزارة قومية ان يشارك فيها الوفد ، فقد حكمت الاحزاب مؤتلفة من غير الوفد منذ عام ١٩٢٧ ، فلما انفرد الوفد بالحكم فى وزاريته الاخيرتين كانت الوزارة وفدية خالصة تختصم الاحزاب الاخرى وتختصمها هذه الأحزاب ، ولعله كان يرى فى قيام هذه الوزارة القومية القدرة على كبح جماح الشارع السياسى بعد ان تسللت اليه التجمعات الأخرى من الاشتراكيين والأخوان المسلمين والشيوعيين فضلا عن التجمعات العمالية التى أخذت تسفر عن وجودها · وقد كان الوفد ومازال أقوى الأحزاب فى تنظيمه الحزبى وفى قدرته على اثارة الجماهير ، وكان هو الحزب الوحيد الذى استطاع أن يستعيد كيانه باسم « الوفد الجديد » بعد ربع قرن من حله رغم القيود التى فرضت على قيام الأحزاب الجديدة ، وكان هو القادر وحده للتصدى للتجمعات الجديدة ·

وحين افسحت السراى الطريق لعودة الوفد ، وسمحت باجراء انتخابات محايدة ، كان فوز الوفد ســاحقا فالف النحاس وزارته الاخيرة وقد حاول فيها ان يتقرب من الملك ، ولعله أراد أن يطمئن الملك الى سياسته تجاهه بعد ان هاله فوز الوفد بالأغلبية الكاسحة ، وكانت آيته تسليم الوفد باصرار الملك على تعيين الفريق محمد حيدر وزيرا للحربية ، وهو ما لم يكن من تقاليد الوفد من قبل ، ويرى الاستاذ محمد زكى عبد القادر فى « محنة الدستور » انه كان « خسارة أخرى ، وخسارة خطيرة من وجهة النظر الدستورية ·

وبالرغم من استسلام الوزارة الوفدية لرغبات الملك ، فانه عجز عن اكتساب ثقته ، فأقيلت وزارة النحاس مع حريق القاهرة ولم يكن هناك بديل يستند الى قاعدة حزبية أو شعبية ، فالأحرار الدستوريون والسعديون والحزب الوطنى والكتلة الوفدية قد أحرقوا مراكبهم أمــــام الســراى عندما تقدموا بعريضتهم المشهورة الى

الملك ؛ يدينون فيها رجال الحاشية ويغمزون فيها الملك بتصرفاته مما أخذت الألسن والأقلام تردده داخل البلاد وخارجها من « أنباء هذه المساوىء وغيرها من الشــائعات الذائعات التى لا تتفق مع كرامة البلاد حتى أصبحت سمعة الحكم المصرى مضغة فى الأفواه ، وأمست صحافة العالم تصورنا فى صورة شعب مهين يسام الضيم فيسكت عليه ، بل ولا يتنبه اليه ، ويساق كما تساق الأنعام ، والله يعلم أن الصدور منطوية على غضب تغلى مراجله ، وما يمسكها الا بقية من أمل يعتصم به الصابرون » ٠

وبلغ من « غضب الملك على الذين وقعوا هذا الكتاب » ان « احتفظ بأصله فى حافظة جيبه مخافة ان تنازعه يوما فكرة التسامح معهم ، فتصدها تلاوته عن الاستجابة الى مثل هذه النزعة » وأبى أن يدعو الى الوليمة التى أعدها « فى قصــــر عابدين دعى اليها المصريون والأجانب احتفاء بمولد ولى العهد ٠٠ من وقعوا الكتاب الذى اشتركت أنا ودسوقى باشا فى توقيعه » ٠

وما كان للملك ان يهمل دعوة رئيس الشيوخ ان أمر ألا يدعى الموقعون على العريضة ، فلم يكن منهم من يشغل منصبا رسميا غير الدكتور هيكل ، ويذكر الدكتور حافظ عفيفى ، وكان يشغل منصب رئيس الديوان ، فى لقاء بالدكتور هيكل « انه قضى أكثر من نصف ساعة يحاول عبثا اقناع الملك بدعوتنا الى هذه الوليمة التى دعى اليها المصريون والأجانب ٠٠٠ وقد يضطر يوما الى الالتجاء الينا اذا قضت الظروف بتنحي الوفد عن الحكم » ويقول ان « الملك أخرج العريضة من حافظة جيبه ، وقال : ولكنهم أهانونى » ٠

ولم يجد الملك بعد اقالة النحاس من يكلفه بتاليف الوزارة ، وحين قبل علي ماهر أن يؤلف الوزارة الجديدة من وزراء غير حزبيين ، وكان على ثقة من قدرته على مواجهة الموقف المتردى ،

لم يحتمل عبث السراى فاستقال حانقا ، ولم يكن حظ خليفته أحمد نجيب الهلالى خيرا من حظه فاستقال بعد أن فقد التعاون مع الحاشية ، وجاء حسين سرى فلم تبق وزارته غير عشرين يوما ثم جاء الهلالى مرة أخرى فلم يصبح على وزارته الصباح حتى كان الجيش قد استولى على السلطة ، وكانت نهاية النظام القديم ، لم يكن للدكتور هيكل دور فيه ، فآب الى كتبه وأوراقه والى عالمه الفكرى خالصا له ، ولم يمهله القدر غير سنوات أربع وأشهر قليلة اذ انتقل الى رحاب الله صباح السبت ٨ ديسمبر ١٩٥٦ ٠

* * *

الفهـــرس

رقم الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٩٨٨/٥١٢٤
الترقيم الدولى ٣ ـ ١٨٦١ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اتصلت حياة الدكتور محمد حسين هيكل بما حباه الله من مواهب تعددت وتباينت حتى غدت معلما لنهضة متكاملة من تاريخ مصر فى القرن العشرين .

وقد شاء له القدر أو الموهبة وان كانت الموهبة هبة مقدورة أن تتصل حياته صحفيا وكاتبا وسياسيا بتاريخ جيله أشد اتصال بما لم يتسن لغيره من كتاب جيله ومفكريه .

فكان الرائد وكان البشير فى كل ما مضت به حياته فى تاريخ مصر المعاصر .

أعلام العرب

١٣٥

ساطع الحصري

بقلم

الدكتور محمد عبد الرحمن برج

أعلام العرب
١٣٥

ساطع الحصري

بقلم
الدكتور محمد عبد الرحمن برج



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقـــدمة

فقدت الأمة العربية فى الرابع والعشرين من ديسمبر الماضى (١٩٦٨) علما من أبرز أعلامها ، وجنديا من أبســل جنودها ٠٠ فقدته فى وقت كانت أشد ما تكون فى حاجة اليه وهى تخوض معركة المصير العربى ، وتمر بأحسم أيام تاريخها ٠

مات ساطع الحصرى عن ثمان وثمانين عاما ، قضاها كلها فى الكفاح والنضال من أجل قضية القومية العربية ، لقد جند قلمه من أجلها ، ووضع جهده كله فى خدمتها ٠

عاش ساطع من أجل قضية الوحدة العربية ، ونذر نفسه فداء لها ، وآمن بحتمية هذه الوحدة طال الزمن تحقيقها أو قصر ٠٠ وكان يؤمن بأن فكرة القوميـــة العربية تعنى الايمان بوحـــدة هذه الأمة ، فنجده كثير ما يكتب : على كل واحد منا أن يؤمن أصـــدق الايمان بأن الوطن العـــربى يمتد من المحلط الأطلسى الى الخليـــج العربى ، ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغـــة العربية ، وأما الدول والدويلات القائمة بين هذه الدول فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التى قامت بين الدول العربية ٠

ويؤمن ساطع بأن أخطر ما تتعرض له القوميات هي أن تكون انفعالا عاطفيا ، وانما ينبغي أن تكون حركة القومية لها أسسها العلمية ، وأن تتولى أجيال المفكرين الايمان بها ، والدفاع عنها٠٠ وفي ايمانه بذلك كان سعيه الى انشاء المعهد العالي للدراسات العربية ، ولم يكن هذا المعهد بالنسبة لساطع معهد تعليم يخرج طلابا يحملون شهادات كأى معهد تعليمي آخر ٠٠ ذلك كان أبعد الأمور عن ذهن ساطع ، وانما كان يرغب أن يكون معهدا تمر عليه أجيال وأجيال من المفكرين والكتاب العرب الذين يعطون لأمتهم جهدهم وفكرهم ٠

وكان ساطع ثوريا في فكره وفي عمله من أجل أمته ، فلم يكن يؤمن بحلول جزئية لمشاكل القومية ، بل كان ثوريا في ايمانه بالقضية التي انبرى يدافع عنها ، كان مع كل حزب عربي يخدم قضية الوحدة العربية عن اخلاص ويقين ، وضد كل حزب يستخدم الوحدة العربية مناورة سياسية لخدمة مصالح ذاتية ٠٠ وكان متفائلا التفاؤل كله في مستقبل الأمة العربية ، لقد آمن بأنالقومية العربية حركة ثورية وأنها في ثوريتها لابد أن تصطدم بردود فعل من الخارج والداخل ، وأن التحصن من ردود الفعل هو أن نعالجها بثورية لاتستسلم لفشل تجربة من التجارب ٠٠ كان ذلك ما أحس به يوم حدث الانفصال بين سورية ومصر ، فانبرى في غير هوادة يوضح أنه لا ينبغي لهذا الانفصال أن يجعلنا نكفر بالوحدة وحتميتها وأن الوحدة بين الشقيقتين العربيتين كانت تجربة على طريق النضال منها نستفيد ، وعنها نتعلم ونأخذ الدروس ٠

وكان هذا هو نفس احساسه ازاء نكسة الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ٠ لقد هزت هذه النكسة ساطع من الاعماق ، لكنها لم تبلغ به حد اليأس ، ولم تزعزع ثقته في نصر قريب ٠٠

لقد كان يؤمن أنه ما من أمة وصلت الى الكمال الذى تنشده الا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة ، واضطرت الى تضحيات عديدة ، كانت عقيدته هو أن الاستعداد التام ، مصحوبا بروح التضحية الحقيقية ومدعوما بالأمل الذى لا يقهر ، هو أهم ما يترتب علينا ، وما يجب أن يلتزم به أبناء هذه الامة العربية ٠

ولم يؤمن ساطع بأن للانسان سنا ينبغي عنده أو بعده أن يخلد الى الراحة ، فلقد رأيت وأنا أبحث فى أوراقه الخاصة عند اعدادى لهـذا البحث ، أن ساطعا قد وضع لنفسـه خطة فى عام ١٩٦٩ هى أن يصدر ثلاثة كتب عن مذكراته فى تركيا ثم فى سورية ومصر ٠ وشاء الله الا يشهد ساطع هذا العام وأن تفيض روحه قبل أن يحل ٠

عاش ساطع الحصرى مخلصا لقضيته يبحث فى كل ما يقرأ عما يمكن أن يعود بالفائدة على القضية العربية ويخدمها ، يؤرخ لابن خلدون باعتباره رائدا من رواد الفكر العربي بعد أن يرى قلة الابحاث والدراسات المنشورة عنه باللغة العربية ٠٠ وأهم ما يركز سـاطع حوله فى هذه الدراسة الواسعة التى قام بها لابن خلدون أن ينفى عنه ماحاول البعض الصاقه بهذا العلامة الكبير من أنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم ، وأنه كان من الكافرين بالعروبة ٠ فينبرى ساطع للرد على ذلك موضحا الخطأ فى هذا على نحو ما سنضعه بين يدى القارىء الكريم حين يجىء موضعه من الحديث ٠

ويهتم بالتاريخ بالنسبة لمدى ما يمكن أن يسديه لخدمة القضية العربية ٠٠ ومن القول المأثور عن ساطع « اذا كانت اللغة هى الروح والحياة فالتاريخ هو الوعى والشعور » ٠

والتعليم عنده ينبغى أن يكون هدفه الاول والاساسى تربية الاجيال العربية تربية قومية ، ويصطدم ساطع فى سبيل تحقيق

ذلك بالعقبات الكثيرة فى العراق وفى سورية ، وحين تتغلب عليه العناصر الرجعية فى العراق وتبعده عن الاشراف على التربية والتعليم الى وظيفة مدير الآثار يتجه بالعمل فى هذه الناحية الى المدى الذى يمكن أن يخدم الفكرة القومية ، فيهتم بالكشـــف عن الآثار التى توضح ماضى العرب وحضارتهم العريقة ٠

وتناول شخصية ســـاطع فى بحث واحد من أصعب الأمور على الكاتب ، فكل جانب من جوانب تلك الشـخصية كاف وحـده أن يتناول فى كتب بل فى مجلدات ٠٠ وكل ما حاولته فى هذا البحث هو أن أكشف عن بعض نواحى العظمة فى شخصية ساطع ٠٠ وكل أملى أن يتبع هذا البحث بأبحاث أخرى فى شخصية هذا الفيلسوف والعلامة الكبير ٠٠ بهذا يكون الكتاب والمثقفون العرب قد أدوا بعض ما عليهم من دين لأمتهم ، لا أقول تجاه ساطع ، فلم يكن الحصرى سوى أحد جنود أمته ٠٠ وتكريم ذكرى ساطع هو العمل المخلص الجاد من أجل الامة العربية مثلما فعل ٠٠

سمو ما بعده سمو فى كل نواحى حياته ومراحلها ٠

يعين فى عمل من الاعمال أو فى وظيفة من الوظائف ، وهو يضع لهذه الوظيفة مسئولياتها التى ينبغى أن يقـــوم بها ، فاذا ما واجهته المشاكل قاوم وحاول التغلب عليها ، فاذا أعيته الحيلة بادر الى الاستقالة لينفض عن نفسه أمام الله وأمام أمته مسئولياتها

كان ذلك منهجه من أصغر وظيفة الى أكبرها ، ومن أول منصب الى آخره ٠

فحين تخرج ساطع من المدرسة الملكية فى القسطنطينية عام ١٩٠٠ ، وعين مدرسا للعلوم ووجد الكتب التى يستخدمها المدرسون فى تدريسهم مشحونة بالاغلاط والاخطاء ، حاول أن يقنع وزارة

المعارف العثمانية بأن تغير فى مناهجها وخططها التعليمية ، فلما لم تصغ الى نصحه آثر الاستقالة ٠٠ وفعل ساطع نفس الشيء فى آخر عمل له حين دفعه حرصه الشديد على معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية الى تقديم العديد من المقترحات والاصلاحات الخاصة به ، فلما لم يؤخذ بما اقترحه بادر الى الاستقالة ، وآثر المعيشة فى غرفة متواضعة فى احد فنادق القاهرة ، يعيش على دخل ضئيل من موارد كتبه ، ويرفض كل العروض التى قدمت لمساعدته مادية وأدبية ٠

كانت العروبة عنده عقيدة وايمانا ، ويكفى أن أشير فى هذه المقدمة الى حديثه عند انتصار الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٥ على المملكة الهاشمية فى الحجاز ، ونزعه لملك الحجاز من الملك حسين ابن على ، وكان ساطع شديد الارتباط بهذا الملك وبأسرته وبابنه فيصل ، فلقد عمل معه وزيرا للمعارف فى سورية ، ثم عمل معه بعد ذلك فى العراق حتى توفى الملك فيصل عام ١٩٣٣ م ٠ لكننا نجد ساطعا يؤيد ما قام به الملك عبد العزيز آل سعود ، ويسمو السمو كله ويرتفع الى أعلى مراتب العظمة حين يقول :

« ومع ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن على فانى أقرر أن ما قام به الملك عبد العزيز بن سعود ، من ضم للحجاز والعسير ، موافق لمصلحة الأمة العربية ٠٠ **اقول ذلك لأنى انظر الى القضايا العربية نظرة مجردة من النوازع الشخصية ، واضعا مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار** ٠٠ لا أقول ياليت (الحسين بن على) بقى على رأس مملكته حتى مماته ، ولا أقول ياليت المملكة التى أسسها بقيت قائمة حتى الآن ٠٠ بل اننى أقول ان ما تم على يد عبد العزيز بن سعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الفردية للسير فى سبيل تحقيق الوحدة العربية ٠

أرأيت أيها القارىء الكريم مثل هـذا السمو في الشخصية ومثل هذا الايمان بمثل عليا لا تتأثر بنزعة من النوازع ، أو بعاطفة من العواطف ، أو صلة من الصلات ؟

ولم يحصر ساطع نفسه داخل نطاق ضيق من المعرفة ، فمن دراسة للتاريخ الطبيعي وفنون التحنيط والتشريح وما اليه ، الى دراسة لعلم الطبيعة والهندسة والرياضة،حتى تنبأ له زملاؤه فى المدرسة أنه سيكون أشبه بأرشميدز ٠٠ وذلك كله الى جانب دراسة فى علم الاجتماع والفلسـفة والأخلاق وتحقيق فى التراث العربى ونبوغ في الترجمة ودراسة في اللغة والأدب ٠

ونحمد الله أن الأمة العربية قد وعت لساطع ما فعل ، وحفظت له ما صنع من أجلها ، وأن مصر التى عاش يخفق قلبه بحبها ، والتى دافع عن وجهها العربى أمام المتجنين عليهـا قد كرمته فى شخص الرئيس عبد الناصر حين منحته جائزة الدولة فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٦٥ عن كتابه (الاقليمية جذورها وبذورها) ، وكرمه الشعب المصرى بعـد وفاته ، فبادر تنظيمه السـياسى الممثل فى الاتحـاد الاشـتراكى العربى يقيم له حفل تأبين فى الخامس عشر من فبراير ١٩٦٩ ، ويدعو فيه الدكتور لبيب شقير الجامعة العربية الى تخصيص أسبوع لدراسة فكر ساطع ٠

وتبادر أجهزة الاعلام فى مصر الى الحديث عن تخليد ذكراه ، وتبدأ الهيئات العلمية فى عقد الندوات التى تدعو فيها المثقفين الى دراسة عميقة واعية لفكر ساطع كأحد متطلبات المعركة فى ظروفنا الراهنة٠

وليكن لنا فيما كتب ساطع زادا نتزود به على الطريق ، ودافعا لما نحن مقدمون عليه من نضال قاس مرير ، من أجل حياة حـرة كريمة ، والله الموفق ٠

المؤلف

الفصل الأول

أسرة ساطع ونشأته الأولى

يكاد يكون الحديث عن أسرة ســاطع ونشأته الأولى من أهم الفصول فى هذا البحث لأنه ليس هناك شيء عن ذلك فى احد الكتب أو المراجع ، واقتضانى البحث عن ذلك الرجــوع الى أوراق المرحوم ساطع الحصرى الخاصة وما حفظه من وثائق .

نسب ساطع :

يصر ساطع فى مذكراته ، ويرجو أن يكتب لقبه مشكلا على هذا النحو الحصرى Husri وذلك بعكس ما لقبته به الكثير من دور النشر .

يقول ساطع : ولدت فى صــــنعاء من والدين عربيين حلبيين فى تاريخ يصادف ٥ من آب (أغسطس عام ١٨٨٠ .

ووالدى هو : محمد هلال بن السيد مصطفى الحصرى

ووالدتى هى : فاطمة بنت عبد الرحمن الحنيفى

ووالدة والدتى : جميلة بنت أسعد الجابرى

كلهم ينتسبون الى أسر عربية حلبية .

لقد انجب والدى خمسة عشر ولدا : ثمانية بنين وسبع بنات العشرة الاولى من أمي والخمسة الأخيرة من شركسيات .. ولقد كنت السادس من السلسلة الأولى ، وأقدم صورة تظهرني مع والدى واخواتي تعود الى (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦) وهي مأخوذة فى طرابلس الغرب وهي تظهر والدى وهو يرتدى الجبة والعمامة ، وكان لى في ذلك خمس سنوات ، وكانت قد توفت احدى اخواتي واحد اخوتي ، وأصبحت الرابع بين أفراد الأسرة ، وقد ظهر فى الصورة التى أشير اليها ولدان لأبى هما : بشير مجدى وبديع نورى ، وبنتان : بديعة ولطفية .

وكان في بيتنا ثلاث عبدات كن يتنقلن معنا على الدوام .. وكان ينضم اليهن بعض الخدم والخادمات فى كل مدينة نحل فيها . وغنى عن البيان أن كثرة أفراد العائلة ـ علاوة على كثرة تنقلاتها بحكم ظروف عمل والدى . كانت من العوامل التى زادت من ثروة الذكريات التى لازمت حياة طفولتى .

كان والدى يقول : ان اجداده انتقلوا من الحجاز الى حلب فى القرن التاسع للهجرة ، وكان يحتفظ بشجرة نسب تشهد على ذلك، وهذه الشجرة من جملة الاوراق التى وصلت الى ، على الرغم من الحرائق التى أتلفت أوراق والدى ومخطوطاته ومؤلفاته وديوانه ، وهي (شجرة النسبة هذه) يبلغ طولها ٤٨٧ سم والقسم المكتوب منها ٢٧٠ سم . ويعود أصلها الى القرن السابع للهجرة وقد جاء فيها :

ـ صحت هذه النسبة الشريفة وقوبلت بنسب الشريف محمد

ابن عمر ، وشهد بصحتها القاضي عبد الوهاب الحسيني وأثبت في مقابلة نسبه بخطه في دار الرصاصي في شهر ذي الحجة سنة خمس وستمائة . وفيها شهادة بصحة النسخ تنص على مايلي :

ـ نسخت هذه النسبة المباركة وشهد بصحتها وقوبلت عليه الشريف أحمد فرج البكرى الحاكم بالمدينة المنورة ، وشهد بصحتها عيسى بن سيجوره البكرى ، وسنان بن ابراهيم الحسيني ، وعبد الرحمن المحاصر يومئذ في المدينة ، والسيد شريف محمد ابراهيم الشريف ، وعبيد بن محمد الشريف ، والسيد الشريف أحمد بن محمد الوتارى ، فيثبت هذا النسب الشريف بشهادة هؤلاء السادة الاشراف ..

وبعد ذلك تنص الشجرة على نقل هذه النسبة الشريفة الى حلب على يد السيد الشريف أحمد بن السيد ادريس الحسيني في رمضان سنة سبع وسبعين وثمانمائة .

ثم يقول ساطع عن شجرة النسب هذه : « أنا أعرف أن أمثال هذه الشجرات لا يمكن أن تعتبر من الدلائل القاطعة على اتصال النسب بالامام على ومع هذا لا أرى ما يستوجب الشك في صحة ما جاء فيها عن أن أجداد والدى كانوا في الحجاز ، وانتقلوا منها الى حلب ، على كل حال رأيت أن أذكرها هنا نظرا لاعتقاد والدى فيها » .

القسم الأول من حياة ساطع :

يقول ساطع في أوراقه : جاء في ترجمة (جال والدى) الرسمية المحفوظة في سجلات الدولة العثمانية أنه درس العلوم العربية والشرعية في لمدرسة الاسماعيلية بحلب ، ثم أتم دراسته في الازهر الشريف بالقاهرة ، ونال «الاجازة» هناك على يد الشيخ محسن

الدمنهوري والشيخ حسن العدوى الحمزاوى (١) ، وهما من شيوخ الازهر المشهورين ومن المؤلفين المعروفين .

وعاد والد ساطع الى القسطنطينية بعد أن تم دراسته فى الازهر حيث عمل فى سلك القضاء الشرعى بعد أن تقدم للامتحان أمام الهيئة المنوط بها تعيين القضاة الشرعيين فى بلاد الدولة العثمانية ، والتى كانت تعرف باسم (مجلس انتخاب حكام الشرع). وجاء أول تعيينه لوظيفة القاضى الشرعى فى دير الزور ثم حماة ، وكانت تابعة لولاية حلب فى ذلك الحين، وكان نظام القضاء الشرعى فى ذلك الوقت أن يعين القاضى لمدة سنتين فى مكان ، فاذا ما انتهت هذه المده فى المكان الذى عين فيه عاد الى القسطنطينية ينتظر تعيينه فى مكان آخر .

وعندما أتم والد ساطع مدة السنتين فى حماة وعاد الى القسطنطينية لم يطلب تعيينه قاضيا شرعيا فى مكان آخر من أيالات الدولة العثمانية ، وانما أراد العمل فى المحاكم التى عرفت فى ذلك الحين بالنظامية ، وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تنشىء هذه المحاكم فى مراكز الولايات العثمانية ، وجعلتها محاكم مستقلة عن المحاكم الشرعية ، وعهدت الى هذه المحاكم النظامية بالأمور المدنية ،

(١ عاش الشيخ حسن العدوى الحمزاوى مابين سنتى ١٢٢١ ـ ١٣٠٣ هـ (١٨٠٦ ـ ١٨٨٦ م) وهو من قرية عدوة من قرى مديرية المنيا بمصر ، وكان من أكبر فقهاء المالكية فى مصر ، وكان يفخر كل من يتتلمذ عليه ، وله العديد من المؤلفات منها (النور السارى من فيض صحيح البخارى) يقع فى خمسةمجلدات و (النفحات الشاذلية) و (ارشاد المريد في خلاصة علم التوحيد) .

وكان له مركز كبير وكان الحكام فى مصر يكرمونه ويقبلون شفاعته وبنى المسجد المعروف باسمه بعطفة الشنوانى قرب مسجد سيدنا الحسين .

ارجع الى الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ٣٧ ، الاعلام فى قاموس التراجم لاشهر الرجال والنساء : خير الدين الزركلى جـ ٢ ص ٢١٤ .

وتقدم والد ساطع الى الامتحان الذى عقدته وزارة العدل العثمانية في القسطنطينية وتولى أمر هذا الامتحان في هذه الوزارة لجنة خاصة عرفت بمجلس انتخاب موظفى العدلية ·

ونجح محمد هلال الحصرى (والد ساطع) فى هذا الامتحان الذى أجرى لاختيار القضاة المدنيين فى الدولة العثمانية ، وعين رئيسا لمحكمة الاستئناف فى ولاية اليمن ، وسافر على الفور للقيام بأعباء وظيفته فى صنعاء اليمن وكان ذلك فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وهناك فى صنعاء ولد ساطع فى الخامس من أغسطس (آب) عام ١٨٨٠ ·

ولم تطل مدة بقاء والد ساطع الحصرى فى اليمن أكثر من سنتين ، لأن (وزارة العدلية) العثمانية قررت الغاء المحاكم النظامية فيها (فى اليمن) ، وغادر محمد هلال الحصرى اليمن وعاد الى عاصمة الدولة العثمانية (القسطنطينية) فى أوائل سجة ١٨٨١ ومعه ساطع قبل أن يتم السنة الاولى من حياته ·

تنقلاته مع والده وأسرته :

وبعد عودة والد ساطع الى القسطنطينية عين رئيسا لمحكمة الاستئناف (أو كما كانت تسمى دائرة الجزاء) فى ولايات : اضنه، انقره ، طرابلس الغرب · ثم عاد ساطع الى اليمن للمرة الثانية مع والده عندما عاد اليها للعمل فى القضاء بها ، بعد أن أعيد اليها نظام المحاكم النظامية ، ثم الى قونيا · وبعدها نقل والده الى طرابلس الغرب (للمرة الثانية) وكان ذلك سنة ١٨٩٢ ميلادية ·

وكان المتبع أنه عندما ينقل والد ساطع من ولاية الى أخرى كان يسافر الى عاصمة الدولة العثمانية ويبقى فيها مدة تتراوح بين ثلاثة أشهر وسنة قبل أن يسافر الى عمله الجديد فى الولاية المنقول اليها ·

ولقد عاد والد ساطع الى القسطنطينية قبل سفره الى طرابلس الغرب للمرة الثانية ، ليترك ساطع بهـــا ليتم تعليمه في القسم المتوسط ، ثم القسم العالى ، وذلك بالمدرسة الملكية الشاهانية ·

وكانت كثرة تنقلات والد ساطع وهو فى المرحلة الاولى من حياته حائلا دون التحاقه بمدرسة إبتدائية معينة ، ومع هذا تعلم ساطع القراءة والكتابة التركية مع الفرنسية فى البيت من اخوته بوجه خاص ·

يقول ساطع فى مذكراته : قدر لى أن أتنقل خلال الســنوات الاثنتى عشرة الاولى من حياتى بين المدن التالية : من استانبول الى أضنه ، من أضنه الى أنقرة ، من أنقرة الى استانبول ، من استانبول الى طرابلس الغرب ، ومن طرابلس الغرب الى اســـتانبول ، من استانبول الى صنعاء اليمن ، من صنعاء اليمن الى استانبول ، من استانبول الى قونيا ، من قونيا الى استانبول ، وكان الانتقال بين هذه المدن المتباعدة يتم فى ذلك التاريخ بوسائل متنوعة وشاقة : الجمال ، البغال ، عربات الخيول ، البواخر ، السكك الحديدية ·· ولقد تركت هذه الرحلات التى تمت خلال طفولتى فى نفسى أثرا من الانطباعات العميقة ، والذكريات المتنوعة ·

دراسته فى المدرسة الملكية باستانبول :

درس ساطع فى هذه المدرسة مدة سبع سنوات أربــع منها بالتعليم المتوسط (الاعدادى) والثلاث الاخيرة بالقسم العالى ، وبقى طوال هذه المدة بالقسطنطينية لم يغـادرها الا مرتين لمدة قصيرة ، وذلك خـــلال عطلة الصيف حين ذهب الى طرابلس الغرب لزيارة والده ، والى حمص وبنى غازى لزيارة أخيه الاكبر (بشير مجدى) الذى كان قد تولى وظيفة المدعى العام فى المدينتين المذكورتين ·

وبقى ساطع خلال السنوات الثلاث الاولى التى أمضاها فى المدرسة الملكية بالقسم الداخلى ، وكان معه أخوه (بديع نورى) الذى كان يكبره بأربع سنوات ، والذى كان فى القسم العالى منها ٠ وبعد مضى السنوات الثلاث الاولى عاد والده الى القسطنطينية ليقيم فيها فترك ساطع القسم الداخلى ، وأقام مع والده ٠

ولقد أبدى ساطع خلال دراسته الاعدادية ولعا بالعلوم الرياضية ، وأظهر مقدرة فائقة على حل المسائل العويصة ، ولم يكتف بما كان يدرس له من دروس الرياضة فحصل على مذكرات الرياضة التى كانت تدرس فى مدرسة الهندسة وفى مدرسة أركان الحرب ، وولع بعد ذلك بوجه خاص بالهندسة التحليلية ، حتى ان زملاءه فى المدرسة لقبوه بلقب « ارشميدز » ٠

ووجد ساطع فى نفسه ميلا الى دراسة العلوم الطبيعية وأخذ يقرأ الكتب المؤلفة باللغة الفرنسية فى هذه العلوم ، ووضع لنفسه أمنية عاش على أمل أن تتحقق ، وهى أن يصبح عالما فى هذه العلوم، ومضى ساطع فى دراسته بالقسم العالى من المدرسة الملكية الشاهانية يدرس العلوم الادارية والسياسية ، وعندما يعود الى بيته فى المساء ينصرف الى دراسة العلوم الطبيعية ، بل وصل به الاهتمام والنبوغ فى هذه العلوم أن نشر عدة مقالات بعضها اسم مستعار وبعضها باسمه الصريح فى نقد كتب العلوم الطبيعية المقررة للمدارس الثانوية ، والتى كانت تسمى فى ذلك الحين بالاعدادية ٠

اعماله بعد تخرجه من المدرسة الملكية (من ١٩٠٠م ـ ١٩١٨م) :

تخرج ساطع من المدرسة الملكية عام ١٩٠٠ م أى فى بداية القرن العشرين فلم يشأ أن يشتغل بالوظائف الادارية التى تخولها له شهادته ، بل دفعه حبه للعلوم الطبيعية أن قدم طلبا لوزارة

المعارف العثمانية ، لتعيينه مدرسا للعلوم الطبيعية فى المدارس الثانوية ، التى كانت تعرف بالاعدادية على نحو ما سبق القول ، وتم بالفعل تعيينه فى ثانوية ولاية يانيا (Joanina) وكانت تقع هذه الولاية فى أقصى الغرب من البلاد العثمانية الاوربية ، وتقع يانيا على شمال بحر اليونان ، وجنوب بحر الادرياتيك ، وعندها تمر الحدود بين البانيا واليونان ، وبقى ساطع فيها خمس سنوات ، ولقد تمكن خلال وجوده بها وبفضل سهولة اتصالها بالمدن الاوربية أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية التى نشرت فى باريس ، وأن يشترك فى عدة مجلات علمية ، وأن يحصل على الادوات والمواد التى استطاع بها تحنيط الطيور والحيوانات وجمع الحشرات ، وعمل التجارب على زراعة النباتات المختلفة ، وأن يتسع أفقه ومداركه بفضل توسعه الكبير فى دراسة العلوم الطبيعية .

ولم يقتصر ما كان يدرسه ساطع فى مدرسة يانيا هذه على العلوم الطبيعية وحدها ، فلم يكن لدى وزارة المعارف العثمانية اعتراف بفكرة التخصص فى المواد ، كذلك عهد اليه المسئولون عن التعليم فى يانيا ـ نظرا لتخرجه من المدرسة الملكية ـ القيام بتدريس المعلومات القانونية التى كانت تدرس للتلاميذ وعلم الثروة (وهو الاسم الذى كان يطلقه فى ذلك الحين على علم الاقتصاد) والتاريخ .

واستمر ساطع على هذا النحو سنتين ثم اقتصر عمله بعد ذلك ولمدة ثلاث سنوات أخرى على تدريس علم التاريخ الطبيعى ، وألف ساطع فى ذلك الحين عدة كتب مدرسية ، وهذه الكتب هى معلومات زراعية ، دروس الاحياء ، علم الحيوان ، علم النبات ، التطبيقات الزراعية .

وقد قررت وزارة المعارف العثمانية تدريس الكتابين الأولين للمدارس الابتدائية كما قررت تدريس الكتابين الذين أصدرهما ساطع تحت اسم (دروس الاحياء ، وعلم الحيوان) على طلبة المدارس

الثانوية ، وأخذ ساطع يكتب العديد من المقالات العلمية التى أخذت الصحف فى القسطنطينية تنشرها ، وكان يستهدف منها تبسيط العلوم وتحبيب الناس فيها ، وجاء بعض هذه المقالات يصف مناظر الطبيعة ، وبعضها فى عرض الاكتشـــافات والاختراعات العلمية ، وفى نشأة علم الكيمياء ، الاشعة المجهـولة ، التلغراف اللاسلكى ، العالم القطبى ، لمعان البحر ، مناظر الغروب ٠

على أن ماأخذ ساطع يكتبه بعد ذلك سرعان مااصطدم بعراقيل كثيرة ناجحة عن إشتداد ظروف الاستبداد التى شـــهدتها الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد ٠

تولى السلطان عبد الحميد الحـــكم فى الدولة العثمانية فى أغسطس عام ١٨٧٦ وقد جاء به مدحت باشا الى الحـكم بعد عزله للسلطـــان عبد العزيز وتولية السلطان مراد الخـامس الذى كان مضطربا فى قواه العقلية فعزله (مدحت باشا) وكانت قد تجمعت فى يده السلطة الفعلية فى البـــلاد منذ توليه منصب الوزارة العظمى (رئيس الوزراء) فى سنة ١٨٧٣ على عهد السلطان عبد العزيز وكان (مدحت باشا) قائدا لحركة تركيا الفتاة الاولى ٠٠ وقد تكونت هذه الحركة من العناصر الوطنية التى رأت أنه لا بد من فرض الاصلاح فرضا على السلاطين العثمانيين الذين لا يجب أن يترك مصير حركة الاصلاح فى أيديهم ، وقد عبرت هذه الحركة عن نفسها فى الادب التركى فكانت الحركة الرومانتيكية ، ومع أن هذه الحركة لم تكن لها قوة كبيرة ، ولم تترك أثرا بعيدا ، الا أن أهميتها جاءت فيما تضمنته من تعبيرات جديدة فى الفـــكر التركى ، كالحرية الفردية والدستور والحياة النيابية(١) ٠

---

(١) ارجع الى كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ تأليف الدكتور أرنست أ . رمزور (جامعة برنستن) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، وكذلك كتاب الدولة العثمانية «والشرق العربى» تأليف د. محمد أنيس ص ٢٤٨ ٠

جاء (مدحت باشا) بالسلطان عبد الحميد على أساس قبوله لفكرة الحكم الدستوري ، فأعلن الدستور (المشروطية) في ٢٣ من اغسطس عام ١٨٧٦ ، لكن سرعان ما اتضح (لمدحت باشا) أنه أساء الاختيار فاستبد عبد الحميد بالحكم وعزل مدحت ، وأجل البرلمان وعطل الدستور ، وأخذ السلطان عبد الحميد يحكم البلاد حكما مطلقا مستبدا ، ويقاوم الاتجاهات التحررية كافة في الولايات جميعها عن طريقة الجواسيس والعملاء متخذا شعار الوحدة الاسلامية شعارا لاستبداده ٠

وكشأن كل حكم مستبد أوجد السلطان عبد الحميد نظام الرقابة على المطبوعات ، وبدأت كل مقالات ساطع وكتبه تعرض على الرقيب قبل نشرها ، وأخذ أعضاء مكتب الرقيب يخشون من أن تكون هناك مقاصد خفية من هذه العبارة أو تلك ، فبدأ الحذف لهذه الكلمة والتبديل لهذه العبارة ، مما جعلت المقالات التي يكتبها ساطع تظهر ــ على حد قوله ٠ بصورة مضحكة مخلة بالمعنى المطلوب وأحيانا تعكس هذا المعنى تماما ٠ وتمشيا مع تعليمات الرقابة ، تشددت وزارة المعارف العثمانية في ضرورة تمسك المدرسين في المدارس باتباع ما هو مكتوب في الكتب المدرسية ، وعدم الخروج عليه ٠٠ وكانت المادة التي احتوتها الكتب المدرسية ــ كما لاحظ ساطع ــ محشوة بالأخطاء العلمية ومليئة بنظريات ثبت بطلانها بدلائل علمية حاسمة ، ومن ثم شعر ساطع بصعوبة العمل في سلك التدريس سنة بعد أخرى ٠ وازاء ذلك قرر أن يجرب العمل في الحياة الادارية ، فغادر يانيا الى القسطنطينية بعد أن أهدى للمدرسة التي كان يعمل بها متحف التاريخ الطبيعي الذي كان قد كونه طوال السنوات الخمس التي قضاها بها ٠

رغب ساطع أن يعمل في مقدونيا أو كما كانت تسمى بالولايات الثلاث اشارة الى (سالونيك salonika ، موناستير

Monastir ، قوصوه Kosov) ، وكانت مساوى العهد الحميدى قد اشتدت فى جميع الولايات العثمانية ، باستثناء هذه الولايات ـ على حد قول ساطع ـ نظرا لما تقرر لها من نظام دولى خاص ٠

وتفصيل ذلك أن مقدونيا شهدت على عهد السلطان عبد الحميد اضطرابات سببها تحرك العناصر غير المسلحة بها لتحرير مقدونيا من حكم الترك ، وتكونت جمعيات سرية فى سالونيك فى نوفمبر من عام ١٨٩٣ ، كان شعارها مقدونيا للمقدونيين ٠ كما تكونت فى صوفيا جمعية ثورية طالبت بضم كل مقدونيا لبلغاريا، كذلك تحرك اليونانيون يطالبون بضمها الى بلادهم الأمر الذى أدى الى قيام الحرب بين تركيا واليونان فى سنة ١٨٩٧ : والتى انتهت بهزيمة اليونان ، ونجم عن ذلك كله حالة مضطربة فى مقدونيا ، مما دعا سفيرا روسيا والامبراطورية النمسوية المجرية الى تقديم مذكرة مشتركة فى الحادى والعشرين من فبراير سنة ١٩٠٣ يطالبان فيها بتعيين مفتش عام للولايات المقدونية الثلاث ، وأن تنظم قوات الدرك (الجندرمة) فيها بمساعدة ضباط أجانب ضمانا لحفظ الامن فيها ٠ ونزل السلطان عبد الحميد على رغبة هاتين الدولتين ، ثم تلا ذلك أن قدمت حكومتا روسيا والامبراطورية النمسوية الجزء الثانى من مشروع الاصلاح المقترح لمقدونيا والذى عرف ببرنامج مورستيج Mursteg ، وقبله السلطان العثمانى كذلك حيث تقرر تعيين مستشارين روس ونمسويين للعمل مع (حسين حلمى باشا) المفتش العام العثمانى ، وعهد الى جنرال ايطالى مهمة اعادة تنظيم قوات الشرطة (الجندرمة) يعاونه مفتشون فرنسيون ، انجليز ونمسويون ، وروس وايطاليون ٠

أصبح الوضع فى مقدونيا على هذا النحو أحسن من غيره من ولايات الدولة العثمانية التى استشرى فيها الفساد ، ومساوى الحكم العثمانى التى عمت كل أنحاء الولايات على عهد السلطان

عبد الحميد .. فالمفتش العثـــماني من حقه أن يتصرف في أمور مقدونيا دون أن يراجع الوزارة القائمة في عاصمة الدولة العثمانية، والهيئة الدولية في مقدونيا مكلفة بتنظيم الامور فيهـا ، ومستوى التعليم فيها (مقدونيا) أرقى من بقية الولايات العثمانية ، لأنها أكثر اتصالا بالعالم الاوربي ، وكل ذلك جعل ساطع الحصري يرغب في الخدمة فيها انتظارا الى تخلص الدولة العثمانية من مساوى الادارة الحميدية .

وكما سبق القول رغب ســاطع أن يجرب العمـــل في الحياة الادارية فغادر يانيا الى القسطنطينية ، حيث قدم طلبا الى وزارة الداخلية ، راغبـــا تعيينه في مقدونيا ، وتحققت له رغبته بتعيينه « قائمقام » في رادويشته التـــابعة الى ولاية قوصوه احدى ولايات مقدونيا . ولما كانت هذه المنطقة قريبة من الحدود البلغـــارية فقد شهدت الكثير من نشاط العصابات البلغارية .. وبقي بهـا ساطع مدة سنتين انجز خلالها الكثير من الاعمـــال الاصلاحية ثم نقـل الى «قائمقامية» فلورينا التابعة الى ولاية موناستير من الولايات المقدونية الثلاث على نحو ما سبق ذكره(١) .

وحين وصل ساطع الى مقدونيا ليعمل فيها كانت (مقدونيا) في ذلك الحين معقل الضباط الثائرين في الجيش الثالث العثماني .. فلقد ولد مصطفى كمال (اتاتورك) في سالونيك ، وتخرج من كلية أركان الحرب في يناير من عام ١٩٠٥ حيث عهـــد اليه بمنصب عسكري في دمشق وبدأ مصطفى كمال يجمع العناصر الساخطة على عبد الحميد ، وألف منها في اكتوبر من عـام ١٩٠٦ جمعية سماها

---

(١) مما تجدر الاشـــارة اليه ان مدينة رادويشـــتة أصبحت بعد الحرب البلقانية من أجزاء يوغسلافيا . أما مدينة فلورينا فأصبحت من أجـــزاء دولة اليونان . أما موناستير فأصبحت من أجزاء يوغسلافيا وأصبحت تعرف بيطوليا .

الوطن .. وعندما نقل مصطفى كمال الى سالونيك حدث اتصال بينه وبين الجمعية السرية فيها فى أوائل عام ١٩٠٧ واتفقا على العمل المشترك ، ووضعا دستورا موحدا للحركتين تحت اسم الاتحاد والترقى .

وبدأت حركة الاتحاد والترقى فى الاتصال بالعناصر المناوئة للاستبداد الذى اشتهر به السلطان عبد الحميد ، وكان ممن اتصلت به ساطع الحصرى . وبرغم أن مهمته كانت تقضى أن يبلغ المسئولين عن هذه العناصر الوطنية بحكم عمله فى الجهاز الادارى للدولة العثمانية ، الا أن ساطعا أيد هذه الحركة الثورية وباركها وعمل بكل جهده لتأييدها .

ثم اتفق على أن تقوم الثورة ضد السلطان عبد الحميد فى ذكرى الاحتفال بعيد جلوسه فى ٢١ من أغسطس عام ١٩٠٨ ولكن حدث ما عجل بالثورة فقد تمت مقابلة بين ادوارد السابع ملك انجلترة وقيصر الروسيا فى ريفال فى ظروف الاتفاق الودى عام ١٩٠٧ لتصفية الخلاف بين الدولتين . وفهم من هذا الوفاق أنه مساومة استعمارية بين الدولتين على حساب الدولة العثمانية ، كما حدثت اضطرابات فى البانيا ضد النمسا ، وفهم ان ذلك سيبرر تدخل النمسا فى البانيا . تحرك الضباط العثمانيون الثائرون لمواجهة الخطر الخارجى على الدولة العثمانية ، وأرسلوا للسلطان عبد الحميد يطالبونه باعادة دستور عام ١٨٧٦ الذى عطله فى عام ١٨٧٨ .. وفى ٢٤ من يوليو عام ١٩٠٨ أعلن السلطان عبد الحميد اعادة الدستور (المشروطية) وألغى الرقابة والجاسوسية . وقوبل اعلان الدستور بابتهاج بالغ وحماسة شديدة فى أنحاء الامبراطورية العثمانية كافة ، وجاءت الجماعات فى فلورنيا الى ساطع مهنئة مباركة ، وأخذ ساطع يلقى فيها الخطب الحماسية الملتهبة ، ونشرت

كلماته فى جريدة الثورة التى صارت تصدر باسم (نير حقيقت) أى شمس الحقيقة ·

ولم يرغب ساطع أن يمضى قدما فى الحياة السياسية، فعاوده الحنين الى حياة العلم والتعليم والتأليف ، فقدم استقالته من وظيفته، وعاد الى عاصمة الدولة راغبا أن يستفيد من الحرية التى أمل الناس فيها بعد اعلان المشروطية ، لتحقيق مخططه القديم فى نشر نهضة علمية ·

عمله فى القسطنطينية (١٩٠٨ – ١٩١٨م) :

عندما عاد ساطع الى عاصمة الدولة العثمانية أقدم على الفور فى اصدار مجلة علمية عنوانها أنوار علوم (أى أنوار العلوم) ولكنه سرعان ما عرف أنه كان مخطئا فى اصدار مجـــلة علمية فى تلك الآونة لأن حماسة الانقلاب السياسى كانت شغل الناس الشاغل ، فلم تجد مجلته العلمية رواجا ، فعدل عن اصدارها ، وصار ينشر مقالاته فى مختلف الصحف والمجلات ، كما تولى التدريس فى عدد من المدارس وألقى الـــكثير من المحاضرات فى مختلف النــوادى والمدارس العالية ·

لكن أبرز ما قام به ســـاطع خلال هذه الفترة تلك النهضة العلمية التى شهدتها مدرسة المعلمين فى القسطنطينية ،حين عهد اليه بأمر ادارتها · أعاد ساطع تأسيس هذه المدرسة على أسس جديدة تماما ، دون أن يتقيد بمناهجها القديمة ، أو بهيئتها التعليمية · وأدخل فى مناهجها لأول مرة علم النفس، وفن التربية والتدريس، كما ألحق بها مدرسة يطبق فيها التلاميذ ما يتلقونه من محاضرات ·

ولم ينحصر نشاطه عند الأخذ بتحسين مستوى دار المعلمين فحسب ، بل تعدى ذلك الى مختلف المدارس القــائمة فى البلاد

العثمانية كلها ، فأنشأ مجلة سماها مجلة التدريسات الابتدائية التى كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية ، وكانت تتألف من قسم نظرى وآخر عملى ، وكان ساطع يجمع فيها الكثير من نماذج الدروس • وأخذت وزارة المعارف العثمانية توزع هذه المجلة على جميع المدارس الرسمية الموجودة فى الولايات العثمانية ، كما أنشأ فى دار المعلمين قسما لتخريج مدرسين فيها ، وفى دور المعلمين الاخرى التى أخذت تنتشر فى مختلف الولايات العثمانية ، ودعا ساطع المعلمين ومديرى التعليم الى عقد اجتماعات ومؤتمرات لمناقشة مختلف أمور التربية والتعليم ، وأحدث بهذه الطريقة انقلابا جذريا وأساسيا فى المدارس الابتدائية •

ثم استقال ساطع من العمل مديرا لدار المعلمين لخلاف بينه وبين وزير المعارف العثمانى ، لكنه ظل يواصل العمل فى مجال التربية والتعليم ، فأصدر مجلة خاصة سماها مجلة التربية وأنشأ مدرسة خاصة أسماها المدرسة الحديثة ، وألحق بها روضة للأطفال أسماها عش الاطفال ، كما أنشأ دار المربيات لتخريج مربيات يتولين تربية الاطفال الصغار وطبق فيها أحسن ما وجب من طرق التربية التى نادى بها علماء علم النفس والتربية • وظل يواصل العمل فى هذه السبيل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية •

كان ساطع يؤمن أنه ينبغى للانسان أن يسافر فى رحلات يدرس فيها نظم التعليم فى البلاد الاخرى ، وقام بأولى رحلاته الاستطلاعية الى بلاد أوربا سنة ١٩١٠ حيث زار المدن التالية :

جنيف ، لوزان ، زيورخ ، باريس ، لندن ، بروكسل ، ميونخ ، برلين •• وقام خلال زيارته لهذه المدن وعواصم الدول بدراسة أحوال التعليم فيها ، ولا سيما دور المعلمين ، والدراسة فى المراحل الابتدائية وما تطبقه هذه الدول من نظم تعليمية جديدة بأن تحتذى•

وما كاد ساطع يعود من رحلته هذه حتى سافر الى ايطاليا فى العام التـــالى سنة ١٩١١ حيث زار قسم التربية المهنية فى المعرض الدولى الذى أقيم فى تورينو ٠ وسافر فى السنة التالية عام ١٩١٢ الى لاهاى للاشتراك فى المؤتمر الدولى للتربية الاخلاقية الذى انعقد هناك ٠

وتكررت زيارة ساطع بعد ذلك الى البلاد الاوربية فزار سويسرا وشـــاهد ما يطبق فى الكانتونات الســـويسرية من نظم التربية والتعليم ، ومدى ما تقتبسه من نظم فرنسية وألمـانية وايطالية ، وكان ساطع يتصل خـــلال رحلاته هذه بمشـــاهير رجال التربية والتعليم . وعندما تأسس معهد جان جاك روسو فى جنيف تعرف ساطع الى أهم مؤسسيه ، وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن توفد البعض من طلابها فى بعثـــات تعليمية للدراسة فى هـــذا المعهد ، نظرا لما يطبقه هذا المعهد من نظم جديدة فى التعليم ، كما دعاه الاستاذ بير بوفيه Piere Bovet المؤسس والمدير الاول لهذا المعهد أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له أو التى تعرف

أما أهم آثار ســـاطع العلمية التى نشرها خلال تلك الفترة فكانت العديد من الكتب العلمية والمقالات ، وكلهـــا كانت باللغة التركية ٠

وأهم هذه الكتب :

١ ــ فن التربية أصدره فى ثلاثة مجلدات ٠

٢ ــ علم الأقوام وهى الدروس التى ألقاها فى المدرسة الملكية

٣ ــ لأجل الوطن واسمه بالتركية (وطن ايتشون) ٠

٤ ــ الأمل والعزيمة Comitee de Patronage. (امين وعزم)

٥ ـ اليابان واليابانيون

٦ ـ تقاريرى

كما أخذ ينشر مقالاته فى جرائد (ملت طنين) (ووقت) ، وفى مجلات العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وفى مجموعة سى ـ اجتهاد ـ ملكية مجموعة سى ـ معلم ـ آتيان ـ دو شونجه (التفكير) ، هذا فضلا عن مقالاته الكثيرة فى المجلات التى أصدرها أو تولى رياسة تحريرها مثل تدريسات ابتدائية ، تربية •

وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى غادر ساطع بلاد الدولة العثمانية ليقيم فى البلاد العربية وهنا تبدأ فترة هامة وحافلة من حياته نتناولها فى الفصول التالية •

الفصل الثانى

ساطع فى البلاد العربية
(فى سورية والعراق)

غادر ساطع أرض الدولة التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى الى سورية ، وبقى فيها حتى استيلاء الفرنسيين على دمشق فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٢٠ ، بعد الموقعة الشهيرة التى جرت فى اليوم السابق (٢٤ من يوليو) عند ميسلون ٠

وهنا يبرز سؤال نرى من الأهمية مناقشته ٠٠ لماذا غادر ساطع الدولة التركية بصفة نهائية ليقيم فى البلاد العربية عقب الحرب العالمية الأولى ؟

ترتبط الاجابة على هذا السؤال بالدور الذى مرت فيه حركة القومية العربية ، لقد مرت هذه الحركة بدورين : الدور الأول ما بين ١٩٠٨ و ١٩١١ ، وهو دور الوفاق مع الحركة التركية القومية التى كانت موجهة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، وتركت هذه الحركة التركية أثرها على الولايات العربية بصفة خاصة ٠٠ فلقد حمل المفكرون العرب على السلطان عبد الحميد بنفس العنف الذى حمل به الأتراك الأحرار ، وهناك من المؤرخين من يرى أن كتاب

طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى كان المقصـود منه مهاجمته عبد الحميد بالذات .

ولقد قوبل اعلان الدستور فى عام ١٩٠٨ بحماسة بالغـة عند العرب ، وأقيمت صلاة الشكر فى طرابلس الغرب على سبيل المثال ، أما الدور الثانى للحركة القوميـــة العربية فيبدأ منـذ سنة ١٩١٢ .. حين انفصلت هذه الحركة عن جمعية الاتحاد الترقى وبعد أن تطورت حركة الجامعة العثمانية الى الحركة الطورانية وهى دعوة صريحة الى تفوق الجنسى التركى وطمس معـــالم القوميـــات العربية ، وكان لفشل الدولة العثمانية فى الدفـــاع عن طرابلس أثناء الحرب التركية الايطالية فى سبتمبر سنة ١٩١١ .. حين أطلق الاسطول الايطالى قذائفه على موانى طرابلس وبرقه ــ أن أحس العرب بضرورة ابراز كيانهم الخاص المتميز بهم . وجاءت هـــذه الحرب التركية الايطالية بعد أن أخذت الأحداث تتوالى على الدولة العثمانية منذرة نهايتهـا ، فضمت النمسا ولايتى البوسنة والهرسك واستقلت بلغاريا والجبل الأسود استقلالا تاما . وكانت نتيجـة الحربين البلقانيتين الأولى والثانية أن أخذت الراية العثمانية ترتد نحو القسطنطينية .

وبدأ التفكير الدينى الاسلامى عند العرب يتحول الى تفكير قومى . وجاءت الأبحاث التى القيت فى مؤتمر الطلبة العرب فى باريس سنة ١٩١٣ تتناول تعريف الأمة العربية .

ومن هذه الأبحاث ذلك البحث الذى ألقاه عبد الغنى العريسى لتعريف الأمة العربية حيث قال :

هل للعرب حق جماعة ــ أى أمة ؟ ان الجماعات فى نظر علماء السياسة لا تستمد هذا الحق الا اذا جمعت على رأى علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأى العلماء الايطاليين وحـــدة

التاريخ ووحدة العادات ووحدة الطمح السياسى ، فحق للعرب بعد هذا أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، وحق شعب ، وحق أمة ٠ (١)

بدأت الحركة القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والهزيمة التى منيت بها تركيا فيها تستقطب كل العناصر المؤمنة بها ، ومنهم بطبيعة الحال ساطع الحصرى الذى رأى فى الدولة العربية التى تكونت فى سورية تحت حكم فيصل الأول بن الحسين بن على تجسيدا للحركة القومية العربية ٠ فلقد كانت هذه الدولة - من وجهة نظر ساطع ٠ عظيمة الدلالة وجليلة الشـــأن برغم قصر عمرها الذى لم يتجاوز الأربعة شهور ٨ من مارس (آذار) ١٩٢٠ - ٢٥ من يوليو (تموز) من العام نفسه) ٠

يرى ساطع فى هذه الدولة العربية السورية الأولى تحقيقـا لأمل عزيز غال عند كل العرب فقد كانت وليدة الثورة العربية وقبلة آمالها ٠ كانت دولة عربية عصرية بكل معانى الكلمة تشعر بعروبتها شعورا واضحا وتعمل للقومية العربية عملا متواصلا وتقدر فى الوقت نفسه مقتضيات الحياة العصرية تمام التقدير ، ثم كان يوم ميسلون وهو اليوم الذى سقطت فيه هذه الدولة الفتية اثر حملة عسكرية شنها الفرنسيون ، ثم يقول ساطع : « ونحن لا نغالى اذا قلنا ان ذلك اليوم كان يوما فاصلا فى تاريخ القضية العربية ، انه كان خاتمة الفصول الأولى من القضية العربية ، وفاتحة فصولها الجديدة ففيه انحل الجيش النظامى الذى تكون خلال الثورة العربية ، وبعده تبعثر رجال الثورة ، ودعاة القومية فى مختلف الأقطار ، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة ، شاقة ومتشعبة تختلف شروطهـــا عن شروط الصفحة الاولى اختلافا جوهريا ، لذلك يحق لنا ان نقول

---

(١) د. محمد انيس - الدولة العثمانية والشرق العربى ٠.

بكل تأكيدا « ان يوم ميسلون كان من أخطر الايام التى مرت على الأمة العربية فى تاريخها الحديث » .

ولقد سطر ساطع تفاصيل هذه الأحداث فى كتـــابه الذى أسماه يوم ميسلون .

وحين نمضى مع كتابه هذا نجده وقد سجل الاحداث تسجيل المؤرخ الذى يعيش الاحداث ينفعل بها وتؤثر فيه يأتى بالوثائق ويعرض وجهة نظر الفرنسيين ، ويسرد مناقشـــــاتهم البرلمانية وتصريحاتهم .. ومن ثم يعتبر كتاب ساطع الذى أســـماه (يوم ميسلون) من الوثائق التاريخية الهامة . فلقد جاء حرصه عـلى تسجيل هذه الاحداث بسبب ما رآه من أن معظم الشهود تبعثروا عقب الواقعة فى مختلف الاقطار العربية وبدءوا حياة كفـاح جديدة وعنيفـــة ، صرفتهم عن التفكير فى جمع وثائق ذلك اليوم ، ونشر وثائقه بين الناس واظهار حقائقه للعيان . (١)

وكان ساطع فى تلك الأيام على مسرح الاحداث بل فى قلب هذا المسرح ، وفى موقف خاص يسر له الاطلاع على جميع صفحات الوقائع بتفاصيلها التامة (ذلك لأنى كنت عضـــــوا فى مجلس المديرين الذى كان يعمل عمل مجلس الوزراء منذ بداية تأليفـــه حتى اعلان الاستقلال ثم وزيرا فى الوزارة الاولى التى تألفت اثر الاستقلال وبعد ذلك وزيرا فى الوزارة الثانية التى اعقبتها ، والتى بقيت فى الحكم حتى يوم ميسلون ، كل ذلك يسر لى الاطلاع على مقدمات القضية من أولها لآخرها اطلاعا مباشرا ، زد على ذلك أن لوزارة الأخيرة كانت قد عهـــدت الى بمهمـــة التفاوض من الجنرال غورو عقب تقدم جيوشه نحو سفوح ميسلون ، فتسنى لى من جراء ذلك أن أطلع على تفاصيل الصفحة الاخيرة من القضية أكثر من أى

---

(١) يوم ميـــسلون ، ساطع الحصرى ص ٣ .

شخص آخر . ثم رافقت الملك فيصل الى أوربا بعد خروجه من سورية غداة يوم ميسلون . فأفسح ذلك أمامي مجالا واسعا لدرس جميع الوثائق الخاصة بهذه القضية الرسمية منها وغير الرسمية وبتفصيل تام) .

ويبدأ ساطع في كتابه دراسة تاريخية للتنافس الاستعماري على البلاد العربية ويعتبر هذه الدراسة ضرورة لازمة لفهم احداث سقوط الدولة السورية التى جلس فيصل الاول على عرشها .

ولذلك جاء كتابه الذى وضعه فى دمشق فى يوليو (تموز) من عام ١٩٤٥ فى ذكرى مرور ربع قرن على الاحداث الهامة مقسما الى قسمين : القسم الأول يشرح المقدمات . والثانى يبين الوقائع والأحداث . ويسجل ساطع فى القسم الاول من كتابه (يوم ميسلون) ما خرج به من قراءة الابحاث والكتب عن الصراع الاستعمارى بين الدول الاوربية الكبرى ، وخاصة فرنسا وانجلترا على البلاد العربية ، وفى القسم الثانى عرض لما شاهده وسجله بنفسه خلال الوقائع والأحداث نفسها .

يعتبر ساطع أن أطماع فرنسا فى سورية ترجع الى تاريخ قديم منذ الحروب الصليبية وتمشيا مع ذلك استمرت فرنسا فى ارسال الارساليات الى الشام حتى بعد فصلها بين الدين والسياسة وجعل التعليم علمانيا .. ثم قويت رغبة فرنسا فى احتلال سورية بعد احتلالها للجزائر عام (١٨٨٠) وتونس عام (١٨٨١) ، وكان لابد أن تصطدم فى رغبتها هذه بعقبتين رئيسيتين الأولى المنافسة الدولية ، والثانية المقاومة العربية .

أما بالنسبة للعقبة الأولى ، فقد قررت فرنسا ذلك واستعدت لها ولم تقدم على ضربة ميسلون الا بعد تذليل هذه العقبة .. أما بالنسبة للعقبة الثانية وهى المقاومة العربية فيرى ساطع ان فرنسا

لم تعط لها أهمية تذكر ، وتوهمت ان ضربة ميسلون ستقضى على المقاومة العربية قضاء مبرما ، وكانت فرنسا فى ذلك خاطئة الخطأ كله ، فانه اذا كان يوم ميسلون بمنزلة الفصل الأخير من رواية المنافسة الدولية التي حامت حول سورية فانه (يوم ميسلون) كان بمثابة الفصل الاول فى المقاومة الوطنية القومية التى قامت فى سورية ضد القوات الفرنسية ٠

ولعله من المفيد ونحن تتناول بالبحث حياة ساطع أن نشير اشارة مقتضبة للظروف التى نشأت فيها هذه الدولة العربية السورية تحت حكم فيصل الاول والتى ظل ساطع يعطيها من الاهمية فى كتاباته الشيء الكثير ، ولما كان ساطع أحد الرجال المسئولين فيها بحكم المناصب التى اسندت اليه فيها ثم بفضل ما قام به من سفارة لدى القوات الفرنسية ، كل ذلك يجعلنا نرى من الضرورة أن نتناول نشأة هذه الدولة التى لم يتجاوز عمرها أربعة أشهر (مارس ـ يوليو عام ١٩٢٠) ، ويعتبر ساطع الحصرى هذه الفترة برغم قصرها من أخطر الفترات فى تاريخ الأمة العربية فى عصرها الحديث ٠

شعرت انجلترة خلال الحرب العالمية الاولى بضرورة الاستعانة بالشريف حسين شريف مكة ٠٠ فقد كانت تركيا بسيطرتها على بلاد الشام والعراق فى وضع تستطيع منه أن تهدد بريطانيا في موقعين عند قناة السويس ، وسواحل الخليج العربى ، حيث توجد بالقرب منهما منابع البترول الخاصة بالشركة الانجليزية الفرنسية ، وكان لا بد للانجليز أن يعملوا على منع الاخطار التى قد تهدد سفنهم فى البحر الأحمر من منطقة الحجاز ، فضلا عن أنه منها (الحجاز) يمكن بث الالغام فى قناة السويس أو حشد القوات الى تنقل لمحاربة الانجليز فى مصر والسودان ، هذا من الناحية الحربية ، أما من الناحية الدينية فقد كان الحجاز على مر العصور والايام له مكانته الدينية فى العالم الاسلامى ٠

من أجل ذلك سعت انجلترة للتفاوض مع الشريف حسين حيث وعدته باستقلال البلاد العربية ودارت بهذا الخصوص المكاتبات المعروفة بمكاتبات حسين مكماهون ، وفي الوقت نفسه كانت انجلترة تفاوض فرنسا سرا فى مسألة تقسيم البلاد العربية بين نفوذ كل منهما • وتوصلا الى الاتفاقية المعروفة باتفاق سايكس ـ بيكو (نسبة الى المندوب الفرنسى في المباحثات المسيو جورج بيكو • وكان قنصلا عاما لدولته في بيروت خلال الاعوام التى سبقت الحرب، وكان زميله البريطانى مارك سايكس صاحب شهرة واسعة فى شئون الشرق بفضل كتاباته وأبحاثه) (١) ، وارفق بهذا الاتفاق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية خريطة لمنطقة المشرق العربى لونت عليها المناطق التى تقرر أن تحتلها انجلترة باللون الاحمر (العراق من بغداد حتى الخليج العربى) والمنطقة التى تقرر أن تحتلها فرنسا باللون الازرق (الساحل السورى) ، كما لونت فلسطين باللون الاسمر ، وتقرر انشاء ادارة دولية فيها على أن يعين شكل الادارة فيها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء ممثلي شريف مكة • كما تقرر طبقا لاتفاقية سايكس ـ بيكو أن تعترف كل من فرنسا وبريطانيا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رياسة رئيس عربى فى المنطقتين اللتين عرفتا بالمنطقة (أ) (داخلية سورية) والمنطقة (ب) (داخلية العراق) • ويكون لفرنسا فى المنطقة (أ) ولانجلترة فى المنطقة (ب) حق الأولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا فى المنطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب • بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية • (٢)

---

(١) ارجع الى الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين المجموعة الاولى التى نشرتها جامعة الدول العربية (ص ٨٦) •

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى وكذلك ،
Gerorge Antonius : The Arab Awakening P. 448

كما تقرر طبقا للمادة الرابعة من اتفاقية سايكس – بيكو أن تكون حيفا تحت ادارة انجلترة على أن تكون ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها ، وأن تكون الاسكندرونة تحت ادارة فرنسا على أن تكون ميناء حرا لتجارة الامبراطورية البريطانية •

ويشاء الله ان تطيح ثورة البلاشفة فى روسيا بحكم القياصرة، وان تعلن الحكومة الجديدة على الملأ الاتفاقيات السرية التى عقدتها الحكومات السابقة على الثورة ، وتعلن الغاءها وعدم تمسكها بها ، وكان من بين ما أذاعته تلك الاتفاقية السرية المعروفة باتفاقية سايكس – بيكو التى وافقت عليها حكومة روسيا قبل الثورة بها • اذاعت الحكومة البلشفية هذه الاتفاقية يوم ٢١ من فبراير عام ١٩١٨ فأثارت ثائرة العرب ، ولما لم تكن الحرب قد انتهت بعد فان الحكومة البريطانية قد بادرت تؤكد وعودها السابقة للعرب من حيث بقائها على وعودها السابقة مع الشريف حسين ، وتأييدها لاستقلال البلاد العربية حسبما تم من مكاتبات معه بهذا الخصوص•

وفى ذلك الحين كانت قوات الثورة العربية قد تقدمت طبقا للاتفاق مع انجلترة من شمالى الحجاز الى العقبة فاحتلتها فى اغسطس من عام ١٩١٧ وفى أكتوبر من العام التالى (١٩١٨) دخلت القوات العربية مع القوات الانجليزية دمشق • وفى نفس الشهر تمكن الفرنسيون من احتلال بيروت والاسكندرونة ، وبدأت الجيوش التركية ترغم على الجلاء عن البلاد السورية بأجمعها • وبدأت المانيا تطلب وساطة ولسون لانهاء الحرب •

وعندما وقعت الدولة التركية على اتفاقية الهدنة فى مودرس كانت أوضاع (الولايات العربية) على النحو التالى : العراق بأجمعه تحت الجيش البريطانى أما بلاد الشام فكانت مقسمة الى ثلاثة أقسام : قسمها الساحلى الجنوبى من حدود مصر حتى رأس الناقورة

تحت احتلال الجيش البريطاني ، قسمها الساحلي شمال رأس الناقورة تحت احتلال الجيش الفرنسي ، واقسامها الداخلية تحت ادارة الجيش العربي ·

وكانت المطامع والنوازع السياسية التي تحوم حول البلاد العربية متضاربة ومتشابكة ، كانت هناك اماني الاستقلال تجيش في صدور رجال الثورة العربية ، ويدعم هذه الاماني ويقوى الامل في تحقيقها المبادئ المشهورة التي أعلنها الرئيس الامريكي ولسون من ناحية ، ووعود بريطانيا المقررة في مكاتبات (حسين ــ مكماهون) من جهة أخرى ولكن خلافا لكل ذلك كانت هناك أطماع فرنسا وانجلترة التقليدية في حكم البلاد المذكورة واستعمارها ، والتي تضمنتها اتفاقية سايكس ــ بيكو · وهذا كله وبالاضافة اليه وعد بلفور المشهور · ويتناول ساطع ــ في كتابه الذي أسماه يوم ميسلون ــ اتفاقية سايكس ــ بيكو في نقد لاذع · لقد قال عنها إنها كانت تقضي بتقسيم البلاد العربية تقسيما كيفيا لا يتفق مع النزعات القومية ولا يراعي الضرورات الاقتصادية ·

وعند انتهاء الحرب كان هناك تضارب بين المصالح البريطانية والفرنسية حول اقتسام البلاد العربية ، فاذا كانت اتفاقية سايكس ــ بيكو قد أقرت دولية فلسطين ، فان انجلترة بعد فتحها لها لم تكن لتتركها ، خاصة وأنها أحست بأهميتها الاستراتيجية وقربها من قناة السويس ·

ويرجع اهتمام بريطانيا بفلسطين الى ما قبل الحرب العالمية الاولى أيام كان كتشنر قنصلا عاما لبلاده في مصر ، اذ أوضح للمسئولين في الحكومة البريطانية آنذاك أهمية جنوب سورية (من حيفا على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الاحمر ، كسد يمنع الخطر عن قناة السويس ، وكطريق برى

للشرق) • وفى سنة ١٩١٣ عهدت الحكومة البريطانية بناء على طلب كتشنر الى لجنة من سلاح المهندسين الملكى بها وبرياسة نيوكومب بمسح شبه جزيرة سيناء بأسرها • وجاءت نتيجة هذا المسح الذى قامت به اللجنة مؤيدة لرأى كتشنر بأن سورية الجنوبية شمالا الى حيفا وعكا وجنوبا الى خليج العقبة ضرورى للامبراطورية البريطانية سياسيا وحربيا •

وعندما أعلنت الحرب وتبوأ كتشنر مقعد وزير الحرب أحث حكومته على ضرورة التمسك بفلسطين ، لتكون منطقة نفوذ بريطانية والا تسمح لأحد غيرها ان يكون له نفوذ فيها • ولعل ذلك أحد الدوافع الرئيسية التى حدث بالحكومة البريطانية الى اصدار وعد بلفور •

ولما شعرت فرنسا بأن بريطانيا تريد التمسك ببعض المناطق دون البعض ، خلافا لما تضمنه اتفاقه سايكس بيكو ، رأت أنه لابد من تسوية أمورها مع انجلترة •• ويقال ان كلمنصو الذى كان رئيسا للوزارة الفرنسية خلال مفاوضات الصلح التى دارت عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى سأل لويد جورج رئيس وزراء انجلترة : قل لى ماذا تريدون منا ؟ فيجيبه لويد جورج : نريد فلسطين والموصل ••

كان الاتفاق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية أمرا ضروريا حتى يمكنها مواجهة حركة القومية العربية •• وتم التوصل الى اتفاقية تقضى بأن تبقى الموصل فى يد بريطانيا على أن تعطى لفرنسا حصة من نفطها ، وأن تترك بريطانيا لفرنسا القسم الداخلى من سورية • كان موقف انجلترة على هذا النحو يعنى أنها تخلت عن المطالب القومية العربية ، وذلك بتصريحها لفرنسا أن تتقدم من السَاحل السورى غربا لتحتل بقية القسم الشرقى من سورية ،

والذى كانت ترابط فيه القوات العربية ، لكن قيادة الجيش العربى فى سورية قررت المقـــاومة والتصدى للقوات الفرنسية اذا ما بدأت تتقدم الى داخل البلاد ، وازاء ذلك قررت القيـــادة العســـكرية الفرنسية تأجيل احتلالها للقسم الشرقى من ســـورية حتى يحين الموعد المناسب ، وحتى تنتحل من الأعذار والاسباب ما يبرر لهـــا ذلك •

لكن القيادة العسكرية للجيش العربى فى سورية سرعـــان ما حولت نفسها الى ادارة مدنية ، ودعت الى مؤتمر يمثل جميـــع اقسام سورية بحدودها الطبيعية ، وعرضت عليه مشروعا بقانون للتجنيد الاجبارى ، فصدق عليه المؤتمر بحماسة كبيرة فى ديسمبر من عام ١٩١٩ ثم اتبعت ذلك باعلان استقلال سورية بكل أقسامها بعد أن كان وضع الجيش العربى والحكومة فى سورية غريبا فهـــو من الوجهة القانونية جزء من جيوش الحلفاء تابع للالنبى •• ولم يكن هناك بد من اعلان الاستقلال وتم ذلك فى ٨ من مارس عام ١٩٢٠ وتلى على الناس من شرفة البلدية فى دمشق •

وقال المؤتمر السورى فى قراره التاريخى الذى أعلن فيـــه الاستقلال : « لما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربى من حكم الترك وكانت الاسباب التى يستند اليها فى استقلال القطر السورى هى ذات الأسباب التى يستند اليها فى اســـتقلال القطر العراقى ، وبما أن بين القطرين صـــلات وروابط لغـــوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل كل قطر لا يستغنى عن الآخر فنحن نطالب باستقلال القطر العراقى » •

وهكذا لم يهمل المؤتمر السورى فكرة الوحدة العربية حتى وهو فى أشد اللحظات وفى أكثر الاوقات أزمة •• وكان من الطبيعى أن يثير قرار الاستقلال ثائرة كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية

فسرعان ما صرح اللورد كيرزون وزير الخارجية أن بريطانيا العظمى لا تعترف لأية هيئة فى دمشق بحق التكلم عن فلسطين والعراق ، ولم تعترف انجلترة بفيصل ملكا ، وظلت تعـــامله على أنه أمير هاشمى ٠

أما فرنسا فقد بادرت هى الاخرى تتخذ الخطوات الكفيلة بالقضاء على هذه الدولة العربية الوليدة فى مهدها قبل أن تثبت أقدامها وتقوى ٠

وبادرت كل من فرنسا وانجلترة الى اصدار قرار من مؤتمر الصلح الذى كان منعقدا فى سان ريمو بوضع كل من سورية والعراق وفلسطين ولبنان تحت الانتداب ، ولقد عهد لانجلترة بمهمة الانتداب على العراق وفلسطين ووضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ٠

ويعتبر ساطع هذا القرار الذى أصدره مؤتمر الصلح فى الخامس والعشرين من ابريل عام ١٩٢٠ من أخطر القرارات فلقد صدم العرب بهذا القرار من مؤتمر مفروض فيه تحقيق السلام واجابة رغبات الشعوب ، فاذا به تصبح مهمته تحقيق رغبات المستعمرين ٠

الانذار الفرنسى وسفارة ساطع :

بعد أن اعترف مؤتمر الصلح لفرنسا بحق الانتداب على سورية أخذت تستعد لغزو المنطقة الشرقية منها وهى المنطقة التى كان يحتلها الجيش العربى ، واعتمدت فرنسا الاموال اللازمة لحملة قررت أن تتقدم من غربى سورية الى شرقيها ، ووضعت تحت قيادة الجنرال غورو ما يقرب من مائة الف جندى على نحو ما صرح هو به فى البرلمان الفرنسى بعد حوادث ميسلون ٠ وحين تم تجهيز الحملة العسكرية قدم القائد الفرنسى الى الملك فيصل الأول عددا من المطالب فى شكل انذار ، وذلك فى الرابع عشر من يوليو عام ١٩٢٠ ٠

يبدأ الانذار بمقدمة طويلة يتهم فيها الحكومة السورية بتنظيم العصابات التى هاجمت الجيوش الفرنسية فى المنطقة الغربية لسورية كما يتهم هذه الحكومة بتحريضها للشعب العربى على كره الفرنسيين، وينتهى الانذار بتقديم عدد من المطالب يطالب الحكومة السورية اما بقبولها كلها أو رفضها كلها كمجموعة واحدة لا تقبل التجزئة ، وذلك خلال أربعة أيام أى قبل منتصف ليل ١٨ من يوليو عام ١٩٢٠ اما هذه المطالب فهى :

١ ـ وضع سكة حـــديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسى •

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسى •

٣ ـ الغاء التجنيد الاجبارى الذى قررته الحكومة الســورية وتسريح المجندين •

٤ ـ قبول الاوراق النقدية التى أصدرها البنك السورى، وكان الفرنسيون قد أسسوا مصرفا ماليا سموه بنك سورية ولبنـــان واصدروا قرارا باعتبار العملة التى يصدرها هذا البنك عملة رسمية اجبارية ، وكانت المعاملات تجرى بين الناس بالعملة الذهبية ، وكانت الحكومة السورية قد أصدرت قرارا بعدم اعترافها بهذا المصرف ولا بالعملة التى يصدرها •

٥ ـ معاقبة من أسماهم الانذار بالمجرمين الذين استرســلوا فى معاداة فرنسا •

وقال الانذار انه ينبغى ان يصاحب حرية التصرف فى سكةحديد رياق حلب احتلال محطات رياق ، بعبلبك ، حمص ، حماه ، حلب مع مدينة حلب نفسها •

كما جاء فى الانذار أنه فى حالة قبول الحكومة السورية للانذار تصدر الاوامر للسلطات السورية بعدم عرقلة سير الجيوش الفرنسية وفى حالة الرفض ستصبح الحكومة الفرنسية حرة فى أعمالها •

وبدات الحكومة السورية تبحث الانــذار الفرنسى ، ثم قررت ايفاد أحد رجالها للتفاهم مع غورو ، ووقع الاختيار على ساطع ليقوم بمهمة السفارة لدى القائد الفرنسى ٠

وقبل أن يغادر ساطع دمشق الى (عاليه) لمقابلة الجنرال غورو دعاه الملك فيصل ، وأطلعه على برقية أرسلها لغورو بقبوله الانذار ، ورد غورو بالشكر ، وطلب ارسال برقية بالقبول النهائى مع ذكر الشروط بالتفصيل ٠ وفى الطريق لمقابلة غورو شاهد ساطع القوات الفرنسية وهى تزحف تجاه العاصمة السورية ٠ وتمت المقــــابلة بين ساطع والجنرال غورو ، وكان ســـاطع خير من توفده الحكومة السورية لأخطر مهمة يتوقف عليها مستقبل الدولة العربية السورية٠ ويوضح ساطع للجنرال الفرنسى أنه ليس هناك مبرر لتقـــدم القوات الفرنسية بعد (قبولنا للانذار وتسريحنا للجيش) ، لكن القائد الفرنسى وقد الجمته الحجة لا يجد ردا على ذلك سوى تمسكه بأن الفرنسيين لم يعودوا يثقون بالعرب ، ويقدم لساطع شروطـا يطلب من الحكومةالعربية قبولها، وتتضمن اقامة بعثة فرنسية مفوضة فى دمشق لها اختصاص الرقابة ، ودراسة طرق تطبيق الانتداب الفرنسى فى المنطقة الشرقية ٠ ووعد الجنرال غورو ساطع أن يصدر الاوامر للقوات الفرنسية بوقف زحفها تجاه دمشق ٠

لكن ساطعا يعود الى دمشق وهو جازم كل الجزم ان الفرنسيين (مصممون على احتلال بلادنا احتلالا تاما ، وعاملون على استكمـــال وسائل هذا الاحتلال ، مهما تقلبت الظروف والأحوال) ٠

لكن القائد الفرنسى سرعان ما نقض ما وعد به ساطع ٠ فقرر أن تتقدم قواته بحجة وصولها الى مكان يتوافر فيه الماء الكافى، ويكون قريبا من السكة الحديدية ، وعندما عاد ساطع الى دمشق قرر مجلس الوزراء السورى دعوة قناصل الدول لشرح القضية العربية لهم ،

وكما كلف مجلس الوزراء ساطعا بالتفاوض مع القائد الفرنسى كلفه ان يشرح القضية لممثلى الدول ، ويحسن ساطع عرض القضية وتفنيد حجج الفرنسيين ، ويختم كلامه لهؤلاء الممثلين بقوله : على كل حال فلقد شهدتم كلكم القسم الاعظم من الحوادث بأنفسكم ، ان الحكومة قبلت شروط الانذار وشرعت تسرح الجيش ، وهو الامر الذى سبب هياج الاهلين واضطرت الحكومة الى استعمال السلاح لتسكين الاضطرابات ، ولقد علمتم ان الجيوش الفرنسية بدأت تزحف نحو دمشق .

يوم ميسلون :

وتدور المعركة بين القوات الفرنسية وبين القوات العربية بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية السورى ، وذلك فى الرابع والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ ، ولم يكن من المتوقع ان تصمد هذه القوات العربية طويلا أمام الجيش الفرنسى الزاحف ، الذى أحسن تسليحه واعداده بعكس القوات العربية التى كان ينقصها التسليح ، ويستشهد يوسف العظمة ، وتدخل القوات الفرنسية دمشق فى اليوم التالى مباشرة (٢٥ من يوليو عام ١٩٢٠) ، وتنتهى بذلك صفحة أول دولة عربية سورية ، ثم يأمر الفرنسيون فيصلا بمغادرة البلاد ، فيغادرها الى الحجاز ، ومعه ساطع ، ومنها الى حيفا ، ثم بورسعيد ، حيث ركبا الباخرة الى ايطاليا فى الخامس والعشرين من اغسطس عام ١٩٢٠ .

وظل الأمل يراود فيصل فى امكان استعادة عرشه فى سورية فهو يوفد ساطع الحصرى الى تركيا فى محاولة للالتقاء بالكماليين وتنسيق العمل معهم ، وينفذ ساطع رغبة فيصل ولكنه يعلم حين يصل الى أرض الدولة التركية ان الكماليين كانوا فى ذلك الحين مغلوبين على أمرهم ، وانهم بدءوا يسعون للتفاهم مع الفرنسيين كى يتمكنوا من مقاومة الانجليز .

وحين يعود ساطع من تركيا يكلفه الملك فيصل الاتصـــال بالاستاذ بونفانتى أستاذ الحقوق فى الجامعة الايطالية بروما لوضـــع دراسة قانونية عن القضية السورية •

أما الانجليز فقد أخذوا يحولون أنظار فيصل عن سورية الى العراق ، ودعوه الى لندن لمباحثته فى هذا الخصوص (أما أنا (ساطع) فلم أر فائدة من مرافقته خلال هذه السفرة ، ورأيت العودة الى مصر والاتصال بالاخوان المجتمعين هناك) •

ساطع والنهضة العلمية فى سورية :

لا غبار على ساطع لو لم يقم بأى اصلاحات خلال المدة التى عاشتها تلك الدولة العربية السورية الاولى التى لم يتجاوز عمرها الشهور الأربعة فلقد ولدت فى ظروف مشحونة بالتوتر والتهديد يحيط بها العدو ، ويحدق بها الخطر من كل جانب ، الامر الذى يجعل شغلها الشاغل الاهتمام بأمر الدفاع عن نفسها وكيانها ، لكننا نجد ان ساطعا الى جانب نشاطه السياسى الذى مر بنا يقوم بعدد من الاصلاحات الهامة ، فهو بحكم عمله كوزير للمعارف فى هذه الدولة منذ أعلن استقلالها (٨ من مارس عام ١٩٢٠) حتى قضى عليها الاحتلال الفرنسى لدمشق (٢٥ من يوليو عام ١٩٢٠) يقرر تعريب التعليم فى ســـورية • كان التعليم يتم باللغة التركية ، والكتب المدرسية مطبوعة بهذه اللغة ، لكن ساطعا يقرر على الفور اتباع منهج قومى عربى فى التعليم، ويؤلف لجنة لجمع المصطلحات العلمية المستعملة قديما وحديثا ، تمهيدا لانتخاب الأوفق منها ، واعداد معجم عربى ، ويؤسس المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ولكن الحوادث فى تطورها كانت أسرع من كل شىء فلم يمهل الفرنسيون هذه الدولة العربية لتمضى مع أول حركة قومية عربية ، فبادروا باحتلال دمشق على نحو ما سبق ذكره •

.وكما وقف الجنرال اللنبى عند بيت المقدس يقول ها نحـن قد عدنا يا صلاح الدين ، يقف القائد الفرنسى الذى قاد القـوات الفرنسية الى دمشق ، ويذكر أيام الحروب الصليبية • يقول هذا القائد الفرنسى : أنا فى دمشق !

ان هذا الاسم كان يمثل لى شيئا خرافيا عندما كنت اقرؤه فى سجلات عائلتى وأنا فى سن الطفولة •

ان الجد البعيد لجدتى من جهة أبى ــ لويز ــ كان قد وقع فى الاسر خلال الحروب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ •• ، ونقل الى مدينة دمشق ، وجعل منه أهل دمشق فى ذلك الحين عبدا يشتغل فى أحد المصانع التى يصنع الورق فيها من القطن ، واشتغل جدى هناك شغلا شاقا خلال ثلاث سنوات ، وبعد ذلك فر الى دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبى بعد اجتياز آلاف المخاطر • وعندمـا عاد الى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات أسس أولى طواحين الورق التى عرفتها أوربا

أو ليست العدالة العليا هى التى سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ظافرا منصورا ؟

ساطع فى العراق :

قلنا ان ساطعا عاد الى مصر فبلغها فى التاسع من ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٢٠ ، فأقام فيها مدة تقرب من العام ، اتخذ له سكنا ضاحية الزيتون ، وانصرف فى هذه المدة عن العمل السياسى وآثر أن يعود الى عمله الاول والى وظائفه التعليمية التى يستطيع من خلالها تحقيق اغراضه التربوية والقومية •

بدأ ساطع يعد نفسه للأعمال التعليمية بالعراق بناء على اتفاق

بينه وبين فيصل ، وكانت اقامته فى القاهرة انتظارا لدعوة فيصل يدعوه فيها الى مواصلة الاعمال التعليمية بالعراق ، وأراد انتهاز فرصة اقامته فى مصر للوقوف على حالة التعليم فيها ، فكتب الى وزير المعارف المصرى (جعفر والى باشا) فى ذلك الحين خطابا يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية ، وجاءته الموافقة ، وحين قام بهذه الزيارة آثر ـ حرصا على مصلحة مصر وحبها ـ أن يقدم للمسئولين فيها اقتراحاته بخصوص ما يراه واجبا من اصلاحات ، وأن يكتب لوزارة المعارف المصرية رأيه فى برامج التعليم المصرى .

كان أهم ما لفت ساطع من مساوى فى هذا التعليم المصرى هو ثنائية التعليم الابتدائى حيث كان يوجـــد فى ذلك الحين ما يعرف بالمدارس الأولية والمدارس الابتدائية ، ولكل من هذين النوعين برأمجه ومناهجه ، كذلك كان اعتراض ساطع على تقسيم الثانوية العامة الى قسمى العلوم والآداب فى ختام السنة الثانية من سنى الدراسة الثانوية فى ذلك الحين مما يجعل الطالب فى شـــعبة الآداب لا يلم شيئا عن العلوم وطالب العلوم لا يلم شيئا عن التاريخ ، والى جانب ذلك يرى اهمال المدارس المصرية خصوص فى المدارس الاوليـــة والابتدائية لتدريس مادة التاريخ واعطائها المزيد من العناية ، ذلك أن ساطعا ينظر الى لتاريخ على أنه الاساس المتين الذى تقوم عليـــه التربية الوطنية .

وسنرى ان ساطعا سيستفيد من هذه الدراسة التى قام بها عن أحوال التعليم المصرى فيما يقدم عليه من اصلاحات بالعراق .

ثم جاءته دعوة فيصل للسفر الى العراق بعد أن تم تتويجـه هناك ملكا فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢١ .

سافر ساطع الى العراق وهو يشعر بثقل المسئولية التى ستلقى

عليه فيه ، ويحس بالاوضاع السيئة التى فرضها الاستعمار على البلاد العربية ، وعلى سورية والعراق بوجه خاص ، ويقول ساطع حين يدعى للسفر الى العراق : « نحن نعيش الآن فى أسوء الظروف العالمية واضرها بالمصالح العربية فى سورية والعراق ، فلا بد أن نعمل تحت الظروف السيئة والقاسية ، دون أن نامل فى أيـــة مساعدة مادية ومعنوية من أية دولة من الدول الداخلة فى عصبة الأمم او الباقية خارجها » .

أما أبرز وأهم مواطن الضعف فى العراق فكانت كما رآهـــا ساطع على النحو التالى :

١ ــ كثرة العشائر البدوية التى تحيط بمعظم المدن .

٢ ــ قلة المتعلمين وقلة معاهد التعليم .

٣ ــ سوء وسائل المواصلات بين مختلف أنحاء العراق .

٤ ــ تخلف التعليم فى العراق منذ كان يحكمها الأتراك .

ازاء ذلك كله أحس ساطع بالمسئولية الكبيرة التى ينبغى أن يشعر بها كل غيور على مصلحة العراق وشعبه ، كما شعر بمـــا ينبغى على الحكومة العراقية عمله فعليها أن تعمل عملا حثيثا لتلافى تأخر الحركة التعليمية فى العراق .

فضل ساطع على التربية والتعليم فى العراق :

ظل ساطع خلال شهور السنة الاولى التى جاء فيها الى العراق لا يتولى أحد المناصب ، وانما بقى فى معية الملك فيصل بمثـــابة مستشار فى أمور المعارف ، وكان عدم تولى ساطع لأحد المناصب طيلة هذه الفترة بناء على رغبته هو ، كى تكون فترة للدراسة والبحث والإستطلاع ووضع الخطة ، فهو يرى أنه لا بد من وضع خطـــط

مرسومة للاصلاح (ويجب على أن أضع هذه القاعدة نصب عينى على الدوام فى الاعمال التى ســأقوم بها فى العراق ، قد تكون الاهداف الأساسية صعبة المنال ومستحيلة التحقيق مرة واحدة فلابد من وضع مخططات انتقالية ٠٠ ان هذه القاعدة تكتسب أهمية خاصة فى أمور التربية والتعليم ، فالمنهج الذى يوضع على أسس نظرية ومثالية بحتة دون الالتفات الى الأحوال الراهنة ــ من مستوى التلاميذ ومقدرة المعلمين ــ يبقى حبرا على ورق ، اذ لا بد للمنهج أن يأخذ بعين الاعتبار الاحوال الراهنة ، وفضلا عن ذلك كله يجب على المنهج أن يتطور ويرتفع كلما ارتفع مستوى التلاميذ والمعلمين) ٠

وحين وصل ساطع الى العراق وشعر بما ينبغى عليه عمله تمنى لو بقى فيه عشرة أعوام على الأقل ، كى يستطيع أن يجعـل التعليم فى العراق يجتاز مرحلة التخلف الى مرحلة الانطلاق والتقدم السريع ٠

وأحس ان كل المشـاكل سهلة الحلول اذا ما صابر الانسان عليها ، وكانت لديه العزيمة والقدرة ، لكنه يشعر أن أضخم هذه المشاكل بالنسبة للعراق هى المشكلة السياسية ٠٠ فلقد حـكم الانجليز العراق حكما مباشرا مدة طويلة ، ولا ينتظر منهم أن يتخلوا دفعة واحدة عن جميع السلطات التى كانوا يمارسونها ٠

ولقد صدق ظن ســاطع وجدث ما توقعه ، فما كاد يعهــد اليه بمنصب معاون وزير المعارف فى الخامس من فبراير عام ١٩٢٢ حتى بدأ الاحتكاك بينه وبين المستشار البريطانى لوزارة المعــارف العراقية وكان اسمه (فارل) ٠ لقد كان (فارل) يشعر بأن النظام التعليمى الذى وضعته الادارة البريطانية هو النظام الامثل ٠٠ لكن ساطعا يؤمن بأن العراق ليس بحاجة الى ان يطبق نظم التعليم الانجليزية أو الفرنســية لا التركية ، وأن النظام الامثل

له هو ما ارتبط بأحوال العراق العامة وظروفه التاريخية ، وهذا ما ينبغي أن يكون شأن النظام التعليمي في كل بلد ، وأمام عناد (فارل) واصراره على عدم الأخذ بما اقترحه ساطع من اصلاحات لم يكن هناك مفر من اقصائه عن العراق اذا ما أريد اصلاح التعليم به ، وتم ذلك بناء على طلب من الملك فيصل الى السير برس كوكس المندوب السامي البريطاني .

باشر ساطع العمل معاونا لوزارة المعارف مدة كانت أقل من عام (٥/٢/١٩٢٢ ـ ١٩٢٣/١/١٧) انجز خلالها العديد من الأعمال. أما أهم هذه الاصلاحات التي حققها ساطع فهي اصلاح وتنظيم التعليم الابتدائي بوضع منهج جديد ، مبني على أسس تربوية ، ومقترن بتوجيهات وطنية قومية ، لقد وجد ساطع أن نظام التعليم الابتدائي في العراق شبيه بنظام التعليم المصري ، فهناك ثنائية في التعليم الابتدائي على غرار ما هو متبع في مصر . ولما كان قد سبق له دراسة نظام التعليم المصري خلال اقامته في مصر ، وشعر بمساوىء هذا التعليم فقد رأى لزاما عليه أن يضع منهجا جديدا لهذا التعليم العراقي لا يعترف بنوعين من المدارس في المرحلة الابتدائية (أولية وابتدائية) ، ويحذف فيما يضعه من منهج مادة اللغة الانجليزية في السنين الاربع الأولى لصعوبة تعلم الطفل لغتين في آن واحد ، ثم لاحساسه بضرورة تقوية التلميذ في لغته العربية التي هي اللغة القومية .

ويعطي في منهجه هذا اهتماما كبيرا بتدريس التاريخ ، فهو يرى أن الغرض الاصلي من تدريس التاريخ في المدارس الابتدائية هو تعليم التلميذ العراقي تاريخ وطنه وماضي أمته ، بهدف تقوية الشعور الوطني والقومي عنده ، ولذلك ينبغي أن يكون تاريخ البلاد العراقية والامة العربية محور الدروس التاريخية ، أما تاريخ

بقية البلاد وسائر الأمم فلا يبحث عنه فى الصفوف الاولية الا بنسبة علاقتها بتاريخ العراق وتاريخ العرب ·

ثم هو يشرح بعد ذلك فى هذا المنهج الذى وضعه لاصـــــلاح التعليم الابتدائى فى العراق ما ينبغى على المعلمين اتباعه عند تدريس التاريخ من حيث تجنب ذكر الوقائع والاسماء والتواريخ الكثيرة التى تشوش عقل الطفل ولا تحببه فى التاريخ ·

فاذا انتقل ساطع من التاريخ الى الجغرافيا جعل الهدف من تدريس هذه المادة تنمية الوعى القومى حيث قرر أن يدرس التلاميذ الى جانب تاريخ العرب جغرافية البلاد العربية ، ووسائل الاتصال بين هذه البلاد ·· ثم هو يحرص أن يدرس التلاميذ كذلك الاناشيد التى تثير عواطفهم الوطنية ، وتقوى فيهم الروح القومية ·

لكن النهضة التعليمية التى أخذ ساطع يرسى قواعدها سرعان ما أثارت حقد الكثيرين عليه ، فالغى منصبه بحجة الاقتصـــاد فى النفقات المالية فى العراق ، ثم هو يعين بعد ذلك فى منصب مدير المعارف العام ، ويفرح ساطع بهذا المنصـــب لما ظنه سيعطيه من سلطات تنفيذية يحقق بها الاصلاحات التى ارتآها ضرورية للتعليم فى العراق ·· لكن الوشاية تلاحقه والدسائس تكاده الأمر الذى دفعه الى الاستقالة ·

يقول ساطع : « كنت احرص حرصا شديدا على اقامة صرح المعارف على أسس متينة دون الالتفات الى المظـــاهر الخداعة ، وأن أعمل عملا متواصلا لرفع مستوى التعليم ، وزيادة كفاءة المعلمين ، وأن أتخذ من التدابير كل ما يمكن اتخاذه لقطع دابر التساهل والمحاباة فى أمور التربية والتعليم » ·

لكن مصالح الطامعين والحاقدين لاحقت ساطع بالتشـــكيك فى

اخلاصه للتعليم ، فاتخذ أولئك الحاقدون من عدم ولادته بالعراق وسيلة للكيد له ، واستغلوا النوازع الاقليمية وقالوا : انه ليس عراقيا فلا يمكن أن يعمل لمصلحة العراق ، وأنه سورى يسعى لخدمة السوريين واستقدام المعلمين السوريين للعمل فى العراق .

كما اتخذ أولئك الناقمون على ساطع ما قام به من جهد فى محاربة التعليم الأجنبى سبيلا الى التشـــهير والتنديد به . رأى ســـاطع كثرة المدارس الايرانية فى العراق ، والتحاق الكثير من الاطفال العراقيين بهـــا ، وكان المدرسون بهـذه المدارس يلقنون التلاميذ ما يتنافى مع الوطنية العراقية ، والقومية العربية ، فسعى الى الحد من نشاط هذه المدارس ، وأخذ ينشىء الى جانب كل مدرسة ايرانية مدرسة عربية ، وأخذ ييسر سبل الالتحاق بهذه المدارس العربية مما دفع الكثيرين الى الانصراف عن المدارس الايرانية الى المدراس العربية ، الأمر الذى ساعد على غلق الكثير من المدارس الايرانية .. وسرعان ما سعى أولئك القوم المحاربون لساطع الى اثارة الشيعيين العراقيين ، وقالوا : ان ساطعا يجامل السنيين على حساب الشيعة ، لكن الحقيقة أن ساطعا ظل بعيدا كل البعد عن أن يتأثر فى عمله بدين من الأديان ، أو بمذهب من المذاهب ، وانمـــا كان يصدر فى عمله عن عقيدة قومية ، وأسلوب علمى بعيد عن التعصب أو التخريب .

والى جانب ما حققه ساطع بالنســـبة للتعليم الابتدائى فى العراق ، رغب فى اصلاح التعليم الثانوى فيه ، وحـــين وجد أن السبيل لاصلاحه هو دعوة الكفاءات من خارج العراق اتخذ ذلك ذريعة للتهجم عليه ، بحجة أنه لا يريد ان يعطى الفرصة للمعلمين العراقيين للترقى ، فقدم استقالته من منصب مدير المعـــارف العام ، وتولى منصب استاذ فى دار المعلمين العليـــا فى الفترة من ٨/١ سنة ١٩٢٧ الى ١٩٣١/١٠/١ .

وكان الدافع الذى حدا بساطع الى طلب تعيينه فى دار المعلمين هو ايمانه أن السبيل الوحيد لاصلاح التعليم هو البدء باعداد المعلم الجيد ، وأنه عن طريق التدريس فى هذه الدار يستطيع أن يعد المدرس الكفء٠٠وقام ساطع بتدريس علم النفس وأصول التدريس والتطبيق التربوى ، كما اشترك فى لجنة فحص الكتب المدرسية التى شكلتها وزارة المعارف العراقية فى ذلك الحين ، وعين كذلك عضوا فى لجنة اصلاح البرامج المدرسية والى جانب ذلك كله قام ساطع منذ بداية عام ١٩٢٨ باصدار مجلة سماها مجلة التربية والتعليم ،والقى العديد من المحاضرات فى نادى المعلمين كما أجرى الكثير من اختبارات الذكاء ٠

لكن اليد التى مضت تحارب ساطع لم تيأس ، فسرعان ما نجحت فى اصدار قرار بالغاء دار المعلمين العالية فى سنة ١٩٣١ حيث ظلت مغلقة حتى سنة ١٩٣٥ ٠

تولى ساطع بعد الغاء منصبه فى دار المعلمين منصب مراقب التعليم العام فى الفترة من أول أكتوبر عام ١٩٣١ الى ١٢/٣١ سنة ١٩٣١ أى مدة ثلاثة شهور فقط ٠ كان المدير العام للتعليم فى ذلك الحين هو الدكتور سامى شوكت ٠٠ يقول ساطع : « كنت مخدوعا فى تفكيره القومى ، فاختلفت معه ازاء رغبتى فى استبدال عدد من مفتشى المعارف بآخرين مؤهلين تأهيلا عاليا » ٠ وكان السبب الذى حدا بالدكتور شوكت الى عدم موافقة ساطع على رغبته هو خوفه من غضب المستشار البريطانى ، عندئذ قرر ساطع التخلى عن وظيفته هذه ، مبديا رغبته فى العمل بكلية الحقوق ، فكان له ما أراد حيث عين مديرا لها ، مدة قاربت السنوات الأربع (١٢/٢٢ سنة ١٩٣١ الى ١٩٣٥/٩/١٥) ثم اسند اليه خلال السنة والنصف الأخيرة منصب مدير الآثار القديمة علاوة على منصبه ٠

وما يكاد ساطع يتولى منصب الرجل المسئول عن كلية الحقوق في العراق حتى يعد مذكرة بما ينبغي بشأنها من اصلاحات ، أهمها في نظره ضرورة الاهتمام بمكتبة الكلية «(يجب الا ننسى أن المكتبات في كلية الحقوق تعتبر بمثابة المختبرات في كلية العلوم ، فهي آلات البحث ، ووسائل التنقيب لدى الطلاب ، كما أنه من الضروري أن نتخذ التدابير لحمل الطلبة على مطالعة كتب القانون المكتوبة باللغات الأجنبية) •

ثم يفجع ساطع بوفاة الملك فيصل في السابع من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، ويرى ان وفاته خسارة كبرى للعراق ، ويصفه ساطع بالذكاء والمرونة والنشاط والحيوية •• لقد كان ساطع وثيق الصلة بفيصل ومعه ، ثم كان من الطبيعي أن يحز في نفسه خسارته لصديق عمل معه في سورية ثم في العراق •

ويتولى ساطع مرة أخرى أحد المناصب الرئيسـيـة في وزارة المعارف ، وهو منصب مدير التدريس والتربية العام •• تولى ساطع هذا المنصب لمدة عام واحد «(١٦/٩/١٩٣٥ و ١٦/٩/١٩٣٦) بدلا من رياسة كلية الحقوق ، وظل معه منصب مدير الآثار القديمة ، ثم هو يطلب خلال توليه لهذا المنصب ايفاده الى مصر لتنظيم الروابط الثقافية وفق ما رسمه من خطة لذلك ، وحـيـن عاد من مصر اعد مذكرة برأيه في السياسة التي ينبغي أن تتبع في تسـيير أمور المعارف واصلاحها ، لكن تصرف وزير المعارف العراقي معه دفعة الى الى الاستقالة بعد ما رأى أن ما يقترحه من اصلاحات لا يؤخذ به •

وقصر ساطع عمله بعد ذلك على العمل في مديرية الآثار العراقية لكنه لا ييأس من أن يعمل بما وسعه العمل في سبيل اصلاح المعارف العراقية ، فيقدم لوزارة المعارف في الخامس عشر من ينـاير عام ١٩٣٦ خطة خمسية يراها كفيلة باصلاح أحوال التعليم العراقي •• وأهم ما تضمنته خطة السنوات الخمس هذه ما أشار اليه ساطع في

ضرورة التوسع فى نشر التعليم الابتدائى ، وانشاء المزيد من المدارس ، وأما بالنسبة للتعليم العملى فيطالب بفتح الورش الصناعية لتعليم التلاميذ ، كما يقترح بالنسبة للتعليم العالى تزويد كلية الحقوق ودار المعلمين العليا بالاساتذة ، ويرى ضرورة الاهتمام بكلية الطب كى تكون هى وكلية الحقوق نواة الجامعة العراقية فى المستقبل ، وذلك كله الى جانب ما اقترحه من اهتمام بالمكتبات العامة ، والمبانى المدرسية •

ساطع مديرا للآثار القديمة بالعراق :

لم يأخذ القائمون على أمر التعليم فى العراق بما كان يقترحه ساطع من اصلاحات ، فلم ير بدا من الاستقالة من مناصب التعليم ، قاصرا عمله فى مديرية الآثار ـ العراقية ، وكانت هذه المديرية أحوج ما تكون لشخص مثل ساطع يعطيها من عنايته ، ويوليها من اهتمامه الشيء الكثير • فاسست مديرية الآثار القديمة فى العراق سنة ١٩٢٠ ، تحت اسم الدائرة الاركيولوجية وتولت أمرها السكرتيرة الشرقية للمندوب السامى البريطانى ، وظل يتولى أمرها بريطانيون حتى عين لها ساطع فكان بذلك أول مدير وطنى لها •

تولى ساطع امر الآثار فى العراق فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٣٤ ، وكانت سمعتها قد وصلت الى الحضيض ، فالآثار تسرق وتهرب الى خارج البلاد ، وليس هناك من رقيب • وكانت جميع الحفريات تقوم بها بعثات أجنبية •

وما كاد ساطع يتولى أمرها حتى يقرر أن تقوم المديرية بحفريات فى اطلال سامراء ثم هو يضع لها قانونا يحكم الرقابة على الآثار وعلى المتقدمين لعمل حفريات ، وحين يدعى الى مؤتمر دولى فى مصر سنة ١٩٣٧ للحفريات الاثرية ، ويعرض القانون الذى وضعه حتى لقى من المؤتمر كل استحسان •

ويؤمن ساطع أن العمل في مجال الآثار شأنه شأن العمل في مجال التربية والتعليم من حيث ان الهدف منهما ينبغي أن يكون خدمة القومية العربية ، فما تكاد الحرب العالمية الثانية تعلن ، ويتوقف وصول البعثات الى العراق للقيام بالتنقيب ، حتى يقرر أن تمضي دائرة الآثار بأعمال التنقيب ‥ ولقد وفقت الدائرة الى كشف مداخل نينوى في الموصل ، وبدأ يقيم المعارض التي تعلن الفكرة الصحيحة عن الأزياء التي كانت تستعمل في عهد الأمويين والعباسيين . وجهز مرسما بالدائرة لهذا الغرض .

يرى ساطع في العناية بالآثار العراقية عناية بتاريخ العراق ، وهو أمر ينبغي أن يعطى له كل اهتمام ‥ ونلمس ذلك في المحاضرة التي القاها على فريق الكشافة العربي في متحف الآثار العربية في بغداد عام ١٩٣٧ حيث يقول : « ان الامة التي تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها شأنها شأن فرد فاقد الشعور ، هي بمثابة فرد يغط في نومه ، أو قل فرد في حالة اغماء ‥ ان اهمال التاريخ القومي بمثابة الاستسلام الى الذهول ‥ واهم ما يجب ان تستلهمه من التاريخ هو الايمان بحيوية الامة العربية، وبامكان حصولها على مجد جديد ، لا يقل شأنا عن المجد الذى نالته على مر العبور ‥ ثم هو يبث روح الأمل في نفوس الشباب العربي ويذكر لهم اسطورة اليونان القديمة عن الأمل » (١)

ثم يقول ساطع : « يجب علينا الا ننسى ان الامل هو اثمن

(١) خلاصة هذه الاسطورة ان الالهة باندور حازت كل شيء ، وسميت لذلك عطية الكل ، وحين غضب جوبتر على هرقل اراد أن ينتقم منه بواسطة الالهة باندور فسلمها علبة وطلب منها الا تفتحها وتسلمها لهرقل ، لكن حب الاستطلاع دفع باندور لفتح العلبة فخرجت منها جميع الشرور . واندهشت باندور لذلك ، وحاولت تغطية العلبة ، غير أنه لم يبق فيها الا شيء واحد وهو الامل .

عوامل العمل ٠٠ يجب أن نحرص عليه كل الحرص ٠٠ فلا نترك سبيلا للقنوط يتسلل الى القلوب ٠ ليكن قلب كل منا شبيها بعلبة باندور يحفظ الأمل ٠٠ ولا يكتفي بحفظه فحسب ٠٠ بل يسعى الى تغذيته وتقويته الى أن يتحول الى ايمان لا يتزعزع ، يدفعنـــا الى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص » ٠

طرده من العراق :

تم كان ان خضع العراق خلال وصاية الامير عبـد الاله على الملك فيصل الثانى لحكم رجعى بغيض مناوىء لكل نهضة تقدمية أو حركة تحريرية ٠٠ ولقد ساعدت ظروف الحرب العـــالمية الثانية الانجليز على أن يحكموا قبضتهم على أمور العراق ، منتهزين فرصة وجود عميلهم عبد الاله ٠ ونجحت فى القضاء على الانتفاضة التحرريه التى قامت فى ذلك الحين ، والتى تعرف بحركة رشيد عالى الكيلانى وتفصيل ذلك أن الحكومة البريطانية طلبت من الحكومة العراقية قطع علاقاتها مع ايطاليا ، اسوة بما فعلته مع المانيا ٠٠ وكان رشيد عالى الكيلانى رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، وأما وزارة الخارجية فكان يتولاها نورى السعيد الذى اشتهر بتأييده للاستعمار البريطانى، كان كل من نورى السعيد وعبد الاله يؤيدان طلب بريطانيا ، وذلك خلافا لما كانت تراه بقية أعضاء الحكومة ، وخشيت بريطانيـــا من نوايا رشيد الكيلانى وطلبت من عبد الاله ابعاده ٠٠ وقام الوصى على الغرش العراقى على الفور بابلاغ ذلك الى رئيس ديوانه الذى أبلغه لرئيس الوزراء ٠ لكن مجلس الوزراء العراقى قرر الاجتماع، وأصدر قرارا بعدم الاذعان للمطلب البريطانى ، ثم كان أن اجتمع العقداء الأربعة الذين كانوا على رأس القوات المسلحة المرابطة فى العاصمة العراقية (بغداد) وقرروا التدخل فى الأمر ، لكن رشيد عالى الكيلانى لفرط حبه للعراق ولوطنيته خشى على بلده من مغبة

هذه التطورات ، فقدم استقالته التى قبلها الوصى على العرش على الفور ، وأصدر أمرا بتعيين طه الهاشمى رئيسا للوزراء .

وما كاد يتولى منصب الحكم حتى يصدر اوامره باعتقال العقداء الاربعة ، لكنهم كانوا اسرع منه فتحركت قواتهم واجبروه على الاستقالة ، وفر عبد الاله فالتجأ الى الانجليز فى قاعدتهم بالحبانية ، واستدعى القادة العراقيون رشيد الكيلانى لتوليه أمر الوزارة ، وعهد بأمر الوصاية الى الشريف شرف ولكن عبد الاله ظل يشجع بريطانيا على عدم الاعتراف بالوضع الجديد ، فارسلت قوة عسكرية بقيادة الجنرال جلوب زحفت على بغداد واعادته الى منصبه .

عاد عبد الاله الى حكم العراق، وكان من الطبيعيأن تكون نفوس الثوار العراقيين ساخطة ، وكان من بين الساخطين ساطع الحصرى ، وأخذت تجمعات الثوار تبحث أوضاع العراق ، والاستبداد الذى خضع له ، والحكم العميل للاستعمار . واجتمع ساطع مع بعض العراقيين فى منزل الصحفى المعروف الاستاذ روفاييل بطى ، وأخذوا يتذاكرون أحوال العراق ، وكان حكم ساطع على عبد الاله قاسيا وقال : ان رصاصة واحدة كفيلة بتخليص العراق منه .. ونقل ما قاله ساطع لعبد الاله ، وكان لابد من التخلص منه .

لم يكن هناك مفر من ان يتخلص عبد الاله من ساطع ، حتى ولو لم يقل ما قاله ، ولم يبلغه مابلغه ، فلم يكن العميل الاستعمارى، وقد عاد الى حكم العراق على أسنة رماح الانجليز ، وفى حراسة دباباتهم ، أن يقبل وجود شخص كساطع معروف عنه نزعته التحررية وغيرته على أمته العربية ، وعناده للاستعمار .

وأصدر عبد الاله أمرا بسحب الجنسية العراقية من ساطع ، مستندا الى قرار كان موجودا آنذاك وينص على عدم منح الجنسيه

العراقية لكل شخص سكنت اسرته العراق بعد ١٩١٤ · وفي الحادي والعشرين يونيو عام ١٩٤١ جاء شرطي لساطع في منزله يطلب جواز سفره ، وبعده بساعتين جاء رجل من قبل الحكومة يبلغه أن الحكومة قررت اخراجه من العراق ، واركبته القطار المتجه شمالا الى خارج حدود العراق (في ١٩٤١/٦/٢٣) ·

وغادر ساطع العراق بعد أن أقام فيها زهاء العشرين عاما ، وبعد أن أحدث بها نهضة تعليمية وثقافية لا ينساها له شعب العراق الى اليوم ·

الفصل الثالث

القسم الثانى من حياة ساطع في البلاد العربية

١ ـ فى لبنان
١٩٤١ ـ ١٩٤٤

لم يكن لما حدث لساطع على يد القوى الرجعية فى العراق ليفت فى عضده ،ولم يكن طرده من العراق أو نزع الجنسية العراقية منه دافعا له الى أن يكفر بما آمن به وعاش من أجله . كان ساطع يؤمن بأمته العربية الايمان كله ، وكان يعتقد انها أحوج ما تكون الى جهود أبنائها المؤمنين بهاالعاملين من أجلهـــا . وكان على يقين أن رواد النهضة العربية لا بد وأن تواجههم الصعاب ، لكنهم منصورون ان ثبتوا على ما نادوا به ودعوا اليه ، لا يتسلل اليأس والقنوط الى قلوبهم .

وعاش ساطع يحارب روح اليأس فى نفوس أبناء أمته العربية. يحدث الشباب العراقى بشأنه على نحو ما مر بنا ، وينادى بمقاومة هذا اليأس الذى تسرب الى نفوس البعض بعد حرب سنة ١٩٤٨ فى

فلسطين ، وبعد نكسة الانفصال بين الاقليمين الشمالي والجنوبي للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ ، وبعد الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ على نحو ما سنسرده فيما بقى من حديث وفيما سيتسع له هذا البحث ٠

دراسته عن بن خلدون : أقام ساطع بعد أن اخرج من العراق في لبنان وامتدت اقامته هناك حوالى أربع سنوات ، وخلال اقامته كتب الجزئين الأول والثانى من دراســـاته عن مقدمة ابن خلدون ٠

لقد أعجب ساطع كل الاعجاب بهـــذا الفيلسوف العـــربى ، وسمي ابنه خلدون حبا وشغفا بهذا المفكر العربي ، وجاءت دراستهعن ابن خلدون تنبيء عن علم غزير ، وتعليقات اتسمت بســـعة الأفق وخصب الفكر ٠٠ والواقع ان الشبه كبير بين الرجلين (ابن خلدون وساطع) ٠ عاش ابن خلدون وقد دمر التتـــــار بغداد ، والاندلس يفلت من يد العرب ورأى ابن خلدون حصار يتمورلنك دمشق ، وشاهد ساطع حصار الفرنسيون لها ٠

وكما فشلت سفارة ابن خلدون لدى التتار ، فشلت سفارة ساطع لدى الفرنسيين ، أعجب ساطع بابن خلدون أثناء تدريسه لعلم الاجتماع في دار المعلمين العالية ببغداد ، وتمنى لو استطاع أن يعد دراسة عن هـــذا العملاق العربي ٠ يقول ساطع : « ان كتـــابة دراسة منفصلة عن مقدمة ابن خلدون كانت من أعز الأماني التي لم أنقطع عن التفكير فيها ، والعمل لاعداد وسائلها ، منذ مدة غير يسيرة ٠ انها كانتمن جملة المشاريع الفكرية التي وضعتها لنفسيبغية انجازها ، في الوقت الذي اتخلص فيه من أعباء الأعمال الرسمية ، وأتفرغ الى الدرس والتأليف في المسائل التربوية والاجتماعية » ٠

ولقد شعر ساطع أن الفرصة قد واتته حين أقام في بيروت بعد

طرده من العراق ، ويؤكد ســـاطع فى بحث عن ابن خلدون الذى أخرج الجزء الاول منه فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٤٢ والجزء الثانى عام ١٩٤٤ ، ان دراسته هذه ليست سوى بعض النماذج ، أو بعض الخطط لدراسات علمية يأمل أن تتم عن ابن خلدون ، فيستطيع من يقدم على هذه الدراســة العلمية أن يجد فى بحث ســاطع نموذجا ينسج على منوالها ويقدم على اتمامها ، فاذا تحقق الغرض المرجو من بحثه هذا عن ابن خلدون يكون قد أدى خدمة لذكرى مؤلفها العظيم٠

يعتقد ساطع أن الجيل المثقف الحاضر (وقت أن أعد بحثه عن ابن خلدون) مقصر فى أداء واجباته نحو هذا المفكر العربى العظيم تقصيرا كبيرا ، ان هذا التقصير لا يتجلى فى نظر ساطع فى ضآلة الدراسات فحسب ، بل فى رداءة الطبعات التى ظهرت فيها مقدمة ابن خلدون ٠ ويصف ساطع جميع الطبعات العربية التى ظهرت للمقدمة بأنها ناقصة ومشوهة ومشوبة ببعض الأخطار المطبعية التى تشوه المعنى ، فضلا عن ضآلة الشروح التى لوجمعت فى محل واحد لما ملأت أكثر من ثلاث صفحات ٠

ولقد أسدى ساطع خدمة كبيرة للتراث العربى حين أخذ يحقق بين الطبعات التى وجدت للمقدمة ، والنسخ الخطية التى عثر عليها ٠ توصـــل ساطع الى أن أقدم طبعات كتاب بن خلدون هى طبعــة للمستشرق كاترمير فى ســـنة ١٨٥٧ ــ ١٨٥٨ ميلادية ، حيث استند هذا المستشرق على أربع نسخ خطية ثلاث منها محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، واحداها فى المكتبة العامة فى ميونيخ ٠٠ وأما أقدم الطبعات المصرية فقد تمت فى القاهرة تحت اشراف الشيخ نصر الهورينى حيث اعتمد هذا الشيخ على نسخة خطية ــ ذكرها عرضا باسم النسخة الفاسية ٠ ونقل بالاضافة اليها فصلا واحدا من نسخة أخرى سماها النسخة التونسية ٠٠ ثم هناك طبعة بيروتية

تحت اشراف الكاتب رشيد عطية والمعلم عبد الله البستانى ، كما أصدرت المكتبة التجارية بمصر طبعة مشكولة جديدة ، لكن ساطعا يؤكد أنه بمقارنة هذه الطبعة بطبعة بيروت يتضح ان طبعة المكتبة التجارية لم تراجع شيئا من النسخ الخطية ، بل كانت نسخة طبق الأصل من الطبعة البيروتية باغلاطها ونواقصها ٠

ثم يدرس ساطع النسخ المترجمة لمقدمة بن خلدون وينتهى الى القول ان هناك نسختين مترجمتين لهـا ، احداها باللغة التركية والثانية بالفرنسية ، ولما كانت الترجمة التركية أقدم من الطبعات العربية فلا جـدال انها اعتمدت على نسـخ خطية ، أما الترجمـة الفرنسية فقد تمت على يد البارون دو سلان De slane ونشرت فى باريس فى ثلاثة مجلدات الأولى سنة ١٨٦٣ ٠ والأخير سـنة ١٨٦٨ م ٠ ويقارن ساطع مقارنة لها أهميتها الكبيرة فى دراسة هذه المقدمة بين الطبعات بعضها ببعض مع ملاحظة النسخ المترجمة ٠

ثم هو يدعو الباحثين الى محاولة الحصول على النسخ المخطوطة لابن خلدون ودراستها وهو ما تعذر على ساطع القيام به ، وخاصة النسخة التونسية التى أشار اليها صاحب الطبعة المصرية للمقدمة (الشيخ نصر الهورينى) ، لأنها أقدم النسخ للمقدمة والتى كتبهـا ابن خلدون قبل هجرته الى مصر ، فاذا اتم ذلك أمكن الوقوف على التطورات التى حدثت فى اسلوب ابن خلدون وعقليته والتغيرات التى حدثت فى معلوماته ونزعاته خلال هذه المدة تحت تأثير حياته الجديدة وبيئته فى مصر ، يقول ساطع : « انى آسف كل الأسف على أننى لم أكن الآن فى وضع يمكننى من الحصول على النسخة المذكورة ، أو الوصول اليها لاتولى دراستها ومقارنتها بنفسى ، ولذلك أرانى مضطرا للاكتفاء بتسجيل رأيى فى أهمية هذه النسخة وخطورة هذه

المقارنة وأدعو الباحثين الذين يهتمون بأمر ابن خلدون ومقدمته الى القيام بهذه المهمة على ضوء الملاحظات التى سردتها آنفا » .

ثم هو يدعو الى دراسة الترجمة المفصلة التى كتبها ابن خلدون عنه بنفسه عن حياته ، والتى هى محفوظة (وقت أن نشر ساطع بحثه هذا عن بن خلدون) بحالة مخطوطة فى زوايا مكتبة فى القاهرة ، ومكتبتين فى استانبول ، وهو أمر يحول بين الغالبية وبين أبناء الامة العربية من الاطلاع عليها والالمام بها .

وأهم ما يركز ساطع حوله الحديث فى هذه الدراسة لمقدمة ابن خلدون نفيه لما حاول البعض الصاقه لهذا العلامة الكبير بأنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم ، وأنه كان من الكافرين بالعروبة . وكان بسبب هذا الفهم الخاطىء لكلمة العرب فى استخدام ابن خلدون ان هاجمه الكثيرون ، ومنهم مدير المعارف العام العراقى ، أثناء وجود ساطع بالعراق فى خطبة القاها على المعلمين العراقيين ، زاعما انه كان من الكافرين بالعروبة ، وقائلا بوجوب حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية . وانبرى ساطع فى ذلك الحين يرد على مزاعم المدير العراقى فى مقالة كتبها فى ذلك الحين ونشرتها له مجلة لبنانية ، ودعا ساطع الى انه ينبغى أن يكون لدى العرب (نظرة قومية متنورة) ، كما كتب بحثا آخر حول هذه المعنى فى صحيفة عراقية كانت تصدر فى ذلك الحين باسم جريدة لبلاد .

ومن ثم كان أهم ما يعنى ساطع فى هذه الدراسة عن ابن خلدون أن يعود الى بحث هذه المسألة لأهميتها الخاصة عنه ، وعند كل مشتغل بالفكر القومى .

يوضح ساطع انه كان علماء اللغة وواضعوا المعاجم الآن قد

صاروا يميزون بين كلمة عربى وعرب وبين اعرابى واعراب ، غير ان هذا التمييز لم يكن قديما تماما • ويستشهد ساطع بما جاءت به معاجم اللغة العربية قديما وما تقوله : تعرب الرجل بمعنى أقام بالبادية وصار اعرابيا • وهناك من العوام — كما يقول ساطع — في جميع البلاد العربية من يستعمل كلمة العرب بمعنى البدوى والفلاح • « فكثيرا ماترى العوام يقولون : ذهب الى العرب بمعنى ذهب الى البادية » • ثم يقول ساطع : « ان هذه العادة (قول العوام عن البدو بأنهم عرب) فى حديث العوام قد لفتت نظرى بوجه خاص أثناء كنت مديرا عاما للمعارف فى العراق، ولهذا السبب أصدرت بلاغا عاما بتاريخ أول كانون الثانى (يناير ١٩٢٤) ألفت فيه نظر جميع المديرين والمعلمين الى هذا الأمر وأحرم عليهم استخدام كلمة عربى بمعنى فلاح أو بدوى » •

ثم يناقش ساطع أقوال ابن خلدون فى هـذه الناحية وهو ما اتخذ سبيلا للتهجم عليه من ذلك قوله فى احد فصول المقدمة : (ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب) والدليل عند ابن خلدون على ذلك قوله : فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافى للقدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ، ويعدونها لذلك ، والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم، فيحزمون السقف عليه لذلك •

ويخلص ساطع عن قول ابن خلدون هذا ان مدار بحثه هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام • ثم ينتقل الى الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون : « ان جيل العرب فى الخلقة طبيعى » • وفيه يقول : « واما من كان معاشهم من الابل ، فهم أكثر ظعنا وابعد فى القفر مجالا • فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ، وينزلون من

أهل الحوافر منزلة الوحش غيرالمقدور عليه ، والمفترس من الحيوان العجم ، وهؤلاء هم العرب ، وفى معناهم ظنون البربر وزناتة بالمغرب، والاكراد والتركمان والترك بالمشرق ، الا أن العرب أبعد نجعة واشد بداوة • لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط ، ويؤكد ساطع أن المفهوم من هذه العبارات ولا سيما العبارة الأخيرة ما قصده ابن خلدون من كلمة العرب فلقد قصد بها بمالا يدع مجالا للشك أعراب البادية الذين يعيشون خارج المدن » (١) •

ثم يعود ساطع ليؤكد ذلك فيما جاء به ابن خلدون فى الفصل الأخير من مقدمته عن العلوم ، يشبهها الصنائع فيأتى بقول ابن خلدون من كلمة العرب فلقد قصد بها بمالا يدع مجالا للشك أعراب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب)•

ومعنى هذا فى رأى ساطع أن استعمال ابن خلدون كلمة العرب مقابلة لكلمة الحضر أمر لا يدع مجالا للشك فى انه كان يقصد بها البدو •

وينبرى ساطع فى الجزء الثانى من كتابه عن ابن خلدون للدفاع عن هذا المفكر العربى ، وعما يعتقد أن البعض تجنوا عليه ، ومن ذلك ما كتبه ـ كما يقول ساطع الاستاذ الدكتور طه حسين فى بحث له باللغة الفرنسية عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، والتى نقلها للعربية الاستاذ الكبير محمد عبد الله عنان • ويعتقد ساطع ان فيما يقوم به من رد على أولئك الذين تجنوا على ابن خلدون واجب تدفعه اليه الامانة العلمية ، وليس بدافع التعقيب والتحزب

---

(١) يوافق المستشرق الفرنسى Deslane ساطع الحصرى فى رأيه بقوله
Les Arabes d' Ibn Khaldoun Sout Les Arabes Nomades.
كتب دوسلان فى المجلد الثالث من الترجمة لمقدمة ابن خلدون فى معجم الالفاظ الملحقة بها مقابل كلمة عرب العبارة الصريحة التالية ان عرب ابن خلدون هم الاعراب

له • ويرجو ألا يغمط الباحثون ابن خلدون حقه وذلك بمقارنة ما جاء به ابن خلدون بالقياس الى ما وصلنا اليه من معرفة وعلم « وانما ينبغي ونحن ندرس مقدمته ألا ننسى إنه من رجال القرن الرابع عشر الميلادى ، فعلينا ونحن ندرس فصول هذه المقدمة أن نستعرض ما كان يقول به المفكرون في هذا الصدد في العصر الذى عاش فيه ابن خلدون وفي العصور التى اتت بعده » •

يطالب ساطع اذا الباحثين العرب ألا يطالعوا مقدمة ابن خلدون والا يقرءوها ، كما نطالع نحن ونقرأ المؤلفات العصرية غير ملقين بالا للقرون الطويلة التى تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة المقدمة المذكورة ، في حين أن قيمة المؤلفات القديمة ومنزلةالمفكرين القدماء — على حد قول ساطع — لا يمكن أن تقدر على هذه الطريقة • فكل عالم ومفكر يشترك بوجه عام مع معاصريه فى معظم آرائهم، فيشاطرهم أكثر اخطائهم ولا يمتاز عليهم الا في بعض الآراء التى يوفق الى ابتكارها ، وبعض المعلومات التى يتوصل الى اكشافها • ولذلك فان منزلة الباحث والمفكر في تاريخ العلوم والأفكار لا تتعين كما يقول ساطع بملاحظة جميعالآراء الصائبة والخاطئة التى جاءت فى كتاباته ، ومؤلفاته المختلفة ، بل تتقرر بملاحظة الآراء المبتكرة التى يسمو بها على معاصريه ، والحقائق الجديدة التى يضيفها الى المكتبات الفكرية البشرية •

ويخلص ساطع من هذا القول الى أن علينا أن نقارن المقدمة بكتاب من امثالها مقارنة شاملة كما يحق لنا أن نقارن الآراء الثمينة المستخرجة منها بما استخرج من أمثالها • ويقول ان دراسته لابن خلدون استهدفت ذلك بغية اظهار منزلة مؤلفها العظيم على هـذا الأساس •

وظل ساطع يشعر أن عليه دينا ينبغي عليه الوفاء به تجاه

هذا المفكر العربي الذى غمطه الباحثون عامة والعرب خاصة حقه من الدراسة والبحث • لذلك لم تحل مشــاغله دون المضى قدما فى دراسة كل ما يصل اليه عن ابن خلدون • ففي عام ١٩٥٠ سافر ساطع الى تونس (وكان وقتها يعمل بالجامعة العربية) لدراســة الآثار والذكريات المتعلقة بابن خلدون هناك • وكانت هذه زيارته الثانية لتونس فلقد اتيح له زيارتها من قبل سنة ١٩٣٩ خلال عمله فى العراق مديرا للآثار القديمة حيث سافر الى افريقية الشمالية لدراسة الآثار العربية القائمة بها ، وزار خلال هذه الرحلة المغرب والجزائر وتونس وانتقل منها الى صقلية وزار ايطاليا •

ولقد سعد ساطع ان وجـد الناس فى تونس يعرفون تماما الدار التى ولد فيها ابن خلدون وترعرع فيها ، وتقع هذه الدار فى أحد الشوارع المهمة من المدينة القديمة وهو الشارع المعروف باسم تربة الباى ــ وتشغل مدرســة الادارة العليا هــذه الدار منذ عدة سنوات • وقد وضع على جانب بابها لوحة رخامية تحمل اسم ابن خلدون وتذكر الناس بمولده فيها • وزار ساطع فى آخر شارع تربة الباى كتابا صغيرا تحت قبة جميلة يسمى مسيد القبة (وكلمة مسيد محرفة من كلمة مسجد ، والكتاب على حد قول ساطع يسمى فى تونس مسيد) ويروى ان ابن خلدون درس فى هذا الكتاب ، وأما قلعة ابن سلامة التى كتب فيها ابن خلدون مقدمته الشــهيرة فموقعها معلوم لدى الجميع وانها تقع على بعد خمسة كيلو مترات من مدينة فرندا الحالية التابعة الى مقاطعة وهران فى الجزائر ، واطلال القلعة شاخصة الى الابصار هناك •

ويتأسف ساطع الحصرى لان الذاكرة الشعبية فى مصر لم تحفظ شيئا عن ابن خلدون وأن قبره غير معروف فى القاهرة التى عاش فيها مدة أربع وعشرين سنة •

وفي سنة ١٩٥٢ سافر ساطع الى استانبول للاشتراك فى المؤتمر الأممي الخامس عشر لعلم الاجتماع حيث قدم بحثا عن ابن خلدون باللغة الفرنسية وكان عنوان البحث الذى القاه :

علم الاجتماع عند ابن خلدون La socioliogie d'Ibn Khaldoun وانتقد ساطع فى هذا البحث الذى ألقاه آراء الاستاذ الفرنسى جاستون بوتول Gaston Bouthoule استاذ الدراسات العليا فى باريس ، فقد زعم هذا الاستاذ الفرنسى أن ابن خلدون كان من القدريين Fatalists أى ممن يعتقدون أن الامور تحدث بحكم القضاء والقدر . فانبرى ساطع يثبت أن ابن خلدون برىء من هذا الزعم ، وأنه كان يقول دائما هذه الامور تحدث على هذا المنوال من جراء طبيعة الأشياء . كذلك انتقد ساطع ما قاله بوتول الفرنسى فى كتابه عن ابن خلدون والذى اسماه ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية Ibn Khaldoun sa philosophie Sociale (1) حين قال أن ابن خلدون كان يعرف الشيء القليل عن التاريخ القديم وانه كان يعتقد مثل العوام أن الآثار الرومانية من مبانى العمالقة ، ومع تسليم ساطع ان ابن خلدون لم يكن يعرف شيئا عن التاريخ القديم ، وعن تاريخ الرومان بوجه خاص ، فانه لم يعتقد أبدا ان الآثار الرومانية من مبانى العمالقة . بل ان ابن خلدون على حد قول ساطع فند الروايات الشائعة بين الناس فى هذا الشأن . ثم تساءل ساطع عن السبب الذى دعا الاستاذ بوتول ان يقول ذلك ، ثم يفسره بأنه (بوتول) لم يكلف نفسه عناء قراءة الفصل بكامله الذى كتبه ابن خلدون عن هذه الناحية ولذلك لم يطلع بوتول على ما كتبه ابن خلدون فى نقد وتجريح تلك الخرافات ، فتوهم ان ابن خلدون اعتقد بصحتها .

---

(١) قامت الدار المصرية للتأليف والترجمة بترجمة هذا الكتاب سنة ١٩٦٤ وقام بالترجمة الاستاذ غنيم عبدون .

واستشهد ساطع فى قوله بما جاء فى الترجمة الفرنسية للمقدمة التى قام به دوسلان Deslane ولم يكف ساطع عن دراسة ابن خلدون فاخرجت له دار المعارف فى السنة التالية لهذا المؤتمر (١٩٥٣) دراسة موسعة عن ابن خلدون ضمت الدراسة التى كان قد قام بها فى عام ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ • والتى نفدت طبعتها ، كما اشتملت هذه الدراسة الموسعة على درسة لتاريخ حياة ابن خلدون • ومن المعروف أن الباحثين قد استجابوا لدعوة ساطع التى دعا اليها فى كتابه الذى وضعه عن ابن خلدون عام ١٩٤٣ وطالب فيها بنشر مخطوط ترجمة ابن خلدون • فلقد نشر هذا المخطوط سنة ١٩٥١ بمعرفة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد التحقيقات التى قام بها والحواشى التى كتبها السيد محمد بن تاويت الطنجى ، ويهتم ساطع بهذا التعريف الذى كتبه ابن خلدون عن تاريخ حياته لماتضمه من الوثائق والمعلومات التاريخية والأدبية •

بعد ذلك يقسم ابن خلدون بحثه فى هذه الطبعة الموسعة عن ابن خلدون ثلاثة أقسام •• القسم الأول نظرات وملاحظات عامة ، والقسم الثانى مكانة ابن خلدون فى تاريخ فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، أما القسم الثالث فقد خصصه ساطع لآراء ابن خلدون ونظرياته •

واذا ما اردنا ان نعرف الجهد الذى بذله ساطع فى دراسة ابن خلدون ما بين صدور كتابه الأول عنه سنة ١٩٤٣ ، وصدور الطبعة الموسعة بعد ذلك بعشر سنوات القينا نظرة على بعض الدراسات التى اضافها فى طبعته هذه والتى لم يتضمنها كتابه الأول •

جاء ساطع فى هذه الطبعة الموسعة بدراسة عن مؤلف المقدمة اسرته ، عصره ، حياته •

ثم آثاره وابن خلدون فى الذاكرة الشعبية • حول ابن خلدون

وكونت • أسلوب المقدمة ومفرداتها اللغوية • وتأثير ابن خلدون في كتاب الاتراك ومؤرخيهم • اكتشاف ابن خلدون في أوربا – نقد كتاب البروفسور غاستون بوتول • خريطة تبين مســـارح حياة ابن خلدون • تاريخ ولادة ووفاة أهم فلاسـفة التاريخ بعـد ابن خلدون •

ثم يختم ســـاطع بحثه عن ابن خلدون برجـاء الى باحثي المخطوطات العربية ألا يتوانوا في البحث عن النســـخة التونسية للمقدمة وهي النسخة التي قدمها المؤلف الى السلطان الحفصي في تونس قبل نزوحه الى مصر ، وكان ساطع يعتقد انه سيعثر على هذه النسخة في دار الكتب المصرية عندما أقام في القاهرة ، ولكنه لم يعثر عليها ، ثم كان يأمل أن يجدها في تونس فسافر اليها سنة ١٩٥٠ على نحو ما سبق القول لـكنه لم يوفق في بحثه • يدعو ســاطع الباحثين ألا ينقطعوا عن البحث عنها مؤكدا لهم أن اكتشاف النسخة المذكورة سيكون ذا قيمة علمية وتاريخية كبيرة •

٢ - في سورية
١٩٤٤ - ١٩٤٧

بعد أن أقام ساطع فى لبنان زهاء أربع سنوات (١٩٤١ - ١٩٤٤) دعته الحكومة السورية للعمل بها مستشارا فنيا للمعارف، وكان من الطبيعي أن تقع دعوة الحكومة السورية من نفسه ومن قلبه موقعا محببا ، ذلك ان لسورية مكانتها الخاصة فى نفس ساطع، فلقد عاصر فيها أحداثها السياسية التى أطاحت بأول حكم عربي شهدته سورية فى عصرها الحديث .. وخرج منها ساطع بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، وهو يدعو الله أن يعطيه من العمر حتى يشهد يوم خروجهم منها ، وحقق الله لساطع ما تمناه ، فعاد اليها وهى قاب قوسين أو أدنى من حصولها على الاستقلال الذى تحقق لها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

عهدت الحكومة السورية لساطع مهمة دراسة نظم التعليم السورية ، ووضع ما يراه من مقترحات كفيلة باصلاحه ، وعكف ساطع على الفور على القيام بما عهد به اليه ، فدرس أحوال المعارف فى سورية وأعد ستة عشر تقريرا فى شأن اصلاح التعليم السورى: التقرير الاول والثانى عن اجراءات التعيين فى وزارة المعارف ، والروتين المعقد الذى يأخذ طريقا فى كل كبيرة وصغيرة من أمور الوزارة ، أما التقرير رقم (٣) الذى وضعه ساطع فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٩٤٤ فقد خصصه لبحث تشكيلات وزارة المعارف ، ثم وضع ساطع باقى التقارير تباعا التى تناولت التعليم الابتدائى (قدمه للحكومة السورية فى ٢٠ من ابريل عام ١٩٤٤)

والتقرير رقم (٦ ، ٧) عن التعليم الثانوى والمعلمين ودور المعلمين (قدمه للحكومة فى ٢٤ من ابريل عام ١٩٤٤)

التقرير رقم (٨) عن المبانى المدرسية (قدمه فى ٣ من مايو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (٩) عن الآثار القديمة والمتاحف قدمه فى ٣٠ من مايو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٠ ، ١١) عن التعليم الفنى والتفتيش (قدمه بتاريخ ١٤ من يونيو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٢) عن التعليم العالى والجامعة السورية (قدمه فى ١ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٣) عن أنظمة الامتحانات العامة (قدمه فى ٢ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٤) عن تنويع المدارس وتكييف المناهج (قدمه فى ٥ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٥) عن الانظمة العامة والقوانين فى أمور المعارف (قدمه فى ٦ من يوليو عام ١٩٤٤)

ثم قدم ساطع بعد ذلك مشروعا بقانون عن نظام التعليم وآخر عن تشكيل وزارة المعارف ، وقد وافقت الحكومة السورية على المشروعين بقانون وقدمتهما للمجلس النيابى الذى وافق عليهما وأصبحا قانونين نافذين .

كما قدم تقريرا عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية وسائر الاقطار العربية وكيفية السبيل الى تحقيقه .

واذا كان الحديث في هذا البحث لا يسمح بتناول كل هذه المقترحات التي قدمها ساطع مستهدفا بها اصلاح التعليم السوري، فاننا سوف نكتفي بالاشارة الى أهم ما احتوته هذه التقارير .

طالب ساطع وزارة المعارف السورية أن تسعى الى توحيد مصطلحاتها في مجال المعارف مع سائر البلدان العربية . ولاحظ بالنسبة لتسمية الصفوف في المدارس التجهيزية والاكمالية انها تسير من الاعلى للأسفل بمعنى أن التلميذ في آخر سنة له بالمدارس الثانوية يعرف بانه في السنة الاولى ، بينما تتبع عكس ذلك في التعليم الابتدائي فتسمي الصفوف من أسفل الى أعلى . فيجب على وزارة المعارف السورية ـ على حد قوله ـ الا تقلد فرنسا في هذه الناحية .

واقترح ساطع الحصري كذلك على وزارة المعارف السورية أن تلغي اسم المدرسة التجهيزية ، وتسميها بالثانوية ، مثلما تفعل مصر وباقي البلاد العربية ، وكذلك اسم المدرسة الاكمالية الذي هو مقتبس من فرنسا ، لكنه في سورية مطبق على غير المقصود منه عند الفرنسيين ، فالدروس الاكمالية في فرنسا هي الدورة التي تضاف الى الدورات الثلاث الموجودة في المدارس الابتدائية بغية اكساب الطلاب بعض المعلومات الاكمالية ، وهذه الصفوف تكون عادة ملحقة بالمدارس الابتدائية ومستقلة عن المدارس الثانوية ، لكن وضع المدارس الاكمالية التي وجدت في سورية في ذلك الحين كان مختلفا عن ذلك ، لأنها (المدارس الاكمالية) في سورية تتولى مهمة الدورة الاولى من الدراسة الثانوية . وطالب ساطع بأن يحتفظ بتعبير الاكمالية للدلالة على الصفوف التي تفتح لاتمام معلومات الطلاب بعد الدراسة الابتدائية ، وأما المدارس الاكمالية الحالية التي ما هي الا القسم الأول من المدرسة الثانوية فيجب أن تسمى باسم خاص جديد ، واقترح تسميتها بالمتوسطة شأن ما هو حادث في العراق .

أما عن الجـــامعة السورية التى كانت نواتها فى ذلك الحين معهدى الطب والحقوق ، فاقترح ساطع لإصلاحهما الاستعانة بعدد من الاساتذة الجامعيين غير السوريين ، ويفتخر ســاطع بأن هذين المعهدين كانا أول كليتين تدرسان علومهما باللغة العربية بين كل الكليات الجامعية فى البلاد العربية ، ثم يقول: «ان الجامعة السورية بحاجة شديدة إلى اصلاحات كلية تتناول جميع الاسس التى تقوم عليهـــا ، ولا يمـــكن أن يتم ذلك بغير الاستعانة بخبرات عدد من الأساتذة الجامعيين غير الســـوريين • انى أعرف أن ظروف الحرب الحالية (الحرب العالمية الثانية) تحدد الوسائل التى يمكن الحصول عليها وتحول لذلك دون اتمام الاصلاحات المطلوبة ومع هذا اعتقد أنه يترتب على الحكومة السورية أن تشرع فى التفكير فى أمر بنايات الجامعة حالا وأن تقوم بالاصلاحات الجزئية التى يمكن انجازها الآن •

ثم أعد ساطع مشروعا بقانون لتنظيم أمور التعليم فى سورية، وقد لقى هذا المشروع موافقة الحكومة السورية ، وتصديق المجلس النيابى السورى ، فقد أقر المجلس هذا المشروع بقــانون بحماسة منقطعة النظير •

وأهم ما استحدثه ساطع من اصـــلاح هو تخليصه للتعليم السورى من أن يكون تابعا للتعليم الفرنسى ، مثلما جاهد فى العراق لتخليص التعليم فى العـــراق من تبعيته للتعليم الانجليزى ، كان ســـاطع يؤمن ان ظروف كل بلد تختلف عن الاخرى وأن النفـوذ الثقافى مقدمة للنفوذ السياسى ، أو هو مكمل له ، فاذا ما تخلصت بلد من سيطرة سياسية عليها فعليها أن تتخلص من التبعية الثقافية• وليس معنى ذلك كما يؤكد ســاطع الاستغناء عن ثمـــار الثقافات الاجنبية ، وانمـــا القصد منه تخليص المعارف السورية من قيود التبعية للمعارف الفرنسية ، وحين أقـــدم ساطع على ذلك هاجمه

الكثيرون فذكرهم بما قيل عنه في العراق حين أقدم على اصلاح التعليم فيه حيث اتهمه البعض انه يريد أن يستبدل بالثقافة الانجليزية في العراق الثقافة الفرنسية • لكنه الآن وهو يهاجم تبعية التعليم في سورية للتعليم الفرنسي فهل معنى ذلك أنه عاد وارتمى في أحضان الثقافة الانجليزية ؟

ويؤكد ساطع انه لا يشغل نفسه بأيهما أرقى هل الثقافة الانجلو ساكسونية أو الفرانكو لاتينية « انما أنا أبحث عما هو أنسب لنا وأصلح » •

وألغى ساطع تعليم اللغة الاجنبية في المدارس الابتدائية السورية ، على نحو ما فعل في العراق ، لصعوبة تعلم الطفل لغتين في وقت واحد ، حسبما قرر خبراء التربية والدارسون لأمور الطفل هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لصعوبة اللغة العربية ذاتها مما لا يدع مجالا للشك في أن تعلم قواعد هذه اللغة ، وهذا الخط يتطلب من أطفال العرب جهدا ذهنيا أكبر بكثير مما تتطلبه سائر اللغات • كما أنقص مدة التعليم الثانوي من سبع سنوات الى ست، وغير أسماء الصفوف في هذه المرحلة الثانوية ، فجعلها تبدأ من أسفل الى أعلى ، وجعل مدة الدراسة الابتدائية خمس سنوات بعد أن كانت أربعة وجعل السنوات الأربع الاولى منها حلقة تامة والسنة الاخيرة متممة لها •

وضع ساطع نصب عينيه في اصلاحه للتعليم السوري خدمة الهدف القومي ، فنصت المادة الاولى من مشروع قانون المعارف العامة الذى وضعه في سورية ما يلي بخصوص واجب وزارة المعارف : مهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ليصبح كل فرد من أفراده قوى البدن حسن الخلق صحيح الفكر محبا لوطنه معتزا بقوميته مدركا لواجباته ومزودا بالمعلومات التى يحتاج اليها •

ولذلك اشترط ساطع (في المادة ٤٥ من مشروع القانون الذى قدمه للحكومة السورية) أن تدرس جميع المدارس الخاصة الابتدائية والثانوية اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، وجغرافية البلاد العربية ، حسب منهج وزارة المعارف ، وان ذلك أمر اجبارى ، ويجب ألا تقل دروس اللغــــة العربية عن خمس ساعات أســـبوعية في الصفوف الابتدائية ، وعن ثلاث ساعات في صفوف المدارس الثانوية .

وأعطى ساطع للجامعة السورية استقلالها وشخصيتها الخاصة، وتوخى أن تكون مهمة المدرسة شيئا أكثر من مجرد التعليم فمهمتها التربية فنجـده يقول : « لقد اعتاد الناس أن يتوخوا من المدرسة التعليم وحده . انهم كثـــيرا ما يظنون ان روح المدرسة وجوهرها ينحصر في الصفوف ، ان واجب المدرسة مراعاة التربية البـدنية والاجتماعية كما أن عليها مراعاة نفسية الطفل والتشويق والترغيب وغيره من أسس التربية » لقد ألم ساطع بكل ما قاله خبراء التربية في مجال التعليم ، منذ بدأ يمارس العمل في هذا المجال مع بداية أيام القرن العشرين بعد تخرجه من المدرسة الملكية في القسطنطينية على نحو ما مر بنا .

ثم هو يقترح توثيق الصلات الثقـــافية بين سورية والبلاد العربية ، ويرى ساطع ان سورية كانت في طليعة البلاد التى آمنت بالفكرة العربية وعملت من أجلها وان الشعب السورى الذى كان ولا يزال مؤمنا بالوحدة العربية ايمانا راسخا ، وكان ولا يزال أبعد الشعوب العربية عن التيارات الاقليمية التى تحد من فكرة القومية. من أجل هذا ينبغي أن تكون سورية في طليعة البلاد العربية التى تسعى لتقوية الروابط الثقافية بينهـا وبين شقيقاتها العربيات . واذا كانت السلطة الاجنبية (الفرنسية) التى حكمت ســورية منذ مدة قاربت ربع قرن قد خالفت هذا النهج وعملت على محاربة هذا الايمان فلقد استهدف الفرنسيون أن يبعدوا سورية عن التيارات

الرامية الى توحيد الثقافة العربية ، بل بذلوا الجهود لمحاربة فكرة الوحدة العربية بل فكرة الوحدة السورية ذاتها • ثم ينتقد ساطع ما أدخله الفرنسيون على قانون التعليم العالى السورى بحصر أستاذية الجامعة فيمن يحملون شهادة الدكتوراه من معاهد سورية وفرنسا فقط بينما تقضى منفعة التعليم والعلم بانتقاء أساتذة الجامعة من بين أرقى أرباب العلم والاختصـــاص بقطع النظر عن منشأ شهادة الدكتوراه التى يحملونها » • كذلك تضمن قانون التعليم السورى ان الشهادة الفرنسية تعتبر مثل الشهادة السورية لها الرجحان على شهادات البلاد الاجنبية الاخرى ولقد طالب ساطع بالغاء ذلك على الفور « ولا حاجة الى بيان أن تعبير البـــلاد الاجنبية الواردة فى القوانين القصد منه مصر والبلاد العربية الاخرى » •

ثم هو يحمل على القـــائلين بعدم امكان الوحدة الثقافية بين البلاد العربية وهو ما سنتناوله بالحديث فى موضع آخر من هذا البحث •

وأشار ساطع فى ذلك الحين بما وضعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٤١ من مشروع لعقد مؤتمر تعليمى عربى غرضه البحث فيما يجب عمله لحل المشاكل التعليمية وتقريب المناهج الدراسية ، غير أن ظروف الحرب العالمية الثـانية حالت دون تحقيق هـذا المشروع فاستبدلت وزارة المعارف به مشروعا لمكتب التعاون الثقافى ، وأسس المكتب المذكور بعضوية مصر والعراق ، وعندما حصلت سورية على استقلالها دعتها مصر للاشـــتراك فى عضوية هذا المكتب ، ولبت سورية الدعوة • ورأى ساطع أنه أصبح من واجبات وزارة المعارف أن تتهيأ للقيام بالمهام التى ترتبت على عضويتها فى مكتب التعاون الثقافى ، ثم هو يطالبها بتشجيع تبادل الكتب والمجلات ومقـاومة استخدام اللغة الغامية ، لقـــد كان ساطع يرى ان دعاة الاقليمية يشجعون استخدام اللغة العامية فى البلاد العربية بغية القضاء على

أهم رابطة تجمع بين أبناء هذه الامة وهى اللغة ، وسنعرض لذلك عند حديثنا عن القومية كما تصورها ساطع ·

ووافقت الحكومة السورية على ضرورة تنظيم الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية فعهدت الى ساطع أن يضمن مشروعه لاصلاح التعليم السورى ما يراه من مقترحات كفيلة بذلك · يعتقد ساطع أن واجب وزارة المعارف السورية ينقسم الى ثلاثة أقسام فى مجال توثيق وتنظيم الصلات الثقافية :

١ ـ رفع الموانع والحواجز التى تعرقل الصلات الثقافيه وتحول دون توثقها ·

٢ ـ العمل لضمان التقارب بين مناهج الدراسة فى البلاد العربية المختلفة ، وتوحيد الاتجاهات الاساسية المرسومة لها ·

٣ ـ التعاون مع وزارات المعارف فى البلاد العربية الاخرى فى جميع الاعمال الانشائية التى تساعد على تكوين ثقافة عربية موحدة·

لقد عاش ساطع يؤمن باهمية توحيد الثقافة العربية بين جميع البلاد العربية كسبيل الى وحدة عربية ، ومن أجل هذا استأثرت الثقافة العربية باهتمامه البالغ وسنتناول ذلك عند حديثنا فى فصل ساطع على الثقافة العربية · لكننا نكتفى هنا ونحن نتناول جهود ساطع فى اصلاح التعليم السورى بالقول انه كان يؤمن بأن أهداف التربية فى البلاد العربية بناء مجتمع عربى يختلف عن المجتمع الحالى تماما ، يقول ساطع : « نحن نشعر بالتأخر العظيم والنواقص الكبيرة التى يلى بها مجتمعنا الحالى ـ ولذلك نسعى وراء مجتمع جديد يختلف عن مجتمعنا الحالى اختلافا كليا · ونحن لا نجهل نوع هذا المجتمع بوجه عام · اننا نعلم ان الامة العربية ظلت متأخرة فى مضمار الرقى والحضارة تأخرا كبيرا ومحرومة من ثمار العلوم

والفنون العصرية الحديثة حرمانا أليما • ونجد ان بعض أبنائها فى بعض الجهات لا يزالون يعيشون كما يعيش أجدادهم فى القرون الوسطى – ان لم نقل فى القرون الاولى ، لذلك نريد أن نتلافى هذا التأخر ، ونصلح هذا النقص ، لكى تصبح أمتنا متمتعة بنعم الحضارة العصرية من جميع نواحيها ومتبوئة المكان الذى يليق بها نظرا لعظمة ماضيها • اننا نعلم أن الامة العربية غلبت على أمرها وحرمت من نعم الوحدة والاستقلال منذ عهد بعيد •

« وقد تقاسمتها الدول المستعمرة أخيرا ، وأخذت تسعى بكل ما لديها من قوة سلطان لترسيخ نفوذها المادى والمعنوى فى البلاد التى استولت عليها • والتفرقة الادارية التى حدثت بهذه الصورة عقدت المشاكل الاساسية ، كما زادت الحيرة والارتباك بتأثير النزعات الدينية والمذهبية من جهة والتسويات الاستعمارية من جهة أخرى ، كما أخذت تتصادم بمقتضيات المشاكل الاقليمية أيضا بصور شتى ان كل هذه الاحوال ترينا بوضوح تام الواجبات التى تترتب علينا فى هذه الظروف ، فعلينا أن نسعى لتوحيد البلاد العربية لتكون أمة قوية عصرية تستعيد مجدها الغابر وتدخل فى مصاف الأمم الراقية• ولذلك نحن لا نستهدف فى تربيتنا المحافظة على المجتمع الحالى بل نسعى لجعل الجيل الجديد عاملا لتكوين المجتمع الراقى الذى ينشده على الدوام » •

وركز ساطع اهتمامه فى تربية النشىء العربى على الناحية الاجتماعية ورأى ان ما ينقص المواطن العربى ليس الخصال الفردية وانما هى الخصال الاجتماعية • وعلينا ان نعمل على تخليص الفرد العربى من الانانية ونعوده الايثار ونقوى فيه روح الاقدام والتضحية •

وفي معرض تأكيده لاهمية الجانب الاجتماعي في التربية كتب ساطع :

« كثيرا ما يتناقش المربون في مسألة تقديم وتفضيل المطالب الفردية على الاجتماعية أو الاجتماعية على الفردية في الجهود والمقاصد التربوية • انني لا اتردد في ترجيح المطالب والخصال الاجتماعية نظرا لأحوالنا العامة لأن العرب بوجه عام أقوياء من حيث الخصال الفردية ضعفاء من حيث الخصال الاجتماعية ، فيجب علينا ان نجعل أمر ازالة هذا الضعف من أهم المرامي في جهودنا التربوية •

« اننا نرى فعلا عددا كبيرا من أفراد العرب ينجحون نجاحا باهرا في جميع أقطار العالم وفي جميع نواحي الأعمال •• نشاهد ذلك على الأخص في المهاجر ، بين العرب الذين يعيشون خارجا عن مواطنهم الاصلية ، في الصين ، الهند الشرقية ، امريكا الشمالية والجنوبية • كل ذلك يدل دلالة جلية على قوة الخصال والقابليات الفردية في الأمة العربية •

« فيمكننا ان نقول : ان ما يحتاج اليه العربي قبل كل شيء وأكثر من كل شيء هو التربية الاجتماعية التي تقوي وتنمي في نفسه روح التضامن والطاعة والتضحية فتضمن له النجاح لا لفرد قائم بنفسه فقط بل كشخص خادم لأمته ايضا •

« ولذلك اقول بلا تردد يجب علينا ان نهتم بتقوية الخصال الاجتماعية أكثر من اهتمامنا بتنمية القوى الفردية •

ونادى ساطع بأنه ينبغي على السياسيين العرب ورجال الاحزاب أن يبعدوا بنشاطهم عن نطاق التعليم والمدارس ». فمن واجبنا أن نترك المدارس في موقف حيادي تام تتفق جميع الاحزاب والاشخاص على احترامها احتراما حقيقيا » •

ويؤمن ساطع بأنه لا ينبغي ان تهدف التربية في البلاد العربية الى تنشئة الفرد بأحسن ما يمكن من الصور ، على أمل أن يحل مشاكل المستقبل بنفسه ، دون أن نفكر في شكل المجتمع القادم منذ الآن • فهي طريقة لا ينبغي للمربين العرب ان يؤمنوا بها وان يتبعوها لأنها قد تلائم أحوال الأمم التي تسير في مقدمة الحضارة ، والتي تستطيع ان تقول دائما (ان الزمان يخدمني دائما) • يرى ساطع ان الأمة العربية بعيدة عن هذه الأحوال بعدا كبيرا بل بعكس ذلك يجد كل فرد من أبناء الأمة العربية نفسه معرضا لتيارات معاكسة متناقضة ، ويجد أن معظم التيارات الحاكمة مخالفة لمصالحنا القومية •• فاذا ما تركنا الأمور على حالها دون أن نسعى للسيطرة على هذه التيارات ــ بقوة التربية ــ ودون أن نجتهد لتوجيهها نحو تكوين المجتمع الجديد الذي ننشره ــ عن طريق التربية نكون قد تركنا الاجيال الجديدة عرضة لتأثير العوامل الخارجية الأجنبية التي تخالف مصالحنا القومية مخالفة تامة •• ولهذا السبب نحن مضطرون لحشد جهودنا في تربية الجيل الجديد نحو الغاية القصوى التي ننشدها وهي توحيد الأمة العربية وترقيتها •

وما أظننا بعد نكسة الخامس من يونيو بحاجة لأكثر مما نادى به ساطع • ولعل القارىء العربي يشاركني الرأي في أن بيان (الثلاثين من مارس ١٩٦٨) الذي اجمعت عليه الجمهورية العربية المتحدة حين تقرر العمل بكل الطاقات في سبيل انشاء الدولة العصرية في مصر جاء متمشيا مع آراء ساطع ومع مطلبه من أبناء الأمة العربية •

٣ ـ فى مصر

منذ سنة ١٩٤٧

عند ختام مدة السنوات الثلاث التى تعاقد فيهـــا ساطع مع الحكومة السورية انتقل الى مصر وتولى التدريس فى معهد التربية العالى بالمنيرة حيث ألقى سلسلة محاضرات عن التربية الاجتماعية ، واحتياجات التربية والتربية الوطنية والقومية ، واستمر فى هذا العمل ثلاث سنوات (من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩) وفضلا عن ذلك ألقى ساطع فى قاعة الجمعية الجغرافية باسم كلية الآداب جامعة القاهرة ست محاضرات فى نشوء الفكرة القومية • وقد نشرت هذه المحاضرات للمرة الأولى فى القاهرة سنة ١٩٥١ وسوف نتعرض للحديث عنها عندما نتناول دور ساطع فى مجال حركة القومية العربية •

وبعد تكوين جامعة الدول العربية وتشكيل ادارتها الثقافية عين ساطع مستشارا فنيا فى هذه الادارة اعتبارا من عام ١٩٤٨ •

شهدت هذه الفترة اضخم نشاط لساطع فى مجـــال الثقافة فبدأ باصدار سلسلة حولياته الثقافية •

صدرت الحولية الأولى لساطع سنة ١٩٥٠ تتناول الشـــئون الثقافية فى البلاد العربية من سنة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠ •

ثم صدرت الحولية الثانية سنة ١٩٥٢ تتناول هـذه الشئون من سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ •

كما صدرت الحولية الثالثة ســـنة ١٩٥٣ تتناول الفترة من سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ •

ثم كانت الحولية الرابعة سنة ١٩٥٤ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ٠

وصدرت الحولية الخامسة سنة ١٩٥٧ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣

وآخر هذه الحوليات هي الحولية السادسة صدرت سنة ١٩٦٣ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٧ - ١٩٦٢ ٠

أما الهدف الذى رمى اليه ساطع من اصداره لهذه الحوليات الثقافية فهو ما كتبه فى فاتحة الحولية الأولى ٠ يقول ساطع :

« الفت هذا الكتاب لافتتح به سلسلة الحوليات التى ستنشرها الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية عن شئون الثقافة العربية كل عام ٠ وكان الباحث الذى يود أن يحصل على فكرة ولو اجمالية عن الاوضاع الثقافية فى أى قطر عربى يضطر الى مراجعة عدد من المطبوعات والكتب ، فأصبح من مهمة الحولية ان توفر هذه المهمة » وأهمية هذه الحوليات على حد قوله ان الثقافة العربية لم تكن من الثقافات المنطوية على نفسها بل انها من الثقافات الواسعة من الوجهة المادية والمعنوية ٠ لذلك فان الشئون العربية تسترعى انتباه الكثيرين مما يعطى اهمية لوجود مثل هذه الحوليات ٠

بدأ ساطع حوليته الأولى بدراسة الشئون الثقافية لخمس دول عربية هى مصر ، العراق ، سورية ، لبنان والاردن ، ولم يتناول فيها الشئون الثقافية للملكة السعودية واليمن لتعذره الحصول على بيانات عن كل منهما ، ثم تناول بالدراسة الشئون الثقافية للسعودية فى حولياته التى تلت ذلك ٠

تناول ساطع الاحوال الثقافية فى البلاد العربية تناول المحايد الذى يصف هذه الاحوال كما هى دون تعليق او نقد فنجده يقول :

« هذا ولا بد لى من التصريح انني وصفت الاحوال الراهنة وصفا حياديا ذلك لاعتقادى ان للنقد مجالات أخرى غـير صحائف هذه الحوليات التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية . ولم أبد رأيا شخصيا الا قولى فى موضع واحد من هذه الحولية . فقلت يظهر من هذه النظريات السريعة التى القينـاها على تاريخ المعارف فى مختلف الأقطار العربية ان الفروق التى تشاهد بين هذه الأقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية ، انما كانت من نتائج السياسات الأجنبية التى سيطرت على مقدراتها عن طريق الانتداب أو الاحتلال. فلا مجال للشك فى ان هذه الفروق ستتضاءل كلما تخلصت الدول العربية من النظم التى ورثتها عن عهود الاحتلال والانتداب ، وكلما عدلت النظم والاوضاع الناتجة فى بلادها وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية بنظرات شاخصة نحو المستقبل البعيد والمثل الاعلى الذى تنطوى عليه فكرة العروبة الخالدة » .

ثم يقول ساطع : « واضيف اننى آمل املا قويا ان الذين بيدهم زمام أمور المعارف والثقافة فى مختلف الدول العربية عندما يلمسون الحقيقة التى سردتها سيشعرون شعورا قويا اقوى واوضح مما كانوا يشعرون به بوجوب العمل على ازالة هـذه الفروق بكل اهتمام واندفاع .

ومن ثم يمكن القول ان ساطع استهدف من وضع هذه الحوليات التى بذل فيها جهدا كبيرا مرهقا ان تكون بداية الطريق لازالة الفروق الثقافية بين البلاد العربية فقد كان يعتقد كل الاعتقاد أن الوحدة الثقافية ينبغى أن تتحقق كبداية للوحدة السـياسية بين الدول العربية وأنه مادامت الفروق الثقافية قائمة بقيت الاقليمية بظلها الكئيب باسطة سلطانها بين أبناء الأمة العربية .

كذلك وضع ساطع أثنـــاء توليه منصب مستشـــار الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية مشروعا لانشاء متحف للثقافة العربية بهدف اظهار الفروق القائمة بين نظم التعليم ومناهج الدراسة فى مختلف البلاد العربية حتى تســـتفيد الدول العربية من تجارب بعضها البعض فى مجال التعليم ٠

ولذلك اقترح ساطع ان يجمع المتحف جميع الوثائق المتعلقة بالتعليم وتشـــكيلات وزارات التربية والتعليم وســـائر الحركات الثقافية ، وان تستعين الادارة الثقافية بالكتب والانظمة والتقارير والصور التى تطلبها من وزارات المعارف المختلفة ٠ ووافقت الجامعة العربية على ما اقترحه ساطع وتم افتتاح المتحف بحضور ممثلى جميع الدول العربية سنة ١٩٤٩ ٠

واعد دليل مطبوع للمتحف وزع على الزوار الـــذين حضروا حفل الافتتاح وجاء فى الدليل ما يلى مما يوضح الغرض من المتحف ٠

رأت الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ان تأخذ على عاتقها مهمة تأسيس متحف الثقافة العربية لتحقيق غرضين :

١ ــ جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالثقافة ونظم المعارف ٠

٢ ــ عرض خلاصة تلك المعلومات بغية اعطاء فكرة واضحة عن حالة المعارف والمدارس فى كل قطر من الأقطار العربية ٠

وكان المقرر الا يبقى المتحف جامدا على شكل واحد بل يتبدل ويتجدد من حين لآخر ٠ وسنرى عند حديثنا عن الثقافة العربية ودور ساطع فى خدمتهـــا ان المتحف قد تقلص وتوقف عن النمو حتى انحصر فى غرفتين وتحول الى ما يشبه المخزن ولم يتـــابع شئون التربية والتعليم فى البلاد العربية ٠ وقد انتقد ذلك ساطع فى كتابه الذى اسماه ثقافتنا فى جامعة الدول العربية ٠

ومضى ساطع يخدم في اخلاص الفكرة التى عاش من اجلها ونذر نفسه فداء لها وهى فكرة القومية العربية ٠

ان اهم ما لقنه ساطع للاجيال من بعـده ان القومية العربية ليست انفعالا عاطفيا وانما هى حركة لها أسسها العلمية ومن هذه الناحية جاءت ابحاثه العديدة الواسعة تخدم هذا الاتجاه وتدعمه ٠

ورأى ساطع ان الضرورة تقتضى انشـــاء معهد للدراســات العربية يخدم هذا الغرض ويحقق هذه الغاية ٠ لقد كان ابعد الامور عن ذهن ساطع يوم جاهد من اجل انشاء هذا المعهد أن يكون سبيلا للحصول على الشهادات ومكانا أشبه بغيره من المعاهد العلمية ، انما كان يبتغى منه ان يكون معهدا للدرس والبحث تمر عليه اجيـــال المثقفين منابناء الأمة العربية ليكونوا علىدراية بأمور أمتهم يناقشون مشاكلها ويدرسون أمورها ٠ كان ساطع يريد لهذا المعهد ان يقوم بدور الموجه والمرشد فى مجال الدراسات العربية فلا يحـاول فيه الاساتذة والمحاضرون عرض جميـــع الابحاث المتعلقة بالمواد التى يقـــومون بتدريسها ٠ بل يكتفون بالتوســع والتعمق فى ناحية محدودة من نواحى الموضوع ، ويتركون الطلبة يدرسون بأنفسهم ، فتكون قاعات المعهد للمناقشة والبحث وليست للتلقين أو الاملاء ٠

وخرجت فكرة ساطع الى حيز الوجود ، فتقرر انشـــاء المعهد وافتتح للدراسة فى العام الدراسى (١٩٥٣ ــ ١٩٥٤) وعين ساطع مديرا له واستاذا للقومية العربية فيه ٠

وفى المحاضرة الافتتاحية التى القاها ساطع علىطلبة المعهد(١) أوضح ما يتمناه من وراء انشاء هذا المعهد حيث قال :

---

(١) القيت المحاضرة بتاريخ ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٣ ٠

« اتمنى أن نوفق أنا وزملائى الاساتذة الى انجاز المهمة الملقاة على عاتقنا فى سبيل خدمة الأمة العربية عن طريق هذا المعهد خدمة صادقة .

« وانتهز فرصة هذا الاجتماع لتوضيح الغاية من انشاء هذا المعهد ، وتفصيل الخطة التى يتبعها لتحقيق تلك الغاية » .

ثم أوضح كيف اختلفت الأمة العربية عن سائر الامم اختلافا هائلا ومرجع هذا الاختلاف أن هناك فارقا كبيرا بين ماضى الأمةالعربية وبين حاضرها ، وكانت هناك فتوحات عربية كبرى قامت بها تلك الأمة العظيمة منذ أخذت على عاتقها نشر رسالة الدين الاسلامى حتى بلغت ارقى مكانة بين الأمم وصـارت مؤلفاتهـا أثمن واغزر منابع العلم ، ثم استشهد ساطع بالكلمات العربية التى تسربت الى اللغات الأوربية ، وضرب مثالا لذلك كلمة موسيلين Moussiline التى تسمى بها ارقى انواع المنسوجات فى بلاد الغرب ، ترجع الى كلمة موصل المدينة العراقية الشهيرة كذلك كلمة دامسقو Damasco التى يعرف بها نوع آخر من القماش فى أوربا محرفة من اسم دمشق، ثم أوضح ساطع كيف اعترف رجال الفكر فى الماضى ان التبحر فى العلم والفلسفة لا يمكن ان يتم من غير درس المؤلفات العربية .

ثم كان ان تخلفت الأمة العربية من وجهة نظر ساطع فى ميدان الوعى القومى . وأرجع السر فى ذلك الى خضوع البلاد العربية الى السلطات العثمانية باعتبارها (دولة الخلافة الاسلامية) وكانت هذه السلطة المعنوية تخدر فى العرب روح القومية العربية . وتلا ذلك استيلاء الدول الاستعمارية وخاصة فرنسـا وانجلترا على البلاد العربية وهما الدولتان اللتان ــ على حد قوله ــ تكرهان الحركات القومية وخاصة بسبب ما نجم عن تلك الحركات من وحدة ايطاليا ووحدة المانيا . وحين استولت كل من انجلترا وفرنسا على بعض

الاقطار العربية اخذتا تحكمانها بأساليب مختلفة ، واوجدتا فى كل قطر منها أنظمة ادارية وتشريعية واقتصادية وثقافية خاصة · ثم كانت حركات التحرير فى تلك الاقطار العربية التى لم تتغلب على النزعات الاقليمية المتولدة من انقسام البـــلاد العربية الى دويلات عديدة ·

وكان ساطع يخشى أن التطور الطبيعى للبلاد العربية ينبىء باضعاف النزعات القومية ، لذلك لابد من مســـاع جدية تبذل فى سبيل مساعدة هذا التطور والاسراع فيه وهذا هو اهم اهداف هذا المعهد ·

ان هدف هذا العهد هو المساهمة فى الاعمـــال التى ترمى الى تعجيل التطور الذى ذكرناه آنفا ، وتقوية الفـكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد

وقد حدد النظام الاســـــاسى الذى اقره مجلس جامعة الدول العربية اغراض المعهد فى مادته الأولى بالعبارات التالية ·

يعمل معهد الدراسات العربية على تحقيق الاغراض الآتية :

أولا : اعداد شباب عربى مثقف ثقافة عربية عالية ·

ثانيا : نشر الثقـافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة ·

ثالثا : اقامة فكرة القومية العربية على اسس علمية صحيحة

رابعا : تكييف أسس الثقافة العربيــة بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة · لكن ساطعا يقول لطلبته انه لا يكتتفى من هــذا المعهد بهذه الاغراض فحسب ·

« ولكننا ننتظر من اعمال المعهد ثمرة أخرى أهم واسمى من كل ما ذكرته آنفا الا وهي تنشيط الوعي القومي في العالم العربي مع اشاعة الشعور بالوحدة العربية ، وبث الايمان بمستقبل هذه الأمة العربية » .

ثم يقول : « اننا سنسعى الى تقوية فكرة القومية العربية ، ولكننا سنفعل ذلك مستندين الى الحقائق العلمية على الدوام ، سندعم جميع دراساتنا من قانونية واقتصادية وتاريخية وأدبية بدراسات ومباحثات تحوم حول القوميات بوجه عام ، والقومية العربية بوجه خاص .

« وان اهم الثمرات التي نرجوها من اعمال هذا المعهد ومساعيه هي تنشيط الوعي القومي في العالم العربي مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الايمان بمستقبلها » .

وسيظل الاساتذة الذين عملوا مع ساطع الحصري في هذا المعهد يذكرون له غيرته عليه . كان يتتبع كل ما يلقى فيه ويسعى وراء حل كل مشكلة بنفسه .. لم يؤمن بأن للانسان سنا ينبغي أن يخلد عندها الى الراحة . فلقد بدأ ساطع العمل في هذا المعهد وسنه قد تجاوز السبعين لكنه كان يعمل بحماسة الشباب ان لم نقل أكثر من حماسة كثير منهم .. لقد امتاز بقدرته المتواصلة على العمل فهو يحاضر في المعهد ويشرف عليه اداريا بحكم منصبه ويعد البحوث ويراجع أبحاث الطلبة ويجتمع بهم ويتناقش واياهم .

وسوف يظل تلامذته الذين تتلمذوا عليه في هذا المعهد يذكرونه بكل اكبار واجلال هم بالنسبة له اخوانه واصدقاؤه . كان يريدهم رسلا لحركة القومية العربية كما كان ينبغي أن يكون طلبته

في هذا المعهـــد الرجال المؤمنين بأمتهم العربية الغيورين عليهـــا المجندين لخدمتها • من أجل هذا كان يريد أن يكون عند كل واحد منهم ما عنده من حماسة وان يكون كل فرد منهم في ثورتيه •

ويفسر هذا سر حرصه الشديد على عدم السماح باى تقصير يبدو فيرسالة هذا المعهد ، ولما بدا له ان المعهد لم يحقق ماكان ينشده منه وما استهدف من وراء انشائه بادر على الفور الى تقديم استقالته منه سنة ١٩٥٨ واعتزل بعدها جميع الاعمال الرسمية •

رأى ساطع أن المعهد قد تناسى رســـالته العلمية والقوميـة وانحرف عن السبل المؤدية الى تحقيق تلك الرسالة انحرافا كليا • لقد كان هدف المعهد من وجهة نظره الا يكون محلا لدراسات عالية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى لا يحاول الاساتذة والمحاضرون عرض جميع الابحاث المتعلقة بالمواد التي يقومون بتدريسها ، بل انهم يكتفون بالتوسع والتعمق فى ناحيةواحدة محدودة من نواحي الموضوع، على أن يترك للطلاب استكمال البحث في بقية نواحيه ، لكنه لوحظ ان المعهد لم يعد يتمسك بهذه المبادىء •• واصبح الطلبة الذين يدرسون به يريدون الحصـــول على شهادة المعهد بأســـهل الطرق وأيسرها دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الاطلاع والبحث ، ثم بدأت تشغلهم مشكلة الاستفادة من هذه الشهادة ومدى اعتراف الجامعات فى الدول العربية بها • وبمعنى آخر لقد اصبح الطلبة ينظرون لهذا المعهد نظرتهم الى أى معهد دراسي آخر لا تحدوهم المصلحة العامة ولا يدفعهم الدافع القومي •

ثم لاحظ ساطع ان المعهد قد ساير الطلاب فيمـــا يرغبون فاصبح يمتحنهم فيما يملي عليهم من محاضرات •

ولم يقتصر انحراف المعهد من وجهة نظر ساطع عن المبادىء

والخطط الاساسية المقررة بل تعدى ذلك الى تقرير مواضيع المحاضرات وانتخاب المحاضرين •

ويذكر ساطع انه في سنة ١٩٥٦ وزعت مذكرة على اعضاء مجلس ادارة المعهد تقول : من المعلوم لدى الجميع ان معهد الدراسات العربية العالية انما انشىء لتحقيق اغراض علمية وقوميه سامية • وان المعهد الذى تعرض فى فترة من فتراته الى فكرة الغائه ثم عدل عن تلك الفكرة ينبغى أن يكون عند ثقة الأمة العربية فيه • وكان ينبغى على المسئولين عنه ان يواصلوا العمل والبحث فى احسن السبل وانجع الوسائل لتحقيق أغراض المعهد وتأدية رسالته على اتم الصور •

ثم يقول ساطع : « لكن الذى حدث مع الاسف الشديد كان عكس ذلك • لقد اخذنا نتناسى رسالته السامية • وانى بناء على ذلك ارى من الواجب ان اسجل واعلن استنكارى لهذه الاوضاع والاتجاهات واقول بكل صراحة اذا استمرت الاحوال على هذا المنوال اخشى ان يتحول معهد الدراسات العربية الى مؤسسة تمنح الشهادات لجماعة من الطلاب ، وتوزع أجور المحاضرات لطائفة من الاساتذة ، دون أن تسعى سعيا جديا وراء تحقيق الاغراض العلمية والقومية التى انشئت من أجلها » •

ويرى الحصرى انه حين تستمر سياسة المعهد على ما هى عليه : الطلاب يمتحنون فيما درسوه ويملى بعض المحاضرين محاضراتهم املاء وان يظل المعهد بعيدا عن التساؤل فى مجموع المعلومات التى اكسبها لطلابه واساليب البحث والتفكير التى تهيئوا عليها قبل منحهم الدبلومات أمر خطير كل الخطورة ، واثم ما بعده اثم فى حق الأمة العربية ، والقضية السامية التى ينبغى ان يجند الكل من أجلها ، وهى قضية القومية العربية •

ثم يسوء ساطع ما وصلت اليه امور الابحاث في المعهد حتى أصبحت الدراسات العربية خارجه أكثر من داخله ، في الوقت الذى كان المفروض فيه ان يقوم هـــذا المعهد بدور المرشد الموجه لتلك الأمور والدراسات ٠

أما من حيث هيكل معهد الدراسات العربية التنظيمي فلقد انتقد ساطع تشكيل مجلس ادارته من حيث عدم اضافة أربعة أعضاء من ذوى الرأى فى البلاد العربية ، حسب النظام الأساسى ٠ كما انتقد زيادة عدد الطلاب فيه وعدم تحديد مدة للاســـاتذة الذين يعملون فيه ، الأمر الذى لم يترك امام المعهد مجالا كافيا للاستفادة من خدمات الكفايات الأخرى فى البلاد العربية ٠

ولقد عمل ساطع جهدا كبيرا فى سبيل اعداد مكتبـــة هذا المعهد وتزويدها بالمراجع المختلفة والمصادر التاريخية والاجتماعية السياسية والادبية وغيرها ٠ كذلك بدأ ساطع فى طبع سلسلة من الوثائق والنصوص وضعهـــا تحت تصرف الباحثين والدارسين من الاساتذة والطلاب ليدركوا واقع الامة العربيـــة ولينطلقوا من هذا الواقع الى تحقيق الوحدة العربية والمجتمع العربى التقدمى ٠

وكان من بين هذه الوثائق التى اهتم ساطع بها دساتير البلاد العربية التى اشرف على جمعها المرحوم الدكتور سعيد صبرى وقوانين العمال فى البلاد العربية التى أشرف على اعدادها وجمعها الدكتور محمد حلمى مراد وزير التعليم السابق فى الجمهورية العربية المتحدة وقوانين الجنسية فى العالم العربى التى أشرف الدكتور جابر جاد عبد الرحمن مدير جامعة القــاهرة الحالى على جمعها ٠ كما أشرف الاستاذ الدكتور لبيب شـــقير على جمع اتفاقيات البترول ، كذلك جمعت قوانين الملـــكية فى العالم العربى التى أشرف على تفسيرها مجموعة من الاساتذة من مختلف البلدان العربية ٠

وما زالت هذه السلاسل والوثائق والنصوص فى مكتبة المعهد تشهد لساطع بالجهد الخارق والحماسة المنقطعة النظير فى خدمة أمته العربية ٠

وكان من بين الأمور التى ساءت ساطع النقص فى عملية تزويد مكتبة المعهد بالمراجع والكتب ، وتقل الاعتمادات المالية المخصصة لذلك ، بينما هو يقترح فى مذكرة له عام ١٩٥٧ ان يزاد الاهتمام بأمر المكتبة ، وان تعطى لجميع وسائل الدرس والبحث فيها مزيدا من العناية كما ينبغى ان تتخذ التدابير اللازمة لزيادة الاهتمام ٠ بجمع الكتب والمجلات التى تنشر فى البلاد العربية ، وكذلك التى تنشر عن تلك البلاد فى مختلف اللغات الأجنبية مع الحصول على محاضر جلسات البرلمانات والمؤتمرات المتعلقة بالشئون العربية ٠

وينبغى أن نؤكد هنا حقيقة هامة هى ان ساطعا حين قدم استقالته من معهد الدراسات العربية لم يفعل ذلك كفرا منه بما دعا اليه ونادى به ٠ لكن ساطعا حين آثر الاستقالة من جميع الاعمال الرسمية سنة ١٩٥٨ وآثر الاقامة فى غرفة متواضعة فى فندق لافينواز بالقاهرة مضى قدما فى جهاده من أجل أمته فتفرغ للتأليف والبحث ، وأخرج بعد استقالته عشرات الكتب ومئات الابحاث والمقالات التى تخدم قضية أمته العربية ٠

استقال ساطع من معهد الدراسات العربية لينبه جامعة الدول العربية الى الحال التى صار اليها هذا المعهد ، ودعا الجامعة فى تقاريره ومذكراته الى المبادرة للاصلاح المنشود لهذه المؤسسة العلمية التى طالما جاهد من أجل انشائها ، فلما اعيته الحيلة نفض يده لا تهربا من مسئولية وانما ليتفرغ بكل وقته ويخصص كل جهده لاخراج الابحاث والكتب التى تناولت القضية العربية من جانب

او من آخر ، وأكدت ايمانه العظيم بامته ، وحبه لها ، والعمل جاهدا من أجلها ٠

وظلت غرفته في هذا الفندق المتواضع ملتقى لطلابه ومريديه وحوارييه ، وعاش ساطع على دخل كتبه المتواضع ورفض الكثير من العروض لمساعدته ماديا والتى عرضها عليه كثير من الشخصيات العربية ٠

وفي عام ١٩٦٥ اعيدت اليه الجنسية العراقية فعاد الى بغداد ليموت ويدفن هناك بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلى وجه التحديد يوم الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٦٨ ٠ وكان موته خسارة كبرى لامته في ظروف كانت احوج ما تكون لجهاده ونضاله ٠٠ مات ساطع وامته تخوض معركة مصيرية مع اعدائها ، والمعركة تتطلب جهود كل المخلصين من أبنائها ٠٠ ومن أخلص لامته من ساطع التى أحبها من كل قلبه وجند قلمه دفاعا عن حقها ٠

لكن العزاء في وفاته أن اعماله الكبيرة والكثيرة كانت خير ما ورثته امته عنه ، وكانت دعوته المخلصة المؤمنة هي النداء الذى حمله من بعده اجيال المثقفين العرب الذين طالما ناشدهم ساطع ان يعملوا من أجل امتهم ويخلصوا في سبيلها ٠

كان ساطع يؤمن ان المعركة الدائرة مع العدو تتطلب كل الجهود وفي مقدمتها جهود المثقفين العرب ، وانه اذا كان الوطن العربى يتطلب من أبنائه فى هذه الأيام كل التضحيات فانه ينبغي على المثقفين ان يكونوا هم القادة وهم الرواد لانهم يعرفون قبل غيرهم أهمية هذه التضحيات ومخاطر التردد في بذلها سواء كانت التضحية بالروح أو بالمال ٠ بدونها لا كرامة وبغيرها لا شرف ٠

واذا كان العمل باقصى طاقته هو أول متطلبات المعركة ،

فالمثقفون كانوا كما يراهم ساطع هم أولى الناس بالعمل المخلص الجاد من أجل أمتهم ، لانهم يعرفون أكثر من سواهم ما هو المصير لو تقاعس أفراد الشعب العربى عن العمل وتخلوا عن اداء الواجب ..
كان ساطع يريد من أبنـــاء الأمة العربية ايمانا بحق هـذه الأمة ويطالبهم بالعمل من اجل هذا الحق والنداء فى سبيله .

يخاطب ساطع الأدباء فيقول :

على الأدباء أن يكونوا قوميين يشعرون بقوميتهم ويعتزون بها ويتحمسون لها ، لأن الأديب اذا آمن بالقومية العربية سيشعر حتما بآمالها وآلامها ، لما له من احســاس مرهف ، وعاطفة مشبوبة ، وسيجد بطبيعة الحال أحسن الوسائل لاظهار شعوره هذا فى انتاجه الأدبى ، لما له من سعة خيال وقوة تعبير ، ويطالب ساطع الدول العربية أن تعمل على تشجيع ونشرالانتاج العربى الذى يخدم فكرة القومية العربية ، وهذا هو حق هذه الدول بل هو واجبها ، دون أن يقال انها تعرضت الى حرية الأدباء بالتوجيه .

ثم هو يبحث هل ينبغى ان يكون الادب للادب وفقــا لشعار الفن للفن أو أن الأدب فى خدمة المجتمع وفقا لشعار الفن للحياة ؟

وينتهى الى القول بأنه من الأمور التى لا خلاف فيهــا ، أن الأدب يتفاعل مع المجتمع تفاعلا مستمرا : يتأثر به ويؤثر فيه بدون انقطاع ، وان شدة تأثير الادب فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية تحمل الأدباء مسئولية معنوية كبيرة . وعلى الأباء ــ على حد قوله ــ ان يقدروا هذه المسئولية حق قدرها فيحرصوا على الا يكون انتاجهم الادبى ضارا بالمجتمع .

يقول ساطع : ان ما نطلبه من الأديب أن يقدر مدى ما يحدثه الأدب من تأثير ، كما يحق لنا أن نطلب من الأديب الذى يصــور

مفاسد المجتمع وينقد أحواله أن يقدر مسئوليته المعنوية والا يهمل التفكير في خير المجتمع ؛ .. ويطالب ساطع الحصرى الأدباء العرب أن يؤمنوا بوحدة الأمة العربية فيتمسكوا بالقومية العربية ولا يستسلموا لنوازع الاقليمية التى تنافى الوحدة العربية ، ولا يندفعون نحو فكرة العاميه التى تخدر العواطف القومية . وعلى أدباء العرب أن يدركوا حق الادراك حاجة الأمة الى لغة موحدة ، فيتمسكوا باهداب اللغة الفصحى مع تجنب الجمود فيها ، وعليهم أن يواصلوا العمل فى سبيل تبسيطها حتى يصبح هناك معجم مفصل يتضمن جميع الكلمات المستعملة فى الكتب القديمة والحديثه على اختلاف أنواعها . ثم يطلب ساطع من كل أديب عربى الا ينسى اننا نعيش الآن فى دور من أشد وأخطر الأزمات التى يجتازها الأمة العربية ، وبأننا أصبحنا فى حاجة الى أسلحة معنوية نحارب بها الأنانية والنفعية والرجعية والتواكلية والى آلات انتاج معنوية تساعد على تنشئة جيل عربى جديد يمتاز بروح التضحية والتفانى .

ويقول : انني أشبه الانتاج الأدبى من جهة تأثيره الاجتماعى ببعض المصنوعات المادية منها ما يعمل عمل أسلحة الحرب والنضال مثل المدافع والرماح .

ومنها ما يعمل عمل آلات الحرث والانتاج مثل المحارث والمحركات .

ومنها ما يعمل عمل الزخارف والمصنوعات مثل الأساور والقلادات .

ولكل نوع من هذه الآلات والمصنوعات وظيفة خاصة ، ومهمة معينة فى الحياة الاجتماعية . وكل مجتمع يحتاج الى كمية منها .

والمهم فى هذا المضمار هو تعيين وتحديد النسبة بين هذه الأنواع بصورة معقولة ، لا يمكن لأى مجتمع أن يعيش بالأسلحة وحدها ، ولا بالزخارف وحدها · ولا حياة لمجتمع يزيد فيه عدد الصاغة على الفلاحين والحدادين أو عدد النقاشين على النجارين وهكذا ·

« ومما تجب ملاحظته فى هذا المضمار أن الحاجة الى كل نوع من أنواع الآلات والمصـــنوعات التى ذكرتهـــا تتغير بتغير الظروف والأحوال ·

« ومن العلوم أنه – فى أدوار الكفاح العنيف – وفى عهود الأعمال البطولية من حياة الأمم · تتخلى النساء عن مصوغاتها فى سبيل توفير واستكمال الأسلحة التى تحتاج اليها البلاد ·

« ولا أرانى فى حاجة للبرهنة على أن العالم العربى الآن فى مثل هذه الحالة ·

ويحق لنا أن نطلب من كل أديب عربى أن لا ينسى اننا نعيش الآن فى دور من أشـــد وأخطر أدوار الأزمات التى تجتازهـــا الأمة العربيـــــة ، ونحن الآن فى حاجة الى آلات انتاج معنوية تبث روح التضـــحية والتفانى أكثر مما نحتاج الى مجوهرات تزين المعاصم والصدور ، أو زخارف تزيد من بهرجة القصور » ·

يطالب ساطع الأدباء بعمل ما يمكن تسميته بالتعبئة الفكرية من أجـــل المعركة الدائرة مع العدو ، ولا أرى أن للأدباء فى هـــذه الآونة واجبا أقدس من ذلك ولا مهمة أعظم من ذلك ·

ومات ســـاطع الحصرى بعـــد أن أضاء بفكره العربى الأصيل مشـــعل ضوء يخفت ولا يظلم ، مات بعـــد أن نقل ايمانه العميق الصادق بقضية العروبة والوحدة الى الآلاف بل الى الملايين من أبناء أمته بفضل ما خلفه من زاد فكرى ضمنتها كتبه وأحاديثه ·

ولقد رأيت ونحن نترجم لحياة ساطع أن أورد ثبتا بمؤلفاته ودرجة الأهمية في ذلك أن بعضها فقد وبعضها معروف للبعض دون البعض الآخر ولقد أوردت هذا الثبت كما كتبه ساطع بخط يده في أوراقه واضعا أمام كل مؤلف تاريخ طبعته الأولى ٠

مؤلفات ساطع الحصرى

اسم الكتاب	سجل وتاريخ الطبعة الاولى
مبادىء القراءة الخلدونية ـ الألفباء	بغداد عام ١٩٢٢
مرشد القراءة الخلدونية ـ طريقة تعليم الألفباء	بغداد عام ١٩٢٢
مساعد القراءة الخلدونية	بغداد عام ١٩٣٤
دروس الاشياء	
للسنة الرابعة الابتدائية	بغداد عام ١٩٢٨
للسنة الخامسة الابتدائية	بغداد عام ١٩٢٨
للسنة السادسة مبادىء العلوم	بغداد عام ١٩٢٩
للسنة السادسة مبادىء الزراعة	بغداد عام ١٩٢٩
دروس في أصول التدريس	
الجزء الاول ـ الاصول العامة	بغداد عام ١٩٢٨
الجزء الثاني ـ أصول تدريس العربية	بغداد عام ١٩٢٨
مجلة التربية والتعليم	
خمسة مجلدات	بغداد عام ١٩٢٨ـ١٩٣٢

الحولية الخلدونية لسنة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠

رسائل الى بول مونرو

ـ فى نقد تقرير لجنة الكشف التهذيبى	بغداد عام ١٩٣٢
الاحصاء : محاضرات فى كلية الحقوق	بغداد عام ١٩٣٧

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

ـ الجزء الاول	بيروت عام ١٩٤٣
ـ الجزء الثانى	بيروت عام ١٩٤٤
ـ الطبعة الموسعة	القاهرة عام ١٩٥٣

(تضم أبحاث الجزئين الاول والثانى مع أبحاث أخرى كتبت بعد السفر الى تونس وأعيد طبعها سنة ١٩٦١)

تقارير عن حالة المعارف فى سورية واقتراحات لاصلاحها

ـ الجزء الاول	دمشق عام ١٩٤٤
ـ الجزء الثانى	دمشق عام ١٩٤٥
آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية	القاهرة عام ١٩٤٤
آراء وأحاديث فى التربية والتعليم	القاهرة عام ١٩٤٤

أعيد طبعها فى السنوات التـــالية ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١

(الطبعات الثلاث الاخيرة فى بيروت)

صفحات من الماضى القريب	بيروت عام ١٩٤٨
محاضرات فى نشوء الفكرة القومية	القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت فى الســنوات التـــالية : ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤)

آراء وأحاديث فى العلوم والاخلاق والثقافة القاهرة عام ١٩٥١

آراء وأحاديث في القومية العربية القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت فى السنوات ١٩٥٦ ، ١٩٥٩، ١٩٦٤ وقد أضيف اليها اعتبارا من ١٩٥٦ مقدمة جديدة والحق بهـا نقد لمقالة شفيق غربال)

آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت ١٩٦٠)

العروبة بين دعاتها ومعارضيها بيروت عام ١٩٥٢

أعيد طبعها فى السنوات التالية ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥

دفاع عن العروبة بيروت عام ١٩٥٦

أعيد طبعها سنة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١

آراء وأحاديث فى اللغة والادب بيروت عام ١٩٥٧

أعيد طبعها فى بيروت عام ١٩٦٥

حول الوحدة الثقافية العربية بيروت عام ١٩٥٩

ثقافتنا فى جامعة الدول العربية بيروت عام ١٩٦١

المحاضرة الافتتاحية لمعهد الدراسات العربية العالية القاهرةعام١٩٥٣

خريطة زمانية : البلاد العربية منذ ظهور الاسلام القاهرةعام١٩٥٣

ما هى القومية ؟ القاهرةعام١٩٥٩

(أعيد طبعها سنة١٩٦٣ وأضيف اليها نقد لكتاب هنرىهاوزر)

وهى عبارة عن أبحاث ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية

البلاد العربية والدولة العثمانية — القاهرة عام ١٩٥٦

(أعيد طبعها فى بيروت سنة ١٩٦١) بعد اضافة القسم الثانى المتعلق بالبلاد العربية بين الدولة العثمانية وبين الدول الاوربية وهى ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية وأعيد طبع هذه الطبعة الموسعة سنة ١٩٦٥)

حول القومية العربية — بيروت عام ١٩٦١

أحاديث فى التربية والاجتماع — بيروت عام ١٩٦١

أبحاث مختارة فى القومية العربية — القاهرة عام ١٩٦٤

الاقليمية — بيروت عام ١٩٦٣

الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٤

الحوليات

حولية الثقافة العربية

ـ السنة الاولى حتى ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠	القاهرة صدرت عام ١٩٥٠
ـ السنة الثانية عن ١٩٥٠ ـ ١٩٥١	القاهرة صدرت عام ١٩٥٢
ـ السنة الثالثة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢	القاهرة صدرت عام ١٩٥٣
السنة الرابعة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣	القاهرة صدرت عام ١٩٥٤
السنة الخامسة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧	القاهرة صدرت عام ١٩٥٧
السنة السادسة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢	القاهرة صدرت عام ١٩٦٣

المذكرات

مذكراتى فى العراق ١٩٢١ ـ ١٩٤١ بيروت عام ١٩٦٧
الجزء الاول ١٩٢١ ـ ١٩٢٧
الجزء الثانى ١٩٢٧ ـ ١٩٤١ بيروت عام ١٩٦٨

ثم يضيف ساطع الى ذلك انهبسبيل اصدار مذكراتهعن الدولة العثمانية وسورية ومصر سنة ١٩٦٩ وهو العام الذى لم يشــهده ساطع وشاء الله أن يتوفاه اليه قبل حلوله بأيام ٠

الفصل الرابع

العروبة عند ساطع إيمان وعقيدة

عاش ساطع من أجل قضية الوحدة العربية ونذر نفسه وجهده لها ، وجند قلمه دفاعا عنها ، تلك حقيقة لا خلاف بشأنها ولا غبار حولها ، لقد خصص ساطع كل مجالات نشاطه وأعماله وأبحاثه من أجل هذه القضية الكبرى ·

كتب يقول في سنة ١٩٤٥ : « انى من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ايمانا عميقا ، ومن الذين يقولون بوجوب العمل من أجلها عملا متواصلا دون توان أو تخاذل ·

اننى أعتقد جازما بأن الوحدة العربية (ضرورية) لحفظ كيان الشعوب العربية ، كما أعتقد أنها (طبيعية) بالنسبة الى حياة الامة العربية وتاريخها الطويل ·· فلا أشك أبدا فى أنها ستتحقق يوما من الايام ان عاجلا أو آجلا ·

لا أدرى فيما اذا كان ما بقى لى من العمر سيسمح لى بادراك ذلك اليوم ·

غير أنى أقول بكل اخلاص : اذا قدر لى أن أدرك اليوم الذى

ستتحقق فيه الوحدة العربية سأعتبر نفسى أسعد الناس جميعا وسأنسى كل ما كابدته من مشاق وآلام ٠٠ وسأترك هذه الحياة راضيا مرتاحا ٠٠ كأننى لم أتعب أبدا ولن أشعر بذرة من الألم »٠

لكن ساطعا وان لم يعش ليصبح أسعد الناس جميعا على حد تعبيره ، ولم يتحقق أمله الأكبر ومات قبل أن تصبح الوحدة العربية حقيقة واقعة ، لكنه عاش مع ذلك ليرى الايمان بالقومية العربية وقد أصبح هو التيار الغالب فى العالم العربى كله ، وليرى الاقتناع بضرورة تحقيق الوحدة العربية وقد أخذ يعم الأمة العربية بأسرها٠

واذا كانت أمنية ساطع الاولى لم تحقق بعد فانه كان يشعر بالرضا قبل وفاته من أنه استطاع على قدر جهده أن يؤدى دوره نحو أمته ٠ لقد عاش ساطع ليرى الفكرة التى آمن بها وكافح من أجلها وقد أصبحت المطلب الرسمى لكثير من الدول العربية وتصبح أغلى الامانى لدى الاغلبية الساحقة من أبناء هذه الامة العربية ٠

قضى ساطع الحصرى عمره مكافحا من أجل ايقاظ الشعور القومى العربى ، ساعيا الى نشر هذا الشعور وتعميقه ، مؤرخا لنشوء وتطور الفكرة القومية فى البلاد العربية ، مفندا وداحضا لادعاءات ومزاعم خصوم هذه الفكرة ، داعيا الى الوحدة العربية مؤكدا حتميتها شارحا ضرورتها الحيوية والملحة ، عاملا من أجلها ، مناضلا فى سبيل تعبئة أبناء الامة العربية بأجمعها وراء هذه الدعوة ٠

وبسبب ايمانه العميق بالرسالة التى كرس لها حياته ٠ واصراره الذى لم يتزعزع على مواصلة الجهاد فى سبيلها تعرض للكثير من ألوان الاضطهاد على نحو ما سبق لنا أن تناولناه عند عرضنا الموجز لحياته ٠

يحقد عليه الحاقدون فى العراق فيتهمونه انه معاد للثقافة

ونظم التعليم الانجليزيين وأنه نصير الثقافة الفرنسية فاذا ما عمل في سورية بعد العراق يتضح لهؤلاء انه مثلما حارب فكرة الاقتباس من النظم الانجليزية في معارف العراق يحارب الامر نفسه بالنسبة للنظم الفرنسية في معارف سورية • لكنه لم يكن عدوا للثقافات الاجنبية فلقد دعا أبنـاء الامة العربية الى زيادة حصيلتهم العلمية بالاطلاع على علوم الغرب وثقـافاتهم • لكنه بالمرصاد لكل سيطرة ثقافية يراد فرضها على الامة العربية • فلقـد رأى ساطع في هذه السيطرة الثقافية لونا من ألوان الاستعمار لا يختلف عن السيطرة السـياسية • واذا ما تحررت الامة العربية سياسيا فلا ينبغي أن تبقى مستعبدة ثقافيا •

ويطرد من العراق وتسحب منه الجنسية العراقية ويحرم من معاشه فلا يزيده ذلك الا استمساكا بمبادئه واصرارا على دعوته •

كان يرى ان أولى الخطوات لتحقيق الوحدة العربية هو الايمان بحتمية هـذه الوحدة طال الزمن على تحقيقها أو قصر • وكان يؤمن أن يوم الوحدة الشاملة آت لا ريب فيه •

يقول ساطع : كثـيرا ما يسألونني : ما هي الطريقة العملية لتحقيق الوحدة العربية ؟ وفي بعض الاحيان يسـتهلون السؤال بمقدمة قصيرة :

انت تتـكلم عن القومية العربية وتدعو الى الوحدة ولـكنك لا تقول لنا : ما هي الوسائل العملية لتحقيق هذه الوحدة ؟ وأما أنا فاقول لهؤلاء على الدوام :

انى أعتقد ان أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية في الاحوال الحاضرة هو ايقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة هذه الامة •

فعندما يستيقظ هذا الشعور تمام اليقظة ، وعندما ينتشر هذا الايمان ويرسخ فى النفوس تمام الرسوخ تتوضح السبل وتتمهد الطرق أمام الوحدة العربية ٠٠ وتزول العقبات وتنهار العوائق التى تعترضها بكل سهولة ٠ ولكن اذا بقى الشعور بالقومية العربية على ما هو عليه من الضآلة والايمان بوحدة الامة العربية على ما هو عليه من الضعف تبدو آنفة العوائق بمثابة العقبات التى لايمكن اقتحامها٠ فتتوقف الجهود أمام أولى الصدمات وتنهار العزائم أمام أصغر المشاكل ٠

ولذلك فأنا أسعى على الدوام وراء ايقاظ الشعور بالقومية وبث الايمان بوحدة الامة العربية ٠

الايمان والمعرفة بالوحدة وحتميتها :

كان ساطع يؤمن أن أولى الخطوات نحو تحقيق الوحدة العربية هو الايمان بضرورة هذه الوحدة وبغير هذا الايمان تكون الدعوة الى الوحدة دعوة مفتعلة ٠٠ فالوحدة كدعوة تحتاج من الداعين اليها الايمان الثابت الراسخ بها ٠٠ والوحدة كضرورة تحتاج من جنودها الى الاصرار عليها والتمسك بها ٠٠ والوحدة كطريق للخلاص مما فيه العرب الى مستقبل مشرق بسام تحتاج الى صبر والى عمل والى نضال مرير وشاق ٠

كتب ساطع فى العدد السادس من مجلة العربى الصادر فى مارس (آذار) من عام ١٩٥٩ :

على كل واحد منا أن يؤمن أصدق الايمان بأن الوطن العربى يمتد من المحيط الأطلسى الى الخليج العربى وجبال زاغروس ٠ ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية ٠٠ وأما الدول

والدويلات القائمة بين هذه المناطق فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التي قامت بين الدول المستعمرة ·

وكان الشعار الذى ردده ساطع فى كتاباته فى هذه الناحية : ما اغربنا !

اننا ثرنا على الانجليز ، ثرنا على الفرنسيين ·

ثرنا على الذين استولوا على بلادنا وحاولوا استعبادنا ·

كررنا الثورات الحمراء عدة مرات وواصلنا الثورات البيضاء عدة عقود من السنين · وقاسينا فى هذا السبيل ألوانا من العذاب وتكبدنا أنواعا من الخسائر ، وضحينا بكثير من الارواح ·

ولكنا :

عندما تحررنا من نير هؤلاء أخذنا نستقدس الحدود التى كانوا قد أقاموها فى بلادنا بعد أن قطعوا أوصالها ·

ونسينا ان تلك الحدود انما كانت حدود (الحبس الانفرادى) و (الاقامة الجبرية) التى كانوا قد فرضوها علينا ·

لكن ساطعا كان يرى ان الايمان بالوحدة العربية ينبغى أن يقترن به ، بل تسبقه المعرفة بحقائق أمتنا العربية ·· فهذه المعرفة سبيل الى الايمان بالوحدة العربية · لكنه يلفت النظر الى ان الايمان والمعرفة ليسا بالامرين المنفصلين ، بل يوجد بينهما ارتبـــاط قوى مما لا يترك لمسألة الاسبقية أهمية كبيرة ·

يرى ساطع ان الايمان القومى شىء حديث العهـد بكل معنى الكلمة ، وانه لم ينتشر بعد انتشارا كافيا يسمح لنا بأن نقول انه أصبح متأصلا فى النفوس ·

وهو يقول للشباب : ان جيل الامس ــ جيل الشيوخ مثلى ــ

كان يجد نفسه بين تيارات عديدة ، تدفعه أو تجذبه الى اتجــاهات مختلفة ، تبعده عن الاتجاه القومي ، وذلك مثل التيارات والنزعات التي كانت تعرف باسم (الجامعة العثمانية) و (الجامعة الاسلامية) و (الرابطة الشرقية) • وأبناء ذلك الجيل كانوا فى حاجة الى التغلب على تلك التيارات القوية والقديمة ، لكى يتوصلوا الى الايمان بالقومية العربية • أما الجيل الحاضر ــ جيلكم انتم فهو لا يزال يتعرض الى تأثيرات مختلفة تنازع الايمان بالقومية العربية بل تعاديه ، فان هناك النزعات الاقليمية التى تربط نفوس الكثيرين بالدول التى قامت بعد الحرب العالمية ربطا يبعدهم عن الايمـــان بوحدة الامة العربية •• وهناك النزعات العالمية التى أخذت تتسرب الى نفــوس البعض ــ بأشكال مختلفة ــ وصـــارت تزدرى النزعات الوطنية والقومية ، وذلك فضلا عن التيارات التى تعادى القــومية العربية تحت ستار الدين ، دون أن تقدر حقائق الدين تقديرا صحيحا •

لذلك كان ساطع يؤمن أنه لا بد من أن نقتلع من أفكار أبناء الامة ما يشوش تفكيرهم فالفكر العربى عنده أشـــبه بالارض التى ينبغى لضمان نجاح زراعتها أن نقى هذه المزروعات والمغروسات من تأثير الرياح التى تهب من جهات مختلفة ، وكان يرى أن وضعنا فى البلاد العربية يختلف عن غيره من البلدان الأخرى التى سبقتنا فى مجال القومية ، واستطاعت أن تتم تطورها القومى وأن تكون دولا قومية تامة ــ حيث تنطبق فيها القومية على الوطنية تمام الانطباق ــ فى هذه الدول تأصل الايمان القومى وانتقل من الكبار الى الصغار عن طريق الايحاء والتلقين مثلما يحدث فى انتقال الدين ، ولكنه وحتى تصبح الأحوال فى بلادنا العربية على هذا النــحو ، ينبغى أن تكون للمعرفة بالقومية أهميتها •• وكان ســـاطع يؤمن ان الاوضاع فى البلاد العربية ستتطور على نحو يصبح فيه الايمان القومى متأصلا

فى جميع النفوس ، فيتسرب الى قلوب الصغار وعقولهم من آبائهم وأمهاتهم ومن البيئة الاجتماعية التى ترعاهم .

ويرى ساطع الحصرى اننا فى نشر الفكرة القومية ، وبث الايمان بها ، ينبغى أن نلجأ لكل الوسائل ـ من تعريف ، واقناع ، وتلقين ، وايحاء ، وتحبيب وتحميس . يجب أن نخاطب العقول والقلوب ، يجب أن نهتم بجميع ضروب المعرفة والايمان .

وأما النسبة بين مبلغ اهتمامنا بكل واحدة من هذه الوسائل المختلفة ، فيجب أن تختلف باختلاف الافراد والجماعات ، وأن تأخذ فى الاعتبار أعمارهم ومستويات معارفهم وأنواع ثقافاتهم وألوان التيارات الفكرية والسياسية التى أثرت وما زالت تؤثر فيهم .. فيجب العمل وفق خطط متنوعة ، وبمعنى آخر ان ما يصلح فى هذا المجال لتلاميذ المدارس الابتدائية لا يصلح لطلاب الدراسات العالية، وما يصلح لهؤلاء الاخيرين لا يلائم سواد الناس .

فالايمان بالفكرة القومية والعمل فى سبيل غرس هذا الايمان فى نفوس وعقول أبناء الامة العربية هو الخطوة الاولى التى لا بد منها ، ولا غنى عنها لخدمة القضية العربية .

وحين يواجه البعض ساطعا أنه يحصر همه في حدود الآراء والنظريات المتعلقة بالقومية دون الاهتمام بالناحية الايمانية ، يشير الى أقدم ما كتبه فى هذا المجال فى كتبه .. يحيلهم ساطع الى كتابه (آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية) ، فالى جانب ما تناوله فى هذا لكتاب من نظرات عامة ملقاة على قضية القومية من وجوهها المختلفة. الوطنية والقومية ، عوامل القومية ، بين الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ، الوطنية والأممية ، بين العروبة والفرعونية ، الى جانب تلك الابحاث فى هذا الكتاب هناك بحث خاص عنوانه (الايمان القومي) . كذلك يطالبهم ساطع بالرجوع الى ما كتبه فى كتابه

(العروبة أولا) وما جاء فى فاتحته من كلمة صريحة عن وجوب بث الايمان بوحدة الامة العربية ٠

ولا ينكر ساطع انه عالج القـــومية من الناحية النظرية لكنه لم يكن ليهمل الناحية العملية وفى مقدمة الناحيتين ينـادى بأهمية الايمان فى مسألة القومية قبل أى عامل آخر ٠

عالج ساطع الآراء الخاصة بالناحية القومية وتطرق الى كثير من المعلومات وكانت فى معظمها ردودا وانتقادات على ما كتبه ونشره كبار الاساتذة والكتاب والادباء اعتراضا على الاتجـــاهات القومية ودفاعا عن النزعات الاقليمية ، فمعالجة ومعارضة آرائهم لا بد وأن تكون بالآراء والمعلومات لأن الرأى كما يقول ســـاطع لا يمكن أن ينقض أو يهدم الا بالرأى ٠

يرى الحصرى ان فى العالم العربى آراء ونظريات كثيرة لاتسلم بوحدة الامة العربية بل تعارضها معارضة شديدة ، وتعمل على بث الايمان بعكسها ، فلابد أن ننقد هذه الآراء والنظريات حتى لا تشوش فكر الشـباب العربى وحتى يستنير هؤلاء الشباب بالآراء السليمة فى القومية للرد على دعاة الاقليمية ، أو منكرى الفـــكرة القومية ، ولكى يؤمنوا الايمان القومى : أى أن ساطع يهدف مما بكتب فى مجال القومية أن تتضح الحقيقة أمام أبناء الامة العربية من الزيف والحق من الباطل ، والصدق من الزيف والبهتان ٠ واذا ما تحققت لهم هذه المعرفة كان ايمانهم بحق أمتهم وبقضية عروبتهم ثم بالواجب عليهم نحو أمتهم ٠

وأهم هذه الحقائق التى يريد ساطع أن يحفظها كل أبناء هذه الامة العربية عن ظهر قلب أربع :

١ ـ حقيقة خاصة بالبلاد العربية :

ان جميع البلاد التى يتكلم سكانها باللغة العربية هى عربية مهما تعددت الدول التى تحكمها •

ومهما تنوعت الاعلام التى ترفرف على بناياتها الحكومية •

ومهما تعرجت وتشابكت الحـــدود التى تفصل بين أقسامها السياسية •

انها بلاد عربية •

ويقول ساطع : (بلاد العرب) ليست الجزيرة العربية وحدها، كما يزعم البعض ولكنها جميع البلاد التى يتـكلم أهلهـا باللغة العربية • من جبـال زاغروس فى الشرق الى المحيط الاطلسى فى الغرب ، ومن شواطىء البحر الابيض وهضاب أناضول فى الشمال، الى المحيط الهندى ومنابع النيل والصحراء الكبرى فى الجنوب(١) •

٢ ـ حقيقة خاصة بالعرب :

يقول ساطع : ان كل من ينتسب الى البـلاد العربية ويتكلم اللغة العربية فهو عربى ، مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها وتابعيتها بصورة رسمية ، ومهما كانت الديانة التى يدين بهـا ، والمذهب الذى ينتمى اليه ، ومهما كان أصله ونسبه ، وتاريخ حياة أسرته •

---

(١) يستشهد ساطع بالنشيد المعروف :

بلاد العرب أوطانى — من الشام لبغدان

ومن نجد الى يمن — الى مصر فتطوان

ويقول ان ذلك يعبر عن شمول (بلاد العرب) تعبيرا فنيا رائعا (العروبة أولا : ساطع الحصرى ص ١١

والعروبة ليست خاصة بأبنـاء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم ٠

بل انها تشمل كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية ٠

سواء أكان مصريا أم كويتيا أم مراكشيا ، وسواء أكان مسلما أم مسيحيا ، وسواء أكان سنيا أم جعفريا أم درزيا ٠ وسواء أكان كاثوليكيا أم أورثوذكسيا أم بروتستانتيا ٠

٣ ـ حقيقة خاصة بالدول العربية :

ان الدول العربية القائمة الآن لم تتكون ولم تتعـدد بمشيئة أهلها ولا بمقتضيات طبيعتها وانمـا تكونت وتعـددت من جراء الاتفاقات والمعاهدات المعقودة بين الدول التى تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها ٠٠ والحدود الفاصلة بين الدول العربية لم تتقرر وفق مصالح البلاد وسكانها وانما تقررت بعد المساومات والمناورات الطويلة التى جرت بين الدول المستعمرة ضـمانا لمصالحها هى ٠ والفروق والاختلافات التى تشاهد الآن بين الدول العربية من حيث النظم الادارية والتشريعية والاتجاهات السياسية ، انما هى بأجمعها من مواريث عهود الاحتلال ٠ انها وليدة الاستعمار حديثة وعارضة٠

٤ ـ أما الحقيقة الرابعة التى ينبغى أن يعرفها أبنـاء الامة العربية حق المعرفة ويؤمنون بها أشد الايمان فهى عن الامة العربية٠

العرب أمة واحدة ، وما المصريون والعراقيون والمغـاربة ٠٠ الا شعوب وفروع لأمة واحدة هى الامة العربية ٠

رأى ساطع ان وضع هذه الحقائق الاربع أمام أبناء الامة العربية

هى الضرورة التى ينبغي علينا عملها كى نجعل من (المعزفة) سبيلا الى تقوية الايمان وتثبيت دعائمه فى الفكر العربى ٠

وانبرى ساطع فى ثورية لاتعرف المهادنة يهاجم ضعاف الايمان بالوحدة ، والقائلين باستحالة وضع البلاد العربية المترامية الاطراف تحت راية واحدة ، ويستشهد فى سبيل ذلك بما حدث فى بلاد أخرى غير البلاد العربية ، لقد خرجت البلاد العربية عن سلطان الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى لكننا نجد أن الايالات السلافية والكرواتية ، والسلوفنية ، البوسنة والهرسك عندما انفصلت عن الامبراطورية النمسوية اتحدت فيما بينها ، ومع المملكة العربية ومملكة الجبل الاسود ، فكونت بذلك دولة سلافية واحدة٠٠ أما الولايات العربية التى كان تعداد سكانها لا يختلف كثيرا عن تعداد يوغسلافيا فقد انقسمت الى دول عدة ٠

كذلك يستشهد ساطع بأندونسيا التى استقلت عن هولندا عقب الحرب العالمية الثانية ، وكونت دولة واحدة ، مع أن مجموع سكانها كان يبلغ فى ذلك الحين حوالى ٧٦ مليونا ، منتشرين على مئات من الجزر المتباعدة ٠

والباكستان كونت دولة واحدة عندما تخلصت من الاستعمار البريطانى مع ان جزءيها الشرقى والغربى ينفصل بعضهما عن بعض بأراضى هندية ، لا يقل طولها عن ألف وخمسمائة كيلومتر ، كذلك يضرب ساطع مثالا بالهند التى يبلغ سكانها أضعاف سكان الدول العربية ، ومع ذلك فهى دولة واحدة ٠

ثم يتساءل ما أسباب هذا التباين بين وضعنا نحن العرب والاندونيسيين مثلا ! ويرجع السبب فى ذلك الى أن أندونيسيا خضعت لاستعمار أجنبى واحد هو الاستعمار الهولندى بينما نكبت البلاد العربية باستعمار دول أوربية عديدة : فرنسا

وانجلترة في الدرجة الاولى ، ايطاليا وأسبانيا في الدرجة التانية . وتنوعت أساليب الاستعمار ما بين مباشر ومقنع بقناع الحماية أو الانتداب . وكافح كل جزء عن البلاد العربية على حدة فى سـبيل استقلاله ، وأدى ذلك الى تكوين حكومة وطنية فى كل جزء من هذه الاجزاء تتمتع باستقلال جزئى مقيد بقيود عديدة .

أما من يتوهم الوحدة العربية بأنها خيال محض ، فالرد عليه عند ساطع ان فكرة الوحدة العربية قد اجتازت طور الخيال المحض، والأمنية البعيدة المنال ، ودخلت فى طور التنفيذ والتحقيق . يقول ساطع : « لسنا الآن فى بداية الطريق المؤدى الى الوحدة بل دخلنا فيه فعلا » .

احداث التاريخ مؤيدة لفكرة الوحدة :

وفى مجال الرد على ضعاف الايمان بفـكرة الوحدة العربية واستحالة تحقيقها يتخذ ساطع من أحداث التـاريخ شاهدا ومؤيدا على أن الوحدة العربية آتية لا ريب فيها ، وأن ما حدث فى تاريخ العرب الحديث ينبىء عن قرب تحقيق هذه الوحدة .

الدليل فى ذلك عند ساطع ما حدث فى سورية عقب استيلاء الجيوش الفرنسية عليها عقب يوم ميسلون حين قضت تلك الجيوش على الدولة العربية القائمةفيها ، اذ قرر الجنرالغورو المندوب السامى الفرنسى والقائد العام للقوات الفرنسية تجزئة أراضى تلك الدولة ليتيسر له السيطرة عليها بأقل جهد مستطاع . ففى أول سبتمبر (ايلول) عام ١٩٢٠ سلخ عنها منطقة البقاع مع بعض المناطق الاخرى والحقها بلبنان ، ثم بعد أسبوع فصل عنها حلب وأنشأ بها دولة ، ثم بعد ذلك بمدة وجيزة أعلن قيـام دولة فى جبل العلويين ، وبعد بضعة أشهر أضافت فرنسا الى هذه السلسلة دولة جبل الدروز .

وظنت أن هذه الاجراءات ستضمن لفرنسا السيطرة على تلك البلاد بسهولة والى الأبد •

لكن تطورات الحوادث جاءت على عكس ما رغبت فرنسا فيه وتمنته • لقد أوجدت هذه التجزئة استياء شديدا في المحافل الوطنية ولذلك قرر ساسة فرنسا أن يخففوا من وطأتها بانشاء مجلس اتحاد بين دولتي حلب ودمشق ، ثم أخذ الفرنسيون يقومون بدعاية بغرض تعميـق الانفصـــال عند أهل حلب ، ولذلك أمر المندوب السامي الفرنسي باجراء انتخـــابات عامة لتأليف مجلس يقرر دستور دولة حلب •• وعند اجتماع المجلس قرر على الفور انهاء الانفصال والاتحاد مع دمشق ، ولم يجد المندوب السامي مفرا من الموافقة على توحيد حلب مع دمشق ، وجعلها جزءا من الدولة السورية اعتبارا من بداية عام ١٩٢٥ ، وبهذه الصورة انتهت دولة حلب بعد أن استمرت أربعة أعوام وبضعة أشهر •

أما دولتا جبل العلويين وجبل الدروز فقد طالت مدتهما بسبب احكام الفرنسيين القبضة عليهما وحكمهما حكما مباشرا ، وظل الحال كذلك حتى سنة ١٩٣٦ حيث كانت ثورات الوطنيين تقاوم الاستبداد الفرنسي ، واتخذت هذه الثورات شكلا مسلحا في بعض الاحيـان ، وبناء على اصرار الوطنيين وافق الفرنسيون على ضم جبل الدروز وجبل العلويين لسورية • ولكنه نظرا لعدم تصديق البرلمان الفرنسي على ذلك ظلت أوضاع هاتين الدولتين ، معلقة ومذبذبة الى أن قامت ثورة التحرير الاخيرة سنة ١٩٤٤ • وتم ضم الجبلين الى سورية بصورة نهائية•• وبهذه الصورة تكونت دولة سورية الحالية من اتحاد دويلات حلب ، دمشق ، جبل الدروز ، وجبل العلوين •

كذلك يستشهد ساطع بما حدث في المملكة العربية السعودية، كانت اراضي المملكة السعودية حتى العقد الثالث من القرن الحاضر

مقسمة بين أربع وحدات سياسية أمارة آل الرشيد شمال نجد ، سلطة آل السعود فى أقســـام أخرى من نجد ، المملكة العربيــة الهاشمية فى الحجاز ، امارة الادربيسي فى القسير •

ثم كان أن قام عبد العزيز آل السعود بعدة حركات عسكرية قضت على الاوضاع السياسية ولقد استغرق القضاء على هذه الأوضاع السياسية عشر سنوات :

أولا سنة ١٩٢١ : استولى على حائل ، وقضى على امارة الرشيد، ووحد بذلك جميع أقسام نجد •

ثانيا سنة ١٩٢٥ : استولى على الحجاز وقضى بذلك على المملكة العربية الهاشمية •

وفى سنة ١٩٢٦ : ادخل العسير تحت حمايته ، وفى ســـنة ١٩٣٠ استولى على سائر اقســـامه وقضى بذلك على امارة الادريبى وضم القطر المذكور أيضا الى المملكة •

وبهذا تكونت المملكة العربيـــة السعودية من اتحاد واندماج (امارتين وسلطنة ومملكة) ، وصارت تمتد لذلك من حائل الىالعسير ومن جدة الى الظهران •

ثم يتساءل ساطع هل ما حدث من توحيد هذه المناطق الأربع جاء وفقا لمصلحة الامة أو ضدها ؟ هل أصبحت أحسن مما كانت عليه أو أسوأ ؟

فمما لا شك فيه على حد قول ساطع انه لو بقيت هذه الدويلات لبقى التنازع • ثم يرتفع ساطع ويسمو السمو كله حين يبعد العاطفة جنبا ، وينزع عن نفسه حبه للملك الهاشمى حسين بن على ، ويقرر أن الحركات التوحيدية التى قام بهــا الملك عبد العزيز بن السعود انتهت الى أوضاع موافقة لمصلحة الامة العربية •

« أقول ذلك مع كل ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن على ٠٠ أقول ذلك لأنى أنظر الى القضايا القومية بنظرات مجردة من النوازع الشخصية واضع مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار ٠ لا اقول يا ليته (الحسين بن على) بقى على راس ملكه حتى مماته ، ولا اقول يا ليت المملكة التى اسسها بقيت قائمة الى الآن ، بل أقول ان ما حدث على يد عبد العزيز بن السعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الضرورية للسير فى سبيل تحقيق الوحدة العربية » ٠

وساطع الحصرى الذى يقول ذلك نعرف من تاريخ حياته انه كان وثيق الصلة بالملك الهاشمى حسين بن على ، ثم بابنه فيصل الأول ، فلقد خدم مع ابن الحسين (فيصل) فى سورية ثم فى العراق حتى وفاة الملك فيصل فى سنة ١٩٣٣ ٠

لكن الدارس لشخصية ساطع لا يأخذه العجب مما يقرره ساطع ومما يقوله ٠٠ فلقد عاش ساطع من أجل مثل أعلى ، وفكرة سامية ، لا تشوبها المصالح الشخصية ، ولا العلائق الفردية ، عاش ساطع من أجل قضية أكبر ولخدمة هدف أسمى ، وهذه هى العظمة كلها والاخلاص كله لأمته العربية التى بادلها ساطع حبا بحب ، ورأى أنها أحوج ما تكون للكلمة الجريئة المنزهة عن الهوى ، واذا كان هناك الكثيرون من أبناء الأمة العربية المعروف عنهم اخلاصهم لأمتهم ووفائهم لها ، فان هناك القلة المشككة التى تزيف الحقائق وتنشر الزيف والأراجيف ٠٠ رأى ساطع أن الامة العربية بحاجة الى الكلمة الصريحة التى لا تخدم مصلحة شخص ، وانما تخدم مصلحة الامة ٠٠ ذلك دين الأمة على أبنائها ، وواجب الأبناء البارين نحو أمتهم ٠

لقد رأى ساطع أن أقاليم سورية التى اتحدت لتكون الدولة السورية قادرة على أن تتحد مع غيرها من الدول لتكون وحدة للعالم العربى ، ورأى نفس الشىء بالنسبة للمملكة العربية السعودية التى

تكونت من اتحاد بعض الامارات العربية مع الحجاز الذى كان مملكة للحسين بن على .. وكانت نظرته الى القطر الليبى الذى تكون من برقه وطرابلس وفزان نفس نظرته الى المملكة العربية السعودية والى سورية والى غيرها من الأقطار العربية ، بمعنى أنه يرى أن اتحاد الدول العربية مع بعضها البعض شىء أشبه باتحاد أقسام القطر الواحد .

وأن الأمر ليس فيه استحالة أو صعوبة ، وانما الصعوبة فى نظرتنا نحن الى هذه الوحدة . نحن ننظر الى الوحدة بمنظار الاقليميا فنرى الصعوبات والعوائق بل لقد أصبحت كل دولة من الدول العربية بؤرة لوطنية خاصة بها أخذت تستقطب ولاء الاهلين لها ، ولذلك تولد فى كل واحدة منها (نوازع المحافظة على الكيان السياسى القائم) وما نسميه اليوم باسم الاقليمية ما هو الا مجموع هذه النوازع التى تعمل فى اتجاه يخالف مقتضيات الوحدة العربية ويعرقل انطلاقها.

ويتبين من ذلك ان الاقليمية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدولة ، حتى أصبحت هذه الاقليمية نتيجة طبيعية لتعدد الدول العربية ، ويفسر ساطع السبب الذى من أجله أصبحت الاقلمية نتيجة طبيعية لوجود الدول العربية بأن الحياة السياسية الداخلية والخارجية فى هذه الدول تغذى بطبيعتها النوازع الاقليمية .

فكل دولة من الدول العربية صارت لها معالم خاصة مشهورة وملموسة ، وسلطات مغلبة تظهر وتثبت وجودها بشتى المناسبات ، لكل دولة علم خاص بها ، وشرطة خاصة بملابس وشارات خاصة وجيش خاص ونشيد رسمى خاص وأوراق هوية وجواز سفر وأوراق نقدية ونقود خاصة .

وبتعبير أقصر صار لكل دولة من الدول العربية سلسلة من الأمور الخاصة بها ، يراها كل فرد منذ نعومة أظفاره ، ويألفها

ويرتبط بها نفسيا ، ويشعر من جرائها بانه يختلف عن غيره من أبناء الدول العربية الأخرى ·

وتصبح فكرة القومية العربية أمام تعدد الدول العربية مجرد فكرة فى الخواطر تختلج فى الصدور ولا تجد ما يدعمها ويقويها من طبيعة الحياة الادارية والسياسية القائمة ، بل قد تجد منها معارضة شديدة وتصطدم على الدوام بالنوازع الاقليمية ·

وفضلا عن ذلك فان هناك عوامل كثيرة فى رأى ساطع تقوى وتنمى النزعات الاقليمية وتضر بالفكرة القومية ، فكل دوله عربية لها قوانينها واقتصادها الخاص بها ونظمها التعليمية وثقافتها الخاصة واذاعتها وصحافتها ، وفوق هذا كله وأخطر منه انه يتكون فى كل دولة طائفة من الزعماء والحكام والساسة الذين ترتبط منافعهم ومطامعهم بالاوضاع السياسية القائمة فينزعون الى المحافظة على كيان الدولة ولا يرضون بذلك الكيان ، داخل دولة موحدة ·

ثم هناك الى جانب هذه العوامل الداخلية عوامل خارجية عديدة تعمل فى نفس الاتجاه وتقوى النوازع الاقليمية · فالدول الطامعة فى خيرات البلاد العربية ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والتخالف بين الدول العربية بل تعمل جاهدة على أن يزداد ويتفاقم · ولذلك تبذل كل ما فى وسعها من جهود لاثارة الروح الاقليمية فى مختلف البلاد العربية ·

والخلاصة التى يريد أن يصل اليها ساطع من ذلك كله ان الاقليمية وليدة تعدد الدول العربية ، وتعدد الدول العربية وليد الاستعمار ·

يجب على كل فرد عربى أن يكافح الاقليمية كما كان يكافح الاستعمار ٠

ويجب عليه أن يكافح الاقليمية أولا فى خبـــايا نفسه ثم بين بنى قومه بكل قواه ٠

ويجب ن ترسخ فى أذهان كل فرد عربى هذه الحقائق رسوخا تاما ولا يغيب عن باله أن الاستعمار الأوربى الذى جثم على صـــدر مختلف الأقطار العربية قد خلف قبل أن يزول كثـــيرا من البذور والآثار الضارة ٠٠ وان أخطر هذه البذور وأضرها هو تجزئة البلاد الى دول ودويلات عديدة وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة ، وتوجيه كل منها اتجاها يختلف عن اتجاه غيرها حتى استطاع أن يهيىء البيئة الصالحة لتنمية (الروح الاقليمية) فى كل واحـــدة منها ٠

موقفه من تجربة الوحدة بين مصر وسورية :

سعد ساطع السعادة كلها واغتبط كل الاغتباط يوم تحققت أول تجربة للوحدة بين مصر وسورية وأرسل له اكرم الحورانى يوم اعلان الوحدة برقية يقول فيها :

فى فجر هذا اليوم الذى يتحقق فيه الأمل بتحقيق وحـــده القطرين العربيين نتطلع الى الأحرار الملهمين الذين غذوا نفوس هذا الجيل بشعور القومية ليخبى فيهم روح الوطنية التى حملت هـــذا المشعل دون وهن فلكم شكر الوطن ٠

لكن التجربة الحبيبة الى نفس كل عربى واجهت ما كان ساطع

يحذر أبناء الامة العربية منه ، واجهت مقاومة من أصحاب المصالح الذين ترتبط مصالحهم ومنافعهم ومطامعهم بالنزعة الاقليمية، وواجهت حربا من جانب الاستعمار الذى ترتبط مصالحه هو الآخر فى تقوية الاتجاه الاقليمى واستمرار التباعد والتنابذ بين الدول العربية ٠

وكان لهذا كله ولغيره ان انتكست أول تجربة للوحدة فحدث ما ظل ساطع يصفه بخيانة ٢٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ من انفصال القطر السورى الشقيق من الوحدة التى ارتضاها ودعا اليها كل أبنائه المخلصين البارين بوطنهم وبأمتهم العربية ٠

وحين حدثت هذه الخيانة بادر ساطع دون هوادة يحمل فى تورية حملة شعواء على دعاة الانفصالية ٠ وجاء كتابه الاقليميـــة جذورها وبذورها يفضح كل من تناسى المبدأ فى سبيل السياسة ٠

لم يستبد اليأس بساطع يوم حدث الانفصال فما عرف عنه انه كان أسير اليأس فى يوم من الايام ٠ لقد كان يشعر ان واجبه هو أن يقوى روح التفاؤل بين أبناء الأمة العربية لأن الاستعمار كان من مهمته أن يبث اليأس فى مستقبل هذه الامة بين نفوس أبنائها ٠ ومن ثم كان أول واجب دعاه المصلحين فى هذه الامة أن يقاوموا روح اليأس وهذا ما فعله ساطع ونجح فيه ٠

رأى ساطع أن القومية العربية حركة ثورية لا بد أن تصطدم بردود الفعل من الخارج والداخل ، وان التحصن من ردود الفعل ان نعالجها بثورية لا تستسلم لفشل تجربة من التجارب ٠

وغداة الانفصال نشرت له جريدة الحوادث البيروتية رأيه فى خيانة ٢٨ من ايلول عام ١٩٦١ ٠

قال ساطع : « ان ايمانى بمستقبل الامة العربية الزاهـــر ووحدتها المحتومة ٠٠ لم يتزلزل ، على الرغم من النكسة الاليمة التى

منيت بها أخيرا ٠٠ وأما منطق البيان الذى أصدره بعض دعـــاة الانفصالية تبريرا لموقفهم فيشبه كل الشبه منطق من يقول :

هذا الوليد لا يزال غير سليم من العيوب ، فلنقتله الآن لكى نحييه بالشكل الذى نريده فى مستقبل الأيام » ٠

ولم يكن مهاجمة ساطع لأولئك الانفصاليين أساسه معارضته لحزب معين أو لنظام سياسى خاص ، فالمعروف أن ساطعا سما فوق كل الاحزاب فهو يقول :

« لم انتسب لأى حزب من الاحزاب السياسية لا فى العراق ولا فى سورية ، ان موقفى من الأحزاب السياسية موقف الباحث المنفرج بوجه عام »

هو مع كل حزب عربى ينادى بالوحدة العربية ، وضد كل حزب يعارض هذه الوحدة ٠

هو مع كل سياسى يسعى لهذه الوحدة ، وضد كل سـياسى يشكك فى أمرها أو يضلل بشأنها أو يتاجر باسمها ٠

أخذ ساطع يفند الاتهامات التى وجهت لتجـربة الوحدة ٠٠ هناك من رأى فى الوحدة انها حرمت المدرسين السوريين من أن يكون لهم دروس اضافية يتقاضون عنها راتبا ٠ هناك من رأى فيها انهـا أضرت بالمحامين لأنها وجدت لجان مصالحة فصار الكثيرون من أصحاب الدعاوى يحلون قضاياهم فى اللجان المذكورة فلا يذهبون الى المحاكم! وهناك من قال ان الوحدة كانت ظالمة وحين يسأله ساطع عن أى نوع من الظلم يقصد ، فيجيبه القائل انه كان صاحب قضية قضـائية فانتهى الحكم فيها الى حكم جائر وحين يسأله ساطع : وهل كان القـاضى مصريا ؟ يجيبه لا كان سوريا ٠ وهل القانون الذى حكم به وضع فى عهد الوحدة ؟ يقول لساطع لا كان القانون موجودا قبلها ٠

ويدهش ساطع وما علاقة هذه القضية بالوحدة ، ثم يقـــول

« لقد كنتم تنتظرون من الوحدة أن تأتي بالمعجزات كأنها تملك عصا سحرية تستطيع ان تغير كل الاحوال وتصلح كل الامور فى جملة واحدة ، فتحقق ما عجزت عن تحقيقه أرقى بلاد العالم ، وكأنها المدينة الفاضلة التى يسود فى أرجائها العدل المطلق والخير العميم .

كان ساطع وهو يتقصى الحقائق التى أدت الى الانفصال يريد أن يقف على أمور موضوعية فيخيب أمله من أن نظرة كل شخص للوحدة كانت نظرة من جهة مصالحه هو .

أما الساسة الذين أيدوا الانفصال وباركوه فقد أخذ ساطع يذكرهم بتصريحاتهم قبل الوحدة وأبانها وكيف باركوا هذه الوحدة وأيدوها .

ثم يتكلم عما عرف بالاخطاء التى بررت الانفصال أو تقـــال تعليلا له :

« اننى اعتقد ان كل من يربط بين الانفصال وبين الاخطاء يرتكب خطأ عظيما يدل على تقصير كبير فى الفهم السياسى ، فضلا عن ضعف شديد فى الايمان القومي . لأن الخطأ والصواب من الامور الدارجة فى الحياة الفكرية والسياسية ، فلا يسلم من الخطأ فى بعض الامور أى انسان ، مهما كان عظيما وعبقريا » .

يستنكر ساطع الحديث عما يعرف باسم الاخطاء لأن الخطأ من خصائص العاملين والعظيم ليس من لا يخطىء ولا يفشل أبدا ، بل هو الذى يعرف كيف يستفيد من الأخطاء ، ويصحح الخطأ . أن البحث فى الخطأ لمجرد معرفته أمر لا يقره انسان ، لكن البحث فى

الخطأ تمهيدا لاستخلاص الدروس العملية والاستفادة مما حدث أمر مفيد وضروري ·

ويشير ساطع في اكبار واحترام للنقد الذاتي الشامل الذي أوضحه الرئيس عبد الناصر وأعلن نتائجه الى الرأي العام في صراحة وشجاعة بعد نكبة الانفصال ·

ويصفه بأنه نقد ذاتي مشبوب بحرارة الايمان ومقرون بشجاعة أدبية لا مثيل لها في التاريخ · ويرى ان هذا النقد الذي أوضحه الرئيس يدعو الى الانحناء أمام هذا الاخلاص وهذه الصراحة بكل تقدير واعجاب واجلال ·

لم يكن لما حدث من نكسة تجربة الوحدة ليوهن من عزم ساطع بل على العكس زادته قوة على قوة ، واعطته مزيدا من الايمان بحتمية الوحدة ، برغم ما حدث من انفصال · فالوحدة عند ساطع كالنهر الذي لا بد أن يشق طريقه ، برغم ما قد يعترض طريقه من معوقات ·

أما الشكل الذي يتصوره ساطع للوحدة العربية ، فهو اتحاد يجمع بين هذه الدول يتوحد فيه دفاعها وتتوحد فيه سياستها الخارجية وثقافتها وأمورها الاقتصادية ·

يقول ساطع ذلك ويؤكده في رده على نقد وجهته له جريدة العمل اللبنانية التي كانت تعبر عن حال حزب الكتائب اللبنانية (١)

كذلك يقول ساطع في رده على سؤال وجهته له صحيفة أخبار اليوم في سنة ١٩٥٤ عن رأيه في الوحدة ، وكانت الصحيفة قد وجهت هذا السؤال لعدد من الكتاب والسياسيين · قال ساطع

---

(١) ارجع لذلك في كتاب ساطع : العروبة بين دعاتها ومعارضيها

في رده : أعتقد ان اتحاد الاقطار العربية العام سيكون ـ ويجب أن يكون على أساس « النظام الفدرالي » لا أشك في أنه سـيحدث (اندماج تام) بين بعض الاقطار ، ولكنى أعتقد أن ذلك لن يكون عاما ·

وأما (الامبراطورية ذات المركزية التامة) فيجب أن تستبعد من الأذهان لأن نظام المركزية الشديدة الذى ألفته الحكومات العربية القائمة الآن لا يتلاءم مع حاجات العصر الحديث ولا يضمن مصالح الشعوب الحقيقية ·

وأنا أعتقد بوجوب تخليص الدول العربية من المركزية التى اعتادتها الى الآن · فمن الطبيعى ألا أحبذ تأسيس مثل هذه المركزية فى الدول العربية العامة التى ستتكون من اتحاد هـذه الدول فى مستقبل الأيام ·

ثم هو يدعو الى الاعتماد على المجالس البلدية والمحلية فى ادارة البلاد العربية لأن عدم تقدم الحياة الديموقراطية الحقيقية في البلاد العربية يتأتى فى الدرجة الاولى من اهتمامنا بالانتخابات النيابية وحدها ، وعدم تقديرنا لوجوب الاهتمام بالمجالس المحلية » ·

ويؤكد ساطع أن قوله هذا لا يصح أن يؤخذ على أنه تعارض مع دعوة الوحدة مثلما حدث ذات يوم أن جاءه من قال له معروف عنك انك وحدوى تام فكيف تقول ذلك · ويرد عليه الحصرى بأنه ما قاله ليس فيه خروج على الوحدوية لأنه تكلم عن اتحـاد الأقطار العربية العام ، وأكد انه سيحدث اندماج تام بين بعضها غير ان ذلك لن يكون عاما من أول الامر ، ومن ثم يجب أن يكون بين هـذه الاقطار كلها اتحاد فدرالى (١) ·

---

(١) الاقليمية جذورها وبذورها : ساطع الحصرى ص ٧٩ · الطبعة الاولى

وهنا يتعين علينا توضيح حقيقة هامة وكثيرة ما اتخذت سبيلا لطعن ساطع فى آرائه · لم يكن ساطع فى دعوته الى اتحاد فدرالى بين الدول العربية يرمى من ذلك الى تثبت الفوارق الاقليمية بين هذه الدول ، وانما كان يستهدف من ذلك الا تكون هناك كما قال امبراطورية ذات سلطة مركزية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يريد أن تكون للمجالس المحلية والشعبية فى تلك الاقطار العربية سلطاتها ودورها الفعال ·

والدليل على ذلك انه هاجم فى سنة ١٩٦٢ المشروع الذى قدمه بعض الساسة فى سورية لاعادة الوحدة بين سورية ومصر والذى نشر فى مايو (آيار) من تلك السنة ·

جاء فى هذا المشروع ان يكون شكل الوحدة على النحو التالى :

دولة الوحدة دولة واحدة اتحادية برئيس واحد ونائب رئيس واحد حكومة اتحادية ومجلس نيابى ومجلس اتحادى ومحكمة اتحادية وادارات ومؤسسات ومجالس ولجان اتحادية ·

وان الشرط فى الرئيس ونائب الرئيس الا يكونان من اقليم واحد وانتماؤهما من الاقليمين يرمز الى التكافؤ بين الاقليمين ، والى المشاركة فى أمور الدولة الواحدة ·· أما الهيئة التشريعية فتتألف من مجلسين مجلس نيابى ينتخب على أساس عدد السكان ومجلس اتحادى ينتخب على أساس التساوى بين ممثلى الاقليمين ، وكل تشريع يصدر عن المجلس النيابى لا يقر الا اذا وافق عليه المجلس الاتحادى ، **وبهذا يضمن عدم تسلط الاقليم الكبير على الاقليم الصغير، ويتحقق تكافؤ الاقليمين بالدولة الواحدة ··**

هاجم ساطع هذا المشروع بكل قوة على أساس انه يهتم بالفوارق الاقليمية فهو مشروع يتكلم عن (واقع هذه الفروق) ويحتم

العمل على ضوء أحوال الاقليم الواقعية • لقد رآه مشروعا تم التفكير فيه بعقلية التجزئة كما قال وأعد بدوافعها ومن ثم فهو مشروع تطل فيه الاقليمية برأسها ، مآله الفشل ولا خير يرجى منه •

وحين يجد من يبرر الانفصال بأن الدافع اليه هو المحـــافظة على الكيان السورى ينبرى ساطع للرد على ذلك مستعينا بالخرائط فيقول ان ما يزعمه البعض من الوجود أو الكيان السورى أساسا لطعن فكرة الوحدة هو زعم لا أساس له من الصحة ولا سند له من التاريخ • فسورية الحالية بحدودها التى هى عليها حديثا لم تكتسب الا منذ الاربعينات من هــذا القرن بعد أن اندمجت اللاذقية وجبل الدروز وحلب مع دمشق على نحو ما سبقت لنا الاشارة اليه •

ومضى ساطع يحمل فى غير هوادة دفاعه عن قضية العروبة وعن ضرورة البذل فى سبيلها بكل غال • ويفند قول القــائلين بأن الشقاق طبع فى العرب •

بهذا كتب ساطع فى مجلة الرسالة جوابا على سؤال لصديقه الاستاذ الكبير أحمد حسن الزيات •

يسأله الاستاذ الزيات هل الشقاق طبع فى العرب ؟ فيجيب ساطع :

صديقى الاستاذ

لقد اطلعت على السؤال الذى وجهتموه الى فى مقالكم بعنوان : هل الشقاق طبع فى العرب ؟ يا صديقى الأستاذ لا يوجد فى طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر الامم فى الاتفاق والانشقاق

يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة ، كما يجب علينا ان نعتقد اعتقاد جازما بأن طبائع الامم لا تبنى على وتيرة واحدة على مر العصور ان الماضي لا يقيد الحال مطلقا ٠٠ يجب علينا أن نتخلص من نزعة الاشتغال بالماضي كثيرا وان نقلع عن الالتفات الى الوراء ٠ فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوينا الحالية بنقائص أسلافنا الاقدمين ٠ لا ريب ان حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التى منينا بها أخيرا كانت في منتهى الفظاعة (كتب ساطع ذلك بعد عام ١٩٤٨ مشيرا الى حرب فلسطين) ٠

ولا يريد ساطع ان يحلل الاسباب التى أدت الى نتائج حرب عام ١٩٤٨ فى فلسطين ، وانما يرى أن هناك سببا آخر ربما كان أبعد أثرا وأشد خطرا من كل ذلك هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم اقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم ، اننا لم نستجمع بعد قوانا المادية والمعنوية ونحشدها لتحقيق هدفنا الاسمى، بل اننا عملنا بتراخ وتردد بدون عزم قوى ٠٠ ومهما يكن الامر يجب علينا ، ألا نقطع الامل فى النجاح فى المستقبل وألا نتأخر عن اعادة الكرة بايمان عظيم ٠

ثم هو يرى ان العقبات فى سبيل تحقيق الآمال لا يجب أن تكون سبيلا الى القنوط واليأس فيقول : « يجب علينا ألا ننسى انه ما من أمة وصلت الى الكمال الذى تنشده الا بعد ان اجتازت عقبات كثيرة وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة ، واضطرت الى تضحيات كثيرة ٠٠ ان الأمم الحية الوثابة تتغظ بالنكبات فتندفع الى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ٠ وأستطيع أن أقول ان الايمان القوى والعظيم بامكانيات أمتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح مصحوبا بروح التضحية الحقيقية ومدعوما بالأمل الذى لا يقهر ، هى أهم ما يترتب علينا من واجبات

« وبناء على هذه الملاحظات أستطيع أن أقول بلا تردد : لا يجوز لنا ان نترك مجالا لتسرب الخور والقنوط الى أنفسنا ، ويجب أن نعلم علم اليقين ان النكبة لا تصل الى حدها الاقصى الا عندما تثبط العزائم ٠ فعلينا الا نستسلم للقنوط والخور » ٠

وهكذا ظل ساطع يبث الايمان فى نفوس أبناء أمته العربية ينزع عنهم روح اليأس ، ويبث فيهم روح التفاؤل، لكن التفاؤل الذى دعا اليه ساطع ليس تفاؤل التواكل المستسلم للأمور انما كانت دعوته الى تفاؤل مصحوب بالعمل ، تفاؤل نستفيد منه من أخطاء الماضى وتجارب الاحداث ، يدعونا ساطع أن نخرج من النكبة بالدروس التى تجنبنا الوقوع فيما وقعنا فيه من قبل ٠

ومع نكسة الخامس من يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ ظل ساطع الحصرى على ايمانه بأن الوحدة العربية هى الدرس الذى ينبغى أن نخرج به منها ، لقد هزت هذه النكسة ساطع من الاعماق لكنها لم تبلغ به اليأس ، لقد رأى ان العدو خطط لنفسه على أساس استحالة وحدة العرب فلا سبيل لمواجهته الا بوحدة تنسق بين امكانياتهم وتوفق بين جهودهم ٠

مصر والبلاد العربية عند ساطع :

كانت لمصر عند ساطع مكانتها الخاصة ومنزلتها الحبيبة الى قلبه، كان يشعر أنها بالنسبة للعالم العربى بمثابة القلب من الجسد لها مكانتها ولها فاعليتها ودورها الهام المؤثر فى هذا العالم ٠ اختار ساطع مصر للاقامة فيها بعد أن اعتزل المناصب ، وظل فيها حتى سمح له الرئيس الراحل عبد السلام عارف بالعودة الى العراق فأقام هناك حتى توفى ٠

لكن الذين كانوا على صلة بساطع عن قرب يعرفون تماما مدى

ما كان يكمنه لمصر من حب وغيرته عليها ودفاعه عنها • ومنذ أقام ساطع في البلاد العربية (١٩١٩) وهو دائم التردد على مصر لا يترك فرصة تسنح له الا وقدم لزيارتها ، أو أقام فيها باحثا فى نظمها متقصيا فى أحوالها •

سافر الى مصر سنة ١٩١٩ •• فى بداية عمله فى سورية بغية لاطلاع على أحوال مدارسها والكتب المدرسية المطبوعة فيها على نحو ما سبق لنا ذكره • وبعد خروجه من سورية عقب احتلال الفرنسيين لها • قام فى مصر واتخذ له بيتا فيها حتى دعاه فيصل الأول للعمل فى العراق • ثم تتابعت زيارته لمصر أثناء عمله فى العراق فجاء اليها سنة ١٩٣٥ عندما عين مراقبا عاما للتعليم العراقى ، جاء ساطع الى مصر موفدا من الحكومة العراقية لتنظيم العلاقات الثقافية بين البلدين •

ثم جاءها سنة ١٩٣٧ •• عندما كان مديرا للآثار القديمة موفدا من الحكومة العراقية لحضور مؤتمر الحفريات الدولى الذى انعقد فى القاهرة ، وقد انتخبته منظمة التعاون الفكرى التابعة الى عصبة الأمم الى عضوية لجنة المتاحف الاممية • ومر بمصر فى عام ١٩٣٩ خلال عمله فى مديرية الآثار القديمة حين سافر الى افريقيا الشمالية لدرس الآثار العربية فيها حيث زار المغرب والجزائر وتونس وانتقل منها الى صقلية وزار ايطاليا •

ثم سافر ساطع الى مصر سنة ١٩٤٦ عندما كان مستشارا فنيا لوزارة المعارف فى سورية حيث استفاد من أجازته السنوية التى لم يكن قد استنفدها وجاء الى مصر حيث زار أماكنها الاثرية وسافر الى الاسكندرية والأقصر وأسوان •

ثم أقام فيها ساطع بعد أن ترك عمله فى سورية مدة قاربت العشرين عاما حيث كان يعمل بالجامعة العربية ومعهد الدراسات

العربية العالية ، ثم اختارها بعد أن استقال من كل أعماله وتفرغ للبحث والتاليف •

مصر عند ساطع عربية لحما ودما وحين يسأل السائل ساطعا : متى كانت مصر مع العرب ؟ فيجيبه على الفور ومتى كانت مصر بعيدة عن العرب ؟ يكتب ساطع فى مجلة الرسالة ناقدا لنظام التعليم فى مصر وينهى بحثه بقوله :

ارجو الا يعتبرنى احد متطفلا على مصر بهذه الملاحظات ، فانى عربى صميم ، أدين بالعروبة التى تملأ كل جوانحى واهتم بمصر قدر اهتمامى بسورية والعراق • ولا اكون مغاليا اذا قلت اننى اهتم بمصر اكثر مما اهتم بسورية والعراق ، لانى اعرف ان مصر بحسب اوضاعها العامة اصبحت القوة المؤثرة على العالم العربى بأجمعه • فأعتقد لذلك ان كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية ، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية ، فكل خدمة تسدى الى مصر انما تسدى الى البلاد العربية جميعها » •

ثم يناقش ساطع ما أثاره بعض المفكرين المصريين عما اذا كانت على مصر أن تتجه نحو الرابطة الافريقية ، أو رابطة البحر الابيض المتوسط ، أو الجامعة الاسلامية •

ويناقش ساطع هذه القضايا التى أثارتها صحيفة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٩٥٠/٣/٢١ بسؤال للأستاذ فتحى رضوان قال فيه : « من أنا ومن انت ؟ لست أسأل عن اسمى أو اسمك أو صناعتك أو عملى أو عملك وانما أسأل من يكون هؤلاء الذين يقيمون فى هذه الرقعة من الارض التى تسمى مصر ؟ فهل المصريون عرب ؟ وهل هم عرب جنسا عرب سياسة أم عرب ثقافة ؟• أم هؤلاء المصريون افريقيون ؟ أم هم من أهل البحر الابيض المتوسط؟

فسياستهم وثقافتهم وتقوم على تقوية العلائق السياسية والثقافية بدول وشعوب هذا البحر ولا سيما دول الجزء الشرقى والجنوبى منه ؟ أم هؤلاء المصريون من أوربا وبلادهم قطعة منها كما كان يقول الخديو اسماعيل ؟ » ٠

ولبى الاجابة على سؤال الاستاذ فتحى رضوان عدد كبير من الكتاب والسياسيين ونظمت دار الهلال ندوة اشترك فيهـــا عدد من الشخصيات المصرية الكبيرة فى ذلك الحين ٠

بادرساطع يناقش هذه القضايا ، ويقول : قد يعترض على معترض ان السؤال موجه الى المصريين والمقصود منههو حمل المصريين على التفكير فى قضاياهم القومية فلماذا تحشر نفسك فى هذه المناقشة وانت لست من المصريين ؟

ويجيب ساطع على ذلك مؤكدا ما كان يقوله فى كل مرة : .انه يهتم بمصر قدر اهتمامه بسورية والعراق أو بأى بلد عربى ، انه يعرف أن لمصر دورها المؤثر والفعال فى العالم العربى ، فهو حريص على مصلحتها حرصه على مصلحة كل بلد عربى ٠

ثم يتساءل ساطع : اذا كان من المعلوم ان مصر تقع فى أقصى الشمال من القارة الافريقية فهل يحتم وضعها الجغرافى على المصريين ان يعتبروا أنفسهم من الشعوب الافريقية ؟ وهل يترتب على مصر من جراء هذا الوضع ـ أن تجعل الرابطة الافريقية محورا لسياستها العامة فتسعى وراء توحيد شعوب هذه القارة ؟

يجيب ساطع على ذلك بقوله : لا يجوز للمصريين أن يعتبروا بلادهم افريقية محضة وساطع بقوله ذلك لا يقصد ان يهمل المصريون أمور القارة الافريقية ولا العمل على تنسيق سياستهم وأمورهم مع سياسة وأمور اخوانهم الافريقيين ، لكنه يرمى الا تكون السياسة

المصرية موجهة على أساس ان مصر بلد افريقي محض فتنسى ما عداه من أمور ·

وساطع حين قال هذا وقرره في الاربعينات من هذا القرن كان يبغي أن يجعل المصريين غير منطويين على أنفسهم يشعرون بعروبتهم وبأن مصر جزء لا يتجزأ من العالم العربي ·

يقول ساطع : « لقد تعرضت البلاد العربية المختلفة في الماضي القريب ولا سيما خلال العقد الثالث من القرن الحـــاضر ـ لاحداث وعواصف سياسية عديدة ومتنوعة ·

« خلال تلك السنين كان معظم الأقطار العربية ـ ولا سـيما القطر المصري ـ منطويا على نفسه لا يهتم بما يحدث في غيره ، ولذلك بقيت تلك الأحداث خارج نطاق اطـــلاع معظم المثقفين واهتمامهم في مختلف البلاد العربية » ·

ويقصد ساطع من اثارة هذه القضايا « ان ينير السبيل أمام تفكيرنا السياسي ويساعد على توجيهه الوجهة السليمة في بحـــر القضايا العربية الذي يزداد تلاطما يوما بعد يوم ·

هو اذا لا يدعو مصر أن تنسى انها جزء من القارة الافريقية وأن مصيرها مرتبط بمصـــير هذه القارة ، لكنه يدعوها الا يكون ذلك سببا في ان تنسى إنها جزء من عالم عربي تحيط به العواصف وتسيطر عليه المطامع الاستعمارية ، فينبغي على مصر أن تؤكد وجهها العربي وسياستها العربية وثقافتها العربية ·

وهذا يوضح قوله « واذا أمعنا النظر في وضع مصر من حيث اللغة والثقافة وجدنا أنها (مصر) تقع في وسط عالم عربي واسع الارجاء يمتد من شواطيء المحيط الاطلسي في الغرب الى هضـــاب ايران في الشرق » ، فمصر من هذه الوجهـة عنده قريبة جدا من

الوجهة الثقافية من البلاد العربية ثم هو يستعين بما قاله الباحثون الجيولوجيون ان مصر تؤلف (وحدة طبيعية) مع الجزيرة العربية وسورية ووادى الرافدين ٠

كذلك ينكر ساطع على القائلين قولهم بأن مصر تنتمى الى رابطة البحر المتوسط ويقول ان هذه الفكرة لاتنتمى الى تفكير علمى صحيح٠ ويحذر المصريين من ان تجد هذه الفكرة قبولا لديهم « انى أحذر المصريين من ان ينخدعوا بهذه الآراء السياسية المقنعة من ان يفكروا فى جعل شئون البحر الابيض المتوسط محورا لسياسة مصر الداخلية أو الخارجية » ٠

ان الساعين الى بث هذه الفكرة استهدفوا من ورائها فى نظر ساطع ابعاد المصريين عن فكرة العروبة اذ قالوا لهم (للمصريين) لا علاقة بينكم وبين العرب ٠ أنتم من شعوب البحر الابيض المتوسط مثلنا ٠

كذلك كان موقف ساطع من نفس الفكرة القائلة بالرابطة الاسلامية ٠ هو لا ينكر ان الرابطة الاسلامية أهم وأقوى بكثير من الرابطة الافريقية ورابطة البحر المتوسط على أساس أن الربطة الاسلامية رابطة معنوية تستمد قوتها من العواطف الدينية ٠

وموقف ساطع على هذ النحو مرجعه كما سنبين عند حديثنا عن أسس القومية عنده ٠ ان الدين وان كانت له أهميته ودوره الفعال ، لكنه عند ساطع ليس بأحد الاسس التى تبنى عليها القوميات ٠ فالمصريون ليسوا كلهم مسلمين ومن ثم فهو يؤكد ان الرابطة الوطنية والقومية يجب أن تتقدم ـ بهذا الاعتبار ـ على الرابطة الدينية فى الشئون السياسية ٠

كذلك يرى ساطع أن عصر القرن العشرين هو عصر انفصلت

فيه العلائق السياسية عن العلائق الدينية واختلفت عنها اختلافا كليا ٠

ثم هو يستعين بأمثلة التاريخ التى تثبت ان الاتفاق فى الديانة بين الدول لم تمنع من نشوب الحروب فيما بينها ٠ فمثلا فى سنة ١٨٥٤ اتفقت انجلترة وبروسيا وسردينا مع السلطنة العثمانية ضد روسيا وأرسلت هذه الدول جيوشها وأساطيلها الى القرم لتحارب بجانب الجيوش العثمانية المسلحة ضد روسيا المسيحية ٠٠ كذلك نجد ان ايطاليا لم تحجم عن الاغارة على الحبشة مع ان الامبراطورية الحبشية كانت مسيحية مثل ايطاليا ٠ ثم هناك حركة مصطفى كمال فى تركيا ومساعدة روسيا له ضد اليونان ٠٠ كل هذا يستشهد به ساطع للدلالة على ان الدين لم يعد هو الباعث لحركات الدول ٠ فاذا ما خشى ساطع ان يعترض عليه معترض بأن ما يقوله قد يكون صحيحا بالنسبة الى العالم الغربى ، ولكنه غير صحيح بالنسبة الى العالم الاسلامى ، يقول فى معرض الرد على ذلك : ان الامم الاسلامية كثيرة ومتنوعة ومنبثة فى أقطار متباعدة من طنجة فى الغرب الى أقاصي الصين والجزائر الاندونيسية فى الشرق ٠

ولم يحدث فى التاريخ ان أتحدت مصر مثلا مع أندونيسيا أو نيجيريا فى أى عهد من العهود الاسلامية ، وهى لم تتحد حتى فى العصور التى كان الشعور الدينى يسيطر خلالها على كل شىء ويطغى على السياسة فى كل الاقطار ٠ فكيف بهذا العصر الذى تعقدت خلاله العلائق الدولية تعقدا هائلا وتباعدت عن الاعتبارات الدينية تباعدا كبيرا ؟

ويرى ساطع انه حتى فى الامم الاسلامية المتقاربة بعضها لبعض مثل العرب والترك والفرس قد اختلفت فى الماضى وما زالت تختلف

فى الحاضر فى الأمور الثقافية وفى الاتجاهات السياسية

وأنا أعلم ان هناك من يختلف مع ساطع فى رأيه فى الاسس التى تكون القوميات ، لكنه يجب أن نكون نظرتنا لآرائه نظرة تضع فى حسابها ان ساطع عاش من أجل فكرة واحدة ملكت عليه فؤاده وأمسكت بزمام نفسه ، وعاش مدافعا عنها مناضلا من أجلها ، تلك هى فكرة العروبة ، وأنه بدأ يدعو الاقطار العربية الى أن تؤكد وجهها العربى ، وسياستها العربية ، وايمانها بالكيان العربى فى وقت لم تكن فكرة القومية العربية ســـوى ضوء خافت باهت فى نفوس أبناء الأمة العربية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن

وجاء ساطع يدعو للفكرة القومية العربية وينبه لها ويجسمها ويدعو بها ، وكان تركيزه فى دعوته على مصر التى كانت النزعات المختلفة تتجاذب أبناءها ٠٠ هناك من يؤكد أصلهـا الفرعونى ، وهناك من يخرج بفكرة رابطة البحر المتوسط أو الرابطة الاسلامية وغيرها ، بينما الرابطة العربية لا تجد تأييدا قويا بين المصريين ٠

ومن هنا كان دور ساطع وفضله الكبير وتحمسه لفكرة الرابطة العربية التى تربط مصر بالبلاد العربية ٠

يرى ساطع ان المصريين بأجمعهم يتكلمون ويتخاطبون ويتفاهمون باللغة العربية ومن ثم فهم (عرب) بهذا الاعتبار ٠

ولا مبرر للتساؤل عند ساطع فيما اذا كان المصريون عربا جنسا ودما لأنه من الحقائق الثابتة التى يؤكدها انه لا يوجد على الارض أمة ينحدر جميع أفرادها من أصل واحد ٠

ولما كانت اللغة ٠ أهم الاسس فى تكوين القوميات عنده ولما كانت لغة المصريين هى العربية فجميع المصريين يتكلمون باللغـة ولا يوجد بينهم جماعة تبقى خارج نطاقه هذه الرابطة ٠

لهذا السبب يترتب على مصر من وجهة نظره « ان تخصص لشئون هذا العالم الموقع الاول فى سياستها الخارجية مع العلم أن هذه السياسة يجب أن تتحول بالتدريج من سياسة خارجية الى سياسة داخلية . ويجب على مصر ان تسعى وراء توحيد العالم العربى وان تكون أشد العاملين اندفاعا فى هذا السبيل » .

وينتهى ساطع الى القول الى أنه ينبغى التأكيد بأن مصر عربية ومستقبلها مرتبط بمستقبل العروبة أشد الارتباط ، ويترتب على المصريين أن يقولوا نحن المصريين عرب ، مصر وطننا الخاص والعالم العربى وطننا العام مصر وطننا الأصغر والعالم العربى وطننا الأكبر .

على المصريين أن يقولوا ذلك ، ويؤمنوا به ، ويعملوا وفق ما يقتضيه هذا القول وهذا الايمان .

ثم هو لا ينكر على المصريين حقهم فى اعطاء المزيد من الاهتمام لما فيه مصلحة مصر أولا وذلك للرد على القائلين بانكار فكرة العروبة على أساس من زعمهم انه ينبغى الاهتمام بما فيه مصلحة مصر فقط . يرى ساطع ان كل تقدم يحققه القطر المصرى يعود بالنفع على جميع البلاد العربية فهو لا ينكر على المسئولين فى مصر ان يعطوا مزيدا من الاهتمام لما فيه مصلحة مصر فان مصلحة العرب مع مصلحتها وكل ضرر يصيبها يصيب العرب .

أما القائلون بالنزعة الفرعونية فلا يمكن لاحد أن ينكر فضل الحضارة الفرعونية وان افتخار المصريين بهذه الحضارة لا يتعارض مع افتخارهم بحضارتهم العربية ، هذه الحضارة التى يقول عنها ساطع انها لم تكن خاتمة لماض سحيق ، بل هى فاتحة لمستقبل باهر .

وهذا المستقبل الباهر سيشـهد قيام الدولة العربية المتحـدة مع تقدم الآمة العربية الناهضة نحو أعلى مراتب العلم والحضارة ٠

كان ساطع يقول ذلك للمصريين فى وقت كانت هناك اصوات ترتفع بان المصريين مصريون أولا وأخيرا وكان هناك من يقول نحن مصريون قدماء ولا شيء غير ذلك فانبرى للرد على هؤلاء يقـول لهم أنتم عرب أولا : انا اعرف ان المصريين الذين يقولون ذلك قليلون الآن ٠ ولكننى لا أشك فى أن عدد هؤلاء سيزداد بسرعة ٠ كلما ازداد اتصال مصر بسائر البلاد العربية وكلما تعمق المفكرون والكتاب فى درس (مصالح مصر الحقيقية ، المادية والمعنوية) وفى بحث (تاريخ مصر) بنظرات قومية واعية ، متحررين من الاراء القبلانية المـوروثة من العهـود الماضـية التى وجهت تلك الابحاث أسوأ الاتجاهات ، وأبعدتها عن جادة الصواب ٠

وستظل الاجيال فى مصر تذكر بالعرفان والتقدير فضـل ساطع ونضاله وحرصه على تأكيد الوجه العربى لمصر ، وتثبيت دعائم القومية العربية فيها ، ودعوته المستمرة والمتكررة للمصريين أن يكونوا جنودا لهذه القومية ، ودعاة لها مؤمنين بها مدافعين عنها ٠

كان ساطع يرى أن فى الشعوب العربية قوى كامنة يمـكن أن تتحول الى قوى فاعلة اذا ما بذل الجهد فى هذا السبيل ٠ ووجه الاهمية فى ذلك انه نادى بالوحدة العربية فى وقت كان اليأس قد بلغ مداه عند الكثيرين من ابناء الأمة العربية ٠

وحين يبلغه أن البعض يعارض فكرة الوحدة على أساس ان العرب

---

(١) جاء هذا القول على لسان الاستاذ فكرى اباظة فى رده على السؤال الذى وجهته أخبار اليوم والذى سبقت الاشارة اليه ارجع الى كتاب سـاطع الحصرى : العروبة أولا ص ١١٥ ٠

ضعاف والوحدة لن تفيدهم في شيء ، ينبري ساطع لتنفيذ ذلك مؤكدا ان اتحاد شعوب الامة العربية ليس بمثابة ضم اعداد الى اعداد بصورة حسابية ، ولا ربط شيء بأشياء بطريقة ميكانيكية ، ولا ضم مساحة الى مساحات بصورة هندسية ، انما يكون بمثابة خلق كائن جديد وعضوية جديدة تصبح فيه الشعوب المتحدة بمثابة الاعضاء في البدن الواحد • ثم يقول ساطع • علينا ان نكف عن اعتبار انفسنا وشعوبنا اصفارا •• وعلينا ان نكف عن تشبيه قضايا اتحاد الأمة بعمليات جمع الاعداد •

ويرد على القائلين بان الوحدة العربية حلم جميل أبعد ما يكون عن التحقيق خصوصا بعد حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ • يقول ساطع: أفلا يحق للقائلين كذلك ان يعكسوا هذه القضايا فيقولون : ان تحقيق الوحدة العربية أصبح من أوجب الواجبات علينا ، لأننا خسرنا حرب فلسطين ولم نحل دون قيام اسرائيل التي تهدد مستقبلنا في عقر دارنا ، في مسرة حياتنا • يجب أن نسرع في العمل لتحقيق الوحدة العربية ، لكي نستطيع أن نحارب في المستقبل صفا واحدا كرجل واحد • وأكرر هنا ما كنت قلته من قبل اننا خسرنا حرب فلسطين لأننا كنا سبع دول واضيف الى ذلك الآن يجب علينا أن نتعظ من دروس حرب فلسطين ، فنسعى لتكوين دولة عربية متحدة لكي لا نخسر في حروب المستقبل » •

كان ساطع يقول ذلك في سنة ١٩٥٥ • ولقد مضى على قوله ذلك أربعة عشر عاما ، وما أظن اننا بحاجة لشيء مثل حاجتنا لما قاله ساطع ونادى به • حين يسأل عن سر خسارة العرب لحرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، مع انهم كانوا سبع دول يرد على الفور انهم خسروا الحرب لانهم كانوا سبع دول ولم يكونوا دولة واحدة •

واذا كان ساطع قد غادر هذه الحياة الدنيا فان آراءه وأفكاره

باقية خالدة على مر الزمن ، والوحدة العربية التى نادى بها أصبحت تفرض نفسها هـذه الأيام كضرورة ملحة لا مفر منها فى مواجهـة المعركة المصيرية التى تفرض نفسها هذه الايام على الوطن العربى ٠ وما أظن احدا يستطيع ان يقول ان هناك بغير هذه الوحدة سبيلا الى درء الخطر الاستعمارى الصهيونى الذى يبذل هذه الأيام كل جهده ليفرض ارادته على الأمة العـربية ٠ لقد رسـم الاسـتعمار والصهيونية سياستهما على أساس أن هناك فرقة تفرق بين العرب ولا سبيل لتحبيط خططهما الا بوحدة تجميع شمل العرب فى معركة المصير ٠

وهذا ما نادى به ساطع وظل يدعو اليه ، يجب على كل فـرد أن يكافح الاقليمية كما كان يكافح الاستعمار ، ثم نجـده يقول : ما اسعد الامم التى حققت وحدتها القومية وما أشقى الامم التى ظلت بعيدة عن تحقيق وحدتها القومية ٠ ، ان أخطر واخطر البذور التى تركها الاسـتعمار هو تجزئه البلاد (العـربية) الى دول ودويلات عديدة وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة ٠

وحين قامت الثورة المصرية فى الثـالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، كان ساطع اسعد الناس بقيامها لقد رآها تحرر البلاد من عهود الفساد والخمول والاسـتسلام ٠ يقول الحصرى : « أما مصر بعد أن كانت بعيدة كل البعد عن التفكير فى سياسة عربية أخذت تشعر بعروبتها بصورة تدريجية ، حتى ان شعورها هذا أخذ يزداد بسرعة ويضطرم اضطراما ، بعد كارثة فسلطين (١٩١٨) التى ايقظت النفوس النائمة من سباتها العميق ـ ولا سـيما بعد قيام

(ثورة ١٩٥٢) واعلان الجمهـورية التى حررت البـلاد من عهود الفسـاد والخمول والاستسلام وقيضت لهـا زعيما شابا يتوق الى الاصلاح ويؤمن بالعروبة ويعمل بروح ثورية · وانتهت الجمهورية المصرية الى اعتناق (العروبة) بصورة رسمية وأخذت تعمـل فى فى سبيلها على رءوس الاشهاد بحزم وثبات » ·

الفصل الخامس

القومية عند ساطع

تعد الدراسة التى قام بها ساطع الحصرى عن القوميـــة من أوسع وأعمق وأغزر الأبحاث التى قام بها أى باحث تعرض بالدراسة للحركات القومية ، كذلك تعد هذه الدراسة بالنسبة لساطع محور كل أبحاثه فهى من هذه الناحية اهم وأعظم ما قام به من دراسة •

ومرجع اهتمام ساطع بدرسة القومية أنه كان يؤمن ان الايمان بالقـــومية العربية مكمل له بل من لوازمه أن يتوسع أبنـــاء الأمة العربية فى دراسة الفكر القومى حتى يتحقق هذا الايمان ويرسخ ولا تعصـــف به العواصـــف فتقتلعه أو تهب عليه الرياح فتلقى به جانبا •

وضع ساطع نصب عينيه هدفا ،واعتنق فكرة ، وآمن برسالة ، واختط لنفسه خطا ، ووجه مجال نشاطه من أجل أمنية عزيزة غالية عند كل عربى آمن بأمته وبشعبه وببنى قومه •

لقد عاش ساطع من أجل خدمة قضية القومية العربية فسعى الى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية عن طريق دراسة أسس هذه الوحدة •

ومن هنا جاءت مؤلفاته العديدة التى تناول فى بعضها القومية

والوطنية بصورة مباشرة مثل كتابه (آراء واحاديث فى الوطنية والقومية) وبحثه الذى اسماه (ماهى القومية ؟) وجمع فيه المحاضرات التى ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية فى هذه الناحية وكتابه الذى خصصه لنقد أراء كثير من الكتاب عن القوميات واسماه (حول القومية العربية) • ولقد توجه الكثيرون بالسؤال لساطع أن يزودهم بقائمة عن مؤلفاته التى تتناول موضوع القومية فرتبها لهم حسب درجة ماجاء فيها من حديث عنها ••

يقول ساطع : سألنى البعض ان أزوده بقائمة تامة عن مؤلفاتى التى تحوم حول موضوع القومية العربية وبناء عليه ارتب مؤلفاتى المتعلقة بالقومية على النحو التالى :

اراء واحاديث فى الوطنية والقومية ـ محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ـ ماهى القومية ؟ آراء وأحاديث فى القومية العربية ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها ـ العروبة أولا ـ دفاع عن العروبة ـ صفحات من الماضى القريب ـ آراء واحاديث فى اللغة والأدب ـ آراء واحاديث فى التاريخ والاجتماع ـ حول وحدة الثقافة العربية ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ـ يوم ميسلون ـ آراء واحاديث فى التربية والتعليم ـ آراء وأحاديث فى العلم والأخلاق حولية الثقافية العربية ـ رسائل الى بول مونرو ـ تقارير عن أحوال المعارف فى سورية ـ واقتراحات فى اصلاحها •

واهم ما يسجله التاريخ لساطع أنه وضع للقومية العربية أسسا علمية ووجه الأنظار اليها وأشاع الروح فيها وقوى الايمان بها • كان ذلك خطه الذى رسمه لنفسه ومنهجه فى ابحاثه وكانت تلك عقيدته • حين يعمل فى مجال التربية والتعليم يسعى لبعث العامل القومى وتقويته ويضع المناهج الدراسية التى يراها كفيلة بتحقيق ذلك ، وحين يضع تقارير الاصلاح لخطط التعليم يضع

نضب عينيه الخطط الكفيلة بتقوية الشعور القومى وتغذيته . وحين يعمل فى غير ذلك من مجالات فالمهم عنده هو كل ما يعود على الفكر القومى ، وكل ما يقوى دعائمه مثلما رأينا مجهوده فى هذه الناحية حين كان يعمل فى الآثار فى العراق مثلا .

كان ساطع يؤمن بأن القومية العربية ولدت متأخرة بسبب الاحتلال العثمانى للبلاد وما كان للسلطان العثمانى خليفة المسلمين من نفوذ معنوى كان كفيلا بتأخير حركة القومية العربية ، وظهور حركات مناوئة للقومية العربية مثل حركة الجامعة الاسلامية فهو يقول :

« لقد اعتدنا أن ننظر الى التاريخ العثمانى كامتداد للتاريخ الاسلامى ، وصرنا لا نشعر باننا أبناء أمة مغلوبة على أمرها مستسلمة لسلطان أجنبى عنها . نسينا أن لنا قومية خاصة متحيزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين ، حتى اننا لم ننتبه الى ان هذه الأمة أخذت تفقد شخصيتها بسبب اهمال لغتها » .

يبدأ ساطع فى دراسة للقومية العربية بتوضيح معنى كلمة قومية وقرينها فى اللغات الأجنبية حتى لا يحدث لبس وتشويش على عقول المثقفين العرب كما يقول ساطع ـ وهم يقرءون عن القومية باللغات الأجنبية .

يوضح ساطع أن الفرنسيين أصبحوا يستعملون كلمة ناسيونالزم بمعنى غير معنى القومية وأصبحوا يقصدون منها الوطنية وصاروا يطلقونها على الأحزاب اليمينية أو صاحبة النزعة الوطنية المتطرفة على الرغم من كون هذه الأحزاب مخالفة لمبدأ القوميات . فاذا ما جاء القراء العرب يقرءون عن القومية قرءوا ما كتب تحت كلمة ناسيونا لزم فقد وقعوا فى خطأ كبير . ويقترح ساطع لمنع هذا

التشويش على ذهن القارىء ان تسمى النزعات والمذاهب التى تتصل بمبدأن القوميات بما (الناسيونا ليتارزم) على أن نترك كلمة ناسيو نالزم الى المعنى التى اعطتها اياها الأحزاب السياسية فى فرنسا وايطاليا ٠

أسس القومية عند ساطع :

اولا ـ اللغة :

يأخذ ساطع بوجهة النظر القائلة ان أس الاساس فى تكوين الأمة هو وحدة اللغة ، والمعروف ان أشهر من نادى بهذه النظرية المفكر الالمانى هردر Herder الذى عاش ما بين ١٧٤٢ ـ ١٨٠٣م ٠ قال هردر : ان اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل به وتحفظ فيه وتنتقل بواسطة أفكار الشعب ٠ وان قلب الشعب ينبض فى لغته ٠ ويقتبس ساطع فى ابحاثه أقوال هذا الفيلسوف الألمانى ويؤيدها ولا سيما قوله هل لشعب ماثروة أثمن من لغة اجداده ٠ فى تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين وفيها ينبض كل قلب الشعب ويتحرك كل روحه ٠

كذلك يدرس ساطع آراء واقوال الفيلسوف الألمانى الشهير فيخته Fichte الذى أخذت دراساته اهتماما خاصا باللغة والمعروف ان فيخته أخذ يؤكد على عامل اللغة فى بناء القوميات خلال محاضراته فى جامعة برلين ، كما أخذ يؤكد للالمان تمسكهم بلغتهم كسبيل الى بعثهم أمة ناهضة تنبض فيها روح القوة والنشاط ٠

ويناقش الحصرى فى استفاضة بالغة دور المستعمرين ـ يقينا منهم بأهمية اللغة ـ فى احلال لغاتهم محل لغات البلاد المفتوحة ٠ وابرز مثال على ذلك دور الفرنسيين فى الجزائر حين احلوا اللغة الفرنسية محل اللغة العربية فى المعاملات والتعليم والثقافة ٠٠ فلقد

جاء فى احد التعليمات التى صـــدرت فى أوائل الاحتلال الفرنسى ما كتبه مسئول فرنسى : ان ايالة الجزائر لن تصبح حقيقة ممتلكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا هناك قومية : ثم يخلص ســـاطع الى القول ٠٠ لما كانت اللغة بمنزلة القلب والروح من الامة فان الشعوب التى تتكلم لغة واحدة تكون ذا قلب واحد وروح مشتركة ، ولذلك تكون أمة واحدة ويجب عليها اذا ان تكون دولة واحدة ٠

وتلك هى القضية التى تبناها ساطع ولم يرض عنها بدلا ٠ يرى ساطع ان اللغة هى أس الاساس فى تكوين القـــوميات ثم هو يرد ردا مستندا الى دراسة علمية على المعارضين لهـــذا القول ٠ فالمعارضون لساطع فى اتخاذه اللغة أساسا للقومية يستندون فى قولهم الى ان هنـــاك دولا مثل سويسرة وبلجيكا جمعت بين ابنائها وحدة قومية على اختـــلاف لغاتهم ، وهـــناك دول انفصلت بعضها عن بعض على الرغم من وحدة لغاتها ، مثل دول أمريكا الشـــمالية والجنوبية ٠ ونجد ساطع يناقش حالة كل دولة على حدة ، يتناولها بالدراسة التاريخية والارقام والبيانات والتى يخلص منهـــا جميعا الى أن وجود مثل هذه الدول لا يتعـــارض مع القول بأن اللغة هى الاساس الاول فى الكيان القومى ٠

ففى سويسرة يتكلم الاهالى اللغة الالمانية والفرنسية والايطالية ولم يحدث ان تجزأت الى دول عديدة حيث تكون كل من هذه الدول وحيدة اللغة والسبب فى ذلك كمـــا يوضـــحه ساطع أن خصائص سويسرة الجغرافية تجعل من المستحيل تجزئتها الى دول عديدة ، وأما اقتسامها بين الدول المجاورة فيصطدم بمشاكل دولية هائلة ، ويخل بالتوازن القائم بينهم اخلالا خطيرا ٠

وبناء على ذلك اتفقت كلمة الدول على ان بقـــاء سويسرة على حالهـــا كدولة عازلة ومحـــايدة أوفق لمصلحة الجميع ٠ وتوصل

السويسريون الى ايجاد نظـام حكم خاص بهم يضمن لجميع طوائف السكان التعايش والتآزر مع المحافظة على ما لكل منها من لغة وثقافة وخصائص تمام المحافظة ، فالاتحاد السويسرى يتألف من عدد من المقاطعات السويسرية (الكانتونات Cantons) حيث تتولى حكومة الاتحـــاد الشئون الخارجية والدفاع الوطنى وبعض الامور المتعلقة بالمواصلات التى تهم جميـع الكانتونات • ويترك للكانتونات ماعدا ذلك من شـــئون حيث أصبح لكل منها شعارها وعلمهـــا الخاص ودســـتورها • وممـــا تجب ملاحظته ان تشـــكيلات الكانتونات السويسرية وتقسيماتها راعت مقتضيات اللغة الى أقصى حد فاغلبها وحيد اللغة • ويخلص ساطع من ذلك الى القول ان سويسرا دولة لا أمة ، دولة تضم عدة قوميات واحوالها لا يمكن أن تتخـــذ ذريعة للتقليل من شأن اللغة فى حياة الامم والدول •

فاذا ما انتقل ساطع من الحديث عن سويسرة الى بلجيكا — التى يتخذها المعارضون لعامل اللغة كأساس فى بنـــاء القوميات — انها تتكون من شعبين مختلفين الفالون Wallons والفلامان Flamand يتكلم الاول الفرنســـية ويتكلم الثـــانى الجرمانية • ولم ينصهر الشعبان فى قومية واحدة وبرغم الحركات الاجتماعية التى قام بها الفلامان منذ سنة ١٨٤٠ وتذمر الفلامان من الاوضاع المجحفة بهم واحتجاجهم على سياسة تغليب اللغة الفرنسية على لغتهم ، وبرغم ثورة عام ١٨٤٨ مما اضطر الحـكومة الى تاليف لجنة لدرس مطالب الفـــلامان ، وتقديم الاقتراحات اللازمة بشأنها وحركات الاحتجاج والمطالبة التى ازدادت شدة بعد سنة ١٨٧٠ ، واضطرار الحـكومة الى الاعتراف بكثير من الحقوق للفلامان ، برغم هذا كله لم يحدث انصهـــار واندماج بين الشعبين الفالونى والفلمندى اللذين يتكون منهما سكان بلجيكا •

أما الولايات المتحدة الامريكية والقول بان سكانها يكونون أمة

منفصلة عن انجلترة برغم ان لغة سكان البلدين واحدة فالرد عند ساطع هو الظروف التاريخية التى تكونت فيهـا الولايات المتـحدة الامريكية ٠ فلقد بدأ نزوح المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية من أوربا وفصل المحيـط الاطلسى بينهم وبين وطنهـم الأم.، وكان هذا المحيط فى وقت قدوم المهاجرين يسبب فاصلا شاسعا بسبب عدم تقدم وسائل المواصلات على النـحو الذى صارت عليه الآن ٠ ولم تصبح اللغة الانجليزية اللغة البيتية عند جماعات كثيرة جدا من الامريكيين الا فى وقت حديث نسبيا ٠

وبعد أن يناقش ساطع تاريخ الحركة الاسـتقلالية الامريكية ويبين احصاءات بالمهاجرين الذينقدموا الى الولايات المتحدة الامريكية قبل اعلان حرب الاستقلال ينتهى الى القول ان هؤلاء المهاجرين لميتم انصهارهم وتمـازجهم الا على مراحل طويلة وبصـورة تدريجية ، ويخلص الى القول ان سكان الولايات المتحدة الامريكية انحدروا من مختلف الاقطار الغربية وتكونوا تكونا خاصا خلال مدة قرن وثلاثة أرباع القرن ــ فى ظروف استثنائية لا مثيل لهـا فى سائر أنحاء العالم ٠

ومن ثم فليس من المعقول على حد قول ساطع أن تعتبر قضية انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن المملكة البريطانية دليلا على عدم ارتباط القومية باللغة ٠

وما دامت اللغة لها هذه الاهمية عند ساطع على اعتبـار انها الاسـاس الاول الذى يسبق ما عداه من أسس فى تكون القوميات ، فلقد صار من المنتظر أن تحظى اللغة العربية باهتمام كبير وواسع من جانبه ٠

والمعروف ان ساطعا لم يكن من علماء اللغة كمـا قال هو عن نفسه ولا من رجال الادب ولكنه أعد الكثير من الابحاث حول اللغة

العربية على أساس انها العامل الاول والاساس الهام في كيان القومية العربية · يقول ساطع « : اضطررت الى القيام ببعض الابحاث اللغوية والى اطالة التأمل في قضـايايا ها ـ تارة بنظرات تربوية وتعليمية ، وطورا بنظرات علمية واجتـماعية وقومية ، وذلك بشتى المناسبات وفي مختلف الاوقات · وقـــد توصلت بذلك الى طـائفة من الآراء والملاحظات نشرت بعضها في بعض المجلات ، وتركت بعضها الآخر في حالة مذكرات ومسودات » ، ثم جمع ساطع عددا من هذه الابحاث التي نشرت والتي لم تنشر في كتابه الذي أسماه (آراء وأحاديث في اللغة والادب) ·

وينبرى للرد على القائلين بأن اللهجـات الموجودة في البـلاد العربية دليل على واقع التجزئة بين هذه البلاد · يفند ساطع ذلك ويقول : أنا لا أسلم بوجود لهجة عراقية متجانسة مثلا عند حدود العراق ومختلفة عن لهجة الجيران والاخوان(١) ·

ثم تشغله قضية الفصحى والعامية · حين تتحد الدول العربية هل سيتكلم الناس اللغة الفصحى وينبذون العامية · يشعر ساطع بصعوبة ذلك خصـــوصا وأن قواعد الفصحى في حالتها الحاضرة معقـــدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعدا كثيرا · فالعرب اليوم بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع الناس في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية· ووضع العرب اليوم على هذا النحو مخالف من وجهة نظره لمقتضيات الحياة القومية السليمة من وجوه عديدة :

فان كل أمة من الامم تحتـــاج الى لغة موحدة تزيدها تجاوبا وتماسكا فتكون بهذا الشكل لغة موحدة ، لان مهمة اللغة لا تنحصر

(١) العروبة بين دعاتها ومعارضيها : ساطع الحصري ·

فى ضمان التفاهم بين المتخـاطبين الذين يعيشون فى قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم واحد أو قطر واحد ، بل هى ضمان التفاهم ووسيلة المكاتبة والمخاطبة بين جميع أبناء الامة ومن ثم نفتقر نحن العرب اليوم الى (لغة) يتفاهم بها جميع الناس فى جميع الاقطار العربية ٠

ثم يناقش ساطع الســبيل الى ذلك : هل هو نشر لغة من اللغــات الدارجة أى لهجة من اللهجات العامية على جميــع البلاد العربية ؟ ذلك أمر غير منطقى وغير عملى ٠

اذا لا مفر من السعى وراء نشر اللغة الفصـحى بين جميع طبقات الشعب فى كل قطر من الاقطار العربية ٠

لكن قواعد اللغة العربية الفصحى فى حالتها الحـاضرة وكما يراها ســاطع معقـدة كل التعقيد فيتساءل : ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى ونشذبها تشذيبا معقولا يكسبها شيئا من السـهولة من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية ٠ أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعيما يبعدنا عن حذلقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس فيوصلنا الى فصحى متوسطة ومعتدلة ٠

ويرى ساطع ان السبيل الى ذلك هو أن نبدأ بدراسة للمعاجم العربية ٠ فهو ينظر الى هذه المعاجم على أساس انها تحتوى على كثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد أحد يشعر بحاجة الى استعمالها ومقابل ذلك فهى خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الادباء والعلمـاء فى أهم آثارهم العلمية والأدبية ، ومع ذلك يرى ان واجب علماء اللغة هو دراسة اللغات العامية واللهجــات المحليــة المنتشرة فى مختلف البلاد العربية ٠ ما أنواعها ؟ وما هى خصــائص كل نوع منهــا من حيث الكلمات والالفاظ والتعابير ؟ وما هى حدود انتشــار كل واحدة من تلك

الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ؟ لا يوجد بين الكلمات الدارجة فى بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ٠

وفضلا عن ذلك يطالب ساطع علماء اللغة أن يتتبعوا التطورات التاريخية لها ٠ فمن المعلوم ان اللغة كائن حى ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات ٠ فان نظرة فاحصة سريعة الى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية فى مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا ، منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى — يكفى للتأكد على ان اللغة تتطور ٠ فلقد حدثت تطورات كثيرة فى لغة الدواوين ، لغة الصحف وفى لغة التخاطب ٠ ويخلص من ذلك الى انه لا ينبغى أن تبقى الأبحاث اللغوية محصورة بين صحـــائف الكتب والمعـــاجم المعلومة بل يجب أن تخرج الى ميـــادين الحياة الاجتماعية تدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ فى تلك الميـــادين بصورة فعلية ٠ وكان علماء اللغة القدماء على حد قوله يتجولون بين القبائل يدونون ما يسمعونه وما يلاحظونه ، فلا ينبغى لعلماء اليوم أن يتقاعسوا عن العمل فى هـــذا الســـبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى فعلينا أن نعلم علم اليقين ان تغيير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميســـها ٠ فاذا ما انتهت هـــذه الدراسة النظرية للمعاجم والعملية للحياة الاجتماعية لا بد أن يبدأ على الفور وضع معاجم جديدة مختلفة عن المعاجم القديمة والحالية ٠

ويلاحظ ساطع على المعاجم الحـــالية كثيرا من أوجه النقص ، ومثال ذلك أنها ما زالت تضـــع للاشتقاق الوضع الاول من الاعتبار فتهتم بانساب الكلمات قبل كل شىء وفوق كل شىء فلا تقترن بشىء من حق الاستقلال للكلمات المشتقة ٠ ويورد الامثلة لكثير من الكلمات التى ليس لها كيانها المستقل فى معاجمنا حتى الآن ٠ مثـــال ذلك

كلمة الاستقلال ما زالت المعاجم تعتبرها تابعة لكلمة (قل) • ويتعجب ساطع كيف ان كلمة كهذه لها تأثيرها الكبير فى النفوس وتتكرر مئات المرات فى القصائد الوطنية والأناشيد المدرسية وفى الصحف والاذاعات ليس لها كيان فى قواميسنا ؟ وعلى كل من يريد التعرف اليها فى القاموس أن يطرق باب (قل) • وهناك مئات من الكلمات غيرها مثل كلمة الاقتصاد ، المدرسة ، الاستراحة ، الاستئناف •

يقول ساطع : « أنا لا أدرى بماذا انعت معاجمنا لاتباعها هذه الخطط العوجاء وسكوت علمائنا عن هذه النقائص الفادحة • غير اننى أميل الى تعليل هذا الاستمرار وذلك السكوت بتأثير عاملين اساسيين :

أولا : عمل قانون الالفة الذى يجعل الانسان لا يشعر بأكره الروائح ولا ينتبه الى أفدح النقائص عندما يألفها ألفة طويلة ولاسيما عندما تكون ألفته هذه اجتماعية •

ثانيا : عمل روح المحافظة على القديم والحرص على بقائه على قدمه •

اننى أعتقد ان الخروج على هذه النزعات والعادات بوضع معاجم عصرية بالمعنى المشروح آنفا ـ أصبح من أهم الواجبات التى تجب على رجال العلم والتعليم ، ومحافل اللغة والادب ووزارات التربية والمعارف ـ فى جميع البلاد العربية »

أما الخطة التى ينبغى السير عليها لوضع هذه المعاجم فهى كما يراها :

أولا : وضع معجم مختصر يحتوى على الكلمات التى يستعملها الناس ، ويحتاج اليها طلاب المدارس الابتدائية ، ترتب فيه الكلمات حسب نظام حروفها الهجائية ، ويكتب ازاء كل واحدة منها معناها

الاصطلاحي ، كمـا يشار الى مادتها الاصلية ، والى كيفية اشتقاقها من تلك المادة ٠

ثانيا : تبذل الجهود لتنظيم معجم أكثر تفصيلا من ذلك يكون مرجعا لطلاب المدارس الثانوية والعالية ، ورجال الطبقة المثقفة بوجه عام على أن يرجع الى المجلات العلمية والادبية عند تعيين كلماته ٠

ثالثا واخيرا : يجب السعى لوضع معجم مفصل عـام يتضمن جميع الكلمات المستعملة فى الكتب القديمة والحـديثة على اختلاف أنواعها وتواريخها ٠ وأما المعاجم القديمة فتبقى كمراجع أساسية يرجع اليها العلماء والاختصاصيون ٠

وتمنى ساطع أن تظهر هذه المعاجم على وجه السرعة ٠ كتب فى سنة ١٩٥٧ يقول : « أنا لا أدرى كم يكون طول المدة التى ستمضى بين كتابة هذه الاسطر وبين ظهور هذه المعاجم ٠ لا أدرى ماذا يكون مبلغ نوع المساهمة التي يؤديها كل من الكتاب والناشرين والهيئات العلمية والدوائر الرسمية فى تحقيق هذا المشروع عن طريق العمل المباشر أو التشجيع أو المساعدة ٠٠ ومع هذا أتمنى من كل قلبى أن تتضافر جهود الافراد والهيئات والحكومات فى هذا السبيل بكل الوسائل الممكنة لكى تقر أعيننا بمعاجم عصرية من هذا القبيل ٠٠ قبل أن يمضى وقت طويل » ٠

لقد كان ساطع فى دعوته الى القومية العربية يرى ان أقـوى رباط وأمتنه بين أبناء الامة العربية هى لغتهم ٠ وكان حريصا إن يظل هذا الرباط قويا متينا لكنه يرى اللهجات المحلية واللغـات العامية تهدد هذا الرباط اذا لم يتحرك علماء اللغة لعمل شيء من شانه وقف هذا الخطر ٠ ومن ثم آخذ يطالبهم المرة تلو المرة بذلك ٠ والعجيب ان ساطعا الذى ذكر فى مقدمة كتابه (آراء وأحاديث فى اللغة والادب) انه ليس باللغوى ولا بالأديب قد خرج علينا بأبحاث

قيمة فى اللغة والادب معا فى هذا الكتاب اعترف وما زال يعترف بفضلها رجال اللغة والادب • فهو يبحث فى الادب العربى ونظرية الاقليمية فيه وينكر هذه الاقليميه فى الأدب العربى ، وان لم ينف التنوع فى هذا الادب ، كذلك يدرس اللغة اللاتينية دراسة مقارنة باللغة العربية ، ويرد على القائلين أن حالة العربية الفصحى الآن لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديما ومصيرها سيكون شبيها بمصير اللغة المذكورة حتما • ويفند قول القائلين أنه ما دامت اللاتينية الأصلية ماتت واندثرت بعد أن كانت لغة العلم والادب فى معظم بلاد الغرب فلا بد أن يحدث ذلك للغة العربية ، وأنه من الخير أن تتوحد الجهود لجعل العامية لغة الكتابة والعلم والادب • يعقد ساطع المقارنة التاريخية بين العربية واللاتينية •

وبعد بحثه الموسع فى هذه الناحية يجمل الفوارق العظيمة التى ميزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ويرجع هذه الفوارق الى عدة عوامل منها ان اللغة العربية لم تتعرض الى هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت اليها اللغات الرومانية(١) (وهو المصطلح الذى اتفق عليه الباحثون لتسمية اللغات واللهجات التى نجمت عن اختلاط اللاتينية بلغات البلاد التى فتحتها الامبراطورية

---

(١) يستدرك ساطع ذلك ويخشى ان يرد عليه معترض على هذا القول وعلى مايبروه من ان البلاد العربية لم تبتل بتفتت سياسى فيفسر ذلك تفسيرا تفصيليا فى كتابه آراء واحاديث فى اللغة والادب ان اللغة العربية قد تعرضت لغزوات لكنها لم تكن بالدرجة ولابالعنف الذى تعرضت له اللغات الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية على البلاد التى كانت فيها اللغات الرومانية . كذلك ابتليت البلاد العربية بتفتت وانقسام لكن هذا التفتت لم يصل الى درجة التفتت التام الذى حدث فى العالم الغربى حيث أصبحت كل مدينة وكل مقاطعة مستقلة ومنطوية على نفسها (ارجع الى صفحات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من كتابه آراء واحاديث فى اللغة والادب) .

الرومانية) كذلك يرى ساطع ان البلاد العربية لم تبتل بتفتت سياسى وادارى واقتصادى مثل الذى إبتليت به البلاد الرومانية فى عصور الاقطاع الطويل • وأهم من هذا كله ان الديانة الاسلامية حفظت اللغة العربية من الاندثار ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات •

ويبدو أن ساطعا أراد أن يضرب المثل لعلماء اللغة على أن فى الامكان عمل شيء كثير مما نادى به ، فهو يسافر الى تونس ويدرس اللهجة التونسية ، ويقارن بينها وبين اللهجة المصرية ومن المعروف أنه سافر الى تونس لدراسة الآثار المتعلقة بابن خلدون كما سبق لنا ذكر ذلك ، لكنه يريد أن ينهز فرصة وجوده فيها ليدرس لهجة البلاد ، ويكتب عنها بحثا تحت عنوان (قطوف لغوية فى تونس ١٩٥٠) سرد فيه ملاحظات حول الأمور اللغوية فى تونس ، ويأتى بنماذج من البيانات والاخبار التى تنشر فى الجريدة الرسمية والصحف اليومية بهدف اعطائنا فكرة واضحة عن الاسلوب الرسمى السائد فى تونس •

ومن قبل زيارته تونس بسنوات زار ساطع الاندلس سنة ١٩٢٦ وحرص على أن يدخلها من الجنوب من جبل طارق والجزيرة الخضراء متصورا نفسه مرافقا للجيوش العربية ، وهى تتقدم فى غزوها لهذا البلد العريق • ويسعد كل السعادة وهو يلاحظ الاسبانيين ينطقون كثيرا من الكلمات العربية فى كلامهم ، ويبحث فى عدد الكلمات العربية الباقية فى اللغة الاسبانية ويستفسر من أحد مستشرقى الأسبان عن ذلك ويرجع الى القواميس الاسبانية التى تذكر نحو خمسة آلاف كلمة ، وأما الكلمات العربية الاصل الدارجة بين الناس فلا تقل عن الألف •

كذلك يدرس ساطع أسماء الشهور فى البلاد العربية ويشرح سر اختلافها • هذا كله الى جانب دراسته للنحت فى اللغة العربية والمصطلحات العلمية فى هذه اللغة •

ونجده يقول : نحن نعتقد أن التوسع فى النحت أصبح من أهم حاجات اللغة العربية ونظن أيضا أنه لا سبيل بدون ذلك الى اغنائها بما تحتاج اليه من الاصطلاحات العلمية · المتنوعة الجديدة · اننا لا نقصد من (النحت) تركيب الكلمات العربية من بعض الجذور الأعجمية ـ كما يقترحه بعض الكتاب ـ بل نقصد (النحت الاصولى) الذى ادخل فى اللغة العربية عددا غير قليل من الكلمات والتعبيرات المختزلة مثل بسملة ، حبرمة ·· تلك الكلمات والتعبيرات المختصرة التى تفتقر العلوم الحديثة الى أمثالها افتقارا شديدا ·

ثم هو يدرس مشكلة كتابة الاعلام الاجنبية بالحروف العربية ويرى أنها تتطلب مزيدا من الاهتمام والعناية ، ذلك أنه اذا جاز لنا ان نتصرف فى الكلمات التى نقتبسها من اللغات الاخرى كما يحلو لنا · فنفرغها فى قالب عربى ، ونلفظها كما نلفظ سائر الكلمات العربية ، الا أنه لا يجوز لنا أن نتصرف فى الاعلام مثل هذا التصرف ، فلا بد من ان نلفظ أسماء الاشخاص والمدن والانهار والجبال ·· كما يلفظها أصحابها دون تحريف ، ثم يتساءل ما هى السبيل أن نجعل القارىء العربى يلفظها من غير تحريف أو تغيير ؟ ويرى أن ذلك ينبغى أن يكون مثار اهتمام الباحثين يدرسونها ويعالجونها بعناية بالغة · وفى مجال كتابة هذه الاعلام يرى ساطع أنه من المستحسن المفيد جدا ان تكتب باللغة اللاتينية بجانب كتابتها بالحروف العربية فى جميع الكتب التى تفوق مستوى الدراسة الابتدائية وفى جميع المطبوعات الى تخاطب المثقفين الذين يعرفون الحروف اللاتينية وذلك لضمان لفظ تلك الأعلام وفق ما يلفظها اصحابها ·

وما أظن أن أحدا ينكر على ساطع فضله الكبير واهتمامه الواسع باللغة العربية فلقد رأينا عندما درسنا دوره فى مجال التربية والتعليم مدى حرصه على أن ينال تدريس اللغة العربية الحظ

الاوفى والقسط الأكبر بين المواد الدراسية خاصة في المراحل الاولى من التعليم ورأيناه يجاهد في سبيل عدم تعليم الطفل في البلاد العربية لغتين في وقت واحد حرصا منه على أن يتفرغ اهتمامه الى لغته القومية ، ثم مررنا مرورا سريعا على أبحاثه في اللغة والادب كما سنرى عند حديثنا عن الثقافة العربية ودوره فيها مدى ما أداه ساطع من خدمة للغة العربية • ومرجع ذلك الاهتمام كما سبق القول انها عنده الرباط الاساسى بين أبناء الامة العربية ، وان هناك من يبذل الجهد في سبيل أن يكون هذا الرباط واهنا ضعيفا حتى لا يلتئم الشمل وتتم الوحدة العربية المنشودة •

ومن هنا كانت اللغة العربية عند ساطع ـ وهى اللغة القومية للعرب ـ لها كل الاهتمام وفائق العناية ، خاصة وأن لغتنا العربية من وجهة نظره تجتاز طور انتقال وانقلاب بعد عهد ركود وجمود ، فلا يجد ابن اللغة العربية أمورها مهيأة له ، وسبل التعبير معبدة أمامه ، فيضطر الى تولى بعض الابحاث اللغوية بنفسه ، والى التفكير في الكلمات والتعابير التى يحتاج اليها في أبحاثه وكتاباته ، ومن ثم كانت اللغة العربية وهى في حالتها الحاضرة بحاجة الى اهتمام جميع المفكرين والباحثين واللغويين منهم وغير اللغويين •

ثانيا ـ التاريخ :

أما الأساس الثانى في تكوين الامة وبناء القومية عند ساطع الحصرى فهو وحدة التاريخ بعد وحدة اللغة •• فهو يرى أن الوحدة في التاريخ واللغة هى التى تؤدى الى وحدة المشاعر والمنازع ، ووحدة الآلام والآمال ، ووحدة الثقافة •• وبكل ذلك يشعر الناس أنهم أبناء أمة واحدة ، متميزة عن الأمم الأخرى •• اللغة عنده تكون روح الأمة وحياتها والتاريخ يكون ذاكرة الامة وشعورها •

واذا كانت اللغة عند الحصرى هى الروح والحياة ، فان التاريخ

هو الوعى والشعور . ويرى أن الأمة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها هى بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد غاط فى نومه ، مريض فى حالة اغماء . ان اهمال التاريخ القومى عند ساطع بمثابة الاستسلام للذهول . ونجده يكتب فى العدد الثالث من مجـــلة العربى الصـــادر فى فبراير عام ١٩٥٩ ، ان الوقائع والانقلابات السياسية التى توالت منذ قرن ونصف قرن والأبحاث الاجتماعية التى تناولت تلك الوقائع والانقلابات طول هذه المدة ، دلت دلالة دلالة ناطقةعلى أن العناصر الاساسية فى تكوين القومية هى وحدة اللغة ووحدة التاريخ وما ينتج عن ذلك من مشاركة فى المشاعر والمنازع وفى الآلام والأمال ولا شك فى ان جميع الناطقين بالضاد ، جميع ابناء البلاد العربية تتوفر فيهم هذه العناصر والمقومات الأساسية ولذلك فهم يكونون أمة واحدة . وأما الدول والدويلات ، والامارات والمشيخات العديدة التى انقسمت اليهـا البلاد المذكورة ، والحدود التى فصلت بين هذه الأقسام المختلفة ، فليست الا عوارض طارئة، نتجت عن مصالح السياسة الاستعمارية ، فلا بد من أن تتهدم وتتلاشى أمام تيار العروبة الجارف . ومن دواعى الغبطة والابتهاج أن هذه الحقائق الهامة صارت تنتشر خلال السنوات الاخيرة ، بسرعة كبيرة ، فى مختلف الاقطار العربية ، وأخذت تتغلغل فى نفوس مختلف طبقات شعوبها ، وتتحول الى الايمان بوحدة الامة العربية، على الرغم من تعـدد دولها . « فيحق لنا أن نبتهج أشد الانتهـاج بتطور فكرة القومية العربية بهذه الصورة ، الى عقيدة سياســية واجتماعية تترسخ فى النفوس ، وتتغلب فيها على النزعات الاقليمية الناجمة عن الظروف السياسية الماضية » .

كذلك نجد ساطع يفند قول القائلين المشككين فى الفكرة القومية سواء منهم من استخف بالفكرة ذاتها أو حاول زعزعة الأسس التى

تقـوم عليهـا أو طالب بتغيير اتجاهاتها • فهو يناقشهم على ضوء الحقائق التاريخية والاجتماعية •• فاذا كان هنـاك من يقول ان البشرية قد اجتازت مرحلة التنظيم القومى ، ووصلت الى مرحـلة (التكتل الأممى) واذا كان هناك من الكتاب العرب من يقـول انه لا يليق بنا ونحن نعيش فى القرن العشرين ان نواصل السير وراء الفكرة القومية ، فكل هذا القول فى غير مصلحة الأمة العربية على الاطلاق •

وكان الرد عند سـاطع على أقوال هؤلاء ان الامم الأوربية اذا كانت حقا قد وصلت الى مرحلة التكتل الامى ، انما وصلتهـا كل واحدة منها فى حالة (دولة قومية مستقلة وموحدة) ولم تتخل عن شخصيتها المتميزة لغيرها فى أوضاعها الجديدة • فيجب على العرب كذلك أن يحققوا وحدتهم القومية لكى يستطيعوا المحـافظة على شخصيتهم فى التكتلات الامية التى يتكلم عنها هؤلاء الكتاب•

ويشبه ساطع قول القائلين بأن عصر القوميات قد انتهى نظرا لانتهائه فى أوربا — بقول من يذهب الى أن موسم الامطار قد انتهى من العالم — نظرا لانتهائه فى بعض الاقطار من الكرة الأرضية أو بقول من يظن إن الموسم الذى تنضـج فيه الأثمار قد فات نظرا لانتهاء نضوج الأثمار فى بعض الأشجار ، ويشبه ساطع الشعوب بالأشجار التى لا تثمر كلها فى وقت واحد بعضها يتقدم عن بعض كذلك فان اليقظة القومية ليست من الامور التى تحدث وتتحقق فى عصر معين أو موسم محدد •

ثم هو يناقش من يعارض وحدة التاريخ كأساس للقومية على أساس انه من النظريات البالية وان الأساس الحقيقى للقومية بوجه عام وللقومية العربية بوجه خاص وحدة الصراع أو كما يعبر عنه البعض (هو الحاجة الى توحيد العمل للتغلب على العدو المشـترك الرابض أمام الجميع) •

لا ينكر ساطع أن الوحدة في الصراع فى سبيل القضاء على العدو المشترك ممايزيد شعوب الامة وأفرادها تماسكا على تماسكها، ولكن ذلك لا يمكن أن يعتبر أساسا لتكوين القومية بوجه من الوجوه فالصراع ضد العدو المشترك قد يجمع دولا وقوميات مختلفة مع بعضها مثل حركة الكفاح ضد المانيا النازية عندما استلزم اتفاق انجلترة والاتحاد السوفيتى وغيره من الامم والدول ثم ما ان انتهى خطر العدو حتى انتهى التحالف الذى كان قد تولد من وحدة الصراع ٠ ولا يمكن من وجهة نظر ساطع ان يكون الاساس فى تكوين القومية قائما على مواجهة خطر فحسب ، فاذا ما انتهى الخطر تفككت أوصال الامة ٠ لا بد للأمة من روابط أقوى وأمتن باقية أبد الدهر ٠

يقول ساطع ، وغنى عن البيان أن الوحدة التى تهدف اليها فكرة القومية العربية ، الوحدة التى تنجم عن وحدة اللغة ووحدة التاريخ ، وما ينتج عن ذلك من وحدة المشاعر والمنازع ووحدة الآلام والآمال ، لا يمكن أن تتعرض الى مثل هذه التقلبات ، بل تكون (وحدة طبيعية تستمر مدى الحياة) لأنها تكون فى حقيقة الامر ـ مظهرا من مظاهر حياة الأمة نفسها ٠

وليس معنى ذلك أن ساطعا ينكر دور وحدة الصراع وأهميته فى ميدان السياسة العربية لكن الوحدة العربية التى دعا اليها وكان يتوق الى أن يراها قائمة لا تهدف الى توحيد العرب لغاية معينة هى مواجهة خطر صراع قائم فحسب ، وانما وحدة فى جميع الأعمال والمساعى وبتعبير آخر على حد قوله (توحيد الحياة القومية) بكل ما فى هذه الكلمة من معان سامية ٠

ولما كان ساطع يؤمن على هذا النحو أن وحدة التاريخ هى أحد الاسس الهامة فى التكوين القومى ، فقد عاش طول عمره يدعو العرب الى أن يعرفوا تاريخهم ، وأن يدرسوه ويكتبوه ويعلموه لأطفالهم ٠

لكن ساطعا يفرق بين تدوين التـاريخ وتدريسه ، عنده أن تدوين التاريخ ينبغي أن يلتزم الانسان فيه معرفة الحقيقة واظهارها بنظرة علمية • وكتب أكثر من مرة يطالب بما أسماه (التـــاريخ القومي) فهو يرى ان كتابة التاريخ العربي ينبغي أن تراعى فيه الدقة العلمية والاعتبارات القومية في وقت واحد • ولقد تعرض ساطع بسبب ذلك الى هجوم من جانب كثير من أساتذة التـــاريخ والمشتغلين به ظنا منهم ان في دعوته الى كتابة التاريخ القومي دعوة الى تحريف أحداث التاريخ أو أخباره • « لكن ذلك لم يدر بخلدي في وقت من الأوقات ، فضلا عن أني أعتقد تمام الاعتقاد بأن تاريخنا القومي زاخر بالمفاخر والامجاد الى درجة تغنينا ليس عن الاختلاف فحسب بل حتى عن المغالاة أيضا ، ولا أشك في أن كل ما يعوزنا في هذا المضمار ، هو حسن الاختيار واتقان العرض »

أما الذي حمل ساطع على طلب كتابة التاريخ بنظرة علميـة وقومية في وقت واحد كانت ملاحظاته ان معظم المؤلفات العريقة المتعلقة بالتاريخ العربي بعيدة عن مراعاة مقتضيات البحث العلمي في سرد الاخبار وتعليلها بقدر ما هي بعيدة عن مراعاة مقتضيات التربية القومية في انتخاب الأبحاث وابرازها بصورة تساعد على تقوية الروح الوطنية مع التوسع والتعمق فيها اكثر من غيرها • ويرجع ساطع السر في ذلك الى اعتماد المؤلفات التاريخية باللغة العربية في التاريخ العربي على المصادر الاجنبية ، دون أن يلاحظ الباحثون العرب شدة اختلاف مصالح الكتاب الغربيين عن المصلحة العربية •• ويرى أن كثيرا من الكتاب العرب الذين يكتبون المؤلفات التاريخية في تاريخ العرب زاعمين انهم يكتبون بروح علمية مبرزين بذلك عدم التفاهم الى النواحي القومية ، انما ينقلون دون أن يشعروا نتاج النظرات القوميـــة الخاصـــة بالكثيرين من المؤلفين والمؤرخين الغربيين •

ثم نرى ساطع ينقد كثيرا من الكتابات التاريخية لأساتذة عرب ويناقش ما جاء فيها من حقائق مثل كتاب (مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية للدكتور فاضل حسين والذى صدر عن معهد الدراسات العربية العالية . وقد ناقش ساطع الحقائق التى أوردها المؤلف المذكور وأثبت كثيرا من الأخطاء بشأنها فضلا عن تقصيره فى الناحية القومية(١) . وهو لا يكتفى بمناقشة هذا الكتاب فحسب وانما يناقش الى جانبه عددا من الابحاث التاريخية لمؤلفين عرب ويقول انه اتخذها كمثال لتأييد وجهة نظره .

أما تدريس التاريخ بالنسبة لطلبة المدارس فينبغى أن نستهدف منه على حد قول ساطع تقوية الروح الوطنية والوعى القومى فى نفوس الطلاب . نرى ساطع يؤكد ذلك ويكرره ويطبقه فى المناهج التعليمية التى وضعها فى العراق وفى سورية . فيصدر وهو فى العراق العديد من القواعد التى يطالب المدرسين باتباعها فى تدريسهم لمادة التاريخ منها :

١ ــ تجنب ذكر الوقائع وأسماء وتواريخ كثيرة وتجنب جعل الدروس مجموعة أسماء وأرقام مسلسلة .

٢ ــ العناية بالمقارنة بين الأحوال الحاضرة والماضية .

٣ ــ الاهتمام بتصوير الوقائع والاحوال على نحو يؤثر على مخيلة التلاميذ وجعلهم يتخيلونها كأنهم يرونها .

٤ ــ يجب الاعتناء فى انتخاب الوقائع التى تؤثر على شعور التلاميذ وتحرك عواطفهم وتبعث فيهم الهمة .

٥ ــ يجب استعمال الخرائط دائما وبيان حدود الممالك ومواقع المدن ومحلات الحروب .

---

(١) ارجع الى كتاب ساطع : حول القومية العربية صفحات ٢١٢ ــ ٢٢٤ .

٦ ـ يجب زيارة الأبنية لتاريخية والاطلال القديمة .

٧ ـ لفت أنظار التلاميذ الى أسباب الوقائع المهمة ونتائجها لا سيما أسباب انقراض الدول العربية ونتائج الاختلافات الداخلية .

ويضح فى مستهل التوجيهات التعليمية ان الغرض الاصلى من تدريس التاريخ فى المدارس على اختلاف مراحلها بما فى ذلك المرحلة الثانوية هو تقوية الشعور الوطنى والقومى فى أفئدة التلاميذ .

يرى ساطع ان تعليم التاريخ بصورة علمية بحتة ، وبنظرة موضوعية ذاتية مطلقة مجردة من جميع أنواع التأثيرات الذاتية والقومية ، اذا كان ممكنا فى المدارس العالية ، فهو متعسر جدا فى المدارس الثانوية ، ومتعذر مطلقا فى المدارس الابتدائية ، فهو يرى أن المعلم لا يستطيع أن يدرس الا جزءا صغيرا من التاريخ ولايستطيع أن يتوسع الا فى قسم قليل من الوقائع ، فيضطر لذلك الى انتخاب قسم من الوقائع والابحاث ، وبديهى ان الانتخاب يتضمن بطبيعته التأثير الذاتى والترتيب القصدى .. وما دام الانتخاب ضروريا ، فمن الطبيعى ان يأخذ الاتجاه الذى تقتضيه التربية الوطنية والقومية ، ولا سيما أنه لا يوجد بين أيدى المعلمين واسطة تربوية أثمن وانجع من دروس التاريخ ، لانماء العواطف الوطنية والقومية وتربيتها .

ولهذه الملاحظات السابقة أهميتها الكبيرة عنده خصوصا بالنسبة الى تاريخ الامة العربية فهو يلاحظ أن بعض هذه الكتب المدرسة فى التاريخ كتبت مادتها متأثرة بنزعة دينية أكثر منها قومية ، أو مستوحاة من كتابات غربية . فيترتب علينا نحن العرب من وجهة نظره أن نعيد النظر فى تاريخنا بنزعة تربوية قومية .

وينبغى هنا انصافا للحقيقة والتاريخ أن نقرر أن ساطعا الحصرى فى تناوله لبعض الاحداث التاريخية قد جانبه لصواب ،وأنه تناول الحقائق التاريخية فى بعض الأحيان تناول الباحث الذى بعدت

به حماسته لقوميته عن ان ينظر نظرة موضوعية حيادية • فهو فى تناوله لاحداث الحملة الفرنسية فى كتابه (آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع) يقول : (اننى لم أصادف بين جميع الدلائل والبراهين التى قرأتها فى الكتب المختلفة أى برهان معقول يؤيد بصورة منطقية الرأى القائل بأن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الفعالة فى النهضة المصرية • واطلاق القول على عواهنه على هذا النحو شيء غير صحيح وغير دقيق •• هناك من قال ان الحملة الفرنسية حررت المصريين من المظالم ، وهناك من قال ان الفرنسيين حين جاءوا الى مصر حرروا المرأة من الظلم واستدلوا على ذلك بقول الجبرتى انه كانت لهم (للفرنسيين) رغبة فى مطلق الانثى • وهذا فهم خاطىء لعبارة الجبرتى بالطبع • كذلك نجد من قال ان الفرنسيين فى مصر هم أول من أدخلوا النظام الدستورى الحديث فأنشأوا ما يشبه البرلمان (الديوان) • وهذه الاقوال التى أعطيت لنتائج الحملة فى مصر خاطئة شأنها شأن من يغمط دور الحملة فى مصر وهو ما قال به ساطع •

اننا لا يمكن ان ننكر ان الحملة الفرنسية كان لها دورها فى مصر ، وأنها أثرت على المصريين الذين اتصلوا بها (١) لكن تأثير الحملة كان محدودا لأنه لم تكن هناك أرض مشتركة بين المصريين

---

(١) ناقش هذه المسألة وألقى عنها بحثا الاستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم مدير جامعة عين شمس «سابقا» في الندوة الدولية لألفية القاهرة بتاريخ اول ابريل عام ١٩٦٩ •

والفرنسيين حتى يكون هناك تأثير فى المصريين · لكننا لا يمكن أن ننكر دور الحملة على حركة التجديد التى شهدها المجتمع المصرى على عصر محمد على ·

وليس المجال هنا ليسمح بمناقشة تفصيلية لذلك·لكننا ينبغى ان نقر ان الحملة الفرنسية على مصر برغم فشل السياسة التى رسمها بونابرت ومن تولى أمر الحملة من بعده فى كسب ود المصريين لأسباب لا داعى لسردها هنا ، فان الثابت يقينا ان هذه الحملة برغم الفشل الذى منيت به والثورات التى واجهها بها الشعب المصرى كان لها بعض الأثر فى تلك النهضة المصرية الحديثة ولا نقول : انها كانت الأساس الوحيد للنهضة المصرية الحديثة ، وانما كانت برغم ازدرائها للتقاليد وامتهانها لعادات المصريين قد ربطت الى حد كبير بين الشرق والغرب ، وربطت بين مصر وبين التيارات السياسية العالمية ·

موقف ساطع من بعض الآراء والنظريات الخاصة بالقومية :

١ ــ القومية والمشيئة :

يناقش ساطع رأى القائلين بأن أهم عوامل القومية هى المشيئة وكان مبعث هذه النظرية الخلاف الذى ثار بين فرنسا والمانيا بشأن مشكلة الالزاس · كانت الالزاس مقاطعة ألمانية حتى أواسط القرن السابع عشر ، ثم استولت فرنسا عليها فى عهد لويس الرابع عشر وضمتها الى بلادها بموجب معاهدة وستغاليا · ومع هذا كان أهالى الالزاس يتكلمون الألمانية ، ويحتفظون بالكثير من تقاليدهم الخاصة·

ازاء ذلك انبرى جماعة من الفرنسيين يقولون ان القوميـــة لا تتبع اللغة وان هناك ما هو أهم منها ، وهى مشيئة السكان ، أو رغبتهم فى الاندماج مع بعضهم وتكوين أمة ·

يفند ساطع هذا القول على أساس أنه لا يمكن ان تكون بعض

الأسس المعرضة للتغيير والتحويل كالمشـــيئة ضمن تكوين الامة ويستعين فى ذلك بأقوال المفكرين الذين نادوا بنظرية المشيئة ، وعلى رأسهم ارنست رينان ٠٠ لقد شعر رينان بضعف نظريته حيث قال: قد تقولون ان المشيئة كثيرا ما تكون قليلة التنور وعرضـــــة الى التغير ، ولكن رينان حاول أن يرد على هذا الاعتراض بقوله ، أن كل شيء فى الكون يتغير وهو بالطبع رد ضعيف واه ٠٠ يقول ساطع صحيح إن كل شيء فى هذا الكون يتغير ، ولكن المنطق العلمي يقتضى عند محاولة تعريف وتحديد شيء من الأشياء ، البحث عن الأثبت والأدوم، والأعم من صفات ذلك الشيء، وينتهى الى القول ان تعريف الامة بالاستناد الى عامل المشيئة يخالف مقتضيات البحث العلمى مخالفة تامة ٠ ويرى أن المشيئة المشتركة ليست من عوامل القومية بل هى من نتائجها لأن الافراد يشاءون أن يعيشوا معا عندمـــا ينتسبون الى أمة واحدة ٠ ثم يورد ساطع الامثلة التى تؤيد قوله ومنها الحروب التى قامت بين الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة الامريكية ، والولايات الشمالية خلال القرن الماضى ، ولكن مشيئة الانفصال تلاشت عند الجنوبيين ، لأنها لم تكن تستند الى أســس ودوافع قومية ٠

٢ ـ القومية والحياة الاقتصادية :

لا يؤمن ساطع كذلك بأن لوحدة المصالح الاقتصادية أثر فى تكوين الأمة لأنه يرى أن المنفعة والمال والاقتصاد ليست كل شيء في حياة الانسان ، ويرى أن الاحاسيس الوطنية والقومية لا ترتبط بالمنافع والمصالح الاقتصادية .. ودخل ساطع بسبب هذه المسألة فى خـلاف مع القائلين بأن وحدة الحيـاة الاقتصـادية من جملة المقومات الأساسية للأمة واعطائها قيمة وقوة تعادل قيمة وحدة اللغة وقوتها فى تكوين الأمة .. ويتسـاءل ساطع هل كان الطليان .

مثـــلا محرومين من كونهم أمة قبل اتمام وحدتهم لانهم كانوا محرومين اذ ذاك من الحياة الاقتصادية المشتركة ؟ أو ان أهالى منطقة الســار اضاعوا انتســـابهم الى الأمة الألمانية عندما احتل الفرنسيون بلادهم وادخلوها فى نظامهم الاقتصــادى الخاص لانهم فقدوا بذلك (الحياة الاقتصادية المشتركة) التى كانت تربطهم بسائر البلاد الألمانية .

وساطع لا ينكر دور الاقتصاد الهام للغاية فى حياة الامم لكن دور هذا الاقتصـــاد عنده ليس له تأثير فى تكوين الأمة . فالاقتصاديات كما يقول ساطع تقوى الأمة بل توصلها الى ذروة القوة ولكنها لا تخلقها .

كذلك ينكر قول القـــائلين ان القوميـــة وليـــدة العهــود الراسمالية . فلقد اكد ساطع خطأ القائلين بأن الراسمالية ولدت وسببت قيام الحركات القومية .

يستند القائلون بأن القومية وليدة العهود الرأسمالية الى ان عهد انتصار الرأسمالية على الاقطاعية انتصارا نهائيا قد اقترن فى كل انحاء العالم بحركات قومية ، وان تكوين الدولة القومية التى تضمن متطلبات الرأسمالية العصرية بأحسن الصور صار المنزع الخاص لكل حركة قومية .. ويأتى ساطع بقول ستالين الذى تبنى هذه الفكرة ودافع عنها بكل اهتمام سنة ١٩٢٩ ، والتى قال فيها ان الأمم لم توجد قبل الراسمالية ، وقوله كيف كان يمكن ان تتكون الامم وأن توجد قبل الرأسمالية فى عهد الاقطاعية عندما كانت البلاد مجزأة الى امارات مستقلة لا يرتبط بعضها ببعض بروابط قومية .. كذلك يناقش ساطع قول لينين ان توحيد البلاد التى يتكلم أهاليها لغة واحدة يؤدى الى توسيع السوق التجارى وتوحيده وفق متطلبات وحاجات الراسمالية .

ثم هو يثبت عدم صحة هذا القول ان كثيرا من الحركات القومية قد ادت الى حواجز تضـــييق الاسواق التجارية ومن ثم اتجهت هذه الحركات عكس متطلبات الرأسمالية كما يقول لينين ٠

ثم يخلص ساطع الى القول ان الحركات القومية فى البلاد العربية أوضـــح دليل على عدم ارتباط تلك الحركات بقضـــايا الاقطاعية والرأسمالية ٠ اذ من المعلوم ــ كما يقول ــ ان هـــذه الحركات اشترك فيها جماعات من الأغنياء ومتوســطى الحال الفقراء . كما ان صفوف الذين خالفوا تلك الحركات أيضا كانت تتالف من الاغنياء ومتوسطى الحال والفقراء . (١)

٣ ــ القومية والدين :

يعارض ساطع النظرية القائلة بأن وحدة الدين تلعب دورها فى تكوين الأمم ٠٠ ويناقش هذه الآراء فى المحاضرات التى القاها على طلبته فى معهـد الدراسات العربية العالية مناقشة مستفيضة ٠٠ ويستشهد فى ابحاثه فى هذه الناحية بالاحداث التاريخية .

ومن الأمثلة التى يستشهد بها ساطع على أن الدين لم يلعب دوره فى تكوين الأمم ، حركة الوحدة الالمانيـــة التى جمعت بين دول كاثولكية مثل بافاريا ، ودول بروتستانية مثل بروسيا ، كذلك الحركة القومية اليوغسلافية التى وحدت العرب الارثوذكس مع الكروات الكاثوليك . كذلك يستشهد ساطع بالحروب الدامية التى قامت بين الطليـان والنمســاويين ، ومع ان كليهما كاثوليكى المذهب ٠ ثم هو يصل الى النتيجة القائلة بأن الوحدة القوميـة لم تتبع الأديان والمذاهب فلا وحدة الدين والمذهب ضمنت التغلب

---

(١) ساطع الحصرى : حول القومية العربية ص ١٦٠ .

على الفروق القومية ، ولا اختلاف الدين والمذهب استطاع أن يحول دون تحقيق الوحدة القومية ٠

كذلك نجد الحصرى يعارض بعض الكتاب فى البلاد العربية القائلين بأن وحدة الدين لم تلعب دورها فى بناء القوميات فى العالم المسيحى فقط على اساس ان طبيعة تعاليم الانجيل تفرض فصل الدين عن الدولة . ويرى ان ذلك القول يسرى أيضا على الدين الاسلامى .

الدين عند ساطع له تأثيره فى القومية عن طريق اللغة التى يتعبد بها الناس . ولما كانت اللغة اس الأساس فى بناء القوميات، فان الأديان لا تخلو من التأثير فى القوميـــات ٠ ويرى أن اللغة اللاتينية انتشرت فى أوربا الغربيـــة ، بفضـــل الديانة المسيحية، والمـــذهب الكاثوليكى أكثر بكثير مما انتشرت بفضل الفتوحـــات الرومانية . ولكن المذاهب البروتستانية وضعت حدا لسيطرة اللغة اللاتينية وساعدت على ازدهار اللغات القومية لأنها جعلتها لغة الدين والصلاة .

لقد أفرد ساطع ابحاثا لطلبته في معهد الدراسات عن القومية والدين في البلاد العربية أكد فيها أن البلاد العربية حين بدات تتحرر من سلطان الدولة العثمانية لقيت معارضة من رجال الدين على أساس أن السلطان العثمانى هو خليفة المســـلمين ، يجب اطاعته ، وينبغى عدم الخروج عليه ، واعتبروا فكرة القومية العربية نوعا من العصبية التى نهى عنها رسولنا الكريم ثم كان ان رد عليهم آخرون بقولهم ان المقصود بالعصبية المذكورة فى الأحاديث النبوية هو العصبية الجاهلة اى العصبية القبلية .

ثم يبحث ساطع آراء جمال الدين الأفغانى فى العروة الوثقى والتى فهم الناس منها خطأ أنه كان يدعو الى وحدة اسلامية ويرى أن مقالات الافغانى فى العروة الوثقى كانت تدعو للتخلص من الحكم الأجنبى وتستنهض هم الشرقيين عموما والمسلمين خصوصـــا ،

للتخلص من الحكم الأجنبى ، لكنها لا تدعو الى اتحاد بين الدول الاسلامية ، فهى تدعو الى (اتفاق) بين سلطنة ايران وامارة الأفغان من ناحية ، وبين ايران وبين آل عثمان من ناحية ثانية ، وبين جميع هؤلاء وبين الروس من ناحية ثالثة ، لطرد الانجليز من مصر ومن الهند · ويرى أن ما يسميه الكتاب اليوم بالقومية هو ما كان جمال الأفغانى يسميه بالجنسية ·

أما أهم ما يركز عليه ســـاطع الدراسة عند تناوله لنظرية القائلين بوحدة الدين كأساس للقوميات أن تاريخ الأمة العربية خير شاهد على أن الدين الاسلامى لم يكن له كل الدور فى بناء القومية العربية . فالفتوحات الاسلامية لم تكن مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما ، لأن بعض الجماعات اســتعربت دون أن تعتنق الديانة الاســـلامية ، وبعكس ذلك فان بعض الجماعات اعتنقت الديانة الاسلامية دون أن تســتعرب ، وتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة من ناحية ، وأمم اسلامية غير عربية من ناحية أخرى .

لكن الذى ينبغى أن نوضحه أنه ليس معنى هذا ان ساطعا قد اهمل دور الدين الاسلامى فى حركة القومية العربية كما انتقده البعض من هذه الناحية ، فهو يرى ان اللغة العربية بعد أن أصبحت لغة الجميع فى هذه البلاد الشاســـعة من العالم العربى تعرضت الى محن خطيرة مدة قرون طويلة ، بسبب ما طرأ على العالم العربى من التفكك السياسى والجمود الفكرى والاجتماعى والانحططاط الثقافى ·· وأصبحت اللغة العربية معرضـــة لخطر التفكك التام والتفرع الى لغات عديدة يختلف بعضهـــا عن بعض اختلافا كبيرا ، ولو حدث ذلك لأدى حتما الى انشطار الأمة العربية الى امم مختلفة ، ولما بقى ما يمكن تسميته بالقومية العربية ، ولكن القرآن الكريم وقف سدا منيعا أمام هذه الأخطار الجسيمة ،

وحال دون استشراء هـــذا التفـكك وذلك لكونه عربيا ، ولكون الديانة الاسلامية تفرض على جميع المسلمين حفظ طائفة من آياته لمن لا يستطيع أن يحفظه كلمة وذلك عند تأدية فرائض الصلاة وبذلك صارت اللغة العربية لغة الدين والصلاة عند غير المسلمين أيضا حين ترجم العرب النصارى كتابهم المقدس الى العربية ، وصاروا يتلون الانجيل باللغة العربية ٠

وينتهى ساطع من ذلك الى القول : ان الديانة الاســـلامية لعبت دورا هاما فى تقدم القومية العربية وتوسعها لأنها :

أولا : كانت القوة الدافعة للفتوحات العربية التى نشرت اللغة العربية ووسعت نطاق القومية العربية .

ثانيا : صارت (القوة الواقية) التى اكسبت اللغة المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفتت والتفرع ٠٠ وصـــانت بذلك القومية العربية من الانشطار ٠ فى عهد انحطاطها الطويل ٠

ولكن ذلك لا يعنى عند ساطع أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الإسلامية لأنه قد تكونت امم اسلامية غير عربية من ناحية وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى ٠

القومية ووحدة الأصل :

ناقش ساطع ما قاله بعض الكتاب وعلى رأسهم ما نشينى الايطالى عن علاقة القومية بوحدة الأصل حيث عرف هذا الكاتب الايطالى الامة بأنها مجتمع طبيعي من البشر يرتبط بعضـــه ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة .. واذا كان تعريف ما نشينى للأمة فى محاضرته لجـــامعة تورينو فى سنة ١٨٥١ هو أول تعريف يحاول تحديد معنى الأمة بوجه عام بأسلوب علمى صريح ، فان الحصرى يعارضـــه في قوله بأن وحدة الأصل تعتبر من المقومات الأساسية لتكوين الأمم .. والحجة التى يستند

اليها في الرد على مانشيني انه لا توجد أمة من الأمم ينحدر جميع أفرادها من اصل واحد ، بل ان كل امة من الأمم تتألف من أفراد منحدرين من أصول مختلفة ، حتى ان اعرق واقدم الأمم الحالية فى (الوحدة السياسية والتجانس القومى) بعيدة عن التجانس فى الأصل والدم بعدا كبيرا . اما هذه القرابة التى يشعر بها أبناء الأمة الواحدة فيفسرها ســـاطع بأنها قرابة معنوية تنشأ من الروابط الاجتماعية المختلفة ، ولا سيما من الاشتراك فى اللغة وفى التاريخ ، فلا تدل بوجه من الوجوه على قرابة الأصل والدم .

رأى ساطع فى الأرض المشتركة كأساس من اسس القومية :

وحين يسأل ساطع لماذا لا تدخل الأرض المشتركة بين مقومات الأمة الأساسية ؟ هل تعيش الأمة دون أرض ؟ يرد على ذلك ببحث يتناول هذا الموضوع من جوانب عديدة ·· وينتهى فيه الى القول بأن الأرض المشـــتركة ليســت من مقومات الأمة ، ويستشهد بأحداث التاريخ ، ويضرب مثلا لذلك جزيرة قبرص التى يسكنها الاتراك واليونانيون· فمما لاشك فيه ان الاشتراك فى أرض الجزيرة لم يجعل قاطنيها أمة واحدة ، كما أن عدم الاشتراك فى الأرض لم يحل دون بقـاء الاتراك القاطنين فيهـا أتراكا ــ يتوجهون بقلوبهم نحو حكومة انقره .. ونرى ساطع يؤكد على هذه المسألة الخاصة بالأرض المشتركه ويقول : « أود ألا يظن احد انى اســـتبعدت الأرض المشـــتركة من عداد مقومات الأمة الأساسية مراعاة لتطلبات القومية العربية ، بل أود أن تتأكدوا انى فعلت ذلك مســـتندا الى كل ما عرفته عن تواريخ الأمم ونواميس الاجتمـــاع » · فاذا ما وجه اليه نقد فى أمر (الأرض المشتركة) على اساس ان ذلك قد يفيد بنى اسرائيل ، بمعنى أنه يجب علينا فى حالة عدم اعترافنا بالأرض المشتركة كعنصر من عنـــاصر تـــكوين الأمة ــ ان نعتــرف بالاسرائيليين كأمـــة ،

يرد ساطع رد الذى لا ينظر الى المسائل من زاويتها الضيقة فيقول : « إن حقنا فى فلسطين لا يتبع بوجه من الوجوه أمر التسليم أو عدم التسليم بأن الأرض من عناصر القومية الاساسية ، ولا يرتبط بصورة من الصور بأمر الاعتراف او عدمه بأن بنى اسرائيل أمة ، بل ان حقنا في فلسطين يستند الى أنها (فلسطين) بلد العرب منذ عشرات القرون ، وأنها موطن أبناء أمتنا منذ آلاف السنين » .. ثم يتساءل لنفرض أن فلسطين لم يستول عليها اليهود واستولى عليها وهاجر اليها وطرد سكانها الفرنسيون أو الايطاليون أو غيرهم أو أية جماعة من الجماعات التى لا مجال للشك فى أنها أمة .. فهل كون ذلك لو حدث من جانب الفرنسيين أو الايطاليين مثلا يعطيهم حق البقاء فيها وينزع منها حق العمل لاستردادها ؟

ويرى ساطع ان الربط بين قضية فلسطين وبين النظريات القومية خطأ عظيم يجب تجنبه عند دراسة هذه القضية فلدى العرب من الأسانيد والبراهين ما هو كفيل بتأييد حقهم وتأييد نضالهم ضد الخطر الصهيونى أكثر من كون الاسرائيليين أمة أو غير أمة .

ولقد أكد ساطع أنه يرجو الا يفهم القارىء لآرائه ونظرياته فى القومية أن القصد منها تقرير أن فكرة القومية تجرى فى البلاد المختلفة على نمط واحد ، وانما هى تجرى على أنماط متنوعة ، تختلف باختلاف الأحوال السياسية ، والأطوار الاجتماعية ، والعوامل التاريخية التى كانت قائمة فيها . ولقد كان رأى ساطع فى ذلك واضحا منذ ألقى ابحاثه عن نشوء الفكرة القومية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة بدعوة من كلية الآداب فى أوائل سنة ١٩٤٨ . فلقد استعرض فى هذه المحاضرات تاريخ نشوء الفكرة القومية فى كل من ألمانيا وبلغاريا ويوغسلافيا واليونان ورومانيا

والبانيا وتركيا .. ثم تناول بعد ذلك الفكرة القومية فى البلاد العربية .

والنتيجة التى يصل اليها الحصرى من ابحاثه هذه هى قوله :

« أود الا يفهم من قولى هذا بأنى أعنى وجود عوامل عامة فى شئون القوميات ، وارى أن اصرح - بعكس ذلك - أنى اعتقد أن لعالم الاجتماعيات قوانين عامة وعوامل أساسية ، مثل ، مالعالم الماديات . كما أن للنزعات القومية أيضا قوانين عامة وعوامل اساسية ، مثل ما لسائر مظاهر الحياة الاجتماعية . انى قلت وكتبت مرارا : ان الأمة كائن اجتماعى ، لها حياة وشعور ، وأن حياتها فى اللغة وشعورها بالتاريخ » .

« فى الواقع ان قولى هذا يتضمن حكما عاما ، غير أن هذا الحكم لم يكن وليد تفكير منطقى مجرد ، بل هو نتاج مشاهدات وملاحظات عن الحياة النفسية والاجتماعية والوقائع التاريخية كما أنه لا ينفى وجود فوارق بين القوميات مثل الفروق التى تلاحظ بين مختلف الأحياء » .

ثم هو لا يريد أن يضفى على القومية العربية من الصفات ما أراده البعض حيث نادوا بتميزها عن القوميات الأخرى من حيث انها (القومية العربية) قومية مسالمة انسانية ، وان القوميات الأخرى كانت ذات نزعة استعلائية استيلائية .. يقول ساطع : انا أسلم بأن القومية العربية ليست ولن تكون استعلائية استيلائية ، بل انها قومية مسالمة تعرف مالها وما عليها من حقوق وواجبات تجاه سائر القوميات .. ولكن لا أسلم بأن القوميات التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، كانت استعلائية واستيلائية . ولا أرى من الحق والصواب أن نربط خفايا

الاستعمار بظهور القوميات ، لأن من الحقـــائق التى لا يمكن ولا يجوز تجاهلها أن اســـتعمار الأوربيين لمختلف قارات العـــالم واستعبادهم لشعوبها المستضعفة ــ كان قد بدأ قبل القـــرن التاسع عشر بكثير .. صحيح ان الايطاليين اقدموا على الاستعمار بعد حركاتهم التحررية ، لكن ذلك كان بعد مرور ثلاثة عقود من السنين على نجاح الحركات بتحقيق الوحدة الايطالية .

ثم يوضح السبب الذى أوقع بعض الكتاب العرب فى هذا القول هو أحد الأمرين التاليين أو كلاهما معا :

١ ــ انهم تأثروا كثيرا بما كتبه الكثيرون من الفرنسيين والبريطانيين ضد الحركات القومية بوجه عام بسبب الخسائر الفادحة التى الحقتها بمصالح بلادهم .

٢ ــ انهم لم يتنبهوا الى التطور الذى حـدث فى معنى كلمة (ناسيونا لزم) فى أوربا ، وخلطوا بين مبدأ القوميات ، وبين خطط واعمال الأحزاب اليمنيه المتطرفة التى عرفت نفسها باسم ناســـيونا ليست ، ونراه يؤكد أن دراسة الوقائع دراسة علمية صافية لا تترك أى مجال لربط حركات الاستعمار والاســـتعباد بحركات تحرر القوميات العربية .

وينبغى أن نوضح حقيقة هامة ونحن نتناول الاشارة الى ابحاث ساطع فى القوميات أنه لم يقصد من قوله أن وحدة اللغة والتـــاريخ همـــا أس الأســـاس فى تكوين الأمم انه ينفى وجود الأسس الأخرى أو دورها وأهميتها .. فحين ينقده البعض على أساس أنه جعل اللغة العربية المقوم الوحيد للقومية ، ينفى ساطع ذلك نفيا باتا ويحيلهم الى آرائه التى نشرها فى كتـــابه (آراء وأحاديث فى القومية والوطنية حيث يقول : ان اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير فى تكوين القوميات

(ص ٣٠ من كتابه المذكور) كما يقول فى الصحيفة التالية مباشرة من نفس كتابه · ولكن العوامل التى تؤثر فى تكوين الامم وتميز بعضها عن بعض لا تنحصر فى اللغة والتاريخ بل ان هناك عوامل اخرى تؤثر فى ذلك تأثيرا واضحا فتقوى تارة تأثير العاملين الأساسية المذكورين آنفا ، وتضعف ذلك التأثير طورا ·

ولقد استهدف ساطع من دراساته الواسعة العديدة فى موضوع القوميات بصفة عامة والقومية العربية بصفة خاصة الوصول الى الايمان بوحدة الأمة العربية ، ففكرة القومية العربية تعنى عنده هذا الايمان ، وتتطلب العمل بما يستوجبه ، وذلك بالتفانى فى خدمة الأمة العربية للمساهمة فى ضمان تقدمها ووصولها الى أوج الرفعة والقوة والكمال فى ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة ·

ثم يقوم ساطع ببحث التطورات التى لحقت بالقضية العربية خلال العقود الأخيرة من تاريخ العرب المعاصر ، ويحصى الخسائر والمكاسب التى لحقت بالقومية العربية فى بحث له نشرته له مجلة العربى الصادرة فى مارس (آذار) عام ١٩٥٩ ، ويرى أن مكاسب القومية العربية فاقت خسائرها كثيرا فضلا عن أنها زودتنا بالقوى المادية والمعنوية لتلاقى تلك الخسائر والتغلب على تلك المصائب .. انى أعرف ان احدى تلك المصائب (ويقصد بها ساطع حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وان لم يفصح عنها صراحة) كانت أشد هولا واعظم خطرا من كل مصائبنا الماضية ، وهى لا تزال تدمى قلوبنا وتعرض مستقبلنا الى أشد الأخطار · ومع هذا يلاحظ من ناحية أخرى ان هذه المصيبة الأخيرة فتحت عيون الكثيرين من الغافلين ، وصارت بمثابة(ناقوس الخطر) الذى يدقه بشدة وبدون انقطاع ، فلا يترك مجالا للنوم والغفلة ابدا . انها اظهرت وجسدت أضرار الانقسام السياسى الذى منى به العالم العربى وجعلتها تلمس

لمس اليدين ، وتصدم أنظار كل ذى عينين ، ولا شك فى ان ظهور هذه الأضرار الى العيان ، بهذه الصورة المجسمة من شأنه ان يقوى الوعى القومى ، وأن يرسخ الايمان بوحدة الأمة العربية ، ويدفع جميع أبناء العروبة الى العمل فى سبيل تحقيق الوحدة الشاملة بقوة لا تقهر ، وبايمان لا يتزعزع ، انى لقوى الأمل بل ولشديد الايمان بأن هذه المصيبة ستكون من أقوى العوامل التى ستوحد مشاعرنا وتقوى عزائمنا ، وتجعلنا نسير نحو الوحدة بكل مالدنيا من قوى مادية ومعنوية ومن عزم وايمان . وان كنت لا أنكر ان الطريق الباقى أمامنا لا يزال طويلا ومحفوفا بشـــتى المهاوى والمخاطر ، ولكنى آمل أملا قويا ، بل اعتقد اعتقادا جازما بأن روح العروبة الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصارا حاسما فى كل الميادين . »

وحين نقرأ ماكتبه ســـاطع فى هذا البحث الذى مضى عليه عشرة أعوام ، ونتأمل الأحداث التى مرت بها الأمة العربية منذ ذلك التاريخ نقول : ياليت الدعوة التى دعا اليها ساطع من وحدة عربية لقيت آذانا صاغية من أبناء الأمة العربية فحركتهم نحو تحقيقها والقوى الاستعمارية ، والخطر الصهيونى يحدق بالأمة العربية ، ولكنى على يقين أن الأحداث المصيرية التى تتعرض لها هذه الأمة والمرحلة الحاسمة التى تمر بها قد أخرجت الى الوجود وحدة عربية ، وان لم تعلن رسميا ، وجسدت فكرة التضامن العربى بصورة لم يسبق لها مثيل ، وأن ما حدث منذ نكسة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ خير شاهد وأصـــدق دليل .

لقد انعقد مؤتمر الخرطوم بعد هذه النكسة فأكد وحدة الصف العربى ، وأثبت ان العرب عند مستوى المسئولية وان الوحدة العربية حقيقة قائمة . ثم هناك بالاضافة الى ذلك تنسيق بين السياسة الخارجية للدول العربية تجاه الأزمة ، وبين الأمور العسكرية ،

الأمر الذى نجم عنه انشاء الجبهات العسكرية الموحدة ، ومنها القيادة العسكرية للجبهة الشرقية العربية التى نسقت الخطط العسكرية بين سورية والاردن والعراق .. وارجو ما يرجوه كل عربى مخلص أن تكون هذه مقدمات على طريق الوحدة الشاملة وعندئذ تتحقق أمنية الكثيرين المخلصين من أبناء هذه الأمة وفى مقدمتهم بطبيعة الحال أمنية ساطع الحصرى ، ووقتها ستكون روحه سعيدة راضية مطمئنة ، بعد أن يتحقق أعز أمانيه .

الفصل السادس

فضل ساطع على الثقافة العربية

مما لا شك فيه أن ساطع الحضرى بذل كل ما فى جهده لتخليص الثقافة العربية من كل شوائب غريبة عليها ، وان مبعث اهتـــمامه بالأمور الثقـــافية أنه كان يؤمن بأن الوحدة الثقـافية هى السبيل للوحدة العربية .

وليس معنى توحيد الثقافة عنده هو حمل الناس على أن يتعلموا أشياء مماثلة ، أو تعويدهم التفكير على نمط معين ، وانما يعنى تنسيق أفكار الناس وعواطفهم تنسيقا يؤدى الى توليد وحدة معنوية سامية .. ويشبه ساطع الثقافة بالوحدة الموسيقية التى تتكون من توافق وتلاحق عشرات الأصوات والأنغام الصادرة من عشرات الآلات المتنوعة . فهو يرى أن وحدة الثقافة هى وحدة مركبة عالية تتولد من تمازج الكثير من الأمور المختلفة المتنوعة . وأعد ساطع الأبحاث التى تناول فيها مسائل الثقافة بصفة عامة، ثم الثقافة العربية بصفة خاصـــة ، ففى بحث له بعنوان آراء وأحاديث فى العلم والأخلاق والثقافة يفرق ساطع بين الثقـافة والحضارة ، ويوضح المعنى المقصود من كل منهما . فهو يبين أن كلمة حضـارة Civilization استحدثها الفرنسيون خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، وهى مشتقه من كلمة

بمعنى المدنية عكس البربرية والهمجية • وكان يفهم منها الخصال المتولدة عن المعيشة في المدينة • ثم رأى المفكرون انه من الضرورى تجريد المعنى من فكرة التقـــدم النسبية عمـــلا بمقتضيات النزعة العلمية وصاروا يستعملون الكلمة المذكورة للدلالة على الحـــالة الاجتماعية باوسع معانيها وأصبحوا الآن يقصـــــدون منها مجموع الخصائص التى تنجم عن الحياة الاجتماعية ، فيشـــمل مفهوم الحضـــــارة بهذا الاعتبـــــار جميع مآثر الحيـــــاة المادية والفكرية والخلقية عند الاقوام .

كذلك يوضح معنى كلمة الثقافة ويؤكد انها اقدم استعمالا واطول حياة من كلمة حضارة .. يرى الحصرى ان كلمة الثقافة تدل الآن على أساليب التفكير من جهة ، وعلى الأعمال التى تضمن اصلاح وترقية هذه الأساليب من جهة أخرى ، فهى (الثقـــــافة) تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية بينما يشمل مفهوم الحضارة الأمور والمسائل المادية أيضا ، ومن هذه الناحية فان مفهوم الحضارة وان كان يتصل بمفهوم الثقافة اتصالا وثيقا غير أنه أوسع وأشمل

يريد ساطع من هذه الدراسة ان يخلص الى ان الحضـــارة تكون قابلة للانتقـــــال من أمة الى أخرى ، وأما الثقـــــافة فتبقى خاصة بكل أمة على حدة ، وان اثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض .. فالثقافة اذا تختص بكل أمة على حدة ، وترتبط قبل كل شيء بلغة الأمة وآدابها ، فاللغة هى واسطة التفكير فضلا عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار والأحاسيس والانفعالات .

ازاء ذلك كان من الطبيعى ان تختلف ثقافات الأمم باختلاف لغاتها وآدابها . لكن ذلك لا يمنع تأثر الثقافات بعضها ببعض . كما تتأثر الثقافة بتطور الحضارة ، غير أن ذلك لا يكون عن طريق الانتقال المباشر ، بل يكون عن طريق التأثير فى النفوس تأثيرا باطنيا يؤدى الى شيء من التغيير فى أساليب التفكير والتحسس . فالأمم

من وجهة نظره تتميز عن بعضها بثقافات خاصه ، وتشترك مع بعضها فى حضارات عامة ، فالثقافة فى حد ذاتها قومية والحضارة بطبيعتها امية ٠

كذلك يرى ساطع أنه ازاء ذلك ليس هناك شيء اسمه ثقافة البحر الابيض المتوسط ، بل هناك حضارة اسمها حضارة البحر الأبيض المتوسط ، ويوضح ذلك بتناوله لثقافات مدن هذا البحر فمارسيليا وبارشلونة تختلفان في الثقافة ، الأولى من الثقافة الفرنسية ، والثانية من مدن الثقافة الاسبانية ٠

ولا يحب الحصرى ان يفهم الناس من قوله حضارة البحر الابيض المتوسط أنه لا زالت هناك حضارة تفهم بهذا الاسم ، وانما كان ذلك فى الماضى ٠ ففى القديم ازدهرت الحضارة اليونانية، ثم الرومانية ، ثم الحضـارة العربية ، كلهـا فى مناطق البحر المتوسط ، ثم فى عصر النهضة انتقل مركز الحضـارة الى غرب أوربا والقارة الامريكية ٠

ثم انتشرت الحضارة فى سائر أقطار العالم ، فلم يبق مبرر لنسبة حضارة الى قارة القارات أو بحر من البحار وأصبح من الأوفق على حد قوله ان تسمى الحضارة باسم مجرد عن الدلالة المكانية فنقول حضارة القرن العشرين مثلا ٠

يشبه الحصرى الثقافة بالأزهار والأشجار التى تنمو فى البلاد ، واللغة بمثابة التراب الذى يحتضن البذور ٠٠ ولما كانت لغة هذه البلاد عربية فان ثقافتها ستكون عربية وستشترك هذه البلاد فى أمور الثقافة مع سائر البلاد العربية ، لا مع أقطار البحر المتوسط ٠ ويكتب فى سنة ١٩٥١ يقول :

« سيساهم أبناء سائر الأقطار العربية فى تكوين ثقافة عربية راقية تنمو وتزدهر سنة بعد سنة مغمورة بأنوار العلوم العصرية،

وفيوض الحضارة العالمية .. اننى اعتقد ان ذلك سيتم حتما على الرغم من جميع الجهود التى قد يبذلها البعض فى سبيل توقيف هذا التيار العام ، ومعاكسة هذا التطور الطبيعى ·· اننى اجزم بذلك كما أجزم أن الشمس ستشرق غدا صباحا من هذه المدينة ، وان الطقس سيزداد حرارة فى الشهور القادمة » .

وبسبب ايمانه على هذا النحو بضرورة تنقية الثقافة العربية من كل الشوائب وحرصه على ان تتطور هذه الثقافة وان تنمو وتزدهر ، كان جهاده فى العراق وفى سورية ثم فى مصر فى هذه الناحية ، فهو يحرص فى العراق على اصلاح التعليم به وتخليصه من التبعية للنظام الانجليزى ثم يحرص فى سورية على اصلاح التعليم السورى وتخليصه من التبعية الفرنسية .. لكنه وهو يفعل ما فعله فى العراق ثم ما فعله في سورية يجهر بانه لا يعادى ثقافة من الثقافات ولا يشغل نفسه بالمفاضلة بين الثقافة الانجلو ساكسونية أو الفرانكو لاتينية ، وانما هو يعارض الخضوع والاستسلام لنظم التعليم الانجليزية أو الفرنسية ، ايمانا منه بأن ظروف التعليم فى البلاد العربية تختلف عن ظروف ونظم التعليم فى البلاد الاوربية ·· من أجل هذا انتقد بشدة الاقتراحات التى قدمتها لجنة بول منرو الامريكية التى جاءت أثناء وجوده فى العراق بهدف دراسة نظم التعليم العراقى ، وتقديم الاقتراحات الكفيلة باصلاحه .

يقول ساطع : اذا ماعارضت النظم الانجليزيةفى الأولى (العراق) والفرنسية فى الثانية (سورية) فانما فعلت ذلك لغاية واحدة ، هى ايجاد نظم تعليمية خاصة بالبلاد العربية وتكوين ثقافة مشتركة بين جميع الأقطار العربية .

هو يؤمن اذا أن سبيل الثقافة المشتركة هو العمل فى المقام الأول على تخليص التعليم فى البلاد العربية من تبعيته لنظم التعليم

الأجنبية ، ذلك أنه ليس هناك نظام تعليمي قائم بذاته ، وأنما هذا النظام التعليمي جزء من مجموعة النظم الاجتماعية الخاصة بتلك البيئة وهو يعمل فيها ويؤثر فيهـا ويتأثر بها . ولهذا لاينبغي للتعليم في البلاد العربية أن يكون مقتبسـا من غيره من النظم التعليمية .

لذلك يندد ساطع بالفروق بين مدد الدراسـة وموادها في مدارس البلاد العربية . وعنده ان هذه الفروق الكبيرة لم تكن وليدة الحاجات التي شعر بها أبناء الأقطار المذكورة من تلقاء انفسهم والقرارات التي اتخذوها بعد امعان النظر في منافع البلاد بمحض ارادتهم ، بل هي وليدة الظروف السياسية التي سيطرت على مقدرات الاقطار العربية وصنيعة الأيدي الأجنبية التي وجهت سياسة التعليم ، ومرد هذه الاصلاحات الى اختلاف الظروف السياسية . وكان من الطبيعي ان ينبرى المفكرون العرب الى البحث عن الوسائل التي تضمن توثيق الصلات الثقافية . .

وعندما اقر مجلس الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ . المعاهدة الثقافة التي تضمنت التعاون في جميع الشئون الثقافية بين البلاد العربية بجميع الوسائل التي تكفل تقدم الثقافة ، وتخدم غايات الجامعة ، ومن ذلك توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان وتشـجيع عقد المؤتمرات الثقافية والعلميـة والتعليمية ، سعد ساطع بذلك كل السعادة ورأى فيه خطوة عملية هامة على طريق الوحدة الثقافية . ثم كان ان قرر مجلس جامعة الدول العربية تأليف الجنة ثقافية تضم ممثلين عن جميع البلاد العربية ، ثم انشأت الجامعة الادارة الثقافية التي عهدت اليهـا بمهمة تحضير المشاريع وتنفيذ القرارات بمساعدة مكتب دائم .

عقدت الادارة الثقافية المؤتمر الثقافي العربي الأول في عام ١٩٤٧ في لبنان . في ذلك الحين اخذ ساطع بكل جهده يكتب وينادي

بضرورة مبادرة هذه الادارة بالعمل على توحيد الثقافة العربية .
ويرد فى عنف على القائلين باستحالة هذه الوحدة الثقافية بين البلاد العربية بسبب اختلاف البيئات الطبيعية بالقول أن الامة العربية شأنها فى ذلك شأن الامم الأخرى ، ويستشهد بقول ميشليه الفرنسى فى وصفه للأقاليم الفرنسية :

« ان هذا الأقاليم المتنوعة (فى فرنسا) كأنها خلقت لكى يتمم بعضها بعضا ، فينشأ من مجموعها كل متناسق يكون وطنا لامة واحدة قوية غنية » ثم يقول ساطع بعد أن يستعين بكلام ميشليه : «لذلك كله لا أتردد في القول بأن الذين يتخذون اختلاف البيئات والاقاليم الطبيعية دليلا على عدم امكان الوحدة الثقافية بين الاقطار العربية يتباعدون عن مناحى الحق والحقيقة » .

ويرد على القائلين بأن مصالح البلاد العربية تقتضى تنوع الثقافات بقولهم ان التعليم يجب أن يختلف باختلاف البيئات .. يرد الحصرى عليهم بأنهم يخلطون بين التعليم والثقافة فالتعليم شيء والثقافة شيء آخر ، وان تنوع معاهد التعليم لا يعنى تنوع الثقافة . ثم يطالب بتوحيد أسس المناهج واتجاهاتها ثم تنوع هذه الدراسة من حيث المفردات ، فساطع يرى أن التعليم ينبغى أن يختلف من قطر الى آخر بل من اقليم الى اقليم داخل القطر الواحد حسب البيئة والظروف الى ما شابهه ، لكنه ينبغى أن يتحد من حيث الأسس والاتجاهات .

وحين تأسست اليونسكو فى السادس عشر من نوفمبر عام ١٩٤٥ كتب ساطع يوضح أن هذه الهيئة انما هى وريثة لهيئة شبيهة بها تأسست عقب الحرب العالمية الأولى عرفت باسم لجنة التعاون الفكرى بين الأمم Commision Internationale de Cooperation Intellectuelle التى أنشئت ١٩٢١ .

ويطالب الحصرى بفصل اليونسكو عن الهيئة السياسية في

الامم المتحدة • ويطالب الدول العربية بالانضمام اليها • ويقول في مقال له نشرته مجلة العالم العربي في ١٠ من يناير عام ١٩٤٩ أن اهم الاعمال التي يجب ان نقوم بها داخل اليونسكو هي نشر الحقائق التالية :

أن السلام يجب الا يعني — كما هو الحال الآن السلام بين الدول القوية والظافرة وحدها ، بل يجب ان يشـمل الأقوياء والضعفاء • والسلام الحقيقي لا يتحقق الا اذا زالت من النفوس شهوة السـيطرة والاستعمار ، واذا شاءت اليونسكو خدمة السلام العالمي فعليها أن تشن حربا على فكرة السيطرة والاستعمار •

ثم يكتب رسالة باللغة الفرنسية يرسلها الى جوليان هكسلي الذي كان مديرا لليونسكو ردا على ماكتبه عن البلاد العربية في تقرير رفعه (هكسلي) الى المؤتمر الثالث لليونسـكو ببيروت •

ونجد ساطع يهاجم فيما كتبه فكرة انشاء فرع لليونسكو باسم فرع الشرقين الأدنى والأوسط بحيث يشمل تركيا وايران وأفغانستان وبلاد الجامعة العربية • ويقول ساطع : نحن نريد أن نتعاون مع اليونسكو وهي غير منقسمة الى حجر متحاجزة ، وينبغي لهذه المنظمة أن تتجنب معبة الانقسام الى حجرات اقليمية ، ومهما كان الأمر فلا تود أن نحجز في حجرة خاصة ولا سيما هذه الحجرة التي يسمونها الشرق الأدنى والأوسط •• نحن نريد أن نتعاون مع جميع أمم العالم داخل منظمة اليونسكو بصفتنا عربا لاشرقيين .. واما علاقاتنا الثقافية مع بعض الدول فنحن نريد ان تتم مع هذه الدول باتفاقات مباشرة دون وساطة اليونسكو •

بنى ساطع معارضته لفكرة مركز أقليمي لليونسكو يشـمل دول الشرقين الأدنى والأوسط على أن الثقافة لايمكن أن تخضع للأسس الجغرافية ولا لتحديداتها • فالمكسـيك والأرجنتين قريبتـان جدا من الثقافة الاسبانية برغم عظم المسافة التي تفصل بينهما

وبين اسبانيا ، كذلك مدينة دوفر الانجليزية بعيدة جدا من الوجهة الثقافية عن مدينة كاليه الفرنسية بالرغم من القنال الذى يقربهما. وعلى ذلك يرى ساطع ان سورية اقرب الى تونس منها الى تركيا والعراق أقرب الى مراكش منه الى ايران . فانشاء مثل هذا المركز هو ضد طبيعة الأشياء وضد مصلحة اليونسكو نفسها .

وينفى ساطع أن وراء ذلك تعصبا دينيا لأن تركيا وايران والأفغان التى تريد المنظمة ضمها للبلاد العربية بلاد مسلمة .

وحين يهاجمه هكسلى مدير المؤسسة بالقول بانه يوجد فى الشرق الأوسط حزب قوى يعارض مشروعات اليونسكو بدافع من القومية السياسية والتعصب الدينى والانحصارية الثقافية التى تغار من كل حركة ترمى الى توسيع المنظمة الثقافية بقبول عناصر من غير المسلمين أو من غير العرب ، وتؤثر الانعزال الثقــافى المبنى على اساس اقليمى ، يفند ساطع هذا القول بقوله ان انشاء المنظمة نفرع لها فيما تسميه الشرق الأوسط أو الأدنى انما هو الانعزالية الثقــافية بعينها المبنى على أساس اقليمى ، ويدافع عن الاستقلال الثقافى ويقول : اننى لم أكن فى يوم من الأيام نزوعا الى الانعزالية فى ميدان الثقافة (لأنى اعتقد اعتقادا لايتزعزع ان الثقافة العربية العصرية التى نصبو اليها يجب ان تتغذى بجميع مكتبات العلوم الحديثة وتنتعش بأثمن ما فى مختلف الثقافات العصرية) .

واكد ساطع رأيه فى الاستقلال الثقافى بانه لا يعنى الانعزال عن الثقافات الأخرى بأن الدول العربية وهى تؤمن بهذا الاستقلال الثقافى قد بذلت جهودا للاستفادة من الثقافة الغربية من ايفاد البعثات الى ترجمة الكثير من امهات الكتب الأجنبية .

ثم ســـعد ساطع حين لم يخرج مشروع هكســـلى الى حيز الوجود فلم ينل وقتها أكثرية الآراء فى مؤتمر اليونســكو الذى انعقد فى بيروت .

ثم نراه وقد حمل حملة شعواء على سياسة الاستعمار تجاه الثقافة العربية وحرصه (الاستعمار) فى كثير من البلاد التى خضعت للنفوذ الاستعمارى الى اتبـــاع السياسة التعليمية للدولة صاحبة الاحتلال . وأما رأى ساطع فى المعـــاهد التعليمية التى يسمح بها الاستعمار فهى ذات أنواع ثلاثة :

١ ـ معاهد يؤسسها المستعمرون فى الوطنى الأصلى لخدمة الاستعمار .

٢ ـ معاهد يؤسسها المستعمرون في المســتعمرات لتربية ابنائهم .

٣ ـ معاهد يؤسسها المستعمرون فى المستعمرات لتربية أولاد الأهلين فى القطر المستعمر .

ويتناول فى كتابه آراء فى العلم والأخلاق والثقافة فى استفاضة هذه الأنواع الثلاثة من المعاهد ، ويقول : ان الاستعمار بعد ان كان يتبع سياسة عدم تعليم أحد من أبناء المستعمرات حرصا على نفوذه عاد فوجد أنه من مصلحته تعليم عدد من المستعمرين ولكن فى نطاق ضيق ولغرض محدود . واذا كان الاستعمار قد واجه مشكلة الخوف من تعليم الأهالى فى المستعمرات خشية أن تقوى فى نفوسهم روح الثورة وعملهم على المطالبة بالحرية والاستقلال، فقد اهتدى هذا الاستعمار على حد قول ساطع الى اتباع طريقة التعليم من غير تثقيف أى التعليم لغاية معينة محدودة مجردة من عناصر الثقافة وعواملها . ويحمل ساطع على سياسة الفرنسيين التعليمية فى الجزائر التي تسببت فى اهمال اللغة العربية (١) .

---

(١) المعروف عن الفرنسيين أن استعمارهم اقترن بسياسة ثقافية ترمى الى احلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة الافريقية وقد بدأ تطبيق هذه السياسة اولا فى ظل المبدأ الذى عرف الفرنسة الاجماعية أو الاستيعاب .

وهى سياسة تقوم على ترجمة اللغة والمفاهيم والمنظمات الفرنسية ارجع الى كتاب نزيه ضيف ميخائيل : النظم السياسية فى افريقيا ص ٢١ .

كذلك يحمل ساطع على الكتاب العرب الذين ينادون باتباع اللغات العامية ، ويستندون في قولهم هذا انه اذا كان لا بد من نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب ، فلماذا لا نعمد الى تعليمه بالعامية .. ويرى ان هذه النزعة عند بعض الكتاب انما هو ترديد لسياسة استعمارية ترى ان اللغة الفصحى هى التى تصل البلاد العربية بعضهـــا وهى التى تنقل الأفكار من قطر عربى لآخر . فاذا ماتوقفت حركة نشر اللغة الفصحى فى البلاد العربية وقامت حركة ترمى الى انعاش وتدعيم اللغات العامية : فلا بد من أن يصبح لكل قطر من الأقطار العربيـــة بعد مدة لغة خاصة به ، فيزول بذلك خطر فكرة اتحاد بين الدول العربية . ونجده يحذر من شأن ما تتبعه أجهزة الثقافة ووســائلها من اتباع للعامية كالمسارح والسينما ، والندوات الثقافية ، والتمثيليات الاذاعية ، والأحاديث المختلفة ، وينبه المفكرين القوميين الى هذا الخطر ويرى أن واجبهم هو اتخاذ التدابير اللازمة لوقاية الأمة العربية من شر هذا التيار .

ويرى ساطع الحصرى أن التباعد بين ثقافات البلاد العربية جاء من عدة عوامل : الخضوع للسيطرة العثمانية فكان هناك ما يمكن تسميته تشارك ثقافى حيث التركية هى اللغة الرسمية والعربية اللغة الدينية ، التركية لغة التعليم التى دخلها كثير من كلمات اللغة العربية ، ومن هذه الناحية يصل الى القول بأن الأتراك والعرب أو الثقافة العربية والتركية أثر كل منهما فى الآخر . ثم تناول ما حدث بعد الاستقلال عن الاتراك حيث خضع العرب لســيطرة ثانية : فتغلبت الثقافة الانجليزية فى بعض البـلاد والفرنسية فى بعضها الآخر ، ولقد ادى ذلك من وجهة نظره الى كسب الثقافة العربية منظرا مشوشا الى آخر حدود التشويش لا يكاد يختلف عن الفوضى التامة مما جعل المخلصين من أبناء الأمة

العربية فى جميع بلاد هذه الأمة يدركون الأخطار العظيمة التى تأتى من هذه الفوضى الثقافية ، ورأى ساطع ان علاج ذلك هو بذل الجهود لتخليص الثقافة العربية مما لحق بها من شوائب .

وعندما وافق مجلس جامعة الدول العربية فى جلسته المنعقدة فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٥ على المعاهدة الثقافية (وكان ساطع عضوا فى اللجنة الثقافية وهى احدى اللجان التى تألفت وفق احكام ميثاق جامعة الدول العربية واعدت مشروع هذه المعاهدة الثقافية) كتب بعد توقيع هذه المعاهدة فى حوليته الأولى للثقافة العربية يقول :

« ويجب ان نلاحظ أن الغاية التى ترمى اليها الدول العربية من عقد هذه المعاهدة الثقافية لا تقتصر على تقوية العلاقات الثقافية فيما بينها كما هو المعتاد فى المعاهدات الثقافيـــة التى تعقد بين الدول الأوربية والأمريكية ، بل أنها تتعدى ذلك الى غاية أسمى وأوســـع ، وهى تقريب وتوحيد نظم التعليم فى مختلف البلاد العربية وضمان تعاون جميع الدول العربية فى سبيل تكوين (ثقافة عربية موحدة) تستمد قوتها من تاريخ الأمة العربية ، وذلك لأن جميع الشعوب العربية تعتز بتاريخ مشترك طويل وحين يتكلم بلغة واحدة ، كما انها تجابه مشاكل خطيرة متشابهة وتندفع نحو غايات متماثلة يجب أن تعتبر نفسها لذلك كله بمثابة شعوب منتسبة الى أمة واحدة .. ويلاحظ مفكرو هذه الشعوب أن الظروف السياسية التى سيطرت عليها منذ مدة باعدت بين نظمها التعليمية تباعدا غريبا وأوجدت فى شئونها الثقافية الشىء الكثير من البلبلة والفوضى فأصبح من واجب الدول العربية بعد أن نالت استقلالها السياسى وصارت سيدة شئونها العامة أن تعمل عملا متواصلا لازالة هذه الفروق الموروثة من الأوضاع السياسية

الماضية وأن تسعى بكل الوسائل وراء تكوين (ثقافة عربية عصرية موحدة)

ويؤكد ساطع ان هذا هو الهدف الأسمى لما تسعى اليه جامعة الدول العربية فى الشئون الثقافية والغرض من المعاهدة الثقافية .

لكن ساطعا الذى علق الأمل الكبير على جهود جامعة الدول العربية فى سبيل توحيد الثقافة العربية سرعان ما أصيب بخيبة أمل من جراء عدم تحقيق هذه الجامعة للكثير مما ينبغى عليها أن تحققه فى هذه الناحية .. فلا هى اصدرت التقويم الخاص بالبلاد العربية ، هذا التقويم المفروض فيه أن يشتمل على كل المعلومات المختلفة المتصلة بالشئون الثقافية والادارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ليكون مرجعا يوثق به فى التعرف على شئون هذه البلاد ، ولا هى فهرست للمطبوعات العربية برغم ماقررته اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، فى دورتها الرابعة التى عقدت فى لبنان . كذلك لم تصدر الجامعة العربية كتابا فى جغرافية البلاد العربية ، برغم ما قرره المؤتمر الثقافى العربى الأول بأنه يوصى الادارة الثقافية بجامعة الدول العزبية ان تتخذ ما يلزم من الاجراء لاعداد اطالس وخرائط جغرافية للبلاد الغربية، كما قرر المؤتمر انه نظرا الى الحاجة الماسة الى مؤلف مفصل يتناول جغرافية البلاد العربية جميعا يكون بمثابة مرجع جغرافى يحوى آخر ما وصل اليه العلم .

وتحقيقا لهذه الغاية يوصى المؤتمر ان تتولى جامعة الدول العربية تأليف لجنة فنية لاتخاذ الوسائل اللازمة لتنفيذ هذا الاقتراح . لكن شيئا من ذلك لم يتحقق مما دفع ساطع الى ان ينتقد جامعة الدول العربية من هذه الناحية .

كذلك يلاحظ الحضرى انه كان من مقررات المؤتمر الثقافى العربى الأول المنعقد سنة ١٩٤٧ .. عقد مؤتمرات دورية لمعلمى اللغة

العربية لاهمية هذه اللغة ، فهى كما جاء فى مقررات المؤتمر عماد الثقافة العربية .. لكن شيئا لم يتحقق من ذلك هو الآخر بالاضافة الى قرارات اللجنة الثقافية اتخاذ الاجراءات لمكافحة الأمية ، وتعليم اللغة العربية فى المهاجر وفى البلاد غير العربية . كل هذا بقى كما يقولون حبرا على ورق ومقررات لم تخـرج الى خير التنفيذ ، كما أن قرارات اللجنة الثقافية بتوجيه السينما فى البلاد العربية ومراقبة الأفلام التى تعرضها دور اللهو واعداد افلام ثقافية لم يتحقق شيء منه .

أما بخصوص الأذاعة في البلاد العربية ، فقد كان من قرارات اللجنة الثقافية فى دورة انعقادها الثانية العمل على تقوية الاذاعة العربية حتى تسمع فى كل بلد عربى ، وأن تلتزم هذه الاذاعات العربية باستعمال اللغة الفصحى قدر المستطاع .. كذلك تقرر توصـية الدول العربية تنظيم اذاعات مدرسـية يتولاها رجال التربية والتعليم لتثقيف النشىء فى البلاد العربية .. كذلك كان من بين قرارات اللجنـة الثقافية سنة ١٩٤٨ قرار بأن يعهـد مجلس جامعة الدول العربية الى الأمانة العامة للجامعة انشاء محطة اذاعة كبرى تتضمن نشر الثقافة العربية والتعريف بهـا داخل البلدان العربية وخارجها . وفى نفس هذه الدورة قررت اللجنة قرارا يصفه الحصرى بأنه هام جدا ينص على أن تتبع الطرق الآتية للاستفادة من الاذاعة فى نشر الثقافة العربية : اذاعة حفلات شهرية مسـجلة تشـمل أغانى واناشـيد وموسـيقى وقصص ومسرحيات تتخللها معلومات ثقافية ، واعداد أحاديث فى الثقافة الدينية يقوم بها كبار المتحدثين .

وحين يستعرض ساطع كل هذه القرارات التى لم تصدر الا بعد دراسة جادة عميقة أثبتت أهمية هـذه القـرارات وضرورة المبـادرة بتنفيذها : يخلص الى انه برغم ذلك فان شيئا منها لم

ينفذ ، وكأن القرارات شيء والتنفيذ شيء آخر أو كأن القول شيء والعمل شيء آخر .

ومن بين مقررات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٧ .. تكليف الكتاب بكتابة المقالات التى تعالج القضايا العربية، وبدأ التنفيذ بأن أصدرت الادارة الثقافية سنة ١٩٤٩ .. الجزء الأول من كتاب عنوانه العالم العربى لكنها انقطعت بعد ذلك عن العمل فى هذا السبيل .

كذلك فانه بالرغم من أن من بين قرارات مؤتمر الثقافة العربية فى سنة ١٩٥٠ الذى انعقد بالاسكندرية قرار بالاعداد لمؤتمر ثقافى عربى ثالث ، وتأليف لجنة برياسة الدكتور طه حسين، وباشتراك ممثلى الحكومات العربية والادارة الثقافية بجامعة الدول العربية للمعاونة للاعداد للمؤتمر المقبل ، كما تقرر ان يكون من أعمال هذه الادارة الثقافية وضع كتاب عن خصائص الثقافة العربية ومقوماتها ، والمشكلات التى تواجهها ، ووضع كتاب فى وصف خصائص الثقافات الغربية بهدف عمل المقارنة بينها وبين الثقافات العربية ، وكان من المفروض كذلك ان تقوم الادارة الثقافية بجمع الوثائق والاحصاءات عن حال الثقافة الحاضرة فى البلدان العربية .

لكنه حين عقد مؤتمر الثقافة العربية فى بغداد سنة ١٩٥٧ لم يبحث أية مسألة من هذه المسائل ، كذلك اتخذت اللجنة الثقافية فى تواريخ مختلفة قرارات عدة بشأن الترجمة والتأليف منها نشر صحيفة دورية تعرف بالانتاج فى مجال التأليف والترجمة فى العالم العربى ، وما قررته اللجنة الثقافية فى سنة ١٩٥١ من تخصيص جائزتين الأولى لأحسن كتاب عربى علمى أو أدبى يخدم فكرة تتصل بتحقيق أهداف الجامعة العربية .

ولكن الصحيفة المذكورة لم تصدر ، وأما ترجمة بعض الكتب ففي رأيه انها خرجت عن خطتها في هذا المجال .

وفي مجال التربية الوطنية كان من قرارات مجلس جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٢ بناء على ما عرضته عليه اللجنة الثقافية قرار يتعلق بالتربية الوطنية ، وهو ان تعتنى الدول العربية بالقدر المشترك فى كتب اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، كذلك أوصى المجلس الحكومات العربية ألا تقرر جهات الاختصاص للتدريس الا الكتب التى عنى مؤلفوها باستيعاب القدر المشترك من عناصر الثقافة العربية .

ويرى الحصرى أن ذلك ايضا كله قد اهمل تنفيذه .

كذلك يحمل ساطع على أولئك الكتاب الذين يتحدثون عما اسموه امما عربية ، فليس هناك سوى أمة عربية واحدة ، وهو بهذا يشير الى ما جاء فى بعض القرارات التى طبعتها الادارة الثقافية سنة ١٩٥٦ وجاء فيها كلمة أمم عربية .

ومن أهم جهود ساطع فى المجال الثقافى أثناء توليه منصب المستشار الفنى للادارة الثقافية بجامعة الدول العربية هو انشاؤه لمتحف الثقافة العربية سنة ١٩٤٩ ، وجعله تابعا للادارة الثقافية وعلق ساطع على انشائه أهمية كبيرة . فلقد كان هدفه من هذا المتحف كما سبق لنا القول هو جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالثقافة العربية ونظم المعارف ، واعطاء فكرة واضحة عن الفروق القائمة بين كل قطر عربى فى المجال التعليمى والثقافى .

وبعد أن أعدت جامعة الدول العربية مكانا مناسبا لهذا المتحف عادت فنقلته الى مبناها الجديد ولم تعطه المكان المناسب به . وساء ساطع أن المتحف قد تقلص وتوقف عن النمو وانحصر فى غرفتين وتحول الى مايشبه المخزن .

واحب أن أشير هنا الى أمر ينبغى توضيحه ذلك أن ساطعا حين انتقد الجامعة العربية فى بعض جوانب نشاطها لم يقصـــد أبدا الاساءة الى أحد من العاملين فيها او المسئولين عنها وانما كان نقده نقدا موضوعيا يهدف منه الى الاصلاح ، ومن أجل هذا ظل يؤثر الكل بحبه وظل الكل يؤثرونه بحبهم • ويوضح سبب نقده بأن المؤسسات التى تنشأ لأغراض خاصة وأهداف معينة يترتب عليها ألا تنفك عن التفكير فى تلك الاغراض ، وعن التوجه نحوها ، والعمل من أجلها مع البحث عن أفضل الســبل الى تحقيقها ، ان هذه الابحاث الانتقادية تهدف الى نقد الاعمال والخطط والاتجاهات واظهار ما طرأ عليها من انحرافات ، وتدعو الى الاصلاح وفق ما تقتضيه الرسالة العلمية والقومية السامية التى انشئت من اجلها اجهزة الثقافة التابعة لجامعة الدول العربية .

فهو مثلا يشيد بمعهد المخطوطات العربية الذى أنشىء سنة ١٩٤٦ ، ومهمته جمع فهارس المخطوطات العربيـــة فى دور الكتب العــامة والخاصــة ، وفهارس المخطوطات التى يمتلكها الأفراد لتوحيدها في فهرس عام ، وتصوير أكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة لكى توضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء ، كذلك من مهمة هذا العهد طبع صــور المخطوطات القيمة ذات النص الصحيح والخط المقروء ، والى جانب هذا كله فان من مهمة المعهد تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسســات العلمية فى سبيل نشر المخطوطات ، وتزويد الناشرين بالمعلومات اللازمة عن المخطوطات التى يعنون بها .

اشاد ساطع بهذا المعهد فكتب عنه فى الحولية الأولى « واصل المعهد اعماله وفق الخطة المقررة له وبلغ عدد المخطوطات التى صورها ٢٠ الف مخطوطة » .

أما مفخرة ساطع فى المجال الثقافى فهى بلا شك حولياته

الضخمة الواسعة التى أصدر منها ستة أعداد وتناول فيها الاحوال الثقافية فى البلاد العربية ما بين سنة ١٩٤٥ ، سنة ١٩٦٢ .

صدرت أول حولية لساطع سنة ١٩٥٠ حيث تناول فيها الشئون الثقافية لخمس دول عربية هى مصر والعراق ، وسوريا ، ولبنان والاردن فى الفترة ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٠ وصدرها بمقدمة وضعها فى صدر باقى حولياته ، وكأنه يريد بذلك أن يركز على الغرض من هذه الحوليات ، والتذكير بذلك دوما .

أما أهم هذه الأغراض التى توخاها ساطع من حولياته الثقافية فهى كما استطعنا أن نلخصها على النحو التالى :

١ ــ اراد ساطع ان يبرر سبب تناوله للاحوال الثقافية فى البلاد العربية فى عدد من السنين فى كتاب يصدر باسم الحولية ــ مع ان المعروف انها (الحولية) تؤلف من حيث الأساس لاستعراض الاحداث فى عام واحد ، أو حول معين ومن أجل هذا تسمى بالحولية ــ فقال ان فهم الأحوال فى عام معين يتوقف على معرفة ما سبقه فى اعوام ، ومن ثم فان مؤلفى الحوليات يضطرون الى افتتاح مباحثها بمعلومات عامة عن الأحوال الراهنة ، والعوامل التى اثرت فى تلك الأحوال .

ثم هو يوضح مدى ما واجهه من صعوبات فى عمله ، ذلك ان الكتب التى تصف الاحوال الراهنة فى ميادين الثقافة تكاد تكون مفقودة لا بالنسبة الى البلاد العربية بمجموعها فحسب ، بل بالنسبة الى كل قطر من الأقطار العربية بمفرده أيضا ، حتى أصبح من يود الحصول على فكرة واضحة حتى ولو كانت اجمالية عن الأوضاع الثقافية فى أى قطر من الاقطار العربية يضطر الى مراجعة عدد كبير من الكتب والمطبوعات بعضهـا موجود متوافر وبعضها غير موجود ولا متوافر .

٢ ــ هناك غرض أهم من سابقه وهو ان الثقافة العربية لم

تكن من الثقافات المنطوية على نفسها ، بل انهـا من الثقافات الواسعة من الوجهتين المادية والمعنوية ، فلقد لعبت دورا هاما فى تاريخ الحضارة العالمية . واللغة العربية كانت فى حقبة من الزمن لغة العلم فى كل انحاء العـالم المتمدين ، وهى لا تزال لغة الدين فى عالم فسـيح الأجاء ، والتاريخ العربى يمثـل لذلك عهدا من أهم العهود فى التاريخ العام . ولهذه الأسباب كلها يرى ساطع أن الشئون العربية تسترعى أهتمام الكثير من الباحثين فى عدد غير قليل من معاهد البحث والتعليم في كثير من البلاد الغربية لغايات علمية تارة وسياسية تارة أخرى ، لذلك كان من الواجب أن تكون هناك هذه الحوليات التى تمثل مصادر للبحث للكثيرين من أبناء الأمة العربية وغيرهم ، فضلا عن أن الكثير من المصـادر التى اعتمدت عليها هذه الحوليات بعضها ضـاع وانقرض وأهمل حفظه ، ومن ثم كانت هذه الحوليات وثائق هامة ليس هناك شيء يقلل من شأنها .

أما المنهج الذى اتبعه سـاطع فى هذه الحوليـات فكانت الدراسة الموضوعية والوصف الحيادى كما قال .. « هذا ولا بد لى من التصريح اننى وصفت الأحوال الراهنة وصفا حياديا ذلك لاعتقادى ان للنقد مجالات أخرى غير صحائف هذه الحوليات التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية .. واذا صادف القراء فى بعض مواضع هذه الحولية ما يشبه نقد هذه الأوضاع أو الدفاع عنها فأرجو ان يلاحظوا فى الوقت نفسه ان تلك الكلمات منقولة عن الوثائق الرسمية بغية اظهار النزعات والاتجاهات التى تحوم حول تلك الأوضاع ، وهى لا تعبر قط عن رأيى الشـخصى فى الأمر ، فلا تخـرج لذلك عن نطاق الخطـة الأساسية التى ذكرتها آنفا خطة وصف الاحوال الراهنة . وعلى كل حال استطيع أن أوكد اننى لم أبد رأيا شخصيا الا فى وضع

واحد من الحولية ، وهذا الموضـــع هو قائمة النظريات التاريخية التى تتقدم على المقارنات العامة وقد قلت هناك ما يلى : يظهر من هذه النظريات السريعة التى القيناها على تاريخ المعارف فى مختلف الاقطار العربية أن الفروق التى تشاهد بين هذه الاقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية . وحاجاتها الحقيقيه ، انما كانت من نتاج السياسات الأجنبية التى ســيطرت على مقدراتهـا عن طريق الانتداب او الاحتلال » .

واذا كان ســاطع قد التزم لنفســـه منهجا هو عدم نقد الاوضاع القائمة او المؤسسات المشرفة على شئون التعليم والثقافة عند كتابته لهذه الحوليات ، فان رأيه الشـــخصى كان يبرز فى بعض المواضع من هذه الحوليات ، مثال ذلك ماكتبه فى الحولية السادسة عند حديثه عن العلاقات الثقافية بين الدول العربية والدول الاجنبية ، فهو يتحدث عن اليونسكو وعن المشروع الذى كان قد تقدم به مديرها السابق لانشاء مركز اقليمى للثافة فى الشرق الأوسط يتبع ذلك بقوله (ولم يدرك مدير اليونســكو) أن الثقافة لاتتبع الجغرافيا الطبيعية فضلا من أن مفهوم الشرق الأوسط وليد اعتبارات سياسية أكثر مما هو نتيجـة ملاحظـــات جغرافية) ولايذكر ساطع أنه هو الذى هاجم هذا المشروع فيقول انه عندما عارضته بعض الجهات تعدلت الفكرة واتجهت الى انشاء مركزين اقليمين يختصان بالعالم العربى وحده :

١ ــ مركز اقليمى للتربية الاساسية فى العالم العربى .

٢ ــ مركز اقليمى لتدريب كبار موظفى التربية فى الدول العربية .

وخصص ساطع حوليته الأولى لدراسة خمس دول من

الدول العربية المستقلة لكنه في الحوليات التى تلت ذلك تناول الدول العربية المستقله وغيرها من الدول التى كانت لاتزال خاضعة للاحتلال الى جانب الامارات والشيخات العربية ٠

ففى الحولية الثانية اضـاف الى ابحـاثه المملكة العربية السعودية ، وكذلك الأقطار العربية التى كانت خارج الجامعة العربية وهى بلاد المغرب العربى . كذلك درس ساطع فى هذه الحولية الاوضاع التعليمية والثقافية فى ليبيا والامارات العربيـة بجانبها امارة الكويت والبحرين .

أما فى حوليته الثالثة فقد تناول فى كتابها الأول الأقطار العربية المستقلة ، ثم تناول بالدراسة الاقطار العربيـة المحرومة من الاستقلال والباقية خارج جامعة الدول العربية ، وخصص الكتاب الثالث للنشاط الثقافى فى جامعة الدول العربية ٠

رأى ساطع أن أبحاث الثقافة العربية يجب أن تشمل الأمور التالية :

١ ـ المعاهد العلمية والمؤسسات الثقافية القائمة فى بلاد الدول العربية المتنقلة والحركات الثقافية التى تتجلى فيها ٠

٢ ـ الأوضاع لثقافية من علمية وتعليمية فى البلاد المختلفة ٠

٣ ـ الدراسات والتدريبات التى تقوم بها معاهد البحث والتعليم في البلاد الغربية والشرقية عن كل ما يتصـل بالعرب والعروبة .

لكنه يرى ان استيفاء هذه الأبحاث كلها فى كتاب واحد مع ما تستلزمه من مقدمات من الأمور المتعسرة جدا ، لذلك راى أن يوزعها على حولتين أو ثلاثة ، وأن يقصر أبحاث الحولية الأولى على الأوضاع الثقافية القائمة فى البلاد العربية المستقلة وحدها ٠٠

كانت تلك خطته التى اوضحها فى مقدمة حولتيه الأولى التى جاءت فى حوالى ٦٢٣ صحيفة .

ثم رأى أن يتوسع فى حولتيه الثانية بعض التوسع فى وصف الشئون الثقافية بمعناها العام . لكنه يعتذر للقارىء انه لم يجد من المتسع الضرورى ما يسمح له باستيفاء هذه الأبحاث لكثرة المباحث المتعلقة بنظم التعليم ومناهجه .. ورأى أنه بقى لاتمام الخطة التى ذكرها والتزم بها أمام القارىء العربى والتى اوضحها فى مقدمة حوليته الأولى مهمتان أساسيتان : .

١ ـ التوسع فى أبحاث المؤسســات الثقافية والحركات الثقافية .

٢ ـ استعراض كل مايتصل بالثقافة العربية فى خارج البلاد العربية ولا سيما فى المهاجر التى تضم جاليات عربية كبيرة

ووعد ساطع القارىء بأن يقوم بهذه المهام فى حوليته القادمة (الثالثة) .

فاذا ما كتب حوليته الثالثة التى صــدرت له سنة ١٩٥٣ والتى كتب مقدمتها فى برمانا بتاريخ ١٩٥٢/١٠/٣ يعتذر للقارىء انه لم يف بما وعد بسبب أن الابحاث والوثائق التى تجمعت لديه عند كتابة هذه الحولية كانت كثيرة ومتنــوعة ، ومن ثم فقد رأى من الاوفق تأجيل قسم من تلك الأبحاث الى الحولية الرابعة .

ثم اراد ساطع أن تكون الحولية الرابعة هى آخر الحوليات التى يصدرها وخاتمتها فهو يقول فى قائمة هذه الحولية : « هذه الحولية الرابعة هى خاتمة حوليات الثقافة العربية التى اخذت على عاتقى مهمة متابعتها قبل نحو خمسة اعوام . انها تتمم الحوليات الثلاث السابقة ، وتؤلف معها شبه موســوعة تضم

مجموعة من المعلومات والوثائق الأساسية عن أوضاع التعليم واتجاهات الثقافة فى مختلف أقطار العام العربى فى أواسط القرن العشرين • هذه المعلومات مسرودة على وجه الاجمال حتى السنة الدراسية ٤٧ ، ٤٨ وعلى التفصيل منذ السنة المذكورة حتى السنة الدراسية ٥٢ — ١٩٥٣ .

ثم يتواضع ولا يحب المفاخرة فيقول : « انى لا ادعى الكمال فى هذه الحوليات ، بل بعكس ذلك اعرف وأعترف بأنها فى حاجة الى المزيد من المعلومات فى كثير من فصولها ، ومع هذا أقول ان هذا ما استطعت أن اجمعه بعد بذل جهود عظيمة ومتواصلة ..

« فقد نشرت هذه الحوليات على الرغم من النواقص التى اشرت اليها اعتقادا منى بأنها ستفيد الباحثين وستوفر عليهم كثيرا من المشاق وتركت الى غيرى من الأفراد والهيئات مهمة العمل على اتمام نواقصها من ناحية ، وعلى اصدار أمثالها من ناحية أخرى .

« انى التزمت فى هذه الحوليات الخطة التى صرحت بها فى مقدمة الحولية الأولى . انى وصفت الاحوال الراهنة وصفا علميا حياديا دون ان اسمح لنفسى بابداء رأيى الشخصى فيها لا استحسانا ولا استهجانا ، ذلك لاعتقادى بان للنقد ميادين ومناسبات أخرى غير صحائف هذه الحولية التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، والتى يترتب عليها أن تصف الاحوال الثقافية كما توصف خصائص الأرض والمناخ فى كتب الجغرافيا الطبيعية .

« واذا صادف القراء فى بعض المواضع من هذه الحولية ما يشبه نقد الأوضاع أو الدفاع عنها ، فأرجو ان يلاحظوا فى الوقت نفسه ان تلك الكلمات منقولة عن الوثائق الرسمية بغية

اظهار النزعات والاتجاهات التى تحوم حول تلك الأوضاع ، وهى لا تعبر عن رأيى الشخصى في الأمر ، فلا تخرج لذلك عن نطاق الخطة الأساسية التى ذكرتها آنفا خطة وصف الأحوال الراهنة كما هى وصفا علميا » .

وشعر ساطع ان انتهاءه من هذه الحولية وتوقفه عندها سيعطيه الفرصة لينقد ما لم يستطيع ان ينقده وهو يكتب هـذه الحوليات فنجده يقول :

« غير أنى فى هذه اللحظة التى اتحرر فيها من أعباء تأليف هذه الحوليات أشعر أنه يترتب على واجب آخر ، وهو نقد هذه الأوضاع . وابداء رأيى الشخصى فيها ، مع اقتراح التدابير الكفيلة باصلاحها . انى أشعر بهذا الواجب وأتمنى بكل جوانحى أن أجد فى المستقبل متسعا من الوقت بين أشغالى الثقافية الأخرى الى تأدية هذا الواجب » .

ونهج ساطع في هذه الحولية الرابعة النهج الذى سار عليه فى سابقاتها فهو يقسمها الى كتب ثلاثة : الكتاب الأول لدراسة الأقطار الداخلة فى نطاق جامعة الدول العربية ويسير فى ترتيبه لهذه الأطار على الترتيب الهجائى لأول حرف فيها فيما عدا فلسطين فهو يضعها فى أول هذه الأقطار ، وكأنه لحرصه على تأكيد بقاء فلسطين برغم احتلال الصهيونيه لأجزاء منها ، ورغبة منه فى ان ينقل هذا التأكيد للقارىء قد استثناها من ذلك الترتيب . ويلخص ما سبق ان كتبه عن فلسطين تحت عنوان نظرات عامة .

ان المعلومات الأساسية المتعلقة بتاريخ التعليم وانظمة المعارف وأوضاع المدارس فى فلسطين فى كل من عهد الحكم العثمانى وعهد الانتداب البريطانى ، ومنذ بدء الطغيان الصهيونى

مسطورة فى الحولية الثانية (ص ٣ ـ ٦٣) والمعلومات الاحصائية المتعلقة بتعليم ابناء اللاجئين فى كل من الأردن وسورية ولبنان وقطاع غزه حتى سنة ١٩٥٢ .. مسطورة فى الحولية الثالثة (ص ٦١ ـ ٧٠) ، وندرك فيما يلى الاحصاءات المتعلقة بالسنة الدراسية ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ . ثم يتبع ذلك باحصاءات عن عدد اللاجئين ، عدد التلاميذ ابناء اللاجئين .

اما الكتاب الثانى من هذه الحولية فتناول فيه الاقطار العربية خارج الجامعة العربية ، وكانت فى الوقت الذى كتب فيه ساطع ذلك هى تونس ثم امارة البحرين وامارة الكويت .. وخصص الحصرى الكتاب الثالث للنشاط الثقافي العام ، ثم النشاط الثقافى العام المستقل عن جامعة الدول العربية ، ثم بحث عن الثقافة العربية خارج البلاد العربية بين الجاليات العربية ـ الثقافة العربية فى البلاد الاسلامية (ايران ـ تركيا ـ باكستان) ـ الثقافة العربية فى البلاد الغربية (فرنسا ، انجلترا، ايطاليا ، اسبانيا ، البلجيك ، الولايات المتحدة الامريكية) .

أراد ساطع حين تناول هذه الأبحاث الأخيرة أن يكون عند وعده للقارىء فلقد سبق أن وعده فى حولياته السابقة (فى الثانية ثم الثالثة) ان يتناول بالدراسة الثقافة العربية فى خارج البلاد العربية ولا سيما فى المهاجر التى تضم جاليات عربية كبيرة ، كذلك سبق ان وعد بان يتناول بالدراسة ما تقوم به معاهد البحث فى البلاد الغربية والشرقية عن كل ما يتصل بالعرب والعروبة . ولكنه فى هذه الحولية تناول بالدراسة غير الموسعة ، وضع الثقافة العربية في بعض البلاد الغربية فقط .

ثم توقف ساطع ثلاث سنوات بعد صدور الحولية الرابعة . ثم نراه وقد عدل عما سبق أن قرره من توقفه النهائى عن اسدار

هذه الحوليات فاصـــدر الحولية الخامسة ، وقال في خاتمتها انه وان كان قد سبق ان وعد القارىء بان تكون الحولية السابقة هي خاتمة الحوليات الا انه عدل عن قراره ، وان كان قد انقطع بالفعل بعد اتمام الحولية المذكورة عن متابعة تطورات التعليم والثقافة فى مختلف البلاد العربية المنتظمة والمستمرة « التى كنت افرضها على نفسى بغية تأليف الحوليات » .

« ولكنى هذه السنة (١٩٥٦) عدلت عن القرار الذى كنت اعلنته عندئذ واقدمت على تأليف حولية خامسة (يلاحظ انه كتب الحولية الرابعة سنة ١٩٥٣) » .

ثم يوضح ساطع الســـبب الذى من أجله عدل عن قراره ، وبدأ جمع المعلومات والوثائق المتعلقـــة بالســـنوات الثلاث التى مضت على صدور الحولية الرابعة .

« أولا : انى تلقيت خلال السنوات المذكورة كثيرا من الاسئلة والخطابات التى تأسف لتوقف الحوليات وتتمنى الاســـتمرار على اصدارها .

« ثانيا : لقد لاحظت انه خلال السنوات الثلاث المذكورة حدثت تغييرات كثيرة وكبيرة فى أوضاع التعليم ونظمه فى مختلف الأقطار العربية ، فكثرت الأوضاع الجديدة التى تحتاج الى جمع وتدوين لاتمام المعلومات المدرجة فى الحوليات السابقة .

« ثالثا : لقد تخلصت هذه السنة من أعباء ادارة معهد الدراسات العربية العالية (فلقد اســـتقال من منصب مدير المعهد وذلك اعطانى مجالا لتخصيص قسم من أوقاتى لتأليف حولية خامسة لاتمام عملى السابق فى هذا المضمار .

« انى اقدمت على تأليف هذه الحولية لهذه الأسباب ، ولقـد

اتبعت فيها الخطة الأساسية التي كنت قد شرحتها فى مقدمة الحولية الأولى : سرد الاوضاع والنظم كما هى دون نقدها بوجه من الوجود . ولا حاجة الى الى البيان ان ذلك لا يعنى انى لم أجد ما يستوجب النقد بل بعكس ذلك ان الاوضاع والنظم المذكورة اثارت في ذهنى كثيرا من الملاحظات والانتقادات ، الا أنى لم اسمح لنفسى بدرج شيء منها في هذه الحولية ، لأنى اعتقد أن ذلك يجب أن يكون موضوع كتاب خاص ، أتمنى أن أجد الفرصة لنشره فى المستقبل ، لذلك تصدر هذه الحولية كسابقاتها متضمنة اتم المعلومات عن الاحوال الراهنة ومجردة عن النقد والتعليق » .

ومضى ساطع فى الحولية الخامسة على نهج سابقاتها من حيث تقسيمها الى كتب ، يتناول في الأول الأقطار العربية الداخلية في نطاق جامعة الدول العربية ، ويتناول فى الثانى نفس ما تناوله فى الكتاب الثانى من حوليته السابقة وهكذا ... الى آخره ..

وطالت الفترة التى توقف عندها ساطع حتى وصلت الى سبع سنوات ثم عاد فى سنة ١٩٦٣ .. ليصدر الحولية السادسة ، وقال انها عن الاعوام الدراسية ٥٧ ـ ١٩٥٨ ـ ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ٦١ ـ ١٩٦٢ .

اتبع ساطع فى هذه الحولية منهجا مخالفا لما اتبعه فى الحوليات السابقة .

وتعد هذه الحولية السادسة أضخم حولياته من حيث الحجم والمادة فهى تقع فى ٩٥٦ صحيفة . وكتب فى مقدمتها مبررا الاسباب التى دعته الى ان يعدل قراره بالتوقف للمرة الثانية ..

«أما الأسباب التى دفعتنى الى ذلك فكانت عديدة .

منها طلب الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية والحاحها

فى الطلب ، ومنها تعدد الاسئلة والطلبات التى تلقيتها من المهتمين بشئون التربية والتعليم والتثقيف فى البلاد العربية من ناحية وفى البلاد الغربية من ناحية أخرى . ومنها ملاحظتى بأن السنوات التى مضت على صدور الحولية الخامسة كانت تفيض بالتطورات السياسية التى اثرت تأثيرا واضحا على أوضاع التربية والتعليم، والتثقيف فى البلاد العربية وشعورى بأنه أصبح من الواجب على أن أقوم بتأليف هذه الحولية ما دام لم يقل ذلك احد الى الآن .

« لقد اتخذت قرارى الجديد وباشرت العمل فى تأليف هذه الحولية فى أواسط شهر تموز وأنا فى جنيف ولم أنته منه الا اليوم (٦٣/٣/١٨) وانا فى القاهرة .

« لابد لى من التصريح فى هذا المقام انى اتبعت فى هذه الاحوال والأوضاع كما هى وفقا للنصوص والتقارير والاحصاءات الحولية الخطة التى رسمتها وأعلنتها فى الحولية الأولى : السرد الرسمى دون أن ابدى رأيى الشخصى فيها .. لذلك أعيد طبع مقدمة السنة الأولى كما فعلت فى جميع الحوليات السابقة » .

بدأ ساطع دراسته فى هذه الحولية السادسة بنظرات ومقارنات عامة بين المؤسسات التى تتولى مهمة التربية والتعليم والثقافة فى البلاد العربية ، وكذلك لغة التعليم . وكأنه أراد بذلك ان يؤكد على الهدف الذى من أجله بدأ أول حولية ، وهو اظهار الفروق بغرض التقريب والعمل على ازالة هذه الفروق ما امكن بين الدول العربية .

ولم يقتصر فى بحثه على المدارس التابعة لوزارات التربية والتعليم فى البلاد العربية ، بل ادخل ضمنها بعض المدارس والمعاهد التابعة الى وزارات أخرى طالما انها تقوم بمهام تعليمية باستثناء الكليات الحربية التى قال انها خارج نطاق أبحاثه .. ومع هذا ادخل فى نطاق ابحاثه بعض المهام التعليمية التى تتولاها وزارة الدفاع الوطنى فى الأردن لأن الوزارة المذكوره تدير على حد قوله

بعض المدارس العامة التي انشأتها في البيئات البدوية . ولأن من بين هذه المدارس ما كان فى مستوى التعليم الابتدائى وما كان فى مستوى التعليم الاعـدادى والثانوى وبعضـها من نوع رياض الاطفال ، ولأن وزارة التربية والتعليم في المملكة الاردنية تدخل هذه المدارس فى الاحصاءات العامة .

قارن ساطع بين البلاد العربية من حيث اختلاف الاسم الذى تطلقه هذه الدول على الوزارات القائمة بالتعليم بعضها تسميها وزارة التربية والتعليم والبعض الآخر يطلق عليها وزارة التربية الوطنية ؛ كما هو الحال فى الجمهورية اللبنانية والمملكة المغربية والجزائر ، وتسمى عند البعض الآخر بوزارة المعـــارف ، وعند البعض بكتابة الدولة للتربية القومية (الجمهورية التونسية) ثم قارن بين النظم التعليمية فى هذه البلاد ولغة التعليم ثم تناول بالمقارنة التعليم المختلط (المدارس التى تتولى تعليم البنين والبنات معا وهى تعرف فى بعض البلاد العربية بالتعليم المختلط وفى بعضها الآخر بالتعليم المشترك) واوضح اختلاف موقف الحكومات العربية من مبدأ الاختلاط وجاء باحصاءات عن عدد الطالبات فى الجامعات العربية .

ثم اتبع ذلك بنظرات احصائية عن العام الدراسى ٦١ ـ ١٩٦٢ (المدارس ـ الجامعات ـ التعليم الفنى ـ البلاد العربية) .

وتناول بعد هذه الاحصاءات العلاقات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية (المكتب الدولى للتربية ـ اليونسكو)

كما درس ساطع فى هذه الحولية العلاقات الثقافية بين الدول العربية ، ثم اتبع ذلك بتناول الدول العربية مرتبة حسب حروفها الهجائية ؛ ويلاحظ انه لم يضع فى مقدمتها هذه المرة فلسطين وانما وضعها فى وضعها الصـــحيح من حيث ترتيب أول حروفها هجائيا . وبعدها تنـاول البـلاد العربية المحرومة من الاستقلال .

ومما يجدر ذكره انه أشار عند حديثه عن الدول العربية المستقلة ولأول مرة الى الجمهورية العربية اليمنية ، ولكن اشارته اليها جاءت عامة عابرة فى صحيفة واحـدة ولم يأت فيها بأى احصاءات عن المدارس أو غيرها بعد الثورة اليمنية واعتمد فى الاحصاء الذى جاء به على المدارس فى عهد ما قبل الثورة على نشرة للامم المتحدة .. واوضح انه طلب من المملكة المتوكلية اليمنية مرارا ان تمده بالمعلومات كما طلبت الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية منها البيانات فلم تستجب هذه الحكومة اليمنية .

وسعد ساطع بقيام الثورة اليمنية ، وكان يأمل أن يستطيع فيما بعد الحصول منها على بيانات عن التعليم فى الجمهورية اليمنية .

ولا نجد ساطعا يتناول فى هذه الحولية النشـاط الثقافى فى غير البلاد العربية أو الثقافة العربية فى البلاد غير العربية ، وانما اقتصر بحثه على النشاط الثقافى العام فى جامعة الدول العربية .

وكانت هذه آخر الحوليات التى أصدرها ساطع الحصرى ، وأما نقد الأوضـاع القـائمة فى البـلاد العربية من الناحيتين الثقافية والتعليمية ونقد نشـاط جامعة الدول العربية فى المجال الثقافى فقد بدأه ساطع فصدر له كتابه « ثقافتنا فى جامعة الدول العربية » الذى انتقد فيه الكثير من اعمال الادارة الثقافية ، ومعهد الدراسات العربية العالية ، على النحو الذى سبق أن أشرنا اليه.

ولم يستهدف ساطع من نقده عملية الهدم فحسب أو التجريح والتشهير وانما جاء نقده نقدا موضوعيا يستهدف الاشارة الى مواطن الداء بغية تشخصية والمبادرة الى علاجه . كان نقد ساطع نقد الوطنى المخلص الغيور على أمور أمته ، الحريص على أن تتبوأ أرقى مكانة لها بين الامم .

خاتمـــة

ارى من الواجب على قبل أن اختم هذا البحث أن اضع أمام القارىء العربى بعض الحقائق وان اعرض عليه بعض ما يعن لى من أفكار وآراء .

ان هذه الدراسة التى قدمتها عن ساطع الحصرى ليست سوى لمس لبعض جوانب هذه الشخصية ، ومن اصعب الامور على الانسان أن يتناول فى بحث واحد مهما بلغ حجمه شخصية كشخصية ســاطع الحصرى ، هو اشـــبه ما يكون بالموســـوعة العربية التى جمعت فحوت وتنـــاولت شتى المواضيع وركزت على كل شىء .

درس ســـــاطع علم الاجتماع وألف فيـــه ، وأفاض ودرس العلوم الطبيعية وكتب عنها الكثير ، وألف فيها عدة كتب كمـــا درس العلوم الرياضية وبانت مقدرته الفائقة فيها .

اما التاريخ والجغرافيا والسياسة فله فى كل من هذه العلوم باع طويل تشهد بذلك كتبه الكثيرة .. والى جانب هذا كله فله دراسته فى اللغات وآدابها والنقد الأدبى والأدباء واللهجات وغيرها من علوم اللغة .

لقد عاش ساطع الحصرى من أجـل أمته العربية ، رآها فى

حاجة الى المخلصين من أبنائها والى أجيال تؤمن بها وتعمل من أجلها فكانت دراسته فى علوم التربية وآراؤه فى التعليم سليمة صائبة تشهد الأيام بأنه ليس هناك خير منها لأبناء أمتنا العربية •

لكن الشيء الذى ينبغى أن يظل يذكره كل عربى بالفضل لساطع ، هو أنه كان على رأس الرعيل الأول الذى دعا الى القومية العربية ، والى تجسيد هذه القومية فى وقت كانت شخصية الأمة العربية قد ذابت فى شخصيات أخرى .. واتجه أبناؤها اتجاهات شتى • هناك من أعتنق فكرة الجامعة الاسلامية وتحمس لها وآمن بها ، ودعا البعض الآخر الى تحبيذ فكرة الاقليمية وبرزت هذه الفكرة واضحة جلية فى فكر الكثير من الكتاب والمفكرين المصريين فى أوائل هذا القرن ، وفى العشرينات والثلاثينات منه .. لكن ساطعا وقف يحارب كل هذه التيارات ويجند قلمه وفكره من أجل ذلك ، أخذ يبث روح التفاؤل والثقة فى نفوس أبناء الأمة العربية فى وقت انتشر اليأس والقنوط فى النفوس بفعل عوامل عديدة لا مجال لذكرها هنا ، ولكن أهمها واخطرها كانت جهود الاستعمار فى هذا السبيل •

وبدأت من هذه الناحية أبحاث القومية تحتل العديد من كتب ساطع وجاء فيها الكثير المكرر لكنه كان يقصد بالتكرار هدفا، ويرمى الى تحقيق غاية من ورائه • كان يذكر ، وكان ينبه ، وكان يعيد على السامع ، لأن الكتاب العرب فى ذلك الحين كانوا قد انصرفوا عن هذه الناحية واصبح القارىء العربى فى حاجة الى من يعيد اليه ويكرر عليه شيئا هجره الكتاب وخشوا مغبة تناوله حتى لا يتعرضوا لنقد أو تجريح ، أما هذا الشيء واما تلك الفكرة فهى القومية العربية التى اخلص لها ساطع كل الاخلاص •

ـ وينبغى أن نشير الى حقيقة سبق لنا ذكرها ، وهى ان

ساطعا فيما كتب عن القومية لم يكن من أولئك الكتاب السياسين الذين يسخرون القلم لخدمة حزب بعينه أو سياسة معينة . فالمعروف أن ساطعا لم ينتم لحزب من الأحزاب ، ولم ينتسب لسياسة من السياسيات ، لكنه تبنى فكرة سامية وأعتنق رسالة عليا وهي القومية العربية .

ومات ساطع والأمة العربية أحوج ما تكون اليه ، وأشد ما تكون طلبا لأفكاره وآرائه . وأقامت الجمهورية العربية المتحدة حفل تأبين له دعا اليه الاتحاد الاشتراكى العربى فى الخامس عشر من فبراير عام ١٩٦٩ ، ودعا فيه الاستاذ الدكتور لبيب شقير الجامعة العربية الى تخصيص أسبوع فى الجامعات العربية لدراسة فكر ساطع ودعوة الذين عاصروه وعملوا معه ، وشاركوه فى كثير من مراحل حياته والى أن يكتبوا مذكراتهم وذكرياتهم قبل ان يطويها الزمن في طى النسيان .

وبدأت الهيئات العلمية والثقافية فى اقامة الندوات لدراسة فكر ساطع ، وكانت المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر رائدة فى هذه الناحية حيث عقدت ندوة لذلك فى الرابع والعشرين من مارس عام ١٩٦٩ .

وأرى ان ساطعا الحصرى يحتاج الى شىء أكثر من ذلك وأعمق ، وهي ان تعتنق الأمة العربية آراءه وأفكاره وتعمل بها ، وتدعو اليها . عندئذ ترضى روحه وتهنأ ، وهذا ما قاله الاستاذ خلدون ساطع الحصرى عندما سئل عن افضل شىء تخلد به الأمة العربية ذكرى ساطع .

لقد أعطى ساطع الحصرى الأمة العربية كل فكره وجند من اجلها قلمه ووهب لها حياته وتعرض فى سبيلها للكثير من التشريد

والحرمان . وتمضى الأيام لتثبت أن الأمة العربية ليست فى حاجة الى شيء مثل حاجتها لفكر ساطع ولآرائه ومبادئه .

وأرى انه قد آن الأوان لأن تخصص لمادة القوميـــة العربية احد الكراسى فى كل كلية من كليات الجامعات العربية وان كنت أقترح ان يطلق على هذا الكرسى اسم ساطع الحصرى . كذلك فانى أرجو أن تطلق الجامعات العربية اسمه على احد مدرجاتها . هذا بالاضافة الى انه ينبغى ان تقف المجالس المحلية فى البـلاد العربية منه موقفها من كل الشـــخصيات العربية الكبرى فتطلق اسمه على أحد شوارع المدن العربية الهامة .

أما وزارات التربية والتعليم فى البلاد العربية فعليها دين ينبغى أن تفى به له ، لقد عمل ساطع فى مجال التربية والتعليم الجزء الاكبر من حياته ، وخرج بالكثير من الآراء فى هذا المجال ، لذلك ينبغى أن تتناوله الكتب المدرسية بالدراســـة فى المراحل المختلفة من مراحل التعليم .

كذلك انى على يقين أن الجامعة العربية هى الأخرى لن تبخل فى عمل الشيء الكثير من أجل ساطع الحصرى التى عمل فيها ، وتبنى الكثير من مشروعاتها ، وعلى رأسها معهد الدراسات العربيةالعالية .

كذلك يأمل المخلصون من ابناء هذه الأمة العربية من القائمين على شئون معهد الدراسات العربية العالية الشيء الكثير فى هذه الناحية واذا كان لا يحضرنى شيء محدد فى هذه الناحية فاننى أومن ان ادارة المعهد تفكر فى هذه الناحية ، وانها بسبيل اتخاذ الشيء الكثير فى هذا المجال .

رحم الله ســـاطع الحصرى واجزل له الثواب بقدر ما أدى لأمته وأخلص لها وعمل من أجلها ، لقد ترك من ورائه ذكرى

عطرة ونموذجا ومثلا لكل من يريد أن يكون جنديا من جنود هذه الأمة العربية المحبين لها ، والمتحمسين لكل ما فيه نفع لها .

لقد أرضى ربه وأرضى أمته بجهده الخالص وبنضاله المستمر المتواصل حتى آخر نفس فى حياته الدنيا .

ونحن من ورائه على الدرب نسـير ، وبهدى من فكره نهتدى ، لنحقق مالم يشأ الله لسـاطع ان يشهد تحقيقه وهى الوحدة العربية الشاملة ، والله معنا على الطريق مؤيدا وناصرا.

وصدقه الله العظيم اذ يقول :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون »

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧١٠١

SBIN ٩٧٧ - ٠١ - ١٩٤٣ - ١

يأتي صدور هذا الكتاب مع الذكرى العشرين لوفاة عالم من أبرز أعلام أمتنا العربية . عاش من أجل قضية الوحدة العربية وقدم نفسه فداء لها وآمن بحتمية هذه الوحدة طال الزمان أو قصر . .

وإذا كان للفرنسيين أو للألمان وغيرهم فكرهم القومى ، فإن ساطع الحصرى هو رائد الفكر القومى العربى وكان على رأس الرعيل الأول الذى وضع لهذه القومية أسسها العلمية ووجه الأنظار إليها وقوى الإيمان بها . .

وكانت لمصر عند ساطع مكانتها الخاصة ومنزلتها المحببة إلى قلبه . . كان يؤمن أنها بالنسبة للعالم العربى بمثابة القلب من الجسد . وحين سئل متى كانت مصر مع العرب أجاب ومتى كانت مصر بعيدة عن العرب . وفى مصر كانت إقامته بعد عمله فى العديد من البلاد العربية . .

نقدم للقارىء هذه الدراسة التى اعتمدت على الوثائق المختلفة وفى مقدمتها الأوراق الخاصة بساطع الحصرى .

أعلام العرب

١٣٦

على الغاياتي

من "وطنيتي" إلى "منبر الشرق"

تأليف : د. ابراهيم عبد الله المسلمي

تقديم : أ. فتحي رضوان

أعـــلام العرب

على الغاياتى

من "وطنيتى" إلى "منبر الشرق"

تأليف

د. ابراهيم عبد الله المسلمى

تقديم

أ. فتحى رضوان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

الاخراج الفنى :

ماجدة البنا

بسم الله الرحمن الرحيم

((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليــه فمنهم من قضى نحبــه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)) .

« صدق الله العظيم »

إهـــــداء

الى ابنى « مصطفى »٠٠

واحباؤه ٠٠٠

د٠ ابراهيم المسلمى

تقــديم الكتــاب

للأستاذ : فتحي رضوان

لا أظن أن هناك ممن جاهدوا فى سبيل مصر ، وطوقوا عنقها بأياد جليلة ، واحتملوا من أجل ذلك شـظف العيش ، والبعد عن الأهل ، وضيق الرزق ، من لقى مالقيه على الغاياتى ، الشـاعر والكاتب ، والصحفى والعالم الاسلامى ، من نفى وتشريد ، وجحود ونكران .

ولقد بدأ الغاياتى ، حياة الكفاح والجهاد ، وهو بعد شاب ، لم يطر شاربه ، ولم يصلب عوده ، وتكتمل تجربته ، فمنذ غادر بلده دمياط الى القاهرة ، ليلحق بالأزهر ذلك المعهد العريق والعتيق ، وهو يجهر برأيه فى الاحتلال البريطانى ، وبنقده الحاد ، للحكام المصريين الذين يدورون فى فلكه ، ويخدمون غرضه ، ويأتمرون بأمره .

ولم يكن على الغاياتى ، حينما شرع قلمه ، فأغمده فى قلب أعداء وطنه ، الا شابا أزهريا . لم يكن له من يحميه ، فلم يلذ بغنى من أغنياء بلده ، يأخذ بيده أن مر بأزمة ، أو لقى عنتا ، ولم يكن من ورائه ، وزير أو حاكم يدفع عنه الأذى ، ان غضب عليه ، صاحب سلطان . وكان الأزهرى فى ذلك الحين . أضعف الناس طرا فى مصر

فالأزهرى لايلحق بالأزهر الا لأنه لايجد من المال،ما يعينه على اللحاق بمدرسة من مدارس الحكومة ، التى تتقاضى أجرا ، وكان المجتمع كله يزرى بشيوخ الأزهر وتلاميذه ، ويسخر منهم ومن علمهم ، وكانت الصحف والمسرحيات ونكات الناس المتداولة على ألسنتهم ، تصور الأزهرى فى أسوأ صـــورة ، وتعتبره عنوانا على العجز والاضطراب والتخلف ، وتفاهة بضاعته التى اقتصرت على ألفاظ فارغة ، وأساليب أكل عليها الدهر وشرب ·

كان بعض ذلك كفيلا بأن يفت فى عضد الشاب الأزهرى (على الغاياتى) ، الوافد من دمياط ، وكان قلة المورد فى الصـــحافة ، وتفاهة الأجر ، عاملا ثانيا ، لشاب مبتدىء فقير ، أن يثنى وجهه عن الصحافة ، ويلتمس الرزق ، فى وظيفة تسد رمقه وتقيم أوده · ولكن الشاب قد صنعه الله على عينيه ككل من خلقوا ليقيموا المثل العليا فى مجالات الفكر والدين والسياسة · وكل رفيع وعظيم فى حياة الناس ، فيزهدون عن حوائج أبدانهم ، ويكبحون جمـــاح أهوائهم ، ويمضون فى الحياة ، كالشموع يحترقون ، ليضيئوا لسواهم طريق الحياة الرفيعة ، وليحشدوا صفوفهم ضـــد جنود وأعوان الظلم والظلام ·

وكان الغاياتى رقيق العاطفة ، شديد الحساسية ، فجرى على لسانه منذ مطلع حياته شعرا رقيقا كرقة نفسه ، حـــارا فى مثل حرارة قلبه ، صافيا نقيا ، يقرؤه الناس ، فيستعذبونه ، ويتأثرون به ، ثم يحفظونه ويرددونه ·

ولم يكن ممكنا أن ينشر شعر كشعر الغاياتى الوطنى ، الذى هجا به الاستعمار فأصلاه نارا حامية ، وهجا به الحكام المصريين الذين باعوا أنفسهم ، بيع السماح لأعداء بلادهم ، ليستقروا على كراسيهم ، وليجمعوا من عرض الدنيا الزائل مايشبع جشعهم ، ان

كان هناك مايشبع هذا الطراز من أعوان الاستعمار ، وخدامه وصنائعه ٠ لم يكن ممكنا أن ينشر هذا الشعر المتأجج المتوهج الا صحف الحزب الوطنى ، فقد أفسح الحزب الوطنى ، حزب مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد ، صدره لقصائد على الغاياتى ، فزاعت ذيوعا عظيما ، فأصبح هذا الشاب الفقير المبتدىء ، شاعرا يشار اليه بالبنان ، ويذكر كأحد مجاهدى مصر ، الذين طووا صدورهم على حب عظيم ، للوطن ، وكره شديد لخصومه وأعدائه ٠ وأصحاب السلطة ، يضيقون به ، وبشعره ، وينتظرون الفرصة ، لينكلوا به ، ويقصفوا قلمه ، ويخرسوا صوته ، وقد استطاعوا أن ينفسوا عن غيظهم ، حينما نسبت الى الغاياتى مخالفة لقانون التجنيد فزجوا به فى سجن ، اسمه القشلاق الأحمر ، فكانت تجربة زادت الكاتب الشاعر ، علما بحقيقة الأحوال فى بلده ، ولكنها لم تهز من عزمه ، فقد بقى حريصا على مواصلة نضاله ، بروح ملؤها الثقة بالمبدأ وبالله والأمل فى المستقبل ، على الرغم من ادلهام الظلمات ٠

واصل الغاياتى كتابته النثرية ، والشعرية ، فلما اكتمل عنده عدد من القصائد تصلح أن تؤلف ديوانا ، جمعها وقدمها للمطبعة ، واختار لها اسما ، يتفق مع مذهبه وعقيدته ، هو ديوان (وطنيتى) ٠ وقبل أن يخرجه للناس ، رأى أن يعرض الديوان على اثنين من زعماء الحزب الذى انتمى اليه ، وبقى على ولائه حتى الممات ، ألا وهو حزب مصطفى كامل ، الذى أسسه هذا الزعيم العظيم فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ ٠ ذهب الى محمد فريد زعيم الحزب ، وخليفة مصطفى ، والى الشيخ عبد العزيز جاويش كاتب الحزب الأول ، ورئيس تحرير (اللواء) لسان حال الحزب ، ولم يتردد الزعيمان فى اجابة طلب الغاياتى ، فكتب كلاهما مقدمة ، كانت نقطة تحول فى تاريخ مصر الوطنى ، وكانت هذه النقطة وحدها ، كفيلة بأن تحفظ للغاياتى

مكانا بارزا فى تاريخ مصر الحديث ، وتذيع اسمه ، فلا يطمس ولا يحجب ، ولكنه نسى وجحد ، لأسباب سنشير اليها فيما يلى ٠

تلقفت السلطة فرصة ظهور (ديوان وطنيتى) ، وأحالت صاحب الديوان وصاحبى المقدمة الى المحاكمة ، ولم يكن الغاياتى حسن الظن بالقضاء المصرى فى تلك الحقبة ، وكان سوء ظنه فى محله ، فقد كانت السلطة البريطانية ، سلطة الاحتلال البريطانى ، هى صاحبة الكلمة فى مصر ، ولم يكن يقوى أحد ، على مخالفة ما تأمر به ، أو ماتنهى عنه ، الا القلة المؤمنة المجاهدة ، وكان مما يزيد من سوء حال القضاء وعجز القضاة من رفض الضغط الحكومى عليهم فى قضايا السياسة والرأى أنه لم تكن للقضاء حصـــانته ، فالقاضى كأى موظف آخر فى مصر ، ان غضبت عليه سلطة الاحتلال، أو سلطة الخديو ، فصلته عن عمله وقطعت رزقه ورزق أولاده ٠ ولكن بدت من بعض القضاة بوادر حرص على حريتهم واقامة العدل بين الناس ، فعالجت الحكومة هذا الخطر ، بأن عدلت قانون الاجراءات الجنائية ، وجعلت الاختصاص فى قضايا الرأى والنشر والصحف ولو كانت جنحا ، لمحكمة الجنايات ، لأن دوائر محاكم الجنايات كانت تضم مستشارا انجليزيا أو على الأقل فرنســيا ، وكانت الرياسة دائما لهذا القاضى الأجنبى ليدير المحكمة على الوجــه الذى ترضى عنه الحكومة لذلك كله قرر الغاياتى أن يهاجر من مصر الى تركيا ، فهاجر بالفعل فى يوم ٥ من يوليه سنة ١٩١٠ ، وقد يسر له السفر أنه لم تكن بين مصر وتركيا حواجز تقتضى حصول الراغب فى الانتقال من أحد القطرين الى الثانى ، الحصول على اذن بذلك ، ووجود جواز سفر عنده ، فسافر الغاياتى الى استانبول أو الاستانة فى ذلك اليوم ، ليبدأ غيبة عن بلاده استمرت حتى سنة ١٩٣٧ ، أى نحو سبعة وعشرين عاما ، تغيرت فيها أحوال مصر وأحوال المنطقة العربية ، وأحوال العالم كله ، ففى هذه الأعوام

الطوال ، قامت الحرب العالمية الأولى ، واستمرت أربعة أعوام ، أعلنت خلالها الحماية البريطانية على مصر وعزل الخديوى عباس حلمى الذى كان متربعا على عرشها ، وحل محله عمه السلطان حسين كامل ثم أعقبه أخوه أحمد فؤاد ، سنة ١٩١٧ ، ثم جاء فاروق بن أحمد فؤاد ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ ، ونفى زعماء الثورة الى مالطة ، وأفرج عنهم ، وفاوضوا الانجليز وفشلت المفاوضات ، كماخمدت جذوة الثورة وحلت محلها حرب داخلية بين الأحزاب ، وأبرمت مصر مع بريطانيا معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فتغيرت بعقدها العلاقات بين مصر وبريطانيا فى الظاهر ، وبقيت على حالها فى الواقع ، فقد أصبح اسم المندوب البريطانى السفير ، ولكن بقى للسفير كل سلطات المندوب السامى ، واستمر تدخل بريطانيا فى شئون مصر الداخلية والخارجية على أشده ٠

وفى يوم ٢٠ من يونيه سنة ١٩١١ ، عقدت محكمة الجنايات جلسة لمحاكمة على الغاياتى وزميله فى القضية ، وزعيميه فى الحزب : محمد فريد وعبد العزيز جاويش ولم يحضر المحاكمة لبقائه فى (الأستانة) ، فحوكم غيابيا وحكم عليه بالسجن سنة ، وحضر فريد فحوكم كذلك ، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر ، كما حكم على الشيخ عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر ، ونفذ الحكم فى محمد فريد ومالبث أن هاجر الى تركيا سنة ١٩١٢ ، كما هاجر الغاياتى من قبل ، لأنه اتهم ثانية بعد ان اتم مدة السجن الأولى ، بانه أهان الحكومة فى خطبة القاها فى المؤتمر الوطنى للحزب الوطنى ، ولم يكن فى شىء مما قاله يستحق المحاكمة والحكم ، فادرك أن الحكومة ستلاحقه بالقضايا وبالاحكام كتب أو خطب ، لتمنعه منعا ماديا من ممارسة واجبات زعامته ، فآثر السفر الى تركيا ، ليكون اقدر على النهوض باعباء قيادته ، ومما أغراه على الرحيل من مصر الى تركيا ، ان العلاقات بين البلدين كانت آنذاك

وثيقة الى أبعد حد ، فكان مايجرى فى احداهما يتردد صداه فى الحال فى البلد الآخر ، مما يمكن محمد فريد أن يوجه العمل السياسى فى وطنه ، وهو بعيد عنه · فهاجر فى مارس سـنة ١٩١٢ الى تركيا · ولم يعد اليها الا بعد ان وافاه الأجل فى ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٩ فى برلين ، بعد أن تحمل شظف العيش ، والغربة ، والمرض ، والوحدة الموحشة ، وانهيار الآمال ، فقد هزمت تركيا وهزمت ألمانيا ، وخرجت بريطانيا عدوة محمد فريد وعدوة الغاياتى، كأقوى ماتكون الدولة الظافرة ·

ومعنى هذا أن ديوان وطنيتى الذى جمع قصائد على الغاياتى، التى لم تكن ألفاظا ، بل كانت شواظا من نار ، وقذائف تتلظى ، الى قلب الاستعمار ، وهى شواظ وقذائف ، لمعت فى سماء مصر ، قبل أن تهبط على رءوس أعدائها ، فنزعت من القلوب الخوف ، وحضرت تحضيرا مباشرا لثورة سنة ١٩١٩ ، فلم يكن قبـل اندلاع هذه الثورة ، حزب أو جماعة تحرض على الاستعمار وتدعو الى مقاتلته الا حزب مصطفى لكامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، وعلى الغاياتى ، فقد استمروا يعملون فى مصر ، سرا ، وفى تركيا والمانيا وكل اوروبا علنا ، حتى قامت هذه الثورة ·

ومعنى هذا أيضا ان ديوان وطنيتى ، كان السبب المباشـر لتفكير محمد فريد فى الهجرة ، وهو قرار أغضب أناسا وأرضى أناسا آخرين ، أغضـب الذين كانوا يريدون ان يبقى فـريد فى مصر ، على الرغم من كل ماكان ينتويه الاحتلال البريطانى والخديو واعوانهما من التضييق على محمد فريد ، وملاحقته بالقضـايا والاحكام ، لأن وجود الزعيم فى بلده وبين أهله ، يقوى معنوية أنصاره ، ويزيدهم جرأة ، وينظم صفوفهم ، ويزيده هو شجاعة وقدرة على مواجهة الاعداء ·

والذين رضوا عن هجرة فريد قالوا ان وجوده فى الخــارج بعيدا عن قبضة الاحتلال ، فتح امامه باب العمل الدولى فى أوربا كلها ، وأنه بالفعل كان يذرع اوروبا جيئة وذهابا وأنه حضر المؤتمرات العديدة التى كانت تعقد خلال الحرب العالمية الأولى ، دفاعا عن الأمم المضطهدة والشعوب المحرومة من حقوقها ، وان جهود محمد فريد الدولية حفظت اسم مصر واسمه من ان ينسى طوال فترة الحرب مما جعل العالم متهيئا لاستقبال ثورة ١٩١٩ كامتداد لتلك الجهود التى أكدت ان مصر لم تهن عن المطالبة بحقوقها ومجاهدة أعدائها ٠٠٠ وللغاياتى سهم فى كل هذه الجهود ٠

فانه بعد أن أقام فى استانبول فترة ، يحرر فى أكثر من صحيفة عربية هناك ، وينظم القصائد ضد حكام مصر ، ويرسل صحفه الى بنى وطنه ، فيذكرون شاعرهم الشاب ٠

وأخيرا خطا الغاياتى خطواته الحاســـمة التى نقلتــه الى أوروبا ، وذلك فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩١١ ، لقد سافر فى ذلــك اليوم الى جنيف مارا بفيينا عاصمة النمسا ٠ وقد بدا يراسل جريدة الحزب الوطنى (حزب مصطفى كامل) منذ وضع قدمه فى جنيف ، ولما انقطع عنه مرتبه الضئيل من جريدة الحزب ، بدأ يدرس اللغة العربية لعدد من الشــبان المصريين والعرب الذين يدرسون فى جنيف دون أن يكونوا على علم كاف بلغة بلادهم ٠ ثم أخذ يراسل بعض الصحف السويسرية مثل (تريبون دى جنيف) ، و (جرنال دى جنيف) و(السويس) ، ثم أخذ يراسل جريدة (جازيت دى لوزان) ، فتوطدت علاقته بالصحافة السويسرية ، وعرفته دوائرها كاتبا بالفرنسية على الرغم من أنه مصرى وافد الى أوروبا ، يحسن التعبير عن نفسه وعن أهله ، تعبيرا صحيحا ووطنيا تخالطه روح شعرية ، تجذب القارىء ٠ لكن الذى يهمنا هنا هو ما يتصل بجريدة على الغاياتى التى أصدرها باسم «منبر الشرق» أى «تريبون دوريان»

فقد لعبت دورا سياسيا ووطنيا عظيمـــا ، اذ ظهرت فى جنيف فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد كان الغرب لايسمع من أنباء هذه الثورة العظيمة الا ماتنشره صحف أوروبا ، ولكان أكثرها منحازا لسلطة الاحتلال البريطانية ، وكان المفروض ان تكون هذه الجريدة ، باللغة الفرنسية ، لأنها تصدر ليقرأها المتكلمون بالفرنسية ، ولكن وطنية على الغاياتى المتطرفة ، أبت عليه الا أن تكون صـفحة من الصفحات الأربع التى تتكون فيها هذه الجريدة بالعربية ، وقـــد كلف نفسه جهدا كبيرا ليحقق هذه الغاية ، اذ لم تكن هناك مطبعة عربية فى سويسرا ، فراح يكتب هذه الصفحة بخطه ثم يحضرها (بالزنكوغراف) ، ويطبعها بعد ذلك ، فلما ثقل عليه هذا الجهد ، ظهرت هذه الجريدة بالفرنسية ، فكانت منبرا للشرق كله : من الهند الى المغرب ، وقد دافع عنها أكثر ما دافع عن مصر وعن ثورتها ، واذا فتشت فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية بل وتاريخ الحركات الوطنية العربية ، وتاريخ الحركات الشرقية ، فلن تجد صـــحيفة واحدة كجريدة منبر الشرق ، يحررها عربى بلغة أوروبية سليمة وقوية ، وتصدر بانتظام ، وعلى وجه يكســب الاحترام والتقدير للجريدة ولصاحبها ٠

ولو لم يكن لعلى الغاياتى سوى هذا الجهاد الرائع ، الذى كلفه ماكلفه ، لكفى ليذكره مواطنوه المصريون والعرب ، ويعلو من قدره ، وينوه بذكره ، ولكن شيئا من ذلك لم يقع ٠ وقد كان الغاياتى يواصل هذا الجهاد المرير ، ولا أحد من قادة مصر ، ولا من قادة العرب،يمد يد المساعدة ولو مرة واحدة،ولو بقرش واحد،لعلى الغاياتى لا لأن هذا القرش سيسد حاجة من حاجيات الجريدة ، أو سيكسب لها قارئا ، أو يخرج بها من أزمة بل ليكون تعبيرا عن رغبة التعاون مع هذا المجاهد الصابر المستميت ٠

ومما يزيد من قدر هذا الجهاد وأثره ، أنه استمر من ٥ من

فبراير سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٧ أى نحو ١٥ سنة متصلة والرجل لايكل ولا يمل ، ولا ينثنى ولا ييأس ، حتى انتقل الى مصر فى ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧ ·

فلكم هى كبيرة جريمتنا فى حق على الغاياتى الذى حينما فكر بعض أولى الأمر فى تكريمه اطلقوا اسمه على حارة لا يزيد طولها عن ثلاثين مترا ، متوارية لا يعرفها أحد ، ولا يرد اسمها فى مطبوع أو منشور ·

ولم تكن جريدة منبر الشرق طوال هذه السنوات ، مجـرد صحيفة تنشر أخبار الوطن المصرى والعربى ، وتدافع عن حقوق المصريين والعرب والشرقيين ، بل كانت منتدى لزعماء هذه الأمم كلها ، يستضيفهم الى بيته ، ويؤدب لهم المآدب ، ويعرفهم برجالات (جنيف) التى كانت مقر جمعية الأمم التى اتصلت أسباب على الغاياتى بها ، فعرف كبار موظفيها وعرفوه ، واحتفوا به كلمـــا مر عليهم أو طرق بابهم ، وباختصار أصبحت دار منبر الشـــرق سفارة غير رسمية لمصر ، وأصبح صاحب الدار سفير مصر والعرب المحترم ، المسموع الكلمة · وقد عاونت على الغاياتى فى أوامر اغراض وواجبات هذه السفارة زوجة على الغاياتى السويسرية التى أنجب منها خمس بنات وولدا واحدا ·

ولما جاء الغاياتى الى مصر ، نقل جريدته معه ، فواصلت سعيها على نفس المنهج ، فهى جريدة قومية كتب تحت اســـمها بيتين جريا هكذا ·

باســم الكنانـــة واســـم شـــعب ناهض
لا باســـم أحـــزاب ولا زعمــــــاء

وقد حقق هذين البيتين ، فلم يمالىء حزبا ، ولم يشـــايع

حكومة ، ولم يجر فى كلف زعيم أو عظيم ، ولم يمد يده الى دولة من دول العرب أو دول الغرب ، مع أن ماضيه القديم ، وشهرته منذ شبابه ، واتقانه للغة الفرنسية ، وصلاته بدوائر السـياسة ابان وجوده فى جنيف ، وتردده على جامعـة الأمم ، كل ذلك يجعله شخصية سياسية تنفع من تنحاز اليه ، وتعمل لخدمته ، مما يغلى مهره ، ويزيد أجره ولكنه استروض بالقناعة ، ورضى بما قسـم الله له ، فلم يخالف ضميره ، ولم يخرج عما يأمر به دينه ، وخرجت جريدته صفحة نظيفة نقية ، تخلو من كل خطأ ، وترتفـع فوق كل شائبة ، وتدعو فى دأب واتئاد الى كل فضيلة قومية . وكانت داره فى مصر ، كداره فى جنيف منتدى الأحبة من رجال العلم والأدب والدين من العرب وأهل المشرق ، ولم يكن معه من يعينه الا شخصه وصبره وتقواه واحتماله للمكاره ، وصبره على الشدائد .

فلما مات فى ٢٧ اغسطس سنة ١٩٥٦ ، نعته الاذاعة المصرية، بوصفه أحد ابطال مصر ، وأوائل المجاهدين لها ، والذائدين عن حياضها ، والثابتين المحتسبين الاتقياء الانقياء ، وسرنا وراء نعشه ، نستمطر الرحمة على جدثه ، وندعو له بمقام رفيـع مع الانبياء والصالحين ، والشهداء والصديقين ، وحسن أولئك رفيقا .

***

والكتاب الذى أقدم له بهذه الصفحات ، من تأليف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبد الله المسلمى ، وهو كتاب يفيض بالحب للمترجم له الأستاذ المرحوم على الغاياتى ، والقارىء يلمس هذا الحب من كل سطر فى الكتاب ، ومما هو بين السطور ، وحب الكاتب لمـن يكتب عنه شرط لتجويد الكتابة . ولذلك قد جاء هذا الكتاب صورة صادقة وحية ، لحياة الغاياتى ، وقد كتبت بأسلوب سهل ، واضح مما يعين على متابعته وفهم حياة هذا المجاهد والتأثر بها ، والاعجاب

به ٠ وقد الم الكاتب بكل مايتصل بالغاياتى منذ مولده الى يوم وفاته، وبذل فى سبيل ذلك جهدا مشكورا وعناية ملحوظة ٠ وانى لأرجو أن يكون هذا الكتاب الشيق ، فاتحة اهتمام بالغاياتى ، حتى ترد له حقوقه المهضومة ، فيذكره الكتاب والشعراء والصحفيون ، وتتحدث عنه الصحافة والاذاعة ، وتهدى قدوته طريق الشـــباب فى جيلنا الحاضر الى التضحية والجهاد والعمل الصالح ٠

(فتحى رضوان)

(مقدمــة المــؤلف)

كانت بداية معرفتى بصاحب الترجمة ، سطور قليلة ، قرأتها فى جريدة « اللواء » ، التى أصدرها الزعيــم الوطنى الشــاب « مصطفى كامل » فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، والتى تحولت فى نهاية سنة ١٩٠٧ ، الى لسان للحزب الوطنى ٠

وأخذت السطور تتزايد ، نثرا وشعرا ٠٠ ويتعاظم أمرها ، وأحسست أن وراءها كاتب ثائر ، قلمـــه لايعرف الا حب الوطن الخالد وبغض الاحتلال الجاثم على أرض وادى نيلنا العظيم ٠٠

ومع ذلك ٠٠ لم أتعرف حقيقة على ذلك البطل « المجهول » فى تاريخنا ٠٠ الا بعد أن أصدر ديوانه : « وطنيتى » ، فى سنة ١٩١٠ ، ثم أصبح للديوان قضية ومحاكمة ، جعلت اثنين من خيرة ابناء مصر البررة ، يدخلون سجونها ، بسبب كتابتهم مقدمات لهذا الديوان أول هؤلاء هو : الزعيم «محمد فريد» ، والذى أصبح رئيسا للحزب الوطنى بعد وفاة « مصطفى كامل » ، فى فبراير سنة ١٩٠٨ ، أما الثانى فكان : الشيخ « عبد العزيز جاويش » ، رئيس تحرير صحف الحزب الوطنى : « اللواء » ، ومن بعده « العلم » ٠

هنا فقط عرفت اسم الشيخ « على الغاياتى » ٠٠

وأخذت أبحث وانقب ، عن حياة ذلك الشاب ، الذى كان عمره

وقتئذ ، خمسة وعشرين ربيعا ، قبل فراره من المحكمة ، وهجرته الى الآستانة ، ثم الى جنيف ٠

ولكن يبدو أن « الغاياتى » ، قد سقط سهوا من التاريخ ٠!

لا ٠ بل سقط عمدا ٠٠ ولما لا ؟!

ان مؤرخى الصحافة أهملوه ٠٠ والذين ذكروه لم يوفوه ٠٠ هو وجريدته حقهما ٠٠ ووضعه نقاد الأدب العربى على الرف ٠٠ حتى ان مؤرخنا الكبير « عبد الرحمن الرافعى » ، لم يخصص له من كتابه « شعراء الوطنية » الا أربعة صفحات فقط ، وفى نهاية كتابه المكون من (٣١٦ صفحة) ٠

« فالغاياتى » لم يكن ذا مال ولا سلطان ٠٠ لم يكن من اتباع حزب من الأحزاب ، أو خادما لزعيم أو رئيس !!

كان الغاياتى « أمة » وحده ، فى الدين ، وفى الخلق ، وفى الوطنية ٠٠ وكان صاحب كلمة حرة شجاعة ، ونقد بناء ٠

وصاحب المبدأ ، والخلق والدين ، يهمله كل مداهن مخادع ٠

ولكن أبدا ٠٠٠ التاريخ فى النهاية ، لايهمل كل وطنى جسور ٠

ويكفى « الغاياتى » فخرا ، أنه بعد هجرته الى الخارج ، كان يصدر بمفرده فى جنيف ـ مقر عصبة الأمم ـ جريدة باللغة الفرنسية تدافع عن حقوق مصر ، والاسلام ، والشرق ، بل انه جعل شعارها « الشرق للشرقيين » ، وذلك لأكثر من خمسة عشر عاما (٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ـ ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧) ، وعندما عاد القلم المهاجر مع أسرته التى كونها فى جنيف ، أعاد أصدار هذه الجريدة باللغة العربية ، تحت اسم « منبر الشرق » ، فى ٦ مايو سنة ١٩٣٨ ،

فظلت مستقلة ثمانية عشر عاما (حتى ١٧ أغسطس سنة ١٩٥٦) ، عن كل جماعة ، أو هيئة ، أو حزب ، أو زعيم ٠٠ وجعل شعارها ٠

« باســم الكنــانة واسم شــعب ناهض

لا باســـم أحـــزاب ولا زعمـــاء »

« كـــل يــزول وينقضـــى أمـــا الحمى

فوديعـــــة الأبـــــاء للأبنـــاء »

وقد أردت بداية ، أن أكتب مقالة ، عن ذلك « الغاياتى » ٠٠ الصحفى والشاعر والمجاهد « المجهول » ٠٠ وللحقيقة ، فاننى لم أجد أحدا أنصف ذلك الرجل ، الا قليل ، منهم اســتاذنا الكبير : فتحى رضوان ، فى مؤلفه « عصر ورجـــال » ، وقد اعتمد فى التاريــخ « للغاياتى » على مذكراته الشخصية ، والتى لكتبها فى حوالى ٢٨ حلقة اسبوعية ، فى جريدته « منبر الشرق » فى أوائل سنة ١٩٥٢ ، ولكننا للآسف لم نعثر على المجلدات التى تحتوى على السنوات من ١٩٤٧ الى ١٩٥٣ ، محفوظة فى دار الكتب العامة بالقاهرة ٠ ولكننا وجدنا مذكراته منتشرة ، ومتفرقة ، فى باقى السنوات ٠ ، وكذلك تلميذه الأستاذ « محمد طاهر الجبلاوى » ، وصهره الأستاذ الدكتور « مختار الوكيل » فى كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » ٠

وقد تحولت المقالة ، التى كنت أنوى كتابتها ، الى كتيب ٠٠ والكتيب الى كتاب ٠٠٠ بل كنت أنوى فعلا أن يتحول هذا الكتاب الى مجلد ، يؤرخ للرجل ، ولكل حرف من حروفه فى النثر والشعر ، والتى تؤرخ بصدق ، ودون تنميق أو تزييف ، لأهم أحداث الوطن ٠٠

ولكن يكفينى أننى ألقيت بالضوء الكاشف ، على ذلك الوطنى « المجهول » ، وأن تراه ــ عزيزى القارىء ــ حقيقة بين يديك ٠٠

فالى سطوره المضيئة ، قبل أن تأخذنا الحماسة ، فى مقدمات طويلة وانشائية ٠٠

وفى النهاية ٠٠ لايسعنى الا أن أقدم خالص شكرى وتقديرى ، الى كل من عاوننى فى اصدار هذا الكتاب وأخص بالشكر ، صاحب تقديمه ، الأستاذ الكبير فتحى رضوان ، والعاملين فى دار الكتب والوثائق القومية ، وفى قسمى الدوريات والمراجع ، والى ادارة المطبوعات والصحافة بالهيئة العامة للاستعلامات ، جزاهم الله عنى خير الجزاء ٠

٢١ سبتمبر ١٩٨٦

د ٠ ابراهيم عبد الله المسلمى
قسم الاعلام ــ بكلية الآداب
جامعة الزقازيق

(الفصـــل الأول)

(ما قبـــل وطنيتى)

* المولد والنشأة
* فى جريدة « الجوائب المصرية »
* فتنة دمياط الدينية
* فى القشلاق الأحمر
* فى صحف الحزب الوطنى

(المولـد والنشـأة)

لم تكد تمر اربع سنوات على بداية الاحتلال البريطانى لمصر ، حتى ولد : « الغاياتى » ، لأسرة متوسطة الحال ، ولكنها ذات حسب ونسب ، يصل بها الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كان ذلك يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٨٥ ، بمدينة دمياط بشمال الوادى(١) ، ودخل « الغاياتى » الكتاب طفلا لم يتجاوز السادسة من عمره ، وما ان بلغ الثامنة حتى كان قد حفظ القرآن الكريم وأجاد حفظه ، ثـم أرسله أبوه الى المعهد الدينى ليتلقى به علوم الدين ، وكان ذلك يتم فى (جامع البحر) حيث يتلقى الطلاب فى حلقاته شـئون الدين واصول اللغة والبلاغة ٠٠ على أيدى شيوخ أجـلاء من رجـال الدين(٢) ٠

ومع ان الاحتلال بدأ يؤثر فى الأمـة ، تأثيرا ملؤه اليأس والقنوط والاستسلام ، كما ظهر طغيانه وجبروته على كافة البلاد ، حتى ان شيخ المؤرخين : « عبد الرحمن الرافعى » يقول عن السنوات الأولى للاحتلال بانها : « تؤلف فى تاريخ مصر القومى فترة انحلال

---

(١) فيليب دى طرازى ، « تاريخ الصحافة العربية » ج (٤) (بيروت المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٣) ص ٣٦٦ ٠

(٢) محمد طاهر الجبلاوى « على الغاياتى » ، فصل من كتاب : « خمسة من شعراء الوطنية » (القاهرة ، الهيئة المصريـة العامة للكتاب ، ١٩٧٣) ص ٢٧٨ ٠

وطنى عام : انحلال فى الوطنية ، انحلال فى الأخلاق ، انحـلال فى حالة الشعب الاقتصادية والاجتماعية(٣) »

الا أن فترة البعث الوطنى جاءت على يد الزعيـم الشـاب « مصطفى كامل » ، الذى نهض يدعو الى الحرية والاستقلال ، فبدأت دعوته غريبة عن الأذهان ، بعيدة عن الأفهام ، وتساءل معاصروه : كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذا وأوسعها سلطانا ؟ ، ولكن وطنية « مصطفى كامل » كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقوى من العوامل المثبطة ، فأخذ يثابر على دعوته ، ويناضل عنها ، حتى استجابت الأمة لندائه ، فكانت نهضة ، وكانت حياة ، وكان شعورا ، وكان جهادا ، كانت رسالته الى مصر كصرخة الحياة المدوية فى سكون النوم العميق ، كانت رسالة الأمل بعد اليأس ، والحياة بعد الخمود ، والكرامة بعد الهوان ، والجهاد للحرية والاستقلال ، بعد الاستسـلام للاحـتلال والاستعباد(٤) ٠

ومع ذلك ، فلقد كان على الغاياتى فى معزل عن هذه الحركة الوطنية ، لايعرف من أمرها شيئا ، فحسبه أنه ولد فى دمياط ــ كما يقول بنفسه ــ فنشأ فيها بين « قوام كرام ، غير أنهم (محافظون) يعبدون الحكام كأنهم ألهة يحيون ويميتون ، ثم لايكادون يذكرون الوطن والوطنية على الاطلاق !! »(٥) ، وقد بقى بينهم حتى ناهـز الثانية والعشرين من العمر،ثم غادرهم آسفا مسرورا ميمما القاهرة،

---

(٣) عبد الرحمن الرافعى « مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال » ط (٣) (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦) ص ٢٢٨ ٠

(٤) عبد الرحمن الرافعى « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ط ٤ (القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ص ١٣ ٠

(٥) على الغاياتى « وطنيتى » الطبعة الأولى ، ١٩١٠ ، ص ١٦ ٠

« على أنهم لايزالون الا قليلا ـ من نشئهم المأمول ـ أبعد العباد عن ذكر البلاد » ٠

ومع ذلك فلقد بدأت أولى أفكار ومبادىء « الغاياتى » تتبلور على يد غير مباشر لدعوات الاصلاح التى تبناها السيد « جمال الدين الافغانى » ، ومن بعده الامام « محمد عبده » ، والتى تنحصر فى الدعوة الى نبذ الخرافات التى لحقت بالدين الاسلامى أيام الضعف ، كالتوسل بغير الأعمال الصالحة ، والتواكل والاستسلام ، وعدم الأخذ بأسباب التقدم التى اتبعها الغرب أخذا عن الشرق ، والوقوف على عوامل تفرقه ومقدرته للعمل بها ، وأن يفتح باب الاجتهاد فى فهم الدين والتبصرة به ٠٠ وكان « الغاياتى بعقله المتفتح ونفسه المتوثبة يعكف على هذه الآراء ويدرسها بامعان ، ثم يهب لنشرها بين الطلاب ، ويدافع عنها بحماسة ، مما أثار خصومة بالغة بينه وبينهم ، وبين بعض شيوخ معهد جامع البحر ، وعلى رأسهم شيخ المعهد الذى كان يسير فى ركب التأخر والجهالة ٠٠

ويحسن أن نذكر هنا كيف كان المصلحون الأولون يلقون من حركة معادية ، وهذا هو الامام « محمد عبده » يحارب داخل الأزهر أولا ، ثم على يد بعض من يحملون أمانة القلم والكلمة فى بعض الصحف التى يساندها الخديو « عباس حلمى » وبعض حاشيته ، وهذه هى جريدة « حمارة منيتى » تنشر صورة للامام وهو يراقص امرأة فرنسية وكلبها متعلق بثيابه ، وزجلا تندد فيه باباحته أرباح صندوق توفير البريد ، وتقول فيه :

الناس يدين وانت بستة   وكل حاجة تحللها
اعرف خلاصك فى الافتى   مطرح ماترسى دقلها

وكانت هذه الصحيفة تتستر وراء اسم رجل يدعى «عبد الرحمن الهندى » من أهـــالى دمياط ، ويتمتـــع بالحمـــاية البريطانية ، مما يبيح لها نشر كل ماتريد للنيل من هذا الامام الكبير وغيره ، وعندما وصلت هذه الوريقة الساقطة الى دمياط وفى صدرها هذا الزجل ، طار خصوم « الغاياتى » فرحا بها وأذاعوها بين الطلاب ، وسموا « الغاياتى » ومن معه من أنصار الامام « محمد عبده » : «الملة الستة» ، ومنهم السيد العالم «مصطفى مشرفة» ـ والد العلامة على مصطفى مشرفة ـ فضاق شيخ المعهد « بالغاياتى » وطرده ومنعه من تلقى الدروس فى حلقاته ، فخرج « الغاياتى » من المعهد ليشتغل مدرسا باحدى المدارس الابتدائية الخاصة ، وكان يديرها اثنان من أبناء الأعيان هما : السيد « عبد الرحمن العلايلى » والسيد « محمد الكردانى »(٦)

وقد وصل على الغاياتـــى الى القاهرة يوم الخميس ٤ أبريل سنة ١٩٠٧ ، فقضى بها حوالى مائة يوم ـ قبل أن يعود الى مسقط رأسه ثانية ـ قضاها بين يأس ورجاء ، وشدة ورخاء ، وعندما يعود بالقطار الى دمياط يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٠٧ ، يفصل لنـــا ذكرياته بين هنا وهناك فيقول(٧) :

« دمياط وطنى الذى عرفت هواه ، قبل أن أعرف الهوى ، فصادف قلبا خاليا فتمكنا ... ، وقد شاءت الأقدار أن تحول بينى وبينه ، فنأت بى عن أرضه الطاهرة ، وأحلتنى أرض القاهرة ـ تلك الأرض المباركة التى حشر الله فيها ستمائة ألف نسمة أو يزيدون من جميع الشـــعوب والأمم ، وجعلها غاية لهم يسعى كل فرد منهم

---

(٦) محمد طاهر الجبلاوى « مرجع سابق » ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٧) مقـالة بعنوان « بين دمـياط والقـاهرة » ، جريـدة « الجوائب المصرية » ، العدد ١٣٤٣ ـ فى ١٧ يوليو ١٩٠٧ ، ص ٢ .

ليدرك من ورائها غرضا يرى به كل الصيد فى جوف الفرا ، وهى مع هذا التزاحم والتنازع معرض عام لمظاهر العالم أجمع ، وبها لذى اللهو والهوى ملهى ومرتع ، لايجد لهما فى سواها بديلا ، ولقد نمقتها يد الابداع حتى قال قائلها ! ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وبالجملة فيها من كل معنى طرب ، نعم فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، ولكنى لم أر لهذا بفؤادى محلا ، فؤاد استولت عليه دمياط ، فما يغنيه من القاهرة ؟ أنت يادمياط على مافيك من نقص وانحطاط كما يقولون – مالكة قلبى وربة السلطان على لبى ، فما يسرنى من القاهرة بعد هذا ؟ أنت أيتها القاهرة مهما بلغت من جمال وجلال فبكل أسف ليس لك من نصيب فى هذا الفؤاد الذى غدا على دمياط وقفا » .

***

فى جريدة ((الجوائب المصرية))

بدأ الغـــاياتى حياته القاهـرية محررا بجريدة « الجوائب المصرية »،وهى جريدة يومية سياسية أدبية تجارية ، يرأس تحريرها شاعر القطرين : خليل مطران » ، « وكان الغاياتى الأزهرى الشاب ، وهو بعد فى مطلع شبابه ، وفى المرحلة الأولى لعمله فى الصحافة ، لا يتردد أن يقف الى جانب الرأى الحر ، الذى يراه على صواب ، دون أن يحفل أو يقيم وزنا لسطان خصوم هذا الرأى »(٨) ٠

ويعترف الغاياتى فى رسالته الى صاحب جريدة « الجوائب المصرية »(٩) ، بأنه كان يعمل فى الجريدة بدون أجر ولا جزاء ، بل هى على حد تعبيره « محض تبرع منى خدمة لدينى وأمتى ، كما يقتضيه واجب طالب العلم » ٠

وقد اســـتمر الغاياتى فى كتاباته الثـــائرة فى « الجوائب المصرية » بجانب رئيس تحريرها ، وبعض كتابها فى ذلك الوقت كأحمد محرم ، وحسن موسى العقاد ، وجورج مطران ، وسليمان فوزى ، وعطا حسنى ، وعلى علوى ، وحسين شفيق المصرى ، الى

---

(٨) لفتحى رضوان ((عصر ورجال)) ، (القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧) ص ٣٠١ ٠

(٩) ((الجوائب المصرية)) العدد ١٤٥٩ فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ص ١ ٠

ان تركها كما يقول بسبب « سياستها فى عهد صاحبها الجديد ، وهو الوجيه الشاب : عطا بك حسنى . وكان فى ذلك الوقت معروفا بأنه قبل كل شىء (صهر العائلة الخديوية) ، وهذا أكبر ألقابه وأجدرها بالشهرة »(١٠)

وقد حدث أن الغاياتى ، كتب مقالة من مقالاته بعنوان «الدستور أميرنا » ، فلم تكد تظهر وتعرف ، حتى أمر عطا بك ، بوضع مقالة أخرى محلها ، واعادة طبع الجريدة ، وجمع ماوزع من أعدادها فى السوق ، لأن المقالة كانت مشربة بروح الحزب الوطنى ، الذى كان اذ ذاك يطالب الخديوى بالدستور مطالبة قوية ، وكان غير راض عن سياسة الوفاق الجديدة بين عابدين وقصر الدوبارة ، ومن هنا خرج الغاياتى من « الجوائب » ليكتب فى « اللواء » لسان الحزب الوطنى آنذاك ٠ وقد بحثنا عن هذه المقالة ، فى الأعداد المحفوظة من جريدة « الجوائب المصرية » ، بدار الكتب العامة بالقاهرة ، ولكننا للأسف لم نجدها ، أما بخصوص ما ذكره الغاياتى من أن عطا بك حسنى،هو صاحب « الجوائب المصرية» ، بعد الشاعر «خليل مطران » ، فاننا لم نتثبت من ذلك من الجريدة ، فلقد وجدنا مقالات لعطا حسنى ، ولكن كان مدير الجريدة الجديد ، كما هو مكتوب على رأسها هو : على علوى ، وذلك اعتبارا من ١١ يناير سنة ١٩٠٨ ، والذى تملكها بعد ذلك فى شهر يونيو من نفس السنة ٠

وقد لاحظنا بداية تشرب الغاياتى بمبادىء الحزب الوطنى ، حتى كانت رسالته للجريدة من دمياط،وبعنوان « فرع للحزب الوطنى فى دمياط»(١١)،يقول فيها بأنه قد أصدر منشورا دعا فيه الدمياطيين

---

(١٠) مقالة بعنوان « ذكريات قديمة منذ ثلاثين عاما » ، جريدة « **منبر الشرق** » ، العدد ١١ فى ٩ أغسطس سنة ١٩٣٨ ، ص ٥ ٠

(١١) جريدة « **الجوائب المصرية** » ، العدد ١٥٥٥ ، فى ٢٨ مارس سنة ١٩٠٨ ، ص ٢ ٠

لانشاء فرع للحزب الوطنى ، فقامت قيامة الأموات ، من أهلدمياط ، وهاموا فى تيه الظنون ، والكل يقول : جاءت المصـــيبة الكبرى ، والداهية الدهماء ، لنا ولبلدنا الأسيف ، فقد رسخ فى أفكار عباد الاحتلال منهم ، أن المحافظة سيمحى اسمها ، وتعود المدينة مركزا ، أو نقطة فقط ، جزاء لاهلها على هذه الوطنية ، التى ما سمعوا بها من قبل ، الى غير هذا من الاوهام الباطلة ، التى ولدتها فكرة الجهل القديم ، ممن حضروا أزمان الاستبداد ، واشربوا الجبن امام الحكومة وذكرها ، فأصلح الله حالهم ، وطهر البلاد من أمثالهم

***

(فتنة دميــاط الدينية)

لم ينقض على عمل على الغاياتى ق جريدة « الجــوائب المصرية » الا شهر او بعض شهر ، حتى قامت فتنة دينية فى دمياط ـ مسقط رأسه ـ بسبب خلاف بين علماء الدين فى ذلك الثغر ، «اشتعلت نارها بتدخل العوام فيها ورفع أمرها الى مشيخة الآزهر وسمو الخديو ، وكاد يستفحل خطبها بتحريض بعض العلماء ذوى الافكار العتيقة الباليــة ، الجهلــة والســـفلة على ايذاء مخالفيهم من المصلحين »(١٢)

وقد ظل الغاياتى يكتب لنا مفصلا هذه الفتنة فيما يقرب من عشرين مقالة فى « الجوائب » ، وفيما يقرب من شهرين ، غير عابىء « بالأعمال الصبيانية للحمقى والجهلاء » .. ، ويلخص الغاياتى للقراء اولا سبب هذه الفتنة قائلا(١٣) :

« ان احد علماء دمياط (الشيخ حسن على) ، قصد فى ليلة المولد النبوى مسجد (النفيس) ، وقرأ قصة المولد الشريف خالية من الشوائب القصصية الممزوجة باكثر القصص ، وحض الحاضرين على اتباع القرآن الكريم ، وما صح من أحاديث النبى صلى الله

---

(١٢) « وطنيتى » للغــاياتى ، هامش صفحة ١٢٢ .

(١٣) « الجوائب المصريــة » ، العدد ١٢٩٣ ، فى ٢٠ مايو سنة ١٩٠٧ ، ص ٣ .

عليه وسلم ، وحذرهم من السجود للأولياء ، والاستنجاد بهم من دون الله ، ومن النذور للأضرحة وتعهد صناديقها بالبذل والعطاء ، فى حين أن الاعمال الخيرية امامهم واسعة الأبواب . وهى فى حاجة الى الدرهم والدينار من المحسنين » ٠

ثم يستطرد قائلا : « ثم علم شيخ المسجد (الشيخ النحاس) بذلك وكبر عليه الأمر وثار ثائره ، فذهب الى اثنين من قدماء العلماء الذين لهم سلطان عظيم على قلوب العامة ، وروى لهما الحديث ممسوخا محرفا ، فروياه كذلك للعوام ، فقالوا فى الشيخ ماقالوا ، ورموه بالمروق من الدين والعدول عن الايمان بالله ورسله ، وزادوا من عند أنفسهم ما شاءوا ٠٠٠ ، وهنالك قام رعاع القوم وسفهاؤهم ، منذرين مهددين ، وشرعوا فى رمى منزل الشيخ بالحجارة ، وانهالوا عليه شتما ولعنا حتى اضطر الى الاستنصار بالحكومة » ٠

ويرى الغاياتى أن الحكم الذى صدر على هذا الشيخ « من عمل الشيطان » ، فهو يقضى بمنع هذا العالم من التدريس ، وبقطع مرتبه وجرايته سنة كاملة ، يقدم شيخ علماء دمياط فى آخرها شهادة للمشيخة بحسن سلوكه ، لذلك « فان مشيخة الأزهر هى المسئولة وحدها عما يحدث من وراء اهمالها مرة واتكالها على شيخ علماء دمياط مرة أخرى ، اذ يجب عليها تلقاء ذلك أن تقوم بالاهتمام الكافى وتواصل البحث فى الموضوع ، وتنشر عنه مايكون به فصل الخطاب ، والا فانها تكون مسيئة الى العلم والدين ، بل مسيئة الى مدينة عظيمة ، كادت تراق الدماء فيها من أجلهما ، وأهلها يستغيثون بها ويرجون منها أن تؤيد الحق ودعاته ، وتخذل الباطل ونصراءه بقولها فى ذلك ، فان القول ماقالت » ثم يتساءل قائلا : « فهل تريد حفظها الله ، شرا بالاسلام والمسلمين ، وهى داعية الخير ، وناصرة الهدى ، وقبلة الدين » ٠

وفى مقالاته هذه التى كان يكتبها تحت عنوان « فتنة دمياط واسبابها » (١٢ مقالة) او « المسألة الدينية فى دمياط » (خمس مقالات) ، بالاضافة الى مقالات اخرى متفرقة ، تجد الغاياتى شجاعا جريئا لايخشى فى الله لومة لائم . وهذه نبذ من كلماته :

« وليعلم القراء على اختلاف مذاهبهم ان الدين بعيد عن هذه المشاغبات والتحزبات وانما هى أمور لا يعبأ الله بها ، وليست من دينه فى شىء ، وسيعلم الذين يخلقونها اى منقلب ينقلبون ، فانهم انما يحاربون بها الدين من حيث لا يشعرون ، ونأمل من حضرة شيخ العلماء ان يتقى الله فى دينه ونفسه وينصر الحق حيثما كان »(١٤) .

« اما شيخ العلماء ، فاسمه لاجل ان يحفظه جميع القراء وهو (عبد الرحمن الخضرى) فقد أتى بشهود عريضة يرمون الشيخ حسن .. بالكفر والخروج عن الدين ، وهم لا يعرفون ماكتب فى هذه العريضة . .فلتطلب مشيخة الازهر اوراق التحقيق لمعرفة مافيها من ذوى الآراء السديدة والذمم الطاهرة ، فاذا لم يقم الأزهر بذلك ويضرب على أيدى هؤلاء المفسدين بيد من حديد ويؤيد الحق بكلماته ، فمن نرجوه للاسلام والمسلمين ؟ »(١٥)

« وعلى اخواننا الصحفيين البحث فى الأمر . والانتصار للحق وأهله ولهم الأجر والحمد من الله والناس . فليس لنا فى أصل الرواية شىء ، بيد انا نذكرها كلما صحت لدينا وندع لأنفسنا حرية الصحافة ، فلا نراعى ولا نحابى ، وهذا مايمدحنا عليه العقلاء المنصفون »(١٦)

« ياقومنا انصفونا وانظروا فى الأمر نظرة المتأمل العاقل ،

---

(١٤) العدد ١٢٩٤ فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٧ ، ص ٢ .
(١٥) العدد ١٢٩٦ فى ٢٣ مايو سنة ١٩٠٧ ، ص ٢ .
(١٦) العدد ١٢٩٧ فى ٢٤ مايو سنة ١٩٠٧ ، ص ٢ .

فان رأيتم الحق بجانبنا فكونوا معنا ، والا فارشدونا الى الصواب ، وبينوا خطأنا بالأدلة القاطعة ، وعلينا بعد ذلك الامتثال والاذعان ٠٠ هذا ما ندعوكم اليه ، كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نتبع الا الصراط المستقيم ، ولا ننقسم على أنفسنا ونسفه بعضنا ، فنكون ممن غلب هواهم هداهم فكانوا من الخاسرين(١٧) ٠

ثم يرى الغاياتى انه كتب ماكتبه وهو « مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، مؤمن بالقدر خيره وشره ، وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، – أما الزكاة والحج فلم (يجبا) علينا للآن – ونتبع قول السلف ونسير على سيرتهم ونتعبد على مذاهبهم ، وأنا مع ذلك نرى النبى صلى الله عليه وسلم ، أحب الينا من نفسنا ألتى بين جنبينا ونحترم كل ماجاءنا به من عند الله تعالى ، ونعتقد أن لله أولياء لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، ونعظمهم تعظيما يليق بهم ، وبالجملة فنحن مؤمنون مسلمون بكل معانى الايمان والاسلام »(١٨) ويبدو أنه لم يكتب ذلك الا ليحسن الناس به الظن ولا يرموه بما هو به براء ، لذلك نراه يدعو قائلا :

« جعلنا الله واياهم من عباد الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » ٠

ويعقب الغاياتى على صدور الحكم ضد الشيخ حسن على بقوله : « فهل بعد هذا نرجو تقدم الأمة بارتقاء العلم والعلماء ؟ هل بعد هذا نعلق آمالنا بالأزهر ورجاله ونقول ائمة الدين ؟ هل بعد هذا نؤمل اصلاح الأزهر على يد واحد من أهله ؟ كلا والله ٠ لاترقى الأمة ولا يرجى من الأزهر خير ولا يؤمل له اصلاح ، مادامرؤساؤه رؤساءه ، وأبناؤه أبناءه ٠ أيكون فيه مثل هذا وذاك من أهل الغباوة

---

(١٧) العدد ١٢٩٩ فى ٢٧ مايو ١٩٠٧ ص ٢ ٠

(١٨) العدد ١٣٠٤ فى أول يونيو ١٩٠٧ ، ص ١ ، ٢ ٠

والتنطع والجمود والجهل بطرق الادارة والاصلاح ثم يرجى لــه خير مطلقا ؟ كلا والله ٠ انه لايزال متقهقرا الى الوراء حتى تتحول حاله وتنقرض رجاله ويوكل أمره الى أولى الرأى والنظر »(١٩) ٠

أفبعد هذه الجرأة المتناهية ، والرأى الحر ، فى أدق المسائل التى ترتبط بالعقيدة والدين ، لانستطيع أن نحكم على الشيخ على الغاياتى بأنه ـ وهو ابن الثانية والعشرين ـ سوف يكون له دور فى الكتابة الصحفية وفى ميدان الجهاد الوطنى ؟ ، ثم يمكنك أيضا أن تستشف عن أخلاقه الطيبة وشخصيته الكريمة ، وهو يدعو السراة والكبراء الى التبرع لهذا العالم الدمياطى ، حتى أن الشــاعر خليــل مطران رئيس تحرير « الجوائب » يتبرع بثلث مرتبه لهذا الشيخ : حتى لايضام الرجل فى معاشه الى أن تعاد اليه وظيفته ، وذلك حبا فى الدين الاسلامى ـ وهو مسيحى ـ ورغبة فى تخليصه لأصله النافع الشريف السمح ، حتى لايبقى عذر لجاهل به يزعــم أنه مناف للحضارة والترقى »(٢٠) ٠

وأخذ الكتاب يؤيدون الغاياتى فى كتاباته انتصارا للحق ، واقامة للانصاف ، ومنهم « الفيلسوف الحكيــم والعــالم الكبير الدكتور شبلى شميل »(٢١) ، وانهالت رسائل القراء تحيى الجريدة وصاحبها ، لأنه أوسع صدرها الرحيب لنصرة الاسلام ، مما جعل الغاياتى يوجه كتابا مفتوحا الى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف ، يندد فيه بالحكم على الشيخ حسن على « حيث أن الرأى العام راض عنه ، وساخط على الحكم ، ومن أصدروه » ، ثم يوجه حديثه للشيخ حسن قائلا : « لاتبتئس ولا تحزن فان الأدبيات

---

(١٩) العدد ١٣٠٨ فى ٦ يونيو ١٩٠٧ ، ص ١ ، ٢

(٢٠) العدد ١٣١٤ فى ١٣ يونيو ١٩٠٧ ، ص ٢ ٠

(٢١) مقــالة بعنوان « لا يعــدم الحق أنصــارا » ، العــدد ١٣١٥ فى ١٤ يونيو ١٩٠٧ ، ص ١ ، ٢ ٠

فوق الماديات ، ولاتهم الأخيرة مادامت الأولى محفوظة لك ، معتبرة فى نظر كرام قومـــك ، وان الله معـــك ، وهـــو تعالى سيجـــزى الظالمين »(٢٢) ٠

وقد نشر الغاياتى ماكتبه هو فى « الجوائب » ، وما استكتبه الفضلاء فى « الجوائب » وغيرها ، فى موضوع المسألة الدمياطية الدينية ، فى رسالة أسماها « سيف الله الصارم » ، طبعت بمطبعة « الجوائب المصرية » فى ٦ يناير سنة ١٩٠٨ ، وكان قد أعلن ان قيمة الاشتراك فيها قبل النشر بخمسة قروش صاغ(٢٣) ٠

وقد نظم الغاياتى قصيدة جريئة وقاسية على دعاة الرجعية ـ حتى ولو كانوا من علماء الأزهر ـ والذين كانوا يعملون فى ذلك الوقت مع الاحتلال والسلطة لعزله عن ســير الحياة ، وعن أداء رسالة الدين الاسلامى الصحيحة ، فتراه يقول فى موضــع من قصيدته التى نشرها فى ديوانه « وطنيتى » :(٢٤) ٠

ياويـــل مـــن عبدوا القبـور وأشـــركوا
بـالله بيــــن توســــــل وتضــــــرع

ورأوا من العلمـــاء تأييـــدا لهـــم
فمضـــــوا وما فطنـوا لغـــى مبـــدع

ياقـــوم ان أولئـــــك العلمـــــاء
قـــد جعلـوا الشـــريعة سـلما للمطامع

---

(٢٢) العدد ١٣١١ فى ١٠ يونيو ١٩٠٧ ، ص ١ ، ٢ ٠

(٢٣) العدد ١٣٦٥ فى ١٢ أغسطس ١٩٠٧ ، ص ٣ ، ولكن هذه الرسالة غير محفوظة فى دار الكتب العامة ٠

(٢٤) « وطنيتى » للغاياتى ، ص ١٢٢ : ١٢٦ ٠

فاذا أرادوا فالحـــــــلال ممتـــــــع
أمـــــا المحـــرم فهـو غيـر ممنـــــع

فهلـــم ننبذ رأيهـــــم ونـــــرى لنـــا
رأيـــا تنـــزه عن فســـــاد المنـــزع

ونشـــن غارتنـــا عليـــــهم كلمـــا
شـــنوا علينـــا غـــارة المتجشـــــع

حتى نـــــرد همـــو الى الاســـــلام
أو نـــذر العمائـــم بالمقـــام الأشنـــع

وهنـــاك يصـبح ديـن أحمد خالصـــا
لله لا لـــــلأوليـــــــاء الأربـــــع

ويشرح الغاياتي المقصود من « الأولياء الأربع » فى الهامش ، فيقول : « الأولياء الأربع هم السيد أحمد الرفاعـــى ، والســيد عبد القادر الجيلانى ، والسـيد أحمد البدوى ، والسيد ابراهيـــم الدسوقى ، رضى الله عنهم ، وهم الأربعة الأقطاب الذى يرجع اليهم الكون والتصرف فيه ، وكل ولى يستظل بلوائهم ، كذلك قال الجهلاء »

يعلق فتحى رضوان على موقف الغاياتى بقوله :(٢٥) « وبهذه الصفحة المبكرة فى حياة على الغاياتى ، يطالعنا على حقيقته ، ثائرا صادقا ، لا تتفجر ثورته حيث تكسبه عطف العامة أو تأييدهم ، أو حيث يكون الصدام والصراع من جهة حكم ، أو سلطان مكروه ، لاسند له الا سلاحه وماله وهيلمانه ، فليس أقسى على المجددين والثوار ، من أن ينازلوا قوة كساها الزمن وانحلال الخلق ، وفساد

(٢٥) « عصر ورجال » ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

العقيدة قدسية زائفة عند عامة الناس ، ففى معركة كهذه لا يضيع صوت الثائر فحسب ، بل يعتبر مارقا خارجا على الأمة ، ويستباح دمه ، دون أن يظفر بكلمة اشفاق واحدة ، فيجتمع عليه ظلم صاحب السلطة ، وظلم العامة والشعب » .

واذا كان الغاياتى من المطالبين بالاصلاح الدينى ، مستنكرا للمنكرات والبدع فى موالد أولياء الله الصالحين(٢٦) ، وعن التصرفات التى يحدثها العوام فى ضريح الامام الحسين ، وكيف أنها شرك بالله أو جهل بالدين ، فهو يحذر قائلا : « فكفى وعجبا على أمة ضحكت من أجلها الأمم .. وكفى عبادة للأولياء الى هذا الحد »(٢٧) ، فهو يعلق أيضا على تلك الخرافات التى ألصقها الجهال بالسيد البدوى ، وكيف أن الشيخ محمد عبده كان يحارب كل غريب عن الاسلام وكان له أيادى بيضاء ومآثر غراء على الدين ، وأنقذ الكثيرين من هاوية الشرك والجهل المبين : « الأمر الذى سيدوم مادام الوجود وما ارتقت المدارك والفهوم .. »(٢٨)

وفى احدى مقالات الغاياتى عن الأزهر الشريف ، يرسم لنا صورة وصفية للمكان ورواده ، لاتخلو من الجرأة والسخرية فى وقت واحد ، مما جعلنا نسردها هنا لكى يستطيع القارىء بنفسه أن يحكم على الأسلوب الصحفى فى ذلك الوقت ، يقول الغاياتى :(٢٩)

---

(٢٦) مقالة بعنوان « مولد النصف بدمياط » ، جريدة « **الجوائب المصرية** » العدد ١٤٠٠ فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ ، ص ١ .

(٢٧) مقالة بعنوان « عودة الى المسجد الحسينى » ، « **الجوائب المصرية** » العدد ١٤٢١ فى ١٦ أكتوبر ١٩٠٧ ، ص ١ .

(٢٨) مقالة بعنوان « الكلمة الاخرة فى المسجد الحسينى » ، جريدة « **الجوائب** » العدد ١٤٢٧ فى ٢٣ أكتوبر ١٩٠٧ ، ص ١ ، ٢ .

(٢٩) العدد ١٢٩٨ فى ٢٥ مايو ١٩٠٧ ، ص ١ ، ٢ .

« يممت اليوم الجامع الأزهر وأنا بين اليأس والأمل أروم مقابلة شيخه (كان حينئذ الشيخ حسونة النواوى) وأعلق عليها ماشاءت الآمال . ولكننى اخشى ان يكون فضيلته من بقية القرون الأولى ، الذين رأسوا هذه المشيخة وهم لايعرفون من الرئاسة الا كما يعرف الأعمى من ضوء الشمس ، ورغما عن هذه العوامل الفكرية دخلت الجامع ، أو المدرسة الدينية الكلية كما يقولون ، فرأيت كأنى انتقلت طفرة من هذا العالم الحى الراقى الى عالم آخر أقرب الى العدم من الوجود ، ورأيت أهله يتطلبون الحياة الراقية ولكنهم يسيرون فى غير سبيلها القويم ، وينهبون الليالى والايام ليدركوا غايتهم فتعز عليهم وتبتعد عنهم كلما أرادوا التقدم نحوها ... وما ذلك الا لأنهم ينتهجون منهجا وعرا بغير دليل ولا هدى ، ويلقون بأنفسهم بين صعاب وعقاب ، لا يعلم الا الله كيف يتخلصون من وبالها ويرجعون من حيث أتوا ... الجامع خليط من أجناس مختلفة وكلهم يقصد أمرا واحدا ويعمل على ما يبلغه اياه ، فيعود فائزا من ساقته مقادير السعادة الى الدار من بابها ، ويعود بخفى حنين من أوقعه سوء حظه فى أيدى أولئك الذين قالوا انا وجدنا آباءنا ، فتركوا القديم على قدمه ، وأساؤا الى أنفسهم والى الناس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

***

(فى الفشــلاق الأحمر)

ونصل الى أحدى المكائد التى دبرها « حزب الضلال والجهل والحمق » ٠٠ ضد الغاياتى ، الذى وقف ينصر الحق ، ويدافع عن دين الله الخالص ، ويؤيد الرجل الضعيف الذى قام يدعو الى الله ــ يقصد الشيخ حسن على فى دمياط ــ فاضطهد واصيب فى نفسه ورزقه ، فنصبوا للغاياتى المصائد محاولين أن يمحوا اسمه من ديوان الأحياء(٣٠) ، ونترك الحديث للغاياتى نفسه ، وهو يستعيد ذكرياته فيقول : « ٠٠ وقد كنت اذ ذاك محررا بجريدة « الجوائب المصرية » فتتبعت هذه الفتنة الشعواء ، وأخذت أكتب واستكتب غيـرى من الكتاب منتصرين للحق ، محاربين الباطل ، فكان قولى ثقيلا على المبطلين ، فدبروا لى مكيدة تريحهم من سماع صــوتى ، وتكون انتقاما منى وعقابا لى ، على حملتى التى شاركنى فيها كثيرون من مصلحى الأمة وفضلائها ، وأيدونى فى موقفى تأييدا عظيما ، أما هذه المكيدة فهى ادخالى الجيش بدعوى أننى عوفيت من القرعة العسكرية لطلب العلم ، ولم أقض المدة القانونية بعد المعافاة بدون اشتغالى بحرفة سواه ، فقدموا الى الحربية مطاعنهم وأمطروا على ادارة القرعة رسائلهم ، وأخذ التحقيق دورا يعرفــه من يعــرف قانون القرعة ، واستبداد رجالها وغلظتهم ، فكانت النتيجة انى (سجنت)

---

(٣٠) « الجوائب المصرية » ، العدد ١٤٥٩ ــ ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٧ .

بقشلاق العباسية (القشلاق الأحمر) اثنى عشر يوما (من ١٨ الى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٧) تحت التحقيق ، ثم اطلق سراحى لأسباب قانونية . بعد أن عرفت سوء الاقامة فى الجيش المصرى ، وأسباب النفور والفرار من وجهه . وقد نظمت قصيدة طويلة فى مدة (السجن) هذه خلاصتها »(٣١) ·

يقول الغاياتى فى مطلع قصيدته هذه :

اصــبر لخطب الدهـر غير مضعضـع
واذا رمــاك بما يســوءك فاخضــع

واتــرك عداك فانهـــم ان يشمتـــوا
بـــك ساعة رجعـــوا بما لــم ترجـــع

ما الدهــــر الا ســـاعتـــان فهـــذه
يمـــن وتلـــك لبؤســـه المتوقـــع

فـــاذا لقيـــت مـــن الزمـــان وفاءه
يومـــا فـــلاق العـــذر غـير مـروع

ثم تراه لا يخلو من روح الدعابة ، اذ يصف نفسه كأنه بطل من أبطال الحرب، فيقول :

أصــبحت (رب السـيف والقلـم) الذى
هـــزم العمائـــم يـوم أضحـــت لاتعـى

***

(٣١) « وطنيتى » للغاياتى ، هامش ص ١٢٢ و ١٢٣ .

(فى صحف الحزب الوطنى)

اعتنق شاعر الوطنية والمجاهد القديم على الغاياتى ، مبادىء الزعيم مصطفى كامل ، منذ أن استمع الى خطبته الكبرى التى ألقاها بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء المحافظين لعهده طوال السنين(٣٢) ، وكان من الطبيعى أن يكون الحزب الوطنى ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، حزب الجلاء ، هو الحزب الذى يكسب ثقة على الغاياتى الشاب ، فلم يكن ممكنا لشاب فى مثل حماسته التى أغرته بدخول معركة مخوفة ، كمعركة فتنة دمياط الدينية ، أن يجد فى أحزاب مصر فى تلك الايام ــ حزب الأمة وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية والحزب الوطنى ــ مايشبع ميله الثورى ، وطاقته الانفعالية الفتية ، الا حزب متطرف غاية التطرف ، ولم يكن بين الأحزاب المصرية مايفوق الحزب الوطنى فى تطرفه ، بل ان العيب الذى كان يأخذ عليه عند خصومه ، أنه يبالغ فى التطرف الى حد يعمى معه عن حقائق الحياة ، والواقع الذى لا سبيل الى الفرار منه(٣٣) .

وقد عجل مزاج الغاياتى الثورى بالنتيجة الحتمية التى يقود

---

(٣٢) عبد الرحمن الرافعى « شعراء الوطنية » ، ط (١) (القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥٤) ص ٣٠٥ .

(٣٣) فتحى رضوان « عصر ورجال » ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣

اليها هذا المزاج ، فقد بدأ ينشر فى « اللواء » لسان حال الحزب الوطنى ، ثم فى « العلم » ، قصائد نارية لايهاب فيها جانب الاحتلال، ولايقيم وزنا لمقام الحاكم أو القضاة ، ولا يجامل فيها أصـــحاب المقامات الأدبية كأحمد شوقى شاعر الأمير فى ذلك الحين وقبل ان تعقد له امامة الشعر ، ولاشيوخ الأزهر وهو واحد منهم ٠

وقبل أن نستعرض معا بعضا من هذه القصائد ، يحسن لنا أن نصف لشعر الحركة الوطنية وصلته بالصحافة ، فلقد كان الزعيم الشاب مصطفى كامل بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر ، وقد صحب هذه الحركة طائفة من الشعراء من أهمهم اسماعيل صبرى ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد شوقى ، وعلى الغاياتى ، وأحمد محرم ، وأحمد الكاشف ، ويمكن الحكم على شعر هؤلاء بأنه كان يسير مع الصحافة جنبا لجنب ، ويجرى مثلها مع حوادث المجتمع المصرى ولايترك مناسبة من المناسبات حتى يكون له كلمة ، كما للنثر الصحفى كلمة ، وكثيرا ماتشترك الكلمات فى المعانى والأفكار ، كما اشتركا فى الغايات والأهداف ، أفليست الحركة الوطنية فى حاجة دائما الى من يلقى فى أتونها الوقود بين الحين والحين ، ليزداد الأتون لهبا ، فتزداد المشاعر قوة وسعيرا ؟(٣٤)

ولقد كان الغاياتى بحق أحد هؤلاء ، الذى يلقى فى وقود الثورة والوطنية والاصلاح الوقود الحر الشجاع الجســـور ٠٠٠ فينشـــر فى « اللواء » تحت عنوان » ياحمـــاة الدين ويحكموا » ، قصيدة يؤيد فيها طلبة الأزهر ، الذين أضربوا عن الدرس احتجاجا على عدم قبول بعض طلباتهم ، ويؤيد فيها استقالة الشيخ حسونة النواوى شيخ الجامع الأزهر من منصبه ، لمالقيه الطلبة الأزهريون

---

(٣٤) عبد اللطيف حمزة « **مستقبل الصحافة فى مصر** » (القــاهرة ، الفكر العربى ، ١٩٥٧) ص ٩١ : ١١٠ ٠

من سوء معاملة بلغت حد جلد بعضهم فى قبلة مسجد الأزهر ، بأمر من خليل حماد باشا رئيس ديوان الأوقاف ، يقول فيها(٣٥) .

ياحمـــاة النيـــل ويحكمـــو
ودعـــوا الديـــن الـــذى قبـــرا

ان بيـــــت الله محتـــــرم
كيـــف بـــات الآن محتقـــرا

....
....

خلـــق الظـــالم لهـــم رجـــلا
حـــارب العـــدل ومن عـــدلا

عشـــق الجلـــد وعدتـــه
فغـــدا الجـــلد لـــه عمـــلا

وعندما يصدر قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة ، يقول الغاياتى تحت عنوان « صوت المصرى »(٣٦) .

لئـــن قيـــدوا منـــى اليراع واوثقـــوا
لســـانى فقلبى كيفما شـــئت ينطـــق

فـــلا يأمنـــوا تلـــك القلـــوب فانهـــا
دمـــاء أراهـــا أوشـــكت تتدفـــق

ثم ينشر تحت عنوان « الى سمو الأمير والوزارة والأمة » ،

---

(٣٥) « اللـواء » ، العدد ٢٨٨٥ ، ١٩ فبراير ١٩٠٩ ، ص ٦ .
(٣٦) « اللـواء » ، العدد ٢٩١٥ ، ٢٥ مارس ١٩٠٩ .

قصيدة من ثلاث قطع واحدة لسمو الامير ، واخرى للوزارة السابقة . والثالثة للأمة ايدها الله بنصره ، ويتحدث الغاياتي أيضا عن الصحافة(٣٧) ، « فهى خير واسطة لحسن التفاهم بين الأمة والحكومة،وهى لسان شاكر وعتاب ينطق بما يكنه فؤاد الشعب منهما فهو عند عدل الحكومة واحسانها شاكر مادح ، وعند غير ذلك معاتب لائم ، ولاريب أن سمو الأمير هو رأس الحكومة الأكبر ، وأولى من يوجه اليه أمل الامة وألمها ، وقد جاء قانون المطبوعات قاطعا لهذا اللسان ، حائلا بين الأمير وشعبه ، لذلك كان يوم ارجاع هذا القانون هو آخر العهد بيننا وبين سموه ، وقاطع حبل المودة والعتاب الذى أصبح أمره بيده الأفئدة بعد الألسنة ، على أن هذه الابيات الموجهة الى سموه هى فى الحقيقة عتاب على قطع العتاب الذى نعتبر أنه كان موجها اليه ، خاصة لأنا لانعرف لنا حاكما شرعيا سواه » .

ويقول الغاياتى فى هذه القصيدة ـ التى سنرى فيما بعد كيف حولته الى شاعر وطنى كبير :

اعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذاك عتابا

ايرضيك فينا أن نكون أذلة
ننال اذا رمنا الحياة عقابا

ونيأس من آمالنا فيك كلما
قضيت علينا أن نكون غضابا

وارضيت أعداء البلاد وأهلها
واصليتنا بعد (الوفاق) عذابا

---

(٣٧) « اللــواء » ، العدد ٢٩١٦ ، ٢٧ مارس ١٩٠٩ .

رويـدك ياعبـــاس لاتبلـــغ المـدى
ولا تســـتمع للظـــالمين خطـــابا
فما يبتغى (جورســـت) ألا مكيـدة
تحـول اقـــلام الســـلام حـــرابا

وها قـد رمـى (حريـة القول) رمية
بسهمـــك تجنـــى للبـــلاد خرابـا

***

الا أمطـــر الله الـــوزارة نقمـــة
ولا بلغـــت مما تـــروم مرامـــا

تحـــاول أن تقضـى علينـا باثمها
ولكـن ســتلقـــى دون ذاك اثـاما

وزارة خـــداع اقامـــته بيننـــا
يـــد الحاكمـين الآثميـن فقـــاما

وبين يديـه عصـــبة (بطرســـية)
تصـــوب نحو المصـــلحين سهامـــا

جنى ماجنى فى (دنشواى) وغيرهـــا
ولـم يكفـــه حتى أستحـــل حراما

فقيـــد أقـــلام الصـحافة علهـــا
اذا أبصـــرت سوءاتـه تتعـــامى

سـلام على عهـد الوزارة قبلـــــه
وان كان عهـــدا لا يبيـــح سـلاما

***

بنى مصـر بشرى فالرجاء محقـق
ومن عـدم الأقـوال رام فعـالا

وهـذا يراعـى فليقـيد قائمـا
لـدى يـراع لايهـاب نضـالا

سـاطلقه يجـرى كما شـاء حـده
ومن شـاء فليقطع عليـه مجـالا

فـلا تيأسـوا فاليأس مجلبـة الردى
وشـدوا الى نيل الرجـاء رحـالا

ولا تفزعـوا من حـاكم أو حكومـة
تـرى نشـر آمـال العبـاد ضـلالا

وسيروا الـى مـا تأملـون بحكمـة
ولا تحسـبوا الفوز المبيـن محـالا

فانـى لمحـت النصر بيـن صفوفكـم
وأبصـرت عقبـى الظـالمين وبالا

***

ويشرح لنا الغاياتى المقصود بسياسة الوفاق ، وهى تلك التى أتى بها المندوب السامى البريطانى فى مصر « جورست » ، بعد سياسة الخلاف التى ذهب بها اللورد « كرومر » ،وان كان يـرى أنه « لاخير لنا فى سياسة ما مع الاحتلال » ، أما الحاكمون الآثمون فهم الانجليز المغتصبون ، وقد كان تعيين بطرس باشا غالى رئيسا للوزارة خلفا لمصطفى باشا فهمى ، بمحض ارادتهم ، فهم الذين اقاموه رئيسا للنظار ، وأصدروا أمرهم من «لندره» بذلك كما رواه «المقطم» حين ذاك ــ الجريدة ــ وهو لسانهم الصادق قطعه الله ،

كما يرى الغاياتى ان اليأس باعث الهلاك وجالبه ، ومن يئس فقد جهل معنى الحياة وفقد شخصية الأحياء ، ولاسبيل الى نهضة الأمة وحياتها الا بمحالفة الامل ومحاربة اليأس ، وذلك تأكيدا لاحدى مأثورات زعيم الوطنية مصطفى كامل « لامعنى للحياة مع اليأس · ولا معنى لليأس مع الحياة » ·

وترتفع الحماسة عند شاعرنا وكاتبنا الوطنى على الغاياتى ، حتى أنه تنسيه كل دواعى القانون ومقتضياته ـ كما سنرى عند الحديث عن ديوانه «وطنيتى» ـ فيوجه تحياته الى شاب هندى ثارت فيه الحمية الوطنية مما جعله يقتل أحد حكام الهند الانجليز ، فيقول(٣٨) : « دنجرا اسم طالب هندى كان بانجلترا ، وهو من حزب (الفدائيين) الأحرار من الهنود الذين يحاربون أعدائهم الانجليز بالسيف والقلم · وقد كان من أمره أنه انتهز فرصة فى حفلة بلوندرة مكنته من قتل (السير كيرزون ويللى) الذى كان من حكام الهند ، معتقدا أنه بذلك القتل يثأر لبلاده ويعيد مجد أمته · وقد قبض عليه ، وأجرى التحقيق معه فأبدى هذا الاعتقاد بكل صراحة معلنا أمله فى حياة الهند بموته وموت أمثاله فى سبيل جهادهم من أجلها ، ولما حكم عليه بالاعدام ابتسم لهذا الحكم وحياه بسلام عسكرى بكل ارتياح ، على أن هذا المذهب الفدائى العدمى الذى أفاد فى بلد فقد لايفيد فى الأخرى ، وربما أخفق سعى أصحابه فى بعض أغراضهم ، ولكنى أرى أن الفكرة الأولى المراد بها خدمة البلاد ، والانتقام من أعدائها بأنجح الطرق وأفضلها ، فكرة شريفة محترمة ، لاتتشبع بها الا نفس شجاع مقدام ، بصرف النظر عن نتائجها التى قد لايلحظ صاحبها فيها الا خيرها وأولاها ، لهذا يجدر بأمثال هذا الطالب أن يمجدوا ، لا باعتبار عملهم الأخير ،

---

(٣٨) « اللواء » ، العدد ٣٠٤٢ ، ١٩ أغسطس ١٩٠٩ ·

ولكن باعتبار فكرتهم الشريفة ، وشخصيتهم الكريمة ، سواء أحسنوا بعد أم أساءوا » .

يقول الغاياتى فى تلك القصيدة بعنوان « اليه بعد الاعدام »(٣٩)

كيف ارثيـــك (دنجـــرا) بمقـــال
يدعـــــى القـــــوم أنه اجـرام

كنـــت شـــهما على البـلاد غيورا
لم يشـتك الرضـاء والاحجام

دفعتـــك الحيـاة للمـــوت حتـــى
لـــم يرعــــك القضـاء والاعـدام

فقضــــيت الحيــــاة مبتـــهج النف
س وأمضـــت قضـــاءها الاحكـــام

مـــت بالأمس والممـــات حيـــاة
خلدتهـــــا لذكـــــرك الايــــــام

فســـلام عليـك والدمـــع جـــــار
وســـلام وفى القلـــوب ضــــرام

وســلام وانـــت حـــى وميـــت
لــك يهديـه النيـــل والاهــــرام

***

(٣٩) نشر الغاياتى أيضا فى ديوانه « وطنيتى » ص ٦٠ و ٦١ قصيدة بعنوان « الى دنجرا قبل الاعدام » يعترف فيها بانه نظمها بعد اصدار الحكم على دنجرا بالاعدام ، ولكن ليس من أجل تمجيد الجريمة القانونية ، والا أصبحت جريمة معاقب عليها ، ولكنه رثاء شخصى يقول فيه :

هنيئا فقيد الهند نلت مدى المجد　　　وخلدك التاريخ فى مصر والهند

يافتى الهند ان النفــس وجــدا
كامنــــا تســتفــــزه الآلام

رمـت أيديـــه يــوم موتــك لكــن
حـــال بينى وبينــه الاحكـــام

وســـيبدو مـــع الزمـــان ويدرى
غافــل القــوم أننـــا لا ننــام

وعندما امتنع أعضاء الوزارة البطرسية ، عن حضور جلسات مجلس الشورى – الهيئة التشريعية لمصر آنذاك – وذلك فرارا من أسئلة نواب الشعب ومناقشاتهم ، يلقى الغاياتى بسهام نقده شعرا الى صدورهم قائلا تحت عنوان « الى وزارة مصر ٠٠ احتقار أم اعتصاب(٤٠) ؟؟ » :

ياأيهـــا الوزراء مـــاذا نابكـــم
حتى هجـــرتم (صورة النـــواب)

ان كان ســيف الحق روعكـــم وقــد
هتـك الحجاب وصــال فى الحجــاب

أو كــان (اسماعيل) صــوب سهمــه
فأصــاب منكـــم موضــع الأوصــاب

.....

فتزلـــزلت أقدامكـــم من هولهـــا
وهرعتمو فـــزعا الـــى الأبـــواب

---

(٤٠) « اللـواء » ، العدد ٣١٦٠ ، ٦ يناير ١٩١٠ ، ص ٥ .

ورضـيتموا الهـرب المعيـب لأنــه

خير من (الافــلاس عند حســاب)

.....

عــار عليكــم ان يقــال (وزارة)

لــم تـدر ان ســئلت بيـان جـواب

هربت فــرارا من ميادين الســؤا

ل وســـجات ما سـجلت من عـاب

وهو يقصد باسماعيل هنــا ، ذلك « النائب الحر عن مديرية الشرقية فى مجلس الشورى (اسماعيل باشا أباظة) »٠

وتحت عنوان « نحن والاحتلال » يقول على الغاياتى(٤١) :

كفكفـى يا مصـر دمــع الوجــل

وارتقــب يائيــل نيــل الأمــل

جاوز الصـبر المدى والصـدر لـم

يبعـد فيـه الوجـد من محتمــل

كـم شقاء ! كـم بلاء ! كــم أذى !

أى حــال بعــد ذا لــم يحــل

كما ينشر أيضا قصيدة يختار عنوانها بدقة بالغة هى « آهة مصرى ينوح على مصر » يقول فيها(٤٢) :

آه كـــم أنـــة وكــم حســـرات

آه كـــم زفــرة وكــم عبــرات

---

(٤١) « اللــواء » ، العدد ٣١٦٤ ، ١٠ يناير ١٩١٠ ، ص ٥ ٠

(٤٢) « اللــواء » ، العدد ٣١٧٣ ، ٢٠ يناير ١٩١٠ ، ص ٥ ٠

طـال ليل البـلاد والشـــعب ســار
لايـرى غيــر هــذه الظلمـــات

ظلمــات مـــن المظالـــم أودت
بضـــياء الحيـاة بعـد الحيــــاة

يشتكـى الشـعب والقضـاة خصوم
فلمن يشتكـى خصــام القضـاة ؟

أوشـــك القلـب أن يطيـر انتقامـا
بيـــد أن الصــدور ذات أنـــاة ؟

ليـــس للصـبر موطـن فى فـــؤاد
أضـــرمته لواعــج الزفـــرات

بيـــن جنبـى مســـهد مســـتهام
ليس يشـكو هـوى فتـى أو فتـــاة

همه «مصــر» خيـــر أرض أقلـــت
بعـــد خيــر الهداة شـــر البغـاة

طلـع النحـس بالشـــقاء عليهـــا
ودهـاها الزمـــان بالويـــــلات

قهرتهــا يـد الطغـــاة وكانـــت
مصـر أولـى بقطـع أيـدى الطغاة

وسنرى أيضا ـ فيما بعد ـ أن البيتين الثالث والرابع ، سيكون لهم تاريخ فى نضالنا الوطنى ، ويتفاعل الغاياتى أيضا مع أحداث الشعب الفرنسى ، ففرنسا حينئذ تتظاهر بتأييد الكفاح المصرى ضد الاحتلال البريطانى ، فيواسى شعبها بعد أن فاض نهـر (السين)

وأغرق جانبا من العاصمة باريس ، وترتبط أحداث ذلك الفيضان مع قضية مد امتياز قناة السويس ، لتصبح الى سنة ٢٠٠٨ ، بدلا من انتهائه فى سنة ١٩٦٩ ، ويأمر الخديوى بعرض هذا الموضوع على الجمعية العمومية فى يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٠ ، وقد أثارت هذه القضية مشاعر المصريين ، وصحفهم ، وهذا هو الغاياتى ينشر أولا تحت عنوان « السين يضطرب والنيل ينتحب » قصيدة يقول فيها(٤٣) :

ما لقلب (السين) يضطرب
وأخوه (النيل) ينتحب

بلغت (باريس) غايتها
فتولى نهرها الـ[illegible]رب

ثم ينشر ثانية تحت عنوان « اليكم نواب الجمعية العمومية(٤٤) قصيدة فى « اللواء » يقول فيها :

أرادوا بمصر محنة وبلاء
وجاءوا بكم يستعجلون قضاء

• • • • •

لقد بات قلب الشعب سهما مصوبا
سيمضى الى النواب أو يتناءى

وبات يراع الكاتبين مهندا
فا طلع من ليل المداد ضياء

(٤٣) « اللواء » ، العدد ٣١٨٥ ، ٣ فبراير ١٩١٠ ، ص ٥ .
(٤٤) « اللواء » ، العدد ٣١٩٠ ، ٨ فبراير ١٩١٠ ، ص ٥ .

.....

وها قـد أتـى « يوم القناة » معجلا
فويـل لمـن « يـوم القناة » أسـاء

والى جانب مشاركة الغاياتى فى كل الاحداث الجارية والقضايا الوطنية فانه كان يشارك فى رثاء زعماء الحركة المصرية الوطنية ، ففى الذكرى الأولى لوفاة الزعيم مصطفى كامل ، ينشر تحت عنوان « رب ذكرى هيجت شـجنا »(٤٥) هذا ملخص له : حددت ذكرى الفقيد المبرور ألم النفوس المستكن ، وهاجت بكل جانحة من الأشجان لا عجة ، لايخبو لها سعير ، ولا يهدأ زفير ، وانى لأ ذكر يوم كنت بدمياط فى العـام الغـابر ــ ١٩٠٨ ــ وقد دهمنى خطب الفقيد العظيم ، فأقمت حفلات التأبين الجامعة ، وأديت من الفروض الوطنية بعض مايجب لفقيد الشرق والاسلام ، واشترك خطباء المسـاجد يوم الجمعة وعلماء الدين وجماعة الكتاب والشعراء الكرام فى قضاء هذا الحق الوطنى المقدس . وكان الكل مدفوعا بشعور واحد هو حب الفقيد الممثل لمعنى الوطن والوطنية ، أما المدامع والأقلام فى مصر فقد تسابقت فى ذلك اليوم العصيب بكاء ورثاء ، ولقد جاء يوم الذكرى ، فحار دمعى بين الشؤون والجفون ، كما حار يراعى بين المداد والقرطاس ، فاذا ما شاركت اليوم الأمة فى شـعورها الشريف بكلمات من الشعر صادرة عن فؤاد محزون ، فانى لا أزال أرانى مع هذا بعيدا عما أريد من التعبير والبيان فى هذا الموقف العظيم » .

ونرى فى هذه القصيدة ، أنها ليست سلاحا من أسلحة الوطنية فقط ، ولكنها كانت محاولة من على الغاياتى لتجديد الشعر العربى

---

(٤٥) « اللـواء » ، العدد ٢٨٨١ ، ١٥ فبراير ١٩٠٩ ، ص ٢ .

ليوائم الحياة الوطنية والاجتماعية الجديدة ، فنراه يقول : « وقد اقتفيت فى قصيدتى هذه طريقة جديدة ، هى جعل القصيدة قطعا ، كل قطعة ذات روى خاص ، وبذلك تسهل على الشاعر بعض الصعاب التى يصادفها فى سبيل القافية والتزام الروى فى جميع القصيدة ، وهى طريقة وسطى بين طريقة الشعر المرسل والطريقة القديمة ، وقد اخذت أن تكون القطعة سبعة أبيات فصاعدا من بحر وضرب وروى واحد ، وبهذا يصح أن تكون كل قطعة قصيدة قائمة بذاتها ، وان شئت فهى قصائد متعددة فى قصيدة واحدة ، فعسى أن يروق ذلك لشعرائنا فيقدموا على القريض ليكون صغيرهم بعد احجامه وضعفه شاعرا مقداما قادرا ، ويتسنى لكبيرهم أن يتحدى شعراء أوروبا ويباريهم فى الشؤون الاجتماعية العصرية فيصبح له فى كل معنى قول مأثور وأثر مشكور » .

ويعلق الغاياتى فى ديوانه « وطنيتى »(٤٦) بأنه قد حادث حضرة الشاعر الكبير حافظ أفندى ابراهيم فى هذا النهج من الشعر فاستحسنه ، قبل أن يبدأ بسلوكه فى هذه القصيدة ، وقد وعده بالسير فيه ، كما حادث سعادة اسماعيل باشا صبرى فى ذلك فاستحسن أن يكون الشعر بيتين بيتين ، ووعد باتباع هذه الطريقة فى نظمه ، ولكنه لم ير لسعادته بعد ذلك الا قصيدة فى رثاء (بطرس باشا غالى) ، اتبع فيها الطريقة القديمة ونشرها على غير انتظار . كما أن حافظا لم يف بوعده ، ولا يدرى الغاياتى لماذا لاتهذب طرق الشعر العربى حتى يجارى شعراؤنا شعراء الأمم الراقية ، ولايكون لشكواهم من صعوبة الطريقة القديمة وجه حسن ، ولا لاحجامهم عن الوطنيات والاجتماعيات عذر مقبول ؟

والقصيدة خمسة مقاطع ، اخترنا منها البيتين الأولين من كل مقطع ، فيقول :

---

(٤٦) « وطنيتى » للغاياتى ، ص ٤٧ : ٥١ .

عجبـــا للقريض كيـــف عصـــانى
ولدمــــع دعوتــــه فتنـــاءى

كنـــت يــــوم الوفـــاة أول بــــاك
نظـــم الدمــــع والقريض رثـــاء

.....

ليـــت شـعرى مـــاذا دهـــانى
جـف بالامـــس مدمعـــى ومدادى ؟

ان ذكـــرى الفقيـد بعـــد ربيـــع
جــــددت رزاه بكـــل فــــــؤاد

.....

أدهشـــتنى حيـاة مصـــر وأحيـــا
أملـــى نشـــؤها العظيـم الرجـــاء

عرفـت واجـب الوفـاء وأحيـــت
ذكر حـامى الحمـى شـهيد الوفـاء

.....

مصـــر انى أرى أمـــامك يومـــا
صـامت القـول ناطـــق الأفعـــال

اقتـــم الصـدر أنور القلـب يجلـو
بســـناه وجــــه المنى والمعـــالى

.....

أيهـــا النيـل هل تعـود سـريعـا
ويجـود الزمـــان بالحســــنات

أيهـــا النيـــل ان قومـك يشـــكو
ن الــــى غيـــر شـــاعر بشـــكاة

* * *

ولعلنا نختم هذا الفصل بتلك المقالة التهكمية الساخرة والتى نلمح فيهـــا روح الدعابة عند الغاياتى » والمنشورة تحت عنوان « لقد زاغت أبصارهم فما أجهلهم »(٤٧) وهى صورة وصفية لمشاعره بعد أن سطا اللصوص على منزله فلم يجدوا شيئا يستحق السرقة ·· يقول الغاياتى : « تسمع عن اللصوص المتمدينين من النوادر الدالة على بعد نظرهم وقوة ذكائهم ما يحببنـــا فى ذكرهـــم وان كرهناهم ، ويدعونا الى الاعجاب بهم والتصفيق لحيلهم العجيبـة المدهشة ، ومن سوء الحظ بل من حسنه أن لصوصنا ــ قاتلهم الله ــ أغبياء عمى البصائر والابصار يغرهم الخبر وان كذبهم الخبر ، وتخدعهم المظاهر فتحجب عنهم الحقيقة التى هم عنها يبحثون ·

من ذلك أن اللصوص (شرفوا دارى) ليلة أمس فى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، فأخذوا يعالجون فتح الباب حتى أيقظتنى حركتهم وأنا مشفق عليهم آسف على اخفاق مسعاهم ، ولم يكادون يشعرون بايقادى المصباح وندائى ــ من الباب ــ حتى ولوا الأدبار وخرجوا الى الشارع بعد أن اجتازوا السلم وثبا وقفزا ، ولقد رأيتهم يجرون فى الطريق خائفين وجلين فتشجعت وضحكت عليهم مقهقها بأعلى صوتى داعيا لهم بالهداية الى سبيل النجاح ، ولست أدرى ماذا يمنع هؤلاء الجهلاء من مقابلتى نهارا وزيارة منزلى وتفقده من الفرش الى العرش حتى لا يتعبوا أنفسهم ليلا ويتحملوا مؤنة الصعود والهبوط والحركة والسكون والوجل الشديد » ·

ثم يدعو الغاياتى هؤلاء اللصوص الى مقابلته بدون خوف فى النهار لكى يعرض عليهم ما يمتلكه من أثاث ومتاع فى « داره الكريمة » ، أما اذا كانوا من بؤساء الأدباء يريدون سرقة قصـيدة أو قلما أو كتابا فليأتوا طارقين الباب باللطف لا بالعنف والشدة

---

(٤٧) « اللــواء » ، العدد ٢٨٩٩ ، فى ١٩٠٩/٣/٧ ·

وسوف يفتح لهم الباب ويكرم وفادتهم ويدير عليهم كوب الشاى الوحيد الذى يمتلكه عليهم بالتناوب لأنهم فى رأيـــه « لصـــوص، شرفاء » !!

* * *

وهكذا استمر على الغاياتى يكتب فى صحف الحزب الوطنى : نثرا وشعرا ، حتى وصل الى مرحلة يستطيع أن يجمع فيها قصائده وخواطره فى ديوان شعر ، فكان أن خرج علينا بكتابه : « وطنيتى »، ولم يكن قد مضى عليه فى القاهرة ثلاث سنوات ·

* * *

(الفصـــل الثـــانى)

(وطنيتى)

* تمهيد واهداء
* كلمة حضرة محمد بك فريد
* كلمة الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش
* مقدمة الغاياتى للديوان
* نماذج من الشعر
* الحكم على الديوان
* قضية وطنيتى

(تمهيد واهــداء)

لم تنتصف ســنة ١٩١٠ ، الا وكان على الغاياتـــى المحرر بجريدة « العلم » لسان الحزب الوطنى بعد « اللواء » ، قد أصدر « وطنيتى » • وهو كما يقول على غلافه « مجموعة قصائد ومقاطيع فى موضوعات متنوعة واغراض وطنية مختلفة دعت اليها النهضة الحاضرة فى مصر »(١)

وسوف نستعير هنا نصوصا بأكملها من ذلك الديوان ، الذى تمت مصادرته من قبل الحكومة ، وأحرقت كل نسخة تقع تحــت يدها ، فلقد اصبحت صفحات ذلك الديوان ، بل وحروفه ، وثائق تاريخية مصرية صميمة ، وسوف نبدأ بذلك التمهيد •

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« الحمد لله حمدا يوافى نعمه • ويكافىء مزيده • والصلاة والسلام على جميع أنبيائه وأصفيائه والأقربين • خصوصا خاتم النبيين • وامام المرسلين • سيدنا محمد بن عبد الله • الذى أرسله الله رحمة للعالمين • وجعله سراجا منيرا للمهتدين • وبشيرا نذيرا للناس أجمعين • فنبه الأمة من غفلتها • وأرسل بينها كتــاب الله

---

(١) تعتمد هنــا على الطبعــة الأولى من الديوان ، والتى صــدرت سنة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ ميلادية وقد صــدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٣٨ ، دالثالثة سنة ١٩٤٧ ، كما سنفصل فيما بعد .

مصدقا لما بين يديه من الكتب فاوردها موارد الحياة · وأفاض عليها الحكمة والنور فكانت خير أمة أخرجت للناس · جاهدت فى سبيل الله حق جهاده · وقدمت النفوس والنفائس قرابين اليه تعالى · فنصرها نصرا عزيزا · وثبت أقدامها على الحق · وأظهر دينها على الدين كله · وكذلك يعتز الاسلام بقادته · والوطن بسادته » ·

« ولعمرى لو اتبعنا سنن هذا الدين الحنيف · واهتدينا بهدى القرآن الكريم لما بلغ منا الظالمون مبلغا · ولكنا أمنع شعوب الأرض جانبا وأرفعهم جنابا » ·

* * *

« ان الاسلام دين الحرية والمساواة والاخاء · وهو رسول السلام العام · وشارع الديمقراطية والدستور · وبالجملة هو مثال الوطنية الصادقة والحكومة الصالحة » ·

« ولا ريب أن أنجح دواء لمصر وهى خير البلاد الاسلامية انما هو احياء معالم الدين الاسلامى بين ربوعها · واقامة شعائره فى ديارها · فوالذى نفسى بيده ماوجدت سبيلا أدنى الى الحياة الخالدة · والمجد الأسمى من سبيل النبى صلى الله عليه وسلم » ·

« فمن شاء لمصر من أبنائها مقاما كريما · وخيرا عميما · فليكن رائده الاسلام وامامه القرآن · ذلك طريق الوطنية القويم · ومنهجها الآمين · ولله در الحزب الوطنى فقد فطن الى ذلك وحث فى المبدأ الخامس من مبادئه الشريفة على نشر المبادىء الدينية الصحيحة بين الأمة » ·

« فوفق اللهم قومنا إلى اتباع دينك · وسدد خطواتنا فى سبيلك · وصلى وسلم على عبدك ورسولك النبى الامى سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه والتابعين · واهدنا الصراط المستقيم · صـراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ـ آمين » ·

وتستطيع ان تتحسس على نزعة الغاياتى الدينية الاسلامية القويمة من ذلك التمهيد الصغير ، وكيف أنه يرى أن الحزب الوطنى سلم فى مبادئه بتلك العقيدة الشريفة ، فلا أمل لمصر بدون الاسلام دينا ، والقرآن دستورا ، ثم نراه بعد ذلك يقدم ديوانه الى زعيـم مصر ورئيس حزبها الوطنى محمد بك فريد ، والى الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير لسان حاله ، جريدة « العلم » ، وهذا هو النص الثانى الذى اخترناه من « وطنيتى » وكان تحت عنوان :

((أهـــداء الكتـــاب))

« اقدم بين يدى كتابى هذا كلمة أزفه بها هدية خالصة لوجه الوطن الكريم وأبنائه المخلصين · باعثا به الى ذلك الروح السابح فى فضاء الابدية · المشرف على مصر وبنيها من سماء خلوده · داعى الشعب الى النهضة فى حياته · وباعث الحياة فيه يوم مماته · شهيد الجهاد · فقيد البلاد « مصطفى كامل باشا » ·

« أمطر الله رمسه الميمون شآبيب رحمته ورضوانه · وأحله فى جواره الأمين مكانا عليا · وبعد · فأتنزل من عالم الأرواح الى عالم الأشباح · رافعا «وطنيتى» بيد الاخلاص الى امامى الوطنية بعد ذاك الامام · وناشرى لواء الحرية وعلم السلام · متممى شرعة النهضة الغابرة · وقائدى زمام الحركة الحاضرة · رئيسى الحزب الوطنى ونحرير لسان حاله حضرتى محمد بك فريد والأســـتاذ الشـــيخ عبد العزيز جاويش » ·

« ثبت الله أقدامهما فى مواقف النصر وكان لهما وليا مرشدا »

* * *

« ان هذا الكتاب الذى أهدى اليهما ان هو الا عنوان شعور نفسى تعهداه فسما · وأمداه فنما · وما أنا منهما الا » ·

(كالبحر يمطـره الســـحاب ومــاله
فضـــل عليـــه لأنــــه من مائــه)

« فاذا ما أثنيت عليهما كان ثنائى ثناء تلميذ معترف بمالهما

عليه من حق التربية وواجب الارشاد · واذا ما أثنيــا على كان ثناؤهما ثناء استاذ مرب حكيم يريد أن يبلغ بتلميذه شأوا من الفضل عاليا فلا يزال به مشجعا مرغبا حتى يصل الى غايته فائزا بمرجو آماله · ومبرور أعماله » ·

« كذلك كان شأنى وشانهما فى هذا الكتاب · وكذلك هما يربيان لمصر ابناء أوفياء · ويبذلان فى سبيلهما القويم ماشـــاءت كبار الآمال · ولا يبخلان بعزيز الحياة تفانيا فى حب الوطن وعزته · ورغبة فى حياة الأمة وسعادة البلاد » ·

* * *

« فلئن حييت لأ نصرن مبادىء الحزب الوطنــى نصـــرا · ولأ طلعن فى دياجى الخطوب من حياتى فجرا · ولأ جودن بالنفس يوم تدعو البلاد للأمر حرا · بل لأغيرن ان استطعت وجه التاريخ الحديث فى مصر تغييرا تخرله جبابرة الظالمين سجدا · يبكون خشية وفرقا · ويرفع الوطن المفتدى رأسه مهللا مكبرا منصورا ان شاء الله » ·

« فطب نفسا أيها النيل وسر عذبا صافيا · فما كلمتى هذه كلمة فرد واحد من أبنائك واصفيائك · وانما أنا مرسلها من شعور فائض بحبك والوجد عليك · وانه لشعور له فى قلوب نشئك مكان مكين · وكم يانيل من فتى اسكته اليوم التفكير وسينطقه غـــدا العمل » ·

(اذا اليوم ولـــى فراقـــب غـــدا
فـــان غـــدا لناظـــره قريـــب)

« وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب · فاصبر الصبر الجميل وحسبك الله ونعم الوكيل » ·

« احد جنود الحزب الوطنى »
« على الغاياتى »

(كلمة حضرة محمد بك فريد)

وهذا هو النص الثالث الذى نأخذه من ديوان « وطنيتى » للغاياتى ، وهى كلمة زعيم الحزب الوطنى محمد بك فريد ، والتى بسببها سيدخل السجن ستة أشهر مع النفاذ ـ كما سنرى فيما بعد ـ وكانت تحت هذا العنوان :

« تأثير الشـــعر فى تربية الأمم »

« الشعر من أفضل المؤثرات فى ايقاظ الأمم من سباتها وبث روح الحياة فيها • كما أنه من المشجعات على القتال وبث حـب الاقدام والمخاطرة بالنفس فى الحروب • ولذلك نجد الأشـــعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمـم المجيدة كالرومان واليونان وغيرها » •

« وليس من ينكر أن الانشودة الفرنسية التى أنشأها الضابط الفرنسى « روجيه دى ليل » وسميت المرسيلييز(٢) كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوروبا الذين تألبوا لاخماد روح الحرية فى مبدأ ظهورها » •

« لذلك كتب الكاتبون منا كثيرا فى ضرورة وضع القصائد

---

(٢) يقول الغاياتى فى « وطنيتى » ص ٦ ، أن خلاصـة تاريخ المرسلييز مذكورة فى مقدمته بعد .

والأغانى الوطنية ليحفظها الصغار ويترنموا بها فى أوقات فراغهم ٠ ولينشروها فى ساعات لعبهم بدل هذه الأغانى والاناشيد التى يرددها أطفال الأزقة ، خصوصا فى ليالى شهر رمضان المبارك ، كما كتبوا فى لزوم تغيير الأغانى التى تنشر فى الأفراح وكلها دائرة حول نقطة واحدة هى الغرام ووصف المحبوب بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان » ٠



« لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء فى الغرب أو الشرق اماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد والاطراء الفارغ فى الملوك والأمراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل مايربى النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال ، كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب المساجد من كل فائدة تعود على المستمع حتى أصبحت كلها تدور حول موضوع التزهيد فى الدنيا والحض على الكسل وانتظار الرزق بلا سعى ولا عمل » ٠

« تنبهت لذلك الأمم المغلوب على أمرها ، فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع وسواهم من العمال غير المتعلمين ، فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات ٠ ويسرنى أن هذه النهضة المباركة سرت فى بلادنا فترك أغلب الشعراء نظم قصائد المديح للامراء والحكام ، وصرفوا هممهم واستعملوا مواهبهم فى وضع الأشعار الوطنية وارسالها فى وصف الشئون السياسية التى تشغل الرأى العام ، وقد لاحت « وطنيتى » فى طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة » ٠

« ومما يزيد سرورى أن شعراء الأرياف وضعوا عدة

أناشيد وأغان فى مسألة دنشواى ومانشأ عنهـا ، وفى المرحوم مصطفى كامل باشا ومجهوداته الوطنية(٣) ۰ وفى موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعها ۰ وأخذوا ينشدونها فى سمرهم وأفراحهم على الاتهم الموسيقية البسيطة ۰ وهى حركة مباركة ان شاء الله تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ووصل تأثيرها الى أعماق القلوب فى جميع طبقات الأمة ، وتبشر باقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد باذن الله » ۰

« فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح فى أيام معلومة ومواسم معدودة ۰ وأن يستعملوا هذه المواهب

---

(٣) وجدنا أمثلة لذلك فعلا فى صحف تلك الفترة ، وهـذا موال عن الزعيم مصطفى كامل باشا كان يردد فى أرياف مديرية الغربية ، نشرته جريدة « **اللـواء المصـور** » والتى كان يصـدرها حسين الخادم على المبـادىء العشرة لرئيس الحزب الوطنى ، فى العدد ١٣ ، الصـادر يوم ٢٨ مايو ١٩٠٩ ، ص ٣ : « ويش بعد حكم المحـافظ والشاويش والباش ـ غلابين واسجه كرومر محربه للباش ـ راحم على دنشـواى لم خلم نفر ولاخوه ـ اللى أنشنأ انشنأ واللى انجلد جلدوه ـ يوم شنأ زهران كانت صعبا وافاته ـ كان له أب شـديد يوم الشنأ لم فاته ـ ظهر لنا يا ناس لنصر الدين مصطفى باشا كامل ـ وآل يا عم حسين البرنس أنـا أروح بلاد لنجليز وتكلم كلام كامل ـ .آل له روح ماتخفشى غير السياسـية وكلام الحق متقولشى ـ سافر السبع مستناش عزم كبار لنجليز وخلاشى ـ آل هاتو القضـايا وهاتوا القوانين يا حـكام ـ علشـان نفر مات خربتو البر وبلادنا ـ جبتم كرومر وزير جاحد لبلادنا ـ آلوا طلبك ايه يا مصطفى باشا بالعجل فيدنا ـ طلب مكافئة لاهـل الدم صرقوا له ـ طلب طلوع المساجين من السجن كتبوا له ـ طلب طلوع كرومر من البر ختموا له ـ ارتد فرحان واحد وثلاثين يوم والبشـوات يباركو له ـ رجع سأوه مات يا ميت ندامه عليك يا مصطفى باشا » ۰

الربانية فى خدمة الأمة وتربيتها بدل أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء · وتمليق الامراء · والتقرب من الوزراء · فالحكام زائلون والأمة باقية · والسلام على من سمع ووعى · ووفق لخدمة بلاده وسعى · فان سعيه سوف يرى · ثم يجزاه الجزء الأوفى » ·

(الامضاء)(٤)

« محمد فريد »

---

(٤) يقول الفاياتى فى « وطنيتى » ص ٨ ، ان هذا التوقيع قد أخذ بالزنكوغراف عن خط يد فريد بك نفسه ، وكذلك توقيع الأستاذ الشيخ عبد العزيز الملحقة به كلمته التالية .

(كلمة الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش)

أما تقريظ الشيخ جاويش رئيس تحرير لسان حال الحزب الوطنى « العلم » لكتاب الغاياتى « وطنيتى » ، والذى ستقرأ نصه حالا ، فقد أدى به الى دخول السجن أيضا كالزعيم محمد فريد ، ولكن لمدة ثلاثة أشهر فقط « حبسا بسيطا » كما سنفصل فيما بعد . وهذه هى كلمته والتى كانت تحت هذا العنوان :

« الشـــعر والشاعر »

« قد يتوهم بعض المتشاعرين أن الشعر هو تلك الجمل الموزونة ذات الروى الملتزم ، فتراهم أجرأ مايكونون فى تقصيد القصــائد والانتساب الى دعوى الشعر معتمدين على جهل كثيرين بأسرار الشعر ومزاياه وشرائط صحته وكماله عالمين أن الأدب قليل أهله الذين يميزون بين الخبيث والطيب ويدركون دقائق الفروق التى بين الأبيات العامرة والأبيات الغامرة · لاسيما فى هذا الوقت الذى ضعفت فيه ملكة اللغة العربية · اذ طرأ على العرب من العجمة المتفشية ما أصبح معه الذوق بعيدا عن السلامة · وتأليف العبارات أحوج مايكون الى الاستقامة » ·

« اذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفــاعيل البحور والتزام الحروف ومحسنات الألفاظ واعتبر بما يتركه فى نفسك من الأثر · فان أحسن الشعر ما يملك قلبك حتى تفرغ منه · كما أن

أجمل الصور مايملك بصرك حتى يغيب عنه · اذا شئت أن تعرف الفرق بين الشعر المطبوع والشعر المصنوع فان شعرت وقت سماعه كأن معانيه أرواح تناجيك · وألفاظه تكاد تخرج من فيك · فذلك هو المطبوع · وان ذهبت أغراضه بقلبك مذاهب شتى ولم يجمل فى السمع ديباجته وتنسيقه · فذلك المصنوع الذى لايرد عكر معينه الا متشاعر جاهل أو شاعر مأجور · وكيف يجمل الشعر ويلذ استماعه اذا خرج من قلب لا يتأثر ونفس لاتنفعل ؟ وهل الشعر الا مرآة يرى فيها آثار الانفعالات النفسية التى تقوم بنفس واضعه ؟ »

« قال عبد الملك(٥) لأرطاة بن سهبة كيف أنت الآن فى شعرك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أطرب · ولا أغضب · ولا أرغب · ولا أرهب · ومايكون الشعر الا من نتائج هذه الاربع » ·

« ليس الشعران يمعن الشاعر فيما وراء الحقائق من الصور الوهمية · أو أن يسلك سبيل الاغراق فى المدح والذم · فانمــا الشعر تصوير مايدور بالذهن من الصور · فكما أن أمهر المصورين ليس ذلك الذى يؤلف بين الأجزاء المتنافرة ، أو الذى يرسم على الورق مالا يطابق شيئا من حقائق الأشياء الخارجية ، بل هو ذلك

---

(٥) بشرح لنا الغاياتى فى ديوانه صفحة ١٠ ، من هو عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بنى أمية ، ولد سنة ٢٦ ومات سنة ٨٦ هجرية ، أما أرطاة بن سهبة فهو شاعر فصيح شريف فى قومه صادق كريم ، وهو معدود فى طبقات الشعراء الاسلاميين فى دولة بنى أمية : لم يسبقها ولم يتأخر عنها ، وله مع عبد الملك مواقف مذكورة ؛ وهو القائل :

رايت المــرأ تاكلــه الليــالى ... كاكــل الأرض ساقطــة الحديــد
وما تبغى المنيــة حين تــاتى ... على نفس ابن آدم من مزيــد
واعــلم انهــا ستكر حتى ... توفى نذرهــا بــأبى الوليــد

وكان يكنى بأبى الوليد ، رحمه الله تعالى .

الذى يعمد الى أحد الكائنات فيصوره ، مجيدا (تظليله) حتى يخيل الى رائيه كأنا ينظر الى ذلك الكائن الثابت في الخارج · كذلـــك أمهر الشعراء من يأتى الى الحكم والقضايا الصادقة فيبرزها الى السامع بعبارات تصبى الألباب اليها وتدفع المستمع الى العمل بمقتضياتها » ·

« وماذا على الشاعر بعد أن يوفى شعره قسطه من الصدق وثاقب الرأى سوى ان يجيد تأليف العبارات ، ويحكم مطابقة المعانى بعضها ببعض ، فانما الشعر كالتوقيع واللحن ، فكما ان اللحن لايخف على السمع الا اذا تناسبت الأجزاء التى يأتلف منها · كذلك الشعر اذا لم تأتلف عباراته ولم تتناسب معانيه كان صمما للآذان ، وغمة لنفس الانسان » ·

« ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعنى وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة ، فليقرأ شيئا من « وطنيتى » ، ومن شاء فليسأل عن آثارهـــا تلك الهمـم الناهضة · والنفوس المتوقدة · والعزائم الصـــادقة · فانها من غراسها وجميل ثمارها » ·

(الامضـــاء)

« عبد العزيز جاويش »

(مقدمة الغاياتى للديوان)

هذا هو النص الخامس الذى نأخذه بحذافيره من « وطنيتى » لعلى الغاياتى ، وهى المقدمة التى كتبها فى احدى وعشرين صفحة من الديوان ، تاركين لنا حرية التعليق عليها بعد ذلك ، وسوف نثبتها هنا مع هوامشها أيضا ، لما فيها من معلومات تاريخية وبلاغية :

« لست بقائل فى نعت الشعر وتأثيره فى النفوس وتربية الأمم بأكثر مما قال القائلون · وكتب الكاتبون · وحسبى ماحليت به صدر (وطنيتى) من جمل مأثورة ، ودرر منثورة · سطرها يراع قائدى الحركة الوطنية فى مصر · وخير معبرين عن الشعور وتأثير الشعر فى العواطف ونهضة الشعوب · ولكنى أرى مصر وهى الغنية بشعرائها الوطنيين فى هذه الايام تكاد تكون أفقر أمة فى هذا الصدد وأعوز الشعوب جميعا الى الشعر والشعراء » ·

« أجل ان مصر لشديدة الحاجة الى شعراء يبكون اذا بكت · ويبسمون اذا ابتسمت · وهم فيما بين ذلك ينفثون فى النفوس من روحهم ويبثون فى الأمة من شعورهم · حتى يشربوا القلوب حب البلاد · ويستمطروا مدامع الوجد عليها · والكلف بها · هنالك تنهض الهمم · وتتوقد العزائم ، وتعمل النفوس الحرة الأبية على كسر أغلال الظلم وسحق أصفاد الاستبداد · هنالك تتربى فى النشء روح الحمية الوطنية · والغيرة القومية · فما هى الاعشية أوضحاها

حتى يبلغ الشعببقوة شعوره وارادة شعرائه مستوى الشعوب الحية ويدرك شأو الأمم الحرة · وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ·

« ان الشعراء فى كل أمة هم عنوان حياتها ومقياس رقيها · فمتى انصرفوا عن مواقف الجد ، واستحبوا الغى على الرشـد ، وأنساهم رنين الكؤوس · أنين النفوس · وشجى الألحان · شقى الأوطان · وسماحة الجميل · سماجة (الدخيل) · وهوى الفتاة · هدى الحياة · ومأمل العطاء مكمن البلاء · ومربع الأمراء · موقع الأرزاء · والمدح والهجاء · والنصح والوفاء ، فقد حقت عليهم كلمة الخزى والعار · وكانوا لبلادهم ويلا وحربا » ·

« ومتى صرفوا مواهبهم فى خدمة الأمة وتخليد مجدهـــا ، أصبحوا عنوان عزها ومطلع سعدها · كذلك كان شأن الشعراء فى كل جيل » ·

« فليت شعرى أين شعراء مصر ؟ لقد كثر عددهم وقل مددهم · انه ليوشك ألا يكون منهم عند ذكرى الوطن الأسيف من يقف موقف المدافع المهاجم يقتحم الصعاب ويهزم الخطوب · يحارب الآلام ويصافح الآمال · يهز العرش اذا ماشاء · ويدك السطور اذا ما أراد · يبنى لقومه بسنان قلمه مجدا باقيا · وينشر عنهم فى الملأ ذكرا عاطرا » ·

« فأين شعراء مصر ؟ بل أين الشعراء فى مصر ؟ ألا انهم عند تلك الذكرى لقليل ، ولذى ذلك الموقف العظيم لأقل » ·

« ليت شعرى هل يستطيع أفراد من الشـــعراء لا يجاوزون أصابع اليد عدا ولا يذكرون البلاد الا قليلا أن ينهضوا بالأمة النهضة المأمولة ويبلغوا بها الدرجة المرجوة ؟؟ »

« اليس من العار ان يقتل أكثر شعرائنا على الشهرة اقتتالا ثم ننظر فقلما نرى لهم فى مواقف الوطنية مجالا ولا مقالا ؟ أليس من المخجل أن نقيم المظاهرات وننشىء الجمعيات ونسير فى سبل الحرية والاستقلال سيرا حثيثا ثم لانعرف لنا نشيدا وطنيا يذكره الزارع والصانع والتاجر والكاتب وسائر طبقات الأمة جماعات ووحدانا ؟ بماذا نعتذر وبماذا نجيب وبيننا الشـــعراء القادرون والكتاب المفكرون ؟ اننى لا أعتب بهذا القول على جماعة الأدعياء الذين يريدون أن يصعدوا الى السماء بغير مرقاة والذين جعلوا ديدنهم الطعن والتشهير بكل ناظم وناثر ولايكادون يذكرون سواهم بخير · فماهم بأمر ذى بال فأعتب عليهم ولو كان لهم بين الأمـــة حسنة تذكر لكان لهم حظ من هذا العتاب · وأنما أنا عاتب على خيرة الشعراء وصفوة الكتاب الذين يعلمون حاجة الشـــعب الى التشجيع بمأثور القول من القصائد والمقاطيع الوطنية والأغانى والأناشيد الحماسية · ثم لايؤدون هذا الواجب الوطنى المقدس · ويمحون هذه النكتة السوداء من صحيفة النهضة الحاضرة المرجوة »

« أجل اننى أعتب عليهم كثيرا وأرجو أن يكونوا فى طليعـــة المجاهدين الاحرار من اخوانهم وأبناء شعبهم الوطنيين · وماذلك عليهم بعزيز » ·

* * *

« أما بعد · فهذه مجموعة صغيرة أتيت فيها على مجمل مانظمته فى الحوادث السياسية الخطيرة منذ أوائل سنة ١٩٠٨ الى أوائل سنة ١٩١٠ ، متتبعا فى قولى سير الحركة الوطنية ، مشرفا على مشاهد النهضة الحاضرة فى هذا المدة من سماء الحزب الوطنى فى (اللواء) ثم فى (العلم) ، ولا ريب انها أدنى سماء يشرف منها المؤرخ السياسى والكاتب الوطنى على ادوار الحركة الوطنية وأطوارها فى مصر » ·

« لهذا أرانى فيما نظمت ناطقا فى اكثر المواضع بلسان الرأى العام · ممثلا شعور الامة أقرب تمثيل · بيد أنى قد يدفعنى شعورى الخـــاص فى بعض المواقف الى الجهـــر بمالا يحب الجهـــر به بعض الناس · وذلك لأننى لا أستطيع حكم عواطفى كثيرا فى مثل هذه الشؤون المثيرة للوجد الكمين · المعلنة للسر المكنون · وأرى مما لاطاقة للنفس على احتماله فى هذه الحال اضـــمار الحقائق الظاهرة · ومغالطة الحس ومكابرة الواقع · والباس المسائـل ثوب الرياء والنفاق · لذلك أســـير فى بعض أقوالى بتأثير هذا الشعور · ولا أبالى وقد أرضيت الوجدان وأبديت الحق الصراح بما عساه بعد ذلك أن يكون · هذا خلقى فى كثير مما نظمت · وسيكون خلقى فى جميع ما سأنظم ان شاء الله » ·

« أما منزلتى فى الشعر والحكم على باعتبارى شاعرا ، فهذا مالا عناية لى به ولا اهتمام لى بشأنه · وما الامر فيه الا بيد الأجيال المقبلة وحدها ان شاءت كنت لديها من المحسنين · وان لم تشأ فلا حرج عليها · على أننى لا أعنى فى قولى الا بابداء شعورى الخاص وشعور الرأى العام وابراز ماتدعه الحوادث الهامة فى النفوس الوطنية من آثارها فى صورة ترضاها عامة الشعب ولا تأباهـا خاصته · ولست بمدع أنى أستطيع أن أسبح فى بحار الخيال وأحلق فى أجواء المجاز كما يفعل غالب الشعراء ، الا أننى أضرب عن ذلك صفحا وأعمد الى الحقائق السهلة ، والمعانى المألوفة فأصوغها فى صور مناسبة من القول · كلا فما أنا بقائل ذلك ولا مدعيه لنفسى وانما أنا مرسل من الشعر بين قومى مايطمئن اليه قلبى · وتشعر به نفسى · ثم يكون للحوادث راويا · وللتاريخ واعيا · وللعامة منبها · وللخاصة مذكرا · هذا ما أقوله عن نفسى · ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » ·

« ولقد أضلنى ما أضل الشعراء من قبل فطرقت فى بـــدء

محاولتى النظم موضوعات لاخير فيها للبلاد ولا ذكر للأمة والوطن ، وقد جئت بشىء منها فى ذيل هذا الكتاب ليكون مثالا رادعا يرى فيه القارىء صورا تقريبية تمثل طبائع أكثر الشعراء • وتقدر آمالهم فى الحياة • وتكشف النقاب عما تسوله لهم أنفسهم • وتوحيه اليهم شياطينهم • أما عذرى فى ذلك ، ان حاولت الاعتذار ، فذاك أننى كنت فى معزل من الحركة الوطنية لا أعرف من أمرها شيئا • وحسبى أنى ولدت فى مدينة (دمياط) ونشأت فيها بين قوم كرام غير انهم (محافظون) يعبدون الحكام كأنهم آلهة يحيون ويميتون • ثم لا يكادون يذكرون الوطن والوطنية على الاطلاق • ولقد بقيت فيهم حتى ناهزت الثانية والعشرين من العمر ثم غادرتهم آسفا مسرورا ميمما القاهرة (يوم الخميس ٤ أبريل سنة ١٩٠٧) على انهم لا يزالون الا قليلا ــ من نشئهم المأمول ــ أبعد العباد عن ذكر البلاد » •

« هذا عذرى • وهذه خلاصة قولى عن نفسى • وتلك (وطنيتى) اقدمها الى امتى •• وهى باكورة أقوالى وفاتحة كتبى • والله كفيل بتحقيق املى فى مستقبل عملى • وهو ولى العاملين • ونصير المخلصين » •

***

« بقى على أن أذكر فى ختام هذه المقدمة شيئا عن (المرسلييز) وهو النشيد الفرنسى الشهير الذى أتى على ذكره رئيس الحزب الوطنى فى كلمته • ولقد رأيت أن أتابع ذلك بذكر أنشودتين جميلتين ومنظومتين وطنيتين ، أولاهما : تلقن لصغار الأطفال بفرنسا • وثانيتهما : تهيج الشجون وتجرى الشؤون • وتحبب الى النفوس الجهاد حتى الممات فى سبيل الوطن المفدى • وهى لرجل فرنسا وشاعرها الكبير (فيكتور هوجو) ليكون ذلك نموذجا يراه شعراؤنا

فينسجون على منواله ، ويربون الآمة من أطفالها الى كهولها على حب الوطن وتمجيد الوطنيين بجميل أشعارهم وبديع أناشيدهم ٠
وقد توخيت فى ذلك نشر النص الفرنسى حرصا على سمو معناه وبلاغة مبناه ، مستعينا على فهم مالم أفهم من مقــرداته وتآليف عباراته ببعض اخوانى المتشبعين بمعرفــة هذه اللغــــة الراقية ٠ الواردين مناهلها العذبة الصافية ٠ جعلهم الله ذخرا للوطن وعونا للوطنيين » ٠

(La Marseillaise — المرسلييز)

« هبت الأمة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر بعد الميلاد ونهضت نهضة الليث القوى عاملة على الخلاص من قبضة الحكم الملوكى الظالم الذى سامها الخسف والهوان · وأثقل كاهلهـــا بالضرائب والمغارم · ساعية دائبة وراء الحرية والاخاء والمساواة »

« وكان ملك فرنسا فى ذلك الحين (لويس السادس عشر) مستسلما لارادة حاشيته الظالمة · وزوجته المستبدة المسرفة (مارى انطونيت) تلك المرأة النمساوية بنت ملك النمسا (فرنسوا الأول) التى ولدت فى (فيينا) وتزوجها ذلك الملك الضعيف ، فأصبحت ملكة لفرنسا · وقد كانت حمقاء عدوة للاصلاح والانصاف · وكانت تحتقر الشعب الفرنسى الكريم وتعامله معاملة يأباها الحر وتعافها النفس الشريفة ، وهى التى دفعت زوجها الملك الى مصادرة الأحرار والوقوف فى وجوههم ، فلما اشتدت الأزمة وحمى وطيس(٦) الثورة كتبت الى أبيها مستنجدة مستجيرة ، فلم تغنها تلك الجيوش الأجنبية والجنود الجرارة المنتصرة للملوكية ، بل كان الغلب للأمة والنصر العزيز لفرنسا الحرة · وقد سجنت هذه المرأة الطاغية ثم لقيت حتفها بآلة الاعدام — المقصلة — فى (١٦ أكتوبر ســـنة ١٧٩٣)

---

(٦) الوطيس : التنور ، وحمى وطيس هذا الأمر أى اشتد واشتعلت نــاره ·

ولحقت بزوجها الذى ناله مانالها ، ودالت دولة البغى والطغيان ٠ ولكذلك عاقبة الظالمين » ٠

« وليتها وهى أجنبية غريبة عن العائلة المالكة كانت تحترم ارادة الشعب الذى يحترم ارادتها ويقى حكومتها بأمواله ورجاله من حادثات الليالى وطوارق الخطوب ، ولولاه لما استقرت للحكومة قدم فى الوجود ٠ ولما تجلت ملكة أو اعتز ملك بأبهة الملك وعظمة الدولة ٠ بل لولا الشـــعب لثلت العروش ٠ وانتزعت التيجان من الرؤوس ٠ وحل بالحكومة الويل والهوان » ٠

« لم تتدبر هذه الملكة الظالمة فى أمرها وسارت فى الآمة سيرة الملوك المطلقين ٠ والحكام المستبدين ٠ فقابلت احســـان الرعية بالكفران ٠ مستعزة بسلطان الملك ٠ مضللة بشياطين الملوك » ٠

« وكانت ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق ـ كما يرى بعض الحكام فى هذه العصور ـ فاستحقت غضب الشعب ٠ ويآويل الحكومة من غضب الشعب ٠ وكانت عاقبة أمرها الهلاك والدمار » ٠

« قامت الأمة قومة واحدة تدفع العار عن نفسها وتشيد للوطن مجدا باذخا وعزا منيعا ٠ فأرادت دول الظلم وأنصـــار التقهقر مصـــادرة الأمـــة ومحاربتهـا ٠ وضــــربت جيوش النمســـا على شاطىء نهر (الرين) أمـــام تلك المدينة العظيمة العريقة فى فرنسيتها ومجدها التليد (ستراسبورج)(٧) وكان بهذه المدينة منذ حدثت مسألة الحرب حركة وطنية استمرت نحو ستة أشهر فكانت

---

(٧) عاصمة الألزاس التى استولت عليها المـانيا فى حرب السبعين ، وانتزعتها من يد فرنسا وهى قلعة محصـنة على نهر الراين ، وبها ســاعة فلكية كبيرة .

جماعات المتطوعين ، وفرق الشباب المشتعلين غيرة ووطنية ، تفد اليها من باب ، فى حين أن جماعات المحاربين كانوا يذهبون للقتال والنزال من باب آخر ٠ وكما أن هذه المدينة كانت ساحة للحرب ، فقد كانت مع ذلك مسرحا مائجا بالشبيبة وأنواع الابتهاج وجميل المناظر ٠ وكانت تختلط ضجة آلات الحفــلات والاعياد ٠ وكان الأصدقاء يتلاقون ويتعانقون قائلا بعضهم لبعض : (الوداع ٠ الوداع) وكانت الأخوات تبكى والأمهات تصلى وتبتهل ٠ والآباء يقولون للأبناء (اذهبوا وموتوا لأجل فرنسا) ٠

« قال (اسكندر دوماس) الذى ننقل أكثر ماهنــا عن روايته (الكونتس دى شارنى) : كل هذا كان تحت دقات الأجراس ورعود المدافع ٠ وكأن هاتين الآلتين لكانتا تكلمان الله تعــالى مســتمطرة احداهما رحمته ٠ راجية الأخرى عدله » ٠

« وفى بعض المرات العظيمة استدعى عمدة هذه المدينة الشباب المتطوعين الشجعان لوليمة أقامها لهم ليؤاخى بينهم وبين ضباط الحامية ٠ وكانت ابنتا العمدة وجماعة من رفيقاتهما الفتيات جالسات فى صدر هذه المائدة ليزدنها زينة ويضاعفنها شعورا وشرفا ٠ وكان بين الحاضرين شاب له شأن عظيم وهو ضابط فى الهندسة الحربية مقيم فى حامية (ستراسبورج) لا يتجاوز عمره عشرين عامــا ٠ وكان شاعرا مؤثرا وموسيقيا مبدعا ٠ وكان صوته الرنان من أعظم الأصوات التى ترتفع بالحماسة والوطنية ، ذلك هو (روجيه دى ليل ـ Rouget de L'isle)

« ولقد كانت هذه الحفلة أعرق فى الفرنسية وأكثر فى الوطنية من كل حفلة سواها ٠ وكانت تلك المائدة مضاءة بأسطع شمس بزغت فى شهر (يونيو سنة ١٧٩٢) ولم يكن أحد فى الحاضرين يذكر نفسه

بل الكل مشغول بذكر فرنسا والموت فى سبيلها · وماكان هذا الموت الا موتا جميلا مبتسما » ·

« وقد أرادوا أن يتغنوا بأنشودة جديدة حماسية وطنية ، بدل الأنشودة الفرنسية القديمة التى كانت للهياج والغضب والحرب الأهلية » ·

« أرادوا أن تكون أنشودتهم الجديدة وطنية أخوية ، مهددة للأجنبى ، منذرة للعدو ، يترامى سامعها عند ذكرها بين المدافع والقنابل « والقواضب » غير هياب ولا وجل ، فهب من بينهم ذلك الضابط العظيم (روجيه دى ليل) قائلا : (أنا لها · أنا لها) ثم اندفع خارجا وبينما أوشك القوم أن يقلقوا لغيابه من بينهم عـاد اليهم بعد نصف ساعة منتصرا على الشعر والموسيقى ، مرتميا شعره على ظهره ، متناثرا عرق جبينه وهو يلهث(٨) من المعركة التى اصطلى نارها بين الاختين الجليلتين : الشعر والموسيقى ، حتى انتصر عليهما ، فقال لهم اصغوا الى جميعا · وكان على ثقة من شاعريته وتاثير شعره ، فلما سمعوا صوته توجهت أنظارهم اليـه ووقفوا له اجلالا · وكان البعض آخذا قدحـــه فى يده والبعض ممسكا بيده يدا أخرى مرتجفة · فابتدأ (روجيه) بالمقطوعة الأولى وما كاد ينتهى من توقيعها حتى أخذت القوم هزة الوطنية ، ودوى المكان بصيحاتهم · ولكن أصواتا أخـــرى دعتهم الى الاصـغاء فاصغوا ، فاستمر (روجيه) فى لحنه وشعره مرسلا من القلب الى القلب رسول الوجد والأنين حتى وصل الى المقطوعة الأخيرة فانشدها بصوت عال ونغمة مهيجة بعد أن اضطر الى أن يطلب من سامعيه الذين لم يتمالكوا أنفسهم من الانفعال والهياج أن يسمعوا له · وقد كان فى هذا الصوت مهددا متوعدا · فصاح الكل صيحة التأمين

---

(٨) لهث الرجل : اعيا وتعب ، وبابه قطع ·

والمبايعة على نصرة الوطن • ودفع الآباء أبناءهم الذين يستطيعون المشى الى الأمام ورفعوا الأمهات صغار أولادهن الذين لم يبلغوا درجة اخوتهم على أذرعهن ليكونوا جميعا فداء الوطن المقدس • فشعر (روجيه) حينئذ بأنه تنقصه مقطوعة تكون غناء للاطفال ولحنا جليلا لرجال المستقبل • وكان القوم يرددون بين المقطوعة والأخرى ، مقطوعة صغيرة خاصـــة بالترديد والترجيع ، فتركهم (روجيه) يرددون نغماته الرنانة ، وأسند رأسه الى يده ، ولم تحـــل هذه الضجة وأصوات التحبيذ بينه وبين ما أراد ، فصنع المقطوعة التى رامها وأنشدها بين عبرات الأمهات وزفراتهن ، وصـــيحات الاباء واعجابهم ، فلم يسمع عند ذاك غير أصوات الأطفال الصغار التى كانت ترد عليه برقتها وصفائها بين الأنات والصيحات ، ولما أفاق القوم قال بعضهم : (ألا نعفو عن أولئك الذين ضلوا سواء السبيل منا ؟) فقال (روجيه) : هذا ما لا أنساه • وأنشد مقطوعة مقدسة تمثل روح فرنسا الطاهرة وانسانيتها وعظمتها وجلالها ، قال فيها :

« أيها الفرنسيون المحاربون الأقوياء • حولوا طعناتكم • وتجاوزوا عن هؤلاء الضحايا المساكين الذين تسلحوا ضدكم بالحسرة والندم » وكان التصفيق يقاطعه والأصوات من كل جانب مرددة كلمة العفو والصفح عن المستعبدين المدفوعين مكرهين ضد أمتهم » •

« ثم انشد مقطوعة أخرى ضج لها المكان ، واشتعلت القلوب نارا ضد الظالمين والذين شاركوهم فى الجناية طائعين مختارين من أبناء فرنسا الخائنين ، أولئك الذين فقدوا الرحمة ومزقوا ثـدى أمهم البارة • وبعد أن ردوا عليه قال :ــ الآن يجب أن تركعوا جميعا كيفما كنتم ــ فركعوا أجمعين ، وبقى وحده واقفا واحدى قدميه على كرسى أحدهم كأنه يضعها على الدرجة الأولى من هيكل الحرية والمجد ، وقد رفع ذراعيه نحو السماء ، وأنشد المقطوعة الأخيرة ، فدوى المكان بصوت واحد قائل : (هلموا فقد نجت فرنسا) وارتفعت

كلمات اللعن والغضب على الظلم والاستبداد ، وعلى أثر ذلك أسكر القوم باعث السرور ، وأخذهم جنون الفرح ، فارتمى كل واحد فى أحضان جاره · وأخذت الفتيات الأزاهير بملء يديها ، ونظمتها طاقات جعلت منها أكاليل عند قدمى (روجيه) وكتب الله النصر والظفر لهؤلاء القوم المجاهدين الأحرار ، وكان هذا النشيد خير باعث على الجهاد ، ومشجع على مواقف القتال والانتصار · وكما أنه عمل لحرب جيش (الرين) وعرف باسم (نشيد حرب جيش الرين) فقد كان أيضا نشيد اخاء وائتلاف واتحاد ، ولما كان أهل مرسيليا Marseillais هم أول من حمله الى باريس ، ولقنوه لأهلها، فقد أخذ اسمهم وانتشر في جميع أنحاء فرنسا باسم (المرسلييز) ·

« أما القطعة الأولى من هذا النشيد الوطنى المؤثر فهذا نصها بالفرنسية ، وهذا شعاع من ضوء معناها الساطع » : —

« هلموا ياأبناء الوطن فقد لاح يوم المجد »

« ان أعداءكم رفعوا ضدكم علم الظلم الدامى · فهل تسمعون أصوات هذه الجنود المتوحشة بين أحيائنا ؟ »

« لقد أصبحوا بين ذراعينا يذبحون أولادنا ورفاقنا »

« أما رد القوم على كل قطعة فهذا نصه أيضا بالفرنسية » ··

« أى · السلاح السلاح يابنى الوطن · كونوا صفوفكم ولنسر الى الامام · الى الامام · وليرو دمهم الفاسد أخاديد(٩) أرضنا » ·

« وهذا نص المقطوعة الأخيرة التى أنشدها (روجيه) والقوم راكعون » : —

« أى · ياحب الوطن المقدس · أشدد أزرنا · وقو سواعدنا

---

(٩) الأخاديد : جمع أخدود ، وهو الشق المستطيل فى الأرض .

المنتقمة · أيتها الحرية · أيتها الحرية العزيزة حاربى مع المدافعين عنك · وليسارع النصر تحت أعلامنا الى اجابة ندائك العالى وصوتك القوى · ولينظر أعداؤنا المندحرون انتصارك ومجدنا العظيم »

« فليت شعرى · أى شعب يسير فيه مثل هذا النشيد · ويأخذ بفؤاده هذا التأثر وحب الحرية · ثم لايكون خير الشعوب وأرقاها ؟ وأية أمة ينالها مانال فرنسا فى هذا العهد من الظلم والارهاق ، ثم لاتكون عقباها السعادة الدائمة · والحياة الخالدة ؟ » ·

« ألا انه مما لاريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبل العسف فتحت من حيث لاتدرى للأمة أبواب الحرية الواسعة · وهدتها طرق السعادة المنشودة : والضغط لامحالة محدث الانفجار » ·

« فطوبى لأمة تقوضت فى ديارها دعائم العدل · ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياه · فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيرة مستعيذة فما رأت غير ظلم وظلام · يأخذ أموالها الحاكم المستبد باحدى يديه · ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى · فهو يجيعها ليشبع · ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ! ، ثم يسد فى وجهها مناهل العلم ، لتنفسح أمامه مناهج الظلم ، حتى اذا مارفعت رأسا أثقلته المظالم · أو فتحت عينا أغمضتها رؤية الظالم · أو شكت وبكت ، ثم استرحمت واستنصفت ، كانت الطامة الكبرى عليها · والويل الأعظم لها ولايزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس · ولاتجد النفس طاقة لها على ما احتملت ، ويرتفع بين الأمة صوت الآباء · مرددا قول أبى العلاء(١٠) : ــ

---

(١٠) هو أبو العلاء المعرى ، أحد فلاسفة الاسـلام الكبراء وشعرائه الحكماء ، ولد فى معرة النعمان بالشام سنة ٣٦٣ ، ومات سنة ٤٤٩ هجرية ، رحمـه الله .

مـل المقــــام فكــم أعاشــر أمــة

أمـرت بغيـر صـــلاحها أمراؤهـــا

ظلموا الرعيــة واســتجازوا كيدهــا

فعدوا مصـــالحهــا وهــم أجراؤها

« هنالك تشرق شمس الانتقام · وتأخذ الشعب نشوة الانتصار وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى ، ولكن يوم الظالمين يوم عصيب · هنالك يغير الله حالا بعد حال ، وتستوى الأمــــة على عرشها · تدير دفة الحكم بيدها ، وتسير القضاء العدل بارادتها · هنالك ينادى منادى الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت داو فى أرجاء البلاد أن« لا ظلم اليوم · لاظلم اليوم » ·

« تلك عاقبة جور الحكومات · وصبر الأمم · وكذلك كان شأن فرنسا · وانها لذكرى لمن كان له قلب · أو ألقى السمع وهو شهيد »

« هذه خلاصة ما أرويه وأبديه فى تاريخ (المرسليين) وموضوعه الخطير · أما الأنشودتان الآخريان فها هما :

الأنشودة الأولى (فرنسا ـ La France)

« ومغزاها ما يأتى :

(فرنسا جميلة · مباركة الحظوظ · « فلنحى » لأجلها ولنعش متحدين ·

يابنى فرنسا اجتازوا الجبال · واعبروا البحار · وجولوا فى أطراف العالم بعيدين عنها · ثم انشدوا لها · فرنسا جميلة · مباركة الحظوظ ··· الخ)

« هذه أنشودة صغيرة لطيفة يتناولها كما يتناول كثيرا من أمثالها أبناء فرنسا فى طفولتهم·ولايكادون يصلون الى سن الشبيبة أو الكهولة أو الشيخوخة حتى يتناولوا من أناشيد شعرائهم وقصائد أدبائهم على اختلاف درجاتهم مايشد عزائمهم ويقوى سواعدهم ويحيى نفوسهم على حب الوطن والتغنى بذكراه · فهل لاطفالنا أو لشباننا أو لكهولنا وشيوخنا من شعرائنا مالهؤلاء السعداء من شعراء ؟ وهل لمصر مالفرنسا من حياة الشعر الوطنى ونهضة الشعراء الوطنيين ؟ » ·

الأنشودة الثانية (الوطن ـ La Patrie)

« وهذه خلاصة وجيزة عما يرمى اليه مغزى هذه الأنشودة السامية المؤثرة من المعانى الوطنية الكبيرة التى لاتستطيع لغة غير لغتها ٠ ولا أسلوب غير أسلوبها أن يبرز أسرارها ٠ ويبين معانيها كما هى للقارئين » : ـ

« الا ان الذين يموتون أتقياء فى سبيل الوطن ليستوجبوا وفود الجماهير اليهم حافين من حول نعشهم مصلين راجين » ٠

« ان أسماءهم بين أجمل الأسماء وأجلها لأجل وأجمل » ٠

« كل مجد لا محالة زائل اذا قيس الى مجدهم العظيم الدائم » ٠

« أن صوت الشعب بأكمله ليهزهم فى قبورهم هزة حنو وانعطاف ، كما تهز الأم ولدها » ٠

* * *

« المجد لفرنسا وطننا الدائم ٠ المجد للذين ماتوا لأجلها » ٠

« المجد لأولئك الشهداء الأبطال الأقوياء » ٠

« المجد للذين يشعلون بنار الغيرة والحمية قلوب المقتدين بهم »

« المجد لأولئك الذين يريدون أن يتبوءوا مكانا عاليا فى الهيكل المقدس » ٠

« المجد للذين سيموتون مثلهم فى سبيل الوطن » ·

* * *

« ليرتفع (البانتيون)(١١) السامى فى علاه فوق (باريس) مدينة الحصون العديدة » ·

« والبـــروج المشيدة · ملكة بلادنا التى كأنمـــا لنا منهـا (التير)(١٢) و (بابل(١٣) العظيمتان » ·

« ليرتفع لأولئك الأموات الذين لايزال خيالهم موضع التحية والترحيب » ·

« لترتفع لهم أكاليل العمدان التى كلما أشرقت عليها شمس الصباح » ·

« جددت طلاءها العسجدى فزادها نورا وجمالا » ·

« المجد لفرنسا وطننا الدائم · المجد للذين ماتوا لأجلها ··· الخ » ·

---

(١١) هو بناء عظيم أنشيء فى باريس عاصـمة فرنسا وسمى باسـم الشارع المطل عليه ، وشيد على قمة الجبل القديم المسمى (سانت جون فيف) ليكون كنيسـة ، فلما حدثت الثورة جعلوه مدفنا لكبـار الرجال وكتبوا عليـه (الوطن يعترف بالجميل لرجاله العظمـاء) ثم عاد كنيسة ، وأخيرا رجع لدفن العظمـاء بمناسبة موت (فيكتور هوجو) صاحب هـذه الأنشـودة سنة ١٨٨٥ .

(١٢) اسم مدينة قديمة عظيمة من مدن فينيقيا ، شـهيرة بالتجـارة والصـناعة . ·

(١٣) بابل عاصـمة كلدانيا القديمة ، وهى مشهورة بالمبـانى والأعمدة الفخمة ، وهى من أكبر المدن واغناها فى الشرق ، معروفة بأسـوارها الهائلة وحدائقها المرتفعة على القضبان ، وهى من أعاجيب العـالم ، وكانت قائمـة على نهر الفرات ، فلما استولى بعض الملوك عليهـا حول الفرات الى جهـة اخرى ، وذلك سنة ٥٣٨ قبل المسيح ، وقد بادت .

« ألا انه حينما يمسى أمثال أولئك الأموات فى مضاجعهم عبثا يحاول النسيان وهو ليل حالك يغيب فيه كل مايهبط اليه أن يمر على قبورهم التى تنحنى اجلالا واعظاما لها والتى لأجلها يشـــرق كل نهار وهو أسطع نورا وأعظم أمنا عليها » ٠

« ألا ان المجد فجر دائم متجدد يزيد ذكرهم سنا ٠ وقدرهم سنا ٠ ويحلى أسماءهم برونقه الذهبى الجميل » ٠

« المجد لفرنسا وطننا الدائم ٠ المجد للذين ماتوا لأجلها ٠٠٠ الخ » ٠

« كذلك كان شاعر فرنسا العظيم (فيكتور هوجو)(١٤) يمجد شهداء الوطنية وخدام الأمة ، وكذلك يجب على الأمم أن تمجد أبناءها الذين قدموا حياتهم فداء للوطن وحبا فى خلاصه من أيدى الظالمين ٠ يجب عليها أن تترنم بذكراهم وتخلد تاريخهم بين الصحائف والقلوب ٠ ثم ترفع لهم تماثيل العظمة والجلال ٠ معلنة بذلك حبهم واخلاصهم لبلادهم ٠ معلية قدرهم وخطرهم فى العالمين » ٠

« ان الحرية ليست منحة ولا هبة من ملك أو أمير ، بل هى حق طبيعى للشعوب ، متى دبت فيها روح الاباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدى مغتصبة ٠ وقدمت فى سبيله النفس والنفيس فهؤلاء الذين يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعـة وينتقمون

---

(١٤) ولد هـذا الشاعر الذى انتصر للحريـة واحيـا ذكر شـهدائها سنة ١٨٠٢ فى احدى بلاد فرنسـا (بزنسون) وزار ايطاليا واسبانيا وباريس فى طفولته . وكان يقول الشـعر وعمره عشر سنوات ، ولمـا كبر أقام فى باريس ، والتحق بمجامعها العلمية الكبرى ، وسـمى المدافع عن الحرية . ولمـا جـاء دور انقلاب الحكومة ترك باريس فى ديسمبر سنة ١٨٥١ ولم يعد الا فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وبقى بها حتى توفى سنة ١٨٨٥ وكانت جنازته عظيمـة لم يكد يسبق لها مثال ، وقد دفن فى (البانتيون) .

منهم ، ثم ينالون الموت من يد ظالمة ، وهم فى سبيل جهادهم سائرون • أولئك الذين رضى الله والشعب عنهم ، ووجبت لهم الكرامة الدائمة ، والذكرى الخالدة ، وكان على الأمة أن تتمثل خيالهم ، مرحبة به محيية له • وعلى شعرائها أن ينهجوا منهج هذا الشاعر الكبير فى تمجيدهم واجلالهم » •

« فحيا الله فرنسا ، فقد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذبا زلالا • وجاهدت فى سبيل الوطنية جهادا وعت القلوب ذكره • وأشربت النفوس حبه • فعسى أن نكون على آثارها مهتدين • وعلى منوال شعرائها ناسجين ، حتى نغدو بنصر الله فائزين • والله مع الصابرين »(١٥) •

* * *

واذا كان لنا من تعليق على هذه المقدمة ، فنحن نرى أولا أنها كانت تحتوى على دستور حياة على الغاياتى نفسه ، خلقا ، وعلما ، ووطنية •• قبل أن تكون قبل أى شىء آخر مقدمة مؤلف لكتاب أو لديوان شعر أو لقصة قام بها •

فهو يرى بأن الشاعر يجب أن يكون مبديا للحق مهما كانت العواقب والنتائج ، وأن يكون ناطقا بلسان الرأى العام ، ممثلا لشعور الأمة أقرب تمثيل ، كما أنه لايجد حرجا عندما يكون الواجب نحو قارئه ، أن يعترف له بأنه يستعين بالعلماء والمتخصصين فى أى فرع من فروع المعرفة الانسانية واللغات الأجنبية •

---

(١٥) نشر على الغاياتى بعد ذلك صورته تحت عنوان (رسم المؤلف موسما بتوقيعه) ص ٣٢ من « وطنيتى » أسوة بما فعل مع (رسم حضرة محمد بك فريد) و (رسم حضرة الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش مقلدا وسام الشعب) ص ٨ •

وهو يلقى بضوء كشاف أمام قرائه ، ليشعروا بالوطنية الحقة ، فهو يحذر الحكام الذين يرون بأنهـــم يملكون الرقـــاب ويقدرون الأرزاق ، من غضب الشعب الهادر ، ويرى بأن الحرية ليست منحة ولاهبة من ملك أو أمير ، بل هى حق طبيعى للشعوب ، متى دبت فيها روح الاباء والاستقلال ، أخذته بالقوة القاهرة من أيـــدى مغتصبيه ، وقدمت فى سبيله النفس والنفيس ٠

واذا كان الغاياتى يرى بأن أقاليم مصـــر كانت بعيدة عن التفاعل مع تيار الحركة الوطنية (سنة ١٩٠٧) ، فى وقت لم يكن فيه من دور مؤثر على المواطنين سوى الكلمة المكتوبة عن طريق الصحافة والكتب ، حيث لم تكن هناك اذاعة أو تليفزيون ، فلقد استطاعت هذه المؤثرات الاعلامية الأولى أن تظهر آثارها الايجابية ، حتى كانت قمتها مشاركة كل فئات الشعب فى كل مكان على أرض وادى النيل العظيم ، يوم وفاة مصطفى ثم يوم تفجـــرت الثورة المصرية (سنة ١٩١٩) بقيادة الزعيم سعد زغلول ٠

وان كانت هناك من أمانى وطنية تظهر فى مقدمة « وطنيتى » للغاياتى ، فهناك أولا أمنيته الخاصة بأن يكون شعراء مصر على مستوى الأحداث القومية ، فينفثون فى النفوس من روحهم ، ويبثون فى الأمة من شعورهم ، حتى يشربوا القلوب حب البلاد ، يبكون اذا بكت ، ويبتسمون اذا ابتسمت ، ثم هو يتمنى أن يكون لنا نشيد وطنى يذكره الزارع والصانع والتاجر والكاتب وسائر طبقات الأمة جماعات ووحدانا ، لذلك فقد قام الغاياتى بوضـــع « نشيد وطنى عام »(١٦) ، بداخل الديوان ، ويقول أنه من بحر سهل التلحين ، وقارب بينه وبين أفهام الشعب على اختلاف طبقاته ، وبذلك أراح

---

(١٦) ديوان « وطنيتى » ، ص ١١٦ ٠

وجدانه ، بأداء هذا الواجب الوطني المقدس ، ويقول فى مطلع النشيد والذى ستقرأه بكامله ، بعد صفحات قليله :

نحـــن للمجـــد نســـير
ولنـــا الله نصـــير

ليـــس يثنينـــا نـــذير
عـــن بـــلاد تســـتجير
وعبـــاد فى حـــداد

وبعد عشر سنوات من وضع الغاياتى لهذا « النشيد الوطنى » ـ أى فى سنة ١٩٢٠ ـ وكان الغاياتى وقتها مهاجرا بسويسرا ، تألفت لجنة لترقية الأغانى الوطنية ، وقد أختارت هذه اللجنة «نشيد وطنى » للبلاد ، وكان من وضع أحمد شوقى (أمير الشـعراء) والذى يقول فيه(١٧) :

بنـــى مصـــر مكانكمو تهيـــا
فهيـــا مهـــدوا للملـــك هيـــا

خـــذو شـــمس النهـــار حليـــا
ألـــم تـــك تـــاج أولكـــم مليـــا

وأخيرا ، فاننا نرى تأثير الثورة الفرنسية ، ونشيدها الوطنى (المرسلييز) ، واضحا على فكر الغاياتى ، حتى أنه يطلب من

---

(١٧) عبد الرحمن الرافعى ، « **شعراء الوطنية** » ، مرجـع سابق ، ص ٩٢ .

شعرائنا أن ينظموا شعرا وطنيا خالصا ، لأطفالنا وشبابنا وكهولنا اسوة بفرنسا ، ولاغرو فى ذلك ، فلقد ســبقه ، ملهمه ، وزعيمه مصطفى كامل ، حين توجه الى مجلس النواب الفرنسى ، ســنة ١٨٩٥ ، يطالبه بأن تكون لمصر خير عضو يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها ، كما عاونت من قبل أمريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا ، على نيل حريتها(١٨) .

---

(١٧) عبد الرحمن الرافعى « مصطفى كامل » ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

نمـاذج من الشـــعر

اذا كان هذا الديوان ـ كما يقــول الغاياتى فى مقدمتـه ـ مجموعة صغيرة أتى فيها على مجمل مانظمه فى الحوادث السياسية الخطيرة منذ أوائل سنة ١٩٠٨ الى أوائل سنة ١٩١٠ ، متتبعا فى قوله سير الحركة الوطنية ، فلقد تعرضنا لبعض هذه القصائد ،والتى نشرها فى جريدة « الجوائب المصرية » ، أو فى صحف الحـزب الوطنى « اللواء » و « العلم » ، وسوف نسجل هنا بعض نماذج هذا الديوان والتى لم نتعرض لها من قبل ، وذلك بنصوصها الكاملة ، مع هوامشها أيضا التى كانت حافلة بتاريخ مصر الوطنى ، ثـم نتعرض بعد ذلك لأمثلة من باقى القصائد تبعا لأهميتها ٠

« طيف الوطنيـــة »(١٩)

فى سـلام الليل حـــاربت المنـــاما
فســـلاما أيهـــا الطيـف ســـلاما

مرحبـــا بالزائـــر الســـارى الى
مضـجع الحـب يحيـى المسـتهاما

ليـت شـعرى هل رأى فى مضـجعى
شـبحا يشـكو الـى الله السقاما ؟

(١٩) « وطنيتى » للغاياتى ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ٠

وهل الدمع الذى أغرقنى
كان عند الطيف دمعا أم ضراما ؟

وهل النجم الذى أرصده
ابصر الزائر فى عينى فهاما ؟

كل شىء بات عندى مغرما
أينما أبصرت ألفيت[٢٠] الغراما

أيها الليل ترحل أو أقم
فسواء كنت نورا أم ظلاما

لست أشكو الهجر من فاتنة
تشتكى مثلى ولوعا[٢١] وهياما

نحن صنوان[٢٢] قضينا حقبة
فى ربوع النيل نستندى الغماما

نبصر الفيض[٢٣] بمصر جاريا
بيد أن القوم يشكون الأواما[٢٤]

ظمأ قاض[٢٥] ونيل فائض
ودموع جارت السحب انسجاما[٢٦]

---

(٢٠) وجدت .
(٢١) أى كلفا وميلا شديدا .
(٢٢) اخوان .
(٢٣) النيل .
(٢٤) حر العطش .
(٢٥) مهلك
(٢٦) أى انسكابا وسيلانا .

وعـــــداة ملكـــوا الآمر ولـــم
يحفظوا للشعب فى حــق ذماما(٢٧)

وولاة اقســـموا ان يســـجدوا(٢٨)
كلمـــا رام العــدا منهـــم مـــرامـــا

رب مـــــاذا يصـــــنع المصــرى أن
جاوز الصبر مدى(٢٩) الصدر فقاما ؟

طــال يــوم الظلــم فى مصــر ولــم
نـــــدر بعــد اليــوم للعــدل مقامـــا

هـــل يـــــرى المحتــل انا أمـــــة
مذ عرفنا الســلم لاندرى الخصاما ؟

أو يـــرى الظـــالم فينـــا اننـــا
نحمل الخسف(٣٠) ولا نبغى انتقاما ؟

زعمـــــوا زورا فمـــا مـــن أمـــة
سامها العســف(٣١) ظلوم ثم داما

انمـــا الشـــعب الذى يرجو العـــلا
ليس يرضى من أعاديه اهتضاما(٣٢)

كتب النصــــر لشـــعب ناهـــــض
فى ســـبيل المجـــد لايخشى الحماما

---

(٢٧) الذمام ما لا يحل انتهاكه من الحرمات .
(٢٨) يخضـعوا .
(٢٩) المدى الغاية .
(٣٠) أى الذل .
(٣١) أى الظلم .
(٣٢) أى ظلمـا .

« قضية ذكرى دنشواى » (٣٣)

« الى ناظر الحقانية »(٣٤)

(قبل الحكم على الشيخ عبد العزيز)

حكمت فلم تنصف وقلت فلم تصب
ورمت مراما دونه الله والناس

---

(٣٣) ديوان « وطنيتى » ص ٦٣ - ٦٤ ، وقد حدث مسألة دنشواى فى ١٢ شهر يونيو سنة ١٩٠٦، ويوم ذكراها هو يوم تنفيذ حكم الشنق والجلد على عبد الله المظلومين ، وهو يوم ٢٨ من هذا الشهر .

(٣٤) كتب فى « اللواء » حضرة الشيخ عبد العزيز جاويش يوم ذكرى دنشواى فى ٢٨ يونية سنة ١٩٠٩ مقالة أنحى فيها باللائمة على قضاة دنشواى ومحاميها مناجيا أرواح شهدائنا الأبرار مثيرا بعلمه المؤثر ما كمن فى القلوب من وجد وسجن فهب من صوب اليهم سهام قلمه ورفع قضية عليه مطالبا بتعويض مالى (١٠٠٠٠) جنيه بدعوى أنه أهين (شرفه) وهبت النيابة العمومية ناهجة نهج هذا البعض محاسبة الكاتب على ما نشر مدعية أنه أهان القاضيين العادلين فى دنشواى (بطرس باشا غالى وفتحى باشا زغلول) وأصبحت المسألة فى يد القضاء المستقل ولكن ناظر الحقانية (رشدى باشا) سافر اذ ذاك الى الاستانة ودار بينه وبين أحد الصحافيين هناك حديث رجح فيه الحكم على الشيخ عبد العزيز ثم أرسل خطابا الى الجريدة التى نشرت حديثه وهى (الكوريه) مصححا بعض ما ورد فيه فلما أتى على سؤال المراسل . هل يحكم على الشيخ جاويش ؟ استبدل الترجيح (بالتأكيد) وكان لهذا الحديث أثر سىء فى مصر وقد أمطر البرق والبريد رسائل الاستياء منه والاحتجاج عليه آلافا مؤلفة على جريدة « اللواء » وسائر الجرائد الوطنية . ونشر « اللواء » الصادر يوم الثلاثاء (١٧ رجب سنة ١٣٢٧ - ٣ أغسطس سنة ١٩٠٩) نص الحديث والخطاب المشئومين .

وبحت باســـرار «الوزارة» معلنـــا
وأبديت مالم يبد «غالى وعباس »[٣٥]

فأغضبت فى مصـــر القضاء وأهله
وارضاك أن يرضى خوؤن ودســاس

فــلا تـــك بعد الآن للعــدل موئـــلا
فغيـــرك بعــد الآن للعدل حـــراس

وحارب بســيف الظلم من شئت بيننا
فغاية ما يغنــى من الظـلم افـــلاس

لعمرك ما (قصر الدوبارة) نـــافع
اذا انتبه المظـلوم واحتدم الباس[٣٦]

وهيهـــات أن نخشى وعيــدك بعدما
نهضنا مع الآمال وانهزم اليأس[٣٧]

❋ ❋ ❋

---

(٣٥) أى أن رئيس الحكومة السابق وأمير البـلاد لم يبديا ما أبداه ناظر الحقانيـة من التهجم على استقلال القضــاء والحكم على متهم لم ينظر قضيته بعد وهما أرفع شأنا وأعظم خطرا واذا ساغ لأحد ما ساغ لرشـدى باشا كانا أحق بذلك وأولى .

(٣٦) البأس العذاب أو الشدة فى الحرب .

(٣٧) انهزام اليأس أول واجب على الشــعب الذى يجـاهد فى سبيل الحياة ، ويكون له أمل فى الاستقلال . ومتى نهض مع الآمال وتعلق بالمعـالى فهيهات هيهات ان يخشي وعيد موعد أو تهديد مهدد واستبداد مستبد .

« بعـد الحكـــم »(٣٨)

يا ليت شـــعرى هـل بـــدا ‏ ‏ فـــى مصـــر يوم أقمتـم(٣٩)
وجـــنى العبـــاد جنايـــة ‏ ‏ فاهتـــاج شـر مضـــرم(٤٠)
حتـى تحـــاربنا الحكــــو ‏ ‏ مـــــة عندمـــــا نتألــــم
وتسومنــا(٤١) سوء العقـــو ‏ ‏ بـــة حينمـــا نســـترحــم
والله يعلــــــم أننــــــا ‏ ‏ لقضـــائها نســـتســـلم
لـــم نجـــن ذنبـــا نستبيـــ ‏ ‏ ـــح بـــه ذمـاما يحـــرم
والظلـــم كـــل عشيتـــه ‏ ‏ يغشى البلاد ويدهـــــم(٤٢)
والقـــوم فـــى غفـلاتهـــم ‏ ‏ والظـــالمون هــــمو همـــو

---

(٣٨) بعد أن حكم قاضى محكمـة عابدين الجزئيـة على الأستاذ الشيخ عبد العزيز بالغرامة رفعت القضية بصفة استئنائية الى المحكمـة الابتدائيـة فحكمت عليه يوم الاربعاء (٩ شعبان سنة ١٣٢٧ ـ ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٩ ، الساعة ١٢ والدقيقة ٤٠) بالحبس البسيط ثلاثة أشـهر وكانت الجلسـة تحت رياسة القاضى (باغوص بك أوغوبيان) الذى رقى بعد ذلك الى وظيفة قاضى بالمحكمة المختلطة ، ووافق يوم تعيينه بها يوم خروج الأستاذ من سجنه ، ص ٦٥ : ٦٩ من « وطنيتى » .

(٣٩) مظـلم .

(٤٠) أى هاج شر متقد .

(٤١) تجازبنا بعقابها وترغمنا على احتماله .

(٤٢) بمعنى يغشى .

لـــم يكفهـــم صـــبر الكـــرا | م فاقســـموا أن يبرمـــوا(٤٣)
وقضـــوا على (عبد العـــز | يـــز) بحكمهـــم وتحكمـــوا

* * *

يا ســـاكن الســـجن الكريـــ | ـــم وأنـــت نعـــم الاكـــرم
حكمـــوا بسجنـــك قبل مـــا | حكـــم القضا أن يحكمـــوا(٤٤)
فعبســـت عنـــد قضـــائهم | ودخلـــت سجنـــك تبســـم
هـــم توجـــوك بتـــاج مجـــ | ـــد خـــالد وتهكمـــوا(٤٥)
حســـدوك أو جهلـــوا عـــلا | ك ومثلهـــم لا يعـــلم
ما الســـجـــن للشـــرفاء الا | رفعـــة وتنـــعم
فاصـــبر ولا تحـــزن اذا | حـــم القضـــاء المبـــرم
وتأس(٤٦) بالعلمـــاء والعظمـــ | ـــاء انـــك منهمـــو
أنت البـــرىء ومـــن يخـــا | لـــك(٤٧) مجرمـــا هـــو مجرم
والشـــعب حولـــك نـــا هض | متـــألم يتـــظلم
يهديـــك فى ســـجن الكـــرا | م تديـــة ويســـلم

---

(٤٣) أى يضجروا والمعنى انهم أرادوا أن يضجرونا ويبرمونا حتى نخرج من دائرة الصبر الجميل .

(٤٤) اشارة الى حديث ناظر الحقانيـة السابق .

(٤٥) اشتد غضبهم وتكبروا .

(٤٦) تعز واقتد .

(٤٧) ليس المجرم من حكم عليه بالسجن فى سبيل خدمة بلاده ، كما حكم على الأستاذ صاحب هـذه القضية ، وكما حكم على سواه من الشرفاء الأبرياء لا سيما اذا روعى أن الحكم صـدر فى حكومة استبدادية ، وانمـا المجرم الحقيقى هو من يخون بلاده ويجنى على أمته بخيانته سـعيا وراء أرب شخصى وغاية سافلة ، ومما أذكره هنـا بمزيد السرور ، ان الأستاذ رعاه الله تلقى نبأ الحكم عليـه وهو فى داره بين أهله وعشيرته برباطة جاش وابتسامة الازدراء وذهب الى النيابة مسرعا يصحبه رئيس الحزب الوطنى وأحد محاميه الفضلاء احمد بك لطفى وكيل الحزب مقدما نفسه اليها قبل أن تصـل يدهـا اليه مستعدا لتنفيذ الحكم عليه .

« يوم القضـــاء »

« على ابراهيم افندى ناصف الوردانى »(٤٨)

هل خال(٤٩) (ابراهيم) عنـد قضـاته
أمـــلا من الآمـــال دون حياتـه ؟

لم يغنه حسن (الدفاع)(٥٠) ولم تفـد
(فتوى) الشريعة وهـى حصن نجاته

فقضوا على هذا الشباب(٥١) وربـه
لـــم يثنـه (الاعـــدام) دون ثباته

---

(٤٨) ص ١٠١ — ١٠٢ من « وطنيتى » .

(٤٩) ظـن .

(٥٠) كان الدفـاع مؤلفا من حضرات أحمد بك لطفى ومحمـود بك أبى النصر . وابراهيم بك الهلباوى (الذى قضى رئيس الجلسـة بجعلها سرية حينما أراد أن يتكلم فى بعض المسائل السياسـية) وناهيك بأمثـال أولئـك المحـامين الكبار .

(٥١) لم يتجاوز الوردانى ٢٥ ربيعا ، وقد كان أسمر اللون . نحيف الجسم . متوسط القامة . عصبى المزاج . كثير الابتسام . شـديد الحياء . طويل التفكير . دمث الأخـلاق . كريم الاعراق . غيورا على الوطن . مجـدا فى سبيل رقيه . محبـا لنشر العلم وتأسيس النقابات . والاكثار من الجمعيات النافعة وغير ذلك من وسائل التقدم ودلائل الوطنيـة الصحيحة . عرفتـه فى عامه الأخير متحليا بهذه النعوت الكريمـة ، وما كان يدور بخلد عارفى هـذه الأخلاق الوديعة ان صاحبها يخطر له خاطر القتل السـياسى فيعمل على تنفيذه حتى يتم له ما أراد غير هياب ولا وجل . ولكن الله يقلب القلوب . ويعـلم ما تكن الصـدور .

حتى كـــأن المـوت مـــن رغبـــاته
ليكون فى الاحيـــاء بعد مماته(٥٢)

---

(٥٢) كان يوم الخميس (١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٢٨ ــ ٢١ ابريـل سنة ١٩١٠) موعد النظر فى قضية الوردانى أمام محكمـة الجنايات المنعقدة جلستها تحت رياسة المستر (دولبروغلو) وكان ثروت باشا النائب العمومى هو القائم بعمل النيابة وهى أول مرة قام فيها هـذا القـام . وقد افتتحت الجلسة الساعة ٩ صباحاواستمرت فى سـماع الشهود اثباتا ونفيا حتى انقضى اليوم وأعيد فى صباح اليوم التالى وبعد الانتهاء من سـماع الشـهود طعن الدفاع فى شـهادة الاثبات . وتمسكت النيابة بها فقررت المحكمة عرض المسألة على لجنة من الاطباء باعتبارهم خبراء ليبدو رأيهم فى أقوال الفريقين الدائرة حول أسباب الوفـاة الناتجة من (العملية) على رأى الدفاع وشـهوده أو (الصدمة) الأولى على رأى النيابـة وشهودها . وفى يوم الخميس (٣ جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ ــ ١٢ مايو سنة ١٩١٠) الساعة ٤ مساء انعقدت هـذه الجلسة وتلى تقرير الخبراء وترافعت النيابة وأخذ الدفـاع فى سبيل بيانه وتقـديم حججه ثم احيل الحـكم الى المفتى تمهيدا للحكم بالاعدام فافتى المفتى بعدم توفرالشروط الشرعيـة المسوغة لاعدام المتهم . وبما أن رأيه استشارى ليس الا . فقد سمعته المحكمـة ولكنها حكمت بالاعدام فى جلستها المنعقدة فى صباح يوم الأربعاء (٩ جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ ــ ١٨ مايو سنة ١٩١٠) فقـابل المتهم سماع هـذا الحكم برباطة جأش وابتسام (كما هى عادته فى جميـع أدوار القضية) وكان حين ذاك واقفا بأمر المحكمـة . وبعد ذلك قدم الدفاع أوجـه النقض وانعقدت جلسة النقض برياسة المستر (بوند) الذى لم يفد طعن المتهم فى رياسته لهذه الجلسة مع أنه من قضاة دنشـواى التى كانت مسألتها من أسباب قتل رئيس النظار ، فحكمت برفض طلب النقض صباح السبت (٤ جمادى الثانية سنة ١٣٢٨ ــ ١١ يونية سنة ١٩١٠) وأصبح (ابراهيم أفندى ناصف الوردانى) الآن تحت رحمة الله . فانا لله وانا اليه راجعون .

((النشـــيد الوطنى)) (٥٣)

نحـــن للمجـــــد نســـير ولـذـــا الله نصــــــير
لـــيس يثنينـــا نذيـــر عـــن بــــلاد نستجير
وعبـــــاد فـــى حـــداد
كيـف نرضـــى بالممـــات وزمــــان المــوت فــات

---

(٥٣) ص ١١٦ - ١١٧ من الديوان ، ويقول الغاياتى فى الحاشــية :

« لكل أمة من الأمم الراقيــة ، نشيد وطنى عــام ، يرويه الصغير عن الكبير ، ويحفظه العظيم والحقير ، والغنى والفقير ، وتشترك فى ترتيله والتغنى به عامة الشــعب وخاصته ، على السواء ، واظهر ما يكون من شــأنه فى أوقات المظاهرات ، وفى الحفــلات ، والمواسم الوطنية ، ونحوها ، بل انه ليبلغ من أمره أن يكون تأثيره فى الفرد ، كمــا يكون فى الجماعــة ، فترى الوطن يذكره فى خلوته ، كما يذكره بين عشيرته وامته ، فيبعث فيه روح الحماســة والوطنية ، ويشجعه على اقتحام المصاعب ، ومقارعة الخطوب ، فى سبيل الوطن العزيز ، كما يثبت الجنود فى مواقف النصر ، ويبث فى نفوســهم حب المخاطرة والاقدام والاستماتة فى الدفــاع والنضــال ، ولقد تقدم فى صــدر هــذا الكتاب كلام كثير فى موضوع الأناشيد ، وما يتعلق بها ، وانى قياما بحق الوطن على ، قد نظمت هــذا النشيد الدستورى السلمى ، راجيا أن يكون لمصر ما لغيرها من الأمم فى هــذا السبيل ، وأن يكون نشيدى هــذا : النشيد الوطنى العام ، فقد وضعته من بحر ســهل التلحين ، وقاربت بينه وبين الهام الشعب على اختلاف طبقاته ، وأرحت وجدانى بأداء هــذا الواجب الوطنى المقدس ، والله ولى التوفيق » .

انمـــــا الدســـتور أت فعليـــــنا بالثبـــــات

عنـــد آمـــال البــــلاد

نحن للمجـد نســير ٠٠ الخ

نحـــن شـــعب لانضـــام قبـل أن نلقـــــى الحمـام

فعــلى النيـــل الســلام مـــن فتـــاه المســتهام

يـوم يقضـى فـى الجهـــاد

نحـن للمجـد نسـير ٠٠ الخ

فـى هـــوى النيــل السعيد ميــت القـــــوم شــــهيد

ذكــره حـــى جديـــــد يومـــه للشـــعب عيــــد

فيـــه ذكـــرى للرشـــاد

نحـن للمجـد نسير ٠٠ الخ ٠

مرحبـــــا بـالفـــوز لاح وانجاســى ليـــــل الكفـاح

وشـــــدا طيـــر الصـــباح أدرك الشـــعب الفـــلاح

وقضـــت مصر المــراد

نحـــن للمجـــد نســـــير وانــــــا الله نصـــــير

لـيس يثنينـــا نذيــــر عـــن بـــــلاد تســتجير

وعبـــاد فـــى حـــداد

* * *

« نمـاذج متفرقــة »

واذا كانت كل قصائد ديوان « وطنيتى » للغاياتى ، ذات أثر وطنى ، وتاريخ قومى ، فنحن هنا لانستهدف نقل نصوصا باكملها ، بقدر مانستهدف ، القاء النظرة العامة على ذلك الشعر ، فبالاضافة الى ماسبق ، اخترنا هذه النماذج الصغيرة ، التى تحس من خلالها أيضا بروح الوطنية والحرية والكرامة والاباء ٠٠٠ افليست كل ذلك مبادىء الحزب الوطنى آنذاك ؟

فهو لايجد حرجا فى مخاطبــة الســـلطان عبد الحميد فى الاستانة ، وكان يسمى فى ذلك الوقت بـ « أمير المؤمنين » ، يطالبه فيها بالدستور ، ويشير الى نكبة الاحتلال لمصر ، فيقول(٥٤) :

رمتـــها الحادثـات بشـــرقوم
لهـم فى كـــل مظلمــــة شـــئون

قضـــت فى عصـــرهم مصر واولا
رجـــاء فيـــك ما قـــرت عيون

(٥٤) « وطنيتى » للغاياتى ، بعنوان (الدستور العثمـانى ـ الى امير المؤمنين) ص ٤٢ ٠

فاعــزز ياحمــى الاســـلام شـــعبا

بعـــزك لا يـــذل ولا يهـــــــون

وعندما يدلى أحمد شوقى ، شاعر الأمير ، حديثا الى جريدة «المؤيد» ، على لسان الخديو عباس بأنه لايستطيع أن يصدر الدستور الا برضى الانجليز واذنهم ، يقول له الغاياتى(٥٥) :

يا شــاعر الأمير ويحك هـــل تــرى

فى النثر ما فى النظــم من خطـرات

انــى رأيتــك فى حــديثــك شــاعرا

لكـــن خيالـــك زائــغ النظـــرات

يا شـــاعر النيــل العظيم أما تــرى

للنيـــــــل الا أســـــوأ الحالات

ما كنــت أحســب أن مثــلك وهو فى

شـــعراء مصر صـــاحب الآيــات

يجنــى على الشـعب الكريم جنايــة

ويـود أن يبقــى مـــع الأمــوات

أو أنــت تروى عــن ســواك حديثــه

كيمـــا نـــرى الدســـتور ليس بآت

---

(٥٥) تحت عنوان (الدستور وحديث شاعر الأمير) ص ٤٥ .

وعندما يتم عزل السلطان عبد الحميد (سلطان تركيا فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٩) على يد الثوار الاتراك ينظم الغاياتى قصيدة تحت عنوان « فتنة الاستانة » يقول فى مطلعها(٥٦)

لم يدرك السلطان فى قصره
ما أدرك العسكر من امره

ولم يهب من دهره سطوة
حتى دهاه الخطب من دهره

ولما وقع حادث اغتيال بطرس غالى باشا (ناظر النظار القبطى) ، انتهزه خصوم الحركة الوطنية ، واسرفوا فى القول بان باعث الوردانى على القتل كان باعثا دينيا ، وكان هذا ابعد الأشياء عن الحقيقة ، انما كانت الحقيقة فعلا بث سموم التفرقة بين المصريين ، وقد وقف أحد المحامين الذائعى الصيت (مرقص فهمى) يدفع عن الحركة الوطنية هذا الاتهام الظالم . فتأثر الغاياتى لهذا الموقف النبيل للمحامى القبطى ، وكتب قصيدة عنوانها « الى خطيب السلام »(٥٧) يبدأها بقوله :

خطبت فلم تجنح الى شرعة الهوى
ولم تتخذ نهج الخصام سبيلا

كما أنه عمل على تنقية الجو من هذه السموم . داعيا الى جمع الشمل ووحدة الصف ·· فيقول فى نفس القصيدة :

---

(٥٦) ص ٥٨ من الديوان .
(٥٧) ص ٩٩ من الديوان .

وما امـة القـرآن فى مصـر أمـة

تـرى أمـة الانجيـل أبغض جيلا

فانا وأنتـم اخـوة فـى بلادنـا

اقمنـا على ديـن السـلام طويـلا

وننتقل من الوحدة الوطنية عند الغاياتى ـ والتى سوف تكون شغله الشاغل بعد ذلك ـ لنعيش معا تلك الزيارة التى قام بها تيودور روزفلت ـ وكان رئيسا سابقا للولايات المتحدة ـ الى مصر فى مارس سنة ١٩١٠ ، والقائه لخطاب فى الجامعة المصرية ، أشاد فيه بالاحتلال الاجنبى البريطانى ، وأياديه البيضاء على مصر ، فأزعجت هذه الخطبة ـ وماتبعها من خطب أيضا ـ خواطر المصريين ومشاعرهم ، فأصلوه نارا حامية ، وأنبرى له الكتاب والشعراء ، وأعد الغاياتى قصيدة بعنوان « روزفلت بعد خطبته فى الجامعة المصرية » يقول فى بدايتها(٥٨) :

لعمرك لسـت بالرجـل الهمـام

اذا عـد الهمـام مـن الكـرام

كـرام النـاس أصدقـهم حديثـا

وأبعـد عـن أكـاذيب اللئـام

وذكر الغاياتى روزفلت فى هذه القصيدة ، بأن الانجليز كانوا حكامهم ، وأن أبناء أمريكا الأحرار قد ثاروا على الانجليز ، الذين

---

(٥٨) ص ١٠٨ من الديوان .

ساموا الشعب الأمريكى الخسف والهوان ، وأشاد ببطولة زعماء النضال الأمريكى ٠٠ واشنجتون وجفرسون ، وعندما سافر روزفلت من مصر الى انجلترا ، خطب ثانية فى قاعة جيلد هول) بلندن . فحمل على المصريين من جديد ، مشيدا بالاحتلال البريطانى ، فنظم فيه الغاياتى قصيدة أخرى ، لاتقل قوة عن الأولى(٥٩)

وهناك نماذج لشعر الغاياتى ، يرى انها بين « هدى وضلال » ، يضعها فى نهاية ديوانه ، منها هذين النموذجين ٠٠ أولهما تحت عنوان « بين اللحظ والخال »(٦٠) يقول فيها :

لـــك اللحـــظ ســكارى	اســقمت وهـــى سقيمـة
وبـــورد الخـــد خـــال	خلقتـــه فيـــه تميمـــة
ان رمـــى النظـار سهمـا	نحـــوه صـــان اديمـــه
اشـــبهت حبـــة قلبـــى	فــى معـــانيه رقيمـــه
انمـــا انـــت غــــرام	حــل مــن قلبـــى صميمـــه
لـــيس للأيــــام عنـــدى	فــى ســوى حبـــك قيمـة

وهكذا نرى ارتباط هذا النوع من الشعر العاطفى عند الغاياتى

---

(٥٩) ص ١١٢ من الديوان ، تحت عنوان « الى خطيب جلد هول » ــ وهى اسم دار بلدية لندرة ــ يقول فى مطلعها :

ماذا تحــاول يا روزفلت من خطب ترمى به مصر عن حقد وعن غضب

(٦٠) ص ١٢٧ من الديوان .

بالوطنية أيضا ، فهو يشرح معنى البيت الأخير بقوله : « كذلك تكون الحياة رخيصة ، والآمال صغيرة ، لـدى بعض الشعراء ، بينما الوطن يشكو ويألم ولايجد منهم ذكرا،ولامتوجعا» ، وهو نفس مانجده فى ذلك النموذج الثانى ، والذى كان تحت عنوان « فى مرقص »(٦١)، فتراه يقول :

ميلـــى علـى العاشـــقين ميلــى
بخصــــرك الاهيـــف النحيـــل

وصوبــــى نحوهــــم سهـــاما
من لحظـك النــــاعس الكحيـــل

واشعلـــى النـــار فـى حشـــاهم
مـن خـدك الأغيــــد الأســـيل

وافــــىء باللمـــى لظاهــــم
فــــان فيــــه شــفا الغليـــــل

فيــــك القلـــوب تهـــيم حبــا
ومـــا لحبـــــك مـــــن بديـــل

وانتــــى فيــــك مســــتهام
ولســــت اخشـــى مـــن العـذول

(٦١) ص ١٢٧ من الديوان .

ولا أهـــاب الـــردى اذا مـــا
صـبا فـــؤادى الـــى جميــــل
فياحيــــاتى فدتــــك نفســــى
فهـــل الـــى المـوت مـن ســبيل

ذلك أن الغاياتى يرى ـ أيضا ـ أن معنى البيت الأخير ٠٠٠ هو « نعم الى الموت ٠٠ فهو خير سبيل فى الوطنية » ٠

الحـكم على الديـوان

نحن هنا لسنا بصدد نقد بلاغى وأدبى للديوان ، بقدر ماهو وصف عام لديوان شعرى كان له دور مؤثر فى الحركة الوطنية المصرية ، فالديوان من الحجم المتوسط ، ويقع فى ١٣٠ صفحة ، يضم بين جنباته مقدمات نثرية سواء لمؤلفه : على الغاياتى ، أو لزعماء الحركة الوطنية حينذاك ، محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش ، أو شعرا يرتبط بما كان يجرى على أرض مصر مابين سنوات ١٩٠٨ الى ١٩١٠ ، كما كانت هوامشه تعج بالحياة والحركة وقد انتهى الغاياتى من تحرير هذا الديوان ـ أو كما يقول هو ـ (الجزء الأول من وطنيتى يوم الجمعة ١٧ جمادى الثانية سـنة ١٣٢٨ ـ ٢٤ يونيه سنة ١٩١٠)(٦٢) ولكن لم يستدل من الكتاب على مكان طبعه ٠

وقد روى الغاياتى بعد ذلك قصة طبع هذا الديوان(٦٣) ، حيث يقول : « ولما كان طبع هذا الديوان فى مطبعة مصرية ، يعرضه للمصادرة ، وهو بعد أصولا لم تجمع حروفها ، فقد قصد مطبعة يملكها فرنسى اسمه (كستيولا) ٠ وقد كان الأجانب يومذاك غير خاضعين لتفتيش البوليس المصرى ، الا اذا أذنت القنصلية التى يتبعها هؤلاء الأجانب ، وكان استصدار الأذن من القنصلية يسمح

---

(٦٢) « وطنيتى » للغاياتى ، ص ١٢٨ ٠

(٦٣) فتحى رضوان « عصر ورجـال » ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ٠

باخفاء جسم الجريمة وأثرها ، وتم طبع الديوان دون أن يصادر ، وكان عدد النسخ المطبوعة ألف نسخة »

وهكذا يشعرك الغاياتى للوهلة الأولى ، بأنـه كان لديـه احساس داخلى بأن الديوان سوف تتم مصادرته ، ومعنى ذلك أيضا اقتياده للمحاكمة ، ومع ذلك جازف بطبع الديوان ٠

ويعلق الدكتور أحمد هيكل عميد كلية دار العلوم(٦٤) ، على الديوان وصاحبه ، بأن على الغاياتى ينتمـى الى ذلك الجيل من الشعراء الذى سار فى نفس اتجاه الشاعر محمود سامى البارودى ، ويترسم خطاه ، نحو الاتجاه المحافظ البيانى الحى، وترجع أهـم أسباب ظهور هذا الاتجاه الى الوعى الناضج الذى بـدأ عند بعض المثقفين ، الأمر الذى حمل على الالتفات الى مجد الماضى وتراث الأمس ، للاتكاء عليه ، ومواجهة تحدى الحضـارة الغربية به ، والايمان بفكرة الجامعة الاسلامية ، لذلك تجد الغاياتى فى عـداء واستنكار ونضال ضد السلطة الغاشمة التى كانت جاثمة على صدر البلاد فى تلك الفترة (الانجليز) وكان صريح العـداء ، مسـتمر الاستنكار ، دائم النضال ٠٠ والتنديد بالاحتلال ومخلبه ٠٠ الخديو، دائم الحث للوطنيين ــ فى ذلك الديوان ــ على النهوض والثورة ٠

والذى يقرأ ديوان « وطنيتى » قد لايجده كله شعرا من طراز رفيع ، ولكنه يجد فيه باكورة رائعة لشاعر شباب لم يتجاوز عمره ٢٥ سنة ، والى جانب ذلك ، تجد الوطنية الحقة ، والعقل المتحرر (غير المحافظ) ، وتراه يمدح الزعيم مصطفى كامل ، وهو على قيد الحياة ، ويرثيه عندما يلحق بالرفيق الأعلى ، ويخاطبه قائلا :

---

(٦٤) فى كتابه « تطور الادب الحديث فى مصر » ط ٤ (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣) ص ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٨ ٠

لا زال فـــى مصـــر لواؤك خافقــا
مــن حــوله شــعب أعــز نجيــب

ويقصد بذلك طبعا جريدة « اللواء » التى أصدرها الزعيم في ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، ثم يمدح محمد فريد ويثنى عليه بعـد انتخابه رئيسا للحزب الوطنى ، خلفا لمصطفى كامل ، ويقف بجوار الشيخ عبد العزيز جاويش عندما يتهم فى احدى القضايا ويتم الحكم عليه ويسجن ، وكيف أن المصريين اكتتبوا لعمل وسام يتقلده الشيخ بعد خروجه من السجن ويسمى (وسام الشعب) ، ويصف الغاياتى هذا الوسام فى هامش احدى صفحات « وطنيتى » فيقول(٦٥) :

« جاء هذا الوسام آية من آيات الوطنية الدالة على فضل الأستاذ بأجمل معنى وألطف شارة ، وهو مؤلف من ثلاث قطـع ذهبية نقش على الأولى رسم الأهرام ، وكتبت تحت الرسم هذه العبارة : « تذكار الشعب الى الشيخ عبد العزيز جاويش أعترافا بوطنيته الصادقة » ، والثانية وهى أكبرها حجما ، رسم عليها نبات كان يتخذه القدماء رمزا للفوز والنصر ، ونقشت فيها هذه الآية الكريمة : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » والثالثة هلال فى وسطه ثلاثة نجوم وقد شبكت هذه القطع الثلاث بوشاح من الحرير الأحمر والأبيض ، مرصعة كل واحدة منها بالأحجار الكريمة ترصيعا جميلا » ٠

ويرى الأستاذ فتحى رضوان(٦٦)،بأنك لو تابعت قصائد الديوان قصيدة قصيدة ، وقرأت هوامشه ، هامشا بعد هامش ، اكتملت لديك صورة كاملة للعهد الذى ظهر فيه هذا الديوان ، صورة شعب

---

(٦٥) ص ٧١من الديوان ٠
(٦٦) « عصر ورجال » ، ص ٣١٧ ٠

يناضل من أجل اجلاء الانجليز عن أرضه ، بقلمه ولسانه ، ويتحفز لقتال أشد ضراوة فى سبيل نفس الغاية ، ومن أجل الدستور ومن أجل مزيد من الحريات الداخلية ، واصلاح الحكم ، والضرب على يد المفسدين والحكام الذى يبعثرون أموال الدولة على أنفسهم ويغترفون منها بلا حساب ، ومن أجل نشر التعليم والعناية بالصحة ، ورفع مستوى التلاميذ والعمال ، واشراكهم فى شئون بلادهم اشراكا فعليا ٠

كما يرى أيضا (٦٧) تعليقا على قصيدة « رب ذكرى هيجت شجنا » والتى تعرضنا لها عندما نشرها الغاياتى فى جريدة «اللواء» ـ وكيف أنه راح يبشر بهذه الطريقة الجديدة فى نظم الشعر ـ بأن تكون القصيدة قطعا ، كل قطعت ذات روى خاص ـ عند حافظ ابراهيم واسماعيل صبرى ، بأن الغاياتى ـ وان كان مشغولا بأحداث الوطن السياسية ، وأنه وقف قلمه ونفسه للمعركة الوطنية ، الا أنه لم يكن أديبا محافظا ، ولو اتسع له الوقت فى مصر ، ولم يهاجر الى سويسرا ، لأكمل العمل الذى بدأه بهذه المحاولة المبكرة فى وقت لم يكن يجرؤ فيه أحد على التفكير فى الخروج على الشعر العمودى ، ولا فى التجديد فى طرق الشعر وقوالبه ، ولو صدق الشاعران الكبيران حافظ وصبرى فيما وعدا به الغاياتى من تناول هذا الأسلوب الذى اقترحه الغاياتى لهما ، ووافقا عليه وأقراه ، لتحرر الشعر العربى تحررا كان يفتح له آفاقا جديدة فى الشكل والموضوع ، ولما تأخرت المسرحية الشعرية فى أدبنا عن الظهور هذه الحقبة الطويلة ٠

وقد حاول الغاياتى مرة أخرى أن يجدد فى شعره ، فحاكى

(٦٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ٠

شوقى فى قصيدته التى مطلعها « مال واحتجب ٠ وادعى الغضب » فنظم فى ذكرى مصطفى كامل قصيدة جرى مطلعها(٦٨) :

أيهـــا المفتـــى جـــرد القلـــم
وانشر الاســـى واشـــرح الألــم
غـــاب مصـــطفى حـاضـــر الهمم
رافـــع اللـــوا خـافـــق العلـــم
صائـــن الحمـــى ناصـــر الهـــرم
عـــاد يومه فاذكـــر الشـــيم

ولكن المحاولتين ذهبتا بلا أثر يذكر ، فقد استغرقت السياسة والجهاد ، ومتاعب الهجرة ، ومشاق الصحافة فى الخارج ، جهد الشاعر الشاب ، كما سنرى ٠

ويرى الأستاذ « محمد طاهر الجبلاوى »(٦٩) ، أن شـــعر « الغاياتى » يمكن أن نسلكه فى عداد الشعر التأثيرى (امبرشنزم) وينجبس من فورة معين فياض فى سهولة ويسر كأنه الشعر المرتجل أو شعر البديه لا تكلف فيه لأناقة أو محاكاة ، وقد خرج من الجنان ليستقر فى الأذهان ، ويجرى على كل لسان ، وما أشبهه بشعر الأناشيد وان لم يكن فيه ٠٠ أما عن الديوان نفسه (وطنيتى) فهذه أول مرة يصدر فيها ديوان مخصص لموضوع واحد هو الوطنية ٠٠ ذلك أن دواوين الشعراء فى ذلك الوقت كانت تصدر مقسمة الى أبواب ، غالبا ماتكون على النحو الآتى : باب المدح ، باب الرثاء ، باب الغزل والنسيب ، باب الوصف ، ثم وطنيات فى بعض الأحيان وهكذا ٠٠ كان « وطنيتى » وثبة من وثبات الشاعر فى عالـــم الشعر والأدب ٠

---

(٦٨) ص ٩٢ من الديوان ، وقد قال شوقى (شاعر الأمير) ، قصيدته فى وصف « باللو » أقيم بسراى عابدين ٠

(٦٩) مرجع سابق ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ٠

« قضـــية وطنيتى »

ذكرنا بأن الغاياتى كان يحس بأن الديوان سوف يثير عليه المتاعب الجسام ، سواء ما قاله بنفسه فى مقدمته للديوان ، أو بعد ذلك ، عندما قام بطبعه عند مطبعة غير مصرية ، حتى لايصادر أثناء الطبع ، ولكن كيف كانت البداية ، ليصبح الديوان « قضية » أمام محكمة ؟

يستحسن لنا أن نترك صاحبها يقصها علينا ·· فيقول(٧٠) :
« قضية وطنيتى من أشهر القضايا السياسية فى العصر الحديث · وقد كان لها صدى بعيد المدى فى مصر والشرق ، كما وصـــلت أنباؤها تترى الى الغرب ، وهى الآن من قضايا التاريخ المصـــرى مسجلة فى بطون الصحف والكتب ··· ولا شك أن أول من وجه أنظار الحكومة علنا الى كتاب « وطنيتى » ، وحرضها بطريقة غير مباشرة على صاحبه ، هو المرحوم الشيخ على يوسف (أو السيد على يوسف باشا) ، صاحب جريدة « المؤيد » الشهيرة فى ذلك العهد ، فقد كتب بقلمه مقالة فى الموضوع ، هى فى الواقع صحيفة الاتهام التى افتتحت بها هذه القضية ثم كان بعدها ماكان » ، أى لم تكن مقالة أدبية تعرض للفن الشعرى أو تقريظا للقصيد الرائع(٧١)

---

(٧٠) جريـدة « منبر الشرق » العدد ٤ ، ١٩ يونيو سـنة ١٩٣٨ ، ص ٨ ·

(٧١) مختار الوكيل ، على الغاياتى ، فصـل من كتاب « خمسـة من شعراء الوطنية » ، مصدر سابق ، ص ٣٠٢ .

أما كيف وصلت نسخة الديوان الى الشيخ على يوسف ؟ ..
فلقد حدث أن رأى الأستاذ سليمان فوزى المحرر بجريدة « المؤيد » - والذى أصدر مجلة الكشكول بعد ذلك سنة ١٩١٤ - الديوان فى يد الغاياتى ، فسأله لماذا لم يهد نسخة منه الى الشيخ على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » ليقرظه ويعلق عليه ، ثم صحبه الى مكتب الشيخ على يوسف ، حيث أهدى الغاياتى اليه نسخة ، ولكن ماكاد الشيخ يطلع على الديوان حتى جرد عليه حملة ضارية ، وكأنه كان يكتب قرار الاتهام فعلا ضد الديوان وصاحبه ، مع العلم بأن«المؤيد» فى ذلك الوقت - سنة ١٩١٠ - تنافس « اللواء » جريدة الحزب الوطنى ، وتتهم الحزب وجريدته بالتطرف المجنون ، وقد تلقت الحكومة هذه الحملة بصدر رحب .. واليك مقالة الشيخ على يوسف ، قبل أن نفصل لعمل الحكومة ازاء الديوان وصاحبه(٧٢) :

« زارنا منذ يومين حضرة الشيخ على الغاياتى المحرر بجريدة « العلم » وقدم لنا نسخة من كتاب شعرى وضعه حديثا بعنوان « وطنيتى » وقال أقدمه اليك ، وان يكن بلهجة حزب لاترضيك لهجته فقابلته بحسن القبول ، وعزمت على أن أقرظه كما يستحق أديب مثله ، يحسن الشعر ، ويعمل كما يعتقد لاحياء الشعور الوطنى » .

« أردت اليوم أن أقرظه بعد مافرغت من مهام مواضيع الجريدة حتى يكون للقلم حظه من الأدب بعد حظه من السياسة ، ففتحت الكتاب وأول ماوقع نظرى عليه منه الصفحة - ٤٦ - قول هذا الشاعر المجيد : -

يا ليت شعرى هل رأيت كما أرى
ان « المؤيد » معهد الهفوات

---

(٧٢) جريدة « المؤيد » ، الاثنين ٤ يوليو سنة ١٩١٠ (٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٢٨) .

فنشــرت فيــه ما نشـــرت وانمـــا
هـــى زلـــة مـــن أكبـــر الزلات

فاستوقفنى هذا السباب الموجه الى « المؤيد » هنيهة ، وقلت لعل حضرة الشيخ أراد أن يوجه لى هذا الكلام مشافهة بتقديم الكتاب ، كما فعل شاعر آخر له وطنيات لاتقل فى الحماســة والبلاغة عن وطنية هذا الشيخ ، ولكنى رجعت وقلت لعل ذلك الزائر لم يقصد هذا وانما قصد أن أدل قراء « المؤيد » على شىء من آيات وطنيته البينات » .

« وماذا يضر « المؤيد » لو كان فى يوم من أيامه على لهجة مثل لهجة « العلم » على حساب غيره ، فبعد الاستئذان من قانون المطبوعات ، وبعد الاستعاذة من القوانين الجديدة ، وبعد الاعلان بأنه لا اتفاق بين « المؤيد » وبين الشيخ على الغاياتى ، نستعير قلمه وشعره وفكره ساعة من الزمان ، قال حفظه الله تحت عنوان (وطنى يناجى ربه) صفحة ٣٤ من كتابه .... » ثم أورد الشيخ على يوسف أبياتا متفرقة من تسع قصائد للغاياتى نشرها فى «وطنيتى» ، ستكون ضمن حيثيات الحكم فى تلك القضية الخطيرة !!

ولم يمض يومان على مقالة « المؤيد » ، حتى نشرت الصحف خبرا مؤداه « أبلغتنا المحافظة فى هذا الصباح أن ادارة الضبط قبضت على الشيخ على الغاياتى ، لأنه نشر ديوانا فيه قصائد تقع تحت طائلة قانون المطبوعات ، وقد أحيل الى النيابة ، فشرع حضرة على بك توفيق من نيابة مصر فى التحقيق معه(٧٣) »

---

(٧٣) جريــدة « اللــواء » ، العدد ٣٣٢٠ ، فى ٦ يوليو سنة ١٩١٠ ص ٤ .

نشر هذا الخبر فى صحف يوم الاربعـــاء ٦ يوليو ، ولكــن الحقيقة أن الشيخ على الغاياتى لم يكن مقبوضا عليه ـ كما قالت محافظة القاهرة فى بلاغها ـ ولكنه كان خارج القاهرة فعلا ، ذلك أنه علم بأن الحكومة بدأت تبحث عن الديوان فى كل مكان تعلم أنه موجود فيه ، وأن أمرا باعتقاله قد صدر ، وقد نصحه بعض الأصدقاء بأن يفر الى خارج البلاد ، وليكن الى تركيا ٠ ٠

وقد اختلفت أقوال المؤرخين والكتاب فى سفر الغاياتى خارج الوطن ، فمنهم من يسمى ذلك فرار(٧٤) ، ومنهم من يطلق على ذلك هروبا(٧٥) ، أو ارتحالا(٧٦) ، كما أن هناك رواية تربط الهروب « بأنه كان من السجن »(٧٧) ، وهذا لم يحدث على الاطلاق ، وان كنا نأخذ برأى الغاياتى نفسه فى أن ذلك كان فرارا(٧٨) ، كمـــا روى فى ذكرياته التى نشرها فى جريدة « منبر الشرق » بعد عودته الى الوطن نهائيا سنة ١٩٣٨ ٠

فكيف استطاع الغاياتى أن يفر خارج مصر ؟ وهو يعلم أن البوليس يتعقبه ، ونترك ذلك لشهادة الشاهد الوحيد الذى رافق الغاياتى « مرافقة وطنية » وهو صاحب العزة حسين بك فتوح ليحكى لنا كيف تم ذلك(٧٩) فقال :

---

(٧٤) احمد شفيق باشا « **مذكراتى فى نصف قرن** » القسم الثانى من الجزء الثانى (القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٣٦) ص ٢٣١ ٠

(٧٥) آرثر ادوارد جولد شميث (الابن) ، **الحـزب الوطنى المصرى** (القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٣) ص ٢٢٣ ٠

(٧٦) احمد هيكل ، مرجع متقدم ، ص ١١٠ ٠

(٧٧) ابراهيم عبده ، **تطور الصحافة المصرية** (١٧٩٨ ـ ١٩٨١) ط ٤ (القاهرة ، سجل العرب ، ١٩٨٢) ص ٣٠٦ ٠

(٧٨) **جريدة « منبر الشرق »** ، الاعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ٠

(٧٩) جريدة « **منبر الشرق** » ، العدد ٧ فى ١٠ يوليو سنة ١٩٣٨ ، ص ٨ ٠

« ذهبت الى شقة الشيخ على الغاياتى بالمنزل رقم ٨ بحارة سليم بك المتفرعة من شارع الشيخ ريحان بعابدين ، فجمع أثاثه منها وأخذ مايلزمه من ملابس وكتب ، ولكنه بدلا من أن يأخذ الخفيف من المتاع الذى لاغنى عنه أخذ يكوم كل مافيها من أشياء لاقيمة لها ، متمهلا متأنيا وكأنه ذاهب الى رحلة للاستجمام والترويح ، وكانت نفسه تنازعه فى أن يحمل معه كل ما فى الشقة حتى الحصيرة والمرتبة ، وكلما استحثه وأحذره من الخطر الذى ينتظره ، ان لم يسارع بالنزول ، لايلتفت الغاياتى لذلك ، حتى لمحت مأمور قسم عابدين قادما من بعيد فى عربة (حنطور) ، فأسرع الغاياتى فى حمل (صرة) ثقيلة حوت من الملابس والكتب مافوق الحاجة ، وعندما رأتنى صاحبة المنزل ونحن نهرول ، سألتنا عن الخبر ، فقلنا لها ٠٠ أننا مسافران الى دمياط ، فأخذت تشيعنا بالدعوات الصالحات » ٠

وقد قطع تذكرة السفر الى الاسكندرية أحد الأصدقاء ، وهو أحمد أفندى رفعت وكان محررا فى جريدة « العلم » وسلمها الى صديقه حسين فتوح الذى دخل بها الى القطار بينما دخل الغاياتى بتذكرة مقابلة ، ثم تبادلا التذاكر داخل القطار(٨٠)، وسافر الغاياتى فاذا به يجد فى ديوان القطار ضابطا تركيا كان فى رحلة صيد فى السودان ، عاد منها بعدد من النسانيس ، وقد تصادق مع الغاياتى ، ونزلا معا فى فندق واحدة بالاسكندرية ، قبل أن تقلع بهما الباخرة الى استانبول بتركيا ٠

فما كان من البوليس المصرى الا أن أصدر نشرة للصحف ، أعلن فيها أن الشيخ على الغاياتى صاحب كتاب وطنيتى قد برح الثغر الاسكندرى فى أوائل هذا الشهر قاصدا مرسيليا (بفرنسا)

---

(٨٠) مختار الوكيل ، مصدر متقدم ، ص ٣٠٦ ٠

ويقال ان من المحتمل ان تخابر الحكومة المصرية حكومة الجمهورية لاعادته الى مصر(٨١) ٠

« وقد استدعت النيابة مساء ١٢ يوليو سنة ١٩١٠ حضرة الشيخ جاويش واستمرت تحقق معه من الساعة ٣ والنصف بعد الظهر الى الساعة الثامنة الا ربع فى شأن المقدمة التى كتبها لديوان الغاياتى (وطنيتى)(٨٢) ٠

ثم كان قرار الاتهام فى القضية ٠٠(٨٣) فلقد قررت النيابة العمومية احالة كل من الشيخ جاويش ـ المحرر بجريدة العلم ـ والشيخ على الغاياتى ـ المصحح بجريدة العلم ـ والشيخ محمد حسن القزوينى ـ الموظف بقلم تحرير العلم ـ والياس افندى دياب ـ صاحب مكتبة التأليف ـ الى محكمة الجنايات يوم ٦ أغسطس ، برئاسة محمد بك مجدى وحضرة على بك ذو الفقار والمسيو سودان أعضاء ، كما تقرر اخراج حضرة اسماعيل افندى حافظ ـ صاحب جريدة العلم ـ وتأجيل رفع الدعوى على حضرة محمد بك فريد ـ رئيس الحزب الوطنى ، لحين عودته من أوربا ، وذلك لوضع ونشر كتاب يسمى « وطنيتى » ويشتمل على قصائد ومنظومات ، يتضمن بعضها التحريض مباشرة على جناية القتل (صحيفة ٥ و ٣٤ و ٣٨ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٩٢ و ١٠١ و ١٠٢) وبعضها التحريض على كراهة الحكومة والازدراء بها (صحيفة ٣٤ و ٥٦ و ٥٧ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٧) وبعضها تحسين الجريمة التى ارتكبها الشيخ جاويش ، وحكم عليه من أجلها فى العام الماضى وغيرها (صحيفة ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢

---

(٨١) جريدة « اللـــواء » ، العدد ٣٣٢٥ ـ ١٢ يوليو ١٩١٠ ـ ص ٤ ٠
(٨٢) جريدة « اللـــواء » ، العدد ٣٣٢٦ ـ ١٣ يوليو ١٩١٠ ـ ص ٤ ٠
(٨٣) جريدة « اللـــواء » ، العدد ٣٣٣٨ ـ ٢٧ يوليو ١٩١٠ ـ ص ٥ ٠

و ٩٢ و ١٠١) وبعضها العيب فى حق ذات ولى الأمر (صحيفة ٥٥ و ٥٦) وبعضها اهانة ناظر الحقانية بصفته موظفا عموميا (صحيفة ٦٣ و ٦٤) وبعضها اهانة هيئة الوزارة والمحاكم صحيفة ٥٦ و ٦٨) ٠

وهكذا أصبحت صفحات « وطنيتى » فى ورقة اتهام ٠٠ حتى كان موعد انعقاد محكمة الجنايات الكبرى وهذه صورة لجلستها ، والتى جاءت فى « اللواء »(٨٤) : « انعقدت الجلسة فى الساعة التاسعة صباحا تحت رئاسة محمد بك مجدى وكل من العضوين على بك ذو الفقار والمسيو سودان ، وكان على كرسى النيابة توفيق بك نسيم وسكرتير الجلسة جلال أفندى ، وكان النظام سائدا ، والقاعة غاصة بالحاضرين يتخللهم رجال البوليس السرى المنتشر خارج القاعة وداخلها ، وكان حضرات الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ محمد حسن القزوينى والياس افندى دياب واقفين فى موقف الاتهام ، وحضر حضرات المحامين الأفاضل للدفاع عن موكلهم ، فحضر الاساتذة أحمد بك لطفى ومحمد بك على للدفاع عن الشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحمد بك أبو شادى عن الشيخ القزوينى ، وعبد السلام افندى ذهنى عن الياس افندى دياب ٠

ثم تكلم حضرة رئيس الجلسة بعض كلمات طلب فيها من الجمهور المحافظة على النظام ونودى على المتهمين ، فسئل كل منهم عن اسمه وصناعته وعمره وسكنه ثم قام حضرة كاتب الجلسة وتلا محضر الجلسة ٠ وبعد ذلك قام حضرة وكيل النيابة وطلب معاقبة الشيخ الغاياتى والشيخ جاويش بصفته فاعلا أو شريكا فى الجناية ، وذلك لنشره أشياء مخالفة للقوانين بالجرائد ٠

---

(٨٤) « جريدة اللـــواء » ، العدد ٣٣٤٦ ، فى ٦ اغسطس سنة ١٩١٠ ، ص ٥ ٠

سأل حضرة رئيس الجلسة الشيخ عبد العزيز جاويش عن التهم الموجهة ضده ، فقال انه قرظ الكتاب عن نية حسنة ، وسئل الشيخ القزوينى عن التهم الموجهة ضده ، فقال انه لم يطلع على الكتاب ، وسئل دياب افندى عن التهم الموجهة ضده فقال انه باعه كسائر البائعين ، ثم قام حضرة وكيل النيابة وقال: قام هذا الشاعر المفتون (يقصد الغاياتى) ووضع هذا اللكتاب ، فلا حيى الله وطنيته ولا بارك الله فيها من وطنية فاسقة ، لقد مجد فعل دنجرا والوردانى وكلاهما قاتل سفاك ، وهذا تحريض على ارتكاب الجنايات ، وقال نعم هنا فى هذا الكتاب (وطنيتى) جملة قصائد أدبية مثل شفاء ولى العهد ٠ ورثاء حسن عاصم باشا ، ولكن هذا لايبرر مافى هذا الكتاب الذى يعظم الاثم ويدفن الحسنة ٠٠٠ ثم قال : مالهؤلاء الكتاب يزخرفون الكلام البذىء للجمهور ، ألا يعرفون عواقب مايكتبون ، انهم اذا أصلحوا كتاباتهم اصلحوا أمتهم ، واذا أفسدوا كتاباتهم افسدوا أمتهم ، فاذا كان هذا حال الكتاب ، فكيف يكون حال العامة، وليس أهون على الكاتب من أن يجلس على مقعده ويكتب مايشاء ٠٠ ثم طلبت المحكمة من المحامين الدفاع ٠٠٠ فقام كل من الاصولى البارع محمد بك على ، ومن بعده المحامى الفاضل أحمد بك لطفى ٠

وفى اليوم التالى(٨٥) وقف حضرة توفيق بك نسيم قائلا : بأن النيابة العمومية تطلب معاقبة المتهم الأول (الغاياتى) بالمواد ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥١ و ١٥٤ و ١٥٦ و١٥٩ و ١٦٠ من قانون العقوبات لوضعه وطبعه كتاب « وطنيتى » ، ثم ردد ماقاله بالأمس قائلا : لقد وضع هذا الشاعر المفتون ذلك الكتاب ، ووسمه بوطنيتى، فلاحيا الله وطنية تجعل آلة للحصن على اجتراح السيئات ، وبث

---

(٨٥) جريدة « اللــواء » ، العدد ٣٣٤٧ ، فى ٧ اغسطس سنة ١٩١٠ ، ص ٢ و ٣ و ٤ ٠

التعاليم التى تفسد القلوب وتذيق الناس بعضهم بأس بعض ، بل لا بارك الله فى وطنية تلبس كما يلبس الثوب مقلوبا فتؤلم النفوس وتفتن الخواطر ... ثم قال : ما لهؤلاء الشعراء والكتاب يفسدون الأخلاق بما يقولون ويكتبون ، انتصارا لأنفسهم بعنوان الوطنية ، والكتاب كما يعرفون هم من مجموع الأمة بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الانسان ، فصلاح حالهم وكتاباتهم مصلح لحالها ، وفسادها مفسد له .

ثم نشرت « اللواء » كلمات الدفاع(٨٦) ، وكيف أن عبد السلام افندى ذهنى قال : اننا لانطلب الا احقاق الحق وازهاق الباطل ، فليعلم حضرات القضاة أن الصحافى يكتب ويتصور ان فوقه سيف قانون المطبوعات ، فارأفوا بهؤلاء الصحافيين التعساء !! ، أما أبو شادى بك فقال : انه كتب فى مذكرته الخاصة أبياتا شعرية أشد وطنية وحماسا وتهيجا من أبيات الغاياتى ، الذى لن يساوى أصغر الشعراء بجوار احمد نسيم وشوقى بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية ، وحافظ افندى ابراهيم وخليل افندى مطران ، أما محمد بك على فقال : أن المتهم (يقصد الشيخ جاويش) يتقدم الى حضرتكم وكله يقين بأن القانون المصرى الذى يفك عن المتهمين بالقتل قيودهم وأغلالهم ، مادموا فى حرم القضاء وذمته احتراما لمقام الحكم وتأييدا لحمية الدفاع لايسمح طبعا أن يعقل اليوم لسان المتهم عن أن يشكو بثه وحزنه اليكم وأنتم الأمناء على رعاية القانون وملجأه الأعلى وكلمتكم هى الحد الفاصل بين الحق والباطل ...

ومع ذلك ، فلقد وافق « الجناب الأفخم عباس حلمى باشا خديو مصر » على حكم محكمة جنايات مصر ، فى قضية النيابة

---

(٨٦) جريدة « اللـــواء » ، العدد السابق ، ص ٥ و ٦ ، ، وكذلك العدد ٣٣٤٨ ، فى ٨ اغسطس سنة ١٩١٠ ، ص ٢ .

العمومية (نمرة ٦٧ سايرة الازبكية لسـنة ١٩١٠) بالحكم على الشيخ على الغاياتى غيابيا بالحبس لمدة سنة مع الشغل ، مع تبرئته من تهمة التحريض على القتل ، والحكم على الشيخ جاويش بالحبس ثلاثة أشهر حبسا بسيطا ، مع التنفيذ بتهمة تحسين ماجاء فى كتاب وطنيتى ، والحكم على الشيخ القزوينى ودياب أفندى الياس بالحبس شهرين مع ايقاف التنفيذ ٠

ومن قرائتنا « لحيثيات الحكم فى قضية الغاياتى »(٨٧) فهذه هى أبيات الشعر التى على أساسها تم اصدار الحكم السابق :ـ

ـ تحت عنوان : « طيف الوطنية » ص ٣٤ يقول :ـ

وولاة أقسـموا أن يسـجدوا
كلمـا رام العـدا منهـم مرامـا

ـ تحت عنوان : « الى سمو الأمير والوزارة والأمة » ص ٥٦ يقول : ـ

الا أمطـر الله الوزارة نقمـة
ولا بلغـت ممـا تـروم مرامـا

تحـاول أن تقضـى علينـا باثمهـا
ولكـن سـتلقى دون ذاك اثـاما

وزارة خـداع أقامتـه بيننـا
يـد الحـاكمـين الآثمين فقـاما

ـ بعد الحكم على الشيخ جاويش ص ٦٧ يقول :

---

(٨٧) العدد ٣٣٤٨ من جريدة « اللـواء » فى ٨ اغسطس سنة ١٩١٠ ، ص ٥ ٠

ياليــت شــعرى هـــل بـــدا
فـــى مصــــر يـوم أقمتـــم

حتـــى تحـــاربنا الحكـــو
مـــة عندمـــا نتألـــم

وتســـومنا ســـوء العقـــو
بـــة حينمـــا نســـترحم

– والى أعضاء الحكومة تحت عنوان « احتقار ام اغتصاب ؟» يقول ص ٧٤ : –

فتزلـــزت أقـــدامكم مـــن هولهـــا
وهـــرعتموا فـــزعا الـــى الابواب

ورضيتموا الهـرب المعيـــب لأنـــه
خيـر من الافـــلاس عنـد حساب

– ثم يقول صفحة ٧٥ للوزارة : –

عـــار عليكـــم أن يقـــال وزارة
لـــم تـدر ان سئلـــت بيان جواب

هربـت فرارا مـن ميادين السـؤا
ل وســـجلت ما ســـجلت من عـــاب

– وفى صفحة ٧٧ يقول فى « أهة مصرى ينوح على مصر »:

ظلمـــــات مـــن المظـــالم أودت
بضـــياء الحيـــاة بعـد الحيـاة

يشتكـى الشـعب والقضـاة خصوم
فلمـن يشـــتكى خصـام القضـــاة

ـ ثم يقول الغاياتى موجها حديثه الى « سمو الأمير » ص ٥٥ و٥٦ :

ونيأس مـن آمالنـا فيـك كلمـا
قضـيت علينـا أن نكـون غضابـا

وارضيت اعـداء البـلاد وأهلهـا
وأصليتنا بعـد الوفـاق عـذابا

رويدك يا عبـاس لاتبلـغ المـدى
ولا تسـتمع للظالمين خطـابا

ـ ثم لتقريظه جريمتى دنجرا الهندى (الذى قتل السيركيرزون ويللى) والوردانى (لقتله بطرس باشا غالى ناظر النظار) ، فيقول « الى دنجرا قبل الاعدام » ص ٦٠ و ٦١ : ـ

هنيئا فقـيد الهنـد نلـت مدى المجد
وخلدك التاريخ فى مصـر والهند

وقدمت نفسـا للفـداء كبيـرة
لتبعث وجـدا فى النفوس على وجد

يمـوت ولكـن لايمـوت جهـاده
وعما قريـب تصبـح الهنـد للهندى

ـ والى « دنجرا بعد الاعدام » صفحة ٦١ يقول :

كيـف أرثيـك دنجـرا بمقـال
يـدعى القـوم أنـه اجـرام

مـت بالأمس والممـاة حيـاة
خلدتـها لذكـرك الأيـام

فسلام عليك والدمع جار
وسلام وفى القلوب ضرام

ـ والى ابراهيم افندى ناصف الوردانى يقول ص ١٠١ :

هل خال ابراهيم عند وفاته
أملا من الآمال دون حياته

حتى كأن الموت من رغباته
ليكون فى الأحياء بعد مماته

ـ والى ناظر الحقانية (وزير العدل) صفحة ٦٣ و٦٤ يقول الغاياتى :

حكمت فلم تنصف وقلت فلم تصب
ورمت مراما دونه الله والناس

وبحت بأسرار الوزارة معلنا
وأبديت مالم يبد غالى وعباس

فأغضبت فى مصر القضاء وأهله
وأرضاك أن يرضى خوؤن ودساس

فلانك بعد الآن للعدل موئلا
فغيرك بعد الآن للعدل حراس

وحارب بسيف الظلم من شئت بيننا
فغاية مايغنى عن الظلم افلاس

ـ وأخيرا فهو يقرظ الشيخ جاويش صفحة ٦٨ قائلا له :

ياساكن السجن الكريـ
ـم وأنت نعم الأكرم

ما السجن للشرفاء الـ
ـلا رفعة وتنعم

انت البرىء ومن يخا
لك مجرما هو مجرم

***

((محاكمة الزعيم محمد فريد))

ذكرنا أن معظم القصائد التى احتواها كتاب « وطنيتى » لعلى الغاياتى ، سبق للصحف نشرها فى حينها ، ولم تجد النيابة فيها ما يستدعى المحاكمة ، الا أن الوزارة - أخذا بسياسة الشدة التى انتهجتها حيال الحركة الوطنية - أوعزت الى النيابة بالتحقيق فيما ورد بالكتاب ، فأمرت بمصادرته ، وأخذت تحقق مع مؤلفه ، ومع الشيخ جاويش ، وأصدرت حكمها المتقدم ، أما الزعيم محمد فريد ، والذى اشترك أيضا فى تقديم الكتاب ، فقد كان أثناء التحقيق فى أوروبا يدافع عن قضية مصر ، وقد أرجأت النيابة اجراءاتها معه حتى يعود(٨٨) ...

واذا كان من الثابت ان الزعيم قد كتب مقدمته دون أن يطلع على محتويات الكتاب ، بل وقبل أن يتم الاستاذ الغاياتى من وضعه ، فلقد سلمها اليه فى فبراير سنة ١٩١٠ ، بينما الكتاب لم يظهر الا فى يوليو سنة ١٩١٠ ، وكان الزعيم قد سافر الى أوربا فى ٥ مايو ، فلم يكن من سبيل الى أن يراقب مايحتويه الكتاب ، أما المقدمة فى ذاتها فليس فيها ما يؤاخذ عليه ، ومهما قلبت الطرف فى عباراتها ، لاتجد فيها أية مسئولية قانونية ، ومع ذلك عدته النيابة شريكا للمؤلف فى التهمة ، ولقد كانت الحكومة تريد بالحكم المتقدم على

---

(٨٨) عبد الرحمن الرافعى ، **محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية** ، ط ٣ (القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

الشيخ جاويش ألا يعود فريد بك الى مصر ، وقد أشاع خصومه أنه اعتزم أن لايعود خوفا من الحكم عليه ، فنفى هذه الاشاعة وهو فى أوروبا ، ونفاهـا عنـه أصـدقاؤه والأقربون فى مصر ، ويرى الرافعى(٨٩) أنه بلغ من تأصل الوطنية الصحيحة فى بيت الزعيم أنه تلقى من كبرى كريماته خطابا بتاريخ ١٤ أغسطس ، ترغب اليه فى الحضور ، قالت : « ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ماحكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم ، وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم » ، وختمت خطابها بقولها : « وأختم جوابى بالتوسل اليكم باسم الوطنية والحرية . التى تضحون كل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا ، وتتحملوا آلام السجن » · فهذه البطولة التى تتجلى فى ذلك الخطاب الكريم هى ثمرة الوطنية الحقة التى غرسها الزعيم فى أقرب الناس اليـه واعزهم لديه ·

وقد بدأت النيابة العمومية فى التحقيق مع الزعيم ، اثر عودته الى مصر فى أواخر ديسمبر سنة ١٩١٠ ونظرت القضية أمام محكمة جنايات مصر يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١١ ، فانعقدت المحكمة برئاسة المستر دلبروجلى ، وعضوية كل من أحمد ذى الفقار بك وأمين بك على ، وجلس فى كرسى النيابة محمد توفيق نسيم بك ، وحضر الزعيم غير مصطحب أحدا من المحامين ، اكتفاء بأقواله فى التحقيق ، وأن التهمة فى ذاتها لا أساس لها من الحق والقانون ، فلا تحتاج الى دفاع ، وقد سأله رئيس الجلسة عنها ، فأجاب قائلا : « فى الوقت المنسوب الى فيه تقريظ الكتاب كنت غائبا عن مصر ، لأنه ظهر فى آخر يونيه ، وأنا سافرت الى أوروبا فى ٥ مايو ، أما المقالة فكتبتها قبل صدور الكتاب ، ولا علم لى بالمسائل التى فيه ، لأن كثيرا منها

---

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ·

حدث ونظم شعره فى غيابى ، ولما كتبت المقالة كتبتها باعتقاد أنها مما لايعاقب عليه القانون » ، فقال رئيس الجلسة : انه لايمكن لواحد أن يكتب عما لايعتقده ، فكتابتك تدل الاستحسان لما فى الكتاب ، فأجاب الزعيم : « أنا لم أحسن الكتاب ، لأنى كتبت المقالة بدون أن أتعرض لما فى الكتاب ، وهى مما يصح أن ينشر فى جريدة أو مجلة أو كتاب ، وأنا قصدت بكتابتى الشعر من حيث هو »(٩٠) ، وقد صدر حكم المحكمة بحبس الزعيم ستة أشهر مع النفاذ ٠

وقد علق الرافعى على ذلك بقوله(٩١) : « ٠٠٠ وتبين للجميع أن القصد من رفع الدعوى العمومية لم يكن محاكمته على أمـــر معاقب عليه ، وانما هو التنكيل به وبالحركة الوطنية ، والقاء الرعب والفزع فى صفوف أنصارها ، لينصرف الناس عنها ، تفاديا من مثل هذا الاضطهاد الذى لقيه الرئيس » ، « ٠٠٠ ان الزعيم لـــم يحاكم من أجل المقدمة التى كتبها ، بل من أجل موقفه العدائى من الاحتلال والحكومة ، وأن الغرض من محاكمته انما هو ارهابـــه ومعاقبته على اخلاصه فى جهاده » ، « لقد كانت المحاكمة مأساة قضائية ووطنية وأخلاقية ، تلقى ظلا كثيفا على الحركة الوطنية » ٠

---

(٩٠) جريدة « **اللـــواء** » ، العدد ٣٤٨٧ فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ ٠

(٩١) « **محمد فريد رمز الاخـلاص والتضحية** » صفحات ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ ٠

« أقوال الصحف فى قضية الغاياتى »

علقت الصحف جميعا على الأحكام التى صدرت فى قضية « وطنيتى » للغاياتى ، ولم ترض عنه واحدة منها لأنه « صادر ضد رجل من ذوى الأقلام » وقد استوت فى ذلك صحف المسلمين والاقباط والأجانب(٩٢) ، خاصة جريدة « المقطم » ــ المعروفة بميولها الاحتلالية ــ التى « شق » عليها « وهاج » عواطفها أن يصدر ذلك الحكم على خصيمها العتيد ، « وكأن ذلك الخصم القديم قد انقلب فى شعورنا دفعة واحدة الى صديق حميم »(٩٣) .

وقالت جريدة « الأجبشيان جازيت » : بأن الدلائل تدل على أن النيابة لاتعمل بمفردها فى تحقيق قضية الغاياتى ، بل ثمة يد انجليزى من وراء ستار لادارة التحقيق »(٩٤) .

وتحدثت (لوبرو جريه) قائلة بأن الجزء الأكبر من كتاب الشيخ الغاياتى عبارة عن ترجمة لقطع من الأدب الأوروبى ــ تقصد الأناشيد الوطنية الفرنسية ومنها المارسلييز ــ وأنها لم تر فيه الا تبسيطا يناسب العقلية المصرية ، ولكنه يهدف الى جذب القارىء بافهامه « أن محاربة الانجليز وحلفائهم ، والخديو وحكومته ، عمل

---

(٩٢) و (٩٣) « **العلم** » فى ١٩١١/١/٢٧ ، و « **المقطم** » فى ١٩١١/١/٢٣ ، من ابراهيم عبده ، مرجع سابق ، ص ٢٠١ .

(٩٤) أنور الجندى ، **تطور الصحافة العربية فى مصر** ، (القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٧) ص ١٩٦ .

من الأعمال الوطنية »(٩٥) ، ولكنها عادت مرة أخرى تتحدث عن هذا الكتاب فقالت انه مؤلف سياسى لا أدبى ، ولم يكن أمامها من دليل تذكره الا أن محمد فريد بك والشيخ جاويش قدماه الى القراء ، ونادت الصحيفة بأنه اذا كانت النيابة قد وجهت التهمة الى الشيخ الغاياتى ، فيجب أن توجهها أيضا الى الاثنين الآخرين(٩٦) ·

وقد كتبت جريدة « ايجبت شاناخر شتن » مقالا عنيفا كل العنف تحمل فيه على الحكومة حملة شعواء ، وتدافع عن فريد بك دفاعا لم نشهده فى أكثر الصحف العربية وطنية · وتساءلت عن الجريمة التى اقترفها زعيم الحزب الوطنى ، وقررت أن مقدمة الكتاب لم تخرج عن كونها دراسة أدبية عامة ، وأبدت دهشتها من أن هذه المقدمة كتبت قبل اصدار الكتاب بشهرين ، وأن أكثر القصائد التى ضمها الكتاب كانت قد نشرت فى جريدة (اللواء) دون أن تتخذ الحكومة أى اجراء حيالها ، ولذا لم يدر فى خاطر فريد بك أن مافى الكتاب يقع تحت طائلة القانون ، بدليل عدم اهتمام الحكومة بما نشر فى (اللواء) ، واستبعدت الصحيفة عن نفسها شبهة مهاجمة الحكم فى ذاته خوفا من أن ينالها مانال غيرها ، ولكنها ذكرت فى صراحة أنها لاتصفق لهذا الحكم ولا توافق عليه ، وأنها واثقة كل الثقة من أن القضاة قد أصدروا حكمهم لا عن عاطفة صحيحة ولا عن تبصر معقول صادق ، ولكنهم نفذوا حرفية القانون ، « والقانون فى ذاته هو الشىء ، مادام يؤدى الى هذه النتائج الخرقاء » . واستطردت الجريدة فى كلامها قائلة ان الحكم على فريد بك كان نتيجة طبيعية « لما اختطته الحكومة لنفسها من نهج خلال السنتين

(٩٥) محمود نجيب أبو الليل ، **الأمانى الوطنية والمشكلات المصرية فى الصحف الفرنسية** ط ١ (القاهرة ، مطبعة التحرير ، ١٩٥٣) ص ٢٠٤ ، العدد الصادر فى ١٢ يوليو سنة ١٩١٠ .

(٩٦) عدد ١٦ يوليو سنة ١٩١٠ ، عن المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

الماضيتين حيال الصحف والنشر والاجتماعات ، من انذار وتعطيل للصحف ، وسجن ونفى للكتاب والخطباء »(٩٠) ٠

وقد طالب ريمون كولرا فى « ليجبت » : سمو الخديو أن يستعمل حقه فى العفو عن فريد بك ، ذاكرا أن الرأى العام جميعه ، والصحفيين منه خاصة يشاركونه هذا الرجاء(٩٨) ، ولكن « ايجبتشاناخر شتن » تذكر أنها لاتكتفى بذلك بل ترجو أن ترجع الحكومة عن تصرفاتها حيال حرية الرأى ، وتنتهج لنفسها خطة جديدة نحو الصحف الوطنية والاجنبية ، تقوم على الأفكار الحديثة فى الحرية والتساهل ، وأن هذه الفرصة هى أنسب الفرص لاتخاذ هذا الاجراء ، الذى يكون له أثره الحميد بين مختلف طوائف الشعب المصرى ، فتطبق بذلك المثل القائل « رب ضارة نافعة » ، فربما كان الحكم على فريد بك ، على مافيه من ضرر ، له أكبر النفع فى أن تعود الحكومة فتقرب مابينها وبين الشعب الذى تحكمه(٩٩)

وعن « كيف تقرظ الكتب ؟ » نشرت « اللواء » مقالة بتوقيع «طائف» يقول فيها ـ تعليقا على قضية تقريظ «وطنيتى» للغاياتى(١٠٠)

---

(٩٧) فى العدد الصادر يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١١ ، من المرجع السابق ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ٠

(٩٨) فى العدد الصادر يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١١ ، من المرجع السابق ، ص ٢١٧ ٠

(٩٩) فى العدد الصادر يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١١ ، من المرجع السابق ، ص ٢١٧ ٠

(١٠٠) جريدة « **اللواء** » ، العدد ٣٣٣١ فى ١٩ يوليو سنة ١٩١٠ ، ص ١ ٠

بأن التقريظ فى هذا البلد أصبح ضربة لازب على كل كاتب يطلب منه ، فان تخلى عنه فانه لايتخلص من استماع عبارات تقريظ المؤلف لكتابه ، الا باستماع عبارات الالحاف والتوسل فى الرجاء والعتاب الثقيل ، ويطالب حضرات المؤلفين بارسال كتبهم الى المرقظين مع البريد ـ وليس مع أنفسهم ـ ليكون لهم الوقت الكافى للاطلاع ، ويطالب المؤلفين الذين يحبون أن تقرظ كتبهم بلا بحـــث ولا نظر . بالاحتجاج على القوانين الجديدة ، وقانون المطبوعات ، بشدة تماثل شدة الحكومة الحاضرة ، لتعود المياه الى مجاريها ·

ثم تعلق الجريدة ـ فى نفس العدد ـ بقولها « ليس كل مايكتب فى المدح والرثاء والذم حقيقى ، فان أكثره مبـــالغ فيه ، وانـــه لايستنهض الهمم ، والدليل على ذلك قول شوقى بك :ـ

(والشـعب ان رام الحيـاة كبيـرة
خاض الغمـــار دمـا الـى آمالـــه)

وعلقت « الاهرام » بأن مثل هذا النوع من المحاكمات ـ محاكمة محمد فريد بك ـ سيكون محضاة يحرك الجمر الذى غطاه الرماد ـ رماد السكون والهدوء(١٠١) ·

***

---

(١٠١) جريدة « الأهـرام » ، ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ·

(الفصـــل الثـــالث)

(هجرتى بعد وطنيتى)

- فى الآستانة
- ثم الى جنيف
- منبر الشرق
- الى مصر مرتين

« فى الآســتانة »

بعد أن اصدر الشيخ على الغاياتى « وطنيتى » فى منتصف عام ١٩١٠ ، وحدث بعدها ماحدث من تطورات ، أدت الى فراره خارج الوطن ، فرارا استمر ٢٧ عاما ، عزم خلالها على أن يجمع مقالاته فى الخارج ، وقصائده الشــعرية ، فى كتاب يســـمى « هجرتى » ، وقد ظلت هذه الأمنية تلازم الغاياتـــى منذ عودته نهائيا الى مصر سنة ١٩٣٨(١) ، حتى قبل وفاته الى رحمة الله بأربعة أشهر ، حيث نشر تحت عنوان « هجرتى بعد وطنيتى »(٢) يقول : « كنا نرجو منذ أعوام خلت أن نستطيع القيام بجمع وطبع كتاب (هجرتى بعد وطنيتى) وهو مجموعة نادرة لما سطرناه شعرا ونثرا فى خـــلال غربتنا الطويلة ، ولكنا لم نوفق لانجاز ذلك الى الآن ، ونحن اليوم نجدد هذا الرجاء ، وسنعمل قريبا على تحقيقه بعون الله » ٠

وفى هذين الفصلين (الثالث والرابع) ، نحاول أن نحقق أمنية ذلك المجاهد الوطنى ، والتى لم يستطع أن يحققها ، ويخرجها الى النور ، فى حياته ٠

***

---

(١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد الثالث ، فى ١٢ يونيو سنة ١٩٣٨ ، ص ٨ ٠

(٢) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٧٤ ، فى ٤ مايو ســنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

ذكرنا أن الغاياتى خرج من القاهرة يوم الثلاثاء ٥ يوليو سنة ١٩١٠ ، قاصدا الاسكندرية فى طريقه الى تركيا ، وقـــد تعرف بالقطار على ضابط تركى ، قدم له نفسه باسم آخر هو (على محمود) ولكن الضابط التركى ظل يناديه طوال الرحلة بمحمود صـــالح أفندى !! ، وقد سافر الغاياتى بدون جواز سفر ، حيث أن ذلك لم يكن له أهمية فى ذلك الوقت ، وعندما وصلت « الباخرة الخديوية » الى استانبول ، قال الغاياتى للضابط ، أنه أخفى عنه حقيقة أسمه لأنه كان فارا من وجه السلطات البريطانية ... ، وأن اسمه هو : على الغاياتى ، فضحك الضابط طويلا ، وأخذ يتجاذب معه أطراف الحديث ، فلما استأذن منه للانصراف ، وقف يودع الغاياتى وهو يقول : « مع السلامة محمود صالح أفندى !! » ، وقد روى مراسل جريدة « المقطم » فى الاستانة ـ الاستاذ ابراهيم النجار ـ رواية أخرى ، يقول فيها(٣) : انه اجتمع بالشيخ على الغاياتى ، فحدثه فى أسباب فراره ، فأنبأه ـ بعد أن أعطاه نسخة من ديوانه ـ بأنـــه طبع منه ألفى نسخة وزع منها ألفا وستمائة قبل سفره (فى الفصل الأول قال ألف نسخة فقط) .

كما أخبره بأنه قد غير ملابسه الأزهرية وارتدى طربوشا ، وحمل شمسية زيادة فى التخفى عن أعين البوليس ، وقد التقى بكبير من رجال الضبط ، فخاف أن يعرفه ، وكان معه كتاب من صاحب جريدة « دار الخلافة » التى تطبع فى الاستانة ، لوكيلــه يقول له فيه ، بأنه يأذن « للغاياتى » فى تحرير الجريدة عند وصوله. فمزق « الغاياتى » ذلك الكتاب ، حتى اذا قبضت الحكومة عليــه لاتتهمه بالفرار من وجه القضاء ، الا أن رجل الضبط هذا لم يستطع التعرف على : « الغاياتى »

---

(٣) نقلا عن جريدة « اللـــواء » ، العدد ٣٣٣٧ ، فى ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠ ، ص ٤ .

وقد نظم « الغاياتى » قصيدة طويلة عند بدء فراقه للوطن العزيز ، وهو على سطح الباخرة فى الاسكندرية يوم ٦ يوليو . بعنوان « هجرتى بعد وطنيتى » يقول فيها :

وعند فراق الثغــر أســيلت دمعة
ورب فــراق انكرتــه المدامــع

لئــن كــان غيرى قــد عصته دموعه
فان عصــى الدمــع عندى طائع(٤)

وفى « الاستانة العلية » ــ كما يقول الغاياتى ــ علــم بأن الحكومة بدات فى تفتيش المنازل والمكتبات ، والمحلات ، عن اى نسخة من ديوانه ، حتى ان ثمن النسخة منه ارتفع من خمسة قروش الى مائة قرش ، ومع ذلك لم يصل الى يد « الغاياتى » الا ستة جنيهات فقط ، حملها اليه أحد اصدقائه الذين وفدوا اليه من القاهرة ، وقد علم ايضا « الغاياتى » هناك ، بأن محكمة الجنايات فى مصر ، قد حددت لمحاكمته ومحاكمة الشيخ جاويش يوما محددا ، وكانت جنح النشر والصحافة تنظر أمام محكمة الجنح ، الا ان الحكومة عدلت القانون، وجعلت الاختصاص فى نظر قضايا الصحف جميعا ــ ولو كانت جنحا ــ لمحكمة الجنايات ، وكان اول تطبيق لهذا التعديل فى قضية ديوان « وطنيتى » ! .

وعندئذ ارسل « الغاياتى » كتابا الى جريدة « الاهرام »(٥) ، به جزء من مقدمة كتابه ، وان هذه المقدمة تحتوى على عدة أغراض وشؤون وطنية ، لم يطلع عليها احد من قبل « فأين كان فريد بــك

---

(٤) مختــار الوكيل ، مرجع سابق ، ص ٣٠٨ .
(٥) عن جريدة « اللــواء » ، العدد ٣٣٣٨ ، فى ٧ يوليو سنة ١٩١٠ ، ص ٤ .

والشيخ عبد العزيز ، أما والله انهما لأبعد عن سوء مايظنون وأبرأ الناس من أسراري وغاياتي » ، ثم يقول : « ماذا جنيا وقد جئتهما راجيا أن ينفحاني بكليمات من كلماتهم الحكيمة في الشعر وتأثيره في تربية الأمم قائلا لهما عن حسن نية : اني سأجمع مانظمته في الحوادث الوطنية في كتاب أسميه (وطنيتي) وقد شئت أن يكون لكتابي ميزة بقولكما وخطكما ورسمكما ، وأنتما أعلم بأني لا أعني بالنظم في غير الشئون التاريخية النافعة ، وقد عرفتما مما نشرته في « اللواء » و « العلم » مذهبي في الشعر فعسى أن تجيبا رجائي بعد ذلك ، وقد سألتهما اجابة هذا الرجاء المرة بعد المرة حتى أجاباه ،ولم يريدا أن يجعلا كلمتيهما تقريظا بحتا لكتاب لم يعرفا محتوياته الا قليلا بل سلكا مسلك الحكمة فيما كتباه » ، وأكد الغاياتي على أن فريد بك قد أعطاه كلمته « مسودة » وقد سافر الى أوروبا ، وهو للآن لم ير كتابه ، ولم يعلم من أمره الا انه متهم أمـــام الحكومة لأجله !

كما قال الغاياتي في كتابه السابق « للاهرام » بانه قد تعرف في رحلته الى الآستانة ، مستشرقا ألمانيا ، وعد بترجمة كتابه الى الالمانية والفرنسوية ، وهو يريد السفر معه الى المانيا أو سويسرا ، ليتعلم ماشاء ، ويقضي رحلته في خمس ســـنين يعود بعدها الى مصر ، ولكننا لم نتأكد من قيام هذا المستشرق بتلك الترجمة .

وقد شاع في أنحاء مصر – والغاياتي كان مايزال في استانبول – بأن الغاياتي قد غادر الاستانة في طريقه الى سويسره ، لعلمه بأن الحكومة المصرية بعثت تطلب من الاستانة تسليمه اليها ، وقد رجحت جريدة « اللواء » بأن الحكومة المصرية لن تطلب تســليم الغاياتي من الحكومة العثمانية ، لانها اذا فتحت هذا البـــاب ، سألتها الحكومة العثمانية ان تسلمها جميع الرجعيين المقيمين في

مصر ، وكثيرون منهم قد صدرت عليهم أحكام من المحاكم ، ثم قالت الجريدة : « على انه اذا كان فى نية الحكومة أن تطلب تسليم الغاياتى ، فانما تطلبه اذا صدر عليه حكم لا قبل الحكم »(٦) ٠

وقد نشر الغاياتى قصيدة طويلة فى الاستانة ، بعد أن علم بتفتيش البوليس لداره فى القاهرة ، وكيف أن البوليس تركها على أسوأ حال ، يقول فيها(٧) :

فماذا رأى العـــادون فى دارى التى
أحـــن اليهـــا كلمـــا راح لامـــع

لقـد أبصـروا الأقـلام والكتب بينها
فياليتهـا اذ أبصـــروهـا مدافـــع

وعند مرور الزعيم محمد فريد بالاستانة قادما من أوروبا فى طريقه الى مصر ، ذهب الغاياتى لمقابلته ، وعـــرض عليه ـ من منطلق الوطنية ـ أن يعود معه ، لو كان فى ذلك تحسين لمركزه أمام القضاء المصرى ، أو تخفيف لمسئوليته ، ولكن فريد رفض هذه الفكرة وبقى الغاياتى فى استانبول ، حيث ذهب بعد ذلك لزيارة فريد بك بفندق (تاكو تليان) الشهير باستانبول ، فدخل بعض الضباط الشبان فى الجيش التركى ، فقدم فريد بك أحدهم الى الغاياتى وهو يقول : « عزيز على المصرى » وكانت هذه هى المرة الاولى التى يتعرف فيها بذلك الضابط ، الذى عاد الى مصر بعد انتهاء الحرب العالميـــة الأولى ، وشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، وكان القائد الروحى لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ٠

---

(٦) جريدة « اللـواء » ، العدد ٣٣٣٩ ، فى ٢٨ يوليو سنة ١٩١٠ ،

(٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد الثانى ، ٥ يونيو سنة ١٩٣٨ ، ص ٨ ٠

ويقول الغاياتي في ذكرياته في الاستانة(٨) ، بأنه قد نشر قصيدة طويلة في مجلة من أشهر المجلات التركية التي كانت تصد هناك اذ ذاك واسمها « صراط مستقيم » وجعل عنوانها « هجر بعد وطنيتي » ، وقد أسمع هذه القصيدة قبل نشرها لكل من المرحو محمد بك فريد ، وكان معه المرحوم عزت شـــكري بك ، وذلك في صباح احد الايام بقهوة (طو قتليان) الشهيرة ، فحازت الرضا والاستحسان ، ولكنها لم تحز مثل ذلك بالطبع لدى ذوي الأمر هنا في تلك الأزمان الغابرة ، يقول في بدايتها : ــ

ايمنعني خـوض الكريهـة مانــــع
وهذا يــــراعي قــد برتـه المعامـع

بلوت الليـالي وهـو سـود عوابس
وعـدت فعادت وهـي بيض نواصـع

وفيها يقول أيضا :

ولســت أرى سـجن الكـرام مهـانة
ولكنـه للمجـد والحمد جامـع ٠٠!

فـان سـجنوا (عبد العزيز) فانــه
لــه بين حبـات القلـوب مرابـــع

ورامـــوا (فريدا) مثلـه وترقبـوا
لقـاه ، وفي هذا اللقـــاء مصــارع

اذا كنت بالتاليـف أصـبحت جانـيا
وسـجني عـاما فيه للحر قامع ٠٠ !

---

(٨) جريدة ((منبر الشرق)) ، العدد الثالث ، ١٢ يونيو سنة ١٩٣٨ ، ص ٨ ٠

فمـا كان تقريـظ الكتـاب جنـاية
ولكن أعـداء البلاد تخـادع .. !

لقـد حبسـوها فرصـة فتربصـوا
عسـى أن تروع الشعب تلك الزعازع

وما الشـعب الا صـارم جـاد صقله
وكـل سـيجنى منه ما هـو زارع

الى أن قال :

وما (هجرتى) من مصر هجرة هاجر
لهـا أوجبـان روعتـه الروائـع

ولكنهـا والشـعب يشـهد هجـرة
لهـا اثـر بيـن المحـامد شـائع

فتحت بهـا حصـنا فمـن شـاء أمه
وبـات بـه يرمـى العدا وهو دارع

وقد تولى « على الغاياتى » عند وصوله الى دار السـعادة (استانبول) ، رياسة تحرير جريدة عربية أسبوعية ، كانت تصدر فى عاصمة السلطنة العثمانية تسمى « دار الخلافة » ، كان صاحب امتيازها « عبد الوهاب عبد الصمد » وهو شاب من طرابلس الغـرب (بليبيا) كانت له صلات متينة برجال الاتحاد والترقى فى تركيا ، والحزب الوطنى فى مصر ، وقد كتب على رأس الجريدة فى أول الأمر أن المدير المسئول ورئيس التحرير هو : « الشيخ ع.غ » ، ثم استعيض عن ذلك ــ بعد قليل ــ بالاسـم الصـريح : « على الغاياتى » ، فحل محل الشيخ ع.غ المذكور ، وقد صودرت بالطبع هذه الصحيفة فى القطر المصرى بسبب مقالات مديرهـا الجديد الملتهبة حماسة وشبابا !

وقد كانت هذه الجريدة أقرب الى صوت الحزب الوطنى فى الخارج ، فقد هاجمت الوجود الاحتلالى بأقصى عنف وشبهت طغيان الانجليز بطغيان السلطان عبد الحميد ، كما لم تتوان عن نشـــر أشعار تهاجم الخديو وذلك فى عددها الصادر يوم ١٣ ســبتمبر سنة ١٩١٠ ، وتطالبه بالثورة وسفك الدماء ، وأكثر من ذلك أن كل أعداد « دار الخلافة » تقريبا قد امتلأت بتمجيد ذكرى الوردانى »(٩) (ابراهيم ناصف الوردانى الذى قام باغتيال بطرس باشا غالى رئيس الوزراء المصرى فى فبراير سنة ١٩١٠) ٠

وقد نشر « الغاياتى » فى جريدة « دار الخلافة » فى عددهـا الصادر يوم ٩ من رمضان سنة ١٣٢٨ هـ الموافق ١٣ من سبتمبر سنة ١٩١٠ م ، قصيدة تحت عنوان : « مصر ودار الســعادة » يقول فى مطلعها(١٠) :

دار الســعادة هــل أتــاك مخبـر
يشكو لديـك شـــقاء مصر وينشر ؟

النيـل من حمــر المدامـــع فائض
والوجـد فــى أحشـــائه يتســـعر

لهفــى على النيل الحــزين وشـعبه
وفــؤادى المضـــنى بـــه يتفطـــر

وقد غادر الغاياتى استانبول يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٠ ، متجها الى جنيف ، مارا بفينا ٠

---

(٩) يونان لبيب رزق ، الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ ــ ١٩١٤) (القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٧٠) ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ٠

(١٠) جريدة « منبر الشرق » ، العدد الثامن ، فى ١٩ يوليو ١٩٣٨ ، ص ٨ ٠

(ثم الى جنيف)

وصل الغاياتى الى جنيف قادما من الاستانة مساء يوم السبت ٣ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وذلك بقطار الشرق الذى غادر الآستانة مساء الثلاثاء ٢٩ نوفمبر ، مارا بفيينا عاصمة النمسا فى مساء الخميس التالى . أما لماذا اختار هذه المدينة بالذات فيقول : لأنه سمع من محمد فريد أن بها عددا غير قليل من شباب العرب وفدوا اليها من أقطار عربية مختلفة ، وانهم فى حاجة الى من يدرس لهم اللغة العربية ، ولما تهيأ للسفر الى جنيف اهتم بتعلم اللغة الفرنسية ، وكان قد بدأ يتلقى بعض دروس فيها فى مصر ، فى تلك المدرسة التى انشأها الشيخ جاويش ، ليتعلم فيها الشبان الأزهريون هذه اللغة ، ويلموا بشىء من الثقافة الحديثة ، فلما هاجر (الغاياتى) الى استانبول ، استأنف دروسه فى الفرنسية على يد مدرس يهودى بها ، كما كان يعلم نفسه بقراءة اسماء المحال التجارية المكتوبة على اللافتات ، وفى هذه الفترة وصل الدكتور محمود عـــزمى (الصحفى المشهور ، وأول عميد لمعهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة القاهرة) الى استانبول ، فألتقى بالغاياتى وغيره من الشبان المصريين واللاجئين ، الى عاصمة الخلافة ، وقد أطلع عزمى ــ الذى كان مايزال طالبا ضمن البعثة العلمية المصرية الى باريس ــ خطابا ورد من خطيبته الفرنسية ــ والتى تزوج منها فيما بعد ــ الى الغاياتى واخوانه فى قهوة (مسرة) باستانبول ، وقد اعتبر الغاياتى الاستماع الى هذا الخطاب درسا فى الفرنسية !!

وقد استقبل الغاياتى على محطة جنيف عند وصوله(١١) ، أحد الطلبة المصريين الوطنيين وهو الأستاذ خليل مدكور (الموظف الآن بادارة الأزهر الشريف ـ سنة ١٩٥٤) ، ومع ذلك فلقد كان احساس الغاياتى بالغربة عن أرض الوطن فى بداية الأمر ، شديدا لدرجة جعلته ينظم شعرا « باللغة العامية » يقول فيه(١٢) :ـ

يانيـــــل أنــــا بشـــكى الهـــوى
مـــن يـــوم ماشـــفتك فـــى هـــوان

حبـــــــك رمــــــانى بالنــــوى
ورمــــــاك بأشــــجانى كمـــــان

ومن طريف ذكرياته الأولى فى جنيف(١٣) ، أنه بعد أن خلع الزى العربى ، وارتدى القبعة والبدلة ، أراد أن يسجل لنفسه صورة بالعمامة والجبة والقفطان توديعا لزيه ، فذهب الى أحد المصورين بهذا الزى ، وتصادف أن السويسريين كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم القومية ، ويسمى « عيد التسلق » ، وهو عيد يلبس فيه السويسريون ملابس تنكرية ، فظن الاطفال ، أن الغاياتى يشارك فى هذا العيد بهذا الزى الغريب ، فالتفوا حوله ، وأخذوا يشيرون اليه مبتهجين ضاحكين ، وهو يحسب أنهم يضحكون من عمته وجبته ، وهم فى واقع الأمر . معجبين باختياره زيا لم يفطن أحد الى ارتدائه !!

وكان أول ما اتجه اليه اهتمام الغاياتى ، هو البحث عن الشبان

---

(١١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٠٨ ، فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٥٤ ، ص ١ .

(١٢) جريدة « منبر الشرق » ، العدد السادس ، ٣ يوليو سنة ١٩٣٨ ، ص ٨ .

(١٣) فتحى رضوان ، **عصر ورجـال** ، ص ٣٠٨ ـ ٣١٠ .

العـــرب الذين قال عنهم فريد .أنهم كثيرون فى جنيف . وانهم فى حاجة الى مدرس فى اللغة العربية ، فلم يجد لهم اثرا ، فاضطر الى عرض نفسه على ادارة معهد (لانس) لتعليم اللغات ، ليعلم بـــه العربية لمن يحب أن يتعلمها من السويسريين والاوربيين الآخرين ، وفى هذا الوقت كان الخديو عباس قد عزل من عرش مصر (تولى السلطان حسين كامل عرش مصر من بعده يوم ١٩ ديسمبر ســنة ١٩١٤) ونشر فى الصحف أن ولديه عبد المنعم وعبد القادر سيفدان الى جنيف ، وسيلحقان فيها بمعهد (لانس) ، وفى ذات يوم كان الغاياتى فى أحد أبهاء هذا المعهد ، فلقى شابين مصريين ، فوقف يتجاذب معهما الحديث فقال انه سمع أن ولدى الخديو سينخرطان فى سلك هذا المعهد ، فأمن الشابان على هذا القول ، فتســاءل : متى ياترى سيحضران ؟ فقال أحدهما : أنهما حضرا الى المعهد بالفعل ، فقال الغاياتى : وأين هما الآن لأراهما ؟ فقال الشاب :

« انهما معك ·· يتحدثان اليك !! » ·

وكان من بين الطلبة المصريين الذين عرفهم « الغاياتى » فى جنيف ، شاب وطنى كريم اسمه « الأمير العطار » ، كان قد ســبق أن عرفه فى مصر قبل هجرته ، وكانت خطيبته ، ثم قرينته السويسرية الشقراء ، واسطة فى معرفة الشيخ « على الغاياتى » بصديقة لها ، لم يلبث أن اقترن بها بعد ذلك ، وكان « الأمير العطار » أحد شاهدى عقد الزواج ، والشاهد الثانى هو الأستاذ « خليل مدكور » ·

وبعد زواج « الغاياتى » بدأ يتطلع الى تعلم اللغة الفرنسية بدرجة اكبر ليتمكن من الدراسة فى الجامعة ، وكان هو قد رغب فى الالتحاق بكلية العلوم الاجتماعية ، وقدم طلبا بالفعل باعتبار أنه كان طالبا بمعهد دمياط ، وهو تابع للأزهر الشريف ، والأزهر عندهم يعتبر من أكبر الجامعات العربية ، وقد قبلوه فعلا بسجل

الطلاب الجامعيين فى يناير سنة ١٩١١ ، وأخذ يحضر الدروس والمحاضرات المختلفة ، وكانت تعينه فى دراسته خطيبته ثم زوجته السويسرية ، فكانت تكتب له المذكرات ، وتعينه فى فهم اللغة الفرنسية وايضاح ما يستعصى عليه فهمه من عباراتها ،ولكنه بعد أن بقى بالجامعة ثلاث سنوات ودرس فيها البرنامج المطلوب وسواه ، لم يتقدم لأى امتحان ولم يحصل على شهادة جامعية لأنه لم يستطع القيام بالالتزامات المالية ، وكان قد سبق أن تزوج وأنجب ، ودهمته الحرب العالمية الأولى ، فقلت موارده لسفر أكثر تلاميذه الى ديارهم ، ولغلاء المعيشة(١٤) ٠

وقد بدأ « الغاياتى » فى مراسلة صحيفة الحزب الوطنى حينذاك وهى « العلم » ، من مقر اقامته فى جنيف ، مقابل ثلاثة جنيهات فى الشهر ، كانت تعينه ــ لو استمرت ــ على تكاليف الحياة هناك ، حتى يجد عملا ، ولكنه لم يتلق سوى مرتب شهرين اثنين فقط ، انقطع بعدهما وروده اليه ، وقد حزن حزنا شديداً بعد معرفته سبب ذلك ، فقد علم فيما بعد أن أحد الأشخاص ــ لم يذكر اسمه ــ اقترح للدفاع عن « محمد فريد » أن يقال أن « الغاياتى » كان مدسوسا عليه من الحكومة ، والظاهر أن هذا الاقتراح « الطائش » ــ وان كان قد رفض ــ الا أن الألسن تداولته ، وفى ظل هذه البلبلة التى أحدثها ، رؤى أن يقطع صلة جريدة الحزب بالغاياتى ٠٠ « وهكذا يساء الى الابرياء برعونة البلهاء » ، الا أن الغاياتى استطاع أن يحصل على قوت يومه بتدريس اللغة العربية لبعض الشبان المصريين والعرب القليلين الذين كانوا يطلبون العلم فى جنيف ٠

وقد علم الغاياتى وهو فى سويسرا ، بأن الاحداث فى مصر (خاصة بعد استقالة وزارة محمد سعيد باشا فى ٣ ابريل سنة ١٩١٤ ، وتشكيل وزارة جديدة برئاسة حسين رشدى باشا فى ٥

---

(١٤) مختار الوكيل ، مرجع سابق ، ص ٣١٢ ــ ٣١٣ ٠

أبريل) أن يشارك بقلمه وأفكاره فأرسل الى جريدة « الاهرام » ، مقالا تحت عنوان « الوحدة الوطنية المصرية »(١٥) يقول فيها : « أقدم اليكم تحيتى واحترامى ، وادعوكم الى مايدعونى اليه ضميرى ويبعثنى عليه وجدانى من العمل على جمع كلمة الأمة ، ومحو مايفرقها شيعا وأحزابا ، ويحول بينها وبين الوحدة الوطنية التى قلما يجدى شىء بدونها فى تحرير البلاد ، وبلوغها المبلغ المأمول ، وأسألكم بحق مصر عليكم أن تكتبوا فى هذا الموضوع الأساسى لرقى الوطن وحياته كلمة ، بل كلمات ، تدعون فيها المصريين كافة الى الاتحاد والوئام بدل الانقسام والخصام ، وتبينون لهم ضرر تعدد الأحزاب ، وتفرق الكلمة ، وتشيرون عليهم بأن يستبدلوا بهذه الأحزاب (١٦) ، حزبا واحدا هو « حزب الوحدة الوطنية » الذى يجب على كل مصرى عاقل أن يعمل على ايجاده ، والانضمام اليه ، حبا فى مصر ، وانقاذا لها من الهاوية التى رماها فيها رامى الخلاف والتفريق ، والتى لايمكن خلاصها منها مادامت على هذه الحال ... »

وقد علق رئيس تحرير « الاهرام » فى نفس العدد (الصادر يوم ٨ ابريل سنة ١٩١٤) بكلمة بليغة مسهبة أقر فيها الغاياتى على ماكتبه ، حتى لايتدخل الانجليز فى كل صغيرة وكبيرة فى البلاد ، ولأن « الوحدة الوطنية المصرية ، هى وحدها سفينة النجاة ، بل سلم الرقى والنجاح والاخلاص ، فمن أحب مصر عمل لها وحدها

---

(١٥) ابراهيم عبده ، جريدة الأهرام : تاريخ وفن ، (القاهرة ، سجل العرب ، ١٩٦٤) ص ٣٣٥ ، وقد أعاد الغاياتى نشر مقالته فى جريدته « منبر الشرق » ، العدد ٣٣٧ فى ٥ يناير سنة ١٩٤٥ ، ص ١ .

(١٦) وهذه الأحزاب هى : الاصلاح على المبادىء الدستورية ـ الوطنى الحر (الأحرار) ـ الحزب الدستورى ـ النبلاء ـ المصرى ـ الأمة ـ الوطنى ـ ، راجع : يونان لبيب رزق ، مرجع سابق ، ص ٢٣ : ٧١ .

دون سواها ، ومن كان حربا عليها ، كان حربا على مصر لايريد بها خيرا ، ولا يرعى فيها ذمة ولا آلا » ٠

وكانت البداية الحقيقية للعمل فى جنيف ، هى عمل الغاياتى بالترجمة والكتابة فى الصحف السويسرية ٠٠ أكثرها فى جنيف ، وبعضها فى لوزان وغيرها ، فعمل فى أكبر وأوسع صحفها وهى (تربيون دى جنيف) و(جورنال دى جنيف) و (لاسويس) ، كما راسل جريدة (جازيت دى لوزان) بمدينة لوزان وكانت تدفع له ثلاثين فرنكا عن المقال الواحد ، وقد انتهى به الأمر الى أنه أصبح يتقاضى من (تربيون دى جنيف) مرتبا شهريا قدره ٣٠٠ فرنكا ، بعد أن كان يتقاضى مكافآت عن القطع التى يقدمها فقط ، وقد ظل الغاياتى فى هيئة تحرير هذه الجريدة عشرة أعوام (من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢٤) وأصبح كسائر محرريها ، عضوا فى نقابة صحافة جنيف(١٧) ٠

* * *

(١٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٣٠ ، فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، ص ١ ٠

(منبر الشرق)

(La Tribune d'Orient)

ولكن لما قامت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ ، وأخذ الغاياتى يدافع عنها ويدعو لها ، قل ماكانت تنشره الصحف السويسرية له ، وقد كان النشاط الصحفى محجورا عليه فى مصر والخارج خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد استمرت الصحافة بين التضييق والتيسير ولم يكن هناك محل لصحف مصرية تصدر فى أوروبا ، خاصة بعد ان بدأت حياة مصر تستقر فى الداخل ، لولا الغاياتى (ذلك المصرى ذو التاريخ فى الحزب الوطنى(١٨) فلحسابه الخاص ، أصدر جريدة عربية فرنسية اسماها بالعربية : « منبر الشرق » وبالفرنسية : «La Tribune d'Orient» ، وكان المرحوم الاستاذ رياض الصلح (رئيس الوزراء اللبنانى بعد الحرب العالمية الثانية) قد اقترح عليه ان يسميها « منبر العرب » ، ولكن الغاياتى آثر أن تكون جريدته لسان حال حركات التحرير فى الشرق كله ·

ويروى الغاياتى فى ذكرياته(١٩) عن تلك التجربة الفريدة فى تاريخ صحافتنا المصرية ، وكيف أنها كانت تصدر فى أربع صفحات ثلاث منها باللغة الفرنسية ، والرابعة باللغة العربية ، ولما لم تكن هناك

---

(١٨) ابراهيم عبده ، **تطور الصحافة المصرية** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦ ·

(١٩) جريدة ((منبر الشرق)) ، العدد الاول ، فى ٦ مايو سنة ١٩٣٨ ، ص ١ ·

فى جنيف مطبعة عربية ، فقد كان الغاياتي يكتب هذه الصفحة من أولها الى آخرها بخطه ، ثم تحفر على الزنكوغراف . فاذا وقع فيها خطأ واحد ، لم يشطبه بل يعيد كتابة الصفحة من أولها الى آخرها ثانية ، وتسمى هذه الطريقة بالألمانية (مانول) ، ولكن هذا المجهود أضناه ، أمام صفحة واحدة كثيرة المتاعب ، كبيرة النفقات، فأشترى حروف مطبعة عربية من ألمانيا ، وتعلم صف الحروف ، وتولى بنفسه جمع حروف هذه الصفحة ، ولكنه لم يجد لهذه الصفحة العربية ــ والتى كانت تتقاضاه من الجهد ، مالا تتقاضاه الصفحات الثلاث الأخرى ــ صدى عند العرب ، فرأى الاكتفاء باصدارها باللغة الفرنسية ، وهى لغة البلاد التى تصدر فيها ، والأوساط التى تريد مخاطبتها ، وقد نمت وترعرعت وانتشرت فى الشرق والغرب ، وبات لها ذكر حسن واسم معروف ، وخاصة فى مركز جمعية الأمم التى عملت فيه ما استطاعت على خدمة مصر والشرق والاسلام ، ويرجع الفضل فى نجاحها كما يقول صاحبها ·· اليه والى بعض البيوتات التجارية فى جنيف والتى أمدته باعلاناتها ، ثم يحمل على المصريين البخلاء ذوى المال والجاه « الذين لايزالون مدينين لهذه الجريدة بالكثير أو القليل » ··

وقد صدرت « منبر الشرق » بالفرنسية أو « تريبيون دوريان » فى يوم الأحد ٥ فبراير سنة ١٩٢٢ (٩ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠)، واستمرت تصدر فى انتظام عجيب حتى يوم الأربعاء ٢٦ مايو سنة ١٩٢٧ (١٦ ربيع أول سنة ١٣٥٦) وسط صعوبات مالية وسياسية فوق كل تصور ، صمد لها الغاياتي فى استبسال وصبر جديرين بكل اعجاب ، وان لم يظفر من مواطنيه بالتأييد والمعونة ، فى وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة الى مثل هذه الجريدة التى سمابها صاحبها فوق الخلافات الحزبية ، لتبقى خالصة للوطن ، لاتعرف الا مصر ، ومصلحة مصر ، وأن يكون الشرق للشرقيين ·

وعندما دخلت الجريدة (السنة العشرون) وكان الغاياتى قد عاد الى مصر ، نشر فى جريدته « منبر الشرق »(٢٠) ، صورة لمكتب الجريدة فى سويسرا الحرة ، وكان فى شارع من أهم شوارع جنيف الجميلة ، والعلم المصرى يخفق على احدى نوافذه ، وكذلك صورة زنكوغرافية للعدد الأول الذى صدر بجنيف يوم ٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وقد أعلن الغاياتى فى صدرها « بأنها جريدة نصف شهرية أنشئت للدفاع عن حقوق الشرق الناهض ــ تصدر بالعربية والفرنسية فى جنيف مركز جمعية الأمم » ، وان الاشتراك السنوى :

فى سويسرا ١٠ فرنكات وفى الخارج ٢٠ فرنكا ٠

كما نشر داخل برواز فهرست القسم الفرنسى ويشتمل على :

الى القراء ــ الشرق والغرب أو الاســـلام والنصـــرانية ــ اضطراب الشرق وحالة ايران ــ « المذابح ! » ــ المسألة السورية ــ شؤون مصر ــ رسالة على بك كامل ــ نداء حرم زغلول باشا ٠

وهذه هى نص مقالة على الغاياتى فى العدد الأول ــ الصفحة العربية ــ وكانت تحت عنوان « ما أردناه ومانرجوه » : « ان الاعوام الطويلة التى قضيناها فى هذه البلاد ، وخصوصا ابان الحـــرب الكبرى ٠ قد علمتنا كثيرا من مرامى السياسة ، ومآدب الصحافة ومعانى الجهاد القلمى ، واسرار نشر الدعوة ، ادركنا كذلك مقدار مصاب الشرقيين بانفسهم أولا ، وبالغرب الطامع فيهم ثانيا ، فلم نجد خيرا من اصدار صحيفة شرقية فى هذا الوسط همها الدفاع عن حقوق الشرق الناهض ، وتقريب مسافة (الخلف) بينه وبين الغرب ذى القوة والسلطان ، والبطش والعدوان ، ولما كانت جنيف قد باتت

---

(٢٠) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ١٣٨ ، فى ٧ فبراير سنة ١٩٤١ ، ص ١ ٠

مركز جمعية الأمم ، ومرصد سياسة العالم ، كان من الواجب فيها المبادرة بنشر تلك الجريدة لتحمل الى هذه الجمعية المباركة ما قد لا تعلمه من الام الشرقيين ومن امالهم ، وتساعدها بذلك على القيام بمهمتها من اقامة معالم العدل ، ونشر لواء الاخاء والسلام بين الأمم والشعوب ، هذا ما أردناه ومانرجوه والله الموفق » .

أما مقالة الغاياتى الثانية ـ في الصفحة العربية من العدد الأول الصادر فى جنيف يوم ٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فكانت تحت عنوان « سعد باشا » ، حيث كان سعد باشا زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، فى منفاه مع خيرة صحبه ، وكيف استقبله شعب وادى النيل قبل عشرة أشهر ، ثم ينظم فى « سعد باشا زغلول » قصيدة طويلة يقول فيها :

نظموا فيك أيها العلم
دررا قيل انها كلم

وهل عندى أجل جوهرة
حملت تاج مصر لو علموا

بك ياسعد هام شاعرهم
مثلما هام النيل والهرم

وجرت فيك من قصائدهم
أبحر من النور والحكم

الى أن قال :

طال عهدى بموقف الشعرا
ء و بينى وبينهم ذمم

ان نسونى فما نسيتهمو
أو جفونى فما جفوتهمو

ان أمـــت او أعيش بقيـــت علـــى
العهد أشـــقى بـــه وقـد نعمـــوا

هيـــج النفس ذكـــر مصـر فبـــا
ت عصـــــــى القـريض ينتظـــم

ومن الحنين الى الوطن فى العدد الأول الى محنة الاسلام فى العدد الثانى فيقول :

ادركـــوا الاســـــلام فـــى دولتـه
هتـــك العـــادون مـــن حرمتـه

أمطروا النيـــران فـــى أوطانـــه
صـــعقوا الأرواح فـــى أمتـــه

حاولـــوا تمزيقـــه فـــى أرضـــه
ومضــــى كـــل الـــى طعنتـــه

الى أن يقول :

ولعمـــرى نحـن أسـباب الـــردى
فلنـــذق ما مـــر مـــن صـــدمته

قـد اضعنـا الديـــن والدنيـا فلـم
نتحـد الغـرب فـــى نهضـــته(٢١)

***

وقد تزوج « على الغاياتى » فى جنيف بسيدة سويسرية فاضلة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ورزق منها بولد ، وخمس بنات ، وقد كان يلقى المصريين فى داره ، فيحتفى بهم ، ويســـرف فى الحفاوة

---

(٢١) عن مختار الوكيل ، مرجع سابق ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩ .

ويخدمهم ، ويتفانى فى الخدمة ، ثم لا ينفك يتحدث معهم عن مصر ، ونيل مصر ، وجو مصر ، فاذا سمع غناء مصريا هطلت الدموع من عينيه على خديه ، كأنه طفل ذكر أمه ، فاجتاحته نوبات الحنين ، وقد تحدث ارحوم « أحمد حسين » زعيم «مصر الفتاة»(٢٢) ، عن جنيف ومكانة الاستاذ الغاياتى فيها ، حيث كانت بحق عاصمة العالم الدولية ، فهى مقر « عصبة الأمم » ، ومدينة المؤتمرات العـــالمية ، لاينفض فيها مؤتمر حتى ينعقد مؤتمر ، ولا يغادرها عظيم من رؤساء الحكومات أو وزراء الخارجية أو كبار الكتاب الدوليين ،حتى يفد عليها عشرات من هذا الطراز ، وكان « أحمد حسين » قد أعـــد رسالة ليقدمها الى سكرتارية عصبة الأمم ، فصحبه « الغاياتى » الى مقر العصبة ، فكان « الغاياتى » موضع الترحيب والاجلال من كل موظف كبير هناك ، وكان الناس يحييونه فى الطريق تحية الحب والتقدير ··· وما أن سلم الغاياتى هذه الرسالة الى مندوبى وكالات الأنباء ، حتى نشرت فى عشرات الصحف والمجلات ·

* * *

---

(٢٢) فتحى رضوان ، **عصر ورجـال** ، ص ٢٩٦ ·

(الى مصر مرتين)

ولما انقضت ثلاث سنوات على الحكم الصادر ضد الغاياتى وسقط بانقضائها ، بدا له أنه يستطيع أن يسافر الى مصر ، فعرض على بعض الصحف السويسرية أن يكتب لها تحقيقا صحفيا عن الحالة فى منطقة قناة السويس ، وكانت ميدانا هاما من ميادين القتال فى الحرب العالمية الأولى ، فرحبت تلك الصحف بذلك الاقتـــراح ، فاستأذن الغاياتى فى الدخول الى مصر ، فأذنت له السلطات بذلك ، فسافر اليها فى ١٥ يوليو سنة ١٩١٥ ، ولما وصلها زار من يعرف من كبار الشخصيات · وكانوا أنذاك يقضون الصيف فى الاسكندرية ومن هؤلاء محمود باشا شكرى رئيس ديوان السلطان حسين كامل الذى ارتقى عرش مصر بعد عزل الخديوى عباس ، كما زار أحمد زكى باشا (شيخ العروبة) وكان سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء ، ولكن الغاياتى بعد أن استمتع بالحرية سبعة أيام ، ملأ خلالها صدره من هواء بلاده ، ورأى مواطنيه ، صدر أمر باعتقاله وارســـاله مقبوضا عليه من الاسكندرية الى القاهرة ليقابل رئيس الوزراء حسين رشدى باشا ، ووضعوه فى حراسة مخبر من رجال البوليس السرى لم يكن يعرف القاهرة ، فتولى الغاياتى ارشاده الى ديوان المحافظة. ولما قابل رئيس الحكومة فهم منه أن المعلومات التى وصلت اليه تؤكد أن الغاياتى جاء الى مصر ليدبر دسائس لحساب الخديو المعزول (عباس) ، فأخرج من مصر ، وهو لايدرى لماذا سمحت له السلطات البريطانية بدخول مصر من البداية ، اذا كانت تشـــك فى نواياه ، ولماذا أبقته طليقا سبعة أيام ، ثم اعتقلته ، ثم رحلته

الى الخارج ، والطريف أنه حينما اعيد الغاياتى الى الاسكندرية توطئة لترحيله منها ، أودع أيضا فى حراسة بوليس سرى لم يكن قد عرف الاسكندرية من قبل ، فتولى الغاياتى مهمة ارشاده فيها ، كما تولى ارشاد زميله السابق ، عند ارساله الى القاهرة ، وقد حمل الغاياتى على حسين رشدى باشا رئيس الحكومة ، حملة شديدة بعد عودته الى جنيف ، فأرسل اليه رشدى باشا قائلا : ان صدرى معرض للرصاص ، فلا تهمنى حملات الاقلام » !

هذه كانت هى المرة الاولى التى يأتى فيها على الغاياتى الى مصر ، أثناء هجرته في جنيف ، أما المرة الثانية فكانت فى صيف سنة١٩٣٣، وقد نشر ذلك تحت عنوان «عاد للنيل فتاه»(٢٣)، وكانت تصحبه فى تلك الزيارة كبرى بناته (جميلة) وفيها يقول بأنه لم ير وطنه المحبوب منذ تسعة أعوام ، وقد أمضى فى الزيارة الثانية شهرا واحدا أقامه على ضفاف النيل ، لم ينقع له غلة ، أو يرو أواما ، فلما غادر الربوع بكاها ، وطار فؤاده شوقا اليها ، ولقد تمثلت امامه الديار على بعد المزار ، بجمالها الرائع ، فزاد اليها حنينا ، وبها هياما ، ووافاه شيطان الشعر بعد أن هجره طويلا ، فقال وهو يرى بعين الخيال بهاء الوادى وجلاله الخالد :ــ

مصر هــذا فتـاك وافـاك شيخـا
كـاد لـولا الهـوى يـدب دبيبـا

بعـث الوجـد فيـه ساعة مـرآ
ك شـبابا ونشـوة ولهيبـا

فكـأن الحيـاة قـد وثبـت عشـ
ـرين عـاما الـى الوراء وثوبـا

---

(٢٣) جريدة « منبر الشرق » ، العدد السادس ، فى ٣ يوليو سنة ١٩٣٨، ص ٨ .

وكــأن الســنين بعـــد نـــواه
كـــن وهـما وان تركـن المشيبـــا

وكـــأن الفــراق كـــان وصـــالا
وكـــأن المـــزار كـــان قريبـــا

وكـــأن التغريـــب أصـبح تشــريعا
كمـــا أصــبح الشـمال جنوبـــا

وجنيف ليســـت جنيف التى آوتـــ
ـــه دهــرا ورحبــت ترحيبـــا

هى مصــر ، وهـل يـرى غير مصر
مـن بهـا ظـل مستهاما ســـليبا

عــز أو هـــان كل شـــىء لديـــه
قـد تلاشـــى ، عـدا الحمى المحبوبا

تلـــك أحـــلام عاشـــق وطـــنى
حكـم الدهـــر أن يعيش غريبـــا

الى أن قال :

حـب مصر أقصـاه عـن مصر حتى
ظـن من طـول النـأى الا يؤوبـا

قـــام يشـــدو بحبهـــا وبهـا من
قبـل أمســـى مشـــببا تشـــبيبا

كما نظم شعرا عن سوء الأحوال السياسية الحزبية فى مصر يقول فيها :

ومـــا الأحــزاب مســـعدة ولا زعمـــاؤها الكـــثر

اذا مــاطــاب للبــاغــى بمصــــر الكـــــر والفــر
وأصــــبح بيـــن ظهرينــا لــــــه من دوننـــا الصــدر

الى أن قال :

فــلا الدســـتور فى أمـــن ولا الـــوزراء والقصـــــــــر
ولا اســـتقلال فى بلـــــد بـــــه العـــادون قـــد قروا
معاقلــــــه لهــــم حصـــن ونحــــــن لجنـــــدهم أزر
ولــــولا أننــــــا شـــيع يحـــارب شطرنـــا الشـــطر
لمـــا أضــحى لهــم ظـل ولا أمســى لهــم ذكـــــر !

وهى بحق من عيون الشعر الوطنى كما يقول الاستاذ الدكتور مختار الوكيل(٢٤) – والذى ينبىء عن الحكمة والموعظة الحسنة ، وتلك صفات اكتسبها الشاعر فى غربته ٠

* * *

(٢٤) مختار الوكيل ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .

(الفصـــل الرابـــع)

(منبر الشرق)

- المعودة نهائيا
- فى جريدة « السياسة »
- جريدة « منبر الشرق »
- أهم القضايا التى آثارها
- « وطنيتى » مرة أخرى
- فى انتخابات المجلس النيابى
- « هجرتى » الثانية
- وفاته وآخر مقالاته
- رثاءه وملامحه الشخصية

(العــودة نهائيــا)

قبلت مصر عضوا فى عصبة الامم ، فخيل لعلى الغاياتى ، أن دوره فى أوروبا قد انتهـى ، وأن بلاده قد تكون فى حاجة اليه ، بعد تجربة طويلة شاقة فى الصحافة والسياسة ، وبعد صلات واسعة مع زعماء العرب والشرق ، وزعماء الغرب ، وبعد أن شهد الاحداث العسكرية والسياسية للحرب العالمية الأولــى ، ثم ماتلاهــا من مؤتمرات ومعاهدات ، كما رأى نشوء عصبة الامم فى جنيف ، وحضر مداولاتها ، وسمع أشهر خطبائها ٠

وقرر الغاياتى العودة نهائيا واسرته الى وطنه ، بعد غربة استمرت سبعة وعشرين عاما ، فخرج من جنيف مساء الثلاثاء ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٧ فوصل الى الاسكندرية يوم الاثنين ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٧ ، وكان الأمل معقودا على أن يعمل الغاياتى فور عودته ، بوظيفة حكومية فى وزارة الخارجية ، حسب الوعود والعهود التى سمعها من كبار المسئولين ، ولكن الله لم يكتب له النجاح فى هذا السبيل ، لأسباب يعلمها الاحتلال ، وأذناب الاحتلال ، على حــد تعبيره(١) ٠

أما أول مقال خطه قلم الغاياتى ، بعد أوبته الى أرض الوطن

---

(١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٦١ ، فى ٣ فبراير سنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

العزيز ، فكان تحت عنوان « الملك المحبوب » ، وقد نشره فى جريدة « الجهاد » لمحمد توفيق دياب ، وكانت جريدة وفدية ، وذلك فى عددها الصادر يوم الخميس ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧ ، وقد أعاد نشر المقالة ثانية فى « منبر الشرق »(٢) ، مجددا العهد ، ومرددا آيات الولاء الخالص لجلالة صاحب العرش المفدى ، بمناسبة فاتحة العام الثانى من عهد ملك الفاروق السعيد ، وفى نهاية المقالة ، يعيد نشر أبيات الشعر ، التى رفعها « للسمو السلطانى » بمناسبة مولد الفاروق يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ ، وفيها يقول :

فاروق وافيت والاهرام مائجة
بالحادثات وقلب النيل ملتهب

فهل تعيد لمصر عهد (فاتحها)
أو عهد (منشئها) والدهر مضطرب

جدد اذا مابلغت الرشد رشدهما
وأسلك سبيل فتى للنيل ينتسب

كن حيثما كنت مصريا فلا شرف
للتاج ان لم يزنه ذلك اللقب

ونلاحظ على هذه الأبيات أنها ليست مدحا ولا نفاقا للملك فاروق ، فلقد نظمها الغاياتى عند مولده ، وفيها تحس بروح الانتماء للنيل وللوطن ، والتى يحب الغاياتى للفاروق ، أن يكون لهما منتسبا مخلصا ...

---

(٢) فى عددها العاشر ، الصادر يوم ٢ أغسطس سنة ١٩٣٨ ، ص ١ .

كما وجه الغاياتى للملك فاروق سنة ١٩٣٨(٣) ، أبياتا شعرية، يشير فيها الى هجرته خارج الوطن ، وعودته ثانية بدون مـــال ولازاد ، وكيف أن الدنيا تقف له بالمرصاد ، فى ايجاد وسيلة رزق حلال يتعيش منها ، كما سنرى عندما ترفض الحكومة ـ وكانت وفدية فى ذلك الوقت ـ باعطائه رخصة لاصدار جريدة ، ويقول الغاياتى :

أعيـــادك الغــر يافاروق أعيـــادى
وسلوتى فى زمـــان خـــادع عـــاد

لـــم يبق لـــى هم هذا العيش من أمل
يبقى ســــواك لابنــــائى وحفادى

نأيــت عن وطنى دهــرا وعــدت لــه
كمـــا نأيـــت بــلا مـــال ولازاد

وجـــاء عيدك يغنيلـــى ويســــعدنى
وان أقامـــت لـــى الدنيــا بمرصاد

عـــم الكنانة بشـــر عنـــد طلعـــته
فاهنـــأ بـــــه وبـــه فليهنأ الوادى

***

---

(٣) جريدة « منبر الشرق » ، العــدد الأول ، ٦ مايــو ســـنة ١٩٣٨ ، ص ١ .

فى جريدة ((السياسة))

ذكر الغاياتى فى العدد الأول من جريدته « منبر الشرق » ، بأن الاقدار شاءت له أن يصبح محررا أو رئيسا لتحرير جريدة « السياسة » اليومية ، فى عهدها الجديد ، الذى أريد لها فيه أن تكون قومية قبل كل شىء ، حتى أنهم حذفوا من رآسها ماكان يدل على انها لسان حال حزب معين (هو حزب الاحرار الدستوريين)، فكتب افتتاحية العدد الاول ، وواصل نشر بعض المقالات — وقد بلغت سبعا — باسمه فى الصفحة الاولى ، وقد أراد فيها أن يكون مصريا مستقلا بكل معنى الكلمة ، ولعل ذلك لم يرق لبعض الناس ، ولهذا فقد انقطع عن مقالاته ، مكتفيا بكتابة السياسة الخارجية (نظرة عامة فى سياسة العالم) بامضاء ع٠غ ، والذى أعاد نشرها مرة ثانية فى « منبر الشرق » ٠

وقد اهتمت الصحف الاوروبية فى مصر ، بتلك المقالات ، وترجمتها لقرائها ، معلنة بوضوح مجمل مايرمى اليه الغاياتى من الاغراض الوطنية النبيلة ، التى أخذ على نفسه أن يجاهد فى سبيلها ، منذ عاد الى الصحافة تحت سماء مصر العزيزة ٠

فى أولى المقالات يقول الغاياتى(٤) : « اذا كان لهذا القلم الذى اغترب سبعة وعشرين عاما ، نائيا عن وطنه المحبوب من أجل

---

(٤) جريدة ((السياسة)) ، فى ٢ ابريل سنة ١٩٣٨ ٠

« وطنيتى » ، والذى مابرح فى غربته كل هذه السنين يذكر مصر ، ويحن اليها ويجاهد فى سبيلها ، أن يسطر اليوم كلمة يفتح بها « السياسة » فى عهدها الجديد ، ويطلع بها على القراء بعد عودته الى حظيرة الصحافة فى وادى النيل ، فانه يقول :

« باسم الكنانة واسـم شعب ناهض
لا باسم مجـد زائـف وطـلاء »
« كـل يزول وينقضى أمـا الحمـى
فوديعـة الآبـاء للابنـاء »

فى هذين البيتين كل مايرمى اليه كاتب هذه السطور من المعانى وما يقصده من المبادىء التى سيسير على هـداها ، ويعمل على انتشارها وانتصارها فيما يكتب جاعلا نصب عينيه دائما مخافة الله تعالى ، وارضاء الضمير وحب الوطن والاخلاص للعرش » ٠

ثم يؤكد الغاياتى على أن الاسلام هو دين الدولة ودين بنيها الا قليلا ، وان مصر مدينة له بتحريرها قديما ، وتقدمها حديثا ، وبأن الأزهر الشريف هو الحصن الحصين للدين الحنيف ، وان الامة كلما اقتربت من تعاليم هذا الدين ، واهتدت بهديه سعدت ونجت ، وكلما نأت عنه ضلت وشقيت ، ثم يحذر من تقليد الغرب ، فى غير مانحن فيه بحاجة من علم وفن ، يهدم الاخلاق والوطنية على ضفاف النيل السعيد ، سواء للمسلمين أو غيرهم ، لأن الاسلام سيبقى أبدا دين واحسان وتسامح ٠

ثم يقول الغاياتى : « وان هذا اليراع بعد ذلك لن يصول أو يجول فى ميدان الشتائم التى امتازت بها وأسفاه بعض الاقلام فى فى هذا الزمان ، بل سيعود بالقارىء الى العهد السابق ، الذى

عرفه منذ ثلاثين عاما ، حيث كانت الأخلاق قويمة ، والوطنية نزيهة والسياسة شريفة ، بالنسبة لما وصلت اليه الحال من التدهور فى هذه الأيام ، وسيكون رائده على الدوام خدمة المصلحة العامة ، والفكرة القومية المستقلة ، ومحاربة الجهل والدس والانقسام . داعيا ما استطاع الى جمع الصفوف ، واتحاد الكلمة تحت لواء العرش الخافق بحب مصر أم الجميع الخالدة المحبوبة ..

كفـــى ما مـــــر من جهـــل
أبــــاه الديـــن والفكـــر

ومن خلـــف اذا اســـتعصى
دواه فانـــــه القبـــــر

لنصــــبح واحــدا فـــردا
فـــلا زيــــد ولا عمـــرو

فنحــــن لمصــــر أبنـــاء
ونعمـــــت أمنـــا مصـــر

ووادى النيـــــل وادينـــا
وفـــاروق لنـــا ذخـــر

وفى مقالته الثانية ، بعنوان « ماهذه الوطنية !»(٥) نراه أكثر جرأة وحبا لمصر ، وهو يقول : « ماعجبت لشىء منذ عدت الى بلاد العجائب ، مصــر العزيزة ، عجبــى لقــوم يزعمون أن الوطنية وقف عليهم ، ويرمون سواهم بكل عيب ، ويتهمونهم بكل تهمة ، ثم يكونون هم أبعد الناس عن الوطنية الصحيحة ، التى « تعمل كثيرا وتتكلم قليلا » ، كما وصفها بحق المرحوم قاسم بك أمين » .

---

(٥) جريدة « السياسة » ، فى ٣ ابريـل سـنة ١٩٣٨ .

وتأخذ الغاياتى الدهشة ويتضاعف عنده العجب ، لهؤلاء القوم ، الذين لم يكتفوا فقط باحتكار الوطنية ، ولكنهم يحتكرون ايضا كل ألفاظ السباب التى يسرفون فى نعت غيرهم بها ، خاصة « الخيانة » التى رموا بها أكثر أهل الرأى والفكر والسياسة فى مصر ، ويرى أن البلاد بريئة من هذه التهم الاثيمة ، فأبناء مصر يشتركون جميعا فى حبها ، ويرمون سعادتها ، ويناضلون من أجل حريتها واستقلالها وعزتها ، وهم وان تفرقوا شيعا وأحزابا ، وتعددت وسائل الجهاد لديهم ، واختلفت طرق السير بهم ، انما يسعون فى الحقيقة الى غرض واحد هو خدمة مصر ، ونفع مصر ، واعلاء ذكر مصر ، فخير للقوم اذن أن يذروا مثل هذا السلاح الساقل ، والا ارتد سهمهم الى نحرهم ٠٠٠

ثم يتساءل ٠٠ لماذا لاتكون الوطنية الا حيث يكونون ؟ أليس فى الارض متسع لغيرهم ، وفى سماء الفكر موضع يطل منه نجم غير نجمهم ، على هذا الكون الفسيح ؟ ثم لماذا يريدون أن يتحكموا فى ارادة الأمة ، ويفرضوا نياتهم عنها فرضا لا مفر لها منه ، حتى اذا أبت ذلك يوما عليهم زمجروا وثاروا وسبوا الشمس والقمر ؟ وعلى هذا الأساس ٠٠ فان الغاياتى يرى بأن الوطنية قد تكون فى السياسة وغيرها ٠٠ وقد تكون فى غير ميدان السياسة خيرا منها وأعم فائدة ، لأن عددا النواب قليل محدود ، وانه من المتعذر بالطبع أن يصبح كل مصرى نائبا أو سياسيا ، وأن أعمال الاصلاح المتعددة فى شتى الشؤون تتطلب مجهودا فوق مجهود النائب والسياسى ، وأنها أبقى للامة بنتائجها النافعة من ألف نيابة ، وألف سياسة ، وألف برلمان ! ٠

ثم يطالب بلم الشمل وجمع الكلمة ، واذا كان النحاس باشا ومن معه قد أخطأوا تقدير الأمور وجعلوا المصلحة الشخصية فوق

المصلحة القومية فلا يحسن بغيرهم ، أن يتبع طريقتهم ويسير على سياستهم ، التى قادتهم الى الفشل والخسار ، ثم يختتم مقالته بقوله : « الوطنية ليست اذن ما قالوا ومايقولون ، وانما هى العمل والجهاد فى كل ميادين العمل والجهاد ، وهى ايست ملكا لفريق من الأمة دون فريق ، بل هى عاطفة سامية تبعث الجميع على خدمة الوطن ، وتبث فيهم حبه ، وتنهض بهم الى نصرته ، والدفاع عنه ، ورفع شأنه ، وتقديس اسمه الخالد المجيد ، هذه هى الوطنية الصادقة ، أما الأخرى فهى ليست منها فى شىء » ٠

وعن مصر من الوجهة الداخلية ، وكيف أنها فى أحوج ماتكون الى الاصلاح ، وصولا الى الدولة ذات الشأن البارز ، والاستقلال الحقيقى،يكتب الغاياتى تحت عنوان «الى الأمام ٠ الى الاصلاح»(١) يطالب الحكومة ـ بعد خروجها منتصرة من معركة الانتخابات الحامية ـ أن تقتحم معارك أخرى اجتماعية فى الداخل ، بعد أن اكتفت الوزارة السابقة بالكلام الفارغ ، والطلاء الخداع ، حتى أن الرأى العام سئم من تلك الاساليب العقيمة فى السياسة والحكم ، ومن سياسة الالفاظ والوعود ، ومن السياسة الحزبية الممقوتة ، والزعامة المرذولة ٠

ثم يقول : « ان هذا الشعب الكريم المطيع المسرح ، هو مع الأسف شعب تعس لم ينله شىء من السعادة التى يتمتع بها غيره من الشعوب ، وقد تعاقبت الحكومات وتوالت العهود ، وهو هو على مانرى وما نعلم ، ومالا نرى وما نعلم ٠٠

ولى عهد وأتى عهد
والشعب يقيم على نكد

---

(٦) جريدة « السياسة » ، فى ٤ ابريل سنة ١٩٣٨ .

يشـــقى فـى الحاضـــر والماضى
ويكـــاد يـــذوب مـــن الكمـــد

فالعامل ، والفلاح ، والجاهـل ، والعاطـل ، والشـــيب ، والشبان ، الذين ضاقت بهم السبل ، وأقعدهـم المرض ، واستولى عليهم البؤس ، وكاد يفنيهم اليأس ، لينتظرون اليوم من رجال الحكم عناية بهم وعطفا عليهم،وحلا سريعا لمسائلهم ، حتى يضىء المستقبل لهم ، وتبتسم لهم شمس الحياة قليلا ·· » ثم قال : « فالى الأمام ! الى الاصلاح ! الى تشييد بناء الغد على أساس العدل الاجتماعى ، والسياسة القومية ، والاتحاد المقدس » ·

وبعنوان « مصر المتحدة »(٧) ، وعن طوفان التقاليد الغربية التى دخلت الى القومية المصرية ، وأن الحزبية من ذلك الطوفان الخطير ، يقول الغاياتى ، بأن تأثير ذلك سوف يكون فى جعل مصر أمة ضعيفة ، ووطنا هزيلا مهزوما ، أصاب خطبه كل بنيه ، وبات لايدرى على من منهم يعتمد عند الشدائد ، وعلى من منهم تقـــع تبعة ماحل به من وهن وتفرقة وتخاذل ·

لذلك فلا امل الا بمصر المتحدة ، فهى التى تستطيع وحدها ان تبعث الى الحياة مصرا فتيه ، منتصرة سعيدة ، ينال فيها كل فريق ، بل كل فرد حظه الوافى من القوة ، والظفر والغبطة ، أما الخلاف ، واما الشقاق ، فلا يؤديان الا الى الخذلان والتلاشى وسوء المصير ، ومتى ساء المصير ـ لاقدر الله ـ فلا تغنـــى الاحزاب ، ولاتجدى الشيع ، لأن البلاء اذا نزل بالبلاد عم الجميع ، وأهلـك الجميع ، وعندئذ يندم الجميع ·

---

(٧) جريدة « السياسة » ، فى ٥ ابريـل سـنة ١٩٣٨ ·

ثم يضع الغاياتى مزيدا من النقاط فوق الحروف . فيقول : « لست بقائل انه يجب على الأمة أن تفكر برأس واحد ، وعلى الآراء ألا تتشعب ، كما لا أطلب بتوحيد المنازع والمذاهب ، لأن هذا من المحال ، ولأن طبيعة الوجود تقضى بأن يكون الناس هكذا ، وخير للانسانية أن يكونوا كذلك ، ولست أيضا بقائل انه على الأمة أن تبقى صامتة جامدة أمام الذين يحاولون فيها من أبنائها ايقاظ الفتنة واثارة الشعب · لأن سلامة الوطن ، وطمأنينته وهدوءه فوق كل شيء ، فلابد اذن أن تصان من عبث العابثين ، ولا بد أن يحال بين هؤلاء وبين مايبغون لكى يستتب النظام ويستقر الأمر ، وبعد ذلك ترجع المياه الى مجاريها ، ويضرب بين الماضى الأليم والمستقبل المأمول بحجاب كثيف ، ويعمل العاملون أجمعون على رأب الصدع وتوحيد الجهود لخير هذا البلد الأمين » ·

وتحت عنوان « التعاون مع الاجانب(٨) » ، كانت مقالة الغاياتى الخامسة فى جريدة « السياسة » ، وقد كتبها بعد أن تحقق له ــ مع أسفه الشديد ــ أن البلاد لاتزال بحاجة كبيرة الى التعـــاون مع الاجانب ، فى مختلف شؤون الاقتصاد ، وضروب الاعمال والعلوم والفنون ، وان الذين يذهبون الى أوروبا من المصريين ليتعلموا أو يتكونوا ، يعود كثير منهم وهم أسوأ حالا من قبل ، ان لم يكن فى الدرس والتحصيل ، ففى الخلق والسلوك والفقر فى الوطنية ، وأن العلم اذ طغى على الاخلاق فهو لا خير فيه ، بل هو شر من الجهل ·

ثم يحذر الغاياتى من أن يكون لهذا التعاون مع الاجانب مرمى خفى لايتفق مع استقلال الوطن ، وألا تصاب الصحة الاجتماعية من جرائه بأذى ، ولا بكرامة الامة وعقائدها وتقاليدها المقدسة بسوء ،

---

(٨) جريدة « السياسة » ، فى ٦ ابريـل سـنة ١٩٣٨ .

ولا يتوانى عن المطالبة بطرد كل أجنبى يعمل لغاية استعمارية أو سياسية اجنبية ضارة ، أو حتى يحاول افساد الاخلاق أو الاخلال بالأمن والنظام ، ولكن مصر الحديثة تمديدها بالصداقة والتقدير ، لضيوفها العاملين معها لخيرهم وخيرها ، ويستشهد بكلمة باعث الوطنية الأول ، وناشر لوائها فى وادى النيل ، مصطفى كامـل باشا : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا » .

ثم يعود الغاياتى من جديد ، مطالبا باصلاح مصر داخليا ، فيكتب تحت عنوان « هيئوا الدار أولا »(٩) عن أن حال مصر « لاتسر العين ، ولاترضى النفس ، ولا تعلى من قدر هذه البلاد بين الامم الراقية » ، فمنذ ثلاثين عاما ، والبؤس والشقاء وعدم النظافـة والنظام ، كما هو ، سواء فى البيت والطريق ، أو القرية والمدينة . فاذا ماتركت مؤقتا البحث فى بؤس الفلاح ، وتعاسة العامل ، وشقاء الفقير ، ونظرت الى القاهرة عاصمة المملكة السعيدة لم تجد الا تراب متراكم وقاذورات مكدسة حتى بجوار الوزارات ، وجيوش جرارة من الرجال والنساء والاطفال المتسولين والعاطلين والمرضى والمنبوذين ، والحفاة العراة الذين يفترشون الغبراء ، ويلتحفون السماء فى الحدائق العامة ، والشـوارع الكبرى ، والميادين العامرة ، وامام الفنادق الشهيرة ، المليئة بالسياح ، مما يسىء الى اسم مصر المجيد ، ويطعنها فى سمعتها الطيبة !!

واذا كان الغاياتى يرد على دعايات الاجانب ، عندما كانوا ينشرون ذلك فى صحفهم بالخارج وكان هو مهاجرا خارج مصر ، فانه الآن بعد عودته لايجد بدا من النقد ، مطالبا بانشاء الملاجىء والمستشفيات والاصلاحيات ، وتحسين الشؤون الاجتماعية ، ونشر

---

(٩) جريدة « السياسـة » ، فى ٨ ابريـل سـنة ١٩٣٨ .

التربية والتعليم ، وتجميل القاهرة عاصمة القطر المصرى ، بل عاصمة الاسلام وبهجة الشرق ، ثم يختتم مقالته بقوله : « ألا يجب أن تهيأ الدار قبل دعوة الضيوف ؟ لتهيأ الدار اذن أولا ، ثم ليدع اليها من يدعى ثانيا ، واذا كانت السياسة الحزبية الممقوتة ، قد شغلت الدولة عن الاهتمام بكثير من المسائل الحيوية العظيمة ، فلتذهب هذه السياسة الى حيث لن تعود ، ولتقم على آثارها البالية سياسة قومية انشائية قوية ، عاملة لمصر وحدها ، ومن أجل المصلحة الوطنية دون سواها ، ألا ليت شعرى أنحن بالغون هذا الأمل ، ومدركون سريعا هذه الغاية ؟

ايهـــا النيـــل هـــل تعود ســعيدا
ويجـــود الزمـــان بالحســـنات ؟

وتعليقا على كلمات مصطفى كامل الخالدة « لو لم أكن مصريا ، لوددت أن أكون مصريا » ، يكتب الغاياتى تحت عنوان « الاعتزاز بالمصرية(١٠) » ، بأن فى ذلك لدرسا لمن شاء الدرس ، ولعبرة لمن شاء العبرة ، فالمصرى ان لم يعتز بمصريته الى أقصى حد هـان على نفسه ، وعلى قومه ، وعلى الأجنبى ، وساعد على تســرب الضعف والانحلال الى الروح الوطنى السامى السارى فى النفوس، الثاوى فى القلوب ، ومثل هذا المصرى مثل الداء ، الذى ان لم تقض عليه ، قضى عليك ، والعضو الفاسد ان لم يعالج دب فساده فى سائر الجسم فأتلفه وأهلكه .

ان المصرية ليست عارا ، بل هى شرف أى شرف لصاحبها فى الشرق والغرب ، أضف الى ذلك ان عظمة مصر القديمة ، قلما

---

(١٠) جريدة « السياسة » ، فى ١٢ ابريل سنة ١٩٣٨ .

طاولتها عظمة فى العصور الخالية ، وان مكانتها الحديثة فى العالم الاسلامى قلما دانتها مكانة ، فمن رمى المصرى واحتقره بأنه عربى أو فلاح ، يجب أن يحاسب حسابا عسيرا ، ويعاقب معاقبة شديدة ، وهو ليس منا ، وان عظم شأنه ، وكثر ذهبه ، وضخم لقبه !!

ثم يقول الغاياتى بأن جمال مصر ، وجلالها ، وعزها ، ومجدها هى نعم جلت وجل من حباها ، وهى ملك وفخر للمصرى قبل سواه يشاطره التمتع بها من أحب هذا الوطن ، وأعلى اسمه ، وذب على حماه ، وان لم يكن من صميم أهله .وكما أكد من قبل ، فاننا نرحب بالتعاون الحبى النافع مع الاجانب النافعين ، ماداموا لنا عونا على خدمة مصر ، ورقيها وسعادتها ، وما دام ماء النيل قد ألف بين القلوب ، ووحد بين العواطف ، ثم يختتم مقالته نثرا وشعرا فيقول : « فليعلم الشعب ذلك حق العلم ، وليزه بتاريخ بلاده ، وليتغن بخلودها ، ولينهض مملوءا أملا فى مستقبلها ، واثقا بنفسه. حريصا على كرامته ، ثم ليكن شعاره على الدوام « مصرى قبل كل شىء » .

أيها الشعب أفق ولى الظلا
م ولاح النور للمستبصر

فدع النوم وقف مستخبرا
هل لمصر فى الورى من خبر ؟

سائل التاريخ عنها انه
صادق الاخبار جم العبر

تلك دار سجات آثارها
بين اجلال وذكر عطر

هذه مصر وهذا ذكرها
ناطق الآيات باقى الاثر

فانهض اليـــوم ولا ترقـــب غـــدا
وادفـــع الشـــر بسيف الحـــذر
انمـــــا الآلام آمــــــال وفـــى
قـــدرة الشـــعب مـــدار القـــدر

وكانت آخر مقالات على الغاياتى فى جريدة « السياسة » ، بعنوان « سياسة مصر الخارجية » ، وقد وقعها بحروفه الأولى فقط (ع٠غ)(١١) ، وطالب فيها بأن تكون لمصر سياسة خارجية مستقلة ، تتفق مع مصالحها ، وتساعد على اعلاء شأنها فى الشرق والغرب ، فهذه السياسة هى وليدة الاستقلال ، الذى يجب أن يكون صحيحا ، لكى ينمو فى الداخل والخارج ، وهذا دور وزارة الخارجية الطبيعى، لأنها هى الآلة الفنية العلمية ، وصحيح أنها وزارة ، ولكن بمضاعفة الجهود ، تتأكد لنا شخصيتنا الدولية الاستقلالية ٠

وهو لايكتم القراء ، شعوره بالحزن والألم ، كلما رأى تقصير أولى الأمر ــ من حكومة الى حكومة ، ومن عهد الى عهد ــ فى تلك المهمة الوطنية الكبرى ، وحسبك أن ترى وزارة الخارجية ، وهى قليلة الموظفين ، والميزانية ، عن بعض المصالح الحكومية ، فضلا عن سائر الوزارات ثم يقول : « اننا لا نقول بالأسراف ولا ندعو اليه ألبتة ولكننا نوجه الانظار الى وجوب تقرير سياسة خارجية مستقلة ثابتة لمصر ، عظيمة مثلها لتستطيع أن تؤدى مهمتها الكبيرة الدقيقة الشاقة لا فى جنيف وأوروبا وأمريكا فقط،ولكن أيضا وبصفةخاصةفىالعالم العربى والشرق الاسلامى ، باعتبار ما لمصر العربية المسلمة من المكانة المكينة والزعامة المحترمة فى هذه الأقطار الشقيقة ، وبين هذه الشعوب الناهضة » ٠

***

(١١) جريدة « السياسة » ، فى ٢ مايو سنة ١٩٣٨ ٠

جريدة ((منبر الشرق))

فى عهد الوزارة النحاسية الوفدية ، تقدم على الغاياتى ، الى ادارة المطبوعات بوزارة الداخلية ، بالنموذج رقم(١) مطبوعات ، وفيه يطلب رخصة باصدار جريدة سياسية أدبية جامعة ، تسمى « منبر الشرق » على أن تصدر مرتين فى الاسبوع ، يكون هـو صاحبها ورئيس تحريرها ، وكان ذلك فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، أى بعد عودته الى مصر بحوالى أربعة شهور(١٢) .

وقم تم الاستعلام من مفتش ادارة الضبط بوزارة الداخلية فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٧ عن طالب رخصة هذه الجريدة ، فكانت الاجابة بأنه : « على الغاياتى ، رئيس تحرير صـحيفة « منبر الشرق » التى كانت تصدر بسويسرا ، وهو مصرى الجنسية ، ورعية محلية ، وعمره ٥٢ سنة أكامل الاهلية وحسن السمعة ، وقد كان أحد كتاب جرائد الحزب الوطنى فى العهد الماضى ، وقـد ترك القطر المصرى عقب صدور الحكم عليه لتأليفه واصداره كتـاب « وطنيتى » فى سنة ١٩١٠ ، وقد حضر نهائيا للاقامة فى مصر مع عائلته ، وعول على استئناف جريدته بمصر كوسيلة للتعيش(١٣) » .

---

(١٢) وزارة الداخلية ، ادارة المطبوعات ، دوسيه رقم ١١ — ٢٩٢/٢ الخاص بجريدة ((منبر الشرق)) ، مستند رقم ٣ .

(١٣) الدوسـيه السابق ، مسـتند رقم ٤ .

وقد نشرت الصحف(١٤) ، بأن الغاياتى قد تلقى خطابا من مصلحة الصحافة ، يفيده بأن الطلب الذى تقدم بـــه الى وزارة الداخلية للتصريح له باصدار جريدة « منبر الشرق » قد رفض ٠

وفى عهد وزارة محمد محمود باشا ، فى ٨ فبراير ســـنة ١٩٣٨ ، تم التصريح باصدار الجريدة باللغة العربية ، وقام بدفـع الضمان ــ لأنها سياسية ــ وقدره ١٥٠ جنيها : أحمد خليل محمد المهندس((١٥) ٠

وفى يوم الجمعة الموافق ٦ ربيع الأول سنة ١٣٥٧ ــ ٦ مايو سنة ١٩٣٨ ، صدر العدد الأول من « منبر الشرق(١٦) » ، شعارها « الشرق للشرقيين » ، وهى « جريدة مصرية مستقلة أنشئت فى جنيف عام ١٩٢٢ للدفاع عن حقوق الشرق الناهض » ، وقد كتب الغاياتى هذين البيتين على رأسها :

« باســم الكنانة واسم شعب ناهض
لا باســــم أحــزاب ولا زعمــاء »

« كل يزول وينقضــى أمـــا الحمــى
فوديعــة الآبــــاء للأبنـــــاء »

---

(١٤) جريدة « البـــلاغ » ، فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ٠

(١٥) سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح باصـدارها فى مصر ، ادارة الصحافة والمطبوعات ، بالهيئة العامة للاستعلامات ، تحت مسلسـل رقـم ٥٠٩ ٠

(١٦) كان اسم الجريدة « منبر الشرق » بخط الفنان الكبير الأسـتاذ « سيد ابراهيم » رائد الخط العربى ٠

وهذه هى افتتاحية العــدد الأول ، لمؤسس الجريدة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول : على الغاياتى :

« بسم الله الرحمن الرحيـم »

« صدر العدد الأول من هذه الجريدة ــ واســـمها بالعربية « منبر الشرق » وبالفرنسية « لاتربيون دوريان » ــ فى جنيف يوم الأحد ٥ فبراير عام ١٩٢٢ (جمادى الثانية سنة ١٣٤٠) وعاشت هناك مايقرب من ستة عشر عاما ، وكان بها فى أول عهدها بجانب القسم الفرنسى صفحة عربية كثيرة المتاعب ، كبيرة النفقات ، ثم رؤى الاكتفاء باللغة الفرنسية ، وهى لغة البلاد التى تصدر فيها ، والأوساط التى تريد مخاطبتها ، وقد نمت وترعرعت وانتشــرت فى الشرق والغرب ، وبات لها ذكر حســـن ، واسـم معروف ، وخصوصا فى مركز جمعية الامم التى عملت فيه ما استطاعت على خدمة مصر والشرق والاسلام ، ولكن الفضل الاول فى نجاحهـا لايرجع مع الأسف لا الى مصر ، ولا الى الشرق والاسلام ، بل الى مجهود صاحبها الخاص ، والى بعض المحلات التجارية بجنيف التى تفضلت فاختصتها بكثير من اعلاناتها الغالية » .

« أما المشتركون المصريون مثلا ، ونعنى منهم ذوى الأموال والألقاب ، فهم أبخل الناس بدفع قيمة الاشتراك ، ولايزال الكثيرون منهم مدينين بالكثير أو القليل لهذه الجريدة ، وربما نشرنا أسماءهم الكريمة فى فرصة أخرى لعلهم يذكرون »

« وقد صدر آخر عدد من « منبر الشرق » فى جنيف يـوم الاربعاء ٢٦ مايو عام ١٩٣٧ (١٦ ربيع الاول ســـنة ١٣٥٦) ، وصدرناه بكلمة وداع من أعماق الفؤاد لذلك البلد الكريم الجميل الذى آوانا واسعدنا أكثر من نصف العمر (من سنة ١٩١٠ الى

سنة ١٩٣٧) ، ولم يكن بالطبع هذا الوداع وداعا أيضا للصحافة والصحف ، وان كانت هنالك وعود وآمال خدعنا بها حينا من الدهر ، وكأننا كنا نشعر بقرب العودة الى دولة « صاحبة الجلالة » التى قضينا فى خدمتها ثلاثين عاما ، فأشرنا فى تلك الكلمة الى أن هذه الصحيفة ان احتجبت من شواطىء بحيرة ليمان ، فقــد تظهر يوما على ضفاف النيل ، كما أشرنا الى أننا لانخشى العودة الى النزال ، واستئناف الجهاد فى سبيل الوطن ، والى أننا دائما على أتم استعداد لخدمة مصر المحبوبة ، وتلبية ندائها المطاع » ٠

« وها نحن أولاء ، ننزل الى الميدان فرحين مستبشرين ، وهــا هوذا « منبر الشرق » يظهر فى القاهرة بعد جنيف ، وبالعربية بعد الفرنسية ، وقد أبان صاحبه فى مقالات « السياسة » المنشورة فى غير هذا المكان عن كثير مما يرمى اليه من المرامى العامة الوطنية ، وكتب على رأسه أنه جريدة مصرية مستقلة ، فهو اذن سيكون بعيدا كل البعد عن الحزبية والاحزاب ، وستكون مصر الخالدة وحدها هنا كما كانت هناك شغله الشاغل ، كما سيتابع العناية والاهتمام بشؤون العرب والشرق والاسلام ، وسيهتم كذلك بالسياسة الخارجية وجمعية الامم ، وبالمسائل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والانسانية ، وبالعلم والفن والأدب ، وغير ذلك مما يفيد القراء ، ومتى سمحت الظروف أصدرنا منه طبعة شهرية خاصة بالفرنسية لتحمل رسالة مصر الى العالم الغربى ، ولتجدد بها مابيننا وبين ذلك العالم من صلات نافعة وعهد حميد » ٠

« هذا مانريد أن نقوله باجمال فى فاتحة هذا العدد ، فليعلم اذن كل حزب وكل زعيم انهم جميعا أمامنا سواء ، وان الوطنية عندنا ليست هى الحزبية ، أو الزعامة ، أو النيابة ، أو الوزارة ، وأنه لافضل لهذا على ذاك الا بالعمل ، وان البلاد لاترضى عن

حكومة دون حكومة الا بالنتائج لا بأشخاص الحكام ، وما الاسماء الرنانة ، والالقاب الضخمة ، والجاه العريض ، والسلطان الواسع الا اعراض خادعة زائلة ، فليتقوا الله فى هذا الشعب المسكين ! ، وليعملوا بجد واخلاص على انقاذه مما يعانى من الفواجع والآلام ، قبل أن يحاسبهم حسابا عسيرا ، ويومئذ لا يجدون لهم وليا ولا نصيرا » ٠

« وما الشعب الا صارم جـاد صقله
وكـل سـيبنى منـه ما هـو صانع »

« فلا بقيت فـى جانب النيـل أمـة
اذا بقيـت فـى النيل تلك الفواجـع »

***

كما قدم الجريدة الى القراء ـ فى عددها الاول ـ « الأستاذ الجليل صاحب السعادة محمد على علوبة باشا نقيب المحامين حالا ووزير المعارف العمومية سابقا » فقال : « أقدم الى حضرات قـراء « منبر الشرق » هذه الجريدة ، وكنت فى غنى عن تقديمها لانهـا ليست حديثة العهد ، فقد كانت تصدر باللغة الفرنسية ، فى مدينة جنيف ، حيث يوجد مقر عصبة الامم ، ولكان صديقى الأستاذ الغاياتى يصدرها ، على أن ينم اسمها عن خطتها ، وهى الدفاع عن حقوق الشرق عامة ، وحقوق مصر خاصة ، والتقريب بين أمم الشرق ، حتى تحتفظ بكيانها ككتلة متجانسة وتعيش عيشة الكرامة والعزة تحت شمس الله ، وانى اذا أقدم « منبر الشرق » بعد انتقاله الى القاهرة فانى لا أرى ان أقدم الى قرائه مؤسسـه الأستاذ على الغاياتى لأنه فى غنى عن التعريف ، وأرجو الله أن يصدر عن هـذا المنبر صوت الحق الذى نعرفه دائما فى صاحبه » ٠

وكان الغاياتى يؤكد فى افتتاحيات جريدته ، كلما كانت تمر بها الاعوام وهى تصدر فى مصر ، بما أكده فى افتتاحية العـدد الأول،فتحت عنوان « من عام الى عام فى الحرب والسلم» يقول(١٧) « ان سياستنا فى الحرب والسلم هى سياسة وطنية قومية ، حرة مستقلة ، كما يبدو من خلال ما كتبناه من أول عدد الى اليوم ، ولامراء فى أن ماضينا لايسمح لنا كثيرا بقبول آراء لاتروق لنا ، وان جاءت من السماء ، اذا لم يقم الدليل على صحتها وخطئنا ، كما اننا ــ وان قبلنا تبادل الفكر احيانا ــ لانهضم بسرعة مشورة مشير أيا كان ، اذا لاح منها مايشبه الأمر أو النهى ، حتى ولو كنا فى زمن الرقابة والأحكام العرفية ، فما بالك ونحن لانزال نعيش والحمد لله فى ظل حكومة دستورية ديمقراطية ، تحترم الأمـــة ، وتقدس الحرية ؟ » ٠

ثم يرجو الغاياتى ــ بعد ذلك(١٨) أن يهيىء له الله فى المستقبل القريب الوسائل التى يستغنى بها عن نشر الاعلانات ، وما أشبهها، مما يشغل حيزا من أنهار الجريدة ، هى والقراء بحاجة اليه ، ومما قد لا يتفق أحيانا مع الكرامة أو المبدأ ، أو قد يحول دون المضى فى الرأى الى النهاية ، وهو يضع دستورا لصحيفة الرأى فى نفس الافتتاحية ، والتى كانت بعنوان « عام جديد ، وعهد قديم » : « أجل ان صحيفة الرأى يجب أن تتجرد بقدر المستطاع عن كل ماقد يعوقها ــ ان قليلا وان كثيرا ــ عن أداء رسالتها بحرية تامة ، وصراحة كاملة ، ويجب أن تستطيع البقاء ، والرواج والانتشار ، بكل مافى

---

(١٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٤٩ ، ٩ مايو سـنة ١٩٣٩ ، ص ١ ٠

(١٨) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٩١ ، ٤ فبراير سنة ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

وسعها بغير حاجة الى أية مساعدة ــ بأى شكل من الاشكال ــ من حكومة أو جماعة او فرد من الأفراد ، اللهم الا ممن يرون رأيها ، ويدينون بعقيدتها ، ويعملون مخلصين على اتساع نفوذها ، وبث مبادئها » ٠

وكبيان لابد منه مرة أخرى وتحت عنوان « صحيفة الرأى الحر » ، يكرر الغاياتى ماسطره فى ٦ مايو سنة ١٩٣٨ ، وماكرره فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٤ ، و٥ مايو سنة ١٩٤٤ ، من أن منهاج « منبر الشرق » فى أداء رسالته القومية هى : « ان الوطنية عندنا ليست هى الحزبية ، او الزعامة ، أو النيابة ، أو الوزارة ، وأنــه لافضل لهذا على ذاك ، الا بالعمل المجدى النافــع ، وان البلاد لاترضى عن حكومة دون حكومة ، الا بالنتــائج لا بأشــخاص الحكام »(١٩) ٠

وفى ذكرى مرور ٢٥ عاما على انشاء الجريدة فى جنيف ، ارسل « النحاس باشا صاحب المقام الرفيع » كلمة « لمنبر الشرق » يقول فيها(٢٠) : « أهنىء جريدة « منبر الشرق » بعيدهــا الفضى ، واثنى على مجهودها الصحفى ، واتمنى لها النجاح والتوفيق ، وانى ليسرنى أن تظل هذه الصحيفة فى كفاحها عما يعتقد مؤسسها انه الحق ، ومايرى انه الواجب لاداء رسالته حرة طليقة من كل قيد ، مجردة عن الهوى والميل ٠ ٠ فليس أجدى على الصحيفة من ان تكون حرة فى حدود القانون ، مقداما فى سبيل الحق ، صريحة فى العمل لوجه الوطن ، مترفعة عن الاسفاف فى القول ، والذبذبة

---

(١٩) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٠٥ ، فى ١٢ مايو سنة ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

(٢٠) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٩٥ ، فى ١٥ فبراير سنة ١٩٤٦ ، ص ١ ٠

فى السلوك ، وعن الانحدار فى النقد الى مستوى البذاءة والسباب ، ثم تسير بعد ذلك فى طريقها لاتحابى ولا تداجى ، تؤدى رسالتها للصالح العام دون اعتبار سواه ··· ولا شك فى أن الصحيفه التى تسير على هذه السنن سيلقى صاحبها فى طريقه الاشواك والعقبات، ولكنه يتغلب عليها بقوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، وطول المثابرة ، فاذا سارت الصحافة على هذا المنوال نهضت برسالتها ، واطمأنت الى نجاح غايتها ، وخدمة الوطن وابناءه ، واستحقت أن تكون كما يسمونها مرآة صادقة للرأى العام ··· »

***

وتعتبر الجريدة آية من آيات الصحافة ، لصمودها ، هى وصاحبها على الغاياتى ، أمام التحديات والعقبات ، المستحكمة والمتصلة ، والتى لم تنفرج يوما ، بل كانت تزداد تفجرا مع مرور الأيام والشهور والسنوات ، وأرى أن سبب ذلك استقلاليتها ، وشخصية الغاياتى نفسه ، التى أراد أن ينأى بها عن الأحزاب والزعماء والجماعات ، بينما كان المفروض أمام جريدة حديثة العهد – فى ذلك الوقت – وأمام الضيق المالى الذى كانت تعيش فيه ، أن يدفعه ذلك دفعا الى أحضان ذوى النفوذ ، وأصحاب الأموال ·

فنراها مثلا قد بدأت فى الصدور فى ثمانى صفحات ، تنخفض الى أربع فقط ، عندما يكون هناك أمر عسكرى بتحديد عدد صفحات الجرائد والمجلات(٢١) ، وهى تصدر أسبوعيا ، ولكن يمكن أن تجدها متأخرة اسبوعين كاملين ، عندما يصدر أمر عسكرى آخر باغلاق مطبعتها(٢٢) ، كما تعرضت لقرار من مراقبة

---

(٢١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٠٠ ، فى ٢٤ ابريل سنة ١٩٤٢ ، ص ١ ·

(٢٢) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ١٥٦ ، فى ١٣ يونيو سنة ١٩٤١ ، ص ١ ·

النشر بوزارة الداخلية فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٢ بوقفها لمـــدة اسبوعين ، لاقدامها على ترك فراغ أبيض كتبت فيه « للايجار » ، فى موضع مقال حذفته الرقابة ، ولم يستبدل بغيره (العدد ٢٢٥ فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٢)(٢٣) ٠

كما اضطرت لرفع الاشتراكات أكثر من مرة ، فبعد أن كان الاشتراك السنوى ٥٠ قرشا فى مصر ، و١٠٠ قرش فى الخارج ، اصبح ١٠٠ قرش فى مصر ، و ٥٠ قرشا فى الخارج(٢٤) ، وبعد ان بدات تصدر أعدادا ممتازة فى يومى الجمعة الأول من كل شهر فى ٨ صفحات (بدلا من أربعة) وبياع بعشرة مليمات(٢٥) ، جعلت العدد الممتاز بقرشين ، والعادى بعشرة مليمات (بدلا من خمسة) ، مراعاة للزيادة الكبيرة والمطردة فى أسعار الورق ، وفى بقية نفقات الطباعة ، وشدة الغلاء(٢٦) ٠

كانت ادارة الجريدة فى عمارة بحرى حرف C بميدان الخديو اسماعيل ، اما مطبعة « منبر الشرق » فكانت فى ١١ شارع منشأة المهرانى بالقاهرة ، ويحدثنا الأستاذ فتحى رضوان(٢٧) ، عن مقر الجريدة ، فيقول انها قد احتلت شقة رطبة معتمـــة نوعا ، وكانت

---

(٢٣) سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح باصدارها فى مصر ، مسلسل رقـم ٥٠٩ ٠

(٢٤) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ١٧٧ ، فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤١ ، ص ١ ٠

(٢٥) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٨٨ ، فى ١٤ يناير سنة ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

(٢٦) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٠٤ ، فى ٥ مايو سنة ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

(٢٧) فى « عصر ورجـال » ، مرجع سابق ، ص ٣١٣ - ٣١٤ ٠

أرضيتها من البلاط الذى يبعث فى الشتاء برودة قارصة تسرى فى جسم الانسان فيتثلج بها ، ولكن مع ذلك ، كانت هذه الشقة نظيفة منظمة ، فقلم الغاياتى على المحبرة فى وضع ثابت ، والمحبرة فوق المكتب الصغير فى مكان محدد ، والكرسى من المكتب على مسـافة لاتتغير ، والمكتب مرتب لاتجد فيه ورقة ، ولا حتى رماد سيجارة ، ولا تـــراب تخلــف من حــذاء الا أن يكــون من حــذاء ضيف لم يتأدب بأدب ندوة الغاياتى ، فينظف نعليه على الممسحة الموضوعة على العتبة ، وفى هذا المكتب الصغير ، أستقبل الغاياتى عددا من زعماء الشرق : عرب ومسلمين ، من الهند والغرب ، من أندونيسيا والصين ، وكان سكرتير الغاياتى الذى يعينه فى عمله ، ويفتح له بريده ، ويرد على مكالمات التليفون ، ويفتح الباب للضيوف، ويقفل الباب وراءهم هو « الغاياتى » نفسه فلم يعنه فى كل مهام الصحيفة الا شاب سودانى اسمه (ميرغنى) ، أخلص « للغاياتى »، ولكن كان أكثر عمله خارج المكتب فى تحصيل الاشتراكات وارسال البريد .

ومثلما كانت « منبر الشرق » تصدر فى جنيف ، وبها بعض الاعلانات (الحلال) من المصانع والشركات والبيوت التجارية ، فلقد رفض « الغاياتى » أثر عودته الى الوطن ، واصدار جريدته فى القاهرة ، أن يقبل اعلانات الخمور والملاهى والمراقص ودور القمار واللهو الآثم(٢٨) .

***

(٢٨) مختار الوكيل ، مرجع سابق ، ص ٣١٧ .

« الطبعـة الفرنسية »

كانت أمنية الغاياتي ـ كما ذكـر فى افتتاحية العدد الأول من « منبر الشرق » ـ أن يصدر طبعة شـهرية من جريدته باللغة الفرنسية ، لتحمل رسالة مصر الى العالم الغربى ، ولتجدد بهـا مابين مصر ، وذلك العالم من صلات نافعة وعهد حميد ٠

وظلت هذه الامنية بين ضلوع صدر الغاياتى ، ووجدانـه ، وفؤاده ، منذ عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٤٦ ، عندما بدأ يفكر عمليا لتنفيذ ذلك ، وذلك من أجل « الدفاع عن الحق والحرية والعدل ، فى وقت أخذت فيه ألسـنة الاستعمار تشـوه الحقائق وتفترى الاكاذيب ، وتسىء عمدا الى سمعة البلاد فى الداخل والخارج(٢٩) »

واستمر الغاياتى يعلن عن بدء اصدار هذه الطبعة الفرنسية فى الأعداد اللاحقة ، ثم صرح بأن هناك صعوبات تواجهه(٣٠) ، منها ماهو خاص بالتموين والحصول على الورق اللازم ، أو المطالبة بتأمين جديد ، لأن ذلك يعتبر ترخيصا باصدار جـريدة جديدة ، رافضين الضمان الشخصى ، حتى ولو كان الضامن رئيس الوزراء نفسه !! ، ويرى بأن السبب فى ذلك يرجع الى وزارة الداخلية ،

---

(٢٩) بعنوان « طبعة فرنسية » ، العدد ٣٩٨ من « منبر الشرق » ، فى ٨ مارس سنة ١٩٤٦ ، ص ١ ٠

(٣٠) بعنوان « حديث الطبعة الفرنسية » ، العدد ٤٠٨ من « منبر الشرق » ، فى ١٧ مايو سنة ١٩٤٦ ، ص ١ ٠

التى يهيمن عليها الانجليز ، بأيدى بعض كبار الموظفين المصريين ·· وعن طريق قانون المطبوعات الرجعى ، والذى هو من عمل الاحتلال ··· ثم تلك الاوامر العسكرية الاستبدادية التى لم يعد لها من مبرر بعد انقضاء الحرب والقتال ·· !!

ولذلك فقد بدأ الغاياتى ينشر أولا مايريده باللغة الفرنسية ، فى « منبر الشرق » الصادرة بالعربية ، فى صفحة بكاملها (هى صفحة ٤ الأخيرة)(٢١) ، وذلك حتى يتسنى له اصدار طبعة مستقلة بالجريدة ، كما أنه طلب معاونة الكتاب والاداريين الذين يكتبون باللغتين العربية والفرنسية ، لمساعدته فى هذا العمل الصعب ، والا اضطر آسفا الى تركه(٢٢) ، ويبدو أن الصعوبات التحريرية أيضا (بالاضافة الى المشاكل الخارجية) جعلت الغاياتى يعيد حساباته فعلا مع نفسه ، ويترك هذا العمل ذو الهدف الوطنى الخالص ، وها هو يقول(٢٣) : « لقد كانت تجربة مؤقتة ، ولكنها كانت نافعة منتجة على كل حال ، وقد مهدنا بها لاصدار الطبعة الفرنسية الكاملة المستقلة التى نحاول نشرها ، وتحول الحكومة « الوطنية » دون ما نريد ، وسنحاول أن ننفذها فى الغد القريب ، اذا كان فى العمر بقية ··· ليتحقق الأمل رغم كل أنف » ·

وكان فعلا فى العمر بقية (١٩٤٦ ــ ١٩٥٦) ولكن الأمل لم يتحقق ·!

---

(٢١) جريدة « منبر الشرق » ، الاعداد ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، فى ٧ و ١٤ و ٢١ و ٢٨ يونيو سنة ١٩٤٦ على التوالى ·

(٢٢) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٤١٢ ، فى ١٤ يونيو سنة ١٩٤٦ ، ص ١ ·

(٢٣) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٤١٥ ، فى ٥ يوليو سنة ١٩٤٦ ، ص ١ ·

« الوســام البلجيكى »

وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك ليوبولد الثالث ، ملك بلجيكا ، فانعم على صاحب جريدة « منبر الشرق » بوسام تـــاج بلجيكا من درجة فارس ، بمناسبة اشتراكه الصـــحفى فى مؤتمر مونترو بسويسرا (فى ربيع سنة ١٩٣٧) . وقد تسلم الغاياتى صباح يوم الاثنين ٦ فبراير سنة ١٩٣٩ ، هذا الوســـام الكريم ، شاكرا ، من يد صاحب السعادة وزير بلجيكا المفوض فى مصر ، وكتب الغاياتى تعليقا على ذلك قائلا(٣٤) « واذا نكان فى هذا الانعام معنـــى من معـــانى التقديـــر والتكريـــم ، فانما ذلك فى الحقيقة تقدير وتكريـــم للصـــحافة المصـــرية التى استطاعت ان تـــؤدى واجبهـــا الوطنـــى الدقيـــق فى هـــذا المؤتـــر العظيم ، مع حرصها على صلات المودة التى تربط وادى النيل بالدول الغربية ، ومعلوم ان بلجيكا دولة محايدة مسالمة كل ماترمى اليه هو المحافظة على مصالحها الاقتصادية فى مصر ، على أساس عادل من الصداقة ، وحسن التفاهم ، وتبادل المنفعة المشتركة ، فنحن من جهتنا ، لايسعنا الا أن نرحب بمثل هذا الروح النبيل النزيه ، الذى يجب أن يسود جميع علاقاتنا بسائر الحكومات والشعوب » .

---

(٣٤) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٦ ، فى ٧ فبراير سنة ١٩٣٩ ، ص ١ ،

(أهم القضايا التى أثارها)

(الوحدة العربية الاسلامية ـ قضية فلسطين)

بالاضافة الى تلك القضايا ، سواء على المستوى الخارجى والدولى لمصر ، أو على المستوى الداخلى لها ، والتى كانت مشبعة كلها بروح الاستقلالية التامة عن الاحزاب والزعماء ، وانما فقط من أجل الوطن المصرى والتى نشرها فى جريدة « السياسة » ، فان هناك قضايا أخرى ، تبناها على الغاياتى ، فى جريدة « منبر الشرق » ، ولم يكن بالطبع بمفرده ، بل كانت هناك اسماء لامعة تشاركه بالرأى وبالكلمة الحرة الشريفة ، وأسماء اخرى لمعت بعد ذلك فى دنيا الصحافة والفكر والأدب والسياسة والدين والاقتصاد ..

من هؤلاء مثلا الأساتذة الدكتور مصطفى الحفناوى ـ محمد لطفى جمعة ـ فتحى رضوان ـ محمود تيمور ـ كامل كيلانى ـ على الجارم ـ عبد المنعم الصاوى ـ عبد الحميد جودة السحار ـ خليل مطران ـ محمد فهمى عبد اللطيف ـ أحمد القليبى ـ على الجندى ـ الشيخ محمود شلتوت ـ الشيخ أحمد الشرباصى ـ الدكتور عبد الحليم محمود ـ الدكتور محمد غلاب ـ الدكتور محمد البهى ـ الدكتور مختار الوكيل ـ الدكتور محمود عزمى ـ أحمد حسين ـ الشيخ عبد المنعم النمر ـ الدكتور محمد عبد الله ماضى ـ الدكتور أحمد زكى أبو شادى ـ الشيخ حسنين محمد مخلوف ، وغيرهم وغيرهم ..

فهو أولا ينطلق من أن مصر دولة عربية اسلامية ، لكى يهاجم

فكرة أنها دولة فرعونية ، ويرد على كلام هؤلاء قائلا : « ·· ان التفكير الفرعونى ، لتفكير خاطىء ، وان روح العروبة والاسلام ، لهو روح العزة والسلام ، الذى يجب أن يسود فى المشارق والمغارب، ولا ريب انه بالوحدة العربية وحدها تتحقق تلك السـيادة التى يرجوها العرب والمسلمون أجمعون »(٣٥) ، ثم يقول فى عدد تال : « ·· ان فى مصر العربية المسلمة ، بل زعيمة العالم العربى والعالم الاسلامى ، دعاية فرعونية ، كلها تضليل وتزوير وبهتان ، يراد بها اضعاف الفكرة العربية الاسلامية ، وفصل الكنانة عن وحـدة الضاد والقرآن ·· »(٣٦)

ثم نراه يؤكد دائما ـ بعد ذلك ـ على قضية الوحدة العربية ، ومعها الوحدة الاسـلامية ، فتحت عنوان « الـولايات المتحدة العربية(٣٧) ، يرى بأن هذه الفكرة يجب أن تتحقق فقد طال الأمد عليها ، وكثر الكلام بشأنها ، وانقضت حرب ، واقبلت حرب ، وهى جامدة فى مكانها ، لاتكاد تتقدم خطوة الى الامام ··· ، ثـم يؤكد مرة أخرى ، « بأن ثمانين مليونا من العرب فى آسيا وافريقيا يتوقون بدون شك الى جمع شملهم ، واحياء دولتهم(٣٨) » ، واذا كانت الوحدة العربية حلما لذيذا ، فان الغاياتى يرى بأن لذته يجب ألا تنسينا حلما آخر ألذ وأعذب ، ألا وهو « الجامعة الاسلامية »

---

(٣٥) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ١٧١ ، فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٤١ ، ص ١ ، تحت عنوان « الوحدة العربية » .

(٣٦) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ١٧٢ ، فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٤١ ، ص ١ ، تحت عنوان « التفكير الفرعونى والوحدة العربية » .

(٣٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٣١ ، فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، ص ١ .

(٣٨) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٤٨ ، فى ٩ ابريل سنة ١٩٤٣ ، ص ١ ، تحت عنوان « قضية العروبة والعرب » .

التى جاء بها الاسلام ، فجعل أبناءه جميعا ، اخوة ، لافضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، كما قال جل شأنه فى كتـــابه المجيد : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، ويحبذ أن تتحقق هذه الفكرة مبدئيا فى مكة المكرمة ، فتتألف هناك هيئة من جميع الامم الاســـلامية ، مهمتها رعاية الاماكن المقدسة ، والاشراف على الحج ، والاتصال بالحجاج وبأوطانهم ، ونشر السلام والطمأنينة والرخاء والاخاء بينهم ، منعا لكل مايفرق المسلمين ، وسعيا وراء كل مايؤلف قلوبهم ويجمع كلمتهم(٣٩) .

وعندما بدأت الاجتماعات التمهيدية لانشاء « جامعة الدول العربية» ، يكتب الغاياتى تحت العنوان السابق قائلا(٤٠) : «٠٠ ومما لاريب فيه أن تأسيس هذه الجامعة فى الوقت الحاضر عمل تاريخى ضخم ، قد يؤدى ـ اذا احسن استغلاله ـ الى نتائج باهرة لخير العروبة والعرب ٠٠٠ واننا واثقون كل الثقة ، بأن الاساس الذى ستقوم عليه هذه الجامعة ، أساس صالح ، لبناء مستقبل سعيد للأمة العربية كلها ، وبأن العرب يستطيعون بهذه الاداة تحقيق مايصبون اليه من أهداف عظيمة » .

ثم يعود مرة أخرى الى الوحدة الاســـلامية ، فيقول تحت عنوان « العروبة والعرب »(٤١) : « ٠٠٠ ومن العجيب ان الحال وصل بالمسلمين الى حد انهم كانوا يخشون أن يقولوا انهم مسلمون ،

---

(٣٩) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٨٩ ، فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٤ ، ص ١ .

(٤٠) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٢٨ ، فى ٢٣ مارس سنة ١٩٤٥ ، ص ١ .

(٤١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٢٠ ، فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٥ ، ص ١ .

ومن هنا ظهر اسم خاص لكل فريق منهم ، كالترك ، والمصريين ، والعرب ، وغيرهم ... ، واختفى اسم الاسلام ، بل اختفى أيضا أسم الشرق فى بعض الحالات ، وأصبح المجددون المغرورون من الشرقيين يتمسحون بالغرب والغربيين ، ويزعمون انهم منهم ، ان لم يكن فى الجنس ، ففى الثقافة والمدنية ... فليت شعرى ، هل ادركنا قيمة بلادنا ، وفهمنا قيمة الاســـلام ، الذى ندين به ونعتز باعتناقه ؟ اننا يوم ندرك ذلك حق الادراك ، ونفهمه حق الفهم ، يكون لنا فى الحياة شأن آخر ، هو خير بألف مرة مما نحن عليـه الآن » .

وتعليقا على مؤتمر الشعوب الأسيوية الافريقية ، المنعقد فى باندونج بأندونيسيا (فى ١٨ ابريل ســـنة ١٩٥٥) ، ومايرجوه الغاياتى منه كواحد من المسلمين ، يقـــول تحت عنوان « مؤتمر ومؤتمر »(٤٢) .. وان لنا لمؤتمرا عالميا آخر نوجه النظر اليه ، ونؤمل من ورائه ــ لو عرف المسلمون ــ خيرا أعم وأكبر ، ذلك هو مؤتمر الحج الذى دعا اليه القرآن ، وأعده الرحمن لعباده كل عام ، وقد اقترب موعده ، وأذن المؤذن بوجوب انعقاده ، فهل نلبى النداء ، ونجيب داعى السماء ؟ وهل يفهم الذاهبون اليه أسراره ويفيدون ويستفيدون من معانيه ومراميه ؟

ومنطلقا من وحدة القضايا المصرية مع القضـــايا العربية والاسلامية ، يتعرض على الغاياتى فى كتاباته لأكثر من مرة ، مع قضية الشعب الفلسطينى ، واسرائيل ، فتحت عنوان « العـرب امام الصهيونية »(٤٣) يطالب أولا قبل كل شىء بالتميز بين اليهود

---

(٤٢) جريدة « **منبر الشرق** » ، العدد ٨٢٦ ، فى ٢٢ أبريل سنة ١٩٥٥ ، ص ١ .

(٤٣) جريدة « **منبر الشرق** » ، العدد ٢٩٦ ، فى ١٠ مارس سنة ١٩٤٤ ، ص ١

الفلسطينيين القدماء ، وبين غيرهم من اللاجئين والمهاجرين التابعين لجماعة الصهيونية ، كما يجب التمييز كذلك بين مسألة اليهود المضطهدين فى بعض البلاد الاوربية ، وبين مسألة الصهيونية فى فلسطين ، لأن العرب لايضمرون شرا لاخوانهم من السكان الاصليين ولا يقرون أحدا على اضطهاد أحد بسبب الجنس أو الرأى أو الدين ، وهم يعطفون على اليهود المضطهدين ، ويأسفون لما حل بهم ، ولكن هذا شىء ، والصهيونية ـ التى تحاول أن تجعل من وطنهم العربى وطنا قوميا لايلبث اذا استمرت ابواب الهجرة مفتوحة أن يصبح دولة يهودية فى قلب الدولة العربية ـ شىء آخر بالمرة ، يقف العرب جميعا بازائه موقفا واحدا لايتغير : هو موقف الاستنكار والمعارضة ، ثم المقاومة بالقوة ، ان دعت الحال ٠

ولذلك فأنت تراه يعرب عن اعجابه وتقديره للسيد محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر ، الذى لايدخر جهدا فى سبيل هذه القضية ـ وكان قد أصدر كتابا عن ذلك ـ ثم يقول تحت عنوان « حقائق قضية فلسطين »(٤٤) : « ولايسع العربى المؤمن الا أن يشمر عن ساعد الجد ، ويواصل الجهاد بكل مايستطيع من أجل فلسطين وحريتها ، وعودتها الى احضان العروبة والاسلام » ، ثم تراه ثانية يكتب تحت عنوان « يجب زوال اسرائيل »(٤٥) ، يؤيد الفتوى الخطيرة التى أصدرتها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، والتى تحرم فيها الصلح مع اسرائيل ، والتحالف مع حماتها ، وأنها اوجبت على المسلمين جميعا التعاون لاسترداد فلسطين ، وتزويد المجاهدين بالسلاح لبلوغ هذه الغاية ٠

---

(٤٤) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨١٥ ، فى ٢١ يناير سنة ١٩٥٥ ، ص ١ ٠

(٤٥) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٥٨ ، فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٦ ، ص ٢

(على هامش الحج)

أعلن الغاياتى لقرائه بأنه سوف يلبى دعوة الله الى حج بيته الحرام ، وأنه سيسافر « الى الله ورسوله »(٤٦) ، لأداء تلك الفريضة المقدسة ، وقد سافر فعلا فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، وبعد عودته الى مصر ، بدأ فى نشر مجموعة من المقالات والآراء التى تتسم بالجرأة ، والنقد البناء ، لما كان يحدث للحجاج ، فى السعودية ، فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود ، وقد بدأ فى هذه المقالات ، والتى كانت تحت عنوان « على هامش الحج »(٤٧) ، فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

وقد طالب الغاياتى ، فى تلك السلسلة الصحفية ، أن تكون الاماكن المقدسة فى الحجاز لجميع المسلمين ، لايمتاز فيها منهم فريق دون فريق ، ويجب أن تدير شؤون تلك الاماكن هيئة دولية اسلامية الى أن يعود للاسلام سلطانه ومجده ، فى ظل خلافة قوية ، وخليفة رشيد ، وماذلك على الله بعزيز ، كما كتب تحقيقا صريحا صادقا عن حالة البلاد المقدسة ، وعما يلاقيه الحجاج من متاعب وسوء معاملة للاهمال الشديد الذى تغرق فيه الأماكن التى يؤدى فيها الحجاج فرائضهم ، ولما يتعرضون له من استغلال فاحش ، واهانات بالغة ،

---

(٤٦) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٤٢٧ ، فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، ص ١

(٤٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٤٣٠ ، فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، ص ١

وقد اعترف الغاياتي بأنه قد رفض مقابلة الملك السعودي ، وأسرع بالسفر الى المدينة المنورة ، بعد انتهاء مناسك الحج ، وقد قامت احدى دور النشر ، بطبع هذ هالمقالات ، تحت نفس العنوان (على هامش الحج) ، وقد كتب الغاياتي مقدمته لهذا الكتيب (الذى يقع فى ٢٨ صفحة) فى فجر الأحد ٣٠ ربيع الثانى سنة ١٣٦٦ ، ٢٣ مارس سنة ١٩٤٧ ، وفيها يقول(٤٨) :

« أحمد الله وأشكره ، وأتوب اليه واستغفره ، وأسأله الهداية والتوفيق الى أقوم طريق ، وأصلى وأسلم على نبيه ومصطفاه محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه الأكرمين ، ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين ٠

أما بعد ، فهذه كلمات وجيزة ، بل اشـــارات عابرة لبعض ماهنالك ، سطرتها عقب العودة مباشرة من الأراضى المقدسة فى أحد عشر عددا من « منبر الشرق » لتكون حافزة الى شدة الاهتمام وسرعة الاصلاح ، ولاغرو فهى شؤون تثير الشجون ، وتدعـــو الى الاهتمام والاصلاح بلا تردد ولا ابطاء ٠

لقد أريد وأنا بمكة أن أتشرف بمقابلة ملكية خاصة ، فاعتذرت وعجلت بالرحيل الى المدينة المنورة ، وأريد بعد ايابى الى مصر ، أن أكتفى بكتابة تقرير الى أولى الأمر ، فاعتذرت أيضا ، ونشرت مانشرت على ملأ المسلمين ، لأنه يهم جميع المســـلمين ، ولأن سياسة السكوت والاسكات المتبعة هناك ، اثمها عندى أكبر من

---

(٤٨) على الغاياتى ، **على هامش الحج** ، ط (٢) (القاهرة ، دار النشر للجميع ، مايو ١٩٦٣) ص ٣ ، وهى الطبعة المحفوظة فى دار الكتب العامـة بالقـاهرة .

نفعها ، والرضا بها جريمة لاتغتفر ، فى حق الاسلام وأهل الاسلام ، وفق الله العاملين ، وحقق أمل الآملين » ٠

وقد نظم الغاياتى قصائد دينية ، جميلة ومؤثرة ، عندما كان يزور هذه الاماكن المقدسة ، فى مكة المشرفة ، أو المدينة المنورة ، فيقول تحت عنوان « فى الروضة الشريفة »(٤٩) ٠

أنا عاشـــــق لمحمــــد	ولآلـــــــه ولصحـــبه
وأحـب مـا فـى العيش عنـ	ـدى سـاعة فـى قربـه
سـر الوجـود هـو الحبيـ	ـب وقلبـه مـن قلبـه
نـور علـى نـور تجلـى	مـن سـماء محبـه
فاخشـــع أمـام بهـائه	فبهـاؤه مـن ربـه
لبيتـه لما دعـــا	واذا دعـــاك قلبـه
فـهو البشـــير لقومـــه	وهـو الشـفيع لحـزبه
البـر مـن آياتـــه	وهـدى الورى من دأبـه
هـو رحمـة للكـون طـرا	شـرقه أو غـربه
انـى وقفـت ببابـه	والظهـر نـاء بذنبـه
ناديـــته مستشفعا	فقضـى لبانـة صـبه
ورجــوت عـز المسلمين	بهـديه ويطبـه
فدعـا معـى ملـك الملـو	ك لهـم ، اذا اعتصموا بـه
أحيـا بـه فـاذا انقضـى	عمـرى انقضـى فـى حبـه

وفى مرة أخرى ، زار فيها الغاياتى ، المدينة المنورة ، يقول

---

(٤٩) على الغاياتى ، على هامش الحج ، المصدر السبق ، ص ٢٧ ٠

تحت عنوان « الى حمى الرسول »(٥٠) : « اليك يارسول الله نلجأ ، والى حماك نشد الرحال ، عسى الله أن يغفر ، وعساك أن تستغفر ، وعسانا أن نروى الغلة ، ونشفى العلة بمناجاتك أيها النبى الحبيب» ثم قال : ـ

يارسـول الله انـى كلمـا
قـرب اليـوم الـذى فيـه أراك
خفق القلـب وفاضـت أدمعـى
وعرانـى ما عرانـى من هـواك
وبـدا النـور الـذى شـاهدتـه
حيـن كنـا نتناجـى فـى حمـاك
قبـس مـن نـوره سـبحانـه
مـلأ الأرجـاء اشراقا هنـاك
ليت شـعرى والـحشـا مستعر
ومـلاك الحـب مـن غير مـلاك
اعـلى حمـل الهـوى اقـوى اذا
لاحـت الروضـة لـى يوم لقـاك

***

واهتم الغاياتى فى جريدته بالتأريخ لعظماء مصر ، ورجالاتها، بدءا من مصطفى كامـل ، ومحمد فريد ، والشـيخ عبد العزيز جاويش ، والشيخ محمد عبده ... وغيرهم وغيرهم ، ممن كان

---

(٥٠) جريدة « **منبر الشرق** » ، العدد ٨٢٣ ، فى ١٨ مارس سنة ١٩٥٥ ، ص ١

لهم دور بارز فى الحركة الوطنية ، الى أن وصل الى زعيم ثورة ١٩١٩ ، سعد زغلول ، وكانت المناسبة هى رفــع الملك فاروق ، الستار عن تمثاله بالاسكندرية فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٨ ، فى الوقت الذى سيرفع فيه ، باسم جلالته أيضا ، الستار عن تمثاله فى القاهرة ، وذلك فى ذكرى مرور احدى عشر عاما على وفاته ، فتحت عنوان « ذكرى »(٥١) نشر الغاياتى قصيدته فى سعد زغلول ـ والتى نشرها فى العدد الأول من « منبر الشرق » فى جنيف ، فى ٥ فبراير سنة ١٩٢٢ والتى مطلعها :

نظمــوا فيـــك أيهـــا العلـــم

دررا قـــــيل انهـــــــا كلــم

ثم يعلق على ذلك قائلا : « ولا ريب أن مثل هذه الأبيات انما فاض بها الشعور الوطنى الذى بعثته الحوادث فى القلوب ، والذى يعتبر سعد باشا فى ذلك الحين رمزا من رموزه ، وآية من آياته ، أما اليوم فلا نرى مايدفع الناس حقا الى مثل هذه العواطف بل ان هذه العواطف نفسها ، تكاد تكون قد تلاشت ، وكل مابقى هو بمثابة ذكرى لهذه الذكرى القديمة » ٠

ويرى الغاياتى ان لسعد حسنات ، كمــا أن له ســـيئات ، والمستقبل وحده هو الذى سيبين لنا ايهما الارجح ، وليس معنى ذلك أنه لا يجدر بنا الثناء على سعد أو تعظيمه ، واكبار عمله ، خصوصا فى فجر النهضة المصرية ، أو أن سعدا لايستحق قبرا لكقبره، أو تمثالين كتمثاليه ، ولكن لايجب أن يعمينا عن الحقيقة ، وهى أنه يوجد بمصر ، غير سعد ، بل وخير من سعد ، من الابطال

---

(٥١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ١٣ ، فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٣٨ ، ص ١.

الذين يجب على الامة والحكومة تكريمهم وتخليد ذكراهم ، وفى طليعة الجميع رسول الوطنية الأول ، ونبيها الصادق الأمين : مصطفى كامل باشا ، صاحب التمثال السجين ، والقبر المهدم ٠٠٠ فهل من منصف ، وهل من مذكر ؟

(وثورة ٢٣ يوليو)

ذكرنا أنه لاتوجد أعداد « منبر الشرق » الخاصة بسنتى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ ، محفوظة فى دار الكتب بالقاهرة ، لكى نتعرف على رأى الغاياتى فى بدء قيام ثورة ٢٣ يوليو ، ولكن عندما تمت محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر بثمانى رصاصات ، وهو يخطب فى ربع مليون مواطن بالاسكندرية ، بمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء ، يكتب الغاياتى تحت عنوان « القتل السياسى » قائلا(٥٢) : انه ليس من الديـــن ، وليس من الوطنيـــة ، وليس من العقل ، وليس من الانسانية ، أن يقتل المسلم أخاه المسلم ، والمواطن أخاه المواطن ، والانســـان أخاه الانسان ، لالشىء الا لأنه يخالفـــه فى الرأى ، ويعارضه فى السياسة ٠ لا ليس القتل السياسى هو الطريق القويم لاصلاح المجتمع ، وتطهير أداة الحكم ، بل انه قد يأتى بنتائج عكسية، تضاعف ويلات البلاد ، وتزيد فى احراجها ، اضف الى ذلك أنـــه مما لاتسوغه الشرائع ، ولا تبيحه القوانين » ٠

وقد تعرض الغاياتى فى أكثر من مرة « للدستور المصـــرى الجديد » ــ والذى صدر فى يناير سنة ١٩٥٦ ــ وفى احدى هذه المرات ، وكانت تحت عنوان « الدستور والرقابة والاسلام ونظام

---

(٥٢) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٠٣ ، ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، ص ١

الحكم »(٥٣) يطالب بأن يكون الدستور الحقيقى لنا هو دستور السماء ، ففى القرآن الكريم من الاحكام والحكم الخالدة ، مايغنى الناس عن أى دستور ٠٠ لأن الاسلام هو دين الشورى الصحيحة ، وعلى أساسه يجب أن يبنى صرح الدولة ، ونظام الحكم فى الاسلام نظام ديمقراطى حقيقى ، يعيش فى ظله المسلمون وغيرهم ، فى أمن كامل واطمئنان شامل ، كما يشهد بذلك التاريخ القديم والحديث ٠

وعندما يتم رفع العلم المصرى على قاعدة قناة السويس ، ويخرج آخر جندى انجليزى من مصر « بعد أربعة وسبعين عاما » من الاحتلال ، يقول الغاياتى ٠٠٠ « نعم ٠ انها لحظة سعد بها الجيل الحاضر ، وحرم منها الآباء والاجداد ، فيجب تقديسها ، وتخليد ذكراها ، حيا الله المجاهدين الأحرار ، ورحم الشهداء الأبرار ٠٠٠ ، ان كل من عرف مقدار المصائب والويلات التى نزلت بمصر فى عهد الاحتلال البريطانى البغيض – وكل احتلال اجنبى بغيض وبغيض – لايسعه الا الاغتباط برحيل المحتلين ، وهذه نتيجة طبيعية لكل شعب مجاهد يريد الحياة حرا مستقلا(٥٤) ٠٠

وتعقيبا على تأميم شركة قناة السويس (فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ بالاسكندرية) يكتب الغاياتى مقاله الافتتاحى تحت عنوان « ليحذر الغرب »(٥٥) ، وفيه يحذر الغرب من التمادى فى الغرور

---

(٥٣) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٦٠ فى ٢٧ يناير سنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

(٥٤) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٨٠ فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

(٥٥) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٨٥ فى ٣ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

والشطط ، فان الشعوب لم تعد ترهبها كثيرا مظاهر القوة المادية . لأن لها غاية فوق المادة ، وخير للغرب أن يبقى على صلة سليمة بالشرق ، من أن تنقطع هذه الصلة دفعة واحدة فتكون الطامـــة الكبرى على الشرق والغرب معا (وكان ذلك قبل العدوان الثلاثـــى بأسابيع) ٠

وقد كان آخر مقال افتتاحى فى جريدة « منبر الشرق » لعلى الغاياتى ، أيضا مرتبطا بثورة ٢٣ يوليو ، وسف نورد نصه ، عند الحديث عن وفاة الغاياتى الى رحمة الله ، وقد نشرت دار النشر للجميع أيضا ، ذكريات الغاياتى فى ذلك بعنوان « فجر الثورة » . ولكنه غير محفوظ فى دار الكتب ٠

***

« وطنيتى » مرة أخرى ..

أعاد على الغاياتى ، طبع ديوانه « وطنيتى » ، بعد عودته الى مصر نهائيا ، طبعتين ، الأولى سنة ١٩٣٨ ، وكانت فى مطبعة عطايا بباب الخلق بمصر ، وثمنها عشرة قروش ، وكانت ترسل هدية مجانا ، الى كل مشترك جديد فى جريدة « منبر الشرق »(٥٦) ، أما الطبعة الثانية « لوطنيتى » بعد عودة صاحبها من جنيف . فكانت سنة ١٩٤٧ ، فى مطبعة جريدته .

وقد قدم الغاياتى ، أولى هذه الطبعات بالمقدمة التالية(٥٧) : ـ

(بعد ثمانية وعشرين عاما)

« أصدرت هذا الكتاب فى منتصف عام ١٩١٠ ، وقد صودر اذ داك وحوكمت من أجله ، وحكم على غيابيا بالحبس سنة . ولكنى فررت سرا من مصر ، وطنى المفدى ، قبيل المحاكمة ، ويممت الآستانة حيث أقمت خمسة أشهر ، ثم سافرت الى جنيف ، وبقيت بها زهاء سبعة وعشرين عاما ، وأخيرا عدت الى بلدى المحبوب ، وسابين هذه الحوادث بالتفصيل فى مقدمة الجزء الثانى من « وطنيتى » الذى سأنشره قريبا ان شاء الله » .

---

(٥٦) جريدة « منبر الشرق » ، العدد الأول فى ٦ مايو سنة ١٩٣٨ ، ص ٧ .

(٥٧) على الغاياتى ، « وطنيتى » ، ط (٢) (القاهرة ، مطبعة عطايا ، ١٩٣٨) ص ٣ .

« رأيت بعد هذه المدة الطويلة ، وقد سقط الحكم على وتبدلت الاحوال السياسية فى وادى النيل السعيد ، ان أعيد طبع هذا المؤلف، الذى غير مجرى حياتى كل التغيير ، ويسرنى أن يتم لى ذلك يوم الذكرى الثلاثين . لوفاة رسول الوطنية الصادق الأمين المرحوم مصطفى كامل باشا ، الذى فاض كتابى بذكره الطيب ، واسمه الخالد المجيد ، ومن حسن الاتفاق ان يكون هذا اليوم أيضا يوم عيد الأضحى المبارك ، ويوم عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح المحبوب فاروق الأول حفظه الله » ٠

(المؤلف)

القاهرة فى يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ١٣٥٦

١١ فبراير سنة ١٩٣٨

* * *

اما مقدمة الطبعة الثالثة من « وطنيتى » كما كتبها الغاياتى فكانت تحت عنوان :

بيـــان (٥٨)

« ظهرت الطبعة الأولى من « وطنيتى » فى الأسبوع الاخير من شهر يونيو سنة ١٩١٠ ، وقد اقام هذا الديوان دنيا الاحتلال واقعدها ، ولم يكن يصدر حتى صودر ، وهاجر صاحبه سرا من مصر فى ٦ يوليو ، فحوكم غيابيا ، وحكم عليه فى ٦ اغســطس بالحبس سنة ، كما حكم على المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر ، لانه كتب للديوان مقدمة قرظه فيها ، ولمثل هذا السبب ، حوكم كذلك المرحوم محمد بك فريد ، بعد عودته من اوربا ، وحكم عليه فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر ».

« وكان المؤلف قد يمم شطر الاستانة ، حيث اقام خمســة شهور الا قليلا ، ثم سافر الى سويسرا ، وبقى فى جنيف زهاء سبعة وعشرين عاما ، أسس فى خلالها اسرته سنة ١٩١٢ ، وجريدته « منبر الشرق » أو «La Tribune d'Orient» سنة ١٩٢٢ ، وعاوده الحنين والرجاء ، فعاد الى وطنه المحبوب فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٧ ، وأعاد طبع « وطنيتى » فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٨ تحت سمع الحكومة وبصرها ، بعد أن سقط الحكم ، وتبدلت الأحوال » .

« وجاءت الحرب الماضية ، واستمرت نحو أربع سنوات لـم

---

(٥٨) على الغاياتى « وطنيتى » ، ط (٣) (القـاهرة ، مطبعة منبر الشرق ، ١٩٤٧) ص ٣ ، ٤ .

يتخذ فيها أى اجراء ضد ذلك الكتاب ، الذى يعتبر بحق سـجلا تاريخيا للحركة الوطنية فى فترة قصيرة من الزمن الخالى ، ولكن « الحليفة » الماكرة الغادرة شعرت فجأة بأن فى نشره ورحى القتال دائرة دعاية سيئة لها فما كان من القلم السياسى المصرى ، الا أن أوفد بعض ضباطه فى صباح السبت ١٧ يونيه سنة ١٩٤٣ الى المؤلف للبحث عن « وطنيتى » عنده فلما لم يجدوها لديه ، أخذوا عليه تعهدا كتابيا بألا يطبعها أو يوزعها مادامت الحرب قائمة » ..

« وبذلك تكون « وطنيتى » قد طبعت مرتين ، وصودرت أيضا مرتين !! » .

« وهاهى ذى طبعة ثالثة أراد الله لها ان تظهر ، والبلاد من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال تطالب بالوحدة والجلاء . ومن حسن الاتفاق ان يكون ظهورها كظهور الطبعة الثانية فى أيام ذكرى وفاة المغفور له مصطفى كامل باشا ، الذى فاض الديوان بآيات ذكره العطر المجيد » .

« أما الجزء الثانى من « وطنيتى » ، وهو « هجرتى » ـ فلا يزال الأمل كبيرا فى جمعه وطبعه قريبا باذن الله العلى القدير ، انه نعم المولى ونعم النصير » .

(المؤلف)

القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الاول سنة ١٣٦٦

١٠ فبراير سنة ١٩٤٧

***

وسنلاحظ على آخر مقدمة للديوان انها لا تتضمن ذكرا للملك السابق فاروق ، مع العلم بأنها صدرت يوم مولده ـ كالطبعة الثانية

ـ ولكن شتان ما بين سنة ١٩٣٨ حيث كانت الآمال معقودة كلها على ذلك الملك الشاب لاصلاح حال مصر ، وتقدمها وازدهارها ، ولكن فى سنة ١٩٤٧ ، كانت الأحوال قد تغيرت بمصر الى الأسوأ ، ولذلك لم يشر الغاياتى الى ذكرى مولده ، فى نفس الوقت الذى ذكر فيه بالتمجيد والخلود ، باعث الوطنية الزعيم مصطفى كامل ، واذا كانت الطبعة الثانية لديوان الغاياتى ـ سنة ١٩٣٨ ـ قد صودرت سنة ١٩٤٣ ، كما صودرت الطبعة الأولى ـ سنة ١٩١٠ ـ فان الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٧ ، لم تصادر ، وهكذا شأن الكلمة الحرة الشريفة ، والعمل المخلص البناء ، لصالح الشعب والوطن ، فانه باق ما بقيت الحياة ٠

وأخيرا ، فلقد رحل الغاياتى الى رحاب الله ، قبل أن يحقق أمنيته ، والتى ذكرها فى أكثر من موضع ، وهى أن يطبع الجزء الثانى من « وطنيتى » ويكون تحت عنوان « هجرتى » ٠

***

(فى انتخابات المجلس النيابى)

كانت البداية تحت عنوان (؟) ـ أى علامة استفهام ـ فى نهاية عام ١٩٤٤ ، وكان السؤال هو(٥٩) : هل يرشح صاحب « منبر الشرق » نفسه وطنيا مستقلا فى الانتخابات المقبلة ؟ وهل تؤيده الاحزاب السياسية ، أم يكفيه الدعاء الصالح من حزب مصر الفتاة ، أو من جماعة الاخوان المسلمين ؟

وكانت اجابة على الغاياتى ، فى العدد التالى مباشرة بقوله « توكلت على الله ! »(٦٠) ، حيث يقرر بأنه تقدم فعلا الى الانتخابات النيابية عن دائرة عابدين بالقاهرة ، وقد شجعه فعلا ـ لاقولا ـ أعضاء مصر الفتاة والاخوان المسلمون ، ومن نحا نحوهم من أنصار المبادىء السامية ، والمثل العليا ، والاخلاق القويمة ، ويقول بأن هذا النبأ قوبل عند بعض الجهات الرسمية بالترحيب والارتياح . والدعاء الصالح ، والحمد لله .. ولكن أيكفى ذلك وحده لخوض المعركة ، المتفائلون يقولون : يكفى والمتشائمون يرون أنه لابد من معاضدة الحكومة أو الاحزاب ، ولابد مع ذلك من الانفاق عن سعة ، أما أنا ـ الغاياتى ـ فأفوض أمرى الى الله ، ومدام سبحانه وتعالى

---

(٥٩) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٢٨ ، ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ .

(٦٠) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٢٩ ، ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ .

هو الذى وجهنى هذه الوجهة مابين عشية وضحاها ، فهولى الولى النصير ، وهو حسبى ونعم الوكيل ٠

وقد اختار الغاياتى دائرة عابدين ، لأنه قبل هجرته من مصر سنة ١٩١٠ ، وبعد عودته اليها سنة ١٩٣٧ ، أقام بها اقامة دائمة ، وقد جعل شعاره الانتخابى : « الله ، الوطن ، الملك » ، ويقول : « أجل قد ينازعنى فى هذا الحب المنازعون ، وينافسنى فى هذا الشرف المنافسون ، وقد اسقط فى الميدان قبل بلوغ الهدف ، ولكن هذا لن يثنى من عزيمتى ، أو يفت فى عضدى ، وقد وضعت النجاح والفشل فى كفة الميزان ، وان كنت عظيم الأمل ، شديد الايمان ٠٠٠ وبعد ، فانى لست بذى مال ، ولا بذى بأس وسلطان ، ولكنى ذو عقيدة ، ووطنية ، وماض طويل فى الجهاد ، لأجل مصر والعرب ، والشرق والاسلام ، ثم اننى من أنصار السلام العام ، ودعاة الاخاء الانسانى وطلاب العدل الاجتماعى ، وللدين عندى فى سموه وتسـامحه ، وتعاليمه الجليلة المكان الأول فى الحياة الخاصة والعامة ، وسأحاول ان شرفنى الناخبون بثقتهم ، مواصلة الجهاد ، وخدمة البلاد تحت قبة البرلمان ، باذن الله » ٠٠

ثم تساءل الغاياتى تحت عنوان (؟) مرة أخرى: « هل تدع الأحزاب دائرة عابدين حرة ، لصاحب « منبر الشـرق » اعترافا بالجميل ، وتقديرا للجهاد الطويل ؟ »(٦١) ولكن الاجابة كانت معروفة مقدما ، فالغاياتى أصدر جريدته مستقلا عن الاحزاب ، ولم يرتمى فى أحضانها أو أحضان زعمائها ، وعلى هذا الأساس لم تدع الاحزاب تلك الدائرة حرة ، ومع ذلك فقد أعلن صاحب « منبر الشرق » بأنه : « بعون الله وحده ماض الى النهاية فى ترشيح نفسه وطنيا مستقلا

---

(٦١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٢٣٠ ، فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

عن دائرة عابدين ، ولن يثنيه عن قصنره حول ولا طول ، أو يحول دون غايته أمر قل أو جل »(٦٢) ٠

ثم يؤكد مرة أخرى تحت عنوان « على هامش المعركة »(٦٣) ، بأنه وان كانت المعركة الانتخابية المقبلة لمجلس النواب ستكون حامية ، وان الاحزاب ومن اليهم سيتنازعون الكراسى بشدة وعنف فانه يحرص كل الحرص على استقلاله ، ويحافظ على موقفه ، بأنه وطنى مستقل الى النهاية ٠ ثم يقول : بان النيابة عن الامة ليست سلعة تباع ، ولا ضيعة تستغل ، وهى اذا كانت كذلك فى يوم ما ، فيجب من الآن الا تكون الا بالكفاءة والنزاهة والاقدام ، أما أولاد الذوات ، وأغنياء الحرب ، والانصار والمحاسيب ، وبقية السخفاء ، فليست النيابة لهم وليسوا لها ٠٠ والا فقد هزل النظام البرلمانى ، وضاعت الديمقراطية ٠٠ ثم يذكر ناخبيه فى عابدين ، بأن فى يده صحيفتان ناصعتان هما « وطنيتى » و « منبر الشرق » الأولى صدرت فى عابدين ، والثانية أيضا تصدر منها ٠٠

ولكن يبدو أن التنافس فى تلك المعركة لم يكن شريفا ، وأن الحكومة لم تراع الحياد ، كما جاء ذلك على لسان الدكتور احمد ماهر باشا رئيس الوزراء ، وأن شكاوى واحتجاجات الغاياتى لم

---

(٦٢) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٣١ ، ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

(٦٣) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٣٢ ، فى ٢٤ نوفمبر ١٩٤٤ ، ص ١ ٠

تكن ذات جدوى ، فآثر الانسحاب آسفا(٦٤) شاكرا لاخوانه الناخبين أبناء الدائرة الكرام ، الذين ألفوا الجماعات وأعدوا العدة للحملة الانتخابية ، وبدءوا فعلا فى نشر الدعاية الطيبة له(٦٥) ٠

***

(٦٤) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٣٣ ، فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ بعنوان « حياد الحكومة » .

(٦٥) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٣٤ ، فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ بعنوان « شكر الناخبين » .

((هجـرتى)) الثانيــة

يبدو أن انسحاب الغاياتى من المعركة الانتخـــابية عن دائرة عابدين ، وشـــكاواه التى لـــم يســـتمع اليهـا أحد ، ووقوفه شبه وحيد ، مستقلا عن الاحزاب والزعماء ، مطالبا بالوحدة الوطنية المصرية ، قد جعله يفكر بعد شهور قليلة فى « الهجرة الثانية » ، خاصة بعد أن وضعت الحرب العالمية الثـانية أوزارهـــا ، وكان الغاياتى يزمع الهجرة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن لماذا تلك الدولة بالذات ؟

يقول الغاياتى : »(٦٦) بأن أمريكا عالم حر جديد ، سأقابله ان شاء الله بنشاط حر جديد ٠٠ وشباب حر جديد ، ولاعبرة بالسن ، فما هى بعدد السنين ، وانما هى بقوة الروح ، وقوة الايمان ، وقوة الارادة » ، ذلك أنه بعد عودته من جنيف الى القاهرة ، وجد من بلده المحبوب نصبا وجحودا ، مقابل استقلاله فى الرأى ٠٠ كما وجد هوة عميقة بينه وبين أغلب القوم ٠٠ فلقد بقى كما هو قبل خروجه منها ٠٠ بينما هم « تقدموا » ٠٠ هذا التقدم الذى نراه فى ضلال وفساد « الطبقات العالية » ، بينما البؤس والشقاء عند السواد الأعظم من الشعب !!

***

---

(٦٦) جريدة ((منبر الشرق)) ، العدد ٣٦٧ ، فى ٣ اغسطس سنة ١٩٤٥ ، ص ١ ، بعنوان « الهجرة الثانية » .

ولكن الغاياتى لم يهاجر الى أمريكا ٠٠ بل كانت أفكارا فقط ، أعدلها العدة ، ولكنها لم تنفذ ، حتى يستمر لمصر ، رجل مخلص ووطنى صادق ، ومجاهد مستقل ، وصحفى لايتلون ، له وجـــه واحد ، وقلم واحد ، ولسان واحد ، عبر عنه يوم عاد الى مصر بعد غربة استمرت سبعا وعشرين عاما ، عندما أنشد شعرا :

« باسم الكنـــانة واسم شعب ناهض
لا باســـم أحـــزاب ولا زعمـــــاء »

* * *

(وفـــاته وآخر مقالاتـــه)

عندما داهم مرض الرحيل ، على الغاياتى ، فى شهر يوليو سنة ١٩٥٦ ، تخلف عن كتابة مقاله الافتتاحى المعتاد اسبوعين ، ثم سأل الله الشفاء ، وزوال هذا البلاء(٦٧) ، ويبدو أن الله قد حقق دعاء بطلنا الوطنى ، ليكتب آخر افتتاحية لجريدة « منبر الشرق » وكانت بعنوان :

(جمال قاهر كبرياء الغرب)(٦٨)

وفيها يقول : « لله در الرئيس جمال عبد الناصر ، فانه أول من تجرأ بشكل علنى على كبرياء الغرب ، الذى كان يعتبر الشـــرق والشرقيين من سقط المتاع ، فلا يسمع لقولهم ، ولايحسب لهـــم حسابا فى خططه وأساليبه الاستعمارية » ٠

« فضح جمال أساليب الاستعمار حتى أصبح المرء لايخشى من محاربة الغرب بهذا السلاح الجديد الفاضح ٠ وكدنا نـــرى حملة جمال على الغرب ــ وهى حملة مؤيدة بأقوى البراهين والحجج ــ تعم العالم العربى فيستيقظ من سباته ، ويكيل الصاع صاعين لكل غربى مستعمر أثيم » ٠

---

(٦٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٨٤ ، فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

(٦٨) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٨٨٧ ، فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، ص ١ ٠

« انتشرت هذه الروح المتحررة فى الشرق العربى من اقصاه الى اقصاه ، فاهتز لها الغرب خوفا ووجلا ، وأخذ يحاول ان يغير من عسفه وعجرفته ، ولكن الشرق لم يأبه له ، واراد منه الدليل على كل مايزعم انه صادق فى قوله ، وبذلك فقدت الثقة التى كان يعيش الغرب عليها ايام سلطانه وجبروته » .

« فجمال عبد الناصر هو قاهر كبرياء الغرب فى هذا العصر ، وكل من رفع رأسه فى وجه الاستعمار مدين له بالفضل الأول فى هذا السبيل » .

« وماعلى القارىء الا ان يستمع الى خطب جمال ، ويقرأ بيانات جمال . ليوقن بأنه نعمة من الله ورحمة لهذا الوطن ، الذى طال ليله ، وعم فيه الظلم والظلام » .

« فليحيى جمال ، ولتحيى مصر العزيزة ، أم كل جمال حر أبى » .

***

وبعد عشرة أيام سقط القلم ، وارتفعت روح الغاياتى الى بارئها يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، ومن العجيب ، أن الغاياتى بينما كان حيا يرزق فى دمياط سنة ١٩٠٧ ، نشرت جريدة « اللواء» فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٧ ، خبرا عن وفاة على الغاياتى ، فبادر الى تكذيب الناعى بأبيات شعرية تحت عنوان « الموت الكاذب »(٦٩) يقول فيها :

تمنى أنـــاس أن أمـــوت صـبابة
وأنـى مـن قبـــل المتمنـى ميـت

---

(٦٩) « وطنيتى » للغاياتى ، ص ١٢٨ .

ولكن آمالا تجول بخاطري
فتحيي فؤادي حينما يتفتت

فيا من أشاع الموت عني فجأة
لعمرك اني نحوه متلفت

ولو كان نحبي في يدي لقضيته
وغادرت عيشا فيه أمري مشتت

ولكن ممات المرء مثل حياته
الى الله يمحو مايشاء ويثبت

***

وقد تحرر الى الجهات المختصة فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بقرار وقف اصدار جريدة « منبر الشرق » ، وشطب اسمها من قائمة الصحف المصرح باصدارها فى مصر ، وذلك بعد وفاة صاحبها، وكأن الاخطار السابق تقديمه لاصدار الجريدة ، لم يكن(٧٠) ، وهكذا لم تتحقق أمنية أخرى للغاياتى ، عندما كتب تحت عنوان « منبر الشرق لن يموت »(٧١) يقول : « ان من أعز الامانى ألا يكون سجن أو مرض أو موت كاتب هذه السطور ، سببا من أسباب عدم ظهور هذه الجريدة » !!

***

(٧٠) سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح باصدارها فى مصر ، تحت رقم ٥٠٩ .

(٧١) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٧٩٨ ، فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ، ص ١ .

(رثاءه وملامحه الشخصية)

أسرعت الأقلام التى تعرف فضل فقيدنا الغاياتى ، فى رثاءه ، من علماء ورجال فكر وصحفيين ، وقد كانت جريدة « الاهرام » ، أول من دعا الله لأن يتغمده بواسع رحمته ورضوانه ، ذلك ان الغاياتى كان مراسلا للجريدة فى جنيف طيلة السنوات التى قضاها فيها ، كما كتب فضيلة الشيخ حسنين مخلوف ـ مفتى الديـــار المصرية الأسبق ـ والذى كان يرد على فتاوى قراء « منبر الشرق (٧٢) ـ كلمة تحت عنوان « السيد على الغاياتى » يقول فيها (٧٣) ٠

« مات أمس ، السيد على الغاياتى ، وكل حى يموت ، فرزىء بموته الاسلام أعظم رزء ، اذ فقد علما من أعلامه الخفاقة ، ولسان صدق فى الدعوة اليه ، والذياد عن حماه ، وقلما بليغا حرا ، طالما جال وصال ، فى ربوع أوروبا ومصر ، فى ارشاد المسلمين الى وجـــوب التعـــاون ، على البـــر والتقـــوى ، وتضـــافر القوى ، فى مكافحة اعدائه المستعمرين ، وفقد المسلمون عامة ، والعرب خاصة ، نصيرا قويا ثابت الجنان ، صادق اللسان ، قوى الحجة ، بليغ البيان ، فى التعبير عن خلجات صدورهم وأمانيهم ، فى الحياة والعزة والكرامة ، وفقدت الصحافة الحرة النزيهة ،

---

(٧٢) « باب الافتاء » ظهر فى جريدة « منبر الشرق » ، ابتداءا من العدد ٧٦٩ فى اول يناير سنة ١٩٥٤ ٠

(٧٣) جريدة « الأهـــرام » ، فى ٢٨ اغسطس سنة ١٩٥٦ ٠

غضوا كبيرا ، وكاتبا بليغا ، وصحافيا أبيا ، أعز الصحافة واعتز بها ، ووهب لها حياته ، وماله حتى أفناه فى سبيلها ، وكان أعـز شىء عليه « منبر الشرق » ، الذى أسسه فى أوروبا ، واستمر ينشره بمصر ، الى آخر لحظة من حياته المباركة » .

« وفقدت الوطنية الصادقة المخلصة ، زعيما من زعمائهـا الاطهار ، الذين عاصروا الزعيم مصطفى كامل ، والرئيس محمد فريد ، والمجاهد الشيخ عبد العزيز جاويش ، واضرابهم المجاهدين ، فى سبيل تحرير مصر ، من الاحتلال ، وتحطيم أغلال الاستعباد ، وعذب وشرد ، واضطهد وقاسى الآلام ، من أجل عقيدته ومبدئه ، فلم تلن له قناة ، ولم يطأطىء رأسه لعظيم » .

« ان السيد على الغاياتى ، كان أمة وحده ، فى دينه وخلقه ، ووطنيته وعفة لسانه ، وقلمه ونزاهة قصده وغايته ، وكان حكيما فيما يعالج من مختلف الأمور هـادىء الطبع ، لا تخرجه عظائم الاحداث عن طوره ، ولا تدفعه عن قصده ، صبورا جلدا ، دائبا على العمل ، لا يترفق بنفسه ، رجاء نفع الناس بمنبره الاغر ، يكتب وهو مريض ، ويقرأ وهو محموم ، ومازال ذلك دأبه حتى قضى اليوم نحبه ، ففى سبيل الله ما جاهد ، وفى سبيل الله ماضحى من نفس ومال ، أنه فى الخالدين بذكراه العطرة ، وعمله الخالد العظيم ، وجهاده المرير ، فى صمت وحزم وأناة ، انه صحيفة ناصعة ، لا أقول طواها الردى ، وانما نشرها الموت على من يعرفه ومن لايعرفه،ليقرأوا فيهاكيف يكون الجهاد والتضحية،وكيف يكون الصدق ، والوفاء لله ، وللوطن وللناس ، وليعرفوا ان العظيم لايموت حين يدفن ، وانما يحيا فى القلوب بذكراه ، ويعيش بين الاحياء مثالا يحتذى ، وأماما به يقتدى » .

« رحم الله السيد الغاياتى رحمة واسعة ، وعوض الاسلام

والمسلمين والصحافة والامة المصرية خير العوض عن فقده ، وهم أحوج مايكونون اليه ، وانا لله وانا اليه راجعون » ·

***

اما جريدة « القاهرة » المسائية ، فقد نشرت مقالة بعنوان « على الغاياتى »(٧٤) يقول كاتبها « حافظ » :

« اختار الله عشاء امس ليقبض اليه روحا شفت فى هذه الدنيا حتى لم يكن الصحاب يدرون : أهذا رجل يعيش مع البشر ، أم كان يتخذ له طريقا الى وادى الملائكة ·· ذلك هو المغفور له السيد على الغاياتى ، الذى شيع اليوم جثمانه ، من هذه الدنيا الى البرزخ الذى يفصل بينها وبين الآخرة » ·

« ولقد عاش الغاياتى سبعين عاما ، عمل فيها لآخرته كأنه فى كل يوم من أيامه سيموت غدا ، وعمل فيها للدنيا ماينفع أهل الأرض فى صلاحهم ووطنيتهم وما سلخ عنه كل مغانم هذه الدنيا !

« ان قصة الشيخ الشاب على الغاياتى ، التى هاجر بسببها من وطنه فرارا من ظلم الاستعمار فى مصر الى مجال فسيح ، يحارب فيه هذا الاستعمار — ان هذه القصة معروفة للجميع ، عاش على الغاياتى فى جنيف سبعا وعشرين سنة ، لا كما يعيش الناس ، بل كما يفعل الفدائيون ·· طبع قبل اربعين سنة فى جنيف جريدة بالعربية والفرنسية لكى يتناجى على صفحاتها الاحرار ، وكان بيته ، بيت الرجل الذى خرج من مصر بلا مال ولا نشب ، كان بيته فى جنيف بيت الأمة العربية ، كان على الغاياتى فى جنيف السويسرية ، يخدم فكرة الوحدة العربية قبل

---

(٧٤) جريدة « القاهرة » ، فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، ص ٢ ·

أربعين عاما ‥ وكان فى العاصمة السويسرية ، مضيف كل عربى وكل مصرى ، وكل مجاهد فى سبيل الحرية ، ومقاومة الاستعمار »٠

« ومنذ عشرين عاما ، وعلى أثر توقيع المعاهدة التى كانت تسمى مجازا ، معاهدة الشرف والاستقلال ، ظن الغاياتى أن مصر قد استكملت حريتها ، فانتقل الى مصر ‥ لكن جهادا جديدا مريرا كان ينتظر على الغاياتى ، فلقد تعود الغاياتى قولة الحق والشرف ، وكان الاستعمار قد قضى على كثير من عادات الحق والشـــرف فى هذه الربوع ‥ فجاع الغاياتى أياما ، لكنك اذا رأيته فى أحلك ساعات بؤسه ، رأيته عفا نزيها ، كأنه فى تواضعه ، على كل من يلقاه أمير ولقد أعاد الغاياتى فى مصر اصدار جريدة « منبـــر الشرق » وكانت صحيفة صغيرة الحجم ، لكنها نظيفة الفم ، لا يأكل صاحبها السحت الحرام ، ولو جاع الايام بعد الايام » ٠

« كان على الغاياتى رجلا مثاليا ، يمـــزج بين اداب الدين والوطنية فى سلوكه ، فأكرمه الله رغم كل مامر به من أزمات وكرمه فى كل الأوساط تكريما قل أن يناله أحد ، فكان فى مثالياته مثلا أيضا للذين يأخذهم بريق هذه الحياة الدنيا ، وبالأمس ، وقد أدى على الغاياتى رسالته ، واختاره الله الى جواره ، فغاب عنا شخص نرى أن له ذكرى لاتغيب ، ذكرى فى تاريخه ، فى مثله الصالحة ، فى نسله الذى ليس كمثله بنات أو بنين الذين رباهم خلقا وفضلا » ٠

« رحم الله الغاياتى ‥ لقد كانت عدته فى الحياة وسيلة لغايته وقد بلغ الغاياتى مساء أمس ، غاياته بالقربى من الله ، بعد أن عاش كريما بقرباه الى ضمير الوطن » ٠

***

وهناك من أراد أن يرثى الغاياتى شعرا ، كمحمد مصـــطفى

الاسلامبولى ، الذى نظم قصيدة بعنوان « الخطب الوطنى الفادح : الشيخ على الغاياتى »(٧٥) يقول فيها :ــ

خطــب اناخ على البـــلاد جليــل
او مــا رأيتــم كيف غــاض النيــل

يأيهـا النــــاعى رويــــدك أنـــه
رجــل البـــلاد وذخرهـــا المأمــول

هــو مــن علمــت طواه فــى احشائه
دهـــر بأقــدار الرجـــال يهـــول

كــان المرجـــى للخطـــوب يردهـــا
مســـلولة الأظفار حيــن تصـــول

كــان الحــريص على حقــوق بــلاده
ما خـــان يومـــا عهدهـــا المسئول

كان العلـــى الحـــر ما فــى قولــه
ضــعف ولا فــى رأيـــه تبديـــل

جـــم الفضـــائل نـــزعه متتابــع
لبنــى البـــلاد وخيـــره موصــول

تــدعوه أمتـــه فيصـــلح أمــرها
ويقــيم ركــن الحــق حيــن يمـــيل

ويكافـــح الاهـــوال فــى طغيانهـــا
فيصير رعبـــا جيشـــها المخـــذول

---

(٧٥) جريدة « الشعب » ، العدد ٨٥ ، فى ٢٩ اغسطس سنة ١٩٥٦ ، ص ١١ .

مهـلا علی ، أفهـل رضيت بفرقة ؟
فيهـا لقومـك لوعـــة وغليـــل

لمـا حللت ديـار من سـكن الثـری
أيقنت أن مـــدی الفـــراق طـــويل

لاتنســـی مصـر علی البعاد فانهـــا
حری الفؤاد كمـــا علمـــت ثكـول

اذكر فجيعتهـــا وطـول عذابهـــا
وانظر الی الايـــام كيـف تحـــول

ما فی العوالم مـن مقيــم ثـابت
لاشـــیء الا ينقضـی ويـــزول

ســبحان من يفنی ويذهـب خلقـه
ما للنفوس الـی البقـــاء ســبيل

ما أجـدر السـلوی لشـــعب لائـذ
بالصــــبر فيـك وانـــه لجميـل

لولا التجلد وهـــو خيـــر وسيلـة
ثـــارت لموتـك أنفـــس وعقـــول

حـب البلاد أســـی وحسـبك نعمة
ظـل لربـــك فی الجنـــان ظليـــل

لـك مـــا أردت من المثوبة عنـــده
وثواب من يســـدی الجزيـل جزيل

(ملامحـه الشخصـيـة)

يقول الاستاذ فتحى رضوان(٧٦) أنه تعرف بالغاياتى ـ سنة ١٩٣٨ ـ وحينئذ فقط أحس بالدهشة ، لأنه رأى مصريا قحا ، أو قل أزهريا تقيا خالصا ، لم تمح اقامته ربع قرن من الزمان بعيدا عن مصر ، فى وسط أوربى ، ومع زوجة أجنبية ، شيئا من سماته أو خصاله المصرية ، فلا هو لوى لسانه بلكنة أجنبية ، ولا هو حرص على أن يدس فى حديثه كلمة فرنسية واحدة ، ولاهو انقطع عن الاستشهاد بالشعر العربى القديم والحديث ، حينما يقضى سياق الكلام ٠

والحق أن الغاياتى كان يعتز دائما بأنه « شيخ ولا فخر »(٧٧) ، وكان يرد على الذين يهاجمونه ، بتوقيع مقالاته الافتتـــاحية فى جريدته « منبر الشرق » بـ « الشيخ على » ، وامعانا فى ذلك الفخر، كان ينشر صوره بملابس الشيوخ ـ والتى التقطت له منذ ثلاثين عاما ـ بجانب هذه المقالات ٠

كما لايذكر أصدقائه ومريدوه(٧٨) بأنهم رأوه يوما ثائرا ، ولا غاضبا ، ولا متذمرا ، ولا متجهما ، أو سمعوا منه كلمة نابية ،

---

(٧٦) فى كتابه « عصر ورجال » ، ص ٢٩٨ ٠

(٧٧) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٧٧ ، فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٩ ، ص ١ ٠

(٧٨) فتحى رضوان ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ و ٣١٥ ٠

وعلى كثرة ما اجتمعت عليه أزمات البيت والجريدة ، وهى أزمات كانت خليقة بأن تتحدى حلم الحليم ، وتفسد طبعه ، وقد كان كاتب خفيف الظل ، تسرى فى أسلوبه روح دعابة رقيقة ، قد تبدو للناس غريبة ، من رجل كان ديوانه يتفجر نارا وحمما ، وهو يتحدث عن الاحتلال وأعوان الاحتلال ، قد تبدو أغرب ، فى أدب رجل كابد من الحياة أشد ماكابده الرجال فى حياتهم العامة من وحشة الغربة، وضيق الرزق ، وتجدد الاخطار ، وخيبة الأمل فى الرجال والزمان ، وتقلب الصحب والاخوان •

من هذه الدعابات الرقيقة ، ماحدث عندما أنعم الملك السابق فاروق ، بنيشان الكمال من الدرجة الثالثة ، على أم كلثوم ، فتحدث معها الغاياتى تليفونيا ، ليهنأها بذلك ، فقالت له أم كلثوم : « انها تقرأ (منبر الشرق) بعناية لأنها « رجعية » مثل الغاياتى » ، فما كان منه الا أن شكرها على هذا التقدير ، متمنيا لها وله مزيدا من المحافظة على هذه الرجعية ، وعلى أفضل التقاليد(٧٩) •

أما ذلك الحزن العميق ، والذى تجده فى قسمات وجه الغاياتى فلأنه يكظم ألمه ، ويخفى ضيقه وبرمه بالأيام ، ولكن مايكاد يتكلم حتى ترى هذا الوجه الريفى بتقاطيعه الغليظة نوعا ، قد تكسرت جهامته الى رقة ، فاذا سمعت قهقهاته القصيرة المتوالية ، أدركت أن وجههلا يحسن التعبير عن ايمان صاحبه ، وبعده عن اليأس ، وامتلاء قلبه بالأمل ، حتى عندما فقد ابنه الوحيد ، بعد اصـــابته برصاصة طائشة فى رحلة صيد بناحية السويس ، تجده صابرا هادئا لاتدمع له عين ، ولاتصدر عنه آهة ، أو حركة واحدة من حركات الألم الذى لابد أنه كان يعتصره اعتصارا !•

---

(٧٩) جريدة « **منبر الشرق** » ، العدد ٣٢٤ ، فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، ص ١ •

وكان الغاياتى ثائرا على التقاليد البالية ، مطالبا بالغاء الألقاب منذ عام ١٩٤٥(٨٠) ، فيقول : « لايحمل صاحب هذه الجريدة لقبا من ألقاب الدولة ، فهو ليس بك ولا باشا ولا صاحب عزة أو سعادة ، وهو لايرتاح لمخاطبته بماليس له ، ولا يريد أن يصبح ذا لقب لأنه يطالب بالغاء الألقاب ، لهذا يرجو بالحاح من مخاطبيه الكثيرين ان يكتفوا بذكر اسمه أو اسم صحيفتههذه مجردا من كل نعت رسمى أو غير رسمى ، ولهم جزيل الشكر ، وان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وفى أخريات أيامه ، أراد أن يصل ما انقطع ، وأن ينتهى من حيث بدأ ، فعاد الى العمامة ، وأخذ يتشدد مع زوجته السويسرية تشددا فات أوانه ، فاضطر الى الزواج من مصرية ، فأغضب ذلك بناته وأحزنهن غاية الحزن ، وقد عوض هذا المجاهد الصابر خير عوض عما لقيه من شظف الحياة ، وضيق الرزق ، فقد حقق له أمنيته ، اذ تزوجت كل بناته بمصريين نابهين موفقين ، منهم من وصل الى منصب الوزارة ، ومنهم من أفاء الله عليه رزقا عميما ، وعلما غزيرا ، وهم الاساتذة : محمد العتر ، الدكتور مصطفى الحفناوى ، الدكتور محمد البهى ، الدكتور مختار الوكيل ، محمد على ناصف ، وقد كان رجل فى مثل فقر الغاياتى وزهده ، وابتعاده عن المجتمعات ، وقلة صلاته بالناس ، خليقا بالا يوفق الى مثل هذا الحظ السعيد ، الذى يفرح به كل والد مهما كان جاهه وحظه من المال ، فبارك الله فى نسله وذريته ، وجعلهم للوطن ، مثلما جعل عميدهم « على الغاياتى » .. رائدا من رواد الحركة الوطنية ، الذين دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه ، رغم أنف المنافقين والدجالين !!

***

---

(٨٠) جريدة « منبر الشرق » ، العدد ٣٣٨ ، فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٥ ، ص ١ .

(مصـــادر الكتـــاب)

* أولا وثائق غير منشورة :

١ ـ وزارة الداخلية ، ادارة المطبوعات ، ملف جريدة « منبر الشرق » ـ رقم ١١ ـ ٢٩٢/٢ ٠

٢ ـ سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح باصدارها فى مصر (من سنة ١٩٣٦) ، والمحفوظ بادارة المطبوعات والصحافة والنشر ، الهيئة العامة للاستعلامات ٠

* ثانيا : صحف عربية :

١ ـ الجهاد ـ ٢ ـ الجوائب المصرية ـ ٣ ـ السياسة ـ ٤ ـ الشعب ٥ ـ العلم ـ ٦ ـ القاهرة ـ ٧ ـ الاهرام ـ ٨ ـ اللواء ٩ ـ المؤيد ـ ١٠ ـ منبر الشرق ٠

ثالثا : كتب عربية ومترجمة :

١ ـ ابراهيم عبده ، **تطور الصـــحافة المصرية (١٧٩٨ ـ ١٩٨١)** ط (٤) (القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٢)٠

٢ ـ ابراهيم عبده ، **جريدة الاهرام : تاريخ وفن (١٨٧٥ ـ ١٩٦٤)** (القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٤) ٠

٣ ـ أحمد شفيق باشا ، **مذكراتى فى نصف قرن** ، القســـم

الثانى من الجزء الثانى (من يناير ١٩٠٣ الى سنة ١٩١٤) (القاهرة مطبعة مصر ، ١٩٣٦) ٠

٤ ـ أحمد هيكل ، **تطور الأدب الحديث فى مصر من أوائل القرن التاسع عشر الى قيام الحرب الكبرى الثانية** ، ط (٤) (القاهرة دار المعارف ، ١٩٨٣)

٥ ـ آرثر ادوارد جولد شميت (الابن) ، **الحزب الوطنى المصرى (مصطفى كامل ـ محمد فريد)** ، ترجمة : فؤاد دوارة (القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٣)

٦ ـ أنور الجندى ، **تطور الصحافة العربية فى مصر** (القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٧) ٠

٧ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، **خمسة من شعراء الوطنية** ، ج (١) (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣)

٨ ـ عبد الرحمن الرافعى ، **مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال** : تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢ ، ط ٣ (القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٦) ٠

٩ ـ عبد الرحمن الرافعى ، **مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية** : تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨ ، ط ٤ (القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ٠

١٠ ـ عبد الرحمن الرافعى ، **محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية** : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩ ، ط ٣ (القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ٠

١١ ـ عبد الرحمن الرافعى ، **شعراء الوطنية** ، ط ١ (القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥٤) ٠

١٢ ـ عبد اللطيف حمزة ، **مستقبل الصحافة في مصر** (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٧) ٠

١٣ ـ على الغاياتى ، **وطنيتى** ، ط ١ (القاهرة ، بدون مطبعة أو دار نشر ، ١٩١٠) ٠

١٤ ـ على الغاياتى ، **وطنيتى** ، ط ٢ (القاهرة ، مطبعة عطايا ، ١٩٣٨) ٠

١٥ ـ على الغاياتى ، **وطنيتى** ، ط ٣ (القاهرة ، مطبعة منبر الشرق ، ١٩٤٧) ٠

١٦ ـ على الغاياتى ، **على هامش الحج** ، ط ٢ (القاهرة ، دار النشر للجميع ، ١٩٦٣) ٠

١٧ ـ فتحى رضوان ، **عصر ورجال** (القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٦٧) ٠

١٨ ـ فيليب دى طرازى ، **تاريخ الصحافة العربية** ، ج ٤ (بيروت ، المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٣) ٠

١٩ ـ محمود نجيب أبو الليل ، **الامانى الوطنية والمشكلات المصرية فى الصحف الفرنسية** : منذ عقد الاتفاق الودى حتى اعلان الحرب العالمية الاولى ، ط ١ (القاهرة ، مطبعة التحرير ، ١٩٥٣) ٠

٢٠ ـ يونان لبيب رزق ، **الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى** (١٨٨٢ ـ ١٩١٤) (القاهرة ، الانجلو المصرية ١٩٧٠) ٠

***

(فهرســـت)

صفحة

* * *

رقم الايداع ١٩٨٩/٤٥٩٥
الترقيم الدولى ١ ـ ٢١٧١ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

هذا الكتاب

لا أظن أن هناك ممن جاهدوا فى سبيل مصر ، وطوقوا عنقها بأياد جليلة ، واحتملوا من اجل ذلك شظف العيش ، والبعد عن الاهل ، وضيق الرزق ، من لقى ما لقيه (على الغاياتى) ، الشاعر والكاتب ، والصحفى والعالم الإسلامى ، من نفى وتشريد ، وجحود ونكران ، وهذا الكتاب يتعرض لقصة حياته ونضاله منذ مولده فى دمياط ، وعمله فى صحف الحزب الوطنى ، وإصداره ديوانه (وطنيتى) الذى قدم له الزعيم محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش ، وأدى إلى محاكمتهم وسجنهم ، بينما فر هو هاربا إلى تركيا ثم إلى سويسرا ، حيث أصدر جريدة « منبر الشرق » بالفرنسية نحو سبعة وعشرين عاما ، ثم عاد إلى مصر ليعيد إصدارها باللغة العربية جاعلا شعارها : باسم الكنانة وإسم شعب ناهض .. لا باسم أحزاب ولا زعماء .